

الكتاب في علوم الكتاب

تأليف

الإمام المفسر أبي حفص عمر بن عليّ

أبي عادل الدمشقي الحنبلي

المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض

شاركت في تحقيقه برسائله الجامعية

الدكتور محمد سعد رمضان / الدكتور محمد المتولي الدسوقي عرب

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - الآية (٣٩) من سورة البقرة

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floor.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3



9 782745 122988

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إضاءة على عصر ابن عادل

مدخل:

باديء ذي بدء أقول: من رام الاطلاع على ملامح تكوين شخصية رجل ما - وخاصة أهل العلم - فلا بد أن يلم بطبيعة بيئته وحالة عصره؛ إذ إن للبيئة تأثيراً في أفرادها.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى الناس وجعلهم أمماً وقبائل، ليتعارفوا وتكون بينهم علاقات شتى، وهذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلا مفر إذن من التأثير والتأثر بين أفراد المجتمع الواحد والمجتمعات المتعددة إذا وجدت الصلة والعلاقات المتبادلة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن وصف عصر شيخنا ابن عادل الحنبلي، فينبغي قبل الخوض في ذلك تحديد الزمن الذي عاش فيه، وليس بين يدينا تاريخ مولد هذا الإمام إلا أننا نعلم أنه توفي بعد سنة ٨٨٠ هـ، وهذا يعني - على أية حال - أن إمامنا قد ولد وعاش ومات في العصر المماليكي، وبالتحديد في فترة حكم المماليك الشراكسة أو ما يعرفون بـ «المماليك البرجية».

وقبل الدخول في وصف عصر ابن عادل نذكر مقدمة في بيان «أصل المماليك البرجية وتكوينهم»:

وقد نشأ هؤلاء المماليك في عهد السلطان المنصور قلاوون، فإنه أعلن أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، ولكي يضمن بهم بقاء السلطة في يده، ويد أنبائه من بعده، فاجتلب عدداً كبيراً منهم، وأسكنهم في أبراج القلعة، فسموا «البرجية» تمييزاً لهم عن المماليك «البحرية» الذين أقاموا في جزيرة الروضة.

وأما تسميتهم بالشراكسة أو الجراكسة فنسبة إلى بلاد الشركس، وهي بعض بلاد الكرج، على الساحل الشرقي للبحر الأسود، والكرج بين بحر قزوين والبحر الأسود.

والمماليك البرجية يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية، حيث إنهم من الشراكسة، وأما الآخرون فكان معظمهم من الخوارزمية والأتراك^(١).

وستتكمّل في الصفحات التالية عن وصف عصر المماليك البرجية من حيث:

(١) ينظر: د. أحمد شلبي: «موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» ٢٠٠/٥، ود. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي ص ١٤٠، ١٤١.

- أولاً: الحالة السياسية: بمختلف أحداثها واضطراباتاتها.
 ثانياً: الحالة الاجتماعية: بشتى نواحيها.
 ثالثاً: الحالة الاقتصادية: واضطراباتاتها.
 رابعاً: الحالة الثقافية: وتعدد مظاهرها.

أولاً: الحالة السياسية في عصر المماليك البرجية

توفي المنصور قلاوون^(١) ليخلفه ابنه الأشرف خليل، فآتم هذا بناء القوة المملوكية التي أقام دعائمها، وأسس أساسها المنصور، حتى إنه اشترى في حكمه القصير ما يقرب من ألفي مملوك جركسي^(٢).

ومن هنا أصبح المماليك البرجية على درجة عالية من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك، مما جعلهم ينظرون إلى كرسي السلطة.

ولقد كان من المتعذر على السلاطين المماليك أن يحتفظوا بالمماليك البرجية بعيدين عن الأحداث، لذا فقد سمح لهم السلطان خليل بن قلاوون^(٣) - ولأول مرة - بمغادرة أبراجهم وطباقتهم العالية، والنزول إلى القاهرة ومصر، ولكن بشرط أن يعودوا قبل الليل ليبيتوا بالقلعة.

ولقد ترتب على ذلك انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها. ومن ثم فقد أثاروا على أنفسهم حقد بقية الطوائف من المماليك الأتراك، وذلك بسبب ما أصبح فيه المماليك البرجية من نعمة ورغد، وما حظوا به عند المنصور قلاوون.

وقد جاء نتيجة ذلك دخول المماليك البرجية في حلبة الصراع الدائر في ذلك العصر. وهكذا فقد استأسد الحمل، واستنسر البغاث، فأينا المماليك البرجية - الذين جيء بهم في مبدأ الأمر لحماية وتوطيد حكم المنصور قلاوون وأبنائه - يقومون بعدد كبير من الثورات حتى ينتهي بهم الأمر إلى التربع على عرش السلطة، وأنا أورد هذه الثورات مرتبة حسب قيامهم بها:

١ - ثورتهم بالقلعة لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم الأشرف خليل، ولم تهدأ ثورتهم إلا بعد أن أعلن الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً، وذلك في سنة ٦٩٣ هـ^(٤).

(١) انظر ترجمته في: ابن دقماق: الجواهر الثمين ٩٢/٢، والمقريزي: الخطط ٢٣٨/٢، والسلوك ١/٦٦٣. وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ٧٩.

(٢) ينظر: د. سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٤٣.

(٣) انظر ترجمته في: ابن الفرات: التاريخ ٩٨/٨، وابن إياس: بدائع الزهور ٣٦٥/١، وابن دقماق: الجواهر الثمين ١٠٥/٢، والمقريزي: الخطط ٢٣٨/٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/٨.

(٤) ينظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٩/٨ - ٢٠، والذهبي: العبر ٣٨٠/٥، وابن إياس: بدائع الزهور ٣٧٨/١، وابن الفرات في التاريخ ١٧٢/٨، وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ٨٥.

٢ - ثورتهم بقيادة سنجر الشجاعي ضد كتبغا، وهزيمتهم له في بادىء الأمر، ثم انقلابهم على سنجر لما علموا أنه لا يعمل لابن أميرهم السلطان الناصر، بل يدبر لنفسه.

٣ - ثوراتهم المتكررة ضد كتبغا بسبب تشريده لهم في نواح متفرقة من القاهرة.

٤ - ولما خلع السلطان الناصر، وحلّ كتبغا مكانه، ثم لاجين من بعده، قاومهم المماليك البرجية، حتى أعاده الناصر محمد بن قلاوون.

ومن ثم فقد حظي المماليك البرجية بعناية الناصر قلاوون، حتى رأيناه يعين في سلطنته الثانية - هذه - أحد أمراء المماليك البرجية، وهو الأمير عز الدين أيبك المنصوري - في الوزارة^(١).

وفي حوادث سنة ٦٩٨ هـ قال المقرئزي: «وقويت شوكة البرجية بدار مصر، وصارت لهم الحميات الكبيرة، وتردد الناس إليهم في الأشغال، وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير^(٢) وأمر منهم عدة... وصار في قبائله الأمير سيف الدين سلاّر ومعه الصالحية والمنصورية، إلا أن البرجية أكثر وأقوى، ووقع الحسد بين الطائفتين، وصار بيبرس إذا أمر أحداً من البرجية وقفت أصحاب سلاّر، وطلبت منه أن يؤمر منهم واحداً...»^(٣).

إلا أن المماليك البرجية ساءت أحوالهم في السلطنة الثالثة للناصر قلاوون، بعد أن أحس بخطرهم، وكان قد بلغ من العمر ما مكّنه من التصدي لكبار أمراء الترك والعجراكسة معاً، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله. وكان هذا الأخير قد خلع الناصر وتسلطن مكانه، فكرهه الناس، وثاروا عليه، حتى أقاموا الناصر قلاوون مكانه.

ولكن ما زالت الأيام تخفض في سلطة المماليك البرجية وترفع فيها، حتى برز من بينهم أحد الأمراء، وهو «برقوق» بن أنص عثمانى الجركسي، الذي استطاع بعلو همته، وطموحه البالغ أن يصل إلى منصب أتابك العسكر، وذلك سنة ٧٨٠ هـ حيث كان السلطان علاء الدين علي^(٤) حاكماً وقتئذ، وسنه لم تتجاوز ست سنوات.

وقد احتال برقوق على السلطان علاء الدين ليخلعه بسبب صغر سنه، فاستدعى الخليفة والقضاة، وكبار الأمراء بقلعة الجبل^(٥)، حتى تم خلع علاء الدين، وإقامة أمير

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٠، نقلاً عن العصر المماليكي ص ١٤٧.

(٢) انظر ترجمته وأخباره في: ابن دقماق: الجواهر الثمين ٢/ ١٣٩، والمقرئزي: الخطط ٢/ ٤١٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٥، وابن إياس: بدائع الزهور ٢/ ٨٠. وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ٩٣، وما بعدها.

(٣) المقرئزي: السلوك ١/ ٨٧٥ - ٨٧٦.

(٤) ينظر أخباره في: المقرئزي: الخطط ٢/ ٢٤٠، والسلوك ٣/ ٢٨٣، وابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٢٣٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٨٨.

(٥) بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وانظر ذلك عند: المقرئزي: الخطط ٢/ ٢٠٣ - ٢٠٤.

حاجي حفيد الناصر محمد، وسنه وقتئذ إحدى عشرة سنة، وذلك سنة ٧٨٣ هـ^(١).

وسرعان ما يكمل الأمير برقوق حيلته، لينال السلطة، بعد تدبير وتحايل، ولما رأى أن الوقت حان يقفز على كرسي السلطنة بهذه الطريقة التي لا تخلو من طرافة: «... وأخيراً صعد اثنان من أعوان برقوق، وأخذوا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك، وحملوه إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة، وفي الحال استحضر الخليفة العباسي المتوكل على الله، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة، فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر»^(٢).

وكان ذلك في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وبذلك قامت دولة المماليك الجراكسة^(٣).

وسنحاول في السطور التالية التعرض بالحديث عن سلاطين الفترة التي عاصرها شيخنا ابن عادل الحنبلي، وهي تقريباً من بداية القرن التاسع الهجري، وحتى سنة ٨٨٠ هـ، ونحن ما جزمنا بهذه الفترة جزمًا أكيداً، لأننا لا ندري سنة ميلاد الإمام بالتحديد. وقد احتوت هذه الفترة على سبعة عشر سلطاناً من سلاطين المماليك البرجية؛ وأشهرهم:

١ - الناصر فرج:

وهو فرج بن برقوق بن أنص، زين الدين، تسلطن كأبيه مرتين، أولها في سنة ٨٠١ هـ، وخلع بعد سبع سنين، ثم تولى سنة ٨٠٨ هـ، ومات مقتولاً في سنة ٨١٥ هـ.

وأهم أعماله: صلحه مع تيمورلنك بعد فشله في صد هجماته عن بلاد الشام، وقد عرف هذا السلطان - فرج - بالقسوة والوحشية حتى أنه من أجل توطيد دعائم سلطنته يقتل أخويه، وقد كثرت الفتن في فترة حكمه، وبخاصة في الشام، فأعلن نائب الشام وطرابلس الثورة عليه، وزحفاً إلى مصر، فألحق به الهزيمة، وقبض عليه ليقتل شر قتله^(٤).

٢ - السلطان المؤيد شيخ المحمودي:

أقام الخليفة العباسي المستعين سلطاناً سنة ٨١٥ هـ، وهو نائب طرابلس الأمير شيخ،

(١) ينظر في ذلك: المقرئزي: الخطط ٢/٢٤٠، والسلوك ٣/٤٣٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٢٠٦/١١.

(٢) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٥٨.

(٣) ينظر: ابن دقماق: الجوهر الثمين ٢/٢٦١، والمقرئزي: الخطط ٢/٢٤١، والسلوك ٣/٤٧٧، وابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ٢/٦٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢٢١، والسخاوي الضوء اللامع ٣/١١، وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ١١٧.

(٤) ينظر: ابن حجر: إنباء الغمر ٢/٥٠٩ - ٥١١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٣/١٢٧، والمقرئزي: السلوك ٤/٢٢٣ - ٢٢٤، وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ١٢١.

الذي احتل كرسي السلطنة، وتلقب بلقب «المؤيد». وأهم أعماله: توطيد ملكه بمحاربة نائب الشام الأمير نوروز وقتله، ثم إخضاع الإمارات التركمانية لتبعيته.

وقد حكم مدة ثمان سنين^(١)، وقد خلفه ابنه أحمد الذي تسلطن، وهو طفل رضيع في سنة ٨٢٤ هـ، وكان تحت وصاية الأمير ططر، الذي لم يلبث أن انتزع لنفسه السلطنة، لكنه لم يبق فيها أكثر من ثلاثة أشهر وأيام^(٢)، حيث مات وخلفه ابنه محمد ططر تحت وصاية الأمير برسباي الذي انتزع السلطنة من محمد بعد أربعة أشهر وأيام^(٣).

٣ - الأشرف برسباي:

الدقماق، الظاهري، الجركسي، الملك الأشرف، سيف الدين، أبو النصر، تسلطن في سنة ٨٢٥ هـ، وامتد حكمه إلى ما يزيد عن ستة عشر عاماً، وكان ضخماً شهماً، عاقلاً، عارفاً^(٤)، وقد اشتهرت فترة حكمه بالاستقرار وقلة الاضطرابات برغم المعاناة الاقتصادية.

وأعظم مناقبه: فتح قبرس، وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر، وخاصة أن هذه الجزيرة كانت مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط، وتهديد تجارة المسلمين.

على أنه لا يمكن أن نتخذ الهدوء والاستقرار اللذين سادا عهد برسباي بأنهما دليل على سعادة الشعب، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكارات والضرائب، الأمر الذي جعل برسباي يموت غير مأسوف عليه سنة ٨٤١ هـ^(٥).

٤ - الظاهر جقمق:

العلائي، الظاهري - نسبة إلى معتقه الظاهر برقوق - الجركسي، الملك الظاهر سيف الدين، أبو سعيد، وقد تسلطن سنة ٨٤٢ هـ بعد عزله ليوسف بن برسباي الذي كان سنه أربعة عشر عاماً، وقد كان جقمق معتدلاً في حكمه، كما عرف بتدينه وورعه، فحرم المعاصي وشرب الخمر^(٦).

(١) ينظر: المقرئزي: السلوك ٥٠٠/٤، وابن حجر: إنباء الغمر ٢٣٧/٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠٩/١٤.

(٢) المقرئزي: الخطط ٢٤٣/٢، والسلوك ٥٨٨/٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢٠٧/١٤، وابن إياس: بدائع الزهور ٧٥/٢.

(٣) ينظر: المقرئزي: الخطط ٢٤٤/٢، والسلوك ٦٠٦/٤، وابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر: ٢٧٠/٣، وعبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ١٣٠.

(٤) عبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ١٣٢.

(٥) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ١٧٧، وينظر: المقرئزي: السلوك ١٠٥١/٤، وابن حجر: إنباء الغمر ١٦/٩، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠٦/١٤.

(٦) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ١٧٧.

وأهم أعماله: محاولاته المتكررة لغزو «رودس» والتي انتهت بالصلح مع الاستبارية في رودس، بعد أن تعهدوا بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية.

وقد قضى جقمق على ثورتين قامتتا في بداية حكمه: الأولى: قام بها الأمير قرقماس الشعباني الناصري، والثانية: قام بها أنيال الحكمي نائب دمشق.

كما قضى على ثورة العبيد السود في «الجيزة»، وفرقهم بالبيع من بلاد العثمانيين وأما السلطان جقمق فقد تنازل عند مرض موته عن السلطة لابنه عثمان الذي عزل بالسلطان رانيال. فكانت مدة حكم جقمق أربع عشرة سنة وشهور^(١).

٥ - الأشرف أنيال:

العلائي، الناصري، الجركسي، سيف الدين أبو النصر، وقد تسلطن سنة ٨٥٧ هـ والذي تولى بعده ابنه أحمد سنة ٨٦٥ هـ، ثم خلع بالظاهر خُشقدم والذي تسلطن مدة ست سنين وشهور من سنة ٨٦٥ هـ إلى سنة ٨٧٢ هـ.

ومع أن خُشقدم كان محباً للخير وحسن السيرة إلا أنه كان يغض الطرف عن فساد مماليكه، واعتدائهم على الناس^(٢).

٦ - الأشرف قايتباي:

المحمودي، الظاهري، الجركسي، الملك الأشرف، سيف الدين، أبو النصر، وهو خيار طائفة السلاطين المماليك، ومن أبرز سلاطينهم الجراكسة، حكم مدة تسعة وعشرين عاماً، وقد تسلطن سنة ٨٧٢ هـ.

وقد وصفه ابن إياس بأنه كان: «وافر العقل سديد الرأي، عارفاً بأحوال المملكة، يضع الأشياء في محلها، موصوفاً بالشجاعة، عارفاً بأنواع الفروسية...»^(٣).

«وهو الذي أنشأ برج المنار الحافل الهائل بميناء الإسكندرية، وأنشأ القبة المعظمة والمقصورة الحديد المسبك الحافلة على قبر النبي - ﷺ - ورخم مسجده - عليه السلام - وجدد عمارة الجامع الأموي بـ «دمشق» بعد حريقه...، وجدد إيوان القلعة، وأنشأ آثاراً عظاماً، ما بين مدارس وجوامع ومساجد...»^(٤).

وقد حدث في عصره فتنة هائلة هي فتنة شاه سوار ذي الغادر^(٥)، والتي انتهت بقتل سوار وإخوته، وشنقهم على باب زويلة.

(١) ينظر: المقرئزي: السلوك ١٨٦/٤، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤٥٤/١٥، وابن إياس: بدائع الزهور: ٢٩٩/٢، والسخاوي: الضوء اللامع ٧٤/٣.

(٢) ينظر: المقرئزي: خطط الشام ١٩٠/٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٠٩/١٦، وابن إياس: بدائع الزهور ٤٥٥/٢.

(٣) بدائع الزهور ٣٢٥/٣.

(٤) ينظر: عبد الباسط الحنفي: نزهة الأساطين ص ١٤٣ وما بعدها.

(٥) ينظر في ترجمته: الضوء اللامع للسخاوي: ٢٧٤/٣ وما بعدها.

وقد كثر في عهده الحروب بين المماليك والعثمانيين، والتي انتهت بعقد الصلح بين الفريقين.

وأخيراً مرض قايتباي بعد فترة حكم طويلة، ودخل سياق الوفاة، فتنازل لابنه الناصر محمد عن السلطنة، ثم توفي الأشرف قايتباي في اليوم التالي من تنازله، وذلك سنة ٩٠١ هـ^(١).

ومعنى هذا أن صاحبنا الإمام ابن عادل قد توفي في عهد السلطان قايتباي الذي قدمنا نبذة عن أعماله وأعمال سابقه ممن نظن احتمال معاصرتهم لشيخنا المترجم له.

نبذة حول الموقف في بلاد الشام خلال عصر المماليك الجراكسة:

لم تكن الشام في عصر المماليك مجرد إقليم من الأقاليم التابعة للدولة، بل كانت أهم من ذلك، فقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذي بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها، والثبات في وجه الأخطار الآسيوية الضخمة، التي هددت تلك الدولة جنباً من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين، وأحياناً من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين^(٢).

وقد حاول سلاطين المماليك السيطرة على هذا الإقليم الهام، وربطه بوحدة مع إقليمهم الأم مصر - تضمن لهم مراقبة ما يحدث فيه من منازعات تؤثر في كيانهم.

ولقد استمرت بلاد الشام - على تنابع السلاطين الجراكسة - مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التي قام بها في كثير من الأحيان المماليك أنفسهم متمثلين في بعض الأمراء الطامعين في الانفصال بالسيطرة على هذا الإقليم والانفراد به.

ومهما يكن من أمر، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساندة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقاً المساعدات القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار^(٣).

الجراكسة وديمورلنك:

لقد منى العالم الإسلامي بكثير من الكوارث والمحن وتداعي الأمم عليه، ومن ذلك ما حدث من زحف التتار الغاشم على بلاده وتحطيمه لكل ما يقابله؛ يتمثل ذلك في الزلزال الذي هز العالم الإسلامي بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

ولقد كان ديمورلنك من توابع ذلك الزلزال، وأثراً من آثاره، فقد كان تيمور يتمي إلى بيت من أشراف التتار، بنى له جيشاً عظيماً، واتخذ سمرقند مسقط رأسه قاعدة لانتشار أعماله التخريبية، ولم يلبث أن استولى على بلاد ما وراء النهر حتى زحف إلى بغداد في

(١) ينظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦/٣٩٥، وابن الغزي: الكواكب السائرة ١/٢٩٨، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٧/٨، وابن إياس: بدائع الزهور ٣/٣٣٤.

(٢) ينظر: د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٢٢٧.

(٣) السابق ص ٢٣٢.

أثناء سلطنة الظاهر برقوق الثانية، فأسقطها سنة ٧٩٣ هـ وخربها، وقتل أهلها.

ولم يقف الظاهر برقوق مكتوف الأيدي، فقد أعد العدة، ولما جاءه رسل تيمورلنك بالتهديد والوعيد قتلهم، وعقد اتفاقيات بينه وبين التركمان وبني عثمان لصد الزحف التيموري، وعين برقوق نائبه أحمد بن أويس على بغداد في أثناء غياب تيمور وذهابه إلى الهند، ولكن برقوقاً يموت بعد فترة، ويزحف التتار مرة أخرى، فيهرب ابن أويس، ويتصدى السلطان فرج بن برقوق لتيمور الذي يوقع به وبجيشه المماليكي ويهزمه، ويستولي تبعاً لذلك على أطراف الشام.

ثم يدخل تيمور دمشق فينتهبها، ويجمع ما شاء من ثرواتها ثم يخرج منها بعد ثلاثة أشهر، ولكن لم يلبث أن يموت تيمورلنك، وتعرض دولته للزوال بسبب النزاع بين ورثته، مما يؤدي إلى أن تخف حدة الخطر التتري على دولة المماليك بمصر والشام^(١).

الخلافة العباسية ودولة المماليك:

عاشت الخلافة العباسية رشحاً من الزمن تتمتع بالقوة والسيطرة على بقاع العالم الإسلامي، إلا أنها - كأى دولة - لا بد لها من شيخوخة وفترة ضعف تأتي عليها، وذلك بسبب عقارب الفتن، وانقسام الدويلات الصغيرة عنها، مما أدى إلى تحطيمها - عملياً - على صخرة التتار الجلمودية في حادث بغداد الشهير سنة ٦٥٦ هـ.

ولم تقم للخلافة قائمة بعد ذلك إلا في زمن الظاهر بيبرس الذي أحيا الخلافة مرة ثانية بعد موات، وذلك سنة ٦٥٩ هـ حيث أقام الأمير العباس أحمد ابن الظاهر ابن الناصر العباسي خليفة للمسلمين، وجعل مقره القطر المصري، ولقب الخليفة الجديد بـ «المستنصر بالله».

ولكن الأمر في حقيقته لم يتجاوز الصورية فقط، فلم يكن الخليفة العباسي إلا وسيلة لذر الرماد في عيون الطامعين، ورد كيد الطامحين في ملك مصر، والذين كانوا يطعنون في شرعية حكم المماليك.

وهكذا فقد ظل الخليفة العباسي منذ إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩ هـ وخلافته ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين^(٢).

وبالجملة فقد «كان عمر دولة المماليك الجراكسة مائة وأربعة وثلاثين عاماً، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرون سلطاناً. ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات، في حين حكم الستة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط، أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة فهم: برقوق، وفرج،

(١) ينظر: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٦٤ - ١٦٧.

(٢) ينظر: د. سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٥٥.

وشيخ، وبرسباي، وجقمق، وأنبال، وخشقدم، وقايتباي، وقانصوه الغوري...»^(١).

ولا شك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفرع، وعدم الاستقرار في البلاد...»^(٢).

ثانياً: الحالة الاجتماعية في عصر السلاطين الجراكسة

لقد عاش المماليك البرجية - كما يتضح من وصفهم - في أبراج القلعة - بادئ الأمر - مما جعلهم منعزلين عن الشعب، ثم لما نزلوا واختلطوا بالناس بقيت عزلة اللغة والجنس والمنشأ والأصل، مما جعلهم يشعرون في كثير من الحالات بالغرابة وعدم الألفة بينهم وبين الأهالي.

وقد ترتب على ذلك طبقية الشعب، وانقسامه إلى فئات متعددة، بعضها يعيش في رغد، وبعضها يعيش في ضيق وقلة عيش.

ويمكن تقسيم المجتمع في ذلك العصر إلى ثلاث طبقات رئيسية:

الأولى: السلاطين ومماليكهم:

وبالطبع فقد كان السلاطين مماليكاً، لذا نراهم قد اهتموا بمماليكهم، وعنوا بهم عناية فائقة، فنراهم يهتمون بفحص أبدانهم للتأكد من سلامتهم، ويعلمونهم فنون القتال والفروسية، حتى إذا انتهت المرحلة التعليمية، يغادر المملوك طباقه - وهو المكان المخصص لمعيشته - إلى جامكية، ويصرف له مصروف، ثم يظل يتقلب من مرتبة إلى أخرى حتى يصلوا في بعض الأحيان إلى أمراء، أو حتى يصبح الأمير «سلطاناً مختصراً» على قول القلقشندي^(٣).

وقد كانت طبقة المماليك عموماً، والسلاطين خاصة، منعمة كل التنعيم، فهم يعيشون في رغد من العيش، ويرفلون في حياة من الترف.

الثانية: العلماء أو ما يسمون بـ «المعممون»:

وقد اشتملت هذه الطبقة على أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء. وقد أحس المماليك بضرورة تمييز هذه الطبقة والتقرب منها، حيث إنها الحلقة الواصلة بين السلاطين وطوائف الشعب، لذا فقد أقر المماليك بفضلهم، حيث عن طريقهم عرف المماليك دينهم، وفي بركتهم يعيشون.

الثالثة: عامة طوائف الشعب: تجار - حرفيون - عوام - فلاحون.

(١) و (٢) د سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٥٩.

(٣) صبح الأعشى ٦٥/٤.

١ - التجار:

لقد تمتعت مصر بنشاط تجاري كبير بين الشرق والغرب في ذلك العصر، وكان ذلك سبباً في ثراء التجار وزيادة ثرواتهم، وترتب على ذلك أن السلاطين المماليك تقربوا إلى هذه الطائفة، خاصة عند الشدائد والمحن، فهم المصدر الرئيسي الذي يمدهم بما يحتاجون من مال.

وعلى هذا فقد تمتعت هذه الطبقة بامتيازات واحترام سلاطين المماليك، إلا أن كثرة الأموال في أيديهم جعلتهم مطمعاً لأولئك السلاطين، فأكثرُوا من مصادرتهم بين حين وآخر، فضلاً عن إثقالهم بالرسوم الباهظة، لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك على أموالهم وتجاريتهم، بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم^(١).

٢ - الحرفيون:

وقد وجد من هذه الطائفة عدد كبير في المدن الكبرى، وكانت تشمل العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمكاريين، وقد عاشت هذه الطبقة في ضيق من العيش وضنك من الحياة، بخلاف الطبقة السابقة.

٣ - العوام:

وهؤلاء هم السواد الأعظم من الشعب، وكانوا كسابتهم حيث لا يجدون ما يسدون به الرمق إلا القليل من المعيشة، وهذه الطبقة ساء حالها حتى اضطرتها المجاعة وأوقات الشدة إلى احتراف السلب والنهب، ومن ثم كثرت الفتن والاضطرابات.

٤ - الفلاحون:

وهذه الطبقة هي غالب الطبقة السابقة، ولم يكن حالهم بأفضل من حال بقية طوائف الشعب، فقد عانوا من الفقر والحرمان، ولم ينالوا من المماليك سوى الازدراء والاحتقار، وقد فرضت عليهم الضرائب والمغارم. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل زاد تعقيداً بثورات العربان على الفلاحين، التي كانت تنهب محاصيل الفلاحين ومواشيهم^(٢).

وقد كان هناك طوائف آخر تعيش في المجتمع المماليكي، كبقية المماليك من جنسيات مختلفة، وكطبقة أهل الذمة والأقليات الأجنبية، وهؤلاء كان لهم معيشتهم الخاصة، حيث كانوا منزولين عن المجتمع.

نبذة عن «المجتمع الشامي في عصر المماليك»:

لم يختلف أهل الشام في عصر المماليك عن أهل مصر، من حيث كونهم مغلوبين

(١) د سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٢٤.

(٢) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٢٥.

على أمرهم، يخضعون لسلطة حاكمة جعلت من المجتمع عدة طبقات مختلفة، تكون الطبقة الحاكمة على رأسها.

وأما أهل الشام الأصليون فقد انقسموا إلى حضر وبدو:

فالحضر أهل المدن والقرى الشامية، وقد اشتغلوا بالتجارة والنشاط الاقتصادي. والبدو يعيشون في عشائر تنتشر في بادية الشام، وكان على رأس تلك العشائر «آل فضل» من ربيعة، وهؤلاء قد عاشوا على جانبي الفرات بين العراق والشام.

وهذه العشائر كانت تختلف بالنسبة لولايتها للسلطنة المماليكية، فكان بعضهم يوالي التتار، والبعض يوالي المماليك، وبعض ثالث: يتأرجح بين المنزلتين. على أن سلاطين المماليك كانت لهم جولات عديدة مع من ناوهم من زعماء العشائر حتى أخضعوا من شذ منهم لسلطانهم، أو شتوا شمله إن أبي إلا المعاندة.

ولم تكن الحرب والتأديب القسري هو الوسيلة الوحيدة لإخضاع العشائر الشاذة، بل إن سلاطين المماليك قد حاولوا إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الإقطاعي فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة، وأقطعوهم الإقطاعات، وفرضوا عليهم التزامات معينة، وأهمها الولاء للدولة، وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب، ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية... (١).

وبالإضافة إلى هذين العنصرين - الحضر والبدو - فقد وجدت طوائف أخرى مذهبية، أو عصبية، وأهم تلك الطوائف:

١ - الكسروانيون: وهم أهل جبال كسروان، وكانوا من النصيرية والعلويين والمتأولة (٢).

٢ - التنوخيون: وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية، وانتشروا في جهات متفرقة من لبنان.

٣ - بنو معن أو المعنيون: وكان ظهورهم مع قتال السلاجقة للصليبيين على الساحل السوري.

٤ - الشهابيون الدروز: وسكنوا وادي التيم.

٥ - المتأولة: وهم فرقة من غلاة الشيعة، وسكنوا الجهات الشمالية من لبنان.

٦ - النصيرية أو العلويون: وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي من جبل لبنان.

٧ - الإسماعيلية أو الباطنية: وانتشروا في مناطق عديدة.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢٠٨/٤ - ٢١٠.

(٢) ينظر في ذلك: العصر المماليكي ص ٢١٥ وما بعدها.

وهذه الفرق الكثيرة لم تخل ساحتها من معارك مع المماليك كما أسلفنا، إلا أن الغلبة في النهاية كانت لسلطان المماليك.

ثالثاً: الحالة الاقتصادية في عصر السلاطين الجراكسة

إن مما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية لأي دولة إنما هي صورة و فرع عن الحالة السياسية لنفس الدولة، ولما كانت سياسة الدولة المماليكية قائمة على كثرة الفتن والاضطرابات، من عزل سلطان ونصب غيره، وثورات داخلية، وحروب خارجية. كل هذا أدى إلى سوء الأحوال الاقتصادية لذلك العصر.

ويزيد ما تقدم ما رؤي من احتكار السلع عند بعض السلاطين المماليك، حتى قيل إن الأشرف برسبای احتكر تجارة السكر.

واشتملت الحالة الاقتصادية في هذا العصر على ثلاثة أقسام:

١ - الزراعة:

وكانت الدعامة الرئيسية للاقتصاد في عصر المماليك، فهي الحرفة الأولى لغالبية الشعب، والورد الذي عاش عليه أكثر الأهالي.

لذلك فقد اهتم المماليك بها، فأنشأوا الجسور، وشقوا الترعة ووفروا المياه لري الأراضي، مما زاد المحاصيل الزراعية بمصر في تلك العصور^(١).

وقد قسمت الأرض الزراعية إلى أقسام حسب جودتها، وما يتبع ذلك من قيمة محاصيلها، كما عني المماليك بمرافق الزراعة، وأقاموا عدة قناطر، إلا أنهم فرضوا الخراج كضريبة تؤدي للدولة على الأراضي الزراعية، فخراج الوجه البحري كان نقداً، وخراج الوجه القبلي كان عيناً من المحاصيل المعروفة آنذاك.

وقد اعتنوا - بالإضافة إلى ما سبق - بالثروة الحيوانية، فأكثروا من نتاج الأغنام، وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها، مما أدى إلى ارتفاع مستوى الدخل لأهل الدولة، وأما الفلاحون فكانوا يتساقطون بسبب ما يعانونه من فقر وذل^(٢).

٢ - الصناعة:

وقد ازدهرت في عصر المماليك نظراً لكثرة الثروة، وقد حرص المماليك على ازدهار بعض الصناعات كصناعة السفن والصناعات الحربية، خاصة عندما هددتهم أعداؤهم بغارات كثيرة على شاطئ البحر المتوسط.

وقد ارتقت كثير من الصناعات كصناعة المنسوجات، والمعادن، والبرونز والنحاس والذهب والفضة، وكذلك صناعة الزجاج.

(١) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٢٨٣.

(٢) السابق ص ٢٨٥.

وكذلك اشتهرت بعض الصناعات كصناعة السكر والخشب والمصنوعات الجلدية .
وأما الحرفيون «فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية ، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ، ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم ، يفض مشاكل أفراد النقابة ، ويرجعون إليه في كل ما يهمهم .»^(١)

٣ - التجارة :

وقد ازدهرت هي الأخرى ازدهاراً واسعاً في عصر المماليك ، وذلك على الصعيدين الداخلي والخارجي :

أما الداخلي فقد كانت التجارة الداخلية على درجة عالية من النشاط فاشتهرت القاهرة - مثلاً - بأسواقها العامرة ، والتي اختلفت فيما بينها حسب السلعة المباعة ، فهذا سوق الشماعين ، والآخر سوق النحاسين ، والثالث : الفرائين لبيع الفراء ، وهكذا .
وقد انتشر نظام الحسبة في تلك الأسواق ، وذلك لمراقبة عملية البيع والشراء وجودة السلع من رداءتها ، أو التلاعب في الأسعار وغير ذلك .

وأما الخارجي : فقد كانت التجارة الخارجية على حظ عظيم من الازدهار ، وسبب ذلك وجود طريق التجارة الدولي وهو البحر الأحمر - عبر دولة المماليك ، مما جعل مصر تقوم بدور الوسيط التجاري بين دول الشرق والغرب .

وهذا أدى بدوره إلى اهتمام سلاطين المماليك بدروب التجارة ، وتأمينها ، وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجار الأجانب كالفنادق والخانات والوكالات . . . الخ .

ولكن جشع سلاطين المماليك الجراكسة دفعهم إلى احتكارهم بعض السلع والغلات الهامة مما أحق عليهم تجار دول الغرب ، ودفعهم إلى اكتشاف طريق آخر للتجارة ، هو طريق رأس الرجاء الصالح ، مما أدى إلى بداية تدهور النشاط التجاري لدولة المماليك^(٢) .

وبعدُ فقد اضطربت الحالة الاقتصادية ، وتدهورت مظاهرها في أواخر عصر المماليك حتى أدى ذلك إلى انتشار المجاعات والأوبئة وكثرة حالات النهب والسلب .

يقول المقرئزي^(٣) : «وأدركت أنا والناس من أهل ثغر الإسكندرية وهم يجعلون في

(١) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩٦ .

(٢) ينظر: العصر المماليكي ص ٣٠٨ .

(٣) هو مؤرخ الديار المصرية أحمد بن علي بن عبد القادر ، أبو العباس الحسيني العبيدي ، تقي الدين المقرئزي أصله من بعلبك ، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه) ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ ودخل دمشق مع ولده ، وعرض عليه قضاؤها سنة ٨١٠ هـ ، فأبى ، وعاد إلى مصر ، من تأليفه كتاب «المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ، وهو «خطط المقرئزي» وله كتب أخرى . توفي سنة ٨٤٥ هـ .

مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراد، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق..»^(١).

رابعاً: الحالة الثقافية في عصر سلاطين الجراكسة

علمنا فيما تقدم أن المماليك كانوا أغراباً عن أهل البلاد التي حكموها، وأنهم عاشوا في معزل عن طبقات الشعوب المختلفة، حيث كانوا في أبراج عالية، وبقية الشعب يعيش في ضحضاح من العيش.

كما علمنا أن المماليك - وهم في الأصل رقيق - وثبوا على الحكم، فأخذوه بقوة شوكتهم، وشدة بأسهم، ولما كان يشترط في حاكم المسلمين أن يكون حراً غير رقيق، فقد عمدوا إلى أمرين، ليخففا عن طريقهما الانتقاد الموجه إليهم، وهذان الأمران هما:

١ - إحياء الخلافة العباسية، ونقلها إلى مقر حكمهم في مصر، وقد تم ذلك - كما أسلفنا - في سنة ٦٥٦ هـ على يد الظاهر بيبرس البندقداري السلطان المملوكي البحري.

٢ - والأمر الثاني هو: إحياء العلم والتقرب من أهله، ومحاولة الظهور أمام الشعوب بالتدين، وإقامة شعائر الدين، وسنن الأولين.

وقد «عرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجراكسة بحبهم للأدب ومجالس العلم - مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباي والغوري - كما بالغ بعضهم في العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها. وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإنفاق عليها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباي - التكفير عن ذنوبهم، ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم»^(٢).

وقد ازدهرت الحياة الثقافية بوجه عام في كل من مصر والشام، حتى غدتا كمنارتين من منارات العلم في ذلك العصر، ويصور السيوطي ما حظيت به مصر من مكانة مرموقة، جعلتها رأس الأمة ومركز إشعاعها بعد سقوط الخلافة في بغداد، فيقول: «... واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط الرجال الفضلاء. وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية، حيثما كانت يكون معها الإيمان والكتاب»^(٣).

وقد كان لاهتمام سلاطين المماليك بالعلم وأهله دلائل واضحة، فمن ذلك:

(١) المقرئزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٦٩.

(٢) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ١٥٩.

(٣) حسن المحاضرة ٩٤/٢.

١ - تقريبهم لأهل العلم، وإجلالهم لهم، ثم إغداق العلماء بالهبات والعطايا، وإرضاء بعض طالبي السلطة منهم بالوظائف العالية، وقد بلغ من إجلال السلاطين للعلماء أن بعضهم كان يخاف من شيوخ بعينهم.

ويقرر المقرئ في خطته: «أن السلطان المؤيد شيخ المحمودي: لما أنشأ جامعه، وقرر فيه عدداً من المدرسين، كان من بينهم شهاب الدين بن حجر العسقلاني مدرس الشافعية، فجاء إليه السلطان ليستمع درسه، فلما أقبل، هم ابن حجر بالقيام للسلطان فمنعه المؤيد من القيام فلم يقم»^(١).

وقد وجدنا من سلاطين المماليك - كالسلطان الغوري - حرصاً على عقد مجالس علمية ودينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع^(٢)، وكذلك رأينا بعضهم يخصص حلقة سنوية لقراءة صحيح الإمام البخاري، وكانت العادة أن تعقد هذه الحلقة سنوياً في شهر رمضان، ويحضرها السلطان وأمراؤه، والقضاة ووجهاء الدولة^(٣) بل نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم.

٢ - المدارس والمكاتب:

لقد اهتم المماليك بإنشاء دور العلم متمثلة في المدارس والمكاتب، فأما المدارس، فيذكر المقرئ وحده في الخطط سبعين مدرسة قد أنشئت في مصر في القرن التاسع وما قبله.

وقد ذكر ابن إياس والجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئ في خطته^(٤) ونذكر هنا بعض المدارس التي أقيمت في عصر الجراكسة:

١ - المدرسة الظاهرية:

وقد أنشئت في عصر الملك الظاهر برقوق (٧٨٥ - ٨٠١ هـ)، وتعرف أيضاً بالمدرسة البروقية، وقد أسسها في ذي القعدة سنة ٧٨٦ هـ، وتم بناؤها في ربيع الأول سنة ٧٨٨ هـ، وقد أشار إليها ابن حجر بقوله: «... ومن آثاره المدرسة الفائقة بين القصرين، لم يتقدم بناء مثلها في القاهرة، وسلك في ترتيب من قرره بها مسلك شيخون في مدرسته».

وقال عنها المقرئ: «... وجعل بها سبعة دروس لأهل العلم، أربعة يلقي بها الفقه

(١) الخطط: ١٣٩/٣.

(٢) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٣٤٢.

(٣) التبر المسبوك للسخاوي ص ٢٢١، ٤١٥.

(٤) الخطط للمقرئ ٢/٢٦٢، وابن إياس: بدائع الزهور ٤/٥٢، ٦٨، وتاريخ الجبرتي: ١/١٦٢، ٢٢٠.

على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير القرآن، ودرس للحديث النبوي، ودرس للقراءات وأجرى على الجميع في كل يوم الخبز النقي ولحم الضأن المطبوخ، وفي كل شهر الحلوى والزيت والصابون والدرهم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضي والدور ونحوها»^(١).

ومما قيل في وصف هذه المدرسة، ومدح بانيها قول ابن العطار:

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على إرم مع سرعة العمل
يكفي الخليلي أن جاءت لخدمته صم الجبال له تسعى على عجل^(٢)

٢ - المدرسة المحمودية:

وقد أنشأ هذه المدرسة الأمير جمال الدين محمود بن علي الاستادار في سنة ٧٩٧ هـ، وقد رتب لها درساً، وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف بديار مصر والشام مثلها، «... وبهذه الخزانة كتب الإسلام في كل فن، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر»^(٣).

٣ - المدرسة المؤيدية:

وقد أنشأها السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥ - ٨٢٤ هـ)، وتعرف مدرسته هذه بالجامع المؤيدي، ابتدأ الحفر في أساساتها في جمادى الآخرة سنة ٨١٩ هـ وشرع فيها حتى اكتملت، وقال فيها السخاوي: «... لم يعمر في الإسلام أكثر منه زخرفة، ولا أحسن ترخيماً بعد الجامع الأموي، وأصله خزانة شمائل توفية لنذره...»^(٤).

٤ - المدرسة الغورية:

وهذه أنشأها السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ)، وقد أقامها سنة ٩٠٨ هـ، «وقد أقام الغوري حفلاً كبيراً بعد الانتهاء منها، حضره الخليفة المستمسك بالله يعقوب، والقضاة الأربعة، وأعيان الناس من المباشرين والأمراء، وحضر في تلك الليلة قراء البلد والوعاظ، ومد أسمطة حافلة...»^(٥).

وأما نظام هذه المدارس فقد «جرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح، أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث لا

(١) السلوك ٩٤٦/٣، وانظر: إنباء الغمر ٣١٣/١، وابن دقماق: الجواهر الثمين ٢/٢٦٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/٢٤٠، والسخاوي: الضوء اللامع ٣/١٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/٢٧١.

(٣) المقرئ: الخطط ٢/٣٩٥.

(٤) الضوء اللامع ٣/١٠، والمقرئ: الخطط ٢/٣٢٨ - ٣٣٠، وابن حجر: إنباء الغمر ٣/٩٠، ١٠٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/٥٢، ٥٣.

يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة مما يختاره من أنواع العلوم الشرعية»^(١).

فإذا أتم الطالب دراسته، وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه، وتاريخ الإجازة وغير ذلك. ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية^(٢).

وأما المكاتب فقد كانت خاصة بالمراحل الأولى من مراحل تعليم الناشئة، والمدارس بمثابة التعليم الجامعي أو نهاية المرحلة التعليمية، ويبدو أن الهدف الأساسي من إقامة هذه المكاتب هو تعليم أيتام المسلمين، وهذا يتضح فيما رأيناه من إلحاق أيتام المسلمين بهذه المكاتب وإجراء الأرزاق والكسوة عليهم.

وأما منهج التعليم فيها فكان يقوم على أن يعلم المؤدب أو العريف الذي ينوب مكانه هؤلاء التلاميذ القراءة والكتابة، والقرآن والحديث وآداب الدين، فضلاً عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر.

وقد كان يحتفل بمن يحفظ القرآن في المكتب، وهو ما يسمى بـ «الإصراف»^(٣).

ولم تكن المدارس والمكاتب وحدها هي كل ساحات العلم، فقد كان هناك مشاركة كبيرة جداً من الجوامع والمساجد، في مقدمة ذلك «الجامع الأزهر»، وكذلك كان هناك الزوايا والمارستانات، وعن المارستان المنصوري - كمثال - يقول المقرئ إن المنصور أنشأه: «مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب»^(٤).

٤ - المكتبات:

المعلوم أن الممالك أنشأوا المدارس والمكاتب، والزوايا والخانقاوات وغير ذلك لينشروا العلم، ولينشطوا الحركة الثقافية العلمية، ولكن هذا الهدف لا يأتي على خير حال إلا إذا كان هناك ثروة مكتبية ضخمة تسانده، وترفده بمصادر البحث والمطالعة من الكتب المصنفة في فروع العلم.

لذلك فقد «ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب في البحث والاستقصاء»^(٥)، وقد ضمت هذه المكتبات: «أنواعاً عديدة من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون من تفسير وحديث، وفقه، ولغة، ومعان، وبديع، وبيان، وأصول فقه، وأصول دين، ومنطق، وغير ذلك من نحو وصرف وغيرهما»^(٦).

(١) و (٢) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٣٤٤.

(٣) د. سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ٣٤٨.

(٤) الخطط ٤٠٦/٢.

(٥) د. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥.

(٦) السابق ص ١٤٦، وأيضاً: العصر المماليكي: ص ٣٤٦.

وهذه المكتبات وما ألحق بها من مدارس ومكاتب وخانقاوات وغيرها - قد اهتم بها سلاطين المماليك، فوقفوا لها أوقافاً واسعة: «لينفق من ريعها على مرافق المدرسة أو على المكتب، وعلى موظفيها من المدرسين والشيخوخ فضلاً عن طلبة المدرسة ذوي المذهب أو تلاميذ المكتب من الأيتام، حتى ينصرف الجميع إلى رسالتهم في جو من الاطمئنان وراحة الفكر...»^(١).

هذا الجو العلمي الذي وجد في عصر المماليك قد هيأ المناخ لوجود عندنا عدد ضخم من المحدثين والمجتهدين والحفاظ والفقهاء، والقضاة والشعراء والأدباء، الذين أثروا مكتبة الإسلام بمصنفات تكاد تزيد على الآلاف المؤلفه، ومن يستقرئ الكتب المصنفة المطبوع منها والمخطوط يرى ذلك التاج الضخم.

وقد حفظت لنا كتب التراجم أسماء كثيرة جداً لعلماء لمعت نجومهم في ذلك العصر، ونذكر هنا بعض من وجد منهم في القرن التاسع الهجري، الذي هو القرن الذي عاش فيه إمامنا ابن عادل الحنبلي:

كابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ، وسراج الدين البلقيني المتوفى سنة ٨٠٥ هـ، وتاج الدين الدميري المتوفى سنة ٨٠٥ هـ، وابن حبيب الحلبي ت ٨٠٨ هـ، وابن جماعة ت ٨١٩ هـ، وابن الهمام ت ٨٦١ هـ، وابن أمير الحاج ت ٨٧٩ هـ. ومن المؤرخين المقرئ ت ٨٤٥ هـ، وابن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ. ومن المحدثين ابن العراقي ت ٨٢٦ هـ، والحافظ ابن حجر ت ٨٥٢ هـ. وغير هؤلاء كثير جداً مما يدل على عظم النهضة العلمية التي عاشها ذلك العصر الذي تحدثنا عن ملامحه في عجالة يسيرة.

ترجمة الإمام المفسر ابن عادل الحنبلي

نسبه وكنيته ولقبه:

أبو حفص عمر بن علي سراج الدين الدمشقي الحنبلي النعماني^(٢).

الدمشقي بالكسر وفتح الميم وسكون الشين: إلى دِمَشْق البلدة المعروفة وهي من مدن الشام.

الحنبلي^(٣): بفتح الحاء المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وفي آخرها اللام وهذه النسبة لنخبة من العلماء اتصفوا بها لتتخلطهم مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي. إمام المحدثين وأحد دعائم الإسلام الأربعة^(٤).

(١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصري ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢) ينظر: معجم البلدان ٤٦٣/٢ - ٤٧٠، الأنساب ٤٩٢/٢ - ٤٩٣، اللباب ٥٠٨/١.

(٣) ينظر: الأنساب ٢٧٧/٢، واللباب ٣٩٥/١، ولب اللباب ٢٦٠/١.

(٤) ينظر ترجمته في حلية الأولياء ١٦١/٩، وتاريخ بغداد ٤١٢/٤، ووفيات الأعيان ٤٧/١، والبداية والنهاية ٣٢٥/١٠، وتذكرة الحفاظ ٤٣١/١، والنجوم الزاهرة ٣٠٤/٢.

النعماني^(١) بالضم: إلى الثُّعْمَانِيَّة بلد بين بغداد وواسط.

قلت ولعل المصنف رحمه الله تعالى قد رحل إليها واستوطن فنسب إليها هكذا نسبه إليها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين^(٢) وكحالة تبعاً لإسماعيل باشا.

مولده:

بعد استقراء^(٣) كتب السير والأعلام لم أتمكن من تحديد يوم مولده بالضبط ولكن كل من ترجم لهذا الإمام العلامة ابن عادل الحنبلي يذكر أنه كان حياً في سنة ٨٨٠ كما نص على ذلك الزركلي في الأعلام^(٤) بينما يرى الأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة أنه فرغ من تأليفه هذا في رمضان سنة ٨٧٩ هـ.

ومن ثم تعطينا هذه النصوص أن الإمام ابن عادل الحنبلي كان موجوداً قبل ذلك بكثير لكن لم تحفظ لنا كتب السير والتراجم شيئاً يذكر عن تاريخ مولده إلا الكلمات القليلة التي أوردنا عن نص الزركلي وكحالة.

شيوخه وتلامذته:

فمن سنن الكون تلقي العلوم على أيدي معلمها فلقد تلقى خير البشر سيدنا رسول الله ﷺ القرآن الكريم بواسطة جبريل وتلقى الصحابة رضوان الله عليهم من سيد البشر وتلقى التابعون العلم من الصحابة الأجلاء حتى صارت كل طبقة تعلم التي تليها حتى يومنا هذا.

ولقد صدق القائل: [الوافر]

إِذَا رَمَتْ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَلَتْ عَنِ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبِسُ الْأُمُورُ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ «تُومَا الْحَكِيمِ»

ولكن بالرجوع إلى ما كتب عن الإمام الثقة لم أجد من يحدثنا عن أخذ عنهم وبالضرورة أن مثل هذا المؤلف لا يخرج من نتاج نفسه فحسب بل لا بد من أنه تأثر بمن حوله فكتابه زاخر بالعلوم والمعارف والنكت العلمية الدقيقة التي تعطينا فكرة أنه لازم المشايخ والأعلام زماناً طويلاً حتى أخرج لنا مثل هذا الصرح العظيم.

والحال هذا أيضاً في تلامذته أنه لا بد للأخذ أن يعطي فنقطع بأنه كان مصباحاً لأهل عصره عقيدة وشريعة ولغة وأدباً؛ والناظر في تفسيره هذا يجد ما أقول بل لا يقف إلى حد القطع فقط بل يعتقد اعتقاداً جازماً عن أدلة بأن له رواداً ينهلون في معارفه وعلومه.

(١) ينظر: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١١٠، شذرات الذهب ٢/ ٦٩، الأنساب ٩/ ٥، معجم البلدان ٥/ ٢٩٤، اللباب ٣/ ٣١٧، لب اللباب ١/ ٢٩٩.

(٢) ٧٩٤/٥.

(٣) والاستقراء هنا استقراء جزئي.

(٤) ٥٨/٥.

ثناء العلماء عليه :

المطلع على تفسيره القيم يعتقد أنه كان يحظى بمكانة علمية مرموقة بين علماء عصره .

فقد صرح العلامة الخطيب الشربيني^(١) في مقدمة تفسيره المسمى بـ «السراج المنير» بأنه اعتمد في جمع مادته العلمية على مؤلفات لعلماء أجلاء لهم باع طويل في علم التفسير ومن بين هؤلاء الإمام ابن عادل . . .

كما أن بعض النساخ وصفه بـ «العالم العلامة والبحر الفهامة» .

كما أن ناسخاً آخر يصفه بـ «خاتمة وعمدة المدققين» .

وقال العلامة الزركلي بعد ذكر نسبه . . . صاحب التفسير الكبير . . .

وقال العلامة عمر رضا كحالة : «مفسر»^(٢) .

ووصفه آخر من الشُّاخ بـ «أنه خاتمة العلماء» وأنشد : [الكامل]

هَذَا كِتَابٌ لَوْ يُبَاغِ بِوِزْنِهِ ذَهَبًا لَكَانَ الْبَائِعُ الْمَغْبُورًا
أَوْ مَا مِنَ الْخُسْرَانِ أَلَّاكَ آخِذٌ ذَهَبًا وَتُغْطِي جَوْهَرًا مَكْنُونًا
تصانيفه :

نظراً لأن الإمام ابن عادل الحنبلي كان - بيقين - أحد علماء عصره الذين وهبوا أرواحهم وأفئدتهم للعلم فأفنى عمره في التحصيل والبحث والتحقيق والتنميق حتى تفجرت عيون معارفه وتدفقت محصلته العلمية بصنوف من التصنيفات وبدائع من المؤلفات في أكثر من ميدان فسارت مؤلفاته وانتشرت وما انتشرت وقرئت ودرست ونسخت وما مسخت وأجملت كتب الأقدمين فأكتب الناس عليها بيد أن الله تعالى خصه بميدان التفسير فبرز وتفرد على أهل عصره . وإليك ما وصل إلينا من مؤلفات هذا الإمام :

أولاً: اللباب في علوم الكتاب وهو الذي نحن بصدد تحقيقه .

ثانياً: حاشية على المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .
والمحرر كتاب في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل تأليف الشيخ الإمام العلامة الهمام حجة الله بين الأنام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن علي بن تيمية الحراني المتوفى سنة ٦٥٢ عليه هواطل الرحمة .

(١) ينظر ترجمته في تحقيقنا على كتابي مغني المحتاج والافتاح في حل ألفاظ أبي شجاع .

(٢) كونه موصوفاً بـ «المفسر» هذا يرجح قولنا أنه عالم باللغة والأصول والحديث والبلاغة بعلمها الثلاثة لأن كل هذه العلوم يحتاج إليها المفسر .

قال في مقدمة كتابه «فهذا كتاب في الفقه على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه هذبته مختصراً ورتبته «محرراً» لأكثر أصول المسائل خالياً من العلل والدلائل واجتهدت في إيجاز لفظه تيسيراً على طلاب حفظه ونسأل الله النفع به في الأولى والآخرة وأن يوفقنا لصواب القول والعمل ويحرسنا من أسباب الخطأ والزلل إنه سميع مجيب»^(١).

وفاته:

القول في وفاته كالقول في مولده فلم تحفظ لنا كتب السير والأعلام تحديد زمن وفاته إلا أنها ذكرت أنه كان حياً سنة ٨٧٩ هـ وجرى على هذا العلامة المؤرخ عمر رضا كحالة بينما يرى العلامة الزركلي أنه توفي بعد سنة ٨٨٠ هـ^(٢).

(١) المحرر ١/١.

(٢) ينظر ترجمته في الأعلام للعلامة الزركلي ٥/٥٨، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧/٣٠٠، كشف الظنون لـ «حاجي خليفة» ٢/١٥٤٣، وهدية العارفين ٥/٧٩٤، والفهارس العامة لدار الكتب المصرية ولمعهد المخطوطات ولالأزهر ولظاهرة دمشق وغيرها من المكاتب.

التفسير والتأويل

التفسير: لغة

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾^(١) أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسّر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزآبادي^(٢):

«الْفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور^(٣):

«الْفَسْرُ: البيان، فَسَّرَ الشيءَ يَفْسِرُهُ - بالكسر - وَيَفْسِرُهُ - بالضم - فَسَرًا، وَفَسَّرَهُ: أبانه. والتفسير: مثله. والفَسْرُ: كشف المغطى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكّل».

وقال «أبو حيان»^(٤):

«... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عربته لينطلق في حضره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري».

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين^(٥):

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول.

وقيل: إن أصل الكلمة من التَّفْسِيرَة، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسّر عن شأن الآية وقصتها^(٦).

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) القاموس المحيط «فسر».

(٣) اللسان: مادة «فسر».

(٤) البحر المحيط ١٣/١.

(٥) التفسير: معالم حياته - منهجه اليوم - أمين الخولي ص ٥، والتفسير والمفسرون / للذهبي ج ١/ ١٥.

(٦) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط، المنار، واللسان: فسر.

التفسير : اصطلاحاً

عرفه السيوطي قائلاً^(١) :

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعداها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرّفه «أبو حيان» فقال :

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت ذلك...» وفيه قصور وغموض^(٢).

وتعريف «الزرّكشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول^(٣) :

«التفسير : علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد - ﷺ -، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى - غير ما ذكرنا^(٤) - وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد»^(٥).

التأويل : لغة

أصله : «من الأول، وهو الرجوع».

قال الفيروزآبادي^(٦) :

«آل إليه أولاً ومآلاً - : رجع . وعنه ارتد... وأوّل الكلام تأويلاً، وتأوله : دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

(١) الإتقان ١٧٤/٢.

(٢) راجع : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبو شعبة ص ٤١.

(٣) البرهان ج ١/٣٣.

(٤) راجع مثلاً : مناهل العرفان في علوم القرآن ٤٠٦/١ ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج ٦/٢، التفسير في قواعد التفسير / الكافي ج ٣، ١١ وغيرها.

(٥) التفسير والمفسرون ١٧/١.

(٦) القاموس المحيط ٣/٣٣١.

وقال ابن «منظور»^(١):

«الأوّل: الرجوع، آل الشيء يؤوّل أولاً ومآلاً: رجع، وأوّل الشيء: رَجَعَهُ، وألّث عن الشيء: ارتدّدت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير... وأوّل الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسرّه». وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكأن المؤول ساس الكلام ووضعه في موضعه... قال الزمخشري^(٢):

«آل الرعيّة يؤوّلها إيالةً حسنةً، وهو حسن الإيالة، واثئالها، وهو مؤتال لقومه مِقْتالٌ عليهم: أي سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد أُلنا وإيل علينا، أي سُئنا وسُئنا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة.

من ذلك قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ...﴾^(٣) بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٤) بمعنى العاقبة والمصير.

وقول تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ...﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ...﴾^(٦) بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف^(٧) أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف^(٨) بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال^(٩).

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

— أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى...».

(١) اللسان / مادة «أول» ١٧١/١١ وما بعدها.

(٢) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٦) سورة يونس: الآية ٣٩.

(٧) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.

(٨) الآيتان: ٧٨، ٨٢.

(٩) راجع: التفسير والمفسرون: ١٨/١، ١٩.

وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية». فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى .
 - ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . . .
 وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني^(١).

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:
 فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف^(٢).
 قال في جمع الجوامع^(٣):

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل».

«الْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف «هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليون إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»^(٤).

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد. . ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه^(٥).

- ومنهم من فرق بينهما.

يقول الراغب الأصفهاني^(٦):

(١) التفسير والمفسرون ١٩/١ (يتصرف وإيجاز).

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١٩/١.

(٣) ج ٥٦/٢، والتفسير والمفسرون ٢٠/١.

(٤) التفسير. معالم حياة - ص ٦.

(٥) الإتيان ١٧٣/٢، التفسير والمفسرون ٢١/١، والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٦) التفسير والمفسرون ٢١/١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣. آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبهيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبين المراد وشرحه، كقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة، و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجد والوجد والوجود.

وقال «أبو طالب الثعلبي»^(١):

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى ﴿إِنْ رِبْكَ لِلْمَرَصَادِ﴾ تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصده إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه».

وقال «البغوي»^(٢):

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط.

والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية»^(٣) يقول الكافياجي^(٤):

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث أنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

(١) الاتقان ١٧٣/٢.

(٣) الاتقان ١٧٣/٢.

(٢) تفسير البغوي ١٨/١.

(٤) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية، ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول في الأول بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول في الثاني بمجرد التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً.

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله^(١):

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله - ﷺ -، أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله - ﷺ -، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك». وهذا هو ما نميل إليه...

«حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى التَّفْسِيرِ»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(٢). ولا بسورة من مثله ﴿قُلْ فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٣).

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم، إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات... إلخ. ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾^(٤).

﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٥). ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع

(١) التفسير والمفسرون ٢٣/١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى... ﴿١﴾

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن... يقول علي - كرم الله وجهه -: قلت يا رسول الله ستكون فتن، فما المخرج منها؟

قال - ﷺ -: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعى إليه هُدي إلى صراط مستقيم».

- ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر..

- ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة..

- ولكي يتدبر المؤمنون آياته^(٢)..

- ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة^(٣).. لكل هذا جاء القرآن عربياً.

وكان القوم - «عند نزوله - سواء من هو حجة له: من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه: من الكافرين الجاحدين، يفهمونه ويحيطون بمعانيه أفراداً وتركيباً فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعون تحديه بالإعجاز بين مدعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً ولياً بالسنتهم وطعناً في الدين.

فما كان منهم من تعذر عليه فهمه، ولا من خفيت عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانشراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي^(٤).

يقول «ابن خلدون»^(٥):

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

(١) سورة طه: ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته...﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع...﴾.

(٤) التفسير ورجاله / محمد الفاضل بن عاشور ص ٧ - ٨.

(٥) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال^(١):

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين.. فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي - ﷺ - أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص». إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول - ﷺ -: ^(٢)

يا رسول الله، إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه ولنحن العرب حقاً؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «إن ربي علمني فعملت، وأدبني فتأدبت».

كما يعارضه صريح القرآن إذ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾^(٣).

نعم. إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها وذلك كسؤالهم النبي - ﷺ - لما نزل قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي - ﷺ - فبين لهم أن المراد بالظلم الشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٤).

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول - ﷺ - لكن تفسير الرسول للقرآن وقد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمطلق... إلخ.

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - حراساً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه..

قال أبو عبد الرحمن السلمي:

«حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - ﷺ - عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً».

وإذا كان العرب الخالص الذين لم تعكر عربيتهم عجمة - يحتاجون إلى التفسير،

(١) مجاز القرآن - ط ثانية - دار الفكر.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٨٤/١ ط الحلبي تحقيق أبو الفضل وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي - ﷺ - قد عرف السنة العرب.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) الإتقان للسيوطي ٣٣٠/٢، والبرهان للزركشي ١٤/١.

فنحن أولى وأحوج بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم، إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى ..

يقول السيوطي^(١):

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جداً: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التبدي، لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض، ... والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التبدي فباق لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابس من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن ... وكان انقراض تلك الملابس الوقتية محوفاً إلى معرفتها معرفة نقلية تصورية، ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب - تتبعها معانٍ تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام، إذ يكون الترتيب صالحاً على التردد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي ولا يتبين المراد منها، كأن يقع التعبير عن ذات بإحدى صفاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خواصها، أو أحد لوازمها. . فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً. . ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلغ - ﷺ - في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها فتلقوا عندما أفادهم، فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور الماثورة عن النبي - ﷺ - لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم ...»^(٢).

(٢) التفسير ورجاله ١٠ - ١٣.

(١) الإتيان ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

وبذا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي، إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة التابعين إلى التفسير ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول - ﷺ - ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه. . ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين. وهكذا كلما بعد الناس عن عصر نزوله زادت الحاجة إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض^(١) . .

فَهْمُ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

نزل القرآن عربياً على رسول عربي، وقوم عرب، ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته. .﴾ فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً. وإلا رجعوا إلى النبي - ﷺ - ليفسر لهم ما أشكل عليهم. . .

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ^(٢):

- ١ - معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.
- ٢ - معرفة عادات العرب.
- ٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.
- ٤ - قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسر بينهم في تفسير القرآن الكريم.

ومن ذلك:

- ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشِّرَى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: «ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعي النبي - ﷺ -»، وقد كان مصيباً في ذلك، إذ لم يعيش النبي - ﷺ - بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً كما روي^(٣).

- وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال^(٤):

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟»

(١) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١٠١/١ - ١٠٢.

(٢) راجع التفسير والمفسرون ٥٩/١ وما بعدها.

(٣) الموافقات للشاطبي ج ٣/ ٣٨٤، التفسير والمفسرون ٦١/١، ٦٢.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥١٩/٨، باب التفسير، وكذا أسد الغابة.

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أؤكدك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا. فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله - ﷺ -، أعلمه الله، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

- وقال ابن عباس^(١):

«وكننت لا أدري «ما فاطر السموات والأرض»، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها».

أَشْهُرُ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ مِنَ الصَّحَابَةِ

عد السيوطي عدداً من مفسري القرآن من الصحابة ذكر منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جداً، وذلك بسبب تقدم وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة^(٢).

١ - علي بن أبي طالب:

وأما علي - كرم الله وجهه - فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن، وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان...

وكثرة مرافقته للرسول - ﷺ -، وسكناه معه، وزواجه من ابنته فاطمة إلى جانب ما حباه الله من الفطرة السليمة... كل ذلك أورثه العلم الغزير. حتى قالت عائشة رضي الله عنها^(٣):

«أما إنه لأعلم الناس بالسنة» في زمن كان الصحابة - رضي الله عنهم - متوافرين.

وروى معمر بن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال:

«شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم

(١) الإتيان ١١٣/٢.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/٦٤، ٦٥.

(٣) الاستيعاب ٣/١١٠٤، أسد الغابة ٤/٢٩.

به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟
قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»^(١).

نموذج من تفسير علي - رضي الله عنه - للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»^(٢).

٢ - عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر. يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مر به رسول الله - ﷺ - وأبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرعى غنماً، فسألاه لبناً فقال: إني مؤتمن، قال فأخذ رسول الله - ﷺ - عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث^(٣).

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له، وكان - ﷺ - يطلب منه أن يقرأه عليه، فقال له يوماً: اقرأ علي سورة النساء. قال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، يقول: فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فاضت عيناه - ﷺ -^(٤).

وكان - ﷺ - يقول:

«من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٥) وكان ابن

(١) راجع الاتقان ٣١٩/٢.

(٢) تفسير البغوي - ط المنار ٢٧٣/٤. (٤) البداية والنهاية ١٦٩/٧.

(٣) البداية والنهاية ١٦٩/٧، أسد الغابة ٢٥٦/٣ - ٢٦٠. (٥) مسند الإمام أحمد ٧/١.

مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» وعن مسروق قال^(١): قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعددة، وأصح هذه الطرق ما جاء من^(٢):

١ - طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ - طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ - طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. وهذه الطرق الثلاثة أخرج

منها البخاري في صحيحه.

وهناك طرق أخرى ك:

- طريق السدي الكبير عن مرة الهمداني عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في

مستدرکه وابن جرير في تفسيره - كثيراً.

- طريق أبي روق عن الضحاك عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضية، أخرج منها

ابن جرير في تفسيره أيضاً، وهي منقطعة، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثير في الكوفة، وكان عمر - رضي الله عنه - لما ولي عمار

ابن ياسر على الكوفة سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الاستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في

مدرسة التفسير، فكثر التفسير بالرأي والاجتهاد^(٣). وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ - أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار،

سيد القراء^(٤). كنيته: أبو المنذر أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدرأً وأحدأً والخندق والمشاهد كلها

مع رسول الله - ﷺ -.

(١) صحيح البخاري - كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ٨٧/١، ٨٨.

(٣) المصدر السابق ١٢٠/١.

(٤) تهذيب التهذيب ١٨٧/١، غاية النهاية في طبقات القراء ٣١/١، أسد الغابة ٤٩/١ - ٥١.

وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقراءه. قال فيه عمر بن الخطاب: «أبي أقرؤنا»^(١).

وهو أحد الذين تتلمذ عليهم «ابن عباس». يقول ابن عباس^(٢):

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظني لمكاني من رسول الله - ﷺ - ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً لنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله - ﷺ -^(٣) فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت^(٤).

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كتاب الوحي للرسول - ﷺ -.

* أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق:

١ - طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده.

٢ - طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقال، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في مسنده، وهي على شرط الحسن^(٥).

وتلاميذ أبي كثير منهم: أبو العالية، زيد بن أسلم، محمد بن كعب القرظي وغيرهم. ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة.

٤ - عبد الله بن عباس^(٦):

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم... يلتقي مع الرسول - ﷺ - في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦/٦٢٩. وكذا شهد له النبي ﷺ.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٣٧١.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢٨.

(٤) راجع الاتقان ١/٦٦.

(٥) راجع التفسير والمفسرون ١/٩٢، ٩٣.

(٦) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجمته بعد الثلاثة السابقين لتقدمهم في السن عليه وحدائمه بينهم.

ولد إبان المقاطعة الاقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات.

لازم ابن عباس رسول الله - ﷺ -، لكن الرسول توفي ولابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة.

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال - ﷺ -: «اللهم علمه الكتاب والحكمة».

وفي رواية: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

واستجيب دعوت الرسول - ﷺ -، فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن» يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس» وذلك لبراعته في التفسير، كما لقب بالجير، لغزارة علمه - وبالبحر كذلك.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول - ﷺ - فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك. يقول ابن عباس^(١):

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي - ﷺ - اللتين قال الله فيهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ ولم أزل أتلفظ له حتى عرفت أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله - ﷺ - عند الأنصار، فإني كنت لآتي لرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد تتلمذ ابن عباس على رسول الله - ﷺ - أولاً، فكان الرسول يعلمه ويربيه قال له يوماً:

«يا غلام. إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاص عنده، فكان يدنيه من مجلسه رغم حداثة سنه - كما ذكرنا.

(١) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ٢٢/١.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخته:

عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت. روى عبد الرزاق عن معمر قال^(١):

«عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر وعلي وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عباس أنه^(٢) «حفظ المحكم في زمن النبي - ﷺ - ثم عرض القرآن على أبي بن كعب وزيد بن ثابت. وقيل إنه قرأ على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه».

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتمهم اضطلاعاً بالتفسير حتى إنه «لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مدعن لابن عباس، مسلم له قدرته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن»^(٣).

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسر فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم ويبحث الناس على النظر فيه قائلًا^(٤):

«إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي».

وهو القائل^(٥):

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزل الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً دار بين نافع بن الأزرق وابن عباس فقال^(٦):

بيننا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر:

قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾.

قال: العزون: حلق الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤١/١.

(٤) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.

(٢) طبقات القراء ٤٢٥.

(٥) الإتيقان ١١٩/١، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.

(٣) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.

(٦) الإتيقان ١٢٠/١.

قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول: [الوافر]
فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونُوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عَزِيْزًا
قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.
قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول: [الكامل]
إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمُ إِلَيْنِكَ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي
إلى آخر المسائل وأجوبتها^(١).

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته، مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.
طرق الرواية عن ابن عباس:

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق.. وأشهر هذه الطرق وأصحها^(٢):

١ - طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزاق في تفسيرهما.

٢ - طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح - وعن عكرمة أحياناً - عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في تفسيره.

٣ - طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.. وقالوا:
إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد - رضي الله عنه - «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».
وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ - طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(١) راجعها في الإتيان ١/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتيان ٢/ ١٨٨، التفسير والمفسرون ١/ ٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق...^(١).

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم...»^(٢).

قِيَمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ الصَّحَابَةِ

بعض المحدثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في مستدركه إذ يقول^(٣):

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند».

ولكن قيد «ابن الصلاح والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

يقول ابن الصلاح^(٤):

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي - ﷺ - ولا مدخل للرأي فيه، كقول جابر - رضي الله عنه -: كانت اليهود تقول:

من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل:

«نساؤكم حرث لكم»... الآية. فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على

إضافة شيء إلى الرسول - ﷺ - فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا لم يكن للرأي فيه مجال. وأما ما يكون للرأي فيه مجال فله حكم الموقوف.

وما حكم عليه بالوقف: قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به لأنه مجتهد فيه وقد

يصيب وقد يخطئ.

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥.

(٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ٩٤/١.

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

وقال بعضهم:

يجب الأخذ به لأنه إما سمعه من الرسول، وإما فسر به برأيه، وهم أدرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال ولا سيما ما ورد عن الأئمة الأربعة وابن مسعود وابن عباس وغيرهم^(١).
يقول الزركشي^(٢):

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي - ﷺ -، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر فيه تفسير الصحابي، فإن فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه...»
ويقول الحافظ ابن كثير^(٣):

«... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم».

مَدْرَسَةُ مَكَّةَ

تَلَامِيذُ ابْنِ عَبَّاسٍ:

١ - سعيد بن جبير:

هو^(٤): سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة، يكنى بأبي محمد^(٥) أو بأبي عبد الله^(٦). كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال^(٧).

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العلم الصالح.

كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً عالماً^(٨).

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف).

(٢) البرهان ١٨٣/٢.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول.

(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٢٥٦/٦، تقريب التهذيب ٢٩٢/١، وفيات الأعيان ٢٠٤/١، تهذيب

التهذيب ١١/٤، البداية والنهاية ١٠٣/٩، الأعلام ١٤٥/٣.

(٥)، (٦) طبقات ابن سعد، البداية والنهاية وغيرهما.

(٧) التفسير والمفسرون ١٠٤/١.

(٨) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفل المزني وغيرهم. وتخرج من مدرسة ابن عباس^(١).

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير^(٢).

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حدث، فقال: أحدث وأنت هنا؟ فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك^(٣).

مكانته في التفسير: كان - رضي الله عنه - من أعلم التابعين بالقراءات. يقول إسماعيل بن عبد الملك^(٤): «كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورع من القول في التفسير برأيه.

يروى ابن خلكان^(٥): «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقي أحب إليّ من ذلك».

وقد شهد له التابعون بتفوقه في العلم ولا سيما التفسير. قال قتادة^(٦): «وكان أعلم الناس أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري^(٧): «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، والضحاك». وقال خفيف^(٨): «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبير: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وسميت بذلك لأنها بينت فيها الفرائض والحدود^(٩).

قتله:

قتل - رضي الله عنه - سنة أربعة وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي

(١) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥. (٥) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥. (٦) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٧، وفيات الأعيان (٧) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.

(٨) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٩) تفسير الطبري ١/ ٣٣، ٣٤. (٤) وفيات الأعيان ١/ ٢٠٤.

صبراً، وذلك: أن سعيد بن جبير خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب سعيد فلاحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القسري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج. فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد ابن جبير.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت وشقيت أُمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

قال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة وإمام الهدى.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟ قال: لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للمخلوق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله

النار!!

قال: فما بالنار نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يديه فقال سعيد:

إن كنت جمعت هذا لتتقي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزع واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي بكى سعيد، فقال: ما يبكيك هو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا

عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فردّه

وقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات

والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دعا سعيد فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتنى؟

فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير^(١)؟
ذكر عن الإمام أحمد أنه قال^(٢):

قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه.

٢ - مجاهد بن جَبَر:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة ٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣ هـ^(٣).

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصة أصحاب ابن عباس اشتهر بقوة حافظته، حتى قال ابن عمر وهو أخذ بركابه:
«وددت أن ابني سالمًا وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»^(٤).

كان مجاهد شغوفاً بالعلم وخاصة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد قال^(٥): عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً^(٦): عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت وكيف كانت؟

ولا تعارض بين الروایتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم: عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خديج... وروى عنه خلق من التابعين^(٧).

(١) انظر / وفيات الأعيان ٢٠٥/١ - ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ - ٧٣، البداية والنهاية ١٠١/٩ - ١٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٢٦٦/٦، وفيات الأعيان ٢٠٦/١، الأعلام ١٤٥/٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٤٤٦/٥، تهذيب التهذيب ٤٢/١٠، البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

(٤)، (٥) ميزان الاعتدال ٩/٣.

(٦) تهذيب التهذيب ٤٢/١٠.

(٧) البداية والنهاية ٢٣٢/٩.

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري^(١): «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

وقال ابن تيمية^(٢): «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض العلماء كان لا يأخذ بتفسيره... يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب^(٣).

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة».

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح - فيما لا يتعلق بحكم شرعي - أباحه الرسول - ﷺ -^(٤).

كان مجاهد - رضي الله عنه - يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مر بنص قرآني من هذا القبيل وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءاً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص^(٥).

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: أما الظاهرة فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب^(٦).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين^(٧).

٣ - عكرمة:

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله. أصله من البربر بالمغرب^(٨).

(١) تفسير الطبري ٣٠/١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.

(٣) طبقات ابن سعد ٤٦٦/٥، ميزان الاعتدال ٣٣٩/٣.

(٤) يقول - ﷺ -: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٥) التفسير والمفسرون ١٠٨/١.

(٦)، (٧) البداية والنهاية ٢٣٤/٩.

(٨) طبقات ابن سعد ٢٨٧/٥، وفيات الأعيان ٣١٩/١، البداية والنهاية ٢٥٤/٩، الأعلام ٤٣/٥.

سمع من مولاه «ابن عباس»، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم^(١).

تلمذ على يدي عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه. روى ابن أبي شيبه عن عكرمة قال^(٢):

«كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن والسنة».

وروى البخاري في صحيحه عن عكرمة أن ابن عباس قال له^(٣):

«حدّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تملّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول - ﷺ - وأصحابه لا يفعلون ذلك».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يعدّه ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكلت على ابن عباس.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمَ اللَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا، فكساني حلة^(٤).

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»^(٥).

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم يحتج به^(٦).

وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام^(٧).

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة^(٨).

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي. قال سفيان عن عمرو قال^(٩):

(١) طبقات ابن سعد ٢٨٧/٥.

(٢) البداية والنهاية ٢٥٥/٩، والكبّل: القيد.

(٣) ميزان الاعتدال ٩٣/٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٢٨٨/٥.

(٥) ميزان الاعتدال ٩٣/٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٦) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٧) معجم الأدباء ١٨٩/١٢.

(٨) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٩) البداية والنهاية ٢٥٥/٩، مقدمة فتح

الباري ص ٤٥٠.

كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصفون ويقتتلون وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير فقد شهد له الأئمة بذلك. يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة^(١).

وقال حبيب بن أبي ثابت:

اجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرهما لهما، فلما نفذ ما عندهما جعل يقول:

أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا^(٢).

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة في قوله تعالى ﴿ولكنكم فتنكم أنفسكم﴾ أي بالشهوات ﴿وتربصتم﴾ بالتوبة ﴿وغرتكم الأماني﴾ أي التسوييف ﴿حتى جاء أمر الله﴾ الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾ الشيطان^(٣).

وتوفي عكرمة رضي الله عنه بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة وقيل سنة أربعة ومائة^(٤).

٤ - طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن^(٥).

أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذه عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُذَّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة^(٦).

روى عنه خلق من التابعين، منهم: مجاهد، وعطاء، وعمر بن دينار وغيرهم^(٧). شهد له ابن عباس بالورع والتقوى فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»^(٨). وطاوس ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كان طاوس - رضي الله عنه - جريئاً في الحق، لا يخشى فيه لومة لائم.

روى الزهري^(٩): أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمال وكمال، فقال: من

هذا يا زهري؟

(٥) البداية والنهاية ٢٤٤/٩.

(١) البداية والنهاية ٢٥٥/٩.

(٦) التفسير والمفسرون ١١٤/١.

(٢) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.

(٧) البداية والنهاية ٢٤٥/٩.

(٣) البداية والنهاية ٢٥٩/٩.

(٨) تهذيب التهذيب ٩/٥.

(٤) تهذيب التهذيب ٧/٢٦٣ - ٢٧٣، تذكرة

(٩) البداية والنهاية ٢٤٧/٩.

الحفاظ ١/٩٠، البداية والنهاية ٩/٢٥٣.

فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأثاه، فقال: لوما حدثتنا؟! فقال: حدثني أبو موسى قال: قال رسول الله - ﷺ -:

«إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولي أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم». فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال: لوما حدثتنا!!

فقال: حدثني رجل من أصحاب النبي - ﷺ - قال ابن شهاب: ظننت أنه أراد علياً - قال: دعاني رسول - ﷺ - إلى طعام في مجلس من مجالس قريش، ثم قال:

«إن لكم على قريش حقاً، ولهم على الناس حق، ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا ائتمنوا أدوا، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال: لوما حدثتنا!! فقال: حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

علمه: بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا...

أنكر عليه سعيد بن جببر قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاق، فلقبه مرة فقال له: «لقد قرأت القرآن قبل أن تولد، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك همك لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد:

«كان طاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جداً، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقطة التفسير المأثور عنه وطول بابه في الفقه قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسر، وعده علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية «هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

وقد توفي طاوس - رضي الله عنه - يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ، ووافته منيته وهو يحج بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ - عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي مسرة بن أبي حُثيم الفهري^(٢).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٦٧/٥، وفيات الأعيان ٣١٨/١، البداية والنهاية ٣١٧/٩، ٣١٨.

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة^(١).

قال ابن سعد^(٢):

سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أعور، أفتس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك.

وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد^(٣):

ما بقي أحد في زكاته أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حج سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة، منهم ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش وغيرهم^(٤).

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء^(٥)؟ وقال قتادة^(٦):

كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

لم يكن عطاء مكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي^(٧).

قال عبد العزيز بن رفيع^(٨): سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقليل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي. لكنه كان يدلي برأيه - أحياناً - في التفسير.

روى الطبراني - بسنده - عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٧٠.

(٥) تذكرة الحفاظ ١/ ٩١.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٦، البداية والنهاية ٩/ ٣١٨. (٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٩.

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨. (٧) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.

(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣١٨. (٨) التفسير والمفسرون ١/ ١١٥.

يصلحون* قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها^(١).

وقيل لعطاء: إن ها هنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال ﴿والذين
امتدوا زادهم هدى﴾ فما هذا الهدى الذي زادهم؟ قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا
من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا
الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ فجعل ذلك ديناً^(٢).

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة^(٣).

وبعد..

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس،
وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يدي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها
نرصد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيأ لها هذا الدور: نبوغ
شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيت الحرام الذي يأتيه الناس من كل
فج عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ
الأهمية خارج مكة.. فقد كان لسعيد بن جبير رحلة إلى الري نشر فيها الكثير من العلم^(٤)،
وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم ابن عباس
وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، إذ رحل إلى خراسان،
واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين^(٥).

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مَدْرَسَةُ الْمَدِينَةِ

تَلَامِيذُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ:

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه
- فهو أستاذها وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من التابعين، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أبي» يعلمهم كتاب الله
وسنته.. ومن أشهر هؤلاء:

(١) ، (٢) البداية والنهاية ٣١٨/٩، ٣١٩.

(٣) المصدر نفسه ٣١٧/٩.

(٤) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.

(٥) راجع: وفیات الأعيان ٣١٩/١، معجم الأدباء ١٨١/١٢، البداية والنهاية ٢٥٤/٩.

١ - أبو العالية :

هو: زياد وقيل: رفيع بن مهران الرياحي، مولاهم^(١).
 مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي - ﷺ - بستين.
 روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وغيرهم.
 كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة.
 كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال:
 «قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين».
 وقال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات».
 وقال فيه ابن أبي داود:
 «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».
 رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن
 أبي العالية عن أبي، وهو إسناد صحيح.
 توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢ - محمد بن كعب القرظي :

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله.
 له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة منهم:
 علي، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبي بن كعب بالواسطة^(٢).
 قال فيه ابن سعد^(٣): كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وهو من رجال الكتب
 الستة.
 قال فيه ابن عون^(٤):

ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

نموذج من تفسيره^(٥): قال في قوله تعالى: ﴿... اصبروا وصابروا ورابطوا...﴾
 اصبروا على دينكم، وصابروا لوعدكم الذي وعدتم، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن،
 واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني.
 توفي سنة مائة وثمان من الهجرة^(٦) وقيل بعد ذلك.

(١) راجع: تهذيب التهذيب ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١١٦/١، ١١٧.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨ وما بعدها.

(٣) ، (٤) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ١١٧، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨.

(٥) البداية والنهاية ٩/ ٢٦٨.

(٦) المصدر نفسه.

٣ - زيد بن أسلم:

هو^(١): زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر. أبو أسامة أو أبو عبد الله. كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير. قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي: ثقة، وهو عند أصحاب الكتب الستة.

عرف بغزارة العلم. كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، إذ يرى جواز التفسير بالرأي. وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة. وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، وقيل غير ذلك.

مَدْرَسَةُ الْعِرَاقِ

تَلَامِيذُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ:

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وغيره، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها، أو هو أستاذها الأول لطول بابه في هذا الميدان، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين ولي عمار بن ياسر على الكوفة سير معه عبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس إليه أهل الكوفة وأخذوا عنه أكثر من غيره. ومن أهم سمات هذه المدرسة: شيوع طريقة الاستدلال فيها، نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود^(٢). ومن أشهر رجال هذه المدرسة:

١ - علقمة بن قيس:

هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل، النخعي، الكوفي. كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم. وكان يشبه بابن مسعود، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود^(٣). قال عثمان بن سعيد: «قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخير، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله». وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

(١) تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥ - ٣٩٧، وراجع: التفسير والمفسرون ١/ ١١٨، ١١٩.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٣) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٦ - ٢٧٨، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩.

قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. مات سنة إحدى وستين، وقيل سنة اثنتين وستين عن تسعين سنة^(١).

٢ - مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة. سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن^(٢).

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه، قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه. وقد وثقه علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له الستة.

توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر^(٣).

٣ - عامر الشعبي:

هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل أبو عمرو. قاضي الكوفة^(٤).

كان علامة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون. وقد أدرك خلقاً من الصحابة، وروى عنهم، ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة.

والشعبي ثقة، فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين.

(١) راجع المصدرين السابقين

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/ ١٢١، ١٢٢، والإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٩ - ١١١، التفسير والمفسرون ١/ ١٢١، ١٢٢، والإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٤) تهذيب التهذيب ٥/ ٦٥ - ٦٩، البداية والنهاية ٩/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

وقال ابن سيرين:

قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله - ﷺ - يومئذ كثير^(١).

ومع أنه قد أوتي هذا الحظ الوافر من العلم لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه. قال ابن عطية^(٢):

كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.
توفي سنة أربع ومائة من الهجرة^(٣)، وقيل سنة تسع ومائة.

٤ - الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار. وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي - ﷺ -، ربي في حجرها وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة^(٤).

ولد لستين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب.

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك:

«سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا» وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخ أهل البصرة».

وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال:

«ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقول عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»^(٥).

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلقة بالله وصفاته،

ولم يمنعه هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرض لغيرها، يقول في تفسير قوله تعالى:

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما يتعلق بالآية من سبب نزولها، فعن أبي هريرة قال:

جاءت مشركو قريش إلى النبي - ﷺ - يخاضمون في القدر، فنزلت هذه الآية ﴿إنا

كل شيء خلقناه بقدر﴾^(٦).

(١) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.

(٢) مقدمة تفسير القرطبي ٣٤/١.

(٣) البداية والنهاية ٢٣٩/٩.

(٤) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢ - ٢٧٠، البداية والنهاية ٢٨٠/٩، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن الجوزي - هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨ هـ.

(٥) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢.

(٦) البغوي الفراء ٢٢١.

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره. يقول في قوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾:

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال لابثين فيها أحقاباً، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود»^(١).
وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة.

٥ - قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز وغيرهم^(٢).

وحدث عنه جماعات من الكبار كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، وغيرهم.

وكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.

كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى؛ وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقي أحسن من قتادة».

وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي رضي الله عنه سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة عن ست وخمسين سنة على المشهور. وقيل سنة خمس عشرة ومائة^(٣).

وبعد...

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تلقوا غالب أقوالهم في التفسير عن الصحابة، وبعضهم استعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول - ﷺ - والعرب الخالص، فلم تفسد سليقتهم...

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث. ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها:

(١) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٢) وفيات الأعيان ١٧٩/٢، البداية والنهاية ٣٢٦/٩، تهذيب التهذيب ٣٥١/٨.

(٣) راجع: تهذيب التهذيب ٣٥١/٨ - ٣٥٦، البداية والنهاية ٣٢٥/٩، ٣٢٦.

يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله وغيرهما.
ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب
ابن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعو
التابعين ليكملوا المسيرة وظلت تتوارث حتى وصلت إلينا، فجزى الله كل من أسهم في هذا
العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه.

قِيمَةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ التَّابِعِينَ

تفسير التابعي إما أن يكون مأثوراً عن النبي - ﷺ - أو عن صحابته، أو لا. فإن كان
مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيره - ﷺ -، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة.
وإن لم يكن مأثوراً عن النبي ولا عن الصحابة فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه
والأخذ بأقوال التابعين فيه.

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال^(١):

ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيّرنا، وما
جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول^(٢).

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين، لأنهم لم يسمعو من النبي - ﷺ -
بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي - ﷺ - وشاهدوا القرائن والأحوال.

وأكثر المفسرين على الأخذ بأقوال التابعين، لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة كما سبق
أن ذكرنا.

والرأي الذي نرجحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال^(٣):

«قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في
التفسير!! يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خلفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا
على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض
ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو
أقوال الصحابة في ذلك».

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ - ٢٩، الإتيقان في علوم القرآن ٢/١٧٩.

سِمَاتُ التَّفْسِيرِ فِي تِلْكَ المَرَحَلَةِ

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات، من أبرزها^(١):

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة أستاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذها ابن مسعود... وهكذا.

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم - فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية - بدون تحرر ونقد، وأكثر من زوي عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب:

عبد الله بن سلام، كعب الأحبار، وهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهياً أن يختلف التابعون في التفسير، نظراً لتعدددهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرجوا فيها، ولكنه خلاف ليس بالكثير إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرت نواة الخلاف المذهبي، إذ ظهرت بعض التفسيرات تحمل في طياتها بذوراً لتلك المذاهب...

التَّفْسِيرُ فِي عَصْرِ التَّدْوِينِ

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقين الناس الفقه وشؤون التشريع. وكان كثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون...»^(٢).

تدوين التفسير: اختلف في أول من ألف تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جريج»^(٣) [ت ١٤٩ هـ] هو أول من ألف تفسيراً مكتوباً.

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلب قال: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه

(١) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٣١، ١٣٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٣) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أو أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاهم، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠ هـ، توفي سنة ١٤٩ هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.

فعلت، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أُملي عليكم كتاباً في القرآن... فقال الفراء لرجل اقرأ بفاتحة الكتاب نفserها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفسر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه»^(١).

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفراء» أول من ألف تفسيراً للقرآن مدوناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدون كان قبل الفراء وقبل ابن جريج إذ يقول^(٢):

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦ هـ] سأل سعيد بن جبیر [ت ٩٥ هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبیر».

ويبدو أنه من الصعب تحديد أول من فسر القرآن تفسيراً مدوناً على تتابع آياته وسوره كما في المصحف.

أقسام التفسير

وظل الخلف يحمل رسالة السلف جيلاً بعد جيل حتى وصلت مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعددت اتجاهات التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

أولاً - الاتجاه الأثري (التفسير بالمأثور)

والمأثور: اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً: والأثر اسم منه، وحديث مأثور: أي منقول^(٣).

وعلى ذلك فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى - في القرآن الكريم -، والمنقول عن النبي - ﷺ -، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدثون عن الاتجاه الأثري يبدأونه بالطبري فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني، لأن تفسير ابن جرير الطبري ألف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع... وبالوقوف على هذه الحلقة - وهي إفريقية تونسية - يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم...

«ذلك التفسير هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسس

(١) الفهرست ص ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٩٨/٧.

(٣) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شعبة ص ٦٤).

طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار إليه بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها. ذلك هو تفسير «يحيى بن سلام» التميمي البصري المتوفى سنة ٢٠٠ هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبيّن اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي. . وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس^(١). ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمره غرسه. وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الاتجاه الأثري منهم:

* يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.

* شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.

* وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.

* سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

«ابن جرير الطبري»^(٢):

لكن التفسير حين انتهى إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذا ركام ورواسب، قد انصب إلى بحر خضمّ غُباب، فامتزج بمائه، وتشرب من عناصره، وصفاً إليه من زبده، وتظهر لديه من ركامه ورواسبه»^(٣).

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبحر في فنون شتى من العلم، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك». فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام. يقول الخطيب البغدادي^(٤):

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله...».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير فاستخدمها بمهارة وحقق، ومن هنا عُدّ تفسيره «ذا أولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من الناحية الفنية والصياغة. . أما أوليته الزمنية فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور

(١) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

(٢) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤ هـ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٣) التفسير ورجاله ص ٣٠.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

الزمن، ولم يصل إلينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنایا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصددده^(١).

«وأما أوليته من ناحية الفن والصياغة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجته للناس كتاباً له قيمته ومكانته^(٢).
طَرِيقَةُ الطَّبْرِيِّ فِي التَّفْسِيرِ:

حين يفسر الطبري آية يضع لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه...» ثم يقول: يعني تعالى بذلك...، ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربي على ما ثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه.

وقد يعرض أقوال الصحابة والتابعين إذا تعددت في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرد العرض، وإنما يرجح رأياً على رأي بقوله^(٣):

«وأولى الأقول عندي بالصواب...» أو «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية...»، أو «وأولى التأويلات بالآية...». ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل...» أو بعرض حجج وأدلة قائلًا: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية لأن...» وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو فهو من علماء القراءات المشهورين وله فيها مؤلف، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم.

كما اهتم الطبري بالشعر القديم، يستشهد به على الغريب وهو في ذلك تابع لابن عباس. كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجهه.

ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره مختاراً لأحد الآراء، مؤيداً اختياره بالأدلة العلمية القيمة^(٤).

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء...

ثانياً: الاتِّجَاهُ اللُّغَوِيُّ:

وقد بدا هذا الاتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، إذ نشأ علم النحو، ونضجت علوم اللغة على أيدي الرواد أمثال أبي عمرو بن العلاء، ويونس ابن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم.

(١) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل ابن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٥.

(٣) راجع: تفسير الطبري.

(٤) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٢ - ٢١٨.

وكان الغرض الأسمى من تأصيل هذه العلوم وتقييدها خدمة القرآن الكريم، صيانة له من اللحن، ولا سيما بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراسات في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً، إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عبيدة معمر بن المثنى» المتوفى سنة ٢٠٨ هـ أو ٢١٥ هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨ هـ^(١) ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلف في معاني القرآن وصل إلينا.

وأبو عبيدة موسوعة علمية له مؤلفات في مجالات شتى، وقد «أوتي لساناً صارماً جلب على نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفس به العمر قرابة قرن كامل زامل فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوماً كثاراً، وشهد تلاميذه ومن في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فغرب وباعد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشيع جنازته أحد، وعلل ذلك بما ترك من حزازات أدبية»^(٢).

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك إليّ واستدنانني حتى جلست إليه على فرشة ثم سألني وألطفني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشده فطرب وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له: أتعرف هذا؟ قال لا. قال هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه. فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا، وقال لي: إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟

فقلت: هات، قال: قال الله عز وجل: ﴿طُلِعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف. فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس: [الطويل]

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ رُزْقٍ كَأَنِّيَابِ أَعْوَالِ
وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز، وسألت عن الرجل السائل فقل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب»^(٣).

(١) معجم الأدباء ١٥٨/١٩.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٦٠/١٩.

(٣) معجم الأدباء ١٥٨/١٩.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة لأن أبا عبيدة لم يشر إليها في مقدمة كتابه . . . (١)
ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير من يسلك أبا عبيدة - من خلال كتابه هذا - في
سلك الاتجاه البياني في التفسير، وأكثرهم يعده رائداً في الاتجاه اللغوي.
على أن أبا عبيدة «لم يعن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما
يعبر به عن الآية» (٢).

فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ. فمثلاً في قوله تعالى ﴿رب
أوزعني أن أشكر نعمتك﴾ يقول: «مجازه: شددني إليك، ومنه قولهم: وزعني الحلم عن
السفاه أي منعني، ومنه الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء» ثم
يستشهد بالبيت:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقُلْتُ أَلَمَّا تَضَحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ (٣)
وأما أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فكان يستعين بتفسيرات السلف مضيفاً له
ما أدى إليه اجتهاده اللغوي، وكذا الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ (٤).

لقد استلهم الفراء الحسن اللغوي محكماً ذوقه وعقله، كما راعى السياق العام في
الآية ولذا نجده يفضل قراءة تحقق التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها (٥).

ثالثاً: الاتجاه البياني (٦)

وبذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس الموثوث في ثنايا التفسير الأثري ومن
أمثلة ذلك ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. أن عمر رضي الله عنه سأل الناس
عن هذه الآية فما وجد أحداً يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين إني
أجد في نفسي منها شيئاً فتلفت إليه فقال تحول ها هنا لم تحقر نفسك؟ قال:

هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْمَلَ عَمْرَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَأَهْلِ
السَّعَادَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى أَنْ يَخْتِمَهُ بِخَيْرٍ حِينَ فَنِيَ عَمْرَهُ وَاقْتَرَبَ أَجَلُهُ خَتَمَ

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات
لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٩٢/٢، ٩٣.

(٤) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهها ثالثاً بدلاً من هذا يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»،
وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله فحرقه أحوج ما كان إليه^(١).

«وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد أُلْمِعَ إليه ابن عباس بقوله المقارب هذا مثل ضربه الله عز وجل... الخ، وهل قال البلاغيون فيما بعد غير ذلك!»^(٢).

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهد»^(٣) وأما تأصيل هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عبيدة» صاحب «مجاز القرآن»، ويعد صاحب الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

«وفضل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه حين تعرض للنصوص القرآنية أشار إلى ما تدل عليه من حقيقة أو مثل أو تشبيه أو كناية وما يتضمن من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن... وإذا كان عبد القاهر أظهر من نادى من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية النظم، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأى في زمنه السابق ما رآه صاحب الدلائل في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائد الأول لعلم المعاني عند من يلتمسون الجذور الضاربة في الأعماق»^(٤).

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المصحف ومن هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عبيدة في توجيه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(٥) حيث قال: إنها كناية وتشبيه^(٦).

ومن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾^(٧) حيث أتبع الآية بتحليل بياني وعدها من مجاز التمثيل حين قال:

«ومجاز الآية مجاز التمثيل لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جُرْفٍ وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه»^(٨).

(١) تفسير ابن جرير ٤٧/٣.

(٢) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.

(٣) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.

(٤) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.

(٥) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٦) راجع: مجاز القرآن ١/٧٣.

(٧) الآية ١٠٩ من سورة التوبة.

(٨) مجاز القرآن ١/٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

وتلك هي الخطوة الأولى خطاها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم وإن وجهت إليه كثير من النقود والمطاعن من علماء كبار أمثال الفراء والأصمعي والطبري^(١) . .

ثم تلت هذه الخطوة خطوات الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما حتى عصرنا هذا وبالله التوفيق .

(١) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها .

بعض ما حوى الكتاب

أولاً: الشواهد الشعرية في الكتاب

كان للشواهد عند العلامة ابن عادل مكانة عليا في بناء القواعد النحوية، فنراه كثير الاحتجاج بها أثناء توضيح معاني الألفاظ القرآنية. ولم يكن - رحمه الله - يتناول كلمة من حيث الإعراب إلا ويأتي بشاهد من شواهد العربية عليها. وحينما يعرض لبيان معنى غريب اللغة يوضح لغته ويبسطها. كما أنه يستشهد - في كل ذلك - بكثير من الأشعار التي تدل على صحة ما يراه، وتكشف كثيراً مما غمض من المسائل النحوية، وتفصل الخلاف بين النحاة، وترجح رأياً على آخر، وتفيد كذلك في الجانب الصرفي؛ وبعبارة موجزة؛ فإن الكتاب يعج بالاستشهادات الشعرية التي تخدم مناحي البلاغة بمفهومها الشامل. . . والأرحب^(١).

ثانياً: الحديث في اللباب

لا شك أن لكلام النبي - ﷺ - أنوار خاصة يستضيء بها الباحث في معرفة الأحكام الشرعية واللغوية فكان ابن عادل - رحمه الله - كثيراً ما يستشهد بالأحاديث النبوية في إثبات ذلك وها نحن نذكر لك طرفاً من خلاف العلماء قديماً في قضية هذا الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف.

فمن القضايا المهمة التي طرحت نفسها على الساحة اللغوية قضية الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، وجرى الاختلاف بين علماء العربية بما يروى من الأحاديث النبوية، وانقسمت الآراء إلى مانعة من الاستشهاد به، وإلى مجوزة للاستشهاد به على تفصيل سنورده. بينما اتفق علماء العربية في إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأصول النحوية، إلى القرآن الكريم، وكلام العرب الخَلَص.

وستعرض الآن لتحرير الخلاف بين العلماء في هذه القضية، ونورد احتجاج كل

فريق.

أولاً: الذين جؤزوا الاستشهاد بالحديث

حيث رأى هذا الفريق ضرورة الاحتجاج بالحديث في اللغة، بل عدوه في الأصول

(١) أردنا التعريف بفوائد الكتاب بعامه، ولو قصدنا إلى ضرب الأمثلة لاحتجنا إلى كراريس كثيرة.

التي يرجع إليها العلماء في تحقيق الألفاظ وتقرير القواعد.

وممن اندرج تحت لواء هذا المذهب ابن مالك، وابن هشام، والبدر الدماميني في شرحه لـ «التسهيل»، وابن الطيب في شرحه لـ «الاقتراح» ومن أنصار هذا المذهب أيضاً ابن جني، وابن بري، وابن فارس، وابن خروف، وابن سيده وغيرهم من علماء العربية الأجلاء.

وفلسفة هذا الفريق المجوز تستند إلى أن النبي - ﷺ - أفصح العرب لهجة، وأعظمهم نطقاً باللغة، وأعلمهم بالألفاظ واللهجات. وفي هذا يقول ابن حزم: «لقد كان محمد بن عبد الله قبل أن يكرمه الله بالنبوة وأيام كان بـ «مكة» - أعلم بلغة قومه وأفصح، فكيف بعد أن اختصه الله للندارة واجتباؤه للوساطة بينه وبين خلقه»^(١).

ويرى هذا الفريق أن الأحاديث النبوية الشريفة أصح سنداً ونقلًا مما يُنقل من أشعار العرب وكلامهم، فمن الضروري إذاً تقرير الأحكام اللغوية على أساس هذه الأسانيد القوية التي تعتبر أقوى إسناداً من الشعر.

ثانياً: الذين منعوا الاستشهاد بالحديث

يرى هذا الفريق أنه لا ينبغي الاعتماد على الأحاديث النبوية الشريفة كوسائل ودلائل لتقرير أحكام اللغة والنحو، وقالوا: لا يستشهد بالحديث لعدم الوثوق بأن ذلك لفظ رسول الله - ﷺ -.

واستند هذا الفريق إلى دليلين:

١ - وقوع اللحن في كثير من الأحاديث النبوية، وذلك لأن كثيراً من رواة الأحاديث لم ينشأوا في بيئة عربية خالصة، ولم تستقم ألسنتهم على الألفاظ العربية الفصحى، بل توصلوا إلى العربية بالتعلم والدراسة ثم اندرجوا في رواية الأحاديث فلم يرووها على وجهها الصحيح الذي ينبغي، كما خرجت من فم النبي - ﷺ -.

٢ - الدليل الثاني: هو رواية كثير من الأحاديث بالمعنى حيث إن الرواة جوزوا النقل بالمعنى، فنجد - مثلاً - القصة الواحدة قد حدثت في زمان النبي - ﷺ - ولكنها تنقل بألفاظ مختلفة وروايات متعددة لا نجزم معها بأن النبي - ﷺ - قد تلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم أنه قال بعضها؛ إذ المحتمل أنه - ﷺ - قال لفظاً آخر مرادفاً لهذه الألفاظ، فجاء الراوي وأتى بمعنى هذا اللفظ أو ما يرادفه، ولم يأت باللفظ نفسه، اعتماداً على الرواية بالمعنى.

بالإضافة إلى ذلك نجد أن رواة الأحاديث كانوا يعتمدون في رواياتهم على حفظ

(١) ينظر: الفصل في المِلل والنحل.

أذهانهم، فلم يكونوا يحفظون الألفاظ بالضبط والكتابة ولا سيما ألفاظ الأحاديث الطويلة. ومن علماء العربية الذين ارتضوا هذا المذهب ونصروه الشيخ أبو حيان في «شرح التسهيل»، وأبو الحسن الصائغ في «شرح الجمل»، والإمام جلال الدين السيوطي. يقول ابن الصائغ في «شرح الجمل»: «لولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان أولى وأثبت في إثبات فصيح اللغة كلام رسول - ﷺ».

ردود المجوزين على أدلة المانعين

بالنسبة لشبهة عدم الوثوق بأن الألفاظ التي رويت هي بعينها نصّ ألفاظ الرسول - ﷺ - التي نطق بها نتيجة نقل الرواة الأحاديث بالمعنى، فقد أجاب المجيزون على هذا بأن كثيراً من علماء الإسلام قد منع رواية الأحاديث بالمعنى، كما أنّ الذين أجازوا الرواية بالمعنى شرطوا لذلك أن يكون الراوي على علم بما يغير المعنى بالزيادة أو بالنقص، وأن يكون الراوي مُلمّاً بمدلولات الألفاظ ومواقعها.

ولقد اعترف الذين أجازوا الرواية بالمعنى بأن الرواية باللفظ هي الأولى وهي مُقدّمة، لأن الرواية بالمعنى في رأيهم ليست إلا رخصة تقتضيها الضرورة.

وأضافوا إلى ذلك أنّ إجازة الرواية بالمعنى في غير ما لم يدوّن في الكتب، أما ما دوّن في الكتب فلا يجوز التصرف فيه بوجه، كما أنه يلاحظ أنّ تدوين الكتب قد وقع قبل أن تفسد اللغة، أما ما وقع من نقل بالمعنى في الأحاديث المدونة فإنما وقع ممن يصحّ الاحتجاج بأقوالهم^(١).

وبالنسبة لشبهة تسرّب اللّحن إلى الرواة في نقل ألفاظ الأحاديث فمن الواضح أن الذين نشأوا في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة انتشاراً بحيث يرفع الثقة بفصاحة لهجتها - أن هؤلاء يوثقون بأقوالهم وإن تأخروا عن منتصف القرن الثاني، حيث إن الباحثين ذكروا أن إبراهيم بن هرّمة آخر من يحتج بشعرهم، وقد توفي عام ١٧٦ هـ. كما أن كثيراً مما يُرى أنه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد أُلّف في هذا الباب ابن مالك كتابه «التوضيح في حل مشكلات الجامع الصحيح»، حيث ذكر للأحاديث التي يشكل إعرابها وجوهاً متعددة يتضح بها أنها عربية فصيحة.

أما إذا وجدنا بعض الألفاظ غير موافقة لقواعد العربية، فلا يعني ذلك ترك الاحتجاج بالحديث جملة واحدة، وإنما يحمل أمر هذه الألفاظ على قلة ضبط أحد الرواة أو بعضهم.

خلاصة القول أنه ينبغي إدراج الأحاديث النبوية الشريفة كدلائل لتقرير الأحكام اللغوية، والاستشهادات النحوية، وإلى ذلك ذهب كثير من أئمة اللغة كأبي منصور الأزهري

(١) ينظر رسائل الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسنين ص ١٦٤.

في كتابه «التهذيب»، وابن الحاج في «شرح المقرب»، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي، وأبي علي الشلوبين وغيرهم من علماء العربية الذين أكثروا من الاستشهاد بالأحاديث في مسائلهم اللغوية والنحوية.

غير أن هناك نوعاً من الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج بها في اللغة، وقد ذكر شيخنا العلامة الخضر حسين أنواع هذه الأحاديث:

١ - الأحاديث التي رويت بقصد الاستدلال على كمال فصاحة النبي - ﷺ - كقوله: «حَمِي الْوَطِيسُ»، وقوله: «مَاتَ حَتَفٌ أَنْفِهِ» إلى غير ذلك من الأحاديث المشتملة على فصاحة النبي، ومنزلته من البيان.

٢ - الأحاديث التي تشتمل على جملة من الأقوال المتعبد بها كألفاظ التحيات والقنوت والأذكار والأدعية.

٣ - الأحاديث التي تروى شاهداً على أنه - ﷺ - كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم، حيث كان الرواة يقصدون ألفاظ الحديث لبيان المقصود.

٤ - الأحاديث التي اتحدت ألفاظها، وتعددت طرق ورودها، حيث إن اتحاد اللفظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظ هذه الأحاديث.

٥ - كذلك يقبل الاستشهاد بالأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس، وعبد الملك بن جريج، والإمام الشافعي.

٦ - الأحاديث التي عرف من حال روايتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل ابن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وعلي بن المديني.

كما أنه ينبغي أن نعلم أن هناك نوعاً من الأحاديث لا يحتج به، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول، وإنما تروى في كتب بعض المتأخرين.

ولا يحتج بهذا النوع من الأحاديث سواء أكان سندها مقطوعاً أم متصلاً^(١).

بعد هذا العرض الموجز لهذه القضية نرى الاستشهاد بألفاظ الأحاديث التي رويت في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول، وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثني من ذلك إلا الألفاظ الشاذة التي أوضحها العلماء والمحققون، ولعل ما ينصر مذهبنا هذا هو استشهاد جمهور عريض من علماء العربية بالأحاديث النبوية الشريفة في تقرير مدلولات اللغة وقواعد النحو.

(١) ينظر رسائل الإصلاح ص ١٧٤.

نسبة الكتاب للمؤلف

إن من يتصفح «اللباب» لا يشك أنه خط بيد العلامة ابن عادل الحنبلي؛ وذلك لإجماع المصادر التي قامت بالترجمة لهذا العلم الصرح أنه له.

قال حاجي خليفة^(١): «اللباب في علوم الكتاب» في ست مجلدات لسراج الدين بن عادل بن عادل أبي حفص بن علي».

وقال العلامة إسماعيل باشا البغدادى^(٢): «ومن تصانيفه «اللباب في علوم الكتاب» فرغ من تأليفه في رمضان من سنة ٨٧٩ هـ.

وقال العلامة عمر رضا كحالة: «ومن تصانيفه اللباب في علوم الكتاب في تفسير القرآن فرغ من تأليفه في رمضان سنة ٨٧٩ هـ».

وقال الأستاذ خير الدين الزركلي في الأعلام . . . صاحب التفسير الكبير «اللباب في علوم الكتاب».

وأيضاً مما يستدل به على أنه له أنه نص في أول كتابه عليه فقال « فهذا كتاب جمعته من أقوال العلماء في علوم القرآن وسميته باللباب في علوم الكتاب . . . ».

وأيضاً: أن عنوان الكتاب مثبت على غلاف المخطوط .

وأيضاً: إجماع فهرس دار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات وظهرية دمشق، وغيرها من الفهارس أن اللباب للإمام الشيخ الأجل أبي حفص عمر بن علي . وأيضاً مما يستدل به على أنه له أن السادة العلماء الأكابر قد اغترفوا منه فعلى سبيل المثال: قال العلامة شيخ المحققين وعمدة الأئمة المدققين الشيخ سليمان البجيرمي في كتابه المسمى بـ «تحفة الحبيب على شرح الخطيب»^(٣) في فصل الطلاق « . . . ففي تفسير ابن عادل روى عروة بن الزبير قال: كان الناس في الابتداء يطلقون من غير حصر ولا عدد، وكان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها كذلك ثم راجعها بقصد مضاربتها فنزلت هذه الآية ﴿الطلاق مرتان﴾ . وروي أن الرجل كان في الجاهلية يطلق امرأته ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كانت القدرة على المراجعة ثابتة له

(٣) الأعلام ٥/٥٨.

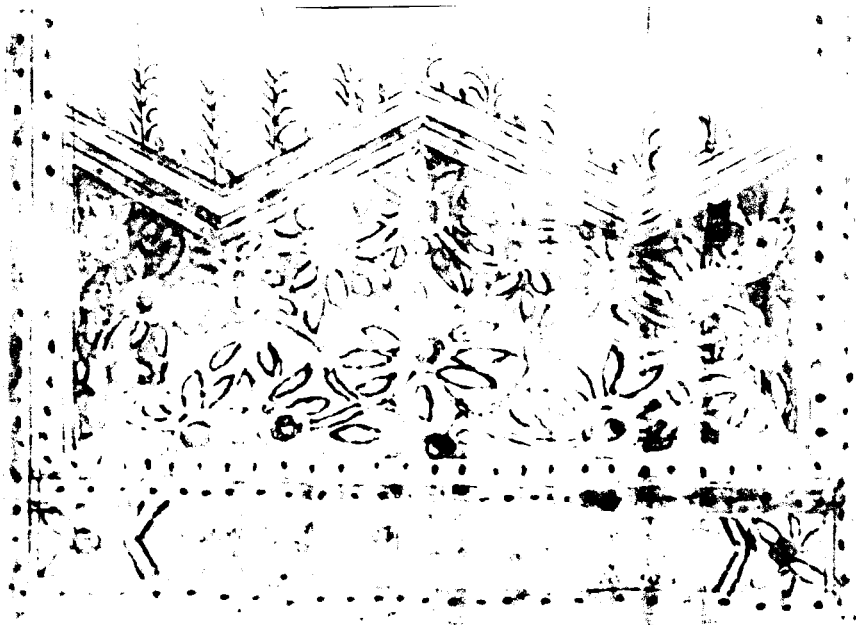
(٢) هدية العارفين ٥/٧٩٤.

(١) كشف الظنون ٢/١٥٤٣.

فجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها فشكت أن زوجها يطلقها ويراجعها يضاررها بذلك فذكرت عائشة ذلك لرسول الله - ﷺ - فنزل قوله تعالى ﴿الطلاق مرتان﴾ يعني الطلاق الذي تملك الرجعة عقبه مرتان» انتهى .

وصف نسخ «اللباب في علوم الكتاب»

- ١ - النسخة الأولى : المحفوظة بمكتبة الظاهرية وهي مكتبة الأسد الآن تحت رقم (٣٩٢) وهي نسخة كاملة لا نقص فيها ورمزنا لها بالرمز (أ).
 - ٢ - النسخة الثانية : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩٦) تفسير، مكتوبة بخط نسخ جيد وقد رمزنا لها بالرمز (ب).
 - ٣ - النسخة الثالثة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩٧) تفسير م.
 - ٤ - النسخة الرابعة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٨) تفسير م.
 - ٥ - النسخة الخامسة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٩) تفسير م.
 - ٦ - النسخة السادسة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠) تفسير م.
 - ٧ - النسخة السابعة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩١) تفسير م.
 - ٨ - النسخة الثامنة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٢) تفسير م.
 - ٩ - النسخة التاسعة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٣) تفسير م.
 - ١٠ - النسخة العاشرة : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٤) تفسير م.
 - ١١ - النسخة الحادية عشر : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٥) تفسير م.
 - ١٢ - النسخة الثانية عشر : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٦) تفسير م.
 - ١٣ - النسخة الثالثة عشر : المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٦٠٣ ب).
 - ١٤ - النسخة الرابعة عشر : المحفوظة بمكتبة مدنية ملحقة بطوبقو سراي.
- ولا يفوتنا أن نذكر أن الأستاذ الدكتور محمد سعد رمضان حصل على رسالة العالمية الدكتوراه من سورة مريم الآية (٥٩) إلى آخر سورة القصص.
- والدكتور محمد المتولي الدسوقي حصل على رسالة العالمية الدكتوراه من سورة العنكبوت إلى آخر سورة القمر وهذا هو عملهما معنا في الكتاب.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 مُحَمَّدٌ قُرَآنُكَ شَهِيدٌ لَدَيْكَ يَوْمَ بَيِّنَاتٍ وَمِنْهُ حُكْمٌ وَإِنَّهُ لَإَكْبَرُ
 نَارُ الْغَيْبِ جِهَةُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ نَبِيَّةٌ دَلِيلٌ وَإِلَيْهَا مَرْجِعُ
 وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 عَادِلٌ فَتَعَالَى مَنْ بَطَلَ الدِّينَ بِمَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَبِيلُ رُتَبٍ عَدَدُ هَجْرَةٍ يَسْئَلُونَ أَنْ يَكُنَّ فِي اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
 مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَسِيلُ أَنْ يَكُنَّ فِي يَأْتِيهَا النَّاسُ حَيْثُ وَقَوْسُ الْغَيْبِ
 أَمَّا هُوَ كَيْ قَالَ عِلْقَةٌ وَغَيْرُهَا فَيَسْبِقُهُ أَنْ يَكُونَ مَدْرَ السُّورَةِ مَكَّةَ وَمِنْهَا
 بَعْدَ الْهَجْرَةِ فَأَمَّا هُوَ مَدْرُهَا فَقَالَ الْخَطَّابُ هَذِهِ السُّورَةُ مَكَّةَ قَالَ الْفَرُجِيُّ
 وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ أَنَّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يَأْتِي فِي مَا
 نَزَلَتْ سُورَةُ النَّاسِ الْأَوَّلُ أَعْلَى مَدْرُهَا أَنَّ اللَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْبُدُ فِيهَا
 فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِي بِمَا كُنِيَ بِهِ الْمَدِينَةَ وَأَنَّ
 بَيْنَ أَحْكَامِ مَا عُلِمَ أَنَّ مَدْرَ نَبِيَّةٍ لَا مَشْكُوكَ فِيهَا وَأَنَّ سِرَّ مَا يَأْتِيهَا النَّاسُ حَيْثُ وَقَعَ فَلَيْسَ

سورة بني اسرائيل

روى في بنينا من انما كره قوله تعالى وان كان ذلك من الارض انك قوله واحل في سر له ان لا يطأ
فانما يدنا من حين جاء وقد يقف وهي باه واحد يمشي اثم والف وحسن باه ولاه والتمون كله وبعه وحروها ستر
الاف واربع مائة وستة وخمسون قال قوله تعالى سبحان الله الذي لا اله الا هو قال الصوفى سبحان اسم علم
للتسبيح يقال سبح الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحا اسم علم للتسبيح كقوله كبرت التين كثيرا وكبرنا ونقدم الكلام
عليه في اول البقرة ومناه تزيه الله من كل سوء قاله مكي معنى سبح الله تزيه الله من السوء وهو يروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع سبحا لله تسبيحا وهو معرفة الف افراد وفي احدى اراءه ان الالف والواو
فانسخ من الصوفى للتسبيح والالف والواو وحكي صيغته ان من العرب من يكره فيقول سبحا لله التسبيح والواو عجمية
على انما كانه قال سبحا لله سبحا الذي ليس له احد قال الصوفى سبحا اسم موضع المصدر وهو غير ممكن لانه لا
يجري وجع الاخرى ولا يدخل فيه الالف واللام ولم يجره فعل ولم يجره لان في ادع زائد من وحسن الله
البراه الله من كل خسر فهو كره عظيم لا يصح تغيره فاما قول الساعى

انول لما جاني فخر سبحان من علوه الفاحر

فاما ذكره على طريق

انما دروى عليه زجيد الله انه قال النبي صلى الله عليه وسلم ما سئ سبحان الله قال تزيه الله من كل سوء ولا صاحب
التسبيح في الله التامة قال تعالى انك في الهيا رحا طويلا ايها طويلا فتنى مع اعماى صدر وترحه عالا يمشى والتسبيح
سبحا اخره كون معنى الصلاة كقوله تعالى فلول الله كانه من المسبح اي المصلين والسبح صلاة العاطلة والافيل تسلي
سبح لا يحظره الصلاة وسبح له عالا يمشى وتديرة التسبيح معنى الاستغناء كقوله تعالى قال اوسطهم امر اهل مكة لا
فيصرون اي يستثنون وتاويله ايضا هو على عظيم الله في الاستغناء مشيئة وحيا ولهم ثلث لاحد سبحا وحجه
قيل مشا وحجه قيل نور وحجه الذي ذراه الراى قال سبحا زاه ويكون سبحا معنى التسبيح ووله لسرى فيه لعان
لشركه وسرى وشهدم الكلام عليها في سورة هود وان يفسر خسر لسرى اهل قال المحضري هنا فان قلت الاسرى لكان
الا لا تاقا معنى ذكر البيل قلت اراد بقوله ليل لفظ التكثير بتدليل مدة الاسر اراد اسرى به وبمعنى البيل من مكة الى
القام مسير اربعين ليلة وذلك ان التكبير على التكسية ويشهد له ذلك قراءة عباده وحديثه من انبواى بحضه كقوله
ومن البيل يتجه به انتهي يكون سري واسرى كسقى واسقى والحسن ليست للتعدد واما المعنى الثاني فهو وقد عده
الا لا تقتضى معاجلة الفاعل للمفعول عند المحذور في النوع خلافا لغيره وعبر عن عليه رفعه اسرى به وان
التقدير به اخرج فقال ويظهر ان اسرى سدا بالطين الى حفره من حيث اسرى الملكك بعد لانه خلقا من اسرى
وهو معنى سري الى الله تعالى انه قد قيل يقتضى الفاعله كقضى وجري واحضر اسفل ولا يحسن انما رضى مرده اس
وجرد منه عنه فانما وقع في الشريعة على مرادك وانما خرايته هو ردة وهذا كله انما به اعتقاد اهل
انما يتدبره بالانقضى صاحب الفاعل للمفعول فزاد ونقدم الراء على هذا المذهب في اول البقرة في قوله تعالى
ولولا الله لذهب مبهم من حوزان يكون اسرى به

الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِشِيرٍ وَنَذِيرٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَبَعْدُ، فَهَذَا كِتَابٌ جَمَعْتُهُ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي غُلُومِ الْقُرْآنِ وَسَمَّيْتُهُ: «اللباب في علوم الكتاب»، وَمِنْ اللَّهِ أَسْأَلُ الْعَوْنَ، وَبُلُوغَ الْأَمَلِ، وَالْعِصْمَةَ مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ.

الاستِعَاذَةُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

هَذَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ إِجْمَاعًا، وَإِنَّمَا تَعَرَّضْتُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ وَاجِبٌ فِي أَوَّلِ الْقِرَاءَةِ، أَوْ مَذْهُوبٌ، وَقِيلَ: وَاجِبَةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَحْدَهُ.

وَأَصَحُّ كَيْفِيَّاتِ اللَّفْظِ هَذَا اللَّفْظُ الْمَشْهُورُ؛ لِمَوَافَقَتِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. وَرَوَوْا فِيهِ حَدِيثَيْنِ:

قال الشافعي^(١) - رضي الله عنه -: وَاجِبٌ أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ،

(١) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف جد النبي ﷺ. وشافع بن السائب هو الذي ينسب إليه الشافعي، لقي النبي ﷺ في صغره، وأسلم أبوه السائب يوم بدر فإنه كان صاحب راية بني هاشم. وكانت ولادة الشافعي بقرية من الشام يقال لها غزة. قاله ابن خلكان وابن عبد البر. وقال صاحب التنقيب (بمصر) من مكة، وقال ابن بكار (بعسقلان)، وقال الزوزني (باليمن) والأول أشهر، وكان ذلك في سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي مات فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله. حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم سلمه أبوه للتفقه إلى مسلم بن خالد مفتي مكة فأذن له في الإفتاء وهو ابن خمسة عشر سنة، فرحل إلى الإمام مالك بن أنس بالمدينة فلزمه حتى توفي مالك رحمه الله، ثم قدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة وأقام بها سنتين، فاجتمع عليه علماءها وأخذوا عنه العلم. ثم خرج إلى مكة حاجاً ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهرين أو أقل فلما قتل الإمام موسى الكاظم خرج إلى مصر فلم يزل بها ناشراً للعلم وصنف بها الكتب الجديدة. وانتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الجمعة سُلخ رجب سنة أربع ومائتين.

وهو قولُ أَبِي حَنِيفَةَ^(١) - رضي الله عنه - قالوا: لَأَنَّ هذا النظمَ موافقٌ لِلآيَةِ المتقدِّمةِ، وموافقٌ لظاهرِ الْحَبَرِ.

وقال أَحْمَدُ^(٢) - رضي الله تعالى عنه -: الْأَوَّلَى أَنْ يقولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ هو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؛ جَمْعاً بين الْآيَتَيْنِ.

وقال بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ: الْأَوَّلَى أَنْ يقولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ لِأَنَّ هذا - أيضاً - جَمَعَ بين الْآيَتَيْنِ.

وروى الْبَيْهَقِيُّ^(٣) في كتابِ «السُّنَنِ» بِإِسْنَادِهِ، عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ كَبَّرَ ثَلَاثًا، وقال: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ^(٤).

= ينظر التاريخ الكبير: ٤٢/١، الجرح والتعديل ٢٠١/٧، حلية الأولياء ٦٣/٩: ١٦١، طبقات الفقهاء للشيرازي (٤٨: ٥٠)، طبقات الحنابلة: ٢٨٠/١، صفة الصفوة: ٩٥/٢، وفيات الأعيان: ١٦٣/٤ - ١٦٩، تذكرة الحفاظ: ٣٦١/١ - ٣٦٣، الكاشف: ١٧/٣؛ طبقات الشافعية لابن هداية الله: ص (١١: ١٤).

(١) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة سنة ٨٠هـ. وكان يبيع الخبز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. وأراد عمر بن هبيرة (أمير العراقيين) على القضاء، فامتنع ورعاً. وأراد المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات. وكان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقاً، قال الإمام مالك، يصفه: رأيت رجلاً لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته. وكان كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة، جهوري الصوت، إذا حدث انطلق في القول وكان لكلامه دوي. وعن الإمام الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. له مسند في الحديث جمعه تلاميذه، والمخارج في الفقه، صغير. توفي ببغداد سنة ١٥٠هـ.

ينظر الأعلام: ٣٦/٨، تاريخ بغداد: ٣٢٣/١٣ - ٤٢٣ وابن خلكان: ١٦٣/٢ والنجوم الزاهرة: ٢/١٢ والبداء والنهاية: ١٠٧/١٠ والجواهر المضية: ٢٦/١.

(٢) أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي. ولد سنة ١٦٤، أخذ الفقه عن الشافعي، وسلك مسلكه، صنف المسند. قال إبراهيم الحربي: كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين. توفي سنة ٢٤١.

ينظر طبقات ابن قاضي شعبة: ٥٦/١، وحلية الأولياء: ١٦١/٩، وتذكرة الحفاظ: ٤٣١/٢.

(٣) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الإمام الحافظ الكبير، أبو بكر البيهقي. سمع الكثير ورحل وجمع وصنف، مولده سنة ٣٨٤، تفقه على ناصر العمري، وأخذ علم الحديث عن أبي عبد الله الحاكم، وكان كثير التحقيق والإنصاف، قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه مئة إلا البيهقي، فإن له على الشافعي مئة لتصانيفه في نصرته مذهبه، ومن تصانيفه: السنن الكبير، والسنن الصغير، ودلائل النبوة وغيرها. مات سنة ٤٥٨. انظر: ط. ابن قاضي شعبة ٢٢٠/١، الأعلام ١١٣/١.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٥/١) رقم (٧٧٥). وأخرجه البيهقي (٣٤/٢) كتاب الصلاة: باب الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك.

وقال الثَّورِيُّ^(١)، والأَوْزَاعِيُّ^(٢): الْأَوَّلَى أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وَرَوَى الضَّحَّاكُ^(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَام - عَلَى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - قَالَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: اسْتَعِذْ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَالَ: قُلْ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْخَفِيَّ الرَّجِيمَ﴾ ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].
وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَجِيدِ مِنَ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ.

فَصْلٌ

اتَّفَقَ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ وَقْتَ الاسْتِعَاذَةِ قَبْلَ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ.

وَعَنِ النَّخْعِيِّ^(٤): أَنَّهُ بَعْدَهَا، وَهُوَ قَوْلُ دَاوُدَ الْأَصْفَهَانِيِّ^(٥)، وَإِخْدَى

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهب بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن مالك بن ملكان بن ثور بن عبد مناة بن أَدُ بن طابخة على الصحيح، وقيل: من ثُور هَمْدَانَ، الثوري أبو عبد الله الكوفي أحد الأئمة الأعلام، كان من الفضلاء، وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه، كان متقناً ضابطاً زاهداً ورعاً. ولد سنة سبع وسبعين، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ.

ينظر الخلاصة: ٣٩٦/١ (٢٥٨٤) ابن سعد: ٢٥٧/٦ - ٢٦٠ والحلية: ٣٥٦/٦ - ٤٩٣ و٣/٧ - ١٤١.

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي، أبو عمرو، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية في العلم والورع، ولد بـ «بعلبك» سنة ٨٨هـ، وسكن بيروت، وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع. قال صالح بن يحيى: «كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان...». له كتاب «المسائل» يقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة، أجاب عنها كلها، وكانت الفتيا تدور على رأيه ببلاد الأندلس. توفي بـ «بيروت» سنة ١٥٧هـ.

ينظر ترجمته في وفيات الأعيان: ٢٧٥/١، حلية الأولياء: ١٣٥/٦، الأعلام: ٣٢٠/٣.

(٣) الضحّاك بن مزاحم البلخي الخراساني، مفسر، كان يؤدّب الأطفال، ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، قال الذهبي: يطوف عليهم على حمار، ذكره ابن حبيب تحت عنوان أشرف المعلمين وفقهاؤهم له كتاب في التفسير توفي ١٠٥هـ.

ينظر ميزان الاعتدال: ٤٧١، المحبر: ٤٧٥، العبر للذهبي: ١/١٢٢٤. تاريخ الخميس: ٣١٨/٢، الأعلام: ٢١٥/٣.

(٤) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي: من مذحج، ولد في ٤٦هـ، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث من أهل الكوفة، مات مختفياً من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماماً مجتهداً له مذهب، ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله، توفي في ٩٦هـ.

ينظر الأعلام: ٨٠/١، وطبقات ابن سعد: ١٨٨-١٩٩، وتاريخ الإسلام: ٣٣٥/٣، وطبقات القراء: ٢٩/١.

(٥) أبو سليمان داود بن علي بن خلف بن سليمان الأصبهاني، ثم البغدادي إمام أهل الظاهر، ولد سنة ٢٠٠، وأخذ العلم عن إسحاق وأبي ثور. قال العبادي: وكان من المتعصبين للشافعي، وصنف كتابين في فضائله والثناء عليه. مات سنة ٢٧٠هـ.

الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ^(١).

وقالوا: إِذَا [قَرَأَ]^(٢) الْفَاتِحَةَ وَأَمَّنَ، يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ.

دَلِيلُ الْجُمْهُورِ: مَا رَوَى جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ^(٣) - رضي الله عنه -: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفَ وَكَرَّمَ وَبَجَلَ وَعَظَّمَ وَقَحَّمَ - حين افتتح الصلاة قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَثِيرًا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»^(٤).

وَاحتَجَّ المخالف بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] دَلَّتْ هذه الآية على أَنَّ قراءة القرآن شَرْطٌ، وَذَكَرَ الاستِعَاذَةَ جَزَاءً، وَالْجَزَاءُ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الشَّرْطِ؛ فوجب أَنَّ تكون الاستِعَاذَةُ مُتَأَخِّرَةً عَنِ الْقِرَاءَةِ.

ثُمَّ قالوا: وهذا مُوَافِقٌ لما في العقل؛ لِأَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَقَدْ اسْتَوْجَبَ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، فَرُبَّمَا يَدْخُلُهُ الْمُعْجَبُ؛ فَيَسْقُطُ ذَلِكَ الثَّوَابُ، لِقَوْلِهِ - عليه الصلاة والسلام -: «ثَلَاثُ مُهْلِكَاتٍ» وَذَكَرَ مِنْهَا إِعْجَابَ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ^(٥)؛ فلهذا السَّبَبِ أَمَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - [بأنَّ]

= انظر طبقات ابن قاضي شهبة: ٧٧/١، وفيات الأعيان: ٢٦/٢، وطبقات الفقهاء: ص ٥٨.

(١) محمد بن سيرين الأنصاري، مولاهم أبو بكر الأنصاري إمام وقته، عن مولاه أنس وزيد بن ثابت وعمران بن حصين وأبي هريرة وعائشة وطائفة من كبار التابعين، وعنه الشعبي وثابت وقتادة وأيوب ومالك بن دينار وسليمان التيمي وخالد الحذاء والأوزاعي وخلق كثير، وقال بكر المزني: والله ما أدركننا من هو أروع منه، قال حماد بن زيد: مات سنة عشر ومائة.

(٢) في أ: أفرغ.

(٣) جبیر بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف النوفلي، أبو محمد أو أبو عدي المدني، أسلم قبل حُتَيْنٍ أو يوم الفتح، له ستون حديثاً، اتفقا على ستة وانفرد البخاري بحديث ومسلم بآخر، روى عنه ابنه محمد ونافع وسليمان بن صرد وابن المسيب وطائفة، وكان حليماً وقوراً عارفاً بالنسب، وذكر ابن إسحاق أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أعطاه مائة من الإبل، توفي سنة تسع أو ثمان وخمسين بالمدينة.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٨٥/١، وتهذيب التهذيب: ٦٣/٢، وتقريب التهذيب: ١٦١/١، والكاشف: ١٨٠/١، وتاريخ البخاري الكبير: ٢٢٣/٢، وتاريخ البخاري الصغير: ٦/١، ١٠، ١٠٥، والجرح والتعديل: ٢١١٢/٢، وتجريد أسماء الصحابة: ٧٨/١، وأسد الغابة: ٣٢٢/١، والإصابة: ٤٦٢/١، والاستيعاب: ٤٣٢/١، وشذرات الذهب: ٥٩/١، ٦٤.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٦٤)، وابن ماجه (٢٦٥/١) رقم (٨٠٧)، والطيايسي (٩٤٧)، والبيهقي (٣٥/٢)، وأحمد (٨٥/٤)، والحاكم (٢٣٥/١).

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وأخرجه من حديث «ابن مسعود» ابن ماجه (٢٦٥/١) رقم (٨٠٨)، والحاكم (٢٠٧/١) والبيهقي (٢/٣٦)، وأحمد (٤٠٤/١).

(٥) أخرجه أبو نعيم (٣٤٣/٢) من حديث «أنس»، وعزاه الهندي في «الكنز» (٤٣٨٦٧) للطبراني في «الأوسط»، وأبي الشيخ في «التبليخ»، والخطيب في «المتفق والمفترق».

وأخرجه البزار (٦٠/١) من حديث «ابن عباس» مرفوعاً.

يَسْتَعِيدُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُهُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ^(١) عَلَى عَمَلٍ مُخْبِطٍ ثَوَابَ تِلْكَ الطَّاعَةِ.
 قالوا: ولا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمِرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أَيْ: إِذَا
 أَرَدْتَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦].

وَالْمَعْنَى: إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ فَتَوَضَّعُوا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَاغْسِلُوا؛ فَيَكُونُ نَظِيرَ
 قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ وَإِنْ سَلَّمْنَا كَوْنَ هَذِهِ الْآيَةِ نَظِيرَ تِلْكَ، فَنَقُولُ: نَعَمْ، إِذَا
 قَامَ يَغْسِلُ عَقِيبَ قِيَامِهِ إِلَى الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ إِثْمًا وَرَدَّ بِالْغَسْلِ عَقِيبَ قِيَامِهِ، وَأَيْضًا:
 فَالْإِجْمَاعُ^(٢) دَلٌّ عَلَى تَرْكِ هَذَا الظَّاهِرِ، وَإِذَا تَرَكَ الظَّاهِرَ فِي مَوْضِعٍ لَدِيلٍ، لَا يُوجِبُ تَرْكُهُ
 فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ لَغَيْرِ دَلِيلٍ.

(١) فِي أ: أَنْ يَسْتَعِيدَ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ.

(٢) الْإِجْمَاعُ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْعَزْمُ، يُقَالُ: أَجْمَعْتُ الْمَسِيرَ وَالْأَمْرَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ أَيْ:
 عَزَمْتُ، فَهُوَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْحَرْفِ، وَقَدْ جَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أَيْ: اغْزِمُوا، وَقَالَ - ﷺ -: «مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ، فَلَا
 صِيَامَ لَهُ»، أَيْ: لَمْ يَغْزَمْ عَلَيْهِ قِيَامُهُ.

ثَانِيهِمَا: الْإِتِّفَاقُ؛ وَمِنْهُ يُقَالُ: أَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى كَذَا، إِذَا اتَّفَقُوا، قَالَ فِي الْقَامُوسِ: «الْإِجْمَاعُ:
 الْإِتِّفَاقُ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْأَمْرِ».

قَالَ الْعَرَّازِيُّ وَالْإِمَامُ الرَّازِيُّ وَالْأَمِيدِيُّ وَالْعَصْدُ وَغَيْرُهُمْ: الْإِجْمَاعُ لَعَّةٌ يُقَالُ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ عَلَى
 مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْعَزْمُ عَلَى الشَّيْءِ وَالتَّضَمُّيمُ عَلَيْهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾
 [يوسف: ١٥] وَقَالَ - ﷺ -: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ»، وَعَلَى هَذَا يَصُحُّ إِطْلَاقُ اسْمِ
 الْإِجْمَاعِ عَلَى عَزْمِ الْوَاحِدِ.

وَالثَّانِي: الْإِتِّفَاقُ؛ يُقَالُ: أَجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى كَذَا، أَيْ: صَارُوا دَوِيَّ جَمْعٍ كَمَا يُقَالُ: أَلْبَنَ وَأَتَمَرَ إِذَا صَارَ
 ذَا لَبَنٍ وَتَمَرٍ، وَعَلَى هَذَا فَاتِّفَاقُ كُلِّ طَائِفَةٍ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ دِينِيًّا كَانَ أَوْ دُنْيَوِيًّا، يُسَمَّى إِجْمَاعًا؛ حَتَّى
 اتَّفَقَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَقَالَ صَاحِبُ «الْمُسْلِمِ مِنَ الْمُسْلِمِ»، وَحَاشِيَتِهِ: وَهُوَ لَعَّةٌ: الْعَزْمُ وَالْإِتِّفَاقُ
 وَكَلَامُهُ مِنَ الْجَمْعِ، أَيْ: مَنْقُولٌ، وَمَأْخُودٌ مِنْهُ، لِأَنَّ الْعَزْمَ بِاجْتِمَاعِ الْخَوَاطِرِ، وَالْإِتِّفَاقَ بِاجْتِمَاعِ
 الْأَعْزَامِ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى شَارِحِ الْمُخْتَصَرِ، حَيْثُ قَالَ: الْإِجْمَاعُ لَعَّةٌ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْعَزْمُ،
 ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، أَيْ: اغْزِمُوا، وَمِنْهُ: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ».

وِثَانِيهِمَا: الْإِتِّفَاقُ، وَحَقِيقَةُ: أَجْمَعَ، صَارَ ذَا جَمْعٍ، كَالْبَنِّ وَأَتَمَرَ، وَكَلَامُهُ يُفِيدُ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُشْتَرَكٌ مَعْنَوِيٌّ
 مَوْضُوعٌ لَصَبْرٍ وَزُورَةٍ ذَا جَمْعٍ، الشَّامِلَةُ لَصَبْرٍ وَزُورَةٍ ذَا جَمْعٍ لَخَوَاطِرِهِ، وَصَبْرٍ وَزُورَةٍ ذَا جَمْعٍ لِعَزْمِهِ أَوْ رَأْيِهِ
 أَغْزَامِ الْقَوْمِ أَوْ آرَائِهِمْ. وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ: الْعَزْمُ يَرْجِعُ إِلَى الْإِتِّفَاقِ؛ لِأَنَّ مِنْ اتَّفَقَ عَلَى شَيْءٍ،
 فَقَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْعَزْمُ لَازِمًا لِلْإِتِّفَاقِ، فَالْإِجْمَاعُ عِنْدَهُ حَقِيقَةٌ فِي الْإِتِّفَاقِ مَجَازٌ فِي الْعَزْمِ.

وَقَالَ ابْنُ أَمِيرِ حَاجٍ صَاحِبُ «التَّقْرِيرِ»: لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: الْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ لَهُ الْعَزْمُ، وَأَمَّا الْإِتِّفَاقُ فَلَازِمٌ
 اتِّفَاقِيٌّ ضَرُورِيٌّ لِلْعَزْمِ مِنْ وَاحِدٍ، لِأَنَّ اتِّحَادَ مُتَعَلِّقٍ عَزْمُ الْجَمَاعَةِ يُوجِبُ اتِّفَاقَهُمْ عَلَيْهِ، لَا أَنَّ
 الْعَزْمَ يَرْجِعُ إِلَى الْإِتِّفَاقِ؛ لِأَنَّ مِنْ اتَّفَقَ عَلَى شَيْءٍ، فَقَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ، كَمَا ذَكَرَهُ الْقَاضِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ =

أَمَّا جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - فَقَالُوا: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ

= بمطردٍ، ولا أنه مشتركٌ لفظيٌّ بينهما كما ذكره الغزاليُّ أو لا ملجئٌ إليه مع أنه خلاف الأصل. وقال ابنُ بُرْهَانَ، وابنُ السَّمْعَانِي: العزمُ أَشْبَهُ بِاللُّغَةِ، والاتِّفَاقُ أَشْبَهُ بِالشَّرْعِ، ويجبُ عنه بأنَّ الاتِّفَاقَ، وإن كان أشبه بالشَّرْعِ، فذاك لا ينافي كونه معنى لغويًّا، وكون اللَّفْظِ مشتركاً بينَهُ وبين العزم. قال أبو عليِّ الفارسي: يقال: أجمع القوم إذا صاروا ذوي جَمْعٍ كما يقال: أَلْبَنَ وأتمر: إذا صار ذا لبن وتمر، والذي يظهر في تحرير المعنى اللُّغوي: أنَّ بين العزم والاتِّفَاقِ عموماً وخصوصاً وجهيًّا يجتمعان في اتفاق الجماعة في إرادة شيءٍ وينفردُ العزمُ في إرادة الواحد، وينفرد الاتِّفَاقُ في اتفاق الجماعة؛ من قول، أو فعل بدون إرادة وعزم.

ولا رَيْبٌ في أنَّ المعنى الثاني بالاصطلاحي أنسب، فإنَّ الاتِّفَاقَ مطلقٌ يشمل اتفاق جمع ما ولو كفاراً على أمر ما ولو معصية، والاصطلاحي اتفاق مقيد.

وقال صاحبُ التَّحْقِيرِ: كون المعنى الثاني أنسب مبنيٌّ على أنه إذا لم يبق من المجتهدين إلا واحد، لا يكون قوله حُجَّةً كما هو أحد القولين، أي: وأما على رأي من يقولُ أَنَّهُ حُجَّةٌ، يكون المعنى الأول أنسب، فمن قال: إنه حُجَّةٌ، لا يقول: إنه إجماع؛ لأنه لا يصدق عليه تعريفُ الإجماع، فلا يكونُ المعنى الأولُ أنسب، ويكون المعنى الثاني هو الأنسب.

الإِجْمَاعُ اضْطِلَاحاً عَرَفَهُ الرَّازِيُّ فِي «الْمَخْصُولِ» بِأَنَّهُ: «عِبَارَةٌ عَنْ اتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ. عَلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ».

وعرّفه الآمِدِيُّ بقوله: عِبَارَةٌ عَنْ اتِّفَاقِ جَمْلَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ - فِي عَضْرِ مَنْ الْأَعْصَارِ عَلَى وَاقِعَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ.

وعرّفه النَّظَّامُ مِنَ الْمَعْتَزَلَةِ بقوله: هُوَ كُلُّ قَوْلٍ قَامَتْ حُجَّتُهُ حَتَّى قَوْلِ الْوَاحِدِ.

وعرّفه سراجُ الدين الأرمويُّ فِي «التَّحْصِيلِ» بقوله: هُوَ اتِّفَاقُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجْتَهِدِينَ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ عَلَى أَمْرِ مَا، مِنْ اعْتِقَادٍ، أَوْ قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ.

ويمكن أن يُعرَفَ بِأَنَّهُ: اتِّفَاقُ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ وَفَاةِ - مُحَمَّدٍ ﷺ - فِي عَضْرِ عَلَى أَمْرِ شَرْعِيٍّ.

فقولنا: «اتِّفَاقٌ» جُنْسٌ فِي التَّعْرِيفِ يَعْصُرُ كُلَّ اتِّفَاقٍ، وَخَرَجَ عَنْهُ أَمْرَانِ، اخْتِلَافُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَقَوْلُ الْمُجْتَهِدِ الْوَاحِدِ إِذَا انْفَرَدَ فِي عَضْرِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِجْمَاعاً؛ لِأَنَّ الاتِّفَاقَ أَقْلُ مَا يَتَحَقَّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَالْمَرَادُ بِهِ الْإِشْتِرَاكُ فِي الْإِعْتِقَادِ، أَوْ الْقَوْلِ، أَوْ الْفِعْلِ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ، كَالسُّكُوتِ عِنْدَ مَنْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ كَافٍ فِي الْإِجْمَاعِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعِبَرَةُ فِي الْإِجْمَاعِ بِالْإِعْتِقَادِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِهِمْ فِي مَوَاضِعَ، فَالْمَرَادُ بِهِ الْإِشْتِرَاكُ فِي الْإِعْتِقَادِ فَقَطْ، أَوْ فِي الْإِعْتِقَادِ مَعَ الْقَوْلِ، أَوْ فِي الْإِعْتِقَادِ مَعَ الْفِعْلِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: أَوْ مَانَعَةُ خَلُوِّ تَجَوُّزِ الْجَمْعِ، وَمَعْنَى الْإِشْتِرَاكِ فِي الْإِعْتِقَادِ: أَنَّ يَعْتَقِدُوا جَمِيعاً الْحُكْمَ الْمَجْمَعُ عَلَيْهِ، وَفِي الْقَوْلِ: أَنَّ يَتَكَلَّمُوا بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَفِي الْفِعْلِ: أَنَّ يَأْتُوا بِمَتَعَلِّقِهِ، إِذَا كَانَ مِنْ بَابِ الْفِعْلِ، وَفِي السُّكُوتِ: أَنَّ يَقُولَ بَعْضُهُمْ حُكْماً فِي مَسْأَلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ، وَيَسْكُتُ الْبَاقُونَ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ، وَمُضَيِّ مَدَّةِ التَّأَمُّلِ عَادَةً سُكُوتاً مُجَرِّداً عَنْ أَمَارَةِ سَخَطٍ وَتَقْيَّةٍ، وَكُلٌّ مِنَ الاتِّفَاقِ الْقَوْلِيِّ وَالْعَمَلِيِّ يُسَمَّى عَزِيْمَةً، وَالسُّكُوتِيُّ يُسَمَّى رِخْصَةً.

وقول المجتهدين فيه للاستغراق، فيقضي أنه لا بُدَّ من الكلِّ، فخرج به أمران: اتفاق العوام؛ إذ لا عِبرَةَ به على التَّحْقِيقِ، واتِّفَاقُ بَعْضِ الْمُجْتَهِدِينَ مَعَ مُخَالَفَةِ الْآخَرِينَ.

فَأَسْتَعِذُّ ﴿يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْهُ: إِذَا أَرَدْتُ، وَإِذَا ثَبَتَ الْاِخْتِمَالُ، وَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَيْهِ تَوْفِيقًا بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ، وَمِمَّا يَقْوَى ذَلِكَ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْاِسْتِعَاذَةِ نَفْيُ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] فَأَمَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - بِتَقْدِيمِ الْاِسْتِعَاذَةِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ؛ لِهَذَا السَّبَبِ.

قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «وَأَقُولُ: هَا هُنَا قَوْلٌ ثَالِثٌ: وَهُوَ [أَنَّ]^(٢)

= وقولنا: «من هذه الأمة» خرج به اتفاق مجتهدي الشرائع السالفة.
وقولنا: «بعد وفاة - محمد ﷺ - مُتَعَلِّقٌ بِاتِّفَاقٍ لَا بِالْمَجْتَهِدِينَ لِأَن قَبْلَ وَفَاتِهِ اتِّفَاقُهُمْ حُجَّةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَخَرَجَ بِهِ اتِّفَاقُ الْمَجْتَهِدِينَ فِي حَيَاتِهِ؛ لِأَن قَوْلَهُمْ دُونَهُ لَا يَصِحُّ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُمْ، فَالْحُجَّةُ فِي قَوْلِهِ، وَقَوْلُنَا «فِي عَصْرِ» أَيُّ: فِي زَمَانٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَهُوَ نَكْرَةٌ، فَالْمَرَادُ الْاِتِّفَاقُ فِي أَيِّ عَصْرِ كَانَ، وَقِيلَ: لَوْلَاهُ لَمْ يَدْخُلْ إِلَّا اتِّفَاقُ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنْ الْحَقُّ أَنَّ الْأُمَّةَ تَطْلُقُ عَلَى الْمَوْجُودِينَ فِي عَصْرِ؛ كَمَا تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ لَدُنِ الْبَعْثَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْمَتَبَادَرُ هُوَ الْإِطْلَاقُ الْأَوَّلُ، فَيَصِحُّ الْاِسْتِغْنَاءُ عَنْهُ؛ وَلِذَا قَالَ فِي التَّلْوِيحِ: وَلَا يَخْفَى أَنْ مِنْ تَرْكِهِ، أَيُّ: قَيْدِهِ فِي عَصْرِ إِنَّمَا تَرَكَهُ لَوْضُوحِهِ، لَكِنَّ التَّنْصِيحَ بِهِ أَنْسَبُ بِالتَّعْرِيفَاتِ اهـ، أَيُّ: لِاحْتِمَالِ لَفْظِ الْأُمَّةِ الْمَعْنَى الثَّانِي.
يَنْظُرُ الْبَرْهَانُ لِإِمَامِ الْحَرَمِيِّ: ٦٧٠/١، وَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ لِلزَّرْكَشِيِّ: ٤٣٥/٤، وَالْإِحْكَامُ فِي أَصُولِ الْأَحْكَامِ لِلْأَمْدِيِّ: ١٧٩/١، وَسُلَاسِلُ الذَّهَبِ لِلزَّرْكَشِيِّ ص ٣٣٧، وَالتَّمْهِيدُ لِلْإِسْنَوِيِّ ص ٤٥١، وَنَهَايَةُ السُّوْلِ لَهُ: ٢٣٧/٣، وَزَوَائِدُ الْأَصُولِ لَهُ: ص ٣٦٢، وَمَنْهَاجُ الْعُقُولِ لِلْبَدْخَشِيِّ: ٣٧٧/٢، وَغَايَةُ الْوُصُولِ لِلشَّيْخِ زَكَرِيَا الْأَنْصَارِيِّ: ص ٢٠٩، وَالتَّحْصِيلُ مِنَ الْمَحْصُولِ لِلْأَرْمَوِيِّ: ٣٧/٢، وَالْمَنْخُولُ لِلْغَزَالِيِّ: ص ٣٠٣، وَالْمُسْتَصْفَى لَهُ: ١٧٣/١، وَحَاشِيَةُ الْبَنَانِيِّ: ١٧٦/٢، وَالْإِبْهَاجُ لِابْنِ السَّبْكِ: ٣٤٩/٢، وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِابْنِ قَاسِمِ الْعَبَادِيِّ: ٢٧٨/٣، وَحَاشِيَةُ الْعَطَارِ عَلَى جَمْعِ الْجَوَامِعِ: ٢٠٩/٢، وَالْمُعْتَمَدُ لِأَبِي الْحُسَيْنِ: ٣/٢، وَإِحْكَامُ الْفُصُولِ فِي أَحْكَامِ الْأَصُولِ لِلْبَاجِيِّ: ص ٤٣٥، وَالتَّحْرِيرُ لِابْنِ الْهَمَامِ: ص ٣٩٩، وَتَيْسِيرُ التَّحْرِيرِ لِأَمِيرِ بَادْشَاهِ: ٢٢٤/٣، وَالتَّقْرِيرُ وَالتَّجْبِيرُ لِابْنِ أَمِيرِ الْحَاجِّ: ٨٠/٣، وَمِيزَانُ الْأَصُولِ لِلْسَمَرْقَنْدِيِّ: ٧٠٩/٢، وَكَشَفُ الْأَسْرَارِ لِلنَّسْفِيِّ: ١٨٠/٢، وَحَاشِيَةُ التَّفْتَازَانِيِّ وَالشَّرِيفِ عَلَى مَخْتَصَرِ الْمُنْتَهَى: ٣٤/٢، وَشَرْحُ التَّلْوِيحِ عَلَى التَّوْضِيحِ لِسَعْدِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ عَمْرِو التَّفْتَازَانِيِّ: ٤١/٢، وَحَاشِيَةُ نَسَمَاتِ الْأَسْحَارِ لِابْنِ عَابِدِينَ: ص ٢٠٩، وَشَرْحُ الْمَنَارِ لِابْنِ مَلِكٍ: ص ٩٩، وَالْوَجِيزُ لِلْكَرَامَاسِيِّ: ص ٦١، وَتَقْرِيبُ الْوُصُولِ لِابْنِ جُزَيْ: ص ١٢٩، وَإِرْشَادُ الْفُحُولِ لِلشُّوْكَانِيِّ: ص ٧١، وَشَرْحُ مَخْتَصَرِ الْمَنَارِ لِلْكَوْرَانِيِّ: ص ٩٩، وَنَشْرُ الْبُنُودِ لِلشَّنَقِيطِيِّ: ٢/٧٤، وَشَرْحُ الْكُوكِبِ الْمُنِيرِ لِلْفَتْوحِيِّ: ص ٢٢٥.

(١) مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، سُلْطَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي زَمَانِهِ، فَخْرُ الدِّينِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي، وَلَدَ سَنَةِ ٥٤٤، وَاشْتَغَلَ أَوَّلًا عَلَى وَالِدِهِ ضِيَاءِ الدِّينِ عَمْرٍ، ثُمَّ عَلَى الْكَمَالِ السَّمْنَانِيِّ، وَعَلَى الْمَجْدِ الْجِيلِيِّ وَغَيْرِهِمَا، وَاتَّقَنَ عُلُومًا كَثِيرَةً، وَبَرَزَ فِيهَا وَتَقَدَّمَ وَسَادَ، وَصَنَفَ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ، وَرَوَى عَنْهُ نَدَمُهُ عَلَى الدِّخُولِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ، وَلَهُ التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» وَهُوَ مَطْبُوعٌ، وَكَذَلِكَ كِتَابُ «الْمَحْصُولِ» وَغَيْرُهُمَا - مَاتَ سَنَةِ ٦٠٦. انْظُرْ ط. ابْنُ قَاضِي شَهْبَةِ: ٦٥/٢، وَلِسَانُ الْمِيزَانِ: ٤/٤٢٦، وَالْأَعْلَامُ: ٢٠٣/٧.

(٢) فِي أ: أَنَّهُ.

يَقْرَأُ الاستِعَادَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ؛ بِمُقْتَضَى الْخَبَرِ، وَبَعْدَهَا؛ بِمُقْتَضَى الْقُرْآنِ؛ جَمْعاً بَيْنَ الدَّلَائِلِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ».

قال عطاء^(١) - رحمه الله تعالى -: الاستِعَادَةُ واجبة لِكُلِّ قِرَاءَةٍ، سَوَاءَ كَانَتْ فِي الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرَهَا.

وقال ابن سيرين - رحمه الله تعالى -: إِذَا تَعَوَّذَ الرَّجُلُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي عُمْرِهِ، فَقَدْ كَفَى فِي إِسْقَاطِ الْوُجُوبِ، وَقَالَ الْبَاقُونَ: إِنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ.

حُجَّةُ الْجُمْهُورِ: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفَ وَكْرَمَ وَبَجَلَ وَعَظَّمَ - لَمْ يُعَلِّمِ الْأَعْرَابِيَّ الاستِعَادَةَ فِي جُمْلَةِ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ.

ولَقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ غَيْرُ مُشْتَمِلٍ عَلَى بَيَانِ جُمْلَةِ واجباتِ الصَّلَاةِ، فَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ عَدَمِ الاستِعَادَةِ فِيهِ، عَدَمُ وَجُوبِهَا.

واحتجَّ عطاءً على وَجُوبِ الاستِعَادَةِ بِوُجُوه:

الأوَّلُ: أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَاطَبَّ عَلَيْهِ؛ فَيَكُونُ وَاجِباً - لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الثاني: أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أَمْرٌ؛ وَهُوَ لِلْوُجُوبِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِبُ الْقَوْلُ بِوَجُوبِهِ عِنْدَ كُلِّ [قِرَاءَةٍ]، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] وَذَكَرَ الْحُكْمَ عَقِيبَ الْوَضْفِ الْمُنَاسِبِ يَدُلُّ عَلَى التَّغْلِيلِ، وَالْحُكْمُ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الْعِلَّةِ.

الثالث: أَنَّهُ - تَعَالَى - أَمَرَ بِالِاستِعَادَةِ؛ لِذَفْعِ شَرِّ الشَّيْطَانِ؛ وَهُوَ وَاجِبٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ وَاجِبٌ^(٢).

(١) عطاء بن أبي رباح القرشي، مولا هم أبو محمد الجندي اليماني، نزيل مكة وأحد الفقهاء والأئمة، عن عثمان، وعتاب بن أسيد مرسلأ، وعن أسامة بن زيد، وعائشة، وأبي هريرة، وأم سلمة، وعروة بن الزبير وطائفة، وعنه أيوب، وحبيب بن أبي ثابت، وجعفر بن محمد، وجريير بن حازم، وابن جريج، وخلق. قال ابن سعد: كان ثقة عالمأ كثير الحديث، انتهت إليه الفتوى بمكة. وقال أبو حنيفة: ما لقيت أفضل من عطاء. وقال ابن عباس - وقد سئل عن شيء -: يا أهل مكة، تجتمعون عليّ وعندكم عطاء. وقيل: إنه حج أكثر من سبعين حجّة. قال حماد بن سلمة: حججت سنة مات عطاء، سنة أربع عشرة ومائة. ينظر تهذيب الكمال: ٩٣٣/٢، والخلاصة: ٢٣٠/٢، والحلية: ٣١٠/٣، والكاشف: ٢٦٥/٢.

(٢) هو الفعل الذي طلبه الشارع طلبأ جازمأ؛ كالصلاة المدلول على طلبها طلبأ جازمأ، بقوله تعالى: «أقيموا الصلاة»؛ وكالحج المدلول على طلبه طلبأ جازمأ، بقوله تعالى: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»، [آل عمران: ٩٧]؛ وكالصيام المدلول على وجوبه بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» [البقرة: ١٨٣]. =

فَصْلٌ فِي حُكْمِ التَّعَوُّذِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ

التَّعَوُّذُ فِي الصَّلَاةِ مُسْتَحَبٌّ ^(١) قَبْلَ الْقِرَاءَةِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ.

وَقَالَ مَالِكٌ ^(٢) - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - لَا يَتَعَوَّذُ فِي الْمَكْتُوبَةِ، وَيَتَعَوَّذُ فِي قِيَامِ شَهْرِ

= ينظر: البحر المحيط للزركشي: ١٧٦/١، والبرهان لإمام الحرمين: ٣٠٨/١، وسلاسل الذهب للزركشي: ١١٤، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٩١/١، والتمهيد للإسنوي: ٥٨، ونهاية السؤل له: ٧٣/١، وزوائد الأصول له: ٢٣٢، ومنهاج العقول للبديشي: ٥٤/١، وغاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ١٠، والتحصيل من المحصول للآرموي: ١٧٢/١، والمستصفى للغزالي: ٢٧/١، وحاشية البناني: ٨٨/١، والإبهاج لابن السبكي: ٥١/١، والآيات البيّنات لابن قاسم العبادي: ١٣٥/١، وحاشية العطار على جمع الجوامع: ١١١/١، والمعتمد لأبي الحسين: ٤/١. والتحرير لابن الهمام: ٢١٧، وتيسير التحرير لأمير بادشاه: ١٨٥/٢، وحاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى: ٢٢٥/١، وشرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: ٢/١٢٣، والموافقات للشاطبي: ١٠٩/١، وميزان الأصول للسمرقندي: ١٢٨/١، والكوكب المنير للفتوح: ١٠٥.

(١) النوافل جمع نافلة، والنفل والمندوب والمستحب والتطوع والسنة والمرغب فيه ألفاظ مترادفة عُرفاً، معناها واحد؛ هو الفعل الذي طلبه الشارع طلباً غير جازم عند أكثر العلماء، خلافاً لبعضهم القائل بعدم ترادف المستحب والتطوع والسنة؛ لأن الفعل المطلوب طلباً غير جازم إن واطب عليه النبي - ﷺ - بأن لم يتركه إلا لعذر، فهو السُّنة، أو لم يواظب عليه، بأن تركه في بعض الأحيان لغير عذر، فهو المستحب، أو لم يفعله، وهو ما يُنشئه الإنسان باختياره من الأوراد فهو التطوع، أما المندوب والنفل والمرغب فيه فهي مرادفة لكل من الثلاثة المتباينة؛ لصحة حمل كل واحد منها عليها، فيقال مثلاً: التطوع مندوب، والمستحب مرغب فيه وهكذا، وهذا الخلاف لفظي، أي: أنه يؤول إلى اللفظ والتسمية؛ إذ هو يتلخص في أنه كما سمي كل قسم من الأقسام الثلاثة باسم من الأسماء الثلاثة كما سبق، هل يسمى بغيره منها؟ فقال البعض: لا يصح أن يطلق اسم من هذه على مدلول كل، لعدم وجود المناسبة بينه وبين الاسم؛ لأن السنة الطريقة والعادة، والمستحب المحبوب، والتطوع الزيادة. وقال الأكثر: يصح أن يطلق اسم كل على مدلول الآخرين؛ لوجود المناسبة؛ لأنه يصدق على كل من الأقسام الثلاثة أنه طريقة وعادة في الدين، ومحبوب للشارع حيث طلبه، وزائد على الواجب.

ينظر البحر المحيط للزركشي: ٢٨٤/١، والبرهان لإمام الحرمين: ٣١٠/١، وسلاسل الذهب للزركشي: ١١١، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١١١/١، ونهاية السؤل للإسنوي: ٧٧/١، وزوائد الأصول له: ١٦٨، ومنهاج العقول للبديشي: ٦٢/١، وغاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ١٠، والتحصيل من المحصول للآرموي: ١٧٤/١، والمستصفى للغزالي: ٧٥/١، وحاشية البناني: ٨٠/١، والإبهاج لابن السبكي: ٥٦/١، والآيات البيّنات لابن قاسم العبادي: ١٣٥/١، وحاشية العطار على جمع الجوامع: ١١٢/١، والمعتمد لأبي الحسين: ٤/١، وتيسير التحرير لأمير بادشاه: ٢/٢٢٢، وحاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى: ٢٢٥/١، وشرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: ١٢٣/٢، والموافقات للشاطبي: ١٠٩، وميزان الأصول للسمرقندي: ١٣٥/١، والكوكب المنير للفتوح: ١٢٥.

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي، أبو عبد الله المدني، أحد أعلام الإسلام، وإمام دار الهجرة، عن نافع، والمقبيري، ونعيم بن عبد الله، وابن المنكدر، =

رَمَضَانَ لِلْآيَةِ وَالْخَيْرِ، وَكِلَاهُمَا يَفِيدُ الْوَجُوبَ، فَإِنْ لَمْ يَثْبُتِ الْوَجُوبُ، فَلَا أَقْلَ مِنَ الثُّدْبِ.

فَضْلٌ فِي الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ بِالتَّعَوُّذِ

رُويَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ^(١) - رضي الله تعالى عنهما - لما قرأ، أَسْرَّ بالتَّعَوُّذِ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ^(٢) - رضي الله تعالى عنه -: أَنَّهُ جَهَرَ بِهِ؛ ذَكَرَهُ الشَّافِعِيُّ - رحمه الله تعالى - في «الأم»، ثم قال: فَإِنْ جَهَرَ بِهِ جَارٌ، [وإِنْ أَسْرَرَ بِهِ جَارٌ]^(٣).

فَضْلٌ فِي مَوْضِعِ الاستعاذَةِ مِنَ الصَّلَاةِ

قال ابنُ الحَظِيْبِ^(٤): «أقول: إن الاستعاذَةَ إِنَّمَا تُقْرَأُ بَعْدَ الاستفتاحِ، وَقَبْلَ الفاتحةِ، فَإِنْ أَلْحَقْنَاهَا بِمَا قَبْلَهَا، لَزِمَ الْإِسْرَارُ، وَإِنْ أَلْحَقْنَاهَا بِالفاتحةِ، لَزِمَ الْجَهْرُ، إِلَّا أَنَّ المِشَابَهَةَ بَيْنَهُمَا، وَبَيْنَ الاستفتاحِ أَتَمُّ؛ لَكُونَ كُلُّ مِثْلٍ مِنْهُمَا نَافِلَةً».

= ومحمد بن يحيى بن حبان، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، وأيوب، وزيد بن أسلم، وخلق. قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٢٩٦/٣، وتهذيب التهذيب: ٥/١ (٣)، وتقريب التهذيب: ٢/٢٢٣، وخلاصة تهذيب الكمال: ٣/٣، والكاشف: ١١٢/٣، وتاريخ البخاري الكبير: ٣١٠/٧، والجرح والتعديل: ١١/١، وسير الأعلام: ٤٨/٨، والحلية: ٣١٦/٦، ومعجم الثقات: ١٨، ونسيم الرياض: ١٢/٢.

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن المكي، هاجر مع أبيه وشهد الخندق وبيعة الرضوان، له ألف وستمائة حديث وثلاثون حديثاً. قال شمس الدين بن الذهبي: كان إماماً متيناً واسع العلم، كثير الاتباع، وافر النسك، كبير القدر، متين الديانة، عظيم الحرمة، ذكر للخلافة يوم التحكيم، وخطب في ذلك، فقال: على ألا يجري فيها دم. قال أبو نعيم: مات سنة أربع وسبعين.

ينظر ترجمة في تهذيب الكمال: ٧١٣/٢. وتهذيب التهذيب: ٣٢٨/٥ (٥٦٥)، وتقريب التهذيب: ١/٤٣٥ (٤٩١)، وخلاصة تهذيب الكمال: ٨١/٢، والكاشف: ١١٢/٢، وتاريخ البخاري الكبير: ٥/٢، ١٤٥، وتاريخ البخاري الصغير: ١٥٤/١، ١٥٧، والجرح والتعديل: ١٠٧/٥، وأسد الغابة: ٣/٣٤٠، وتجريد أسماء الصحابة: ٣٢٥/١، والإصابة: ١٨١/٤، والاستيعاب: (٣ - ٤)/٩٥.

(٢) أبو هريرة، اسمه: عبد الرحمن بن صخر الدؤسي، له خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعون حديثاً، أثق على ثلاثمائة وخمسة وعشرين، روى عنه: إبراهيم بن حنين، وأنس، وبُسر بن سعيد، وغيرهم. قال ابن سعد: كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة. قال الواقدي: مات سنة ٥٩هـ.

ينظر الخلاصة: ٢٥٢/٣ (٥٢٩)، والإصابة: ٤٢٥/٧، وصفة الصفوة: ٦٨٥/١ - ٦٩٤، والعبر: ٦٢/١ - ٦٣.

(٣) سقط في أ.

(٤) ينظر: الفخر الرازي: ٥٧/١.

فَضْلٌ فِي بَيَانِ هَلِ التَّعَوُّذُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟

قال بعضُ العلماءِ - رحمهم الله - : إِنَّهُ يَتَعَوَّذُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ .

وقال بعضهم : لا يَتَعَوَّذُ إِلَّا فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى .

حَجَّتُهُ : أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْعَدَمُ ، وَمَا لِأَجْلِهِ أُمِرْنَا بِالِاسْتِعَاذَةِ ؛ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [النحل : ٩٨] وكلمة «إِذَا» لا تَفِيدُ الْعُمُومَ .

ولقائل أن يقول : إِنَّ تَرْتِيبَ الْحُكْمِ عَلَى الْوُضُوفِ الْمُنَاسِبِ يَدُلُّ عَلَى الْعِلَّةِ ؛ فَيَتَكَرَّرُ الْحُكْمُ بِتَكَرُّرِ الْعِلَّةِ .

فَضْلٌ فِي بَيَانِ سَبَبِ الْإِسْتِعَاذَةِ

التَّعَوُّذُ فِي الصَّلَاةِ ، لِأَجْلِ الْقِرَاءَةِ ، أَمْ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ ؟

عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ ^(١) وَمُحَمَّدٍ ^(٢) - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أَنَّهُ لِلْقِرَاءَةِ ^(٣) [وَعِنْدَ أَبِي يُوسُفَ ^(٤) :

(١) النعمان بن ثابت الفارسي ، أبو حنيفة إمام العراق وفقه الأمة ، عن عطاء ، ونافع ، والأعرج ، وطائفة ، وعنه حماد ، وزفر ، وأبو يوسف محمد ، وجماعة ، وثقه ابن معين . وقال ابن المبارك : ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة . وقال مكي : أبو حنيفة أعلم أهل زمانه . وقال القطان : لا تكذب الله ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة . قال ابن المبارك : ما رأيت أروع منه - مات سنة خمسين ومائة - .

ينظر ترجمته في : تهذيب الكمال : ١٤١٥ / ٣ ، وتهذيب التهذيب : ٤٤٩ / ١٠ (٨١٧) ، وتقريب التهذيب : ٣٠٣ / ٢ ، وخلاصة تهذيب الكمال : ٩٥٣ / ٣ ، والكاشف : ٢٠٥ / ٣ ، وتاريخ البخاري الكبير : ٨١ / ٨ ، وتاريخ البخاري الصغير : ٤٣ / ٢ ، ١٠٠ ، ٢٣٠ ، الجرح والتعديل : ٢٠٦٢ / ٨ ، وميزان الاعتدال : ٢٦٥ / ٤ ، وتاريخ أسماء الثقات : ١٤٧٧ ، والأنساب : ٦٤ / ٦ ، والكمال : ٧ / ٢٤٧٢ ، والضعفاء الكبير : ٢٦٨ / ٤ ، والمعين : ٥٤٦ ، وتراجم الأبحار : ٢٦٨ / ٤ ، والتاريخ لابن معين : ٦٧ / ٣ ، وتاريخ الثقات : ٤٥٠ ، وتاريخ بغداد : ٤٢٣ / ١٣ ، ٤٢٤ .

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد ، من موالى بني شيبان ، أبو عبد الله ، إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة ، ولد بـ «واسط» سنة ١٣١ هـ ، له كتب كثيرة في الفقه والأصول منها : الميسوط ، الزيادات ، الجامع الكبير ، الجامع الصغير ، الآثار ، الأمالي ، الأصل ، وغيرها كثير . توفي في ١٨٩ هـ . ينظر : الفهرست لابن النديم : ٢٠٣ / ١ ، والفوائد البهية : ١٦٣ ، والوفيات : ٤٥٣ / ١ ، والبداية والنهاية : ٢٠٢ / ١٠ ، والجواهر الماضية : ٤٢ / ٢ ، وذيل المذيل : ١٠٧ ، ولسان الميزان : ١٢١ / ٥ ، والنجوم الزاهرة : ١٣٠ / ٢ ، ولغة العرب : ٢٢٧ / ٩ ، وتاريخ بغداد : ١٧٢ / ٢ - ١٨٢ ، والانتقاء : ١٧٤ ، والأعلام : ٨٠ / ٦ .

(٣) في أ : للصلاة .

(٤) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي ، أبو يوسف : صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه ، كان فقيهاً علامةً من حفاظ الحديث ، ولد بالكوفة وتفقّه بالحديث والرواية ، ثم لزم أبا حنيفة ، فغلب عليه الرأي ، وَوَلَّى الْقَضَاءَ بـ «بغداد» ، أيام المهدي ، والهادي ، والرشيد ، وهو أول من دُعي : «قاضي القضاة» ، ويقال له : قاضي قضاة الدنيا ، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب ، من كتبه : =

أَنَّهُ لِلصَّلَاةِ^(١) وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ فَرَعَانِ :

الأَوَّلُ : أَنَّ الْمُؤْتَمَّ هَلْ يَتَعَوَّذُ خَلْفَ الْإِمَامِ ؟

عندهما : لَا يَتَعَوَّذُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْرَأُ ، وَعِنْدَهُ يَتَعَوَّذُ ؛ وَجَهٌ قَوْلُهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ ﴾ [النحل : ٩٨] عَلَّقَى الاستعاذة عَلَى الْقِرَاءَةِ ، وَلَا قِرَاءَةَ عَلَى الْمُقْتَدِي .

وَجَهٌ قَوْلِ أَبِي يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ التَّعَوَّذَ لَوْ كَانَ لِلْقِرَاءَةِ ؛ لَكَانَ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الْقِرَاءَةِ ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، بَلْ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الصَّلَاةِ ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّهَا لِلصَّلَاةِ .

الفرع الثاني : إِذَا افْتَتَحَ صَلَاةَ الْعِيدِ فَقَالَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، هَلْ يَقُولُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ يَكْبِرُ ، أَمْ لَا ؟

عندهما أَنَّهُ يَكْبِرُ التَّكْبِيرَاتِ ، ثُمَّ يَتَعَوَّذُ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ .

وعند أَبِي يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقْدُمُ التَّعَوَّذَ عَلَى التَّكْبِيرَاتِ .

فَصْلٌ

السُّنَّةُ أَنَّ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ مُرْتَلًّا ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٤] .

والتَّرْتِيلُ : هُوَ أَنَّ يَذْكُرَ الْحُرُوفَ مَبِينَةً ظَاهِرَةً ، وَالْفَائِدَةُ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتِ الْقِرَاءَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ فَهَمَّ مِنْ نَفْسِهِ مَعَانِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ ، وَأَفْهَمَ غَيْرَهُ تِلْكَ الْمَعَانِي ، وَإِذَا قَرَأَهَا سَرَدًا ، لَمْ يَفْهَمْ وَلَمْ يَفْهَمْ ، فَكَانَ التَّرْتِيلُ أَوْلَى .

رَوَى أَبُو دَاوُدَ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عُمرَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَقَالُ لِلْقَارِئِ : اقْرَأْ وَازِقْ ، وَرَتَّلْ ، كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُ فِي الدُّنْيَا ؛ [فَإِنَّ مَنَزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا] »^(٣) [٤] .

= الخراج ، والآثار ، والنوادر ، واختلاف الأمصار ، وأدب القاضي ، والأُمالي في الفقه ، والرد على مالك ابن أنس ، والفرائض ، والوصايا ، والوكالة ، والبيع ، والصيد ، والذبائح ، والغصب ، والاستبراء ، والجوامع في أربعين فصلاً ألفه ليحيى بن خالد البرمكي . ينظر الأعلام : ١٩٣ / ٨ .

(١) سقط في أ .

(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد ، الأزدي السُجِسْتَانِي ، ولد سنة ٢٠٢ هـ ، وطوف وسمع بـ « خراسان » ، والعراق ، والجزيرة ، والشام ، والحجاز ، ومصر من خلق كثيرين ، وقد روى عنه السنن : ابن داسة ، واللؤلؤي ، وابن الأعرابي ، وأبو عيسى الرملي . قال ابن حبان : أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهاً ، وعلماء ، وحفظاً ، ونسكاً ، وورعاً ، وإتقاناً . توفي سنة ٢٧٥ هـ . بـ « البصرة » .

ينظر : تهذيب الكمال : ٥٣٠ / ١ ، وتهذيب التهذيب : ١٦٩ / ٤ ، والكاشف : ١٦٩ / ٤ ، والجرح والتعديل : ٢٥٦ / ٤ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٣ / ١) رقم (١٤٦٤) ، والترمذي (٢٩١٤) ، وأحمد (١٩٢ / ٢) ، والبيهقي (٢ / ٥٣) ، والحاكم (٥٥٣ / ١) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) سقط في أ .

قال أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ^(١) - رحمه الله -: جاء في الأثر أَنَّ عَدَدَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى عَدَدِ دَرَجِ الْجَنَّةِ؛ يُقَالُ لِلْقَارِءِ: اقْرَأْ وَازِقْ فِي الدَّرَجِ عَلَى عَدَدِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَمَنْ اسْتَوْفَى، فَقَرَأَ جَمِيعَ آيِ الْقُرْآنِ اسْتَوْلَى عَلَى أَقْصَى الْجَنَّةِ.

فَصْلٌ فِي اسْتِحْبَابِ تَحْسِينِ الْقِرَاءَةِ جَهْرًا

إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ جَهْرًا، فَالْسُّنَةُ أَنْ يَحْسِنَ فِي الْقِرَاءَةِ؛ رَوَى أَبُو دَاوُدَ، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ^(٢) - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٣).

فَصْلٌ فِي صِحَّةِ الصَّلَاةِ مَعَ النُّطْقِ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ

قال ابنُ الْخَطَّيبِ - رحمه الله تعالى -: «الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنْ اشْتَبَاهَ الضَّادَ بِالظَّاءِ عِنْدَنَا لَا يَبْطُلُ الصَّلَاةُ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُشَابَهَةَ حَاصِلَةٌ بَيْنَهُمَا جَدًّا، وَالتَّمْيِيزُ عَسِيرٌ، فَوْجِبَ أَنْ يَسْقُطَ التَّكْلِيفُ بِالْفَرْقِ.

بَيَانُ الْمُشَابَهَةِ أَنَّهُمَا مِنَ الْحُرُوفِ الْمَجْهُورَةِ، وَأَيْضًا مِنَ الْحُرُوفِ الرَّخْوَةِ، وَأَيْضًا مِنَ الْحُرُوفِ الْمُطْبَقَةِ، وَأَيْضًا: أَنَّ النُّطْقَ بِحَرْفِ الضَّادِ مَخْصُوصٌ بِالْعَرَبِ؛ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

(١) حَمْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَبُو سُلَيْمَانَ الْبُسْتِي الْمَعْرُوفُ بِالْخَطَّابِيِّ، كَانَ رَأْسًا فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفِقْهِ وَالْأَدَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَخَذَ الْفَقْهَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي بَكْرٍ الْقِفَالِ، وَأَبِي عَمْرِو الزَّاهِدِ، وَصَنَّفَ التَّصَانِيفَ الْوَاسِعَةَ الْمَشْهُورَةَ مِنْهَا: مَعَالِمُ السَّنَنِ، وَغَرِيبُ الْحَدِيثِ، وَكِتَابُ الْغَزَلَةِ، وَلَهُ شِعْرٌ حَسَنٌ. مَاتَ سَنَةَ ٣٨٨.

انظر ط. ابن قاضي شهبة: ١٥٦/١، والأنساب: ٢٢٦/٢، وتذكرة الحفاظ: ١٠١٨/٣.

(٢) الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ جِشْمٍ بْنِ مَجْدَعَةَ الْأَوْسِيِّ الْأَنْصَارِيِّ، أَبُو عِمَارَةَ، نَزَلَ الْكُوفَةَ، لَهُ ثَلَاثُمِائَةِ حَدِيثٍ وَخَمْسَةُ أَحَادِيثٍ اتَّفَقَا عَلَى اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ، وَانْفَرَدَ الْبَخَارِيُّ بِخَمْسَةِ عَشَرَ، وَمُسْلِمٌ بِسِتَةٍ، وَعَنْهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى، وَعَدِيٌّ بْنُ ثَابِتٍ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَيْدَةَ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَخُلِقَ، شَهِدَ أُحُدًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ.

توفي سنة إحدى أو اثنتين وسبعين.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٣٩/١، وتهذيب التهذيب: ٤٢٥/١، وتقريب التهذيب: ٩٤/١، وخلاصة تهذيب الكمال: ١٢٠/١، والكاشف: ١٥١/١، وتاريخ البخاري الكبير: ١١٧/٢، وتاريخ البخاري الصغير: ٦/١، ١٢٠، ١٣٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، والجرح والتعديل: ٣٦٩/٢، وأسماء الصحابة الرواة: ١٤، وتجريد أسماء الصحابة: ٤٦/١، وأسَدُ الْغَايَةِ: ٢٠٦/١، والإصابة: ١/٢٧٨، وطبقات ابن سعد: ٣٧٦/٢، ٤٥١/٣، ٣١٥/٤، ٣٥٥، ١٧٨/٦، ٢٤٧، ٤٧٩/٨، ٤٨٠، والوافي بالوفيات: ١٠٤/١، وشذرات الذهب: ٦٣/١، ٧٧، وتاريخ بغداد: ١٧٧/١.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٤/١) رَقْمَ (١٤٦٨)، وَالنَّسَائِيُّ (١٧٩/٢) رَقْمَ (١٠١٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٤٢)، وَأَحْمَدُ (٢٨٣/٤)، وَالدَّارِمِيُّ (٤٧٤/٢)، وَابْنُ حِبَّانَ (٦٦٠ موارد)، وَالحَاكِمُ (٥٧١/١).

والسلام -: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ^(١)» فَثَبَّتَ بِمَا ذُكِرَ أَنَّ الْمُشَابَهَةَ بَيْنَهُمَا شَدِيدَةٌ، وَالتَّمْيِيزَ عَسِيرٌ.

وأيضاً: لم يقع السؤال عنه في زمن النبي - عليه الصلاة والسلام - وأزمنة الصحابة، لا سيما عند دخول العجم في الإسلام، فلما لم يُنْقَلْ وقوع السؤال عن هذا ألَبَتُهُ، علمنا أن التمييز بين هَذَيْنِ الحرفَيْنِ، لَيْسَ فِي مَحَلِّ التَّكْلِيفِ.

فَضْلٌ فِي عَدَمِ جَوَازِ الصَّلَاةِ بِالْوُجُوهِ الشَّاذَّةِ

اتَّفَقَ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْقِرَاءَةُ [فِي الصَّلَاةِ]^(٢) بِالْوُجُوهِ الشَّاذَّةِ: لِأَنَّ الدَّلِيلَ يَنْفِي جَوَازَ الْقِرَاءَةِ مُطْلَقاً، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، لَوَجِبَ بَلُوغُهَا إِلَى حَدِّ التَّوَاتُرِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، عَلِمْنَا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، عَدَلْنَا عَنْ هَذَا الدَّلِيلِ فِي جَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِهَا خَارِجَ الصَّلَاةِ، فَوَجِبَ أَنْ تَبْقَى قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ عَلَى أَصْلِ الْمَنْعِ.

فَضْلٌ فِي قَوْلِهِمْ: «الْقِرَاءَاتُ الْمَشْهُورَةُ مَنْقُولَةٌ بِالتَّوَاتُرِ»

اتَّفَقَ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْقِرَاءَاتِ الْمَشْهُورَةَ مَنْقُولَةٌ بِالتَّوَاتُرِ^(٣)، وَفِيهِ إِشْكَالٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّا

(١) أورده العجلوني في «كشف الخفا» (٦٠٩) وقال: قال في اللآلئ: معناه صحيح، ولكن لا أصل له، كما قال ابن كثير وغيره.

(٢) سقط في أ.

(٣) «السُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ» والحديث المتواتر: هو ما رواه جمع يحيل العقل تواطؤهم على الكذب عادة، من أمر حسي، أو حصول الكذب منهم اتفاقاً، ويعتبر ذلك في جميع الطبقات إن تعددت. وشروط التواتر:

١ - أن يكون رواه عدداً كثيراً.

٢ - أن يحيل العقل تواطؤهم على الكذب، أو أن يحصل الكذب منهم اتفاقاً عادة.

٣ - أن يرووا ذلك عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء، في كون العقل يمنع من تواطئهم على الكذب، أو حصوله منهم اتفاقاً عادة.

٤ - أن يكون مستند انتهائهم الإدراك الحسي؛ بأن يكون آخر ما يثول إليه الطريق، ويتم عنده الإسناد، أمر حسي مدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة؛ من الذوق واللمس والشم والسمع والبصر.

تقسيم المتواتر إلى لفظي ومعنوي

من المتفق عليه عند العلماء وأرباب النظر: أن القرآن الكريم لا تجوز الرواية فيه بالمعنى، بل أجمعوا على وجوب روايته لفظة لفظة، وعلى أسلوبه وترتيبه، ولهذا كان تواتره اللفظي لا يشك فيه أدنى عاقل، أو صاحب حس. وأما سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ: فقد أجازوا روايتها بالمعنى، لذلك لم تتحد ألفاظها ولا أسلوبها، ولا ترتيبها.

فهل يكون الحديث متواتراً تواتراً لفظياً أو معنوياً، إذا تعددت الرواية بالألفاظ مترادفة، وأساليب مختلفة من التمام والنقص، والتقديم والتأخير من الواقعة الواحدة حتى بلغت مبلغ التواتر؟ ومن ناحية أخرى فإذا تعددت الوقائع، واتفقت على معنى واحد، دلت عليه تارة بالتضمن، وتارة =

نقول: هذه القراءة إما أن تكون منقولة بالتواتر، أو لا.

= بالالتزام، حتى بلغ القدر المشترك من تلك الوقائع المتعددة مبلغ التواتر، فإنه حينئذ يكون متواتراً تواتراً معنوياً؟ لا خلاف في ذلك.

وعلى ذلك فالتواتر ثلاثة أقسام:

١ - تواتر لفظي لا شك فيه: كالقرآن الكريم.

٢ - تواتر معنوي لا شك فيه: كما إذا تعددت الوقائع، واشتركت جميعها في معنى تضمني، أو التزامي.

٣ - أما إذا اتحدت الواقعة، وتعددت روايتها بألفاظ مختلفة، وأساليب متغايرة، واتفقت في المعنى المطابقي، وبلغت في تتابعها وتعددتها حد المتواتر، كان متواتراً تواتراً لفظياً.

وعلى ذلك ينقسم المتواتر إلى قسمين: لفظي، ومعنوي، وينقسم «اللفظي» إلى قسمين، كما ينقسم «المعنوي» إلى قسمين أيضاً، وعلى هذا فالمتواتر أربعة أقسام:

١ - أن يتواتر اللفظ والأسلوب في الواقعة الواحدة.

٢ - أن تتواتر الواقعة الواحدة بألفاظ مترادفة، وأساليب كثيرة متغايرة، متفقة على إفادة المعنى المطابقي للواقعة الواحدة.

٣ - أن يتواتر المعنى التضمني في وقائع كثيرة.

٤ - أن يتواتر المعنى الالتزامي في وقائع كثيرة.

ولهذه الأقسام أمثلة كثيرة ذكرها المحدثون في كتب الاصطلاح، فلتنظر من هناك.

وأما حكم المتواتر: ذهب جمهور العلماء إلى أن المتواتر يفيد العلم ضرورة، بينما خالف في إفادته العلم مطلقاً السُمْنِيَّة والبراهمة.

وخالف في إفادته العلم الضروري الكعبي وأبو الحسين من المعتزلة، وإمام الحرمين من الشافعية، وقالوا: إنه يفيد العلم نظراً.

وذهب المرتضى من الرافضة، والآمدي من الشافعية إلى التوقف في إفادته العلم، هل هو نظري أو ضروري؟.

وقال الغزالي: إنه من قبيل القضايا التي قياساتها معها، فليس أولياً، وليس كسبياً.

واحتج الجمهور أنه ثابت بالضرورة، وإنكاره مكابرة وتشكيك في أمر ضروري؛ فإننا نجد من أنفسنا العلم الضروري بالبلدان البعيدة، والأمم السالفة، كما نجد العلم بالمحسوسات لا فرق بينها فيما يعود إلى الجزم، وما ذاك إلا بالإخبار قطعاً.

ولو كان نظرياً لافتقر إلى توسط المقدمتين في إثباته، واللازم باطل، لأننا نعلم قطعاً علمنا بالمتواترات من غير أن نفتقر إلى المقدمات وترتيبها.

كما أنه لو كان نظرياً، لساغ الخلاف فيه ككل النظريات، واللازم باطل.

فثبت مما تقدم أن المتواتر يفيد العلم، وأن العلم به ضروري كسائر الضروريات.

ينظر: البحر المحيط للزركشي: ٢٣١/٤، والبرهام لإمام الحرمين: ٥٦٦/١، والإحكام في أصول

الأحكام للآمدي: ١٤/٢، ونهاية السؤل للإسنوي: ٥٤/٣، ومنهاج العقول للبدخشي: ٢٩٦/٢،

وغاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ٩٥، والتحصيل من المحصول للأرموي: ٩٥/٢، والمنحول

للغزالي: ٢٣١، والمستصفي له: ١٣٢/١، وحاشية البناني: ١١٩/٢، والإيهاج لابن السبكي: ٢/

٢٦٣، والآيات البيّنات لابن قاسم العبادي: ٢٠٦/٣، وحاشية العطار على جمع الجوامع: ١٤٧/٢،

والمعتمد لأبي الحسين: ٨٦/٢، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ١٠١/١، وتيسير التحرير =

فإن كان الأوّل، فحيثُ قد ثبت بالثقل المتواتر أنّ الله - تعالى - قد خيّر المُكَلَّفِينَ بين هذه القراءة، وسوّى بينهما في الجواز.

وإذا كان كذلك، كان ترجيح بعضها على البعض واقعاً على خلاف الحكم المتواتر؛ فواجب أن يكون الداهيون إلى ترجيح البعض، مستوجبين للتفسيق إن لم يلزمهم التكفير، لكنا نرى أن كل واحد يختص بنوع مُعَيَّن من القراءة، ويحمل الناس عليها، ويمنعهم من غيرها، فوجب أن يلزم في حقهم ما ذكرناه.

وإن قلنا: هذه القراءات ما ثبتت بالتواتر؛ بل بطريق الأحاد، فحيثُ يخرج القرآن عن كونه مُفِيداً للجزم، والقطع اليقين؛ وذلك باطل بالإجماع؛ ولقائل أن يجيب عنه؛ فيقول: بعضها متواتر، ولا خلاف بين الأمة فيه، وتجويز القراءة بكل واحد منها؛ وبعضها من باب الأحاد، لا يقتضي كون القراءة بكلية خارجاً عن كونه قطعياً، والله أعلم؛ ذكره ابن الخطيب.

فصل في اشتقاق الاستعاذة وإعرابها

العوذ له معنيان: أحدهما: الالتجاء والاستجارة.

والثاني: الالتصاق؛ ويقال: «أَطِيبَ [اللَّحْمُ]»^(١) عودُهُ هو: ما التصق بالعظم.

فَعَلَى الأوّل: أعوذ بالله، أي: ألتجئ إلى رحمة الله، ومنه العودّة: وهي ما يُعَادُ به من الشر.

وقيل للرُفْيَةِ، والتَّيْمَةِ - وهي ما يُعَلَّقُ على الصبي: عودّة، وعودّة [بفتح العين وضمها]^(٢)، وكلُّ أنثى وَضَعَتْ فهي عائِدٌ إلى سبعة أيام.

ويقال: عَادَ يَعُودُ عوداً، وعياداً، ومَعَاداً، فهو عائِدٌ ومَعُودٌ ومنه قول الشاعر:

[البسيط]

١ - أَلْحَقْ عَذَابَكَ بِالْقَوْمِ الَّذِينَ طَعَنُوا وَعَائِداً بِكَ أَنْ يَغْلُوا فَيَطْغُونِي^(٣)

= لأمير بادشاه: ٣٢/٣، وكشف الأسرار للنسفي: ٤/٢، وشرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني: ٣/٢، وشرح المنار لابن ملك: ٧٨، وميزان الأصول للسمرقندي: ٢/٦٢٧، وتقريب الوصول لابن جزي: ١١٩، وإرشاد الفحول للشوكاني: ٤٦.

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: بضم العين وفتحها.

(٣) البيت لعبد الله بن الحارث السهمي، ينظر الكتاب: ٣٤٢/١، ولسان العرب (عود)، وشرح أبيات سيويه: ٣٨١/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٤٧٥، وشرح المفصل: ١٢٣/١، والسيرة لابن هشام: ٢١٦، والروض الأنف: ٢٠٨/١، والدر المصون: ٤٧/١.

قِيلَ: عَائِد - هنا - أصله اسمُ فاعلٍ؛ ولكنَّه وقع موقعَ المَصْدَرِ؛ كأنه قال: «وعِيَاذًا بك» وسيأتي تَحْقِيقُ هذا القولِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و «أَعُوذُ» فعلٌ مُضَارِعٌ، وأصله: «أَعُوذُ» بضم الواو؛ مثل: «أَقْتُلُ، وَأَخْرُجُ أنا» وإنما نَقَلُوا حركةَ الواو إلى الساكن قبلها؛ لأنَّ الضمَّةَ ثَقِيلَةً، وهكذا كُلُّ مضارعٍ من «فَعَلَ» عِيْنُهُ واوٌ؛ نَحْوُ: «أَقُومُ، وَيَقُومُ، وَأَجُولُ، وَيَجُولُ» وفاعله ضميرُ المتكلمِ.

وهذا الفاعل لا يجوزُ بَرُوزُهُ؛ بل هُوَ مِنَ المواضعِ السَّبْعَةِ التي يجبُ فيها استتارُ الضميرِ على خلافِ في السَّابِعِ ولا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا؛ لِغُمُومِ فَائِدَتِهَا، وكثرةِ دَوْرِهَا:

الأولُ: المَضَارِعُ المسندُ للمتكلمِ وخِذْهُ؛ نَحْوُ: «أَفْعَلُ».

الثاني: المَضَارِعُ المسندُ للمتكلمِ مع غَيْرِهِ، أو المعظمُ نفسه؛ نحو: «تَفْعَلُ نَحْنُ».

الثالثُ: المضارعُ المسندُ للمخاطَبِ؛ نحو: «تَفْعَلُ أَنْتَ»، وَيُوحَدُ المخاطَبُ بَقِيْدِ الإِفْرَادِ، والتذكيرِ؛ لأنه متى كان مُثْنًى، أو مَجْمُوعاً، أو مُؤنثاً - وجبَ بَرُوزُهُ؛ نحو: «تَقُومانِ - يَقُومُونَ - تَقُومِينَ».

الرابعُ: فِعْلُ الأَمْرِ المسندُ للمخاطَبِ؛ نحو: «أَفْعَلْ أَنْتَ» وَيُوحَدُ المخاطَبُ أَيْضاً - بَقِيْدِ الإِفْرَادِ، والتذكيرِ؛ لَأنَّهُ متى كان مُثْنًى، أو مَجْمُوعاً، أو مُؤنثاً - وجبَ بَرُوزُهُ؛ نحو: «أَفْعَلَا - أَفْعَلُوا - أَفْعَلِي».

الخامسُ: اسمُ فِعْلِ الأَمْرِ مُطْلَقاً، سواءَ كان المأمورُ مُفْرَداً، أو مُثْنًى، أو مَجْمُوعاً، أو مُؤنثاً؛ نحو: «صَهْ يا زَيْدٌ - يا زَيْدَانِ - يا زَيْدُونَ - يا هِنْدُ - يا هِنْدَانِ - يا هِنْدَاتُ».

بخلافِ فِعْلِ الأَمْرِ؛ فإنه يبرزُ فيه ضميرُ غيرِ المُفْرَدِ المذكِرِ، كما تقدم.

السادسُ: اسمُ الفِعْلِ المضارعِ؛ نحو: «أَوَّهْ» أي: أَتَوَجَّعُ، و «أُفْ» أي: أَتَضَجَّرُ، و «وَيْ» أي: أعجب.

وهذه الستة لا يبرزُ فيها الضميرُ؛ بلا خلاف.

وتحرزتُ بقولي: «اسمُ فعلِ الأَمْرِ، واسمُ الفِعْلِ المضارعِ» عن اسمِ الفِعْلِ الماضي؛ فإنه لا يجبُ فيه الاستتارُ كما سيأتي.

السَّابِعُ: المَصْدَرُ الواقعُ موقعَ الفِعْلِ بدلاً مِنْ لفظه؛ نحو: «ضَرْباً زَيْداً»؛ وقولِ الشاعرِ: [الطويل]

٢ - يَمْرُونَ بِالدَّهْنِ خِفافاً عِيَابُهُمْ وَيَزِجُغْنَ مِنْ دَارِينَ بُجَرَ الحَقَائِبِ
عَلَى حِينِ أَلْهَى النَّاسَ جُلُ أُمُورِهِمْ فَتَذَلَّ زُرْنِقُ المَالِ نَذَلَ الثُّعَالِبِ^(١)

(١) البيتان لأعشى همدان، ينظر الحماسة البصرية: ٢/٢٦٢، ٢٦٣، شرح أبيات سيوبه: ١/٣٧١، =

وقوله تَعَالَى: ﴿فَضَرَبَ الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤].

هذا إذا جعلنا في «ضرباً» ضميراً مستتراً؛ وأما مَنْ يقول من النحويين: إِنَّهُ لَا يَتَحَمَّلُ ضميراً أَلْبَتَهُ؛ فلا يكونُ من المسألة في شيء.

والضابطُ فيما يجبُ استتاره، وإنْ عُرِفَ مِنْ تَعْدَادِ الصُّوَرِ الْمُتَقَدِّمَةِ - «أَنَّ كُلَّ ضَمِيرٍ لَا يَحُلُّ مَحَلَّهُ ظَاهِرٌ، وَلَا ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ، فَهُوَ وَاجِبُ الِاسْتِتَارِ كَالْمَوَاضِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمَا جَازَ أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّهُ أَحَدُهُمَا، فَهُوَ جَائِزُ الِاسْتِتَارِ؛ نَحْوُ: «زَيْدٌ قَامَ» فِي «قَامَ» ضَمِيرٌ جَائِزُ الِاسْتِتَارِ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ الظَّاهِرُ؛ نَحْوُ: «زَيْدٌ قَامَ أَبُوهُ» أَوِ الضَّمِيرُ الْمُنْفَصِلُ، نَحْوُ: «زَيْدٌ مَا قَامَ إِلَّا هُوَ» فَإِنْ وَجَدَ مِنْ لِسَانِهِمْ فِي أَحَدِ الْمَوَاضِعِ الْمُتَقَدِّمَةِ، الْوَاجِبُ فِيهَا الِاسْتِتَارُ ضَمِيرٌ مُنْفَصِلٌ، فَلْيُعْتَقَدْ كَوْنُهُ تَوْكِيداً لِلضَّمِيرِ الْمُسْتَتَرِّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَسْكَنْ أَتَتْ وَزَوَّجَكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ف «أَنْتَ» مُؤَكَّدٌ لِفَاعِلٍ «أَسْكَنْ».

و «بِاللَّهِ» جَارٌّ وَمَجْرُورٌ، وَكَذَلِكَ: «مِنْ الشَّيْطَانِ» وَهُمَا مُتَعَلِّقَانِ بِ «أَعُوذُ».

ومعنى الباءِ: الاستعانة، و «مِنْ»: لِلتَّغْلِيلِ، أَيْ: أَعُوذُ مُسْتَعِيناً بِاللَّهِ مِنْ أَجْلِ الشَّيْطَانِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِبَتْدَاءِ الْغَايَةِ، وَلَهَا مَعَانِي آخَرٌ سَتَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْجَلَالَةِ، فَيَأْتِي فِي الْبَسْمَلَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَالشَّيْطَانُ: الْمُتَمَرِّدُ مِنَ الْجَنِّ، وَقِيلَ: الشَّيَاطِينُ أَقْوَى مِنَ الْجِنِّ، وَالْمَرَدَّةُ أَقْوَى مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَالْعَفْرِيَةُ أَقْوَى مِنَ الْمَرَدَّةِ، وَالْعَفَارِيثُ أَقْوَاهَا.

وقال أَبُو عُبَيْدَةَ^(١) - رحمه الله -: الشَّيْطَانُ: اسْمٌ لِكُلِّ عَارِمٍ مِنَ الْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالْحَيَوَانَاتِ؛ [لِبُعْدِهِ]^(٢) مِنَ الرَّشَادِ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فَجَعَلَ مِنَ الْإِنْسِ شَيْطَانِينَ.

= ٣٧٢، وَلِلْأَعْشَى أَوْ لِلْأَحْوَصِ أَوْ لَجَرِيرٍ، يَنْظُرُ الْمَقَاصِدُ النُّحْوِيَّةُ: ٤٦/٣، وَهُمَا فِي مَلْحَقِ دِيَوَانِ الْأَحْوَصِ: ص ٢١٥، وَمَلْحَقِ دِيَوَانِ جَرِيرٍ: ص ١٠٢١، وَالْكِتَابُ: ١١٥/١، وَلِسَانُ الْعَرَبِ: (خَشَفَ)، (نَدَلَ)، وَأَوْضَحَ الْمَسَالِكُ: ٢١٨/٢، وَشَرْحُ الْأَشْمُونِيِّ: ٢٠٤/١، وَشَرْحُ التَّصْرِيحِ: ١/٣٣١، وَشَرْحُ ابْنِ عَقِيلٍ: ص ٢٨٩، وَالْخَصَائِصُ: ١٢٠/١، وَجَهْرَةُ اللُّغَةِ: ص ٦٨٢، وَالْإِنْصَافُ: ص ٢٩٣، وَسِرُّ صَنَاعَةِ الْإِعْرَابِ: ص ٥٠٧، وَالْحِجَّةُ لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارَسِيِّ: ١٠٨/١، وَشَرْحُ شَوَاهِدِ الْأَلْفِيَّةِ: ١٦٤، وَالدَّرُ الْمَصُونُ ٤٨/١.

(١) معمر بن المثنى التيمي البصري، أبو عبيدة النحوي: من أئمة العلم بالأدب واللغة، ولد في ١١٠ هـ. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، كان إباحياً شعوبياً، من حفاظ الحديث، لما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه. له مؤلفات منها مجاز القرآن، الشوارد، الزرع. توفي ٢٠٩ هـ.

ينظر وفيات: ١٠٥/٢، وتذكرة: ٣٣٨/١ وبغية الوعاة: ٣٩٥، والأعلام: ٢٧٢/٧.

(٢) سقط في أ.

وركب عُمَرُ^(١) - رضي الله تعالى عنه - بَرْدُونًا، فَطَفِقَ يَتَبَخَّرُ؛ فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تَبَخَّرًا؛ فنزل عنه، وقال: «مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ»^(٢).

وقد يُطْلَقُ على كُلِّ قُوَّةٍ دَمِيمَةٍ في الإنسان؛ قال - عليه الصلاة والسلام -: «الْحَسَدُ شَيْطَانٌ، وَالْغَضَبُ شَيْطَانٌ»^(٣)؛ وذلك لِأَنَّهُمَا يَشْأَنُ عَنْهُ. واختلف أهل اللُّغَةِ في اشتقاقِهِ:

فقال جُمُهورُهم: هو مشتقٌّ من: «شَطَنَ - يَشْطُنُ» أي: بَعَدَ؛ لأنه بعيدٌ من رحمة الله تعالى؛ وأنشد: [الوافر]

٣ - نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُونٌ فَبَأَتْ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينٌ^(٤)

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي، أبو حفص المدني، أحد فقهاء الصحابة، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأول من سمي «أمير المؤمنين» شهد بدرًا، والمشاهد إلا تبوك، وولي أمر الأمة بعد أبي بكر - رضي الله عنهما -، وفتح في أيامه عدة أمصار، أسلم بعد أربعين رجلًا، عن ابن عمر مرفوعًا: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»، ولما دفن قال ابن مسعود: ذُهِبَ اليوم بتسعة أعشار العلم. استشهد في آخر سنة ثلاث وعشرين، ودفن في أول سنة أربع وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه صهيب، ودفن في الحجرة النبوية، ومناقبه جمة.

ينظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: ٤٣٨/٧ (٧٢٤)، وتقريب التهذيب: ٥٤/٢، وخلاصة تهذيب الكمال: ٢٦٨/٢، والكاشف: ٣٠٩، وتاريخ البخاري الكبير: ١٣٨/٦، وتاريخ البخاري الصغير: ٢٣٦/٢، والجرح والتعديل: ١٠٠/٥، وأسد الغابة: ١٤٥/٤، والرياض المستطابة: ١٤٧، والاستيعاب: ١١٤٤/٣، وتجريد أسماء الصحابة: ٣٨/١، ٥٥، وطبقات ابن سعد: ١٤١/٩، وطبقات الحفاظ: ٦٢٨.

(٢) ذكره الطبري في التفسير: ١١١/١، والفخر الرازي: ٦٤/١، وابن كثير في التفسير: ١٦/١، ٣٢ من رواية ابن وهب بهذا الإسناد، وقال: إسناده صحيح، وذكر الطبري في التاريخ: ١٦٠/٤ نحو معناه بسياق آخر، بدون إسناد.

(٣) أخرج الشطر الثاني منه أبو داود (٢٨٧/٢) من حديث عروة بن محمد ثني أبي عن جدي مرفوعًا، وأخرجه من حديث معاوية أبو نعيم في «الحلية» (١٣٠/٢) بلفظ: الغضب من الشيطان، والحديث ذكره العجلوني في «كشف الخفاء»: ١٠٣/٢ بلفظ: «الغضب يُفسد الإيمان كما يفسد الصبرُ العسل» وعزاه للطبراني في الكبير، والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند ضعيف من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة مرفوعًا، وفي لفظ الطبراني وأبي الشيخ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بلفظ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل» لكن له شواهد منها: ما رواه الترمذي بسند ضعيف أيضًا عن أبي سعيد الخدري رفعه: «الغضب جمره في قلب ابن آدم»، ومنها ما رواه أبو داود عن عطية السعدي رفعه: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار»، ورواه أبو نعيم بسند ضعيف عن معاوية بلفظ: «الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار»، ومنها: ما رواه أبو الشيخ عن أبي سعيد بلفظ: «الغضب من الشيطان، فإذا وجده أحدكم قائمًا، فليجلس، وإن وجده جالسًا، فليضطجع» اهـ.

(٤) البيت للناطقة الذبياني: ينظر: ديوانه (٢٠)، والطبري: ٧٦/١، واللسان: «شطن»، والمحرم الوجيز: ٥٩/١، والدر المصون: ٤٨/١.

وقال آخَرُ: [الخفيف]

٤ - أَيَّمَا شَاطِئِنِ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السَّجْنِ وَالْأَكْبَالِ^(١)

وَحَكَى سَبْيُونِهِ^(٢) - رحمه الله :- «تَشَيْطَنَ» أي: فَعَلَ فِعْلَ الشَّيَاطِينِ؛ فهذا كُلُّهُ يدل على أنه من «شَطَنَ»؛ لثبوت النون، وسُقُوطِ الألفِ في تصاريِفِ الكَلِمَةِ، وَوَزْنُهُ على هذا: «فَعِيلَال».

وقِيلَ: هو مُشْتَقٌّ مِنْ «شَاطَ - يَشِيْطُ» أي: هَاجَ، وَاخْتَرَقَ، ولا شك أن هذا المعنى مُوجُودٌ فيه، فأخذوا بِذَلِكَ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ؛ لكنْ لم يُسْمَعْ في تَصَارِيْفِهِ إِلَّا ثَابِتُ الثَّوْنِ، مَخْذُوفِ الألفِ؛ كما تقدم، وَوَزْنُهُ عَلَى هَذَا «فَعْلَانُ»، ويترتبُ على القَوْلَيْنِ: صَرْفُهُ وَعَدَمُ صَرْفِهِ، إِذَا سُمِّيَ بِهِ، وَأما إِذَا لم يُسَمَّ بِهِ، فَإِنَّهُ متصرفٌ أَلْبَتَهُ؛ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ امْتِنَاعِ «فَعْلَانُ» الصِّفَةِ أَلَّا يُؤَنَّثَ بِالتَّاءِ، وَهَذَا يُؤَنَّثُ بِهَا؛ قَالُوا: «شَيْطَانَةٌ».

قال ابنُ الخطيب: و «الشَّيْطَانُ» مُبَالِغَةٌ فِي الشَّيْطَانَةِ؛ كما أَنَّ «الرَّحْمَنَ» مُبَالِغَةٌ فِي الرَّحْمَةِ. و «الرَّجِيمُ» فِي حَقِّ الشَّيْطَانِ «فَعِيلٌ» بِمَعْنَى «فَاعِلٌ».

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَقْتَضِي الْفِرَارَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قَوْلُهُ: «الرَّجِيمُ» نَعَتْ لَهُ عَلَى الذَّمِّ، وَفَائِدَةُ النِّعْتِ: إِذَا إِزَالَةُ اشْتِرَاكِ عَارِضٍ فِي مَعْرِفَةٍ؛ نَحْوُ: «رَأَيْتُ زَيْدًا عَاقِلًا».

وَأَمَّا تَخْصِيصُ نِكْرَةٍ؛ نَحْوُ: «رَأَيْتُ رَجُلًا تَاجِرًا» وَإِمَّا لِمُجَرَّدِ مَدْحٍ، أَوْ ذَمٍّ، أَوْ تَرْحُومٍ؛ نَحْوُ: «مَرَزْتُ بَزِيدَ الْمُسْكِينِ» وَقَدْ يَأْتِي لِمُجَرَّدِ التَّوَكُّيدِ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فَفَعْلُهُ وَحْدَةً﴾ [الحَاقَّةُ: ١٣] وَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ قَاعِدَةٍ فِي النِّعْتِ، تَعْمُ فَائِدَتُهَا:

اعْلَمْ أَنَّ النِّعْتَ إِنْ كَانَ مُشْتَقًّا بِقِيَاسٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ لِمَتَّبِعِهِ، لَزِمَ أَنْ يُوَافِقَهُ فِي أَرْبَعَةٍ مِنْ عَشْرَةٍ؛ أَغْنِي فِي وَاحِدٍ مِنَ أَلْقَابِ الإِعْرَابِ: الرِّفْعِ، وَالتَّنْصِبِ، وَالجَرِّ، وَفِي وَاحِدٍ مِنَ: الإِفْرَادِ، وَالتَّثْنِيَةِ، وَالجَمْعِ، وَفِي وَاحِدٍ مِنَ: التَّذْكِيرِ، وَالتَّأْنِيثِ، وَفِي وَاحِدٍ مِنَ: التَّعْرِيفِ، وَالتَّنْكِيرِ.

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت: ينظر ديوانه (٥١)، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن: (٧)، ومجمع البيان: ٣٨/١، واللسان: «شطن»، والصحاح: «شطن»، والطبري: ٧٦/١، والمحرم الوجيز: ١/٥٩، والدر المصون: ٤٨/١.

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى «شيراز»، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنف كتابه المسمى: «كتاب سيبويه»، من النحو لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ناظر الكسائي، وأجازته الرشيد بعشرة آلاف درهم، كان أتيقاً جميلاً توفي شاباً، ولد سنة ١٤٨هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ. انظر ابن خلكان: ٣٨٥/١، والبداية والنهاية: ١٧٦/١٠، والأعلام: ٨١/٥.

وإن كان معناه لغير مَثْبُوعِهِ، وافقه في اثْنَيْنِ مِنْ خَمْسَةٍ: في واحدٍ من ألقاب الإعراب، وفي واحدٍ من التعريف والتنكير^(١)؛ نحو: «مررتُ برجلَيْنِ عاقِلَةٍ أُمَّهُمَا»، فلم يتبعه في تشية ولا تذكير.

وإذا اختصرت ذلك كله، فقل: النعت يلزم أن يتبع منوعته في اثنين من خمسة مطلقاً: في واحدٍ من ألقاب الإعراب، وفي واحدٍ من التعريف والتنكير، وفي الباقي كالفعل؛ يعني: أنك تضع موضع النعت فعلاً، فمهما ظهر في الفعل، ظهر في النعت؛ مثاله ما تقدم في: «مررتُ برجلَيْنِ عاقِلَةٍ أُمَّهُمَا»^(٢)؛ لأنك تقول: «مررتُ برجلَيْنِ عَقَلَتِ أُمَّهُمَا».

«والرَّجِيم» قد تبع موصوفه في أربعة من عشرة؛ لما عرفت، وهو مشتق من «الرَّجَم»، والرَّجْم أصله: الرَّمْيُ بالرَّجَام، وهي الحجارة، ويستعار الرَّجْمُ للرمي بالظنِّ والتوهم. قال زهير^(٣): [الطويل]

٥ - وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ^(٤)

ويعبر به - أيضاً - عن الشتم؛ قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] قيل: أقول فيك قولاً سيئاً.

والمُراجَمة: المسابغة الشديدة استعارة كالمقابلة، فالرجيم معناه: المرجوم، فهو «فَعِيلٌ» بمعنى «مَفْعُولٌ»؛ كقولهم: كَفَّ خَضِيبُ أَيٍّ مَخْضُوبٌ؛ ورجلٌ لَعِينُ أَيٍّ: مَلْعُونٌ قال الراغب^(٥): «والتَّرجُمانِ تَفْعُلانِ من ذلك كأنه يعني أنه يرمي بكلام^(٦) من يترجم عنه إلى

(١) سقط في: أ.

(٢) في أ: أمهما عاقلة.

(٣) زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني من مضر، حكيم شعراء الجاهلية، ولد بالمدينة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته شاعرة، وابناه شاعران، وأخته الخنساء شاعرة، كانت قصائده تسمى الحوليات. توفي ١٣ ق هـ.

ينظر معاهد التنقيص: ٣٢٧/١، وجمهرة الأنساب: ٢٥، ٤٧، وصحيح الأخبار: ٧/١ و ١١٢، وآداب اللغة: ١٠٥/١، والشعر والشعراء: ٤٤، والأعلام ٥٢/٣.

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى: ينظر في ديوانه (١٠٧)، والدرر: ٥/٢٤٤، وشرح شواهد المغني: ١/٣٨٤، ولسان العرب: ١٢/٢٢٨ (رجم)، وشرح قطر الندى: ص ٢٦٢، وجمع الهوامع: ٩٢/٢، والخرانة: ١١/٣، والدر المصون: ٤٩/١.

(٥) الحسين بن محمد بن المفضل: أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب: أديب من الحكماء العلماء، من أهل «أصبهان» سكن «بغداد»، واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه: «محاضرات الأدباء» و «الأخلاق» ويسمى: «أخلاق الراغب»، و «جامع التفاسير»، و «المفردات في غريب القرآن»، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره. توفي سنة ٥٠٢ هـ - ١١٠٨ م.

ينظر الأعلام: ٢/٢٥٥، وروضات الجنات: ٢٤٩، وكشف الظنون: ٣٦/١.

(٦) في أ: لكلام.

غَيْرِهِ؛ وَالرَّجْمَةُ: أَحْجَارُ الْقَبْرِ، ثُمَّ عَبَّرَ بِهَا عَنْهُ؛ وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا تُرْجَمُوا قَبْرِي»، أَيْ: لَا تَضَعُوا عَلَيْهِ الرُّجْمَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى «فَاعِلٍ»؛ لِأَنَّهُ يَرْجُمُ غَيْرَهُ بِالشَّرِّ، وَلَكِنَّهُ بِمَعْنَى «مَفْعُولٍ» أَكْثَرُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَقِيسٍ.

ثُمَّ فِي كَوْنِهِ مَرْجُومًا وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ مَعْنَى كَوْنِهِ مَرْجُومًا كَوْنُهُ مَلْعُونًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا﴾ [الحجر: ٣٤] وَاللَّعْنُ يُسَمَّى رَجْمًا.

وَحَكَى اللَّهُ تَعَالَى - عَنْ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ﴾ قِيلَ: عَنَى بِقَوْلِهِ الرَّجْمَ بِالْقَوْلِ.

وَحَكَى اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وَفِي سُورَةِ يَس: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَتَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: ١٨].

وَالْوَجْهُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا وُصِفَ بِكَوْنِهِ مَرْجُومًا؛ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِرَمْيِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهُبِ وَالْثَوَاقِبِ؛ طَرْدًا لَهُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ، ثُمَّ وَصَفَ بِذَلِكَ كُلَّ شَرِيرٍ مُتَمَرِّدٍ وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي بَعْضِ وَجُوهِ الاستعاذة: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَفِيهِ وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الاستعاذة الاحترازُ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَسةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوَسْوَسةَ كَأَنَّهَا كَلَامٌ خَفِيٌّ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، فَكَانَ الْعَبْدُ يَقُولُ: يَا مَنْ هُوَ يَسْمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ، وَيَعْلَمُ كُلَّ سِرٍّ خَفِيٍّ أَنْتَ تَعْلَمُ وَوَسْوَسةَ الشَّيْطَانِ، وَتَعْلَمُ غَرَضَهُ مِنْهَا، وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى دَفْعِهَا عَنِّي، فَادْفَعْهَا عَنِّي بِفَضْلِكَ؛ فَلهَذَا السَّبَبِ كَانَ ذِكْرُ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ أَوْلَى بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ سَائِرِ الْأَذْكَارِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ إِنَّمَا تَعَيَّنَ هَذَا الذِّكْرُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ؛ اقْتِدَاءً بِلَفْظِ الْقُرْآنِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأِمَّا يَرَعْزَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وَقَالَ فِي حَمِّ السَّجْدَةِ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فَصْلٌ فِي اخْتِجَاجِ الْمَعْتَزِلَةِ لِإِبْطَالِ الْجَبْرِ

قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : قَالَتِ الْمَعْتَزِلَةُ^(١) قَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» يُبْطَلُ الْقَوْلُ بِالْجَبْرِ مِنْ وَجْهِ:

(١) أَساس نشأتهم «واصل بن عطاء» مع أستاذه «الحسن البصري» في حكم مرتكب الكبيرة، وإليه تنسب طائفة المعتزلة، وطريقهم في البحث: تحكيم العقل في كل شيء، ومحاولة الوصول عن طريقه إلى كل شيء، ولهم فضل عظيم في الدفاع عن الإسلام، لأنهم قاوموا أصحاب العقائد الباطنة والأديان الأخرى بالحجة والبرهان.

الأول: أَنْ قَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» اعترافُ بكونِ العَبْدِ فاعِلاً، لِتلك الاستعاذة، وَلَوْ كان خالقُ الأَعْمَالِ هو الله تعالى، لَأَمْتَنَعَ كَوْنُ العَبْدِ فاعِلاً؛ لِأَن تَحْصِيلَ الحَاصِلِ مُحَالٌ، وأيضاً فإذا خلقه الله في العبد، امتنع دفعه، وإذا لم يخلقه الله فيه، امتنع تَحْصِيلَهُ، فثبت أَنَّ قَوْلَهُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» اعترافُ بكونِ العَبْدِ مُوجِداً لأفعال^(١) نَفْسِهِ.

والثاني: أَنَّ الاستعاذةَ من الشيطانِ إنما تحسُنُ إِذَا لم يكنِ اللهُ تعالى، خَالِقاً للأُمُورِ التي منها يُسْتَعَاذُ.

أَمَّا إِذَا كانَ الفاعِلُ لَهَا هو اللهُ تعالى، امتنع أَنْ يُسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْهَا؛ لِأَنَّ بهذا التقديرَ يَصِيرُ كَأَنَّ العَبْدَ استعاذَ بِاللَّهِ في غيرِ ما يفعله اللهُ تعالى.

والثالث: أَنَّ الاستعاذةَ بِاللَّهِ من المعاصي تدلُّ على أَنَّ العَبْدَ غيرُ راضٍ بها، ولو كانتِ المعاصي تحصلُ بتخليقِ اللهِ تعالى، وقضائِهِ، وحُكْمِهِ، وَجَبَ أَنَّ العَبْدَ يَكُونُ رَاضِياً بها؛ لما ثَبَتَ بالإجماعِ أَنَّ الرِّضَا بقضاءِ اللهِ تعالى واجبٌ.

والرابع: أَنَّ الاستعاذةَ بِاللَّهِ من الشيطانِ إِنَّمَا تَحْسُنُ لو كَانَتْ تلكِ الوسوسةُ فِعْلاً للشَّيْطَانِ، أَمَّا إِذَا كانتِ فِعْلاً لِلَّهِ، ولم يكنِ لِلشَّيْطَانِ في وُجُودِهَا أثرُ أَلْبَتَّة، فكيف يُسْتَعَاذُ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ؟ بل الواجبُ أَنْ يُسْتَعَاذَ على هذا التقديرِ مِنْ شَرِّ اللهِ؛ لِإِنَّهُ لَا شَرَّ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ.

والخامس: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ إِذَا كُنْتُ ما فعلْتُ شَيْئاً أصْلاً، وَأَنْتَ يَا إِلَهَ الْخَلْقِ عَلِمْتَ^(٢) صُدُورَ الوسوسةِ عَنِّي، وَلَا قُدْرَةَ لِي على مُخَالَفَةِ قُدْرَتِكَ، وَحَكَمْتَ بها عَلَيَّ، وَلَا قُدْرَةَ لِي على مُخَالَفَةِ حُكْمِكَ، ثُمَّ قُلْتُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَقُلْتُ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وَقُلْتُ:

= مبادئ المعترلة:

- ١ - وجوب معرفة الله تعالى بالعقل.
 - ٢ - إنكار صفات المعاني، والقول بخلق القرآن.
 - ٣ - نفي رؤية الله - تعالى - لما تقتضيه من التجسيم والجهة.
 - ٤ - القول بالحسن والقيح العقليين.
 - ٥ - الله يريد الخير، ولا يريد الشر، ويجب عليه فعل الصلاح والإصلاح لعباده.
 - ٦ - العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرته أودعها الله فيه.
 - ٧ - وجوب تنفيذ الوعد والوعيد، ووجوب إرسال الرسل.
 - ٨ - مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، ولا شفاعة له.
 - ٩ - وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
- ينظر: نشر الطوابع (٣٨٧)؛ والفرق بين الفرق: ص ٢٤، والملل والنحل للشهرستاني: ص ١٠٥.
- (١) في أ: لأعمال.
- (٢) في أ: عملت.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فمع هذه الأعذار الظاهرة، والأسباب القويّة فكيف يجوزُ في حكمَتِكَ، ورَحْمَتِكَ أَنْ تُدْمِنِي، وتُلْعَنِي على شيءٍ خَلَقْتُهُ فِي؟
والسَّادِسُ: جَعَلْتَنِي مَرْجُومًا مَلْعُونًا إما أَنْ يَكُونَ بِسَبَبِ جُزْمِ صَدْرِ مَنِي، أَوْ لَا [يَكُونَ] ^(١) بِسَبَبِ جُزْمِ صَدْرِ مَنِي.

فإن كان الأول؛ فقد بَطَلَ الْجَبَرُ، وإن كان الثاني، فهذا مَخْضُ الظلم؛ وأنت قُلْتَ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] فكيف يَلِيقُ هذا بِكَ؟

فإن قال قائل: هذه الإشكالات إنما تلزم على قولٍ مَنْ يَقُولُ بِالْجَبَرِ، وَأَنَا لَا [أَقُولُ] ^(٢) بِالْجَبَرِ، ولا بالقدر، بل أقول: الحقُّ حَالَةٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْجَبَرِ وَالْقَدَرِ؛ وهو الْكَسْبُ.

فنقول: هذا ضَعِيفٌ؛ لأنه إما أَنْ يَكُونَ لِقَدْرَةِ الْعَبْدِ أَثَرٌ فِي الْفِعْلِ على سبيلِ الاستقلال، أَوْ لَا يَكُونُ. فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، فهو تمامُ القولِ بالاعتزالِ، وإن كان الثاني، فهو الْجَبَرُ الْمَخْضُ، [والأُسْئَلَةُ] ^(٣) المذكورة واردةٌ على هذا القول، فكيف يعقل حُصُولُ الواسطة؟

قال أهلُ السُّنَّةِ والجماعة - رحمهم الله - أما الإشكالات التي أَلْزَمْتُمُوهَا عَلَيْنَا، فهي بِأَسْرِهَا واردةٌ عليكم من وجهين:

الأول: أَنْ قَدْرَةُ الْعَبْدِ إمَّا أَنْ تَكُونَ مَعِينَةً لِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ، أَوْ كَانَتْ صَالِحَةً لِلطَّرَفَيْنِ معاً، فإن كان الأول، فالجَبَرُ لازِمٌ، وإن كان الثاني، فرجحانُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ على الآخرِ، إمَّا أَنْ يَتَوَقَّفَ على المَرَجَحِ، أَوْ لَا يَتَوَقَّفَ.

فإن كان الأول، ففاعلُ ذلك المَرَجَحِ يصيرُ الفعلَ واجبَ الْوُقُوعِ، وعندما لا يفعله يصيرُ الفعلُ مَمْتَنَعُ الْوُقُوعِ. وحيثُ يُلْزَمُكُمْ كُلُّ مَا ذَكَرْتُمُوهُ.

وأما الثاني: وهو أَنْ يُقَالَ: إِنْ رَجَحَانَ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ على الآخرِ لَا يَتَوَقَّفُ عل مَرَجَحٍ؛ فهذا باطلٌ لوجهين:

الأول: أَنَّهُ لَوْ جَازَ لَكَ، لَبَطَلَ الاستدلالُ [بِتَرْجُحٍ] ^(٤) أَحَدِ طَرَفِي الْمُمْكِنِ على الآخرِ على وُجُودِ المَرَجَحِ.

والثاني: أَنَّ بهذا التقديرِ يَكُونُ ذلك الرِّجْحَانُ واقعاً على سبيلِ الاتفاقِ، ولا يَكُونُ

(١) سقطت في ب.

(٣) في ب: والسؤالات.

(٢) في أ: نقول.

(٤) في أ: بترجح.

صَادِرًا عَنِ الْعَبْدِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَقَدْ عَادَ الْجَبْرُ الْمَخْضُ، فَثَبَتَ بِهَذَا الْبَيَانِ أَنَّ كُلَّ مَا أوردتموه علينا، فهو وَاِرِدٌ عَلَيْكُمْ.

الوجه الثاني في السؤال: أَنْكُمْ سَلَّمْتُمْ كَوْنَهُ تَعَالَى عَالَمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَوُقُوعُ الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ عِلْمِهِ يَقْتَضِي انْقِلَابَ عِلْمِهِ جَهْلًا؛ وَذَلِكَ مُحَالٌ؛ وَالْمُقْضَى إِلَى الْمُحَالِ مُحَالٌ، فَكَانَ كُلُّ مَا أوردتموه علينا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَازِمًا عَلَيْكُمْ لَزُومًا لَا جَوَابَ عَنْهُ.

ثم قال أهل السُّنَّةِ: قَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» - يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِالاعتزالِ مِنْ وَجُوهٍ:

الأول: أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْ قَوْلِكَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» إِمَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ أَنْ يَمْنَعَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ مِنْ عَمَلِ الْوَسْوَسةِ مَنعًا بِالنَّهْيِ وَالتَّحْذِيرِ؛ أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ.

أَمَّا الأولُ فَقَدْ فَعَلَهُ، وَلَمَّا فَعَلَهُ كَانَ طَلَبُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُحَالًا؛ لِأَنَّ تَحْصِيلَ الْحَاصِلِ مُحَالٌ.

وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ؛ لِأَنَّ الْإِلْجَاءَ يُنَافِي كَوْنَ الشَّيَاطِينِ مُكَلَّفِينَ، وَقَدْ ثَبَتَ كَوْنُهُمْ مُكَلَّفِينَ.

أَجَابَ عَنْهُ الْمُعْتَزِلَةُ فَقَالُوا: الْمَطْلُوبُ بِالِاسْتِعَاذَةِ فَعْلُ الْأَلْطَافِ الَّتِي تَدْعُو الْمُكَلَّفَ إِلَى فَعْلِ الْحَسَنِ، وَتَرْكِ الْقَبِيحِ.

لَا يُقَالُ: فَتِلْكَ الْأَلْطَافُ قَدْ فَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَسْرَرِهَا فِي الْفَائِدَةِ فِي الطَّلَبِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِنْ مِنَ الْأَلْطَافِ مَا لَا يَحْسُنُ فَعْلُهُ إِلَّا عِنْدَ الدَّعَاءِ، فَلَوْ لَمْ يَتَقَدَّمَ هَذَا الدَّعَاءُ لَمْ يَحْسُنْ فَعْلُهُ.

أَجَابَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَنْ هَذَا السَّوْأَلِ بِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ فَعْلَ تِلْكَ الْأَلْطَافِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ فِي تَرْجِيحِ جَانِبِ الْفِعْلِ عَلَى جَانِبِ التَّرْكِ، أَوْ لَا أَثَرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَعِنْدَ حُصُولِ التَّرْجِيحِ يَصِيرُ الْفَعْلُ وَاجِبَ الْوُقُوعِ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ عِنْدَ حُصُولِ رُجْحَانِ جَانِبِ الْوُجُودِ لَوْ حَصَلَ الْعَدَمُ، فَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ أَنْ يَحْصَلَ عِنْدَ رُجْحَانِ جَانِبِ الْوُجُودِ رُجْحَانُ جَانِبِ الْعَدَمِ، وَهُوَ جَمْعُ بَيْنِ النَّقِيضَيْنِ؛ وَهُوَ مُحَالٌ.

ثَبَتَ أَنَّ عِنْدَ حُصُولِ الرُّجْحَانِ يَحْصُلُ الْوُجُوبُ، وَذَلِكَ يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِالاعتزالِ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْأَلْطَافِ رُجْحَانُ [طَرَفٍ] ^(١) الْوُجُودِ، لَمْ يَكُنْ لِفَعْلِهَا أَلْبَتَّةُ أَثَرٌ؛ فَيَكُونُ فَعْلُهَا عَثَاً مُحَضًّا؛ وَذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ.

الوجه الثاني: أَنْ يُقَالَ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لِصَلَاحِ الْعَبْدِ، أَوْ لَا يَكُونُ.

فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ هُوَ الْأَوَّلُ، فَالشَّيْطَانُ إِمَّا أَنْ يُتَوَقَّعَ مِنْهُ إِفْسَادُ الْعَبْدِ، أَوْ لَا يُتَوَقَّعُ.

فَإِنْ تُوقَّعَ مِنْهُ إِفْسَادُ الْعَبْدِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرِيدُ إِصْلَاحَ الْعَبْدِ، فَلِمَ خَلَقَهُ، وَلِمَ سَلَّطَهُ عَلَى الْعَبْدِ؟ وَإِنْ كَانَ لَا يَتَوَقَّعُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِفْسَادُ الْعَبْدِ، فَأَيَّ حَاجَةٍ [لِلْعَبْدِ] ^(١) إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهُ؟

وَأَمَّا إِذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ لَا يُرِيدُ مَا هُوَ صِلَاحُ حَالِ الْعَبْدِ، فَالْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ كَيْفَ تُفِيدُ الْإِعْتَصَامَ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ؟

الوجه الثالث: أَنَّ الشَّيْطَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَجْبُوراً عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ، أَوْ يَكُونَ قَادِراً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَعَلَى فِعْلِ أَحَدِهِمَا.

فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، فَقَدْ أَجْبَرَهُ اللَّهُ عَلَى الشَّرِّ؛ وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ - تَعَالَى - لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاحَ وَالْخَيْرَ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ؛ فَهَذَا هُنَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَرَجَّحَ فِعْلُ الْخَيْرِ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ إِلَّا بِمَرَجَحٍ، وَذَلِكَ الْمَرَجَحُ يَكُونُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ؟

الوجه الرابع: هَبْ أَنَّ الْبَشَرَ إِنَّمَا وَقَعُوا فِي الْمَعَاصِي بِسَبَبِ وَسْوَةِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَيْفَ وَقَعَ فِي الْمَعَاصِي؟

فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ وَقَعَ فِيهَا بِسَبَبِ وَسْوَةِ شَيْطَانٍ آخَرَ، لَزِمَ التَّسْلُسُ.
وَإِنْ قُلْنَا: وَقَعَ الشَّيْطَانُ فِي الْمَعَاصِي لَا لِأَجْلِ شَيْطَانٍ آخَرَ، فَلِمَ لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ فِي الْبَشَرِ؟

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا فَائِدَةَ لِلْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ - تَعَالَى - سَلَّطَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى الْبَشَرِ، وَلَمْ يُسَلِّطْ عَلَى الشَّيْطَانِ شَيْطَاناً آخَرَ، فَهَذَا أَخِيفُ عَلَى الْبَشَرِ، وَتَخْصِيصٌ لَهُ بِمَزِيدِ الثَّقِيلِ، وَالْإِضْرَارِ؛ وَذَلِكَ يَنَافِي كَوْنَ الْإِلَهِ رَجِيماً نَظِراً لِعِبَادِهِ.

الوجه الخامس: أَنَّ الْفِعْلَ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مَمْتَنِعَ الْوُقُوعِ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبَ الْوُقُوعِ، كَذَلِكَ.

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِقَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» إِلَّا أَنْ يَنْكَشِفَ أَنَّ الْكَلَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِاللَّهِ.

وَحَاصِلُ الْكَلَامِ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: - أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ ^(٢) ... الْحَدِيثُ.

(١) فِي أ: بِالْعَبْدِ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «السَّنَنِ»: (٤٨٩/٥ - ٤٩٠) كِتَابُ الدَّعَوَاتِ (٤٩) بَابُ (٧٦)، حَدِيثٌ رَقْمُ (٣٤٩٣) وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ»: (١٠٢/١)، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي «السَّنَنِ»: (١٢٦٢/٢ - ١٢٦٣) كِتَابُ الدَّعَاءِ، بَابُ (مَا تَعُوذُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) حَدِيثٌ رَقْمُ (٣٨٤١) - وَالدَّارَقُطْنِيُّ فِي السَّنَنِ (١/٤٤٣)، وَمَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» (٢١٤) - وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ، حَدِيثٌ رَقْمُ (٦٥٤)، وَالحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١/٢٨٨).

فَصْلٌ فِي الْمُسْتَعَاذِ بِهِ

وهو على وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يُقَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ».

والثاني: أَنْ يُقَالَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ». فأما الاستعاذة بالله، فبإياه إنما يتم بالبحث عن لَفْظَةِ «اللَّهُ» وسيأتي ذلك في تفسير: «بِسْمِ اللَّهِ» وأما الاستعاذة بكلمات الله، فاعلم أَنَّ المراد بـ «كَلِمَاتِ اللَّهِ» هو قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

والمراد مِنْ قوله: «كُنْ» نَفَادُ قُدْرَتِهِ فِي الْمُمْكِنَاتِ، وَسَرِيَانُ مَشِيئَتِهِ فِي الْكَائِنَاتِ؛ بحيث يمتنع أَنْ يعرضَ له عائقٌ ومانعٌ، ولا شك أَنه لا تحسُنُ الاستعاذة بالله - تعالى - إلا لكونه مَوْصُوفاً بتلك القدرة القاهرة، والمشيئة النافذة.

قال ابنُ الْخَطِيبِ^(١) رحمه الله تعالى - فَرَّقَ بَيْنَ أَنْ [يَقُولَ]^(٢): «أَعُوذُ بِاللَّهِ» وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ: «بِاللَّهِ أَعُوذُ»، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَا يُفِيدُ الْحَضَرَ، والثاني يُفِيدُهُ، فَلِمَ وردَ الْأَمْرُ بِالْأَوَّلِ دُونَ الثَّانِي، مع أَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الثَّانِي أَكْمَلُ؟

وأيضاً: جاء قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وجاء أيضاً: قوله: «لِلَّهِ الْحَمْدُ» وأما ها هنا، فقد جاء قوله: «أَعُوذُ بِاللَّهِ»، وما جاء «بِاللَّهِ أَعُوذُ» فما الفرق؟.

فَصْلٌ فِي الْمُسْتَعِيدِ

اعلم أَنَّ قوله: «أَعُوذُ بِاللَّهِ» أَمْرٌ مِنْهُ لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ، وَهُوَ^(٣) غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ، فهو أَمْرٌ عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ، لِأَنَّهُ - تعالى - حكى ذلك عن الأنبياء، والأولياء، وذلك يدلُّ على أَنَّ كُلَّ مخلوقٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِيداً بِاللَّهِ تعالى؛ كما حكى عن نوح - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]؛ فَأَعْطَاهُ [اللَّهُ]^(٤) خِلْعَتَيْنِ: السَّلَامَ والبركات؛ ﴿أَهِيْطُ يَسْلَمِيْ مِنَّا وَبَرَكَتِي عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

وقال يوسف - عليه الصلاة والسلام -: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٣]، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ خِلْعَتَيْنِ صَرَفَ السُّوءَ عَنْهُ وَالْفَحْشَاءَ، وقال أيضاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] فأكرمه الله تعالى بخِلْعَتَيْنِ: رَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْداً.

وحَكِي عَنْ مُوسَى - عليه الصلاة والسلام - قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

(١) ينظر الفخر الرازي: ٨٥/١.

(٢) في أ: وهذا.

(٣) سقط في أ.

(٤) في ب: يقال.

[البقرة: ٦٧]؛ فأعطاه الله خِلْعَتَيْنِ: إزالة التُّهْمَةِ، وإحياء القَتِيلِ.

وحُكِّي عن موسى - عليه الصلاة والسلام - أيضاً: ﴿لَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَوْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠]، وفي آيةٍ أُخْرَى: ﴿إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]؛ فأعطاه الله خِلْعَتَيْنِ: أَفْنَى عَدُوَّهُ، وَأَوْزَنَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ.

وحُكِّي أَنَّ أُمَّ مَرْزِمَ قَالَتْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ فَأَعْطَاهَا اللَّهُ - تعالى - خِلْعَتَيْنِ: ﴿فَنَقَّبَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومَرْزِمٌ - عليها السلام - لَمَّا رَأَتْ جِبْرِيلَ - عليه الصلاة والسلام - في صورة بشر يقصدها: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]؛ فوجدت نِعْمَتَيْنِ: وَلَدًا من غير أَبٍ، وَتَبَرُّثًا^(١) اللَّهُ إِيَّاهَا بِلِسَانِ ذَلِكَ الْوَلَدِ عَنِ السُّوءِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

وَأَمْرُ نَبِيَّهِ - محمداً - عليه الصلاة والسلام - بِالِاسْتِعَاذَةِ مَرَّةً أُخْرَى: فَقَالَ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ و ٢]، وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فهذه الآيات دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانُوا أَبْدَأُ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ. وَأَمَّا الْأَخْبَارُ؛ فَكَثِيرَةٌ:

عن معاذِ بْنِ جَبَلٍ^(٢) - رضي الله عنه - قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ

(١) في ب: وتنزيه.

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بمعجمة آخره، ابن عدي بن كعب بن عمرو بن آدي بن سعد بن علي بن أسد بن سارفة بن تريد بمثناة، ابن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن المدني، أسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة، وشهد بدرًا والمشاهد، له مائة وسبعة وخمسون حديثًا، وعنه ابن عباس وابن عمر، ومن التابعين: عمرو بن ميمون، وأبو مسلم الخولاني، ومسروق، وخلق، وكان ممن جمع القرآن. قال النبي - ﷺ: «يأتي معاذ يوم القيامة أمام العلماء»، وقال ابن مسعود: كنا ننشبه بإبراهيم - عليه السلام -، وكان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. توفي في طاعون «عمواس» سنة ثمان عشرة، وقبره بـ «بيسان» في شرقه. قال ابن المسيب: عن ثلاث وثلاثين سنة، وبها رفع عيسى - عليه السلام -.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٣٣٨/٣، وتهذيب التهذيب، ١٨٦/١٠ (٣٤٧)، وتقريب التهذيب: ٢٥٥/٢، وخلاصة تهذيب الكمال: ٣٥/٣، وتاريخ البخاري الكبير: ٣٥٩/٧، وتاريخ البخاري الصغير: ٤١/١، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٦٦.

عليه وسلّم وشرف، وكرّم، وبجلّ، وعظّم، وفخّم - وأغرّقاً فيه؛ فقال عليه الصّلاة والسلام -: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذلك عنه؛ هي قوله: أعوذ باللّهِ من الشّيطان الرّجيم»^(١).

وعن معقل بن يسار^(٢) - رضي الله تعالى عنه - عن النبي - ﷺ - أنّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُضْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ»، وفي رواية: «مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». وقرأ ثلاث آياتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ؛ وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، فَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي، كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ^(٣).

وعن ابن عباس^(٤) عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرف، وكرّم، وبجلّ، وعظّم

(١) أخرجه أبو داود في السنن: (٦٦٣/٢) كتاب «الأدب»، باب (ما يقال عند الغضب) حديث رقم (٤٧٨٠)، والبخاري في التاريخ الكبير: (٣٥/٨)، (١٥١/٤)، (١٩/٨)، والبخاري في الأدب المفرد: ٤٣٤، ١٣١٩، والطبراني في الكبير: (١١٦/٧)، والحاكم في المستدرک: (٤٤١/٢)، وذكره المنذري في الترغيب: (٤٥٠/٣)، (٤٥١).

(٢) معقل بن يسار المزني، أبو علي بايع تحت الشجرة، له أربعة وثلاثون حديثاً، اتفقاً على حديث، وانفرد البخاري بآخر ومسلم بحديثين، وعنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. ينظر الخلاصة: ٤٥/٣.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن: (١٦٧/٥) كتاب «فضائل القرآن» (٤٦)، باب (٢٢)، حديث رقم (٢٩٢٢) - وأحمد في المسند (٢٦/٥)، والدارمي في السنن: (٤٥٨/٢) باب «في فضل حم الدخان والحواميم والمسبحات»، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والحديث ذكره المنذري في الترغيب: (٤٤٧/١)، والتبريزي في مشكاة المصابيح، حديث رقم (٢١٥٧)، والهيثمي في الزوائد: (١١٧/١٠) والقرطبي في التفسير: (١/١٨) - والهندي في كنز العمال حديث رقم (٣٥٧٧)، (٣٥٩٧).

(٤) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، الهاشمي، أبو العباس المكي، ثم المدني، ثم الطائفي، ابن عم النبي - ﷺ - وصاحبه، وحبر الأمة وفقهها، وترجمان القرآن، روى ألفاً وستمائة وستين حديثاً، اتفقاً على خمسة وسبعين، وعنه أبو الشعثاء، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وابن المسيب، وعطاء بن يسار، وأمم. قال موسى بن عبيدة: كان عمر يستشير ابن عباس، ويقول غواص، وقال سعد: ما رأيت أحضر فهماً، ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع علماً من ابن عباس، ولقد رأيت عمر يدعو للمعضلات، وقال عكرمة: كان ابن عباس إذا مر في الطريق، قالت النساء: أمرّ الجشك أو ابن عباس؟. وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس، قلت: أجمل الناس، وإذا نطق، قلت: أفصح الناس، وإذا حدّث، قلت: أعلم الناس، مناقبه جمّة. قال أبو نعيم: مات سنة ثمان وستين. قال ابن بكير - بالطائف - وصلى عليه محمد ابن الحنفية.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٦٩٨/٢، وتهذيب التهذيب: ٢٧٦/٥ (٤٧٤)، وتقريب التهذيب: ٤٢٥/١ (٤٠٤) وخلاصة تهذيب الكمال: ٦٩/٢، ١٧٢، والكاشف: ١٠٠/٢، وتاريخ البخاري الكبير: ٣/٣، ٣/٥، ٢/٧.

وَفَحَّمْ - أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فِي الْيَوْمِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَكَلَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مَلَكًا؛ يَدُودُ عَنْهُ الشَّيْطَانُ»^(١).

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم^(٢) - رضي الله تعالى عنها - عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ نَزَلَ مَثَرًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَزْتَحِلَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ»^(٣).

وعن عمرو بن شعيب^(٤) عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا فَرَعَ أَحَدُكُمْ مِنَ النَّوْمِ فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ: مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ شَرِّ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَخْضُرُونَ، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ»^(٥)؛ وكان عبد الله بن عمر - رضي الله تعالى

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده: (١٤٧/٧) رقم (٤١١٤)، والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٤٢/١٠) وقال: وفيه ليث بن أبي سليم، ويزيد الرقاشي وقد وثقا على ضعفهما، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وذكره الحافظ أيضاً في «المطالب العالية»: (٢٦٠/٣) رقم (٣٤٣٤)، وعزاه لأبي يعلى.

(٢) خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيم بن أمية السلمية، أم شريك زوجة عثمان بن مظعون، لها خمسة عشر حديثاً، انفرد لها (مسلم) بحديث، وعنهما عروة، وأرسل عنها عمر بن عبد العزيز.

ينظر الخلاصة: ٣/٣٨٠، وتقريب التهذيب: ٢/٥٩٦، والثقات: ٣/١١٥، وأسد الغابة: ٧/٩٣، وأعلام النساء: ١/٣٢٨، ٣٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: (٢٠٨٠/٤) كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» (٤٨) باب «في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره» (١٦) حديث رقم (٢٧٠٨/٥٤)، والترمذي في السنن حديث رقم (٣٤٣٧)، وأحمد في المسند (٣٧٧/٦) - وعبد الرزاق في مصنفه: حديث رقم (٩٢٦٠) وابن خزيمة في صحيحه: حديث رقم ٢٥٦٧ - والبيهقي في السنن (٢٥٣/٥) وذكره ابن حجر في «فتح الباري»: (١٩٦/١٠). والقرطبي في التفسير: ١/٨٩، ١٥/٨٩ - ٩٠. والتبريزي في مشكاة المصابيح: حديث رقم (٢٤٢٢). والزبيدي في الإتحاف: ٤/٣٣٠، ٦/٤٠٧. والسيوطي في الدر المنثور: ٣/٤١.

(٤) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي، أبو إبراهيم المدني، نزيل الطائف، عن أبيه عن جده وطاوس، وعن الرُّبَيْعِ بِنْتِ مَعُوذٍ وطائفة، وعنه عمرو بن دينار، وقتادة، والزهرري، وأيوب، وخلف. قال القطان: إذا روى عن الثقات فهو ثقة يحتج به، وفي رواية عن ابن معين: إذا حدث عن غير أبيه فهو ثقة، وقال أبو داود: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ليس بحجة. وقال أبو إسحاق: هو كأيوب عن نافع عن ابن عمر، ووثقه النسائي. وقال الحافظ أبو بكر بن زياد: صح سمع عمرو عن أبيه، وصح سمع شعيب عن جده عبد الله بن عمرو. وقال البخاري: سمع شعيب من جده عبد الله بن عمرو. قال خليفة: مات سنة ثمان مائة وعشرة ومائة.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٢/١٠٣٦، وتهذيب التهذيب: ٨/٤٨ (٨٠)، وتقريب التهذيب: ٢/٧٢، وخلاصة تهذيب الكمال: ٢/٢٨٧، والكاشف: ٢/٣٣١، وتاريخ البخاري الكبير: ٦/٣٤٢، والجرح والتعديل: ٦/١٣٢٣، وميزان الاعتدال: ٣/٢٦٣، ولسان الميزان: ٧/٣٢٥، وترغيب: ٤/٥٨٦، والمجروحين: ٤/٧١، وتراجم الأخبار: ٢/٥٦٦، والمعين: ٥١٧، والبداية والنهاية: ٩/٣٢١.

(٥) أخرجه الترمذي في السنن: (٥٠٦/٥) كتاب الدعوات (٤٩) باب (٩٤) حديث رقم (٣٥٢٨)، وابن =

عنهما - يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ عِبِيدِهِ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ كَتَبَهَا فِي صَكِّ ثُمَّ عَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: كَانَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ^(١) وَالْحُسَيْنَ^(٢) - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَيَقُولُ: «أَعِذْكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ غَيِّنٍ لَآمَةٍ»^(٣)؛ وَيَقُولُ: «كَانَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ».

وَكَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُعَظِّمُ أَمْرَ الْإِسْتِعَاذَةِ؛ حَتَّى أَنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ امْرَأَةً، وَدَخَلَ بِهَا، وَقَالَتْ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ؛ فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «عُدْتُ بِمُعَاذٍ، فَالْحَقِّي بِأَهْلِكَ»^(٤).

وَرَوَى الْحَسَنُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَضْرِبُ مَمْلُوكًا لَهُ، فَجَعَلَ الْمَمْلُوكُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ، إِذْ جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَقَالَ: «أَعُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ؛ فَأَمْسَكَ عَنْهُ فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «عَائِذُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُمَسَّكَ عَنْهُ»، قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُ خُرٌّ؛ لَوْجُهُ لِلَّهِ - تَعَالَى -، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تَقْلُهَا لَدَفَعْتُ وَجْهَكَ سَفْعَ النَّارِ».

= أَبِي شَيْبَةَ (٣٩٧/٧)، (٤٢١)، (٣٦٤/١٠) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَذَكَرَهُ التَّبْرِيزِيُّ فِي مُشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ: حَدِيثٌ رَقْمٌ (٢٤٧٧). وَالْهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ الْعَمَالِ: حَدِيثٌ رَقْمٌ (٤١٣٥٨)، (٤١٣٩٧).

(١) الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَدَنِيُّ، سِبْطُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَرِيحَانَتُهُ، عَنْ جَدِّهِ - ﷺ -، لَهُ ثَلَاثَةُ عَشَرَ حَدِيثًا.

قَالَ أَنَسٌ: كَانَ أَشْبَهُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -. وَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

تُوفِيَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَسْمُومًا سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ، أَوْ سَنَةَ خَمْسِينَ أَوْ بَعْدَهَا.

يَنْظُرُ الْخِلَاصَةُ: ٢١٦/١ (١٣٦١)، وَالْإِصَابَةُ: ٦٨/٢ - ٧٤، وَالِاسْتِعَابُ: ٣٨٣/١ - ٣٩٢، وَالْحَلِيَّةُ: ٣٥/٢ - ٣٩.

(٢) الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَدَنِيُّ، سِبْطُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَرِيحَانَتُهُ، وَأَخُو الْحَسَنِ وَمُحَسِّنُ بَقْعِ الْمَهْمَلَةِ، رَوَى عَنْ جَدِّهِ ثَمَانِيَةَ أَحَادِيثَ، وَعَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَمِّهِ. قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: «حُسَيْنٌ مِنِّي، وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ» وَلِدَ سَنَةَ ٤ هـ، وَاسْتَشْهَدَ بِ«كَرْبَلَاءَ» مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ سَنَةَ ٦١ هـ.

يَنْظُرُ الْخِلَاصَةُ: ٢٢٨/١ (١٤٣٨)، وَالْإِصَابَةُ: ٧٦/٢ - ٨١، وَأَسَدُ الْغَابَةِ: ١٨/٢ - ٢٣، وَالِاسْتِعَابُ: ٣٩٢/١ - ٣٩٩.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي السَّنَنِ: (٦٤٨/٢) كِتَابُ «السَّنَةِ» بَابُ «فِي الْقُرْآنِ» حَدِيثٌ رَقْمٌ (٤٧٣٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي السَّنَنِ: حَدِيثٌ رَقْمٌ (٢٠٦٠)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي السَّنَنِ (١١٦٥/٢) كِتَابُ «الطَّبِّ» (٣١) بَابُ «مَا عَوَّذَ بِهِ النَّبِيُّ - ﷺ - وَمَا عَوَّذَ بِهِ» (٣٦) حَدِيثٌ رَقْمٌ (٣٥٢٥) - وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ: (٢٧٠/١) - وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١٦٧/٣) - وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ: (٨٧/١٠)، (٤٤٨/١١) - وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ: (٢٥٧/١) - وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي مُصَنَّفِهِ: حَدِيثٌ رَقْمٌ (٧٩٨٧) - وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ: (٤٥/٥) - وَذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ: (٢٧٢/٢).

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ: (٢٠٥)، وَابْنُ يَتِيمٍ: (٣٤٢/٧)، وَالدَّارَقُطْنِيُّ: (٢٩/٤).

وعن سُؤَيْدٍ^(١)، سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ^(٢) - رضي الله عنه - يقولُ على المنبرِ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»؛ وَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفَ وَكَرَّمَ وَبَجَلَ وَعَظَّمَ وَفَخَّمَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَلَا أَحِبُّ أَنْ أَتْرُكَ ذَلِكَ مَا بَقِيَتْ».

وكان عليه الصَّلَاةُ والسلام^(٣) يقول: «اللَّهُمَّ، أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٤).

فَضْلٌ

في المُسْتَعَاذِ مِنْهُ؛ وهو الشَّيْطَانُ.

اعلم أن الشَّيْطَانِ إما أَنْ يَكُونَ بالوسوسةِ أو بغيرها؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فأما كيفية الوسوسةِ بناءً على أَنَّ ما رُوِيَ من الآثارِ ذَكَرُوا: أَنَّهُ يَعُوضُ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ، وَيَضَعُ رَأْسَهُ عَلَى حَبَّةِ قَلْبِهِ، وَيُلْقِي إِلَيْهِ الْوَسْوَسةَ؛ واحتجُّوا بما رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفَ وَكَرَّمَ وَبَجَلَ وَعَظَّمَ وَفَخَّمَ - قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ؛ أَلَا فَضِيضُوا مَجَارِيهِ بِالْجُوعِ»^(٥) وقال - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «لَوْ لَا أَنَّ

(١) سويد بن غفلة بفتح المعجمة والفاء واللام، الجعفي أبو أمية الكوفي، قدم المدينة حين نفضت الأيدي من دفنه - ﷺ -، وشهد اليرموك، عن أبي بكر وعمر وعلي وعثمان، وعنه النخعي والشعبي وعبد بن أبي لبابة، وثقه يحيى بن معين. قال أبو نعيم: مات سنة ثمانين. وقيل: بعدها بسنة عن مائة وثلاثين سنة. ينظر الخلاصة: ٤٣٢/١.

(٢) عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي، أبو بكر: أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله - ﷺ - من الرجال، ولد بـ «مكة» في ٥١ هـ، بويح بالخلافة يوم وفاة النبي - ﷺ - سنة ١١ هـ، وكان موصوفاً بالحلم والرافة، كان لقبه «الصديق» في الجاهلية، وأخباره كثيرة جداً. توفي في ١٣ هـ.

ينظر: أبو بكر الصديق: للشيخ الطنطاوي، والجواهر الأسنى: ٩٤ - ١٠٠، وخلاصة الأثر: ٨٦١٣، وكشف الظنون: ١٢٦٣، وهديّة العارفين: ١: ٤٧٦، والأعلام: ١٠٢/٤.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح: (٣٥٢/١) كتاب الصلاة (٤)، باب «ما يقال في الركوع والسجود» (٤٢) حديث رقم (٤٨٦/٢٢٢).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح: (١٠٨/٣) كتاب «الاعتكاف» باب «زيارة المرأة زوجها»... وباب «هل يدرأ»... حديث رقم (٢٠٣٨)، وحديث رقم (٢٠٣٩)، (٢٥٢/٤) كتاب «بدء الخلق» باب «صفة إبليس وجنوده» حديث رقم (٣٢٨١)، (٢٦/٩) كتاب «الأحكام» باب «الشهادة تكون...» حديث رقم (٧١٧١)، وأبو داود في السنن (٧٤٩/١) كتاب «الصيام» باب «المعتكف يدخل البيت لحاجته» حديث رقم (٢٤٧٠)، والترمذي في السنن: حديث رقم (١١٧٢)، وابن ماجه في السنن: (٥٦٦/١) كتاب «الصيام» (٧) باب «في المعتكف يزور أهله في المسجد» (٦٥) حديث رقم (١٧٧٩)، وأحمد في =

الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ، لَنَنْظُرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ»^(١).

وقال العزالي^(٢) - رحمه الله - في كتاب الإحياء: القلبُ مثلُ قُبَّةٍ لَهَا أَبْوَابٌ تُنْصَبُ إِلَيْهَا الْأَحْوَالُ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَمِثْلُ هَدَفٍ تُرْمَى إِلَيْهِ السَّهَامُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمِثْلُ مِرَاةٍ مَنْصُوبَةٍ تَجْتَازُ عَلَيْهَا الْأَشْخَاصُ؛ فَتَتَرَاءَى فِيهَا صُورَةٌ بَعْدَ صُورَةٍ، وَمِثْلُ حَوْضٍ تُنْصَبُ إِلَيْهِ مِيَاهٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ أَنْهَارٍ مَفْتُوحَةٍ.

قال ابن الخطيب^(٣) - رحمه الله تعالى -: لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: أَعُوذُ بِالْمَلَائِكَةِ مَعَ أَنَّ أَدُونَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَكْفِي فِي دَفْعِ الشَّيْطَانِ؟ فما السَّبَبُ فِي أَنْ جَعَلَ ذِكْرَ هَذَا الْكَلْبِ فِي مُقَابِلَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؟

وجوابه: كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: عَبْدِي إِنَّهُ يَرَاكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ هُوَ وَفِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ فَإِنَّهُ يُفِيدُ كَيْدَهُ فِيكُمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَاكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُ؛ فَتَمَسَّكُوا بِمَنْ يَرَى الشَّيْطَانَ وَلَا يَرَاهُ؛ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَقِيلَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

فصل في وجود الجن

اختلف النَّاسُ فِي وُجُودِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، [فَمَنْ النَّاسُ مَنْ أَنْكَرَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ]^(٤). وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَوَّلًا مِنَ الْبَحْثِ عَنْ ماهِيَةِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ؛ فَنَقُولُ: أَطَبَقَ الْكُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ عِبَارَةً عَنْ أَشْخَاصٍ جُسَمَانِيَةٍ كَثِيفَةٍ، تَجِيءُ وَتَذْهَبُ؛ مِثْلُ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ؛ بَلِ الْقَوْلُ الْمَحْصُلُ فِيهِ قَوْلَانِ:

الأول: أَنَّهَا أَجْسَامٌ هَوَائِيَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَهَا عُقُولٌ وَأَفْهَامٌ، وَقُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالٍ صَغِيرَةٍ شَاقَّةٍ.

والقول الثاني: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ أَثْبَتُوا أَنَّهَا مَوْجُودَاتٌ^(٥) غَيْرُ مُتَحَيِّزَةٍ، وَلَا حَالَةٍ فِي

= المسند: (٣/١٥٦، ٢٨٥) - والدارمي في السنن: (٢/٣٢٠). وذكره ابن كثير في التفسير: ٥٥٨/٨، والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين»: ٥/٣٠٥، ٦، ٤/٢٧٣، ٧/٢٦٩، ٢٨٣، ٤٢٩.

(١) ذكره العراقي في «المغني عن حمل الأسفار»: (١/٢٣٣، ٢٨٥)، (٣/٨) - والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين»: (٤/١٩٥)، (٧/٢٣٤)، (٩/٦٩).

(٢) محمد بن محمد بن محمد، حجة الإسلام، أبو حامد الغزالي، ولد سنة ٤٥٠ هـ، أخذ عن الإمام الجويني، ولازمه، حتى صار أنظر أهل زمانه، وجلس للإقراء في حياة إمامه وصنف: «الإحياء» المشهور، و«البيسط»، وهو كالمختصر للنهاية، وله «الوجيز»، و«المستصفى» وغيرها. توفي سنة ٥٠٥ هـ.

انظر ط. ابن قاضي شهبة: ١/٢٩٣، ووفيات الأعيان: ٣/٣٥٣، والأعلام: ٧/٢٤٧، واللباب: ٢/

١٧٠، وشذرات الذهب: ٤/١٠، والنجوم الزاهرة: ٥/٢٠٣، والعبر: ٤/١٠.

(٣) ينظر: الفخر الرازي: ١/٨٤.

(٤) سقط في أ.

(٥) في أ: موجودة.

الْمُتَحَيِّزِ، وزعموا أنها موجودات مُجَرَّدَةٌ عن الجِسمِية.

ثم إنَّ هذه الموجوداتِ قَدْ تَكُونُ عَالِيَةً مُقَدَّسَةً عن تدبير الأجسام [بالْكُلِّيَّة] ^(١)؛ وهم الملائكة المقرَّبون - عليهم السلام - كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

ويليها مرتبة الأرواح المتعلقة بتدبير الأجسام، وأشرفها حَمَلَةُ الْعَرْشِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَجُولُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثِينَ﴾ [الحاقة: ١٧].

والمرتبة الثالثة: ملائكة الكرسي.

والمرتبة الرابعة: ملائكة السموات طبقة بطبقة.

والمرتبة الخامسة: ملائكة كُرَّةِ الأثير.

والمرتبة السادسة: ملائكة الهواء الذي هو في طَبْعِ التَّسِيمِ.

والمرتبة السابعة: ملائكة كُرَّةِ الزَّمْهَرِيرِ.

والمرتبة الثامنة: مَرْتَبَةُ الْأَرْوَاحِ ^(٢) المتعلقة بالبحار.

والمرتبة التاسعة: مرتبة الأرواح المتعلقة بالجبال.

والمرتبة العاشرة: مرتبة الأرواح السُّفْلِيَّةِ المنصرفة في هذه الأجسام النَّبَاتِيَّةِ والحيوانية الموجودة في هذا العالم.

واعلم أنَّه على كِلَا الْقَوْلَيْنِ؛ فهذه الأرواح قَدْ تَكُونُ مُشْرِقَةَ الْهَيْئَةِ، خَيْرِيَّةً سَعِيدَةً؛ وهي الْمُسَمَّاءُ بِالصَّالِحِينَ مِنَ الْجِنِّ، وقد تكونُ كدرة سُفْلِيَّةً شَرِيَّةً شَقِيَّةً، وهي الْمُسَمَّاءُ بِالشَّيَاطِينِ.

واعلم ^(٣) أن القرآن والأخبار يدلان على وجود الجن والشیاطین:

أما القرآن فآيات: مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩ و ٣٠]، وهذا نصٌّ على وجودهم، وعلى أَنَّهُمْ سَمِعُوا الْقُرْآنَ، وعلى أَنَّهُمْ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْنِيْلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧ و ٣٨].

(١) في أ: بالغلبة.

(٢) في ب: مرتبة الأرواح إلى ملائكة.

(٣) زاد في أ: الأصفياني إحدى الروايتين عن ابن سيرين. قال: إذا فرغ الفاتحة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَمْتَشِرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرْنَةَ الْكُوكِبِ وَحَفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦ و ٧].
وَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَكَثِيرَةٌ مِنْهَا:

مَا رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ»، عَنْ صَيْفِي بْنِ أَفْلَحَ^(١)، عَنْ أَبِي السَّائِبِ^(٢) مَوْلَى هِشَامِ ابْنِ زُهْرَةَ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ^(٣)، قَالَ: فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِي صَلَاتَهُ، قَالَ: فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا تَحْتَ سَرِيرِهِ فِي بَيْتِهِ، فَإِذَا حَيَّةٌ، فَقَرْتُ فَهَمَمْتُ أَنْ أَقْتُلَهَا، فَأَشَارَ أَبُو سَعِيدٍ: أَنْ اجْلِسْ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ، أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ، فَقَالَ: أُنْظِرْ هَذَا الْبَيْتَ؟ قُلْتُ نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ فِيهِ فَتَى قَرِيبَ عَهْدٍ بِعُرسٍ، وَسَاقِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَرَأَى امْرَأَتَهُ وَاقِفَةً بَيْنَ النَّاسِ. فَهَيَّا الرُّمَحَ؛ لِيُطْعَنَهَا؛ بِسَبَبِ الْعَيْرِ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ادْخُلْ بَيْتَكَ لِتَرَى، فَدَخَلَ [بَيْتَهُ]^(٤)، فَإِذَا هُوَ بِحَيَّةٍ عَلَى فَرَاشِهِ، فَكَرَزَ فِيهَا الرُّمَحَ، فَاضْطَرَبَتِ الْحَيَّةُ فِي رَأْسِ الرُّمَحِ وَخَرَّ الْفَتَى، فَمَا يُدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا: الْفَتَى أَمْ الْحَيَّةُ؛ فَسَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ بَدَأَ لَكُمْ مِنْهُ فَأَذْنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ عَادَ فَأَقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ»^(٥).

(١) صَيْفِي بْنُ زِيَادٍ مَوْلَى الْأَنْصَارِ، مَدَنِي، عَنْ أَبِي الْيَسْرِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَعَنْهُ الْمُقْبَرِيُّ، وَابْنُ عَجَلَانَ، وَابْنُ أَبِي ذَنْبٍ، وَمَالِكٌ. قَالَ النَّسَائِيُّ: صَيْفِي رَوَى عَنْهُ ابْنُ عَجَلَانَ ثِقَةً، ثُمَّ قَالَ: صَيْفِي مَوْلَى أَفْلَحٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ الذَّهَبِيِّ: يَظْهَرُ لِي أَنَّهُمَا اثْنَانِ كَبِيرٌ عَنْ أَبِي الْيَسْرِ، وَصَغِيرٌ عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامٍ. يَنْظُرُ: الْخِلَاصَةُ، ٤٧٣/١.

(٢) أَبُو السَّائِبِ الْمَدَنِيُّ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ، وَعَنْهُ الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالزُّهْرِيُّ. وَثِقَةُ ابْنِ حَبَانَ. يَنْظُرُ: الْخِلَاصَةُ: ٢١٨/٣.

(٣) سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ بْنُ سَنَانَ بْنِ نُوَيْنٍ، ابْنُ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ خُدْرَةَ بِضَمِّ الْمَعْجَمَةِ الْخُدْرِيِّ أَبُو سَعِيدٍ، بَايَعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَشَهِدَ مَا بَعْدَ أَحَدٍ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ، لَهُ أَلْفٌ وَمِائَةٌ حَدِيثٍ وَسَبْعُونَ حَدِيثًا، اتَّفَقَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْبَعِينَ، وَانْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ، وَمُسْلِمٌ بِاثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ، وَعَنْهُ طَارِقُ بْنُ شَهَابٍ، وَابْنُ الْمُسَيْبِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَنَافِعٌ، وَخُلُقٌ. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ.

تَنْظُرُ تَرْجَمَتُهُ فِي تَهْذِيبِ الْكَمَالِ: ٤٧٣/١، وَتَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ: ٤٧٩/٣، وَتَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ: ٢٨٩/١، وَخِلَاصَةُ تَهْذِيبِ الْكَمَالِ: ٣٧١/١، وَالْكَاشَفُ: ٣٥٣/١، وَتَارِيخُ الْبُخَارِيِّ الْكَبِيرِ: ٤٤/٤، وَتَارِيخُ الْبُخَارِيِّ الصَّغِيرِ: ١٠٣/١، ١٣٥، ١٣٩، ١٦١، ١٦٧، وَتَجْرِيدُ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ: ٢١٨/١، وَالِاسْتِعَابُ: ٦٠٢/٢، وَالْحَلِيَّةُ: ٣٦٩/١.

(٤) سَقَطَ فِي ب.

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ: (١٧٥٦/٤) كِتَابُ «السَّلَامِ»: (٣٩) بَابُ «قَتْلُ الْحَيَاتِ وَغَيْرِهَا» (٣٧) حَدِيثُ رَقْمٍ (٢٢٣٦/١٣٩) وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ: (٩٧٧)، وَذَكَرَهُ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ: ٣٢٦/٣.

وَرَوَى فِي «المَوْطَأِ»، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ^(١)، قَالَ: لَمَّا أَسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - رَأَى عَفْرِيَتًا مِنَ الْجَنِّ يَطْلُبُهُ بِشُغْلَةٍ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا التَفَتَ رَأَاهُ، فَقَالَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ طُفِئَتْ شُغْلَتُهُ، قُلْ: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَبِكَلِمَاتِهِ الثَّامَاتِ اللَّاتِي ذُرَا فِي الْأَرْضِ لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، وَشَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ»^(٢).

وَرَوَى مَالِكٌ - أَيْضاً - فِي «المَوْطَأِ» أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ^(٣) كَانَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَبِأَسْمَائِهِ كُلِّهَا مَا قَدْ عَلِمْتُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذُرَا وَبَرًّا^(٤).

وَرَوَى مَالِكٌ أَيْضاً فِي «المَوْطَأِ»، أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ^(٥) قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي [أُرْوَعُ]^(٦) فِي مَنَاجِي، فَقَالَ: قُلْ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَاتِ مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ

(١) يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو بن سهل بن ثعلبة الأنصاري النجاري، قاضي المدينة، عن أنس، وابن المسيب، والقاسم، وعراك بن مالك، وخلق، وعنه الزهري، والأوزاعي، ومالك، والسفيانان، والحمدان، والجريان، وأمم. قال ابن المديني: له نحو ثلثمائة حديث. وقال ابن سعد: ثقة حجة كثير الحديث. وقال أبو حاتم: يوازي الزهري في الكثرة، وقال أحمد: يحيى بن سعيد أثبت الناس. قال القطان: مات سنة ثلاث وأربعين ومائة.

ينظر الخلاصة: ١٤٩/٣، والجرح والتعديل: ٦٢٠/٩، وتاريخ الإسلام: ١٤٩/٦، وتاريخ بغداد: ١٠١/١٤، وتاريخ الثقات: ٤٧٢، والأنساب: ٢٦٦/١٠، ٣٦/١٣.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٥١، ٩٥٢.

(٣) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود من اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، وخرج إلى الشام، فسكن «حمص»، وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين سنة ٣٢هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ: ١: ٤٩، وحلية الأولياء: ٥/٣٦٤، والإصابة: ت ٧٤٩٨، والنجوم الزاهرة: ٩٠/١، والأعلام: ٥/٢٢٨.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ: ٢/٩٥١، ٩٥٢.

(٥) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي، أبو سليمان: سيف الله - تعالى -، أسلم في صفر سنة ١١هـ، وشهد غزوة مؤتة، وكان الفتوح على يديه، له ثمانية عشر حديثاً، عمل على اليمن في أيامه - ﷺ -، وولي قتال أهل الردة، وافتتح طائفة من العراق، مات سنة ٢١هـ. بـ «حمص»، وقيل بـ «المدينة».

ينظر الخلاصة: ٢٨٥/١ (١٨٠٩)، والإصابة: ٢/٢٥١ - ٢٥٦، وأسد الغابة: ٢/١٠٩ - ١١٢، والاستيعاب: ٢/٤٢٧ - ٤٣١.

(٦) في ب: أفرع.

عباده، ومن هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَخْضَرُونَ»^(١).

وخبرُ خُرُوجِ النَّبِيِّ - ﷺ - لَيْلَةَ الْجَنِّ، وقراءتهِ عَلَيْهِمْ، ودَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ.
وَرَوَى الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي «الْهُدَايَةِ» أَنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ
مَوْضِعَ الشَّيْطَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَأَرَاهُ ذَلِكَ، فَإِذَا رَأْسُهُ [مِثْلُ رَأْسِ الْحَيَّةِ، وَاضِعَ رَأْسَهُ]^(٢) عَلَى
قَلْبِهِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، [خَسَنَ]^(٣)؛ وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْهُ، وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى حَبَّةِ قَلْبِهِ.
وَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ».
وَقَالَ : «وَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ» قِيلَ : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : «وَلَا
أَنَا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»^(٤) والأحاديث كثيرة.

فَصْلٌ فِي قُدْرَةِ الْجِنِّ عَلَى التَّفُوزِ خِلَالَ الْبَشَرِ

المشهور أَنَّ الْجِنَّ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى التَّفُوزِ فِي بَوَاطِنِ الْبَشَرِ، وَأَنْكَرُ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ ذَلِكَ.
أَمَّا حُجَّةُ الْمُثْبِتِينَ فُجُوهُ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجِنُّ عِبَارَةً عَنْ مَوْجُودٍ لَيْسَ بِجِسْمٍ، وَلَا جِسْمَانِي، فَحَيْثُ يَكُونُ
مَعْنَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى التَّفُوزِ فِي بَاطِنِهِ؛ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي بَاطِنِهِ، وَذَلِكَ غَيْرُ
مُسْتَبْعِدٍ.

وَأِنْ كَانَ عِبَارَةً عَنْ حَيَوَانٍ هَوَائِيٍّ لَطِيفٍ تَفَازُ كَمَا وَصَفْنَاهُ، كَانَ تَفَازُهُ فِي بَاطِنِ بَنِي آدَمَ
- أَيْضًا - غَيْرَ مُمْتَنِعٍ قِيَاسًا عَلَى النَّفْسِ وَغَيْرِهِ.

الثَّانِي : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾
[البقرة : ٢٧٥].

الثَّالِثُ : قَوْلُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ
مَجْرَى الدَّمِّ».

وَأَمَّا الْمُنْكَرُونَ، فَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إِبْلِيسَ : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي السَّنَنِ : (٤٠٥/٢) كِتَابُ «الطَّبِّ» بَابُ «كَيْفَ الرِّقَى» حَدِيثُ رَقْمٍ (٣٨٩٣)،
وَالْتِّرَمِذِيُّ فِي السَّنَنِ : حَدِيثُ رَقْمٍ (٣٥٢٨)، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ : (٦/٦) وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ :
حَدِيثُ رَقْمٍ (١٩٨٣١) وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٥٤٨/١).

(٢) سَقَطَ فِي ب.

(٣) فِي أ : حُسْنٌ.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ : (٢٨١٤) بَابُ «تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ»، وَأَحْمَدُ : (٣٨٥/١)، وَأَبُو
يَعْلَى : (٧٧/٩) (٥١٤٣) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ : (٢١٠١ - مَوَارِدُ)، وَابْنُ بَرَكٍ : (١٤٦/٣)
رَقْمٍ (٢٤٣٩)، وَالتَّبْرَانِيُّ : (٣٠٩/٨) عَنْ شَرِيكَ بْنِ طَارِقٍ مَرْفُوعًا، وَالحديث ذكره الهيثمي في
«المجمع» : (٢٢٥/٨) وقال : رواه الطبراني والبيهقي، ورجال البزار رجال الصحيح.

إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢] صَرَّحَ بِأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ عَلَى الْبَشَرِ سُلْطَانٌ، إِلَّا مِنْ الْوَجْهِ الْوَاحِدِ، وهو: إلقاءِ الْوَسْوَسةِ، والدعوة إلى الْبَاطِلِ.

وَأَيْضاً: فَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْعُلَمَاءَ، وَالْمُحَقِّقِينَ - يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى لَعْنِ الشَّيَاطِينِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ، فَوْجِبَ أَنْ تَكُونَ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَهُمْ، أَعْظَمَ أَنْوَاعِ الْعَدَاوَةِ، فَلَوْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى النُّفُوزِ فِي الْبُؤَاطِنِ، وَعَلَى إِصْصَالِ الْبَلَاءِ، وَالشَّرِّ إِلَيْهِمْ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ تَضَرُّرُ^(١) الْأَنْبِيَاءِ، وَالْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ أَشَدَّ مِنْ تَضَرُّرِ كُلِّ وَاحِدٍ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، عَلِمْنَا أَنَّهُ بَاطِلٌ.

فَضْلٌ فِي تَنْزِهِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ شَهَوَاتِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ

اتَّقُوا عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - لَا يَأْكُلُونَ، وَلَا يَشْرَبُونَ، وَلَا يَنْكِحُونَ؛ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]

وَأَمَّا الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينُ، فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؛ قَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي الرَّوْثِ وَالْعَظْمِ: إِنَّهُ زَادَ إِخْوَانَكُمْ مِنَ الْجِنَّ.

وَأَيْضاً: فَإِنَّهُمْ يَتَوَالَدُونَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَنْخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

فَضْلٌ فِي اسْتِقَاقِ الْبَسْمَلَةِ

الْبَسْمَلَةُ: مَصْدَرُ «بَسْمَلٍ»، أَيُّ: قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، نَحْوُ: «حَوْقَلٌ، وَهَيْلَلٌ، وَحَمْدَلٌ، وَحَيْعَلٌ»، أَيُّ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَحَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ وَمِثْلُهُ «الْحَسْبَلَةُ» وَهِيَ قَوْلُهُ: «حَسْبُنَا اللَّهُ»، وَ «السَّبْحَلَةُ» وَهِيَ قَوْلُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ» وَ «الْجَعْفَلَةُ»^(٢): قَوْلُ «جُعِلْتُ فِدَاكَ»، وَ «الطَّلْبَقَةُ وَالْدُمْعَزَةُ» حِكَايَةُ قَوْلِكَ: «أَطَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَقَاءَكَ، وَأَدَامَ عَزْرَكَ».

وهذا شبيهة بِبَابِ النَّحْتِ فِي النِّسْبِ، أَيُّ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ اسْمَيْنِ، فَيَنْحِتُونَ مِنْهُمَا لَفْظاً وَاحِداً؛ فَيَنْسِبُونَ إِلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِمْ: «حَضْرَمِيٌّ، وَعَبْقَسِيٌّ، وَعَبْشَمِيٌّ» نِسْبَةً إِلَى «حَضْرَمَوْتٍ، وَعَبْدِ قَيْسٍ»^(٣) وَعَبْدِ شَمْسٍ؛ قَالَ الشَّاعِرُ^(٤): [الطويل]

٦ - وَتَضَحَّكَ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا^(٥)

(١) فِي ب: ضَرَر. (٢) فِي أ: الْجَعْلَفَةُ وَهِيَ.

(٣) فِي ب: الْقَيْس. (٤) فِي ب: الْقَاتِل.

(٥) الْبَيْتُ لَعَبْدِ يَغُوثِ بْنِ وَقَاصٍ الْحَارِثِيِّ: يَنْظُرُ خَزَانَةُ الْأَدَبِ: ١٩٦/٢، ٢٠٢، وَلِسَانُ الْعَرَبِ: (هَذَا)، (قَدْر)، (شَمْس)، وَالْأَغَانِي: ٢٥٨/١٦، وَسِرُّ صَنَاعَةِ الْإِعْرَابِ: ٧٦/١، وَشَرَحَ اخْتِيَارَاتِ الْمَفْضَلِ: =

وهو غَيْرُ مَقِيسٍ، فلا جَرَمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ قال في: «بَسْمَلٌ، وَهَيْلَلٌ»: إِنَّهُمَا لُعَّةٌ مُؤَلَّدَةٌ.
قال الماوردي^(١) رحمه الله تعالى: يُقَالُ لِمَنْ قال: «بِسْمِ اللَّهِ»: «مُبَسْمِلٌ» وهي لُعَّةٌ
مُؤَلَّدَةٌ؛ وقد جاءت في الشعر؛ قال عُمَرُ بْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ^(٢): [الطويل]
٧ - لَقَدْ بَسْمَلْتُ لَيْلَى غَدَاةً لَقِيَتْهَا فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُبَسْمِلُ^(٣)
وغيره مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ نَقَلَهَا، ولم يقلْ إِنَّهَا مُؤَلَّدَةٌ كـ «تُعْلَبُ»^(٤) و «المُطَرِّزِي»^(٥).

- = ٧٦/١، وشرح شواهد الإيضاح: ص ٤١٤، وشرح شواهد المغني: ٦٧٥/٢، ومغني اللبيب: ١/ ٢٧٧، وشرح المفصل: ٩٧/٥، ١٠٧/١٠، والأشباه والنظائر: ١٥/٢، والمحتسب: ٦٩/١، وجمل الزجاجي: (٢٥٧)، وشرح أشعار الهذليين: ٩٦/١، والدر المصون: ٥٠/١.
- (١) علي بن محمد بن حبيب، القاضي أبو الحسن الماوردي، البصري، أحد أئمة أصحاب الوجوه، تفقه على أبي القاسم الصيمري، وسمع من أبي حامد الإسفراييني، قال الخطيب: كان ثقة، من وجوه الفقهاء الشافعيين. وقال الشيرازي: وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب، وكان حافظاً للمذهب. ومن تصانيفه: «الحاوي»؛ قال الإسنوي: ولم يصنف مثله، «والأحكام السلطانية» والتفسير المعروف بـ «النكت والعيون» وغيرها. مات سنة ٤٥٠ هـ.
- انظر: ط. ابن قاضي شعبة: ٢٣٠/١، وتاريخ بغداد: ١٠٢/٢، وط. السبكي: ٣٠٣/٣.
- (٢) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب: أرقى شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن في قريش أشعر منه، ولد سنة ٢٣ هـ في الليلة التي توفي بها عمر بن الخطاب فسمي باسمه، وغزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً سنة ٩٣ هـ، له ديوان شعر.
- ينظر الأعلام: ٥٢/٥، ووفيات الأعيان: ٣٥٣/١، وشرح شواهد المغني: ١١.
- (٣) ينظر: ديوانه ٤٩٨، وأمالى القالي: ٣٠٠/٢، والهمع: ٨٩/٢، والدرر اللوامع: ١١٦/٢، ولسان العرب: (بسمَل)، والنكت والعيون: ٥٠/١، وسمط اللآلي: ٩٠٩.
- (٤) أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، الشيباني ولاء، المعروف بـ «ثعلب»، ولد سنة ٢٠٠ هـ بـ «بغداد». كان إماماً للكوفين في النحو واللغة، راوية للشعر، محدثاً مشهوراً، توفي بـ «بغداد» سنة ٢٩١ هـ.
- ينظر نزهة الألبا: ٢٩٣، وابن خلكان: ٣٠/١، وتذكرة الحفاظ: ٢١٤/٢، وطبقات ابن أبي يعلى: ٨٣/١، وإنباه الرواة: ١٣٨/١.
- (٥) أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم البغدادي، الزاهد المعروف بـ «غلام ثعلب»، ولد سنة إحدى وستين ومائتين، وسمع من: موسى بن سهل الوشاء، وأحمد بن عبيد الله النرسي، ولازم ثعلباً في العربية فأكثر إلى الغاية، وهو في عداد الشيوخ في الحديث لا الحفاظ، وحديث عنه: أبو الحسن بن رزقويه، وابن منده، وأبو عبد الله الحاكم، والقاضي أبو القاسم بن المنذر.
- قال ابن خلكان: استدرك على «الفصيح» لثعلب كراساً، سماه: «فائت الفصيح»، وله: كتاب «الياقوتة»، وكتاب «الموضح»، وكتاب «الساعات»، وكتاب «يوم وليلة»، وكتاب «المستحسن»، وكتاب «الشورى».
- قال الخطيب: سمعت عبد الواحد برهان يقول: لم يتكلم في علم اللغة أحد من الأولين والآخرين أحسن كلاماً من كلام أبي عمر الزاهد، وله كتاب «غريب الحديث» ألفه على مسند أحمد بن حنبل.
- مات أبو عمر في ذي القعدة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء: ٥٠٨/١٥، وتاريخ بغداد: ٣٥٦/٢ - ٣٥٩، والمنتظم: ٣٨٠/٦ - ٣٨٢، ومعجم الأدباء: ٢٢٦/١٨ - ٢٣٤، وتذكرة الحفاظ: ٨٧٣/٣ - ٨٧٦، والوافي بالوفيات: ٧٢/٤ - ٧٣، وبغية الوعاة: ٦٩ - ٧٠.

«بسم الله»: جارٌّ ومجرورٌ، والباء متعلق بمضمر، فنقول: هذا المضمر يحتمل أن يكون اسماً، وأن يكون فعلاً، وعلى التقديرين؛ فيَجُوزُ أن يكون متقدماً ومتأخراً، فهذه أقسام أربعة.

أما إذا كان متقدماً، وكان فعلاً؛ فكقولك: أبدأ بِسْمِ اللَّهِ.

وإن كان متقدماً، وكان اسماً؛ فكقولك: ابتدائي بِسْمِ اللَّهِ.

وإن كان متأخراً، وكان فعلاً؛ فكقولك: بِسْمِ اللَّهِ أبدأ.

وإن كان متأخراً، وكان اسماً؛ فكقولك: بِسْمِ اللَّهِ ابتدائي.

وأيهما أولى التقديم أم التأخير؟

قال ابن الخطيب: كلاهما ورد في القرآن الكريم، أما التقديم، فكقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَرَكْنَهَا وَمُرْسَتْهَا﴾ [هود: ٤١] وأما التأخير؛ فكقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وأقول: التقديم أولى؛ لأنه - تعالى - قديم واجب الوجود لذاته، فيكون وجوده سابقاً على وجود غيره، لأن السبق بالذات يستحقُّ السبق في الذكر؛ قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

قال أبو بكر الرازي^(١) - رحمه الله تعالى - إضمارُ الفعلِ أولى من إضمارِ الاسم؛ لأنَّ نسقَ تلاوة القرآن يدلُّ على أن المضمر هو الفعل، وهو الأمر، لأنه - تبارك وتعالى - قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فكذا قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ التقدير: قُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ.

(١) أحمد بن علي، المكنى بأبي بكر الرازي الحنفي، الملقب بالجصاص - بفتح الجيم وتشديد الصاد المهملة، في آخره صاد أخرى - نسبة إلى العمل بالجص -، والرازي - نسبة إلى الري. على غير قياس.

ولد الجصاص سنة خمس وثلاثمائة، ودخل بغداد في شببته، درس الفقه على أبي الحسن الكرخي، وتخرج عليه وانتفع بعلمه، كما تفقه على أبي سهل الزجاج، وأبي سعيد البردعي، وموسى بن نصر الرازي.

وأخذ الحديث عن أبي العباس الأصم النيسابوري، وعبد الله بن جعفر بن فارس الأصبهاني، وسليمان بن أحمد الطبراني، وعبد الباقي بن قانع وأكثر عنه من الرواية في كتابه «أحكام القرآن».

له من التصانيف: «أصول الجصاص» - وهو كتاب يشتمل على ما يحتاج إليه المستنبط للأحكام من القرآن الكريم وقد جعله مقدمة لكتابه: أحكام القرآن، وكتاب «أحكام القرآن»، و «شرح مختصر الكرخي» في الفقه، و «شرح مختصر الطحاوي». و «شرح الجامع الصغير والكبير».

توفي في يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمائة، عن خمس وستين سنة، وصلى عليه صاحبه، أبو بكر الخوارزمي. ينظر: طبقات الأصوليين: ٢١٤/١، ٢١٥، ٢١٦.

وَأَقُولُ: لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: بَلْ إِضْمَارُ الْأِسْمِ أَوْلَى؛ لَأَنَا إِذَا قُلْنَا: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: بِسْمِ اللَّهِ ابْتِدَاءُ كُلِّ شَيْءٍ، كَانَ هَذَا إِبْهَارًا عَنْ كَوْنِهِ مَبْدَأً فِي ذَاتِهِ لَجَمِيعِ الْحَوَادِثِ، وَمُخَالَفًا لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، سِوَاهُ قَالِهِ قَائِلٌ، أَوْ لَمْ يَقْلِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْإِحْتِمَالَ أَوْلَى، وَتِمَامُ الْكَلَامِ يَأْتِي فِي بَيَانِ أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ فِي الْكَلَامِ فِي الْأِسْمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَضْلٌ فِيمَا يَحْصُلُ بِهِ الْجَرُّ

الْجَرُّ يَحْصُلُ بِشَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا بِالْحَرْفِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «بِسْمِ اللَّهِ».

وَالثَّانِي: بِالْإِضَافَةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «اللَّهُ» مِنْ قَوْلِهِ «بِسْمِ اللَّهِ».

وَأَمَّا الْجَرُّ الْحَاصِلُ فِي لَفْظَةِ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَإِنَّمَا حَصَلَ، لِكَوْنِ الْوَصْفِ ثَابِتًا لِلْمَوْصُوفِ فِي الْإِعْرَابِ، فَهَذَا هُنَا أَبْحَاثُ:

أَحَدُهَا: أَنَّ حُرُوفَ الْجَزْرِ لَمْ أَقْتَضِ الْجَزْرَ؟

وِثَانِيهَا: أَنَّ الْإِضَافَةَ لَمْ أَقْتَضِ الْجَزْرَ؟

وِثَالِثُهَا: أَنَّ اقْتِضَاءَ الْحُرُوفِ أَقْوَى، أَمْ اقْتِضَاءُ الْإِضَافَةِ؟

وِرَابِعُهَا: أَنَّ الْإِضَافَةَ بَيْنَ الْجُزْءِ وَالْكُلِّ، أَوْ بَيْنَ الشَّيْءِ الْخَارِجِ عَنْ ذَاتِ الشَّيْءِ الْمُنْفَصِلِ؟

قَالَ مَكِّي^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : كُسِرَتِ الْبَاءُ مِنْ «بِسْمِ اللَّهِ»؛ لِتَكُونَ حَرَكَتُهَا مُشَبَّهَةً لِعَمَلِهَا؛ وَقِيلَ: كُسِرَتِ لِیَفْرُقَ بَيْنَ مَا يَخْفِضُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا حَرْفًا؛ نَحْوُ: الْبَاءِ، وَاللَّامِ، وَبَيْنَ مَا يَخْفِضُ، وَقَدْ يَكُونُ اسْمًا نَحْوُ: الْكَافِ.

وَإِنَّمَا عَمِلَتِ الْبَاءُ وَأَخَوَاتُهَا الْخَفْضُ؛ لِأَنَّهَا لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا فِي الْأَسْمَاءِ، فَعَمِلَتِ الْإِعْرَابُ الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَسْمَاءِ، وَهُوَ الْخَفْضُ، وَكَذَلِكَ الْحُرُوفُ الَّتِي تَجْزُمُ الْأَفْعَالِ، إِنَّمَا عَمِلَتِ الْجَزْمُ؛ لِأَنَّهَا لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا فِي الْأَفْعَالِ، فَعَمِلَتِ الْإِعْرَابُ الَّذِي لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَفْعَالِ، وَهُوَ الْجَزْمُ.

وَالْبَاءُ - هُنَا - لِلِاسْتِعَانَةِ؛ كَ «عَمِلَتِ بِالْقُدُومِ»؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَقْرَأُ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ، وَلَهَا مَعَانٍ أُخَرَ تَقْدِمُ الْوَعْدُ بِذِكْرِهَا وَهِيَ:

(١) مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي أبو محمد: مقرأء ولد ٣٥٥هـ، عالم بالتفسير والعربية، من أهل القيروان، له كتب كثيرة منها: «مشكل إعراب القرآن»، الموجز، الإيجاز، الهداية إلى بلوغ النهاية، المتقى، الإبانة وغيرها. توفي ٤٣٧هـ. ينظر معالم: ٢١٣/٣، وبغية: ٣٩٦، ووفيات: ١٢٠/٢، ونزهة الألبا: ٤٢١، والأعلام: ٢٨٦/٧.

الإلصاق: حقيقةً أو مجازاً نحو: مَسَحْتُ بِرَأْسِي، «مَرَرْتُ بِرَيْدٍ».

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى -: قَرَعَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ - رحمه الله - على «باء» الإلصاق مسائل:

إحداها: قال محمد - رحمه الله تعالى - في «الزيادات»: إِذَا قَالَ لِأَمْرَأَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ؛ وهو كقوله: أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ولو قال: لَمْ يَشَأِ اللَّهُ يَقَعْ؛ لأنه أخرجهُ مُخْرَجَ التعليل، وكذلك أَنْتِ طَالِقٌ بِمَشِيئَةِ^(٢) الله تعالى لَا يَقَعُ الطَّلَاقُ، ولو قال أو بِإِرَادَةِ^(٣) الله لَا يَقَعُ، [ولو قال لإرادة الله يقع]^(٤) أما إِذَا قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ بَعْلِمِ اللَّهِ، أَوْ لِعَلِمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي الْوَجْهَيْنِ، وَلَا بَدَّ مِنْ الْفَرْقِ.

وثانيها: في بابِ الْإِيمَانِ لَوْ قَالَ: إِنْ خَرَجْتَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا بِإِذْنِي، فَأَنْتِ طَالِقٌ، تَحْتَاجُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِلَى إِذْنِهِ، وَلَوْ قَالَ: إِنْ خَرَجْتَ إِلَّا أَنْ أَذِنَ لَكَ، فَأَذِنَ لَهَا مَرَّةً كَفَى، وَلَا بَدَّ مِنَ الْفَرْقِ.

وثالثها: لو قال: طَلَّقِي نَفْسَكَ ثَلَاثًا بِأَلْفٍ، فَطَلَّقْتَ نَفْسَهَا وَاحِدَةً، وَقَعَتْ بِثُلْثِ الْأَلْفِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْبَاءَ تَدُلُّ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ، فَيُوزَعُ الْبَدَلُ عَلَى الْمُبْدَلِ، فَصَارَ بِإِزَاءِ كُلِّ طَلْقَةٍ ثُلْثُ الْأَلْفِ، ولو قال: طَلَّقِي نَفْسَكَ ثَلَاثًا عَلَى أَلْفٍ، فَطَلَّقْتَ نَفْسَهَا وَاحِدَةً، لَمْ يَقَعْ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ؛ لِأَنَّ لَفْظَةَ «عَلَى» كَلِمَةُ شَرْطٍ^(٥) ولم يوجد الشرط، وعند صاحبيه يَقَعُ وَاحِدَةً بِثُلْثِ الْأَلْفِ ذَلِكَ وَهَذَا هُنَا مَسَائِلُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْبَاءِ.

قال أَبُو حَنِيفَةَ رضي الله عنه: الثَّمْنُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ الثَّمَنِ بِدُخُولِ «الْبَاءِ» عَلَيْهِ، فَإِذَا قُلْتُ: بَعْتُ كَذَا بِكَذَا، فَالَّذِي دَخَلَ عَلَيْهِ «الْبَاءُ» هُوَ الثَّمْنُ وَعَلَى هَذَا تُبْنَى مَسْأَلَةُ الْبَيْعِ الْفَاسِدِ، فَإِذَا قَالَ بَعْتُ هَذَا الْكَرْبَاسَ مِنَ الْخَمْرِ صَحَّ الْبَيْعُ، وَالْعَقْدُ فَاسِدٌ.

وَإِذَا قَالَ: بَعْتُ هَذَا الْخَمْرَ، فَالْكَرْبَاسُ لَمْ يَصِحَّ، وَلَهُ الْفَرْقُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْخَمْرَ ثَمَنٌ، وَفِي الثَّانِيَةِ الْخَمْرُ ثَمَنٌ، وَجَعَلَ الْخَمْرَ ثَمَنًا لَا يَجُوزُ.

وَمِنْهَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - رضي الله تعالى عنه -: إِذَا قَالَ: بَعْتُكَ هَذَا الثَّوبَ بِهَذَا الدَّرْهَمِ تَعَيَّنَ ذَلِكَ الدَّرْهَمُ.

وعند أَبِي حَنِيفَةَ - رحمه الله - لَا يَتَعَيَّنُ.

وَالسَّبِيئَةُ: ﴿فَيُطْلَبُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا﴾ [النساء: ١٦٠] أَيْ: بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

(١) ينظر الفخر الرازي: ٨٧/١.

(٢) في ب: بإرادة.

(٣) في ب: لإرادة.

(٤) سقط في ب.

(٥) زاد في أ: وهذا بدل الشرط المحذوف إلى شرط.

والمُصَاحِبَةُ: نحو: «خَرَجَ زَيْدٌ بِثِيَابِهِ» أي: مُصَاحِبًا لَهَا.

والبدلُ: كقوله - عليه الصلاة والسلام - : «مَا يَسْرُنِي بِهَا حُمْرُ النَّعَمِ»^(١)، أي: بَدَلَهَا؛
وكقول الآخر: [البسيط]

٨ - فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْماً إِذَا رَكَبُوا شَتُّوا الإِغَارَةَ فُرْسَاناً وَرُكَبَاناً^(٢)
أي بَدَلَهُمْ.

وَالْقَسَمُ: «أَخْلِفُ بِاللَّهِ لِأَفْعَلَنَّ».

وَالظَّرْفِيَّةُ: نحو: «زَيْدٌ بِمَكَّةَ» أي: فِيهَا.

والتَّغْلِيَةُ: نحو: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» [البقرة: ١٧].

والتَّبْعِيضُ: كقول الشاعر في هذا البيت: [الطويل]

٩ - شَرِبْنِ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعْتَ مَتَى لَجَجَ خُضْرٍ، لَهُنَّ نَبِيحُ^(٣)
أي: مِنْ مَائِهِ.

والمُقَابِلَةُ: «اشْتَرَيْتُ بِأَلْفٍ» أي: قَابَلْتُهُ بِهَذَا الثَّمَنِ.

والمُجَاوِزَةُ: نحو قوله تعالى: «وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ» [الفرقان: ٢٥]، ومنهم مَنْ

قال: لا يكون كذلك إلا مع السُّؤَالِ خَاصَّةً؛ نحو: «فَسَتَلِ بِهِ خَيْرًا» [الفرقان: ٥٩]
أي: عَنْهُ، وقول عَلْقَمَةَ^(٤): [الطويل]

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: (٢٩٣/١١) ولفظه: «ما يسرني أن لي حمر النعم وأنني نقضت
الحلف...» والطبراني في التفسير: (٣٦/٥). والخطيب في التاريخ: (١٩٧/٤) وذكره الهيثمي في
الزوائد: (١٧٥/٨). والهندي في كنز العمال: حديث رقم (٤٦٤٥٧، ٤٦٤٥٨).

وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير، وفيه مرزوق بن المرزبان ولم أعرفه، وبقي رجاله
رجال الصحيح.

(٢) البيت لقريط بن أنيف: ينظر خزانة الأدب: ٢٥٣/٦، والدرر: ٨٠/٣، وشرح شواهد المغني: ١/
٦٩، والمقاصد النحوية: ٧٢/٣، ٧٧، وللعنبري في لسان العرب: (ركب) ٤٢٩/١، وللحماسي في
همع الهوامع: ٢١/٢، والجنى الداني: ص ٤٠، وجواهر الأدب: ص ٤٧، والدرر: ١٠٣/٤،
وشرح الأشموني: ٤٩٣/٢، وشرح شواهد المغني: ٣١٦/١، وشرح ابن عقيل: ص ٢٩٥، ٣٦١،
ومغني اللبيب، ١٠٤/١، وهمع الهوامع: ١٩٥/١، والمنهج السالك: ٢٢٠/٢، والعيني: ٧٢/٣
(٢٧٧)، والدرر: ٥٠/١.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي: ينظر: ديوان الهذليين: ٢٥١/١، والأمال: ٢٧٠/٢ والمخصص: ١٤/
٧، والأزهية: ٢٩٤، والدرر: ٣٤/٢، ومغني اللبيب: ١٠٥/١، والخصائص: ٨٥/٢، وسر صناعة
الإعراب: ١٥٢، والهمع: ٣٤/٢، والدرر المصنوع: ٥١/١.

(٤) علقمة الفحل: علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، =

١٠ - فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي خَيْرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ [أَوْ] ^(١) قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدْهِنٍ نَصِيبٌ ^(٢)

والاستعلاء: كقوله تعالى: ﴿مَنْ لَنْ تَأْمَنَهُ يَنْتَظِرُ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: على قنطار.

وبمعنى «إلى»: كقوله ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

والجمهور يَأْبُونُ جعلها إلّا للإلصاق، أو التعدية، ويردّون جميع المواضع المذكورة إليهما، وليس هذا موضع استدلال.

وقد تَزَادَ مُطَرَّدَةً، وَغَيْرَ مُطَرَّدَةٍ:

فالمطرّدة: في فاعل «كَفَى» نحو: ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] أي: كفى الله بدليل سقوطها في قول الشاعر: [الطويل]

١١ - كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا ^(٣)

وفي خَبَرٍ «لَيْسَ» و «مَا» اخْتِيهَا غير مُوجِبٍ بـ «إِلَّا»؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وفي: «بِحَسْبِكَ زَيْدٌ».

وغير مُطَرَّدَةٍ: في مفعول «كَفَى»؛ كقوله: [الكامل]

١٢ - فَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا ^(٤)

= كان معاصراً لامرئ القيس توفي نحو سنة ٢٠ ق هـ، وله معه مساجلات، وأسر «الحارث بن أبي شمر الغساني» أخاً له اسمه شأس، فشفع به علقمة، ومدح الحارث بأبيات فاطقه، وله ديوان شعر. ينظر: الأعلام: ٢٤٧/٤، والشعر والشعراء: ٥٨، والتاج: ٤١٣/٢، وسمط اللاكي: ٤٣٣.

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر ديوانه: ص ٣٥، وأدب الكاتب: ص ٥٠٨، والأزهيّة: ص ٢٨٤، والجنى الداني: ص ٤١، وحماسة البحتري: ص ١٨١، والدرر: ١٠٥/٤، والمقاصد النحوية: ١٦/٣، ١٠٥/٤، وهمع الهوامع: ٢٢/٢، وجواهر الأدب: ص ٤٩، ووصف المباني: ص ١٤٤، والشعر والشعراء: ١/٢١٩، والمفضليات: ٣٩٢، وشرح الجمل لابن عصفور: ٥١٢/١، والدرر المصنوع: ٥١/١.

(٣) البيت لسحيم عبد بني الجسحاس: ينظر: ديوانه: ١٦، والعيني: ٦٦٥/٣، وشرح المفصل: ٢/١١٥، ٨٤/٧، ١٤٨، ٢٤/٨، ٩٣، ١٣٨، وشرح شواهد المغني: ١١٢، والكتاب: ٢٦/٢، والخصائص: ٤٨٨/٢، والإنصاف: ١٦٨/١، والتصريح: ٨٨/٢، وشرح الأشموني: ١٩/٣، والدرر المصنوع: ٥١/١.

(٤) البيت لكعب بن مالك: ينظر ديوانه: ص ٢٨٩، وخزانة الأدب: ١٢٠/٦، ١٢٣، ١٢٨، والدرر ٣/٧، وشرح أبيات سيبويه: ٥٣٥/١، ولبشير بن عبد الرحمن في لسان العرب: (منن)، ولحسان بن ثابت في الأزهيّة: ص ١٠١، ولكعب أو لحسان أو لعبد الله بن رواحة في الدرر: ٣٠٢/١، ولكعب أو لحسان أو لبشير بن عبد الرحمن في شرح شواهد المغني: ٣٣٧/١، والمقاصد النحوية: ٤٨٦/١، وللأنصاري في الكتاب: ١٠٥/٢، ولسان العرب: (كفى)، والجنى الداني: ص ٥٢، ووصف =

أَي: كَفَانَا، وَفِي الْبَيْتِ كَلَامٌ آخَرُ، وَفِي الْمَبْتَدِئِ تَغْيِيرٌ «حَسْب».

وَمِنْهُ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ: ﴿يَأَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

[أَي: أَيَكُمُ الْمَفْتُونُ] ^(١) وَقِيلَ: الْمَفْتُونُ مُصَدَّرٌ كَالْمَعْقُولِ وَالْمَيْسُورِ، فَعَلَى هَذَا لَيْسَتْ زَائِدَةً.

وَفِي خَبَرٍ «لَا» أُخْتُ «لَيْسَ»؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: [الطويل]

١٣ - وَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لَا دُوَّ شَفَاعَةٍ بِمُغْنٍ فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ ^(٢)
أَي: مُغْنِياً.

وَفِي خَبَرٍ «كَانَ» مَنفِيَّةٌ؛ نَحْوُ: [الطويل]

١٤ - وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ ^(٣)
أَي: لَمْ أَكُنْ أَعْجَلَهُمْ.

وَفِي الْحَالِ، وَثَانِي مَفْعُولِي «ظَنَّ» مَنفِيَّةٌ أَيْضاً؛ كَقَوْلِ الْقَائِلِ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ: [الوافر]

١٥ - فَمَا رَجَعْتُ بِخَائِبَةٍ رِكَابٌ حَكِيمُ بْنُ الْمُسَيَّبِ مُنْتَهَاهاً ^(٤)
وَقَالَ الْآخَرُ: [الطويل]

= المياني: ص ١٤٩، وسر صناعة الإعراب: ١٣٥/١، وشرح المفصل: ١٢/٤، ومجالس ثعلب: ١/٣٣٠، وشرح شواهد المغني: ١٠٩/١، ٣٢٨، ٣٢٩، والمقرب: ٢٠٣/١، وجمع الهوامع: ٩٢/١، ١٦٧، والعيني: ٤٨٦/١، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ٤٩٢/١، ومعاني القرآن: ٢١/١، والأماشي الشجرية: ٣١١/٢، والدر: ٥١/١، والمحزر الوجيز: ١١١/١، والبحر المحيط: ١٨٠/١ (١) سقط في ب.

(٢) البيت لسواد بن قارب: ينظر الدرر: ١٢٦/٢، ١٤٨/٣، وشرح التصريح: ٢٠١/١، ٤١/٢، وشرح عمدة الحفاظ: ص ٢١٥، والمقاصد النحوية: ١١٤/٢، ٤١٧/٣، والجنى الداني: ص ٢٥٤، والأشباه والنظائر: ١٢٥/٣، وأوضح المسالك: ٢٩٤/١، وشرح الأشموني: ١٢٣/١، وشرح شواهد المغني: ص ٨٣٠، وشرح ابن عقيل: ص ١٥٦، ومغني اللبيب: ص ٤١٩، وجمع الهوامع: ١٢٧/١، ٢١٨، والدر: ٥٢/١.

(٣) البيت للشنفرى ينظر: ديوانه: ص ٥٩، وتخليص الشواهد: ص ٢٨٥، وخزانة الأدب: ٣٤٠/٣، والدرر: ١٢٤/٢، وشرح التصريح: ٢٠٢/١، وشرح شواهد المغني: ٨٩٩/٢، والمقاصد النحوية: ١١٧/٢، وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر: ١٢٤/٣، وأوضح المسالك: ٢٩٥/١، والجنى الداني: ص ٥٤، وجواهر الأدب: ص ٥٤، وشرح الأشموني: ١٢٣/١، وشرح ابن عقيل: ص ١٥٧، وشرح قطر الندى: ص ١٨٨، ومغني اللبيب: ٥٦٦٠/٢، وشرح ألفية ابن مالك لابن الناظم: ١٤٨، والهمع: ١٢٧/١، والدر المصون: ٥٢/١.

(٤) البيت للتحفيص العقيلي: ينظر خزانة الأدب: ٢٧٨/١٠، ولسان العرب: (منى)، والدرر: ١٢٨/٢، وتخليص الشواهد: ص ١٧٧، والجنى الداني: ص ٥٥، وجواهر الأدب: ص ٥٤، وشرح شواهد المغني: ٣٣٩/١، ومغني اللبيب: ١١٠/١، وجمع الهوامع: ١٢٧/١، والدر المصون: ٥٢/١.

١٦ - دَعَانِي أَخِي وَالْحَبْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقُعْدُدٍ^(١)

أي: ما رجعت ركاب خائبة، ولم يجدني قُعْدُدًا.

وفي خبر «إِنَّ»؛ كقول امرئ القيس^(٢): [الطويل]

١٧ - فَإِنْ تَنَا عَنْهَا حِقْبَةً لَا تُلَاقِيهَا فَإِنَّكَ مِمَّا أَخَذْتُ بِالْمُجَرَّبِ^(٣)

أي: فَإِنَّكَ المجرَّب.

وفي «أَوَّلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ» [الإسراء: ٩٩].

والاسم لغة: ما أَبَانَ عَنْ مُسْمَى، وَاضْطِلَاحًا: ما دلَّ على مَعْنَى في نَفْسِهِ فقط غير مُتَعَرِّضٍ بَيْنَتِهِ لزمان، ولا دَالَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ على جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ مَعْنَاهُ.

وبهذا القيد الأخير خرجت الجملة الاسمية، والتسمية: جَعَلَ اللَّفْظُ دَالًّا على ذلك

المعنى.

قال أبو عبيدة: - رحمه الله تعالى -: ذَكَرُ الاسمِ فِي قوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ» صِلَةً زائِدةً، والتقدير: «بالله»، وَإِنَّمَا ذَكَرَ لَفْظَةَ «الاسم»: إِمَّا للتبرُّك، وإِذَا أَنْ يَكُونَ فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِسْمِ.

قال ابن الخطيب^(٤) - رحمه الله تعالى -: وَأَقُولُ: المرادُ مِنْ قوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ» اِبْدَءُوا بِ «بِسْمِ اللَّهِ»، وكلامُ أَبِي عُبَيْدَةَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِالْإِبْدَاءِ، فَهَذَا الْأَمْرُ إِنَّمَا

(١) البيت لدريد بن الصمة: ينظر ديوانه: ص ٤٨، وتخليص الشواهد: ص ٢٨٦، وجمهرة أشعار العرب: ١/٥٩٠، والدرر: ٢/١٢٥، وشرح التصريح: ١/٢٠٢، ولسان العرب: (قعد)، والمقاصد النحوية: ٢/١٢١، وأوضح المسالك: ١/٢٢٩، وجواهر الأدب: ص ٥٥، وهمع الهوامع: ١/١٢٧، وشرح الألفية لابن النازم: ١٤٩، والدر المصون: ١/٥٢.

(٢) امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية من «كندة»: شاعر مخضرم من أهل حضرموت ولد بها في مدينة «تريم»، وأسلم عند ظهور الإسلام ووصول الدعوة إلى بلاده، ووفد إلى النبي - ﷺ - ثم لما ارتدت حضرموت ثبت على إسلامه، وشهد فتح حصن النجير وخبابة «في شرقي تريم» وانتقل في أواخر عمره إلى الكوفة فتوفي بها، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي أولها:

تطاول ليلىك بالإثمد

ينظر الأعلام: ١١/٢.

(٣) ينظر ديوانه: ص ٤٢، وتخليص الشواهد: ص ٢٨٦، والدرر: ١/٢٩٣، ٢/١٢٨، وشرح التصريح: ١/٢٠٢، والصاحبي في فقه اللغة: ص ١٠٧، والمقاصد النحوية: ٢/١٢٦، وبلا نسية في الأشباه والنظائر: ٣/١٢٥، وأوضح المسالك: ١/٢٩٧، وجواهر الأدب: ص ٥٤، ورصف المباني: ص ٢٥٧، وشرح الأشموني: ١/١٢٣، وهمع الهوامع: ١/٨٨، ١٢٧، وشرح الألفية لابن النازم: ١٥، والدر: ٥٢.

(٤) ينظر: الفخر الرازي: ٩١/١.

يتناولُ فعلاً مِنْ أفعالنا، وذلك الفعلُ، هو لفظنا وقولنا، فوجب أن يكونَ المرادُ: ابدءوا بـ «بسم الله».

وقال صاحبُ «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ»: اختلف الناسُ: هل الاسمُ عَيْنُ المُسمَّى، أَوْ غَيْرُهُ؟ وهي مسألةٌ طَوِيلَةٌ تكلمَ الناسُ فيها قَدِيماً وحديثاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى. واستشكّلوا على كَوْنِهِ هو المسمى إضافةً إليه؛ فَإِنَّهُ يَلْزَمُ منه إضافةُ الشيءِ إِلَى نَفْسِهِ. وأجابَ أَبُو الْبَقَاءِ^(١) - رحمه الله - عن ذلك بثلاثةِ أَجْوِبَةٍ:

أَجْوَدُهَا: أَنَّ الاسمَ - هنا - بمعنى التَّسْمِيَةِ، والتَّسْمِيَةُ غَيْرُ الاسمِ؛ لأنَّ التَّسْمِيَةَ هي: اللَّفْظُ بالاسم، والاسمُ هو: اللَّازِمُ للمسمى؛ فَتَغَايَرَا.

الثَّانِي: أن في الكلام حذف مضافٍ تقدير: بسم مُسَمَّى اللَّهِ.

الثالث: أَنَّ لفظ «اسم» زائِدٌ؛ كقوله: [الطويل]

١٨ - إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَنْبِكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَرَ^(٢)
أي: السَّلَامُ عليكما.

وقول ذي الرُّمَّةِ^(٣): [البسيط]

١٩ - لَا يَنْعَشُ الطَّرْفُ إِلَّا مَا تَحَوَّنَهُ دَاعٍ يُنَادِيهِ بِاسْمِ الْمَاءِ مَبْغُومٍ^(٤)

(١) عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الإمام، محب الدين أبو البقاء العكبري البغدادي الضرير الحنبلي، صاحب الإعراب، مات ليلة الأحد ثامن ربيع الآخر سنة ست عشر وستمئة. ينظر: بغية الوعاة: ٣٨/٢ - ٣٩.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة: ينظر ديوانه: ص ٢١٤، والأغاني: ٤٠/١٣، وخزانة الأدب: ٣٣٧/٤، ٣٤٠، ٣٤٢، والخصائص: ٢٩/٣، ولسان العرب: (عذر)، وشرح المفصل: ١٤/٣، والعقد الفريد: ٢/٧٨، ٥٧/٣، وبغية الوعاة: ٤٢٩/١، والدرر: ١٥/٥، والمقاصد النحوية: ٣٧٥/٣، والمنصف: ١٣٥/٣، والأشباه والنظائر: ٩٦/٧، وشرح الأشموني: ٣٠٧/٢، وشرح عمدة الحافظ: ص ٥٠٧، والمقرب: ٢١٣/١، وجمع الهوامع: ٤٩/٢، ١٥٨، وأمالى الزجاجي: ص ٦٣، وشرح ديوان الحماسة: ٨٩٤/٢، وتأويل المشكل: ٢٥٥، ومجاز القرآن: ١٦/١، والطبري: ٨/١، والنكت والعيون: ٤٧/١، والدرر: ٥٢/١.

(٣) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة: شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بـ «امرى القيس»، وختم بـ «ذي الرمة». كان أكثر شعره تشبيهاً وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين، وكان مقيماً بالبادية ويحضر إلى البصرة كثيراً، وامتاز بإجادة التشبيه. ولد سنة (٧٧هـ) وتوفي بـ «أصبهان» وقيل: بـ «البادية» سنة ١١٧هـ.

انظر: وفيات: ٤٠٤/١، والشعر والشعراء: ٢٠٦، والأعلام: ١٢٤/٥.

(٤) ينظر: ديوانه: ص ٣٩٠، وخزانة الأدب: ٣٤٤/٤، والخصائص: ٢٩/٣، ومراتب النحويين: ص ٣٨، وشرح المفصل: ١٤/٣، وشرح الأشموني: ٢١٢/٣، واللسان: «خون»، والدرر: ٥٣/١.

وإليه ذهب أَبُو عُبَيْدَةَ^(١)، والأَخْفَشُ^(٢) وَقُطْرُبُ^(٣) - رحمهم الله - واختلفوا في معنى الزيادة:

فقال الأَخْفَشُ: «لِيُخْرَجَ مِنْ حُكْمِ الْقَسَمِ إِلَى قَضِدِ التَّبَرُّكِ».

وقال قُطْرُبُ: «زَيْدٌ لِلْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ». وهذان الوجهان ضَعِيفَانِ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ، وَالْحَذْفَ لَا يُصَارُ إِلَيْهِمَا إِلَّا إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِمَا.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - أعني ما يُوهِمُ إِضَافَةَ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ - إِضَافَةُ الْاسْمِ إِلَى اللَّقَبِ، وَالْمَوْصُوفِ، إِلَى صِفَتِهِ؛ نَحْوُ: «سَعِيدٌ كُرْزٌ» وَ «زَيْدٌ قَفَّةٌ» وَ «مَسْجِدُ الْجَامِعِ» وَ «بَقْلَةُ الْحَمَقَاءِ»؛ وَلَكِنَّ التَّخْوِينَ أَوَّلُوا النَّوْعَ الْأَوَّلَ بِأَنَّ جَعَلُوا الْاسْمَ بِمَعْنَى الْمُسَمَّى، وَاللَّقَبَ بِمَعْنَى اللَّفْظِ، فَتَقْدِيرُهُ: جَاءَنِي مُسَمَّى هَذَا اللَّفْظِ، وَفِي الثَّانِي جَعَلُوهُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، فَتَقْدِيرُ «بَقْلَةُ الْحَمَقَاءِ»: «بَقْلَةُ الْحَبَّةِ الْحَمَقَاءِ»، وَ «مَسْجِدِ الْجَامِعِ»: «مَسْجِدِ الْمَكَانِ الْجَامِعِ».

وَاخْتَلَفَ النُّحَوِيُّونَ فِي اسْتِقَاقِهِ^(٤):

فذهب أهلُ «البصرة»: إِلَى أَنَّهُ مُسْتَقٌّ مِنَ السُّمُوِّ، وَهُوَ [الْعُلُوُّ وَ]^(٥) الارتفاع؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مُسَمَّاهُ، فَيَرْفَعُهُ وَيُظْهِرُهُ.

(١) ينظر: مجاز القرآن: ١٦/١.

(٢) سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بـ «الأخفش الأوسط»: نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ - سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنّف كتباً منها: «تفسير معاني القرآن»، و «شرح أبيات المعاني»، وكتب أخرى. وزاد في العروض بحر «الخبب»، وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر فأصبحت ستة عشر. توفي سنة ٢١٥هـ.

انظر وفیات: ٢٠٨/١، وإنباه الرواة: ٣٦/٢، والأعلام: ١٠١/٣.

(٣) محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بقطرب، نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، وهو أول من وضع المثلث في اللغة، من مصنفاته: معاني القرآن، النوادر، الأضداد، غريب الحديث وغيرها توفي في ٢٠٦هـ.

ينظر وفیات الأعيان: ٤٩٤/١، وتاريخ بغداد: ٢٩٨/٢، وشذرات الذهب: ١٥/٢، والأعلام: ٩٥/٧.

(٤) اشتقاق الاسم عند المحققين من النحويين من السمو، وهو الارتفاع، ومحل مرتفع: فهو ظاهر، والاسم يظهر المسمى عند السامع، فاشتق من السمو لذلك، وقد قيل: إنما اشتق الاسم من السمو؛ لكون الكلام على ثلاثة أقسام، وضع لكل قسم عبارة، وكان الاسم المقدم؛ فأعطي أرفع العبارات، وكان الحرف المتأخر؛ إذ لا معنى له في ذاته، فأعطي أحط العبارات، وكان الفعل واسطة بينهما فتوسط اسمه.

وذهب قوم إلى أن اشتقاق الاسم من السمة؛ وهي العلامة، والاسم جعل دلالة على المسمى، وهذا تبطله صناعة العربية؛ إذ لو كان مشتقاً من السمة، لقل في تصغيره: وسيم، ولا يقال ذلك إنما يقال في تصغيره: سمي، وكذلك في جمعه: أسماء برد لام الفعل. والتكبير والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فصح أن اشتقاقه من السمو. انظر العلوم المستودعة في السبع الثماني: ١٨ خ أ.

(٥) سقط في ب.

وذهب الكوفيون: إلى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَسْمِ، وهو: الْعَلَامَةُ؛ لِأَنَّهُ عَلَامَةٌ عَلَى مُسَمَّاهُ، وهذا وإن كان صَحِيحاً مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ لَكِنَّهُ فَاسِدٌ مِنْ حَيْثُ التَّصْرِيفُ.

واستدلَّ البصريُّونَ على مَذْهَبِهِمْ بِتَكْسِيرِهِمْ لَهُ عَلَى «أَسْمَاءٍ»، وَتَضْعِيرِهِمْ لَهُ عَلَى «سُمِّيَ»، لِأَنَّ التَّكْسِيرَ وَالتَّضْعِيرَ يَرْدَانِ الْأَشْيَاءَ إِلَى أَصُولِهَا.

وتقولُ العربُ: فَلَانٌ سَمِيكَ، وَسَمِيْتُ فَلاناً بِكَذَا وَأَسَمَيْتُهُ بِكَذَا، فهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اشتقاقَهُ مِنْ: «السَّمُو»، ولو كان مِنْ: «الْوَسْمِ» لَقِيلَ فِي التَّكْسِيرِ ^(١): «أَوْسَام»، وفي التَّضْعِيرِ «وُسَيْم»؛ ولَقَالُوا: وَسَيْمُكَ فَلَانٌ، وَوَسَمْتُ، وَأَوْسَمْتُ فَلاناً بِكَذَا فدلَّ عَدَمُ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ؛ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وأَيُّمَا فَعَلَهُ مِنْ «السَّمُو» مُدْخِلٌ لَهُ فِي الْبَابِ الْأَكْثَرِ، وَجَعَلَهُ مِنْ «الْوَسْمِ» مُدْخِلٌ لَهُ فِي الْبَابِ الْأَقَلِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ حَذْفَ اللَّامِ كَثِيرٌ، وَحَذْفُ الْفَاءِ قَلِيلٌ.

وأيضاً فَإِنَّا عَهْدُنَاهُمْ غَالِباً يُعَوِّضُونَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ الْحَذْفِ، فَجَعَلُ هَمْزَةِ الْوَصْلِ عَوْضاً عَنِ اللَّامِ مُوَافِقٌ لِهَذَا الْأَصْلِ، بِخِلَافِ ادِّعَاءِ كَوْنِهَا عَوْضاً عَنِ الْفَاءِ.

فإن قيل: قولهم: «أَسْمَاءٌ» فِي التَّكْسِيرِ، وَ «سُمِّيَ» فِي التَّضْعِيرِ، لَا دَلَالَةَ فِيهِ؛ لَجَوَازِ [أَنْ يَكُونَ] ^(٢) الْأَصْلُ: «أَوْسَاماً» وَ «وُسَيْمًا»، ثُمَّ قَلَبْتَ الْكَلِمَةَ بِأَنَّ ^(٣) أُخْرِثَ فَاوُها بَعْدَ لَامِهَا، فَصَارَ لَفْظُ «أَوْسَام»، «أَسْمَاوًا»، ثُمَّ أُعِلَّ إِغْلَالُ «كِسَاء»، وَصَارَ «وُسَيْم»، «سُمَيَّوًا» ثُمَّ أُعِلَّ إِغْلَالُ «جُرَيَّ» تَضْعِيرَ «جَزَوْ».

فالجوابُ: أَنَّ ادِّعَاءَ ذَلِكَ لَا يَفِيدُ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ، فَلَا يُصَارُ إِلَيْهِ، مَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ.

وهل لهذا الخلاف فائدة أم لا؟

والجوابُ: أَنَّ لَهُ فائِدَةً، وَهِيَ أَنَّ مَنْ قَالَ بِاشتقاقِهِ مِنَ الْعُلُوِّ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُوصُوفاً قَبْلَ وَجُودِ الْخَلْقِ، وَبَعْدَهُمْ، وَعِنْدَ فَنَائِهِمْ، وَلَا تَأْثِيرَ لَهُمْ فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا صِفَاتِهِ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَسْمِ يَقُولُ: كَانَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَزَلِّ بِلَا اسْمٍ، وَلَا صِفَةٍ، فَلَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ جَعَلُوا لَهُ أَسْمَاءً وَصِفَاتٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ. وَهَذَا أَشَدُّ خَطَأً مِنْ قَوْلِهِمْ «بَخَلَقَ الْقُرْآنَ»، وَعَلَى هَذَا الْخِلَافِ وَقَعَ الْخِلَافُ أَيْضاً فِي الْأِسْمِ وَالْمُسَمَّى.

فَصْلٌ فِي لُغَاتِ «الاسْمِ»

وَفِي الْأِسْمِ خَمْسُ لُغَاتٍ: «إِسْمٌ» بِمَضِ الْهَمْزَةِ وَكُسْرُهَا، وَ «سِمٌ» بِكَسْرِ السِّينِ وَضَمِّهَا. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: مَنْ قَالَ: «سِمٌ» بِضَمِّ السِّينِ، أَخَذَهُ مِنْ سَمَوْتُ أَسْمُو،

(٣) فِي أ: ثُمَّ.

(٢) سَقَطَ فِي أ.

(١) فِي أ: التَّكْسِيرِ.

ومن قال بالكسر أخذه من سَمِيَتْ أَسْمِي، وعلى اللَّغَتَيْنِ قوله: [الرجز]
 ٢٠ - وَعَامُنَا أَغْجَبْنَا مُقَدَّمُهُ يُدْعَى أَبَا السَّمْحِ وَقِرْضَابُ سُمُهُ
 مُبْتَرِكًا لِكُلِّ عَظِيمٍ يَلْحَمُهُ^(١)

يُشَدُّ بالوجهين.

وَأَنْشَدُوا عَلَى الْكُسْرِ: [الرجز]

٢١ - بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمُهُ^(٢)

فَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي لَامٍ «اسم» وجهان:

أحدهما: أَنَّهَا وَآو.

والثاني: أَنَّهَا ياءٌ؛ وهو غَرِيبٌ، ولكنَّ أحمدَ بنَ يحيى - رحمه الله تعالى - جليلُ القدرِ
 ثقةٌ فيما ينقل.

و «سَمِي» مثل: هُدَى؛ واستدلوا على ذلك بقول الشاعر: [الرجز]

٢٢ - وَاللَّهُ أَسْمَاكَ سُمًّا مُبَارَكًا أَثَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِيْثَارَكَا^(٣)

ولا دليل في ذلك لجوازِ أَنْ يَكُونَ مِنْ لُغَةٍ مَنْ يَجْعَلُهُ مَنْقُوصًا مضمومَ السَّيْنِ، وجاءَ
 به منصوبًا، وإنما كان ينتهض دليلًا لو قيل: «سَمِي» حالة رفع أو جرٍّ.

وهمزته همزةٌ وَضَلٌ، أي: تَثَبُّتَ ابتداءً، وتُخَذَفُ دَرْجًا، وقد تثبت ضرورة؛ كقوله:

[الطويل]

٢٣ - وَمَا أَنَا بِالْمَخْسُوسِ فِي جِذْمِ مَالِكٍ وَلَا مَنْ تَسَمَّى ثُمَّ يَلْتَزِمُ الْإِسْمَا^(٤)

وهو أَحَدُ الْأَسْمَاءِ الْعَشْرَةِ التي ابتدئَ في أوائلها بهمزة الوُضَل وهي: اسْمٌ، واسْتٌ،
 وائِنٌ، وائِثْمٌ، وائِثَّةٌ، وَاِمْرُؤٌ، وَاِمْرَأَةٌ، وَاِثْنَانٍ، وَاِثْنَتَانٍ، وَاِثْمُنٌ في الْقَسَمِ.

وَالْأَضَلُّ في هذه الهمزة أَنْ تَثَبَّتَ^(٥) خَطَأً، كَغَيْرِهَا مِنْ هَمْزَاتِ الْوُضَلِ.

(١) ينظر أسرار العربية: ص ٩، والإنصاف: ص ١٦، وشرح المفصل: ٢٤/١، والصاحبي في فقه اللغة: ص ٢٣٠، ولسان العرب: (برك)، (لحم)، (سما)، والمقتضب: ٢٢٩/١، والمنصف: ٦٠/١، وأُمالي ابن الشجري: ٦٦/٢، والصحاح: «سما»، والدر: ٥٤/١.

(٢) البيت لرجل من كلب. ينظر النوادر لأبي زيد: ١٦٦، والإنصاف: ١٠، والمنصف: ٦٠/١، وأسرار العربية: ٨، واللسان: (سمو)، والكشاف: ٤/١، والمحزر الوجيز: ٦٢/١، والدر المصون: ٥٤/١.

(٣) البيت لابن خالد القناني: ينظر إصلاح المنطق: ص ١٣٤، والمقاصد النحوية: ١٥٤/١، ولسان العرب: (سما)، وشرح المفصل: ٢٤/١، وأوضح المسالك: ٣٤/١، والإنصاف: ص ١٥. وأسرار العربية: ص ٩، والمغني: ١٥٤/١.

(٤) البيت للأحوص ينظر: ديوانه: ١٩٣، الفرطبي: ٧١/١، والدر المصون: ٥٥/١.

(٥) في أ: أنها تثبت.

وإنما حذفوها حين يُصَافُ الاسمُ إلى الجلالة خاصة؛ لكثرة الاستعمال.
وقيل: ليوافق الخط اللفظ.

وقيل: لا حذف أصلاً، وذلك لأن الأصل «سِم» أو «سُم» بكسر السين أو ضمّها، فلما دخلت الباء سُكُنَت السينُ تخفيفاً؛ لأنه وقع بعد الكسرة كسرة أو ضمة.

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى -: إنما حذفوا أَلِفَ «اسم» في قوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ» وأثبتوها في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لوجهين:

الأول: أن كلمة «بِسْمِ اللَّهِ» مذكورة في أكثر الأوقات عند أكثر الأفعال؛ فلاجل التخفيف حذفوا الألف، بخلاف سائر المواضع، فإن ذكرها يقل.

الثاني: قال الخليل^(٢) - رحمه الله تعالى - إنما حذفت الألف في «بِسْمِ اللَّهِ»؛ لأنها إنما دخلت بسبب أن الابتداء بالسين الساكنة غير ممكن، فلما دخلت الباء على الاسم نابت عن الألف، فسقطت في الخط، وإنما لم تسقط في ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؛ لأن الباء لا تنوب عن الألف في هذا الموضع، كما في «بِسْمِ اللَّهِ»؛ لأنه يمكن حذف الباء من ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مع بقاء المعنى صحيحاً، فإنك لو^(٣) قلت: اقرأ اسم ربك صح المعنى، [أما لو]^(٤) حذفت [الباء]^(٥) من «بسم الله» لم يصح المعنى، فظهر الفرق.

قال بعضهم: فلو أُضِيفَتْ إلى غير الجلالة ثَبَّتْ نحو: «باسم الرحمن» هذا هو المشهور، وحكي عن الكسائي^(٦)، والأخفش - رحمة الله تعالى عليهما - جواز حذفها إذا أُضِيفَ إلى غير الجلالة من أسماء الباري تعالى؛ نحو: «بِسْمِ رَبِّكَ» و «بِسْمِ الْخَالِقِ».

(١) ينظر: الفخر الرازي: ٩٣/١.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، اليحمدي، أبو عبد الرحمن: ولد سنة ١٠٠هـ في البصرة، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، عاش فقيراً صابراً. قال النضر بن شميل: ما رأى الرءاؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه، فكر في ابتكار طريقة في الحساب تسهله على العامة؛ فدخل المسجد وهو يعمل فكره؛ فصدمة سارية وهو غافل فكانت سبب موته سنة ١٧٠هـ بالبصرة. من كتبه: «العين» و «معاني الحروف» و «العروض» و «النغم». ينظر: وفيات الأعيان: ١٧٢/١، وإنباه الرواة: ٣٤١/١، ونزهة الجليس: ١٨/١، والأعلام: ٣١٤/٢.

(٣) في أ: فلو أنك.

(٤) في أ: ولو.

(٥) سقط في أ.

(٦) علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة، من تصانيفه: «معاني القرآن»، و «المصادر»، و «الحروف»، و «القرآت»، و «النوادر»، و «المتشابه في القرآن» و «ما يلحن فيه العوام». توفي ب «الري» في العراق سنة ١٨٩هـ انظر: ابن خلكان: ٣٣٠/١، وتاريخ بغداد: ٤٠٣/١١، والأعلام: ٢٨٣/٤.

وإنما طَوَّلُوا الْبَاءَ مِنْ «بِسْمِ اللَّهِ» وَلَمْ يُطَوِّلُوهَا فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ لَوْجِهَيْنِ:
الأول: أَنَّهُ لَمَّا حُذِفَتْ أَلْفُ الْوَضَلِ بَعْدَ الْبَاءِ طَوَّلُوا هَذِهِ الْبَاءَ؛ لِيَدُلَّ طَوَّلُهَا عَلَى الْأَلْفِ
 الْمَحذُوفَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، أَلَّا تَرَى أَنَّهُمْ لَمَّا كَتَبُوا ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ بِالْأَلْفِ رَدُّوا الْبَاءَ إِلَى صِفَتِهَا
 الْأَصْلِيَّةِ.

قَالَ مَكِّي - رحمه الله تعالى - : حذفت الألف من «بسم الله» لكثرة الاستعمال .
 وقيل: حذفت لتحريك السين في الأصل؛ لأنَّ أَصْلَ السَّيْنِ الْحَرَكَةُ، وَسَكُونُهَا لِعِلَّةٍ
 دَخَلَتْهَا.

الثاني: قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: إِنَّمَا طَوَّلُوا الْبَاءَ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَلَّا يَسْتَفْتِحُوا كِتَابَ اللَّهِ - تعالى -
 إِلَّا بِحَرْفٍ مُعْظَمٍ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(١) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ لِكُتَابِهِ: طَوَّلُوا الْبَاءَ،
 وَأَظْهَرُوا السَّيْنَ، وَدَوَّرُوا الْمِيمَ^(٢) تَعْظِيمًا لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَصْلٌ فِي مَتَعَلِّقِ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ

الجارُّ والمَجْرُورُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ، فِعْلٌ، أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ، إِلَّا فِي ثَلَاثِ
 صُورٍ:

«حَزَفِ الْجَرَّ الزَّائِدَ»، وَ «لَعَلَّ» وَ «لَوْلَا» عِنْدَ مَنْ يَجْرُ بِهَمَا، وَزَادَ ابْنُ عُصْفُورٍ^(٣) -
 رحمه الله تعالى - «كَافَ التَّشْبِيهِ»؛ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، فَإِنَّمَا تَتَعَلَّقُ.
 إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَ «بِسْمِ اللَّهِ» لَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ حُذِفَ، وَاخْتَلَفَ
 النُّحَوِيُّونَ فِي ذَلِكَ:

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، أبو حفص
 الحافظ: أمير المؤمنين، عن أنس، وعبد الله بن جعفر، وابن المسيب، وعنه أيوب، وحמיד،
 والزهري، وخلق. قال ميمون بن مهران: ما كانت العلماء عند عمر إلا تلامذة، ولي في سنة تسع
 وتسعين، ومات سنة إحدى ومائة. قال هشام بن حسان: لما جاء نعي عمر قال الحسن البصري: مات
 خير الناس. فضائله كثيرة - رضي الله عنه -.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٠١٦/٢، وتهذيب التهذيب: ٤٧٥/٧ (٧٩٠)، وتقريب التهذيب:
 ٥٩/٢، ٦٠، وخلاصة تهذيب الكمال: ٢٧٤/٢، والكاشف: ٣١٧/٢، وتاريخ البخاري الكبير: ٦/
 ٢٧٤، والجرح والتعديل: ٦٦٣/١، والثقات: ١٥١/٥، وطبقات الحفاظ: ٤٦، والحلية: ٢٥٤/٥،
 وتراجم الأبحار: ٥٣٦/٢، والبداية: ١٩٢/٩، وطبقات ابن سعد ٣٣٠/٥، ١٤٢/٩.

(٢) في ب: الجيم.
 (٣) علي بن مؤمن بن محمد، الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن، المعروف بـ «ابن عصفور» ولد سنة
 ٥٩٧هـ بـ «إشبيلية» وهو حامل لواء العربية بـ «الأندلس» في عصرة من كتبه: «المقرب»،
 و «المتع»، و «الفتاح»، و «الهلal»، و «السالف والعدار»، و «شرح المتنبي» وغيرها. وتوفي بـ
 «تونس» سنة ١٦٦٩هـ.

ينظر: فوات الوفيات: ٩٣/٢، وشذرات الذهب: ٣٣٠/٥، والأعلام: ٢٧/٥.

فذهب أهل البصرة: إلى أنَّ المتعلَّق اسمٌ.
وذهب أهل الكوفة: إلى أنَّه فعلٌ.

واختلف كلُّ من الفريقين:

فذهب بعض البصريين: إلى أنَّ ذلك المحذوف مبتدأٌ حُذِفَ هو، وخَبَرُهُ، وبَقِيَ مَعْمُولُهُ، تقديرُهُ: ابتدائي بسم الله كائنٌ أو مستقرٌّ، أو قِرَاءَتِي بسم الله كائنةٌ أو مستقرةٌ؛ وفيه نظر: مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَلَزُمُ حَذْفُ المصدرِ، وإبقاء معموله وهو ممنوعٌ. وقد نَصَّ مكي^(١) - رحمه الله تعالى - على منع هذا الوجه.

وذهب بعضهم: إلى أنَّه خبرٌ حُذِفَ هو ومُبْتَدَأُهُ - أيضاً -، وبقي معموله قائماً مقامه؛ والتقدير: ابتدائي كائنٌ بسم الله، نحو: «زَيْدٌ بِمَكَّةَ»، فهو على الأول: منصوبُ المَحَلِّ، وعلى الثاني: مرفوعه؛ لقيامه مقامَ الخبرِ.

وذهب بعض الكوفيين: إلى أنَّ ذلك الفعلُ المحذوفُ مقدرٌ قبله، قال: لَأَنَّ الْأَصْلَ التقديم؛ والتقدير: أقرأ بسم الله، أو أبتدىء بسم الله.

ومنها مَنْ قدره بعده، والتقدير: بسم الله أقرأ، أو أبتدىء، أو أَتْلُو.

وإلى هذا نَحَا الزَّمَخْشَرِيُّ^(٢) - رحمه الله - قال^(٣): «ليفيد التقديم الاختصاص؛ لأنه وقع رداً على الكفرة الذين كانوا يبدئون بأسماءِ آلهتهم؛ كقولهم: باسمِ اللَّاتِ، وباسمِ العُزَّى» وهذا حَسَنٌ جداً.

ثم اعترض على نفسه بقوله تَبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ حيث صرَّح بهذا العامل مُقدِّماً على معموله.

ثم أجاب: بأنَّ تقديمَ الفعلِ في سورة العَلَقِ أَوْقَعُ؛ لأنها أولُ سورةٍ نزلت؛ فكان الأمرُ بالقراءة أهم.

وأجاب غيره: بأنَّ «بِسْمِ رَبِّكَ» ليس متعلقاً بـ «أقرأ» الذي قبله، بل بـ «أقرأ» الذي

(١) ينظر المشكل: ٦/١.

(٢) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، الزمخشري، جار الله أبو القاسم، ولد سنة ٤٦٧ هـ في زمخشر (من قرى خوارزم)، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً؛ فلقب بـ «جار الله». أشهر كتبه: «الكشاف»، و «أساس البلاغة»، و «المفصل»، ومن كتبه: «المقامات» و «مقدمة الأدب» و «نوافع الكلم» و «ربيع الأبرار». توفي بـ «الجرجانية»، بـ «خوارزم» سنة ٥٣٨ هـ.

ينظر: وفيات الأعيان: ٨١/٢، ولسان الميزان: ٤/٦، والجواهر المضيئة: ١٦٠/٢، وآداب اللغة: ٤٦/٣، والأعلام: ١٧٨/٧.

(٣) ينظر الكشاف: ٣/١.

بعده، فجاء على القاعدة المتقدمة، وفي هذا نظر؛ لأن الظاهر هلى هذا القول أن يكون «اقرأ» الثاني تأكيداً للأول؛ فيكون قد فصل بمعمول المؤكد بينه، وبين ما أكده مع الفصل بكلام طويل. واختلفوا - أيضاً - هل ذلك الفعل أمرٌ أو خبرٌ؟

فذهب الفراء^(١): إلى أنه أمرٌ تقديره: «اقرأ أنت بسم الله».

وذهب الزجاج^(٢): إلى أنه خبرٌ تقديره: «اقرأ أنا، أو ابتديء» ونحوه^(٣).

قال ابن الخطيب^(٤) - رحمه الله تعالى - : أجمعوا على أن الوقف على قوله تعالى: «بِسْمِ» ناقصٌ قبيحٌ، وعلى قوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ» كافٌ صحيحٌ، وعلى قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم» تامٌ.

واعلم أن الوقف لا بد وأن يقع على أحد هذه الأوجه الثلاثة: وهو أن يكون ناقصاً، أو كافياً، أو كاملاً، فالوقف على كل كلام لا يفهم بنفسه ناقصٌ، والوقف على كل كلام مفهوماً معاني، إلا أن ما بعده يكون متعلقاً بما قبله يكون كافياً، والوقف على كل كلام تامٌ، ويكون ما بعده منقطعاً عنه يكون تاماً^(٥).

(١) الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أبو محمد، ويلقب بـ «محيي السنة»، البغوي، فقيه، محدث، مفسر، نسبته إلى «بغا» من قرى «خراسان» بين «هراة ومرو». له: «التهذيب» في فقه الشافعية، و «شرح السنة» في الحديث، و «لباب التأويل في معالم التنزيل» في التفسير، و «مصباح السنة» و «الجمع بين الصحيحين» وغير ذلك. ولد سنة ٤٣٦هـ. توفي بـ «مرو الروذ» سنة ٥١٠هـ. ينظر الأعلام: ٢/ ٢٥٩، وفيات الأعيان: ١/ ١٤٥.

(٢) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالمٌ بالنحو واللغة. كان في فتوته يخطر الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرّد، كان مؤدباً لابن الوزير المعتضد العباسي، كانت لـ «الزجاج» مناقشات مع «ثعلب» وغيره، من كتبه: «معاني القرآن»، و «الاشتقاق»، و «خلق الإنسان»، وغيرها من الكتب. ولد في بغداد سنة ٢٤١هـ وتوفي سنة ٣١١هـ. انظر: معجم الأدباء: ١/ ٤٧، وإنباه الرواة: ١/ ١٥٩، وآداب اللغة: ٢/ ١٨١ والأعلام: ١/ ٤٠.

(٣) ينظر معاني القرآن: ١/ ١.

(٤) ينظر تفسير الفخر الرازي: ١/ ٩١.

(٥) الوقف في الاصطلاح: هو قطع النطق عند آخر الكلمة وقطعها عما بعدها، ولما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد، لم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة، وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتعين ارتضاء ابتداء بعد التنفس والاستراحة، وتحتم ألا يكون ذلك مما يخل بالمعنى، ولا يخل بالفهم، إذ بذلك يظهر الإعجاز، ويحصل القصد، ولذلك حض الأئمة على تعلمه ومعرفة، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: الترتيل معرفة الوقوف - وتجويد الحروف. والوقف ينقسم إلى: اختياري واضطراري؛ لأن الكلام إما أن يتم أو لا، فإن تم، كان اختياريًا. وكونه تاماً لا يخلو إما أن لا يكون له تعلق بما بعده البتة - أي: لا من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى - فهو الوقف الذي اصطلاح عليه الأئمة (بالتام)، لتمامه المطلق، يوقف عليه ويبتدأ بما بعده، وإن كان له تعلق، فلا يخلو هذا التعلق، إما أن يكون من جهة المعنى فقط؛ وهو الوقف المصطلح عليه (بالكافي)؛ للاكتفاء به عما بعده، واستغناء ما بعده عنه، وهو =

ثم لقائل أن يقول: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] كلام تام، إلا أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٣] متعلق بما قبله؛ لأنها صفات، والصفات تابعة للموصوفات، فإن جاز قطع الصفة عن الموصوف، وجعلها وحدها آية، فلم لم يقولوا: «بسم الله الرحمن» آية؟ ثم يقولوا: «الرحيم» آية ثانية، وإن لم يجز ذلك، فكيف جعلوا «الرحمن الرحيم» آية مستقلة؟ فهذا الإشكال لا بُد من جوابه.

فصل الاسم هل هو نفس المسمى أم لا؟

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى - : قالت الحشوية، والكرامية، والأشعرية: الاسم نفس المسمى، وغير التسمية^(٢).

= كالنام في جواز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده؛ وإن كان التعلق من جهة اللفظ، فهو الوقف المصطلح عليه (بالحسن)؛ لأنه في نفسه حسن مفيد يجوز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده، للتعلق اللفظي، إلا أن يكون رأس آية فإنه يجوز في اختيار أكثر أهل الأداء، لمجيئه عن النبي - ﷺ - في حديث أم سلمة - رضي الله تعالى عنها - أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم يقف، ثم يقول (الحمد لله رب العالمين) ثم يقف، ثم يقول (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) رواه أبو داود ساكتاً عليه، والترمذي وأحمد وأبو عبيدة وغيرهم، وهو حديث حسن وسنده صحيح، وكذلك عد بعضهم الوقف على رؤوس الآي في ذلك سنة، (فالوقف التام) أكثر ما يكون في رؤوس الآي وانقضاء القصص، (والوقف الكافي) يكثر في الفواصل وغيرها، (والوقف الحسن) نحو الوقف على (بسم الله) وعلى (الحمد لله) وعلى (رب العالمين) الوقف على ذلك وما أشبهه حسن؛ لأن المراد من ذلك يفهم، (والوقف القبيح) نحو الوقف على: بسم، وعلى: الحمد، وعلى: رب، ومالك يوم، وإياك، وصراط الذين، وغير المغضوب؛ فكل هذا لا يتم عليه كلام ولا يفهم منه معنى، وقد يكون بعضه أقيح من بعض؛ كالوقف على ما يحيل المعنى نحو: (وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه) فإن المعنى يفسد بهذا الوقف؛ لأن المعنى أن البنت مشتركة من النصف مع أبويه. وإنما المعنى أن النصف للبنت دون الأبوين، ثم استأنف الأبوين بما يجب لهما مع الولد. انظر: النشر: (٢٢٥/١ - ٢٢٦ - ٢٢٨ - ٢٢٩).

(١) ينظر الرازي: ٩٥/١.

(٢) في حقيقة الاسم عند المتكلمين خلاف مشهور: فذهب الأشعرية إلى أنه عين المسمى، وذهبت المعتزلة إلى أنه غير المسمى، وقالت الأشعرية وطائفة من المتكلمين: إن الكلام في الاسم والمسمى يعرف حقيقة صفات معبودك، فتصل بذلك إلى تصحيح توحيدك فإذا لم ينظر الإنسان ويستدل، فكيف يصل إلى المعرفة التي كلفها. لكن منع الشافعي - رضي الله عنه - وابن حنبل، وأكثر الفقهاء، والمحدثين رضي الله عنهم طريق الكلام في الاسم والمسمى، حتى قال الشافعي: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى، فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له.

وعلى كل؛ فطريق المتكلمين غير طريق الفقهاء والمحدثين؛ فإن الفقهاء والمحدثين أخذوا الأمور بالتسليم والنقل، والمتكلمون ركبوا إلى النقل طريق النظر بالعقل، فأقاموا صناعة غير معهودة في السلف، وقالوا: نفتح بها طريق النظر؛ إذ السلف كانوا لقرب عهدهم بالنبوة، ولاشتغال أفكارهم بالنظر في ملكوت السماء والأرض مستغنيين عن هذه الصناعة؛ إذ كانت الأدلة راسخة في قلوبهم وطرق

وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا أن الاسم غير المسمى، وغير التسمية.

وقبل الخوض في ذكر الدلائل لا بد من التنبيه على مقدمة، وهي أن قول القائل: الاسم هل هو نفس المسمى أم لا؟ يجب أن يكون مسبوقاً ببيان أن الاسم ما هو؟ وأن المسمى ما هو؟ حتى ينظر بعد ذلك في «الاسم» هل هو نفس المسمى أم لا؟ فنقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة، وحروف مؤلفة، المسماة تلك الذوات في أنفسها، وتلك الحقائق بأعيانها، فالعلم الضروري حاصل بأن الاسم غير المسمى؛ والخوض في هذه المسألة على هذا التقدير يكون عبثاً، وإن كان^(١) المراد بالاسم ذات المسمى، وبالمسمى - أيضاً - تلك الذات، فقولنا: «الاسم» هو «المسمى» معناه: أن ذات الشيء عين ذات الشيء، [وهذا]^(٢) وإن كان حقاً، إلا أنه من إيضاح الواضحات؛ وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث.

قال البغوي - رحمه الله تعالى -: الاسم هو المسمى، وعينه وذاته؛ قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] ثُمَّ نَادَى الْاسْمَ فَقَالَ: ﴿يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَبَّحْتُمُوهَا﴾ [يوسف: ٤٠] وأراد الأشخاص المعبودة؛ لأنهم كانوا^(٣) يعبدون المسميات.

واعلم أننا استخرجنا لقول من يقول: الاسم نفس المسمى تأويلاً لطيفاً، وبيانه أن لفظ الاسم اسم لكل لفظ دل على معنى من غير أن يدل على زمان معين، ولفظ الاسم كذلك، فوجب أن يكون لفظ الاسم في هذه الصورة نفس المسمى، إلا أن فيه إشكالاً، وهو أن كون الاسم للمسمى من باب المضاف، وأحد المضافين لا بد وأن يكون مغايراً للآخر.

فصل في الأدلة على أن الاسم لا يجوز أن يكون هو المسمى

«في ذكر الدلائل الدالة على أن الاسم لا يجوز أن يكون هو المسمى»
وذلك أن المسمى قد يكون معدوماً، فإن المعدوم منفي سلب لا ثبوت له. والألفاظ

= الاستدلال نيرة في عقولهم، فلما ذهب ذلك الجيل الجليل، وفترت الدواعي، وفشت البدع بسوء النظر، وجب أن يحزر طريق النظر وتنهج مسلك العبر وتبين الأدلة الصحيحة من الفاسدة وتضان عقائد الخلق عن تشويش المبتدعة والمارقة فتكلموا بما لم يعهد من السلف الكلام فيه فمن العلماء من يؤثره ويراه عين الصواب، ومنهم من يجتنبه ويجعله عين الضلال، ومنهم من يتوقف فيه، - منهم من يرتضي منه أسلوباً دون غيره من الأساليب. انظر العلوم المستودعة في السبع المثاني: ١٩ خ.

(١) في أ: أبداً فإن.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

الفاظٌ مَوْجُودَةٌ، مع أَنَّ المسمى بها عَدَمٌ مَحْضٌ، وَنَفْيٌ صِرْفٌ.

وأيضاً قد يكون المسمى مَوْجُوداً، والاسم معدوماً مثل الحقائق التي ما وضعوا لها ألفاظاً مُعَيَّنَةً، وبالجمله فثبوت كل واحد منها حال عَدَمِ الآخر معلومٌ إمَّا أَنَّ يكون مُقَدَّراً أو مقررأ، وذلك يُوجِبُ المغايَرةَ.

الثاني: أَنَّ الأسماء قد تكون كثيرة مع كون المُسمَّى واحداً، كالأسماء المترادفة، وقد يكون الاسم واحداً [وتكون] ^(١) المسميات كثيرة، كالأسماء المشتركة، وذلك - أيضاً - يُوجِبُ المغايَرةَ.

الثالث: أن كون الاسم اسماً للمسمى، وكون المُسمَّى مُسمًى بالاسم من باب الإضافة: كالمالكية، والمملوكية، وأحد المضافين مغايرٌ للآخر، ولقائل أن يقول: يُشْكِلُ هذا بكون الشيء عالماً بنفسه.

الرابع: الاسم أصوات مقطعة وضعت لتعريف المسميات، وتلك الأصوات أعراض غير باقية، والمسمى قد يكون باقياً، وقد يكون واجب الوجود لذاته.

الخامس: أَنَّا إذا تلفظنا بالنار، والثلج، فهذان اللفظان مَوْجُودان في أَلْسِنَتِنَا، فلو كان الاسم نفس المسمى لزم أن يحصل في ألسنتنا النار والثلج، وذلك لا يقوله عاقلٌ.

السادس: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله ﷻ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ تِسْعِينَ اسماً» ^(٢) فيها هنا الأسماء كثيرة، والمسمى واحد، وهو الله - سبحانه وتعالى -.

السابع: أَنَّ قوله تعالى: «بِسْمِ اللَّهِ»، وقوله - تعالى: - ﴿بَرَكْ أَتَمَّ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ففي هذا الآيات يقتضي إضافة الاسم إلى الله - تعالى - وإضافة الشيء إلى نفسه مُحَالٌ.

الثامن: أَنَا نُنْذِرُكَ تفرقة ضرورية بين قولنا: «اسمُ الله» وبين قولنا: «اسمُ الاسم»، وبين قولنا: «اللهُ الله»، وهذا يدل على أن الاسم غير المسمى.

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٢١٢/٩) كتاب «التوحيد»، باب «إن لله مائة...» حديث رقم (٧٣٩٢)، ومسلم في الصحيح (٢٠٣/٤) كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» (٤٨) باب «من أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها» (٢) حديث رقم (٢٦٧٧/٦) - والترمذي في السنن: حديث رقم (٣٥٠٦)، (٣٥٠٧)، (٣٥٠٨) - وابن ماجه في السنن: حديث رقم (٣٨٦٠، ٣٨٦١) وأحمد في المسند (٢/٢٥٨، ٤٩٩) - والبيهقي في السنن (٢٧/١٠) وابن حبان في الموارد: حديث رقم (٢٣٨٤) - والحاكم في المستدرک: (١٦/١) - وأبو نعيم في الحلية: (١٢٢/٣، ٢٧٤/٦) - والخطيب في التاريخ: (٨/٣٣٧) - وابن عساکر: (١٦١/٣، ٩٥/٤، ٤٣٦/٦ - تهذيب) وذكره الهندي في كنز العمال: حديث رقم ١٩٢٣، ١٩٣٤، ١٩٣٨، ١٩٤٠، ٦٩٢٩، ٦٨٣٧.

التاسع: أنا نَصِفُ^(١) الأسماء بكونها عربية وفارسية، فنقول: الله: اسمٌ عربيٌّ، وخوداي: اسمٌ أعجميٌّ وأما ذاتُ الله تعالى، فمنزَهةٌ عن كونه كذلك.

العاشِرُ: قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أمرنا بأننا ندعو الله بأسمائه، والاسمُ آلةُ الدعاء، والمدعو هو الله تعالى، والمُعَايَرَةُ بين ذاتِ المدعو، وبين اللفظ الذي يحصلُ به الدعاء معلومٌ بالضرورة.

واحتج مَنْ قال: الاسمُ هو المُسمَّى بالنص، والحكم:

أما النَّصُّ، فقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِكَ أَنتُمْ رَبِّكَ﴾ والمُتَبَارَكُ الْمُتَعَالَى هو الله - تبارك وتعالى - لا الصوت ولا الحَرْفُ.

وأما الْحُكْمُ: فهو أَنَّ الرجلَ إِذَا قال: «زَيْنَبُ طَالِقٌ»^(٢)، وكان زَيْنَبُ^(٣) اسماً لامرأته، وقع عليها الطَّلَاق، ولو كان الاسمُ غيرَ المسمى، لكان قد أَوْقَعَ الطَّلَاقَ على غيرِ تلك المرأة، فكان يجب ألا يَقَعَ الطَّلَاقُ عليها.

الجوابُ عن الأول: أَنَّ يُقال: لِمَ لا يجوزُ أَنْ يُقال: كما أَنَّهُ يجبُ علينا أَنْ نعتقِدَ كونه منزهاً عن النقائص^(٤) والآفات، فكذلك يجبُ علينا تنزيه الألفاظِ الموضوعَةِ لتعريفِ ذاتِ الله - تعالى - وصفاته عن العَبَثِ، والرَّفَثِ، وسوءِ الأدَبِ؟

وعن الثاني: أَنَّ قَوْلَنَا «زَيْنَبُ طَالِقٌ» معناه: أَنَّ الذاتَ التي يُعَبَّرُ عنها بهذا اللفظِ «طالِقٌ»، فلهذا السبب وقع الطلاق عليها. و «الله» في «بسم الله» مضافٌ إِلَيْهِ.

وهل العاملُ في المضافِ إليه المضافُ أَوْ حَرْفُ الْجَرِّ الْمُقَدَّرُ، أَوْ مَعْنَى الإِضَافَةِ؟

(١) في أ: نصرف.

(٢) الطلاق لغة: مصدر، طَلَّقَت المرأة: بانث من زوجها، وأصل الطلاق في اللغة: التخلية، يقال: طَلَّقَت الناقة: إِذَا سَرَحْتَ حَيْثُ شِئْتَ، وحبس فلان في السجن مطلقاً بغير قيد، وفرس طلق إحدى القوائم: إِذَا كَانَتْ إِحْدَى قَوَائِمِهَا غَيْرَ مُحْجَلَةٍ، والإطلاق: الإرسال. انظر: الصحاح: ١٥١٨/٤، والمغرب: ٢٩٢، ولسان العرب: ٢٢٥/١٠، والمصباح المنير: ٥٧٣/٢. واصطلاحاً:

عرفه الحنفية بأنه: إزالة النكاح الذي هو قيد معنى.

عرفه الشافعية بأنه: حل عقد النكاح بلفظ الطلاق ونحوه، أو هو: تصرف مملوك للزوج يحدثه بلا سبب، فيقطع النكاح.

عرفه المالكية بأنه: إزالة القيد وإرسال العصمة؛ لأن الزوجة تزول عن الزوج.

عرفه الحنابلة بأنه: حل قيد النكاح أو بعضه.

انظر: الاختيار لتعليل المختار: ص ٦٢، والتبيين: ١٨٨/٢، والدرر: ٣٥٨/١، والبدائع: ٤/

١٧٦٥، ومغني المحتاج: ٢٧٩/٣، والخرشي على مختصر سيدي خليل: ١١/٣، والكافي: ٧١/٢،

وكشاف القناع: ٢٣٢/٥، والمغني: ٣٦٣/٧.

(٣) في أ: اسم زينب.

(٤) في أ: نقص.

ثلاثة أقوال خيرها أوسطها وهو علمُ على المعبود بحق لا يطلق على غيره [ولم يجز لأحد من المخلوقين أن يُسمَّى باسمه، وكذلك الإله قبل النقل، والإدغام، لا يطلق إلا على المعبود بحق]^(١).

قال الزمخشري رحمه الله «كأنه صار علماً بالعلية» وأما «إله» المجرد عن الألف، فيطلق على المعبود بحق وعلى غيره، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى: [من الناس]^(٢) من طعن في قول من يقول «الإله هو المعبود» من وجوه:

أحدها: أنه - تعالى - إله الجَمَادَاتِ والبهائم، مع أن صُدُورَ العبادة منها مُحَالٌ.

الثاني: أنه - تعالى - إله المَجَانِينِ والأطفال، مع أنه لا تصدرُ العبادة منهم.

الثالث: يلزم أن يُقال: إنه - تعالى - ما كان إلهاً في الأزل.

وقال قومُ الإله ليس عبارة عن المعبود، بل الإله هو الذي يستحقُّ أن يكونَ معبوداً، وهذا القول - أيضاً - يُرَدُّ عليه ألا يكونَ إلهاً للجَمَادَاتِ، والبهائم، والأطفال، والمجانين، وألا يكونَ إلهاً في الأزل.

وأجيب: بأن هَذَيْنِ الإلزامَيْنِ ضعيفان.

فإنَّ الله - تعالى - مستحقٌّ للعبادة [في الأزل]^(٣)، بمعنى أنه أهلٌ لأنَّ يُعْبَدَ، وهذا لا يتوقفُ على حُصُولِ العبادة.

والثاني - أيضاً - ضَعِيفٌ؛ لأنه في الأزل مُسْتَحِقٌّ للعبادة.

واختلفَ الناس: هل هو مُرْتَجَلٌ أَوْ مُشْتَقٌّ^(٣)؟

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) لفظ الجلالة «الله» اسم دال على عين الذات القائمة بنفسها، وليس باسم مشتق من صفة في ذاته تعالى؛ كالحي الذي اشتق من الحياة، والمريد من الإرادة، والقادر من القدرة، فإن هذه الأسماء مشتقة من صفات الذات، ولا هو أيضاً كأسماء الأفعال؛ مثل الخالق من الخلق، والرازق من الرزق، فكل اسم من أسماء الصفات، أو الأفعال فهو مشتق بلا شك، وكل اسم ثبت لعين الذات دون النظر إلى صفة من الصفات، فهو غير مشتق؛ سواء كان اسم سلب، أو اسم إثبات، ومن خواص لفظ الجلالة: أنه تعالى عَجَزَ الضَّلَالُ الْمُدَّعِي الربوبية عن التجاسر على التسمي بهذه التسمية، وعليه حمل في بعض الوجوه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، ومنها: أن كل اسم من الأسماء التسعة والتسعين لا بد أن يكون مشتقاً من صفة أو فعل، وهذا قد قيل إنه غير مشتق، بل هو اسم لعين الذات دون نظر إلى صفة يشتق منها، وعلى هذا ترجع إليه جميع الأسماء، ومنها: أنهم زادوا ميماً عليه فقالوا: اللهم، فكانت هذه الكلمة بزيادة الميم فيها جامعة لجميع أسماء الله تعالى، ولهذا اللفظ الجليل خواص آخر ستأتي انظر: العلوم المستودعة في السبع الثاني: ٢٣ خ بتصرف - نتائج الفكر بتحقيقنا خ (تحت الطبع).

والصوابُ الأوَّلُ وهو أعرِفُ المعارِفِ [حُكِيَ أَنَّ سَيِّوْنَهُ رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: خَيْرًا كَثِيرًا؛ لِيَجْعَلَ اسْمَهُ أَعْرَفَ الْمَعَارِفِ] (١).

ثُمَّ الْقَائِلُونَ بِاشْتِقَاقِهِ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ «لَاَهَ - يَلِيْهِ»، أَيْ: ارْتَفَعَ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلشَّمْسِ: إِلَآهَةٌ - بِكَسْرِ الهمزة وفتحِهَا - لَارْتِفَاعِهَا.

وقيل: لَاتِخَاذِهِمْ إِيَّاهَا مَعْبُودًا، وَعَلَى هَذَا قِيلَ: «لَهْيَ أَبُوكَ» يُرِيدُونَ لِلَّهِ أَبُوكَ فَقَلَّبَ الْعَيْنَ إِلَى مَوْضِعِ اللَامِ، وَخَفَّفَهُ بِحَذْفِ الْأَلْفِ وَاللَامِ، وَحَذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ.

وَأَبْعَدَ بَعْضُهُمْ، فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَ الشَّاعِرِ فِي ذَلِكَ: [الطويل]

٢٤ - أَلَا يَا سَنَا بَرِّقَ عَلَى قُلُلِ الْحِمَى لَهْنُكَ مِنْ بَرِّقِ عَلَيَّ كَرِيمٍ (٢)

فإنَّ الأصلَ: «للهُ إِنَّكَ كَرِيمٌ عَلَيَّ» فحذف حرفَ الجرِّ، وحرفَ التعريفِ، والألفَ التي قبلَ الهاءِ من الجلالة، وسكَّنَ الهاءَ؛ إِجْرَاءً لِلْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ، فَصَارَ اللَّفْظُ: «لَهُ» ثُمَّ أُلْقِيَ حَرَكَةُ هَمْزَةٍ «إِنْ» عَلَى الْهَاءِ بَقِيَ «لَهْنُكَ» كَمَا تَرَى، وَهَذِهِ سَمَاجَةٌ مِنْ قَائِلِهِ [وَفِي الْبَيْتِ قَوْلَانِ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا] (٣).

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ «لَاَهَ - يَلُوهَ - لِيَاهَا» [أَيِ اخْتَجَبَ فَالْأَلْفَ عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ أَصِيلَةٌ فَحِينَئِذٍ أَصْلُ الْكَلِمِ لَاَهَ] (٢) «اللاه» ثُمَّ أُذْغِمَتْ لَامُ التَّعْرِيفِ فِي اللَامِ بَعْدَهَا؛ لِاجْتِمَاعِ شُرُوطِ الْإِدْغَامِ، وَفُحِّمَتْ لِأَمِّهِ، وَوَزَنَهُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ إِمَّا: «فَعَلَ» أَوْ «فَعِلَ» بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ: فَتَحَرَّكَ حَرْفُ الْعِلَّةِ، وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهُ فَقَلَّبَ أَلْفًا، وَكَانَ الْأَصْلُ: لِيَهَا أَوْ لِيَهَا أَوْ لَوْهَا أَوْ لَوْهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مُشْتَقًّا مِنْ «أَلَهَ» وَ «أَلَهَ» لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ مَعَانٍ، وَهِيَ: الْعِبَادَةُ وَالسَّكُونُ، وَالتَّخَيُّرُ، وَالْفَرْعُ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: [الطويل]

(١) سقط من أ.

(٢) البيت لمحمد بن سلمة. ينظر في لسان العرب (لهن)، (قذى)، ولرجل من بني نمير في خزانة الأدب: ٣٣٨/١، ٣٣٩، ٣٥١، والأشباه والنظائر: ١٤٤/٢، والزجاجي: ص ٢٥٠، والجنى الداني: ص ١٢٩، وجواهر الأدب: ص ٨٣، ٣٣٣، والخصائص: ٣١٥/١، ١٩٥/٢، والدرر: ١٩١/٢، وديوان المعاني: ١٩٢/٢، ورصف المباني: ص ٤٤، ٢٣٣٤/٢١، وسر صناعة الإعراب: ٣٧١/١، ٢٥٥٢/٢، وشرح شواهد المغني: ٦٠٢/٢، وشرح المفصل: ٦٣/٨، ٤٢٥/٩، ٤٢/١٠، ومجالس ثعلب: ١١٣/١، ٤١٣/٢، ومغني اللبيب: ٢٣١/١، والمقرب: ١٠٧/١، والممتع في التصريف: ٣٩٨/١، وجمع الهوامع: ١٤١/١، وأمالى القالي: ٢٦٦/١.

(٣) سقط في ب.

٢٥ - أَلِهْتَ إِلَيْنَا وَالْحَوَادِثَ جَمَّةً (١)

أي: سَكَنْتَ؛ وقال غيره: [الطويل]

٢٦ - أَلِهْتَ إِلَيْهَا وَالرَّكَائِبُ وَقَفُ (٢)

أي: فَرِغْتُ إِلَيْهَا.

فمعنى «إله» أَنْ خَلَقَهُ يَعْبُدُونَهُ، وَيَسْكُنُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَحَيَّرُونَ فِيهِ، وَيَفْزَعُونَ إِلَيْهِ، ومنه قولُ رُؤْبَةَ^(٣): [الرجز]

٢٧ - لِّلَّهِ دَرُ الْغَايَاتِ الْمُدَّةِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلِهِ^(٤)

أَي: مِنْ عِبَادَةٍ.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكْ وَأَلِهَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أَي: عِبَادَتِكَ.

وإلى معنى التحير أشارَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - رضي الله عنه - بقوله: «كُلُّ دُونِ صِفَاتِهِ تَحْيِيرُ الصِّفَاتِ، وَضَلَّ هُنَاكَ تَصَارِيفُ اللَّغَاتِ»^(٥)؛ وذلك أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَفَكَّرَ فِي صِفَاتِهِ تَحْيِيرٌ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ»^(٦).

وعلى هذا فالهمزة أَصْلِيَّةٌ، وَالْأَلْفُ قَبْلَ الْهَاءِ زَائِدَةٌ، فَأَصْلُ الْجَلَالَةِ: «الْإِلَه»؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ [فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ]^(٧): [الطويل]

(١) ينظر اللسان: مادة «أله».

(٢) ينظر اللسان: مادة «أله».

(٣) رُؤْبَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعِجَاجِ بْنِ رُؤْبَةَ التَّمِيمِيِّ السَّعْدِيِّ، أَبُو الْجَحَافِ، رَاجَزٌ مِنَ الْفَصَحَاءِ الْمَشْهُورِينَ، أَخَذَ عَنْهُ أَعْيَانُ أَهْلِ اللُّغَةِ، كَانُوا يَحْتَجُونَ بِشَعْرِهِ وَيَقُولُونَ بِإِمَامَتِهِ فِي اللُّغَةِ، لَهُ دِيْوَانٌ رَجَزٌ، لَمَّا مَاتَ، قَالَ الْخَلِيلُ: دَفَنَّا الشَّعْرَ وَاللُّغَةَ وَالْفَصَاحَةَ. تَوَفَّى بِالْبَادِيَةِ ١٤٥هـ.

ينظر: وفيات: ١٨٧/١، والبداية والنهاية: ٩٦/١، والآمدي: ١٢١، وخزانة الأدب: ٤٣/١، والأعلام: ٣٤/٣.

(٤) ينظر: ديوانه ص ١٦٦، وخزانة الأدب ٣٩١/٦، ٣٩٢، ولسان العرب (جله)، (أله)، وشرح المفصل ٣/١، والأشباه والنظائر ١٠٥/٦، والمحتسب ٢٥٦/١، والصحاح ٢٢٢٤/٦، والأُمالي الشجرية ٢/٥١، والنكت والعيون ٥١/١، والمحرور الوجيز ٦٣/١، والدر المصون ٥٧/١.

(٥) ينظر: المفردات للراغب (١٧).

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل»: (٢٥٥٦/٧) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد»: (١/٨٧) عن ابن عمر.

وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه الوازع بن نافع وهو متروك. والحديث ذكره الهندي في «كنز العمال»: (١٠٦/٣) وعزاه لأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس وأبي ذر. وعزاه أيضاً لأبي الشيخ وأبي نعيم في «الحلية» عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٧) سقط في أ.

٢٨ - مَعَادَ [الإله] ^(١) أَنْ تَكُونَ كَظَنِّيَةِ وَلَا ذُمِّيَةِ وَلَا عَقِيلَةَ رَبِّ ^(٢)

ثم حُذِفَتِ الهمزة لكثرة الاستعمال؛ كما حُذِفَتْ في «نَاسٍ» والأَصْلُ: أَنَاسٌ؛ كقوله: [الكامل]

٢٩ - إِنَّ الْمَنَآيَا يَطْلِفُ — نَ عَلَى الْأَنَاسِ الْأَمِينِ ^(٣)

فالتقى حرفُ التعريف مع اللام، فأذْغَمَ فيها وَفَحَّمَ.

أو تقول: إِنَّ الهمزة من «الإله» حُذِفَتْ للنقلِ بمعنى: أنا نقلنا حركتها إلى لامِ التعريف، وحذفناها بعد نقل حركتها، كما هو المعروف في النقل، ثم أَدْغَمَ لامِ التعريف؛ لما تقدم، إِلَّا أَنَّ النقلَ - هُنَا - لَازِمٌ؛ لكثرة الاستعمال.

ومنهم مَنْ قال: هو مُشْتَقٌّ من «وَلِيَّةٍ»؛ لكون كُلِّ مخلوق واليَّةً نحوه، ولهذا قال بعضُ الحكماء: اللَّهُ مَخْبُوبٌ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وعلى هذا دلَّ قوله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فأصله: «وَلَاةٌ» ثُمَّ أُبْدِلَتِ الواوُ همزةً، كما أُبْدِلَتْ في «إِشْاحٍ، وإِعاء» والأَصْلُ: «وِشَاحٍ، وِوِعاء».

فصار اللفظُ به: «إِلْهَاءٌ» ثُمَّ فُعِلَ به ما تقدم من حَذْفِ همزته، والإدغام، ويُغزى هذا القولُ للخليل - رحمه الله تعالى -.

فعلى هَذَيْنِ القولين وَزُنْ «إِلْهَاءٌ»: «فِعَالٌ» وهو بمعنى مَفْعُولٍ، أي: مَعْبُودٌ أو مُتَحَيَّرٌ فيه؛ كالكتاب بمعنى مكتوب، ورُدَّ قولُ الخليل بِوَجْهَيْنِ:

أحدهما: أنه لو كانت الهمزة بدلاً من واوٍ، لجازَ النطقُ بالأصل، ولم يقله أَحَدٌ، ويقولون: «إِشْاحٌ» و «وِشَاحٌ»، و «إِعاء» و «وِوِعاء».

والثاني: أنه لو كان كذلك لَجُمِعَ على «أُولَهِةٍ» كـ «أَوْعِيَةٍ»، و «أَوْشَحَةٍ»، فتردُّ الهمزة إلى أصلها، ولم يُجْمَعْ «إِلْهٌ» إِلَّا عَلَى «آلِهِةٍ».

وللخليلِ أَنْ ينفصلَ عن هذين الاعتراضين؛ بَأَنَّ البَدَلَ لَزِمَ [في] ^(٤) هذا الاسم؛ لأنه

(١) في أ: الله.

(٢) البيت للبعيث بن حريث. ينظر: خزانة الأدب: ٢٧٧/٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٣٧٨، والكشاف: ٥/١، والدر: ٥٧/١.

(٣) البيت لذي جدن الحميري في خزانة الأدب ٢٨٠/٢، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨؛ وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٣١٢/١، والجنى الداني ص ٢٠٠، وجواهر الأدب ص ٣١٣، والخصائص ١٥١/٣، وشرح شواهد الشافية ص ٢٩٦، وشرح المفصل ٩/٢، ١٢١/٥.

(٤) في أ: من.

اختَصَّ بِأَحْكَامٍ لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهَا غَيْرُهُ كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - ثُمَّ جَاءَ الْجَمْعُ عَلَى التَّزَامِ الْبَدَلِ.

وَأَمَّا الْأَلْفُ وَاللَّامُ، فَيَتَرْتَبُ الْكَلَامُ فِيهَا عَلَى كَوْنِهِ مُشْتَقًّا أَوْ غَيْرَ مُشْتَقًّا.

فَإِنْ قِيلَ بِالْأُولِ كَانَتْ فِي^(١) الْأَصْلِ مَعْرِفَةً.

وَوَإِنْ قِيلَ بِالثَّانِي كَانَتْ زَائِدَةً.

وَقَدْ شُدَّ حَذْفُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ مِنَ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِمْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَالْأَصْلُ: «لِلَّهِ أَبُوكَ»

كَمَا تَقْدَمُ، قَالُوا: وَحُذِفَتِ الْأَلْفُ الَّتِي قَبْلَ الْهَاءِ خَطًّا؛ لِثَلَاثِ شَبَهٍ بِخَطِّ «اللَّامِ»: اسْمُ الصَّنَمِ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَقْلِبُ هَذِهِ التَّاءَ فِي الْوَقْفِ هَاءً، فَيَكْتُبُهَا هَاءً تَبَعًا لِلْوَقْفِ، فَمِنْ ثَمَّ جَاءَ الْاِشْتِبَاهُ.

وَقِيلَ: لِثَلَاثِ شَبَهٍ^(٢) بِخَطِّ «اللَّامِ» اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ «لَهَا - يَلْهُو» وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ عَلَى لُغَةٍ

مَنْ يَحْذِفُ يَاءَ الْمَنْقُوصِ^(٣) وَقَفًّا؛ لِأَنَّ الْخَطَّ يَتَّبِعُهُ، وَأَمَّا مَنْ يُشَبِّهُهَا وَقَفًّا فَيُشَبِّهُهَا خَطًّا، فَلَا لَبْسَ حَيْثُئِذٍ.

وَقِيلَ: حَذْفُ الْأَلْفِ لُغَةٌ قَلِيلَةٌ جَاءَ الْخَطُّ عَلَيْهَا، وَالتَّرِيمُ ذَلِكَ؛ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ؛ قَالَ

الشَّاعِرُ: [الرَّجَز]

٣٠ - أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرُدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغْلَةِ^(٤)

قَالَ ابْنُ الْخَطَّيبِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وَيتفرَّعُ عَلَى هَذَا مَسَائِلُ:

أَحَدُهَا: لَوْ قَالَ عِنْدَ الْحَلْفِ: بِلَّهِ، فَهَلْ تَتَعَقَّدُ يَمِينُهُ أَمْ لَا؟

قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا؛ لِأَنَّ بِلَّهِ [اسْمٌ]^(٥) لِلرُّطُوبَةِ فَلَا يَتَعَقَّدُ الْيَمِينُ بِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: يَتَعَقَّدُ الْيَمِينُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ أَصْلِ اللَّغَةِ جَائِزٌ، وَقَدْ نَوَى بِهِ

الْحَلْفَ، فَوَجِبَ أَنْ تَتَعَقَّدَ.

وِثَانِيهَا: لَوْ ذَكَرَهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ عِنْدَ الذِّبْحَةِ هَلْ يَصِحُّ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

وِثَالِثُهَا: لَوْ ذَكَرَ قَوْلَ: «اللَّهُ» فِي قَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ» هَلْ تَتَعَقَّدُ الصَّلَاةُ بِهِ أَمْ لَا؟

وَحُكْمُ لَامِهِ التَّفْخِيمِ، تَعْظِيمًا مَا لَمْ يَتَقَدِّمُهُ كَسْرٌ فَتَرْقُؤٌ.

وَقَدْ^(٦) كَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - قَدْ أَطْلَقَ^(٧) التَّفْخِيمَ، وَلَكِنَّهُ

يُرِيدُ مَا قُلْتُهُ.

(١) فِي أ: كَانَتْ بِهِ. (٢) فِي أ: يَشْتَبِه.

(٣) فِي أ: الْمَعْرُوف.

(٤) يَنْظُرُ الْبَيْتُ فِي اللِّسَانِ: «حَرْد»، إِصْلَاحُ الْمَنْطِقِ لِابْنِ السَّكَيْتِ: ٤٧، شَوَاهِدُ الْكَشَافِ: ٥٠٦/٤،

الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ: ٩٦/١، التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ: ٩٢/١، الدَّر: ٥٨/١.

(٥) سَقَطَ فِي ب. (٦) فِي ب: وَإِنْ.

(٧) فِي أ: ذَكَرَ.

ونقل أَبُو الْبَقَاءِ^(١) - رحمه الله - : «أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرْقُفُهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ عَلَى خِلَافِهِ كَإِبْرَاهِيمَ عَنْ كَابِرٍ كَمَا ذَكَرَهُ^(٢) الرَّمْخَشَرِيُّ.

ونقل الْفَرَّاءُ خِلَافاً فِيمَا إِذَا تَقَدَّمَ فَتَحَتْهُ مَمَالَةٌ أَيْ قَرِيبَةً مِنَ الْكُسْرَةِ: مِنْهُمْ مَنْ يَرْقُفُهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَخِّمُهَا، وَذَلِكَ كَقِرَاءَةِ السُّوسِيِّ^(٣) فِي أَحَدِ وَجْهَيْهِ: ﴿حَتَّى رَأَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

قال ابنُ الْحَطَّيْبِ^(٤) - رحمه الله تعالى - : «لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: «اللَّهُ» بِالْإِمَالَةِ إِلَّا قُتِبَتْ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ».

ونقل السَّهْلِيُّ^(٥)، وابنُ الْعَرَبِيِّ^(٦) فِيهِ قَوْلًا غَرِيبًا، وَهُوَ أَنَّ الْأَلْفَ وَاللَّامَ فِيهِ أَصْلِيَّةٌ غَيْرُ زَائِدَةٍ، وَاعْتَدَرُوا عَنْ وَصْلِ الْهَمْزَةِ، لَكثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ كَمَا يَقُولُ الْخَلِيلُ فِي هَمْزَةِ التَّعْرِيفِ^(٧)، وَقَدْ رُدَّ قَوْلُهُمَا بِأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُنَوَّنَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ، وَكَانَ وَزْنُهُ حَيْثُذِ «فَعَالٌ» نَحْوُ: «لَقَالَ» وَ «سَأَلَ»، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ التَّنْوِينِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ «أَلَّ» زَائِدَةٌ عَلَى مَا هِيَ الْكَلِمَةُ.

وَمِنْ غَرِيبٍ مَا ثُقِلَ فِيهِ - أَيْضًا - أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ، بَلْ هُوَ مُعَرَّبٌ، وَهُوَ سُريَانِيٌّ الْوَضْعُ، وَأَصْلُهُ: «لَاهَا» فَعَرَّبَتْهُ الْعَرَبُ، فَقَالُوا: «اللَّهُ»؛ وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ: [مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

(١) ينظر الإملاء: ٥/١.

(٢) في أ: نقله.

(٣) صالح بن زياد السوسي الرقي، أبو شعيب: مقرأ ضابط للقراءات، ثقة. ينظر الأعلام: ١٩١/٣، والنشر: ١٣٤/١، وغاية النهاية: ٣٣٢/١.

(٤) ينظر تفسير الرازي: ٩٢/١.

(٥) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة، وعمي وعمره ١٧ سنة، ونبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش، فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنّف كتبه، من كتبه: «الروض الأنف» في شرح السيرة النبوية لابن هشام، وغيرها من الكتب في التفسير. ولد سنة ٥٠٨هـ، وتوفي سنة ٥٨١هـ.

انظر: وفيات الأعيان: ٢٨/١، نكت الهميان: ١٨٧، زاد المسافر: ٩٦، والأعلام: ٣١٣/٣.

(٦) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر بن العربي، ولد في ٤٦٨هـ. قاض من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، صنف كتباً في الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير، والأدب، ولي قضاء «إشبيلية». توفي في سنة ٥٤٣هـ.

ينظر: وفيات الأعيان: ٤٨٩/١، ونفع الطيب: ٣٤/١، وسلوة الأنفاس: ١٩٨/٣، وبرنامج القرويين: ٥٤٩، والأعلام: ٢٣٠/٦.

(٧) قال سيبويه: وزعم الخليل أن الألف واللام اللتين يعرفون بهما حرف واحد كـ «قَدْ» وأن ليست واحدة منهما منفصلة من الأخرى، كانفصال ألف الاستفهام في قوله أأريد، ولكن الألف كآلف «إيْم» في «إيْمُ اللَّهِ»، وهي موصولة كما أن ألف «إيْم» موصولة حدثنا بذلك يونس عن أبي عمرو، وهو رأيّه. ينظر سيبويه: ٣٢٤/٣.

٣١ - كَحَلْفَةٍ مِنْ أَبِي رِيَّاحٍ يَسْمَعُهَا لِأَهْلِ الْكُبَارِ^(١)

فجاء به على الأصل قبل التعريف، نَقَلَ ذلك أَبُو زَيْدِ الْبَلْخِي^(٢) - رحمه الله تعالى - .
ومن غَرِيبٍ ما نُقِلَ فيه - أيضاً - أَنَّ الْأَصْلَ فيه «الهَاء» التي هي كنايةٌ عَنِ الْغَائِبِ،
قَالُوا: وذلك أَنَّهُمْ أَثْبَتُوهُ مَوْجُوداً فِي نَظَرِ عُقُولِهِمْ؛ فَأَشَارُوا إِلَيْهِ بِالضَّمِيرِ، ثُمَّ زِيدَتْ فِيهِ لَامُ
الْمَلِكِ، إِذْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمَالِكُهَا، فَصَارَ اللفظُ «له»، ثُمَّ زِيدَ فِيهِ الْأَلْفُ
وَاللَّامُ؛ تَعْظِيماً وَتَفْخِيماً، وهذا لَا يُشْبِهُ كَلَامَ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَلَا التَّحْوِيلَيْنِ، وَإِنَّمَا يَشْبَهُ كَلَامَ
بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ.

وَمِنْ غَرِيبٍ مَا نُقِلَ فِيهِ - أيضاً - أَنَّهُ صِفَةٌ، وَلَيْسَ بِاسْمٍ، وَاعْتَلَّ [هذا الذاهِبُ إِلَى]^(٣)
ذلك؛ أَنَّ الْأِسْمَ يُعْرَفُ الْمُسَمًّى، وَاللَّهُ - تعالى - لَا يُذْرِكُ حِسّاً وَلَا بَدِيهَةً، فَلَا يَعْرِفُهُ اسْمُهُ،
وَإِنَّمَا تُعْرَفُهُ صِفَاتُهُ؛ وَلَئِنْ الْعَلَمَ قَائِمَ مَقَامَ الْإِشَارَةِ، وَذلك مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ رَدَّ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذَا الْقَوْلَ بِمَا مَعْنَاهُ: أَنَّكَ تَصِفُهُ، وَلَا تَصِفُ بِهِ فَتَقُولُ: إِلَهٌ عَظِيمٌ
وَاحِدٌ كَمَا تَقُولُ: شَيْءٌ عَظِيمٌ، وَرَجُلٌ كَرِيمٌ، وَلَا تَقُولُ: شَيْءٌ إِلَهٌ، كَمَا لَا تَقُولُ: شَيْءٌ
رَجُلٌ، وَلَوْ كَانَ صِفَةً لَوَقَعَ صِفَةً لِغَيْرِهِ لَا مَوْصُوفاً.

وَأَيْضاً: فَإِنَّ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَوْصُوفٍ بِهَا تَجْرِي عَلَيْهِ، فَلَوْ جَعَلْنَاهَا
كُلَّهَا صِفَاتٍ بَقِيَتْ غَيْرَ جَارِيَةٍ عَلَى اسْمِ مَوْصُوفٍ بِهَا، وَلَيْسَ فِيمَا عَدَا الْجَلَالَةَ خِلَافٌ فِي
كَوْنِهِ صِفَةً، فَتَعَيَّنَ أَنَّ تَكُونَ الْجَلَالَةُ اسْماً لَا صِفَةً، وَالْقَوْلُ فِي هَذَا الْأِسْمِ الْكَرِيمِ يَحْتَمِلُ
الْإِطَالَةَ، وَهَذَا الْقَدْرُ كَافٍ.

فصل في اختصاص لفظ الجلالة به سبحانه

قال ابنُ الْخَطِيبِ^(٤) - رحمه الله تعالى عليه -: أَطَبَّقَ جَمِيعُ الْخَلْقِ عَلَى أَنَّ قَوْلَنَا:

(١) البيت للأعشى. ينظر ديوانه: ص ٣٣٣، وجمهرة اللغة ص ٣٢٧، وخزانة الأدب: ٢/٢٦٦، ٢٦٩،
١٧٦/٧، والدرر: ٣/٣٩، ولسان العرب: (أله)، ١٣/٥٣٩ (لوه)، وجمع الهوامع: ١/١٧٨،
والمقاصد النحوية: ٤/٢٣٨، وشرح المفصل: ١/٣، وأمالى ابن السجري: ٢/١٥، وروح المعاني:
٥٦/١، والبحر المحيط: ١/١٢٥، والتفسير الكبير: ١/١٣٧، والدر: ١/٥٩.

(٢) أحمد بن سهل، أبو زيد البلخي: أحد الكبار الأفاضل من علماء الإسلام، جمع بين الشريعة والفلسفة
والأدب والفنون ولد في إحدى قرى «بلخ» سنة ٢٣٥هـ، وفي فهرست «ابن النديم» قائمة مؤلفاته وهي
كثيرة منها: «أقسام العلوم»، و«شرائع الأديان»، و«كتاب السياسة الكبير»، و«كتاب السياسة
الصغير»، و«نظم القرآن» وينسب إليه كتاب «البدء والتاريخ»، وأكثر أهل التحقيق على أنه لمظهر بن
طاهر المقدسي. ينظر الأعلام: ١/١٣٤، ولسان الميزان: ١/١٨٣.

(٣) سقط في أ.

(٤) ينظر الفخر الرازي: ١/١٣٧.

(٥) في ب: الخليل.

«اللَّهُ» مَخْصُوصٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَذَلِكَ قَوْلُنَا: «الإِلَهِ» مَخْصُوصٌ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَأَمَّا الَّذِينَ كَانُوا يُطْلِقُونَ اسْمَ الإِلَهِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ - تعالى - فَإِنَّمَا كَانُوا يَذْكُرُونَهُ بِالإِضَافَةِ كَمَا يُقَالُ: «إِلَهُ كَذَا»، أَوْ يُنْكِرُونَهُ كَمَا قَالَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنْ قَوْمِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام -: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فصل في خواص لفظ الجلالة

قال ابنُ الحَطِيبِ^(١) - رحمه الله تعالى -: «اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الاسْمَ مَخْصُوصٌ بِخَوَاصِّ لَا تَوْجَدُ فِي سَائِرِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَالأَوَّلَى: أَنَّكَ إِذَا حَذَفْتَ الْآلِفَ مِنْ قَوْلِكَ: «اللَّهُ» بَقِيَ الْبَاقِي عَلَى صُورَةِ «لَّهُ»، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، وَإِنْ حَذَفْتَ مِنْ هَذِهِ الْبَقِيَّةِ اللَّامَ الْأَوَّلَى بَقِيََتِ الْبَقِيَّةُ عَلَى صُورَةِ «لَهُ»؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَكْمُ﴾ [التغابن: ١]، وَإِنْ حَذَفْتَ اللَّامَ الْبَاقِيَةَ كَانَتِ الْبَقِيَّةُ «هُوَ» وَهُوَ - أَيْضاً - يَدُلُّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَالْوَاوُ زَائِدَةٌ؛ بِدَلِيلِ: سُقُوطِهِ فِي التَّثْنِيَةِ وَالْجَمْعِ فَإِنَّكَ تَقُولُ: هُمَا، وَهُمْ، وَلَا تُبْقِي الْوَاوَ فِيهِمَا، فَهَذِهِ الْخَاصِيَّةُ مُوجُودَةٌ فِي لَفْظِ «اللَّهُ» - تعالى - غَيْرُ مُوجُودَةٍ فِي سَائِرِ الْأَسْمَاءِ، وَكَمَا [حَصَلَتْ]^(٢) هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ بِحَسَبِ اللَّفْظِ^(٣) [فَقَدْ حَصَلَتْ - أَيْضاً - بِحَسَبِ الْمَعْنَى]^(٤)، فَإِنَّكَ إِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِالرَّحْمَةِ فَقَدْ وَصَفْتَهُ بِالرَّحْمَةِ، وَمَا وَصَفْتَهُ بِالْقَهْرِ، وَإِذَا دَعَوْتَهُ بِالْعَلِيمِ، فَقَدْ وَصَفْتَهُ بِالْعِلْمِ، وَمَا وَصَفْتَهُ بِالْقُدْرَةِ.

وَأَمَّا إِذَا قُلْتَ: «يَا اللَّهُ»، فَقَدْ وَصَفْتَهُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ الإِلَهَ لَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِجَمِيعِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَثَبِتَ أَنَّ قَوْلُنَا: «اللَّهُ» قَدْ حَصَلَتْ لَهُ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ الَّتِي لَمْ تَحْصُلْ لِسَائِرِ الْأَسْمَاءِ.

الْخَاصِيَّةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كَلِمَةَ الشَّهَادَةِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي بِسَبِيلِهَا يَنْتَقِلُ الْكَافِرُ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ^(٥)، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا هَذَا الْاسْمُ، لَمْ يَخْصُلِ الْإِيمَانُ، فَلَوْ قَالَ الْكَافِرُ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ

(١) ينظر الفخر الرازي: ١٣٧/١ (٢) سقط في أ.

(٣) في أ: المعنى. (٤) سقط في أ.

(٥) اعلم أن الإيمان على خمسة أقسام: إيمان عن تقليد: وهو الإيمان الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل، وإيمان عن علم: وهو الإيمان الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها، وإيمان عن عيان: وهو الإيمان الناشئ عن مراقبة القلب لله، بحيث لا يغيب عنه طرفة عين، وإيمان عن حق: وهو الإيمان الناشئ عن مشاهدة الله بالقلب، وإيمان عن حقيقة: وهو الإيمان الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله، فالتقليد للعوام، والعلم لأصحاب الأدلة، والعيان لأهل المراقبة: ويسمى مقام المراقبة، والحق للعارفين، ويسمى مقام المشاهدة، والحقيقة للواقفين، ويسمى مقام الفناء، لأنهم يفنون عن غير الله =

إِلَّا الرَّحِيمِ، أَوْ إِلَّا الْمَلِكُ، أَوْ إِلَّا الْقُدُّوسُ، لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ.
أَمَّا إِذَا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْكُفْرِ، وَيَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ،
وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ هَذَا الْأَسْمِ بِهَذِهِ الْخَاصِيَةِ الشَّرِيفَةِ.
[وفي هذا نظر]^(١)؛ لَأَنَّا لَا نُسَلِّمُ هَذَا فِي الْأَسْمَاءِ الْمُخْتَصَّةِ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -
مِثْلَ: الْقُدُّوسِ وَالرَّحْمَنِ.

فصل في رسم لفظ الجلالة

كَتَبُوا لَفْظَةَ «اللَّهُ» بِلَامَيْنِ، وَكَتَبُوا لَفْظَةَ «الَّذِي» بِلَامٍ وَاحِدَةٍ، مَعَ اسْتَوَائِهِمَا فِي اللَّفْظِ،
وَفِي أَكْثَرِ الدَّوَرَانِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَفِي لُزُومِ التَّعْرِيفِ؛ وَالْفَرْقُ مِنْ وَجْهِهِ:
الْأَوَّلُ: أَنَّ قَوْلَنَا: «اللَّهُ» اسْمٌ مُغَرَّبٌ مُتَّصِفٌ تَصَرُّفَ الْأَسْمَاءِ، فَأَبَقُوا كِتَابَتَهُ عَلَى
الْأَصْلِ.

أَمَّا قَوْلُنَا «الَّذِي» فَهُوَ مَبْنِيٌّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ نَاقِصٌ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُفِيدُ إِلَّا مَعَ صِلَتِهِ، فَهُوَ
كَبَعْضِ الْكَلِمَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَعْضَ الْكَلِمَةِ يَكُونُ مَبْنِيًّا، فَأَدْخَلُوا فِيهِ التَّقْصَانَ لِهَذَا السَّبَبِ، أَلَّا
تَرَى أَنَّهُمْ كَتَبُوا قَوْلَهُ - تَعَالَى - «الَّذَانِ» بِلَامَيْنِ؛ لِأَنَّ التَّنْبِيَةَ أَخْرَجَتْهُ عَنْ مِثَابَةِ الْحُرُوفِ؛
لِأَنَّ الْحَرْفَ لَا يُتَنَّى.

الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَنَا: «اللَّهُ» لَوْ كُتِبَ بِلَامٍ وَاحِدَةٍ لَاتَّبَسَ بِقَوْلِهِ: «إِلَه»، وَهَذَا الِاتِّبَاسُ غَيْرُ
حَاصِلٍ فِي قَوْلِنَا: «الَّذِي».

الثَّالِثُ: أَنَّ تَفْخِيمَ ذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي اللَّفْظِ وَاجِبٌ، هَكَذَا فِي الْخَطِّ، وَالْحَذْفُ
يُنَافِي التَّفْخِيمَ.

وَأَمَّا قَوْلُنَا: «الَّذِي» فَلَا تَفْخِيمَ لَهُ فِي الْمَعْنَى، فَتَرَكُوا - أَيْضًا - تَفْخِيمَهُ فِي الْخَطِّ.
قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ -: «إِنَّمَا حَذَفُوا الْأَلِفَ قَبْلَ الْهَاءِ مِنْ
قَوْلِنَا: «اللَّهُ» فِي الْخَطِّ؛ لِكِرَاهَةِ اجْتِمَاعِ الْحُرُوفِ [الْمِثَابَةِ فِي الصُّورَةِ]^(٣)، [وَهُوَ مِثْلُ
كِرَاهَتِهِمْ اجْتِمَاعَ الْحُرُوفِ الْمَقَابِلَةِ فِي اللَّفْظِ]^(٤) عِنْدَ الْقِرَاءَةِ».

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ١] صِفَتَانِ مُشْتَقَّتَانِ مِنَ الرَّحْمَةِ.

= ولا يشهدون إلا إياه، وأما حقيقة الحقيقة فهي للمرسلين، وقد متعنا الله من كشفها، فلا سبيل إلى
بيانها. ينظر شرح الجوهرة: ص (٣٠، ٣١).

(١) سقط في أ.

(٢) ينظر الرازي: ٩٤/١.

(٣) في أ: التماثلة في اللفظ.

(٤) سقط في أ.

وقيل: الرحمن لَيْسَ مُشْتَقًّا؛ لأنَّ العربَ لم تَعْرِفْهُ في قولهم: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وأجاب ابنُ العَرَبِيِّ عنه: بَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَهِلُوا الصِّفَةَ دُونَ المَوْصُوفِ؛ ولذلك لم يَقُولُوا: ومن الرحمن؟

وقد تبعوا مَوْصُوفَهُمَا في الأَرْبَعَةِ من العشرة المذكورة.

وذهب ^(١) الأَعْلَمُ الشَّنْتَمَرِيُّ ^(٢) إِلَى أَنَّ «الرحمن» بدلٌ مِنْ اسمِ «اللَّهِ» لا نَعَتْ لَهُ، وذلك مَبْنِيٌّ عَلَى مَذْهِبِهِ مِنْ أَنَّ «الرحمن» عنده علم بالغَلْبَةِ.

واستدلَّ عَلَى ذلك بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ غَيْرُ تَابِعٍ لِمَوْصُوفٍ [كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾] ^(٣) [الرحمن: ١ - ٢] و ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وقد رَدَّ عَلَيْهِ السَّهْلِيُّ بِأَنَّهُ لو كَانَ بَدَلًا لَكَانَ مُبَيَّنًا لِمَا قَبْلَهُ، وما قَبْلَهُ وَهُوَ الْجَلَالَةُ الْكَرِيمَةُ لا تَفْتَقِرُ إِلَى تَبْيِينٍ؛ لِأَنَّهَا أَعْرَفُ الْأَعْلَامِ، أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا: «وَمَا الرَّحْمَنُ» ولم يَقُولُوا: وما اللَّهُ؟

وأما قوله: «جاء غير تابع» فذلك لا يَمْنَعُ كَوْنَهُ صِفَةً؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ المَوْصُوفُ جازَ حَذْفَهُ، وِبَقَاءِ صِفَتِهِ؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ أَلَنَاسٍ وَالذَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ خُتِلَتْ أَلْوَنُهُمْ﴾ [فاطر: ٢٨] أَي: نَوْعٌ مُخْتَلِفٌ [أَلْوَانُهُ] ^(٤)، وكقول الشاعر [في ذلك المعنى] ^(٥): [البسيط]

٣٢ - كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَفْلِقَهَا فَمَا وَهَّاهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعْلُ ^(٦)

أي: كَوَعْلٍ نَاطِحٍ، وَهُوَ كَثِيرٌ.

وَالرَّحْمَةُ لَعَنَةُ: الرِّقَّةُ وَالْإِنْعَاطُفُ، وَمِنْهُ اسْتِقَاقُ الرَّجْمِ، وَهِيَ الْبَطْنُ؛ لِإِنْعِطَافِهَا عَلَى الْجَنِينِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ وَصْفُهُ - تَعَالَى - بِالرَّحْمَةِ مَجَازًا عَنْ إِنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ، كَالْمَلِكِ إِذَا عَطَفَ عَلَى رَعِيَّتِهِ أَصَابَهُمْ خَيْرُهُ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي الْقَاسِمِ الزَّمَخْشَرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -

(١) في أ: وذكر.

(٢) يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي، أبو الحجاج المعروف بالأعلم، ولد في شنتمرية ٤١٠هـ، كف بصره في آخر عمره، من كتبه: شرح ديوان الحماسة، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح ديوان علقمة الفحل. توفي ٤٧٦هـ. ينظر وفیات: ٢/٢٥٣، وإرشاد: ٧/٣٠٧، ومرة الجنان: ٣/١٥٩، ونكت الهميان: ٣١٣، والأعلام: ٨/٢٣٣.

(٣) سقط في أ.

(٤) سقط في أ.

(٥) سقط في أ.

(٦) البيت للأعشى في ديوانه: ص ١١١، وينظر شرح التصريح: ٢/٦٦، والمقاصد النحوية: ٣/٥٢٩، والأغاني: ٩/١٤٩، وأوضح المسالك: ٣/٢١٨، والرد على النحاة: ص ٧٤، وشرح الأشموني: ٢/٣٤١، وشرح شذور الذهب: ص ٥٠١، وشرح ابن عقيل: ص ٤٢١، وشرح الأبيات المشككة الإعراب لأبي علي الفارسي: ٢/٥٥١، والدر: ١/٦٠، ٣٢.

ويكونُ على هذا التقدير صِفَةً فِعْلٍ، لا صِفَةً ذَاتٍ.

وقيل: الرحمة: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِمَنْ [أَرَادَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ] ^(١) ووصفُ بها على هذا القولِ حَقِيقَةٌ، وهي حينئذ صفة ذات، وهذا القول هو الظاهرُ.

وقيل: الرحمة [رِقَّةً] ^(٢) تقتضي الإحسانَ إلى المرحوم، وقد تُسْتَعْمَلُ تارةً في الرِقَّةِ المجرَّدة، وتارةً في الإحسانِ المُجرَّد، وإذا وصف به البارئ - تعالى - فليس يُرادُ به [إِلَّا] ^(٣) الإحسانُ المجرَّد دونَ الرِقَّةِ، وعلى هذا رُوِيَ: «الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ - تعالى - إِنْعامٌ وإِفْضَالٌ، وَمِنَ الْآدَمِيِّينَ رِقَّةٌ وَتَعَطُّفٌ».

وقال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: «هما اسمانِ رَقِيقَانِ أَحَدُهُمَا أَرْقٌ مِنَ الْآخَرِ، أَيُّ أَكْثَرُ رَحْمَةً».

قال الْخَطَّابِيُّ: وهو مُشْكِلٌ؛ لِأَنَّ الرِّقَّةَ لَا مَدْخَلَ لَهَا فِي صِفَاتِهِ.

[وقال الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ] ^(٤): هذا وَهْمٌ مِنَ الرَّائِي؛ لِأَنَّ الرِّقَّةَ لَيْسَتْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ - تعالى - فِي شَيْءٍ ^(٥)، وَإِنَّمَا هُمَا اسْمَانِ رَفِيقَانِ أَحَدُهُمَا أَرْقَى مِنَ الْآخَرِ وَالرَّفَقُ مِنْ صِفَاتِهِ.

قال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ - تعالى - رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفَقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ» ^(٦)؛ وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخِرُ. وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَهُوَ الرَّفِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً.

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في أ.

(٤) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي: مفسر معمر، ولد في ١٧٨هـ، كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى «نيسابور» وأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له، فأقام بها يُعَلِّمُ الناسَ ٦٥ سنة، وكان قبره بها معروفاً. توفي في ٢٨٢هـ. ينظر أهل المئة من المورد، ج: ٢ العدد ص ١٢٢، والعبر: ٥٨/٢، ولسان الميزان: ٣٠٧/٢ والأعلام: ح ٢٥١/٢.

(٥) سقط في أ.

(٦) أخرجه مسلم في الصحيح: (٤/ ٢٠٠٣-٢٠٠٤) كتاب «البر والصلة والآداب» (٤٥) باب «فضل الرفق» حديث رقم (٢٥٩٣/٧٧) عن عائشة - وأبو داود في السنن: حديث رقم (٤٨٠٧) - وأحمد في المسند: (١١٢/١) و (٨٧/٤) - وعبد الرزاق في مصنفه: حديث رقم (٩٢٥١) - وابن حبان في الموارد: حديث رقم (١٩١٤) - والبيهقي في السنن: (١٩٣/١٠) وابن أبي شيبة في المصنف: (٨/ ٣٢٤، ٣٢٥) - والبخاري في التاريخ الكبير: (٣٠٨/١)، (٦١/٦) - ومالك في الموطأ: (٩٧٩) - وابن عدي في الكامل: (٤/ ١٦٠٥) - وذكره المنذري في الترغيب: (٤١٥/٣)، والهيتمي في الزوائد: (٢١/٨، ٢١٦/٣) والهندي في كنز العمال: حديث رقم (٥٣٧٠)، (٥٣٧١)، (١٧٥٠٤) وأخرجه ابن ماجة: (٣٦٨٨)، وأبو نعيم: (٣٠٦/٨)، والبخاري: (٤٠٤/٢) عن أبي هريرة وقال الهيثمي: وفيه عبد الرحمن بن أبي بكر الجذعاني؛ وهو ضعيف.

واختلف أهل العلم في أَنَّ «الرحمنَ الرَّحِيمَ» بالنسبة إلى كَوْنِهِمَا بمعنى واحدٍ، أو مُخْتَلَفَيْنِ؟

فذهب بعضهم: إلى أنهما بمعنى واحدٍ كـ «نَدَمَانِ وَنَدِيمٍ»، ثم اختلف هؤلاء على قولين:

فمنهم مَنْ قال: يُجْمَعُ بينهما؛ تَأْكِيداً.

ومنهم مَنْ قال: لما تسمَّى مُسَيَّلَمَةً - لعنه الله - بـ «الرحمنِ» قال الله تعالى لنفسه: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» فالجمع بين هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لله - تعالى - فقط. وهذا ضَعِيفٌ جداً؛ فَإِنَّ تَسْمِيَتَهُ بذلك غَيْرُ مَعْتَدٍ بها أَلْبَتَةً، وأيضاً: فَإِنَّ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قبل ظُهُورِ أَمْرِ مُسَيَّلَمَةٍ.

ومنهم مَنْ قال: لِكُلِّ وَاحِدٍ فَائِدَةٌ غَيْرُ فَائِدَةِ الْآخَرِ، وجعل ذلك بالنسبة إلى تَغَايُرِ متعلقهما؛ إِذْ يُقَالُ: «رَحْمَانُ الدُّنْيَا، وَرَحِيمُ الْآخِرَةِ»، وَيُزَوَّى ذلك عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم - وذلك لأن رحمته في الدنيا تَعْمُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وفي الآخرة تَخُصُّ الْمُؤْمِنِينَ فقط.

وَيُزَوَّى: «رَحِيمُ الدُّنْيَا، وَرَحْمَانُ الْآخِرَةِ» وفي المغايرة بينهما بهذا القدر وحده نَظَرٌ لَا يَخْفَى.

وذهب بعضهم إلى أنهما مُخْتَلِفَانِ، ثُمَّ اختلف هؤلاء أيضاً:

فمنهم مَنْ قال: الرَّحْمَانُ أبلغ؛ ولذلك لا يُطْلَقُ على غَيْرِ الْبَارِئِ - تَعَالَى -، واختاره الزمخشري، وجعله من بابِ «عُضْبَانٍ» و «سُكْرَانٍ» لِلْمُتَمَلِّئِ عَضْباً وَسُكْرًا؛ ولذلك يُقَالُ: «رَحْمَانُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَرَحِيمُ الْآخِرَةِ فَقَطُّ».

قال الزَّمَخْشَرِيُّ^(١): «فكان القياسُ الترقِي مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى كما يُقَالُ: «شَجَاعٌ بَاسِلٌ» ولا يُقَالُ: «بَاسِلٌ شَجَاعٌ».

ثم أجاب: بأنه أزدَفَ «الرحمان» الذي يتناول جَلَائِلَ النِّعَمِ وَأَصُولَهَا بـ «الرَّحِيمِ»؛ لِيَكُونَ كَالنِّعْمَةِ وَالرِّدْفِ؛ لِيَتَنَاوَلَ [مَا دَقَّ مِنْهَا]^(٢)، ولطف.

ومنهم مَنْ عَكَسَ: فجعل «الرَّحِيمَ» أبلغ، ويؤيده رواية مَنْ قال: «رَحِيمُ الدُّنْيَا، وَرَحْمَانُ الْآخِرَةِ»؛ لأنه في الدنيا يَرْحَمُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وفي الآخرة لَا يَرْحَمُ إِلَّا الْمُؤْمِنَ.

لَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ «الرَّحْمَنَ»^(٣) أبلغ، وأما هذه الرواية فليس فيها دَلِيلٌ، بَلْ هِيَ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ «الرحمان» أبلغ؛ وذلك لِأَنَّ الْقِيَامَةَ فِيهَا الرَّحْمَةُ أَكْثَرُ بِأَضْعَافٍ، وَأَثَرُهَا فِيهَا أَظْهَرُ عَلَى مَا يُزَوَّى: «أَنَّهُ حَبَأُ عِبَادِهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٣) في ب: الرحيم.

(٢) في أ: ما دونهما.

(١) ينظر الكشف: ٨/١.

والظاهر أنَّ جهةَ المُبالغةِ فيهما مُختلفةٌ؛ فمبالغةُ «فَعْلَان» مِنْ حَيْثُ: الامْتِلَاءُ والغَلَبَةُ، ومبالغةُ «فَعِيل» مِنْ حَيْثُ: التكرارُ والوقوعُ بِمَحَالِّ الرحمةِ.

وقال أَبُو عُبَيْدَةَ^(١): «وَبِنَاءُ «فَعْلَان» لَيْسَ كِبَاءً «فَعِيل»؛ فَإِنَّ بِنَاءَ «فَعْلَان» لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مِبَالِغَةِ الْفِعْلِ، نَحْوُ: «رَجُلٌ غَضْبَانٌ» لِلْمُتَمَلِّئِ غَضَبًا، وَ «فَعِيل» يَكُونُ بِمَعْنَى «الْفَاعِلِ»، وَالْمَفْعُولِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: [الطويل]

٣٣ - فَأَمَّا إِذَا عَضَّتْ بِكَ الْحَزْبُ عَضَّةً فَإِنَّكَ مَغْطُوفٌ عَلَيْكَ رَحِيمٌ^(٢)

ف «الرَّحْمَنُ» خَاصُّ الْأِسْمِ، عَامُّ الْفِعْلِ، وَ «الرَّحِيمُ» عَامُّ الْأِسْمِ، خَاصُّ الْفِعْلِ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَتَعَدَّى «فَعْلَان» وَيَتَعَدَّى «فَعِيل».

حكى ابنُ سَيِّدِهِ^(٣): «وَزَيْدٌ حَفِيزٌ عِلْمِكَ وَعِلْمِ غَيْرِكَ».

وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي «الرَّحْمَانِ» لِلْغَلَبَةِ كَهَيِّ فِي «الصَّعِقِ»، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ الْبَارِي - تَعَالَى - عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فَعَادَلَ بِهِ مَا لَا شَرَكَةَ فِيهِ بِخِلَافِ «رَحِيم»، فَإِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ - تَعَالَى - قَالَ فِي [حقه - عليه الصلاة والسلام] -^(٤): ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ فِي [حَق] ^(٥) مُسَيِّمَةِ الْكَذَّابِ^(٦) - لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى: [البسيط]

(١) ينظر مجاز القرآن: ٢١/١.

(٢) البيت لعملس بن عقيل. ينظر الحماسة: ١٥٨/٢، واللسان: (رحم)، والقرطبي: ٧٤/١، والبحر: ١٢٥/١، والدر: ٦١/١.

(٣) علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، أبو الحسن، إمام في اللغة وآدابها، ولد بـ «مرسية» (في شرق الأندلس) سنة ٣٩٨هـ، وانتقل إلى «دانية» فتوفي بها سنة ٤٥٨هـ، كان ضريراً (وكذلك أبوه)، واشتغل بنظم الشعر مدة، وانقطع للأمير أبي الجيش مجاهد العامري، ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف: «المخصص»؛ وهو من أئمن كنوز العربية، و«المحكم والمحيط الأعظم»، و«شرح ما أشكل من شعر المتنبي»، و«الأنيق» في شرح حماسة أبي تمام وغير ذلك. ينظر الأعلام: ٢٦٤/٤، ابن خلكان: ٣٤٢/١، وبغية الملمس: ٤٠٥، وإنباه الرواة: ٢٢٥/٢.

(٤) في أ: حق نبيه عليه السلام.

(٥) سقط في أ.

(٦) أبو ثمامة مسلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي متنبئ، من المعمرين، ولد ونشأ بـ «اليمامة» بوادي حنيفة، في نجد، تلقب في الجاهلية بـ «الرحمن»، وعرف بـ «رحمان اليمامة»، وقد أكثر مسلمة من وضع أسجاع يضاهي بها القرآن، وكان مسلمة ضئيل الجسم، قالوا في وصفه: كان رَوِيْجَلًا، أَصْغَرًا، أَخْيَسَ، وَيُقَالُ: كَانَ اسْمُهُ «مُسْلِمَةً»، وصغره المسلمون تحقيراً له. قتل سنة ١٢هـ في معركة قادها خالد بن الوليد - في عهد أبي بكر الصديق - للقضاء على فتنته. ينظر ابن هشام: ٣/٨٤، والروض الأنف: ٣٤٠/٢، والكامل لابن الأثير: ١٣٧/٢.

٣٤ - وَأَنْتَ غَيْثُ الْوَرَى لَا زِلْتَ رَحْمَانًا^(١)

فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِهِ، لِفَرْطِ تَعْتُهُمْ.

وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا مَعْرِفًا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ أَوْ مُضَافًا، وَلَا يُلْتَفَتُ لِقَوْلِهِ: «لَا زِلْتَ رَحْمَانًا»؛ لَشِدْوَذِهِ.

وَمِنْ غَرِيبٍ مَا نُقِلَ فِيهِ أَنَّهُ مُعَرَّبٌ، لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ الْأَصْلِ، وَأَنَّهُ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، قَالَ ثَعْلَبٌ، وَالْمُبَرَّدُ^(٢)، وَأُنْشِدَ قَوْلُ الْقَائِلِ: [البسيط]

٣٥ - لَنْ تَثْرَكُوا الْمَجْدَ أَوْ تَشْرَوْا عَبَاءَ تَكُمُ بِالْحَزَرِ أَوْ تَجْعَلُوا الْيَنْبُوتَ ضَمْرَانَا
أَوْ تَثْرَكُونَ إِلَى الْقَسِيِّنِ هَجَرَتَكُمُ وَمَسَحَكُمُ صُلْبَهُمْ رَحْمَانٌ قُرْبَانًا^(٣)

قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: إِنَّمَا جَازَ حَذْفُ الْأَلِفِ قَبْلَ الثَّوْنِ مِنْ لَفْظَةِ «الرَّحْمَنِ» فِي الْخَطِّ عَلَى سَبِيلِ التَّخْفِيفِ، وَلَوْ كُتِبَ بِالْأَلِفِ حَسَنٌ، وَلَا يَجُوزُ حَذْفُ الْيَاءِ مِنْ «الرَّحِيمِ»؛ لِأَنَّ حَذْفَ الْأَلِفِ مِنْ «الرَّحْمَنِ» لَا يَخْلُ بِالْكَلِمَةِ، وَلَا يَحْصُلُ فِي الْكَلِمَةِ التَّبَاسُّ، [بِخِلَافِ حَذْفِ الْيَاءِ]^(٤) مِنْ «الرَّحِيمِ».

قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ إِعْرَابَ «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» هُوَ الْجَزُّ؛ لَكُونَهُمَا صِفَتَيْنِ لِلْمَجْرُورِ، إِلَّا أَنَّ الرِّفْعَ وَالنَّصَبَ جَائِزَانِ فِيهِمَا بِحَسَبِ الْحَالِ، أَمَا الرِّفْعُ فَعَلَى تَقْدِيرٍ: «بِسْمِ اللَّهِ هُوَ الرَّحْمَنُ».

وَأَمَّا النَّصَبُ فَعَلَى تَقْدِيرٍ: «بِسْمِ اللَّهِ أَغْنِي الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ».

وَفِي وَصْلِ «الرَّحِيمِ» بِ «الْحَمْدِ» ثَلَاثَةُ أَوْجِهٍ:

الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ: «الرَّحِيمِ» - بِكُسْرِ الْمِيمِ - مَوْضُوعًا بِ «الْحَمْدِ» وَفِي هَذِهِ الْكُسْرَةِ اِحْتِمَالَانِ:

أَحَدُهُمَا: وَهُوَ الْأَصَحُّ: أَنَّهَا حَرَكَةُ إِعْرَابٍ.

وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمِيمَ سُكِّنَتْ عَلَى نِيَةِ الْوَقْفِ، فَلَمَّا وَقَعَ بَعْدَهَا سَاكِنٌ حُرِّكَتْ بِالْكَسْرِ.

(١) عَجَزَ بَيْتٌ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يَمْدَحُ مَسِيلِمَةَ الْكَذَّابِ وَصَدْرَهُ: سَمَوْتَ بِالْمَجْدِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ أَبَا نِظَرَ الْكَشَافِ: ٧/١، رُوحُ الْمَعَانِي: ٥٩/١، وَالدَّرُ الْمَصُونُ ٦٢/١.

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ الثَّمَالِيِّ الْأَزْدِيِّ، أَبُو الْعَبَّاسِ، الْمَعْرُوفُ بِالْمَبْرَدِ: إِمَامُ الْعَرَبِيَّةِ بِبَغْدَادَ فِي زَمَنِهِ. مِنْ كُتُبِهِ «الْكَامِلُ» وَ «الْمَذْكُورُ الْمُؤَنَّثُ» وَ «شَرْحُ لَامِيَةِ الْعَرَبِ» وَ «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ» تُوْفِيَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ ٢٨٦ أَنْظَرَ: بَغْيَةُ الْوَعَاةِ ١١٦، وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٤٩٥/١، الْأَعْلَامُ ١٤٤/٧.

(٣) الْبَيْتَانِ لِحَجَرِ بْنِ يَزِيدَ دِيَوَانَهُ ٤٥٤، اللَّسَانُ «رَحِمَ»، الْقُرْطُبِيُّ: ٧٤/١، الدَّرُ ٦٢/١، وَتَلْبِيتُ رَوَايَاتٍ مُتَعَدَّة.

(٤) فِي أ: بِحَذْفِ حَرْفِهِ.

وَالثَّانِي مِنْ وَجْهِي الْوَصْلِ: سُكُونُ الْمِيمِ وَالْوَقْفُ عَلَيْهَا، وَالْإِبْتِدَاءُ بِقَطْعِ الْأَلِفِ «الْحَمْدُ» رَوَتْ ذَلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ^(١) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

الثَّالِثُ: حَكَى الْكِسَائِيُّ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنَّهَا تَقْرَأُ «الرَّحِيمَ الْحَمْدُ» بِفَتْحِ الْمِيمِ، وَوَصَلَ الْأَلِفَ الْحَمْدَ كَأَنَّهَا سَكَنْتَ الْمِيمَ، وَقَطَعَتِ الْأَلِفَ، ثُمَّ أَجْرَتْ الْوَقْفَ مَجْرَى الْوَصْلِ، فَأَلْقَتْ حَرَكَةَ هَمْزَةِ الْوَصْلِ عَلَى الْمِيمِ السَّاكِنَةِ.

قال ابنُ عَطِيَّةَ^(٢) - رحمه الله تعالى - : «ولم تُرَوْ هذه قراءةٌ عَنْ أَحَدٍ فِيمَا عَلِمْتُ».

ولهذا نَظِيرٌ يَأْتِي تَحْقِيقُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فِي: ﴿اللَّهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

وَيَحْتَمِلُ هَذَا وَجْهًا آخَرَ، وَهُوَ: أَنَّ تَكُونَ الْحَرَكَةُ لِلنَّضْبِ بِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ عَلَى الْقَطْعِ، وَهُوَ أَوَّلَى مِنْ هَذَا التَّكْلُفِ، كَالْقِرَاءَةِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفٍ وَكْرَمٍ وَبِجَلٍّ وَعَظَمٍ وَفَخْمٍ.

فصل في بيان هل البسملة آية من كل سورة أم لا

اختلف العلماء في البسملة هل هي آية من كل سورة أم لا؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ليست بآية من «الفاتحة»، ولا مِنْ غَيْرِهَا، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ - رحمه الله - لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَثْبُتُ بِأَخْبَارِ الْآحَادِ، وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ التَّوَاتُرُ.

قال ابنُ الْعَرَبِيِّ: «وَيَكْفِيكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِيهَا، وَالْقُرْآنُ لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ». وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ [دَالَّةٌ] عَلَى أَنَّ الْبِسْمِلَةَ لَيْسَتْ بِآيَةٍ مِنْ «الفاتحة»، وَلَا مِنْ غَيْرِهَا، إِلَّا فِي «النَّمْلِ»، وَاسْتَدَلَّ بِمَا رَوَى [مسلم رحمه الله] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفٍ وَكْرَمٍ وَمَجْدٍ وَبِجَلٍّ وَعَظَمٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ...»^(٣). الْحَدِيثُ.

(١) هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية: أم سلمة وأم المؤمنين لها ثلثمائة وثمانية وسبعون حديثاً. اتفقا على ثلاثة عشر. وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بمثلها وعنها نافع وابن المسيب وأبو عثمان النهدي وخلق. قال الواقدي: توفيت سنة تسع وخمسين قال الذهبي: هي آخر أمهات المؤمنين وفاة. ينظر ترجمتها في تهذيب التهذيب: (١٢/٤٥٥ رقم ٢٩٠٥)، التقريب: ٦١٧/٢. الثقات: ٤٣٩/٣. أسد الغابة: ٢٨٩/٧. أعلام النساء: ٢٢١/٥. الاستيعاب: ١٩٢٠/٤. تنوير قلوب المسلمين: ٦٤. الدر المنثور: ٥٣١. الإصابة: ١٥٠/٨. الكاشف: ٤٨٣/٣. تجريد أسماء الصحابة: ٣١٠/٢. تهذيب الكمال: ١٦٩٩/٣. الخلاصة: ٣٩٤/٣، ٤٠٥.

(٢) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم - وقيل: عبد الرحمن - ابن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطي، صاحب المحرر الوجيز توفي في خامس عشرين رمضان سنة اثنتين وقيل: إحدى، وقيل ست وأربعين وخمسمائة، البغية ٧٣/٢.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (١/٢٩٦) كتاب الصلاة (٤) باب وجوب قراءة الفاتحة (١١) حديث (٣٨/٣٩٥) وأخرجه الترمذي في السنن (٥/١٨٤ - ١٨٥) كتاب تفسير القرآن (٤٨) باب «ومن سورة فاتحة =

الثاني: أنها آية مِنْ كُلِّ سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك^(١).

الثالث: قال الشافعي - رضي الله تعالى عنه -: هي آية في الفاتحة، وتردّد قوله في غيرها، فمرة قال: هي آية من كل سورة، ومرة قال: ليست بآية إِلَّا مِنْ «الفاتحة» وحدها. ولا خِلافَ بينهم في أنها آية من القرآن في سورة «الثلث».

واحتجّ الشافعي: بما رواه الدارقطني^(٢) عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم - أنه رَبُّ الْعَالَمِينَ، فافرقوا «بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِحْدَى آيَاتِهَا»^(٣). وَحُجَّةُ ابْنِ الْمُبَارَكِ ما رواه مُسْلِمٌ^(٤) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم - قال: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ آفَافُ سُورَةٍ» فقرأ: «بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٥) [الكوثر: ١].

= الكتاب (٢) حديث رقم (٢٩٥٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن - والنسائي في السنن (١٣٦/٢) كتاب الافتتاح باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم رقم (٩٠٩) وابن ماجه في السنن حديث رقم (٣٧٨٤) والبيهقي في السنن (٣٧/٢، ٣٩، ٣٧٥) والحميدي في المسند (٩٧٣) - وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣٠/٢ والمنذري في الترغيب ٣٦٧/٢.

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن: الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. ولد سنة ١١٨ هـ. أفنى عمره في الأسفار، حاجاً ومجاهداً وتاجراً. وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان ومات بـ «هيت» (على الفرات) سنة ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم. له كتاب في «الجهاد» وهو أول من صنف فيه و «الرقائق». ينظر الأعلام: ١١٥/٤، وتذكرة الحفاظ ١٥٣/١، والرسالة المستطرفة ٣٧، وشذرات ٢٩٥/١.

(٢) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن الدارقطني الشافعي، إمام عصره في الحديث وأول من صنف في القراءات وعقد لها أبواباً، ولد بـ «دار القطن» (من أحياء بغداد) سنة ٣٠٦ هـ ورحل إلى مصر، فساعد ابن حنزابة (وزير كافور الإخشيدي) على تأليف مسنده، وعاد إلى بغداد فتوفي بها سنة ٣٨٥ هـ. من تصانيفه: كتاب «السنن» و «العلل الواردة في الأحاديث النبوية» و «المجتبى من السنن المأثورة» و «المؤتلف والمختلف» الجزء الثاني منه وهو الأخير في دار الكتب. ينظر الأعلام: ٤/٣١٤، وفيات الأعيان ١/٣١١، وغاية النهاية ٥٥٨/١، وتاريخ بغداد ١٢/٣٤.

(٣) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٠٧/١) كتاب الصلاة باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والجمهور بها عن أم سلمة وأخرجه أيضاً البيهقي (٣١٢/١) كتاب الصلاة باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم عن أبي هريرة.

(٤) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسين النيسابوري الحافظ أحد الأئمة الأعلام وصاحب الصحيح والطبقات. قال أحمد بن سلمة: رأيت أبا حاتم وأبا زرعة يقدمان مسلماً في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما وقال أبو عبد الله بن الأحمز: توفي لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين، ومولده سنة أربع. ينظر الخلاصة: ٢٤/٣.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح (٣٠٠/٤) كتاب الصلاة (٤) باب حجة من قال البسملة آية من أول كل =

وسياتي بقية الكلام على البَسْمَلَةِ في آخر الكلام على الفاتحة إن شاء الله تعالى .

فصل في بيان أن أسماء الله توقيفية أم اصطلاحية

اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في أن أسماء الله - تعالى - : توقيفية أم اصطلاحية؟

قال بعضهم : لا يجوز إطلاق شيء من الأسماء والصفات على الله - تعالى - إلا إذا كان وارداً في القرآن والأحاديث الصحيحة .

وقال آخرون : كل لفظ على معنى يليق بجلال الله وصفاته، فهو جائز؛ وإلا فلا .

وقال العزالي رحمه الله تعالى : «الاسم غير، والصفة غير، فاسمي محمد، واسمك أبو بكر، فهذا من باب الأسماء، وأما الصفات، فمثل وصف هذا الإنسان بكونه طويلاً فقيهاً، وكذا، وإذا عرفت هذا الفرق فيقال : أما إطلاق الاسم على الله، فلا يجوز إلا عند وروده في القرآن والخبر، أما الصفات فإنه لا تتوقف على التوقيف» .

واحتج الأولون بأن قالوا : إن العالم له أسماء كثيرة، ثم إنا نصف الله بكونه عالماً، ولا نصفه بكونه طيباً ولا فقيهاً، ولا نصفه بكونه متيقناً، ولا بكونه متيناً، وذلك يدل على أنه لا بد من التوقيف .

وأجيب عنه فقيل : أما الطيب فقد ورد؛ نفل أن أبا بكر - رضي الله عنه - لما مرض قيل له : نحضر الطيب؟ فقال : الطيب أمرضني .

وأما الفقيه فهو أن الفقه : عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه بعد دخول الشبهة فيه . وهذا ممتنع الثبوت في حق الله تعالى .

وأما المتيقن : هو العليم الذي حصل بسبب تعاقب الأمارات الكثيرة، وترادفها، حتى بلغ المجموع إلى إفادة الجزم، وذلك في حق الله - تعالى - محال .

[وأما التبين : فهو عبارة عن الظهور بعد الخفاء]^(١) .

وإنما قلنا : إن التبين عبارة عن الظهور بعد الخفاء، وذلك لأن التبين مشتق من البيئونة وهي : عبارة عن التفريق بين أمرين متصلين، فإذا حصل في القلب اشتباه صورة بصورة، ثم انفصلت إحداهما عن الأخرى، فقد حصلت البيئونة، فلهذا السبب سمي ذلك بياناً وتبيناً، ومعلوم أن ذلك في حق الله - تعالى - محال .

واحتج القائلون بأنه : لا حاجة إلى التوقيف بوجوه :

= سورة سوى براءة (١٤) حديث رقم (٤٠٠/٥٣) - وأبو داود في السنن حديث رقم (٧٨٤) وذكره ابن كثير في التفسير ٥١٩/٨ - والهندي في كنز العمال حديث رقم ٣٩١٢٧ .

الأول: أَنْ أَسْمَاءَ اللَّهِ - تعالى - وصفاته مذكورة بالفارسية، وبالتركية، وبالهندية، وإنَّ شَيْئاً منها لَمْ يَرِدْ في القرآن الكريم، ولا في الأخبار، مع أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعُوا عَلَى جَوَازِ إِطْلَاقِهَا.

الثاني: أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والاسم لا يحسن إلا لدلالته على صفات المدح، ونُعُوتِ الجلال، وكلُّ اسم دَلَّ على هذه المعاني كان اسماً حسناً، فوجب جواز إطلاقه في حق الله - تعالى - تَمَسُّكاً بهذه الآية الكريمة.

الثالث: أنه لا فائدة في الألفاظ إلا رعاية المعاني، فإذا كانت المعاني صحيحة كان المنع مِنَ اللَّفْظِ الْمُفِيدِ [إطلاق اللفظة المعينة] ^(١) عبثاً.

وأما الذي قاله العزالي - رحمه الله تعالى - فحجته: أَنَّ وَضَعَ الاسم في حق الواحد مِمَّا يُعَدُّ سُوءَ آدَبٍ؛ ففِي حَقِّ اللَّهِ - تعالى - أَوْلَى.

أما ذِكْرُ الصِّفَاتِ بِالْأَلْفَافِ الْمُخْتَلِفَةِ، فهو جائز في حَقِّنا مِنْ غَيْرِ مَنعٍ، فكذلك في حَقِّ الْبَارِي تَعَالَى.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ صِفَاتٍ لَا تُثَبِّتُ فِي حَقِّ اللَّهِ

اعلم أنه قد ورد في القرآن ألفاظ دالة على صفات لا يمكن إثباتها في حق الله تعالى، ونحن نَعُدُّ منها صوراً:

فإحداها: الاستهزاء؛ قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ثم إن الاستهزاء جهل؛ لقول موسى - عليه الصلاة والسلام - حِينَ قَالُوا: ﴿أَلَنَتَّخِذُنَا هُرُودًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وثانيها: المكر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وثالثها: الغضب؛ قال الله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤].

ورابعها: التعجب؛ قال الله تعالى: ﴿بِكُلِّ عَجَبَةٍ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفافات: ١٢].

فمن قرأ ^(٢): «عَجِبْتُ» بضم التاء كان التعجب منسوباً إلى الله - تعالى - والتعجب: عبارة عن حالة تعرض في القلب عند الجهل بسبب الشيء المتعجب منه.

وخامسها: التكبر؛ قال الله تعالى: ﴿الْمُزَيِّرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]. وهو صِفَةُ ذَمٍّ.

وسادسها: الحياء؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة:

(٢) ستأتي في سورة الصفافات

(١) سقط في أ.

[٢٦] وَالْحَيَاءُ: عبارة عن تَغْيِيرِ يحصلُ في القلبِ وَالْوَجْهَ عندِ فِعْلٍ شَيْءٍ قَبِيحٍ.

واعلم أَنَّ الْقَانُونََ الصَّحِيحَ في هذه الألفاظ أَن نقولَ: لكلِّ واحدٍ من هذه الأحوالِ أُمُورٌ تَوجَدُ معها في البداية، وآثَارٌ تَصْدُرُ عنها في النِّهَايَةِ - [أيضاً]^(١) - .

مثاله: أَنَّ الْغَضَبَ: حالةٌ تحصلُ في القلبِ عند غَلْيَانِ دَمِ الْقَلْبِ وَسُخُونَةِ الْمِرْزَاجِ، والآثُرُ الْحَاصِلُ منها في النِّهَايَةِ إيصالُ الضَّرَرِ إلى المَغْضُوبِ عليه، فإذا سمعتَ الغَضَبَ في حَقِّ اللَّهِ - تعالى -، فاحمله على نِهَايَاتِ الأعْراضِ، [لا على بَدَايَاتِ الأعْراضِ]^(٢)، وقس الباقي عَلَيْهِ.

فَضْلٌ فِي عَدَدِ أَسْمَاءِ اللَّهِ

قال ابنُ الْخَطِيبِ^(٣) - رحمه الله - : «رَأَيْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ - تعالى - أَرْبَعَةُ آلَافٍ اسْمٌ: أَلْفٌ مِنْهَا فِي الْقُرْآنِ، وَالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَأَلْفٌ فِي التَّوْرَةِ، وَأَلْفٌ فِي الْإِنْجِيلِ، وَأَلْفٌ فِي الزَّبُورِ، وَيُقَالُ: أَلْفٌ آخَرُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلَمْ يَصِلْ ذَلِكَ الْأَلْفُ إِلَى عَالِمِ الْبَشَرِ».

فَضْلٌ فِي فَضْلِ الْبِسْمَلَةِ

رُويَ أَنَّ نُوحاً - عليه الصلاة والسلام - لما ركب السَّفِينَةَ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِيهَا وَتُرْسِنُهَا﴾ [هود: ٤١] وَجَدَ النِّجَاةَ بِنِصْفِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَمَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ طَوَّلَ عُمُرِهِ كَيْفَ يَبْقَى مُحْرَوماً مِنَ النِّجَاةِ؟

وأيضاً أَنَّ سُلَيْمَانَ - عليه الصلاة والسلام - مَلَكَهُ اللَّهُ - تعالى - الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فَالْمَرْجُو أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَه، فَإِنَّهُ يَمْلِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

فإن قيل: لِمَ قَدَّمَ سُلَيْمَانُ - عليه السلام - اسْمَ نَفْسِهِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ - تعالى - في قوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّكُمْ﴾ فالجوابُ مِنْ وَجْهِ:

الأول: أَنَّ «بَلْقَيْسَ» لما وجدت ذلك الكتابَ مَوْضُوعاً عَلَى وَسَادَتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا طَرِيقٌ، وَرَأَتْ الْهُدْهَدَ واقفاً عَلَى طَرَفِ الْجِدَارِ، عَلِمَتْ أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ سُلَيْمَانَ، فَأَخَذَتْ الْكِتَابَ، وَقَالَتْ: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، فَلَمَّا فَتَحَتْ الْكِتَابَ رَأَتْ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، [قَالَتْ: ﴿وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾]^(٤).

فقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ مِنْ كَلَامِ «بَلْقَيْسَ»، لَا مِنْ كَلَامِ «سُلَيْمَانَ».

(١) سقط في ب

(٣) ينظر الرازي: ١/ ١٣٠.

(٢) سقط في أ.

(٤) سقط في أ.

الثاني: لعلَّ سُلَيْمَانَ كتب على عُثْوَانَ الكتاب: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، وفي داخل الكتاب ابتداءً بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كما هو العادة في جميع الكُتُب، فلما أخذت بلقيس ذلك الكتاب، وقرأت ما في عنوانه، قالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ [فلما]^(١) فتحت الكتاب، قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقالت: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الثالث: أن بلقيس كانت كافرة، فخاف سليمان - عليه السلام - أن «بسم الله» إذا نظرته في الكتاب شتمته، فقدم اسم نفسه على اسم الله تعالى؛ ليكون الشتم له، لا لله تعالى.

فَصْلٌ

الباء من «بسم الله» مشتق من البر، فهو البارُّ على المؤمنين بأنواع الكرامات في الدنيا والآخرة، وأجلُّ بره وكرامته أن يكرمهم يوم القيامة برؤيته.

مرض لبغضهم جَارَ يَهُودِيٍّ قَالَ: فدخلت [عليه]^(١) للعيادة وقلت [له]^(٢) أَسْلِمَ، فقال: على ماذا؟ قلتُ: مِنْ خَوْفِ النَّارِ، قال: لا أُبَالِي بِهَا، فقلتُ: لِلْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، فقال: لا أُرِيدُهَا، قلتُ: فَمَاذَا تُرِيدُ؟ قال: على أَنْ يُرَيَّنِي وَجْهَهُ الْكَرِيمَ، فقلتُ: أَسْلِمَ على أَنْ تجدَ هذا المطلوبَ، فقال لي: اكْتُبْ بهذا خَطًّا، فكتبتُ له بذلك خطًّا، فأسلم ومات من ساعته فصلينا عليه ودَفَنَاهُ، فرأيتُهُ في النوم فقلتُ له: يَا سَمْعُونُ، [ما فعل بك رَبُّكَ]^(٣) قال: غَفَرَ لي، وقال لي: أَسْلَمْتَ شَوْقًا إِلَيَّ.

وأما السَّيْنُ فهو مُشْتَقٌّ مِنْ اسْمِهِ السَّمِيعِ، يَسْمَعُ دَعَاءَ الْخَلْقِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى.

رُويَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ^(٣) - رضي الله تعالى عنه - خرج مع مُنَافِقٍ مِنْ «مَكَّة»^(٤) إلى «الطَّائِفِ»^(٥)، فبلغا خَزْبَةَ، فقال المنافقُ: ندخلُها هنا ونُسْتَرْبِحُ، فَدَخَلَا وَنَامَ زَيْدٌ، فَأَوْتَقَ

(١) سقط في ط.

(٢) في أ: ما فعل الله بك.

(٣) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي اليماني، حبَّ رسول الله - ﷺ - ومولاه، كان ممن بادر فأسلم من أول يوم وشهد بدرًا، وقتل بمؤنة أميراً سنة ثمان. قالت عائشة: لو كان حيًّا لاستخلفه رسول الله ﷺ. ينظر خلاصة تهذيب الكمال: ٣٥٠/١.

(٤) علم على جميع البلدة، وهي البلدة المعروفة المعظمة المحجوجة، غير مصروفة، للعلمية والتأنيث، وقد سَمَّاهَا الله - تعالى - في القرآن أربعة أسماء: مكة، والبلدة، والقرية وأُمُّ الْقُرَى. قال ابن سيده: سميت مكة؛ لقلة مائها، وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها، أي: يستخرجونه، وقيل: لأنها كانت تُمَكُّ من ظلم فيها، أي: تهلكه.

وأما بَكَّةُ، بالباء، ففيها أربعة أقوال: أحدها: أنها اسم لبقعة البيت. والثاني: أنها ما حول البيت، ومكة ما وراء ذلك. والثالث: أنها اسم للمسجد والبيت، ومكة للحرم كله. والرابع: أن مكة هي بَكَّةُ؛ قاله الضحاك. واحتج بأن الباء والميم يتعاقبان؛ يقال: سَمَدَ رأسه، وَسَبَدَهُ، وضربة لازم ولازب. ينظر المطالع: ص ١٨٦، ١٨٧.

(٥) بعد الألف همزة مكسورة، ثم فاء: كانت تسمى قديماً «وَجْ»، وُسِّمَتِ الطائف؛ لما أطياف عليها =

المنافقُ زيداً، وأراد قَتْلَهُ، فقال زيدٌ: لِمَ تقتلني؟ قال: لأَنَّ محمداً يحبك، وأنا أُبْغِضُهُ، فقال زَيْدٌ: يا رَحْمَنُ اغْنِنِي، فسمع المنافقُ صوتاً يقول: وَيَحَاكَ لَا تَقْتُلْهُ، فخرج من الحَرَبَةِ، ونظر فلم يَرِ أحداً، وأراد قتله فسمع هاتِفاً أقرب من الأول يقول: لَا تَقْتُلْهُ، فخرج فلم ير شيئاً، فرجع لِيَقْتُلْهُ، فسمع صائِحاً أقرب من الأول [يقول]: لَا تَقْتُلْهُ، فخرج فرأى فارساً معه رمح، فضربه الفارسُ ضَرْبَةً فقتله، ودخل الحَرَبَةَ، فحل وثاق زيد - رضي الله عنه - وقال له: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فقال: لَا؛ فقال: أَنَا جَبْرِيلُ حين دَعَوْتَ كُنْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فقال الله تعالى: أَذْرَكَ عَبْدِي، وفي الثانية كُنْتُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وفي الثالثة بَلَغْتُ إِلَى الْمَنَافِقِ.

وأما الميمُ فمعناه: أَنَّ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى مَلَكُهُ وَمُلْكُهُ.

قال السَّدي^(١) رحمه الله تعالى: أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ خَرَجْتَ بِالنَّاسِ إِلَى الْإِسْتِسْقَاءِ، فخرجوا فإذا سليمان - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِنَمْلَةٍ قَائِمَةٍ عَلَى رَجْلَيْهَا بِاسِطَةٍ يَدَيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ، وَلَا غَنَى لَنَا^(٢) عَنْ فَضْلِكَ، قَالَ: فَصَبَّ اللَّهُ - تعالى - عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ، فقال: قَدْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ بِدَعَاءٍ غَيْرِكُمْ.

قال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ رَفَعَ قَرْطَاساً مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» إِجْلَالاً لِلَّهِ - تعالى - كَتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٣) وَخَفَّفَ عَنْ وَالدِيهِ، وَلَوْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ».

= الحائط؛ وهي ناحية ذات نخيل وأعناب ومزارع وأودية، وهي على ظهر «جبل غُزوان»، وبها عقبة مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة، يمشي فيها ثلاثة أجمال بأحمالها ينظر مراصد الاطلاع: ٨٧٧/٢.

(١) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي: تابعي حجازي الأصل، سكن الكوفة قال فيه ابن تغري بردي: «صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس» توفي في ١٢٨ هـ. ينظر النجوم الزاهرة: ٣٠٨/١، اللباب: ٥٣٧/١، الأعلام: ٣١٧/١، التاريخ الكبير: ٣٦١/١، وأخبار أصبهان: ٢٠٤/١ - ٢٠٦.

(٢) في أ: لي.

(٣) رواه الدارقطني في «الأفراد» عن أبي هريرة رفعه، ولأبي الشيخ عن أنس رفعه: «من رفع قرطاساً من الأرض فيه بسم الله إجلالاً كتب من الصديقين». ومثله في الحكم كل اسم معظم. وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان: ٨٤/٢، والخطيب في التاريخ: ٢٤١/١٢، والسهامي في تاريخ جرجان (٤٤٠) وأورده ابن الجوزي في العلل ٨١/١ وابن الشجري في الأمالي ٨٧/١، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ١١ والشوكاني في فوائده (٢٧٧) وابن عراق في تنزيه الشريعة ٢٦٠/١ وقال ورواه ابن عدي من حديث أنس وفيه أبان وأبو حفص العبدى، وتعقب بأنه جاء أيضاً من حديث أبي هريرة أخرجه الدارقطني في «الأفراد»، ومن حديث علي أخرجه ابن الجوزي في «الواحيات» وقال: في سند كل منهما من كذب فلا يصلحان شاهداً، والله أعلم، وبأن للجملة الأخيرة منه طريقاً أخرى عن أنس عند الديلمي في مسند الفردوس. ولها شاهد قوي عند البيهقي في الشعب عن علي موقوفاً بلفظ: «تنوق رجل في بسم الله الرحمن الرحيم فغفر له»، وله حكم الرفع.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا تَوَضَّأْتَ فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَإِنْ حَفَظْتَكَ لَا تَسْتَرِيحُ تَكْتُبُ لَكَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى تَفْرَغَ، وَإِذَا غَشِيَتْ أَهْلَكَ، فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنْ حَفَظْتَكَ يَكْتُبُونَ لَكَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى تَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، فَإِنْ حَصَلَ مِنْ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ وَلَدٌ، كُتِبَ لَكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ نَفْسُ ذَلِكَ الْوَلَدِ، وَبَعْدَ أَنْفَاسِ أَغْقَابِهِ إِنْ كَانَ لَهُ عَقِبٌ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا رَكِبْتَ دَابَّةً، فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَكْتُبُ لَكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ بَعْدَ كُلِّ خُطْوَةٍ، فَإِذَا رَكِبْتَ السَّفِينَةَ فَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَكْتُبُ لَكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهَا»^(١).

وعن أنس^(٢) - رضي الله تعالى عنه - أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم قال: «سَتَرُ مَا بَيْنَ أَغْيُنِ الْجَنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ، إِذَا نَزَعُوا ثِيَابَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(٣).

كتب قَيْصَرُ إِلَى عُمَرَ - رضي الله تعالى عنه - أَنَّ بِي ضِدَاعًا لَا يَسْكُنُ، فَأَبْعَثَ لِي دَوَاءً، فَبَعَثَ إِلَيْهِ عُمَرُ قَلْنُسُوَّةً، فَكَانَ إِذَا وَضَعَهَا عَلَى رَأْسِهِ سَكَنَ ضِدَاعُهُ، وَإِذَا رَفَعَهَا عَنْ رَأْسِهِ عَادَ الضِدَاعُ، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ فَفَتَشَّ عَلَى الْقَلْنُسُوَّةِ، فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» [قال عليه السَّلاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ تَوَضَّأَ وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ طَهُورًا لَتِلْكَ الْأَعْضَاءِ، وَمَنْ تَوَضَّأَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ طَهُورًا لَجَمِيعِ بَدَنِهِ»^(٤)-(٥)].

(١) الحديث أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٣٤٠/٢) وعزاه لأبي الحسين بن المهتدي بالله في «فوائده» وقال: وفيه حماد بن عمرو ومجاهيل والحديث ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٩/٤٥٣) رقم (٢٦٩٣١) وعزاه للطبراني في «الأوسط».

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري البخاري خدام النبي ﷺ عشر سنين وذكر ابن سعد أنه شهد بدرًا، له ألف ومائتا حديث وستة وثمانون حديثًا، روى عن طائفة من الصحابة وعنه بنوه موسى والنضر وأبو بكر والحسن البصري وثابت البناني وسليمان التيمي وخلق لا يحصون، مات سنة تسعين أو بعدها وقد جاوز المائة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة رضي الله عنهم. ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٢٢/١، تهذيب التهذيب: ٣٧٦/١، تقريب التهذيب: ٨٤/١، خلاصة تهذيب الكمال: ١٠٥/١، أسماء الصحابة الرواة ٣، تاريخ البخاري الكبير ٢٧/٢، تاريخ البخاري الصغير: ٢٤٥، الجرح التعديل: ١٠٣٦/٢، الثقات ٤/٣، تجريد أسماء الصحابة ٣١/١، أسد الغاية ١٥٧/١، الإصابة ١٢٦/١، ٨٤، شذرات الذهب: ١٠٠/١ معجم طبقات الحفاظ: ٦٦، الوافي بالوفيات: ٤١١/٩، الاستيعاب: ١٠٩/١..

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٥٠٣/٢ - ٥٠٤) كتاب الصلاة (٢) باب ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء (٢٦) حديث رقم (٦٠٦) وابن ماجه في السنن (١٠٩) كتاب الطهارة (١) باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء (٩) حديث رقم (٢٩٧) واللفظ للترمذي وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بذلك القوي.

(٤) أخرجه الدارقطني ٧٥/١ باب «التسمية على الوضوء» رقم (١٣) عن ابن عمر مرفوعاً.

(٥) سقط في ب.

وطلبَ بعضُهم آيةً من خالدِ بن الوليدِ فقال: إنك تدعي الإسلام، فأرنا آيةً لنُسلمَ؛ فقال: جيئوني بالسِّمِّ القاتِل، فأتيَ بطَّاس من السِّمِّ، فأخذها بيده وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وأكلَ الكلَّ، وقام سالماً بإذن الله - تعالى - فقال المجوسي: هذا دين حق.

مرَّ عيسى - عليه الصلاة والسلام - على قَبْرِ، فرأى ملائكةَ العَذَابِ يُعَذِّبُونَ مِيتاً، فلما انصرف من حاجته مرَّ على القبر، فرأى ملائكةَ الرَّحمةِ معهم أطباقٌ مِن نُورٍ، فتعجَّب من ذلك، فصلى ودعا الله، فأوحى الله - تعالى - إليه: يَا عِيسَى، كان [هذا] ^(١) العبدُ عاصياً، ومُذْمَومَات كان مَحْبُوساً في عَذَابِي، وكان قد ترك امرأةً حُبْلَى فولدت وَلِداً، وربَّته حتَّى كبرَ، فسلمتهُ إلى الكُتَّابِ، فلَقَّنَهُ المعلمُ «بسم الله الرحمن الرحيم»، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْ عَبْدِي أَنْ أَعَذِّبَهُ بِنَارِي فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وولده يذكرُ اسمي على [وجهه] ^(٢) الأرضِ.

وأسرارُ «بسم الله الرحمن الرحيم» أكثرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وهذا القدر كافٍ والله أعلم.

[سورة فاتحة الكتاب] ^(٣)

وهي مَكِّيَّة في قول الأكثرين، وهي سَبْعُ آيَاتٍ، وَتِسْعٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، ومائةٌ واثنانِ وَأَرْبَعُونَ حَرْفاً.

عن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم -: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، سَبْعُ آيَاتٍ، إِحْدَاهُنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ» ^(٤).

قال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ^(٥) - كرم الله وجهه -: «نزلت فاتحة الكتاب بـ «مكة» من [كنز] تحت العرش» ^(٦).

(١) سقط في أ. (٢) في أ: ظهر.

(٣) سقط في ب.

(٤) أخرجه البيهقي (٤٥/٢) والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠/١) وعزاه للدارقطني.

(٥) علي بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي أبو الحسن ابن عم النبي ﷺ وَحَتَنَهُ عَلَى بَنْتِهِ، أمير المؤمنين، يكنى أباہ ثراب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً له خمسمائة حديث وستة وثمانون حديثاً. شهد بدرًا والمشاهد كلها. قال أبو جعفر: كان شديد الأذمة ربيعة إلى القصر، وهو أول من أسلم من الصبيان جمعاً بين الأقوال. قال له النبي ﷺ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وفضائله كثيرة. استشهد ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت أو خلت من رمضان سنة أربعين، وهو حينئذ أفضل من على وجه الأرض. ينظر الخلاصة: ٢٥٠/٢، وطبقات ابن سعد: ٣٣٧/٢، ١٩/٣، ١٢/٦، وغاية النهاية: ٥٤٦، والتقريب: ٣٩/٢، وشذرات الذهب: ٩/١، وتهذيب الكمال: ٤٧٢/٢.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩/١) وعزاه للواحدي في أسباب النزول والثعلبي في «تفسيره».

وقال مُجَاهِدٌ^(١) - رضي الله عنه - «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ أَنْزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ»^(٢).

قال الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: «لِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَةٌ» وهذه نَادِرَةٌ مِنْ مُجَاهِدٍ؛ لأنه تَقَرَّدَ بها، والعلماء على خلافه.

وقد صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم أنها أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وأنها السَّبْعُ الْمَثَانِي، [وسورة الحجر مكية] بلا خلاف، ولا يمكن القول بأن النبي ﷺ كان بـ «مكة» بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بِلَا فَاتِحَةِ الْكِتَابِ.

قال بَعْضُهُمْ: ويمكن الجمعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بأنها نزلت مَرَّتَيْنِ: مرةً بـ «مكة»، ومرةً بـ «المدينة».

ولها أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ، وكثرةُ الأَسْمَاءِ تدلُّ على شَرَفِ الْمُسَمَّى:

فالأول: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ» سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأنه يَفْتَحُ بها في الْمَصَاحِفِ وَالتَّغْلِيمِ، والقراءة في الصلاة. وقيل: لأنها أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

الثاني: سورة الْحَمْدِ؛ لأنَّ أَوَّلَهَا لَفْظُ الْحَمْدِ.

الثالث: «أُمُّ الْقُرْآنِ» قيل: لأنَّ أُمَّ الشَّيْءِ أَصْلُهُ، ويقال لمكة: أُمُّ الْقُرَى، لأنها أَصْلُ الْبِلَادِ، دُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهَا.

وقال الثَّغَلْبِيُّ^(٣): سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ بْنَ حَبِيبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْقِفَالِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ دُرَيْدٍ^(٤) يَقُولُ: «الْأُمُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الرَّايَةُ الَّتِي يَنْصِبُهَا الْعَسْكَرُ».

(١) مجاهد بن جبر بإسكان الموحدة، مولى السائب بن أبي السائب أبو الحجاج المكي المقرئ، الإمام، المفسر، روى عن ابن عباس وقرأ عليه قال مجاهد: عرضت على ابن عباس ثلاثين مرة. روى عن الصحابة. وثقة ابن معين وأبو زرعة. ولد سنة ٢١هـ، وتوفي بمكة وهو ساجد سنة ١٠٢هـ وقيل غير ذلك ينظر الخلاصة: ٣/ ١٠ (٦٨٥٤)، وصفة الصفوة: ٢/ ٢٠٨ - ٢١١، وميزان الاعتدال: ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (٢٠/ ١) لوكيع والفريابي في تفسيرهما، وأبي عبيد في «فضائل القرآن»، وعبد بن حميد وابن المنذر في «تفسيره»، وابن الأنباري في «المصاحف»، وأبي الشيخ في «العظمة»، وأبي نعيم في «الحلية» من طرق عن مجاهد.

(٣) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، مفسر، من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ من كتبه عرائس المجالس، الكشف والبيان في تفسير القرآن توفي ٤٢٧هـ.

ينظر ابن خلكان: ٢٢/ ١، إنباه الرواة: ١/ ١١٩، البداية والنهاية: ١٢/ ٤٠، آداب اللغة: ٢/ ٣٢١، الأعلام: ١/ ٢١٢.

(٤) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبو بكر من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء ولد في البصرة في ٢٢٣هـ. من كتبه الاشتقاق، الجمهرة، المجتبى، الأمالي، اللغات، الوشاح وغيرها توفي ٣٢١هـ.

ينظر إرشاد الأريب: ٦/ ٤٨٣، وفيات الأعيان: ١/ ٤٩٧، المرزباني: ٤٦١، نزهة الألبا: ٣٢٢، الأعلام: ٦/ ٨٠.

قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ^(١): [الوافر]

٣٦ - نَصَبْنَا أَمْنَا حَتَّى أَزْعَرُّوْا وَصَارُوا بَعْدَ أَلْفَتِهِمْ شِلَالًا

فُسِّمَتْ هذه السورة بأم القرآن؛ لأن مَفْرَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ إلى هذه السورة، كما أن مَفْرَعَ الْعُسْكَرِ إلى الراية. والعرب تسمي الأرض أمًا، لأن معادَ الخلق إليها في حَيَاتِهِمْ وَمَمَاتِهِمْ، ولأنه يُقَالُ: أُمُّ فُلَانٍ فُلَانًا إِذَا قَصَدَهُ.

والرابع: السبع المثنائي، سُمِّيتَ بذلك؛ قِيلَ: لَأَنَّهَا مَثْنَى نِصْفُهَا ثَنَاءُ الْعَبْدِ لِلرَّبِّ، وَنِصْفُهَا عَطَاءُ الرَّبِّ لِلْعَبْدِ.

وقيل: لأنها تُثْنَى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وقيل: لأنها مُسْتَثْنَاةٌ من سائر الكُتُبِ، قال عليه الصلاة والسلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ^(٢) مِثْلُ هَذِهِ السُّورَةِ، فَإِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ».

وقيل: لأنها سَبْعُ آيَاتٍ، كُلُّ آيَةٍ تَعْدِلُ قِرَاءَتُهَا بِسَبْعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ - تعالى - ثَوَابَ مَنْ قَرَأَ كُلَّ الْقُرْآنِ.

وقيل: لأنها نزلت مَرَّتَيْنِ: مرةً بـ «مكة» ومرةً بـ «المدينة».

وقيل: لأن آيَاتَهَا سَبْعٌ، وَأَبْوَابُ النِّيرَانِ سَبْعَةٌ، فَمَنْ قَرَأَهَا غُلِّقَتْ عَنْهُ [أَبْوَابُ النِّيرَانِ السَّبْعَةُ].

والدليل عليه ما رُوِيَ أَنَّ جَبْرِيلَ - عليه الصلاة والسلام - قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم -: «يَا مُحَمَّدُ، كُنْتُ أَخْشَى الْعَذَابَ عَلَى أَمْتِكَ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْفَاتِحَةُ أَمِنْتُ، قَالَ: لِمَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ - تعالى - قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤]، وَإِيَّانَهَا سَبْعٌ، فَمَنْ قَرَأَهَا صَارَتْ كُلُّ آيَةٍ طَبَقًا عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، فَتَمَرُّ أَمْتُكَ عَلَيْهَا سَالِمِينَ».

وقيل: لأنها إِذَا قُرِئَتْ فِي الصَّلَاةِ تُثْنَى بِسُورَةِ أُخْرَى.

وقيل: سُمِّيتَ مَثَانِي؛ لأنها أَثْنِيَّةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَائِحُ لَهُ.

(١) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد: شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهم وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة «بعث» التي كانت بين الأوس والخزرج، قبل الهجرة، أشعار كثيرة. أدرك الإسلام وترث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه نحو ٢٠ ق هـ. شعره جيد، وفي الأدباء من يفضلوه على شعر حسان. له «ديوان». ينظر: الأعلام: ٥/ ٢٠٥، الأغاني: ١٥٤/٢، والإصابة: ت ٧٣٥٠.

(٢) في أ: القرآن.

الخامس: «الوافية» كان سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ^(١) - رضي الله عنه - يُسَمِّيَهَا بهذا الاسم.

وقال الثَّعْلَبِيُّ: وتفسيرها أنها لا تقبل التَّنْصِيفَ، أَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَوْ قُرِئَ نِصْفُهَا فِي رَكْعَةٍ، والنصف الثاني في ركعة أخرى لجاز؟ وهذا التَّنْصِيفُ غَيْرُ جَائِزٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

السادس: «الوافية» سُمِّيَتْ بذلك؛ قِيلَ: لَأَنَ الْمَقْصُودَ مِنْ كُلِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَقْدِيرُ أُمُورٍ أَرْبَعَةٍ: الْإِلَهِيَّاتِ، وَالْمَعَادِ، وَالتُّبُوتِ، وَإِثْبَاتِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لِلَّهِ - تَعَالَى - فَقَوْلُهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٣] يَدُلُّ عَلَى الْإِلَهِيَّاتِ.

وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يَدُلُّ عَلَى الْمَعَادِ.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْجَبْرِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى إِثْبَاتِ أَنَّ الْكُلَّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ.

وقوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إِلَى آخِرِهَا يَدُلُّ - أَيْضاً - عَلَى إِثْبَاتِ قَضَاءِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَقَدْرِهِ.

وعلى التُّبُوتِ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السابع: «الكافية» لأنها تَكْفِي عَنْ غَيْرِهَا، وَغَيْرُهَا لَا يَكْفِي عَنْهَا، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ^(٢)، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ^(٣) - رضي الله تعالى عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمر الهلالي مولاهم أبو محمد الأعور الكوفي أحد أئمة الإسلام. عن عمرو بن دينار والزهري، وزيد بن أسلم وصفوان بن سُليم، وخلق كثير. وعنه شعبة ومسعر من شيوخه وابن المبارك من أقرانه وأحمد وإسحاق، وابن معين وابن المديني وأمم. قال العجلي: هو أثبتهم في الزهري، كان حديثه نحو سبعة آلاف. وقال ابن عيينة: سمعت من عمرو بن دينار ما لبث نوح في قومه. وقال ابن وهب: ما رأيت أعلم بكتاب الله من ابن عيينة. وقال الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز. مات سنة ثمان وتسعين ومائة، ومولده سنة سبع.

ينظر ترجمته في: تهذيب الكمال ١/٥١٤، تهذيب التهذيب ٤/١١٧، تقريب التهذيب: ٣١٢/١، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٩٧/١، الكاشف: ٩/١، تاريخ البخاري الكبير: ٩٤/٤، الجرح والتعديل: ٩٧٤/٤، ٣٢/١، ميزان الاعتدال: ١٧٠/٢، طبقات ابن سعد: ٨٣/٩، البداية والنهاية: ٢٠٥/١، ٢١٨، ٢٣٩، ٢٤٤، الوافي بالوفيات: ٢٨١/١٥، الحلية: ٢٧٠/٧.

(٢) محمود بن الربيع بن سراقه بن عمرو بن زيد بن عبدة بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج الأنصاري، أبو محمد المدني، نزّل بيت المقدس عن النبي ﷺ وعن عبادة بن الصامت، وحفظ عن النبي ﷺ أنه مَجَّ في وجهه من دلو وهو ابن خمس سنين. وعنه أنس أكبر منه والزهري. قال الواقدي: مات سنة تسع وتسعين.

ينظر: الخلاصة ٣/١٤، ثقات ابن حبان ٣/٣٩٧، تهذيب الكمال ٢٧/٣٠١، الكاشف ت (٥٤١٣)، والإصابة ت (٨٧١٨).

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري أبو الوليد شهد العقبتين وبدراً، وهو أحد النقباء، له مائة وأحد وثمانون حديثاً، اتفاقاً =

عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم: «أُمُّ الْقُرْآنِ عَوْضٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَيْسَ غَيْرُهَا عَوْضاً عَنْهَا»^(١).

الثامن: «الْأَسَاسُ» قيل: لأنها أولُ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَهِيَ كَالْأَسَاسِ.

وقيل: إِنَّ أَشْرَفَ الْعِبَادَاتِ بَعْدَ الْإِيمَانِ هِيَ الصَّلَاةُ، وَهَذِهِ السُّورَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى كُلِّ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْإِيمَانِ، وَالصَّلَاةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا.

التاسع: «الشِّفَاءُ» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفَ وَكْرَمَ وَبَجَلَ وَمَجَّدَ وَعَظَّمَ وَفَخَّمَ: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سَمٍّ»^(٢). وَمَرَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بِرَجُلٍ مَضْرُوعٍ فَقَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فِي أُذُنِهِ، فَبَرِيءَ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»^(٣).

العاشر: «الصَّلَاةُ» قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»، وَالْمَرَادُ هَذِهِ السُّورَةُ.

وقيل: لَهَا أَسْمَاءٌ غَيْرُ ذَلِكَ.

قيل: اسْمُهَا «السُّوَالُ».

وقيل - أَيْضاً -: اسْمُهَا «الشُّكْرُ».

وقيل: اسْمُهَا - أَيْضاً - «الدُّعَاءُ».

وقيل: «الرُّقِيَّةُ» لِحَدِيثِ الْمَلْدُوحِ^(٤).

= منها على ستة، وانفرد البخاري بحديثين، وكذا مسلم، وعنه ابنه الوليد، ومحمود بن الربيع، وجبير بن نفير، وأبو إدريس الخولاني وخلق، وكان ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ قاله محمد بن كعب، وبعثه عمر إلى الشام ليعلم الناس القرآن والعلم فمات بفلسطين قاله البخاري، وقال الواقدي: بالرملة سنة أربع وثلاثين.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٦٥٥/٢، تهذيب التهذيب: ٣٩٥/١ (١٢٣)، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٣/٢، الكاشف: ٦٤/٢، تاريخ البخاري الكبير: ٩٢/٦، تاريخ البخاري الصغير: ٤١/١، ٤٢، ٦٥، ٦٦، الجرح والتعديل: ٩٥/٦، أسد الغابة: ١٦٠/٣، تجريد أسماء الصحابة: ٢٩٤/١، الإصابة: ٦٢٤/٣، الاستيعاب: ٨٠٧/٢، الوافي بالوفيات: ٦١٨/١٦، طبقات ابن سعد: ١٧٠/٩.

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٢٢/١) والحاكم في المستدرک ٣٢٨/٢ - وذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١ والذهبي في ميزان الاعتدال حديث رقم ٧٤٨٨، والهندي في كنز العمال حديث رقم ٢٥٠٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١ وعزاه لسعيد بن منصور في «السنن» والبيهقي في «الشعب»، والقرطبي في التفسير ١١٢/١، والعجلوني في كشف الخفاء ١٠٦/٢، ١٠٧.

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٤٤٥/٢) باب فضل فاتحة الكتاب وذكره الهندي في كنز العمال حديث رقم ٤٩٩، ٢٥٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (١٩٨/١٠ - ١٩٩) كتاب الطب (٧٦) باب الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب (٣٤) حديث رقم (٥٧٣٧).

فَضْلٌ فِي فَضَائِلِهَا

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله تعالى عنه - عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم - أنه قال: «فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ».

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ^(١) - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم -: «إِنَّ الْقَوْمَ لَيَنْبَغُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ حَتْمًا فَيَقْرَأُ صَبِيٌّ مِنْ صِبْيَانِهِمْ فِي الْمَكْتَبِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾» [الفاتحة: ٢] فيسمعه^(٢) الله - تعالى - فيرفع عنهم بسببه العذاب أربع سنين^(٣).

وعن الحسن^(٤) - رضي الله عنه - قال: «أُنْزِلَ اللَّهُ - تَعَالَى - مائة وأربعة كُتُبٍ: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفُرْقَان، ثم أودع عُلُومَ هذه الأربعة في القرآن، ثم أودع عُلُومَ القرآن في الْمُفَصَّل، ثم أودع عُلُومَ الْمُفَصَّل في الفاتحة، فمن عَلِمَ تَفْسِيرَ الْفَاتِحَةِ، كَانَ كَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَ جَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ الْمُتَزَلَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ التوراة والإنجيل، والزبور، والفُرْقَان»^(٥).

وعن أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله تعالى عنه - قال: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

= ومتفق عليه من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه البخاري في الصحيح ٢٠٩/١٠ كتاب الطب باب النفث في الرقية (٣٩) حديث رقم (٥٧٤٩) واللفظ له ومسلم في الصحيح ١٧٢٨/٤ كتاب السلام باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٢٣) حديث رقم (٢٢٠١/٦٦) - وابن حبان في الموارد حديث رقم (١١٣١) - والدارقطني في السنن ٦٥/٣ - والبيهقي في السنن (٤٣٠/١)، (٦/١٢٤)، (٢٤٣/٧).

(١) حذيفة بن اليمان، واسمه «حُسَيْلٌ» مصغراً العبسي، أبو عبد الله الكوفي، حليف بني عبد الأشهل، صحابي جليل من السابقين، أعلمه رسول الله ﷺ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة من الفتن والحوادث. روى عنه أبو الطفيل والأسود بن يزيد وزيد بن وهب وربيع بن جَرَّاش. مات سنة ست وثلاثين. وقال عمرو بن علي: بعد قتل عثمان بأربعين ليلة.

(٢) في أ: فيسمع.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا: ٢٥٦/١.

(٤) الحسن بن أبي الحسن البصري مولى أم سلمة والربيع بنت النضر وزيد بن ثابت أبو سعيد الإمام أحد أئمة الهدى والسنة، عن جندب بن عبد الله وأنس وعبد الرحمن بن سمرة ومعقل بن يسار قال سعيد: لم يسمع منه وأرسل عن خلق من الصحابة، وروى عنه أيوب وحמיד ويونس وقتادة ومطر الوراق وخلاتق قال ابن علية: مات سنة عشر ومائة. قيل: ولد سنة إحدى وعشرين لستين بقيتا من خلافة عمر.

ينظر تهذيب الكمال: ٢٥٥/١، تهذيب التهذيب: ٢٦٣/٢، تقريب التهذيب: ١٦٥/١، وخلاصة تهذيب الكمال: ٢١٠/١، الكاشف: ٢٢٠/١، تاريخ البخاري الكبير: ٢٨٩/٢، الجرح والتعديل: ١٧٧/٣، ميزان الاعتدال: ٤٨٣.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور (٢٤/١) وعزاه للبيهقي في «شعب الإيمان».

وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم - على أَبِي بن كَعْب^(١) - رضي الله عنه - وهو قائم يصلي فصاح به فقال له: تعالى يا أباي، فعجل أباي في صلاته، ثم جاء لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم فقال: «ما منعك يا أباي أن تُجيبني، إذ دَعَوْتُكَ؟ أَلَيْسَ [اللَّهُ تعالى يَقُولُ]^(٢): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال أباي - رضي الله عنه - لا جَرَمَ يا رسول الله لا تدعوني إلا أَجِبْتُكَ، وَإِنْ كُنْتُ مُصَلِّياً، قال: «أَتَجِبُ أَنْ أَعْلَمَكَ سُورَةَ لَمْ تَنْزِلْ فِي التَّوْرَةِ، وفي الإنجيل، وفي الزبور، ولا في الفرقانِ مثلها؟ فقال أباي - رضي الله عنه -: نَعَمْ يا رسول الله، قال: «لا تَخْرُجْ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَتَعَلَّمَهَا - والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم يمشي يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ لِيَخْرُجَ، قال أباي: السُّورَةُ يا رسولَ الله، فوقف فقال: «نَعَمْ كَيْفَ تَقْرَأُ فِي صَلَاتِكَ؟» فقال أباي: [إني أقرأ]^(٣) أُمَّ الْقُرْآنِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ فِي التَّوْرَةِ، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآنِ مِثْلَهَا، إِنَّهَا السَّعْ الْمِثْنِي الَّتِي آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٤).

«القول في النُّزُولِ»

ذَكَرُوا فِي كَيْفِيَّةِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ أَقْوَالاً:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، رَوَى الثَّعْلَبِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - أَنَّهُ قَالَ: «نَزَلَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ بِ «مَكَّةَ» مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ» ثُمَّ قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ

(١) أَبِي بن كَعْب بن قيس بن عبيدة بن يزيد بن معاوية بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو المنذر المدني، سيد القراء، كتب الوحي وشهد بداراً وما بعدها، له مائة وأربعة وستون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بسبعة. وعنه ابن عباس وأنس وسهل بن سعد وسويد بن علقمة ومسروق وخلق كثير. وكان ربعة نحيفاً أبيض الرأس واللحية، وقد أمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقرأ عليه رضي الله عنه. وكان ممن جمع القرآن، وله مناقب جملة رحمه الله تعالى. وتوفي سنة عشرين أو اثنتين وعشرين أو ثلاثين أو اثنتين وثلاثين أو ثلاث وثلاثين. وقال بعضهم: صلى عليه عثمان رضي الله عنه.

وينظر ترجمته في أسد الغابة: ت ٢٣، تهذيب التهذيب: ١٨٧/١، تقريب التهذيب: ٤٨/١، الإصابة: ١٦/١، الثقات: ٥/٣، تاريخ ابن معين: ١٥٦/٤، الجرح والتعديل: ٢٩٠/٢، سير أعلام النبلاء: ٣٨٩/١٠، مشاهير علماء الأمصار: ١٢، تلقيح الفهوم: ٣٦٤، أسماء الصحابة الرواة: ٢٥.

(٢) في ب: يقول الله تعالى.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٣/٥ - ١٤٤) كتاب فضائل القرآن (٤٦) باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (١) حديث رقم (٢٨٧٥) والنسائي في السنن (١٣٩/٢) كتاب الافتتاح باب تأويل قول الله عز وجل ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم رقم (٩١٤) وابن ماجه في السنن (٢٤٤/٢) كتاب الأدب حديث رقم (٣٧٨٥) ومالك في الموطأ ص ٨٥.

العلماء - رحمهم الله تعالى - وروى أيضاً بإسناده عن عمرو بن شرحبيل^(١) - رضي الله عنه - أنه قال: أول ما نزل من القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم أسر إلى خديجة - رضي الله عنها - فقال: «لقد خَشِيتُ أن يكون خَالِطِي شيء» فقالت: وما ذاك؟ قال: إني إذا خَلَوْتُ سمعتُ النداء ﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، ثُمَّ ذهب إلى وَرَقَةَ بنِ نَوْفَل^(٢)، وسأله عن تلك الواقعة، فقال له وَرَقَةُ: إذا أتاك النداء، فاثبت له، فأتاه جبريل - عليه الصلاة والسلام - فقال له: قُلْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١ - ٢].

وإسناده عن أبي صالح^(٣)، عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: قام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل ومجد وعظم وفخم بـ «مكة» فقال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقالت قُرَيْشٌ: رَضَّ اللَّهُ فَالْكَ^(٤).

القول الثاني: أنها نزلت بـ «المدينة»، رَوَى الثَّعْلَبِيُّ بإسناده، عن مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قال: «فاتحة الكتاب أنزلت بالمدينة»^(٥).

قال الحُسَيْنُ بنُ الفضل: لِكُلِّ عالمِ هَفْوَةٍ، وهذه هَفْوَةٌ مُجَاهِدٍ؛ لأنَّ العلماء - رحمهم الله تعالى - على خلافه.

ويدل عليه وجوه:

الأول: أن سورة الحجر مكية بالاتفاق، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وهي فاتحة الكتاب، وهذا يدل على أنه - تعالى - أتاه هذه السورة فيما تقدم.

(١) عمرو بن شرحبيل الهمداني أبو ميسرة الكوفي أحد الفضلاء. عن عمر وعلي. وعنه أبو وائل والقاسم بن مخيمرة مات قديماً. ينظر: الخلاصة ٢/٢٨٧.

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، من قريش: حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع من أكل ذبائحها، وتنصر، وقرأ كتب الأديان. وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة. وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين. ينظر الأعلام: ١١٥/٨، الروض الأنف: ١٢٤/١ - ١٢٧، ١٥٦، ١٥٧، والإصابة: ت ٩١٣٣، وتاريخ الإسلام: ٦٨/١.

(٣) ذكوان المدني أبو صالح السَّمان عن سعد وأبي الدرداء وعائشة وأبي هريرة وخلق. وعنه بنوه سهيل وعبد الله وصالح وعطاء بن أبي رباح. وسمع منه الأعمش ألف حديث. قال أحمد: ثقة شهد الدار. قال محمد بن عمر الواقدي: توفي سنة إحدى ومائة.

ينظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: ٣/٢١٩، تقريب التهذيب: ١/٢٣٨، تاريخ البخاري الكبير: ٣/٢٦٠، الجرح والتعديل: ٣/٤٥، طبقات ابن سعد: ٥/٢٢٢، معجم طبقات الحفاظ: ٨٨.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٩/١) وعزاه لابن أبي شيبه وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «دلائل النبوة» والواحد والثعلبي في تفسيرهما.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٠/١) وعزاه للثعلبي ووكيع في تفسيرهما.

وهذا ليس فيه دليل، لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ...»^(١) الحديث، فيكون هذا الإتيان بالنسبة إلى اللوح المحفوظ، فإن منع في البعض فلا يمنع^(٢) في الشفاعة.

الثاني: أنه ينبغي أن يقال: إنه أقام بـ «مكة» بضع سنين بلا فاتحة الكتاب.

الثالث: قال بعض العلماء: هذه السورة نزلت بـ «مكة» مرة، وبـ «المدينة» مرة أخرى، فهي مكية مدنية، ولهذا السبب سماها الله - تعالى - بالسبع المثاني؛ لأنه نزلت في ثلثها، وإنما كان كذلك؛ مبالغة في تشريفها. وأجمعت الأمة على أن الفاتحة سبع آيات.

وروي شاذاً عن الحسين الجعفي^(٣): أنها ست آيات، وأجمعت الأمة - أيضاً - على أنها من القرآن.

ونقل القرطبي^(٤): أن الفاتحة مثبتة في مصحف ابن مسعود^(٥) - رضي الله تعالى عنه -

(١) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في الصحيح (٤٣٥/١ - ٤٣٦) كتاب التيمم (٧) باب (١) حديث رقم (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم في الصحيح ١/ ٣٧٠ كتاب المساجد (٥) حديث رقم (٥٢١/٣) والنسائي في السنن (٢٠/١، ٢١١) كتاب الغسل والتيمم - والدارمي في السنن (٢/ ٢٢٤) كتاب السير باب الغنمة لا تحل لأحد قبلنا.

(٢) في ب: مانع.

(٣) الحسين بن علي بن فتح الإمام الحر أبو عبد الله ويقال: أبو علي الجعفي، مولاهم الكوفي الزاهد أحد الأعلام. قال أحمد بن حنبل: ما رأيت أفضل من حسين الجعفي. وقال قتيبة بن سعيد: قالوا لسفيان بن عيينة: قدم حسين الجعفي فوثب قائماً وقال: قدم أفضل رجل يكون قط، وقال موسى بن داود: كنت عند ابن عيينة فأتاه حسين الجعفي، فقام سفيان فقبل يده، وكان يقول: الحسين الجعفي هذا أفضل رجل في الأرض، وروى أبو هشام الرفاعي عن الكسائي قال: قال لي الرشيد: من أقرأ الناس اليوم؟ قلت: حسين الجعفي، مات في ذي القعدة سنة ثلاث ومائتين عن أربع وثمانين سنة. ينظر الغاية: ٢٤٧/١.

(٤) أحمد بن عمر بن إبراهيم، أبو العباس الأنصاري القرطبي، ولد سنة ٥٧٨ هـ بقرطبة فقيه مالكي، من رجال الحديث، يعرف بـ «ابن المزين». كان مدرساً بالاسكندرية. من كتبه: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» و «اختصار صحيح البخاري» و «مختصر الصحيحين». وتوفي بـ «الاسكندرية» سنة ٦٥٦ هـ.

ينظر: البداية والنهاية ١٣/ ٢١٣، نفع الطيب ٢/ ٦٤٣، الأعلام: ١/ ١٨٦.

(٥) عبد الله بن مسعود بن غافل بمعجمة ثم فاء مكسورة بعد الألف ابن حبيب بن شمع بفتح المعجمة الأولى وسكون الميم ابن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل الهذلي أبو عبد الرحمن الكوفي: أحد السابقين الأولين وصاحب النعلين شهد بدرًا والمشاهد وروى ثمانمائة حديث وثمانية وأربعين حديثاً. اتفقا على أربعة وستين وانفرد البخاري بأحد وعشرين ومسلم بخمسة وثلاثين. وعنه خلق من الصحابة. ومن التابعين علقمة ومسروق والأسود وقيس بن أبي حازم والكبار تلقى من النبي ﷺ سبعين سورة. قال علقمة: كان يشبه النبي ﷺ في هديه ودله وسمته. قال أبو نعيم: مات بالمدينة ستة اثنتين وثلاثين عن بضع وستين سنة.

وَأَنَّ الْمَعُودَتَيْنِ لَيَسْتَأْذِنُ مِنَ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ آخِرَ الْكَلَامِ عَلَى الْفَاتِحَةِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)
قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الحمد^(١): الثناء على الجميل سواء كانت نعمة مُبتدأة إلى أحد أم لا.

يُقال: حَمَدْتُ الرجلَ على ما أَنْعَمَ به، وحمدته على شجاعته، ويكون باللسان وَحْدَهُ، دون عمل الجوارح، إِذْ لَا يُقال: حمدت زيدا أُنِي: عملت له بيدي عملاً حسناً، بخلاف الشكر؛ فإنه لا يكون إلا على نعمة مُبتدأة إلى الغير.

يُقال: شَكَرْتُهُ على ما أعطاني، وَلَا يُقال: شكرته على شجاعته، ويكون بالقلب، واللسان، والجوارح؛ قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] وقال الشاعر:
[الطويل]

٣٧ - أَفَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا^(٢)

فيكون بين الحمد والشكر عمومٌ وخصوصٌ من وجه.

وقيل: الحمد هو الشكر؛ بدليل قولهم: «الحمد لله شكرًا».

وقيل: بينهما عمومٌ وخصوص مطلق.

والحمد أعم من الشكر.

وقيل: الحمد: الثناء عليه تعالى [بأوصافه، والشكر: الثناء عليه بأفعاله]^(٣) فالحامد

قِسْمَانِ: شاكِرٌ ومُثْنٍ بالصفات الجميلة.

وقيل: الحمد مَقْلُوبٌ من المَدْح، وليس بِسَدِيدٍ - وإن كان منقولاً عن ثعلب؛ لأنَّ

المَقْلُوبُ^(٤) أَقلُّ اسْتِعْمَالاً من المَقْلُوبِ منه، وهذان مُسْتَوِيَانِ في الاستعمال، فليس ادعاء قلب أحدهما من الآخر أولى من العكس، فكانا مادتين مُسْتَقِلَّتَيْنِ.

= وينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٧٤٠/٢، تهذيب التهذيب: ٢٧/٦ (٤٢). تقريب التهذيب: ١/٤٥٠ (٦٣٠)، خلاصة تهذيب الكمال: ٩٩/٢. الكاشف: ١٣٠/٢، تاريخ البخاري الكبير: ٢/٥، أسد الغابة ٣/٣٨٤. تجريد أسماء الصحابة: ٣٣٤/١، الإصابة: ٣٦٢/٢، ٢٣٣/٤. الاستيعاب (٣ - ٤) ٩٨٧ الوافي بالوفيات ١٧/٤٠٦. الحلية: ٣٧٥/١. طبقات ابن سعد: ١٢٢/٩.

(١) ينظر المفردات للراغب: ١٣٠.

(٢) ينظر الكشاف: ٨/١، وابن كثير: ٢٢/١، وغرائب الفرقان: ٩٢/١، والدر المصون: ٦٣/١.

(٣) سقط في أ.

(٤) في أ: المنقول.

وأيضاً فإنه يمتنع إطلاق المدح حيث يجوز إطلاق الحمد، فإنه يقال: حمدت الله - تعالى - ولا يقال: مدحته، ولو كان مقلوباً لما امتنع ذلك.

ولقائل أن يقول: منع من ذلك مانع، وهو عدم الإذن في ذلك.

وقال الراغب^(١): «الحمد لله»: الثناء بالفضيلة، وهو أخص من المدح، وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وما يكون منه بغير اختيار، فقد يمدح الإنسان بطول قامته، وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول.

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: الفرق بين الحمد والمدح من وجوه:

أحدها: أن المدح قد يحصل للحي، ولغير الحي، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن، فإنه يمدحها؟ فثبت أن المدح أعم من الحمد.

الثاني: أن المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان.

الثالث: أن المدح قد يكون منهياً عنه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «اخشوا التراب في وجوه المداحين»^(٢). أما الحمد فإنه مأمور به مطلقاً؛ قال - عليه الصلاة والسلام -: «من لم يحمد الناس لم يحمد الله»^(٣).

الرابع: أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصاً بنوع من أنواع الفضائل.

وأما الحمد فهو القول الدال على كونه مختصاً بفضيلة معينة، وهي فضيلة الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

وأما الفرق بين الحمد والشكر، فهو أن الحمد يعم إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر، فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.

وقال الراغب - رحمه الله -: والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً.

(١) ينظر المفردات: ١٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣٠٠٢) باب النهي عن المدح. وأبو داود في السنة ٦٦٩/٢ ولفظه إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب كتاب الأدب باب في كراهية التماذج حديث رقم ٤٨٠٤ - وأحمد في المسند ٥/٦، ٥٩ - وأبو نعيم في الحلية ٩٩/٦، ١٢٧ - والخطيب في التاريخ ٣٣٨/٧ وذكره الدولابي في الأسماء والكنى ١٣٠/٢ - والزيدي في الإتحاف ٥٧٣/٧.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ٦٧١/٢ كتاب الأدب باب في شكر المعروف حديث رقم (٤٨١١) ولفظه لا يشكر الله من لا يشكر الناس والترمذي في السنن (٣٣٩/٤) كتاب البر والصلة (٢٨) باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (٣٥) حديث رقم ١٩٥٥ وقال هذا حديث حسن صحيح - وأحمد في المسند (٣٢/٣) من رواية أبي سعيد الخدري، (٢٥٨/٢) من رواية أبي هريرة.

ويقال: فَلَانٌ مَحْمُودٌ إِذَا حُمِدَ، وَمُحَمَّدٌ وَجَدَ مَحْمُوداً، ومحمد كثرت خصاله المحمودّة.

وأحمد أي: أَنَّهُ يَقُوقُ غَيْرَهُ فِي الْحَمْدِ.

والألف واللام في «الحمد» قيل: للاستغراق.

وقيل: لتعريف الجنس، واختاره الزمخشري؛ وقال الشاعر: [الطويل]

٣٨ - إِلَى الْمَاجِدِ الْقَزَمِ الْجَوَادِ الْمُحَمَّدِ^(١)

وقيل: للعهد، ومنع الزمخشري كونها للاستغراق، ولم يبين وجهه ذلك، ويشبه أن يُقال: إِنَّ المطلوب من العبد إنشاء الحمد، لا الإخبار به، وحينئذ يستحيل كونها للاستغراق، إذ لا يمكن العبد أن ينشئ جميع المحامد منه ومن غيره، بخلاف كونها للجنس.

والأصل في «الحمد» المصدرية؛ فلذلك لا يُثنى، ولا يُجمع.

وحكى ابن الأعرابي^(٢) جمعه على «أفعل»؛ وأنشد: [الطويل]

٣٩ - وَأَبْيَضَ مَحْمُودِ الثَّنَاءِ خَصَصْتُهُ بِأَفْضَلِ أَقْوَالِي وَأَفْضَلِ أَحْمَدِي^(٣)

وقرأ الجمهور^(٤): «الحمد لله» برفع الدال وكسر لام الجر، ورفعته على الابتداء، والخبر الجار والمجرور بعده يتعلّق بمحذوف وهو الخبر في الحقيقة.

ثم ذلك المحذوف إن شئت قدّرتَه [اسماً، وهو المختار، وإن شئت قدّرتَه]^(٥) فعلاً أي: الحمد مُستَقَرٌّ لله، واستقرّ لله.

والدليل على اختيار القول الأول: أَنَّ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ، فَلَا أَقْلَ مِنْ

(١) عجز بيت للأعشى وصدره:

إِلَيْكَ أُبَيْتُ اللَّعْنِ كَانَ كَلَالِهَا

.....

ينظر ديوانه: ٥٩، اللسان (حمد) القرطبي ٩٣/١ ابن يعيش ٦/١، الدر ٦٤/١.

(٢) محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، راوية ناسب علامة باللغة ولد ١٥٠هـ من أهل الكوفة، كان أحول، لم ير أحد في علم الشعر أغزر منه له تصانيف منها أسماء الخيل وفرسانها، الأنواء، الفاضل، البشر وغيرها توفي ٢٣١هـ.

ينظر: وفيات الأعيان ٤٩٢/١، تاريخ بغداد: ٢٨٢/٥، المقتبس: ٣/٦ - ٩. نزهة الألبا: ٢/٧، الأعلام: ١٣١/٦.

(٣) ينظر تفسير القرطبي: ٩٣/١، البحر المحيط: ١٣١/١، الدر: ٦٤/١.

(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر ٣٦٣/١، والبحر المحيط: ١٣١/١، والقرطبي: ١٣٠/١، الشواذ: ص ٩.

(٥) سقط في أ.

ترجيحه في غيرها، وذلك أنك إذا قلت: «خرجت فإذا في الدار زيد» و«أما في الدار فزيد» يتعين في هاتين الصورتين [أن يقدر بالاسم]^(١)؛ لأن «إذا» الفجائية وأما التفصيلية لا يليهما إلا المبتدأ. وقد عورض هذا اللفظ بأنه يتعين تقدير الفعل في بعض الصور، وهو ما إذا وقع الجار والمجرور صلة لموصول، نحو: الذي في الدار فليكن راجحاً في غيره؟

والجواب: أن ما رجحنا به هو من باب المبتدأ، أو الخبر، وليس أجنبيًا، فكان اعتباره أولي، بخلاف وقوعه صلة، [والأول غير أجنبي]^(٢).

ولا بد من ذكر قاعدة - ها هنا - لعموم فائدتها، وهي أن الجار والمجرور والظرف إذا وقعا صلة أو صفة، أو حالاً، أو خبراً تعلقا بمحذوف، وذلك المحذوف لا يجوز ظهوره إذا كان كونه مطلقاً، فأما قول الشاعر: [الطويل]

٤٠ - لك العز إن مولاك عز، وإن يهن فأنت لدى بخبوحة الهون كائن^(٣)

وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ [النمل: ٤٠] فلم يقصد جعل الظرف كائناً فلذلك ذكر المتعلق به، ثم ذلك المحذوف يجوز تقديره باسم أو فعل إلا في الصلة، فإنه يتعين أن يكون فعلاً^(٤). واختلفوا: أي التقديرين أولي فيما عدا الصور المستثناة؟

فقوم رجحوا تقدير الفعل، [وقوم رجحوا تقدير الاسم]^(٥)، وقد تقدم دليل الفريقين. وقرئ^(٦) شاذاً بنصب الدال من «الحمد»، وفيه وجهان:

أظهرهما: أنه منصوب على المصدرية، ثم حذف العامل، وناب المصدر متابه؛ كقولهم في الأخبار: «حمداً، وشكراً لا كُفراً» والتقدير: «أحمد الله حمداً»، فهو مصدر ناب عن جملة خبرية.

وقال الطبري^(٧) - رحمه الله تعالى -: «إن في ضمنه أمر عباده أن يُثَنوا به عليه، فكأنه

(١) في أ: تقدير الاسم.

(٢) سقط في أ.

(٣) ينظر الدرر: ١٨/٢، ٣١٣/٥، وشرح شواهد المغني ٨٤٧/٢، وشرح ابن عقيل ص ١١١، ومغني اللبيب ٤٤٦/٢، والمقاصد النحوية ٥٤٤/١، وجمع الهوامع ٩٨/١، ١٠٨/٢، والدر ٦٤/١.

(٤) في أ: اسماً.

(٥) سقط في أ.

(٦) ينظر البحر المحيط: ١٣١/١، المحرر الوجيز: ٦٦/١.

(٧) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام العلم صاحب التفسير المشهور، مولده سنة ٢٢٤، أخذ الفقه عن الزعفراني والربيع المرادي، وذكر الفرغاني عند عد مصنفاته كتاب: لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو مذهب الذي اختاره وجوده واحتج له، وهو ثلاثة وثمانون كتاباً. مات سنة ٣١٠.

انظر: ط. ابن قاضي شهبة ١/ - ١، تاريخ بغداد ١٦٢/٢، تذكرة الحفاظ: ٦١٠/٢.

قال: «قولوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ» وعلى هذا يَجِيءُ قَوْلُوا: إِيَّاكَ.

فعلى هذه العبارة يكون من المصادر النائية عن الطَّلَبِ لا الخبر، وهو محتمل للوجهين، ولكن كونه خبرياً أولاً من كونه طلبياً، ولا يجوز إظهار الناصب، لئلا يجمع بين البذل والمُبدلِ منه.

والثاني: أنه منصوب على المفعول به، أي: اقرءوا الحمد، أو اثلوا الحمد؛ كقولهم: «اللَّهُمَّ ضَبْعاً وَذُبّاً»، أي: اجمع ضبعاً، والأول أحسن؛ للدلالة اللفظية.

وقراءة الرفع أمكن، وأبلغ من قراءة النصب، لأن الرفع في باب المصادر التي أضلها النيباء عن أفعالها يدل على الثبوت والاستقرار، بخلاف النصب، فإنه يدل على التجرد والحدوث، ولذلك قال العلماء - رحمهم الله -: إن جواب إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ [هود: ٦٩] أحسن من قول الملائكة: ﴿قَالُوا سَلَّمَ﴾ [هود: ٦٩] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦].

و «لله» على قراءة النصب^(١) يتعلق بمحذوف لا بالمصدر، لأنها للبيان، تقديره: أغني لله، كقولهم: «سُقياً له ورعياً لك» تقديره: «أغني له ولك»، ويدل على أن اللام تتعلق في هذا النوع بمحذوف لا بنفس المصدر، أنهم لم يُعْمِلُوا المصدر المتعدي في المجرور باللام، فينصبوه به فيقولوا: سُقياً زيداً، ولا رُعياً عمراً، فدل على أنه ليس مفعولاً للمصدر، ولذلك غلط من جعل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ﴾ [محمد: ٨]، من باب الاشتغال؛ لأن «لهم» لا يتعلق بـ «تساءل» كما مر.

ويحتمل أن يقال: إن اللام في «سُقياً لك» ونحوه مقوية لتعدي العامل؛ لكونه قرعاً فيكون عاملاً فيما بعده.

وَقُرِئَ^(٢) - أيضاً - بِكَسْرِ الدَّالِ، ووجهه: أنها حركة إتياع لكسرة لَامِ الْجَزْرِ بعده، وهي لُغَةٌ «تَمِيم»، وبغض «عَطْفَان»، يُتَبَعُونَ الأول للثاني؛ للتجانس. ومنه: [الطويل]

٤١ - اضْرِبِ السَّاقَيْنِ أُمَّكَ هَابِلُ^(٣)

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر ابن خالويه: الشواذ (٩)، الكشف ١٠/١.

(٣) عجز بيت من الطويل، وتماهه: «وقال اضرب الساقين أُمَّكَ هَابِلُ» ولم يعرف صدره ولا قائله، ومنهم من يرويه «الساقين إِمَّكَ هَابِلُ» فيكون فيه إتياعان، وانظر الكتاب: ١٤٦/٤، الخصائص: ١٤٥/٢، ١٤١/٣، المحتسب: ٣٨/١، الدر المصون: ٦٥/١، شرح شواهد الشافية: ١٧٩، القرطبي: ١/١٣٦.

بضم ثُونِ الثَّيْنَةِ لِأَجْلِ ضَمِّهِمُزَّةً؛ ومثله: [البسيط]

٤٢ - وَيَلْمُهَا فِي هَوَاءِ الْجَوِّ طَالِبَةً وَلَا كَهَذَا الَّذِي فِي الْأَرْضِ مَطْلُوبٌ^(١)

الأصل: وَيَلِّ لَأُمِّهَا، فحذف اللام الأولى، واستثقل ضمُّ الهَمْزَةِ بعد الكسرة، فنقلها إلى اللام بعد سلب حركتها، وحذف الهَمْزَةَ، ثم أَتْبَعَ اللامَ الميمَ، فصار اللفظ: «وَيَلْمُهَا». ومنهم مَنْ لَا يُتَّبِعُ، فيقول: «وَيَلْمُهَا» بِضَمِّ اللامِ؛ قال: [البسيط]

٤٣ - وَيَلْمُهَا خُلَّةً قَدْ سَيْطَ مِنْ دِمِهَا فَجَعَّ وَوَلَعَّ وَإِخْلَافَ وَتَبْدِيلُ^(٢)

ويحتملُ أَنْ تَكُونَ هذه القراءة مِنْ رَفْعٍ، وَأَنْ تَكُونَ مِنْ نَصْبٍ، لِأَنَّ الإعرابَ مُقَدَّرَ مَنَعَ مِنْ ظُهُورِهِ حَرَكَةُ الإِتْبَاعِ.

وقرىء أيضاً^(٣): «لِلَّهِ» بضم لَامِ الْجَرِّ، قَالُوا: وهي إِتْبَاعُ لِحَرَكَةِ الدَّالِ، وَفَضْلُهَا الزمخشريُّ على قراءة كَسْرِ الدَّالِ، مُعْلَلًا لِذَلِكَ بِأَنَّ إِتْبَاعَ حَرَكَةِ الإِعْرَابِ أَحْسَنُ مِنْ الْعَكْسِ، وهي لغةٌ بَغْضٍ «قَيْسٍ»، يُتَّبِعُونَ الثَّانِي لِلأَوَّلِ نَحْوُ: «مُنْحَدِّرٌ وَمُقْبِلِينَ» بضم الدَّالِ والقافِ لِأَجْلِ الميمِ، وعليه قرىء^(٤): «مُرْدَفِينَ» [الأنفال: ٩] بِضَمِّ الرَّاءِ؛ إِتْبَاعًا لِلْمِيمِ. فهذه أَرْبَعُ قِرَاءَاتٍ فِي «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

ومعنى لَامِ الْجَرِّ - هنا - الاستحقاقُ أَيُّ: الحمدُ مستحقٌّ لله - تعالى - ولها معانٍ آخر نذكرها وهي:

المُلْكُ: المَالُ لِرَزِيدٍ. والاستحقاقُ: الجُلُّ لِلْفَرَسِ. والتَّمْلِيكُ: نَحْوُ: وَهَبْتُ لَكَ وَشِبْهُهُ نَحْوُ: ﴿جَعَلَ لَكَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١] لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.

والنسبُ: نَحْوُ: لِرَزِيدٍ عَمُّ.

والتعليلُ: نَحْوُ: ﴿لِتَعْلَمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥]، والتبليغُ: نَحْوُ: قُلْتُ لَكَ.

والتبليغُ: نَحْوُ: قُلْتُ لَكَ.

وللتعجبِ فِي الْقَسَمِ خَاصَّةً؛ كقوله: [البسيط]

(١) البيت لامرئ القيس ينظر ديوانه: ص ٢٢٧، وخزانة الأدب: ٩٠/٤، ٩١، ٩٢، والكتاب: ٢/٢٩٤، وشرح المفصل: ١١٤/٢، وسر صناعة الإعراب: ص ٢٣٥، وجمهرة اللغة: ص ٩٩٨، ولسان العرب (ويا)، ووصف المباني: ص ٤٣، والكتاب: ٢/٢٩٤، ١٤٧/٤، وتفسير القرطبي: ١/٩٦، ويروى «ويلمها»، بالضم، ونسبته في الكتاب إلى النعمان بن بشير.

(٢) البيت لكعب بن زهير ينظر ديوانه: ١٣٠، تهذيب اللغة ٣/١٩٩، اللسان (ولع)، خزانة الأدب: ١١/٣١٠، ٣١١، الدر المصون: ٦٦/١.

(٣) انظر الكشف: ١٠/١، والمححر الوجيز: ٦٦/١.

(٤) ستأتي في سورة الأنفال.

٤٤ - لِلَّهِ يَبْقَى عَلَى الْإِيَّامِ ذُو حَيْدٍ بِمُشْمَخِرٍ بِهِ الظَّيَّانُ وَالْأَسُ^(١)

والتَّيْسُ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

والصيرورة: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا﴾ [القصص: ٨].

والظرفية إمَّا بِمَعْنَى «فِي»: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أَوْ بِمَعْنَى «عِنْدَ»: كَقَوْلِهِمْ: «كَتَبْتُهُ لِحَمْسٍ»، أَيْ: عِنْدَ خَمْسٍ، أَوْ بِمَعْنَى «بَعْدَ»: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقِرْ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أَيْ: بَعْدَ ذُلُوكِهَا.

والانتهاء: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

والاستعلاء: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقد تَرَاذَ باطرادٍ في معمول الفعل مُقَدِّمًا عَلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّزْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، [وَإِذَا] كَانَ الْعَامِلُ فِرْعَا، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وَبَغْيَرِ اطْرَادٍ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ: [الوافر]

٤٥ - فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمَيْنَا^(٢)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، فَقِيلَ: عَلَى التَّضْمِينِ، وَقِيلَ: هِيَ زَائِدَةٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: قُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ.

(١) الْبَيْتُ لِأَبِي ذُؤَيْبِ الْهَذَلِيِّ فِي شَرْحِ شَوَاهِدِ الْإِبْضَاحِ ص ٥٤٤؛ وَشَرْحِ شَوَاهِدِ الْمَغْنِيِّ: ٥٧٤/٢؛ وَلِسَانُ الْعَرَبِ (ظَيْن)؛ وَلَامِيَّةُ بَنِ أَبِي عَائِدٍ فِي الْكِتَابِ: ٤٩٧/٣؛ وَلِمَالِكُ بْنُ خَالِدِ الْخُنَاعِيِّ فِي جَمْهَرَةِ اللُّغَةِ ص ٥٧؛ وَشَرْحُ أَبْيَاتِ سَيَّبِيوِيَّةِ: ٤٩٩/١؛ وَشَرْحُ أَشْعَارِ الْهَذَلِيِّينَ: ٤٣٩/١؛ وَشَرْحُ شَوَاهِدِ الْإِبْضَاحِ: ص ٣٠٤؛ وَلِسَانُ الْعَرَبِ (حَيْد)، (قِرْنَس)، (ظَلِيَا)؛ وَلَعِيدُ مَنْافِ الْهَذَلِيِّ فِي شَرْحِ الْمَفْضَلِ: ٩٨/٩؛ وَلَأَبِي ذُؤَيْبِ أَوْ لِمَالِكِ فِي شَرْحِ أَشْعَارِ الْهَذَلِيِّينَ: ٢٢٨/١؛ وَلَأَبِي ذُؤَيْبِ أَوْ لِمَالِكِ أَوْ لَامِيَّةُ فِي خَزَانَةِ الْأَدَبِ: ٩٥/١٠؛ وَلَأَبِي ذُؤَيْبِ أَوْ لِمَالِكِ أَوْ لَامِيَّةُ أَوْ لَعِيدُ مَنْافِ الْهَذَلِيِّ أَوْ لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ أَوْ لِأَبِي زَيْدِ الطَّائِي فِي خَزَانَةِ الْأَدَبِ: ١٧٦/٥، ١٧٧، ١٧٨؛ وَلَأَبِي ذُؤَيْبِ أَوْ لِمَالِكِ أَوْ لَامِيَّةُ أَوْ لَعِيدُ مَنْافِ فِي الدَّرَرِ ٤/١٦٢، ١٦٥؛ وَلَامِيَّةُ أَوْ لِأَبِي ذُؤَيْبِ أَوْ لِلْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ فِي شَرْحِ الْمَفْضَلِ: ٩٩/٩؛ وَلِلْهَذَلِيِّ فِي جَمْهَرَةِ اللُّغَةِ: ص ٢٣٨؛ وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي الْأَشْبَاهِ وَالنِّظَائِرِ: ٦/٢٣؛ وَالْجَنَى الدَّانِي: ص ٩٨؛ وَجَوَاهِرُ الْأَدَبِ: ص ٧٢؛ وَالدَّرَرُ ٤/٢١٥؛ وَرَصَفُ الْمَبَانِي: ص ١١٨، ١٧١؛ وَشَرْحُ الْأَشْمُونِيِّ: ٢٩٠/٢؛ وَالصَّاحِبِيُّ فِي فَهْمِ اللُّغَةِ ص ١١٤؛ وَاللَّامَاتُ: ص ٨١؛ وَمَغْنِيُّ اللَّيْبِ: ٢١٤/١؛ وَالْمَقْتَضِبُ: ٣٢٤/٢؛ وَهَمْعُ الْهَوَامِعِ: ٣٢/٢، ٣٩، وَالْأَصُولُ فِي النَّحْوِ: ٤٣٠/١، وَالتَّبَصُّرَةُ: ٤٤٦/١، وَالْأَمَالِيُّ الشَّجَرِيَّةُ: ٣٦٩/١، وَالْمَخْصَصُ: ١١١/٢.

(٢) الْبَيْتُ لَعَبْدِ الشَّارِقِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى الْجَهْنِيِّ. يَنْظُرُ: رَصَفُ الْمَبَانِي: ١١٦، الْمُقَرَّبُ: ١١٥/١، شَرْحُ دِيَوَانِ الْحَمَّاسَةِ لِلْمَرْزُوقِيِّ: ٤٤٧/١، شَرْحُ جَمَلِ الزَّجَاجِيِّ لِابْنِ عَصْفُورٍ: ٣٠٨/١، ٥١٤، الدَّرَرُ الْمَصُونُ: ٦٧/١.

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - : وهذا عندي ضعيف ؛ لأن الإضمار إنما يُصار إليه ليصح الكلام ، وهذا الإضمار يُوجبُ فسادَ الكلام ، والدليل عليه : أن قوله - تعالى - «الْحَمْدُ لِلَّهِ» إخبارٌ عن كونِ الحمدِ حقاً [لله تعالى] وملكاً له ، وهذا كلامٌ تام في نفسه ، فلا حاجة إلى الإضمار .

وأيضاً فإن قوله : «الحمد لله» يدلُّ على كونه مُستحقاً للحمد بحسب ذاته ، وبحسب أفعاله ، سواء حمّده أو لم يحمّده .

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى - : «الْحَمْدُ لِلَّهِ ثمانية أَرْفٍ ، وأبوابُ الْجَنَّةِ ثمانية [أبواب]^(٢) ، فمن قال : «الحمد لله» بصفاء قلبه استحقَّ أبوابُ الْجَنَّةِ الثمانية» والله أعلم .

فَضْلُ

تمسك الجبريَّة والقدريَّة بقوله تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أما الجبريَّة فقد تمسكوا به من وجوه :

الأولُ : أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ فِعْلُهُ أَشْرَفَ وَأَكْمَلَ ، وكانت النعمة الصادرة عنه أَعْلَى وأفضل ، كان استحقاقه للحمد أكثر ، ولا شك أَنَّ أَشْرَفَ^(٣) المخلوقات هو الإيمان ، فلو كان الإيمان فعلاً للعبد ، لكان استحقاق العبد للحمد أوَّلَى وأَجَلُّ من استحقاق الله له ، ولما لم يكن كذلك ، علمنا أَنَّ الإيمانَ حَصَلَ بخلقِ الله - تعالى - لا بخلقِ العبد .

الثاني : أجمعت الأمة على قولهم : «الْحَمْدُ لِلَّهِ على نعمة الإيمان» ، فلو كان العبدُ فاعلاً للإيمان لكان قولهم : «الْحَمْدُ لِلَّهِ على نعمة الإيمان» ؛ باطلاً ، فإنَّ حمد الفاعل على ما لا يكون فعلاً له باطلٌ قبيحٌ ؛ لقوله تعالى ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

الثالث : أن قوله تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ» يدلُّ ظاهره على أَنَّ كُلَّ الحمد لله ، وأنه ليسَ لِغَيْرِ اللَّهِ - تعالى - حَمْدٌ أصلاً ، وإنما يكونُ كُلُّ الحمد لله تعالى إذا كان كُلُّ النعم من الله تعالى ، والإيمان أَفْضَلُ النعم ، فوجب أن يكون الإيمان من الله تعالى .

الرابع : أن قوله^(٤) : «الْحَمْدُ لِلَّهِ» مَذْحٌ مِنْهُ لِنَفْسِهِ ، ومدحُ النَّفْسِ^(٥) قبيحٌ فيما بين الخلق ، فلما بدأ كتابه بمدح النفس ، دلَّ ذلك على أَنَّ حاله بخلاف حال الخلق ، وأنه يَحْسُنُ منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدلُّ على أنه - تبارك وتعالى - مقدسٌ عن أن تُقاس أفعاله على أفعال العباد .

(١) ينظر الرازي : ١٨٠ / ١ .

(٤) في أ : يكون .

(٢) سقط في ب .

(٥) في ب : الناس .

(٣) في أ : أكبر .

الخامس: عند المعتزلة أفعاله - تعالى - يجب أن تكون حسنة، ويجب أن تكون لها صفة زائدة على الحسن، وإلا كان عبثاً، وذلك في حقه تعالى محال، والزائدة على الحسن إما [أن تكون]^(١) واجبة، وإما أن تكون من باب التفضل.

أما الواجب فهو مثل إيصال الثواب، والعوض إلى المكلفين.

وأما الذي يكون من باب التفضل، فهو مثل أنه يزيد على قدر الواجب على سبيل الإحسان.

فنقول: هذا يقدح في كونه - تعالى - مستحقاً للحمد، ويُنطِلُ صحة قولنا: الحمد لله.

وتقريره أن نقول: أما أداء الواجبات، فإنه لا يفيد استحقاق الحمد، ألا ترى أن من كان له على غيره دينار، فأداه، فإنه لا يستحق الحمد، فلو أوجبنا على الله تعالى فعلاً، لكان ذلك الفعل مخلصاً [له]^(٢) عن الذم، ولا يوجب استحقاقه للحمد.

وأما فعل التفضل فعند الخصم أنه يستفيد بذلك مزيد حمْد ولو لم يصدر عنه ذلك الفعل، لما حصل له الحمد، فإذا كان كذلك كان ناقصاً لذاته مستكملاً بغيره، وذلك يمنع من كونه - تعالى - مستحقاً للحمد والمدح.

السادس: قوله: الحمد لله يدل على أنه - تعالى - محمود، فنقول: استحقاقه للحمد والمدح إما أن يكون أمراً ثابتاً لذاته، أو ليس ثابتاً لذاته، فإن كان الأول، امتنع ثبوته لغيره، فامتنع - أيضاً - أن يكون شيء من الأفعال موجباً له استحقاق الذم؛ لأن ما ثبت لذاته امتنع ارتفاعه، فوجب ألا يجب للعباد عليه شيء من الأغواض والثواب، وذلك يهدم أصول المعتزلة.

وأما القسم الثاني - وهو أن يكون استحقاق الحمد لله ليس ثابتاً لذاته - فنقول: فيلزم منه أن يكون ناقصاً لذاته مستكملاً بغيره، وذلك على الله - تعالى - محال.

أما قول المعتزلة: إن قوله: «الحمد لله» لا يتم إلا على قولنا؛ لأن المستحق للحمد على الإطلاق هو الذي لا قبيح في فعله، ولا جور في قضيته، ولا ظلم في أحكامه، وعندنا أن الله - تعالى - كذلك؛ فكان مستحقاً لأعظم المحامد والمدائح.

أما على مذهب الجبر لا قبيح إلا وهو فعله، ولا جور إلا وهو حكمه، ولا عيب إلا وهو صنعه؛ لأنه يخلق الكفر في الكافر، ثم يعذبه عليه، ويؤلم الحيوانات من غير أن يعوضها، فكيف يُعقل على هذا التقدير كونه مستحقاً للحمد؟

وأيضاً ذلك الحمد الذي يستحقه الله - تعالى - بسبب الإلهية؛ إما أن يستحقه على

العبد، أو عَلَى نفسه، فإن كان الأول وجب كون العبد قادراً على الفعل؛ وذلك يُبطل القول بالجبر.

وإن كان الثاني كان معناه أن الله تعالى يجب عليه أن يحمّد نفسه؛ وذلك باطل، قالوا: ثبت أن القول بالحمد لا يصح إلا على قولنا.

فصل هل وجوب الشكر يثبت بالعقل أو الشرع؟

اختلفوا في أن وجوب الشكر ثابت بالعقل أو بالسَّمْع.

من الناس من قال: إنه ثابت بالسَّمْع؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولقوله تبارك وتعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومنهم من قال: إنه ثابت^(١) قبل مجيء الشرع، وبعد مجيئه على الإطلاق؛ والدليل عليه قوله تبارك وتعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وبيانه من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» يدل على أن هذا الحمد حقه، وملكه على الإطلاق، وذلك يدل على أن ثبوت هذا الاستحقاق كان قبل مجيء الشرع.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ وقد ثبت في [أصول]^(٢) الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب، يدل على كون الحكم معللاً بذلك الوصف، فها هنا أثبت الحمد لنفسه، ووصف نفسه بكونه رب العالمين رحماناً رحيماً بهم، مالكا لعاقبة أمرهم في القيامة، فهذا يدل على أن استحقاق الحمد ثابت - لله تعالى - في كل الأوقات، سواء كان قبل مجيء النبي، أو بعده.

فصل

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - : تحميد الله - تعالى - ليس عبارة عن قولنا: الحمد لله؛ لأن قولنا: «الحمد لله» إخبار عن حصول الحمد، والإخبار عن الشيء مغاير للخبر عنه، فنقول: حمد المنعم عبارة عن كل فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعماً، وذلك الفعل: إما أن يكون فعل القلب، أو فعل اللسان، أو فعل الجوارح.

أما فعل القلب: فهو أن يعتقد فيه كونه موصوفاً بصفات الكمال والإجلال.

وأما فعل اللسان فهو أن يذكر ألفاظاً دالة على كونه موصوفاً بصفات الكمال [والإجلال]^(٣).

(١) في أ: ثبت.

(٢) سقط في ب.

(٣) سقط في أ.

[وأما فعل الجوارح؛ فهو أن يأتي بأفعالٍ دالّةٍ على كَوْنِ المنعمِ مَوْصُوفاً بصفات الكمال والإجلال]^(١).

واعلم أن أهل العلم - رحمهم الله - افترقوا في هذا المقام فرقاً كثيرة: فمنهم مَنْ قال: إنه لا يجوزُ عقلاً أن يأمرَ الله عبيدهُ بأن يَحْمَدُوهُ، واحتجوا عليه بوجوه:

الأول: أن ذلك التحميد، إما أن يكونَ بناءً على إنعامٍ وَصَلَ إليهم، أو لا بناءً عليه، فالأول باطل؛ لأن هذا يقتضي أنه - تعالى - طلبَ منهم على إنعامِهِ جزاءً ومُكَافأةً، وذلك يقدحُ في كَمالِ الكرم، فإنَّ الكريم إذا أنعم لم يطالبَ بالمُكَافأة. وأما الثاني: فهو إِتْعَابٌ لِلْغَيْرِ ابْتِدَاءً، وذلك يُوجِبُ الظُّلْمَ.

الثاني: قالوا: إنَّ الاشتغالَ بهذا الحمدِ مُتَعَبٌ للحامدِ، وغيرُ نافعٍ للمحمودِ، لأنه كَامِلٌ لذاته، والكمال [لذاته] يستحيلُ أن يستكملَ بغيره، فثبت أنَّ الاشتغالَ بهذا التحميدِ عَبَثٌ وَضَرَرٌ، فوجب ألا يكونَ مشروعاً.

الثالث: أن مَعْنَى الإِيجَابِ: أنه لو لم يفعلْ لاسْتَحَقَّ العذابَ، فإِيجَابُ حَمْدِ اللَّهِ تعالى معناه: أنه لو لم تشغَلْ بهذا الحمدِ، لَعَاقَبْتُكَ، وهذا الحمدُ لا نفعَ لَهُ في حَقِّ اللَّهِ تبارك وتعالى، فكان معناه أن هذا الفعلَ لا فائِدةَ فيه لأحدٍ، ولو تركته [لعاقبتك]^(٢) أَبَدَ الآبَادِ، وهذا لا يَلِيْقُ بِالْحَلِيمِ الكريمِ.

والفريقُ الثاني: قالوا: الاشتغالُ بِحَمْدِ اللَّهِ - تعالى - سُوءُ آدَبٍ من وجوه:

الأول: أنه يَجْرِي مَجْرَى مَقَابِلَةِ إِحْسَانِ اللَّهِ بِذلك الشُّكْرِ القَلِيلِ.

والثاني: أنَّ الاشتغالَ بالشُّكْرِ لا يَتَأْتِي إلَّا مع استحضارِ تلك النِّعَمِ في القلبِ، واشتغالُ القلبِ بالنعمِ يمنعه من الاستِغْراقِ في مَعْرِفَةِ المُنْعَمِ.

والثالث: أنَّ الثناءَ على اللَّهِ - تعالى - عند وَجْدَانِ النِّعْمَةِ يدلُّ على أنه إِنَّمَا أَتَى عليه؛ لأجلِ الفوزِ بتلك النعمِ، وهذا الرَّجُلُ في الْحَقِيقَةِ مَغْبُودُهُ، وَمَطْلُوبُهُ إِنَّمَا هو تلك النِّعَمِ، وحَظُّ النَّفْسِ، وذلك مقامٌ نازلٌ.

وهذانِ مَرْدُودَانِ بما تَقَدَّمَ ويأْنُ أفعاله وأقواله وأسماءه لا مدخلُ للعقلِ فيها، فقد سَمَّى رُوحَهُ مَآكِراً بقوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ومتكبراً وغيرَ ذلك ممَّا تَقَدَّمَ في أسمائه من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] وغيره.

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّمَا وَرَدَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْمُقَابَلَةُ، قُلْنَا: نُسَلِّمُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ سَمِيَ نَفْسَهُ بِهِ، وَنَحْنُ لَا يَجُوزُ لَنَا تَسْمِيَتُهُ بِهِ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ وَرُودُهُ فِي الشَّرْعِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرَّبُّ: لُغَةً: السَيِّدُ، وَالْمَالِكُ، وَالثَّابِتُ وَالْمَعْبُودُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: [الطويل]

٤٦ - أَرَبٌ يَبُولُ الثُّغْلَبَانَ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَثَ عَلَيْهِ الشَّعَالِبُ^(١)

وَالْمُضْلِحُ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ بِمَعْنَى: الصَّاحِبِ؛ وَأَنشَدَ الْقَائِلُ: [الكامل]

٤٧ - قَدْ نَالَهُ رَبُّ الْكِلاَبِ بِكَفِّهِ بِيضٌ رِهَابٌ رِيْشُهُنَّ مُقَرَّعٌ^(٢)

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ - هُنَا - بِمَعْنَى الْمَالِكِ، فَلَيْسَ هُوَ مَعْنَى زَائِدًا.

وَقِيلَ: يَكُونُ بِمَعْنَى الْخَالِقِ.

وَاخْتَلَفَ فِيهِ: هَلْ هُوَ فِي الْأَصْلِ وَصْفٌ أَوْ مُصَدَّرٌ؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: [هُوَ وَصْفٌ أَيْ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِمَعْنَى «مُرَبٍّ»]^(٣)، ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي

وِزْنِهِ.

[فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ]^(٤): هُوَ عَلَى «فَعِيلٍ» كَقَوْلِكَ: «نَمَّ - يَنُمُّ - فَهُوَ نَمٌّ» مِنَ التَّمَامِ، بِمَعْنَى

عَمَّازٍ.

وَقِيلَ: وَزْنُهُ «فَاعِلٍ»، وَأَصْلُهُ: «رَابٌّ»، ثُمَّ حُذِفَتِ الْأَلْفُ؛ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ؛

لِقَوْلِهِمْ: رَجُلٌ بَارٌّ وَبَرٌّ.

وَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: لَا نَسْلَمُ أَنْ «بَرٌّ» مَأْخُوذٌ مِنْ «بَارٌّ» بَلْ هُمَا صِفَتَانِ مُسْتَقْلَتَانِ، فَلَا

يَتَّبَعِي أَنْ يَدْعَى أَنْ «رَبًّا» أَصْلُهُ «رَابٌّ».

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُصَدَّرٌ «رَبَّةٌ - يَرُبُّهُ - رَبًّا» أَيْ: مَلَكَةٌ.

(١) البيت للعباس بن مرداس ينظر ملحق ديوانه ص ١٥١، وللعباس أو لغاري بن ظالم السلمي، أو لأبي

ذر الغفاري ينظر لسان العرب: ٣٧/١ (ثعلب)، ولراشد بن عبد ربه في الدرر: ١٠٤/٤، وشرح

شواهد المغني ص ٣١٧، وأدب الكاتب: ص ١٠٣، ٢٩٠، ومغني اللبيب: ص ١٠٥، وجمهرة

اللغة: ص ١١٨١، وجمع الهوامع: ٢٢/٢، والبداءة والنهاية: ٩٢/٥، الاستيعاب: ٥٠٥، الإصابة:

٢٥١٣، الأصنام لابن الكلبي: ٣١، القاموس: ٤١/١، المحرر الوجيز: ٦٧/١، الدرر: ٦٧/١.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. ينظر ديوان الهذليين: ١٤١/١، لسان العرب (رهب)، مجمع البيان: ١/

٤٥، الدرر: ٦٧/١.

(٣) سقط في أ.

(٤) سقط في ب.

قال: «لَأَنْ يَرْبِّي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرْبِّي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ». فهو مصدر في معنى الفاعل نحو: «رجل عدل وصوم».

ولا يُطْلَقُ على غير الباري - تعالى - إلا بقيد إضافية؛ نحو قوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، ويقولون: «هو رَبُّ الدَّارِ، وَرَبُّ الْبَعِيرِ»، وقد قالته الجاهلية لِلْمَلِكِ مِنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ؛ قال الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ^(١): [الخفيف]

٤٨ - وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْمِ الْحِيَارَيْنِ وَالْبَلَاءِ بَلَاءً^(٢) وهذا مِنْ كُفْرِهِمْ.

وقرأ الجمهور: «رَبِّ» مجروراً على النعت «لله»، أو البدل منه. وقرئ منضوباً^(٣)، وفيه ثلاثة أوجه:

إِمَّا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَمْدُ، تَقْدِيرُهُ: «أحمد»^(٤) رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أو على القطع من التبعية، أو على النداء وهذا أضعفها، لأنه يُؤدِّي إلى الفضل بين الصفة والموصوف.

وقرئ^(٥) مَرْفُوعاً على القَطْعِ من التبعية، فيكونُ خبراً لمبتدأٍ مَحذُوفٍ، أي: «هُوَ رَبُّ» وإذ قد عرض ذِكْرُ القَطْعِ في التَّبَعِيَّةِ، فلنستطرذ ذِكْرَهُ، لِعُمُومِ فَائِدَتِهِ فنقول: اعلم أن الموصوف إذا كان معلوماً بدون صفته، وكان الوصف مَذْحاً، أو ذمّاً، أو ترحمّاً - جاز في الوصف الإتيان والقطع.

والقطع: إما على النصب بإضمار فعل لائقي، وإما على الرفع على خبرٍ لمبتدأٍ مَحذُوفٍ، ولا يجوزُ إظهارُ هذا الناصبِ، ولا هذا المبتدأِ، نحو قولهم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلُ الْحَمْدِ» رُوي بنصب «أهل» ورفعهِ، أي: أغني أهل، أو هو أهلُ الحمدِ. وإذا تكررت الثعوثُ، والحالة هذه، كُنْتَ مُخَيَّراً بين ثلاثة أوجه:

(١) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق. وهو أحد أصحاب المعلقة. كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالبحيرة، ومطلعها: «أذنتنا بينها أسماء» جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم. وفي الأمثال «أفخر من الحارث بن حلزة» إشارة إلى إكثاره من الفخر في معلقته هذه. له «ديوان شعر». ينظر الأعلام: ٢/ ١٥٤، الأغاني: ١١/ ٤٢.

(٢) ينظر شرح المعلقة للتبريزي: ٤٥٣، اللسان: حير، شرح المعلقة السبع للزوزني: ١٣٩، الصحاح: ١٣٠/ ١، تفسير القرطبي: ٩٦/ ١، الدر: ٦٧/ ١.

(٣) وهي قراءة زيد بن علي. ينظر البحر المحيط: ١٣١/ ١.

(٤) في أ: الحمد.

(٥) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون: ٦٧/ ١.

إما إِتْبَاعُ الْجَمِيعِ، أَوْ قَطْعُ الْجَمِيعِ، أَوْ قَطْعُ الْبَعْضِ، وَإِتْبَاعُ الْبَعْضِ.

إِلَّا أَنَّكَ إِذَا اتَّبَعْتَ الْبَعْضَ، وَقَطَعْتَ الْبَعْضَ وَجِبَ أَنْ تَبْدَأَ بِالْإِتْبَاعِ، ثُمَّ تَأْتِي بِالْقَطْعِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، نَحْوُ: «مَرَرْتُ بِزَيْدِ الْفَاضِلِ الْكَرِيمِ»؛ لِئَلَّا يُلْزَمَ الْفَصْلُ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ بِالْجُمْلَةِ الْمُقْطُوعَةِ.

و «الْعَالَمِينَ» خَفَضَ بِالإِضَافَةِ، عَلَامَةٌ خَفَضِهِ الْيَاءُ؛ لِجَرِيَانِهِ مَجْرَى جَمْعِ الْمَذْكُورِ السَّالِمِ، وَهُوَ اسْمٌ جَمْعٌ؛ لِأَنَّ وَاحِدَهُ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعاً لـ «عَالَمٍ»؛ لِأَنَّ الصَّحِيحَ فِي «عَالَمٍ» أَنْ يُطْلَقَ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى الْبَارِي تَعَالَى، لِاشْتِقَاقِهِ مِنَ الْعَلَامَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى صَانِعِهِ.

و «عَالَمُونَ» بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى الْعُقُلَاءِ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَاسْتِحَالُ أَنْ يَكُونَ «عَالَمُونَ» جَمْعَ «عَالَمٍ»؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ لَا يَكُونُ أَحْصَى مِنَ الْمُفْرَدِ.

وَهَذَا نَظِيرُ مَا فَعَلَهُ سَيِّبُوهُ^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي أَنَّ «أَعْرَاباً» لَيْسَ جَمْعاً لـ «عَرَبٍ»؛ لِأَنَّ «عَرَباً» يُطْلَقُ عَلَى الْبَدَوِيِّ دُونَ الْقُرَوِيِّ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «عَالَمُونَ» جَمْعاً لـ «عَالَمٍ» مُرَاداً بِهِ الْعَاقِلُ دُونَ غَيْرِهِ، فَيَزُولُ الْمَحْذُورُ الْمَذْكُورُ؟

وَأَجِيبَ عَنْهُ: بِأَنَّهُ لَوْ جَازَ ذَلِكَ، لَجَازَ أَنْ يُقَالَ: «شَيْثُونَ» جَمْعُ «شَيْءٍ» مُرَاداً بِهِ الْعَاقِلُ دُونَ غَيْرِهِ، فَدَلَّ عَدَمُ جَوَازِهِ عَلَى عَدَمِ ادِّعَاءِ ذَلِكَ.

وَفِي الْجَوَابِ نَظَرٌ، إِذْ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: «شَيْثُونَ» مَنَعَ مِنْهُ مَانِعٌ آخَرُ، وَهُوَ كَوْنُهُ لَيْسَ صِفَةً وَلَا عِلْماً، فَلَا يُلْزَمُ مِنْ مَنَعَ ذَلِكَ مَنَعَ «عَالَمِينَ» مُرَاداً بِهِ الْعَاقِلُ.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا نَقَلَ الرَّاعِبُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أَنَّ «عَالَمِينَ» إِنَّمَا جَمْعُ هَذَا الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ^(٢) أَيْضاً: «إِنَّ الْعَالَمَ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِمَا يُعْلَمُ بِهِ كَالطَّائِعِ اسْمٌ لِمَا يُطَبَّعُ» وَجُعِلَ بِنَاؤُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّغَةِ، لِكَوْنِهِ كَالْآلَةِ، فَالْعَالَمُ آلَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى صَانِعِهِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ: «وَأَمَّا جَمْعُهُ جَمْعَ السَّلَامَةِ، فَلِكُونِ النَّاسِ فِي جُمْلَتِهِمْ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا شَارَكَ غَيْرَهُ فِي اللَّفْظِ غَلَبَ حُكْمُهُ»، فَظَاهِرُ هَذَا أَنَّ «الْعَالَمِينَ» يُطْلَقُ عَلَى الْعُقُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ اخْتِصَاصِهِ بِالْعُقُلَاءِ، كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ، وَكَلَامُ الرَّاعِبِ هُوَ الْأَصَحُّ الظَّاهِرُ.

فصل في وجوه تربية الله لعبده

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى - : «وجوه تربية الله للعبد كثيرة غير مُتَنَاهِيَةٍ، ونحن نذكر منها أمثله :

الأول : لما وَقَعَتِ النَّطْفَةُ مِنْ صُلْبِ الْأَبِ إِلَى رَحِمِ الْأُمِّ، فَرَبَّاهَا حَتَّى صَارَتْ عَلَقَةً أَوَّلًا، ثُمَّ مُضْغَةً ثَانِيَةً، ثُمَّ تَوَلَّدَتْ مِنْهُ أَعْضَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ، مِثْلُ الْعِظَامِ، وَالْعَصَافِرِيفِ، وَالرَّبَاطَاتِ، وَالْأَوْتَارِ، وَالْأَوْرَدَةِ، وَالشَّرَافِينَ، ثُمَّ اتَّصَلَ الْبَعْضُ بِالْبَعْضِ، ثُمَّ حَصَلَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَوْعٌ خَاصٌّ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُوَى، فَحَصَلَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ فِي الْعَيْنِ، وَالسَّمِيعَةُ فِي الْأُذُنِ، وَالنَّاطِقَةُ فِي اللِّسَانِ، فَسُبْحَانَ مَنْ بَصَّرَ بِشَخْمٍ، وَأَسْمَعَ بِعَظْمٍ، وَأَنْطَقَ بِلَحْمٍ!.

والثاني : أَنْ الْحَبَّةَ الْوَاحِدَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا وَصَلَتْ نَدَاوَةَ الْأَرْضِ إِلَيْهَا، انْتَفَخَتْ وَلَا تَنْشَقُّ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْجَوَانِبِ إِلَّا مِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا، مَعَ أَنَّ الْانْتِفَاحَ حَاصِلٌ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ.

أَمَّا الشَّقُّ الْأَعْلَى، فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْجُزْءَ الصَّاعِدُ، فَبَعْدَ صَعُودِهِ يَحْصُلُ لَهُ سَاقٌ، ثُمَّ يَنْفَصِلُ مِنْ ذَلِكَ السَّاقِ أَغْصَانٌ كَثِيرَةٌ، ثُمَّ يَظْهَرُ عَلَى تِلْكَ الْأَغْصَانِ الْأَنْوَارُ أَوَّلًا، ثُمَّ الثَّمَارُ ثَانِيًا، وَيَحْصُلُ لِتِلْكَ الثَّمَارِ أَجْزَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ بِالْكَثَافَةِ، وَاللِّطَافَةِ، وَهِيَ الْقُشُورُ، وَاللُّبُوبُ، ثُمَّ الْأَدْهَانُ.

وَأَمَّا الْجُزْءُ الْغَائِضُ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ الْعُرُوقَ تَنْتَهِي إِلَى أَطْرَافِهَا، وَتِلْكَ الْأَطْرَافُ تَكُونُ فِي اللَّطَافَةِ كَأَنَّهَا مِيَاهٌ مَنْعَقِدَةٌ، وَمَعَ غَايَةِ لُطْفِهَا، فَإِنَّهَا تَغُوصُ فِي الْأَرْضِ الصَّلْبَةِ الْيَابِسَةِ، وَأَوْدَعُ فِيهَا قُوَى جاذِبَةٌ تَجْذِبُ اللَّطِيفَةَ مِنَ الطِّينِ إِلَى نَفْسِهَا، وَالْحِكْمَةُ فِي كُلِّ هَذِهِ التَّنْذِيرَاتِ تَحْصِيلُ مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ مِنَ الْغَذَاءِ، وَالْإِدَامِ، وَالْفَوَاكِهَ، وَالْأَشْرِيَّةَ، وَالْأَذْوِيَّةَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦].

فَصْلٌ

اختلفوا في ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هُمُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ»^(٢)؛ لِأَنَّهُمُ الْمَكْلُفُونَ بِالْخِطَابِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

(١) ينظر الفخر الرازي: ١/١٨٨.

(٢) أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وصححه من طرق عن ابن عباس كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/٣٦).

وقال قتادة^(١)، والحَسَنُ، ومُجَاهِدٌ - رضي الله تعالى عنهم -: «جميعُ المخلوقين»؛ قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

واشْتَقَّاهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَلَامَةِ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِظَهْوَرِ أَثَرِ الصَّنْعَةِ فِيهِمْ.
قال أَبُو عُبَيْدٍ^(٢) - رحمه الله تعالى -: هم أَرْبَعُ أُمَمٍ: الملائكة، والإنس، والجن، والشَّيَاطِينُ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَعْقُلُ.
واخْتَلَفُوا فِي مَبْلَغِهِمْ.
قال سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ^(٣) - رضي الله عنه -: «لِلَّهِ أَلْفُ عَالَمٍ: سِتْمِائَةِ فِي الْبَحْرِ، وَأَرْبَعَمِائَةِ فِي الْبَرِّ»^(٤).

(١) قتادة بن دُعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري الأكمه، أحد الأئمة الأعلام، حافظ مدلس قال ابن المسيَّب: ما أتاني عراض أحفظ من قتادة. وقال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس. وقال ابن مَهْدِي: قتادة أحفظ من خمسين مثل حميد. قال حماد بن زيد: توفي سنة سبع عشرة ومائة، وقد احتج به أرباب الصحاح.

ينظر طبقات ابن سعد: ١٥٦/٩، معرفة الثقات: ١٥١٣، سير الأعلام: ٢٦٩/٥، الثقات: ٣٢٢/٥، تراجم الأخبار: ٢٦٤/٣، الحلية: ٢٣٣/٢، لسان الميزان: ٣٤١/٧، ميزان الاعتدال: ٣٨٥/٣، تهذيب الكمال: ١١٢١/٢، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٥٠/٢.

(٢) القاسم بن سلام أبو عبيد البغدادي، أحد أئمة الإسلام فقهاً، ولغة وأدباً، أخذ العلم عن الشافعي، والقراءات عن الكسائي وغيره. قال ابن الأنباري: كان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً، فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنف ثلثه. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: عرضت كتاب «الغريب» لأبي عبيد على أبي فاستحسنه، وقال: جزاه الله خيراً. توفي سنة ٢٢٤. انظر: ط. ابن قاضي شهبة: ٦٧/١، ط. ابن سعد: ٣٥٥/٧، وإنباه الرواة: ١٢/٣. وطبقات الشافعية للإسنوي: ص ١١، تهذيب الأسماء واللغات: ٣٠/٢، طبقات الفقهاء للعبادي: ص ٢٥.

(٣) سعيد بن المسيَّب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عابد بن مخزوم المخزومي أبو محمد المدني الأعور، رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقههم. ولد سنة خمس عشرة. عن عمر وأبي، وأبي ذر وأبي بكرة وعلي وعثمان وسعد في البخاري ومسلم وطائفة. وعنه الزهري وعمرو بن دينار وقاتة وبكير بن الأشج ويحيى بن سعيد الأنصاري وخلق. قال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه. وقال أحمد: مراسلات سعيد صحاح سمع من عمر. وقال مالك: لم يسمع منه، ولكنه أكب على المسألة في شأنه وأمره حتى كأنه رآه. وقال أبو حاتم: هو أثبت التابعين في أبي هريرة قال أبو نعيم: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال الواحدي سنة أربع.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٥٠٤/١، تهذيب التهذيب: ٨٤/٤، تقريب التهذيب: ٣٠٥/١، ٣٠٦، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٩٠/١، الكاشف: ٣٧٢/١، الثقات: ٢٧٣/٤، تاريخ البخاري الكبير: ٥١٠/٣، الجرح والتعديل: ٢٦٢/٤، شذرات: ١٠٢/١، تذكرة الحفاظ: ٥٤/١، الحلية: ١٦١/٢، الوافي بالوفيات: ٢٦٢/٤. طبقات ابن سعد: ٨٢/٩.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٧/١) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وقال مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ^(١) - رضي الله عنه -: «تَمَانُونَ أَلْفًا، أَرْبَعُونَ أَلْفًا فِي الْبَحْرِ، وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا فِي الْبَرِّ».

وقال وَهْبٌ^(٢) - رضي الله عنه -: «لِلَّهِ تَمَانِيَّةٌ عَشَرَ أَلْفِ عَالَمٍ، الدُّنْيَا عَالَمٌ مِنْهَا، وَمَا الْعَمْرَانِ فِي الْخَرَابِ إِلَّا كَفُسْطَاطٍ فِي صَخْرَاءٍ»^(٣).

وقال كَعْبُ الْأَحْبَارِ - رضي الله عنه -: «لَا يُخْصِي عَدَدَ الْعَالَمِينَ إِلَّا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -»؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾
قوله تعالى: ﴿الْكَافِرُ الرَّجِيمُ﴾.

نَعْتُ أَوْ بَدَلٌ - وقرئنا منصوبين^(٤)، وَمَرْفُوعَيْنِ، وَتَوْجِيهُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ فِي: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وَتَقْدِمُ الْكَلَامِ عَلَى اشْتِقَاقِهِمَا فِي «الْبَسْمَلَةِ» فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

قوله تعالى: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً أَيْضًا، أَوْ بَدَلًا، وَإِنْ كَانَ الْبَدَلُ بِالمُشْتَقِّ قَلِيلًا. وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ «الْمَلِكِ» - بفتح الميم - وهو: الشَّدُّ وَالرِّبْطُ، قَالَ الشَّاعِرُ فِي ذَلِكَ: [الطويل]

٤٩ - مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ فَتَنْقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونَهَا مَا وَرَاءَهَا^(٥)
ومنه: إِمْلَاكُ الْعُرُوسِ؛ لِأَنَّهُ عَقْدٌ، وَرَبْطٌ لِلنِّكَاحِ.

(١) مقاتل بن حيان بتحتانية البكري، مولا هم النبطي أبو بسطام البلخي الخراز أوله معجمة ثم مهملة. عن مجاهد، وعروة وسالم. وعنه إبراهيم بن أدهم وابن المبارك. وثقه ابن معين. ينظر: الخلاصة: ٣/ ٥٣، تقريب التهذيب: ٢/ ٢٧٢، الكاشف: ٣/ ١٧١، تاريخ أسماء الثقات: ١٣٨٢.

(٢) وهب بن منبه الأنباري الصنعاني الذماري، مؤرخ، عالم بأساطير الأولين ولد في ٣٤هـ ولاء عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء، يروى أنه صحب ابن عباس، واتهم بالقدر وجس. له قصص الأنبياء، وقصص الأخبار توفي في ١١٤هـ.

ينظر المعارف: ٢٠٢، شذرات الذهب: ١/ ١٥٠، ابن سعد: ٥/ ٣٩٥، حلية: ٤/ ٢٣، طبقات الخواص: ١٦١، المناوي: ١٧٨، الأعلام: ٨/ ١٢٥.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور»: (٣٧/١) وعزه لأبي الشيخ، وأبي نعيم عن وهب.

(٤) انظر البحر المحيط: ١/ ١٣٢، وقد نصبهما «أبو العالية»، و«ابن السميع»، و«عيسى بن عمر». ورفعهما «أبو رزين العقيلي»، و«الربيع بن خثيم» و«أبو عمران الجوني».

(٥) البيت لقيس بن الخطيم. ينظر ديوانه: ٣، حماسة أبي تمام بشرح التبريزي: ١/ ١٧٨، المرزوقي: ٢/ ٥١، القرطبي: ١/ ١٦٦، مشكل القرآن لابن قتيبة: ١٧٤، ديوان المعاني: ٢/ ٥١، المختار من شعر بشار: ٩١، البحر المحيط: ٨/ ١٨٤، الأغاني: ٣/ ١٦٠، الصحاح: ٤/ ١٦١١، اللسان: ملك، الحجة: ٩/ ١، روح المعاني: ٨٣/ ١، الدر: ٦٩/ ١.

وَقُرِئَ^(١): «مَالِك» بِالْأَلْفِ.

قال الأخفش^(٢) - رحمه الله تعالى - يُقال: مَلِكٌ بَيْنَ الْمُلْكِ - بضم الميم، و «مَالِك» من «الْمِلْك» بفتح الميم وكسرها.

وروي ضمُّها - أيضاً - بهذا المعنى.

وروي عن العرب: «لِي فِي هَذَا الْوَادِي مَلِكٌ وَمُلْكٌ وَمِلْكٌ» مُثَلَّثُ الْفَاءِ، ولكن المعروف الفرقُ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ:

فَالْمَقْتُوحُ: الشَّدُّ وَالرَّيْبُ.

والمضموم: هو الْقَهْرُ والتسلُّطُ على من يتأتى منه الطاعة، ويكون باستحقاقٍ وَغَيْرِهِ، والمقصور: هو التَّسَلُّطُ عَلَى مَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ وَمَنْ لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْتِحْقَاقٍ؛ فَيَكُونُ بَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْمَضْمُومِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهِ.

وقال الرَّائِبُ^(٣): الْمِلْكُ أَيْ «بِالْكَسْرِ» كَالْجِنْسِ لِلْمَلِكِ، أَيْ «بِالضَّم» فَكُلُّ مِلْكٍ «بِالْكَسْرِ» مَلِكٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مَلِكٍ مِلْكًا، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مُطْلَقٌ، وَبِهَذَا يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَلِكٍ وَمَالِكٍ، فَإِنَّ مَلِكًا مَأْخُودَةً مِنَ الْمُلْكِ بِالضَّمِّ وَمَالِكًا مَأْخُودَ مِنَ الْمَلِكِ «بِالْكَسْرِ» وَقِيلَ: إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْمَلِكَ: اسْمٌ كُلُّ مَنْ يَمْلِكُ السِّيَاسَةَ، إِمَّا فِي نَفْسِهِ، بِالتَّمَكُّنِ مِنْ زِمَامِ قَوَاهِ وَصَرْفِهَا عَنْ هَوَاهَا.

وإِمَّا فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، سَوَاءً تَوَلَّى ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَتَوَلَّ.

وقد رَجَّحَ كُلُّ فَرِيقٍ إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى تَرْجِيحًا يَكَادُ يَسْقُطُ الْقِرَاءَاتِ الْأُخْرَى، وَهَذَا غَيْرُ مَرْضِيٍّ؛ لِأَنَّ كِلْتَايَهُمَا مُتَوَاتِرَةٌ، وَبَدَلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ - رحمه الله تعالى - أَنَّهُ قَالَ: إِذَا اخْتَلَفَ الْإِعْرَابُ فِي الْقُرْآنِ عَنِ السَّبْعَةِ، لَمْ أَفْضَلْ إِعْرَابًا عَلَى إِعْرَابٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا خَرَجْتُ إِلَى كَلَامِ النَّاسِ، فَضَّلْتُ الْأَقْوَى. نقله أَبُو عَمْرٍو الزَّاهِدُ فِي «الْيَوَاقِيتِ».

قال أَبُو شَامَةَ^(٤) - رحمه الله - قَدْ أَكْثَرَ الْمُصَنِّفُونَ فِي الْقِرَاءَاتِ وَالتَّفَاسِيرِ مِنَ التَّرْجِيحِ

(١) وبها قرأ عاصم، والكسائي. ينظر السبعة: ١٠٤، والحجة للفراسي: ٥/١.

(٢) ينظر معاني القرآن: ٥٥٠.

(٣) ينظر المفردات: ٤٩٣.

(٤) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي أبو القاسم: شهاب الدين أبو شامة، مؤرخ محدث باحث. توفي سنة ٦٦٥هـ. فوات الوفيات: ٢٥٢/١، بغية الوعاة: ٢٩٧، غاية النهاية: ١/٣٦٥، الأعلام: ٢٩٩/٣.

بَيْنَ هَاتَيْنِ الْقِرَاءَتَيْنِ، حتى أن بعضهم يبالغ في ذلك إلى حد يكاد يسقط وجه القراءة الأخرى، وليس هذا بِمَحْمُودٍ بعد ثبوتِ الْقِرَاءَتَيْنِ، وَصَحَّةِ اتِّصَافِ الرَّبِّ - سبحانه وتعالى - بهما حتى إني أَصَلِّيُ بهذه في رَكْعَةٍ، وبهذه في رَكْعَةٍ، ذكر ذلك عند قَوْلِهِ تعالى: مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ. وَرَوَى الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجَعْفِيُّ، وَعَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ^(١)، عَنْ أَبِي عَمْرٍو^(٢): «مَلِكٌ» بِجَزْمِ اللَّامِ عَلَى الثَّغَةِ أَيْضاً.

وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ^(٣)، وَمُحَمَّدُ بْنُ السَّمِيعِ^(٤)، وَأَبُو عَبْدِ الْمَلِكِ^(٥) قَاضِي الْجُنْدِ: «مَا لِكَ» بِنَصْبِ الْكَافِ عَلَى النَّدَاءِ. رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ: يَا مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ، وَقُرِءَ بِنَصْبِ الْكَافِ مِنْ غَيْرِ أَلْفِ النَّدَاءِ أَيْضاً، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ^(٦)، وَقَرَأَ عَوْنُ

(١) عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان التميمي العنبري مولاهم أبو عبيدة التنوري البصري أحد الأعلام، رمي بالقدر ولم يصح. عن عبد العزيز بن صهيب وأبي التياح وأيوب وسليمان التيمي وخلق. وعنه ابنه عبد الصمد والقطان وعفان بن مسلم وخلاتق. قال النسائي: ثقة ثبت. وقال الحافظ الذهبي: أجمع المسلمون على الاحتجاج به. قال ابن سعد: توفي سنة ثمانين ومائة. ينظر الخلاصة: ١٨٥/٢، تهذيب التهذيب: ٤٤١/٦ (٩٢٣)، تقريب التهذيب: ٥٢٧/١ (١٣٩٤)، البداية والنهاية: ١٧٦/١٠، طبقات ابن سعد: ٣٠٨/٧، الثقات: ١٤٠/٧.

(٢) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني النحوي المقرئ. أحد القراء السبعة المشهورين، توفي سنة ١٥٤ هـ. بغية الوعاة: ٢٣١/٢.

(٣) سليمان بن مهران الكاهلي، مولاهم، أبو محمد الكوفي الأعمش، أحد الأعلام الحفاظ والقراء. قال ابن المديني: له نحو ألف وثلاثمائة حديث. وقال ابن عيينة: كان أقرأهم وأحفظهم وأعلمهم. وقال عمرو بن علي: كان يسمى الْمُضَحَّفَ لصدقه. وقال العجلي: ثقة ثبت، يقال: ظهر له أربعة آلاف حديث ولم يكن له كتاب، وكان فصيحاً وقال النسائي: ثقة ثبت وعده في المدلسين. قال أبو نعيم: مات سنة ثمان وأربعين ومائة، عن أربع وثمانين سنة.

ينظر الثقات: ٣٠٢/٤، تهذيب التهذيب: ٢٢٢/٤، تقريب التهذيب: ٣٣١/١، تاريخ البخاري الكبير: ٣٧/٤، الجرح والتعديل: ٦٣٠/٤، سير الأعلام: ٢٢٦/٦.

(٤) محمد بن عبد الرحمن بن السميع بفتح السين أبو عبد الله اليماني، له اختيار في القراءة ينسب إليه شد فيه أخبرني به الإمام محمد بن عبد الرحمن الصائغ قال قرأته على الحافظ عبد الكريم بن منير الحلبي وقرأته على ابن اللبان عن ابن منير بسنده إلى أبي معشر الطبري، وقد أفرده الحافظ أبو العلاء الهمداني وذكر أنه قرأ به على أبي العز القلانسي عن غلام الهراس ذكر أنه قرأ على أبي حيوة شريح بن يزيد عن أبي البرهسم، وقيل إنه قرأ على نافع وقرأ أيضاً على طاوس بن كيسان عن ابن عباس كذا قال الحافظ أبو العلاء.

ينظر الغاية: ١٦٢/١، ١٦٣.

(٥) أبو عبد الملك الشامي قاضي الجند، عرض على يحيى بن الحارث الذماري، روى القراءة عنه أيوب بن تميم، أبو عبيد القاسم بن سلام.

ينظر غاية النهاية: ت (٢٥٢١).

(٦) عطية بن قيس أبو يحيى الكلبي الحمصي الدمشقي تابعي قارئ دمشق بعد ابن عامر ثقة، ولد سنة سبع في حياة النبي ﷺ، وردت الرواية عنه في حروف القرآن عرض القرآن على أم الدرداء.

العُقَيْلِيُّ^(١) بِالْأَلْفِ وَرَفَعَ الْكَافَ، عَلَى مَعْنَى: «هُوَ مَالِك».

وقرأ أَبُو حَيَّوَةَ شُرَيْحَ بْنَ يَزِيدَ^(٢): بِرَفْعِ الْكَافِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ.

وقرأ يَحْيَى بْنُ يَعْمُرَ^(٣) «مَالِك» بِالْإِمَالَةِ وَالِإِضْجَاعِ الْبَلِيغِ. وقرأ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: بَيْنَ الْإِمَالَةِ وَالتَّفْخِيمِ، وَرَوَاهَا قُتَيْبَةُ عَنِ الْكِسَائِيِّ^(٤).

وقرأ الْحَسَنُ «مَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ» عَلَى الْفِعْلِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي حَنِيفَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - وَرُوِيَ أَيْضاً عَنْ أَبِي حَيَّوَةَ، وَيَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ فَمِمَّا رَجَحَتْ بِهِ قِرَاءَةُ «مَالِكِ» أَنَّهَا أَمْدَحُ؛ لِعُمُومِ إِضَافَتِهِ، إِذْ يُقَالُ: «مَالِكُ الْجَنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالطَّيْرِ» وَلَا يُقَالُ: «مَلِكُ الطَّيْرِ»؛ وَأَنْشَدُوا عَلَى ذَلِكَ: [الكامل]

٥٠ - سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ [الْوُجُوهُ]^(٥) لِيُوجِهَهُ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْعَفْوِ^(٦)

وَقَالُوا: فَلَأَنَّ مَالِكَ كَذَا، لِمَنْ يَمْلِكُهُ، بِخِلَافِ مَلِكٍ فَإِنَّهُ يُضَافُ إِلَى غَيْرِ الْمُلُوكِ

= قال أبو حاتم صالح الحديث، قال عبد الله بن قيس كان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته وهم جالسون على درج مسجد دمشق من قبل أن يبينه الوليد، مات سنة إحدى وعشرين ومائة وقد جاوز المائة سنة. ينظر غاية النهاية: ٥١٣/١ (٢١٢٥).

(١) عون العقيلي، له اختيار في القراءة أخذ القراءة عرضاً عن نصر بن عاصم، روى القراءة عنه المعلى بن عيسى. ينظر غاية النهاية: ٦٠٦/١ (٢٤٧١).

(٢) شريح بن يزيد أبو حيوة الحضرمي الحمصي صاحب القراءة الشاذة ومقرئ الشام، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وهو والد حيوة بن شريح الحافظ وله اختيار في القراءة، مات في صفر سنة ثلاث ومائتين. ينظر غاية النهاية: ٣٢٥/١ (١٤١٩).

(٣) يحيى بن يعمر الوشقي العدواني، أبو سليمان: أول من نقط المصاحف، كان من علماء التابعين، عارفاً بالحديث والفقه ولغات العرب، من كتاب الرسائل الديوانية، أدرك بعض الصحابة، وأخذ اللغة عن أبيه والنحو عن أبي الأسود الدؤلي، صحب يزيد بن المهلب والي خراسان (سنة ٨٣) وُلِدَ بِالْأَهْوَازِ وَسَكَنَ الْبَصْرَةَ وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةَ ١٢٩ هـ حَيْثُ كَانَ قَاضِيًا.

انظر إرشاد: ٢٩٦/٧، تهذيب: ٣٠٥/١١، بغية الوعاة: ٤١٧، غاية النهاية: ٣٨١/٢، الأعلام: ٨/١٧٧.

(٤) قرأ بها عاصم والكسائي، وكذا يعقوب، وخلف، ووافقهم الحسن والمطوعي، انظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ٧/١، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ٤٧/١، وحجة القراءات لابن زنجلة: ٧٧، والعنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي: ص ٦٧، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٦٣/١. والبحر المحيط: ١٣٣/١، وقال أبو حيان: وهي قراءة العشرة إلا «طلحة»، و «الزبير»، وقراءة كثير من الصحابة، منهم أبي، وابن مسعود، ومعاذ، وابن عباس، والتابعين منهم: قتادة والأعمش.

(٥) في أ: الملوك.

(٦) ينظر البحر: ١٣٨/١، الدر: ٦٩/١.

نحو: «مَلِكِ الْعَرَبِ، وَالْعَجَمِ»، ولأنَّ الزيادة في البناء تدلُّ على الزيادة في المعنى، كما تقدم في «الرحمن»، ولأنَّ ثواب تأليها أكثر من ثواب تألي «مَلِكِ».

ومما رُجِّحَتْ به قراءة «مَلِكِ» ما حكاه الفَارِسِيُّ^(١)، عن ابنِ السَّرَّاجِ^(٢)، عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ وَصَفَ [نَفْسَهُ]^(٣) بِأَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، بقوله: «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، فلا فائِدة في قراءة مَنْ قَرَأَ «مَالِكِ»؛ لأنها تَكَرَّرَ.

قال أَبُو عَلِيٍّ: وَلَا حُجَّةَ فِيهِ؛ لِأَنَّ فِي الشَّنْزِيلِ مِثْلَهُ كَثِيرٌ، يَذْكُرُ الْعَامَّ، ثُمَّ الْخَاصَّ؛ نحو: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال أَبُو حَاتِمٍ^(٤): «مَالِكِ» أَبْلَغُ فِي مَدْحِ الْخَالِقِ، وَ «مَلِكِ» أَبْلَغُ فِي مَدْحِ الْمَخْلُوقِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْمَالِكِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مَلِكٍ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - مَلِكًا كَانَ مَالِكًا [أَيْضًا]^(٥) واختاره ابْنُ الْعَرَبِيِّ.

وَمِنْهَا: أَنَّهَا أَعَمُّ إِذْ تُضَافُ لِلْمَمْلُوكِ وَغَيْرِ الْمَمْلُوكِ، بِخِلَافِ «مَالِكِ»، فَإِنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَّا لِلْمَمْلُوكِ كَمَا تَقْدُمُ، وَلَا شِعَارَهُ بِالْكَثْرَةِ، وَلَأنَّهُ تَمَدَّحٌ تَعَالَى - بِقَوْلِهِ تَعَالَى - «مَالِكِ الْمُلْكِ»، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وَمَلِكٌ مَأْخُوذٌ مِنْهُ [كَمَا تَقْدُمُ، وَلَمْ يَتَمَدَّحْ بِ «مَالِكِ الْمُلْكِ» بِكسر الميم الذي «مالك» مأخوذ منه]^(٦).

وقال قَوْمٌ: «مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ؛ مِثْلُ: قَرِهَيْنِ وَقَارِهَيْنِ، وَحَذِرَيْنِ وَحَاذِرَيْنِ». وَيُقَالُ: الْمَلِكُ وَالْمَالِكُ: هُوَ الْقَادِرُ عَلَى اخْتِرَاعِ الْأَعْيَانِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ

(١) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي: أحد الأئمة في علم العربية. ولد في فسا (من أعمال فارس). ودخل بغداد سنة ٣٠٧هـ، وتجوّل في كثير من البلدان، وفد حلب سنة ٣٤١هـ، فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه، وتقدّم عنده، فعلمه النحو، وصنّف له كتاب «الإيضاح» في قواعد العربية. ولد سنة ٢٨٨هـ وتوفي سنة ٣٧٧هـ. انظر وفيات الأعيان: ١/ ١٣١، نزهة الألبا: ٣٨٧، الأعلام: ١٧٩/٢.

(٢) محمد بن السري بن سهل، أبو بكر، أحد أئمة الأدب والعربية، من أهل بغداد ويقال: ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله، كان عارفاً بالموسيقى من كتبه الأصول، الشعر والشعراء، الخط والهجاء، العروض وغيرها توفي شاباً في ٣١٦هـ. ينظر بغية الوعاة: ٤٤، الوفيات: ٥٠٣/١، طبقات النحويين واللغويين: ١٢٢، الوافي: ٨٦/٣، نزهة الألبا: ٣١٣، الأعلام: ١٣٦/٦.

(٣) سقط في أ.

(٤) سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم أبو حاتم السجستاني صاحب إعراب القرآن وغير ذلك، توفي سنة خمسين - أو خمس وخمسين - أو أربع وخمسين أو ثمان وأربعين ومائتين، وقد قارب التسعين. ينظر البغية: ٦٠٦/١ - ٦٠٧.

(٥) سقط في ب. (٦) سقط في أ.

أحد غير الله تعالى . وجمع «مَالِكٍ» : مُلَاكٌ وَمُلْكٌ ، وَجَمْعُ «مَلِكٍ» : أَمْلَاكٌ وَمُلُوكٌ .

وَقُرِئَ^(١) : «مَلِكٌ» بسكون اللام ، ومنه قول الشاعر : [الوافر]

٥١ - وَأَيَّامَ لَنَا غُرُطُ وَاِلٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا^(٢)

كما يُقَالُ : فِخْذٌ وَفَخْذٌ ، وَجَمْعُهُ عَلَى هَذَا : أَمْلُكٌ وَمُلُوكٌ ، قَالَه مَكِّي رحمه الله .

و «مَلِكٍ» ، ومنه : [الكامل]

٥٢ - فَافْتَحْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا^(٣)

و «مَلِكِي» بِالْإِشْبَاعِ ، وَتُرْوَى عَنْ نَافِعٍ^(٤) - رحمه الله - .

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَيَكُونُ «مَلِكٌ» نَعْتًا لِلَّهِ - تعالى - ظاهراً ، فإنه معرفة بالإضافة .

وأما «مَالِكٍ» فَإِنْ أُريدَ بِهِ مَعْنَى الْمُضِيِّ ، فَجَعَلَهُ نَعْتًا وَاضِحًا أَيْضاً ؛ لِأَنِ إِضَافَتَهُ مَخْصُصَةٌ^(٥) فَيَتَعَرَّفُ بِهَا ، وَيُؤَيَّدُ كَوْنُهُ مَاضِي الْمَعْنَى قِرَاءَةً مِنْ قَرَأَ^(٦) : «مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ» فَجَعَلَ «مَلِكٌ» فِعْلاً مَاضِياً ، وَإِنْ أُريدَ بِهِ الْحَالُ ، أَوِ الْاِسْتِقْبَالُ [فَيُشْكِلُ ؛ لِأَنَّهُ : إِمَّا أَنْ يُجْعَلَ نَعْتًا لِلَّهِ ، وَلَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّ إِضَافَةَ اسْمِ الْفَاعِلِ بِمَعْنَى الْحَالِ ، أَوِ الْاِسْتِقْبَالِ^(٧) غَيْرُ مَخْصُصَةٍ^(٨) ، فَلَا

(١) قرأ بها : أبو هريرة ، وعاصم الجحدري ، ورواها الجعفي وعبد الوارث عن أبي عمرو ، وهي لغة بكر بن وائل . انظر البحر المحيط : ١٣٣/١ ، ١٣٤ ، والشواذ : ١ .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . ينظر شرح المعلقات للتبريزي : ٣٩٢ ، شرح المعلقات للزوزني : ١٢٧ ، شرحها للشنقيطي : ٩٩ ، الصحاح : ٢١١٩/٥ ، اللسان : دين ، القرطبي : ٩٨/١ ، الدرر : ٧٠/١ .

(٣) البيت للبيد من معلقته . ينظر ديوانه : ٣٢٠ ، شرح المعلقات للزوزني : ١٣٠ ، شرحها للشنقيطي : ٩٦ ، الصحاح : خلق ، القرطبي : ٩٨/١ ، الدرر : ٧٠/١ .

(٤) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أو رويم ويقال أبو نعيم ويقال أبو الحسن وقيل أبو عبد الله وقيل أبو عبد الرحمن الليثي مولاهم وهو مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب . المدني أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح . أصله من أصبهان وكان أسود اللون حالكاً صبيح الوجه حسن الخلق فيه دعابة أخذ القراءة عرضاً عن جماعة من تابعي أهل المدينة قال محمد بن إسحاق : لما حضرت نافعاً الوفاة قال له أبناؤه أوصنا قال : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين . مات سنة تسع وستين ومائة .

ينظر تهذيب الكمال : ١٤٠٤/٣ ، تهذيب التهذيب : ٤٠٧/١٠ (٧٣٢) . تقريب التهذيب : ٢٩٥/٢ ، خلاصة تهذيب الكمال : ٨٨/٣ ، الذيل على الكاشف : ١٥٦٧ ، تاريخ البخاري الكبير : ٨٧/٨ ، الجرح والتعديل : ٢٠٨٩/٨ ، لسان الميزان : ٤٠٨/٧ . ثقات : ٥٣٢/٧ ، تاريخ الثقات : ٤٤٧ ، تاريخ أسماء الثقات : ١٤٧٠ ، سير الأعلام : ٣١٦/٧ .

(٥) في أ : مختصة .

(٦) قرأ بها أبو حيوة ، وأبو حنيفة ، وجبير بن مطعم ، وأبو عاصم الليثي ، وأبو المحشر الجحدري . انظر البحر المحيط : ١٣٤/١ ، والشواذ : ١ ، وقيل : هي قراءة أنس بن مالك .

(٧) سقط في أ .

(٨) في أ : مختصة .

يُعرف^(١)، وإذا لم يتعرّف، فلا يكون نعتاً لمعرفة؛ لما عرفت فيما تقدم من اشتراط الموافقة تعريفاً وتنكيراً.

وإِذَا مَا أَنْ يُجْعَلَ بَدَلًا، وَهُوَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ الْبَدَلَ بِالشَّيْءِ نَادِرٌ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَالَّذِي يَتَّبَعِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ نَعْتُ عَلَى مَعْنَى أَنْ تَقْيِيدُهُ بِالزَّمَانِ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ؛ لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ إِذَا عُرِفَ بِوَضْفٍ كَانَ تَقْيِيدُهُ بِزَمَانٍ غَيْرِ مُعْتَبَرٍ، فَكَانَ الْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِمَالِكٍ يَوْمَ الدِّينِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مُضِيِّ وَلَا حَالٍ، وَلَا اسْتِقْبَالٍ، وَهَذَا مَالٌ إِلَيْهِ الزَّمْخَشَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَإِضَافَةُ «مَالِكٍ» وَ «مَلِكٍ» إِلَى «يَوْمِ الدِّينِ» مِنْ بَابِ الْإِسْطَاعِ؛ إِذْ مُتَعَلِّقُهُمَا غَيْرُ الْيَوْمِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَالِكِ الْأَمْرِ كُلِّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَنَظِيرُ إِضَافَةِ «مَالِكٍ» إِلَى الظَّرْفِ - هُنَا - نَظِيرُ إِضَافَةِ «طَبَاحٍ» إِلَى «سَاعَاتٍ» فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: [الرجز]

٥٣ - رَبِّ ابْنِ عَمٍّ لِسُلَيْمَى مُشْمَعِلٍ طَبَاحِ سَاعَاتِ الْكَرَى زَادَ الْكَسِلُ^(٢)

إِلَّا أَنَّ الْمَفْعُولَ فِي الْبَيْتِ مَذْكُورٌ - وَهُوَ «زَادَ الْكَسِلُ»، وَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ غَيْرُ مَذْكُورٍ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ.

(١) اعلم أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال، فإن العرب تضيفه إضافتين: الأولى: إضافة؛ طلباً للتخفيف.

الثانية: إضافة على جهة التعريف، وتكون هذه الإضافة كإضافة سائر الأسماء، فإذا أضفته على جهة التخفيف، كان حكمه كحكمه لو لم تضاف؛ فيبقى نكرة، وإذا أضيف الأسماء على جهة التخصيص والتعريف، جرى مجرى الأسماء، فيجري حينئذ ضاربك، مجرى غلامك، وإن كان بمعنى الحال والاستقبال فنقول:

أزیداً أنت ضاربك: إذا لم ترد التعريف، فإذا أردت التعريف، فلا يكون في «زید» إلا الرفع، ولا يجوز أن ينتصب، فنقول: أزید أنت ضاربك؛ كما تقول: أزید أنت غلامك، وإنما لم يجر لـ «زید» أن ينتصب هنا؛ لأن «ضارباً» إذا أضيف إضافة التعريف، فلا يجوز أن يعمل؛ لأنه قد باعد الأفعال، وما لا يعمل لا يصح أن يُفسَّر.

انظر من البسيط: (٢/ ١٠٤٠ - ١٠٤١)، وانظر الارتشاف: (٣/ ١٨٦ - ١٨٧).

(٢) البيت للشماخ في ديوانه ص ٣٨٩، والكتاب ١/ ١٧٧، ولجبار بن جزء في خزانة الأدب: ٢٣٣/٤ و ٢٣٥ - ٢٣٧ و ٢٣٩، ٨/ ٢١٢، و ٢١٣، وشرح أبيات سيبويه: ١/ ١٣، وشرح شواهد الإيضاح: ص ١٦٧، وشرح المفصل: ٢/ ٤٦، ولسان العرب (عسل)، ومجالس ثعلب: ١/ ١٥٢، المخصص: ٣/ ٣٧، الكامل: ١١٣، البسيط في شرح جمل الزجاجي: ٢/ ٨٨٩، الأمالي الشجرية: ٢/ ٢٥٠، الدر: ١/ ٧١، وأراد بقوله: «ابن عم سليمى» زوجها الشماخ، إذ كانت سليمى هذه زوجاً له، وهذا مما يرجع نسبة الرجز إلى جبار بن جزء.

ويجوزُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ [على ظاهره] ^(١) من غيرِ تَقْدِيرٍ حَذَفٍ .
ونسبَةُ «الملك» و «الملك» إلى الزمانِ في حَقِّ اللَّهِ - تعالى - غَيْرُ مُشْكِلَةٍ، وَيُؤَيِّدُهُ
ظَاهِرُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ» فَعَلًا ماضِيًا، فَإِنْ ظَاهِرُهَا كَوْنُ «يَوْمٍ» مَفْعُولًا بِهِ
والإضافةُ على مَعْنَى «اللام»؛ لِأَنَّهَا الْأَصْلُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا فِي هَذَا النِّحْوِ عَلَى مَعْنَى «فِي» مُسْتَنِدًا إِلَى ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] قَالَ ^(٢): الْمَعْنَى «مَكْرٌ فِي اللَّيْلِ» إِذِ اللَّيْلُ لَا
يُوصَفُ بِالْمَكْرِ، إِنَّمَا يُوصَفُ بِهِ الْعُقَلَاءُ، فَالْمَكْرُ وَاقِعٌ فِيهِ .

وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الْإِضَافَةَ: إِمَّا عَلَى مَعْنَى «اللام» وَإِمَّا عَلَى مَعْنَى [مِنْ] ^(٣)، وَكَوْنُهَا
بِمَعْنَى «فِي» غَيْرُ صَحِيحٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَكْرُ اللَّيْلِ» فَلَا دَلَالَهَ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَلَاغَةِ، وَهُوَ التَّجَوُّزُ
فِي أَنْ جَعَلَ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ مَازِجَيْنِ مَبَالِغَةً فِي كَثْرَةِ وَقْعِهِ مِنْهُمْ فِيهِمَا؛ فَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِمْ:
نَهَارُهُ صَائِمٌ، وَلَيْلُهُ قَائِمٌ؛ وَقَوْلُ الشَّاعِرِ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ: [البسيط]

٥٤ - أَمَّا النَّهَارُ فَفِي قَيْدٍ وَسِلْسِلَةٍ وَاللَّيْلُ فِي بَطْنٍ مَنُحَوْتٍ مِنَ السَّجَاجِ ^(٤)
لَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ يَكْثُرُ وَقْعُهَا فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ، وَصَفَّوْهَا بِهَا مَبَالِغَةً فِي ذَلِكَ،
وَهُوَ مَذْهَبٌ حَسَنٌ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِهِمْ .

و «الْيَوْمُ» لُغَةً: الْقِطْعَةُ مِنَ الزَّمَانِ، أَيُّ زَمَنٍ كَانَ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: ﴿وَالْفَتَى السَّاقِ السَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ [القيامة: ٢٩ و ٣٠] وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ احْتِضَارِ
الْمَوْتِ، وَهُوَ لَا يَخْتَصُّ بَلَّيْلٍ وَلَا نَهَارٍ .

وَأَمَّا فِي الْعَرْفِ: فَهُوَ مَنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ .

وَقَالَ الرَّاعِبُ: «الْيَوْمُ» يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ وَقْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى [غُرُوبِهَا] ^(٥) .

وَهَذَا إِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي النَّهَارِ لَا فِي الْيَوْمِ، وَجَعَلُوا الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا مَا ذَكَرْتُ، وَقَدْ يُطْلَقُ
الْيَوْمُ عَلَى السَّاعَةِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وَرَبِّمَا غُبِرَ
عَنِ الشَّدَّةِ بِالْيَوْمِ، يُقَالُ يَوْمٌ أَيُّوْمٌ؛ كَمَا يُقَالُ: لَيْلَةٌ لَيْلَاءٌ. ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .
و «الدِّينَ» مُضَافٌ إِلَيْهِ أَيْضًا، وَالْمُرَادُ بِهِ - هُنَا - الْجَزَاءُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: [الزهج]

٥٥ - وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا ^(٦)

(١) سقط في أ. (٢) في أ: فإن.

(٣) سقط في أ.

(٤) ينظر شواهد الكتاب: ١٦١/١، المقتضب: ٣٣١/٤، المحتسب: ١٨٤/٢، الكامل: ٤١٠/٣،

البحر: ٣١٥/٤، شرح أبيات سيويه لأبي جعفر النحاس: ٥٤، الدر: ٧١/١.

(٥) في أ: غروب الشمس.

(٦) البيت للفند الزماني (سُهَيْل بن شَيْبَانَ) ينظر أمالي القالي: ٢٦٠/١، وحماسة البحتري: ص ٥٦، =

أَي: جَازَيْنَاهُمْ كَمَا جَازُونَا.

وقال آخَرُ فِي ذَلِكَ: [الكامل]

٥٦ - وَاعْلَمَ يَقِيناً أَنَّ مُلْكَكَ رَائِلٌ وَاعْلَمَ بَأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ^(١)

ومثله: [المقارب]

٥٧ - إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمِينَاهُمْ وَدَنَاهُمْ مِثْلَ مَا يَفْرِضُونَا^(٢)

ومثله: [الطويل]

٥٨ - حَصَاذُكَ يَوْمَ مَا رَزَعْتَ وَإِنَّمَا يُدَانُ [الْفَتَى]^(٣) يَوْمَ كَمَا هُوَ دَائِنُ^(٤)

وقال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - ومقاتل والسدي: «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ»: قَاضِي يَوْمِ الْحِسَابِ؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُقِيمُ﴾ [التوبة: ٣٦]. أي: الحساب المستقيم.

وقال قتادة: «الدِّينِ: الْجَزَاءُ وَيُقْعُ عَلَى الْجَزَاءِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعاً».

وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ^(٥): «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمٌ^(٦) لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا الدِّينُ».

= وخزانة الأدب: ٤٣١/٣، والدرر: ٩٢/٣، وسمط اللآلي: ص ٩٤٠، وشرح التصريح: ٣٦٢/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٣٥، وشرح شواهد المغني: ٩٤٥/٢، والمقاصد النحوية: ٣/١٢٢، وأوضح المسالك: ٢٨١/٢، وشرح الأشموني: ٢٣٦/١، وشرح ابن عقيل: ص ٣١٦، وجمع الهوامع: ٢٠٢/١، اللسان: دين، الكشف: ١٢/١، المحرر الوجيز: ٧١/١، الدر: ٧٢/١. (١) البيت لخويلد بن نوفل الكلابي وقيل لغيره. ينظر اللسان والتاج: دين، الخزانة: ٢٣٠/٤، المخصص: ١٥٥/١٧، جمهرة الأمثال: ١٦٩، إعراب ثلاثين سورة: ٢٤، الكامل: ١٨٥، الجمهرة: ٣٠٦/٢، مجاز القرآن: ٢٣/١، معاني القرآن وإعرابه: ١٠/١، الطبري: ٩٨/١، القرطبي: ١/١٠١، الدر: ٧٢/١.

(٢) البيت لكعب بن جعيل. ينظر اللسان: دين، الكامل: ١٩١/١، المخصص: ١٥٥/١٧، الطبري: ١/٩٨، المحرر الوجيز: ٧١/١، القرطبي: ١٠١/١، وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٥٢/١، الدر: ٧٢/١. (٣) سقط في أ.

(٤) البيت للبد ولس في ديوانه. ينظر القرطبي: ١٠٠/١. الدر المصون: ٧٢/١.

(٥) محمد بن كعب القرظي المدني ثم الكوفي أحد العلماء عن أبي الدرداء مرسلًا وعن فضالة بن عبيد وعائشة وأبي هريرة. وعنه ابن المنكدر، ويزيد بن الهاد والحكم بن عتيبة. قال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن سعد كان ثقة ورعاً كثير الحديث قيل مات سنة تسع عشرة ومائة وقيل سنة عشرين.

ينظر تهذيب الكمال: ١٢٦٢/٣، تهذيب التهذيب: ٤٢٠/٩، تقريب التهذيب: ٢٠٣/٢، خلاصة تهذيب الكمال: ٤٥٢/٢، الكاشف: ٩٢/٣، تاريخ البخاري الكبير: ٢١٦/١، تاريخ البخاري الصغير: ٢٤٣/١، ٢٥٥، الجرح والتعديل: ٣٠٣/٨، تراجم الأخبار: ٧٠٤/ج، المعين رقم: ٣٢٩، الأنساب: ٢٩٩/١٠، ٣٧٩، رجال الصحيحين: ١٧٩، الثقات: ٣٥١/٥، الحلية: ٢١٢/٣، طبقات ابن سعد: ٧٠/٥، ٣٧١، ٥٠١/٧، البداية والنهاية: ٢٥٧/٩، تاريخ الثقات: ٤١١.

(٦) زاد في أ: أي في يوم.

وقيل: الدين القَهْرُ، يُقَالُ: دِنْتُهُ فِدَانٌ أَي: قَهَرْتُهُ فذلَّ.

وقيل: الدينُ الطاعةُ؛ ومنه: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا»، أي: طاعةً، وله معانٍ أُخَرُ:

العادة؛ كقوله هذا البيت: [الطويل]

٥٩ - كَدِينِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتْهَا أُمُّ الرِّبَابِ بِمَا سَلِ^(١)

أَي: كَعَادَتِكَ. ومثله: [الوافر]

٦٠ - تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينُهُ أَبْدَأُ وَدِينِي^(٢)

وَدَانُ: عَصَى وَأَطَاعَ، وَذَلَّ وَعَزَّ، فهو من الأضدادِ [قاله ثعلب]^(٣).

والقضاء؛ ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]،
أَي: فِي قَضَائِهِ وَحُكْمِهِ.

والحال؛ سُئِلَ بعضُ الأعرابِ فقال: «لو كنتُ على دينٍ غيرِ هذه، لأَجَبْتُكَ»، أَي: على حَالَةٍ.

والدَّاءُ؛ ومنه قولُ الشاعرِ في ذلك: [البسيط]

٦١ - يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْ سَلَمِي وَقَدْ دِينَا^(٤)

ويُقالُ: دِنْتُهُ بفعله أَدِينُهُ دِينًا وَدِينًا - بفتح الدَّالِ وكسرها في المصدر - أَي: جَارَيْتُهُ.

ويُستعارُ للملَّةِ والشرِعةِ أيضاً؛ قال اللُّهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، يَغْنِي: الاسلامُ؛ بدليلِ قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويُقالُ: دِينَ فُلَانٌ يَدَانُ إِذَا حُمِلَ على مَكْرُوهِ، ومنه قيلُ للعبدِ: مَدِين، ولِلأَمَةِ: مَدِينَةٌ.

وقيل: هو من دِنْتُهُ: إِذَا جازَيْتَهُ بطاعته، وجعل بعضهم «المَدِينَةَ» مِنْ هذا البابِ قاله الرَّاغِبُ^(٥)، وسيأتي تحقيقُ هذه اللفظةِ عند ذكرها إِنْ شاء اللُّهُ تعالى.

(١) البيت لامرئ القيس ينظر ديوانه: ص ٩، جمهرة اللغة ص ٦٨٨، خزانة الأدب: ٢٢٣/٣، والمنصف: ١٥٠/١، شرح القصائد العشر: ٢٠، شرح التعليقات للزوزني: ٦، الشنقيطي: ٥٩، المحرر الوجيز: ٧١/١، البحر المحيط: ١٣٦/١، الدر: ٧٢/١.

(٢) البيت للمثقب العبدى. ينظر ديوانه: ١٩٥، المفضليات: ٥٨٦، اللسان: (دين)، إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ص ٢٥، الكامل: ١٩٣/١، طبقات فحول الشعراء: ٢٣١، شرح أدب الكاتب: ٤٣٧، الموشح للمرمزياني: ٩٢، الصناعتين: ٨٦، المجلد لابن فارس: ٣٠٧/١، مجالس ثعلب: ٣٣٤، معاني القرآن وإعرابه: ١٠/١، الصحاح: (دين)، القرطبي: ١٠١/١، الدر: ٧٢/١.

(٣) سقط في ب.

(٤) ينظر اللسان: «دين»، المحرر الوجيز: ٧٢/١، البحر المحيط: ١٣٦/١، القرطبي: ١٠١/١، الدر: ٧٣/١.

(٥) ينظر المفردات: ١٧٨.

وإنما خُصَّ «يوم الدين» بالذكر مع كونه مالِكاً للأَيَّام كُلِّها؛ لأنَّ الأَمَلَاكَ يومئذَ زائلةٌ، فلا مُلْكَ وَلَا أَمْرَ إِلَّا لَهُ؛ قال الله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

فصل فيمن قرأ بالإدغام هنا

قرأ أَبُو عَمْرٍو^(١) - رحمه الله تعالى: - «الرَّحِيمَ مُلْكٌ» بإدغام الميم في الميم، وكذلك يُدْغَمُ كُلُّ حَرْفَيْنِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، أَوْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ، أَوْ [كانا]^(٢) قَرِيبَي الْمَخْرَجِ، سواءَ كَانَ الْحَرْفُ سَاكِناً أَوْ مُتَحَرِّكاً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْحَرْفُ الْأَوَّلُ مُشَدَّداً، أَوْ مُتَوْناً، أَوْ مَنقُوصاً أَوْ مَفْتُوحاً، أَوْ تَاءَ الْخِطَابِ قَبْلَهُ سَاكِناً فِي غَيْرِ الْمُثَلِّينَ، فإنه لا يدغمها، وإدغام المتحرك يَكُونُ فِي الْإِدْغَامِ الْكَبِيرِ، وافقه حَمَزَةٌ^(٣) من إدغام المتحرك في قوله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ [النساء: ٨١] ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا فَالزَّجَرِ زَجْرًا فَالتَّالِيَةِ ذِكْرًا﴾ [الصفات: ١ و ٢ و ٣]، ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ [الذاريات: ١].

وَأَدْغَمَ التَّاءَ فِيمَا بَعْدَهَا مِنَ الْحُرُوفِ وافقه حَمَزَةٌ بِرَوَايَةٍ رَجَاءً^(٤)، وَخَلَفَ^(٥)،

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر: ٣٦٣/١، وقال: وكذا يعقوب.. وافقهما ابن محيصن في المفردة، واليزيدي بخلف، والحسن والمطوعي.

(٢) سقط في ب.

(٣) حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل الإمام الحبر أبو عمارة الكوفي التيمي مولاهم، وقيل: من صميمهم الزيات أحد القراء السبعة، ولد سنة ثمانين وأدرك الصحابة بالسن فيحتمل أن يكون رأى بعضهم. قالوا استفتح حمزة القرآن من حمران وعرض على الأعمش وأبي إسحاق وابن أبي ليلى. قال يحيى بن معين سمعت محمد بن فضيل يقول: ما أحسب أن الله يدفع البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة، توفي سنة ست وخمسين ومائة.

ينظر تهذيب الكمال: ٣٣١/١، تهذيب التهذيب: ٢٧/٣، تقريب التهذيب: ١٩٩/١، خلاصة تهذيب الكمال: ٢٥٥/١، الكاشف: ٢٥٤/١، تاريخ البخاري الكبير: ٥٢/٣، الجرح والتعديل: ٩١٦/٣، ميزان الاعتدال: ٦٠٥/١، لسان الميزان: ٢٠٤/٧، الوافي بالوفيات حـ ١٣ رقم ١٩٦ ص ١٧٣، سير الأعلام ٩٠/٧ والحاشية، البداية والنهاية: ١١٥/١٠، الثقات: ٢٢٨/٦، ديوان الإسلام: ت ٧٤٣.

(٤) رجاء بن عيسى بن رجاء بن حاتم أبو المستنير الجوهري الكوفي مقرئ، قرأ على إبراهيم بن زربي وعبد الرحمن بن قلوفا ويحيى بن علي الخزاز وترك الحذاء، قرأ عليه القاسم بن نصر وسليمان بن يحيى بن الوليد الضبي وقال مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين ببغداد. ينظر الغاية: ٢٨٣/١ (١٢٦٥).

(٥) خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشام بن داود بن مقسم بن غالب أبو محمد الأسدي ويقال خلف بن هشام بن طالب بن غراب الإمام العلم أبو محمد البزار بالراء البغدادي أصله من فم الصلح بكسر الصاد أحد القراء العشرة وأحد الرواة عن «ع» سليم عن حمزة ولد سنة خمسين ومائة وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين وابتدأ في الطلب وهو ابن ثلاث عشرة. وكان ثقة كبيراً =

والكِسَائِي [في إدغام الساكن وهو إدغام الساكن في المتحرك] ^(١) إِلَّا فِي الرَّاءِ عِنْدَ اللَّامِ،
والدال عند الجيم، وكذلك لَا يُدْغِمُ حَمَزَةُ الدَّالِ عِنْدَ السَّيْنِ وَالصَّادِ وَالزَّايِ، وَلَا إدغام
لسائر القراء إِلَّا فِي أَحْرَفٍ مَعْدُودَةٍ.

فصل في كلام القدرية والجبرية

قال ابنُ الْخَطِيبِ ^(٢): قَالَتِ الْقَدَرِيَّةُ: إِنْ كَانَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، هُوَ اللَّهُ - تَعَالَى -
امتنع القول بالثواب، والعقاب، والجزاء؛ لأن الثواب للرجل على ما لم يعمل عِبَتْ،
وعقابه على ما لم يعمل ظُلِمَ، وعلى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَيُطِلُّ كَوْنَهُ مَالِكاً لِيَوْمِ الدِّينِ.
وقالت الجبرية: لو لم تكن أعمال العباد بتقدير الله وترجيحه، لم يكن مالكاً لها،
ولما أجمع المسلمون على كونه مَالِكاً للعباد، ولأعمالهم، عَلِمْنَا أَنَّهُ خَالِقٌ لَهَا مُقَدَّرٌ لَهَا.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إِيَّاكَ: كلمة ضمير خُصَّتْ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمُضْمَرِّ، وَيُسْتَعْمَلُ مُقَدِّماً عَلَى الْفِعْلِ.
وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ؛ وَلَا يُسْتَعْمَلُ مُؤَخَّراً إِلَّا مُنْفَصِلاً؛ فَيُقَالُ: مَا عَنِتُّ إِلَّا إِيَّاكَ.
وهو مفعول مُقَدَّمٌ عَلَى «نَعْبُدُ» قُدِّمَ لِلإِخْتِصَاصِ، وَهُوَ وَاجِبُ الْإِنْفِصَالِ.
وَاخْتَلَفُوا فِيهِ: هَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَسْمَاءِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْمَضْمُورَةِ؟ فَالْجَمْهُورُ: عَلَى أَنَّهُ
مُضْمَرٌ.

وقال الزَّجَّاجُ ^(٣) رحمه الله تعالى: هو اسم ظاهر.

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ ضَمِيرٌ اخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ:

أحدها: أَنَّهُ كَلِمَةُ ضَمِيرٍ.

والثاني: عَلَى أَنَّ «إِيَّا» وَحْدَهُ ضَمِيرٌ، وَمَا بَعْدَهُ اسْمٌ مُضَافٌ إِلَيْهِ يَبَيِّنُ مَا يُرَادُ بِهِ [مَنْ
تَكَلَّمَ وَغِيَّةٍ وَخَطَابٍ].

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ «إِيَّا» وَحْدَهُ ضَمِيرٌ، وَمَا بَعْدَهُ حُرُوفٌ تَبَيِّنُ ^(٤) مَا يُرَادُ بِهِ [مَنْ تَكَلَّمَ وَغِيَّةٍ
وَخَطَابٍ] ^(٥).

= زَاهِدًا عَابِداً عَالِماً. قَالَ ابْنُ أَشْتَةَ كَانَ خَلْفٌ يَأْخُذُ بِمَذْهَبِ حَمْزَةٍ إِلَّا أَنَّهُ خَالَفَهُ فِي مِائَةِ وَعِشْرِينَ حَرْفًا.
يَعْنِي فِي اخْتِيَارِهِ. مَاتَ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ بِبَغْدَادٍ وَهُوَ مُخْتَفٍ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ.
يَنْظُرُ الْغَايَةَ: ٢٧٢/١ (١٢٣٥).

(١) سقط في ب. (٢) ينظر الرازي: ١٩٦/١.

(٣) ينظر معاني القرآن: ١٠/١. (٤) في أ: يفسر.

(٥) سقط في ب.

ورابعها: أَنَّ «إِيَّا» عمادٌ وما بعده هو الضميرُ، وشَدَّتْ إضافته إلى الظاهرِ في قولهم: «إذا بلغ الرجلُ السَّتينَ، فإياه وإيَّا الشَّواب» بإضافة «إِيَّا» إلى «الشَّواب»، وهذا يُؤيِّدُ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ الكَافَ، والهاءَ، والياءَ في محلِّ جرٍّ، إذا قُلْتُ: «إِيَّاكَ إِيَّاهُ إِيَّايَ»^(١) وقد أَبْعَدَ بعضُ التَّحَوِّيِّينَ، فجعل له اشتقاقاً، ثُمَّ قال: هَلْ هو مشتقٌّ من «أَوْ»؟ كقول الشاعر في ذلك: [الطويل]

٦٢ - فَأَوْ لِيَذْكُرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا^(٢)

أَوْ مِنْ «آيَةٍ»؛ كقوله [الرجز]

٦٣ - لَمْ يُبْقِ هَذَا الدَّهْرُ مِنْ آيَاتِهِ^(٣)

وهل وَزَنُهُ: «إِفْعَلْ، أَوْ فَعِيلٌ، أَوْ فَعُولٌ» ثم صَيَّرَهُ التصريفُ إلى صِيغَةِ «إِيَّا»؟ وهذا الذي ذكره لَا يُجِدِي فائدةً، مع أَنَّ التصريفَ والاشتقاق لَا يَدْخُلَانِ في المتوَعَّلِ في البناءِ وفيه لُغَاتٌ: أَشْهَرُهَا: كَسْرُ الهمزةِ، وتَشْدِيدُ الياءِ، ومنها: فَتَحُ الهمزةِ وإبدالُها هاءً مع تشديدِ الياءِ وتَخْفِيفُهَا؛ قال الشَّاعر: [الطويل]

(١) ذهب سيبويه، وأكثر البصريين، والأخفش إلى أن الضمير هنا (إيا)، وما زاد على الضمير فهو حرف يدل على الأفراد والتثنية والجمع، وعلى الخطاب، وعلى المتكلم، وعلى الغيبة. قال الزمخشري: قال أبو حيَّان: وهو الذي صحَّحه أصحابنا وشيوخنا، وذهب الخليل والمازني - واختاره ابن مالك - إلى أنها أسماء مضمرة أضيف إليها الضمير الذي هو «إيا»؛ لظهور الإضافة في قولهم: فإيا وإيا الشَّواب، وهو مردود لشذوذه، ولم تعهد إضافة الضمائر. وقال أبو حيَّان: ولو كانت «إيا» مضافة، لزم إعرابها؛ لأنها ملازمة لما ادعوا إضافتها إليه، والمبني إذا لزم الإضافة أعرب كـ «أي» بل أولى، لأن «إيا» لا تنفك و «أي» قد تنفك عن الإضافة، وذهب الفراء إلى أن اللواحق هي الضمائر؛ ف «إيا» حرف زيد دعامة يعتمد عليها اللواحق، لتنفصل عن المتصل، ووافقه الزجاج في أن اللواحق ضمير، إلا أنه قال: إن «إيا» اسم ظاهر أضيف إلى اللواحق، فهي في موضع جرٍّ به. وقال ابن درستويه: إنه بين الظاهر والمضمَر. وقال الكوفيون: مجموع «إيا» ولواحقها هو الضمير، فهذه ستة مذاهب. انظر همع الهوامع: (٦١/١)، والكتاب: (٣٥٥/٢)، وسر صناعة الإعراب: (٣١١/١)، وانظر الإنصاف: (٢/٦٩٥)، وشرح المفصل: (٩٨/٣)، وشرح الكافية: (١٢/٢).

(٢) صدر بيت وعجزه:

ومن بعد أرض بيننا وسماء

ينظر المحتسب: ٣٩/١، الخصائص: ٨٩/٢، الهمع: ١٦/١، الدرر: ٣٨/١، معاني القرآن: ٢/٢٣، المنصف: ١٢٦/٣، الأصول لابن سراج: ٣٣٠/٣، ابن يعيش: ٣٨/٤، ارتشاف الضرب: ١/٤٧٤، اللسان (أوا)، النكت والعيون: ٥٧/١، المحرر الوجيز: ٧١/١، القرطبي: ١٠١، الدرر: ٧٣

(٣) صدر بيت وعجزه:

غير أثافيهِ وأرمدائه

ينظر أدب الكاتب: ٤٧٥، اللسان: رمد، البحر المحيط: ١٤٠/١، الدرر: ٧٤/١.

٦٤ - فَهَيَّاكَ وَالْأَمْرَ الَّذِي إِنَّ تَرَاحِبْتَ مَوَارِدُهُ ضَاكَّتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ^(١)

وقال بعضهم: «إِيَّاكَ» بالتخفيف مرغوب عنه؛ لأنه يصير: «شَمْسَكَ نَعْبُدُ»؛ فَإِنَّ إِيَاءَ الشمسِ: ضَوْؤُهَا - بكسر الهمزة، وقد تَفَتَّحَ. وقيل: هي لها بمنزلة الهالة للقمر، فإذا حذفت التاء، مَدَّدَتْ؛ قال: [الطويل]

٦٥ - سَقَّتُهُ إِيَاءَ الشَّمْسِ إِلَّا لِشَاتِهِ أَسِفٌ فَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِإِثْمِدٍ^(٢)
وقد قُرِئَ^(٣) بِيَعِضُهَا شَادًا.

وللضماير تقسيمٌ مُتَّسِعٌ لا يحتمله هذا الكتاب، وإنما يأتي في غُضُونِهِ ما يليقُ به.
و «نَعْبُدُ» فعلٌ مضارعٌ مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، وقيل: لوقوعه موقع الاسم، وهذا رأيُ البصريين.

ومعنى المضارع المشابه، يعني: أنه أشبه^(٤) الاسم في حركاته، وسكناته، وعدَد حُرُوفِهِ، أَلَّا تَرَى أَنَّ «ضَارِبًا» يُشَبِّه «يَضْرِبُ» فيما ذكرت، وأنه يشيع ويختص في الأزمان كما يشيع الاسم، ويختص في الأشخاص، وفاعله مستترٌ وجوباً لما مر في الاستعانة.

والعبادة: غايةُ التذلل، ولا يستحقها إلا مَنْ له غايةُ الإفضال، وهو الباري - تعالى - وهو أبلغ من العبودية؛ لأنَّ العبودية إظهار التذلل، ويُقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُدَلَّلٌ بالوطء فيه. وقال طَرَفَةُ^(٥) في ذلك: [الطويل]

٦٦ - تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرِ مُعَبَّدٍ^(٦)

(١) البيت لطيف الغنوي. ينظر ديوانه: ١٠، المحتسب: ٤٠/١، الإنصاف: ٢١٥/١، ابن يعيش: ٨/١١٨، ٤٢/١، المتمتع في التصريف: ٣٩٧/١، التبصرة: ٨٥٨/٢، شرح الشافية: ٣٢٣/٣، شرح شواهد الكشف: ٣٩١/٤، اللسان (هيا)، الكشف: ٦١/١، شرح ديوان الحماسة: ١١٤٢، القرطبي: ١٠٢/١، الدر: ٧٤/١، المنصف: ١٤٥/٢.

(٢) البيت من معلقة طرفة بن العبد. ينظر ديوانه: ٢١، شرح المعلقات للزوزني: ٤٨، وللشنيطي: ٧٠، المحتسب: ٤٠/١، المنصف: ١٤٣/٢، شرح المعلقات للتبريزي: ١٣٩، المسائل البصريات: ١/٣١٣، اللسان (لما)، و (مرر) و (كدم)، القرطبي: ١٠٢/١، الدر: ٧٤/١.

(٣) قرأ بها عمرو بن فائد عن أبيه. انظر الشواذ: ١، والبحر المحيط: ١٤٠/١، والقرطبي: ١٤٦/١. (٤) في أ: يشبه.

(٥) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أمر بقتله لأبيات بلغ الملك فيها أن طرفة هجاه بها. وأشهر شعره معلقته. ومطلعها: «الخولة أطلالٌ ببرقة ثمهد» وقد شرحها كثيرون من العلماء كان غير فاحش القول في شعره خاصة في الهجاء توفي سنة ٦٠ قبل الهجرة. انظر التبزي: ٨/٤، جمهرة أشعار العرب: ٨٣/٣، الأعلام: ٢٢٥/٣.

(٦) ينظر ديوانه: ٢١، شرح المعلقات للتبريزي: ١٤٣، الخصائص: ٣٧٢/٢، شرح المعلقات للزوزني: ٥٠، الشنيطي: ٧٠، اللسان (عبد)، الطبري: ٩٩/١، المحرر الوجيز: ٧٢/١، الدر: ٧٤/١.

ومنه: الْعَبْدُ؛ لِذَلَّتِهِ، وَبَعِيرٌ مَعْبُدٌ: أَيُّ مُذَلَّلٍ بِالْقَطْرَانِ.

وقيل: العبادة التَّجَرُّدُ، ويُقال: عَبَدْتُ اللَّهَ - بالتخفيف فقط - وَعَبَدْتُ الرَّجُلَ - بالتشديد فقط، أَيُّ: ذَلَّلْتُهُ واتخذته عبداً.

وفي قوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» التفاتٌ مِنَ الْعَبِيدِ إِلَى الْخِطَابِ، إِذْ لَوْ جَرَى الْكَلَامُ عَلَى أَصْلِهِ، لَقِيلَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ قِيلَ: إِيَّاهُ نَعْبُدُ، وَالْإِتِّفَاتُ: نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ.

قال ابنُ الْخَطِيبِ - رحمه الله -: والفائدةُ في هذا الالتفاتِ وجوه:

أحدها: أن المصلِّي كان أَجْنَبِيًّا عند الشروع في الصَّلَاةِ، فَلَا جَرَمَ أَنْتَى عَلَى اللَّهِ - تعالى - بألفاظ الغيبة، إِلَى قوله: «يَوْمَ الدِّينِ»، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: حَمَدْتَنِي وَأَقْرَزْتَ بكوني إِلَهًا، رَبًّا، رَحْمَانًا، رَحِيمًا، مَالِكًا لِيَوْمِ الدِّينِ، فَتَنَمَّ الْعَبْدُ أَنْتَ، فَرَفَعْنَا الْحِجَابَ، وَأَبْدَلْنَا الْبُعْدَ بِالْقُرْبِ، فَتَكَلَّمَ بِالمخاطبة وقل: إِيَّاكَ نَعْبُدُ.

الثاني: أَنْ أَحْسَنَ السُّؤَالِ مَا وَقَعَ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَافَهَةِ، [وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنْ الرَّدَّ مِنَ الْكَرِيمِ إِذَا سُئِلَ] ^(١) عَلَى سَبِيلِ الْمُشَافَهَةِ وَالْمَخاطبة بَعِيدٌ.

ومن الالتفاتِ - إِلَّا كونه عَكْسَ هذا - قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ﴾ [يونس: ٢٢] وَلَمْ يَقُلْ: «بِكُمْ»؛ وَقَدْ التَفَتَ امْرُؤُ الْقَيْسِ ثَلَاثَ التَّفَاتَاتِ فِي قوله: [المتقارب]

٦٧ - تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمِدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلِيلَةَ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي وَخَبَرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ ^(٢)

وقد خَطَأَ بَعْضُهُم الزَّمَخْشَرِيُّ - رحمه الله تعالى - فِي جَعْلِهِ هَذَا ثَلَاثَةَ التَّفَاتَاتِ، وَقَالَ: بَلْ هُمَا التَّفَاتَانِ:

أحدهما: خُرُوجُ مَنْ الْخِطَابِ الْمَفْتَحَ بِهِ فِي قوله: «لَيْلُكَ»، إِلَى الْعَبِيدِ فِي قوله: «وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ».

والثاني: الْخُرُوجُ مِنْ هَذِهِ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ، فِي قوله: «مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي وَخَبَرْتُهُ».

(١) سقط في أ.

(٢) ينظر الأبيات في ديوانه: ص ١٨٥، وتخليص الشواهد: ص ٢٤٣، وشرح قطر الندى: ص ١٣٦، شرح التصريح: ١/١٩١، ولعمرو بن معديكرب في ديوانه: ص ٢٠٠، ولعمرو أو لامرئ القيس في سمط اللآلي: ص ٥٣١، ولامرئ القيس بن عابس في المقاصد النحوية: ٢/٣٠، وله أو لامرئ القيس الكندي أو لعمرو بن معديكرب في شرح شواهد المغني: ٢/٧٣٢، وأوضح المسالك: ١/٢٥٤، وجمهرة اللغة: ص ٧٧٥، وشرح الأشموني: ١/١١٥، والتبيان لابن محمد الطيبي: ٢٨٧، والكشاف: ١/١٤، البحر المحيط: ١/١٤٢، الدر: ١/٧٥.

والجواب: أَنَّ قوله أَوَّلًا: «تَطَاوَلَ لَيْلُكَ» فيه التفتُّ؛ لأنه كان أصل الكلام أَنَّ يقول: «تطاول ليَّلي»؛ لأنه هو المقصود، فالتفت من مقام التكلم إلى مقام الخطاب، ومن مقام الخطاب إلى الغيبة، ثُمَّ مِنَ الغيبة إلى التكلم الذي هو الأصل.

وَقُرِئَ شاذًّا^(١): «إِيَّاكَ يُعْبَدُ» على بناءٍ للمفعول الغائب؛ ووجهها على إشكالها: أن فيها استعارة والتفاتًا:

أما الاستعارة: [فإنه استُعِيرَ]^(٢) فيها ضميرُ النصب لضميرِ الرفع، والأصل: أنت تُعْبَدُ، وهو شائع؛ كقولهم: «عَسَاكَ، وَعَسَاهُ، وَعَسَانِي» في أحدِ الأقوال؛ وقول الآخر: [الرجز]

٦٨ - يَا ابْنَ الرُّبَيْرِ طَالَمَا عَصَيْكََا وَطَالَمَا عَنَيْتَنَا إِلَيْكََا^(٣)

فالكاف في «عَصَيْكََا» نائبة عن التاء، والأصل: «عَصَيْتَ».

وأما الالتفات: فكان من حَقِّ هذا القارئ أَن يَقْرَأَ: «إِيَّاكَ تُعْبَدُ» بالخطاب، ولكنه التفت من الخطاب في «إِيَّاكَ» إلى الغيبة في «يُعْبَدُ» إلاً أَن هذا الالتفات غريب؛ لكونه في جملة واحدة، بخلاف الالتفات المتقدم؛ ونظيرُ هذا الالتفات قوله: [الطويل]

٦٩ - أَأَنْتَ الْهَلَالِيُّ الَّذِي كُنْتَ مَرَّةً سَمِعْنَا بِهِ وَالْأَزْحَبِيُّ الْمُغَلَّبُ^(٤)

فقال: «به» بعد قوله: «أَنْتَ» و «كُنْتَ».

و «إِيَّاكَ» واجب التقديم على عامله؛ لأنَّ القاعدة أَنَّ المفعول به إذا كان ضميراً - لو تأخر عن عامله - وجب اتصاله وَوَجَبَ تَقْدِيمُهُ.

وَتَحَرَّرُوا بقولهم: «لو تأخَّر عنه وجب اتصاله»، من نحو: «الدرهم إياه أعطيتك» لأنك لو أخرت الضمير هنا فقلت: «الدَّهْرُ هُمْ أَعْطَيْتُكَ إِيَّاهُ»، لم يلزم الاتصال، لما سيأتي بل يجوز: «أعطيتكهُ».

(١) قرأ بها: الحسن وأبو مجلز وأبو المتوكل. انظر البحر المحيط: ١٤٠/١. وإتحاف: ٣٦٤/١.

(٢) سقط في أ.

(٣) البيت لرجل من حمير. ينظر خزائن الأدب: ٤٢٨/٤، ٤٣٠، ولسان العرب (تا)، والمقاصد النحوية: ٥٩١/٤، وشرح شواهد الشافية: ص ٤٢٥، وشرح شواهد المغني: ٤٤٦، ونوادر أبي زيد: ص ١٠٥، والجنى الداني: ص ٤٦٨، والمقرب: ١٨٣٢/٢، وسر صناعة الإعراب: ٢٨٠/١، وشرح الأشموني: ١٣٣/١، ٨٢٣/٣، وشرح شافية ابن الحاجب: ٢٠٢/٣، ومغني اللبيب: ١٥٣/١، والممتع في التصريف: ٤١٤/١. المخصص: ١٤٤/١٧، أمالي الزجاجي: ٢٣٦، المسائل العسكرية: ١٥٨، سر الصناعة: ٢٨١/١، الدر: ٧٥/١.

(٤) ينظر رصف المباني: ٢٦، المقرب: ٦٣/١، الهمع: ٨٧/١، الدرر: ٦٤/١، تحرير التحبير: ١٢٤، الدر: ٧٥/١، البحر المحيط: ١٤٢/١.

فصل في معنى العبادة

قال ابنُ الخطيب^(١) رحمه الله تعالى: العبادة: عبارة عن الفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير، من قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: مذلَّلٌ، فقلوه: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**، معناه: لا أعبدُ أحداً سواك، ويدلُّ على هذا الحصر وجوه:

فَذَكَرَ من جملتها: تسمية الله، والرب، والرحمن، والرحيم، ومالك يوم الدين، وكونه قادراً بأن يُمسِكَ السَّمَاءَ بلا إعانة، وأرضاً بلا دِعامَة، وَيُسَيِّرُ الشَّمْسَ والقمر، ويسكن القطَّيْنِ، ويخرجُ من السَّمَاءِ تارة النَّارَ؛ وهو البرق، وتارة الهواءَ؛ وهو الريح، وتارة الماءَ؛ وهو المطر.

وأما في الأرض فتارة يُخرج الماء من الحَجَرِ، وتارة يُخرج الحجر من الماء؛ وهو الجمد، ثم جعل في الأرض أجساماً مُقيمة لا تسافر؛ [وهي الجبال]^(٢)، وأجساماً مسافرة لا تقيم؛ وهي الأنهار، وخسف بقارون فجعل الأرض قَوْفَهُ، ودفع محمداً - عليه الصلاة والسلام - إلى قَابِ قَوْسَيْنِ، وجعل الماء ناراً على قوم فرعون؛ لقلوه: **﴿أَعْرِضُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾** [نوح: ٢٥]، وجعل النار بَرْدًا وسلاماً على إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - ورفع مُوسَى - عليه السلام - فوق الطُّورِ، وغرق الدنيا من التُّورِ، وجعل البحر ييساً لموسى - عليه الصلاة والسلام - فهذا من أداة الحَضَرِ.

والكلام في **«إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»** كالكلام في **«إِيَّاكَ نَعْبُدُ»**.

والواو: عاطفةٌ، وهي من المشتركة في الإعراب والمعنى، ولا تقتضى تَرْتيباً على قول الجمهور، خلافاً لطائفة من الكُوفِيِّين ولها أحكام تختص بها تأتي إن شاء الله تعالى. وأصل **«نَسْتَعِينُ»**: **«نَسْتَعُونُ»**؛ مِثْلُ: **«نَسْتَخْرِجُ»** في الصحيح؛ لأنه من العَوْنِ، فاستُثْقِلَتِ الكسرة على الواو، فنقلت إلى الساكن قبلها، فسكنت الواو بعد الثقل وانكسر ما قبلها؛ فُقْلِبَتْ ياءٌ.

وهذه قاعدةٌ مطردةٌ؛ نَحْوُ: **«مِيزَانٍ، وَمِيقَاتٍ»**، وهما من: **الْوِزْنِ، وَالْوَقْتِ**.

والسَّيْنُ فيه معناها: الطلبُ، أي: نَطْلُبُ منك العَوْنَ على العِبَادَةِ، وهو أحد المعاني التي لـ **«استفعل»**، وله مَعَانٍ أُخَرُ:

الاتخاذُ: نحو: **«اسْتَعْبَذَهُ»** أي: اتخذهُ عبداً.

والتحولُ؛ نحو: **«اسْتَخَجَرَ الطَّيْنُ»**، أي: صار حجراً، ومنه قوله: **«إِنَّ الْبُعَاثَ بَارِضِينَا يَسْتَنَسِرُ»** أي: تتحولُ إلى صفة النُّسور.

ووجودُ الشَّيْءِ بمعنى ما صِيغَ منه؛ نحو: **«اسْتَغْظَمَهُ»**، أي: وجده عظيماً.

وَعَدُ الشَّيْءِ كَذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ نحو: «اسْتَحْسَنَهُ».

ومطاوعة «أَفْعَل»؛ نحو: «أَشْلَاهُ فَاسْتَشَلَّى».

وموافقته له أيضاً؛ نحو: «أَبْلَّ الْمَرِيضُ وَاسْتَبَلَّ».

وموافقة «تَفَعَّل»؛ نحو: «اسْتَكْبَرَ» بمعنى «تكبر».

وموافقة «افْتَعَلَ»؛ نحو: «اسْتَعَصَمَ» بمعنى «اعتصم».

والإغناء^(١) عن المجرد؛ نحو: «اسْتَكْفَ» و «اسْتَحْيَا»، لم يتلفظ لهما بمجرد استغناء بهما عنه.

والإغناء بهما عن «فَعَلَ» أي المجرد الملفوظ به نحو: «اسْتَرْجَعَ» و «استعان»، أي: رجع وخلق عانته.

وقُرىء^(٢): «نِسْتَعِينُ» بكسر حرف المضارعة؛ وهي لغة مطردة في حروف المضارعة.

وذلك بشرط ألا يكون حرف المضارعة ياء؛ لثقل ذلك، على أن بعضهم قال: «يَبْجَلُ»، مضارع «وَجَلَّ»، وكأنه قصد إلى تخفيف الواو إلى الياء، فكسر ما قبلها لتقلب؛ وقد قُرىء^(٣): «فَإِنَّهُمْ يَلْمُونَ» [النساء: ١٠٤]، وهي هادئة لهذا الاستثناء، وسيأتي تحقيق ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وأن يكون المضارع من ماضٍ مكسور العين؛ نحو: «تَعَلَّمَ» من «عَلِمَ»، أو في أوله همزة وصل؛ نحو «نِسْتَعِينُ» من «اسْتَعَانَ»، أو تاء مطاوعة؛ نحو: «نِتَعَلَّمُ» من «تَعَلَّمَ»، فلا يجوز في «يَضْرِبُ» و «يَقْتُلُ» كسر حرف المضارعة؛ لعدم الشروط المذكورة.

والاستعانة: طلب العون، وهو المظاهرة والنصرة، وقدم العبادة على الاستعانة؛ لأنها صلة لطلب الحاجة.

وقال ابن الخطيب: كأنه يقول: شرعْتُ في العبادة، فاستعين بك في إتمامها، فلا تمنعني من إتمامها بالموت، ولا بالمرض، ولا بقلب الدواعي وتغيرها.

وقال البغوي - رحمه الله تعالى - فإن قيل: لم قدم ذكر العبادة على الاستعانة، والاستعانة لا تكون إلا قبل العبادة؟

(١) في أ: الاعتناء.

(٢) قرأ بها: عبيد بن عمير الليثي، وزر بن حبيش، ويحيى بن وثاب، والنخعي والأعمش، وهي لغة قيس وتميم وأسد وربيعة.

انظر البحر المحيط: ١/ ١٤١، وإتحاف: ١/ ٣٦٤، والتخریجات النحوية والصرفية لقراءة الأعمش: ٢٦٨، والقرطبي: ١/ ١٤٦.

(٣) ستأتي في النساء.

قلنا: هذا يلزم من جَعَلَ الاستعانة قبل الفعل، ونحن نجعل التوفيق، والاستعانة مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير.

وقيل: الاستعانة نوعٌ تعبُد، فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها وأطلق كُلاً من فِعْلِي العبادة والاستعانة، فلم يذكر لهما مفعولاً؛ ليتناولاً كُلَّ معبود به، وكلُّ مُسْتَعَانَ [عليه]^(١)، أو يكون المراد وقوع الفعل من غير نظر إلى مفعول؛ نحو: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [البقرة: ٦٠] أي أوقعوا هذين الفعلين.

فصل في نظم الآية

قال ابن الخطيب^(٢) - رحمه الله تعالى -: قال تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فَقَدَّمَ قَوْلَهُ: «إِيَّاكَ» على قوله: «نَعْبُدُ» ولم يقل: «نَعْبُدُكَ» لوجوه:

أحدها: أنه - تبارك وتعالى - قَدَّمَ ذِكْرَ نَفْسِهِ؛ لينبه^(٣) العابد على أن المعبود هو الله - تعالى - فلا يتكاسل في التعظيم.

وثانيها: أنه إن ثقلت عليك العبادات والطاعات وصعبت، فَاذْكُرْ أَوَّلَ قَوْلِهِ: «إِيَّاكَ»؛ لتذكرني، وتحضر في قلبك معرفتي، فإذا ذكرت جَلَالِي وعظمتي، وعلمت أنني مولاك، وأنت عبي؛ سهلت عليك تلك العبادة.

وثالثها: أن القديم الواجب لذاته متقدم في الوجود على المحدث الممكن لذاته، فوجب أن يكون ذكره متقدماً على جميع الأذكار.

فصل في نون «نَعْبُدُ»

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: لقائل أن يقول: النون في قوله تعالى: «نَعْبُدُ» إما أن تكون نونَ الجمع، أو نونَ العظمة، والأول باطلٌ، لأن الشخص الواحد لا يكون جَمْعاً، والثاني باطل أيضاً؛ لأن عند أداء العبودية، اللائق بالإنسان أن يذكر نفسه بالعجز والذلة لا بالعظمة.

واعلم أنه يمكن الجواب عنه مِنْ وَجْه:

أحدها: أن المراد مِنْ هَذِهِ النونِ نونَ الجَمْعِ، وهو تنبيه على أن الأَوَّلَى بالإنسان، أن يؤدي الصلاة بالجماعة.

الثاني: أن الرجلَ إِنْ كَانَ يُصَلِّي فِي جَمَاعَةٍ، فَقَوْلُهُ: «نَعْبُدُ»، المُرَاد منه ذلك الجمعُ، وإن كان يصلي وحده كان المراد أني أعبدك، والملائكة معي.

الثالث: أن المؤمنين إخوة، فلو قال: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ» كان قد ذكر عبادة نفسه، ولم يذكر

(١) سقط في أ.

(٣) في أ: ليتنبه.

(٢) ينظر الفخر الرازي: ١/١٩٩.

عبادةً غَيْرِهِ، أما إذا قال: «إياك نعبدُ» كان قد ذكر عبادة نفسه، وعبادة جميع المؤمنين شرقاً وغرباً.

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

اهد: صِيغَةُ أَمْرٍ، ومعناها: الدعاء، فَقِيلَ معناه: أَرْشِدْنَا.

وقال عَلِيُّ، وَأَبِي بن كَعْب - رضي الله عنهما - ثَبَتَا؛ كما يُقَالُ لِلْقَائِمِ: قم حتى أعود إليك، أي: دُمْ على ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بِمعنى الثَّبِيْتِ، وبمعنى طلب مزيد الهداية؛ لأنَّ الأَلْطَافَ والهدايات من ^(١) الله - تعالى - لا تنتهي على مذهب أهل السنة.

قال ابنُ الخَطِيب - رحمه الله تعالى -: المرادُ من قوله تعالى «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» هو: أن يكونَ الإنسانُ مُعْرِضاً عما سوى الله - تعالى - مُقْبِلاً بكلية قلبه وفكره وذكره على الله تعالى.

مثالُه: أن يصيرَ بحيثُ لو أَمِرَ بذبح ولده، لأطاع؛ كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولو أَمِرَ بأن ينقادَ، لأن يذبحه غيره، لأطاع؛ كما فعله إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ولو أَمِرَ بأن يُلقِي نفسه في البحر، لأطاع؛ كما فعله يونس عليه الصلاة والسلام، ولو أَمِرَ بأن يتلمذَ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه في المنصب إلى أعلى الغايات، لأطاع؛ كما فعله موسى - عليه الصلاة والسلام - مع الخَضِرَ [عليه الصلاة والسلام] ^(٢)، ولو أَمِرَ بأن يصيرَ في الأمرِ بالمَعْرُوفِ، والنهي عن المنكر على القتل، والتفريق بنصفين، لأطاع؛ كما فعله يَحْيَى بنُ زَكَرِيَّا - عليهما الصلاة والسلام - فالمراد بقوله تعالى «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»، هو الاقتداءُ بأنبياء الله في الصبر على الشدائد، والثبات عند نزول البلاء، ولا شك أن هذا مقامٌ شَدِيدٌ؛ لأن أكثر الخَلْقِ لا طاقة لهم به.

واعلم أن صِيغَةَ «افْعَلْ» تَرُدُّ لمعانٍ كثيرة ذكرها الأصوليون.

وقال بعضهم: إن وردت صِيغَةُ «افْعَلْ» من الأعلى للأدنى، قيل فيها: أمرٌ، وبالعكس دعاء، ومن المُساوي التماسٌ، وفاعله مستترٌ وجوباً، لِمَا مرَّ، أي: اهد أنت، و «نا» مفعولٌ أوَّلٌ، وهو ضميرٌ متصل يكون للمتكلّم مع غيره، أو المعظم نفسه، ويستعمل في موضع: الرفع، والنصب، والجرح، بلفظ واحد؛ نحو: «قُمْنَا»، و «ضَرَبْنَا زَيْدًا»، و «مَرَّ بِنَا»، ولا يشاركه في هذه الخصوصية غيره من الضمائر.

وقد زعم بعضُ النَّاسِ أن الياء كذلك؛ تقول: «أكرمني»، و «مَرَّ بي»، و «أنت تقومين يا هند»، و «الياء» في المثال الأول منصوبة المحل، وفي الثاني مجرورة، وفي

الثالث مرفوعته، وهذا ليس بشيء؛ لأن الياء في حالة الرفع، ليست تلك الياء التي في حالة النصب والجَر؛ لأن الأولى للمتكلم، وهذه للمخاطبة المؤنثة.

وقيل: بل يشاركه لفظ هُم؛ تقول: «هم نائمون» و «ضربتهم» و «مررت بهم»، ف «هم» مرفوع المحل، ومنصوبه، ومجروره بلفظ واحد، وهو للغائبين في كل حال، وهذا وإن كان أقرب من الأول، إلا أنه في حالة الرفع ضمير منفصل، وفي حالة النصب والجَر ضمير متصل. فافترقا، بخلاف «نا» فإن معناها لا يختلف، وهي ضمير متصل في الأحوال الثلاثة.

و «الصراط» مفعول ثانٍ، و «المستقيم» صِفته، وقد تبعه في الأربعة من العشرة المذكورة.

وأصل «هَدَى» أن يتعدى إلى الأول بنفسه وإلى الثاني بحرف الجر، وهو إما: «إلى» أو «اللام»؛ كقوله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْنَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ثم يتسع فيه، فيُحذف الجر، فيتعدى بنفسه، فأصل «أهدنا الصراط»: إهدنا للصراط أو إلى الصراط، ثم حذف.

والأمر عند البصريين مَبْنِيٌّ وعند الكوفيين مُغَرَّبٌ، ويدْعَوْنَ في نحو: «اضرب»، أن أصله: «لِتَضْرِبْ» بلام الأمر، ثم حذف الجازم، وتبعه حرف المضارعة، وأتى بهمزة الوصل؛ لأجل الابتداء بالسكن، وهذا مما لا حاجة إليه، وللدرد عليهم موضع يليق به.

ووزن «أهد»^(١) «أفع»؛ حُذِفَتْ لأمه، وهي الياء حملاً [للأمر على المجزوم، والمجزوم تُحذف]^(٢) منه لأمه إذا كانت حرف علة.

ومعنى الهداية: الإرشاد أو الدلالة، أو التقدّم. ومنه هواد الخيل لتقدمها. قال امرؤ القيس: [الطويل]

٧٠ - فَأَلَحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدَوْنَهُ جَوَاجِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلِ^(٣)

أي: المتقدّمات الهادية لغيرها.

أو التَّابِيئِينَ؛ نحو: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدِّسْتَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم؛ ونحو: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي: ألهمه لمصالحه.

أو الدعاء؛ كقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أي دافع.

(١) زاد بعدها في أ: على وزن.

(٢) سقط في ب.

(٣) ينظر ديوانه: ١٢٠، شرح التبريزي على المعلقات: ١١٦، شرح المعلقات للزوزني: ٢٨، الدر: ١/

وقيل: هو المَيْل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] والمعنى: بقلوبنا إِلَيْكَ، وهذا غلط؛ فإن تِيكَ مادةٌ أُخْرَى من «هَاد - يَهُود».

وقال الرَّاعِبُ: الْهِدَايَةُ: دَلَالَةٌ بِلُطْفٍ، ومنه الْهَدِيَّةُ، وخصَّ ما كان دَلَالَةً بـ «هديت» وما كان إِعْطَاءً بـ «أهديت».

و «الصَّرَاطُ»: الطَّرِيقُ الْمُسْتَسْهَلُ، وبعضهم لا يقيده بالمستسهل؛ قال: [الرجز]

٧١ - فَضَّلَ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ^(١)

ومثله: [الوافر]

٧٢ - أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اغْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمَ^(٢)

وقال آخَرُ: [الوافر]

٧٣ - شَحْنَا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ أَذْلًا مِنَ الصَّرَاطِ^(٣)

أي: الطَّرِيقِ.

وهو مُسْتَقٌّ من «السَّرِط» وهو: الْإِبْتِلَاعُ؛ إِمَّا لِأَنَّ سَالِكَهُ يَسْتَرِطُهُ، أَوْ لِأَنَّهُ يَسْتَرِطُ سَالِكَهُ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: قَتَلَ أَرْضًا عَالِمَهَا، وَقَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلَهَا؛ وبهذين الاعتبارين قال أبو تمام^(٤): [الطويل]

٧٤ - رَعْنَهُ الْفَيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الْمُرْنِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ^(٥)

وعلى هذا سُمِّيَ الطَّرِيقُ لَقَمًا وَمُلْتَقَمًا؛ لِأَنَّهُ يَلْتَقِمُ سَالِكَهُ، أَوْ يَلْتَقِمُهُ سَالِكُهُ.

(١) ينظر البيت في مجاز القرآن: ٢٤/١، الطبري: ١٠٤/١، القرطبي: ١٠٣/١، الدر المصون: ٧٨/١.

(٢) البيت لجريز يمدح هشام بن عبد الملك. ينظر ديوانه: ٥٠٧، المحتسب: ٤٣/١، مجاز القرآن: ١/٢٤، اللسان (سرت)، الطبري: ١٠٤/١، النكت والعيون: ٥٨/١، المحرر الوجيز: ٧٤/١، القرطبي: ١٠٣/١، المجلد في اللغة: ٩٢٣/٤، معجم مقاييس اللغة: ١٠٥/٦، المذكر والمؤنث: ٤٦٠/١، الدر: ٧٨/١.

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي وليس في ديوانه. ينظر تفسير الطبري: ١٠٤/١، ونسبه القرطبي: ١٠٣/١، لعامر بن الطفيل، الدر: ٧٨/١.

(٤) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان. ولد في جاسم (من قرى حوران سورية) سنة ١٨٨ هـ ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه، وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها سنة ٢٣١ هـ، كان أسمر طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتمة بسيرة يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع، في شعره قوة وجزالة، له تصانيف منها «فحول الشعراء» و«ديوان الحماسة»، ينظر الأعلام ١٦٥/٢، وفيات الأعيان ١٢١/١.

(٥) ينظر ديوانه: ٤٨، مفردات الراغب: ٢٣٠، روح المعاني: ٩٢/١، الدر: ٧٨/١.

وأصله: السَّين، وقد قرأ به^(١) قُتُبِلَ^(٢) رحمه الله تعالى حيث ورد، وإنما أُبدِلَتْ صَاداً؛ لأجل حرفِ الاستِغْلَاءِ، وإبدالها صاداً مُطَّرَد عنده؛ نحو: «صَقَر» في «سَقَر»، و «صَلَخ» في «سَلَخ»، و «أَصْبَغ» في «أَسْبَغ»، و «مُصَيِّر» في «مُسَيِّر» لما بينهما من التَّقَارُبِ.

وقد تُشَمُّ الصادُ في «الصَّراطِ» ونحوه زَايَاً، وقرأ به^(٣) خَلَفٌ، وَحَمَزَةٌ حيث ورد، وَخَلَادٌ^(٤): الأوَّلُ فقط، وقد تُقْرَأُ^(٥) زَايَاً مَخْضَةً، ولم تُرَسَمْ في المصحفِ إلا بالصاد، مع اختلافٍ في قراءتهم فيها كما تقدم.

و «الصَّراطِ» يَذْكُرُ وَيُوَثِّقُ: فالتذكيرُ لُغَةً تَمِيمٌ، والتأنيثُ لُغَةً «الْحِجَازِ»، فإنِ اسْتَعْمِلَ مُذَكَّرًا، جمع على «أَفْعِلَةٌ» في القِلَّةِ، وعلى «فُعُلٌ» في الكَثْرَةِ، نحو: «حِمَارٌ»، و «أَخْمِرَةٌ» و «حُمُرٌ»، وإنِ اسْتَعْمِلَ مُؤَنَّثًا، فقياسه أن يجمعَ على «أَفْعُلٌ»: نحو: «ذِرَاعٌ» و «أَذْرَعٌ».

و «المُسْتَقِيمَ» اسمُ فاعِلٍ من استقامَ، بمعنى المُجَرَّد، ومعناه: السَّوِيُّ^(٦) مِنْ غَيْرِ

(١) وبها قرأ رويس وابن كثير، ورويت عن ابن عباس.

انظر العنوان في القراءات السبع: ٦٧، وإعراب القراءات السبع وعللها: ٤٩/١، وحجة القراءات لابن زنجلة: ٨٠، والبحر المحيط: ١٤٣/١، وإتحاف: ٢٦٥/١.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد بن سعيد بن جرجة أبو عمر المخزومي مولا هم المكي الملقب بقنبل شيخ القراء بالحجاز، ولد سنة خمس وتسعين ومائة وأخذ القراءة عرضاً عن أحمد بن محمد بن عون النبال وهو الذي خلفه في القيام بها بمكة وروى القراءة عن البزي، روى القراءة عنه عرضاً أبو ربيعة محمد بن إسحاق وهو أجل أصحابه. قال أبو عبد الله القصاع وكان على الشرطة بمكة لأنه كان لا يليها إلا رجل من أهل الفضل والخير والصلاح ليكون لما يأتيه من الحدود والأحكام على صواب فولوها لقنبل لعلمه وفضله عندهم، وقال الذهبي إن ذلك كان في وسط عمره فحمدت سيرته ثم إنه طعن في السن وشاخ وقطع الإقراء قبل موته بسبع سنين قلت وقيل بعشر سنين، مات سنة إحدى وتسعين ومائتين عن ست وتسعين سنة. ينظر الغاية: ١٦٥/٢ (٣١١٥).

(٣) وإشمامها زَايَاً لغة قيس.

انظر حجة القراءات: ٨٠، وإعراب القراءات: ٤٩/١، والعنوان: ٦٧، والبحر المحيط: ١١٣/١، وإتحاف: ٣٦٥/١.

(٤) خلاد بن خالد أبو عيسى وقيل أبو عبد الله الشيباني مولا هم الصيرفي الكوفي إمام في القراءة ثقة عارف محقق أستاذ أخذ القراءة عرضاً عن سليم وهو من أضبسط أصحابه وأجلهم وروى القراءة عن حسين بن علي الجعفي عن أبي بكر وعن أبي بكر نفسه عن عاصم وعن أبي جعفر محمد بن الحسن الرواسي روى القراءة عنه عرضاً أحمد بن يزيد الحلواني وإبراهيم بن علي القصار وإبراهيم بن بشر الرازي وحمدون بن منصور، توفي سنة عشرين ومائتين. ينظر الغاية: ٢٧٤/١ (١٢٣٨).

(٥) رويت عن ابن كثير وحزمة وأبي عمرو.

انظر الحجة للقراء السبعة: ٤٩/١، وحجة القراءات: ٨٠، والبحر المحيط: ١٤٣/١.

(٦) في أ: استوى.

اغْوَجَاجَ، وَأَصْلُهُ: «مُسْتَقْوَم» ثُمَّ أُعْلِلَ كإِعْلَالِ «نُسْتَعِين» وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ [مُسْتَوْفَى] ^(١) عَلَى مَادَتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تعالى - عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣].

و «الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيم» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَجَابِرٌ ^(٢) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: هُوَ الْإِسْلَامُ ^(٣)، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ^(٤)، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - مَرْفُوعاً: الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ^(٥) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «طَرِيقُ الْجَنَّةِ».

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَ طَرِيقُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيُّ ^(٦): هُوَ طَرِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) سقط في أ.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بفتح المهملة الأنصاري السلمي بفتحين أبو عبد الرحمن، أو أبو عبد الله أو أبو محمد المدني، صحابي مشهور له ألف وخمسمائة حديث وأربعون حديثاً اتفاقاً على ثمانية وخمسين وانفرد البخاري بستة وعشرين، ومسلم بمائة وستة وعشرين. وشهد العقبة وغزا تسع عشرة غزوة. وعنه بنوه وطاوس والشعبي وعطاء وخلق. قال جابر: استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمساً وعشرين مرة، قال الفلاس: مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة عن أربع وسبعين سنة. ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٧٩/١. تهذيب التهذيب: ٤٢/٢، تقريب التهذيب: ١٢٢/١، خلاصة تهذيب الكمال: ١٥٦/١، تاريخ البخاري الكبير: ٢٠٧/٢، تاريخ البخاري الصغير: ٢١/١، ١١٥، ١٦١، ١٩٠، الجرح والتعديل: ٢٠١٩/٢، أسد الغابة: ٣٠٥/١٣، تجريد أسماء الصحابة: ٧٣/١. الاستيعاب: ٢١٩/١، طبقات ابن سعد: ٥٦١/٣، شذرات الذهب: ٨٤/١.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٠/١) وعزاه لوكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والمحامي في أماليه عن جابر بن عبد الله ورواه ابن جريج عن ابن عباس.

(٤) أخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو بكر بن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وصححه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود من قوله كما في «الدر المنثور» (٤٠/١).

(٥) سعيد بن جبير الوالبي، مولا هم الكوفي الفقيه أحد الأعلام. قال اللالكائي: ثقة إمام حجة. قال عبد الملك بن أبي سليمان: كان يختم كل ليلتين. قال ميمون بن مهران: مات سعيد وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه. قتل سنة خمس وتسعين كهلاً؛ قتله الحجاج فما أمهل بعده. قال خلف بن خليفة عن أبيه: شهدت مقتل ابن جبير؛ فلما بان الرأس قال: لا إله إلا الله لا إله إلا الله، فلما قالها الثالثة لم يتمها - رضي الله عنه.

ينظر تهذيب الكمال: ٤٧٩/١، تهذيب التهذيب: ١١/٤، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٧٤/١، الكاشف: ٣٥٦/١، الثقات: ٢٧٥/٤، تاريخ البخاري الكبير: ٤٦١/٣، الحلية: ٢٧٢/٤.

(٦) بكر بن عبد الله بن عمرو بن هلال المزني أبو عبد الله البصري أحد الأعلام عن المغيرة وابن عباس وابن عمر. قال بكر: أدركت ثلاثين من فرسان مزينة منهم عبد الله بن مغفل ومعلق بن يسار قال ابن المدني: له نحو خمسين حديثاً. روى عنه قتادة وثابت وحميد وسليمان التيمي وخلق، قال ابن سعد: كان ثقة ثبناً مأموناً حجة فقيهاً توفي سنة ست أو ثمان ومائة.

وقال أبو العالية^(١)، والحسن: رسول الله ﷺ وصاحبه.

قال ابن الخطيب^(٢): الحكمة في قوله: «اهدنا» ولم يقل «اهدني»؛ إما: لأن الدعاء مهما كان أعم، كان إلى الإجابة أقرب.

وإما لقول النبي عليه السلام «ادعوا الله تعالى باليسنة ما عصيتموه بها» قالوا: يا رسول الله، فمن لنا بتلك الأيسنة؟ قال: «يدعوا بغضكم لبعض؛ لأنك ما عصيت بلسانه، وهو ما عصى بلسانك»^(٣).

الثالث: كأن العبد يقول: سمعت رسولك يقول: «الجماعة رحمة»^(٤)، فلما أزدت حمدك، قلت: الحمد لله، ولما ذكرت العبادة، ذكرت عبادة الجميع، ولما ذكرت الاستعانة، ذكرت استعانة الجميع، فلا جرم لما طلبت الهداية، طلبتها للجميع، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين، طلبت اقتداء الجميع؛ فقلت: «صراط الذين أنعمت عليهم»، ولما طلبت الفرار من المردودين، ففرت من الكل؛ فقلت: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، فلما لم أفرق الأنبياء والصالحين في الدنيا، فأرجو ألا أفرقهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩] الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ 

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

«صِرَاطَ الَّذِينَ» بدل منه، بدل كل من كل، وهو بدل معرفة من معرفة.

والبدل سبعة أقسام على خلاف في بعضها:

= وينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٥٧/١، تهذيب التهذيب: ٤٨٤/١، تقريب التهذيب: ١٠٦/١، خلاصة تهذيب الكمال: ١٣٤/١، الكاشف: ١٦٢/١، الثقات: ٧٤/٤، تاريخ البخاري الكبير: ٢/٩٠، تاريخ البخاري الصغير: ١٢٣/٢، الجرح والتعديل: ١٥٠٨/٢، الحلية: ٢٢٤/٢، الجمع بين رجال الصحيحين: ٢١٩، البداية والنهاية: ٢٥٦/٩، الوافي بالوفيات: ٢٠٧/١٠.

(١) رفيع بضم أوله مصغراً ابن مهران الرياحي بكسر المهملة مولاهم أبو العالية البصري مخضرم إمام من الأئمة، صلى خلف عمر، ودخل على أبي بكر. عن أبي وعلي وحذيفة وخلق. وعنه قتادة وثابت وداود بن أبي هند بصريون وخلق. قال أبو خلدة: مات سنة تسعين وهو الصحيح ينظر خلاصة تهذيب الكمال: ٣٣١/١، سير أعلام النبلاء: ٢٠٧/٤، الكاشف: ٣١٢/١، وتذكرة الحفاظ: ٦١ - ٦٢.

(٢) ينظر الفخر الرازي: ٢٠٧/١.

(٣) ينظر تفسير الفخر الرازي: (٢٠٧/١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٧٨/٤) وابن أبي عاصم (٤٤/١) والبخاري في «تفسيره» (٢٦/٧) والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢١٧/٥) وقال: رواه عبد الله بن أحمد والبخاري والطبراني ورجالهم ثقات.

بَدَلُ كُلِّ مِنْ كُلِّ، وَبَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ، وَبَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَبَدَلُ غَلَطٍ، وَبَدَلُ نِسْيَانٍ، وَبَدَلُ بَدَاءٍ، وَبَدَلُ كُلِّ مِنْ بَعْضٍ.

أما الأقسام الثلاثة الأول، فلا خلاف فيها.

وأما بدلُ البداء، فأثبتته بعضهم؛ مستنداً بقوله عليه الصلاة والسلام: «وإنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ، وما كتب له نِصْفُهَا ثُلُثُهَا رُبْعُهَا إِلَى الْعُشْرِ» ولا يَرُدُّ هذا في القرآن الكريم.

وأما الغلط والنسيان، فأثبتهما بعضهم؛ مُستنداً بقول ذي الرُّمَّة: [البسيط]

٧٥ - لَمَيَاءٌ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبٌ^(١)

قال: لأنَّ «الحوَّة» السوداء الخالص، و «اللَّعَس» سواد يشوبه حُمْرَة، ولا يَرُدُّ هذان البدلان في كلامٍ فصيحٍ.

وأما بدل الكل من البعض، فأثبتته بعضهم، مُستنداً بظاهر قوله: [الخفيف]

٧٦ - نَضَرَ اللَّهَ أَغْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِحْجَتَانِ طَلْحَةً طَلَحَاتٍ^(٢)

في رواية مَنْ نَصَبَ «طَلْحَةً»، قال: لأنَّ «الأغْظَمَ» بعضُ «طَلْحَةٍ»، و «طَلْحَةٍ» كُلٌّ وقد أُبْدِلَ منها؛ واستدل - أيضاً - بقول امرئ القيس: [الطويل]

٧٧ - كَأَنِّي عِدَاةُ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ^(٣)

ف «عِدَاةٌ» بعضُ «اليوم»، وقد أُبْدِلَ «اليوم» منها.

ولا حُجَّةٌ في البيتين، أما الأول: فإنَّ الأصل «أعظماً دفنوها أعظم طلحة» ثم حُذِفَ المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وبدل على ذلك الرواية المشهورة وهي جَرُّ «طَلْحَةٍ» على أنَّ الأصل: «أعظم طلحة» ولم يُقَمَّ المضاف إليه مقام المضاف.

وأما الثاني: فإنَّ «اليَوْمَ» يطلُّق على القطعة من الزمان، كما تقدَّم، وليس هذا موضعَ البَحْثِ عن دَلَالِ المذهبيين.

(١) ينظر ديوانه: ص ٣٢، والخصائص: ٢٩٦/٣، والدرر: ٥٦/٦، ولسان العرب (شنب)، (حوا)، والمقاصد النحوية: ٢٠٣/٤، وجمع الهوامع: ١٢٦/٢، شرح الأشموني: ٤٣٨/٢، العيني: ٤/٢٠٢، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ٢٨٣/١، الكامل: ١٦٠/١، الدرر: ٧٩/١.

(٢) البيت لابن قيس الرقيات - ينظر ديوانه: ٢٠، شرح المفصل لابن يعيش: ٤٧/١، الإنصاف: ٢٨، رصف المباني: ٢٩٧، الهمع: ١٢٧/٢، الدرر: ١٦٢/٢، اللسان (طلح) ضرائر الشعر: ١٦٥/١، خزانة الأدب: ٤١٤/٤، ١٠/٨، الدرر: ٧٩/١.

(٣) ينظر ديوانه: ص ٩، وخزانة الأدب: ٣٧٦/٤، الدرر: ٦٠/٦، لسان العرب (نقف)، والمقاصد النحوية: ٢٠١/٤، شرح الأشموني: ٤٣٧/٢، شرح المعلقات للزوزني: ٦، شرح القصائد العشر: ١٦، الشنقيطي: ٥٨، شرح الألفية للمرادي: ١٥٠/٣، الدرر: ٨٠/١.

وقيل: «الصرط» الثاني غير الأول، والمراد به: العلم بالله تعالى. قاله جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ^(١) رحمه الله تعالى: وعلى هذا فتخريجه أن يكون مَعْطُوفاً حُذِفَ منه حَرْفُ الْعَطْفِ، وبالجمله فهو مُشْكَلٌ.

وبالبدل ينقسم أيضاً إلى:

بدل مَعْرِفَةٍ من معرفة، ونَكْرَةٍ من نكرة، ومَعْرِفَةٍ من نكرة، ونَكْرَةٍ من معرفة.

وَيَنْقَسِمُ أيضاً إلى:

بدل ظاهر من ظاهر، ومُضْمَرٍ من مُضْمَرٍ، وظاهر من مضمَر، ومضمَر من ظاهر.

وفائدة البدل: الإيضاح بعد الإبهام؛ لأنه يُفِيدُ تأكيداً من حَيْثُ المعنى، إذ هو على نية تَكَرُّر العامل.

و «الذين» في محل جرٍّ بالإضافة، وهو اسمٌ موصول، لافتقاره إلى صلةٍ وعائِدٍ، وهو جمع «الذي» في المعنى، والمشهور فيه أن يكون بالياء: رفعاً، ونصباً، وجرّاً؛ وبعضهم يرفعه بالواو؛ جَرِيّاً له مجزئ جمع المذكر السالم؛ ومنه: [الرجز]

٧٨ - نَحْنُ الذُّنُوبُ صَبَّحُوا الصُّبْحَا يَوْمَ الْفَسَادِ غَارَةً مِلْحَاحًا^(٢)

وقد تُحَذَفُ نُونُهُ اسْتِطَالَةً بصلته؛ كقوله: [الطويل]

٧٩ - وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دَمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ^(٣)

ولا يقع إلا على أولي العلم، [ولا يقع مجزئ جمع المذكر السالم، بخلاف مجردة فإنه يقع على أولي العلم]^(٤) وغيرهم.

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي ولد في ٨٠هـ الملقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك، كان جريئاً صداعاً للحق توفي ١٤٨هـ.

ينظر وفيات الأعيان: ١٠٥/١، والأعلام: ١٢٦/١.

(٢) البيت قيل لرجل جاهلي يسمى أبا حرب بن الأعلم. ينظر شرح الأشموني: ١٤٩/١، الهمع: ١/٦١، الخزانة: ٥٠٦/٢، النوادر: ٤٧، شرح ابن عقيل: ١٤٤/١، الدرر: ٣٦/١، مغني اللبيب: ٢/٤١٠، شرح شواهد المغني: ٨٣٢/٢، الدرر: ٧٩/١.

(٣) البيت للأشهب بن رميلة. ينظر الكتاب: ٨٦/١ - ١٨٧، الخزانة: ٥٠٧/٢، ابن السجري: ٣٠٧/٢، شواهد المغني: ١٧٥، ابن عيش: ١٥٥/٣، رصف المباني: ٣٤١، الهمع: ٤٩/١، الدرر: ٢٤/١، المحتسب: ١٨٥/١، المنصف: ٦٧/١، التصريح: ١٣١/١، مغني اللبيب: ١٩٤/١، القرطبي: ١/١٤٨، الدرر: ٨١/١. ولسان العرب (فلج)، (لذا) والمؤتلف والمختلف: ص ٣٣، ومعجم ما استعجم: ص ١٠٢٨ والمقاصد النحوية: ٤٨٢/١ والمقتضب: ١٤٦/٤ والأزهية: ص ٢٩٩، وسر صناعة الإعراب: ٥٣٧/٢.

(٤) سقط في ب.

و «أَنْعَمْتَ»: فِعْلٌ، وفاعِلٌ، صِلَةُ الْمَوْضُولِ.

والتاء في «أَنْعَمْتَ» ضَمِيرٌ مرفوع مُتَّصِلٌ. و «عليهم» جار ومجرور متعلق بـ «أَنْعَمْتَ»، والضمير هو العائد، وهو ضمير جمع المذكورين العقلاء، ويستوي فيه لفظ مُتَّصِلُهُ ومُنْقَصِلُهُ.

والهمزة في «أَنْعَمْتَ»: لِجَعْلِ الشَّيْءِ صَاحِبٌ^(١) ما صِيغَ منه، فحَقُّهُ أَنْ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، ولكن ضَمَّنَ معنى «تَفَضَّلَ» فَتَعَدَّى تَعْدِيَّتَهُ.

وقرأ عمر^(٢) بِنِ الْحَطَّابِ، وابنُ الزُّبَيْرِ^(٣) رضي الله - تعالى - عنهما: «صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ».

ولـ «أَفْعَلٌ» أربعة وعشرون معنى، تقدّم واحدٌ.

والتعديّة؛ نحو: «أَخْرَجْتَهُ».

والكثرة؛ نحو: «أَظْيَى الْمَكَانُ» أي: «كَثُرَ ظَبَاؤُهُ».

والصيرورة؛ نحو: «أَعَدَّ الْبَعِيرُ» صار ذا غُدة.

والإعانة؛ نحو: «أَخْلَبْتُ فَلَانًا» أي: أَعْتَهُ على الحَلَبِ.

والتشكيّة؛ نحو: «أَشْكَيْتُهُ» أي: أزلت شِكَايَتَهُ.

والتعريض؛ نحو: «أَبَعْتُ الْمَبْتَاعَ»، أي: عرضته للبيع.

وإصابة الشئ بمعنى ما صيغ منه؛ نحو: «أَحْمَدْتُهُ» أي: وجدته محموداً.

وبلوغُ عددٍ؛ نحو: «أَغَشَرَتِ الدَّرَاهِمُ»، أي: بلغت العَشْرَةَ.

أو بلوغُ زمانٍ؛ نحو «أَصْبَحَ»، أو مكانٍ؛ نحو «أَشْأَمَ».

وموافقةُ الثلاثي؛ نحو: «أَحَزْتُ الْمَكَانَ» بمعنى: حَزَنُتُهُ.

أو أَعْنَى عن الثلاثي؛ نحو: «أَزَقَلَ الْبَعِيرُ».

ومطاوعة «فَعَلٌ»؛ نحو قَشَعَ الرِّيحُ، فَأَقْشَعَ السَّحَابُ.

(١) في أ: واجب.

(٢) قرأ بها ابن مسعود وزيد بن علي.

ينظر البحر المحيط: ١٤٧/١.

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي أبو خبيب بمعجمة مضمومة، المكي ثم المدني، أول مولود في الإسلام وفارس قریش له ثلاثة وثلاثون حديثاً. شهد اليرموك وبويع بعد موت يزيد وغلب على اليمن والحجاز والعراق وخراسان، وكان فصيحاً شريفاً شجاعاً، لسنّاً أطلس. قتل بمكة سنة ثلاث وسبعين ومولده بعد الهجرة بعشرين شهراً. ينظر الخلاصة: ٥٦/٢، وتاريخ البخاري الكبير: ت (٩)، والجرح والتعديل: ت (٢٦١).

ومطاوعة «فَعَلَ»؛ نحو: «فَطَرْتُهُ، فَأَفْطَرْتُ».

ونَفَيْ الغريزة؛ نحو: «أَسْرَع».

والتَّسْمِيَةُ؛ نحو: «أَخْطَأْتُهُ»، أَيْ: سَمَّيْتُهُ مُخْطِئًا.

والدَّعَاءُ؛ نحو: «أَسْقَيْتُهُ»، أَيْ: قُلْتُ لَهُ: سَقَاكَ اللهُ تعالى.

والاستحقاق؛ نحو «أَخْصَدَ الزَّرْعُ»، أَيْ: اسْتَحَقَّ الحَصَادَ.

والوصول؛ نحوه: «أَغْغَلْتُهُ»، أَيْ: وَصَلْتُ عَقْلِي إِلَيْهِ.

والاستقبال؛ نحو: «أَقْفَتُهُ»، أَيْ: اسْتَقْبَلْتُهُ بقول: أَفٌ.

والمجيء بالشيء؛ نحو: «أَكْثَرْتُ» أَيْ: جِئْتُ بالكثير.

والفرق بين أَفْعَلَ وفَعَلَ؛ نحو: أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ: أَضَاءَتْ، وَشَرَقَتْ: طَلَعَتْ.

والهجوم؛ نحو: أَطْلَعْتُ عَلَى القوم، أَيْ: أَطْلَعْتُ عَلَيْهِمْ.

و «على» حرف استعلاء حقيقة أو مجازاً؛ نحو: عليه دَيْنٌ، ولها معانٍ أُخَرُ، منها:

المُجَاوِزَةُ؛ كقوله: [الوافر]

٨٠ - إِذَا رَضِيتَ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَغْجَبَنِي رِضَاهَا^(١)

أَيْ: عَنِّي.

وبمعنى «الباء» ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولُ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، أَيْ: بِأَنْ، وبمعنى

«فِي»؛ ﴿الشَّيْطَانُ عَلَى مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ وَخَبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٢] أَيْ: فِي [مِثْقَلِ]، ﴿أَلَمَّا عَلَىٰ حُبِّهِ دَوَّىٰ الْفَرْثِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والتعليل: ﴿وَلْيَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ أَيْ لِأَجْلِ هِدَايَتِهِ

إِيَّاكُمْ.

وبمعنى «مِنْ»: ﴿حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، أَيْ: إِلَّا مِنْ

أَزْوَاجِهِمْ.

(١) البيت للقيحيف العقيلي ينظر خزانة الأدب: ١٣٢/١٠، ١٣٣، والدرر: ١٣٥/٤، ولسان العرب (رضي)، وشرح التصريح: ١٤/٢، وأدب الكاتب: ص ٥٠٧، وشرح شواهد المغني: ٤١٦/١، والمقاصد النحوية: ٢٨٢/٣، وأدب الكاتب: ص ٥٠٧، والأزهية: ص ٢٧٧، ونوادر أبي زيد: ص ١٧٦، والأشباه والنظائر: ١١٨/٢، والمقتضب: ٣٢٠/٢، والمحتسب: ٥٢/١، ٣٤٨، ومغني اللبيب: ١٤٣/٢، وجمع الهوامع: ٢٨/٢، وأوضح المسالك: ٤١/٣، والإنصاف: ٦٣٠/٢، وجمهرة اللغة: ص ١٣١٤، والجنى الداني: ص ٤٧٧، والخصائص: ٣١١/٢، ٣٨٩، ورفص المبانى: ص ٣٧٢، وشرح الأشموني: ٢٩٤/٢، وشرح شواهد المغني: ٩٥٤/٢، وشرح ابن عقيل: ص ٣٦٥، وشرح المفصل: ١٢٠/١. الأمالي الشجرية: ٢٩٦/٢، مجاز القرآن: ٨٤/٢، ارتشاف الضرب: ٤٥٣/٢، الدرر: ٨١/١.

والزيادة كقوله: [الطويل]

٨١ - أَبَى اللّٰهُ إِلَّا أَنْ سَرْحَةَ مَالِكٍ عَلَى كُلِّ أَفْنَانٍ الْعِضَاءِ تَرُوقُ^(١)

لأنَّ «تَرُوقُ» يتعدى بنفسه، ولكل موضع من هذه المواضع مَجَالٌ للنظر.
وهي مترددةٌ بين الحَرْفِيَّةِ، والاسْمِيَّةِ^(٢)؛ فتكون اسماً في موضعين:

(١) البيت لحميد بن ثور ينظر ديوانه: ص ٤١، ولسان العرب (سرح)، والدرر: ١٣٧/٤، وشرح النصريح: ١٥/٢، وشرح شواهد المغني: ٤٢٠/١، وأدب الكاتب: ص ٥٣٢، وأساس البلاغة: ص ١٨٥ (روق)، والجنى الداني: ص ٤٧٩، ومغني اللبيب: ١٤٤/١، وخزانة الأدب: ١٩٤/٢، ١٠/١٤٤، وشرح الأشموني: ٢٩٤/٢، وجواهر الأدب: ص ٣٧٧، ارتشاف الضرب: ٤٥٤/٢، البحر المحيط: ١٤٥/١، الدر المصون: ٨٢/١.

(٢) الأصل في الحرف «على» أنه حرف، ثم اتسع فيها واستعملت اسماً، ولحظوا فيها معنى (فوق)، فأدخلوا عليها (من) فقالوا: قمت من عليه، وذهب ابن الطراوة إلى أن (على) لا تكون حرفاً، وإنما هي ظرف بمنزلة (فوق)، فإذا قلت: جلست عليه، فهي بمنزلة: جلست فوقه، وهي من الظروف التي تتصرف، ولا تخفض إلا بـ «من» خاصةً نحو «عند» تقول: جلست عندك، ولا يجوز أن ترفع ولا تنصب على غير الظرف ولا تخفض إلا بـ «من»، وادعى أن هذا مذهب «سيبويه»، واستدل بما ذكره «سيبويه» في باب (عدة ما يكون عليه الكلام)، وهو قوله (وعلى اسم) ولا تكون إلا ظرفاً فالكلام في هذا الموضع في فصلين:

أحدهما: أنك إذا قلت: جلست عليك، فليس بمنزلة: جلست فوقك.

الثاني: أن مذهب سيبويه أن (على) تكون حرفاً وتكون اسماً؛ كما قال النحويون؛ فأما الأول فاعلم أنك إذا قلت: جلستُ فوقك، فلا يقتضي أن الجلوس يتعلق بك، إنما يقتضي هذا اللفظ أن الجلوس وقع في مكان له منك هذه النسبة بمنزلة: جلستُ تَحْتَكِ، وجلست يمينك، وجلست شمالك، وإذا قلت: جلست عليك، فيقتضي أن الجلوس وَصَلَ إليك، ووقع بك، إلا أنه لم يصل بنفسه ووصل بحرف الجر؛ فهو بمنزلة: صرت إليك ومشيت لك.

الإضافة على حسب ما ذكرته، فكيف يقال: إن (على) في قولك: جلستُ عليك، ظرف بمنزلة (فوق)، ومطلوب الفعل ما بعدها، (وعلى) مُوَصَّلَةُ الفعل إليه، وجلست فوقك ليس الاسم هو مطلوب الجلوس، و(فوق) موصولة، وإنما (فوق) دالة على المكان الذي يطلبه الجلوس؛ وأضيف إليه ليزول عمومهم ويتخصص بمنزلة: ضربت غلامك بالضرب بالغلام، لكن لما كان الغلام عاماً، أضيف إلى المخاطب؛ ليزول عمومهم ويتخصص بذلك، وأما نسبته إلى «سيبويه»، لقوله في الباب الذي ذكر: (ولا تكون إلا ظرفاً) فيريد - والله أعلم - : ولا تكون إلا ظرفاً إذا كانت اسماً، والدليل على ذلك: أنه قال في باب: (ما يتعدى إلى المفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر)، إنك تقول: استغفرت الله الذنب، والأصل: استغفرت الله من الذنب، فأسقط حرف الجر ونظيره بقول الشاعر:

أَلَيْتُ حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ

وقال في هذا: إنه على إسقاط حرف الجر، وقال: الأصل: أليت على حبِّ العراق، فلما أسقط حرف الجر، انتصب الاسم، فهذا يدل على أن (عَلَى) تكون عنده حرف جر، وأن قوله: في باب (عدة ما يكون عليه الكلام): (ولا يكون إلا ظرفاً) يريد: إذا كانت اسماً.

انظر البسيط: (٨٤٨/٢ - ٨٤٩ - ٨٥٠)، والكاتب: (٢٣١/٤، ٣٨/١، ٢٩/٢)، والدرر اللوامع: (٢٣/٢)، والأشموني: (٢٢٢/٢)، ومغني اللبيب: (١١٤).

أحدهما: أن يدخلَ عليها حَزَفُ الجَرِّ؛ كقول الشاعر: [الطويل]

٨٢ - عَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَمَّ ظَمُؤُهَا تَصِلُ وَعَنْ قَيْضٍ بِزَيْزَاءٍ مَجْهَلٍ^(١)

ومعناها «فُوق»، أي: من فوقه.

والثاني: أن يؤدي جعله حرفاً، إلى تعدي فعل المضمر المنفصل إلى ضمير المتصل في غيرِ المَوَاضِعِ الجائِزِ فيها؛ ومن ذلك قوله: [المتقارب]

٨٣ - هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا^(٢)

ومثلها في هذين الحكمين «عَنْ»، وستأتي إن شاء الله تعالى.

وزعم بعضهم أن «على» مترددة بين الاسم، والفعل، والحرف.

أما الاسم والحرف، فقد تقدما.

وأما الفعل: قال: فإنك تقول: «عَلَا زَيْدٌ» أي: ارتفع. وفي هذا نَظَرٌ؛ لأن «عَلَا» إذا كان فِعْلاً، مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُلُوِّ، وإذا كان اسماً أو حرفاً، فلا اشتقاق له، فليس هو ذَاكَ، إلا أنَّ هذا القَائِلَ يَرُدُّ هذا النظرَ، [بقولهم: إِنَّ «خَلَا»، «وَعَدَا» مترددان بين الفعلية والحرفية، ولم يلتفتوا إلى هذا النظر]^(٣).

والأصل في هاء الكناية الضَّمُّ، فإن تقدمها ياء ساكنة، أو كسرة، كَسَرَهَا غيرُ الحِجَازِيِّينَ؛ نحو: عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَبِهِمْ.

والمشهور في مِيمِهَا السكون قبل متحرك، والكسر قبل ساكن، هذا إذا كَسَرَتِ الهاء، أما إذا ضُمَّتْ، فَالْكَسْرُ مَمْتَنِعٌ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ؛ كقوله: «وَفِيهِمُ الْحُكَامُ» بِكَسْرِ الِيمِ. وفي «عَلَيْهِمْ» عشرُ لُغَاتٍ:

(١) البيت لمزاحم العقيلي في أدب الكاتب: ٥٠٤، الأزهية: ١٩٤، خزنة الأدب: ١٠/١٤٧، و ١٥٠، والدرر: ١٨٧/٤، جمهرة اللغة: (١٣١٤)، وجواهر الأدب: ٣٧٥، رصف المباني: ٣٧١، والمقتضب: ٥٣/٣، وجمع الهوامع: ٣٦/٢، وشرح الأشموني: ٢٩٦/٢، مجالس ثعلب: ٣٠٤، مغني اللبيب: ١٤٦/١، و ٥٣٢/٢، الأشباه والنظائر: ١٢/٣، المقاصد النحوية: ٣٠١/٣، الجنى الداني: ٤٧٠، شرح التصريح: ١٩/٢، شرح المفصل: ٣٨/٨، لسان العرب: «صلل» النوادر: ١٦٣، الكامل: ٤٨٨، الجمل: ٧٣، المقرب: ٤٢، شرح شواهد المغني: ١٤٥، العيني: ٣٠١/٣، الدر: ٨٢/١.

(٢) البيت للأعور الشني ينظر الدرر: ١٣٩/٤، شرح أبيات سيبويه: ٣٣٨/١، شرح شواهد المغني: ١/٤٢٧، ٨٧٤/٢، الكتاب: ٦٤/١، وأمالى ابن الحاجب: ٦٧٩/٢، الجنى الداني: ص ٤٧١، خزنة الأدب: ١٤٨/١٠، مغني اللبيب: ١٤٦/١، المقتضب: ١٩٦/٤، ٢٠٠، جمع الهوامع: ٢٩/٢، ولبشر بن خازم في العقد الفريد: ٢٠٧/٣، الأشباه والنظائر: ٦٢/٧، العمدة: ٣٣/١، ارتشاف الضرب: ٤٥٢/٢، الدر: ٨٢.

(٣) سقط في أ.

قُرِءَ^(١) يَبْغُضُهَا: «عَلَيْهِمْ» بكسر الهاء وضمها، مع سُكُونِ الميم.

«عَلَيْهِمْ»، بكسر الهاء، وزيادة الياء، وبكسر الميم فقط.

«عَلَيْهِمْ» بضم الميم، وزيادة واو، أو الضم فقط.

«عَلَيْهِمْ» بِكسْرِ الهاء، وضم الميم، بزيادة الواو.

«عَلَيْهِمْ» بِضَمِّ الهاء، وزيادة ياء بعد الميم.

أو الكسر فقط «عَلَيْهِمْ» بكسر الهاء، وضم الميم، حكى ذلك ابنُ الأَثَرِيِّ^(٢).

والتفسير، قال البَغَوِيُّ - رحمه الله تعالى -: «صراط الذين أنعمت عليهم أي: مَنْتَت عليهم بالهِدَايَةِ والتوفيق، وقال عِكْرَمَةُ^(٣) - رضي الله تعالى عنه -: مَنْتَت عليهم بالثَبَاتِ على الإيمان والاستِقَامَةِ وعلى الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: على كُلِّ مَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ - تعالى - من النَّبِيِّينَ والمُؤْمِنِينَ الذي ذكرهم الله - تَعَالَى - في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] وقال ابنُ عباس - رضي الله تعالى عنهما - هُم قَوْمُ مُوسَى، وَعِيسَى - عليهما الصلاة والسلام - قبل أن يغيروا دينهم.

وقال أَبُو الْعَالِيَةِ^(٤): هُم آلُ الرُّسُولِ ﷺ وأبو بكر، وعمر رضي الله عنهما.

وقال شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ^(٥) - رضي الله عنه -: هُم أصحابُ النبي ﷺ، وأهل بَيْتِهِ.

(١) ينظر تفصيل ذلك في حجة القراءات: ٨٠، والحجة: ٥٧/١، وما بعدها، وإعراب القراءات: ٥٠/١، والبحر المحيط: ١٤٥/١، وإتحاف: ٣٦٥/١، وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري، ولد سنة ٥١٣هـ، من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال. سكن بغداد وتوفي بها سنة ٥٧٧هـ. له البيان في غريب إعراب القرآن، نزهة الألباء في طبقات الأدباء. ينظر الأعلام: ٣/٣٢٧، بغية الوعاة: ٣٠١، والوفيات: ٢٧٩/١.

(٣) عكرمة البَزْزَرِيُّ مولى ابن عباس أبو عبد الله أحد الأئمة الأعلام. عن مولاه، وعائشة وأبي هريرة، وأبي قتادة ومعاوية وخلق. وعنه الشعبي وإبراهيم التَّخَفِيُّ، وأبو الشَّعْثَاءِ من أقرانه وعَمَرُو بن دينار وُقْتَادَةُ وأيوب وخلق. قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عِكْرَمَةَ زَمَوْهُ بغير نوع من البِدْعَةِ. قال العجلي: ثقة بريء مما يرميه الناس به. ووثقه أحمد، وابن معين، وأبو حاتم والنسائي. ومن القدماء أيوب السُّخْتِيَانِيُّ. قال مُضْعَبٌ: مات سنة خمس ومائة. ينظر الخلاصة: ٢/٢٤٠.

(٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني روى عن أبيه. وعنه وكيع وابن وهب وقتيبة وخلق ضعَّفَهُ أحمد وابن المدني والنسائي وغيرهم. توفي سنة ١٨٤هـ.

ينظر الخلاصة: ١٣٣/٢ (٤٠٩٤)، الجرح والتعديل: ج ٢ ق ٢/٢٣٢، ٢٣٣، والمغني: ٣٨٠/٢، وهدية العارفين: ٥١٢/١.

(٥) شهر بن حوشب الأشعري، فقيه قارئ، من رجال الحديث، شامي الأصل، ولد سنة ٢٠هـ، سكن العراق، وكان يتزنيًا بزي الجند، ويسمع الغناء بالآلات، وولي بيت المال مدة، وهو متروك الحديث، =

وقرأ حَمَزَةً^(١) «عَلَيْهِمْ»، و «إِلَيْهِمْ»، و «لَدَيْهِمْ» بضم الهاء.

ويضم يَعْقُوب^(٢) كُلَّ هَاءٍ قبلها ياء ساكنة تثنية وجمعاً، إِلَّا قَوْلَهُ تعالى: ﴿يَبْنَ أَيَدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٢].

والآخِرُونَ: بكسرها. فَمَنْ ضَمَّهَا رَدَّهَا إِلَى الْأَصْلِ؛ لأنها مضمومة عند الانفراد.

وَمَنْ كَسَرَهَا، فَالْأَصْلُ الْيَاءُ السَّاكِنَةُ، وَالْيَاءُ أَخْتُ الْكسرة.

وضم ابنُ كَثِير^(٣)، وَأَبُو جَعْفَر^(٤) كُلَّ مِيمٍ جمع مُشْبِعاً فِي الْوَضْلِ، إِذَا لَمْ يَلْقَها ساكن، فَإِنَّ لِقِيَهَا سَاكِنٌ فَلَا يُشْبِعُ.

وَنَافِعٌ يُخَيِّرُ، وَيَضُمُّ وَزَش^(٥) عِنْدَ أَلِفِ الْقَطْعِ.

وَإِذَا تَلَقَّته أَلْفُ الْوَضْلِ، وَقَبْلَ الْهَاءِ كَسْرٌ، أَوْ يَاءٌ سَاكِنَةٌ، ضَمَّ الْهَاءَ وَالْمِيمَ حَمَزَةً وَالْكَسَائِي - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - وَكَسَرَهُمَا أَبُو عَمْرٍو، وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ إِذَا انْكَسَرَ مَا قَبْلَهُ.

= وكان ظريفاً قال له رجل: إني أحبك فقال: ولم لا تحبني وأنا أخوك في كتاب الله ووزيرك على دين الله، وهو نبي على غيرك. ينظر الأعلام: ١٧٨/٣، تهذيب التهذيب: ٣٦٩/٤، والتاج: ٢١٤/١.
(١) انظر الحجة للقراء السبعة: ٥٧/١، وحجة القراءات: ٨٠، وإعراب القراءات: ٥٠/١، وإتحاف: ١/١. ٣٦٦.

(٢) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري أحد القراء العشرة وإمام أهل البصرة ومقرؤها سمع الحروف من الكسائي ومحمد بن زريق الكوفي عن عاصم وسمع من حمزة حروفاً، وروى ابن المنادي أنه قرأ على أبي عمرو، قال أبو عبد الله القصاع: وما ذلك ببعيد لأن أبا عمرو توفي وليعقوب سبع وثلاثون سنة، قال يعقوب قرأت على سلام في سنة ونصف وقرأت على شهاب بن شرنقة المجاشعي في خمسة أيام وقرأ شهاب على مسلمة بن محارب المحاربي في تسعة أيام وقرأ مسلمة على أبي الأسود الدؤلي على علي رضي الله عنه. قلت وقراءته على أبي الأشهب عن أبي رجاء عن أبي موسى في غاية العلو، قال أبو حاتم السجستاني هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهبه ومذاهب النحو. ينظر الغاية: ٣٨٦/٢ (٣٨٩١).

(٣) عبد الله بن كثير الداري المكي، أبو معبد: أحد القراء السبعة.
كان قاضي الجماعة بمكة. وكانت حرفته العطارة. ويسمون العطار «دارياً». فعرّف بالداري. وهو فارسي الأصل ولد سنة ٤٥٠هـ بمكة وتوفي سنة ١٢٠هـ بها أيضاً.
انظر وفيات الأعيان: ٢٥٠/١، الأعلام: ١١٥/٤.

(٤) أحمد بن فرح بن جبريل أبو جعفر الضرير البغدادي المفسر وفرح بالحاء المهملة ثقة كبير، قرأ على الدوري بجميع ما عنده من القراءات وعلى عبد الرحمن بن واقد وقرأ أيضاً على البزي وعمر بن شبة، قرأ عليه أحمد بن مسلم الختلي وأحمد بن عبد الرحمن الدقاق الولي وزيد بن علي بن أبي جلال وأبو بكرة بن مقسم وابن مجاهد وأبو الحسن بن شنبوذ. ينظر الغاية: ٩٥/١ (٤٣٧).

(٥) عثمان بن سعيد بن عدي المصري. ولد بمصر سنة ١١٠هـ، من كبار القراء. غلب عليه لقب «ورش» لشدة بياضه. أصله من القيروان وتوفي بمصر سنة ١٩٧هـ. ينظر الأعلام: ٢٠٥/٤، النهاية: ٥٠٢/١، وإرشاد الأريب: ٣٣/٥.

والآخرون: بضم الميم، وكسر الهاء؛ لأجل الياء أو لكسر ما قبلها، وضم الميم على الأصل، وقرأ عمرُ بن الخطَّاب^(١) - رضي الله تعالى عنه -: «صَرَّاطٌ مَنْ أُنْعِمْتَ عَلَيْهِمْ».

قال ابنُ الخطَّيب^(٢) - رحمه الله تعالى -: اخْتَلَفَ فِي حَدِّ النِّعْمَةِ:

فقال بعضهم: إنها عِبَارَةٌ عن الْمَنْفَعَةِ الْمَفْعُولَةِ على جِهَةِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ.

[ومنهم مَنْ يَقُولُ: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ].

قالوا: وإنما زدنا على هذا الْقَيْدَ، لأن النعمة يستحق لها الشكر بالإحسان [والحق أن هذا القيد غير معتبر؛ لأنه لا يجوز إن يستحق الشكر بالإحسان]^(٣)، وإن كان فعله محظوراً؛ لأن جهة استحقاق الشكر غير جهة استحقاق الذنب والعقاب، فأَيُّ امتناع في اجتماعهما؟ ألا ترى أن الفاسق يستحق بإنعامه الشُّكْرَ، والذَّمُّ بمعصية الله تعالى، فلا يجوز أن يَكُونَ الأمرُ ها هنا كذلك.

ولنرجع إلى تفسير الحدِّ، فنقول: أما قولنا: «المنفعة»؛ فلأن الْمَضَرَّةَ المحضة لا تكون نِعْمَةً.

وقولنا: المفعولة على جهة الإحسان؛ لأنه لو كان نفعاً حقاً وَقَصَدَ الْفَاعِلُ به نفع نفسه، نَفَعَ الْمَفْعُولَ به، فلا يكون نِعْمَةً^(٤)، كَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى جَارِيَّتِهِ، ليربِّحَ عليها. وها هنا فوائد:

الفائدة الأولى: أَنَّ كُلَّ ما يصل إلى الخلق من النفع، ودفع الضرر، فهو من الله تعالى على ما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ثُمَّ إِنَّ النِّعْمَةَ على ثلاثة أَقْسَامٍ:

أحدها: نِعْمَةٌ تَقَرَّدَ اللَّهُ - تعالى - بِإِيْجَادِهَا، نحو: أَنْ خَلَقَ وَرَزَقَ.

وثانيها^(٥) نِعْمَةٌ وصلت إلينا من جهة غير الله - تعالى - في ظاهر الأمر، وفي الحقيقة فهي - أيضاً - إنما وصلت من الله تبارك وتعالى؛ وذلك لأنه - تعالى - هو الخالق لتلك النعمة، والخالق لذلك المنعم، وخالق لداعية الإنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المنعم، إلا أنه تبارك وتعالى لَمَّا أَجْزَى تلك النعمة على يَدِ ذَلِكَ الْعَبْدِ، كان ذلك العبد مشكوراً، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله - تعالى - ولهذا قال تعالى: ﴿أَن أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] فبدأ بنفسه، تنبيهاً على أن إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله تعالى.

وثالثها: نِعْمٌ وصلت من الله إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضاً من الله تعالى^(٦)؛ لأنه

(١) تقدم.

(٢) في أ: إحساناً.

(٣) ينظر الفخر الرازي: ٢٠٨/١.

(٤) سقط في أ.

(٥) سقط في ب.

(٦) سقط في أ.

لولا أَنَّ الله - سبحانه وتعالى - وَقَفْنَا للطاعات، وأعانا عليها، وهدانا إليها، وَأَرَاخَ الأعداء عَنَا، وَإِلَّا لَمَّا وَصَلْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، فظهر بهذا التقرير أَنَّ جَمِيعَ النعم في الحقيقة من الله تَعَالَى.

الفائدة الثانية: اختلفوا [في أنه] ^(١) هل لله - تعالى - نعمة على الكافر أم لا؟

فقال بعض أصحابنا: ليس لله - تعالى - نعمة على الكافر نعمة.

وقالت المعتزلة: لله - تعالى - نعمة على الكافر نعمة دينية، ونعمة دنيوية.

واحتج أصحاب على صحة قولهم، بالقرآن [الكريم] ^(٢)، والمعقول.

أما القرآن؛ فقوله تبارك وتعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ وذلك لأنه لو كان لله نعمة على الكافر نعمة، لكانوا داخلين تحت قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيكون طلباً لصراط الكفار، وذلك باطل، فثبت بهذه الآية أنه ليس لله - تعالى - نعمة على الكافر نعمة.

فإن قالوا: إن قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يدفع ذلك.

قلنا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛

فكان التقدير: «اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم»، وحينئذ يعود المحذوف المذكور.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تَمَلُّ لَهُمْ حَمِيمٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تَمَلُّ لَهُمْ

لِيَزْدَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وأما المغفول: فهو أَنَّ نِعَمَ الدنيا الفانية في مُقَابِلَةِ عَذَابِ الآخرة على الدوام، كالقطرة

في البحر، ومثل هذا لا يكون نعمة، بدليل أَنَّ مَنْ جعل السَّمَّ في الحَلْوَى لم يُعِدِ النفع الحاصل منه نعمة؛ لأجل أَنَّ ذلك النفع حقيق في مُقَابِلَةِ ذلك الضرر الكبير ^(٣)، فكذا هُنا.

وأما الذين قالوا: إن لله نعمة على الكافر نعمة، فقد احتجوا بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ

أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، على أنه يجب على الكل طاعة الله - تعالى - لأجل هذه النعم،

وإلا لما كانت هذه النعم العظيمة معتبرة؛ وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ

أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ذكر ذلك في معرض الامتنان، وشرح النعم.

وقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

وقول إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

(١) سقط في ب.

(٣) في أ: الكثير.

(٢) سقط في أ.

ولو لم تحصل النعمة، لم يلزم من عَدَمِ إقْدَامِهِمْ على الشكر محذور؛ لأنَّ الشكر لا يمكن إلاَّ عند حصول النعمة.

الفائدة الثالثة: قال ابنُ الخَطِيب^(١) - رحمه الله -: قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يدلُّ على إمامة أبي بكر - رضي الله عنه؛ لأنَّا ذكرنا أنَّ تقدِيرَ الآية: «اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم» واللَّه - تعالى - قد بيَّن في آية أُخْرَى أَنَّ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من هم؛ بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] ورئيسهم أبو بكر الصِّديق - رضي الله تعالى عنه - فكان معنى الآية أنَّ الله - تعالى - أمرنا أن نطلب الهداية [التي كان عليها أبو بكر الصديق، وسائر الصديقين، ولو كان أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - غير إمام، لما جازَّ الاقتداء به]^(٢)، فثبت [بما ذكرناه دلالة هذه الآية على]^(٣) إمامة أبي بكر رضي الله عنه.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يتناول كُلَّ من كان لله - تعالى - عليه نعمة، وهذه النعمة إما أن يكون المراد منها نعمة الدنيا، أو نعمة الدين، والأول باطل فثبت أنَّ المراد منه نعمة الدين.

فنقول: كل نعمة دينية سوى الإيمان فهي مشروطة بحصول الإيمان، وأمَّا نعمة الإيمان فيمكن حصولها خالياً عن سائر النعم الدينية، وهذا يدلُّ على أنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هو نعمة الإيمان، فرجع حاصل القول في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أنه طلب لنعمة الإيمان، وإذا ثبت هذا الأصل، فيتفرع عليه أحكام:

الأول: أنه لما ثبت أنَّ المُرَاد من هذه النعمة نِعْمَةُ الإيمان، إذ لفظ الآية الكريمة صريح في أنَّ الله - تعالى - هو المنعم بالنعمة، ثبت أنَّ الخالق للإيمان، والمعطي للإيمان هو الله تعالى، وذلك يدلُّ على فساد قول المعتزلة، وكان الإيمان أعظم النعم، فلو كان الفاعل للإيمان هو العبد لكان إنعام العبد أشرف وأعلى من إنعام الله تعالى، ولو كان كذلك لما حسن من الله - تعالى - أن يذكر إنعامه في معرض التعظيم.

الحكم الثاني: يجب ألاَّ يبقى المؤمن مخلداً في النار؛ لأنَّ قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مذكور في معرض التَّعْظِيم بهذا الإنعام، ولو لم يكن له أثر في دفع العَذَاب المؤبَّد لكان قليل الفائدة، فما كان يحسن من الله - تعالى - ذكره في معرض التَّعْظِيم.

الحكم الثالث: دلَّت الآية الكريمة على أنه لا يجب على الله - تعالى - رعاية [الصالح والأصلح]^(٤) في الدين؛ لأنه لو كان الإِرشاد على الله - تعالى - واجباً لم يكن ذلك إنعاماً،

(١) ينظر الفخر الرازي: ٢٠٩/١.

(٣) سقط في أ.

(٢) سقط في: أ.

(٤) سقط في أ.

وحيث سماه الله - تعالى - إنعاماً علمنا أنه غير واجب .

الحكم الرابع : لا يجوز أن يكون المراد بالإنعام الإقدار على الإيمان ؛ لأن الله - تبارك وتعالى - قدر المكلف عليه ، وأرشده إليه ، وأزاح أعذارَهُ وعِلَلَهُ عَنْهُ ، لأن كل ذلك حاصل في حَقِّ الكفار ، فلما خص الله - تعالى - بعض المكلفين بهذا الإنعام ، مع أن الإقدار ، وإزاحة العلل حاصل في حَقِّ الكل ، علمنا أن المراد ليس هو الإقدار ، وإزاحة الموانع .
قوله تعالى : ﴿عَبْرَ الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

«غير» بدل من «الذين» بدل نكرة من معرفة .

وقيل : نعت لـ «الذين» ، وهو مشكل ؛ لأن «غير» نكرة و «الذين» معرفة^(١) ، وأجابوا عنه بجوابين :

أحدهما : أن «غير» إنما يكون نكرة إذا لم يقع بين ضدين ، فأما إذا وقع بين ضدين فقد انحصرت الغيرية ، فيتعرف «غير» حينئذ بالإضافة ، تقول : «مررت بالحركة غير السكون» والآية من هذا القبيل ، وهذا إنما يتمشى على مذهب ابن السراج ، وهو مرجوح .

والثاني : أن الموصول أشبه النكرات في الإبهام الذي فيه ، فعومل معاملة النكرات .

(١) النعت والمنعوت كالشيء الواحد لا يكون معرفة نكرة ؛ لما بينهما من التضاد ؛ لأن النكرة لشياعها كالجمع ، والمعرفة لاختصاصها بالواحد ، فكما لا يمكن أن يكون الواحد جمعاً ، والجمع واحداً ؛ لا يمكن أن تكون المعرفة نكرة ، فإذا لم يكن ذلك في الشيء الواحد ، تعذر فيما هما كالشيء الواحد .
والدليل على أن النعت والمنعوت كالشيء الواحد : أنك إذا قلت : مررت بزيد الأكحل ، فيتناول زيد الأكحل عند من لا يعرف الشخص بـ «زيد» وحده منزلة «زيد» عند من يعرفه به ؛ لهذا لا تنعت النكرة إلا بنكرة ، والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة .

قال أبو حيان - رحمه الله - في ارتشاف الضرب : الذي نختاره أنه لا تنعت المعرفة إلا بالمعرفة ، ولا النكرة إلا بالنكرة ، إذا توافقا في الإعراب ، وذهب بعض الكوفيين إلى جواز التخالف بكون النعت نكرة إذا كان لمدح أو ذم ، وجعل منه : ﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع﴾ فالذي وصف لهزمة ، وأجاز الأخفش وصف النكرة بالمعرفة إذا خصصت قبل ذلك بالوصف ، نحو قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ قال : الأوليان صفة الآخران ؛ لأنه لما وصف تخصص ، وجوز قوم وصف المعرفة بالنكرة ومنه عندهم قوله :

وللمفئتي رسول الزور قواد

فقواد صفة للمفني ، وزعم ابن الطراوة أنه يجوز وصف المعرفة بالنكرة إذا كان الوصف بها خاصاً بالموصوف ، وجعل من ذلك : وفي أنيابها السم نافع .
وقال : نافع صفة للسم .

وأجيب بالمنع في الجميع بإعرابها أبداً . وأجيب عن هذا التخالف بما ذكره المصنف .

انظر البسيط شرح الجمل : (٣٠١/١ - ٣٢٥) ، وارتشاف الضرب : (٥٨٠/٢) ، وجمع الهوامع : (٢/ ١١٦ - ١١٧) .

وقيل: إن «غير» بدل من المضمَر المجرور في «عليهم»، وهذا يشكل على قول من يرى أن البدل يحل محلّ المبدل منه، وينوى بالأول الطرح؛ إذ يلزم منه خلو الصلة من العائد، ألا ترى أن التقدير يصير: «صراط الذين أنعمت على غير المغضوب عليهم».

و «المغضوب» خفض بالإضافة، وهو اسم مفعول، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور، ف «عليهم» الأولى منصوبة محلّ، والثانية مرفوعة، و «أل» فيه موصولة، والتقدير: «غير الذين غُضِبَ عليهم».

والصحيح في «أل» الموصولة أنها اسم لا حَرْفٌ.

واعلم أن لفظ «غير» مفرد مذكر أبداً، إلا أنه إن أريد به مؤنث جاز تأنيث فعله المسند إليه، نقول: «قامت غيرك»، وأنت تعني امرأة، وهي في الأصل صفة بمعنى اسم الفاعل، وهو مغاير، ولذلك لا تتعرف بالإضافة، وكذلك أخواتها، أعني نحو: «مثل وشبّه وشبيه وخذن وترب».

وقد يستثنى بها حملاً على «إلا» كما يوصف بـ «إلا» حملاً عليها، وقد يراد بها النفي كـ «لا»، فيجوز تقديم معمول معمولها عليها، كما يجوز في «لا» تقول: «أنا زيدا غَيْرُ ضارب» أي: غير ضارب زيدا؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

٨٤ - إِنَّ أَمْرًا خَصَّنِي عَمْدًا مَوْدَّتَهُ عَلَى الثَّنَائِي لِعِنْدِي غَيْرُ مَكْفُورٍ^(١)

تقديره: غير مكفور عندي، ولا يجوز ذلك فيها إذا كانت لغير النفي.

لو قلت: «جاء القوم زيدا غير ضارب»، تزيد: غير ضارب زيدا لم يجز؛ لأنها ليست بمعنى «لا» التي يجوز فيها ذلك على الصحيح من الأقوال في «لا». وفيها قول ثانٍ يمنع ذلك مطلقاً.

وقول ثالث: يفصل بين أن تكون جَوَاب قَسَم، فيمتنع فيها ذلك، وبين ألا يكون فيجوز.

وهي من الألفاظ اللازمة للإضافة لفظاً وتقديراً، فإذْخَالَ الألف واللام عليها خطأ.

واختلفوا هل يجوز دخول «أل» على «غير وبعض وكل» والصحيح جوازه.

قال البغوي - رحمه الله تعالى -: «غير» ها هنا بمعنى «لا»، و «لا» بمعنى «غير»، ولذلك جاز العطفُ عليها، كما يقال: «فلان غير مُحسن ولا مجمل»، فإذا كان «غير»

(١) البيت لأبي زيد الطائي ينظر: الدرر: ١٨٣/٢، صناعة الإعراب: ٣٧٥/١، شرح أبيات سيويه: ١/٤٣٢، شرح شواهد المغني: ٩٥٣/٢، الكتاب: ١٣٤/٢، لسان العرب، (خصص)، شرح الأشموني: ٣٣٠/٢، وشرح عمدة الحافظ: ص ٢٢٣، شرح المفصل: ٦٥/٨، مغني اللبيب: ٢/٦٧٦، الإنصاف: ٤٠٤/١، الهمع: ١٤٩/١، ٩٠٧، رصف المباني: ١٢٢، الدر: ٨٣/١.

بمعنى «لا»، فلا يجوز العطف عليها بـ «لا»؛ لا يجوز في الكلام: «عندي سوى عبد الله ولا زيد».

وقرىء^(١): «عَيزَ» نصباً، فقبل: حال من «الذين» وهو ضعيف؛ لمجيئه من المضاف إليه في غير المواضع الجائز فيها ذلك، كما ستعرفه إن شاء الله تعالى، وقيل: من الضمير في «عليهم».

وقيل على الاستثناء المنقطع، ومنعه القراء؛ قال: لأن «لا» لا تُزَادُ إِلاَّ إِذَا تَقَدَّمَهَا نفي، كقول الشاعر: [البسيط]

٨٥ - مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ فَعَلَهُمَا وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ^(٢)

وأجابوا بأن «لا» صلة زائدة مثلها في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْبُدُ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ وقول الشاعر: [الرجز]

٨٦ - فَمَا أَلَوْمُ الْبَيْضِ إِلَّا تَسْخَرَا^(٣)

وقول الآخر: [الطويل]

٨٧ - وَلَيَحْيِنَنِي فِي اللَّهْوِ إِلَّا أَحِبُّهُ وَلِلَّهِو دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ^(٤)

وقول الآخر: [الطويل]

٨٨ - أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودَ نَائِلُهُ^(٥)
فـ «لا» في هذه المواضع كلها صلة.

وفي هذا الجواب نظر؛ لأن القراء لم يقل: إنها غير زائدة، وقولهم: إن «لا» زائدة في الآية، وتنظيرهم بالمواضع المتقدمة لا تفيد، وإنما تحرير الجواب أن يقولوا: وجدت

(١) قرأ بها ابن كثير. رواها عنه الخليل بن أحمد، وهي قراءة عمر وابن مسعود وعلي وعبد الله بن الزبير. انظر الشواذ: ١، والمححر الوجيز: ٧٦/١، والبحر المحيط: ١٤٨/١، وإتحاف: ٣٦٨/١.
(٢) البيت لجريز. ينظر ديوانه: ٢٦٣، نقائض جريز والأخطل: ١٧٤، الأضداد لابن الأنباري: ١٨٦، الطبري: ١١٣/١، البحر المحيط: ١٤٩/١، الدر: ٨٤/١.

(٣) البيت لأبي النجم العجلي. ينظر مجاز القرآن: ٢٦/١، الجمهرة: ٣/٣٣٤، الصحاح واللسان والتاج: (قفندر)، الخزانة: ٤٨/١، الأمالي لابن الشجري: ٢٣١/٢، الخصائص: ٢/٢٨٣، الأضداد لابن الأنباري: ١٨٥، الطبري: ١١٢/١، المححر الوجيز: ٧٧/١، البحر المحيط: ١٤٩/١، الدر: ٨٤/١.

(٤) البيت لأحوص: ينظر ديوانه: ١٧٩، الأزهية: ١٥٦، وشرح شواهد المغني: ٢/٦٣٤، تذكرة النحلة: ٥٧٠، الجنى الداني: ٣٠٢، الصاحبي في فقه اللغة: ١٦٧، مغني اللبيب: ١/٢٤٨، الكامل: ٤٩/١، الأضداد: ١٨٦، الطبري: ١١٢/١، المححر الوجيز: ٧٨/١، الدر: ٨٤/١.
(٥) ينظر البيت في الخصائص: ٣٥/٢، مغني اللبيب: ١/٢٤٨، الأمالي الشجرية: ٢/٢٢٨، شرح شواهد المغني: ٢/٦٣٤، الحجة: ١/١٢٥، اللسان (لا)، البحر: ١/١٥٠، الدر: ٨٤/١.

«لا» زائدة من غير تقدّم نفي، كهذه المواضع المتقدمة.

ويحتمل أن تكون «لا» في قوله: «لَا الْبُخْلَ» مفعولاً به لـ «أَبَى»، ويكون نصب «الْبُخْلَ» على أنه بدل من «لا» أي: أبى جُودَهُ قَوْلَ لا، وقول: لا هو البخل، ويؤيد هذا قوله: «وَاسْتَعْجَلْتُ بِهِ نَعَمَ» فجعل «نَعَمَ» فاعل «اسْتَعْجَلْتُ»، فهو من الإسناد اللفظي، أي: إلى جود هذا اللفظ، واستعجل به هذا اللفظ.

وقيل: إن نصب «غير» بإضمار أعني. ويحكي عن الخليل، وقدّر بعضهم بعد «غير» محذوفاً قال: التقدير: «غير صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ»، وأطلق هذا التقدير، فلم يقيده بجَرَ «غير»، ولا نصبه ولا يتأتى ذلك إلا مع نصبها، وتكون صفة لقوله تعالى: ﴿الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا ضعيف؛ لأنه متى اجتمع البدل^(١) والوصف قدم الوصف، فالأولى أن تكون صفة لـ «صراط الذين»، ويجوز أن تكون بدلاً من «الصراط المستقيم»، أو من «صراط الذين»^(٢) إلا أنه يلزم منه تكرار البدل، وفي جوازه نظّر، وليس في المسألة نقل، إلا أنهم قد ذكروا ذلك في بدّل البداء خاصة، أو حالاً من «الصراط» الأول أو الثاني.

واعلم أنه حيث جعلنا «غير» صفة فلا بد من القول^(٣) بتعريف «غير»، أو إبهام الموصوف، وجريانه مجرى النكرة، كما تقدم تقريره ذلك في القراءة بجَرَ «غير».

و «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة لتأكيد معنى النفي المفهوم من «غير» لثلاثيهم عطف «الضّالّين» على «الذين أنعمت».

وقال الكوفيون: هي بمعنى «غير» وهذا قريب من كونها زائدة، فإنه لو صرح بـ «غير» كانت للتأكيد أيضاً، وقد قرأ بذلك عمر بن الخطّاب وأبيّ رضي الله عنهما.

و «الضّالّين» مجرور عطفاً على «المغضوب»، وقرىء شاذاً^(٤) «الضّالّين» بهمز الألف؛ وأنشدوا: [الطويل]

٨٩ - وَلِلْأَرْضِ أَمَّا سُوْدُهَا فَتَجَلَّلَتْ بَيَاضاً، وَأَمَّا بَيِضُهَا فَادْهَمَّتِ^(٥)

(١) في أ: الموصوف.

(٢) زاد في أ: ويجوز أن تكون بدلاً من «الصراط المستقيم».

(٣) في أ: التقدير.

(٤) قرأ بها أيوب السخيتاني. انظر الكشف: ١٧/١، والمحور الوجيز: ٧٨/١، والبحر المحيط: ١/ ١٥١.

(٥) البيت لكثير وهو في ديوانه: ١١٣، ينظر ابن يعيش: ١٢/١٠، المحتسب: ٤٧/١، المخصص: ١٥/ ١٦٦، الممتع: ٣٢٢، وصف المباني: ٥٧، المقرب: ١٦٠/٢، شرح الشافية: ٢٠٥/٣، المحرر الوجيز: ٧٨/١، البحر المحيط: ١٥١/١، الدرر: ٨٥/١، الصناعة: ٨٤/١، الممتع: ٣٢٢/١، الهمع: ١٩٩/٢، الدرر: ٢٣٠/٢.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ: «وَفَعَلُوا ذَلِكَ، لِجِدِّ فِي الْهَرَبِ مِنَ التَّقَاءِ السَّاكِنِينَ».

وقد فعلوا ذلك حيث لا سَاكِنَانِ؛ قال الشاعر: [الرجز]

٩٠ - وَخِنْدِفَ هَامَةً هَذَا الْعَالَمِ^(١)

بهمز «العالم».

وقال آخر: [البسيط]

٩١ - وَلَّى نَعَامُ بَنِي صَفْوَانَ زَوْرَاةً^(٢)

بهمز ألف «زَوْرَاةً»، والظاهر أنها لغة مطردة؛ فإنهم قالوا في قراءة^(٣) ابن ذَكْوَانَ^(٤): «مُسَاتَةٌ» بهمز ساكنة: إِنَّ أَصْلَهَا أَلْفٌ، فقلبت همزة ساكنة.

فإن قيل: لم أتى بصلة «الذين» فعلاً ماضياً؟

قيل: ليدل ذلك على ثبوت إنعام الله - تبارك وتعالى - عليهم وتحقيقه لهم، وأتى بصلة «أل» اسماً ليشمل سائر الأزمان، وجاء مبنياً للمفعول؛ تحسیناً للفظ؛ لأن من طلبت منه الهداية، ونسب الإنعام إليه لا يناسبه نسبة الغضب إليه، لأنه مقام تلطف، وترفق لطلب الإحسان، فلا يحسن مواجهته بصفة الانتقام.

والإنعام: إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه الإحسان من العُقَلَاءِ، فلا يقال: أنعم فلان على قَرَسِهِ، ولا حماره.

(١) البيت للعجاج ينظر ديوانه: ٢٩٩/١، الممتع: ٣٢٤، سر الصناعة: ١٠١/١، رصف المباني: ٥٦، شرح المفصل لابن يعيش: ١٣/١٠، اللسان (علم)، ضرائر الشعر: ٢٢٣، المقرب: ٥١٧/٢، إعراب ثلاثين سورة: ٢٢، شرح الشافية للرضي: (٣/٢٠٥)، الجامع لأحكام القرآن: ٩٧، روح المعاني: ٩٦/١، الدر: ٨٥/١.

(٢) صدر بيت لزيد بن كثوة وعجزه: .

لما رأى أسداً في الغاب قد وثب

ينظر الخصائص: ١٤٥/٣، الممتع: ٣٢٥، المحتسب: ٣١٠/١، سر الصناعة: ١٠٢/١، المقرب: ١٦٠، اللسان (زوى) الدر: ٨٥/١.

(٣) ستأتي في «سبأ» آية (١٤).

(٤) عبد الله بن أحمد بن بشر ويقال بشير بن ذكوان بن عمرو بن حسان بن داود بن حسن بن سعد بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر أبو عمرو وأبو محمد القرشي الفهري الدمشقي الإمام الأستاذ الشهير الراوي الثقة شيخ الإقراء بالشام وإمام جامع دمشق. ولد يوم عاشوراء سنة ثلاث وسبعين ومائة وتوفي في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شوال وقيل سبغ خلون منه سنة اثنين وأربعين ومائتين قال أبو زرعة الدمشقي لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمان ابن ذكوان أقرأ عندي منه وقال الوليد بن عتبة الدمشقي ما بالعراق أقرأ من ابن ذكوان. ينظر الغاية: ٤٠٤/١ (١٧٢٠).

والغضب: ثَوْرَانِ دم القلب إرادة الانتقام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «اتَّقُوا الْعُصْبَ فَإِنَّه جَمْرَةٌ تَوْقُدُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى اتِّفَاحِ أَوْدَاجِهِ وَحُمْرَةِ عَيْنِهِ»^(١).

وإذا وصف به الباري - تبارك وتعالى - فالمراد به الانتقام لا غيره.

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: هنا قاعدة كلية، وهي أن جميع الأعراض النفسانية - أعني الرحمة، والفرح، والسرور، والغضب، والحياء، والعُتُو، والتكبر، والاستهزاء - لها أوائل ولها غايات.

ومثاله: الغضب: فإن أوله غليان دم القلب، وغايته: إرادة إيصال الضَّرَرِ إلى [المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غايته الذي هو إرادة الإضرار، وأيضاً الحياء]^(٢) له أول وهو انكسار النفس، وهذه قاعدة شريفة في هذا الباب.

ويقال: فَلَانَ غُصْبَةً: إذا كان سريع الغضب.

ويقال: غضبت لفلان إذا كان حياً وغضبت به إذا كان ميتاً.

وقيل: الغضب تغير القلب لمكروه.

وقيل: إن أريد بالغضب العقوبة كان صفة فعل، وإن أريد به إرادة العقوبة كان صفة ذات.

والضلال: الخفاء والغيوبة.

وقيل: الهلاك، فمن الأول قولهم: ضَلَّ الماء في اللبن.

[وقال القائل]^(١): [الوافر]

٩٢ - أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيَارُ عَنْ الْحَيِّ الْمُضَلَّلِ أَيْنَ سَارُوا؟^(٣)

«وَالضَّلُضَلَةُ»: حجر أملس يرده السَّيْلُ في الوادي.

ومن الثاني: ﴿أَوَدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. وقيل: الضلال: العُدُولُ عن الطريق المستقيم، وقد يُعْبَرُ به عن النسيان كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] بدليل قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

التفسير: قيل: «المغضوب عليهم» هم اليهود.

(١) أخرجه الترمذي في السنن مطولاً (٤٨٣/٤) كتاب الفتن (٣٤) باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ وأصحابه... (٢٦) حديث رقم (٢١٩١) وقال حديث حسن صحيح - وأبو داود الطيالسي في المسند ص (٢٨٦) - وأحمد في المسند (٦١/٣) - والحاكم في المستدرک (٥٠٥/٤).

(٢) سقط في أ.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ١/١٠٥، الدر المصون: ٨٦/١.

وقيل: «الضالون» هم النصارى؛ لأن الله - تعالى - حكم على اليهود بالعُصْبِ فقال تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وحكم على النصارى بالضلال فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقيل: هذا ضعيف؛ لأن منكري الصانع والمشركين أخبث ديناً من اليهود والنصارى، فكان الاحتراز من دينهم أولى.

وقيل: «المغضوب عليهم»: هم الكفار، و «الضالون»: هم المنافقون.

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنهما: «غير المغضوب عليهم» بالبدعة، «والضالين» عن السنة.

والأولى أن يحمل «المغضوب عليهم» على كل من أخطأ في الاعتقاد؛ لأن اللفظ عام، والتقييد خلاف الأصل.

فَصْلٌ فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: «غير المغضوب عليهم» يدل على أن أحداً من الملائكة، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما أقدم على عمل مخالف قول الدين، ولا على اعتقاد مخالف اعتقاد دين الله؛ لأنه لو صدر عنه ذلك لكان قد ضلَّ عن الحق، لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ولو كانوا ضالين لما جاز الاقتداء بهم، ولا بطريقهم، ولكانوا خارجين عن قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ولما كان ذلك باطلاً علمنا بهذه الآية عِصْمَةَ الْمَلَائِكَةِ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فَصْلٌ فِي إِضَافَةِ الْغَضَبِ لِلَّهِ

قالت المعتزلة: غَضِبَ اللَّهُ - تعالى - عليهم يدل على كونهم فاعلين للقبائح باختيارهم، وإلا لكان الغضب عليهم ظلماً من الله - تعالى - عليهم.

وقال أصحابنا - رحمهم الله تعالى -: لما ذكر غضب الله عليهم، وأتبعه بذكر كونهم ضالين دلَّ ذلك على أن غضب الله - تعالى - عليهم علة لكونهم ضالين، وحينئذ تكون صفة الله - تعالى - مؤثرة في صفة العبد.

أما لو قلنا: إن كونهم ضالين يوجب غضب الله - تعالى - عليهم لزم أن تكون صفة العبد مؤثرة في صفة الله تعالى، وذلك مُحَالٌ.

فَصْلٌ

قال ابن الخطيب^(١) - رحمه الله تعالى -: دلَّت هذه الآية على أن المكلفين ثلاث فرق:

(١) ينظر الفخر الرازي: ٢١١/١.

أهل الطاعة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.
 وأهل البغي والعدوان، وهم المراد بقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.
 وأهل الجهل في دين الله، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.
 فإن قيل: لم قدم ذكر العصاة على ذكر الكفرة؟

قلنا: لأن كل أحد يحترز عن الكفر، أما قد لا يحترز عن الفسق، فكان أهم فقدم لهذا السبب ذلك.

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: ها هنا سؤال، وهو أن غضب الله إنما تولد عن علمه بصدور القبيح والجنابة^(١) عنه، فهذا العلم إما أن يقال: إنه قديم، أو محدث، فإن كان قديماً فلم خلقه، ولم أخرجه من العدم إلى الوجود، مع علمه بأنه لا يستفيد من دخوله في الوجود إلا العذاب الدائم، ولأنه من كان غضبان على الشيء كيف [يعقل]^(٢) إقدامه على إيجادِه وتكوينه؟ فإن كان ذلك العلم حادثاً لكان الباري - تعالى - محلاً للحوادث، إلا أنه يلزم أن يفتقر إحداث ذلك العلم إلى سبق علم آخر، وتسلسل، وهو مُحَال.

والجواب: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

سؤال آخر

وهو أن من أنعم الله - تعالى - عليه امتنع أن يكون مغضوباً عليه، وأن يكون من الضالين، فلما ذكر قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فما الفائدة في أن ذكر عقبيه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟

والجواب: الإيمان إنما يكمل بالرجاء والخوف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ وَزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَاعْتَدَلَ»^(٣)، فقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يوجب الرجاء الكامل، وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يوجب الخوف الكامل، وحينئذ يقوى الإيمان بركنيه وطرفيه، وينتهي إلى حد الكمال.

سؤال آخر

ما الحكمة في أنه - تعالى - جعل المقبولين طائفة واحدة، وهم الذين أنعم الله عليهم، والمردودين فريقين: المغضوب عليهم، والضالين؟

(١) في أ: الخيانة.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٣ والأسرار المرفوعة لعلي القاري ٢٩٦ - وتنزيه الشريعة لابن عراق ٤٠٢/٢.

فالجواب: أَنَّ الذين كملت نعم الله - تَعَالَى - عليهم هم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فهؤلاء هم المُرَادُونَ بقوله: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فَإِنْ اختلَّ قيد العمل فهم الفَسَقَةُ، وهم المغضوب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣].

وإن اختلَّ قيد العلم فهم الضَّالُّون لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

فصل في حروف لم ترد في هذه السورة

قالوا: إِنَّ هذه السورة لم يحصل^(١) فيها سبعة من الحروف، وهو الشاء، والجيم، والخاء، والزاي، والشين، والظاء، والفاء، والسبب فيه أن هذه الحروف مُشْعِرَةٌ بالعذاب، فالثاء أول حروف الثبور.

والجيم أول حروف جهنم.

والخاء أول حروف الخزي.

والزاي والشين أول حروف الزفير والشهيق، والزقوم والشقاوة.

والظاء أول حرف ظل ذي ثلاث شعب، ويدل أيضاً على لظى الظاء.

والفاء أول حروف الفراق قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَفْقَرُونَ﴾ [الروم: ١٤].

قلنا: فائدته أنه - تعالى - وصف جَهَنَّمَ بأن ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ﴾ [الحجر: ٤٤] فلما أسقط هذه الحروف السبعة الدالة على العذاب من هذه السورة نبّه بذلك على أن من قرأ هذه السورة، وآمن بها، وعرف حقائقها آمن من ذَرَكَاتِ جهنم السبعة.

القول في «آمين»: ليست من القرآن إجماعاً، ومعناها: اللهم اسمع واستجب.

وقال ابن عباس وقتادة - رضي الله تعالى عنهما -: معناه كذلك يكون، فهي اسم فعل مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ.

وقيل: ليس باسم فعل، بل هو من أسماء البَارِي تعالى، والتقدير: يا آمين، وضعف أبو البقاء هذا بوجهين:

أحدهما: أنه لو كان كذلك لَكَانَ ينبغي أن يبنى على الضَّمِّ، لأنه منادى مفرد معرفة.

(١) في أ: يجعل.

والثاني: أن أسماء الله - تعالى - توقيفية.

ووجه الفارسي قول من جعله اسماً لله - تعالى - على معنى: أن فيه ضميراً يعود على الله تعالى؛ لأنه اسم فعل، وهو توجيه حسن نقله صاحب «المُعَرَّب».

وفي «أمين» لغتان: المَدَّ، والقَصْر، فمن الأول قول القائل: [البسيط]

٩٣ - آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ حَتَّى أَبْلُغَهَا أَلْفَيْنِ آمِينَ^(١)

وقال الآخر: [البسيط]

٩٤ - يَا رَبِّ لَا تَسْلُبْنِي حُبَّهَا أَبَدًا وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ: آمِينَ^(٢)

ومن الثاني قوله: [الطويل]

٩٥ - تَبَاعَدَ عَنِّي فَطَحُلْ إِذْ رَأَيْتُهُ آمِينَ فَرَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا^(٣)

وقيل: الممدود اسم أعجمي، لأنه بِزِيَّةٍ قَائِلٍ وَهَائِلٍ.

وهل يجوز تشديد الميم؟

المشهور أنه خطأ، نقله الجَوْهَرِيُّ^(٤) - رحمه الله تعالى -، ولكنه قد رُوي عن الحسن وجعفر الصادق - رضي الله تعالى عنهما - التشديد، وهو قول الحسين بن الفضل، من أم: إذا قصد، أي: نحن قاصدون نحوك.

ومنه: ﴿وَلَا آمِينَ أَلَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

(١) ينظر البيت في اللسان (أمن) المحرر الوجيز: ٨٠/١، القرطبي: ٩٠/١، الدر: ٨٧/١.

(٢) البيت للمجنون ينظر ديوانه: ص ٢١٩، ولعمر بن أبي ربيعة ينظر لسان العرب (أمن)، وليس في ديوانه، إصلاح المنطق: ص ١٧٩، وإنباه الرواة: ٢٨٢/٣، وشرح الأشموني: ٤٨٥/٢، وشرح المفصل: ٣٤/٤، وشرح شذور الذهب: ص ١٥١، أمالي ابن الشجري ٢٥٩/١، الكشف: ١/١٧١، شذور الذهب: ١٥٧، معاني الزجاج: ١٧/١، الصحاح (أمن) البيان في غريب إعراب القرآن: ٤٢/١، مقاييس اللغة: ١٣٥/١، القرطبي: ٩٠/١، الدر: ٨٧/١.

(٣) البيت لجبير بن الأصبط. ينظر تهذيب إصلاح المنطق: ٤٢/٢، إصلاح المنطق: ص ١٧٩، وشرح الأشموني: ٤٨٥/٢، وشرح شذور الذهب: ص ١٥٢، وشرح المفصل: ٣٤/٤، ولسان العرب (فحطل)، (أمن) ومعاني الزجاج: ١٧/١، الصحاح: ٢٠٧٢/٥، مقاييس اللغة: ١٣٥/١، والقرطبي: ٩٠/١، الدر: ٨٧/١.

(٤) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر: أول من حاول «الطيران» ومات في سبيله، لغوي من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف بالبادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور، وصنع جناحين من خشب، وصعد داره، فخانه اختراعه فسقط إلى الأرض قتيلاً من أشهر كتبه «الصحاح». انظر معجم الأدباء: ٣٦٩/٢، النجوم الزاهرة: ٢٠٧/٤، نزهة الألبا: ٤١٨، الأعلام: ٣١٣/١.

وقيل : معناه : هو طابع الدعاء .

وقيل : هو خاتم الله على عباده يدفع به الآفات عنهم كخاتم الكتاب يمنعه من الفساد ، وظهور ما فيه . وقال الثَّووي^(١) - رحمه الله تعالى - في «التهذيب» : وقال عطية العوفي^(٢) : [«آمين»]^(٣) كلمة عبرانية ، أو سُريانية ، وليست عربية .

وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن زيد : «آمين» كَنَزٌ من كنوز العَرْشِ لا يعلم أحد تأويله إلا الله تعالى .

وروي فيها الإِمَالَةُ مع المَدَّة عن حَمَزَةِ الْكِسَائِي ، والنون فيها مفتوحة أبداً مثل : أَيْنَ وَكَيْفَ .

وقيل : آمين درجة في الْجَنَّة تجب لقائلها .

وقيل : معناه : اللَّهُمَّ آمنا بخير .

وقال بعضهم : بنيت لأنها ليست عربية ، وأنها سم فعل [ك «صَه» و«مِه»] ألا ترى أن

معناها : «اللهم استجب ، وأعطنا ما سألناك» .

وقالوا : إن مجيء «آمين» دليلٌ على أنها ليست عربية^(٤) ؛ إذ ليس في كلام العرب

«فَاعِيل» .

فأما «آري» فليس بـ «فَاعِيل» ، بل هو عند جماعة «فَاعُول» .

وعند بعضهم «فَاعِلِي» .

وعند بعضهم [«فَاعِي»]^(٥) بالنقصان .

وقال بعضهم : إن «آمين» المقصورة لم يجيء عن العرب ، والبيت الذي ينشد

مقصوراً لا يصح على هذا الوجه إنما هو : [الطويل]

(١) يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام ، شيخ الإسلام محيي الدين ، أبو زكريا الحزامي النووي ، ولد سنة ٦٣١ ، قرأ القرآن ببلده ، وختم وقد ناهز الاحتلام ، وكان محققاً في علمه وفنونه ، مدققاً في عمله وشؤونه ، حافظاً لحديث رسول الله - ﷺ - عارفاً بأنواعه من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه ، واستنباط فقهه . . في كثير من المناقب يطول ذكرها ، صنف «المنهاج» في شرح مسلم ، و «المجموع» و «الأذكار» وغيرها . مات سنة ٦٧٧ . انظر ط . ابن قاضي شهبة : ٢ / ١٥٣ ، ط . السبكي : ١٦٥ / ٥ ، النجوم الزاهرة : ٢٨٧ / ٧ .

(٢) عطية بن سعد بن جنادة العوفي الجدلي القيسي الكوفي ، أبو الحسن : من رجال الحديث . كان يعد من شيعة أهل الكوفة . خرج مع ابن الأشعث . فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي : ادع عطية ، فإن سَبَّ علي بن أبي طالب وإلاً فاضربه ٤٠٠ سوط واحلق رأسه ولحيته ، فأبى أن يفعل ، فضربه ابن القاسم الأسواط وحلق رأسه ولحيته . ثم لجأ إلى فارس . واستقر بخراسان بقية أيام الحجاج . وعاد إلى الكوفة وتوفي بها سنة ١١١ هـ . انظر ذيل المذيل : ٩٥ ، تهذيب التهذيب : ٢٢٤ / ٧ - ٢٢٦ ، الأعلام : ٢٣٧ / ٤ .

(٤) سقط في أ .

(٣) سقط في أ .

(٥) سقط في أ .

٩٦ - فَأَمِينٌ زَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا^(١)

روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٢)، فقولوا: آمين، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: آمين، فمن وافق تأمِينُهُ تَأْمِينُ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

فصل في وجوب القراءة في الصلاة

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: أجمع الأكثرون على أن القراءة واجبة في الصلاة.

وعن الأصم^(٣) والحسن بن صالح^(٤) - رضي الله تعالى عنهما - أنهما قالا: لا تجب لنا [أن كل دليل نذكره في بيان أن]^(٥) قراءة الفاتحة واجبة، فهو يدل على أن أصل القراءة واجب، ونزید - ها هنا - وجوهاً:

الأول: فهو قوله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

والمراد بالقرآن القراءة، والتقدير: أقم قراءة الفجر، وظاهر الأمر الوجوب.

الثاني: عن أبي الدرداء^(٦) - رضي الله تعالى عنه - أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أفي

(١) تقدم برقم ٩٥.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/٢٦٦) كتاب الأذان (١٠) باب جهر المأموم بالتأمين (١١٣) حديث رقم (٧٨٢) دون قوله فإن الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين. والنسائي في السنن (٢/١٤٤) كتاب الافتتاح (١١) باب جهر الإمام بآمين (٢٣) - وابن ماجه في السنن (١/٢٧٧) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الجهر بآمين - وأحمد في المسند (٢/٢٣٣، ٢٧٠) والدارمي في السنن (١/٢٨٤) باب فضل التأمين.

(٣) عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم. فقيه معتزلي مفسر. قال ابن المرتضى: كان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم، خلا أنه كان يخطئ علياً عليه السلام في كثير من أفعاله ويصوب معاوية في بعض أفعاله. قال القاضي عبد الجبار: كان جليل القدر يكتابه السلطان. من تصانيفه: «تفسير» وصِف بأنه عجيب، وله الأصول: «مقالات». مات سنة ٢٢٥هـ تقريباً.

ينظر طبقات المعتزلة: ٥٦، لسان الميزان: ٤٢٧/٣، الأعلام: ٣٢٣/٣.

(٤) الحسن بن صالح بن حي الهمداني الثوري الكوفي، أبو عبد الله: من زعماء الفرقة «البترية» من الزيدية. كان فقيهاً مجتهداً متكلماً، أصله من ثغور همدان. وهو من أقران سفيان الثوري، ومن رجال الحديث الثقات، وقد طعن فيه جماعة لما كان يراه من الخروج بالسيف على أئمة الجور. له مصنفات منها كتاب «التوحيد» و«الجامع» في الفقه. ولد سنة ١٠٠هـ. وتوفي سنة ١٦٨هـ.

انظر تهذيب التهذيب: ٢/٢٨٥، الفهرست لابن النديم: ١/١٧٨، والأعلام: ٢/١٩٣.

(٥) سقط في أ.

(٦) عويمر بن زيد أو ابن عامر أو ابن مالك بن عبد الله بن قيس بن عابسة بن أمية بن مالك بن عامر بن

الصَّلَاةَ قِرَاءَةً فقال: «نَعَمْ»، فقال السَّائِلُ: وجبت، فأقر النبي ﷺ ذلك الرجل على قوله: «وَجَبَتْ»^(١).

الثالث: عن ابن مَسْعُودٍ - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ سُئِلَ: أيقراً في الصلاة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أَتَكُونُ صَلَاةً بَغَيْرِ قِرَاءَةٍ»^(٢)، هذان الخبران نقلهما من تعليق الشيخ أبي حامد الإسفراييني^(٣).

وحجة الأصم - رحمه الله تعالى - قوله عليه الصلاة والسلام: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي»^(٤) جعل الصلاة من الأشياء المريئة، والقراءة ليست مريئة، فوجب كونها خارجة عن الصلاة، والجواب: أنَّ الرؤية إذا كانت متعدية إلى مفعولين كانت بمعنى العلم.

فَضْلٌ

قال الشافعي - رحمه الله تعالى -: قراءة الفاتحة واجبة في الصلاة، فإن ترك منها حرفاً واحداً وهو يحسنها لم تصح صلاته، وبه قال الأكثرون.
وقال أبو حنيفة - رضي الله تعالى عنه -: لا تجب قراءة الفَاتِحَةِ.
لنا وجوه:

الأول: أنه - عليه الصلاة والسلام - وَاظَبَ طول عمره على قراءة الفاتحة في الصلاة، فوجب علينا ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]، ولقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

= عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء له ١٧٩ حديثاً. من أقواله: رُبَّ شهوة ساعة أورت حزنًا طويلاً، أسلم يوم بدر وشهد أحداً. جمع القرآن وولي قضاء دمشق، وله فضائل جمّة. توفي سنة ٣٢ هـ.

ينظر الخلاصة: ٣١٠/٢ (٥٥٠٠) الاصابة: ٧٤٧/٤ - ٧٤٨. وغاية النهاية: ٦٠٦/١ - ٦٠٧.

(١) ينظر سنن النسائي: ١٤٢/٢، كتاب الافتتاح باب اكتفاء المأموم بقراءة الإمام.

(٢) ينظر الدارقطني في السنن: ٣٢٠/١ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة أم الكتاب في الصلاة.

(٣) أحمد بن محمد بن أحمد الأسفراييني أبو حامد: من أعلام الشافعية ولد في ٣٤٤ هـ رحل إلى بغداد، فتفقه فيها وعظمت مكانته، وألف كتباً منها مطول في «أصول الفقه» ومختصر في الفقه سماه «الرواق» توفي في بغداد ٤٠٦ هـ.

ينظر طبقات الشافعية: ٢٤/٣، البداية والنهاية: ٢/١٢، ابن خلكان: ١٩/١، ياقوت: ٢٤٧/١ - ٢٤٨، الأعلام: ٢١١/١.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (١١١/٢) كتاب الأذان: (١٠) باب الأذان للمسافر (١٨) حديث رقم (٦٣١) وفي (٤٣٨/١٠) كتاب الأدب (٧٨). باب رحمة الناس والبهايم (٢٧) حديث رقم (٦٠٠٨).

وأحمد في المسند (٥٣/٥). والدارقطني في السنن (٢٧٣/١)، (٣٤٦). والبيهقي في السنن (٣٤٥/٢)

- وذكره ابن حجر في تلخيص الحبير (١٢٢/٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١١٧/٥)، (٢١٣/٩).

ويا للعجب من أبي حنيفة - رضي الله تعالى عنه - أنه تمسك في وجوب مسح الناصية بخبر واحد، في أنه - عليه الصلاة والسلام - مسح على الناصية، فجعل ذلك القدر من المسح شرطاً لصحة الصلاة، وها هنا نقل أهل العلم نقلاً متواتراً أنه - عليه الصلاة والسلام - اظبط على قراءة الفاتحة، ثم قال: إن صحة الصلاة غير موقوفة عليها، وهذا من العجائب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، والصلاة لفظ مُحَلَّى بالألف واللام، فيكون المراد منها المعهود السابق، وليس عند المسلمين معهود سابق من لفظ الصلاة إلا الأعمال التي كان رسول الله ﷺ يأتي بها.

وإذا كان كذلك كان قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ جارياً مجرى أمره بقراءة الفاتحة، وظاهر الأمر [الوجوب]^(١)، ثم إن هذه اللفظة تكررت في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة، فكان ذلك دليلاً قاطعاً على وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة.

الثالث: أن الخلفاء الراشدين - رضي الله تعالى عنهم - اظبطوا على قراءتها طول عمرهم، ويدل عليه ما روي في «الصحاحين» أن النبي - عليه الصلاة والسلام - وأبا بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما - كانوا يستفتحون القراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وإذا ثبت هذا وجب علينا ذلك، لقوله عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي»^(٣).

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «افْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ» رضي الله عنهما.

والعجب من أبي حنيفة - رحمه الله - أنه تمسك بطلاق الفَارَ بأثر عثمان^(٤) - رضي الله

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٩٩/١) كتاب الصلاة (٤) باب حجة من قال لا يجهز بالبسملة (١٣) حديث رقم (٣٩٩/٥٢). والنسائي في السنن كتاب الافتتاح باب رقم (٢٠). وأحمد في المسند (٣/ ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٣، ٢٥٥، ٢٧٣، ٢٧٨)، (٥٥/٥).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٦١١/٢) كتاب السنة باب في لزوم السنة حديث رقم (٤٦٠٧). والترمذي في السنن حديث رقم (٢٦٧٦) - وابن ماجه في السنن حديث رقم (٤٢) - وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦، ١٢٧) - والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٨، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٧). وابن حبان في الموارد حديث رقم (١٠٢) - وذكره المنذري في الترغيب (٧٨/١) - وابن عبد البر في التمهيد (٦٦/٨، ١١٦) وابن حجر في فتح الباري (٢٩٢/٣).

(٤) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي أبو عمرو المدني ذو النورين، وأمير المؤمنين، ومجهز جيش العسرة وأحد العشرة وأحد الستة، هاجر الهجرتين، له مائة وستة وأربعون حديثاً، وعنه أبناؤه أبان وسعيد وعمرو وأنس ومروان بن الحكم وخلق، وقال ابن سيرين: كان يحيي =

عنه - مع أن عبد الرحمن، وعبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - كانا يخالفانه، ونص القرآن أيضاً يوجب عدم الإزث، فلم يتمسك بعمل [كل]^(١) الصحابة - رضي الله عنهم - على سبيل الإطباق، والاتفاق على وجوب قراءة الفاتحة، مع أن هذا القول على وفق القرآن، والإخبار، والمعقول!

الرابع: أن الأمة [وإن]^(١) اختلفت في أنه هل تجب قراءة الفاتحة أم لا؟ لكنهم اتفقوا عليه في العمل فإنك لا ترى أحداً من المسلمين في العرف إلا يقرأ الفاتحة في الصلاة، وإذا ثبت هذا فنقول: إن من صلى ولم يقرأ الفاتحة كان تاركاً سبيل المؤمنين، فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] فإن قالوا: إن الذين اعتقدوا أنه لا يجب قراءتها قرءوها لا عن اعتقاد الوجوب، بل على اعتقاد الندبية، فلم يحصل الإجماع على وجوب قراءتها.

فنقول: أعمال الجوارح غير أعمال القلوب، ونحن قد بيننا إطباق الكل على الإتيان بالقراءة، فمن لم يأت بالقراءة كان تاركاً طريقة المؤمنين في هذا العمل فدخل تحت الوعيد، وهذا القدر يكفينا في الدليل، ولا حاجة في تقرير هذا الدليل إلى ادعاء الإجماع في اعتقاد الوجوب.

الخامس: قوله عز وجل: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي...»^(٢)، إلى آخر الحديث.

وجه الاستدلال: أنه - تعالى - حكم على كل صلاة بكونها بينه وبين العبد نصفين، ثم بين أن هذا التصنيف لم يحصل إلا بسبب آيات هذه السورة، ولازم اللازم لازم، فوجب

= الليل كله بركة، قتل في سابع ذي الحجة يوم الجمعة سنة خمس وثلاثين. قال عبد الله بن سلام: لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق إلى يوم القيامة. رضي الله عنه.

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٣٩/٧ (٢٨٩).. تقريب التهذيب: ١٢/٢، تاريخ البخاري الكبير: ٢٠٨/٦، الجرح والتعديل: ١٦٠/٦، تاريخ الثقات: ١١٠٩، شذرات الذهب: ١٠/١، ٢٥، ٣٠، ٣٣، ٤٣، ٤٥، نسب قريش: (١١٠)، جمهرة أنساب العرب: ٨٣، أنساب الأشراف: ٤٤، ٤٥.

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٥٦٩/٥) كتاب المناقب (٥٠) باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (١٦) حديث رقم (٣٦٦٢) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن.

وابن ماجه في السنن المقدمة حديث رقم (٩٧).

وأحمد في المسند (٣٨٢/٥، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢)، والبيهقي في السنن (١٢/٥)، (١٥٣/٨) - وابن حبان في الموارد حديث رقم (٢١٩٣) - والطبراني في الكبير (٦٨/٩) - والحاكم في المستدرک (٧٥/٣) - وذكره الهيثمي في الزوائد: (٥٦/٩، ٢٩٨) والهندي في كنز العمال حديث رقم (٣٦٥٦)، (٣٢٦٤٦)، (٣٢٦٥٧)، (٣٣١١٧)، (٣٣٦٧٩).

كون هذه السورة من لوازم الصلاة، وهذا للزوم^(١) لا يحصل إلا إذا قلنا: قراءة الفاتحة شرط في صحة الصلاة.

السادس: قوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب».

قالوا: حرف النفي دخل على الصلاة، ودخل على غير مُمكن، فلا بُدَّ من صرفه إلى حكم من أحكام الصلاة، وليس صرفه إلى الصُّحة أولى من صرفه إلى الكمال.

والجواب من وجوه:

الأول: أنه جاء في بعض الروايات: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وعلى هذه الرواية فالتَّفي ما دخل على الصلاة، وإنما دخل على حصولها للرجل، وحصولها للرجل عبارة عن انتفاعه بها، وخروجه عن عَهْدَةِ التَّكْلِيف بسببها، وعلى هذا التَّقدير فإنه يمكن إجراء حرف التَّفي على ظاهره.

الثاني: من اعتقدوا أن قراءة الفاتحة جزء من أجزاء ماهية الصلاة، فعند عدم القراءة لا توجد ماهية الصلاة؛ لأنَّ الماهية تمنع حصولها حال عدم بعض أجزائها، وإذا ثبت هذا فقولهم: إنه لا يمكن إدخال حرف التَّفي على مُسمَّى الصلاة إنما يصح لو ثبت أن الفاتحة ليست جزءاً من الصلاة، وهذا [هو]^(٢) أول المسألة، فثبت أن قولنا: يمكن إجراء هذه اللفظة على أنه متى تعذر العمل بالحقيقة، وحصل للحقيقة مجازان أحدهما: أقرب إلى الحقيقة، والثاني: أبعد؛ فإنه يجب حمل اللفظ على المَجَاز الأقرب.

إذا ثبت هذا فنقول: المُشَابَهة بين المعدوم، وبين الموجود الذي يكون صحيحاً [أتم من المُشَابَهة بين المعدوم وبين الموجود الذي لا يكون صحيحاً]^(٣)، لكنه لا يكون كاملاً، فكان حمل هذا اللفظ على نفي الصُّحة أولى.

الحُجَّة السَّابعة: عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلَّ صَلَاةٍ لم يقرأ فيها بِأَمِّ الْقُرْآنِ فهي خِدَاجٌ، فهي خِدَاجٌ»^(٤) أي غير تمام، قالوا: الخِدَاجُ هو النقصان، وذلك لا يدل على عدم الجواز.

(١) في أ: الموقع. (٢) سقط في ب.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥/٢) كتاب أبواب الصلاة باب لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب حديث رقم (٢٤٧) وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجة في السنن (٢٧٤/١) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (٥) باب القراءة خلف الإمام (١١) حديث رقم (٨٤٠)، (٨٤١) - وأحمد في المسند (٤٥٧/٢)، (٤٧٨) - وابن أبي شيبه (١/٣٦٠) والدارقطني (١/٣٢٧) - والبيهقي في السنن: (٣٨/٢)، (١٦٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/١) - والهيتمي في الزوائد: (١١٤/٢) والهندي في كنز العمال حديث رقم (١٩٦٦٣)، (١٩٧٠٠)، (١٩٧٠٢)، (١٩٧٠٣)، (١٩٧٠٤).

قلنا: بل هذا يدل على عدم الجواز؛ لأن التكليف بالصلاة دائم، والأصل في الثابت البقاء، خالفنا هذا الأصل عند الإتيان بالصلاة على صفة الكمالات، فعند الإتيان بها على سبيل التقصان يوجب ألا يخرج عن العهدة، والذي يقوي هذا أن عند أبي حنيفة - رضي الله عنه - يصح الصوم في يوم العيد إلا أنه قال: لو صام يوم العيد قضاء عن رمضان لم يصح؛ لأن الواجب عليه هو الصوم الكامل، والصوم في هذا اليوم ناقص، فوجب ألا يفيد هذا القضاء الخروج عن العهدة.

وإذا ثبت هذا فنقول: فلم لم يقل بمثل هذا الكلام ها هنا؟

الحجة الثامنة: نقل الشيخ أبو حامد في «تعليقه» عن ابن المنذر^(١) أنه روى بإسناده عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا تُجزى صلاة لا يُقرأ فيها بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

الحجة التاسعة: روى رفاعه بن مالك^(٢) - رضي الله عنه - أن رجلاً دخل المسجد فصلى، فلما فرغ من صلاته، ذكر في الخبر أن الرجل قال: علمني الصلاة يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا تَوَجَّهْتُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ فَكَبِّرُوا، وَاقْرَأُوا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٣)، وهذا أمر، والأمر للوجوب.

الحجة العاشرة: روي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بسورة ليس في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها»، قالوا: نعم، قال: «فما تقرأونه في صلاتكم؟» فقالوا: الحمد لله رب العالمين، قال: «هِيَ هِيَ».

وجه الدليل: أنه - عليه الصلاة والسلام - لما قال: «ما تقرأونه في صلاتكم؟» قالوا: الحمد لله رب العالمين^(٤)، وهذا يدل على أنه كان مشهوراً عند الصحابة - رضي الله عنهم - أنه لا يصلي أحد إلا بهذه السورة، فكان هذا إجماعاً معلوماً عندهم.

(١) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، النيسابوري، الفقيه، أحد الأئمة الأعلام، ومحمد يقتدى بفعله في الحلال والحرام، صنف كتباً منها: الإشراف في معرفة الخلاف، والأوسط وهو أصل الإشراف، والإقناع والتفسير وغير ذلك. سمع محمد بن الحكم، والربيع بن سليمان، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، مات سنة ٣٢٩.

انظر. ط ابن قاضي شعبة: ٩٨/١، ط. السبكي: ١٢٦/٢، تذكرة الحفاظ: ٧٨٢/٣.

(٢) رفاعه بن رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن غضب بن جشم بن الخزرج الزوقي أبو معاذ المدني، بدري جليل. له أحاديث، انفرد له البخاري بثلاثة أحاديث، وعنه ابنه معاذ وعبيد. مات في أول خلافة معاوية. ينظر تهذيب التهذيب: ٢٣٢/٣، تقريب التهذيب: ٢٤١/١، تاريخ البخاري الكبير: ٢٩٩/٣، الجرح والتعديل: ١٥٩/٣، أسد الغابة: ١٩٧/٢، ١٩٨.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير: (٣٢/٥) بلفظ إذا توجهت إلى القبلة فكبر - وذكره الهندي في كنز العمال حديث رقم ١٩٦٣٠، ١٩٦٣١.

(٤) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٣١/١) باب وجوب قراءة أم الكتاب في الصلاة وخلف الإمام.

الحُجَّةُ الحادية عشرة: التمسُّك بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] فهذا أمر، والأمر للوجوب، فهذا يقتضي أن قراءة ما يَنسَرُ من القرآن واجبةٌ.

فنقول: المراد بما تيسر من القرآن، إما أن يكون هو الفاتحة بعينها واجبة، وهو المطلوب، وإما يقتضي أن قراءة غير الفاتحة واجبة، وذلك باطل بالإجماع، أو يقتضي التخيير بين قراءة الفاتحة، وبين قراءة غيرها وذلك باطل بالإجماع، لأن الأمة مجمعة على أن قراءة الفاتحة أولى من قراءة غيرها.

وسلم أبو حنيفة أن الصلاة بدون قراءة الفاتحة خِذَاجٌ ناقصة، والتخيير بين الناقص والكامل لا يجوز.

واعلم أنه إنما سمي قراءة الفاتحة قراءة لما تيسر من القرآن؛ لأن هذه السورة محفوظة لجميع المكلفين من المسلمين، فهي متيسرة للكل، أما سائر السور فقد تكون محفوظة، وقد لا تكون، وحينئذ لا تكون متيسرة للكل.

الحُجَّةُ الثانية عشرة: الأصل بقاء التكليف، فالقول بأن الصلاة بدون قراءة الفاتحة يقتضي الخروج عن العهدة، إما أن يعرف بالنص^(١) أو بالقياس^(٢).

(١) أصل النص في اللغة: الرفع، ومنه قول عمرو بن دينار: (ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري)، أي: أرفع له وأسند.

وفي الاصطلاح عند المتقدمين من الحنفية: كون المعنى مسوقاً له اللفظ، وظاهر فيه احتمال التخصيص والتأويل أو لا.

وعند المتأخرين: كون المعنى مسوقاً له اللفظ مع احتمال التخصيص والتأويل.

وعند الشافعي - رحمه الله -: النص ما كان قطعي الدلالة.

أما حكمه عند الشافعية، فالعمل به، لكن لا على جهة القطع؛ لوجود الاحتمال المرجوح، فإن رجح بدليل يعضده، كان مؤولاً مصروحاً عن الظاهر، وإن تساوى الاحتمالان، فالوقف حتى يظهر الدليل.

وأما عند الحنفية ففيه مذهبان:

«الأول» مذهب مشايخ العراق؛ منهم: أبو الحسن الكرخي، وأبو بكر الجصاص، ومذهب القاضي أبي زيد ومن تابعه، وعامة المعتزلة.

وهو أن الثابت بها ثابت قطعاً يقيناً، واجب العمل به، سواء أكان خاصاً - مع قيام احتمال التأويل فيه - أم عاماً - مع قيام احتمال التخصيص وذلك بناء منهم على أن لا عبرة للاحتمال البعيد، وهو الذي لا ينشأ عن قرينة.

«المذهب الثاني» وهو مذهب ما وراء النهر؛ منهم: الإمام أبو منصور الماتريدي، وبه قال بعض علماء الحديث، وبعض أصحاب المعتزلة - أن حكم النص: وجوب العمل بما وضع له اللفظ لا قطعاً، ووجوب اعتقاد حقيقة ما أراد الله - تعالى - من ذلك الحكم، وهذا منهم بناء على أن العام - وإن خلا عن قرينة التخصيص - والخاص - وإن خلا عن قرينة التأويل - ولكن الاحتمال باقي في الجملة، وذلك ينزله عن درجة القطع، وإن وجب العمل، وحاصله: أن ما دخل تحت الاحتمال وإن كان بعيداً لا يوجب العلم، بل يوجب العمل؛ كخبر الواحد والقياس.

أما الأول فباطل.

= فحكم النص هو بعينه حكم الظاهر، والخلاف الخلاف، ثم إن النص أكثر وضوحاً من الظاهر، ومعناه اللغوي مشعر بذلك؛ لأنه مأخوذ من نصصت الدابة: استخرجت منها بالتكلف سيراً فوق المعتاد، ونصصت الشيء: رفعت.

لكن اختلف في سبب زيادة الوضوح على مذهبين: الأول: مذهب صدر الشريعة، وآخرين: أن زيادة الوضوح بمجرد السوق، فإن إطلاق اللفظ على معنى شيء؛ وسوقه شيء آخر غير لازم للأول. مثال ذلك: إذا قلت: رأيت فلاناً حين جاءني القوم، كان قولك: جاءني القوم ظاهراً في مجيء القوم، لكونه غير مقصود بالسوق، ولو قيل ابتداءً: جاءني القوم، كان نصاً في مجيء القوم، لكونه مقصوداً بالسوق هكذا مثلوا في الكتب، وعندني أن التمثيل بغير ما في الكتاب والسنة غير مناسب، والأولى التمثيل بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه نص في العجب من عدم اكتفائهم بالكتاب، ظاهر في إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ.

«والمذهب الثاني»: مذهب شمس الأئمة، والقاضي الإمام، وفخر الإسلام البزدوي، وهو ما جاء في كشفه صحيفة ٤٧ جزء أول: «وأما النص فما ازداد وضوحاً على الظاهر بمعنى من المتكلم، لا في نفس الصيغة» وقال شارحه: وليس ازدياد وضوح النص على الظاهر بمجرد السوق كما ظنوا؛ إذ ليس ثمة فرق في فهم المراد بين قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ مع كونه مسوقاً في إطلاق النكاح، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ مع كونه غير مسوق فيه، وإن كان يجوز أن يثبت لأحدهما قوة يصلح بها للترجيح عند التعارض؛ كالخبرين المتساويين في الظهور، يجوز أن يثبت لأحدهما مزية على الآخر بالشهرة، أو التواتر، أو غيرهما من المعاني، بل ازدياده بأن يفهم منه معنى لم يفهم من التظاهر بقرينة قطعية، تنضم إليه سابقاً أو سياقاً تدل على أن قصد المتكلم ذلك المغني بالسوق، كالترقية بين البيع والربا لم تفهم من ظاهر الكلام، بل بسياقه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فعرف أن الغرض إثبات التفرقة بينهما، وأن تقدير الكلام: «وَأَحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا» فأنى يتمثلان، ولم يعرف هذا بدون تلك القرينة، وأياً كان سبب زيادة الوضوح، فالزيادة قدر متفق عليه.

وإذا ما كان النص أكثر وضوحاً من الظاهر، فهو أولى عند التعارض، وهذه الأولوية لا تنافي ما سبق من مماثلة حكم النص لحكم الظاهر؛ فإن المماثلة بينهما نظراً للقدر المتفق عليه فيهما، وهو الظهور، وإن كان النص أولى عند التعارض لما ثبت له من زيادة الوضوح.

(٢) في «القاموس المحيط» للفريورآبادي: قَاسَهُ بغيره وَعَلَيْهِ يَقْيِسُهُ قِيَاساً وَقِيَاساً، وَاقْتَأَسَهُ: قَدَّرَهُ عَلَى مِثَالِهِ، فَاقْتَأَسَ، وَالْمِقْدَارُ مِقْيَاسٌ...

وَقَاسَتْهُ: جَارَتْهُ فِي الْقِيَاسِ، - وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ: قَدَّرْتُ، وَهُوَ يَقْتَسِ بِأَبْيِهِ؛ وَآوَيْ يَأْتِي.

وفي مادة «ق و س»، والقوس الذراع؛ لِأَنَّهُ يُقَاسُ بِهِ الْمَذْرُوعُ وَقَاسَ يَقْوَسُ قَوْساً؛ كـ «يَقْيِسُ قَيْساً»...، وَيَقْتَسِ، أَي: يَقْيِسُ، فَلَانَ بِأَبْيِهِ: يَسْلُكُ سَبِيلَهُ وَيَقْتَدِي بِهِ.

وفي «لسان العرب» لابن منظور: «قَاسَ الشَّيْءَ يَقْيِسُهُ قِيَاساً وَقِيَاساً، وَاقْتَأَسَهُ، وَقْيَسَهُ: إِذَا قَدَّرَهُ عَلَى مِثَالِهِ».

قال الشَّاعِرُ: [مشطور السَّريع]

فَهَرُّ بِالْأَيْدِي مَقْيَسَاتُهُ مَقْدَرَاتٌ وَمَخِيطَاتُهُ

والمقياس: المقدار، وقاس الشيء يَقْوَسُهُ قَوْساً: لَعَنَهُ فِي قَاسِهِ يَقْيِسُهُ، وَيَقَالُ: قَيْسُهُ، وَفُسْنُهُ أَقْوَسُهُ قَوْساً وَقِيَاساً، وَلَا يَقَالُ: أَقْسَنُهُ بِالْأَلْفِ، وَالْمَقْيَاسُ: مَا قَيْسَ بِهِ، وَالْقَيْسُ وَالْقَاسُ: الْقَدْرُ وَالْقِيَاسُ: =

[لأن النص الذي تمسكوا به قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَاسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ وقد بينا أنه دليلنا .

= مصدر «قَاسَ» من المفاعلة لا مصدر «قَاسَ» من الثلاثي؛ لأن المساواة من الطرفين، ومصدر الثاني قَاسَ، يقال: قَاسَ يَقِيسُ قِيسًا؛ فعلى هذا، يكون لكل من المصدرين المذكورين فعلٌ يَحْصُهُ، ويكون الأول فعله رباعي، وهو «قَاسَ»، والثاني ثلاثي، وهو «قَاسَ»، وفي «القاموس المحيط» للفيروزآبادي و «لسان العرب» لابن منظور ما يدل على أن المصدرين المذكورين أصلٌ لفعل واحد؛ وعلى هذا، يقال لغة: قاس الشيء بغيره وعليه، يقيسه قِيسًا وقِياسًا، واقتاسه: قدره على مثاله، وإلى ذلك ذهب الإسنوي؛ حيث قال: القياس والقِيس مصدران لـ «قَاسَ»، وأكثر الأصوليين يقولون: إنَّ القياس بحسب أصل اللغة؛ يتعدى بـ «الباء»، وأن المستعمل في عُرف الشرع يتعدى بـ «على»؛ لتضمينه معنى البناء والحمل.

والخلاصة: أنه يمكن القول بأنه لا حاجة إلى ذلك؛ لأن ما ذكر في كتب اللغة المذكورة يدل على أن القياس يتعدى بـ «على» كما يتعدى بـ «الباء»؛ وعليه: فلا معنى للتضمنين، إلا أن يقال: إنَّ المستعمل من القياس في عُرف الشرع لا يكاد يُذكر إلا مُتَعَدِيًا بـ «على».

وتنوعت آراء الأصوليين في حكاية معنى القياس لغةً: فرأى يرى: أنه هو التقدير والمساواة والمجموع منهما؛ وعليه، فيكون لفظ «القياس» على هذا مشتركاً لفظياً بين هذه المعاني الثلاثة، أي: وُضِعَ لكل منها بوضع؛ لأن تعريف المشترك اللفظي هو: ما اتحد لفظه وتعدّد معناه ووضّعه؛ كما هو مبين في باب الاشتراك، مثال المعنى الأول من الثلاثة: قَسْتُ الثوبَ بالذراع.

ومثال المعنى الثاني: فلان لا يُقاس بفلان، أي: لا يساويه.

ومثال المعنى الثالث: قَسْتُ الثَّغْلَ بالثَّغْلِ، أي: قدرته به، فساواه، وهذا ما ذهب إليه الإمام القاضي المحقق عُصْدُ الدين؛ أخذاً من إيراد الأمثلة الثلاثة.

ورأى يرى: أنه حقيقة في التقدير، مجاز لغوي في المساواة، وذلك باعتبار أن التقدير يستدعي شيئين، يضاف أحدهما إلى الآخر بالمساواة؛ فيكون تقدير الشيء مستلزماً للمساواة، واستعمال لفظ الملزوم في لازمه شائع، وهذا ما ذهب إليه سيف الدين الأمدي في «الإحكام»؛ وعلاقة المجاز على هذا اللازمة، والمُلْزومية.

ورأى يرى: أنه حقيقة عرفية؛ وعليه جرى محب الدين بن عبد الشكور الهندي، صاحب «مُسَلَّم الثبوت».

وعلى هذا القول، والقول بالمجاز؛ فالمناسبة بين المعنى اللغوي، وهو التقدير، والمعنى الاصطلاحي إنما هي باعتبار هذا اللازم، وهو المساواة؛ فإن المعنى الاصطلاحي، إما مساواة خاصة، فيكون من أفراد هذا اللازم، أو يتضمنها ويثنى عليها. ويرى فريق آخر: أنه هو مشترك معنوي، وهو ما اتحد لفظه ومعناه، كما هو مذكور في «باب الاشتراك» من كتب الأصول، لأن معنى «القياس» على هذا الرأي: هو التقدير فقط، وهو كُلِّيٌ تحته فردان؛ بحيث يُطلق لفظ «القياس» عليهما؛ باعتبار شمول معناه - الذي هو التقدير - لهما وصدق عليهما:

الأول: استعلام القدر، أي طلب معرفة مقدار الشيء، مثل: قَسْتُ الثوبَ بالذراع.

والثاني: التسمية في مقدار؛ مثل: قَسْتُ الثَّغْلَ بالثَّغْلِ، سواء كانت التسوية حسية؛ كالمثالين السابقين، أم معنوية؛ كما يقال: فلان لا يُقاس بفلان، أي: لا يساويه، ومنه قول الشاعر: [البيط]

خَفَ يَا كَرِيمَ عَلَى عِزِّهِ تَدُنُّهُ مَقَالَ كُلِّ سَفِيهِ لَا يُقَاسُ بِكََا

ووجه نقل القياس على هذا القول إلى المعنى الاصطلاحي ظاهر، كما أن نقله إلى المعنى الاصطلاحي؛ على القول بالاشتراك اللفظي، إنما هو من معنى المساواة، كما هو واضح.

= ويرى فريق آخر: أن معناه الاعتبار؛ كما نصَّ على ذلك الزركشي في البحر المحيط بعد أن حكى أن المشهور في معنى القياس لغة: هو تقدير شيء على مثال شيء آخر، وتسويته به، وفي هذا يقول: وقيل: القياس مصدرُ قَسَّ الشيء، إذا اعتبرته، ومنه قَسَّ الرأي، وأمرؤ القيس، لاعتبار الأمور برأيه، وقُسِّته، بضم القاف، أقوسه قَوْساً، ذكر هذه اللغة الجوهري في «صَحاحه»، فهذه الصيغة من ذوات الياء والواو.

وفي «البرهان»: القياس في اللغة: التمثيل والتشبيه.

وقال الماوردی في «الحاوي»، والرؤياني في كتاب «القضاء»: القياس في اللغة مأخوذ من المماثلة؛ يقال: هذا قياسٌ هذا، أي: مثله.

ويرى ابن السَّمْعَانِي في «القواطع»: أن القياس مأخوذ من الإصابة؛ يقال: قَسَّ الشيء، إذا أصبته؛ لأن القياس يصاب به الحكم.

قال الشيخ محمد أحمد سلامة في رسالته في القياس: وخلاصة ما يؤخذ من كتب الأصول من بيان معنى القياس لغة سبعة معانٍ.

الأول: أن معناه التقدير، والمساواة من لوازمه.

الثاني: أن معناه التقدير والمساواة، والمجموعُ منهما على سبيل الاشتراك اللفظي بين الثلاثة.

الثالث: أن معناه التقدير فقط، وهو كليٌّ تحته فردان، استعمالُ القدر والتسوية، فهو مشترك اشتراكاً مَعْنَوِيًّا.

الرابع: أن معناه الاعتبار.

الخامس: أن معناه التمثيل والتشبيه.

السادس: أنه المماثلة.

السابع: أنه الإصابة.

ولا يخفى وجه نقل القياس إلى المعنى الاصطلاحي، على المعنى الرابع والخامس والسادس، أما على المعنى السابع فوجه نقله أن القياس يصاب به الحكم، والمعنى المشهور من كل ذلك هي الثلاثة الأول؛ لذلك اقتصر عليها الكمال ابن الهمام، ورجح المعنى الثالث منها؛ وهو كونه مشتركاً مَعْنَوِيًّا بين معنيين؛ استعمالُ القدر، والتسوية في مقدار، ونسب ذلك إلى الأكثر بقوله: ولم يزد الأكثر ك «فخر الإسلام»، وشمس الأئمة «السرخسي» و «حافظ الدين السَّيْفِي» وغيرهم على أن معنى القياس لغة: التقدير واستعمالُ القدر، والتسوية في مقدار، فرداً مفهوم التقدير مع نفيه كون القياس مشتركاً لفظياً فيها أو في المجموع، ونفيه كونه حقيقة في التقدير، مجازاً في المساواة.

وقواه شارحه؛ بأن القياس باعتبار صدق معناه الذي هو التقدير على معنائه؛ أغني استعمالُ القدر والتسوية، من قبيل التواطؤ، والتواطؤ مقدم على كل من الاشتراك اللفظي، كما هو الرأي الأول، والمجاز، كما هو الرأي الثاني، إذا أمكن، وقد أمكن وهو الراجح؛ لأن التواطؤ ليس فيه تعدد وضع، ولا احتياج إلى قرينة، لأنه حقيقة في كل أفراده، بخلاف المشترك اللفظي، فإن فيه تعدد الوضع والمعنى، والاحتياج إلى قرينة تُعين المراد من أفراده، وبخلاف المجاز؛ فإنه يحتاج ضرورة إلى قرينة لفهم المعنى المراد من اللفظ.

ومأ لا يحتاج إلى شيء في فهم معناه، أولى مما يحتاج.

أما تعريفه من جهة الاصطلاح فقد تنوعت آراء الأصوليين القائلين بالقياس في مسمى «القياس»:

فذهب بعض الأصوليين: إلى أنه «فعل المجتهد».

= وذهب آخرون: إلى أنه «حجة إلهية»، وضعها الشارع لمعرفة حكمه؛ فهو أمرٌ موجودٌ في ذاته، وليس فعلاً لأحد؛ ولذلك يُقال: القياسُ مُظْهِرٌ لا مُثَبِّتٌ. فنقول: تَعْرِيفُ الْقِيَّاسِ، بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهُ التَّنْوِيَةُ فِي الْحُكْمِ. وأصحاب الرأي الذاهِبُ إلى أن القياسَ هو التَّنْوِيَةُ في الحكم، عرّفوه بعباراتٍ مختلفةٍ تَقْتَصِرُ منها بأربعة، وهذا نصها:

١ - قال البَيضَاوِيُّ في «المنهاج»: القياسُ إثْبَاتٌ مِثْلِ حُكْمٍ مَعْلُومٍ فِي مَعْلُومٍ آخَرَ، لاشتِرَاكِهِمَا فِي عِلَّةِ الْحُكْمِ عِنْدَ الْمُثَبِّتِ.

قال السُّبْكِيُّ في «الإبهاج»: هذا التعريفُ أيده الإمام في «المعالم»، ويؤخذ من ذلك؛ أنه لم يذكره في «المَحْصُولِ»، وإلّا فَنَسَبْتُهُ إِلَى «المَحْصُولِ» الذي هو أصل «المنهاج» أَقْرَبُ. وقال العلامة جمال الدين الإسنوي: «هذا التعريفُ هو المختارُ عند الإمام وأتباعه».

وفي الحقيقة: إن هذا التعريفَ مذكورٌ في «المَحْصُولِ» وإن أصله لأبي الحُسَيْنِ البُضْرِيِّ، وأنَّ الإمامَ غَيَّرَ بَعْضَ قِيوده بما هو أَحْسَنُ منها.

ونصُّ عبارة «المَحْصُولِ»: هو أنه تحصيلُ حُكْمٍ الْأَصْلِ فِي الْفَرْعِ؛ لاشتِرَاكِهِمَا فِي عِلَّةِ الْحُكْمِ عِنْدَ الْمُجْتَهِدِ؛ وَهُوَ قَرِيبٌ، وأظهر منه أن يقال: إثْبَاتٌ مِثْلِ حُكْمٍ مَعْلُومٍ لِمَعْلُومٍ آخَرَ؛ لاشتِرَاكِهِمَا فِي عِلَّةِ الْحُكْمِ عِنْدَ الْمُثَبِّتِ، وهذا التعريفُ هو عَيْنُ ما ذكره في «المنهاج»، غَيْرَ أَنَّهُ أُبْدِلَ «أَشْتَبَاهُهُمَا» بِ«أَشْتِرَاكِهِمَا» ومعناهما واحدٌ.

٢ - وقال ابن السُّبْكِيِّ في «جَمْعِ الْجَوَامِعِ»: القياسُ حَمْلُ مَعْلُومٍ عَلَى مَعْلُومٍ لِمَسَاوَاتِهِ فِي عِلَّةِ حُكْمِهِ عِنْدَ الْحَامِلِ.

وأصل هذا التعريفُ للقاضي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ، وعبارته على ما في «المَحْصُولِ وَالْإِحْكَامِ» وَ «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ» لِلزَّرْكَشِيِّ، وَ «الْبَزْهَانِ» لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ هِيَ: «الْقِيَاسُ حَمْلُ مَعْلُومٍ عَلَى مَعْلُومٍ فِي إِثْبَاتِ حُكْمٍ لَّهُمَا أَوْ نَقْيِهِ عَنْهُمَا؛ بِأَمْرِ جَامِعٍ بَيْنَهُمَا مِنْ حُكْمٍ أَوْ صِفَةٍ أَوْ نَقْيِهِمَا عَنْهُ»، هذا، وقد ذَكَرَ أَمِيرُ بَادْشَاهِ فِي «تَيْسِيرِ التَّحْرِيرِ»: أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ لَيْسَ هُوَ لِقَوْلِ الْقَاضِي، بَلْ مَعْنَاهُ؛ إِذْ لَفْظُهُ فِي تَعْرِيفِ «الْقِيَاسِ»: «حَمْلُ أَحَدِ الْمَعْلُومَيْنِ عَلَى الْآخَرِ فِي إِيْجَابِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ لَّهُمَا، أَوْ إِسْقَاطِهِ عَنْهُمَا بِأَمْرِ جَامِعٍ بَيْنَهُمَا فِيهِ أَيْ أَمْرٌ كَانَ مِنْ إِثْبَاتِ صِفَةٍ وَحُكْمٍ لَّهُمَا، أَوْ نَقْيِ ذَلِكَ عَنْهُمَا» وَنلاحظ على كلا التعليلين أنه لا تنافي بين التعريفين المذكورين؛ فالكلام على أحدهما يعتبر كلاماً على الآخر.

٣ - وقال صَدْرُ الشَّرِيعَةِ فِي «التَوْضِيحِ»: الْقِيَاسُ تَعْدِيَةُ الْحُكْمِ مِنَ الْأَصْلِ إِلَى الْفَرْعِ؛ لِإِلْعَالِ مَتَّحِدَةٍ لَا تَدْرِكُ بِمَجْرَدِ فَهْمِ اللَّغَةِ.

٤ - وقال أَبُو مَنْصُورٍ الْمَازِينِيُّ: الْقِيَاسُ: إِبَانَةُ مِثْلِ حُكْمٍ أَخَذَ الْمَذْكُورَيْنِ بِمِثْلِ عِلَّتِهِ فِي الْآخَرِ. وَتَعْرِيفُ الْقِيَاسِ، بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهُ الْمُسَاوَاةُ فِي الْعِلَّةِ الرَّأْيِ الذَّاهِبِ إِلَى أَنَّ الْقِيَاسَ هُوَ الْمُسَاوَاةُ فِي الْعِلَّةِ عَرَفُوهُ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِأَرْبَعَةٍ، وَهَذَا نَصُّهَا:

١ - قال الْأَمِيدِيُّ فِي «الْإِحْكَامِ»: الْمُخْتَارُ فِي حَدِّ الْقِيَاسِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِسْتِوَاءِ بَيْنَ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ فِي الْعِلَّةِ الْمُسْتَنْبِطَةِ مِنْ حُكْمِ الْأَصْلِ.

٢ - وقال الْكِمَالُ فِي «التَّحْرِيرِ»: وَفِي الْإِصْطِلَاحِ: مُسَاوَاةُ مُحَلٍّ لآخرٍ فِي عِلَّةِ حُكْمٍ لَهُ شَرْعِيٌّ، لَا تُذْرَكُ مِنْ نَصِّهِ بِمَجْرَدِ فَهْمِ اللَّغَةِ.

= ٣ - وقال ابن الْحَاجِبِ فِي «المَخْتَصَرِ»: وَفِي الْإِصْطِلَاحِ: مُسَاوَاةُ فَرْعٍ لِأَصْلٍ فِي عِلَّةِ حُكْمِهِ.

وأما القياس^(١) فباطل؛ لأن التعبدات غالبية على الصلاة، وفي مثل هذه الصورة يجب ترك القياس.

الحُجَّةُ الثالثة عشرة: أن النبي - عليه الصلاة والسلام - وَاظَبَ على الصلاة بها طول عمره، فيكون قراءة غير الفاتحة ابتداءً وتركاً للاتباع، وذلك حرام لقوله ﷺ: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا»، و «أَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَدَّنَاتُهَا»^(٢).

واحتج أبو حنيفة - رضي الله تعالى عنه - بالقرآن والخبر.
أما القرآن الكريم فقولهُ تبارك وتعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾.
وأما الخبر فما روى أبو عثمان النهدي^(٣) عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنهما -

= وتحقیق ذلك أن القياس من أدلة الأحكام، فلا بُدَّ من حُكْمٍ مطلوبٍ به، وله محل ضرورة، والمقصود إثباته فيه؛ لثبوته في محل آخر يقاس هذا به، فكان الأول فرعاً، والثاني أضلاً؛ لحاجة الأول إليه، وابتنائه عليه، ولا يمكن ذلك في كل شيئين، بل إذا كان بينهما أمر مشترك، ولا كل مشترك بل مشترك يوجب الاشتراك في الحكم بأنه يستلزمه، ويسمى علة الحكم، فلا بُدَّ أن يعلم علة الحكم في الأصل، ويعلم ثبوت مثلها في الفرع؛ إذ ثبوت عینها في الفرع ممَّا لا يتصور؛ لأن المعنى الشخصي لا يقوم بعينه بمجاوتين، وبذلك يحصل ظنٌ مثل الحكم في الفرع.
٤ - وقال محبُّ اللّٰه البهاري في «مسلم الثبوت»: وأصطلاحاً: مساواة المنكوت للمنصوص في علة الحكم.

ينظر مباحب القياس في:

البرهان لإمام الحرمين: ٧٤٣/٢، البحر المحيط للزركشي: ٥/٥، الإحكام في أصول الأحكام للآمدی: ١٦٧/٣، سلاسل الذهب للزركشي: ص ٣٦٤، التمهيد للإسنوي: ص ٤٦٣، نهاية السؤل له: ٢/٤، زوائد الأصول له: ص ٣٧٤، منهاج العقول للبدخشي: ٣/٣، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ص ٢١١، التحصيل من المحصول للأرموي: ١٥٥/٢، المنحول للغزالي: ص ٣٢٣، المستصفى له: ٢٢٨/٢، حاشية البناني: ٢٠٢/٢، الإيهاج لابن السبكي: ٣/٣، الآيات البينات لابن قاسم العبادي: ٢/٤، حاشية العطار على جمع الجوامع: ٢٣٩/٢، المعتمد لأبي الحسين: ١٩٥/٢، إحكام الفصول في أحكام الأصول للبايجي: ص ٥٢٨، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٧/٣٦٨، أعلام الموقعين لابن القيم: ١٠١/١، التحرير لابن الهمام: ص ٤١٥، تيسير التحرير لأمير بادشاه: ٢٦٣/٣، التقرير والتحبير لابن أمير الحاج: ١١٧/٣، ميزان الأصول للسمرقندي: ٧/٩/٢، كشف الأسرار للنسفي: ١٩٦/٢، حاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى: ٢٤٧/٢، شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: ٥٢/٢، حاشية نسيمات الأسحار لابن عابدين: ص ٢١٢، شرح المنار لابن ملك: ص ١٠٣، الوجيز للكراماستي: ص ٦٤، تقريب الوصول لابن جزّي: ص ١٣٤، إرشاد الفحول للشوكاني: ص ١٩٨، شرح مختصر المنار للكوراني: ص ١٠٣، شرح الكوكب المنير للفتوح: ص ٤٧٩.

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه ابن ماجة في السنن (١٧/١) المقدمة باب اجتناب البدع والبدجل - وأحمد في المسند (٣/٣١٠، ٣٧١) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٨٤/١) - والهندي في كنز العمال حديث رقم (١١١٢).

(٣) عبد الرحمن بن مل بضم أوله وكسر اللام ابن عمرو بن عدي النهدي أبو عثمان الكوفي، أسلم وصدق =

قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج وأنادي: لا صلاة إلا بقراءة، ولو بفاتحة الكتاب»^(١).

والجواب عن الأول: أنا نبينا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على قولنا.
وعن الثاني: أنه معارض بما نقل عن أبي هريرة، وأيضاً لا يجوز أن يقال: المراد من قوله: «لا صلاة إلا بقراءة، ولو بفاتحة الكتاب» هو أنه لو اقتصر على الفاتحة لكفى.

فصل في بيان هل التسمية آية من الفاتحة أم لا؟

قال الشافعي - رضي الله عنه -: التسمية آية من الفاتحة، ويجب قراءتها مع الفاتحة، وقال مالك والأوزاعي - رضي الله تعالى عنهما -: إنها ليست من القرآن إلا في سورة التمل، ولا يجب قراءتها سرّاً ولا جهراً، إلا في قيام شهر رمضان، فإنه يقرؤها.

وأما أبو حنيفة - رحمه الله - فلم ينص عليها، وإنما قال: يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ويسرّ بها، ولم يقل: إنها آية من أول السورة أم لا.

قال: سئل محمد بن الحسن - رحمه الله - عن «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: ما بين الدفتين كلام الله - عز وجل - القرآن.

قلت: فلم يسرّ بها؟ فلم يجبني.

وقال الكرخي^(٢) - رحمه الله تعالى -: لا أعرف هذه المسألة بعينها لمتقدمي أصحابنا، إلا أن أمرهم بإخفائها يدل على أنها ليست من السورة.

وقال بعض الحنفية - رحمهم الله -: تورّع أبو حنيفة وأصحابه - رحمهم الله - عن الوقوع في هذه المسألة؛ لأن الخوض في أن التسمية من القرآن، أو ليست من القرآن أمر عظيم، فالأولى السكوت عنه.

حجة من قال: إن التسمية من الفاتحة:

= ولم ير النبي - ﷺ - عن عمر وعلي وأبي ذر، وعنه قتادة وأيوب وأبو التياح والجريري وخلق. وثقه ابن المديني وأبو حاتم والنسائي، قال سليمان التيمي: إني لأحسب أبا عثمان كان لا يصيب ذنباً، كان ليله قائماً ونهاره صائماً، وقيل: إنه حج واعتمر ستين مرة، قال عمرو بن علي: مات سنة خمس وتسعين، وقال ابن معين: سنة مائة عن أكثر من مائة وثلاثين سنة. ينظر تهذيب الكمال: ١١٩/٢، تهذيب التهذيب: ٢٧٧/٦ (٥٤٦)، تقريب التهذيب: ٤٩٩/١ (١١٢٣)، خلاصة تهذيب الكمال: ٢/١٥٣، الكاشف: ١٨٧/٢.

(١) أخرجه الدارقطني في السنن ٣٣١/١ باب وجوب قراءة أم الكتاب في الصلاة وخلف الإمام.

(٢) عبيد الله بن الحسين الكرخي، أبو الحسن: فقيه، انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق ولد ٢٦٠هـ له رسالة في الأصول التي عليها مدار فروع الحنفية، شرح الجامع الصغير، شرح الجامع الكبير. توفي في بغداد ٣٤٠هـ. ينظر الأعلام: ١٩٣/٤، تاريخ بغداد: ٣٥٣/١٠ - ٣٥٥، الفوائد البهية: ص ١٠٨ - ١٠٩، هدية العارفين: ٦٤٦/١.

روى الشافعي عن مسلم عن ابن جريج^(١) عن ابن أبي مُلَيْكَةَ^(٢) عن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها قالت: «قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب، فعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آية منها وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ آية، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آية، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ آية، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ آية، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ آية، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ آية»^(٣)، وهذا نَصٌّ صريح.

وروى الثعلبي في تفسيره بإسناده عن أبي بريدة^(٤) عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِآيَةٍ لَمْ تَنْزَلْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَام - غَيْرِي؟» فقلت: بلى قال:

«بأي شيء يُفْتَتَحُ الْقُرْآنُ إِذَا افْتَتَحَتِ الصَّلَاةُ؟» قلت: بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال: «هِيَ هِيَ»^(٥). وهذا يدل على أَنَّ التسمية من القرآن.

وروى الثعلبي بإسناده عن جعفر بن مُحَمَّدٍ عن أبيه عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام - قال له: «كَيْفَ تَقُولُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ؟» قال:

(١) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم أبو الوليد وأبو خالد المكي الفقيه أحد الأعلام عن ابن أبي مليكة وعكرمة مرسلاً. وعن طاوس ومجاهد ونافع وخلق. وعنه يحيى بن سعيد الأنصاري أكبر منه والأوزاعي والسفيانان وخلق. قال أبو نعيم: مات سنة خمسين ومائة.
ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٨٥٥/٢، تهذيب التهذيب: ٤٠٢/٦ (٨٥٥) تقريب التهذيب: ١/٥٢٠ (١٣٢٤)، خلاصة تهذيب الكمال: ١٧٨/٢، الكاشف: ٢١٠/٢، تاريخ البخاري الكبير: ٥/٤٢٢، تاريخ البخاري الصغير: ٩٨/٢، ٩٩، ١١١، الجرح والتعديل: ١٦٨٧/٥، ميزان الاعتدال: ٦٥٩/٢، لسان الميزان: ٢٩٢/٧.

(٢) عبد الله بن عبيد الله بن زهير وهو أبو مليكة بن عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم التيمي أبو بكر المكي عن عائشة وأم سلمة وأسماء وابن عباس، وأدرك ثلاثين من الصحابة رضي الله عنهم، وعنه ابنه يحيى وعطاء وعمرو بن دينار. وثقه أبو حاتم وأبو زرعة.
قال البخاري: مات سنة سبع عشرة ومائة.

ينظر تهذيب الكمال: ٧٠٧/٢، تهذيب التهذيب: ٣٠٦/٥ (٥٢٣)، تقريب التهذيب: ٤٣١/١ (٤٥٢)، خلاصة تهذيب الكمال: ٧٦/٢، الكاشف: ١٠٦/٢، تاريخ البخاري الكبير: ١٣٧/٥ (٣) أخرجه الدارقطني في السنن ٣٠٧/١، ٣١٦ باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة والجهر بها.

قال الدارقطني قوله عمر بن هارون البلخي قال فيه ابن مهدي وأحمد والنسائي متروك الحديث وقال يحيى كذاب خبيث وقال أبو داود غير ثقة وقال علي والدارقطني ضعيف جداً وقال ابن المديني ضعيف جداً. اهـ.

(٤) بريدة بن الحبيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي. روى عنه ابنه عبيد الله وأبو المليح عامر. له ١٦٤ حديثاً. كان آخر من مات بخراسان من الصحابة - مات بمرور سنة ٦٢ - .

انظر خلاصة تهذيب الكمال: ١٢١/١.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٧/١، وعزاه للطبراني والدارقطني والبيهقي بسند ضعيف عن بريدة.

أقول: الحمد لله رب العالمين، قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم»^(١).

وروى أيضاً بإسناده عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْأَمْكَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] قال: فاتحة الكتاب، فقيل للنابعة^(٢): أين السابعة؟ فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وبإسناده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد، والنبي يحدث أصحابه، إذ دخل رجل يصلي، فافتتح الصلاة وتعوذ، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، فسمع النبي ﷺ ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: يا رجل، قَطَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ الصَّلَاةَ، أما علمت أن بسم الله الرحمن الرحيم من الحمد؟ من تركها فقد ترك آية منها، ومن ترك آية منها فقد قطع عليه صلاته، فإنه لا صلاة إلا بها^(٣).

وروى بإسناده عن طَلْحَةَ بن عبيد الله^(٤) - رضي الله تعالى عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ تَرَكَ بِسْمَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَدْ تَرَكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى».

وروي أَنَّ النبي ﷺ قال لأبي بن كعب - رضي الله عنهما -: «مَا أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؟» فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فصدقه النبي ﷺ. ومعلوم أنها ليست آية تامة في النمل، فتعين أن تكون آية تامة في أول الفاتحة.

(١) أخرجه أبو داود في السنن ١/ ٢٧٠ عن جابر ولفظه أن النبي ﷺ قال للفتى كيف تصنع يا ابن أخي إذا صليت قال اقرأ بفاتحة الكتاب وأسأل الله الجنة وأعوذ به من النار وإني لا أدري ما دندنتك ولا دندنة معاذ فقال النبي ﷺ إني ومعاذ حول هاتين أو نحو هذا. راجع سنن أبي داود ٢/ ٢٧٠ كتاب الصلاة باب في تخفيف الصلاة حديث رقم ٧٩٣.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذباني الغطفاني المضري، أبو أمانة شاعر جاهلي وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابعة، كان أحسن شعراء العرب ديباجة، عاش عمراً طويلاً توفي في ١٨ق هـ.

ينظر شرح شواهد المغني: ٢٩، معاهد التنقيص: ١/ ٣٣٣، الأغاني: ١١/ ٣، وجمهرة: ٢٦، ٥٢، ونهاية الأرب: ٣/ ٥٩، والشعر والشعراء: ٣٨، الأعلام: ٣/ ٥٤.

(٣) أخرجه الدارقطني في السنن ١/ ٣٠٢، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ١ وعزاه للثعلبي عن علي.

(٤) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن تيم بن مرة التيمي أبو محمد المدني أحد العشرة والستة الشورى وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وضرب له النبي ﷺ بسهم يوم بدر، وأبلى يوم أحد بلاء شديداً، له ثمانية وثلاثون حديثاً، وعنه مالك بن أبي عامر والسائب بن يزيد وقيس بن أبي حازم وأبو عثمان النهدي عن عائشة كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله لطلحة، وسماه النبي ﷺ طلحة الخير وطلحة الجود وطلحة الفياض، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين وخلف ثلاثين ألف ألف درهم، ومن العين ألفي ألف ومائتي ألف دينار، رضي الله عنه.

ينظر الخلاصة: ٢/ ١١، ١٢، تهذيب الكمال: ٢/ ٦٢٨، تهذيب التهذيب: ٥/ ٢٠ (٣٥)، الكاشف: ٢/ ٤٣، تاريخ البخاري الكبير: ٤/ ٣٤٤، الجرح والتعديل: ٤/ ص ٤٧١.

وروي أن معاوية^(١) - رضي الله عنه - لما قدم «المدينة» فصلّى بالناس صلاةً يعجهر فيها، فقرأ أم القرآن، ولم يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢)، فلما قضى صلاته ناداه المُهاجرون والأَنْصار من كل ناحية أنسيّت؟ أين بسم الله الرحمن الرحيم حين اسْتَفْتَحْتَ القرآن؟

فأعاد معاوية الصّلاة، وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم .
وهذا يدلّ على إجماع الصّحابة على أنها من القرآن ومن الفاتحة، وعلى أن الأولى الجَهْرُ بقراءتها .

فصل في بيان عدد آيات الفاتحة

حكى عن الزّمخشري: الاتفاق على كَوْن الفاتحة سَبْعَ آيات .

وحكى ابن عطية قولين آخرين :

أحدهما: هي ست آيات، فأسقط البَسْمَلَةَ، وأسقط «أنعمت عليهم» .

والثاني: أنها ثماني آيات فأثبتهما .

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -: رأيت في بعض الروايات الشّاذّة أن الحسن البَصْرِي - رضي الله تعالى عنه - كان يقول: إنّ هذه السورة ثماني آيات، فأما الرواية المشهورة التي عليها الأكثرون أنها سبع آيات، وبه فسروا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] .

إذا ثبت هذا، فنقول: إنّ الذين قالوا: إنّ البَسْمَلَةَ آية من الفاتحة قالوا: قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] إلى آخرها آية تامة منها .

وأما أبو حنيفة - رضي الله عنه - فإنه لما أسقط البَسْمَلَةَ قال: قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آية أخرى .

ودليل الشافعي - رضي الله تعالى عنه - أن مقطع قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي أبو عبد الرحمن، أسلم زمن الفتح له مائة وثلاثون حديثاً. اتفق على أربعة. وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة وعنه أبو ذر مع تقدمه وابن عباس ومن التابعين جبير بن نفير وابن المسيب وخلق. قال الحافظ شمس الدين الذهبي: ولي الشام عشرين سنة وملك عشرين سنة، وكان حليماً كريماً سائساً عاقلاً، خليقاً للإمارة كامل السؤدد ذا دهاء ورأي ومكر، كأنما خلق للملك، وقال له النبي ﷺ: «إن ملكك فاعدل» توفي في رجب سنة ستين .

ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٣٤٤/٣، تهذيب التهذيب: ٢٠٧/١٠ (٣٨٥)، خلاصة تهذيب الكمال: ٣٩/٣ .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن ٣١١/١ .

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿ لا يشابه مقطع الآيات المتقدمة، ورعاية التشابه في المقاطع لازم، لأننا وجدنا مقاطع القرآن على ضربين: مُتْقَابِرَةٌ، ومُتَشَاكِلَةٌ. فالمتقاربة كسورة «ق».

والمُتَشَاكِلَةٌ في سورة «القمر»، وقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ليس من القسمين، فامتنع جعله من المقاطع.

وأيضاً إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ابتداء آية، فقد جعلنا أول الآية لفظ «غير»، وهذا اللفظ إما أن يكون صفة لما قبله، أو استثناء مما قبله، والصفة مع الموصوف كالشيء الواحد، وكذلك المستثنى مع المستثنى منه كالشيء الواحد، وإيقاع الفصل [بينهما]^(١) على خلاف الدليل، أما إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر السورة آية واحدة [كُنَّا قَدْ جعلنا الموصوف مع الصفة، وكذلك المستثنى مع المستثنى منه كلاماً واحداً، وآية واحدة]^(٢)، وذلك أقرب إلى الدليل.

فَصَلِّ هَلِ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ مِنْ أَوَائِلِ السُّورِ أَمْ لَا؟

وللشافعي قولان:

قال ابن الخطيب: «والمُحَقِّقُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا^(٣) اتفقوا على أن بسم الله قرآن من سائر السُّور، وجعلوا القولين في أنها هل هي آية تامة وحدها من كل سورة، أو هي مع ما بعدها آية».

وقال بعض الحنفية: إن الشافعي خالف الإجماع في هذه المسألة؛ لأن أحداً ممن قبله لم يقل: إن بسم الله آية من أوائل سائر السُّور.

ودليلنا أن بسم الله مكتوب في أوائل السور بخط القرآن، فوجب كونه قرآناً، واحتج المخالف بما روى أبو هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال في سورة «الملك» إنها ثلاثون آية، وفي سورة «الكوثر» إنها ثلاث آيات، ثم أجمعوا على أن هذا العدد حاصل بدون التسمية، فوجب ألا تكون التسمية آية من هذه السُّور.

والجواب أنا إذا قلنا: بسم الله الرحمن الرحيم مع ما بعدها آية واحدة، فالإشكال زائل.

فإن قالوا: لما اعترفت بأنها آية تامة من أول الفاتحة، فكيف يمكنكم أن تقولوا: إنها بعض آية من سائر السور؟

قلنا: هذا غير بعيد، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آية تامة؟ ثم صار مجموع قوله تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] آية واحدة، فكذا ها هنا.

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) في ب: الأصحاب.

وأيضاً فقوله: سورة «الكوثر» ثلاث آيات يعني ما هو خاصية هذه السورة ثلاث آيات، وأما التسمية فهي كالشيء المشترك فيه بين جميع السور، فسقط هذا السؤال، والله أعلم.

فصل في الجهر بالتسمية والإسرار بها

يروى عن أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - أن التسمية آية من الفاتحة إلا أنه يُسرّ بها في كل ركعة.

وأما الشافعي - رضي الله تعالى عنه - فإنه قال: ليست آية من الفاتحة ويجهر بها.

وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: ليست آية من الفاتحة، ولا يجهر بها.

والاستقراء دلّ على أن السورة الواحدة، إما أن تكون بتمامها سريةً أو جهريةً، وإما أن يكون بعضها سرياً، وبعضها جهرياً، فهذا مفقودٌ في جميع السور، وإذا ثبت هذا كان الجهرُ بالتسمية شروعاً في القراءة الجهرية.

وقالت الشيعة: السنة هي الجهرُ بالتسمية، سواء كانت الصلاة [جهرية أو سرية]^(١).

والذين قالوا: إن التسمية ليست من أوائل السور اختلفوا في سبب إثباتها في المصحف في أول كل سورة، وفيه قولان:

الأول: أن التسمية ليست من القرآن، وهؤلاء فريقان:

منهم من قال: كُتِبَتْ لِلْفَضْلِ بَيْنَ السُّورِ، وهذا الفصل قد صار الآن معلوماً، فلا حاجة إلى إثبات التسمية، فعلى هذا لو لم تكتب لَجَازَ.

ومنهم من قال: إنه يجب إثباتها في المصحف، ولا يجوز تركها أبداً.

والقول الثاني: أنها من القرآن، وقد أنزلها الله تعالى، ولكنها آية مستقلة بنفسها،

وليست بآية من السورة، وهؤلاء أيضاً فريقان:

منهم من قال: إن الله - تعالى - كان ينزلها في أول كل سورة على حدة.

ومنهم من قال: لا، أنزلها مرة واحدة، وأمر بإثباتها في [أول]^(٢) كل سورة.

والذي يدلّ على أن الله - تعالى - أنزلها، وعلى أنها من القرآن ما روي عن أم سلمة -

رضي الله تعالى عنها - أن النبي ﷺ كان يعد «بسم الله الرحمن الرحيم» آية فاصلة.

وعن إبراهيم بن يزيد قال: قلت لعمر بن دينار^(٣): إن الفضل الرقاشي يزعم أن

(١) في أ: السرية أو الجهرية. (٢) سقط في أ.

(٣) عمرو بن دينار الجمحي مولاهم أبو محمد المكي الأثرم، أحد الأعلام، عن العبادلة وكريب ومجاهد وخلق، وعنه قتادة وأيوب وشعبة والسفيانان والحمدان وخلق، قال ابن المديني: له خمسمائة حديث قال مسعر: كان ثقة ثقة ثقة. قال الواقدي مات سنة خمس عشرة ومائة، وقال ابن عيينة: في أول سنة ست عشرة.

«بسم الله الرحمن الرحيم» ليست من القرآن، فقال: سبحانه الله ما أجزأ هذا الرجل! سمعت سعيد بن جُبَيْر يقول: سمعت ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: كان النبي - عليه الصلاة والسلام - إذا أنزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» علم أن تلك السورة ختمت وفتح غيرها. وعن عبد الله بن المبارك أنه قال: من ترك «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية.

فَصْلٌ

قال ابن الخطيب - رحمه الله -: نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود - رضي الله عنه - كان ينكر كَوْن سورة الفاتحة من القرآن الكريم، وكان ينكر كون المَعْوِذَتَيْن من القرآن.

واعلم أن هذا في غاية الصعوبة؛ لأننا إن قلنا: إن النقل المتواتر كان حاصلًا في عصر الصحابة^(١) بِكَوْن سورة الفاتحة من القرآن، فحينئذ كان ابن مسعود - رضي الله عنه - عالمًا بذلك فإنكاره يوجب الكُفْر أو نقصان العقل.

وإن قلنا: النقل المتواتر ما كان حاصلًا في ذلك الزمان فهذا يقتضي أن يقال: إن نقل القرآن ليس بمتواتر في الأصل، وذلك يخرج القرآن عن كونه حُجَّةً يقينية. والأغلب على الظن أن يقال: هذا المذهب عن ابن مسعود نُقِلَ كاذِبًا باطلًا، وبه يحصل الخلاص عن هذه العُقْدَةِ، والله الهادي إلى الصواب، وإليه يرجع الأمر كله في الأول والمآب.

= ينظر ترجمته في تهذيب الكمال: ١٠٣١/٢، تهذيب التهذيب: ٢٨/٨ (٤٥)، تقريب التهذيب: ٢/٦٩، خلاصة تهذيب الكمال: ٢/٢٨٤، الكاشف: ٢/٣٢٨. تاريخ البخاري الكبير: ٦/٣٢٨، تاريخ البخاري الصغير: ١، ٢/٤٣٧، الجرح والتعديل: ٦/٨٢٨٠، ميزان الاعتدال: ٣/٢٦٠، البداية والنهاية: ١٠/٢١، تاريخ الثقات: ٣٦٣، ثقات: ١٦٧/٥.

(١) في ب: هذا الزمان.

سورة البقرة مدنية

مائتان وستة وثمانون آية

نزلت في مُدَد شتى .

وقيل : هي أول سورة نزلت بـ «المدينة» إلا قوله تعالى : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٨١] فإنها آخر آية نزلت، ونزلت يوم النحر في حَجَّة الوداع بـ «منى»، وآيات الرُّبَا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن .

قال خالد بن معدان^(١) : ويُقال لها : فُسطاط القرآن .

وتعلمها عمر - رضي الله عنه - بفقهاها، وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثمانين سنين .

قال ابن العربي رضي الله عنه : «سمعت بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حُكم، وألف خَبَر» .

وهي مائتان وستة وثمانون آية، وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وخمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف . عن سهل بن سعد^(٢) - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَاماً وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَاراً لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلاً لَمْ يَدْخُلْهُ شَيْطَانٌ ثَلَاثَ لَيَالٍ»^(٣) .

(١) خالد بن معدان الكلاعي أبو عبد الله الحمصي، عن جماعة من الصحابة مرسلأ وعن معاوية والمقدام بن معديكرب وأبي أمامة . وعنه : ثور بن يزيد ومحمد بن إبراهيم التيمي وخلق . كان من فقهاء التابعين وأعيانهم . روي عنه أنه قال : أذكرت سبعين من الصحابة . توفي سنة ثلاث أو أربع أو ثمان ومائة ينظر خلاصة تهذيب الكمال : ٢٨٤/١ .

(٢) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري، أبو العباس المدني له مائة حديث وثمانون حديثاً . وعنه : الزهري وأبو حاتم وأبو سهل الأصبحي . قال أبو نعيم : مات سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة . ينظر خلاصة الخزرجي : ٤٢٦/١ .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٥/٥) كتاب فضائل القرآن باب فضل سورة البقرة حديث (٢٨٧٨) وأخرجه ابن حبان في الموارد حديث رقم (١٧٢٧) - والحاكم في المستدرک (٥٦٠/١)، (٢٥٩/٢) - وعبد الرزاق في مصنفه حديث رقم (٦٠١٩) - والطبراني في الكبير (٢٠١/٦) - والحميدي في المسند (٩٩٤) وذكره المنذري في الترغيب (٣٧٠/٢) - والهيثمي في الزوائد (٣١٤/٦) والهندي في كنز العمال حديث رقم (٢٥٤٩) .

وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: بعث النبي - ﷺ - بعثاً ثم أتبعهم بسفر، فجاء إنسان منهم فقال: «ما معك من القرآن؟» حتى أتى على أخذتهم سناً فقال له: «ما معك من القرآن؟» قال: كذا وكذا، وسورة البقرة فقال: «أخزجوا وهذا عليكم أمير» فقالوا: يا رسول الله هو أخذتنا فقال: «معهُ سورة البقرة»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الْمَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

إن قيل: إن الحروف المقطعة في أوائل السور أسماء حروف التهجي، بمعنى أن الميم اسم لـ «مَ»، والعين لـ «عَ»، وإن فائدتها إعلامهم بأن هذا القرآن منتظم من جنس ما تنتظمون من كلامكم، ولكن عجزتم عنه، فلا محل لها حينئذ من الإعراب، وإنما جيء بها لهذه الفائدة، فألقيت كأسماء الأعداد ونحو: «واحد اثنان»، وهذا أصح الأقوال الثلاثة، أعني أن في الأسماء التي لم يقصد الإخبار عنها ولا بها ثلاثة أقوال: أحدها: ما تقدم.

والثاني: أنها معربة، بمعنى أنها صالحة للإعراب، وإنما فات شرطه وهو التركيب، وإليه مال الزمخشري رحمه الله.

والثالث: أنها موقوفة أي لا معربة ولا مبنية.

أو إن قيل: إنها أسماء السور المفتحة بها، أو إنها بعض أسماء الله - تعالى - حذف بعضها، وبقي منها هذه الحروف دالة عليها وهو رأي ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - كقوله: الميم من «عليهم»، والصاد من «صادق»، فلها حينئذ محل من الإعراب ويحتمل الرفع والنصب والجر:

فالرفع على أحد وجهين: إما بكونها مبتدأ، وإما بكونها خبراً كما سيأتي بيانه مفصلاً إن شاء الله تعالى.

والنصب على أحد وجهين أيضاً: إما بإضمار فعلٍ لائقٍ، تقديره: اقرءوا: «الْمَ»، وإما بإسقاط حرف القسم؛ كقول الشاعر: [الوافر]

٩٧ - إِذَا مَا الْخُبْرُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيدُ^(٢)

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٣٧/٦)، (١٧/٧، ٢٠٢) والترمذي في السنن (١٤٤/٥) كتاب فضائل القرآن (٤٦) باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢) حديث رقم (٢٨٧٦) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن - والدارقطني في السنن (٤٤٨/٢) باب في فضل سورة البقرة والطبراني في الكبير (١٦٤/٦، ١٧، ٢٢٧) وذكره الزيلعي في نصب الراية (٢٠٠/٣) - وابن حجر في فتح الباري ٩/ ٧٤، ٣٢٣/١٠.

(٢) ينظر الكتاب: ٦١/٣، ٤٩٨، شرح المفصل: ٩٢/٩، ١٠٤٢/١٢، اللسان: آدم، المخصص: ١٣/ =

يريد: وأمانة الله.

وكذلك هذه الحروف أقسم الله بها.

وقد رد الزمخشري هذا الوجه بما معناه: أَنَّ القرآن في: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] والقلم في ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] محلوف بهما لظهور الجرّ فيهما، وحينئذ لا يخلو أن تُجْعَلَ الواو الداخلة عليها للقسم، أو للعطف، والأول يلزم منه محذور، وهو الجمع بين قسمين على مقسم قال: [وهم يستكروهن] ^(١) ذلك.

والثاني ممنوع، لظهور الجرّ فيما بعدها، والفرض أنك قدرت المعطوف عليه من محلّ نصب، وهو ردّ واضح، إلا أن يقال: هي في محلّ نصب إلا فيما ظهر فيه الجرّ [فيما بعده] ^(٢) كالموضعين المتقدمين؛ ﴿حَمَّ وَالْكِتَافِ﴾ [الزخرف: ١ - ٢]، و ﴿قَّ وَالْقُرْآنِ﴾ [ق: ١] ولكن القائل بذلك لم يفرق بين موضع وموضع، فالرد لازم كله.

والجرّ من وجه واحد، وهو أنها مقسم بها، حذف حرف القسم، وبقي عمله كقولهم: «اللّٰهُ لأفعلن» أجاز ذلك الزمخشري، وأبو البقاء رحمهما الله، وهذا ضعيف؛ لأن ذلك من خصائص الجلالة المعظمة لا يشاركها ^(٣) فيه غيرها.

فتخلص مما تقدم أن في «الّمْ» ونحوها ستة أوجه وهي: أنها لا محل لها من الإعراب، أو لها محل، وهو الرفع بالابتداء، أو الخبر.

والنّصب بإضمار فعل، أو حذف حرف القسم.

والجرّ بإضمار حرف القسم ^(٤).

= ١١٦، الأصول لابن السراج: ٤٣٣/١، شرح الجمل لابن عصفور: ٥٣٢/١، الكشف: ٢٤/١، الدر: ٨٨/١، ولسان العرب (أدم).

(١) في أ: فهم يكرهون.

(٢) سقط في ب.

(٣) في أ: يشاركها.

(٤) حرف الهجاء كـ «ص»، و «ن»، و «ق»، تجوز فيه الحكاية؛ لأنها حروف، فتحكى كما هي، والإعراب جعلها أسماء لحروف الهجاء، وعلى هذا يجوز فيها الصرف وعدمه؛ بناءً على تذكير الحرف وتأنينه، وسواء في ذلك أضيف إليه سورة أم لا؛ نحو: قرأت صاد أو سورة صاد بالسكون والفتح منوناً وغير منون.

من هذه الأحرف في أوائل السور ما وازن الأعجمي كـ «حميم» و «وطسين» و «يس» - فأوجب ابن عصفور فيه الحكاية؛ لأنها حروف مقطعة، وجوّز الشلوبين فيه ذلك - والإعراب غير مصروف؛ لموازنته هابيل وقابيل وقد قرئ يسين بنصب النون، وسواء في جواز الأمرين أضيف إليه سورة أم لا، ومن هذه الحروف المركب كـ «طسم»، فإن لم يصف إليه سورة، ففيه رأي ابن عصفور والشلوبين فيما قبله، ورأي ثالث: وهو البناء للجزأين على الفتح؛ كـ «خمسة عشر»، وإن أضيف إليه سورة لفظاً أو تقديرًا، ففيه الرأيان، ويجوز على الإعراب فتح النون وإجراء الإعراب على الميم؛ كـ «بعلبك»، =

فصل في الحروف المقطعة

سئل الشعبي^(١) - رحمه الله تعالى - عن هذه الحروف فقال: سرّ الله، فلا تطلبوه.
وروى أبو ظبيان^(٢) عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - قال: عجزت العلماء عن إدراكها، وقال الشعبي وجماعة رحمهم الله سائر حروف التهجي في أوائل السور من المتشابهة الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرّ القرآن؛ فنحن نؤمن بظواهرها، ونكّل العلم فيها إلى الله تعالى.

قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: «في كل كتاب سرّ، وسرّ الله - تعالى - في القرآن أوائل السور».

ونقل ابن الخطيب رحمه الله أن المتكلمين أنكروا هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يكون مفهوماً للخلق، واحتجوا عليه بآيات منها:
قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَأَتِ أُمِّ عَلٍ قُلُوبٍ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤]
بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم، فكيف يأمر بالتدبر فيه.

= وإجراؤه على النون مضافاً لما بعده، وعلى هذا في «ميم» الصرف وعدمه؛ بناء على تذكير الحرف وتأنينه؛ أما «كهيعص وحمعسق» فلا يجوز فيهما إلا الحكاية سواء أضيف إليهما سورة أم لا، ولا يجوز فيهما الإعراب؛ لأنه لا نظير لهما في الأسماء المعربة، ولا تركيب المزج؛ لأنه لا يركبه أسماء كثيرة وأجاز يونس في «كهيعص» أن تكون كلمة مفتوحة والصاد مضمومة؛ ووجه أنه جعله اسماً أعجمياً، وأعربه وإن لم يكن له نظير في الأسماء المعربة.

انظر مع الهوامع: (٣٥/١)، والارتشاف: (٤٤٤/١).

(١) عامر بن شراحيل الحميري الشعبي أبو عمرو الكوفي، الإمام العلم، ولد لست سنين خلت من خلافة عمر روى عنه وعن علي وابن مسعود، ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة وعائشة وجابر وابن عباس وخلق قال: أدركت خمسمائة من الصحابة، وعنه ابن سيرين والأعمش وشعبة وجابر الجعفي وخلق، قال أبو مجلز ما رأيت فيهم أفقه من الشعبي وقال العجلي: مرسل الشعبي صحيح وقال ابن عيينة: كانت الناس تقول: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه، قال الشعبي ما كتبت سوداء في بيضاء، قال يحيى بن بكير: توفي سنة ثلاث ومائة.

- تنظر ترجمته في تهذيب الكمال: ٦٤٣/٢، تهذيب التهذيب: ٦٥/٥ (١١٠)، تقريب التهذيب: ١/ ٣٨٧ (٤٦)، خلاصة تهذيب الكمال: ٢٢/٢، الكاشف: ٥٤/٤، تاريخ البخاري الكبير: ٤٥٠/٦، تاريخ البخاري الصغير: ٢٤٣/١، ٢٥٣، الجرح والتعديل: ١٨٠٢/٦، الوافي بالوفيات: ٥٨٧/١٦، والحلية: ٣١٠/٤.

(٢) الحصين بن جندب بن عمرو بن الحارث الجني بفتح الجيم أبو ظبيان الكوفي عن حذيفة وسلمان وعلي وطائفة، وعنه ابن قابوس وحصين بن عبد الرحمن وسماك وعطاء وثقه ابن معين. قال ابن سعد: توفي سنة تسعين.

ينظر تهذيب الكمال: ٢٩٧/١، تهذيب التهذيب: ٣٧٩/٢، تقريب التهذيب: ١٨٢/١، خلاصة تهذيب الكمال: ٢٣٣/١، الكاشف: ٢٣٦/١، تاريخ البخاري الكبير: ٣/٣.

وكذا قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فكيف يأمر بالتدبر لمعرفة نفي التناقض والاختلاف، وهو غير مفهوم للخلق؟ ومنها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^١ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، فلو لم يكن مفهوماً بطل كون الرسول - عليه السلام - منذراً به، وأيضاً قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يدل على أنه نازل بلغة العرب، وإذا كان كذلك وجب أن يكون مفهوماً.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه.

ومنها قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّكَاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وغير المعلوم لا يكون هدى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وكل هذه الصفات لا تحصر في غير المعلوم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] فكيف يكون الكتاب كافياً وكيف يكون ذكره مع أنه غير مفهوم؟

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، فكيف يكون بلاغاً؟ وكيف يقع به الإنذار، مع أنه غير معلوم؟

وقال في آخر الآية: ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ أَكْبَرُ﴾، وإنما يكون كذلك لو كان معلوماً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فكيف يكون هادياً، مع أنه غير معلوم، ومن الأخبار قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»^(١) فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - أنه - عليه الصلاة والسلام - قال:

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥٨٥/١ - ٥٨٩) مطولاً عن جابر بن عبد الله كتاب المناسك باب صفة حجة النبي ﷺ حديث رقم (١٩٠٥).

وابن ماجه في السنن (١٠٢٢/٢ - ١٠٢٧) مطولاً عن جابر بن عبد الله كتاب المناسك (٢٥) باب حجة رسول الله ت (٨٤) حديث رقم (٣٠٧٤) - وأحمد في المسند (٢٦/٣).

«عليكم بكتاب الله - فيه نبأ ما قبلكم، وخبر مَنْ بَعْدَكُمْ، وَحُكْم ما بينكم هو الفضل ليس بالهزل، من تركه من جَبَّار قَصَمَهُ الله تعالى. ومن اتَّبَعَ الهدى في غيره أَضَلَّهُ الله - تعالى - هو حَبْلُ الله المتين، والذكر الحكيم، والصُّرَاطُ المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع به العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ به صَدَقَ، ومن حكم به عَدَلَ، ومن خاصم به فَالَجَ، ومن دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

ومن المعقول أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العِلْم إلا به لكانت المُخَاطَبَةُ به نحو مُخَاطَبَةُ العرب باللغة الزنجية، ولما لم يَجْز ذلك فكذا هذا.

وأيضاً المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المُخَاطَبَةُ عبثاً وسفهاً، وهو لا يليق بالحكيم.

وأيضاً أَنَّ التَّحْدِيَّ وقع بالقرآن، وما لا يكون معلوماً لا يجوز وقوع التَّحْدِيَّ به.

واحتج مخالفوهم بالآية، والخبر، والمعقول.

أما الآية فهو أن المُتَشَابِه من القرآن، وأنه غير معلوم؛ لقوله تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] والوقف هاهنا، لوجوه:

أحدها: أن قوله تَعَالَى: «والراسخون في العلم» لو كان معطوفاً على قوله تعالى «إِلَّا اللَّهُ» لبقى قوله: «يقولون آمنا به» منقطعاً عنه، وإنه غير جائز؛ لأنه لا يقال: إنه حال، لأننا نقول: فحينئذ يرجع إلى كُلِّ ما تقدم، فيلزم أن يكون الله تعالى قائلاً: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وهذا كفر.

وثانيها: أن الراسخين في العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان به وجه، فإنهم لما عرفوه بالدلالة لم يكن الإيمان به إلا كالإيمان بالمُحْكَم، فلا يكون في الإيمان به مزيد مدح.

وثالثها: أن تأويلها^(٢) كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذمّاً، لكن قد جعله ذمّاً حيث قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وأما الخبر فروي أنه - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - قال: «إِنَّ من العلم كهيئة المَكْنُون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به أنكروه أهل الغرّة بالله»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٩١/١) بلفظ مقارب عن علي بن أبي طالب والدارمي في السنن (٤٣٥/٢) كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن.

(٢) في أ: تأويله.

(٣) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١٠٣/١ وابن كثير في التفسير ٣٥٧/٦ - والسيوطي في اللآلئ المصنوعة ١١٥/١ والزبيدي في الإتحاف ١٦٦/١، ٦٦/٢.

والهندي في كنز العمال حديث رقم ٨٩٤٢، وعزاه للدليمي عن أبي هريرة.

ولأن القول بأن هذه القَوَاتِح غير معلومة مروى عن أكابر الصَّحابة رضي الله عنهم فوجب أن يكون حقاً، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَصْحَابِي كَالنُّجُوم بَأَيْهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»^(١).

وأما المعقول فهو أنَّ الأفعال التي كَلَّفَنَا الله تعالى بها قسمان: منها ما يعرف وَجْه الحكمة فيه على الجُمْلَة بعقولنا كالصَّلَاة والزكاة والصَّوْم، فإنَّ الصَّلَاة تَضْرُع محضً، وتواضعٌ للخالق، والزكاة سَعْيٌ في دَفْع حاجة الفقير، والصَّوْم سعي في كسر الشهوة.

ومنها ما لا يعرف وَجْه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا كأفعال الْحَجِّ في رَمِي الْجَمَرَات، والسَّعي بين الصفا والمروة، والرَّمْل، والاضْطِّبَاع.

ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله - تعالى - أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذا يحسن الأمر بالنوع الثاني؛ لأنَّ الطَّاعَة في النوع الأول، تدلُّ على كمال الانقياد والتسليم، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وَجْه المصلحة فيه.

أما الطَّاعَة في النوع الثاني، فإنها تدلُّ على كمال الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال، فلم لا يجوز أيضاً أن يكون [الأمر] كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمر الله - تعالى - تارةً أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارةً بما لا نقف على معناه، ويكون المَقْصُود من ذلك ظهور الانقياد والتَّسْلِيم.

القول الثَّاني: قول من زعم أنَّ هذه القَوَاتِح معلومةٌ، واختلفوا فيه، وذكروا وجوهاً:

الأول: أنها أسماء السُّور، وهو قول أكثر المتكلمين، واختيار الخليل وسيبويه رحمهما الله تعالى.

قال القَفَّال - رحمه الله تعالى - وقد سَمَت العرب هذه الحروف أشياء فسموا بـ «لام»: والد حارثة بن لام الطَّائِي، وكقولهم لِلنَّخَاس: «صاد»، ولِلنَّقْد: «عين»، ولِلسَّحَاب: «غين».

وقالوا: جبل «قاف»، وسموا الحوت: «نوناً».

الثاني: أنها أسماء الله تَعَالَى، روي عن علي - رضي الله تَعَالَى عنه - أنه كان يقول: يا حم عسق.

الثالث: أنها أبعاض أسماء الله تَعَالَى.

(١) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال حديث رقم ١٥١١، ٢٢٩٩، وابن حجر في لسان الميزان ٤٨٨/٢، ٥٩٤ - والعجلوني في كشف الخفاء ١٤٧/١ - والزيدي في الإتحاف ٢٢٣/٢ والحديث رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٩١/٢) عن جابر مرفوعاً وقال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة لأن الحارث بن غصين مجهول.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: قوله: «الر، حم، ونون» مجموعها هو اسم الرحمن، ولكننا لا نقدر على كيفية تركيبها في البَوَاقِي.

الرابع: أنها أسماء القرآن، وهو قول الكلبي^(١) - رحمه الله تعالى - والسدي وفتادة رضي الله تعالى عنهم.

الخامس: أن كل واحد منها دال على اسم من أسماء الله - تعالى - وصفة من صفاته.

قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - في: «الْمَ»: «الألف إشارة إلى أنه [أحد، أول، آخر، أزلي، واللام] إشارة إلى أنه لطيف، «والميم» إشارة إلى أنه [٢] مَلِكٌ مَجِيدٌ مَثَانٌ».

وقال في «كهيعص»: إنه ثناء من الله - تعالى - على نفسه، «والكاف» يدل على كونه كافياً، «والهاء» على كونه هادياً، «والعين» على العالم، «والصاد» على الصادق. وذكر ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه حمل «الكاف» على الكبير والكريم، «والياء» على أن الله يجير، «والعين» على أن الله العزيز والعدل.

والفرق بين هذين الوجهين أنه في الأول خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين، وفي الثاني ليس كذلك.

السادس: بعضها يدل على أسماء الذات، وبعضها على أسماء الصفات.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في «الْمَ»: أنا الله أعلم، وفي «المص» أنا الله أفصل، وفي «الر» أنا الله أرى، وهذه رواية أبي صالح، وسعيد بن جبير عنه.

قال الزَّجَّاج: «وهذا أحسن، فإن العرب تذكر حرفاً من كلمة تريدها كقولهم: [مشطور السريع]

٩٨ - قُلْنَا لَهَا: فِي لَنَا قَالَتْ: قَاف (٣)

(١) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي أبو الفضل الكوفي. عن أبي صالح باذام والشعبي وغيرهما. وعنه ابن المبارك وابن فضال ويزيد بن هارون وخلف.

قال ابن عدي: رضوه في التفسير. وقال أبو حاتم: أجمعوا على ترك حديثه، واتهم جماعة بالوضع، قال مُطَيَّن: مات سنة ١٤٦هـ.

ينظر الخلاصة: ٤٠٥/٢ (٦٢٤٢).

(٢) سقط في أ.

(٣) صدر بيت للوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان لأمه وعجزه:

لا نحسبنا قد نسينا الإيجاف

ينظر المحتسب: ٢٠٤/٢، الخصائص: ٣١/١، شواهد الشافية: ٢٦١ وما بعدها، الأغاني: ٥/١٣١، معاني القرآن للزجاج: ٢٤/١، الصاحبي: ١٦١، مجمع البيان: ٧١/١، زاد المسير: ٢١/١.

وأنشد سيبويه لغيلان : [الرجز]

٩٩ - نَادَوْهُمْ أَنْ الْجُمُوعَا، أَلَا تَا
أي : لا تَرْكَبُوا، قالوا: بَلَى فَارْكَبُوا.

وأنشد قُطْرِب : [الرجز]

١٠٠ - جَارِيَةٌ قَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تَا تَذْهَبْنَ رَأْسِي وَتُفْلِنِي وَتَا^(٢)

السابع : كل واحد منها يدل على صفات الأفعال، ف «الألف» آلاؤه، و «اللام» لُطْفه، و «الميم» مَجْدُه، قاله محمد بن كَعْبِ القُرْظِي.

الثامن : بعضها يدل على أسماء الله - تعالى - وبعضها يدل على أسماء غير الله تعالى.

قال الضَّحَّاك : «الألف» من الله، و «اللام» من جبريل، و «الميم» من محمد عليه الصَّلَاة والسلام [أي أنزل الله الكتاب على لسان جبريل عليه الصَّلَاة والسلام]^(٣).

التاسع : ما قاله المبرد، واختاره جمعٌ عظيم من المحققين - أن الله - تعالى - إنَّمَا ذكرها احتجاجاً على الكُفَّار، وذلك أن الرُّسُول - عليه الصَّلَاة والسلام - لما تحدَّاهم أن يأتوا بِمِثْلِ القرآن، أو بِعَشْرِ سُورٍ، أو بسورة، فَعَجَزُوا عنه أنزلت هذه الأحرف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلَّا من هذه الأحرف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفَصَاحَةِ، فكان يجب أن تأتوا بِمِثْلِ هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دلَّ ذلك على أنه من عِنْدِ الله لا من البَشَرِ.

العاشر : قول أبي روق^(٤) وقُطْرِب : إن الكُفَّار لما قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت : ٢٦] وتواصوا بالإعراض عنه أراد الله - تعالى - لما أحب صلاحهم ونفعهم أن يُورِدَ عليهم ما لا يعرفونه، ليكون ذلك سبباً لإِسْكَاتِهِمْ، واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن، فأنزل الله - تعالى - عليهم هذه الأحرف، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا إلى ما يجيء به محمد عليه الصَّلَاة والسلام، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سبباً لاستماعهم، وطريقاً إلى انتفاعهم، فكان كالتنبيه لما يأتي بعده من الكلام كقوله الأول.

(١) معاني القرآن للزجاج : ٦٢/١، مجمع البيان : ٧١/١، زاد المسير : ٢١/١.

(٢) ينظر اللسان : «فلا».

(٣) سقط في أ.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني أبو روق الكوفي عن أنس وإبراهيم التيمي والشعبي، وعنه ابنه يحيى وعمارة والثوري، قال أبو حاتم صدوق.

ينظر الخلاصة : ٣٣/٢ (٤٨٧٥)، تهذيب الكمال : ٩٣٩/٢، تهذيب التهذيب : ٢٢٤/٧ (٤١٢)، تقريب التهذيب : ٢٤/٢.

الحادي عشر: قول أبي العَالِيَةِ «إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا فِي مُدَّةٍ أَعْوَامٍ وَأَجَالٍ آخَرِينَ».

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «سُرَّ أَبُو يَاسِرٍ بْنُ أَخْطَبَ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ يَتْلُو سُورَةَ الْبَقَرَةِ «الَّتِي فِيهَا الْكِتَابُ»، ثُمَّ أَتَى أَخُوهُ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ^(١)، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ^(٢)، وَسَأَلُوهُ عَنْ «الَّتِي» وَقَالُوا: نَشْهَدُكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَحَقُّ أَنْهَا أَتَتْكَ مِنَ السَّمَاءِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ كَذَلِكَ نَزَلَتْ»، فَقَالَ حُيَيُّ: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا إِنِّي لَأَعْلَمُ أَجَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ السَّنِينَ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ نَدْخُلُ فِي دِينِ رَجُلٍ دَلَّتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِحِسَابِ الْجَمَلِ عَلَى أَنْ مُنْتَهَى أَجَلُ مُدَّتِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ حُيَيُّ: فَهَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ الْمَصْ» فَقَالَ حُيَيُّ: هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الْأُولَى هَذِهِ مِائَةٌ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ سَنَةً، فَهَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ الرَّ» قَالَ حُيَيُّ: هَذِهِ أَكْثَرُ مِنَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا مَا مَلَكَتْ أَمْتُكَ إِلَّا مِائَتَيْنِ وَإِحْدَى وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَهَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «الْمَرْ» قَالَ: فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَا مِنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَا نَدْرِي بِأَيِّ أَقْوَالِكَ نَأْخُذُ.

فقال أبو ياسر: أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن مُلْكِ هذه الأمة، ولم يبينوا أنها كم تكون، فإن كان محمد صادقاً فيما يقول، إني لأراه يستجمع له هذا كله فقام اليهود، وقالوا: اشتبه علينا أمرك، فلا ندري أبالْقَلِيلِ نأخذ أم بالكثير؟ فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾^(٣) [آل عمران: ٧] الآية الكريمة.

وروي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنها أقسام.

وقال الأخفش: أقسم الله - تعالى - لشرفها وفضلها؛ لأنها مبادئ كتبه المنزلة، ومباني أسمائه الحسنى.

وقيل فيها غير ذلك.

واعلم أن الله - تعالى - أورد في هذه الفَوَاتِحِ نصف عدد أسامي حروف المُعْجَمِ،

(١) حيي بن أخطب النضري: جاهلي من الأشداء العتاة، كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وأذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه.

ينظر الأعلام: ٢٩٢/٢ (٣٥٠٩)، سيرة ابن هشام: ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية. وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجوم النبي - ﷺ - وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وليدائهم، والتشبيب بنسائهم. وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ - بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه سنة ٣هـ. وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

ينظر الروض الأنف: ١٢٣/٢، إمتاع الأسماع: ١٠٧/١، ابن الأثير: ٥٣/٢، الطبري: ٢/٣، الأعلام: ٢٢٥/٥.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير: ٦٠/١.

وهي أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والباء، والنون في تسع وعشرين سورة.

وجاءت أيضاً مختلفة الأعداد، فوردت «ص ق ن» على حرف.

و «طه وطس ويس وحم» على حرفين.

و «الم والر وطسم» على ثلاثة أحرف.

و «المص والمر» على أربعة أحرف.

و «كهعيص وحم عسق» على خمسة أحرف، والسبب فيه أن أبنية كلامهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، فكذا هاهنا.

قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.

يجوز في «ذلك» أن تكون مبتدأ ثانياً، و «الكتاب» خبره، والجملة خبر «الم»، وأغنى الربط باسم الإشارة، ويجوز أن يكون «الم» مبتدأ.

و «ذلك» خبره، و «الكتاب» صفة لـ «ذلك»، أو بدل منه، أو عطف بيان، وأن يكون «الم» مبتدأ، و «ذلك» مبتدأ ثانٍ، و «الكتاب»: إما صفة له، أو بدل منه، أو عطف بيان له.

و «لا ريب فيه» [خبر^(١) عن المبتدأ الثاني، وهو وخبره خبر عن الأول.

ويجوز أن يكون «الم» خبر مبتدأه مضمّر، تقديره: «هذا الم»، فتكون جملة مستقلة بنفسها، ويكون «ذلك» مبتدأ ثانياً، و «الكتاب» خبره.

ويجوز أن يكون صفة له، أو بدلاً، أو بياناً، و «لا ريب فيه» هو الخبر عن «ذلك»، أو يكون «الكتاب» خبراً لـ «ذلك»، و «لا ريب فيه» خبر ثانٍ، وفيه نظر من حيث إنه تعدّد الخبر، وأحدهما جملة، لكن الظاهر جوازه؛ كقوله تعالى ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَى﴾ [طه: ٢٠]، إذا قيل بأن «تسعى» خبر.

وأما إن جُعِلَ صفة فلا^(٢).

و «ذلك» اسم إشارة: الاسم منه «ذا»، و «اللام» للبعد، و «الكاف» للخطاب، ولها ثلاث رُتَب:

دُنْيَا: ولها المُجَرَّد من اللام والكاف نحو: «ذا وذِي» و «هذا وهذِي».

وَوُسْطَى: ولها المتّصل بحرف الخطاب، نحو «ذاك وذيك وتيك».

وَقُضْوَى: ولها المتّصل بـ «اللام» و «الكاف» نحو: «ذلك وتلك».

(١) سقط في ب.

(٢) ثبت في أ: وقرأ عَبْدُ اللَّهِ ﴿أَلَمْ تَنْزِيلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الخبر وتألّف هذا ظاهر.

ولا يجوز أن تأتي بـ «اللام» إلا مع «الكاف»، ويجوز دخول حرف التثنية على سائر أسماء الإشارة إلا مع «اللام»، فيمتنع للطول.

وبعض النحويين لم يذكر له إلا مرتبتين: دُنيًا وغيرها^(١). واختلف النحويون في «ذا» هل هو ثلاثي الوضع أم أصله حرف واحد؟

الأول قول البصريين، ثم اختلفوا هل عينه ولامه ياء، فيكون من باب «حيي»، أو عينه واو ولامه ياء فيكون من باب «غويت» ثم حذفت لامه تخفيفاً، وقلبت العين ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، وهذا كله على سبيل التمرين.

وأياً فهذا مبني، والمبني لا يدخله تصريف، وإنما جيء هنا بإشارة البعيد تعظيماً للمشار إليه؛ ومنه: [الطويل]

١٠١ - أَقُولُ لَهُ وَالرُّمَحُ يَأْطُرُ مَثْنَهُ تَأْمُلُ خُفَافاً إِنِّي أَنَا ذَلِكَ^(٢)

أو لأنه لما نزل من السماء إلى الأرض أشير إليه بإشارة البعيد.

أو لأنه كان موجوداً به بنبيّه عليه الصلاة والسلام.

أو أنه أشير به إلى ما قضاه وقدره في اللوح المحفوظ.

وفي عبارة المفسرين أشير بذلك إلى الغائب يعنون البعيد، وإلا فالمشار إليه لا يكون إلا حاضراً ذهنياً أو حساً، فعبروا عن الحاضر ذهنياً بالغائب أي حساً وتحريراً لقول ما ذكرته لك. وقال الأصمّ وابن كيسان^(٣): إن الله - تعالى - أنزل قبل سورة «البقرة»

(١) ذهب أكثر النحويين إلى أن الإشارة ثلاثة مراتب: قربي؛ ولها المجرد، ووسطى؛ ولها ذو الكاف، وبعدي؛ ولها ذو الكاف واللام وصححه ابن الحاجب، واختلف على هذا في مرتبة أولئك بالمد، فقيل: هؤلاء وسطى كأولئك وقيل: للبعدي؛ كأولئك. قال أبو حيان: ويستدل للأول بقوله:

يا ما أميلح غزلاناً شددن لنا من هؤلئائكن الضال والسمر

لأن هاء التثنية لا تصحب ذا البعيد، وصحّح ابن مالك أن لاسم الإشارة مرتبتين، وقال: إنه ظاهر من كلام المتقدمين، ونسبه الصفار إلى سيبويه، واحتج له ابن مالك بأن المشار شبيهة بالمنادى، والنحويون مجمعون على أن المنادى ليس له إلا مرتبتان؛ فلحق بنظيره؛ وبأن الفراء نقل أن بني تميم ليس من لغتهم استعمال اللام مع الكلام، والحجازيين ليس من لغتهم استعمال الكاف بلا لام؛ فلزم من هذا أن اسم الإشارة على اللغتين ليس له إلا مرتبتان، وبأن القرآن لم يرد فيه المجرد من اللام دون الكاف، فلو كان له مرتبة أخرى، لكان القرآن غير جامع لوجوه الإشارة، فإنه لو كانت المراتب ثلاثة، لم يكتف في التثنية والجمع بلفظين وهي وجوه حسنة، إلا أن دعوى الإجماع في الأول مردودة بما ذكرناه - انظر همع الهوامع: (٧٥/١ - ٧٦).

(٢) البيت لحَفَافٍ بِنِ تَذَبَّةٍ، ينظر الأغاني: ١٢٩/٢، الخزائنة: ٤٧١/٢، معاني القرآن: ٢٩/١، النكت والعيون: ٦٧/١، الدر: ٩١/١.

(٣) محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن المعروف بابن كيسان: عالم بالعربية من أهل بغداد أخذ عن المبرد وثعلب، من كتبه المذهب في النحو، غريب الحديث، معاني القرآن، المختار في علل النحو توفي في ٢٩٩هـ.

سوراً كذب بها المشركون، ثم أنزل سورة «البقرة» فقال: «ذلك الكتاب» يعني ما تقدم «البقرة» من السور لا شك فيه.

قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى: سلمنا أن المُشار إليه حاضر، لكن لا نسلّم أن لفظة «ذلك» لا يشار بها إلّا إلى البعيد.

بيانه: أن «ذلك» و «هذا» حرف إشارة، وأصلهما «ذا» لأنه حرف الإشارة، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ومعنى «ها» تنبيه، فإذا قرب الشيء أشير إليه فقليل: هذا، أي: تنبّه أيها المُخاطب لما أشرت إليه، فإنه حاضر معك^(١) بحيث تراه، وقد تدخل «الكاف» على «ذا» للمخاطبة، و «اللام» لتأكيد معنى الإشارة، فقليل: «ذلك»، فكأن المتكلّم بالغ في التنبيه لتأخر المُشار إليه عنه، فهذا يدلّ على أن لفظة «ذلك» لا تفيد البُعد في أصل الوضع، بل اختص في العُرف بالإشارة إلى البعيد للقرينة التي ذكرناها، فصارت كالدّابة، فإنها مختصة في العرف بالفرس، وإن كانت في أصل الوضع متناولة لكل ما يدبّ على الأرض.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنا نحمله ها هنا على مقتضى الوضع اللّغوي، لا على مقتضى الوضع العرفي، وحينئذ لا يفيد البُعد، ولأجل هذه المُقارنة قام كل واحد من اللّفظين مقام الآخر.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٨] ثم قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: ٤٩] وقال: ﴿وَعِنْدَهُ قَصَصُ الْقُرْآنِ الْأَرْبَابِ هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ص: ٥٢ - ٥٣].

وقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَلَاخِذْهُ اللَّهُ تَكَالُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٤ - ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَدًا﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وقال: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣] [أي هكذا يحيي الموتى]^(٢).

وقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٨] أي ما هذه التي يمينك.

= ينظر إرشاد الأريب: ٢٨/٦، معجم المطبوعات: ٢٢٩، نزهة الألبا: ٣٠١، شذرات الذهب: ٢/٢٣٢، كشف الظنون: ١٧٠٣، الأعلام: ٣٠٨/٥.

(١) في ب: لك.

(٢) سقط في ب.

و «الكتاب» في الأصل مصدر؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] وقد يراد به المكتوب، قال الشاعر: [الطويل]

١٠٢ - بَشَرْتُ عِيَالِي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يَثْلَى كِتَابُهَا^(١)
ومثله: [الوافر]

١٠٣ - تُؤْمَلُ رَجْعَةً مِنِّي وَفِيهَا كِتَابٌ مِثْلُ مَا لَصِقَ الْغِرَاءُ^(٢)
وأصل هذه المادة الدلالة على الجمع، ومنه كتيبة الجيش، وكتبت القرية: حرزتها، والكتبة - بضم «الكاف» - الخزانة، والجمع كُتِبَ، قال: [البسيط]

١٠٤ - وَفِرَاءٌ غَرْفِيَّةٌ أَتَى خَوَارِزَهَا مُشْلِشٌ ضَيَّعَتْهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ^(٣)
وكتبت الدابة [إذا جمعت بين شُفْرِي رَحِمِهَا بِحَلْقَةٍ أَوْ سَيْرٍ]^(٤) قال الشاعر: [البسيط]

١٠٥ - لَا تَأْمَنَنَّ فَرَارِيَا حَلَلْتُ بِهِ عَلَى قُلُوصِكَ وَانْكُتِبَهَا بِأَسْيَارِ^(٥)
والكتابة عرفاً ضم بعض حروف الهجاء إلى بعض.

قال ابن الخطيب: «واتفقوا على أن المراد من الكتاب القرآن، قال تبارك وتعالى: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩].

والكتاب جاء في القرآن على وجوه:

أحدها: الفرض ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿إِنَّ الْأَصْلَوَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

ثانيها: الحجة والبُرْهَان: ﴿فَأَتَوْا بِكَتِّكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٧] أي: يبرهانكم وحجتكم.

ثالثها: الأجل: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهَلَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] أي: أجل.

رابعها: بمعنى مكتوبة السيد عبده: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وهذا المصدر «فِعَال» بمعنى «المُفَاعَلَة» كالجِدَال والخِصَام والِقِتَال بمعنى: المُجَادَلَة والمُخَاصَمة والمُقَاتَلَة.

(١) ينظر مجمع البيان: ٧٤/١، معاني الفراء: (٢١٢/١)، الدر: ٩١/١.

(٢) البيت لمسلم بن معبد الوالبي. ينظر خزانة الأدب: ٣٠٨/٢، ٣١٢، القرطبي: ١١٢/١، والدر المصون: ٩١/١.

(٣) البيت لذي الرمة. ينظر ديوانه: ٢١، مقاييس اللغة: ١٥٨/٥، اللسان (شلال وغرق وكتب)، القرطبي: ١١٢/١، الدر: ٩١/١.

(٤) سقط في أ.

(٥) البيت لسالم بن دارة. ينظر خزانة الأدب: ٥٣١/٦، ٥٤٢/٩، مقاييس اللغة: ١٥٨/٥، الشعر والشعراء: ٤٠١/١، الكامل: ٨٦/٣، اللسان (كتب)، القرطبي: (١١٢/١)، الدر: (٩٢/١).

والكتاب - هنا - المراد به القرآن، وله أسماء:

أحدها: الكتاب كما تقدم.

وثانيها: القرآن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ [الزخرف: ٣]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وثالثها: الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]

ورابعها: الذكر، والتذكيرة، والذكرى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وخامسها: التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

وسادسها: الحديث: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وسابعها: الموعظة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].

وثامنها: الحكم، والحكمة، والحكيم، والمحكم: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿حِكْمَةً بَلَّغْنَاهُ﴾ [القمر: ٥]، ﴿يَسْ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ - ٢]، ﴿كِتَابٌ أُخْبِتَ لِّأَيْتِهِ﴾ [هود: ١].

وتاسعها: الشفاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعاشرها: الهدى، والهادي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ - ٢]. وذكروا له أسماء آخر منها:

«الضُّرَاطُ المستقيم، والعِصْمَةُ، والرَّخْمَةُ، والروح، والقَصَصُ، والبيان، والتَّيْبَانُ، والمُبِين، والبصائر، والفَضْلُ، والتُّجُوم، والمَثَانِي، والتَّعْمَةُ، والبُرْهَان، والبَشِير، والتَّذِير، والقِيم، والمُهَيِّج، والنور، والحق، والعزیز، والكریم، والعظيم، والمبارك». قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

يجوز أن يكون خبراً كما تقدم بيانه.

قال بعضهم: هو خبر بمعنى النهي، أي: لا ترتابوا فيه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا.

قرأ^(١) ابن كثير: «فيه» بالإشباع في الوصل، وكذلك كل هاء كناية قبلها ساكن يشبعها وصلًا ما لم يلها ساكن، ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياء، وإن

كان غيرها يشبعها بالضم واواً، ووافقه حفص^(١) في قوله: ﴿فِيهِ مَثَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] فأشبعه.

ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة، و «لا» نافية للجنس محمولة في العمل على نقيضها. «إِنَّ»، واسمها معرب ومبني:

فبينى إذا كان مفرداً نكرة على ما كان ينصب به، وسبب بنائه تضمته معنى الحرف، وهو «من» الاستغراقية يدل عليه ظهورها في قول الشاعر: [الطويل]

١٠٦ - فَقَامَ يَذُودُ النَّاسَ عَنْهَا بِسَيْفِهِ فَقَالَ أَلَا لِمِنْ سَبِيلٍ إِلَى هِنْدٍ^(٢)

وقيل: بني لتركبه معها تركيب خمسة عشر، وهو فاسد وبيانه في غير هذا الكتاب. وزعم الزجاج أن حركة «لا رَجُلٌ» ونحوه حركة إعراب، وإنما حذف التنوين تخفيفاً، ويدل على ذلك الرجوع إلى هذا الأصل في الضرورة كقوله: [الوافر]

١٠٧ - أَلَا رَجُلًا جَزَاءُ اللَّهِ خَيْرًا يَدُلُّ عَلَى مُحَصَّلَةٍ تَبَيَّتْ^(٣)

ولا دليل له لأن التقدير: أَلَا تَرَوْنِي رَجُلًا؟

فإن لم يكن مفرداً - وأعني به المضاف والشبيه به - أغرب نضباً نحو: «لا خيراً من زيد»، ولا عمل لها في المعرفة ألبة، وأما نحو قوله: [الطويل]

١٠٨ - تُبَكِّي عَلَى زَيْدٍ وَلَا زَيْدٌ مِثْلُهُ بَرِيءٌ مِنَ الْحُمَى سَلِيمُ الْجَوَانِحِ^(٤)

(١) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي بالولاء أبو عمر ويعرف بحفيص: ولد سنة ٩٠ هـ. قارئ أهل الكوفة بزاز نزل بغداد وجاور بمكة وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته، وهو ابن امرأته وربيبه ومن طريقه قراءة أهل المشرق، ينظر الأعلام: ٢/ ٢٦٤ (٣٠٨٢)، غاية النهاية: ١/ ٢٥٤، ميزان الاعتدال: ١/ ٢٦١، تهذيب التهذيب: ٢/ ٤٠٠.

(٢) ينظر أوضح المسالك: ٢/ ١٣، وتخليص الشواهد: ص ٣٩٦، والجنى الداني: ص ٢٩٢، والدرر: ٢/ ٢٢١، وشرح الأشموني: ١/ ١٤٨، وشرح التصريح: ١/ ٢٣٩، وشرح ابن عقيل: ص ٢٥٥، ولسان العرب (ألا)، (لا) ومجالس ثعلب: ص ١٧٦ والمقاصد النحوية: ٢/ ٣٣٢، وجمع الهوامع: ١/ ١٤٦، وشرح عمدة الحافظ وعدة اللافت لابن مالك (٢٥٥) تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري - مطبعة العاني - بغداد (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م) وشرح الكافية الشافية: (١/ ٥٢٢) وشرح ألفية ابن الناطم: (١٨٦).

(٣) البيت لعمر بن قعاس، أو قعاس المرادي المذحجي.

ينظر الكتاب: ٢/ ٣٠٨، النواذر: ٥٦، شرح المفصل: ٥/ ٧، ٨٠/ ٩، الخزائن: ١/ ٤٥٩، ٣/ ١١٢، ١٥٦، ٤/ ٤٧٧، العيني: ٢/ ٣٦٦، ٣/ ٣٥٢، الهمع: ١/ ٥٨، شرح شواهد المغني: ٧٧، ٢١٩، الأشموني: ٢/ ١٦، التهذيب: ٤/ ٣٤٢، ارتشاف الضرب: ٢/ ١٧٨، إصلاح المنطق لابن السكيت: ٤٣١، معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٦٨، الخزائن: ٣/ ٥١، ٥٤، (٤/ ٨٩، ١٨٣، ١٩٥، ٢٦٨)، (١١/ ١٩٣)، شرح الألفية لابن الناطم: ١٩٣، الدر: ١/ ٩٠.

(٤) البيت لجبرير. ينظر ديوانه: ٨٠، الخزائن: ٢/ ٩٨، الهمع: ١/ ١٤٥، الدرر: ١/ ٢٢٤، المقرب: ١/ ١٨٩، شرح الكافية الشافية: ١/ ٥٣١، الدر: ١/ ٩٠.

وقول الآخر : [الوافر]

١٠٩ - أَرَى الْحَاجَاتِ عِنْدَ أَبِي خُبَيْبٍ نَكِذْنَ وَلَا أُمِّيَّةً فِي الْبِلَادِ^(١)

وقول الآخر : [الرجز]

١١٠ - لَا هَيْثَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِيِّ^(٢)

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لَا قُرَيْشٌ بَعْدَ الْيَوْمِ ، إِذَا هَلَكَ كِسْرَى ، فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ »^(٣) فمؤول .

و «رَيْبٌ» اسمها ، وخبرها يجوز أن يكون الجار والمجرور وهو «فيه» ، إلا أن بني «تميم» لا تكاد تذكر خبرها ، فالأولى أن يكون محذوفاً تقديره : لا ريب كائن ، ويكون الوقف على «ريب» حينئذ تاماً ، وقد يحذف اسمها ويبقى خبرها ، قالوا : «لا عليك» أي : لا بأس عليك .

ومذهب سيبويه رحمه الله : أنها واسمها في محل رفع بالابتداء ، ولا عمل لها في الخبر .

ومذهب الأخفش : أن اسمها في محل رفع ، وهي عاملة في الخبر .
ولها أحكام كثيرة ، وتقسيمات متشعبة مذكورة في كتب النحو^(٤) .

(١) البيت لعبد الله بن الزبير الأسدي . ينظر ملحق ديوانه : ص ١٤٧ ، وخزانة الأدب : ٦١/٤ ، ٦٢ ، والدرر : ٢١١/٢ ، وشرح المفصل : ١٠٢/٢ ، ١٠٤ ، والكتاب : ٢٩٧/٢ ، ولفضالة بن شريك في الأغاني : ٦٦/١٢ وشرح شذور الذهب : ص ٢٧٣ والمقتضب : ٣٦٢/٤ والمقرب : ١٨٩/١ والدرر المصون : ٩٠/١ .

(٢) ينظر الكتاب : (٢٩٦/٢) ، المقتضب : (٣٦٢/٤) ، ابن الشجري : (٣٢٩/١) ، وشرح المفصل : (٢/١٠٢) ، (١٢٣/٤) ، الخزانة : (٩٨/٢) ، الهمع : (١٤٥/١) ، الأشموني : (٤/٢) شرح الكافية الشافية : (٥٣٠/١) ، (٥٣١) وارتشاف الضرب : (١٧١/٢) ، والدرر : (٩٠/١) .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة وجابر بن سمرة رضي الله عنهما ولفظه إذا هلك كسرى فلا يكون كسرى . . . الحديث أخرجه البخاري في الصحيح (١٥٧/٦) كتاب الجهاد (٥٦) باب الحرب خدعة (١٥٧) حديث رقم (٣٠٢٧) ، (٣٠٢٨) واللفظ له ومسلم في الصحيح (٢٢٣٧/٤) كتاب الفتن (٥٢) باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . . (١٨) حديث رقم (٢٩١٨/٧٦) وحديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أخرجه البخاري في الصحيح (٢١٩/٦ - ٢٢٠) كتاب قرص الخمس (٥٧) باب قول النبي ﷺ أحلت لكم الغنائم (٨) حديث رقم (٣١٢١) ومسلم في المصدر السابق حديث رقم (٢٩١٩/٧٧) والترمذي في السنن حديث رقم (٢٢١٦) - وأحمد في المسند (٢٣٣/٢) والبيهقي في السنن (١٧٧/٩) - والطبراني في الكبير (٢٣٤/٢ ، ٢٣٥) وابن عساكر (٣١٣/٧) .

(٤) «لا» النافية لها ثلاثة أقسام :

الأول : العاملة عمل «إن» ، وهي «لا» النافية للجنس ، ولا تعمل إلا في نكرة ، فإن كان مفرداً بني معها على الفتح ، تشبيهاً بـ «خمسة عشر» ، نحو «لا ريب فيه» . وذهب الزجاج ، والسيرافي ، إلى أن فتحته =

واعلم أن «لا» لفظ مُشْتَرَك بين الثَّقِي، وهي فيه على قسمين:
قسم تنفي فيه الجنس فتعمل عمل إنَّ كما تقدم، وقسم تنفي فيه الوحدة، وتعمل
حيثُند عمل «ليس»، ولها قسم آخر، وهو النهي والدُّعاء فتجزم فعلاً واحداً، وقد تجيء
زيادة كما تقدم في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

و «الرَّيْبُ»: الشك مع تهمة؛ قال في ذلك: [الخفيف]

١١١ - لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْكَذُوبُ^(١)

وحقيقته على ما قال الزُّمَخْشَرِي: «قلق النفس واضطرابها».

ومنه الحديث: «دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ»^(٢).

ومنه أنه مرَّ بظبي خائف فقال: «لَا يُرْبُهُ أَحَدٌ بشيء».

فليس قول من قال: «الرَّيْبُ الشك مطلقاً» بجيد، بل هو أخص من الشك كما

تقدم.

وقال بعضهم: في «الرَّيْبُ» ثلاثة معانٍ:

= فتحة إعراب، وأن تنوينه حذف تخفيفاً؛ وهو ضعيف. وإن كان مضافاً، أو شبيهاً به، نُصِبَ، ولم
يُنَّ؛ لثلاً يلزم تركيب أكثر من شيئين، نحو: لا طالب علم محروم، ولا خيراً من زيد حاضر.
وذكر الشلوبين: أنه لا خلاف في أن الخبر مرفوع بـ «لا»، عند عدم تركيبها مع اسمها، وأما إذا بُني
الاسم معها فمذهب سيبويه أن الخبر مرفوع، بما كان مرفوعاً به قبل التركيب، و «لا» واسمها في
موضع رفع بالابتداء. وذهب الأخفش، وكثير من النحويين، إلى أنها رفعت الخبر، مع التركيب؛ كما
ترفعه مع عدم التركيب.

الثاني: العاملة عمل «ليس». ولا تعمل أيضاً إلا في النكرة؛ كقول الشاعر:

تَعَزَّ، فَلَا شَيْءَ، عَلَى الْأَرْضِ بِأَقْبَا وَلَا وَرَزَّ، مِمَّا قَضَى اللَّهَ، وَأَقْبَا

ومنع المبرَّد، والأخفش، إعمال «لا» عمل «ليس». وحكى ابن ولاد، عن الزجاج: أنها أُجريت مُجرى
«ليس»، في رفع الاسم خاصة، ولا تعمل في الخبر شيئاً، والسماع المتقدم يردُّ عليهم.

وأجاز ابن جني إعمال «لا» عمل «ليس» في المعرفة. ووافقه ابن مالك؛ وذكره ابن الشجري.

الثالث: النافية غير العاملة. ولها ثلاثة أنواع: عاطفة، وجوابية، وغيرهما.

ينظر الجني الداني: ص ٢٩٠ - ٢٩٤، مصابيح المغاني في حروف المعاني: ص ٤٣٣، حروف
المعاني للزجاج: ص ٨.

(١) البيت لعبد الله بن الزبير، ينظر الأعلام: ٨٧/٤، البحر المحيط: (١/١٥٥)، القرطبي: (١/١١٢)، الدر: (١/٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٥٧٦/٤ - ٥٧٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٣٨) باب (٦٠)
حديث رقم (٢٥١٨) وقال هذا حديث حسن صحيح والنسائي في السنن (٨/٣٠٠) كتاب القضاة باب
٤٨ - وأحمد في المسند (١/٢٠٠)، (٣/١١٢، ١٥٣) - وابن حبان في الموارد حديث رقم (٥١٢) -
والبيهقي في السنن (٥/٣٣٥) - والحاكم في المستدرک (٢/١٣)، (٤/٩٩) والطبراني في الكبير (٣/٧٥)
- وذكره الهيثمي في الزوائد ٣٨/١، ١٥٢/١٠.

أحدها: الشك؛ قال ابن الزُبَيْرِي^(١): [الخفيف]

١١٢ - لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ^(٢)

وثانيها: التهمة؛ قال جميل بُثَيْنَةُ^(٣): [الطويل]

١١٣ - بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَيْتَنِي^(٤) فَقُلْتُ: كَلَانًا يَا بُثَيْنُ مُرِيبٌ^(٥)

وثالثها: الحاجات؛ قال: [الوافر]

١١٤ - قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ^(٦) وَخَيْبَرُ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا^(٧)

قال ابن الخطيب^(٦): الرب قريب من الشك، وفيه زيادة، كأنه ظن سوء، تقول: رَأَيْتُ أَمْرَ فُلَانٍ إِذَا ظَنَنْتَ بِهِ سُوءًا.

فإن قيل: قد يستعمل الريب في قولهم: «ريب الدهر» و «ريب الزمان» أي: حوادثه، قال تعالى: ﴿نَرَىٰ بِهٖ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ويستعمل أيضاً فيما يختلج في القلب من أسباب الغيظ؛ كقول الشاعر: [الوافر]

١١٥ - قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ^(٧)

قلنا: هذان يرجعان إلى معنى الشك، لأن من يخاف من ريب المنون محتمل، فهو كالمشكوك فيه، وكذلك ما اختلج بالقلب فهو غير متيقن، فقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ المراد منه: نفي كونه مَظَنَّةً للريب بوجه من الوجوه، والمقصود أنه لا شُبْهَةٌ في صحته،

(١) عبد الله بن الزبير بن قيس السهمي القرشي أبو سعد شاعر قرشي في الجاهلية كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران. فقال فيه حسان أبيتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة توفي نحوه ١هـ.

ينظر الأعلام: ٨٧/٤ (٥٢٧)، ابن سلام: ٥٧ و ٥٨، إمتاع الأسماع: ٣٩١/١، الأغاني: ج ١ و ٤ و ١٤.

(٢) تقدم برقم ١١١.

(٣) جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي أبو عمرو شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر، وكانت منازل بني عذرة في وادي القرى (من أعمال المدينة) ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية فقصد جميل مصر، وافداً على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه سنة ٨٤هـ.

ينظر الأعلام: ١٣٨/٢ (١٩٥٠)، ابن خلكان: ١١٥/١، الشعر والشعراء: ١٦٦، خزانة البغدادي: ١٩١/١.

(٤) ينظر ديوانه: «٢٩». القرطبي: (١١٢/١)، الدر: ٩٢/١.

(٥) البيت لكعب بن مالك. ينظر اللسان (ريب)، الصحاح (ريب)، القرطبي: (١١٢/١)، الرازي: (٢) ١٨، الدر: (٩٢/١).

(٦) ينظر الفخر الرازي: ١٨/٢.

(٧) تقدم برقم (١١٤).

ولا في كونه من عند الله تعالى ولا في كونه معجزاً. ولو قلت: المراد لا ريب في كونه معجزاً على الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

فإن قيل: لم تأت، قال ها هنا: «لَا رَيْبَ فِيهِ» وفي موضع آخر: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصفات: ٤٧] قلنا: لأنهم يقدمون الأهم، وها هنا الأهم نفى الريب بالكلية عن الكتاب.

ولو قلت: «لا فيه ريب» لأَوْهَمَ أن هناك كتاباً آخر حصل فيه الريب لا هاهنا، كما قصد في قوله تعالى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا، بأنها لا تَغْتَال العقول كما تغتالها خمر الدنيا. فإن قيل: من أين يدل قوله: «لَا رَيْبَ فِيهِ» على نفى الريب بالكلية؟ قلنا: القراءة المشهورة توجب ارتفاع الريب بالكلية، والدليل عليه أن قوله: «لا ريب» نفى لماهية الريب؛ ونفى الماهية يقتضي نفى كل فرد من أفراد الماهية؛ لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية، وذلك مُناقض نفى الماهية، ولهذا السر كان قولنا: «لا إله إلا الله» نفياً لجميع الآلهة سوى الله تعالى.

وقرأ^(١) أبو الشعثاء^(٢): «لَا رَيْبُ فِيهِ» بالرفع، وهو نقيض لقولنا: «ريب فيه»، وهذا يفيد ثبوت فرد واحد، وذلك النفي يوجب انتفاء جميع الأفراد، فيتحقق التناقض. والوقف على «فيه» هو المشهور.

وعن نافع وعاصم^(٣) أنهما وَقَفَا على «ريب»، ولا بد للمواقف من أن ينوي خبراً، ونظيره قوله: ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ [الشعراء: ٥٠] وقول العرب: «لا بأس». واعلم أن الملحدة طعنوا فيه وقالوا: إن عني أنه لا شَكَّ فيه عندنا، فنحن قد نشك فيه، وإن عني أنه لا شَكَّ فيه عنده فلا فائدة فيه.

الجواب: [المراد]^(٤) أنه بلغ في الوضوح إلى حيث لا ينبغي لمرتتاب أن يرتاب

(١) قرأ بها أبو الشعثاء وزيد بن علي. انظر البحر المحيط: ١٦٠/١.

(٢) جابر بن زيد الأزدي أبو الشعثاء الجوني بفتح الجيم البصري الفقيه أحد الأئمة عن ابن عباس فأكثر، ومعاوية وابن عمر، وعنه قتادة وعمرو بن دينار وأيوب وخلف، قال ابن عباس هو من العلماء قال أحمد مات سنة ثلاث وتسعين، وقال ابن سعد: سنة ثلاث ومائتين. ينظر الخلاصة: ١٥٦/١ (٩٦٨)، تهذيب الكمال: ١/١٧٨، تهذيب التهذيب: ٣٨/٢، تقريب التهذيب: ١١٢/١، الثقات: ١٠١/٤.

(٣) عاصم بن بهدلة بن أبي التَّجُود بفتح النون وضم الجيم، وقد غلط من ضم النون أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي الحنات بالمهملة والنون شيخ الإقراء بالكوفة وأحد القراء السبعة. انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة. كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان فصيحاً. توفي سنة ١٢٧هـ، وقيل: غير ذلك ودفن بالشام. ينظر الغاية: ٣٤٦/١.

(٤) سقط في أ.

فيه، والأمر كذلك؛ لأن العرب مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أَقْصَرَ سورة من القرآن، وذلك يشهد بأنه لقيت هذه الحُجَّة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه.

وقيل: في الجواب وجوه آخر:

أحدها: أن النفي كونه متعلقاً للريب، المعنى: أنه منعه من الدلالة، ما إن تأمله المُنْصِف المحق لم يرتب فيه، ولا اعتبار بمن وجد فيه الريب؛ لأنه لم ينظر فيه حق النظر، فريبه غير معتد به.

والثاني: أنه مخصوص، والمعنى: لا ريب فيه عند المؤمنين.

والثالث: أنه خبر معناه النهي. والأول أحسن.

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. يجوز فيه عدة أوجه:

أحدها: أن يكون مبتدأ، وخبره فيه متقدماً عليه إذا قلنا: إن خبر «لا» محذوف.

وإن قلنا: «فيه» خبرها، كان خبره محذوفاً مدلولاً عليه بخبر «لا»، تقديره: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون خبر مبتدأ مضمّر تقديره: هو هدى، وأن يكون خبراً ثانياً لـ «ذلك»، على أن يكون «الكتاب» صفةً أو بدلاً، أو بياناً، و «لا ريب» خبر أول، وأن يكون خبراً ثالثاً لـ «ذلك»، على أن يكون «الكتاب» خبراً أول، و «لا ريب»، خبراً ثانياً، وأن يكون منصوباً على الحال من «ذلك»، أو من «الكتاب»، والعامل فيه على كلا التقديرين اسم الإشارة، وأن يكون حالاً من الضمير في «فيه»، والعامل ما في الجار والمجرور من معنى الفعل، وجعله حالاً مما تقدم: إما على المبالغة، كأنه نفس الهدى، أو على حذف مضاف، أي: ذا هدى، أو على وقوع المصدر موقع اسم الفاعل، وهكذا كل مصدر وقع خبراً، أو صفة، أو حالاً فيه الأقوال الثلاثة، أرجحها الأول.

وأجازوا أن يكون «فيه» صفة لـ «ريب»، فيتعلق بمحذوف، وأن يكون متعلقاً بـ «ريب»، وفيه إشكال؛ لأنه يصير مطولاً، واسم «لا» إذا كان مطولاً أعرب إلا أن يكون مُزَادهم أنه معمول لِمَا دَلَّ عليه «ريب» لا لنفس «ريب».

وقد تقدّم معنى «الهدى» عند قوله تبارك وتعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

و «هُدًى» مصدر على وزن «فَعَلَ» قالوا: ولم يجيء من هذا الوزن في المصادر إلا «سُرًى» و «بُكًى» و «هُدًى»، وقد جاء غيرها، وهو «لَقَيْتُهُ لُقًى»؛ قال الشاعر: [الطويل]

١١٦ - وَقَدْ زَعَمُوا حُلُمًا لُقَاكَ وَلَمْ أَرَدْ بِحَمْدِ الَّذِي أَعْطَاكَ حِلْمًا وَلَا عَقْلاً^(١)

(١) ينظر اللسان: لقاء، البحر: ١٥٦/١، الدر: ٩٣/١.

و «الهدى» فيه لغتان: التذكير، ولم يذكر اللحياني^(١) غيره.

وقال الفراء: بعض بني أسد يؤنثه، فيقولون: هذه هدى.

و «في» معناها الظرفية حقيقة أو مجازاً، نحو: «زيد في الدار»^(٢)، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] ولها معانٍ آخر:

المصاحبة: نحو: ﴿أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨].

والتعليل: «إن امرأة دخلت النار في هرة»^(٣) وموافقة «على»: ﴿وَلَا صَلَواتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] [أي: على جدوع]^(٤)، والباء: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] أي: بسببه.

والمقايضة نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

و «الهاء» في «فيه» أصلها الضم كما تقدم من أن «هاء» الكناية أصلها الضم، فإن تقدمها ياء ساكنة، أو كسرة كسرهما غير الحجازيين، وقد قرأ حمزة: «لَأَهْلُهُ امْكُثُوا» وحفص في: «عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ» [الفتح: ١٠]، ﴿وَمَا أَسْنِينُهُ إِلَّا﴾ [الكهف: ٦٣] بلغة أهل الحجاز، والمشهور فيها - إذا لم يلها ساكن وسكن ما قبلها نحو: «فيه» و «منه» - الاختلاس، ويجوز الإشباع، وبه قرأ ابن كثير^(٥)، فإن تحرك ما قبلها أُشْبِعَتْ، وقد تختلس وتسكن، وقرئ ببعض ذلك كما سيأتي مفصلاً إن شاء الله تعالى.

و «للمتقين» جاز ومجرور متعلق بـ «هدى».

وقيل: صفة لـ «هدى»، فيتعلق بمحذوف، ومحلّه حينئذ: إما الرفع أو النصب بحسب ما تقدم في موصوفه، أي هدى كائن أو كائناً للمتقين.

والأحسن من هذه الوجوه المتقدمة كلها أن تكون كل جملة مستقلة بنفسها، فـ

(١) علي بن المبارك - وقيل ابن حازم - أبو حسن اللحياني من بني لحيان بن هذيل بن مدركة وقيل سمي به لعظم لحيته ومن أخذ عنه القاسم بن سلام وله النوادر المشهورة. ينظر بغية الوعاة: ١٨٥/٢.

(٢) في أ: الدنيا.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٣٣١٨/٤) كتاب بدء الخلق باب خمس من الدواب... حديث رقم (٣٣١٨).

ومسلم في الصحيح (٢٠٢٢/٤ - ٢٠٢٣) كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي (٣٧) حديث رقم (٢٦٤٢/١٣٤، ٢٦٤٢/١٣٥، ٢٦١٩/١٣٥).

وابن ماجه في السنن حديث رقم (٤٢٥٦) - وعبد الرزاق في مصنفه حديث رقم (٢٠٥٥١) - والدارمي في السنن (٢٣٠/٢)، والبيهقي في السنن (١٤/٨) - وذكره المنذري في الترغيب (٢٠٩/٣) - والهندي في كنز العمال حديث رقم (٣٩٩٧٦)، (٤٣٧١٦).

(٤) سقط في أ.

(٥) تقدم.

«الم» جملة إن قيل: إنها خبر مبتدأ مضمر، و «ذلك الكتاب» جملة، و «لا ريب» جملة، و «فيه هدى» جملة، وإنما ترك العاطف لشدة الوصل؛ لأن كل جملة متعلقة بما قبلها آخذة بعنفها تعلقاً لا يجوز معه الفصل بالعطف.

قال الزمخشري: «وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة حيث جيء بها مُتناسقة هكذا من غير حرف نسق. [وذلك لمجيئها مُتتابعاً بعضها بعنق]^(١) بعض، والثانية متحدة بالأولى، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة.

بيانه: أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بنهاية الكمّال، فكان تقريراً لجهة التحدي. ثم نفى عنه أن يتشبث^(٢) به طرف من الريب، فكان شهادة بكماله.

ثم أخبر عنه بأنه «هدى للمتقين»، فقرر بذلك كونه يقيناً، لا يحوم الشك حوله، ثم لم تخلُ كل واحدة من هذه الأربع بعد أن رتب هذه الترتيب الأنيق [من]^(٣) نُكْتة ذات جَزالة: ففي الأولى الحذف، والرمز إلى الغرض بالطف وجه.

وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة.

وفي الثانية ما في تقديم الريب على الظرف.

وفي الثالثة ما في تقديم «الريب» على الظرف.

وفي الرابعة الحذف، ووضع المصدر الذي هو «هدى» موضع الوصف الذي هو «هاد» وإيراده منكراً.

«المتقين» جمع «متقي»، وأصله: مُتَّقِينَ بياءين، الأولى: لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى فحذفت، فالتقى ساكنان، فحذف إحداهما وهي الأولى.

و «متقي» من اتقى يتقي وهو مُفْتَعِل من الوَقَايَةِ، إلا أنه يطرد في الواو والياء إذا كانتا فاءين، ووقعت بعدهما «تاء» الافتعال أن يبدلاً «تاء» نحو: «اتَّعَدَ» من الوَعْدِ، و «اتَّسَرَ» من اليُسْرِ. وفعل ذلك بالهمزة شاذ، قالوا: «اتَّزَرَ» و «اتَّكَلَ» من الإِزَارِ، والأَكْلِ.

و لـ «افتعل» اثنا عشر معنى:

الاتَّخَذَ نحو: «اتقى».

والتسبب نحو: «اعمل».

وفعل الفاعل بنفسه نحو: «اضطرب».

والتخير نحو: «انتخب».

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: يتشبب.

(٣) سقط في ب.

والخطف نحو: «استلب».

ومطاوعة «أَفْعَل» نحو: «انتصف».

ومطاوعة «فَعَلَ» نحو: عَمَّمته فاعتم.

وموافقة «تَفَاعَلَ» و «تَفَعَّلَ» و «اسْتَفَعَلَ» نحو: احتور واقتسم واعتصم، بمعنى

تجاوز وتَقَسَّم واستعصم.

وموافقة المجرد، نحو «اقتدر» بمعنى: قَدَرَ.

والإغناء عنه نحو: «اسْتَلَمَ»^(١) الحجر، لم يُلْفَظْ له بمجرد.

و«الوقاية»: فرط الصيانة، وشدة الاحتراس من المكروه، ومنه «فرس وَاقي»: إذا

كان يقي حافِزه أدنى شيء يصيبه.

وقيل: هي في أصل اللُّغة قلة الكلام.

وفي الحديث: «التَّقِيُّ مُلْجَمٌ».

ومن الصيانة قوله: [الكامل]

١١٧ - سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطُهُ فَتَنَّاوَلْنَاهُ وَاتَّقَنَّا بِالْيَدِ^(٢)

وقال آخر: [الطويل]

١١٨ - فَأَلَقْتُ قِنَاعاً دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْضُولَيْنِ كَفَّ وَمِنْصَمِ^(٣)

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ «الهدى» في القرآن بإزاء ثلاثة عشر معنى:

الأول: بمعنى «البيان» قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] أي:

على بيان، ومثله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: لتبين، وقوله

تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَبَدِّعْتَهُمْ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بَيَّنَّا لهم.

الثاني: الهدى: دين الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:

٧٣] أي: دين الحق هو دين الله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمَكِلَ هُدًى﴾ [الحج: ٦٧] أي: دين الحق.

الثالث: بمعنى «المعرفة» قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] أي:

يعرفون، وقوله تعالى: ﴿تَكْرُؤًا لَّمَّا عَرَضَهَا نَظَرًا أَنَّهُدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:

٤١] أي: أتعرف.

(١) في أ: أسلم.

(٢) البيت للنابعة. ينظر ديوانه: (٩٣)، واللسان (نصف)، والمفردات للراغب: (٧٥٥)، الدر: (٩٥/١)،

والشعر والشعراء: ١٧٦/١، والمقاصد النحوية: ٢٠١/٣، وشرح الأشموني: ٢٥٩/١.

(٣) البيت لأبي حية النميري. ينظر الحماسة: ١١٦/٢، القرطبي: ١١٣/١، الدر: ٩٥/١.

الرابع: بمعنى «الرسول» قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا تِيتَكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] أي: رسول.

الخامس: بمعنى «الرشاد» قال تعالى: ﴿وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ [ص: ٢٢] أي: أرشدنا.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَفِيتَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [فصلت: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ [الفاتحة: ٦].

السادس: بمعنى: «القرآن» قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] أي: القرآن.

السابع: بمعنى: بعثة النبي - ﷺ - قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى: ٥٢].

الثامن: بمعنى «شرح الصدور» قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

التاسع: التوراة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ [غافر: ٥٣] يعني: التوراة.

العاشر: «الجنة» قال تعالى: ﴿إِنَّ الْذِّبْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ [يونس: ٩] أي: يدخلهم الجنة.

الحادي عشر: «حج البيت» قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] أي الحج.

الثاني عشر: «الصلاح» قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] أي: لا يصلح.

الثالث عشر: «التوبة» قال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: ثُبْنَا ورجعنا.

فصل في المقصود بالهدى

قال ابن الخطيب^(١) «رضي الله تعالى عنه»: الهدى عبارة عن الدلالة.

وقال صاحب «الكشاف»: الهدى هو الدلالة الموصلة للبغية.

وقال آخرون: الهدى هو الاهتداء والعلم والدليل على صحة الأول أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبراً في مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء مُحَال، وقد ثبت

(١) ينظر الفخر الرازي: ١٩/٢.

الهدى حال عدم الاهتداء قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فِهْدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] أثبت الهدى مع عدم الاهتداء. واحتج صاحب «الكشاف» بأمور ثلاثة:

[أولها]: وقوع الضلالة في مُقَابِلَةِ الهدى، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وثانيها: يقال: مهديّ في موضع المدح كالمهتدي، فلو لم يكن من شرط الهدى كَوْنُ الدلالة موصلة إلى البغية لم يكن الوصف بكونه مهدياً مدحاً؛ لاحتمال أنه هدى، فلم يَهْتَدِ.

وثالثها: أن «اهتدى» مطاوع «هَدَى» يقال: هَدَيْتُهُ فَاهْتَدَيْ، كما يقال: كسرتُه فَانكسر، وقطعته فَانقطع، فكما أن الانكسار والانقطاع لَازِمَانِ للكسر والقطع، وجب أن يكون الاهتداء من لوازم «الهدى».

والجواب عن الأول: أن الفرق بين الهدى والاهتداء معلوم بالضرورة، فمقابل «الهدى» هو «الإضلال»^(١) ومقابل «الاهتداء» هو «الضلال» فجعل «الهدى» في مقابلة «الضلال» ممتنع.

وعن الثاني: المنتفع^(٢) بالهدى سمي مهدياً؛ لأن الوسيلة إذا لم تُفَضَّ إلى المقصود كانت نازلة منزلة المعدوم.

وعن الثالث: أن^(٣) الائتمار مُطَاوَع الأمر يقال: أمرته فائتمر، ولم يلزم منه أن يكون من شرط كونه آمراً حصول الائتمار، وكذا لا يلزم من كونه هذه أن يكون مفضياً إلى الاهتداء، على أنه معارض بقوله: هديته فلم يهتد.

ومما يدل على فساد قول من قال: الهدى هو العلم خاصة أن الله - تعالى - وصف القرآن بأنه هدى، ولا شك أنه في نفسه ليس بعلم، فدلّ على أن الهدى هو الدلالة لا الاهتداء والعلم.

فصل في اشتقاق المتقي

والمتقي في اللغة: اسم فاعل من قولهم: وقاه فأتقى، والوقاية: فرط الصيانة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التقى: من يتقي الشُّرك والكبائر والفواحش^(٤)، وهو مأخوذ من الاتقاء، وأصله: الحجز بين شيئين.

(٣) سقط في أ.

(١) في أ: الضلال.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/٢٣٣ - شاکر).

(٢) في أ: أي المنتفع.

وفي الحديث: «كان إذا اخمرَ البأسُ اتقينا برسول الله ﷺ»^(١).

أي: إذا اشتد الحزبُ جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو، فكأن المتقي جعل الامتثال لأمر الله، والاجتناب عما نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب. وقال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: «حدثني عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمرت، قال كعب: ذلك التقوى». وقال عمر بن عبد العزيز: التقوى ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فما رزق الله بعد ذلك فهو خير^(٢) إلى خير.

وقال ابن عمر: التقوى ألا ترى نفسك خيراً من أحد.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الله - تعالى - ذكر المتقي هاهنا في معرض المدح، [ولن يكون ذلك]^(٣) بأن يكون متقياً في أمور الدنيا بل بأن يكون متقياً فيما يتصل بالدين، وذلك بأن يكون آتياً بالعبادات، محترزاً عن المحظورات. واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ فقال بعضهم: يدخل كما تدخل الصغائر في الوعيد.

وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة عن الكل، إنما النزاع في أنه إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق هذا الاسم؟

فروي عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»^(٤). وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه.

واعلم أن حقيقة التقوى، وإن كانت هي التي ذكرناها إلا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلي منها الإيمان تارة؛ كقوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] أي: التوحيد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَهُمْ لَلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿قَوْمٌ فَرَعُونَ إِلَّا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١١] أي: لا يؤمنون.

وتارة التوبة كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦/١) عن علي بن أبي طالب مرفوعاً بلفظ: كان إذا احمر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ.

(٢) في أ: كان. (٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٥١) وابن ماجه (٢/٢) رقم (٤٢١٥) والبيهقي (٣٢٥/٢) والطبراني (١٧/١٦٩).

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧/١) وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» عن عطية السعدي مرفوعاً.

وتارة ترك المعصية كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩] أي: فلا تعصوه.

وتارة الإخلاص كقوله: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: من إخلاص القلوب.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: كون الشيء هدى ودليلاً لا يختلف بحسب شخص دون شخص فلماذا جعل القرآن هدى للمتقين فقط؟ وأيضاً فالمتقي مهتدي، والمهتدي لا يهتدي ثانياً، والقرآن لا يكون هدى للمتقين؟

والجواب: أن القرآن كما أنه هدى للمتقين، ودلالة لهم على وجود الصانع، وعلى صدق رسوله، فهو أيضاً دلالة للكافرين؛ إلا أن الله تبارك وتعالى ذكر المتقين مدحاً لبيّن أنهم هم الذين اهتدوا، وانتفعوا به كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ تَحْشَنَّا﴾ [النازعات: ٤٥] وقال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١].

وقد كان عليه الصلاة والسلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لأجل أن هؤلاء هم الذين انتفعوا بإنذاره.

وأما من فسر الهدى بالدلالة الموصلة إلى المقصود، فهذا السؤال زائل عنه؛ لأن كون القرآن موصلاً إلى المقصود ليس إلا في حق المتقين.

السؤال الثاني: كيف وصف القرآن كله بأنه هدى، وفيه مجمل ومتشابه كثير، ولولا دلالة العقل لما تميز المُحكّم عن المُتَشَابِه، فيكون الهدى في الحقيقة هو الدلالة العقلية لا القرآن؟

ونقل عن علي بن أبي طالب أنه قال لابن عباس حين بعثه رسولاً إلى الخوارج: لا تَحْتَجَّ عليهم بالقرآن، فإنه خَصُمٌ ذو وجهين، ولو كان هدى لما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذلك فيه، ولأننا نرى^(١) جميع فرق الإسلام يحتجون به، ونرى القرآن مملوءاً من آيات بعضها صريح في الجبر، وبعضها صريح في القدر؛ فلا يمكن التوفيق بينهما إلا بالتعسف الشديد، فيكيف يكون هدى؟

الجواب: أن ذلك المُتَشَابِه والمُجْمَل لما لم ينفك عما هو المراد على التعيين^(٢) - وهو إما دلالة العقل، أو دلالة السمع - صار كله هدى.

السؤال الثالث: كل ما يتوقف كون القرآن حُجّة على صحته لم يكن القرآن هدى فيه، فإذا استحال كون القرآن هدى في معرفة ذات الله - تعالى - وصفاته، وفي معرفة

النبوة، فلا شك أن هذه المطالب أشرف المطالب، فإذا لم يكن القرآن هدى فيها، فكيف جعله الله هدى على الإطلاق؟

الجواب: ليس من شرط كونه هدى أن يكون هدى في كل شيء، بل يكفي فيه أن يكون هدى في بعض الأشياء، وذلك بأن يكون هدى في تعريف الشرائع، أو يكون هدى في تأكيد ما في العقول، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلق لا يقتضي^(١)

(١) تعريف المطلق والمقيد في اللغة:

أولاً: معنى المطلق في اللغة:

الأصل في مادة «طلق» هو التخليه والإرسال، ورد في لسان العرب: يعير طلق وطلق بغير قيد، وأطلقه، فهو طليق ومطلق: سرحه، والجمع طلقاء، والطلاق: الأسراء العتقاء، والتطليق: التخليه والإرسال وحل العقد، ويكون الإطلاق بمعنى الترك والإرسال. وفي معجم مقاييس اللغة ٤٢٠/٣ أن مادة «طلق» تدل على التخليه والإرسال، ومن المجاز قولهم: امرأة طالق وطالقة؛ إذا طلقها زوجها وسجنوه طلقاً: غير مقيد.

وتنوعت آراء الأصوليين في تعريف المطلق والمقيد؛ وذلك لاختلافهم في اعتبار كل منهما على طريقتين هما:

الأول: من ذهب إلى التسوية بين المطلق والنكرة؛ لأن هناك شبهاً بينهما، ولما كانت النكرة تدل على الفرد الشائع - أي المنتشر، فالمطلق عند هؤلاء يدل على الفرد الشائع؛ لأنه فرد من أفراد النكرة، فهو تابع لها بما تدل عليه، ومن أنصار هذا الرأي: جمهور الشافعية ومن وافقهم من العلماء، ومنهم سيف الدين الأمدي، وابن الحاجب.

الثاني: وهو مذهب جمهور الأحناف، والسبكي، والقرافي، والأصفهاني، وابن ملك صاحب المنار، وغيرهم؛ حيث يرون أن المطلق يغير النكرة، فليس ثمة شبه بين اللفظين؛ لأن النكرة تدل على الفرد الشائع، بينما المطلق يدل على الماهية المطلقة بلا قيد.

معنى المطلق اصطلاحاً:

تنوعت آراء الأصوليين في تعريف المطلق؛ على مذهبين رئيسيين هما:

المذهب الأول: ويمثله جمهور الشافعية ومن لف لفهم من الفقهاء؛ الذين سواوا بين المطلق والنكرة، وقد ذهب سيف الدين الأمدي إلى تعريف المطلق بأنه: النكرة في سياق الإثبات، أي: الوحدة الشائعة؛ لأن النكرة في الإثبات إنما تنصرف إلى الفرد المنتشر. وعرفه ابن الحاجب: بما دل على شائع في جنسه، وقد اختار هذا التعريف صاحب «التلويح»، وصاحب «المرآة» من الحنفية، وعبر عنه في «المرآة» فقال: المطلق: وهو الشائع في جنسه. وعرفه ابن قدامة: بأنه المتناول لواحد بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه، وهي النكرة في سياق الأمر.

المذهب الثاني: وهو مذهب الجمهور من الأحناف، ومنهم: البزدوي؛ وكذلك القرافي في «التنقيح»، وابن السبكي في «جمع الجوامع»، و«الإبهاج شرح المنهاج».

قال البزدوي: المطلق هو المتعرض للذات دون الصفات، لا بالنفي ولا بالإثبات، أي: أنه الدال على الماهية من حيث هي هي، ومثله للفتاري في «فصول البدائع». وقال ابن ملك في شرحه على «المنار»: المطلق هو ما لم يكن موصوفاً بصفة على حدة.

وقال القرافي: المطلق: هو كل حقيقة اعتبرت من حيث هي هي، أي: أنه الدال على الماهية بلا قيد،

إلا أن الإطلاق عنده أمر نسبي اعتباري؛ فقد يكون المطلق مقيداً - كرقبة - مطلقاً بالنظر لقيد الإيمان في =

العموم، فإن الله - تعالى - وصفه بكونه هُدى من غير تقييد في اللفظ، مع أنه يستحيل أن يكون هدى في إثبات الصانع، وصفاته، وإثبات النبوة، فثبت أن المطلق لا يفيد العموم.

السؤال الرابع: الهُدى هو الذي بلغ في البيان والوضوح إلى حيث بين غيره، والقرآن ليس كذلك، فإن المفسرين ما ذكروا آية إلا وذكروا فيها أقوالاً كثيرة متعارضة، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿لَتَنِينَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وما يكون كذلك لا يكون مبيناً في نفسه، فضلاً عن أن يكون مبيناً لغيره، فكيف يكون هدى؟ قلنا: من تكلم في التفسير بحيث يورد الأقوال المتعارضة، ولا يرجح واحداً منها على الباقي يتوجه عليه السؤال، وأما من رجح واحداً على البواقي فلا يتوجه عليه السؤال.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ (٣)

«الذين» يحتمل الرفع والنصب والجبر، والظاهر الجبر، وهو من ثلاثة أوجه:

= المؤمنة، فاللفظ لا يكون مطلقاً بالوضع، وإنما نسبته إلى أمر آخر هي التي تصيرها مطلقاً، وهو يشير إلى ضابط الإطلاق بما أقصر اللفظ فيه على معنى اللفظة المفردة؛ كركبة، وإنسان.

وقال ابن السبكي في «الإيهاج»: المطلق على الإطلاق: هو المجرد عن جميع القيود، الدال على ماهية الشيء من غير أن يدل على شيء من أحوالها وعوارضها.

وقال ابن السبكي في «جمع الجوامع»: المطلق: هو الدال على الماهية بلا قيد؛ من وحدة أو غيرها؛ كالشيوخ أو التعيين، فالمنفي في التعريف هو اعتبار القيد لا وجوده في الواقع ونفس الأمر؛ فإنه لا يتأتى وجود الماهية في الخارج إلا مقيدة، وعدم اعتبار القيد في التعريف يصدق من وجهين: الأول: أن يوجد في الواقع لكنه لا يعتبر. الثاني: أن يوجد فقط، فالقيد المذكور أعم من اعتبار العدم؛ لأن الكلّي الطبيعي، الذي هو عبارة عن الماهية له اعتبارات هي:

١ - إما مأخوذ لا بشرط شيء: وهو المطلق عن جميع العوارض، فهو غير موجود في الأعيان الخارجية؛ من حيث كونها فرداً من الأفراد كما هو مذهب أكثر العلماء، وإنما هو موجود فيها من حيث وجود شيء في الخارج يصدق عليه، وإن خالفه باعتبار المفهوم الذهني.

٢ - أو مأخوذ بشرط شيء: وهو المسمى بالماهية المخلوطة، نحو: الإنسان بقيد الوحدة؛ وكالمقيد بهذا وأنت، وهو موجود في الأعيان الخارجية.

٣ - أو مأخوذ بشرط لا شيء: وهو غير معتبر في الأحكام لعدم تحقق وجوده في الخارج مطلقاً.

ينظر البحر المحيط للزركشي: ٤١٥/٣، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٣/٣، سلاسل الذهب للزركشي: ص ٢٨٠، نهاية السؤل للإسنوي: ٣١٩/٢، وزوائد الأصول له: ٢٩٨، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ص ٨٢، التحصيل من المحصول للآرموي: ٤٠٧/١، المستصفى للغزالي:

١٨٥/٢، حاشية البناني: ٤٤/٢، الآيات البينات لابن قاسم العبادي: ٧٦/٣، تخريج الفروع على الأصول للزنجاني: ص ٢٦٢، تيسير التحرير لأمير بادشاه: ٣٢٨/١، ميزان الأصول للسمرقندي: ١/

٥٦١، كشف الأسرار للنسفي: ٤٢٢/١، شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: ١٥٥/٢، الوجيز للكرامستي: ص ١٤، تقريب الوصول لابن جزي: ص ٨٣، إرشاد

الفحول للشوكاني: ص ١٦٤، شرح الكوكب المنير للفتوح: ص ٤٢٠.

وينظر الروضة لابن قدامة: (١٣٦) الحدود للباقي: (٤٧).

أظهرها: أنه نعت لـ «المتقين».

والثاني: بدل.

والثالث: عطف بيان.

وأما الرفع فمن وجهين:

أحدهما: أنه خبر مبتدأ محذوف على معنى القطع، وقد تقدم.

والثاني: أنه مبتدأ، وفي خبره قولان: أحدهما: «أولئك» الأولى.

والثاني: «أولئك» الثانية، والواو زائدة، وهذان القولان منكران؛ لأن قوله: «والذين

يؤمنون» يمنع كون «أولئك» الأولى خبراً، ووجود الواو يمنع كون «أولئك» الثانية خبراً أيضاً.

وقولهم: الواو زائدة لا يلتفت إليه.

والنصب على القطع.

و «يؤمنون» صلة وعائد.

قال الزمخشري: «فإذا كان موصولاً كان الوقف على «المتقين» حسناً غير تام، وإذا

كان منقطعاً كان وقفاً تاماً».

وهو مضارع علامة رفعه «النون»؛ لأنه أحد الأمثلة الخمسة وهي عبارة عن كل فعل

مضارع اتصل به «ألف» اثنين، أو «واو» جمع، أو «ياء» مخاطبة، نحو: «يؤمنان - تؤمنان

- يؤمنون - تؤمنون - تؤمنين».

والمضارع معرب أبداً، إلا أن يباشرون نون توكيد أو إناء، على تفصيل يأتي إن شاء

الله - تعالى - في غُضُون هذا الكتاب.

وهو مضارع «أمن» بمعنى: صدق، و «آمن» مأخوذ من «أمن» الثلاثي، فالهمزة في

«أمن» للتصيرة نحو: «أعشب المكان» أي: صار ذا عُشب.

أو لمطاوعة فعل، نحو: «كبه فأكب»، وإنما تعدى بالباء، لأنه ضمن معنى

اعترف، وقد يتعدى باللام كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، ﴿فَمَا ءَامَنَ

لِمُوسَى﴾ [يونس: ٨٣] إلا أن في ضمن التعدية باللام التعدية بالباء، فهذا فرق ما بين

التعديتين. وأصل «يؤمنون»: «يؤمنون» بهمزتين:

الأولى: همزة «أفعل».

والثانية فاء الكلمة، حذفت الأولى؛ لأن همزة «أفعل» تحذف بعد حرف

المُضَارعة، واسم فاعله، ومفعوله نحو: «أكرم» و «يكرم» و «أنت مُكْرَم، ومُكْرَم».

وإنما حذفت؛ لأنه في بعض المواضع تجتمع همزتان، وذلك إذا كان حرف

المُضَارعة همزة نحو: «أنا أكرم»، الأصل: أأكرم بهمزتين، الأولى: للمضارعة والثانية:

همزة «أفعل»، فحذفت الثانية؛ لأن بها حصل الثقل؛ ولأن حرف المضارعة أولى

بالمحافظة عليه، ثم حمل باقي الباب على ذلك طَرْداً للباب.

ولا يجوز ثبوت همزة «أفعل» في شيء من ذلك إلا في ضرورة؛ كقوله: [الرجز]

١١٩ - فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِأَن يُؤَكْرَمًا^(١)

وهمزة «يؤمنون» - وكذلك كل همزة ساكنة - يجوز أن تبدل بحركة ما قبلها، فتبدل حرفاً مجانساً نحو: «راس» و «بير» و «يومن»، فإن اتفق أن يكون قبلها همزة أخرى وجب البديل نحو: «إيمان» و «آمن».

فصل

قال بعضهم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ * يحتمل أن يكون كالتفسير لكونهم متقين، وذلك لأن المتقي هو الذي يكون فاعلاً للحسنات وتاركاً للسيئات، أما الفعل فيما أن يكون فعل القلب وهو قوله: «الذين يؤمنون».

وإما أن يكون فعل الجوارح، أساسه الصلاة والصدقة؛ لأن العبادة إما أن تكون بدنية، وأصلها الصلاة، أو مالية وأصلها الزكاة، ولهذا سمي الرسول عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام»^(٢). أما التزك فهو داخل في الصلاة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ * [العنكبوت: ٤٥] واختلف الناس في مسمى الإيمان في عرف الشرع على أربع فرق:

الفرقة الأولى: قالوا: الإيمان اسم لأفعال القلوب، والجوارح، والإقرار باللسان، وهم المعتزلة والخوارج والزيدية، وأهل الحديث.

أما الخوارج فقد اتفقوا على أن الإيمان بالله يتناول المعرفة بالله، وبكل ما وضع عليه دليلاً عقلياً، أو نقلياً من الكتاب والسنة، ويتناول طاعة الله في جميع ما أمر الله به من الأفعال والتروك صغيراً كان أو كبيراً.

فقالوا: مجموع هذه الأشياء هو الإيمان، وترك كل خصلة من هذه الخصال كفر،

(١) هذا شطر بيت من الرجز لأبي حيان الفقهسي. ينظر المقتضب: (٩٨/٢)، الخصائص: (١٤٥/١)، الخزانة: (٣١٦/٢)، المخصص: (١٠٨/١٦)، الهمع: (٢١٨/٢)، الدرر: (٢٣٩/٢)، المنصف: (٢٣٧/١)، التبصرة: (٧٥١/٢)، والإنصاف: (١١/١)، وارتشاف الضرب: (١١٨/١)، والأصول: (٣١٦/٢)، واللسان (كرم)، الصحاح (كرم)، الدرر: (٩٦/١).

(٢) الحديث ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٢٧٨/١) رقم (١٣٧٢) وعزاه لأبي نعيم في عواليه عن علي بن أبي طالب.

وأورده برقم (١٨٨٨٩) بلفظ الصلاة عماد الدين وعزاه للبيهقي في «الشعب» عن عمر بن الخطاب. وأورده بلفظ: الصلاة عمود الدين رقم (١٨٨٩٠) وعزاه لأبي نعيم الفضل بن دكين في «الصلاة» عن عمر.

وأورده بلفظ «الصلاة عماد الدين والجهد سنام العمل والزكاة تثبت ذلك». رقم (١٨٨٩١) وعزاه للدليمي في «مسند الفردوس» عن علي بن أبي طالب.

أما المعتزلة فقد اتفقوا على أنَّ الإيمان إذا عدي بالباء، فالمراد به التصديق؛ إذ الإيمان بمعنى أداء الواجبات لا يمكن فيه هذه التعدية، فلا يقال: فلان آمن بكذا إذا صَلَّى وصام، بل يقال: فلان آمن بالله كما يقال: صام وصلى لله، فالإيمان المعدى بالباء يجري على طريقة أهل اللغة.

أما إذا ذكر مطلقاً غير معدى، فقد اتفقوا على أنه منقول من المُسمَّى اللغوي - الذي هو التصديق - إلى معنى آخر، ثم اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها: أن الإيمان عبارة عن فعل كل الطاعات، سواء كانت واجبة أم مندوبة، أو من باب الأقوال أو الأفعال، أو الاعتقادات، وهو قول واصل بن عطاء^(١)، وأبي الهذيل^(٢)، والقاضي عبد الجبار بن أحمد^(٣).

وثانيها: أنه عبارة عن فعل الواجبات فقط دون النوافل، وهو قول أبي علي^(٤) وأبي هاشم^(٥).

(١) واصل بن عطاء الغزال، أبو حنيفة، من موالى بني ضبة أو بني مخزوم رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ولد في ٨٠هـ.

له تصانيف منها أصناف المرجئة، المنزلة بين المنزلتين، معاني القرآن، الجهل. توفي في ١٣١هـ. ينظر المقرئ: ٣٤٥/٢، وفيات الأعيان: ١٧٠/٢، مروج الذهب: ٢٩٨/٢، أمالي المرتضى: ١/١١٣، تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١١/٥، مرآة الجنان: ٢٧٤/١، النجوم الزاهرة: ٣١٣/١ - ٣١٤، لسان الميزان: ٢١٤/٦، شذرات الذهب: ١٨٢/١، مقاتل الطالبين: ٢٩٣، رغبة الأمل: ٨٨/٧، الأعلام: ١٠٨/٨.

(٢) محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف. من أئمة المعتزلة ولد في البصرة سنة ١٣٥هـ واشتهر بعلم الكلام. قال المأمون: أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام. له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات، وكان حسن الجدل قوي الحجة سريع الخاطر كف بصره في آخر عمره وتوفي بـ «سامرا» سنة ٢٣٥هـ - ينظر الأعلام: ١٣١/٧ (٦١٥)، تاريخ بغداد: ٣٦٦/٣، لسان الميزان: ٤١٣/٥، وفيات الأعيان: ٤٨٠/١.

(٣) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل، القاضي أبو الحسن الهمداني. قاضي الري وأعمالها، وكان شافعي المذهب، وهو مع ذلك شيخ الاعتزال، وله المصنفات الكثيرة في طريقتهم وفي أصول الفقه، قال ابن كثير: ومن أجل مصنفاته وأعظمها كتاب «دلائل النبوة» في مجلدين، أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة. مات سنة ٤١٥هـ.

انظر ط. ابن قاضي شهبة: ١٨٣/١، تاريخ بغداد: ١١٣/١١، شذرات الذهب: ٢٢/٣، ولسان الميزان: ٣٨٦/٣، الأعلام: ٤٧/٤.

(٤) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي، من أئمة المعتزلة، رئيس علماء الكلام في عصره ولد ٢٣٥هـ إليه نسبة الطائفة الجبائية، له تفسير حافل رد عليه الأشعري. وله مقالات انفراد بها في المذهب. توفي سنة ٣٠٣هـ.

ينظر المقرئ: ٣٤٨/٢، وفيات: ٤٨٠/١، البداية والنهاية: ١٢٥/١١، اللباب: ٢٠٨/١، مفتاح السعادة: ٣٥/٢، الأعلام: ٢٥٦/٦.

(٥) عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي، من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام، من كبار المعتزلة، له آراء انفراد بها، وتبعته فرقة سميت «البهشية» نسبة إلى كنيته «أبي هاشم»، وله مصنفات =

وثالثها: أن الإيمان عبارة عن [اجتناب كل ما جاء فيه الوعيد. ثم يحتمل أن يكون من الكبائر ما لم يرد فيه الوعيد.

فالمؤمن عند الله كل من اجتنب^(١) كل الكبائر، والمؤمن عندنا كل من اجتنب ما ورد فيه الوعيد، وهو قول النظام^(٢)، ومن أصحابه من قال: شرط كونه مؤمناً عندنا وعند الله اجتناب الكبائر كلها.

وأما أهل الحديث فذكروا وجهين:

الأول: أن المعرفة إيمان كامل وهو الأصل، ثم بعد ذلك كل طاعة إيمان على حدة، وهذه الطاعات لا يكون شيء منها إيماناً إلا إذا كانت مرتبة على الأصل الذي هو المعرفة.

وزعموا أن الجحود وإنكار القلب كفر، ثم كل معصية بعده كُفر على حدة، ولم يجعلوا شيئاً من الطاعات إيماناً ما لم توجد المعرفة والإقرار، ولا شيئاً من المعاصي كفراً ما لم يوجد الجحود والإنكار؛ لأن الفرع لا يحصل بدون ما هو أصله، وهو قول عبدالله بن سعيد بن كلاب^(٣).

والثاني: زعموا أن الإيمان اسم للطاعات كلها، وهو إيمان واحد، وجعلوا الفرائض والنوافل كلها من جملة الإيمان، ومن ترك شيئاً من الفرائض فقد انتقص إيمانه، ومن ترك النوافل لا ينتقص إيمانه.

ومنهم من قال: الإيمان اسم للفرائض دون النوافل.

الفرقة الثانية الذين قالوا: الإيمان باللسان والقلب معاً، وقد اختلف هؤلاء على مذاهب:

الأول: أن الإيمان إقرار باللسان، ومعرفة بالقلب، وهو قول أبي حنيفة وعامة الفقهاء، ثم هؤلاء اختلفوا في موضعين:

= منها «الشامل» في الفقه، و «تذكرة العالم»، و «العدة» في أصول الفقه.

انظر المقرئ: ٣٤٨/٢، وفيات الأعيان: ٢٩٢/١، البداية والنهاية: ١١/١٧٦، الأعلام: ٧/٤.

(١) سقط في أ.

(٢) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظامي من أئمة المعتزلة في لسان الميزان أنه متهم بالزندقة، وكان شاعراً أديباً بليغاً وذكروا أن له كتباً كثيراً في الفلسفة والاعتزال ولمحمد عبد الهادي أبي ريدة كتاب «إبراهيم بن سيار النظام» توفي: ٢٣١هـ.

ينظر تاريخ بغداد: ٩٧/٦، أمالي المرتضى: ١٣٢/١، اللباب: ٢٣٠/٣، خطط المقرئ: ٣٤٦/١، سفينة البحار: ٥٩٧/٢، الأعلام: ٤٣/١.

(٣) عبد الله بن سعيد بن كلاب، أبو محمد القطان: متكلم من العلماء يقال له «ابن كلاب». قال السبكي: وكلات بضم الكاف وتشديد اللام، قيل: لقب بها لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه كما يجتذب الكلاب الشيء. له كتب، منها «الصفات» و «خلق الأفعال» و «الرد على المعتزلة» توفي سنة ٢٤٥هـ.

أحدهما: اختلفوا في حقيقة هذه^(١) المعرفة، فمنهم من فسّرها بالاعتقاد الجازم - سواء كان اعتقاداً تقليدياً، أو كان علماً صادراً عن الدليل - وهم الأكثرون الذين يحكمون بأن المقلّد مسلم.

ومنهم من فسرها بالعلم الصادر من الاستدلال.

وثانيهما: اختلفوا في أن العلم المعتبر في تحقيق الإيمان علّم بماذا؟ قال بعض المتكلمين: هو العلم بالله، وبصفاته على سبيل الكمال والتمام، ثم إنه لما كثر اختلاف الخلق في صفات الله تعالى لا جرم أقدم كلّ طائفة على تكفير من عداها من الطوائف.

وقال أهل الإنصاف: المعتبر هو العلم بكل ما علم بالضرورة كونه من دين محمد عليه الصّلاة والسلام، فعلى هذا القول العلم بكونه تعالى عالماً بالعلم، أو عالماً بذاته، وبكونه مرئياً أو غير مرئي، لا يكون داخلياً في مسمى الإيمان.

القول الثاني: أن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معاً، وهو قول بشر بن غياث المريسي^(٢)، وأبي الحسن الأشعري^(٣)، والمراد من التصديق بالقلب الكلام القائم بالنفس.

القول الثالث: قول جماعة من الصوفية: الإيمان إقرار باللسان، وإخلاص بالقلب.

الفرقة الثالثة الذين قالوا: الإيمان عبارة عن عمل القلب فقط، وهؤلاء اختلفوا على

قولين:

أحدهما: أن الإيمان معرفة الله بالقلب، حتى إن من عرف الله بقلبه، ثم جحد بلسانه ومات قبل أن يُقرّ به فهو مؤمن كامل الإيمان، وهو قول جهم بن صفوان^(٤)

(١) في أ: تلك.

(٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي العدوي بالولاء أبو عبد الرحمن فقيه معتزلي عارف بالفلسفة يرمى بالزندقة، وقال برأي الجهمية وللدارمي كتاب «النقض على بشر المريسي» في الرد على مذهبه. توفي ٢١٨هـ.

ينظر وفيات الأعيان: ٩١/١، النجوم الزاهرة: ٢٢٨، تاريخ بغداد: ٥٦/٧، ميزان الاعتدال: ١٥/١، الجواهر المضية: ١٦٤/١، اللباب: ١٢٨/٣، الأعلام: ٥٥/٢.

(٣) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين، والمصحح لعقائد المسلمين، مولده سنة ستين ومائتين، وقيل سنة سبعين. كانت المعتزلة قدر رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم. قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري، المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة، والرافضة، والجهمية، والخوارج وسائر أصناف المبتدعة. توفي سنة ٣٢٤هـ وقيل ٣٢٠هـ وقيل ٣٣٠هـ.

ينظر الأعلام: ٦٩/٥، تاريخ بغداد: ٣٤٦/١١، وفيات الأعيان: ٤٤٦/٢، ابن قاضي شعبة: ١١٣/١.

(٤) جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالي بني راسب: رأس «الجهمية» قال الذهبي: الضالّ المبتدع، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرّاً عظيماً. كان يقضي في عسكر الحارث بن سريج، الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار، فطلب جهم استبقاه، فقال نصر: «لا تقوم =

وأما معرفة الكتب والرسل واليوم الآخر فقد زعم أنها غير داخلية في حَدِّ الإيمان. وحكى الكعبي^(١) عنه: أَنَّ الإيمان معرفة الله مع معرفة كُلِّ ما علم بالضرورة كونه من دين محمد.

ثانيهما: أَنَّ الإيمان مُجَرَّد التصديق بالقلب، وهو قول الحسين بن الفضل البجلي.

الفرقة الرابعة الذين قالوا: الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وهم فريقان:

الأول: أن الإقرار باللسان هو الإيمان فقط، لكن شرط كونه إيماناً حصول المعرفة في القلب، فالمعرفة شرط لكون الإقرار اللساني إيماناً، لا أنها داخلية في مسمى الإيمان، وهو قول غيلان بن مسلم الدمشقي^(٢)، والفضل الرقاشي، وإن كان الكعبي قد أنكر كونه لـ «غيلان».

الثاني: أن الإيمان مجرد الإقرار باللسان، وهو قول الكرامية، وزعموا أن المُتَأَفِّق مؤمن الظاهر كافر السريرة، فثبت له حكم المؤمنين في الدنيا، وحكم الكافرين في الآخرة، فهذا مجموع أقوال الناس في مسمى الإيمان في عرف الشرع.

و «بالغيب» متعلق بـ «يؤمنون»، ويكون مصدراً واقعاً موقع اسم الفاعل، أو اسم المفعول، وفي هذا الثاني نظر؛ لأنه من «غاب» وهو لازم، فكيف يبنى منه اسم مفعول حتى يقع المصدر موقعه؟ إلا أن يقال: إنه واقع موقع اسم مفعول من «فَعَلَ» مضعفاً متعدياً، أي: الْمُعَيَّب، وفيه بعد. وقال الزمخشري^(٣): يجوز أن يكون مخففاً من «فَعِيل» نحو: «هَيْن» من «هَيْنَ»، و «مَيَّت» من «مَيَّتَ». وفيه نظر؛ لأنه لا ينبغي أن يدعى ذلك فيه حتى يسمع مثقلاً كمنظائره، فإنها سمعت مخففة ومثقلة، ويبعد أن يقال: التزم التخفيف في هذا خاصة. ويجوز أن تكون «الباء» للحال فيتعلق بمحذوف أي: يؤمنون

= علينا مع اليمانية أكثر مما قمت» وأمر بقتله، فقتل سنة ١٢٨ هـ.

ينظر ميزان الاعتدال: ١٩٧/١، الأعلام: ١٤١/٢.

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، من بني كعب، البلخي الخراساني، أبو القاسم: أحد أئمة المعتزلة. كان رأس طائفة منهم تسمى «الكعبية» وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها، وهو من أهل «بلخ»، أقام بـ «بغداد» مدةً طويلة، له كتب، منها: «التفسير» و «تأييد مقالة أبي الهذيل»، وصنّف في «الكلام» كتباً كثيرة وانتشرت كتبه ببغداد. ولد سنة ٢٧٣ هـ وتوفي سنة ٣١٩ هـ.

انظر تاريخ بغداد: ٣٨٤/٩، المقرئ: ٣٤٨/٢، الأعلام: ٦٥/٤.

(٢) غيلان بن مسلم الدمشقي، أبو مروان: كاتب، من البلغاء، تنسب إليه فرقة «الغيلانية» من القدرية، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهني، قال الشهرستاني: كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة أنها تصلح في غير قریش، ناظره الأوزاعي فأفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بـ «دمشق».

انظر الملل والنحل: ٢٢٧/١، مفتاح السعادة: ٣٥/٢، الأعلام: ١٢٤/١.

(٣) ينظر الكشف: ٣٩/١.

متلبسين بالغيب عن المؤمن به، و «الغيب» حيثئذ مصدر على بابه.

فصل في معنى «يؤمنون بالغيب»

في قوله «يؤمنون بالغيب» قولان :

الأول : قول أبي مسلم الأصفهاني^(١) أن قوله : «يؤمنون بالغيب» صفة المؤمنين معناه : أنهم يؤمنون بالله حال الغيبة كما يؤمنون به حال الحضور، لا كالمناقين الذين «إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ» .

نظيره قوله : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَفَىٰ أَخْتَهُ بِالْعِيبِ﴾ [يوسف : ٥٢]، وذلك مدح للمؤمنين بأن ظاهرهم موافق لباطنهم ومباين لحال المناققين .

الثاني : وهو قول جمهور المفسرين أن الغيب هو الذي يكون غائباً عن الحاسة، ثم هذا الغيب ينقسم إلى ما عليه دليل، وإلى ما ليس عليه دليل .

فالمراد من هذه الآية مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذي دل عليه بأن يتفكروا، ويستدلوا فيؤمنوا به، وعلى هذا يدخل فيه العلم بالله - تعالى - وبصفاته والعلم بالآخرة، والعلم بالنبوة، والعلم بالأحكام بالشرائع، فإن في تحصيل هذه العلوم بالاستدلال مشقة يصلح أن يكون سبباً لاستحقاق الثناء العظيم .

واحتج أبو مسلم بأمور :

الأول : أن قوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة : ٣] إيمان بالأشياء الغائبة، فلو كان المراد من قوله : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» هو الإيمان بالأشياء الغائبة لكان المعطوف نفس المعطوف عليه، وهو غير جائز .

الثاني : لو حملناه على الإيمان بالغيب يلزم إطلاق القول بأن الإنسان يعلم الغيب، وهو خلاف قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام : ٥٩] وكذا سائر الآيات الباقية تدل على كون الإنسان عالماً بالغيب . أما على قولنا فلا يلزم هذا المحذور .

الثالث : لفظ «الغيب» إنما يجوز إطلاقه على من يجوز عليه الحضور، فعلى هذا لا يجوز إطلاق لفظ الغيب على ذات الله - تعالى - وصفاته، فقوله : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» لو كان المراد منه الإيمان بالغيب لما دخل فيه الإيمان بذات الله وصفاته، ولا ينبغي فيه الإيمان بالآخرة، وذلك غير جائز؛ لأن الركن الأعظم هو الإيمان بذات الله وصفاته، فكيف يجوز حمل اللفظ على معنى يقتضي خروج الأصل؟

(١) محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم : والده من أهل أصفهان . معتزلي من كبار الكتاب، كان عالماً بالتفسير، وبغيره من صنوف العلم، وله شعر، ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي، من كتبه «جامع التأويل» في التفسير، و «الناسخ والمنسوخ» وغيرهما . ولد سنة ٢٥٤هـ، وتوفي سنة ٣٢٢هـ . انظر إرشاد الأريب : ٤٢٠/٦، الأعلام : ٥٠/٦ .

أما على قولنا فلا يلزم هذا المحذور.

والجواب عن الأول: أن قوله: «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» يتناول الإيمان بالغائبات على الإجمال، ثم إن قوله بعد ذلك: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» يتناول الإيمان ببعض الغائبات، فكان هذا من باب عَطْفِ التَّفْصِيلِ عَلَى الْجُمْلَةِ، وهو جائز كقوله: ﴿وَمَلَكَيْتِهِ وَرُسُلِهِ وَحَبِيرٍ﴾ [البقرة: ٩٨].

وعن الثاني: لا نزاع في أننا نؤمن بالأشياء الغائبة عَنَّا، فكان ذلك التخصيص لازماً على الوجهين جميعاً.

فإن قيل: أفتقولون: العبد يعلم الغيب أم لا؟

قلنا: قد بينا أن الغيب ينقسم إلى ما عليه دليل، وإلى ما لا دليل عليه.

أما الذي لا دليل عليه، فهو سبحانه العالم به لا غيره.

وأما الذي عليه دليل فلا يمتنع أن نقول: نعلم من الغيب ما لنا عليه دليل، وعلى هذا الوجه قال العلماء: الاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الأدلة.

وعن الثالث: لا نسلم أن لفظ الغيبة لا يستعمل إلا فيما يجوز عليه الحُضُور، والدليل على ذلك أَنَّ المتكلمين يقولون هذا من باب إلحاق الغائب بالشاهد، ويريدون بالغائب ذات الله تعالى وصفاته، والله أعلم.

واختلفوا في المراد بـ «الغيب».

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «الغيب - هاهنا - كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك»^(١) مثل: الملائكة والبُعث والجنة والنار والصراف والميزان.

وقيل: الغيب هاهنا هو الله تعالى.

وقيل: القرآن^(٢).

وقال الحسن: الآخرة.

وقال زر بن حبیش^(٣)، وابن جريج: بالوحي^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/٢٣٦ - شاکر).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/٢٣٦ شاکر) عن زر بن حبیش وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/٧٣ - ٧٤).

(٣) زر بن حبیش بضم المهملة وفتح الموحدة وآخره معجمة ابن خباشة بمعجمتين بينهما موحدة بعدها ألف الأسدي أبو مريم الكوفي مخضرم، عن عمر وعثمان وعلي والعباس وعنه إبراهيم النخعي والمنهال بن عمرو، وعاصم بن بهدلة، وثقه ابن معين، قال خليفة: مات سنة اثنتين وثمانين. ينظر الخلاصة: ١/٣٥٨ (٢٣٠٤)، تهذيب الكمال: ١/٤٢٧، تهذيب التهذيب: ٣/٣٢٠، تقريب التهذيب: ١/٥٩.

(٤) سقط في أ.

ونظيره: ﴿أَعْنَدُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ [النجم: ٣٥] قال ابن كيسان: بالقدر.

وقال عبد الرحمن بن يزيد: كنا عند عبد الله بن مسعود، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ - وما سبقوا به، فقال عبد الله: إن أمر محمد كان بيناً^(١) لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان الكتب، ثم قرأ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ الْإِيمَانِ» إلى قوله «المفلحون».

وقال بعض الشيعة: المراد بالغيب المَهْدِي المنتظر.

قال ابن الخطيب: «وتخصيص المطلق من غير دليل باطل».

قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وورش^(٢): «يُؤْمِنُونَ»، بترك الهمزة.

ولذلك يترك أبو جعفر كل همزة ساكنة إلا في ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، و﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ [المائدة: ١٤]، و﴿نَبِّئْنَا﴾ [يوسف: ٣٦].

ويترك أبو عمرو كلها، إلا أن يكون علامة للجزم نحو: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ [الحجر: ٥١]، و﴿أَنْبِئْهُمْ﴾، و﴿سَنُؤْفِكُهُمُ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، و﴿إِنْ شَأْ﴾ [الشعراء: ٤] ونحوها، أو يكون خروجاً من لغة إلى أخرى نحو: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ [البلد: ٢٠]، و﴿وَرِيَاءَ﴾ [مريم: ٧٤].

ويترك ورش كل همزة ساكنة كانت «فاء» الفعل، إلا ﴿وَتَوَفَّى﴾ [الأحزاب: ٥١] و﴿تَوَفَّى﴾ [المعارج: ١٣]، ولا يترك من عين الفعل إلا ﴿الرَّيَاءَ﴾ [الإسراء: ٦٠] وبابه، أو ما كان على وزن «فعل».

و «يقيمون» عطف على «يؤمنون» فهو صلة وعائد.

وأصله: يؤقومون حذفتم همزة «أفعل»؛ لوقوعها بعد حرف المضارعة كما تقدم فصار: يقومون، فاستثقلت الكسرة على الواو، ففعل فيه ما فعل في «مستقيم»، وقد تقدم في الفاتحة. ومعنى «يقيمون»: يديمون، أو يظهرون، قال تعالى: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] وقال الشاعر: [الوافر]

١٢٠ - أَقْمَنَا لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الطِّ - طِعْمَانٍ فَخَامُوا وَلَوْ جَمِيعاً^(٣)

وقال آخر: [الكامل]

(١) في أ: نبياً.

(٢) ورويت هذه القراءة عن عاصم من طريق الشموني محمد بن حبيب، عن الأعمش، عن أبي بكر، وكذلك رويت عن حمزة في الوقف والصلاة. وهي قراءة ورش عن نافع.

انظر الحجة ٢١٤/١، وما بعدها، وحجة القراءات ٨٤، وإعراب القراءات ٥٦/١ وإتحاف فضلاء البشر ٣٧٤/١.

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ٨٥/١، الطبري: ١٣٦/١، الدر: ٩٦/١/١.

١٢١ - وَإِذَا يُقَالُ: أَتَيْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا حَتَّى تُقِيمَ الْحَيْلُ سُوقَ طِعَانٍ^(١)

من قامت السوق: إذا أنفقت؛ لأنها إذا حوِظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات، وإذا أضيفت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه. أو يكون عبارة عن تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع خلل في فرائضها وسُننها، أو يكون من قام بالأمر، وقامت الحرب على ساق.

وفي ضده: قعد عن الأمر، وتقاعد عنه: إذا تقاعس وتثبط، فعلى هذا يكون عبارة عن التجرد لأدائها، وألا يكون في تأديتها فتور، أو يكون عبارة عن أدائها، وإنما عبر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام ببعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت. وذكر الصلاة بلفظ الواحد، وأن المراد بها الخمس كقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ الْبَنِيَّةَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] يعني: الكتب.

و «الصلاة» مفعول به، ووزنها: «فَعَلَةٌ»، ولامها واو، لقولهم: صَلَّوات، وإنما تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفاً، واشتقاقها من: «الصلَّوين» وهما عِرْقَان في الْوَرَكَيْنِ مفترقان من «الصلَّاء»، وهو عِرْق مُسْتَبْطِنٌ في الظهر منه يتفرق الصَّلَّوان عند عَجَبِ الذَّنْبِ، وذلك أن المصلِّي يحرك صَلَّوِيَّه، ومنه «المُصَلِّي» في حَلَبَةِ السَّبَّاق لمجيئه ثانياً عند «صَلَّوِي» السابق. ذكره الزَّمخشرى.

قال ابن الخطيب: وهذا يفضي إلى طعن عظيم في كون القرآن حُجَّة؛ وذلك لأن لفظ «الصلاة» من أشد الألفاظ شهرة، وأكثرها دوراناً على السنة المسلمين، واشتقاقه من تحريك الصَّلَّوين من أبعد الأشياء اشتهاً فيما بين أهل النقل، ولو جوزنا أن [يقال]^(٢): مسمى الصلاة في الأصل ما ذكره، ثم إنه خفي واندرس حتى صار بحيث لا يعرفه إلاَّ الأحاد لكان مثله في سائر الألفاظ جائزاً، ولو جوزنا ذلك لما قطعنا بأن مراد الله - تعالى - من هذه الألفاظ ما تتبادر أفهامنا إليه من المعاني في زماننا هذا، لاحتمال أنها كانت في زمن الرسول موضوعة لمعانٍ آخر، وكان مراد الله - تعالى - تلك المعاني، إلاَّ أن تلك المعاني خفيت في زماننا، واندرست كما وقع مثله في هذه اللَّفْظَة، فلما كان ذلك باطلاً بإجماع المسلمين علمنا أن الاشتقاق الذي ذكره مردود باطل.

وأجيب عن هذا الإشكال بأن بعثة محمد - عليه الصلاة والسلام - بالإسلام، وتجديد الشريعة أمر طبق الآفاق، ولا شك أنه وضع عبارات، فاحتاج إلى وضع ألفاظ، ونقل ألفاظ عما كانت عليه، والتعبير مشهور.

وأما ما ذكره من احتمال التعبير فلا دليل عليه، ولا ضرورة إلى تقديره فافترقا.

(١) ينظر المحرر الوجيز: ٨٥/١، القرطبي: (١١٥/١)، الدر: (٩٦/١).

(٢) سقط في أ.

و «الصَّلَاة» لغة: الدَّعاء: [ومنه قول الشاعر] [البسيط]

١٢٢ - تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرِئْتُ مُزْتَحَلًا يَا رَبِّ جَنَّبَ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا
فَعَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتُ فَاعْتَمِضِي يَوْمًا فَإِنَّ لَجَنِبَ الْمَرْءِ مُضْطَجَعًا^(١)

أي: مثل الذي دعوت، ومثله: [الطويل]

١٢٣ - لَهَا حَارِسٌ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْنَهَا وَإِنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمَزَمًا^(٢)
وفي الشرع: هذه العبادة المعروفة.

وقيل: هي مأخوذة من اللزوم، ومنه: «صَلَّى بِالنَّارِ» أي: لزمها، ومنه قوله تعالى:
﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤] قال: [الخفيف]

١٢٤ - لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّهُ لِي وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالٍ^(٣)
وقيل: من صَلَّيْتُ العودَ بالنَّارِ، أي: قَوَّمْتُهُ بالصَّلَاءِ - وهو حَرَّ النَّارِ، إِذَا فَتَحْتَ
قَصْرَتَ، وَإِنْ كَسَرْتَ مَدَدْتَ، كَانَ الْمُصَلِّي يَقُومُ نَفْسَهُ؛ قال: [الوافر]

١٢٥ - فَلَا تَعْجَلْ بِأَمْرِكَ وَاسْتَدِمَّهُ فَمَا صَلَّى عَصَاكَ كَمُسْتَدِيمٍ^(٤)
ذكر ذلك الْخَارَزْنَجِيُّ^(٥)، وجماعة أجلة، وهو مشكل، فإن «الصلاة» من ذوات
الواو، وهذا من الياء. وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلَكُمُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾
[الأحزاب: ٥٦] الآية: إِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ اللَّهِ الرَّحْمَةِ، وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ الْاسْتِغْفَارِ، وَمِنْ
الْمُؤْمِنِينَ الدَّعَاءِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مما: جاء وَمَجْرُورٌ متعلقٌ بـ «ينفقون» و «ينفقون» معطوف على
الصَّلَاةِ قبله، و «ما» المجرورة تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أَنْ تَكُونَ اسْمًا بِمَعْنَى «الذي»، و «رزقناهم» صَلَّيْتُهَا، والعائد محذوف.

قال أَبُو الْبَقَاءِ: «تقديره رزقناهموه، أو رزقناهم إياه».

(١) البيتان للأعشى. ينظر ديوانه: ١٠٤، مجاز القرآن: ٦٢/١، اللسان (صلا) البحر المحيط: ١٦٢/١، المحرر الوجيز: ٨٥/١، القرطبي: ١١٨/١، الدر: ٩٧/١.

(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه: (١٦٤)، المحرر الوجيز: (٨٥/١)، الطبري: (١٣٧/١)، البحر: (١/١٦٢)، ابن كثير: (٤٣/١)، الدر: (٩٧/١).

(٣) البيت للحارث بن عباد. ينظر الخزانة: ٢٢٦/١، مجمع البيان: ٢١٤/١، القرطبي: ١١٨/١، الدر: ٩٧/١.

(٤) البيت لقيس بن زهير. ينظر اللسان (دوم)، الدر: (٩٧/١).

(٥) أحمد بن محمد الخارزنجي البشتي أبو حامد: أديب خراسان في عصره من كتبه تكملة كتاب العين، وشرح أبيات أدب الكتائب نسبتبه إلى بشت من نواحي نيسابور ومثلها خارزنج بسكون الراء وفتح الزاي. ينظر الأعلام: ٢٠٨/١ (١٠٩٩)، إنباه الرواة: ١٠٧/١، بغية الوعاة: ١٦٩.

وعلى كل واحد من هذين التقديرين إشكال؛ لأن تقديره متصلاً يلزم منه اتصال الضمير مع اتحاد الرتبة، وهو واجب الانفصال، وتقديره منفصلاً يمنع حذفه؛ لأن العائد متى كان منفصلاً امتنع حذفه، نصوا عليه، وعللوا بأنه لم يفصل إلا لغرض، وإذا حذف فانت الدلالة على ذلك الغرض.

ويمكن أن يجاب عن الأول بأنه لما اختلف الضميران جمعاً وإفراداً - وإن اتحدا رتبة - جاز اتصاله؛ ويكون كقوله: [الطويل]

١٢٦ - فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي تَطِيبُ لِضَغْمَةٍ لِضَغْمِهِمَا هَا يَقْرِعُ الْعَظَمَ نَابِهَا^(١)
وأيضاً فإنه لا يلزم من منع ذلك ملفوظاً به منعه مقدراً لزوال القبح اللفظي.
وعن الثاني: بأنه إنما يمنع لأجل اللبس الحاصل، ولا لبس هنا.

الثاني: يجوز أن تكون نكرة موصوفة، والكلام في عائدها كالكلام في عائدها موصولة تقديرأ واعتراضاً وجواباً.

الثالث: أن تكون مصدرية، ويكون المصدر واقعاً موقع المفعول أي: مرزوقاً.

وقد منع أبو البقاء هذا الوجه قال: «لأن الفعل لا يتفق»، وجوابه ما تقدم من أن المصدر يراد به المفعول. والرزق لغة: العطاء، وهو مصدر؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِثْرًا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٧٥] وقال الشاعر: [البيط]

١٢٧ - رُزِقْتَ مَالًا وَلَمْ تُرْزَقْ مَنَافِعَهُ إِنَّ الشَّقِيَّ هُوَ الْمَحْرُومُ مَا رُزِقَا^(٢)
وقيل: يجوز أن يكون «فِعْلًا» بمعنى «مفعول» نحو: «ذبح»، و «رِغِي» بمعنى: «مذبوح»، و «مَرْعِي».

وقيل: «الرَّزَقُ» - بالفتح - مصدر، وبالكسر اسم، وهو في لغة أزد شنوءة: الشكر، ومنه: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وقال بعضهم: ويدخل فيه كل ما ينتفع به حتى الولد والعبد.

وقيل: هو نصيب الرجل، وما هو خاص له دون غيره.

ثم قال بعضهم: الرزق كل شيء يؤكل أو يستعمل، وهو باطل؛ لأن الله - تعالى - أمرنا بأن ننفق مما رزقنا فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا﴾ [المنافقون: ١٠]، فلو كان الرزق هو الذي يؤكل لما أمكن إنفاقه.

(١) البيت لمغلس بن لقيط ينظر خزانة الأدب: ٣٠١/٥، ٣٠٣، ٣٠٥، وتخليص الشواهد: ص ٩٤، وشرح شواهد الإيضاح: ص ٧٥، والمقاصد النحوية: ٣٣٣/١، وأمالى ابن الحاجب: ص ٣٨١، والكتاب: ٣٦٥/٢، ولسان العرب (ضغم)، شرح المفصل: ١٠٥/٣، القرطبي: ١٥٩/١، الدر المصون: ٩٧/١.

(٢) ينظر البيت في البحر: ١٦٣/١، الدر: ٩٨/١.

وقال آخرون: الرزق هو ما يملك وهو باطل أيضاً؛ لأن الإنسان قد يقول: اللهم ارزقني ولداً صالحاً، أو زوجةً صالحةً، وهو لا يملك الولد ولا الزوجة، ويقول: اللهم ارزقني عقلاً أعيش به، والعقل ليس بمملوك، وأيضاً البهيمة يحصل لها رزقٌ ولا يكون لها ملك. وأما في عُرف الشرع فقد اختلفوا فيه، فقال أبو الحسن البصري: الرزق تمكين الحيوان من الانتفاع بالشيء، والحظر على غيره أن يمنعه من الانتفاع به.

فإذا قلنا: قد رزقنا الله الأموال، فمعنى ذلك أنه مكَّننا بها من الانتفاع بها، وإذا سألنا - تعالى - أن يرزقنا مالاً فإننا نقصد بذلك أن يجعلنا بالمال أخص.

واعلم أن المعتزلة لما فسَّروا الرزق بذلك لا جَرَمَ قالوا: الحرام لا يكون رزقاً. وقال أصحابنا: الحرام قد يكون رزقاً.

قال ابن الخطيب^(١): حُجَّةُ الأصحاب من وجهين:

الأول: أن الرزق في أصل اللغة هو الحظ والنصيب على ما بيناه، فمن انتفع بالحرام، فذلك الحرام صار حظاً ونصيباً، فوجب أن يكون رزقاً له.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقد يعيش الرجل طول عمره لا يأكل إلا من السرقة، فوجب أن يقال: إنه طول عمره لم يأكل من رزقه شيئاً.

أما المعتزلة: فقد احتجُّوا بالكتاب، والسُّنة، والمعنى:

أما الكتاب فوجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] مدحهم على الإنفاق مما رزقهم الله تعالى فلو كان الحرام رزقاً لوجب أن يستحقوا المدح إذا أنفقوا من الحرام، وذلك باطل بالاتفاق.

ثانياً: لو كان الحرام رزقاً لجاز أن ينفق الغاصب منه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا﴾ [المنافقون: ١٠]، وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز للغاصب أن ينفق [مما أخذه]^(٢)، بل يجب عليه ردّه، فدلَّ على أنَّ الحرام لا يكون رزقاً.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَّا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩] فبين أن من حرم رزق الله، فهو مُفْتَرٍ على الله، فثبت أن الحرام لا يكون رزقاً.

وأما السُّنة فما رواه أبو الحسين في كتاب «الفرائض» بإسناده عن صفوان بن أمية^(٣)

(١) ينظر الفخر الرازي: ٢٨/٢. (٢) سقط في أ.

(٣) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجُمحي القرشي أبو وهب من مسلمة الفتح. وكان من المؤلفة قلوبهم، روى عنه ابنه أمية وطاوس وعطاء وأعار النبي ﷺ يوم حنين سلاحاً كثيراً. قال الهيثم: =

قال: «كنا عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه عمرو بن مُرَّة^(١) فقال له: يا رسول الله إن الله كتب عليَّ الشَّقْوَ، فلا أراني أَرْزُقُ إلَّا من دُفِّي بِكُمِّي، فائذن لي في الغناء من غير فَاحِشَةٍ. فقال عليه الصَّلَاة والسلام: «لا آذَنُ لَكَ ولا كَرَاهَةَ ولا نَعْمَةً كَذَبْتَ أي عَدُوَّ الله لقد رَزَقَكَ الله [رزقاً]^(٢) طيباً فاخترت ما حَرَّمَ الله عليك من رِزْقِهِ على ما أَحَلَّ الله لك من حَلَالِهِ، أما وإنك لو قُلْتَ بعد هَذِهِ المَقْدَمَةِ شيئاً ضَرَبْتُكَ ضرباً وجيعاً»^(٣).

وأما المعنى فإنَّ الله - تَعَالَى - منع المكلَّف من الانتفاع به، وأمر غيره بمنعه من الانتفاع به، ومن منع من أخذ الشيء والانتفاع به لا يقال: إنه رزقه إياه، ألا ترى أنه لا يقال: إن السلطان قد رزق جنده مالاً قد منعهم من أخذه، وإنما يقال: إنه رزقهم ما مكَّنهم من أخذه، ولا يمنعهم منه، ولا أمر بمنعهم منه.

وأجاب أصحابنا عن التمسُّك بالآيات بأنه وإن كان الكلُّ من الله، فإنه لا يُضَاف إليه ذلك؛ لما فيه من سوء الأدب، كما يقال: يا خالق المحدثات والعرش والكرسي، ولا يقال: يا خالق الكِلَاب والخَنَازير، وقال: ﴿يَتَرَبَّهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] فخصَّ اسم العباد بالمتقين، وإن كان الكُفَّار أيضاً من العباد، وكذلك هاهنا خصَّ اسم الرزق بالحلال على سبيل التشريف، وإن كان الحرام رزقاً أيضاً.

وأجابوا عن التمسُّك بالخبر بأنه حُجَّة لنا؛ لأن قوله عليه الصَّلَاة والسلام: «فَاخْتَرْتُ ما حَرَّمَ اللَّهُ عليك من رِزْقِهِ» صريح في أن الرزق قد يكون حراماً.

وأجابوا عن المعنى بأن هذه المسألة مَحْضُ اللغة، وهو أن الحرام هل يسمى رزقاً أم لا؟ ولا مجال للدلائل العقلية في الألفاظ، والله أعلم.

و «نفق» الشيء: نفد، وكلَّ ما جاء مما فاؤه نون، وعينه فاء، فدالَّ على معنى ونحو ذلك إذا تأملت، قاله الزمخشري، وذلك نحو: نَفَذَ نَفَقَ نَفَرٌ «نفذ» «نَفَسَ» «نَفَحَ» «نفخ» «نفص» «نفل».

= مات سنة إحدى وأربعين ينظر الخلاصة: ٤٦٩/١، طبقات ابن سعد ٤٤٩/٥، تاريخ البخاري الكبير: ت (٢٩٢٠)، والكاشف: ت (٢٤١٦).

(١) عمرو بن مُرَّة الجُهني، أبو طلحة أو أبو مريم، صحابي له حديث روى عنه أبو الحسن الجزري. مات في خلافة عبد الملك. ينظر الخلاصة: ٢٩٦/٢ (٥٣٨٣). أسد الغابة: ٢٦٩/٤ - ٢٧٠، وتهذيب التهذيب: ١٠٣/٨ - ١٠٤.

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٨٧٢/٢) رقم (٢٦١٣) عن صفوان بن أمية.

قال البوصيري في «الزوائد» (٣٢٩/٢): هذا إسناد ضعيف بشر بن نمير البصري قال فيه يحيى بن سعيد القطان: كان ركناً من أركان الكذب وقال أحمد: ترك الناس حديثه وقال البخاري: ترك الناس حديثه وقال أبو حاتم: متروك وقال النسائي: غير ثقة. ويحيى بن العلاء قال فيه أحمد: كان يضع الحديث وقال ابن عدي: أحاديثه لا يتابع عليها وكلها غير محفوظة.

و «نفق» الشيء بالبيع نَفَقًا وَنَفَقَتِ الدابة: ماتت نُفُوقًا، والنفقة: اسم المُتَنَقِّق.

فصل في معاني «من»

و «من» هنا لا ابتداء الغاية.

وقيل: للتبويض، ولها معانٍ أخرى:

بيان الجنس: ﴿فَأَخْتَبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

والتعليل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ مِنَ الصَّوْعَةِ﴾ [البقرة: ١٩].

والبذل: ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

والمُجَاوِزَة: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وانتهاء الغاية: «قربت منه».

والاستعلاء: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

والفصل: ﴿يَعْلَمُ الْمُسْتَسِدَّ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وموافقة «الباء» ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

والزيادة باطراد، وذلك بشرطين كون المجرور نكرة والكلام غير موجب. واشترط الكوفيون التنكير فقط، ولم يشترط الأخفش شيئاً. و «الهمزة» في «أنفق» للتعدية، وحذفت من «ينفقون» لما تقدم في «يؤمنون».

فصل في قوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون»

قال ابن الخطيب: في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فوائد:

إحداها: أدخل «من» للتبويض نهياً لهم عن الإسراف والتبذير المنهي عنه.

وثانيها: قدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، كأنه قال: يخصصون بعض المال بالتصدق به.

وثالثها: يدخل في الإنفاق المذكور في الآية، الإنفاق الواجب، والإنفاق المندوب، والإنفاق الواجب أقسام:

أحدها: الزكاة وهي قوله تعالى: ﴿يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤].

وثانيها: الإنفاق على النفس، وعلى من تجب عليه نفقته.

وثالثها: الإنفاق في الجهاد. وأما الإنفاق المندوب فهو أيضاً إنفاق لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، وأراد به الصدقة؛ لقوله بعد: ﴿فَأَصَّدَقَ

وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿[المنافقون: ١٠] فكل هذه داخلة تحت الآية، لأن كل ذلك سبب لاستحقاق المدح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

«والَّذِينَ» عطف على «الذين» قبلها، ثم لك اعتباران:

أحدهما: أن يكون من باب عطف بعض الصفات على بعض كقوله: [المتقارب]

١٢٨ - إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ^(١)
وقوله: [السريع]

١٢٩ - يَا وَيْحَ زَيْبَةَ لِلْحَارِثِ الضَّ صَاحِبِ فَالْعَانِمِ فَالْإِيْبِ^(٢)
يعني: أنهم جامعون بين هذه الأوصاف إن قيل: إن المراد بها واحد.
الثاني: أن يكونوا غيرهم.

وعلى كلا القولين، فيحكم على موضعه بما حكم على موضع «الَّذِينَ» المتقدمة من الإعراب رفعا ونصباً وجزأ قطعاً وإتباعاً كما مر تفصيله.

ويجوز أن يكون عطفاً على «المتقين»، وأن يكون مبتدأ خبره «أولئك»، وما بعدها إن قيل: إنهم غير «الذين» الأولى. و «يؤمنون» صلة وعائد.

و«بما أنزل» متعلق به و«ما» موصولة اسمية، و«أنزل» صلتها، وهو فعل مبني للمفعول، لعائد هو الضمير القائم مقام الفاعل، ويضعف أن يكون نكرة موصوفة وقد منع أبو البقاء^(٣) ذلك قال: لأن النكرة الموصوفة لا عموم فيها، ولا يكمل الإيمان إلا بجميع ما أنزل.

(١) ينظر الإنصاف: (٢٧٦)، الخزانة: (٤٥١/١)، الكشف: (٤١/١)، القطر: (٢٩٥)، وقطر الندى: (٤١٧)، القرطبي: (١، ٢٧٢)، البحر: (٢١٣/٥)، الدر: (٩٨/١).

واستشهد به على جواز عطف أحد الخبرين على الآخر بالواو، مع اتصاف مجموع المبتدأ بكل واحد من الخبرين؛ تقول: زيد كريم شجاع، وزيد كريم وشجاع؛ كما يعطف بعض الأوصاف على بعض؛ كما في الشاهد؛ حيث عطف ابن الهمام «وليث الكتبية» على الصفة الأولى وهي «القرم».

وكذا ما هو بمنزلة؛ في رجوع الضمير من كل واحد من الخبرين إلى مجموع المبتدأ، نحو: هذا أبيض وأسود وهذا حلو حامض، وأما إذا لم يرجع ضمير كل واحد إلى مجموع المبتدأ، نحو: هما عالم وجاهل، فلا بد من الواو؛ لأن المبتدأ مفكوك تقديراً، أي: أحدهما عالم والآخر جاهل.

(٢) البيت لامرئ القيس. ينظر الحماسة: (٩٢/١)، الخزانة: (٣٣١/٢)، وأمالى الشجري: (٢/٢١٠)، الهمع: (١١٩/٢)، الدرر: (١٥٠/٢)، المغني: (١٦٣/١)، الخزانة: (١٠٧/٥)، الكشف: (١/١٣٣)، الدر: (٩٩/١)، سمط اللآلي: ٥٠٤، معجم الشعراء: ٢٠٨، الجنى الداني: ٦٥.

(٣) ينظر الإملاء: ١٣/١.

و«إليك» متعلق بـ «أنزل»، ومعنى «إلى» انتهاء الغاية، ولها معانٍ أخرى:
 المُصاحبة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢].
 والتبيين: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣].
 وموافقة اللام و«في» و«من»: ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا﴾ [النمل: ٣٣] أي: لك.
 وقال النابغة: [الطويل]

١٣٠ - فَلَا تَشْرِكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي إِلَى النَّاسِ مَطْلِي بِهِ الْقَارُ أَجْرَبُ^(١)
 وقال الآخر: [الطويل]

١٣١ - أَيْسَقِي فَلَا يُزَوِّي إِلَيَّ ابْنُ أَحْمَرَ^(٢)

أي: لا يروى مني، وقد تراد؛ قرىء: «تَهَوَّى إِلَيْهِمْ» [إبراهيم: ٣٧] بفتح الواو.
 و«الكاف» في محل جر، وهي ضمير المُخاطَب، ويتصل بها ما يدل على التثنية والجمع تذكيراً وتأنيثاً كـ «تاء» المُخاطَب.
 ويترك أبو جعفر، وابن كثير، وقالون^(٣)، وأبو عمرو، ويعقوب كل مدة تقع بين كلمتين، والآخرين يمدونها.
 و«النزول» الوصول والحلول من غير اشتراط علو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ [الصافات: ١٧٧] أي حلّ ووصل.
 قال ابن الخطيب: والمراد من إنزال الوحي^(٤)، وكون القرآن منزلاً، ومنزولاً به -

(١) ينظر ديوانه: (٢٨)، الخزانة: ١٣٧/٤، أمالي ابن الشجري: ٢٦٨/٢، الهمع: ٢٠/٢، الدرر: ٢/١٣، الدرر: ٩٩/١، وأدب الكتاب: ص ٥٠٦، وخزانة الأدب: ٤٦٥/٩، والجنى الداني: ص ٣٨٧، وشرح شواهد المغني: ص ٢٢٣، جمهرة اللغة: ص ٧٩٨، ووصف المباني: ص ٨٣، وجواهر الأدب: ص ٣٤٣ وشرح الأشموني: ٢٨٩/٢، ومغني اللبيب: ص ٧٥.
 (٢) عجز بيت لعمرو بن أحمر الباهلي وصدره:

تقول وقد عالبت بالكور فوقها

ينظر المغني: ٧٩، والأشموني: ٢١٤/٢، والدرر: ١٣/٢، والهمع: ٢٠/٢، والجنى الداني: ٣٨٨، والدرر المصون: ١٠٠/١.

(٣) عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني مولى الأنصار أبو موسى أحد القراء المشهورين من أهل المدينة مولداً ووفاء، انتهت إليه الرياسة في علوم العربية والقراءة في زمانه بالحجاز، وكان أصم يقرأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفطي القارئ فيرد عليه اللحن والخطأ، و«قالون» لقب دعاه به نافع القارئ لجودة قراءته، ومعناه بلغة الروم جيد.

ينظر الأعلام: ١١٠/٥ (٨٤٤)، النجوم الزاهرة: ٢٣٥/٢، غاية النهاية: ٦١٥/١.

(٤) قال في «الأساس»: «أوحى إليه: وأومى إليه بمعنى، ووحيت إليه؛ وإذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه؛ وأوحى ربك إلى النحل».

أن جبريل سمع في السماء كلام الله - تعالى - فنزل على الرسول به، كما يقال: نزلت

= وفي القاموس المحيط: «الوحي: الإشارة والكتابة؛ والمكتوب والرسالة؛ والإلهام والكلام الخفي؛ وكل ما ألقته لغيرك».

وقال الراغب: «أصل الوحي: الإشارة السريعة؛ ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، يعني: سريع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض؛ وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب؛ وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله - تعالى - عن زكريا - عليه السلام -: «فخرج على قومه من المحراب؛ فأوحى إليهم: أن سبّحوا بكرة وعشيّاً» أي: أشار إليهم ولم يتكلم.

ومنه: الإلهام الغريزي؛ كالوحي إلى النحل، قال تعالى: «وأوحى ربك إلى النحل»؛ وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روح الإنسان السليم الفطرة، الطاهر الروح؛ كالوحي إلى «أم موسى»؛ ومنه ضده؛ وهو وسوسة الشيطان، قال - تعالى -: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم»، وقال: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

فالخلاصة في معنى الوحي اللغوي: أنه الإعلام الخفي السريع؛ وهو أعم من أن يكون بإشارة أو كتابة أو رسالة؛ أو إلهام غريزي؛ أو غير غريزي، وهو بهذا المعنى لا يختص بالأنبياء؛ ولا بكونه من عند الله سبحانه.

وأما في الشرع: فيطلق ويراد به: المعنى المصدري، ويطلق ويراد به: المعنى الحاصل بالمصدر، ويطلق ويراد به: الموحى به.

ويعرف من الجهة الأولى: بأنه «إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم، من شرع أو كتاب، بواسطة أو غير واسطة» فهو أخص من المعنى اللغوي؛ لخصوص مصدره ومورده؛ فقد خص المصدر بالله سبحانه؛ وخص المورد بالأنبياء.

ويعرف من الجهة الثانية: بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله؛ سواء أكان الوحي بواسطة أم بغير واسطة.

ويعرف من الجهة الثالثة: بأنه ما أنزله الله على أنبيائه؛ وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع، والحكم، ومنهم من أعطاه كتاباً، ومنهم من لم يُعْطه».

ينقسم الوحي باعتبار معناه المصدري إلى ما يأتي:

١ - تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب؛ إما في اليقظة: وذلك مثل ما حدث لموسى عليه السلام؛ قال تعالى: «وكلم الله موسى تكليماً»؛ ومثل ما حدث لنبينا «محمد» - صلوات الله وسلامه عليه - ليلة الإسراء والمعراج.

ولأهل السنة قولان في الكلام المسموع: فقول: هو الكلام النفسي القديم المجرد عن الحروف والأصوات، وقيل: هو كلام لفظي يخلقه الله، بحيث يعلم سامعه أنه موجه إليه من قبل الله، والقائلون بهذا لا ينكرون صفة «الكلام».

أما الثاني فواضح، وأما الأول فلا استحالة فيه؛ لأن الثابت أن النبي قد خُصَّ بمزايا وخصائص لم توجد في غيره من أفراد نوعه، وأن نفسه بأصل فطرتها - مستعدة لما لم تستعد له نفوس غيره، فلا مانع إذاً أن يسمع الكلام النفسي بطريقة غير مألوفة، ولا معروفة لنا، ويكون ذلك من خوارق النواميس العادية المعروفة لنا.

وأما في المنام: كما في حديث «معاذ» مرفوعاً: «أتاني ربي، فقال: فيم يختصم الملائكة؟...» الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في سننه وقال: حسن صحيح.

٢ - الإلهام أوالقذف في القلب: بأن يلقي الله، أو الملك الموكل بالوحي في قلب نبيه ما يريد، مع =

رسالة الأمير من القصر، والرسالة لا تنزل ولكن المستمع يسمع الرسالة من علو، فينزل ويؤدي في سفلى، وقول الأمير لا يُفارق ذاته، ولكن السامع يسمع فينزل، ويؤدي بلفظ نفسه، ويقال: فلان ينقل الكلام إذا سمع وحدث به في موضع آخر.

فإن قيل: كيف سمع جبريل كلام الله تعالى؛ وكلامه ليس من الحروف والأصوات عندكم؟

قلنا: يحتمل أن يخلق الله - تعالى - له سمعاً لكلامه، ثم أقدره على عبارة يعبر بها عن ذلك الكلام القديم، ويجوز أن يكون الله - تعالى - خلق في اللوح المحفوظ كتابة بهذا النظم المخصوص، فقرأه جبريل - عليه السلام - فحفظه، ويجوز أن يخلق الله

= تيقنه: أن ما ألقى إليه من قبل الله تعالى؛ وذلك مثل ما ورد في حديث: «إن روح القدس نفث في روعي: لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه الحاكم وصححه، عن ابن مسعود.

٣ - الرؤيا في المنام: ورؤيا الأنبياء وحي؛ وذلك مثل رؤية إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - أن يذبح ابنه، ورؤية نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - في منامه: أنهم سيدخلون البلد الحرام وقد كان. وفي الحديث الصحيح، الذي رواه «البخاري»: «أول ما بدىء به رسول الله - ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...».

٤ - تعليم الله أنبياءه بوساطة ملك، والمختص بذلك من ملائكة الله هو أمين الوحي «جبريل» عليه السلام، وهذا القسم يعرف بـ «الوحي الجلي».

وقد بين الله - سبحانه - هذه الأقسام بقوله: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي - بإذنه - ما يشاء إنه عليّ حكيم»؛ إذ المراد بالوحي في الآية: الإلهام أو المنام؛ لمقابلته للقسامين الآخرين: التكليم من وراء حجاب أو بواسطة رسول. والوحي الذي بواسطة جبريل... له حالات ثلاث:

أ - أن يأتي جبريل في صورته التي خلقه الله عليها، وهذه الحالة نادرة وقليلة، وقد ورد عن السيدة «عائشة»: «أن النبي لم ير «جبريل» على هذه الحالة إلا مرتين: مرة في الأرض، وهو نازل من غار «حراء»، ومرة أخرى في السماء، عند «سدره المنتهى» ليلة المعراج» رواه أحمد.

ب - أن يأتي جبريل في صورة رجل كدحية الكلبي، أو أعرابي مثلاً، ويراه الحاضرون ويسمعون من قوله، ولا يعرفون هويته، ولكن النبي يعلم علم اليقين أنه جبريل؛ وذلك كما في حديث جبريل الطويل في الصحيحين، وحديث أم سلمة، ورؤيتها رجلاً على صورة دحية الكلبي، فظنته هو، حتى بين النبي لها أنه جبريل.

ج - أن يأتي على صورته الملكية، وفي هذه الحالة لا يرى، ولكن يصحب مجيئه صوت كصلصلة الجرس، أو دوي كدوي النحل؛ وقد دل على هاتين الحالتين حديث سؤال «الحارث بن هشام» النبي ﷺ: عن كيفية مجيء الوحي إليه؟ وهو في صحيح البخاري كما تقدم.

والوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يقيني ضروري من الموحى إليه؛ بأن ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا نزعات الشيطان، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية، كالجوع، والعطش، والحب، والبغض.

ينظر المدخل في علوم القرآن: ص ٨٣ - ٨٧.

أصواتاً مقطّعة بهذا النظم المخصوص في جسم مخصوص، فيتلقّفه جبريل - عليه السلام - ويخلق له علماً ضرورياً بأنه هو العبارة المؤدّية لمعنى ذلك الكلام القديم.

فصل في معنى فلان آمن بكذا

قال ابن الخطيب^(١): لا نزاع بين أصحابنا وبين المعتزلة في أن الإيمان إذا عُدّي بـ «الباء»، فالمراد منه التصديق.

فإذا قلنا: فلان آمن بكذا، فالمراد أنه صدق به، فلا يكون المراد منه أنه صام وصلى، فالمراد بالإيمان - هاهنا - التصديق، لكن لا بُدّ معه من المعرفة؛ لأن الإيمان - ها هنا - خرج مخرج المدح، والمصدق مع الشك لا يأمن أن يكون كاذباً، فهو إلى الذم أقرب.

و «ما» الثانية وصِلَتْهَا عطف على «ما» الأولى قبلها، والكلام عليها وعلى صِلَتْهَا كالكلام على «ما» التي قبلها، فتأمل.

واعلم أن قوله: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» عام يتناول كل من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام، سواء كان قبل ذلك مؤمناً بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، أو لم يكن مؤمناً بهما، ثم ذكر بعد ذلك هذه الآية وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٣] يعني: التوراة والإنجيل؛ لأن في هذا التخصيص مزيد تشريف لهم كما في قوله: ﴿وَمَلَكُمُكِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ثم في تخصيص عبد الله بن سلام^(٢)، وأمثاله بهذا التشريف ترغيب لأمثاله في الدين، فهذا هو السبب في ذكر هذا الخاص بعد ذكر العام.

و «من قبلك» متعلّق بـ «أنزل»، و «من» لابتداء الغاية، و «قبل» ظرف زمان يقتضي التقدم، وهو نقيض «بعد»، وكلاهما متى نُكّر، أو أُضيف أعرب، ومتى قطع عن الإضافة لفظاً، وأريدت معنى بني على الضم، فمن الإعراب قوله: [الوافر]

١٣٢ - فَسَاعَ لِي الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلًا أَكَاذُ أَغْصُ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ^(٣)

(١) ينظر الرازي: ٣٠/٢.

(٢) عبد الله بن سلام مخفف ابن الحارث الإسرائيلي اليوسفي أبو يوسف حليف القواقل الخزرجي. أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد فتح بيت المقدس مع عمر وروى خمسة وعشرين حديثاً اتفقا على حديث وانفرد بآخر شهد له النبي ﷺ بالجنة ونزل فيه (وشهد شاهد من بني إسرائيل) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وعنه ابنه يوسف وأبو هريرة وأنس. اتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وأربعين بالمدينة. رضي الله عنه.

ينظر الخلاصة: ٦٤/٢ (٣٥٥٧)، تهذيب الكمال: ٦٤/٢، تهذيب التهذيب: ٢٣٩/٥ (٤٣٧)، تقريب التهذيب: ٤٢٢/١ (٣٧٠).

(٣) هو لعبد الله بن يعرب بن معاوية ونسبه أبو عبيدة ليزيد بن الصعق.

وقال الآخر : [الطويل]

١٣٣ - وَتَحْنُ قَتَلْنَا الْأَسَدَ أَسَدَ خَفِيَّةٍ فَمَا شَرَبُوا بَعْدَ عَلَى لَذَّةِ خَمْرٍ^(١)
ومن البناء قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم : ٤] وزعم بعضهم أن
«قبل» في الأصل وصف نَابٍ عن موصوفه لزوماً.

فإذا قلت : «قمت قبل زيد» فالتقدير : قمت [زماناً قبل زمان قيام زيد، فحذف هذا
كله، وناب عنه قبل زيد]^(٢)، وفيه نظر لا يخفى على متأمله.

واعلم أن حكم «فوق وتحت وعل وأول» حكم «قبل وبعد» فيما تقدم.

وقرىء^(٣) : «بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» مبنياً للفاعل، وهو الله - تعالى - أو جبريل، وقرىء
أيضاً^(٤) : «بِمَا أُنْزِلَ لَيْكَ» بتشديد اللام، وتوجيهه أن يكون سكن آخر الفعل كما سكنه
الآخر في قوله : [الرمل]

١٣٤ - إِنْ مَّا شَغَرِي مَلَخَ قَدْ خُلِطَ بِجُلْجُلَانٍ^(٥)
بتسكين «خُط» ثم حذف همزة «إليك»، فالتقى مثلاًن، فأدغم لاه.

و «بالآخرة» متعلق بـ «يوقنون»، و «يوقنون» خبر عن «هم»، وقدم المجرور؛
للاهتمام به كما قدم المنفق في قوله : «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» لذلك، وهذه جملة
اسمية عطفت على الجملة الفعلية قبلها فهي صلة أيضاً، ولكنه جاء بالجملة هنا من مبتدأ
وخبر بخلاف : «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»؛ لأن وصفهم بالإيقان بالآخرة أوقع من وصفهم
بالإنفاق من الرزق، فناسب التأكيد بمجيء الجملة الاسمية، أو لثلاثاً يتكرر اللفظ لو قيل :
«ومما رزقناكم هم ينفقون».

والمراد من الآخرة : الدار الآخرة، وسميت الآخرة آخرة، لتأخرها وكونها بعد فناء الدنيا.

= ينظر همع الهوامع : (٢١٠/١)، المفصل : (٨٨/٤)، الأشموني : (٢٦٩/١)، الدرر : (١٧٦/١)،
ابن يعيش : (٨٨/٤)، شرح الأشموني : (٢٦٩/٢)، شرح ابن عقيل : (٧٣/٣)، شرح الألفية
للمرادي : (٢٧٨/٢)، وشرح الألفية لابن الناظم : (٤٠١)، وشرح الكافية الشافية : (٩٦٥/٢)،
وارتشاف الضرب : (٥١٤/٢)، ومعاني القرآن : (٣٢٠/٢)، الدرر : (١٠٠/١).

(١) البيت نسب إلى رجل من بني عقيل. ينظر الهمع : (٢٠٩/١)، الأشموني : (١٦٩/٢)، الدرر : (١)
(١٧٦)، شرح الكافية الشافية : (٩٦٥/٢)، وشرح الألفية : (٤٠١)، والتصريح : (٥٠٢/٢)، والهمع :
(٢٠٩/١)، وخرزاة الأدب : (٥٠١/٦، ٥٠٦، ٥٠٩)، والدرر : (١٠٠/١)، وإصلاح المنطق :
١٤٦، أوضح المسالك : ١٥٨/٣، لسان العرب (بعد، خفا)، المقاصد النحوية : ٤٣٦/٣.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر البحر المحيط : ١٦٦/١، والمحرم الوجيز : ٨٦/١. وقرأ بها النخعي وأبو حيوة ويزيد بن قطيب.

(٤) انظر البحر المحيط : ١٦٦/١.

(٥) البيت لوضاح اليماني. ينظر اللسان : (جلل)، التهذيب : ٤٩١/١، البحر : ١٦٧/١، الدرر : ١٠٠/١.

والآخرة تأنيث آخر المقابل لـ «أول»، وهي صفة في الأصل جرت مجرى الأسماء، والتقدير: الدار الآخرة، أو النشأة الآخرة، وقد صرح بهذين الموصوفين، قال تعالى: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ حَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

و «يوقنون» من أيقن بمعنى: استيقن، وقد تقدّم أن «أفعل» [يأتي]^(١) بمعنى: «استفعل» أي: يستيقنون أنها كائنة، من الإيقان وهو العلم.

وقيل: اليقين هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكاً فيه، فلذلك لا تقول: تيقنت وجود نفسي، وتيقنت أن السماء فوقي، ويقال ذلك في العلم الحادث، سواء أكان ذلك العلم ضرورياً أو استدلالياً.

وقيل: الإيقان واليقين علم من استدلال، ولذلك لا يسمى الله موقناً ولا علمه يقيناً، إذ ليس علمه عن استدلال.

وقرىء^(٢): «يُوقِنُونَ» بهمز الواو، وكأنهم جعلوا ضمة الياء على الواو لأن حركة الحرف بين بين، والواو المضمومة يطرد قبلها همزة بشروط:

منها ألا تكون الحركة عارضة، وألا يمكن تخفيفها، وألا يكون مدغماً فيها، وألا تكون زائدة؛ على خلاف في هذا الأخير، وسيأتي أمثلة ذلك في سورة «آل عمران» عند قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فأجروا الواو الساكنة المضمومة ما قبلها مُجَرِّى المضمومة نفسها؛ لما ذكرت لك، ومثل هذه القراءة قراءة قُتْبِلَ: «بالسُّوقِ» [ص: ٣٣] و «على سُوْقِهِ» [الفتح: ٢٩] وقال الشاعر: [الوافر]

١٣٥ - أَحَبُّ الْمُؤَقِدِينَ إِلَيَّ مُوسَى وَجَفْدَةٌ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ^(٣)
بهمز «المؤقدين».

وجاء بالأفعال الخمسة بصيغة المضارع دلالة على التجدد والحدوث، وأنهم كل وقت يفعلون ذلك.

وجاء بـ «أنزل» ماضياً، وإن كان إيمانهم قبل تمام نزوله تغليبا للحاضر المنزول

(١) سقط في ب.

(٢) قرأ بها أبو حية النمري. انظر الشواذ: (١٠)، البحر المحيط: ١/١٦٧.

(٣) البيت لجريز. ينظر ديوانه: (٢٨٨)، المحتسب: (٤٧/١)، الخصائص: (١٧٥/٢)، المغني: (٢/٦٨٤)، الكشف: (٤٣/١)، شرح الشافية للرضي: (٢٠٦/٣)، والمقرب: (٥٢٠)، والتمتع: (١/٩١)، (٣٤٢)، (٥٦٥/٢)، البحر: (١٦٧/١)، الدر: (١٠١/١) والأشباه والنظائر: ١٢/٢، ٧٤/٨، وشرح شواهد المغني: ٩٦٢/٢، والمحتسب: ٤٧/١، وسر صناعة الإعراب: ٧٩/١، وشرح شافية ابن الحاجب: ص ٢٠٦.

على ما لم ينزل؛ لأنه لا بُدَّ من وقوعه، فكأنه نزل من باب قوله: ﴿أَفَعَمِيَ بَصَرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]. بل أقرب منه؛ لنزول بعضه.

فصل فيما استحق به المؤمنون المدح

قال ابن الخطيب^(١): إنه - تعالى - مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب، والسؤال، وإدخال المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

روي عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور، وهو [في]^(٢) كل يوم ليلة يموت ويحيا - يعني النوم واليقظة - وعجباً ممن يؤمن بالجنة، وما فيها من النعيم، ثم يسعى لدار الغرور؛ وعجباً من المتكبر الفخور، وهو يعلم أن أوله نطفة مَذْرُوءة، وآخره جيفة قَذْرَةٌ»^(٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥﴾

«أولئك» مبتدأ، خبره الجار والمجرور بعده أي: كائنون على هدى، وهذه الجملة: إما مستأنفة، وإما خبر عن قوله: الذي يؤمنون إما الأولى وإما الثانية، ويجوز أن يكون «أولئك» وحده خبراً عن «الذين يؤمنون» أيضاً إما الأولى أو الثانية، ويكون «على هدى» في هذا الوجه في محل نصب على الحال، هذا كله إذا أعربنا «الذين يؤمنون» مبتدأ أما إذا جعلناه غير مبتدأ، فلا يخفى حكمه مما تقدم.

ويجوز أن يكون «الذين يؤمنون» مبتدأ و «أولئك» بدل أو بيان، و «على هدى» الخبر.

و «أولئك»: اسم إشارة يشترك فيه جماعة الذكور والإناث، وهو مبني على الكسر؛ لشبهه بالحرف في الافتقار.

وقيل: «أولاء» كلمة معناها الكناية عن جماعة نحو: «هم» و «الكاف» للخطاب، كما في حرف «ذلك»، وفيه لغتان: المد والقصر، ولكن الممدود للبعيد، وقد يقال: «أولالك» قال: [الطويل]

١٣٦ - أُولَئِكَ قَوْمِي لَمْ يَكُونُوا أَشَابَةً وَهَلْ يَعْظُ الضَّلِيلَ إِلَّا أُولَئِكَ^(٤)
وعند بعضهم: المقصور للقريب والممدود للمتوسط، و «أولالك» للبعيد، وفيه

(١) ينظر الفخر الرازي: ٣١/٢. (٢) سقط في أ.

(٣) الحديث ذكره الرازي في «تفسيره»: (٣١/٢) ولا أراه يصح.

(٤) البيت للأعشى ينظر شرح المفصل: ٦/١٠، ونوادر أبي زيد: ص ١٥٤، وإصلاح المنطق: ص =

لغات كثيرة، وكتبوا «أولئك» بزيادة «واو» قبل «اللام».

قيل: للفرق بينها وبين «إليك».

و «الهدى» الرشد والبيان والبصيرة.

و «مِنْ رَبِّهِمْ» في محل جر صفة لـ «هدى»، و «مِنْ» لابتداء الغاية، ونكر «هدى»

ليفيد إبهامه التعظيم كقوله: [الطويل]

١٣٧ - فَلَا وَابِي الطَّيْرِ الْمُرَبَّةِ بِالضُّحَى عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتُ عَلَى لَحْمٍ^(١)

وروي «من ربهم» بغير غنة، وهو المشهور، وبغنة، ويروي عن أبي عمرو،

و «أولئك» مبتدأ، و «هم» مبتدأ ثانٍ، و «المفلحون» خبره، والجملة خبر الأول، ويجوز

أن يكون «هم» فصلاً أو بدلاً، و «المفلحون» الخبر.

وفائدة الفصل: الفرق بين الخبر والتابع، ولهذا سمي فصلاً، ويفيد - أيضاً -

التوكيد.

قال ابن الخطيب: يفيد فائدتين:

إحدهما: الدلالة على أن «الوارد» بعده خبر لا صفة.

والثاني: حصر الخبر في المبتدأ، فإنك لو قلت لإنسان ضاحك فهذا لا يفيد أن

الضاحكية لا تحصل إلا في الإنسان.

وقد تقدم أنه يجوز أن يكون «أولئك» الأولى، أو الثانية خبراً عن «الذين يؤمنون»،

وتقدم تضعيف هذين القولين. وكرر «أولئك» تنبيهاً على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى

ثبت لهم بالفلاح، فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تميزهم بها عن غيرهم بمثابة لو

انفردت لكانت مميزة عن حدها، وجاء هنا بالواو بين جملة قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْفِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لأن الخبرين - هنا - متغايران، فاقتضى

ذلك العطف، وأما تلك الآية الكريمة، فإن الخبرين فيها شيء واحد؛ لأن التسجيل^(٢)

عليهم بالعقل، وتشبيههم بالأنعام^(٣) معنى واحد، فكانت عن العطف بمعزل.

قال الزمخشري: وفي اسم الإشارة الذي هو «أولئك» إيذانٌ بأن ما يراد عقبه،

= ٣٨٢، والدرر: ٢٣٥/١، وسر صناعة الإعراب: ٣٢٢/١، وشرح التصريح: ١٢٩/١، والصاحبي في

فقه اللغة: ص ٤٨، واللامات: ص ١٣٢، والمنصف: ١٦٦/١، ٢٦/٣، وجمع الهوامع: ٧٦/١،

الدر المصون: ١٠١/١.

(١) البيت لأبي خراش الهذلي ينظر في خزانة الأدب: ٧٥/٥، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٤٧/١١، وشرح أشعار

الهذليين: ١٢٢٦/٣، ومجالس ثعلب: ص ١٥١، ٢١٢، ولأبي ذؤيب الهذلي في خزانة الأدب: ٥/

٨٥، ٢٠٨/٦، الكشف: ٤٥/١، الدر: ١٠١/١.

(٢) في أ: التمثيل. (٣) في أ: بالبهائم.

والمذكورين قبله أهل لاكتسابه من أجل الخِصَال التي عدت لهم، كقول حاتم:
[الطويل]

١٣٨ - وَلِلَّهِ ضُغْلُوكُ (١)

ثم عدّد له فاضلة، ثم عقب تعديدها بقوله: [الطويل]

١٣٩ - فَذَلِكَ إِنْ يَهْلِكْ فَحَسْنَىٰ تَنَاوُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفًا مُدَمِّمًا (٢)

و «الفلاح» أصله: الشق؛ ومنه قوله: [الرجز]

١٤٠ - إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ (٣)

ومنه قول بكر بن النطاح (٤): [الكامل]

١٤١ - لَا تَبْعَثْنِ إِلَىٰ رَبِيعَةَ غَيْرَهَا إِنَّ الْحَدِيدَ بِغَيْرِهِ لَا يُفْلَحُ (٥)

ويعبر به عن الفوز، والظفر بالبغية وهو مقصود الآية؛ ويراد به البقاء قال: [الرجز]

١٤٢ - لَوْ أَنَّ حَيًّا مُذْرِكُ الْفَلَّاحِ أَذْرَكَهُ مُلَاعِبُ الرَّمَّاحِ (٦)

وقال: [الطويل]

١٤٣ - نَحُلُّ بِلَادًا كُلُّهَا حُلٌّ قَبْلَنَا وَنَزْجُو الْفَلَّاحَ بَغْدَ عَادٍ وَحِمِيرِ (٧)

وقال: [المنسرح]

(١) جزء بيت وتمامه:

..... يساور همه ويمضي على الأحداث والدهر مُقدما

ينظر ديوانه: (٤٥)، والخزانة: ١٢٥/٣، الكشف: ٤٤/١، والدر المصون: ١٠٢/١.

(٢) ينظر البيت في الخزانة: ١٢٥/٣، والكشاف: ٤٤/١، والدر المصون: ١٠٢/١.

(٣) عجز بيت وصدره:

قد علمت خيلك أني الصحصح

ينظر اللسان: (فلح)، مجمع الأمثال: ٨/١، والدر المصون: ١٠٢/١

(٤) بكر بن النطاح الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة، من أهل اليمامة، انتقل إلى بغداد في زمن الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي، فجعل له رزقاً سلطانياً عاش به إلى أن توفي، ورثاه أبو العتاهية بقوله:

مات النطاح أبو وائل بكر، فأضحى الشعر قد ماتا

توفي سنة ١٩٢هـ.

انظر فوات الوفيات: ٧٩/١، البداية والنهاية: ٢٠٨/١٠، الأعلام: ٧١/٢.

(٥) ينظر الدر المصون: ١٠٢/١.

(٦) البيت للبيد بن ربيعة. ينظر ديوانه: (٣٣٣)، المغني: (٢٧٠/١)، (٤٣٥)، الهمع: (١٣٩/١)،

الدر: (١١٥/١)، القرطبي: (١٢٧/١)، الدر: (١٠٢/١).

(٧) البيت للبيد بن ربيعة. ينظر ديوانه: ٥٧، مجاز القرآن: ٣٠/١، القرطبي: ١٢٧/١، الدر: ١٠٢/١.

١٤٤ - لِكُلِّ هَمٍّ مِّنَ الْهَمُومِ سَعَةٌ وَالْمُسْنَى وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ^(١) والمُفْلَج - بالجيم - مثله، ومعنى التعريف في «المُفْلِحُونَ» الدلالة على أن المتقين هم الناس أي: أنهم الذين إذا حصلت صفةُ المفْلِحين فهم هم كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد، وما جُبِلَ عليه من فرط الإقدام؟ إن زيداً هو هو.

فصل فيمن احتج بالآية على مذهبه

هذه الآية يتمسك بها الوعيدية والمُرْجئة.

أما الوعيدية فمن وجهين:

الأول: أن قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يقتضي الحصر، فوجب فيمن أخل بالصلاة والزكاة أن لا يكون مفلحاً، وذلك يوجب القطع بوعيد تارك الصلاة والزكاة.

الثاني: أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون ذلك الوصف علة^(٢) لذلك

(١) البيت للأصطبي بن قريع. ينظر القرطبي: (١٢٧/١)، المحرر الوجيز: (١٨٦/١)، الدر: (١٠٢/١).

(٢) العلة تأتي بكسر العين ويفتحها:

أما بالكسر: فإنها تأتي بمعنى المرض، يقال: اعتلَّ العليل علة صعبة؛ من علَّ يعل، واعتلَّ، أي: مرض فهو عليل، وأما بالفتح: فإنها تأتي بمعنى الضربة، وبنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى، وإنما سميت الزوجة الثانية علة؛ لأنها تعل بعد صاحبها؛ من العلل الذي يعنى به: الشربة الثانية عند سقي الإبل، والأولى منها تسمى النهل.

ويقال: هذا علة لهذا، أي: سبب، وفي حديث عائشة: «فكان عبد الرحمن يضرب رجلي بعلة الراحلة»، أي: بسببها.

أما العلة عند علماء الأصول؛ فلها تعريفات كثيرة منها:

الأول: أنه يراد بها:

الوصف المؤثر في الأحكام لجعل الشارع لا لذاته، ومما سار على ضرب هذا التعريف الإمام الغزالي، وبعض الأصوليين. قال حجة الإسلام - قدس الله سره ونور ضريحه -: والعلة في الأصل: عبارة عما يتأثر المحل بوجوده؛ ولذلك سمي المرض علة، وهي في اصطلاح الفقهاء على هذا المذاق.

وقال أيضاً: العلة عبارة عن موجب الحكم؛ والموجب: ما جعله الشرع موجباً، مناسباً كان أو لم يكن، وهي كالعلل العقلية في الإيجاب، إلا أن إيجابها بجعل الشارع إياها موجبة لا بنفسها.

وقال أيضاً: والعلة موجبة؛ أما العقلية فبذاتها، وأما الشرعية فبجعل الشرع إياها موجبة، على معنى إضافة الوجوب إليها؛ كإضافة وجوب القطع إلى السرقة، وإن كنا نعلم أنه إنما يجب بإيجاب الله - تعالى -.

والثاني: أنه يراد بها: المعرف للحكم، والذين صاروا إلى هذا التعريف يجعلونها بهذا المعنى - علماً - على الحكم، فمتى ما وجد المعنى المعلن به، عرف الحكم حتى إن بعضهم صرح بكونها كذلك؛ فقال: ما جعل علماً على حكم النص، وعنوا بقولهم: «علماً»: الأمانة والعلامة؛ وبهذا تكون العلة أمانة على وجود الحكم في الفرع والأصل معاً، أو علامة على وجوده في الفرع فقط؛ كما يرى بعض الأصوليين.

الحكم، فيلزم أن تكون علّة الفلاح في فعل الإيمان والصلاة والزكاة، فمن أخلّ بهذه الأشياء لم تحصل له علّة الفلاح، فوجب ألا يحصل الفلاح.

وأما المُرَجَّة: فقد احتجّوا بأن الله حكم بالفلّاح على الموصوفين بالصفات المذكورة في هذه الآية، فوجب أن يكون الموصوف بهذه الأشياء مفلحاً، وإن رُئِيَ وشربَ الخمرَ وسرقَ، وإذا ثبت تحقق العفو في هذه الطائفة ثبت في غيرهم ضرورة؛ لأنه لا قائل بالفرق.

قال ابن الخطيب^(١): والجواب أن كل واحد من الاحتجاجين معارض بالآخر، فيتساقطان.

والجواب عن قول الوعيدية: أن قوله: «أولئك هم المفلحون» يدل على أنهم الكاملون في الفلاح، فيلزم أن يكون صاحب الكبيرة غير كامل الفلاح، ونحن نقول بموجبه، فإنه كيف يكون كاملاً في الفلاح، وهو غير جازم بالخلاص من العذاب، بل يجوز له أن يكون خائفاً.

وعن الثاني: أن نفي السبب الواحد لا يقتضي نفي المسبب، فعندنا من أسباب الفلاح عفو الله تعالى.

= كما أنهم أيضاً أشاروا إلى أن العلّة غير مؤثر حقيقة، بل المؤثر في الحقيقة هو الله - تعالى -، ويردّون بذلك على من يقول: إنها هي المؤثر.

وممن ذهب إلى هذا التعريف: الإمام البيضاوي، وكثير من علماء الأحناف، وبعض فقهاء الحنابلة.

والثالث: أن العلة هي الوصف المؤثر بذاته في الحكم.

وبعبارة أخرى: هي الموجب للحكم بذاته؛ بناءً على جلب المصالح، أو دفع المفاسد التي قصدها الشارع. وهذا التعريف ذكره الأصوليون عن جماهير المعتزلة.

قال أبو الحسين البصري في المعتمد: وأما العلة في اصطلاح الفقهاء: فهي ما أثّرت حكماً شرعياً، وإنما يكون الحكم شرعياً إذا كان مستفاداً من الشّرع.

ينظر الصحاح للجوهري: ١٧٧٣/٥، تهذيب اللغة للأزهري: ١٠٥/١، ترتيب القاموس: ٣٥٠/٣،

لسان العرب: ٣٠٧٩/٤ - ٣٠٨٠. البحر المحيط للزركشي: ١١١/٥، الإحكام في أصول الأحكام

للأمدي: ١٨٥/٣، نهاية السؤل للإسنوي: ٥٣/٤، منهاج العقول للبدخشي: ٥٠/٣، غاية الوصول

للشيخ زكريا الأنصاري: ص ١١٤، التحصيل من المحصول للأرموي: ٢٢٢/٢، المستصفى للغزالي:

٢/٢٨٧، حاشية البناني: ٢/٢٣١، الآيات البيّنات لابن قاسم العبادي: ٤/٣٢، تخرّيج الفروع

على الأصول للزنجاني: ص ٤٧، حاشية العطار على جمع الجوامع: ٢/٢٧٢، المعتمد لأبي

الحسين: ٢/٢٤٦، التحرير لابن الهمام: ص ٤٣١، تيسير التحرير لأمير بادشاه: ٣/٣٠٢، كشف

الأسرار للنسفي: ٢/٢٨١، حاشية التفتازاني والشرّيف على مختصر المنتهى: ٢/٢١٧، شرح التلويح

على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: ٢/٦٢، حاشية نسمات الأسحار لابن عابدين:

ص ٢٤٣، ميزان الأصول للسمرقندي: ٢/٨٢٥، إرشاد الفحول للشوكاني: ص ٢١٠، التقرير

والتحجير لابن أمير الحاج: ٣/١٤١.

(١) ينظر الفخر الرازي: ٢/٣٣.

والجواب عن قول المرجئة: أن وصفهم بالتقوى يكفي لنيل الثواب؛ لأنه يتضمن اتقاء المعاصي، واتقاء ترك الواجبات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

اعلم أن الحروف لا أصل لها في العمل، لكن هذا الحرف أشبه الفعل صورة ومعنى، فاقضى كونه عاملاً.

أما المُشابهة في اللفظ فلأنه تركّب من ثلاثة أحرف انفتح آخرها، ولزمت الأسماء كالأفعال، وتدخل نون الوقاية نحو: «إني وكأني» كما تدخل على الفعل نحو: «أعطني وأكرمني»، وأما المعنى فلأنه^(١) يفيد معنى في الاسم، فلما اشبهت الأفعال وجب أن تشبها في العمل.

روى ابن الأنباري «أن الكندي»^(٢) المتفلسف ركب إلى المبرد وقال: إني أجد في كلام العرب حشواً، أجد العرب تقول: «عبد الله قائم»، ثم يقولون: «إن عبد الله قائم» ثم يقولون: «إن عبد الله لقائم».

فقال المبرد: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: «عبد الله قائم» إخبار عن قيامه، وقولهم: «إن عبد الله قائم» جواب عن سؤال سائل، وقولهم: «إن عبد الله لقائم» جواب عن إنكار منكر لقيامه.

واحتج عبد القاهر على صحة قوله بأنها إنما تذكر جواباً لسؤال سائل بقوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] إلى أن قال: ﴿إِنَّا مَكَنَّا لَهُ﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

قال عبد القاهر: والتحقيق أنها للتأكيد، فإذا كان الخبر ليس يظن المخاطب خلافه لم يحتج إلى «إن»، وإنما يحتاج إليها إذا ظن السامع الخلاف، فأما دخول اللام معها في جواب المنكر، فلأن الحاجة إلى التأكيد أشد.

فإن قيل: فلم لا دخلت «اللام» في خبرها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُعَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وأدخل «اللام» في خبرها في قوله قبل ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

(١) في ب: فلا.

(٢) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي أبو يوسف فيلسوف العرب والإسلام في عصره وأحد أبناء الملوك من كندة نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، قال ابن جليل «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس» من كتبه: رسالة في التنجيم، والقول في النفس. ينظر الأعلام: ١٩٥/٨ (١٧٦٩)، ابن خلكان: ٣٠٩/٢، هدية العارفين: ٥٣٦/٢.

ذَلِكَ لِمَتَّوْنَ ﴿ [المؤمنون: ١٥]، وهم كانوا يتيقنون الموت، فلا حاجة إلى التأكيد، فكانوا ينكرون البعث فكانت الحاجة لدخول «اللام» على البعث أشد ليفيد التأكيد.

فالجواب: أن التأكيد حصل أولاً بقوله: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ [المؤمنون: ١٣ - ١٤].

فكان ذكر هذه السبع مراتب في خلق الإنسان أبلغ في التأكيد من دخول «اللام» على خبر «إن»، فلذلك استغنى عن دخول «اللام» على خبر «إن»، وهي تنصب الاسم، وترفع الخبر خلافاً للكوفيين بأن رفعه بما كان قبل دخولها.

وتقرير الأول أنها لما صارت عاملة فيما أن ترفع المبتدأ أو الخبر معاً، وتنصبهما معاً، أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس والأول باطل؛ لأنهما كانا مرفوعين قبل دخولهما، فلم يظهر للعمل أثر البتة، ولأنها أعطيت عمل الفعل، والفعل لا يرفع الاسمين، فلا معنى للاشتراك، والفرع لا يكون أقوى من الأصل.

والثاني - أيضاً - باطل، لأنه مخالف لعمل الفعل؛ لأن الفعل لا ينصب شيئاً مع خلوه عما يرفعه.

والثالث - أيضاً - باطل لأنه يؤدي إلى التسوية بين الأصل والفرع؛ لأن الفعل يعمل في الفاعل أولاً بالرفع؛ ثم في المفعول بالنصب، فلو جعل الحرف ها هنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع.

ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين الرابع، وهي أنها تنصب الاسم، وترفع الخبر، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف ليست أصلية في العمل؛ لأن تقديم المنصوب على المرفوع في باب الفعل عدول عن الأصل.

وتخفف «إن» فتعمل وتهمل، ويجوز فيها أن تباشر الأفعال، لكن النواسخ غالباً تختص بدخول «لام» الابتداء في خبرها، أو معمولة المقدم عليها، أو اسمها المؤخر، ولا يتقدم خبرها إلا ظرفاً أو مجروراً، وتختص - أيضاً - بالعطف على محل اسمها، ولها ولأخواتها أحكام كثيرة.

و «الذين» اسمها و «كفروا» صلة وعائد، و «لا يؤمنون» خبرها، وما بينهما اعتراض، و «سواء» مبتدأ، و «أنذرتهم» وما بعده في قوة التأويل بمفرد هو الخبر، والتقدير: سواء عليهم الإنذار وعدمه، ولم يحتج هنا إلى رابط؛ لأن الجملة نفس المبتدأ، ويجوز أن يكون «سواء» خبراً مقدماً، و «أنذرتهم» بالتأويل المذكور مبتدأ مؤخر تقديره: الإنذار وعدمه سواء.

قال ابن الخطيب^(١): اتفقوا على أنّ الفعل لا يخبر عنه؛ لأن قوله: «خرج ضرب» ليس بكلام منتظم، وقد قدحوا فيه بوجوه:

أحدها: أن قوله: «أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ» فعل، وقد أخبر عنه بقوله: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ»، ونظيره «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُثَّةٌ فَاعِلٌ «بَدَأَ» هو «يسجننه».

وثانيها: أن المخبر عنه بأنه فعل لا بد وأن يكون فعلاً، فالفعل قد أخبر عنه بأنه فعل.

فإن قيل: المخبر عنه بأنه فعل هو تلك الكلمة، وتلك الكلمة اسم.

قلنا: فعلى هذا المخبر عنه بأنه فعل إذا لم يكن فعلاً بل اسماً كان هذا الخبر كذباً؛ والتحقيق أن المخبر عنه بأنه فعل إما أن يكون اسماً أو لا يكون، فإن كان الأول كان هذا الخبر كذباً؛ لأن الاسم لا يكون فعلاً، وإن كان فعلاً فقد صار الفعل مخبراً عنه.

وثالثها: إنا إذا قلنا: الفعل لا يخبر عنه، فقد أخبرنا عنه بأنه لا يخبر عنه، والمخبر عنه بهذا الخبر لو كان اسماً لزم أننا قد أخبرنا عن الاسم بأنه لا يخبر عنه، وهذا خطأ، وإن كان فعلاً صار الفعل مخبراً عنه. ثم قال هؤلاء: لما ثبت أنه لا امتناع في الإخبار عن الفعل لم يكن بنا حاجة إلى ترك الظاهر^(٢).

أما جمهور النحويين فقالوا: لا يجوز الإخبار عن الفعل، فلا جرم كان التقدير: سواء عليهم إنذارك وعدمه.

وهذه الجملة يجوز أن تكون معترضة بين اسم «إن» وخبرها، وهو «لا يؤمنون» كما تقدم، ويجوز أن تكون هي نفسها خبراً لـ «إن»، وجملة «لا يؤمنون» في محل نصب على الحال، أو مستأنفة، أو تكون دعاء عليهم بعد الإيمان - وهو بعيد - أو تكون خبراً بعد خبر على رأي من يجوز ذلك.

ويجوز أن يكون «سواء» وحده خبر «إن»، و «أَنْذَرْتَهُمْ» وما بعده بالتأويل المذكور في محل رفع بأنه فاعل له، والتقدير: استوى عندهم الإنذار وعدمه.

و «لا يؤمنون» على ما تقدم من الأوجه أعني: الحال والاستئناف والدعاء والخبرية.

والهمزة في «أَنْذَرْتَهُمْ» الأصل فيها الاستفهام، وهو - هنا - غير مراد، إذ المراد التسوية، و «أَنْذَرْتَهُمْ» فعل وفاعل ومفعول.

و «أم» - هنا - عاطفة وتسمى متصلة، ولكونها متصلة شرطان:

أحدهما: أن يتقدمها همزة استفهام أو تسوية لفظاً أو تقديرًا.

والثاني: أن يكون ما بعدها مفرداً أو مؤولاً بمفرد كهذه الآية، فإن الجملة فيها بتأويل مفرد كما تقدم، وجوابها أحد الشئيين أو الأشياء، ولا تجاب بـ «نعم» ولا بـ «لا»، فإن فقد الشرط سميت منقطعة ومنفصلة، وتقدر بـ «بل والهمزة»، وجوابها «نعم» أو «لا» ولها أحكام آخر^(١).

و «لم» حرف جزم معناه نفي الماضي مطلقاً خلافاً لمن خصّها بالماضي المنقطع، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾ [الإخلاص: ٣]. وهذا لا يتصور فيه الانقطاع، وهي من خواص صيغ المضارع إلا أنها تجعله ماضياً في المعنى كما تقدم. وهل قلبت اللفظ دون المعنى أو المعنى دون اللفظ؟

(١) «أم» حرف عطف، وهي نوعان: متصلة وهي قسمان:

الأول: أن يتقدم عليها همزة التسوية، نحو: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ [البقرة: ٦].
والثاني: أن يتقدم عليها همزة يُطلب بها ويأم التعيين، نحو: ﴿الذّكرين حرّم أم الأنثيين﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وسميت في القسمين متصلة؛ لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى أحدهما عن الآخر، وتسمى أيضاً: «معادلة»؛ لمعادلتها للهمزة في إفادة التسوية في القسم الأول، والاستفهام في الثاني. ويفترق القسمان من أربعة أوجه:

أحدها وثانيها: أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تستحق جواباً؛ لأن المعنى معهما ليس على الاستفهام؛ لأن الكلام معها قابل للتصديق والتكذيب؛ لأنه خبر، وليست تلك كذلك، الاستفهام منها على حقيقته.

والثالث والرابع: أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تقع إلا بين جملتين، ولا تكون الجملتان معها إلا في تأويل المفردين، وتكون الجملتان فعليتين واسميتين ومختلفتين، نحو: ﴿سواء عليكم أَدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾، و «أم» الأخرى تقع بين المفردين، وهو الغالب فيها، نحو: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ وبين جملتين ليستا في تأويلهما.

النوع الثاني: منقطعة وهي ثلاثة أقسام:

مسيبقة بالخبر المحض نحو ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه﴾ [السجدة: ٣، ٢].

ومسيبقة بالهمزة لغير الاستفهام، نحو: ﴿ألم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها﴾ [الأعراف: ١٩٥]؛ إذ الهمزة في ذلك للإنكار، فهي بمنزلة النفي، والمتصلة لا تقع بعده.

ومسيبقة باستفهام بغير الهمزة، نحو: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ [الرعد: ١٦].

ومعنى «أم» المنقطعة الذي لا يفارقها الإضراب، ثم تارة تكون له مجرداً وتارة تضمّن مع ذلك استفهاماً إنكارياً.

فمن الأول: ﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ [الرعد: ١٦] لأنه لا يدخل الاستفهام على استفهام.

ومن الثاني: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ [الطور: ٣٩]، تقديره: بل أله البنات؛ إذ لو قدر الإضراب المحض، لزم المحال. انظر الإتيان: (١٦/٢ - ١٦٤ - ١٦٥).

قولان: أظهرهما الثاني، وقد يحذف مجزومها كقوله: [الكامل]

١٤٥ - إِحْفَظْ وَدِيعَتَكَ الَّتِي اسْتُودِعْتَهَا يَوْمَ الْأَعَازِبِ، إِنْ وَصَلْتَ، وَإِنْ لَمْ^(١)

و «الكفر» أصله: السترة؛ ومنه: «الليل الكافر»؛ قال: [الرجز]

١٤٦ - فَوَرَدَتْ قَبْلَ انْبِلَاجِ الْفَجْرِ وَابْنُ ذُكَاةٍ كَامِنٌ فِي كَفْرِ^(٢)

وقال: [الكامل]

١٤٧ - فَتَذَكَّرْنَا ثِقَلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا أَلَقْتُ ذُكَاةً يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ^(٣)

والكفر - هنا - الجحود. وقال آخر: [الكامل]

١٤٨ - فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ عَمَامُهَا^(٤)

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ «الكفر» في القرآن على أربعة أضرب:

الأول: الكُفْر بمعنى ستر التوحيد وتغطيته قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾.

الثاني: بمعنى الجُحُود قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

الثالث: بمعنى كفر النعمة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ سَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] أي: بالنعمة، ومثله: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

الرابع: البراءة، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] أي: تبرأنا منكم، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

و «سواء» اسم بمعنى الاستواء، فهو اسم مصدر، ويوصف على أنه بمعنى مستور، فيحتمل حينئذ ضميراً، ويرفع الظاهر، ومنه قولهم: «مررت برجل سواء والعدم» برفع

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة ينظر ديوانه: ١٩١، والمغني: ٣١٠، وشرح شواهد: ٦٨٢، وخزانة الأدب: ٨/٩، والعيني: ٤٤٣/٤، والتصريح: ٢٤٧/٢، والهمع: ٥٦/٢، والأشمونى: ٦/٤، والأشباه والنظائر: ٧٣/٢.

(٢) البيت لحمد الأرقط. ينظر إصلاح المنطق: (١٢٦)، القرطبي: (١٢٨/١)، الدر: (١٠٤/١).

(٣) البيت لثعلبة بن ضَعِير العدوي، ينظر المحتسب: (٢٣٤/٢)، المفضليات: (٢٥٧)، الطبري: (١/١٤٣)، المحرر الوجيز: (٨٧/١)، القرطبي: (١٢٨/١)، الدر: (١٠٤/١).

(٤) عجز بيت لليد بن ربيعة وصدره:

يعلو طريقة منها متواتر

ينظر ديوانه: (٣٠٩)، القرطبي: (١٢٨/١)، والمحرم الوجيز: ٨٧/١، والطبري: ١٤٣/١، والدر المصون: ١٠٤/١.

«العدم» على أنه معطوفٌ على الضمير المستكنّ في «سواء»، وشذ عدم بمعنى: «مثل»،
تقول: «هما سيّان» بمعنى: مثلاً، قال: [البسيط]

١١٩ - مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ^(١)

على أنه قد حكي سواء. وقال الشاعر: [الطويل]

١٥٠ - وَلَيْلٍ تَقُولُ النَّاسُ فِي ظُلُمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْغُيُوبِ وَعُورُهَا^(٢)

فـ «سواء» خبر عن جمع هو «صحيحات»، وأصله: العدل؛ قال زهير: [الوافر]

١٥١ - أَرُونَا سُبَّةً لَا عَيْبَ فِيهَا يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ^(٣)

أي: يعدل بيننا العدل. وليس هو الظرف الذي يستثنى به في قولك: «قاموا سواء زيد» وإن شاركه لفظاً.

ونقل ابن عطية عن الفارسي فيه اللغات الأربع المشهورة في «سوى» المستثنى به، وهذا عجيب فإن هذه اللغات في الظرف لا في «سواء» الذي بمعنى الاستواء.

وأكثر ما تجيء بعده الجملة المصدرية بالهمزة المُعَادلة بـ «أم» كهذه الآية، وقد تحذف للدلالة كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] أي: أصبرتم أم لم تصبروا، وقد يليه اسم الاستفهام معمولاً لما بعده كقول علقمة: [الطويل]

١٥٢ - سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتُهُ أَسَاعَةً نَحْسِ تُتَّقَى أَمْ بِأَسْعَدِ^(٤)

فـ «أي حين» منصوب بـ «أتيت»، وقد يعرى عن الاستفهام، وهو الأصل؛ نحو:

[الطويل]

(١) البيت لكعب بن مالك ينظر ديوانه: ص ٢٨٨، وشرح أبيات سيبويه: ١٤٩/٢، ١٠٩، وله أو لعبد الرحمن بن حسان في خزانة الأدب: ٤٩/٩، ٥٢، وشرح شواهد المغني: ١٧٨/١، ولعبد الرحمن بن حسان في خزانة الأدب: ٣٦٥/٢، ولسان العرب (بجل)، والمقتضب: ٧٢/٢، ومغني اللبيب: ٥٦/١٠، والمقاصد النحوية: ٤٣٣/٤، ونوادر أبي زيد: ص ٣١، ولحسان بن ثابت في الدرر: ٨١/٥، والكتاب: ٦٥/٣، وليس في ديوانه، والأشباه والنظائر: ١١٤/٧، وأوضح المسالك: ٢١٠/٤، والخصائص: ٢٨١/٢، وسر صناعة الإعراب: ٢٦٤/١، ٢٦٥، وشرح شواهد المغني: ٢٨٦/١، وشرح المفصل: ٢/٩، ٣، والمحاسب: ١٩٣/١، والمقرب: ٢٧٦/١، والمنصف: ٣/١١٨، وهمع الهوامع: ٦٠/٢.

(٢) البيت للأعشى ينظر ديوانه: ص ٤٢٣، ولمضرس بن ربيعي، الحماسة الشجرية: ٧١٠/٢، خزانة الأدب: ١٨/٥، ديوان المعاني: ٣٤٣/١، لسان العرب (سوج)، الطبري: (١٤٤/١)، البحر المحيط: (١٧١/١)، والجامع لأحكام القرآن: (١٨٤/١)، الدر المصون: (١٠٤/١).

(٣) ينظر ديوانه: (٢٠)، الحجة: (١٨٤/١)، ومجمع البيان: (٨٩/١)، الدر المصون: (١٠٤/١).

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى. ينظر ديوانه: ص (٢٣٢)، ورصف المباني: ص ٤٦، والمقتضب: ٣/٢٨٨، ومجمع البيان: (٩٢/١)، الدر المصون: ١٠٥/١.

١٥٣ - سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْغُيُوثِ وَعُورُهَا^(١)

فصل في استعمالات «سواء»

وقد ورد لفظ «سواء» على وجوه:

الأول: بمعنى: الاستواء كهذه الآية.

الثاني: بمعنى: العدل، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: عدل؛ ومثله: ﴿سَوَاءٌ السَّبِيلُ﴾ [الممتحنة: ١] أي: عدل الطريق.

الثالث: بمعنى: وسط، قال تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٥٥] أي: وسط الجحيم.

الرابع: بمعنى: البيان؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَيْدِيهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: على بيان.

الخامس: بمعنى: شرع، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] يعني: شرعاً.

السادس: بمعنى: قصد، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَوْيَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] أي: قصد الطريق. و «الإنذار»: التخويف.

وقال بعضهم: هو الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يسع زمانه الاحتراز، فهو إشعار لا إنذار؛ قال: [الكامل]

١٥٤ - أُنذِرْتُ عَمْرًا وَهُوَ فِي مَهْلٍ قَبْلَ الصُّبْحِ فَقَدْ عَصَىٰ عَمْرُو^(٢)

ويتعدى لاثنيين، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبا: ٤٠]، ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَوْعَةً﴾ [فصلت: ١٣] فيكون الثاني في هذه الآية محذوفاً تقديره: أنذرتهم العذاب أم لم تنذرهم إياه، والأحسن ألا يقدر له مفعول، كما تقدم في نظائره.

والهمزة في «أنذر» للتعدية، وقد تقدم أن معنى الاستفهام هنا غير مراد؛ لأن التسوية هنا غير مرادة.

فقال ابن عطية: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام؛ لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً: «سواء علي أقمت أم قعدت»، وإذا قلت مستفهماً: «أخرج زيد أم قام؟» فقد استوى الأمران عندك، هذان في الخبر، وهذان في الاستفهام، وعدم علم أحدهما بعينه، فلما عمتهما

(١) تقدم برقم (١٥٠).

(٢) هذا البيت لمضرس بن ربيعي. ينظر الجامع لأحكام القرآن: ١/١٢٩، الدر المنصور: ١/١٠٥.

التسوية جرى على الخبر لفظ الاستفهام؛ لمشاركته إيّاه في الإبهام، فكلّ استفهام تسوية وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً، إلا أن بعضهم ناقشه في قوله: «أأنذرتهم أم لم تنذرهم» لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه «الخبر» بما معناه: أن هذا الذي صورته صورة استفهام ليس معناه الخبر؛ لأنه مقدر بالمفرد كما تقدم، وعلى هذا فليس هو وحده في معنى الخبر؛ لأن الخبر جملة، وهذا في تأويل مفرد، وهي مناقشة لفظية.

وروي الوقف على قوله: «أَمْ لَمْ تُنْذِرْ» والابتداء بقوله: «هُم لَمْ يُؤْمِنُوا» على أنها جملة من مبتدأ وخبر. وهذا ينبغي ألا يلتفت إليه، وإن كان قد نقله الهذلي في «الوقف والابتداء» له.

وقرىء «أأنذرتهم» بهمزتين محققتين بينهما ألف، وبهمزتين محققتين بلا ألف بينهما وهي لغة «بني تميم»، وأن تكون الأولى قوية، والألف بينهما، وتخفيف الثانية بين بين، وهي لغة «الحجاز» وبتقوية الهمزة الأولى، وتخفيف الثانية، وبينهما ألف. فمن إدخال الألف بين الهمزتين تخفيفاً وتحقيقاً قوله: [الطويل]

١٥٥ - أَيَا ظَبْيَةِ الْوُغَسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَا أَأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمٍ^(١)؟
وقال آخر: [الطويل]

١٥٦ - تَطَالَلْتُ فَاسْتَشْرِفْتُهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ أَأَنْتِ زَيْنُ الْأَرَانِبِ^(٢)؟
وروي عن وزش^(٣) إبدال الثانية ألفاً محضة.

ونسب الزمخشري هذه القراءة للخن، قال: لأنه يؤدي إلى الجمع بين ساكنين على غير حذهما، ولأن تخفيف مثل هذه الهمزة إنما هو بينَ بينَ. وهذا منه ليس بصواب، لثبوت هذه القراءة تواتراً.

(١) البيت لذي الرمة ينظر ديوانه: ص ٧٥٠، وأدب الكاتب: ص ٢٢٤، والأزهية: ص ٣٦، والكتاب: ٥٥١/٣، ولسان العرب (جلل)، وشرح المفصل: ٩٤/١، ١١٩/٩، وشرح أبيات سيويه: ٢٥٧/٢، وشرح شواهد الشافية: ص ٣٤٧، والدرر: ١٧/٣، والخصائص: ٤٥٨/٢، والأغاني: ٣٠٩/١٧، وسر صناعة الإعراب: ٧٢٣/٢، واللمع: ص ١٩٣، ٢٧٧، ومعجم ما استعجم: ص ٣٨٨، والمقتضب: ١٦٣/١، والإنصاف: ٤٨٢/٢، وجمهرة اللغة: ص ١٢١٠، والجنى الداني: ص ١٧٨، ٤١٩، وخزانة الأدب: ٢٤٧/٥، ٢٦٧/١١، ووصف المبانى: ص ١٣٦/٢٦، وشرح شافية ابن الحاجب: ٦٤/٣، وجمع الهوامع: ١٧٢/١، والكمال: (٥٥/٣). والأمالى الشجرية: (١/٣٢٠)، والقرطبي: (١٢٩/١) والمخصص: (٤٩/١٦)، والدر المصون: (١٠٥/١).

(٢) البيت لذي الرمة. ينظر ملحقات ديوانه: (٨٤٩). اللسان (الهمزة)، والحجة: (٢٠٨/١)، والجامع لأحكام القرآن: (١٨٥/١)، والدر المصون: ١٠٦/١.

(٣) انظر البحر المحيط: ١٧٥/١، وقال تعقيباً على كلام الزمخشري: «وقراءة ورش صحيحة النقل لا تدفع باختیار المذهب...». وكلام الزمخشري في الكشف: ٤٨/١، وانظر إتحاف فضلاء البشر: ٣٧٦/١.

وقرأ ابن محيصن^(١) بهمزة واحدة على لفظ الخبر، وهمزة الاستفهام مرادة، ولكن حذفها تخفيفاً، وفي الكلام ما يدل عليها، وهو قوله: «أم لم»؛ لأن «أم» تُعَادِلُ الهمزة، وللقراء في مثل هذه الآية تفصيل كثير.

فصل في المراد بالكافرين في الآية

المراد من «الذين كفروا» يعنى مشركي العرب كأبي لهب؛ وأبي جهل، والوليد بن المغيرة وأضرابهم.

وقال الكلبي: «هم رؤساء اليهود والمُعانَدون» وهو قول ابن عباس. والكفر - هنا - الجحود، وهو على أربعة أضرب:

كفر إنكار، وكفر جُحود، وكفر عِنَادٍ، وكفر نفاق:

فـ «كفر الإنكار»: هو ألا يعرف الله أصلاً، ولا يعترف به.

وكفر الجُحود: هو أن يعرف الله بقلبه، ولا يقر بلسانه، ككفر إبليس؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكفر العناد: هو أن يعرف الله بقلبه، ويعترف بلسانه، ولا يدين به؛ ككفر أبي طالب؛ حيث يقول: [الكامل]

١٥٧ - وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَأَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَلِكَ مُبِيناً^(٢)

وكفر النفاق: هو أن يقر باللسان، ولا يعتقد بالقلب، وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله - تعالى - بواحد منها؛ لا يغفر له.

فصل في تحقيق حد الكفر

قال ابن الخطيب: تحقيق القول في حد الكفر أن كل ما نقل عن محمد - عليه الصلاة والسلام - أنه ذهب إليه، وقال به، فإذا أن يعرف صحة ذلك النقل بالضرورة، أو بالاستدلال، أو بخبر^(٣) الواحد أما الذي علم بالضرورة، فمن صدق به جميعه، فهو

(١) وكذا قرأ بها الزهري وابن كثير.

انظر البحر المحيط: ١/١٧٥، وحجة القراءات: ٨٦، وإتحاف: ١/٣٧٦.

(٢) ينظر البيتان في: خزانة الأدب: ٢/٧٦، ٩/٣٩٧، ولسان العرب (كفر)، والمقاصد النحوية: ٤/٨، وشرح التصريح: ٢/٩٦، وشرح شواهد المغني: ٢/٦٨٧، وشرح قطر الندى: ص ٢٤٢، وشرح الأشموني: ٢/٣٧٦.

(٣) وإليك بيان معنى خبر الواحد: وهو في الاصطلاح: ما لم يبلغ مبلغ التواتر، فيصدق على المشهور والعزيز، والغريب.

مؤمن، ومن لم يصدق بجميعه، أو لم يصدق ببعضه، فهو كافر، فإذا كفر عدم تصديق

= والعزير: ما جاء في طبقة من طبقات روايته، أو أكثر من طبقة اثنان، ولم يقل في أي طبقة من طبقاته عنهما.

والغريب: ما جاء في طبقة من طبقات روايته، أو أكثر، واحد تفرد بالرواية.

«أقسام خبر الواحد من حيث القبول والرد»

من المعلوم أن الحديث سواء كان مرفوعاً، أو موقوفاً، أو مقطوعاً ينقسم إلى: متواتر يفيد الحكم، وأحاد؛ كما أن الأحاد ينقسم إلى: مشهور، وعزيز، وغريب، وكل من هذه الثلاثة تنقسم إلى: مقبول يفيد الظن، ما لم تكن فيه قرينة تفيد القطع، وإلى مردود لا يفيد ظناً ولا قطعاً.

«ضابط القبول والرد»

ينقسم الخبر المقبول إلى: خبر صحيح، وحسن، وينقسم الصحيح، إلى: صحيح لذاته، وصحيح لغيره، وأيضاً ينقسم الحسن إلى: حسن لذاته، وحسن لغيره.

والمردود هو الضعيف، والضعيف ينقسم إلى أقسام كثيرة تنظر في كتب الحديث والاضطلاح. وضابط هذا التقسيم: أن صدق الحديث إنما يرجح بما يأتي:

١ - الأنصال.

٢ - عدالة الراوي.

٣ - ضبط الراوي.

٤ - عدم الشذوذ.

٥ - عدم العلة الخفية القادحة.

والضبط ثلاث درجات:

١ - علناً.

٢ - وسطاً.

٣ - دُنياً.

فمتى استوفى الحديث كل هذه الشروط، وكان في الدرجة العليا من الضبط - كان حديثاً صحيحاً.

ومتى استوفى الحديث كل هذه الشروط، وكان في الدرجة الوسطى، أو الدنيا - كان حديثاً حسناً.

وإن فقد أحد الشروط الخمسة السابقة، سُمي ضعيفاً، والضعيف:

من المعلوم أن الخبر هو ما يحتل الصدق والكذب لذاته، والصدق هو مطابقة النسبة الحكمية للنسبة الواقعية.

١ - قال الجمهور: إذا ترجح صدق الخبر على كذبه؛ بأن استوفى شروط القبول؛ وجب العمل به.

ومما يدل على ذلك: إجماع الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - على وجوب العمل بأخبار الأحاد؛ حيث نقل عنهم - رضي الله عنهم - الاستدلال بخبر الواحد؛ كما نقل عنهم العمل بها في الوقائع المختلفة، وتكرر ذلك وشاع بينهم، ولم ينكر عليهم أحد ذلك، ولو كان، لثقل إلينا؛ حيث إن ذلك يوجب العلم العادي باتفاقهم؛ كالقول الصريح.

وصرح الجبائي وأتباعه من المعتزلة: بأن التعبد به محال عقلاً، وهذا باطل مردود.

وقال الحافظ ابن حجر: اتفق العلماء على وجوب العمل بكل ما صح، ولو لم يخرج الشنخان.

وقال ابن القيم: الذي ندين لله به، ولا يسعنا غيره أن الحديث الصحيح إذا صح عن رسول الله ﷺ،

ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه أن الفرض علينا، وعلى الأمة الأخذ به، وترك ما خالفه، ولا نتركه

لخلاف أحد من الناس.

الرسول في شيء مما علم بالضرورة أنه ليس من دين محمد عليه الصلاة والسلام.

= ينظر الباعث الحثيث: ٤٣/١، وقواعد التحديث للقاسمي: ص ٨٧.

منه ما هو مُعْتَبَرٌ به، ومنه غير مُعْتَبَرٍ به.

فإذا فقد الحديث الاتصال، أو فقد الضبط، أو إذا لم تثبت عدالة الراوي؛ بأن كان مجهول العين، أو الحال - كان الحديث ضعيفاً، لكنه لم يفقد صفة الاعتبار به؛ بحيث إذا قوّي بغيره، فإنه يرتفع من الضعيف إلى الحسن، ويسمى حسناً لغيره؛ كما أن الحديث الحسن لذاته إذا تقوّي بغيره وتعدّد، يرتفع إلى درجة الصحيح، ويسمى صحيحاً لغيره.

وإذا كان الضعف من قبل الطعن في العدالة، فإن كان الطعن بالكذب على رسول الله - ﷺ -، فهو الحديث الموضوع، لا يصلح لأن يزوى إلا لبيان حاله، أو كان الطعن بثبوت الراوي بالكذب عليه - بأن كان يكذب في أحاديث الناس -، أو ثبت عليه الفسق المخرج عن العدالة؛ كالسرقة، أو القتل، أو الغيبة، أو التميمية من سائر الكبائر، أو الإضرار على الصغائر - فهذا الراوي لا يعتد بحديثه، ولا يكتب حديثه ليقوى غيره، وإنما يروى حديثه فقط لبيان حاله.

والكذب: هو عَدَمُ المطابقة بين النسبة الحكمية والنسبة الواقعية؛ فمثلاً: إذا كان الشيء واقعاً، وأخبرت به، فإن هذا الإخبار يحتمل الصدق؛ كما يحتمل الكذب أيضاً، وإنما يرفع احتمال الكذب فيه الدليل القطعي. والدليل القطعي هو الذي يرفع احتمال التقيض عقلاً؛ كما أنه ليس عندنا في الأخبار ما يرفع احتمال التقيض فيها، إلا إذا كان المخبر صادقاً بالدليل العقلي، مثل: أخبار الله عز وجل - وأخبار رسله - صلوات الله عليهم أجمعين - كذلك أخبار التواتر.

وإذا كان الإخبار غير هذه الثلاثة، فإنه لا يفيد القطع؛ لأن احتمال الكذب ما زال باقياً.

أما إذا كان الإخبار من مخبر صادق عدل ضابط، رجح أن يكون مطابقاً للواقع، وتطرق إليه احتمال ألا يكون مطابقاً للواقع؛ لاحتمال النسيان، أو الغلط، أو الوهم، إلى غير ذلك من احتمالات.

ومن ناحية أخرى: فإنه إذا تقوّي هذا الاحتمال بمعارض راجح، فإن الخبر يصير شاذاً، ولا يقبل أما إذا تعددت الطبقات، وجب أن تتوفر في كل طبقة منها العدالة، والضبط، وعدم الشذوذ، كما يجب أن يثبت الاتصال، والعدالة والضبط، وعدم المعارض الراجح من جميع الطبقات.

أما إذا قسنا خبر الواحد بغيره من الأخبار التي تساويه في القوة، فوجدنا اختلافاً من غير ترجيح، فإنه لا يكون راجح الصدق؛ وعلى ذلك قلنا: إن خبر الواحد الذي استوفى شروط القبول الخمسة - التي عرضناها سابقاً - وليس خبراً لله ولا لرسوله، ولا متواتراً - يفيد ظناً لا قطعاً.

وترتب على ذلك أمور هي:

١ - جواز وجود المعارض المساوي من غير نسخ.

٢ - لا يعارض المتواتر بحال.

٣ - ترجيح الأقوى من المتعارضين.

٤ - ليس الصدق مطرداً فيه.

٥ - لا يجب تخطئة المجتهد لمخالفته.

خير الواجد المحقق بالقرائن.

إذا كانت هناك قرائن خارجية، تمنع احتمال التقيض، فإن الأكثرين من الفقهاء رأوا أن خبر الواحد لا يفيد القطع؛ وذلك لأن الذي يفيد القطع القرائن لا الخبر. بينما ذهب إمام الحرمين، والغزالي، والآمدي، والإمام الرازي، وابن الحاجب، ورواية عن أحمد: إلى أنه يفيد القطع.

وذهب ابن حجر إلى أن الخبر المصحف بالقرائن أنواع:

ومثاله من أنكر وجود الصّانع، أو كونه عالماً مختاراً، أو كونه واحداً، أو كونه منزهاً عن النّقائص والآفات، أو أنكر نبوة محمد - ﷺ -؛ كوجوب الصّلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الربا والخمر، فذلك يكون كافراً.

فأما الذي يعرف بالدليل أنه من دين محمد مثل كونه عالماً بالعلم أو بذاته، وأنه مرثي أو غير مرثي، وأنه خالق أعمال العباد أم لا، فلم ينقل بالتواتر القاطع للعدّ، فلا جرم لم يكن إنكاره والإقرار به داخلاً في ماهية الإيمان، فلا يكون موجباً للكفر، والدليل عليه أنه لو كان جزءاً من ماهية الإيمان لكان يجب على الرسول ألا يحكم بإيمان أحد إلا بعد أن يعرف أنه عرف الحق في تلك المسألة بين جميع الأمة؛ ولنقل ذلك على سبيل التواتر، فلماً لم ينقل ذلك دلّ على أنه - عليه الصلاة والسلام - ما وقف الإيمان عليها، ولما لم يكن كذلك وجب ألا تكون معرفتها من الإيمان، ولا إنكارها موجباً للكفر، ولأجل هذه القاعدة لا يكفر أحد من الأمة من أرباب التأويل، وأما الذي لا سبيل إليه إلا برواية الآحاد، فظاهر أنه لا يمكن توقّف الكفر والإيمان عليه، والله أعلم.

فصل في الردّ على المعتزلة

احتجت المعتزلة بكل ما أخبر الله عن شيء ماض مثل قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا»، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح: ١] على أن كلام الله محدث، سواء كان الكلام هذه الحروف، أو الأصوات، أو كان شيئاً آخر.

- ١ - ما يختص بما أخرجه الشّيخان في الصّحّيحين، ممّا لم يبلغ حدّ التواتر؛ فإنه احتفّ بقرائن كثيرة، كجلالة الشّيخين في هذا الشأن، ومكانتهما في تمييز الصّحيح، وتلقّي العلماء للصّحّحين بالقبول.
- ٢ - المَشْهُورُ: إذا كانت له طرقٌ مُتَبَايِنَةٌ، سالمة من ضَعْفِ الرُّوَاةِ والعِلَلِ.
- ٣ - ما رواه الأئمّة الحفّاظ المتقنون: حيث لا يكون غريباً مثلاً، يروي الإمام أحمدُ بنُ حنبل حديثاً، ويشاركه فيه غيره عن الشّافعيّ، ويشاركه فيه غيره عن مالك؛ فإنّه يفيد الحكم عند سامعيه بالاستدلال من جهة جلالة رَوَاتِهِ، لأنّ فيهم من الصّفاتِ اللَّائِقَةِ الموجبة للقبول، ما يقوم مقام العدد الكثير من غيرهم.

ينظر البحر المحيط للزركشي: ٢٥٧/٤، البرهان لإمام الحرمين: ٥٩٩/١، سلاسل الذهب للزركشي: ٣١٨، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٣٠/٢، نهاية السؤل للإسنوي: ٩٧/٣، زوائد الأصول له: ٣٣٦، منهاج العقول للبدخشي: ٣١٧/٢، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ٩٧، التحصيل من المحصول للآرموي: ١٣٠/٢، المنحول للغزالي: ٢٤٥، المستصفى له: ١٤٥/١، حاشية البناي: ١٣١/٢، الإيهاج لابن السبكي: ٢٩٩/٢، الآيات البينات لابن قاسم العبادي: ٢١٥/٣، حاشية العطار على جمع الجوامع: ١٥٧/٢، المعتمد لأبي الحسين: ٩٢/٢، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ١١٢/١، التحرير لابن الهمام: ٣٣١، تيسير التحرير لأمير بادشاه: ٣٧/٣، كشف الأسرار للنسفي: ٢/١٩، حاشية التفنازاني والشريف على مختصر المنتهى: ٥٥/٢، ٥٨، شرح المنار لابن ملك: ٧٨، ميزان الأصول للسمرقندي: ٦٢٩/٢، تقریب الوصول للشنقيطي: ١٢١، إرشاد الفحول للشوكانبي: ٤٦، الكوكب المنير للفتوح: ٢٦٣، التقرير والتحجير لابن أمير الحاج: ٢٧١/٢.

قالوا: لأن الخبر^(١) على هذا الوجه لا يكون صدقاً إلا إذا كان مسبوقاً بالمخبر عنه، والقديم يستحيل أن يكون مسبوقاً بالغير، فهذا الخبر يستحيل أن يكون قديماً، فيجب أن يكون محدثاً.

أجاب القائلون بقدم الكلام عنه بوجهين:

الأول: أن الله - تعالى - كان في الأزل عالماً بأن العالم سيوجد، فلما أوجده انقلب العلم بأنه سيوجد في المستقبل علماً بأنه قد حدث في الماضي، ولم يلزم حدوث علم الله تعالى، فلم لا يجوز أيضاً أن يقال: إن خبر الله - تعالى - في الأزل كان خبراً بأنهم سيكفرون، فلما وجد كفرهم صار ذلك الخبر خبراً عن أنهم قد كفروا، ولم يلزم حدوث خبر الله تعالى؟.

الثاني: أن الله - تعالى - قال: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، فلما دخلوا المسجد الحرام، ولا بد أن ينقلب ذلك الخبر إلى أنهم قد دخلوا المسجد الحرام من غير أن يتغير الخبر الأول، فإذا أجاز ذلك فلم لا يجوز في مسألتنا؟ فإن قلت: قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» صيغة جمع مع «لام» التعريف، وهي للاستغراق بظاهره، ثم إنه لا نزاع في أنه ليس المراد منها هذا الظاهر؛ لأن كثيراً من الكفار أسلموا، فعلمنا أن الله - تعالى - قد تكلم بالعام وأراد الخاص، إما لأجل أن القرينة الدالة على أن المراد من ذلك العام ذلك الخصوص كانت ظاهرة في زمان الرسول - عليه الصلاة والسلام - فحسن ذلك لعدم اللبس، وظهور المقصود، وإما لأجل أن المتكلم بالعام لإرادة الخاص جائز، وإن لم يكن البيان مقروناً به عند من يجوز تأخير بيان التخصيص عن وقت الخطاب، وإذا ثبت ذلك ظهر أنه لا يمكن التمسك بشيء من صيغ العموم على القطع بالاستغراق، لاحتمال أن المراد منها هو الخاص، وكانت القرينة الدالة على ذلك ظاهرة في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا جرم حسن ذلك، وعدم العلم بوجود قرينة لا يدل على العدم.

وإذا ثبت ذلك ظهر أن استدلال المعتزلة بعمومات الوعيد على القطع بالوعيد في نهاية الضعف، والله أعلم.

فصل في المذهب الحق في «تكليف ما لا يطاق»

قال ابن الخطيب^(٢): احتج أهل السنة بهذه الآية وما أشبهها على تكليف ما لا يطاق وتقريره: أنه - تعالى - أخبر عن شخص معين أنه لا يؤمن قط، فلو صدر منه الإيمان لزم انقلاب خبر الله - تعالى - الصدق كذباً، والكذب عند الخصم قبيح، وفعل القبيح يستلزم إما الجهل وإما الحاجة، وهما مُحالان على الله تعالى، والمفضي إلى المُحال محال، فصدور الإيمان منه مُحال، فالتكليف به تكليف بالمحال، وقد يذكر هذا

في صورة العلم، وهو أنه - تعالى - لما علم منه أنه لا يؤمن، فكان صدور الإيمان منه يستلزم انقلاب علم الله جهلاً، وذلك محال، ويستلزم من المُحَال محال، فالأمر واقع بالمحال. ونذكر هذا على وجه ثالث: وهو أن وجود الإيمان يستحيل أن يوجد مع العلم بأنه لا يؤمن؛ لأنه إنما يكون علماً لو كان مطابقاً للمعلوم، والعلم بعدم الإيمان يلزم أن يجتمع في الإيمان كونه موجوداً ومعدوماً معاً، وهذا مُحَال، والأمر بالإيمان مع وجود علم الله بعدم الإيمان أمر بالجمع بين الضدين، بل أمر بالجمع بين العدم والوجود، وكل ذلك مُحَال.

ونذكر هذا على وجه رابع: وهو أنه - تعالى - كلف هؤلاء الذين أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون البتة [والإيمان يعتبر فيه تصديق الله - تعالى - في كل ما أخبر عنه أنهم لا يؤمنون قط]^(١) وقد صاروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون قط، وهو مكلف بالجمع بين النفي والإثبات.

ونذكر هذا على وجه خامس: وهو أنه - تعالى - عاب الكفار على أنهم حاولوا فعل شيء على خلاف ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَنَبَّهْنَا كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، فثبت أن القصد إلى تكوين ما أخبر الله عن عدم تكوينه قصد لتبديل كلام الله، وذلك منهي عنه.

ثم ها هنا أخبر الله - تعالى - عنهم أنهم لا يؤمنون ألبتة، فمحاولة الإيمان منهم تكون قصداً إلى تبديل كلام الله، وذلك منهي عنه وترك محاولة الإيمان يكون - أيضاً - مخالفة لأمر الله، فيكون الذم حاصلًا على الترك والفعل. فهذه هي الوجوه المذكورة في هذا الموضوع وهي هادمة لأصول الاعتزال، وكل ما استدلل به المعتزلة من الآيات الواردة، فيأتي الجواب عنها عند ذكر كل آية منها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

اعلم أنه - تعالى - لما بيّن في الآية الأولى أنهم لا يؤمنون أخبر في هذه الآية السبب الذي لأجله لم يؤمنوا وهو الختم.

واعلم أن الختم والكتم أخوان وهو: الاشتياق بالشئ بضرب الخاتم عليه كتماً له وتغطية؛ لئلا يتوصل إليه، ومنه: الختم على الباب.

«على قلوبهم» متعلقة بـ «ختم»، و «على سمعهم» يحتمل عطفه على «قلوبهم»، وهو الظاهر، للتصريح بذلك، أعني: نسبة الختم إلى السمع في قوله تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] ويحتمل أن يكون خبراً مقدماً، وما بعده عطف عليه.

و «غشاوة» مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأن النكرة متى كان خبرها ظرفاً، أو حرف جر تاماً، وقدم عليها جاز الابتداء بها، [ويكون تقديم الخبر حينئذ واجباً؛ لتصحيحه الابتداء بالنكرة]^(١)، والآية من هذا القبيل، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ﴾ [الأنعام: ٢]؛ ويبتدأ بما بعده، وهو «وعلى أبصارهم غشاوة» ف «على أبصارهم» خبر مقدم، و «غشاوة» مبتدأ مؤخر.

وعلى الاحتمال الثاني يوقف على «قلوبهم»، وإنما كرر حرف الجر؛ ليفيد التأكيد ويشعر ذلك بتغاير الختمين، وهو: أن ختم القلوب غير ختم الأسماع.

وقد فرق النحويون بين «مررت بزيد وعمرو» وبين «مررت بزيد وعمرو» فقالوا في الأول هو ممرور واحد، وفي الثاني هما ممروران، وهو يؤيد ما قلته، إلا أن التعليل بالتأكيد يشمل الإعرابين، أعني: جعل «وعلى سمعهم» معطوفاً على قوله: «على قلوبهم»، وجعله خبراً مقدماً.

وأما التعليل بتغاير الختمين فلا يجيء إلا على الاحتمال الأول، وقد يُقال على الاحتمال الثاني أن تكرير الحرف يُشعر بتغاير الغشاوتين، وهو أن الغشاوة على السمع غير الغشاوة على البصر، كما تقدم ذلك في الختمين.

وقرى^(٢): غشاوة بالكسر والنصب، وبالفتح والنصب وبالضم والرفع، وبالكسر والرفع - و «غشوة» بالفتح والرفع والنصب - و «عشاوة» بالعين المهملة، والرفع من العشا.

فأما النصب ففيه ثلاثة أوجه:

الأول: على إضمار فعل لائق، أي: وجعل على أبصارهم غشاوة، وقد صرح بهذا العامل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

والثاني: الانتصاب على إسقاط حرف الجر، ويكون «على أبصارهم» معطوفاً على ما قبله، والتقدير: ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم بغشاوة، ثم حذف حرف الجر، فانتصب ما بعده؛ كقوله: [الوافر]

١٥٩ - تَمُرُونَ الدِّيَارَ فَلَمْ تَعُوجُوا كَلَامُكُمْ عَلَيَّ إِذْنٌ حَرَامٌ^(٣)

(١) سقط في أ.

(٢) رواه المفضل الضبي عن عاصم يعني - غشاوة -، وبالضم والرفع قرأ الحسن وزيد بن علي، وقرأ أبو جعفر بفتح الغين.

انظر الشواذ: ٢، والحجة للقراء السبعة: ٢٩١/١، وإعراب القراءات: ٦١/١، البحر المحيط: ١/ ١٧٧، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٧٧/١، والقرطبي: ١٣٤/١.

(٣) البيت لجبرير ينظر ديوانه: ص ٢٧٨، والأغاني: ١٧٩/٢، وتخليص الشواهد: ص ٥٠٣، وخزانة الأدب: ١١٨/٩، ١١٩، ١٢١، والدرر: ١٨٩/٥، وشرح شواهد المغني: ٣١١/١، ولسان العرب =

أي: تمرّون بالديار، ولكنه غير مقيس.

والثالث: أن يكون «غشاوة» اسماً وضع موضع المصدر الملاقي لـ «خَتَمَ» في المعنى؛ لأن الخَتَمَ والتغشية يشتركان في معنى السّتر، فكأنه قيل: «وختم تغشية» على سبيل التأكيد، فهو من باب «قعدت جلوساً»، وتكون «قلوبهم وسمعهم وأبصارهم مختوماً عليها مغشاة».

وقال الفارسي: قراءة الرفع الأولى، لأن النّصب إما أن تحمله على ختم الظاهر، فيُعْرَضُ من ذلك أنك حُلّت بين حرف العطف والمعطوف به، وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدلّ عليه «ختم»، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، فهذا الكلام من باب: [الكامل]

١٦٠ - يَأْتِيَتْ زَوْجُكِ قَدْ غَدَا مُتَقَلِّداً سَيْفَاً وَرَفْحَاً^(١)
وقوله: [الرجز]

١٦١ - عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِداً حَتَّى شَتَّتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا^(٢)
ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سَعَةٍ، ولا اختيار.

واستشكل بعضهم هذه العبارة، وقال: لا أدري ما معنى قوله؛ لأن النصب إما أن تحمله على «خَتَمَ» الظاهر، وكيف تحمل «غشاوة» المنسوب على «ختم» الذي هو فعل هذا ما لا حمل فيه؟

قال: اللّهم إلا أن يكون أراد أن قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم» دعاء عليهم لا خَبَر، ويكون «غشاوة» في معنى المصدر المدعو به عليهم القائم مقام الفعل، فكأنه قيل:

= (مرر)، والمقاصد النحوية: ٥٦٠/٢، وشرح ابن عقيل: ص ٢٧٢، وشرح المفصل: ٨/٨، ٩/١٠٣، ومغني اللبيب: ١٠٠/١، ٤٧٣/٢، والمقرب: ١١٥/١، الأشباه والنظائر: ١٤٥/٦، ٥٢/٨، همع الهوامع: ٨٣/٢، الدر المصون: (١٠٦/١).

(١) البيت لعبد الله بن الزبير. ينظر الخصائص: (٤٣١/٢)، أمالي ابن الشجري: (٢٣١/٢)، الإنصاف: (٦١٢/٢)، شرح المفصل: (٥٠/٢)، الكامل: (٣٣٤/١)، مجاز القرآن: (٦٨/٢)، تأويل المشكل: (٢١٤)، شرح القصائد العشر: (٢٤٧)، المقتضب: (٥٠/٢)، معاني القرآن: (١/٤٨)، ومجمع البيان: (٩٤/١)، والحجة: (٢٣٣/١)، والمقتصد في شرح الإيضاح: (١/٦٦٢)، وشرح ديوان الحماسة: (١١٤٧/٣)، المخصص: (٢٣٢/١٤)، ودرة الغواص: (٨٩)، واللسان (مسح، قلد، جمع) وخزانة الأدب: (٣١/٢)، (١٤٢/٣)، (١٤٢/٩)، البحر المحيط: (١/١٧٧)، الدر: (١٠٧/١).

(٢) البيت لذي الرمة وليس في ديوانه. ينظر الخصائص: ٣٢١/٢، شرح المفصل لابن يعيش: ٨/٢، الهمع: ١٣٠/٢، الإنصاف: ٦١٣/٢، معاني الفراء: ١٤/١، ١٢٤/٣، الدرر: ١٦٩/٢، العيني: ١٠١/٣، تأويل مشكل القرآن: (٢١٣)، شرح المفضليات: ١٢٦/١، ابن الشجري: ٣٢١/٢، أوضح المسالك: ٢٩٨/١، المغني: ٦٣٢/٢، اللسان (قد)، والدر المصون: ١٠٧/١.

وَعَشَى الله على أبصارهم، فيكون إذ ذاك معطوفاً على «ختم» عطف المصدر النائب مناب فعله في الدعاء، نحو: «رحم الله زيدا وسُقياً له» فتكون إذ ذاك قد حُلَّت بين «غشاوة» المعطوف وبين «خَتَمَ» المعطوف عليه بالجار والمجرور. وهو تأويل حسن، إلا أن فيه مناقشة لفظية؛ لأن الفارسي ما ادعى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه إنما ادعى الفصل بين حرف العطف والمعطوف به أي بالحرف، فتحرير التأويل أن يقال: فيكون قد حُلَّت بين غشاوة وبين حرف العطف بالجار والمجرور.

والقراءة المشهورة بالكسر؛ لأن الأشياء التي تدلّ على الاشتمال تجيء أبداً على هذه الرُنة كالعصاة والعِمامة.

والغِشاوة فعالة: الغطاء من غشاه إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء، ومنه غشي عليه، وَالْغِشْيَانُ كناية عن الجَماع.

و «القلب» أصله المصدر، فسمي به هذا العضو الصَّنَوْبَرِي؛ لسرعة الخواطر إليه وترددها عليه، ولهذا قال: [البسيط]

١٦٢ - مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ ثَقَلِهِ فَاخْذَرْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَخْوِيلٍ^(١)
ولما سمي به هذا العضو التزموا تفخيمه فرقاً بينه وبين أصله، وكثيراً ما يراد به العقل ويطلق أيضاً على لُب كل شيء وخالصة.

و «السمع» و «السماع» مصدران لـ «سمع»، وقد يستعمل بمعنى الاستماع؛ قال: [البسيط]

١٦٣ - وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكْزاً مُقْفِرٌ نَدُسَ بِنَبْأَةِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبٌ^(٢)
أي: ما في استماعه. و «السَّمْع» - بالكسر - الذُّكر بالجميل، وهو - أيضاً - ولد الذئب من الضَّبُع، ووحد وإن كان المراد به الجمع كالذي قبله وبعده؛ لأنه مصدر حقيقة، يقال: رَجُلَانِ صَوْمٌ، ورجال صوم، ولأنه على حذف مضاف، أي: مواضع سمعهم، أو حواس سمعهم، أو يكون كني به عن الأذن، وإنما وحَّده لفهم المعنى؛ كقوله [الوافر]

١٦٤ - كُلُّوا فِي بَغْضِ بَطْنِكُمْ تَعْفُوا فَلِإِنْ زَمَانِكُمْ زَمَنْ خَمِصُ^(٣)
أي: بطونكم.

(١) ينظر الدر المصون: ١٠٨/١، واللسان (قلب) ورواية العجز:

والرأي يصرف بالإنسان أطوارا

(٢) البيت لذي الرمة ينظر ديوانه: (٨٩)، واللسان (نبا)، والدر المصون: ١٠٨/١.

(٣) البيت من شواهد الكتاب: ٢١٠/١، أمالي ابن الشجري: ١٠٨/١، والمحتسب: ٨٧/٢، شرح المفصل: ٨/٥، والهمع: ٥٠/١، والدر المصون: ١٠٨/١.

ومثله قال سيبويه: «إنه وإن وُحِدَ لفظ السمع إلا أن ذكر ما قبله وما بعده بلفظ الجمع دليل على إرادة الجمع».

ومنه أيضاً قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ [ق: ١٧]؛ قال الراعي.

١٦٥ - بِهَا جَيْفُ الْحَسْرِى فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ^(١)
أي: جلودها.

وقرأ ابن أبي عبلة^(٢): «أسماعهم».

قال الزمخشري: واللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم، وفي حكم التَغْشِيَةِ، إلا أن الأولى دخولها في حكم الختم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشْنَوَةً﴾.

و «الأبصار»: جمع بصر، وهو نور العين الذي يدرك به المراتب.

قالوا: وليس بمصدر لجمعه، ولقائل أن يقول: جمعه لا يمنع كونه مصدراً في الأصل، وإنما سهل جَمْعُهُ كَوْنُهُ سمي به نور العين، فَهُجِرَتْ فيه معنى المصدرية، كما تقدم في قلوب جمع قلب.

وقد قلتم: إنه في الأصل مصدر ثم سمي به، ويجوز أن يكنى به عن العين، كما كني بالسمع عن الأذن، وإن كان السمع في الأصل مصدراً كما تقدم.

وقرأ أبو عمرو والكسائي^(٣): «أبصارهم» بالإمالة، وكذلك كل ألف بعدها مجرورة في الأسماء كانت لام الفعل يميلانها.

ويميل حمزة منها ما تكرر فيه الراء «كالقرار» ونحوه، وزاد الكسائي إمالة ﴿جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، و ﴿الْجَوَارِ﴾ [الشورى: ٥٢]، و ﴿بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، و ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ [آل عمران: ٥٢] و ﴿شَارِعُ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وبابه، وكذلك يميل كل ألف هي بمنزلة لام الفعل، أو كانت علماً للتأنيث مثل: ﴿الْكُزَيَّ﴾ [طه: ٢٣]، و ﴿الْأُخْرَى﴾ [الزمر: ٤٢]، ولام الفعل مثل: ﴿يَرَى﴾ [البقرة: ١٦٥]، و ﴿أَفَرَأَى﴾ [آل عمران: ٩٤] يكسرون الراء منها.

(١) البيت لعلقمة بن عبدة. ينظر ديوانه: (٤٠)، والكتاب: ٢٠٩/١، المفضليات: (٣٩٤)، والدر المصون: ١٠٨/١.

(٢) قرأ بها ابن أبي عبلة. انظر الكشف: ٥٣/١، والدر المصون: ١٠٨/١، والقرطبي: ١٣٣/١.

(٣) قرأ بالإمالة أيضاً ورش انظر حجة القراءات: ٨٧، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه: ١/٦٠، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٧٦/١.

و «الغشاوة»: الغطاء. قال: [الطويل]

١٦٦ - تَبَعْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي الْوُمَهَا^(١)

وقال: [البسيط]

١٦٧ - هَلَّا سَأَلْتُ بَنِي ذُبْيَانَ مَا حَسَبِي إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرِمَا^(٢)

وجمعها «غِشَاءٌ»، لما حذف الهاء قلبت الواو همزة.

وقيل: «غشاي» مثل «أداوي».

قال الفارسي: لم أسمع من «الغشاوة» فعلاً متصرفاً بـ «الواو»، وإذا لم يوجد ذلك، وكان معناها معنى ما «اللام» منه «الياء»، وهو غشي بدليل قولهم: «الغَشْيَانُ»، و «الغشاوة» من غشي كـ «الجَبَاوة» من جبيت في أن «الواو» كأنها بدل من «الياء»، إذ لم يُصَرَّفْ منه فعل كما لم يُصَرَّفْ من الجباوة. وظاهر عبارته أن «الواو» بدل من «الياء»، و «الياء» أصل بدليل تصرف الفعل منها دون مادة «الواو».

والذي يظهر أن لهذا المعنى مادتين «غ ش و»، و «غ ش ي»، ثم تصرفوا في إحدى المادتين، واستغنوا بذلك عن التصرف في المادة الأخرى، وهذا أقرب من ادعاء قلب «الواو» «ياء» من غير سبب، وأيضاً «الياء» أخف من «الواو»، فكيف يقبلون الأخف للأثقل؟

و «لهم» خبر مقدم فيتعلق بمحذوف، و «عذاب» مبتدأ مؤخر، و «عظيم» صفة. والخبر - هنا - جائز التقديم؛ لأن للمبتدأ مسوغاً وهو وصفه ونظيره: «وَأَجَلَ مُسَيَّ عِنْدُ» [الأنعام: ٢] من حيث الجواز.

والعذاب في الأصل: الاستمرار، ثم سمي به كل استمرار ألم.

وقيل أصله: المنع، وهذا هو الظاهر، ومنه قيل للماء: عَذَبٌ؛ لأنه يمنع العطش، والعذاب يمنع من الجريمة.

«عظيم» اسم فاعل من «عَظُمَ»، نحو: كريم من «كَرُمَ» غير مذهب به مذهب الزمان، وأصله أن توصف به الأجرام، ثم قد توصف به المعاني.

وهل هو و «الكبير» بمعنى واحد أو هو فوق «الكبير»؛ لأن العظيم يقابل الحقيق، والكبير يقابل الصغير، والحقيق دون الصغير؟ قولان.

(١) البيت للحارث بن خالد المخزومي. ينظر مجاز القرآن: ٣١/١، القرطبي: ١٣٤/١، الطبري: ١/٢٦٥، واللسان (غشا)، والدر المصون: ١٠٨/١.

(٢) البيت للناطقة. ينظر ديوانه: ١١٢، الطبري: ١٤٨/١، المحرر: ١٨/١، القرطبي: ١٣٤/١، الدر: ١٠٩/١.

و «فَعِيل» له معانٍ كثيرة، يكون اسماً وصفة، والاسم مفرد وجمع، والمفرد اسم معنى، واسم عين، نحو: «قَمِيصٌ وظَرِيفٌ وصَهِيلٌ وكلِيبٌ جمع كلب». والصفة مفرد «فُعْلَةٌ» كـ «عَزَيٌّ» يجمع على «عُزَاةٌ» ومفرد «فُعْلَةٌ» كـ «سَرِيٌّ» يجمع على «سَرَاةٌ».

ويكون اسم فاعل من «فَعُلَ» نحو: عَظِيمٌ من عَظُمَ كما تقدم. ومبالغة في «فَاعِلٌ»، نحو «عَلِيمٌ من عالم».

وبمعنى «أَفْعَلٌ» كـ «شَمِيطٌ» بمعنى: «أَشْمَطٌ»، و «مَفْعُولٌ» كـ «جَرِيحٌ» بمعنى: مجروح، و «مُفْعِلٌ» كـ «سَمِيعٌ» بمعنى: «مُسْمِعٌ»، و «مُفْعَلٌ»، كـ «وَلِيدٌ» بمعنى: مُوَلَّدٌ، و «مُفَاعِلٌ»، كـ «جَلِيسٌ» بمعنى: مُجَالِسٌ، و «مُفْعَلٌ»، كـ «بَدِيعٌ» بمعنى: مُبْتَدِعٌ، و «مُتَفَعِّلٌ» كـ: «سَعِيرٌ» بمعنى: «مُتَسَعِّرٌ»، و «مُسْتَفْعَلٌ» كـ «مَكِينٌ» بمعنى: «مُسْتَمَكِنٌ». و «فَعَلٌ» كـ «رَطِيبٌ» بمعنى: «رَطْبٌ»، و «فَعَلٌ» كـ «عَجِيبٌ» بمعنى: «عَجَبٌ» و «فِعَالٌ» كـ «صَحِيحٌ» بمعنى: صَحَاحٌ، وبمعنى: «الفاعل والمفعول» كـ «صَرِيخٌ» بمعنى: «صارخ ومصروح».

وبمعنى الواحد والجمع نحو: «خَلِيطٌ»، وجمع فاعل كـ «غَرِيبٌ» جمع غارب.

فصل في أيهما أفضل: السمع أو البصر؟

من الناس من قال: السَّمْعُ أفضل من البَصَرِ؛ لأن الله - تعالى - حيث ذكرهما قدم السَّمْعَ على البصر، والتقديم دليلٌ على التفضيل، ولأنَّ السمع شرط النبوة بخلاف البَصَرِ، ولذلك ما بعث الله رسولاً أَصَمَّ، وقد كان فيهم الأعمى، ولأنَّ بالسَّمْعِ تصلُ نتائج عقول البعض إلى البعض، فالسمع كأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف، والبَصَرُ لا يوقفك إلا على المحسوسات، ولأنَّ السمع متصرف في الجهات الست بخلاف البَصَرِ، ولأنَّ السمع متى بطل فقد بطل النطق، والبصر إذا بطل لم يبطل النطق. ومنهم من قدم البصر؛ لأنَّ آلة القوة الباصرة أشرف، ولأنَّ متعلق القوة الباصرة هو النور، ومتعلق القوة السَّامعة هو الريح.

فصل في ألفاظ وردت بمعنى الختم

الألفاظ الواردة في القرآن القريبة من معنى الخَتم هي «الطَّبْعُ» و «الكنان» و «الرين» على القلب، و «الوقر» في الأذن، و «الغشاوة» في البصر. واختلف الناس في هذا الخَتم: فالقائلون بأن أفعال العباد مخلوقة لله - تعالى - فهذا الكلام على مذهبهم ظاهر، ثم لهم قولان: منهم من قال: الختم هو خلق الكُفَر في قلوب الكفار.

ومنه من قال: هو خلق الدّاعية التي إذا انضمت إلى القدرة صار مجموع القدرة معها سبباً موجباً لوقوع الكُفْرِ.

وأما المعتزلة فأولوا هذه الآية، ولم يجروها على ظاهرها.

أما قوله تعالى: «لهم عذاب عظيم» أي: في الآخرة.

وقيل: الأسر والقَتْل في الدنيا، والعذاب الدائم في العُقْبَى.

و «العذاب» مشتق من «العَذْب» وهو القُطْع، ومنه سمي الماء الفرات عَذْباً؛ لأنه يقطع العطش.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾

«من الناس» خبر مقدم، و «من يقول» مبتدأ مؤخر، و «مَن» تحتل أن تكون موصولة، أو نكرة موصوفة أي: الذي يقول، أو فريق يقول، فالجملة على الأول لا محل لها؛ لكونها صلة، وعلى الثاني محلها الرفع؛ لكونها صفة للمبتدأ.

واستضعف أبو البقاء أن تكون موصولة، قال: لأن «الذي» يتناول قوماً بأعيانهم، والمعنى هنا على الإبهام.

وهذا منه غير مسلم؛ لأن المنقول أن الآية نزلت في قوم بأعيانهم كعبد الله بن أبي ورهطه.

وقال الزمخشري: إن كانت أل للجنس كانت «مَن» نكرة موصوفة كقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وإن كانت للعهد كانت موصولة، وكأنه قصد مناسبة الجنس للجنس، والعهد للعهد، إلا أن هذا الذي قاله غير لازم، بل يجوز أن تكون «أل» للجنس، وتكون «مَن» موصولة، وللعهد و «مَن» نكرة موصوفة.

وزعم الكسائي أنها لا تكون نكرة إلا في موضع تختص به النكرة؛ كقوله: [الرمل]

١٦٨ - رَبُّ مَن أَنْصَبَتْ غَيْظاً صَدْرَهُ لَوْ تَمَنَّى لِي مَوْتاً لَمْ يُطْع^(١)

وهذا الذي قاله هو الأكثر، إلا أنها قد جاءت في موضع لا تختص به النكرة؛

قال: [الكامل]

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل. ينظر خزانة الأدب: ٢٣/٦، ٢٥٢، والدرر: ٣٠٢/١، والأغاني: ١٣/

٩٨، وشرح اختيارات المفضل: ص ٩٠١، وشرح شواهد المغني: ٧٤٠/٢، والشعر والشعراء: ١/

٤٢٨، الأشموني: ٧٠/٢، وشرح شذور الذهب: ص ١٧٠، وشرح المفصل: ١١/٤، ومغني

اللبيب: ٣٢٨/١، الأمالي الشجرية: ١٦٩/٢، معاني القرآن: ١٩٨، الهمع: ٩٢/١، ٢٦/٢، الدر:

١١٠/١.

١٦٩ - فَكَفَىٰ بِنَا فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ غَيْرُنَا (١)

و «من» تكون موصولة، ونكرة موصوفة كما تقدّم، وشرطية واستفهامية.
وهل تقع نكرة غير موصوفة، أو زائدة؟ فيه خلاف. واستدل الكسائي على زيادتها بقول عنترة: [الكامل]

١٧٠ - يَا شَاةَ مَنْ قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرَمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمَ (٢)
ولا دليل فيه، لجواز أن تكون موصوفة بـ «قَنَصٍ» إما على المبالغة، أو على حذف مضاف، وتصلح للثنائية والجمع والواحد.

فالواحد كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] والجمع كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَعِجُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢]، والسبب فيه أنه موحد اللفظ مجموع المعنى. و «مَنْ» في «من الناس» للتبعض، وقد زعم قوم أنها لِلْبَيَانِ وهو غلط؛ لعدم تقدم ما يتبين بها. و «النَّاسُ» اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويرادفه «أَنَاسِي» جمع إنسان أو إنسي، وهو حقيقة في الآدميين، ويطلق على الجن مجازاً.

واختلف النحويون في اشتقاقه: فمذهب سيبويه والفراء أن أصله همزة ونون وسين، والأصل: أناس اشتقاقاً من الأنس، قال: [الطويل]

١٧١ - وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأَنْسِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ (٣)
لأنه أنس بـ «حواء».

وقيل: بل أنس بربه ثم حذفت الهمزة تخفيفاً؛ يدلّ على ذلك قوله: [الكامل]

١٧٢ - إِنَّ الْمَنَائِيَا يَطْلِفُ نَّ عَلَى الْأَنَاسِ الْأَمْنِيَا (٤)
وقال آخر: [الطويل]

١٧٣ - وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ (٥)

(١) تقدم برقم (١٢).

(٢) ينظر ديوانه: ص ٢١٣، والأزهية: ص ٧٩، ١٠٣، ولسان العرب (شوه)، وخزانة الأدب: ١٣٠/٦، ١٣٢، وشرح شواهد المغني: ٤٨١/١، وشرح المفصل: ١٢/٤، والأشباه والنظائر: ٣٠٠/٤، خزانة الأدب: ٣٢٩/١، المغني: ٣٢٩/١، شرح جمل الزجاجة لابن عصفور: ٤٥٨/٢، الضرائر لابن عصفور: ٨١، ارتشاف الضرب: ٥٤٦/١، الدر: ١١٠/١.

(٣) ينظر القرطبي: ١٣٥/١، الدر: ١١٠/١.

(٤) تقدم برقم (٢٩).

(٥) البيت للأخنس بن شهاب التغلبي. ينظر المفضليات: ٢٠٨، ابن يعيش: ٥٨/٨، شرح ديوان الحماسة: ٧٢٨/٢، اللسان والتهذيب (سرب)، شرح المفضليات: ٧٦٥/٢، إصلاح المنطق: ٢٠١، شرح جمل الزجاجة لابن عصفور: ٦٢٢/١، ١٣/٢، الدر: ١١١/١.

وقال آخر: [الطويل]

١٧٤ - وَكُلُّ أَنَاثٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُونَهُنَّ تَضْفَرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ^(١)

وذهب الكسائي إلى أنه من «نون وواو وسين» والأصل: «نوس» فقلبت «الواو» «ألفاً» لتحركها، وانفتاح ما قبلها، والتَّوَسُّ: الحركة.

وذهب بعضهم إلى أنه من «نون وسين وياء»، والأصل: «نسي»، ثم قلبت «اللام» إلى موضع العين، فصار: «نيس» ثم قلبت «الياء» «ألفاً» لما تقدم في «نوس»، قال: سموا بذلك لنسيانهم؛ ومنه الإنسان لنسيانه؛ قال: [البسيط]

١٧٥ - فَإِنْ نَسِيتَ عُهْدًا مِنْكَ سَالِفَةً فَاعْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ^(٢)

ومثله: [الكامل]

١٧٦ - لَا تَنْسِينَ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ إِنْسَانًا لِإِنَّكَ نَاسِي^(٣)

فوزنه على القول الأول: «عال»، وعلى الثاني: «فعل»، وعلى الثالث: «فلع» بالقلب. و «يقول»: فعل مضارع، وفاعله ضمير عائد على: «من».

والقول حقيقة: اللفظ الموضوع لمعنى، ويطلق على اللفظ الدال على النسبة الإسنادية، وعلى الكلام النفساني أيضاً، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]. وتراكيبه الستة وهي: «القول»، و «اللقو»، و «القول»، و «اللقو»، و «اللقو»، و «اللقو»، تدل على الخفة والسرعة، وإن اختصت بعض هذه المواد بمعانٍ آخر.

و «القول» أصل تعديته لواحد نحو: «قُلْتُ خطبة»، وتحكى بعده الجمل، وتكون في محل نصب مفعولاً بها، إلا أن يُضْمَنَ معنى الظن، فيعمل عمله بشروط عند غير «بني سُلَيْمٍ»؛ كقوله: [الرجز]

١٧٧ - مَتَى تَقُولُ الْقُلُوصَ الرَّوَاسِمَا يُذْنِبِينَ أَمْ قَاسِمٍ وَقَاسِمَا^(٤)

(١) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه: ٢٥٦، وجمهرة اللغة: ٢٣٢، وخزانة الأدب: ١٥٩/٦، و ١٦، والدرر: ٢٨٣/٦، وسمط اللآلي: ١٩٩، وشرح شواهد الشافية: ٨٥، وشرح شواهد المغني: ١/١٥٠، ولسان العرب [خوخ]، والمعاني الكبير: ٨٥٩ و ١٢٠٦، مغني اللبيب: ١٣٦/١ و ١٩٧، الإنصاف: ١٣٩/١، وخزانة الأدب: ٩٤/١، وديوان المعاني: ١٨٨/١، وشرح الأشموني: ٣/٧٠٦، وشرح شافية ابن الحاجب: ١٩١/١، شرح شواهد المغني: ٤٠٢/١ و ٥٣٧/٢، شرح المفصل: ١١٤/٥، مغني اللبيب: ٤٨/١ و ٦٢٦/٢، مع الهوامع: ١٨٥/٢. شرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ٢٨٩/٢، الدر: ١١١/١، روح المعاني: ٢٧١/١.

(٢) ينظر تفسير القرطبي: ١٣٥/١، الدر: ١١١/١.

(٣) البيت لأبي تمام. ينظر ديوانه: ٢٤٥/٢، القرطبي: ١٣٥/١، الدر: ١١١/١.

(٤) هذا البيت لهذبة بن خشرم. ينظر الهمع: (١٥٧/١)، شرح ابن عقيل: (٤٤٧) (١٣٤)، شذور الذهب =

وبغير شرط عندهم، كقوله: [الرجز]

١٧٨ - قَالَتْ وَكُنْتُ رَجُلًا فَطِينًا هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ إِسْرَائِيلًا^(١)

و «آمنا» فعل وفاعل، و «بالله» متعلق به، والجملة في محل نصب بالقول، وكررت «الباء» في قوله: «وباليوم»، للمعنى المتقدم في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

فإن قيل: الخبر لا بدّ وأن يفيد غير ما أفاد المبتدأ، ومعلوم أنّ الذي يقول كذا هو من الناس لا من غيرهم؟

فالجواب: أنّ هذا تفصيل معنوي، لأنه تقدّم ذكر المؤمنين، ثم ذكر الكافرين، ثم عقب بذكر المنافقين، فصار نظير التفصيل اللفظي، نحو قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي﴾ [لقمان: ٦]، فهو في قوة تفصيل الناس إلى مؤمن، وكافر، ومنافق.

وأحسن من هذا أن يقال: إنّ الخبر أفاد التبعض المقصود؛ لأنّ الناس كلهم لم يقولوا ذلك، وهم غير مؤمنين، فصار التقدير: وبعض الناس يقول كَيْتَ وكَيْتَ.

واعلم أن «مَنْ» وأخواتها لها لفظ ومعنى، فلفظها مفرد مذكر، فإن أريد بها غير ذلك، فلك أن تراعي لفظها مَرَّةً، ومعناها أخرى، فتقول: جاء مَنْ قام وقعدوا، والآية الكريمة كذلك روعي اللفظ أولاً فقليل: «من يقول»، والمعنى ثانياً في «آمنا».

وقال ابن عطية^(٢): حسن ذلك؛ لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد.

فلو قلت: «ومن الناس من يقومون» وتكلم لم يجز.

وفي عبارة ابن عطية نظر، وذلك لأنه منع من مراعاة اللفظ بعد مراعاة المعنى، وذلك جائز، إلا أنّ مراعاة اللفظ أولاً أولى، يرد عليه قول الشاعر: [الخفيف]

١٧٩ - لَسْتُ مِمَّنْ يَكُحُّ أَوْ يَسْتَكِينُو نَ إِذَا كَافَحْتَهُ خَيْلُ الْأَعَادِي^(٣)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ﴾ [الطلاق: ١١] إلى أن قال: «خَالِدِينَ»، فراعى المعنى، ثم قال: «فَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا»، فراعى اللفظ بعد مراعاة المعنى، وكذا راعى

= (٤٥٤)، (١٩٧)، الدرر: (١٣٩/١)، الشعر والشعراء: (٦٩١/٢)، والمقرب: (٣٢٣/١)، وشرح الألفية: (٢١٢)، وشرح الأشموني: (٣٦/٢).

(١) ينظر الدرر: ١٣٩/١، المخصص: ٢٨٢/١٣، اللسان (يمن)، الدر: ١١١/١.

(٢) ينظر المحرر الوجيز: ٩٠/١.

(٣) ينظر البحر المحيط: ١٨٣/١، الدر: ١١٢/١.

المعنى في قوله: «أو يستكينون»، ثم راعى اللفظ في: «إذا كافحته»، وهذا الحمل جاز فيها في جميع أحوالها، أعني من كونها موصولة وشرطية، واستفهامية.

أما إذا كانت موصوفة فقال الشيخ أثير الدين أبو حيان: «ليس في محفوطي^(١) من كلام العرب مُراعاة المعنى يعني فتقول: مررت بمن محسنون لك.

و «الآخر» صفة لـ «اليوم»، وهذا مقابل الأول، ومعنى اليوم الآخر: أي عن الأوقات المحدودة.

ويجوز أن يُراد به الوقت الذي لا حَدَّ له، وهو الأبد القائم الذي لا انقطاع له، والمراد بالآخر: يوم القيامة.

«وما هم بمؤمنين» «ما»: نافية، ويحتمل أن تكون هي الجَازية، فترفع الاسم وتنصب الخبر، فيكون «هم» اسمها، و «بمؤمنين» خبرها، و «الباء» زائدة تأكيداً.

وأن تكون التَّيْمِيَّة، فلا تعمل شيئاً، فيكون «هم» مبتدأ، و «بمؤمنين» الخبر، و «الباء» زائدة أيضاً.

وزعم أبو علي الفَارِسِيّ، وتبعه الزمخشري أن «الباء» لا تزداد في خبرها إلا إذا كانت عاملة، وهذا مردود بقول الفَرَزْدَقِ^(٢)، وهو تميمي: [الطويل]

١٨٠ - لَعَمْرُكَ مَا مَغْنُ بِتَارِكِ حَقِّهِ وَلَا مُنْسِيءٌ مَغْنٌ وَلَا مُتَيْسِّرُ^(٣)

إلا أنَّ المختار في «ما» أن تكون جَازية؛ لأنه لما سقطت «الباء» صرح بالنصب قال الله تعالى: ﴿مَا هُكِّ أُمَّهُتِهِنَّ﴾ [المجادلة: ٢] ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ١١٠هـ].

(١) في أ: مخطوطي.

(٢) هَمَام بن غالب بن صعصعة التميمية الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفَرَزْدَق: شاعر، من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كما يقال: لولا شعر الفَرَزْدَق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس، يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين والفَرَزْدَق في الإسلاميين، لقب بالفَرَزْدَق لجهامة وجهه وغلظه. توفي سنة ١١٠هـ. انظر ابن خلكان: ١٩٦/٢، الأعلام: ٩٣/٨.

(٣) ينظر البيت في ديوانه: (٢٧٠)، الكتاب: (٦٣/١)، أمالي القاضي: (٨٢/٣)، الخزانة: (١٨١/١)، الهمع: (١٢٨/١)، الدر: (١٠٢/١)، شرح أبيات مغني اللبيب: ٢٧١/٤، وشرح الكافية الشافية: (٤٣٦/١)، والدر المصون: ١١٢/١. ووضع الظاهر مقام المضمحل إن كان في معرض التفخيم، جاز قياساً؛ كقوله تعالى: «الحاقة ما الحاقة» أي: ما هي، وإن لم يكن في معرض التفخيم، فعند «سيبويه» يجوز في الشعر؛ بشرط أن يكون بلفظ الأول، أي: في خبر المبتدأ وغيره؛ كالشاهد الذي معنا بجر «منسيء»، فإذا رفعته فهو غير مقدّم على المبتدأ، وإن لم يكن بلفظ الأول، لم يُجَزَّ عنده، وقال الأخفش: يُجوز، وإن لم يكن بلفظ الأول، في الشعر كان أو في غيره.

كما استشهد بهذا البيت على زيادة الباء في خبر ما التيمية؛ وكذلك العطف إن شئت على الموضع؛ كقول الفَرَزْدَق السابق، وهو تميمي.

[٣١]، وأكثر لغة «الحجاز» زيادة الباء في خبرها، حتى زعم بعضهم أنه لم يحفظ النصب في غير القرآن، إلا قول الشاعر: [الكامل]

١٨١ - وَأَنَا التَّذِيرُ بِحَرَّةٍ مُسْوَدَّةٍ تَصِلُ الْجَبُوشُ إِلَيْكُمْ أَثْوَادَهَا
أَبْنَاؤُهَا مُتَكَنِّفُونَ أَبَاهُمْ حَنِقُوا الصُّدُورَ وَمَا هُمْ أَوْلَادُهَا^(١)

وأتى بالضمير في قوله: «وما هم بمؤمنين» جمعاً اعتباراً للمعنى كما تقدّم في قوله: «آمنا». فإن قيل: لم أتى بخبر «ما» اسم فاعل غير مقيد بزمان، ولم يؤت بعدها بجمله فعلية حتى يطابق قولهم: «آمنا»: فيقال: وما آمنوا؟

فالجواب: أنه عدل عن ذلك ليفيد أن الإيمان منتف عنهم في جميع الأوقات، فلو أتى به مطابقاً لقولهم: «آمنا» فقال: وما آمنوا لكان يكون نفيّاً للإيمان في الزمن الماضي فقط، والمراد النفي مطلقاً أي: أنهم ليسوا ملتبسين بشيء من الإيمان في وقت من الأوقات.

فصل في سبب نزول الآية

قال ابن عباس - رضي الله عنه - إنما نزلت في مُتَافِقِي أَهْلِ الْكِتَابِ، كعبد الله بن أبي ابن سلول ومعتب بن قُشَيْرٍ، وجدّ بن قيس وأصحابهم، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق، ويقولون: إنا لنجد نَعْتَهُ وصفته في كتابنا، ولم يكونوا كذلك إذا خَلَا بعضهم إلى بعض.

فصل في حقيقة النفاق

قال ابن الخطيب^(٢): الكلام في حقيقة النفاق لا يتخلّص إلا بتقسيم، وهو أن أحوال القلب أربعة:

وهي أن تعتقد مستنداً لدليل وهو العلم، أو تعتقد لا عن دليل لكن تقليد، أو تعتقد لا عن دليل ولا تقليد وهو الجهل، أو يكون حال القلب عن هذه الأحوال كلها.

وأما أحوال اللسان فثلاثة: الإقرار، والإنكار، والسكوت.

فأما الأول: وهو أن يحصل العرفان القلبي، فإما أن ينضم إليه الإقرار باللسان، فإن كان الإقرار اختيارياً، فصاحبه مؤمن حقّاً بالاتفاق.

وإن كان اضطرارياً فهذا يجب أن يعد منافقاً؛ لأنه بقلبه منكر مكذب لموجب الإقرار.

(١) البيتان لعدي بن الرقاع. ينظر شرح ابن عقيل: ٣٠٢/١، البحر المحيط: ١٨٣/١، الدر: ١١٣/١.

(٢) ينظر الرازي: ٥٣/٢.

فإن كان منكراً بلسانه عارفاً بقلبه، فهذا الإنكار إن كان اضطرارياً كان مسلماً؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وإن كان اختيارياً كان كافراً معانداً.

وإن كان عارفاً بقلبه، وكان ساكتاً، فهذا السكوت إن كان اضطرارياً كما إذا خاف ذكره باللسان، فهو مسلم حقاً، أو كما إذا عرف الله بالدليل، ثم لما تَمَّ بالنظر مات فهو مؤمن قطعاً؛ لأنه أتى بما كلف به، ولم يجد زَمَانَ الإقرار، فكان معذوراً فيه، وإن كان السكوت اختيارياً، فهذا محل البحث، فميل الغزالي إلى أنه يكون مؤمناً لقوله عليه الصلاة والسلام: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ ذَرَّةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١) وهذا قلبه مملوء من نور الإيمان، فكيف لا يخرج من النار؟

النوع الثاني: أن يحصل في القلب الاعتقاد التقليدي، فإما أن يوجد معه الإقرار باللسان، أو الإنكار أو السكوت.

فإن وجد مع التقليد الإقرار باللسان، فإن كان اختيارياً فهي المسألة المشهورة من أن المقلد هل هو مؤمن أم لا؟

وإن كان اضطرارياً فهذا يفرع على الصورة الأولى، فإن حكمنا في الصورة الأولى بالكفر، فهأهنا لا كلام، وإن حكمنا هُناك بالإيمان وجب أن يحكم هأهنا بالتفاق؟ لأن في هذه الصورة لو كان القلب عارفاً لكان هذا الشخص منافقاً، فمات يكون منافقاً عند التقليد.

فإن حصل الاعتقاد والتقليد مع الإنكار اللساني، فهذا الإنكار إن كان اختيارياً فلا شك في الكفر، وإن كان اضطرارياً، وحكمنا بإيمان المقلد وجب أن نحكم بالإيمان في هذه الصورة.

فإن حصل الاعتقاد التقليدي مع السكوت اضطرارياً كان أو اختيارياً فحكمه حكم القسم الثالث مع النوع الأول إذا حكمنا بإيمان المقلد.

النوع الثالث: اعتقاد الجاهل، فإما أن يوجد معه الإقرار اللساني، فذلك الإقرار إن كان اضطرارياً فهو المنافق، وإن كان اختيارياً مثل أن يعتقد بناء على شبهة أن العالم قديم، ثم بالاختيار أقر باللسان أن العالم مُحدث، وهذا غير مستبعد، فهذا أيضاً من النفاق.

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦١٥/٤) كتاب صفة جهنم (٤٠) باب (١٠) حديث رقم (٢٥٩٨) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح وأحمد في المسند ١٧/٣ عن أبي سعيد الخدري. وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٦٣/٢ - والزبيدي في الإتحاف (٢/٢٤١، ٢٤٥، ٢٥٠)، (٧/٢٥٦) - وابن حجر في فتح الباري (١٣/١٢٣).

النوع الرابع: القلبُ الخالي عن جميع الاعتقادات، وهذا إما أن يوجد معه الإقرار، أو الإنكار، أو السكوت. فإن وجد الإقرار، فإن كان الإقرار اختيارياً، فإن كان صاحبه في مُهلة النظر لم يلزمه الكفر، لكنه فعل ما لا يجوز حيث أخبر عما لا يدري هل هو صادق فيه أم لا؟

وإن كان لا في مُهلة النظر، ففيه نظر.

وإن كان الإقرار اضطرارياً لم يكفر صاحبه؛ لأن توقفه إذا كان في مُهلة النظر، وكان يخاف على نفسه من ترك الإقرار لم يكن عمله قبيحاً.

فإن كان مع القلب الخالي الإنكار باللسان، فحكمه على العكس من حكم القسم العاشر.

فإن حصل مع القلب الخالي السكوت، فهذا إن كان في مُهلة النظر، فذلك هو الواجب، وإن كان خارجاً عن مُهلة النظر وجب تكفيره، ولا يحكم عليه بالتفريق البتة.

فصل في بيان أقبح الكفر

اختلفوا في أن كفر الكافر الأصلي أقبح أم كفر المنافق؟

قال قوم: كفر الأصلي أقبح؛ لأنه جاهل بالقلب كاذب باللسان.

وقال آخرون: بل المنافق أيضاً كاذب باللسان، فإنه يخبر عن كونه على ذلك الاعتقاد مع أنه ليس عليه، ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِمَانًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ثم إن المنافق اختص بمزيد أمور منكرة:

أحدها: أنه قصد التلبس، والكافر الأصلي ما قصد ذلك.

وثانيها: أن الكافر على طبع الرجال، والمنافق على طبع الخُونة.

وثالثها: أن الكافر ما رضي لنفسه بالكذب، ولم يرض إلا بالصدق، والمنافق رضي

بذلك.

ورابعها: أن المنافق ضمّ إلى كفره الاستهزاء، بخلاف الكافر الأصلي، ولأجل

غلظ كفره قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وخامسها: قال مجاهد: إنه - تعالى - ابتدأ بذكر المؤمنين في أربع آيات، ثم ثنى

بذكر الكفار في آيتين، ثم ثلث بذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية، وذلك يدل على أن

المنافق أعظم جرمًا، وفي هذا نظر [لأن كثرة الاقتصاص بخبرهم لا توجب كون جرمهم أعظم]^(١) لأنه قد يكون عظم جرمهم لضمهم إلى الكفر وجوهاً من المعاصي، كالمُخادعة

والاستهزاء، وطلب العَوَائِل وغير ذلك، ويمكن أن يُجَاب عنه بأن كثرة الاقتصاص بخبرهم تدلُّ على أنَّ الاهتمام بدفع شرهم أشدُّ من الاهتمام بِدَفْعِ شَرِّ الكُفَّار، وذلك يدلُّ على أنهم أعظم جرماً من الكفار، والله أعلم.

فصل في ادعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر

ذكر ابن الخطيب هنا سؤالاً وهو: أنَّ المنافقين كانوا مؤمنين بالله، واليوم الآخر، ولكنهم كانوا منكبين نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - فلم يذبوا في ادعائهم الإيمان بالله، واليوم الآخر؟

وأجاب فقال: إن حملنا الآية على مُتَافِقِي المُشْرِكِينَ فلا إشكال؛ لأن أكثرهم كانوا جاهلين بالله، ومنكرين البعث والنشور.

وإن حملناها على مُتَافِقِي أَهْلِ الْكِتَابِ - وهم اليهود - فإنما كذبهم الله - تعالى - لأن إيمان اليَهُودِ بالله ليس بإيمان؛ لأنهم يعتقدونه جسماً، وقالوا: عزيزُّ ابن الله، وكذلك إيمانهم باليوم الآخر ليس بإيمان، فلما قالوا: آمنا بالله كان خبثهم فيه مضاعفاً؛ لأنهم كانوا بقلوبهم يؤمنون به على ذلك الوجه الباطل، وباللِّسَانِ يوهمون المسلمين بقولهم: إنا آمنا بالله مثل إيمانكم، فلهذا كذبهم الله - تعالى - فيه.

قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله: «يخادعون» هذه الجملة الفعلية يحتمل أن تكون مستأنفة جواباً لسؤال مقدّر هو: ما بالهم قالوا: آمنا وما هم بمؤمنين؟

ف قيل: يخادعون الله، ويحتمل أن تكون بدلاً من الجملة الواقعة صلة لـ «من» وهي «يقول»، ويكون هذا من بدل الاشتيمال؛ لأن قولهم كذا مشتمل على الخداع، فهو نظير قوله: [الرجز]

١٨٢ - إِنَّ عَلَيَّ اللَّهَ أَنْ تُبَايَعَا تُوْخِذَ كَرْهًا أَوْ تَجِيءَ طَائِعًا^(١)
وقول الآخر: [الطويل]

١٨٣ - مَتَى تَأْتِنَا تُلِمِمَ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدَ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِبَا^(٢)

(١) ينظر البيت في الكتاب: (١٥٦/١). والأصول: (٤٨/٢) وشرح الألفية لابن عقيل: (٢٥٣/٣) وشرح الألفية لابن النازم: (٥٦٣) وشرح الأشموني: (١٣١/٣)، والتصريح: (١٦١/٢) والخزانة: (٥/٢٠٣، ٢٠٤)، والدر المصون: (١١٣/١).

(٢) البيت لعبيد الله بن الحر الجعفي. ينظر الكتاب: (٨٦/٣)، شرح المفصل: (٥٣/٧)، الدرر: (٢/١٦٦)، الخزانة: (٣/٦٦٠)، والإنصاف: (٥٨٣/٢)، والهمع: (١٢٨/٢)، وشرح الأشموني: (٣/١٣١)، القرطبي: (٢٦١/١)، والدر المصون: (١١٣/١).

ف «تؤخذ» بدل اشتغال من «تبايع»، وكذا «تُلْمِمْ» بدل من «تَأْتِيَا». وعلى هذين القولين، فلا محلّ لهذه الجملة من الإعراب.

والجمل التي لا محلّ لها من الإعراب أربع لا تزيد على ذلك - وإن توهم بعضهم ذلك - وهي: المبتدأ والصلة والمُعترضة والمفسرة، وسيأتي تفسيرها في مواضعها^(١).

ويحتمل أن تكون هذه الجملة حالاً من الضمير المستكن في [يقول] تقديره: ومن الناس من يقول حال كونهم مخادعين.

وأجاز أبو البقاء أن يكون حالاً من الضمير المستكن^(٢) في «بمؤمنين»، والعامل فيها اسم الفاعل.

وقد ردّ عليه بعضهم بما معناه: أن هذه الآية الكريمة نظير: «ما زيد أقبل ضاحكاً»، قال: وللعرب في مثل هذا التركيب طريقان:

أحدهما: نفي القيد وحده، وإثبات أصل الفعل، وهذا هو الأكثر، والمعنى: أن الإقبال ثابت، والضحك منتفٍ، وهذا المعنى لا يتصور إرادته في الآية، أعني: نفي الخِدا، وثبوت الإيمان.

(١) الأولى: الابتدائية، وتسمى أيضاً: المستأنفة؛ كالجمل المفتتح بها السور والجملة المنقطعة عما قبلها، نحو: مات فلان - رحمه الله -.

الثانية: المعترضة بين شيئين؛ لإفادة الكلام تقوية وتحسيناً؛ كقوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال: ﴿فالحق والحق أقول لأملان﴾ [ص: ٨٤]، ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم﴾ [الواقعة: ٧٥]، ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ [النحل: ١٠١].

الثالثة: التفسيرية؛ وهي الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه، نحو: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ [الأنبياء: ٢١]، فجملة الاستفهام مفسرة للنجوى، ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩]، فخلقها وما بعده تفسير لمثل آدم، ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله﴾ [الصف: ١٠]، فجملة «تؤمنون» تفسير لـ «تجارة».

الرابعة: المجاب بها القسم، نحو: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١ - ٣].

الخامسة: الواقعة جواباً لشرط غير جازم مطلقاً، نحو: جواب لو ولولا ولما وكيف، أو جازم ولم يقترن بالفاء ولا بإذا الفجائية، نحو: إن تقم أقم، وإن قمت قمّت، أما الأول: فلظهور الجزم في لفظ الفعل، وأما الثاني: فلأن المحكوم لموضعه بالجزم الفعل لا الجملة بأسرها.

السادسة: الواقعة صلة لاسم أو حرف، نحو: جاء الذي قام أبوه، وأعجبني أن قمت، فالذي في موضع رفع والصلة لا محلّ لها، ومجموع «أن قمت» في موضع رفع، لا «أن» وحدها؛ لأن الحرف لا إعراب له لفظاً ولا محلاً، ولا «قمت» وحدها.

السابعة: التابعة لما لا محلّ له، نحو: قام زيد ولم يقم عمرو، إذا قدرت الواو عاطفة.

ينظر الأشباه والنظائر: ٢١/٢ - ٢٣.

(٢) سقط في أ.

الطريق الثاني: أن ينتفي القَيْدُ، فينتفي العامل فيه، فكأنه قيل في المثال السابق: لم يقبل، ولم يضحك، وهذا المعنى - أيضاً - غير مراد بالآية الكريمة قطعاً، أعني: نفي الإيمان والخداع معاً، بل المعنى على نفي الإيمان، وثبوت الخداع، ففسد جعلها حالاً من الضمير في «بمؤمنين».

والعجب من أبي البقاء كيف استشعر هذا الإشكال، فمنع من جعل هذه الجملة في محل جر صفة لـ «مؤمنين»؟ قال: لأن ذلك يوجب نفي خداعهم، والمعنى على إثبات الخداع، ثم جعلها حالاً من ضمير «بمؤمنين»، ولا فرق بين الحال والصفة في هذا.

و «الخداع» أصله: الإخفاء، ومنه الأخْدَعَان: عِرْقَان مُسْتَبْطَنَانِ فِي الْعُنُقِ، ومنه مخدع البيت، وَخَدَعَ الضَّبُّ خِدْعاً: إِذَا تَوَارَى فِي جُحْرِهِ، وطريق خادع وخديع: إِذَا كَانَ مُخَالَفاً لِلْمَقْصِدِ، بحيث لا يفتن له؛ فمعنى يخادع^(١): أَي يُوْهِمُ صَاحِبَهُ خِلَافَ مَا يَرِيدُ بِهِ الْمَكْرُوهَ.

وقيل: هو الفساد أي يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمرُوا من الكُفْرِ قال الشاعر: [الرملة]

١٨٤ - أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيذُ طَعْمِهِ طَيِّبُ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَغَ^(٢)
أي: فسد.

ومعنى «يُخَادِعُونَ اللَّهَ» أي: من حيث الصورة لا من حيث المعنى.

وقيل: لعدم عرفانهم بالله - تعالى - وصفاته ظنوه ممن يُخَادِعُ.

وقال الزمخشري: إن اسم الله - تعالى - مُقْحَمٌ، والمعنى: يخادعون الذين آمنوا، ويكون من باب: أعجبني زيد وكرمه. والمعنى: أعجبني كرم زيد، وإنما ذكر «زيد» توطئةً لذكر كرمه.

وجعل ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وهذا منه غير مُرَضٍ؛ لأنه إذا صح نسبة مخادعتهم إلى الله - تعالى - بالأوجه المتقدمة، فلا ضرورة تدعو إلى ادعاء زيادة اسم الله تعالى.

وأما «أعجبني زيد وكرمه»، فإن الإعجاب أسند إلى «زيد» بجملته، ثم عطف عليه بعض صفاته تمييزاً لهذه الصفة من بين سائر الصفات للشرف، فصار من حيث المعنى نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَمَلَكُكُمْ وَرُسُلِهِ وَحَبِيرِلْ وَمِكْنَلْ﴾ [البقرة: ٩٨].

(١) في أ: مخادع.

(٢) البيت لسويد بن أبي كاهل. ينظر المفضليات: ١٩١، اللسان: خدع، الحجة: ٢٣٤/١، زاد المسير لابن الجوزي: ٣٠/١، الدر: ١١٤/١.

والمصدر «الْخِذْع» بكسر الخاء، ومثله: الخديعة.

و «فَاعَلَّ» له معانٍ خمسة:

المشاركة المعنوية نحو: ضارب زيد عمراً.

وموافقة المجرد نحو: «جاوزت زيدا» أي: جُزئته.

وموافقة «أفعل» متعدياً نحو: «باعدت زيدا وأبعدته».

والإغناء عن «أفعل» نحو: «واريت الشيء».

وعن المجرد نحو: سافرت وقاسيت وعاقبت، والآية «فَاعَلَّ» فيها يحتمل المعنيين

الأوليين.

أما المشاركة فالمُخَادَعَة منهم الله - تعالى - تقدم معناها، ومخادعة الله إياهم من حيث إنه أجرى عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، وَمُخَادَعَة المؤمنين لهم كونهم امتثلوا أمر الله - تعالى - فيهم، وأما كونه بمعنى المُجَرَّد، فيبينه قراءة ابن مسعود وأبي حَيَوَة^(١) «يَخْدَعُونَ». وقرأ أبو عمرو والحرميان^(٢) «وَمَا يُخَادِعُونَ» كالأولى، والباقون «وَمَا يَخْدَعُونَ»، فيحتمل أن تكون القراءتان بمعنى واحد، أي: يكون «فَاعَلَّ» بمعنى «فَعَلَ»، ويحتمل أن تكون المُفَاعَلَة على بابها، أعني صدورها من اثنين، فهم يُخَادَعُونَ أنفسهم، حيث يُمَثِّلُونَهَا الأباطيل، وَأَنْفُسُهُمْ تخادعهم تمثيهم ذلك، فكانها مُحَاوَرَة بين اثنين، ويكون هذا قريباً من قول الآخر: [المنسرح]

١٨٥ - لَمْ تَذِرْ مَا لَأ؟ وَلَسْتَ قَائِلَهَا عَمْرَكَ مَا عَشْتِ آخِرَ الْأَبْدِ
وَلَمْ تُؤَاْمِرْ نَفْسِيكَ مُنْتَرِيَا فِيهَا وَفِي أُخْتِهَا وَلَمْ تَلِدِ^(٣)
وقال آخر: [الطويل]

١٨٦ - يُؤَاْمِرُ نَفْسِيهِ وَفِي الْعَيْشِ فُسْحَةً أَيْسَتَوْقِعُ الذُّوبَانَ أَمْ لَا يَطُورُهَا^(٤)
قال الزمخشري^(٥): الاقتصار بـ «خادعت» على وجهه أن يُقَالَ: عني به «فعلت»، إلا أنه على وزن «فاعلت»؛ لأن الزُّنَّةَ في أصلها للمغالبة، والفعل متى غولب فيه جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مُعَالَب لزيادة قوة الداعي إليه، ويعضده قراءة أبي حيوَة المتقدمة.

(١) انظر الدر المصون: ١١٤/١.

(٢) انظر شرح طيبة النشر للنوري: ٣/٤، والعنوان في القراءات: ٦٨، والحجة للقراء السبعة: ٣١٢/١، وإعراب القراءات: ٦٣/١، وحجة القراءات: ٨٧، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٧٧/١، وشرح شذلة على الشاطبية: ٢٥٧.

(٣) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي: ٢٣٨/١، المحرر الوجيز: ٩١٠/١، الدر: ١١٤/١.

(٤) البيت لرجل من فزارة. ينظر الحجة: ٢٣٨/١، البحر: ١٨٦/١، المحرر الوجيز: ٩١/١، الدر: ١/١١٤.

(٥) ينظر الكشف: ٥٨/١.

وقرى^(١): «وَمَا يُخَدَّعُونَ»، وَيُخَدَّعُونَ من خَدَعَ مشدداً.

و «يُخَدَّعُونَ» بفتح الياء والتشديد؛ الأصل يخدعون، فادغم.

وقرى^(٢): «وَمَا يُخَدَّعُونَ»، «وَيُخَادَعُونَ» على لفظ ما لم يسم فاعله، وتخريجها على أن الأصل «وَمَا يُخَدَّعُونَ إِلَّا عَنْ أَنْفُسِهِمْ» فلما حذف الجَر انتصب على حَد: [الوافر]

١٨٧ - تَمُرُّونَ الدِّيَارَ فَلَمْ تَعُوجُوا^(٣)

«إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» «إِلَّا» في الأصل حرف استثناء و «أنفسهم» مفعول به، وهذا استثناء مفرغ، وهو: عبارة عما افتقر فيه ما قبل «إِلَّا» لما بعدها، ألا ترى أن «يخادعون» يفتقر إلى مفعول؟ ومثله: «ما قام إلا زيد»، ف «قام» يفتقر إلى فاعل، والثَّام بخلافه، أي: ما لم يفتقر فيه ما قيل «إِلَّا» لما بعدها، نحو: قام القوم إلا زيداً، وضربت القوم إلا بكرةً، فقام قد أخذ فاعله، وضربت أخذ مفعوله، وشرط الاستثناء المُفَرَّغ أن يكون بعد نفي، أو شبهه كالاستفهام والنهي.

وأن قولهم: قرأت إلا يوم كذا، فالمعنى على نفي مؤول تقديره: ما تركت القراءة إلا يوماً، هذا ومثله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ [التوبة: ٣٢] و ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وللاستثناء أحكام كثيرة تأتي مفضلة في مواضعها إن شاء الله تعالى.

وَالنَّفْسُ: هنا ذات الشيء وحقيقته، ولا تختص بالأجسام لقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] «وَمَا يَشْعُرُونَ» هذه الجملة الفعلية يحتمل ألا يكون لها محل من الإعراب؛ لأنها استئناف، وأن يكون لها محل، وهو النصب على الحال من فاعل «يخدعون» والمعنى: وما يرجع ويبال خداعهم إلا على أنفسهم غير شاعرين بذلك، ومفعول «يشعرون» محذوف للعلم به، تقديره: وما يشعرون أن ويبال خداعهم راجع على أنفسهم، وإطلاع الله عليهم.

والأحسن ألا يقدر مفعول؛ لأن الغرض نفي الشعور عنه ألبتة من غير نظر إلى مُتَعَلِّقِهِ، والأوّل يسمى حذف الاختصار، ومعناه: حذف الشيء بدليل.

والثاني يسمى حذف الاقتصار، وهو حذف الشيء لا للدليل.

(١) وهي قراءة قتادة ومورق العجلي. انظر: البحر المحيط: ١/١٨٥، والقرطبي: ١/١٣٨، والمحرم الوجيز: ٩٠/١.

(٢) قرأ بها الجارود بن أبي سبرة وأبو طلوت عبد السلام بن شداد. انظر البحر المحيط: ١/١٨٥، والمحرم الوجيز: ٩٠/١، والدر المصون: ١/١١٥.

(٣) تقدم برقم (١٥٩).

والشُّعُور: إدراك الشيء من وجه يدقّ، وهو مشتق من الشُّعْر لدقّته.
وقيل: هو الإدراك بالحاسة مشتق من الشُّعَار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه مشاعر الإنسان أي: حواسه الخمسة التي يشعر بها.

فصل في حد الخديعة

اعلم أن الخديعة مذمومة.

قال ابن الخطيب: «وَحَدُّهَا هي إظهار ما يوهم السّلامة والسّداد، وإبطال ما يقتضي الإضرار بالغير، أو التخلّص منه، فهو بمنزلة النّفاق في الكفر والرّياء في الأفعال الحسنة، وكل ذلك بخلاف ما يقتضيه الدين؛ لأن الدين يوجب الاستقامة والعدول عن الغرور والإساءة، كما يوجب المَخَالصة في العبادة».

فصل في امتناع مخادعة الله تعالى

مخادعة الله - تعالى - ممتنعة من وجهين:

أحدهما: أنه يعلم الضّمائر والسرائر، فلا يصح أن يُخَادَعَ.

والثاني: أن المنافقين لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول إليهم، فلم يكن قصدهم في نفاقهم مخادعة الله، فثبت أنه لا يمكن إجراء هذا اللفظ على ظاهره، فلا بُدّ من التأويل، وهو من وجهين:

الأول: أنه - تعالى - ذكر نفسه، وأراد به الرسول على عادته في تَفْخِيم أمره، وتعظيم شأنه.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

والمنافقون لما خادعوا [الله ورسوله]^(١) قيل: إنهم خادعوا الله.

الثاني: أن يقال: صورة حالهم مع الله حيث يظهرون الإيمان وهم كافرون صورة من يُخَادَع، وصورة صنع الله معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده من الكُفْرَة صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم، فأجروا أحكامه عليهم.

فصل في بيان الغرض من الخداع في الآية

الغرض من ذلك الخداع وجوه:

الأول: أنهم ظنوا أن النبي - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه يجرونهم في التّعظيم

(١) في أ: الرسول.

والإكرام مجرى سائر المؤمنين إذا أظهروا لهم الإيمان .

الثاني: يجوز أن يكون مرادهم إفشاء النبي - عليه الصلاة والسلام - أسرارهم، والاطلاع على أسرار المؤمنين، فينقلونها إلى الكفار .

الثالث: أنهم دفعوا عن أنفسهم أحكام الكفار، كالقتل وغيره .

الرابع: أنهم كانوا يطمعون في أموال الغنائم .

فإن قيل: فالله تعالى كان قادراً على أن يوحى إلى نبيه كيفية مكربهم وخداعهم، فلم لم يفعل ذلك هتكا لسترهم؟

قلنا: هو قادر على استئصال «إبليس» وذريته ولكنه - تعالى - أبقاهم وقواهم، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، أو لحكمة لا يطلع عليها إلا هو .

وقوله: «وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أنفسهم» فيه وجهان:

الأول: أنه - تعالى - يجازيهم على ذلك، ويعاقبهم عليه، فلا يكونون في الحقيقة خادعين إلا أنفسهم .

والثاني: ما ذكره أكثر المفسرين، وهو أن وبَّالَ ذلك راجع إليهم في الدنيا؛ لأن الله - تعالى - كان يدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويصرفه إليهم، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ لَخَدِيعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ونظائره .

«في قلوبهم مرض» الجار والمجرور خبر مقدم واجب التقديم لما تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] . والمشهور تحريك الراء من «مرض» .
وَرَوَى الْأَصْمَعِيُّ^(١) عن أبي عمرو سكونها، وهما لغتان في مصدر مَرِضَ يَمْرِضُ .
«والمرض»: الفتور .

وقيل: الفساد .

وقيل: صفة توجب وقوع الحَلَلِ في الأفعال الصادرة عن الفاعل، ويطلق على الظلمة؛ وأنشدوا: [البسيط]

١٨٨ - فِي لَيْلَةٍ مَرِضَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ فَمَا يُحِسُّ بِهِ نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ^(٢)

(١) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي؛ راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ولد ١٢٢هـ .

كان الرشيد يسميه شيطان الشعر، قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي وتصانيفه كثيرة منها الإبل مطبوع، الأضداد مخطوط، خلق الإنسان مطبوع وغيرها توفي سنة ٢١٦هـ .

ينظر السيرافي: ٥٨، جمهرة الأنساب: ٢٣٤، ابن خلكان: ٢٨٨/١، تاريخ بغداد: ٤١/١٠، نزهة الألبا: ١٥٠، طبقات النحويين، الأعلام: ١٦٢/٤ .

(٢) ينظر البحر المحيط: ١٨١/١، والدر المصون: ١١٦/١ .

أي: لظلمتها، ويجوز أن يكون أراد بـ «مَرَضْتُ» فَسَدْتُ، ثم بين جهة الفَسَادِ بالظُّلْمَة.

قوله: «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا».

هذه جملة فعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، متسببة عنها، بمعنى أن سبب الزِّيَادَة حصول المرض في قلوبهم، إذ المراد بالمرض هنا الغِلّ والحسد لظهور دين الله تعالى.

و «زاد» يستعمل لازماً ومتعدياً لاثنتين ثانيهما غير الأول كـ «أَعْطَى وَكَسَا»، فيجوز حذف مفعوليه، وأحدهما اختصاراً واقتصاراً، تقول: «زاد المال» فهذا لازم، و «زدت زيدا أجراً» ومنه: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] و «زدت زيدا» ولا تذكر ما زدته، و «زدت مالاً» ولا تذكر من زدته.

وألف «زاد» منقلبة عن ياء؛ لقولهم: «يزيد».

وقرأ ابن عامر وحمزة^(١): «فزادهم» بالإمالة.

وزاد حمزة إمالة «زاد» حيث وقع، و ﴿زَاغَ﴾ [النجم: ١٧] ﴿وَحَابَ﴾ [إبراهيم: ١٥]، و ﴿طَابَ﴾ [النساء: ١٣]، و ﴿حَاقَ﴾ [الأنعام: ١٠]، والآخران لا يميلونها.

فصل في أوجه ورود لفظ المرض

ورد لفظ «المرض» على أربعة أوجه:

الأول: الشك كهذه الآية.

الثاني: الزنا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

الثالث: الحرج قال تعالى: ﴿أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضُمُّوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

الرابع: المرض بعينه.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]

وقد تقدّم. و «أليم» هنا بمعنى: مؤلم، كقوله: [الوافر]

١٨٩ - وَتَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَزِدَلَاتٍ يَصُّكُ وَجُوهَهَا وَهَجَّ أَلِيمٌ^(٢)

ويجمع على «فُعلاء» كـ: «شريف وشرفاء»، و «أفْعَال» مثل: «شريف وأشراف»،

ويجوز أن يكون «فَعِيل»: هُنَا لِلْمُبَالَاةِ مَحْوِلاً مِنْ «فَعِلَ» بِكسر العَيْنِ، وعلى هذا تكون

(١) انظر شرح طيبة النشر: ٤/٤، والعنوان: ٦٨، والحجة للقراءات السبعة: ٣٢٠/١، وحجة القراءات: ٨٨، وإعراب القراءات: ٦٥/١، وإتحاف: ٣٧٨/١.

(٢) البيت لذي الرمة. ينظر ديوانه: ٦٧٧، الأضداد: ٨٤، اللسان (شمردل) الطبري: ١٥٦/١، القرطبي: ١٣٩/١، الدر: ١١٦/١.

نسبة الألم إلى العَذَابِ مجازاً، لأنَّ الألم حلّ بمن وقع به العذاب لا بالعذاب، فهو نظير قولهم: «شِعْرٌ شَاعِرٌ».

و ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ متعلّق بالاستقرار المقدر في «لهم»، أي: استقر لهم عَذَابٌ أليم بسبب تكذيبهم.

و «ما» يجوز أن تكون مصدرية، أي: بكونهم يكذبون، وهذا على القول بأن لـ «كان» مصدراً، وهو الصحيح عند بعضهم للتصريح به في قول الشاعر: [الطويل]

١٩٠ - بَبَذِلَ وَحَلِمَ سَادَ فِي قَوْمِهِ الْفَتَى وَكَوْنُكَ إِيَّاهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ^(١)

فقد صرّح بالكون، ولا جائز أن يكون مصدر «كان» التامة لنصبه الخبر بعدها، وهو «إياه»، على أنَّ للنظر في هذا البيت مجالاً ليس هذا موضعه.

وعلى القول بأن لها مصدراً لا يجوز التصريح به معها، لا تقول: «كان زيد قائماً كوناً»، قالوا: لأن الخبر كالعوض من المصدر، ولا يجمع بين العوض والمُعَوِّض منه، وحينئذ فلا حاجة إلى ضمير عائد على «ما»؛ لأنها حرف مصدري على الصحيح، خلافاً للأخفش وابن السراج في جعل المصدرية اسماً.

ويجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي»، وحينئذ فلا بُدَّ من تقدير عائد أي: بالذي كانوا يكذبونه، وجاز حذفُ العائد لاستكمال الشروط، وهو كونه منصوباً متصلاً بفعل، وليس ثمَّ عائد آخر.

وزعم أبو البقاء أن كون «ما» موصولة اسمية هو الأظهر، قال: لأنَّ الهاء المقدرة عائدة على «الذي» لا على المصدر. وهذا الذي قاله غير لازم، إذ لقائل أن يقول: لا نسلم أنه لا بُدَّ من هاءٍ مقدرة حتى يلزم جعل «ما» اسمية، بل من قرأ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ مخففاً فهو عنده غير متعذّر لمفعول، ومن قرأه مشدداً فالمفعول محذوف لفهم المعنى أي: بما كانوا يكذبون الرسول والقرآن، أو يكون المشدد بمعنى المخفف، وقرأ الكوفيون^(٢): ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالفتح والتخفيف، والباقون بالضّم والتشديد.

و «يكذبون» مضارع «كذب» بالتشديد، وله معانٍ كثيرة: الرمي بكذا، ومنه الآية الكريمة والتعديّة نحو: «فَرَحْتُ زَيْداً».

(١) ينظر البيت في شرح ابن عقيل: (٢٧٠/١)، (٦٤)، الأشموني (٢٣١/١)، الهمع: (١١٤/١)، الدرر: (٨٣/١)، وارتشاف الضرب: (٧٥/٢)، وشرح الألفية لابن النازم: (١٣٢)، والتصريح: (١/١٨٧)، والدر المصون: (١١٦/١)، أوضح المسالك: ٢٣٩/١، المقاصد النحوية: ١٥/٢.

(٢) وبها قرأ: عاصم، وحزمة، والكسائي، وكذا خلق، ووافقه الحسن والأعمش. انظر حجة القراءات: ٨٨، والحجة: ٣٢٩/١، والعنوان في القراءات السبع: ٦٨، وإعراب القراءات: ٦٥/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٧٨/١، وشرح شعله: ص ٢٥٨، وشرح طيبة النشر: ٤/٤.

والتكثير نحو: «قَطَعْتُ الْأَثْوَابَ».

والجعل على صفة نحو: «قَطَرْتُهُ» أي: جعلته مقطراً؛ ومنه: [السريع]

١٩١ - قَدْ عَلِمْتُ سَلَمَى وَجَارَاتِهَا مَا قَطَرَ الْفَارِسُ إِلَّا أَنَا^(١)

والتسمية نحو: «فَسَفَّتُهُ» أي: سميته فاسقاً.

والدعاء له نحو: «سَقَيْتُهُ» أي قلت له: «سَقَاكَ اللَّهُ».

أو الدعاء عليه نحو: «عَقَرْتُهُ» أي قلت: عَقْرًا لك.

والإقامة على الشيء نحو: «مَرَّضْتُهُ» والإزالة نحو: «قَذَيْتُ عَيْنَهُ» أي: أزلت قذاها.

والتوجه نحو: «شَرَّقَ وَغَرَّبَ»، أي: توجه نحو الشرق والغرب.

واختصار الحكاية نحو: «أَمِنَ» قال: آمين.

وموافقة «تَفَعَّلَ» و «فَعَّلَ» مخففاً نحو: وَلَّى بمعنى تولى، وَقَدَّرَ بمعنى قَدَّرَ، والإغناء عن «تَفَعَّلَ» و «فَعَّلَ» مخففاً نحو «حَمَّرَ» أي تكلم بلغة «حمير»، قالوا: «مَنْ دَخَلَ ظَفَارِ حَمَرٍ وَعَرَّدَ فِي الْقِتَالِ» هو بمعنى عَرَّدَ مخففاً، وإن لم يلفظ به.

و «الكذب» اختلف الناس فيه، فقائل: هو الإخبار عن الشيء بخير ما هو عليه ذهناً وخارجاً، وقيل: بغير ما هو عليه في الخارج، سواء وافق اعتقاد المتكلم أم لا.

وقيل: الإخبار عنه بغير اعتقاد المتكلم سواء وافق ما في الخارج أم لا، والصدق نقيضه.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَصَاتٍ﴾؛ لأن الآيات كانت تنزل آية بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً، وذلك معنى قوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورة لم تفعل ذلك، ولكنهم ازدادوا رجساً عند نزولها حين كفروا بها قبل ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] والدعاء لم يفعل شيئاً من هذا، ولكنهم ازدادوا فراراً عنده، وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

قالت المعتزلة: لو كان المراد من المرض - هاهنا - الكفر والجهل لكان قوله:

(١) البيت لعمر بن معد يكرب ينظر ديوانه: ص ١٦٧، والأغاني: ١٦٩/١٥، وشرح أبيات سيبويه: ٢/١٩٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٤١١، والكتاب: ٣٥٣/٢، وله أول للفرزدق ينظر شرح شواهد المغني: ٧١٩/٢، الأشباه والنظائر: ٢٤٣/٧، وتخليص الشواهد: ص ١٨٤، وشرح المفصل: ١٠١/٣، ١٠٣، ولسان العرب (قطر)، ومغني اللبيب: ٣٠٩/١، دلائل الإعجاز: ٣٣٧، الدر: ١١٧/١.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ محمولاً على الكُفْرِ والجَهْلِ، فيلزم أن يكون الله - تعالى - فاعلاً للكفر والجهل.

قالت المعتزلة: ولا يجوز أن يكون الله - تعالى - فاعلاً للكفر والجهل لوجوه:

أحدها: أن الكفار كانوا في غَايَةِ الحرص على الطَّعن في القرآن، فلو كان المعنى ذلك لقالوا لمحمد ﷺ: إذا فعل الله الكفر فينا، فكيف تأمرنا بالإيمان؟

وثانيها: أنه - تعالى - ذكر هذه الآيات في معرض الذَّم لهم على كُفْرِهِمْ، فكيف يذمهم على شيء خلقه الله فيهم.

وثالثها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإن كان الله خلق ذلك فيهم كما خلق لولهم وطولهم، فأَيُّ ذنب لهم حتَّى يعذبهم؟

ورابعها: أنه - تعالى - أضافه إليهم بقوله: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وبأنهم يفسدون في الأرض، وأنهم هم السَّفهاء، وأنهم إذا خلوا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا: إنا معكم، وإذا ثبت هذا فلا بُدَّ من التأويل، وهو من وجوه:

الأول: يحمل المرض على العَمِّ، لأنه يقال: مرض قلبي من أمر كذا، والمعنى: أن المنافقين مرضت قلوبهم لما رأوا إثبات أمر النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام -، واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وذلك يؤدي إلى زوال رياستهم، كما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - مرَّ بعبد الله بن أُبَيٍّ على حِمَارٍ، فقال له: نَحْ حمارك يا مُحَمَّد فقد آذانا رِيحُهُ، فقال له بعض الأنصار: اعْذُرْهُ يا رسول الله، فإنه كان مؤملاً أن تُتَوَجَّهَ الرِّيَاسَةُ قبل أن تقدم علينا^(١)، فهؤلاء لما اشتدَّ عليهم العَمِّ وصفهم الله بذلك فقال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: زادهم غمًّا على غَمِّهِمْ.

وثانيها: المراد من زيادة المرض زيادة المنع الألفاظ فيكون بسبب ذلك المنع خاذلاً لهم.

الثالث: أنَّ العرب تصف فتور النَّظَر بالمرض يقولون: جاريةٌ مريضةٌ الطرف.

قال جرير: [البسيط]

١٩٢ - إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُخْبِرْنَا قَتْلَانَا^(٢)

فكذا المرض هاهنا إنما هو الفتور في النِّية؛ لأن قلوبهم كانت قويةً على المَحَارَبَةِ، والمُنَازَعَةِ، والمُخَاصَمَةِ، ثم انكسرت شوكتهم، فأخذوا في التَّنَاقُّق بسبب ذلك الخوف، والانكسار، فقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: زادهم الانكِسارَ والجُبْنَ والضعف،

(١) ذكره الفخر الرازي في «تفسيره» (٥٨/٢).

(٢) ينظر ديوانه: ص ١٦٣، وشرح شواهد المغني: ٧١٢/٢، والمقاصد النحوية: ٤٦٤/٣، والمقتضب: ١٧٣/٢، وبلا نسبة في شرح المفصل: ٩/٥.

وحقق الله ذلك بقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

الرابع: أن يحمل المرض على ألم القلب؛ لأنَّ المُبْتَلَى بِالْحَسَدِ وَالنَّفَاقِ، ومشاهدة ما يكره ربما صار ذلك سبباً لتغيير مزاجه، وتألم قلبه، وحمل اللَّفْظِ على هذا الوجه حمل له على حقيقته، فكان أولى.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ صريح أن كذبهم علة للعذاب الأليم، وذلك يقتضي أن يكون كل كذب حراماً.

فأما ما يروى عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أنه كذب ثلاث كذبات^(١)، فالمراد التعريض، ولكن لما كانت صورته الكذب سمي به.

والمراد بكذبهم قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم غير مؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١١)
 ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٢)

«إذا» ظرف زمان مستقبل، ويلزمها معنى الشرط غالباً، ولا تكون إلا في الأمر المحقق، أو المرجح وقوعه، فلذلك لم تجزم إلا في شيعر؛ لمخالفتها أدوات الشرط؛ فإنها للأمر المحتمل، فمن الجزم قوله: [البسيط]

١٩٣ - تَرْفَعْ لِي خِنْذِفَ وَاللَّهُ يَرْفَعْ لِي نَاراً إِذَا خَمَدَتْ نِيرَانُهُمْ تَقْدِ^(٢)
 وقال آخر: [الكامل]

١٩٤ - وَاسْتَفْنِ مَا أَغْنَاكَ رَبُّكَ بِالْغِنَى وَإِذَا تُصْبِكَ خِصَاصَةٌ فَتَجَمَّلِ^(٣)
 وقال الآخر: [الطويل]

١٩٥ - إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبِ^(٤)

(١) ينظر تفسير زاد المسير لابن الجوزي: ٢٥٨/٤، ٣٦٠/٥.

(٢) البيت للفرزدق. ينظر ديوانه: (٢١٦)، الكتاب: (٤٣٤/١)، شرح المفصل: (٤٧/٧)، والمقتضب: (٥٥/٢)، والأمالى الشجرية: (٢٣٣/١)، وشرح الأشموني: (١٣/٤)، والدر المصون: (١١٧/١)، والأزمنة والأمكنة: ٢٤١/١، وخزانة الأدب: ٢٢/٧.

(٣) البيت لعبد قيس بن خفاف. ينظر الدرر: ١٠٢/٣، وشرح اختيارات المفضل: ١٥٥٨، شرح شواهد المغني: ٢٧١/١، ولسان العرب: [كرب]، والمقاصد البحرية: ٢٠٣/٢، ولحارثة بن بدر الغداني في أمالي المرتضى: ٣٨٣/١، الأشباه والنظائر: ٣٣٥/١، وشرح الأشموني: ٥٨٣/٣، مغني اللبيب: ٩٣/١، وشرح الأشموني ٥٨٣/٣، مغني اللبيب: ٩٣/١، همع الهوامع: ٢٠٦/١.

(٤) البيت لشهم بن مرة. ينظر الكتاب: ٤٣٤/١، المفضليات: ٢٠٧، الأمالي الشجرية: ١٣٣/١، ابن يعيش: ٩٧/٤، ٧٤/٧، ولقيس بن الخطيم في ديوانه: ٨٨، المقتضب: ٥٥/٢، حروف المعاني: ٦٣، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ٢٠٤/٢، خزانة الأدب: ٢٥/٧، ٢٧.

فقوله: «فَنُضَارِبٌ» مجزوم لعطفه على محل قوله «كان وصلها».

وقال الفرزدق: [الطويل]

١٩٦ - فَقَامَ أَبُو لَيْلَى إِلَيْهِ ابْنُ ظَالِمٍ وَكَانَ إِذَا مَا يَسْلُلُ السَّيْفَ يَضْرِبُ^(١)

وقد تكون للزمن الماضي ك: «إِذَا» كما قد تكون «إِذَا» للمستقبل ك: «إِذَا».

فمن مجيء «إِذَا» ظرفاً لما مضى من الزمان واقعة موقع «إِذَا» قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ﴾ [التوبة: ٩٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، قال به ابن مالك، وبعض النحويين.

ومن مجيء «إِذَا» ظرفاً لما يستقبل من الزمان قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذْ أُلْغِلْ فِي أَعْتِقِهِمْ﴾ [غافر: ٧٠].

وتكون للمفاجأة أيضاً، وهل هي حينئذ باقية على زمانيتها، أو صارت ظرف مكان أو حرفاً؟

ثلاثة أقوال: أصحها الأول استصحاباً للحال، وهل تتصرف أم لا؟

الظاهر عدم تصرفها، واستدل من زعم تصرفها بقوله تعالى في قراءة^(٢) من قرأ: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَنْ يَسْ لَوْفَعَتِهَا كَذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا» [الواقعة: ١ - ٤] بنصب «خافضة رافعة»، فجعل «إِذَا» الأولى مبتدأ، والثانية خبرها.

والتقدير: وَقْتُ وَقُوعِ الْوَاقِعَةِ وَقْتُ رَجِّ الْأَرْضِ، ويقول: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١]، و ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ﴾ [يونس: ٢٢] فجعل «حتى» حرف جر، و «إِذَا» مجرورة بها، وسيأتي تحقيق ذلك في مواضعه. ولا تُضاف إلا إلى الجُمْلِ الفعلية خلافاً للأخفش.

وقوله: «قِيلَ» فعل ماضٍ مبني للمفعول، وأصله: «قَوْلٌ» ك: «ضرب»، فاستثقلت الكسرة على «الواو»، فنقلت إلى «القاف» بعد سَلْبِ حركتها، فسكنت «الواو» بعد كسرة، فقلبت «ياء»، وهذه أفصح اللغات، وفيه لغة ثانية، وهي الإشمام، والإشمام عبارة عن جعل الضمة بين الضم والكسر.

ولغة ثالثة وهي: إخلاص الضم، نحو: «قَوْلَ وَبُوعٍ»، قال الشاعر: [الرجز]

١٩٧ - لَيْتَ وَهَلْ يَنْفَعُ شَيْئاً لَيْتَ لَيْتَ شَبَاباً بُوعَ فَاشْتَرَيْتَ^(٣)

(١) ينظر ديوانه: ٤١/١، ابن عيش: ٢٣٤/٨، خزنة الأدب: ١٨٥/٣، الدر: ١١٨/١.

(٢) ستأتي في سورة الواقعة (٣).

(٣) البيت لرؤية. ينظر ملحقات ديوانه: (٢٠٦/١)، شرح المفصل: (٧٠/٧)، الهمع: (٢٤٨/١)، الدرر: (٢٠٦/١)، مغني اللبيب: (٣٩٣/٢)، والتصريح: (٢٩٤/١)، شرح الكافية الشافية: (٢/٨١٩)، وشرح ابن عقيل: (١١٥/٢)، وشرح الألفية لابن الناطم: (٢٣٣)، وشرح الأشموني: (٢/٦٣)، وشرح شواهد المغني: (٨١٩/٢)، والدر المصون: (١١٨/١).

وقال الآخر: [الرجز]

١٩٨ - حَوَكْتَ عَلَى نَوَلَيْنِ إِذْ تُحَاكُ تَخَيَّبْتُ الشُّوْكَ وَلَا تُشَاكُ^(١)

وقال الأخفش: «ويجوز «قِيلَ» بضم القاء والياء»، يعني مع الياء؛ لأن الياء تضم أيضاً. وتجيء هذه اللغات الثلاث في «اختار» و «انقاد»، و «رَدَّ»، و «حَبَّ» ونحوها، فتقول: «اختير» بالكسر، والإشمام، و «اختور»، وكذلك: «انقيد»، و «انقود»، و «رَدَّ»، و «رِدَّ»، وأنشدوا: [الطويل]

١٩٩ - وَمَا حِلٌّ مِنْ جَهْلٍ حَبَا حُلَمَائِنَا وَلَا قَائِلُ الْمَغْرُوفِ فِينَا يُعْنَفُ^(٢)

بكسر حاء «حل».

وقرىء: «وَلَوْ رُدُّوا» [الأنعام: ٢٨] بكسر الراء.

والقاعدة فيما لم يسم فاعله أن يُضَمَّ أول الفعل مطلقاً؛ فإن كان ماضياً كسر ما قبل آخره لفظاً نحو: «ضرب»، أو تقديراً نحو: «قيل»، و «اختير».

وقد يضم ثاني الماضي أيضاً إذا افتتح بباء مُطَاوَعَة نحو: «تُدْخِرُ الحَجَر»، وثالثه إن افتتح بهمزة وصل نحو: «انْطَلَقَ بَزِيد» واعلم أن شرط جواز اللغات الثلاث في «قيل»، و «غِيضَ»، ونحوهما ألا يلتبس، فإن التبس عمل بمقتضى عدم اللبس، هكذا قال بعضهم، وإن كان سيبويه قد أطلق جواز ذلك، وأشَمَّ الكسائي^(٣): «قِيلَ» [البقرة: ١١]، «وَعِيضَ» [هود: ٤٤]، «وَجَاءَ» [الزمر: ٦٩] «وَجِيلَ» [سبأ: ٥٤] «وَسِيقَ الَّذِينَ» [الزمر: ٧١] و «سِيقَ يَهُودَ» [هود: ٧٧]، و «سِيقَتِ وَجُوهُ» [الملك: ٢٧]، وافقه هشام في الجميع، وابن ذكوان في «جِيلَ» وما بعدها، ونافع في «سيء» و «سيئت»، والباقون بإخلاص الكسر في الجميع.

والإشمام له معان أربعة في اصطلاح القراء سيأتي ذلك في قوله: «لَا تَأْمَنَّا» [يوسف: ١١] إن شاء الله تعالى.

و «لهم» جار ومجرور متعلق بـ «قيل»، و «اللام» للتبليغ، و «لا» حرف نهى يجرم

(١) البيت لرؤبة وليس في ديوانه. ينظر أوضح المسالك: ٣٨٧/١، الأشموني: ٦٣/٢، الهمع: ١٢٥/١، شرح الكافية الشافية: ٦٥/٢، شرح ابن عقيل: ١١٤/٢.

(٢) البيت للفرزدق ينظر ديوانه: ٢٩/٢، والكتاب: ١١٨/٤، وشرح أبيات سيبويه: ٣٨١/٢، ولسان العرب [حلل]، والمحتسب: ٣٤٦/١، المنصف: ٢٥٠/١، وجمهرة أشعار العرب: ص ٨٨٧، معاني الأخفش: ١٩٨/١، الدر المصون: ١١٨/١.

(٣) انظر شرح طيبة النشر: ٤/٤، وحجة القراءات: ٨٩، والحجة: ٣٤٠/١، وإتحاف: ٣٧٩/١، وإعراب القراءات: ٦٧/١، والعنوان: ٦٨، وشرح الطيبة: ٢٥٩، وشرح شعلة: ٢٥٩.

وقد قرأ بالإشمام أيضاً هشام، وهو لغة قيس وعقيل ومن وافقهم.

فاعلاً واحداً، و «تفسدوا» مجزوم بها، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأمثلة الخمسة.

و «في الأرض» متعلق به، والقائم مقام الفاعل هو الجُمْلَةُ من قوله: «لا تفسدوا» لأنه هو القول في المعنى، واختاره الزمخشري.

والتقدير: وإذا قيل لهم هذا الكلام، أو هذا اللفظ، فهو من باب الإسناد اللفظي.

وقيل: القائم مقام الفاعل مضمر، تقديره: وإذا قيل لهم هو، ويفسر هذا المضمر سياق الكلام كما فسر في قوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

والمعنى: «وإذا قيل لهم قول سديد» فأضمر هذا القول الموصوف، وجاءت الجملة بعده مفسرة، فلا موضع لها من الإعراب، فإذا أمكن الإسناد المعنوي لم يعدل إلى اللفظي، وقد أمكن ذلك بما تقدّم. وهذا القول سبقه إليه أبو البقاء، فإنه قال: «والمفعول القائم مقام الفاعل مصدر، وهو القول، وأضمر؛ لأن الجملة بعده تفسره، ولا يجوز أن يكون «لا تفسدوا» قائماً مقام الفاعل؛ لأن الجملة لا تكون فاعلاً، فلا تقوم مقام الفاعل».

وقد تقدم جواب ذلك من أن المعنى: وإذا قيل لهم هذا اللفظ، ولا يجوز أن يكون «لهم» قائم مقام الفاعل إلا في رأي الكوفيين والأخفش، إذ يجوز عندهم إقامة غير المفعول به مع وجوده.

وتلخص من هذا:

أن جملة قوله: «لا تفسدوا» في محل رفع على قول الزمخشري، ولا محل لها على قول أبي البقاء ومن تبعه، والجملة من قوله: «قيل» وما في حيزه في محل خفض بإضافة الظرف إليه.

والعامل في «إذا» جوابها، وهو «قالوا»، والتقدير: قالوا: إنما نحن مصلحون، وقت قول القائم لهم: لا تفسدوا.

وقال بعضهم: الذي نختاره أن الجُمْلَةُ التي بعدها وتليها ناصبة لها، وأن ما بعده ليس في محل خفض بالإضافة؛ لأنها أداة شرط، فحكمها حكم الظروف التي يجازى بها، فكما أنك إذا قلت: «متى تَقُمُ أَقْمُ» كان «متى» منصوباً بفعل الشرط، فكذلك إذا قال هذا القائل.

والذي يفسد مذهب الجمهور جواز قولك: «إذا قمت فعمرو قائم» ووقوع «إذا» الفجائية جواباً لها، وما بعد «الفاء».

و «إذا» الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وهو اعتراض ظاهر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ «إن» حرف مكفوف ب «ما» الزائدة عن العمل،

ولذلك تليها الجملة مطلقاً، وهي تفيد الحَضَرَ عند بعضهم.

وأبعد من زعم أن «إنما» مركبة من «إن» التي للإثبات، و «ما» التي للنفي، وأن التركيب حدث معنى يفيد الحَضَرَ.

واعلم أن «إن» وأخواتها إذا وَلِيَتْهَا «ما» الزائدة بطل عملها، وذهب اختصاصها بالأسماء كما مرَّ، إلا «لَيْتَ» فإنه يجوز فيها الوجهان سماعاً، وأنشدوا قول النابغة: [البيط]

٢٠٠ - قَالَتْ: أَلَا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا إِلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفُهُ، فَقَدْ^(١)

برفع «الحَمَام» ونصبه، فأما إعمالها فلبقاء اختصاصها، وأما إهمالها فلحملها على أَخَوَاتِهَا، على أنه قد روي عن سيبويه في البيت أنها معملة على رواية الرفع أيضاً، بأن تجعل «ما» موصولة بمعنى «الذي»، كالتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَجِرٌ﴾ [طه: ٦٩] و «هذا» خبر مبتدأ محذوف هو العائد، و «الحَمَام» نعت لهذا، و «لنا» خبر لـ «لَيْتَ»، وحُذِفَ العائد وإن لم تَطُل الصلة.

والتقدير: ألا ليت الذي هو [هذا]^(٢) الحمام كائِنْ لنا، وهذا أولى من أن يدعي إهمالها، لأن المقتضى للإعمال - وهو الاختصاص - باقٍ.

وزعم بعضهم أن «ما» الزائدة إذا اتَّصلت بـ «إن» وأخواتها جاز الإعمال في الجميع.

و «نحن» مبتدأ، وهو ضمير مرفوع منفصل للمتكلم، ومن معه أو المعظم نفسه، و «مصلحون» خبره، والجملة في محل نَصْبٍ، لأنها محكية بـ «قالوا».

والجملة الشرطية وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على صلة «من»، وهي «يقول»، أي: ومن النَّاس من يقول، ومن النَّاس من إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا. وقيل: يجوز أن تكون مستأنفة، وعلى هذين القولين، فلا محل لها من الإعراب

(١) ينظر ديوانه: ١٦، المقرب: ١/١١٠، الخصائص: ١٢/٤٦٠، الخزانة: ٤/٢٩٧، المغني: ٧٥، الدرر: ١/٢٢١، الكتاب: ٢/١٣٧، الأمالي الشجرية: ٢/١٤٢، ٢٤١، الإنصاف: ١/٤٧٩، ابن يعيش: ٨/٥٤، الأزهية: ١١٤، شذور الذهب: ٣٤٣، قطر الندى: ٢١٠، شرح الألفية لابن الناظم: ١٧٤، شرح الكافية الشافية: ١/٤٨٠، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ١/٢٥١، ٦٢٢، ١٣/٢، التصريح: ١/٢٢٥، الهمع: ١/٦٥، ١٤٣، شرح الأشموني: ١/٢٨٤، مجاز القرآن: ١/٣٥، ٢/٥٨، الدر: ١/١٢٠، والأغاني: ١١/٣١، والإنصاف: ٢/٤٧٩، وتخليص الشواهد: ص ٣٦٢، وتذكرة النحاة: ص ٣٥٣، ووصف المباني: ص ٢٩٩، ٣١٦، ٣١٨، وشرح شواهد المغني: ١/٧٥، ٢٠٠، ٢/٦٩٠، واللمع: ص ٣٢٠، ومغني اللبيب: ١/٦٣، ٢٨٦، ٣٠٨، والمقاصد النحوية: ٢/٢٤٥، وأوضح المسالك: ١/٣٤٩، وشرح قطر الندى: ص ١٥١ ولسان العرب (قدد).

(٢) سقط في أ.

لما تقدم، ولكنها جزء كلام على القول الأول، وكلام مستقل على القول الثاني، وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أن تكون معطوفة على «يكذبون» الواقع خبراً لـ «كانوا»، فيكون محلها نصب.

ورد بعضهم عليهما بأن هذا الذي أجازاه على أحد وجهي «ما» من قوله: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ خطأ، وهو: أن تكون موصولة بمعنى «الذي»، إذ لا عائد فيها يعود على «ما» الموصولة، وكذلك إذا جعلت مصدرية، فإنها تفتقر إلى العائد عند الأخفش، وابن السراج. والجواب عن هذا أنهما لا يُجِيزَانِ ذلك ألا وهما يعتقدان «ما» موصولة حرفية. وأما مذهب الأخفش وابن السراج فلا يلزمهما القول به، ولكنه يُشْكِلُ على أبي البقاء وحده، فإنه يستضعف كون «ما» مصدرية كما تقدم.

فصل في أوجه ورود لفظ الفساد

ورد لفظ «الفساد» على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى العُضَيَّانِ كهذه الآية.

الثاني: بمعنى الهلاك قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي: أهلكتا.

الثالث: بمعنى السحر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

فصل في بيان من القائل

منهم من قال: إن ذلك القائل هو الله تعالى، ومنهم من قال: هو الرسول، ومنهم من قال: بعض المؤمنين، وكل ذلك محتمل.

والأقرب أن ذلك القائل كان مشافهاً لهم بذلك الكلام، إما أن يكون الرسول - عليه الصلاة والسلام - بلغه عنهم النفاق، ولم يقطع بذلك، فنصحهم فأجابوا بما يحق إيمانهم، وأنهم في الصَّلاح بمنزلة سائر المؤمنين، وإما أن يكون بعض من يلقون إليه الفساد كان لا يقبله منهم، وكان ينقلب واعظاً لهم قائلاً لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٧٤] فإن قيل: إنما كانوا يخبرون الرسول بذلك؟

قلنا: نعم، كانوا إذا عوقبوا عادوا إلى إظهار الإسلام، وكذبوا النَّاقلين عنهم، وحلفوا بالله عليه كما قال - تعالى - عنهم: ﴿يَلْفُوفُونَ يَاللَّهُ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]. وقيل هذا الكلام لليهود.

و «الفساد» خروج الشيء عن كونه منتفعاً به، ونقيضه الصَّلاح.

واختلفوا في ذلك الفساد فقال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: الفساد في الأرض إظهار معصية الله تعالى.

قال القفال - رحمه الله -: وتقريره أن الشرائع سُنن موضوعة بين العباد، فإذا

تمسكوا بها زَالِ العدوان، ولزم كل أحد شأنه، وحقنت الدماء، وسكنت الفتن، فكان فيه صلاح الأرض، وصلاح أهلها، وإذا تركوا التمسك بالشرائع، وأقدم كل واحد على ما يَهْوَاهُ، وقع الهَرَجُ والمَرَجُ والاضطراب، ووقع الفساد في الأرض.

وقيل: الفساد هو مُدَارَاةُ المنافقين للكافرين، ومخالطتهم معهم؛ لأنهم إذا مالوا إلى الكُفْرِ مع أنهم في الظاهر مؤمنون أَوْهَمَ ذلك ضعف الرسول وضعف أنصاره، فكان ذلك يجري للكفار على إظهار عداوة الرسول، ونُصْبِ الحروب له.

وقال الأصم: كانوا يدعون في السر إلى تكذيبه، وجَحَدِ الإسلام، وإلقاء الشُّبُهَات، وتفريق النَّاس عن الإيمان.

فصل في مراد المنافقين بالإصلاح

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ هم المُتَافِقُونَ، لأن مرادهم بهذا الكلام نقيض ما نهوا عنه، وهو الإفساد في الأرض؛ فقولهم: إنما نحن مُصْلِحُونَ كالمُقَابِلِ له، وفي هذا احتمالان.

أحدهما: أنهم اعتقدوا أن دينهم صواب، فكان سعيهم لأجل تقوية ذلك الدين، لا جرم قالوا: إنما نحن مُصْلِحُونَ، يعني: أن هذه المُدَارَاة سَعْيٌ في الإصلاح بين المسلمين والكفار، كما حكى الله - تعالى - عنهم قولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢] فقولهم: «إنما نحن مُصْلِحُونَ» أي: نحن نصلح أمر الفساد.

وقال ابن الخطيب: العلماء استدلوا بهذه الآية على أنَّ من أظهر الإيمان وجب إجراء حكم المؤمنين عليه، وتجوز خلافه لا يطعن فيه، وتوبة الزُّنْدِيق مقبولة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا لَهُمْ أَلْفُسِدُونَ﴾ «ألا» حرف تنبيه، واستفتاح، وليست مركبة من همزة الاستفهام و «ألا» النافية، بل هي بَسِيطَةٌ، ولكنها لفظ مشترك بين التَّنْبِيهِ والاستفتاح، فتدخل على الجُمْلَةِ اسمية كانت أو فعلية، وبين العرض والتخصيص، فتختص بالأفعال لفظاً أو تقديرًا، وتكون النافية للجنس دخلت عليها همزة الاستفهام، ولها أحكام تقدّم بعضها عند قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وتكون للتَّمَنِّي، فتجرى مجرى «ليت» في بعض أحكامها.

وأجاز بعضهم أن تكون جواباً بمعنى «بلى» يقول القائل: ألم يقم زيد؟ فتقول: «ألا» بمعنى: «بلى قد قام» وهو غريب.

و «إنهم» إنَّ واسمها، و «هم» تحتل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون تأكيداً لاسم «إنَّ»؛ لأن الضمير المنفصل المرفوع يجوز أن يؤكد به جميع ضروب الضمير المتصل.

وأن تكون فصلاً، وأن تكون مبتدأ.

و «المفسدون» خبره، والجملة خبر لـ «إن».

وعلى القولين الأولين يكون «المفسدون» وحده خبراً لـ «إن»، وجيء في هذه الجملة بضروب من التأكيد منها: الاستفتاح والتنبيه، والتأكيد بـ «إن»، والإتيان بالتأكيد، والفضل بالضمير، وبالتعريف في الخبر مبالغة في الرد عليهم فيما ادّعوه من قولهم: «إنما نحن مُضِلُّحُونَ»؛ لأنهم أخرجوا الجواب جملة اسمية مؤكدة بـ «إنما» ليدلّوا بذلك على ثبوت الوصف لهم، فرد الله عليهم بأبلغ وأكد مما ادّعوه.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الواو عاطفة لهذه الجملة على ما قبلها.

و «لكن» معناها الاستدراك^(١)، وهو معنى لا يفارقها، وتكون عاطفة في المفردات^(٢)، ولا تكون إلاّ بين ضدّين، أو نقيضين، وفي الخلافين خلاف، نحو: «ما قام زيد لكن خرج بكر»، واستدلّ بعضهم على ذلك بقول طرفة: [الطويل]

٢٠١ - وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاحِ لِبَيْتِهِ وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ^(٣)

فقوله: «متى يسترفد القوم أرفد» ليس ضدّاً ولا نقيضاً لما قبله، ولكنه خلافه.

قال بعضهم: وهذا لا دليل فيه على المدعى، لأن قوله: «لست بحلال الثلّاح لبيته» كناية عن نفي البُخل أي: لا أحلّ الثلّاح لأجل البُخل.

(١) الاستدراك: هو تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم منه ثبوته، أو إثبات ما يتوهم منه نفيه، وعرفه الروداني: بأنه مخالفة حكم ما بعد «لكن» لحكم ما قبلها مع التوهم أولاً، وهذا المعنى في «لكن» أغلب فيهما، وليس لازماً؛ فقد لا تأتي لرفع التوهم.

معجم المصطلحات النحوية (١٨)، حاشية الصبان (٢٧٠/١).

(٢) لا خلاف بين النحويين في أن «لكن» للعطف، ومعناها: الاستدراك، أورد ابن الطراوة، هذا القول، وقال: إن «لكن» ليست للاستدراك، وإنما هي ضد «لا» توجب للثاني ما نفي عن الأول.

ولكن إن وليها جملة، فغير عاطفة، بل حرف ابتداء، سواء كانت بالواو أو بدونها. وقال ابن أبي الربيع: هي عاطفة جملة على جملة، ما لم تقترن بالواو، أو وليها مفرد، فشرطها تقدم نفي أو نهي؛ قال الكوفيون: أو إيجاب، والبصريون منعه؛ لأنه لم يسمع فيتعين كونها حرف ابتداء بعده الجملة ومن أحكامها: ألاّ تقترن بالواو، فإن اقترنت به فحرف ابتداء؛ لأن العاطف لا يدخل على العاطف، وقيل: لا تكون عاطفة مع المفرد إلاّ بها، قاله ابن خروف. وزعم يونس العطف بالواو دونها، فلا تكون عاطفة عنده أصلاً؛ لأنها لم تستعمل غير مسبوقة بواو، وهو عند عطف مفرد على مفرد؛ كما أشار المصنف - رحمه الله - وزعم ابن مالك أن العطف بالواو دونها، لكن عطف جملة حذف بعضها، على جملة صرح بجميعها. وزعم ابن عصفور أن الواو زائدة لازمة، والعطف بـ «لكن». وزعم ابن كيسان أنها زائدة غير لازمة، والعطف بـ «لكن». انظر البسيط شرح الجمل (٣٤٠/١)، همع الهوامع (١٣٧/٢ - ١٣٨).

(٣) البيت من معلقته المشهورة. ينظر ديوانه: (٢٩)، الكتاب: (٤٤٢/١)، الخزانة: (٦٥٠/٣)، وشرح جمل الزجاجي: (٢٠٢/٢) ومغني اللبيب: (٦٠٦/٢)، وشذور الذهب: (٤٠٥)، وشرح المعلقات السبع: (٤٥)، والدر المصون: (١٢١/١).

وقوله: «متى يسترفد القوم أرفد» كناية عن الكرم، فكأنه قال: لست بخيلاً ولكن كريماً، فهي - ها هنا - واقعة بين ضدين.

ولا تعمل مخففة خلافاً لـ «يونس»^(١)، ولها أحكام كثيرة.

ومعنى الاستدراك في هذه الآية يحتاج إلى تأمل ونظر، وذلك أنهم لما نهوا عن اتخاذ مثل ما كانوا يتعاطونه من الإفساد، فقابلوا ذلك بأنهم مصلحون في ذلك، وأخبر - تعالى - بأنهم هم المفسدون كانوا حقيقين بأن يعلموا أن ذلك كما أخبر - تعالى - وأنهم لا يدعون بأنهم مصلحون، فاستدرك عليهم هذا المعنى الذي فاتهم من عدم الشعور بذلك.

ومثله قولك: «زيد جاهل، ولكن لا يعلم»، وذلك لأنه من حيث اتصف بالجهل، وصار الجهل وصفاً قائماً به كان ينبغي أن يعلم بهذا الوصف من نفسه؛ لأن الإنسان له أن يعلم ما اشتملت عليه نفسه من الصفات، فاستدركت عليه أن هذا الوصف القائم به لا يعلمه مُبالغة في جهله.

ومفعول «يشعرون» محذوف: إما حذف اختصار، أي: لا يشعرون بأنهم مفسدون، وإما حذف اقتصار، وهو الأحسن، أي: ليس لهم شعور ألبتة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

الكلام عليها كالكلام على التي قبلها.

و «آمنوا» فعل وفاعل، والجملة في محل رفع لقيامها مقام الفاعل على ما تقدم في ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾ [البقرة: ١١] والأقوال هناك تعود هنا.

والكاف في قوله «كما آمن» في محل نصب.

وأكثر المعربين يجعلون ذلك نعتاً لمصدر محذوف، والتقدير: آمنوا إيماناً كإيمان الناس، وكذلك يقولون في: «سير عليه حثيثاً»: أي سيراً حثيثاً وهذا ليس مذهب سيويه، إنما مذهبه في هذا ونحوه أن يكون منصوباً على الحال من المصدر والمضمر المفهوم من الفعل المتقدم.

(١) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن، ويعرف بالنحوي: علامة بالأدب، كان إمام نحاة البصرة في عصره. وهو من قرية «جبل» على دجلة بين بغداد وواسط، أعجمي الأصل، أخذ عن سيويه والكسائي والفرّاء وغيرهم من الأئمة، وكانت حلقة بالبصرة ينتابها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء الأعراب ووفود البادية. وله كتب منها «معاني القرآن» وغيرها. ولد سنة ٩٤هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ.

انظر مرآة الجنان: ٣٨٨/١، نزهة الألبا: ٥٩، وفيات الأعيان: ٤١٦/٢، الأعلام: ٢٦١/٨.

وإنما أحوج سيويه إلى ذلك أن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لا يجوز إلا في مواضع محصورة، ليس هذا منها، فتلك المواضع: أن تكون الصفة خاصة بالموصوف، نحو: «مررت بكاتب».

أو واقعة خبراً نحو: «زيد قائم».

أو حالاً نحو: «جاء زيد راكباً».

أو صفة لظرف نحو: «جلست قريباً منك».

أو مستعملة استعمال الأسماء، وهذا يحفظ ولا يُقاس عليه، نحو: «الأبْطَح والأَبْرَق» وما عدا هذه المَوَاضِع لا يجوز فيها حذف المَوْصُوف؛ ألا ترى أنَّ سيويه منع لا ماء ولو بارداً، وإن تقدَّم ما يدلُّ على الموصوف، وأجاز: «إلا ماء ولو بارداً»؛ لأنه نصب على الحال.

و «ما» مصدرية في محل جَرِّ بالكاف، و «أَمَّنَ النَّاسُ» صلتها.

واعلم أنَّ «ما» المصدرية توصل بالماضي أو المضارع المتصرف، وقد شدَّ وصلها بغير المتصرف في قوله: [الطويل]

٢٠٢ - بِمَا لَسْتُمَا أَهْلَ الْخِيَانَةِ، وَالْغَدْرِ^(١)

وهل توصل بالجمل الاسمية؟ خلاف، واستدل على جوازه بقوله: [الكامل]

٢٠٣ - وَاصِلْ خَلِيلَكَ مَا التَّوَّاضُلُ مُمَكِّنٌ فَلَأَنْتَ أَوْ هُوَ عَنْ قَلِيلٍ ذَاهِبٌ^(٢)

وقال الآخر: [البسيط]

٢٠٤ - أَخْلَامُكُمْ لِسَقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ كَمَا دِمَاؤُكُمْ تَشْفِي مِنَ الْكَلْبِ^(٣)

وقول الآخر: [الوافر]

٢٠٥ - فَإِنَّ الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبَطَاتُ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ^(٤)

(١) عجز بيت، وصدره:

أليس أميري، في الأمور، بأنتما

ينظر الجنى الداني: ص ٣٣٢، والمغني: ٣٣٩، وشرح شواهد: ٧١٧، والعيني: ٤٢٢/١ - ٤٢٣،

والدر المصون: ١٢٢/١.

(٢) ينظر الدر المصون: (١٢٢/١).

(٣) البيت للكُميت بن زيد ينظر الدرر: ٢٥٢/١، ومعاهد التنخيص: ٨٨/٣، تذكرة النحاة: ص ٥١،

وهمع الهوامع: ٨١/١، الدر المصون: ١٢٢/١.

(٤) البيت لزياد الأعجم. ينظر ديوانه: ص ٩٧، وخزانة الأدب: ٢٠٤/١٠، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣،

والمقاصد النحوية: ٣٤٦/٣، والأزهية: ص ٧٧، الحيوان: ٣٦٣/١، وشرح الأشموني: ٢٩٨/٢،

وشرح ابن عقيل: ص ٣٧٠، والأمالي الشجرية: (٢٣٥/٢)، والكافية الشافية: (٨١٩/٢)، الدر

المصون: (١٢٢/١).

إِلَّا أَنْ ذَلِكَ يَكْثُرُ فِيهَا إِذَا أَفْهَمْتَ الزَّمَانَ؛ كَقَوْلِهِ: [الكامل]

٢٠٦ - وَاصِلٌ خَلِيلَكَ (١)
البيت .

وأجاز الزَّمَحْشَرِي وأبو البقاء أن تكون «ما» كافة لـ «الكاف» عن العمل .
مثلها في قولك: ربما قدم زيد، ولا ضرورة تدعو إلى هذا؛ لأن جعلها مصدريةً
مبني لـ «الكاف» على ما عهد لها من العمل، بخلاف جعلها كافة .
والألِف واللام في «النَّاس» تحتل أن تكون للجنس، وفيها وجهان .
أحدهما: المراد «الأوس» و «الخزرج»؛ لأن أكثرهم كانوا مسلمين، وهؤلاء
المنافقون كانوا منهم، وكانوا قليلين، ولفظ العموم قد يُطلق على الأكثر .
والثاني: المراد جميع المؤمنين؛ لأنهم هم النَّاس؛ لكونهم أعطوا الإنسانية حقَّها؛
لأن فضل الإنسان على سائر الحيوان بالعقل المرشد .
وتحتل أن تكون «الألف» و «اللام» للعهد، فيكون المراد: كما آمن الرسول ومن
معه، وهم ناسٌ معهودون، أو عبد الله بن سلام وغيره من مؤمني أهل الكتاب .

فصل في أوجه ورود لفظ الناس

ورد لفظ «النَّاس» على سبعة أوجه:

الأول: المراد به عبد الله بن سلام، وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب .
الثاني: المراد به النَّبِيُّ ﷺ قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] .

أي: يحسدون النبي - عليه الصلاة والسلام - على النساء .
الثالث: الناس: المؤمنون خاصة قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومثله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] .

الرابع والخامس: كفار قريش، وزيد بن مسعود، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني نعيم المكي: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

السادس: آدم - عليه الصلاة والسلام - قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] يعني: آدم عليه الصلاة والسلام .

السابع: الرِّجَال؛ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] يعني: الرجال .

فصل في إعراب الآية

الهمزة في «أنؤمن» للإنكار، والاستهزاء، ومَحَلَّ «أنؤمن» النصب بـ «قالوا» وقوله: ﴿كَمَاءٍ مِّنْ الشَّهَاءِ﴾ القول في «الكاف» و «ما» كالقول فيهما فيما تقدّم، و «الألف» و «اللام» في «السفهاء» تحتمل أن تكون للجنس أو للعهد، وأبعد من جعلها للغلبة كالعيوق؛ لأنه لم يغلب هذا الوصف عليهم، بحيث إذا قيل: السفهاء فيهم منهم ناس مخصوصون، كما يفهم من العيوق كوكب مخصوص.

والسَّفه: الخِفة، يقال: ثوب سفيه أي: خفيف النسيج، ويقال: سفهت الريح الشيء: إذا حرَّكته؛ قال ذو الرمة: [الطويل]

٢٠٧ - جَرَيْنِ كَمَا اهْتَزَّتْ رِيَّاحٌ تَسْفَهُتُ أَعَالِيَهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ^(١)
وقال أبو تمام: [الوافر]

٢٠٨ - سَفِيهِ الرُّمَحِ جَاهِلُهُ إِذَا مَا بَدَأَ فَضْلُ السَّفِيهِ عَلَى الْحَلِيمِ^(٢)
أراد سريع الطعن بالرُمح خفيفه، وإنما قيل لبذيء اللسان: سفيه؛ لأنه خفيف الهداية.

وقال عليه الصلاة والسلام: «شَارِبُ الْخَمْرِ سَفِيٌّ»^(٣) لقلة عقله.

وقيل: السفيه: الكذاب الذي يعمل بخلاف ما يعلم، وإنما سمى المنافقون المسلمين بالسفهاء، لأن المُنافقين كانوا من أهل الرياسة، وأكثر المسلمين كانوا فقراء، وكان عند المنافقين أن دين محمد باطل، والباطل لا يقبله إلا السفيه، فلهذا نسبوهم إلى السفاهة، ثم إن الله - تعالى - قلب عليهم هذا القول فقال: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ» لوجوه:

أحدها: أنَّ من أَعْرَضَ عن الدَّلِيلِ، ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة، فهو السفيه.

وثانيها: أنَّ من باع آخرته بِدُنْيَاةٍ فهو السفيه.

وثالثها: أنَّ من عادى محمدًا ﷺ فقد عادى الله، وذلك هو السفيه.

(١) ينظر ديوانه: ص ٧٥٤، وخزانة الأدب: ٢٢٥/٤، وشرح أبيات سيبويه: ٥٨/١، والكتاب: ٥٢/١، ٦٥، والمحتسب: ٢٣٧/١، والمقاصد النحوية: ٣٦٧/٣، لسان العرب: (صدر)، (سفه)، الخصائص: ٤١٧/٢، وشرح الأشموني: ٣١٠/٢، شرح ابن عقيل: ص ٣٨٠، وشرح عمدة الحافظ: ص ٨٣٨، والأشباه والنظائر: ٢٣٩/٥.

(٢) ينظر البيت في ديوانه: ١٦١/٣، الفخر الرازي: ٦٢/٢.

(٣) لم أجده في المصادر الحديثية بهذا اللفظ وقد ذكره الفخر الرازي في تفسيره (٦٢/٢).

والكلام على قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كالكلام على قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

وقرأ أهل «الشام» و «الكوفة»^(١) «السَّفَهَاءُ أَلَا» بتحقيق الهمزتين، وكذلك كل همزتين وقعتا في كلمتين اتفقتا أو اختلفتا، والآخرين يحققون الأولى، ويلتئون الثانية في المختلفتين طلباً للخفة فإن كانتا متفتحتين مثل: ﴿هَؤُلَاءِ إِنْ﴾ [البقرة: ٣١]، و ﴿أُولَئِكَ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، و ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١] قرأها أبو عمرو والبزي^(٢) عن ابن كثير بهمزة واحدة.

وقرأ أبو جعفر، وورش، ويعقوب^(٣): بتخقيق الأولى وتلئين الثانية.

وقرأ قائلون^(٤): بتلئين الأولى، وتحقيق الثانية، لأن ما يستأنف أولى بالهمزة مما يسكت عليه.

فصل في نظم الآية

إنما قال هناك: «ولكن لا يشعرون»، وقال ها هنا: «ولكن لا يعلمون» لوجهين:

أحدهما: أن المثبت لهم - هناك - الإفساد، وهو مما يدرك بأدنى تأمل، لأنه من المحسوسات التي لا تحتاج إلى فكر كثير، فنفي عنهم ما يدرك بالمشاعر، وهي الحواس مبالغة في تجهيلهم، وهو أن الشعور الذي قد ثبت للبهائم مُنْفِي عنهم، والمثبت - هنا - هو السَّفَه والمصدر به هو الأمر بالإيمان، وذلك مما يحتاج إلى إِمْعَان فكرٍ ونَظَرٍ، فإنه مُفْضٍ إلى الإيمان والتصديق، ولم يقع منهم المأمور به وهو الإيمان، فناسب ذلك نفي العلم عنهم.

الوجه الثاني: أن السَّفَه خفة العقل والجَهْل بالأمور؛ قال: [السريع]

٢٠٩ - نَخَافُ أَنْ تَسْفَهَ أَحْلَامُنَا فَتَجْهَلَ الْجَهْلُ مَعَ الْجَاهِلِ^(٥)

والعلم نقيض الجَهْل فقابله بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؛ لأن عدم العلم بالشيء جهل به.

(١) انظر حجة القراءات: ٩١، وإعراب القراءات: ٦٩/١، وشرح الطيبة: ٩/٤، وإتحاف: ٣٧٩.

وهي قراءة عاصم وحزمة والكسائي وابن عامر.

(٢) انظر تفصيل ذلك في حجة القراءات: ٩٠، وما بعدها، والبحر المحيط: ٢٠٠/١، والحجة للقراء السبعة: ٣٥٨/١، وما بعدها.

(٣) وقرأ بها ابن كثير. انظر إعراب القراءات: ٦٩/١، وحجة القراءات: ٩٢.

(٤) ينظر الحاشية قبل السابقة.

(٥) ينظر البحر المحيط: ٢٠١/١، والدر المصون: ١٢٣/١.

فصل في تعلق الآية بما قبلها

قال ابن الخطيب^(١): لما نهاهم في الآية الأولى عن الفساد في الأرض، ثم أمرهم في هذه الآية بالإيمان دلّ على أن كمال حال الإنسان لا يحصل إلا بمجموع الأمرين، وهو تركه ما لا يَنْبَغِي، وفعل ما يَنْبَغِي.

وقوله: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: إيماناً مقروناً بالإخلاص بعيداً عن النفاق.

ولقائل أن يستدلّ بهذه الآية على أنّ مجرد الإقرار بإيمان، فإنه لو لم يَكُنْ إيماناً لما تحقّق مُسَمَّى الإيمان إلا إذا حصل بالإخلاص، فكان قوله: «آمنوا» كافياً في تحصيل المطلوب، وكان ذكر قوله: ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ لغواً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

«إذا» منصوب بـ «قالوا» الذي هو جواب لها، وقد تقدّم الخلاف في ذلك، و«لقوا» فعل وفاعل، والجملة في محلّ خفض بإضافة الظرف إليها.

وأصل «لقوا»: لقيوا بوزن «شربوا» فاستثقلت الضمة على «الياء» التي هي «لام» الكلمة، فحذفت الضمة فالتقى ساكنان: لام الكلمة وواو الجمع، ولا يمكن تحريك أحدهما، فحذف الأول وهو «الياء»، وقلبت الكسرة التي على القاف ضمة؛ لتجانس واو الضمير، فوزن «لَقُوا»: «فَعُوا»، وهذه قاعدة مطّردة نحو: «خشوا»، و«حيوا». وقد سمع في مصدر «لقي» أربعة عشر وزناً: «لُقِيًّا وَلُقِيَّةً» بكسر الفاء وسكون العين، و«لَقَاء» ولقاءة» بفتحها أيضاً مع المدّ في الثلاثة، و«لَقَى» و«لُقِيَ» بفتح الفاء وضمّها، و«لُقِيًّا» بضم الفاء، وسكون العين و«لِقِيًّا» بكسرها والتشديد و«لُقِيًّا» بضم الفاء، وكسر العين مع التشديد، و«لُقِيَانًا وَلِقِيَانًا» بضم الفاء وكسرها، و«لِقِيَانَةً» بكسر الفاء خاصّة، و«تَلَقَّاء».

وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - : «وَإِذَا لَاقُوا».

و«الَّذِينَ آمَنُوا» مفعول به، و«قالوا» جواب «إذا»، و«آمنّا» في محل نصب بالقول.

قال ابن الخطيب: «والمراد بقولهم: «آمنّا»: أخلصنا بالقلب؛ لأن الإقرار باللسان كان معلوماً منهم مما كانوا يحتاجون إلى بيّانه، إنما المشكوك فيه هو الإخلاص بالقلب، وأيضاً فيجب أن يحمل على نقيض ما كانوا يظهرونه لشياطينهم، وإنما كانوا يظهرون لهم التّكذيب بالقلب».

وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا﴾ تقدّم نظيره، والأكثر في «خلا» أن يتعدّى بالباء، وقد يتعدّى بـ «إلى»، وإنما تعدّى في هذه الآية بـ «إلى» لمعنى بديع، وهو أنه إذا تعدّى بالباء احتمل معنيين:
أحدهما: الانفراد.

والثاني: السُّخْرية والاستهزاء، تقول: «خلوت به» أي: سخرت منه، وهو من قولك: خلا فلان بعرض فلان أي: يغبث به.

وإذا تعدّى بـ «إلى» كان نصّاً في الانفراد فقط، أو تقول: ضمن «خلا» معنى «صرف» فتعدّى «إلى»، والمعنى: صرفوا خلاهم إلى شياطينهم، أو تضمّن معنى «ذهبوا» وانصرفوا» ومنه: «القرون الخالية».

وقيل: «إلى» - هنا - بمعنى «مع»، كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢].
وقيل: هي هنا بمعنى «الباء»، وهذان القولان إنما يجوزان عند الكوفيين، وأما البصريون فلا يُجيزون التجوّز في الحروف؛ لضعفها.

وقيل المعنى: وإذا خلوا رجعوا إلى شياطينهم. فـ «إلى» على بابها.
والأصل في خَلَوْا: خَلَوْوا، فقلبت «الواو» الأولى التي هي «لام» الكلمة «ألفاً» لتحركها، وانفتاح ما قبلها، فبقيت ساكنة وبعدها «واو» الضمير ساكنة، فالتقى ساكنان، فحذف أولهما، وهو «الألف»، وبقيت الفتحة دالةً عليها.

و «شياطينهم»: جمع شيطان، جمع تكسير، وقد تقدّم القول في اشتقاقه، فوزن شياطين: إما «فَعَالِيل» أو «فَعَالِينَ» على حسب القولين المتقدمين في الاستعاذة، والفصيح في شياطين وبابه أن يعرب بالحركات؛ لأنه جمع تَكْسِير، وفي لغة رديئة، وهي إجراؤه إجراء الجمع المذكر السالم، سمع منهم: «لفلان البستان حوله البُستَانُونَ».

وقرىء شاذّاً: «وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ» [الشعراء: ٢١٠].

وشياطينهم: رؤساؤهم وكهنتهم.

قال ابن عباس: وهم خمسة نفر من اليهود: كعب بن الأشرف بـ «المدينة»، وأبو بردة بـ «الشام» في بني أسلم، وعبد الدار في «جهينة»، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السوداء بـ «الشام» ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له^(١).

وقال مجاهد: شياطينهم: أصحابهم من المنافقين والمشرّكين^(٢).

(١) أخرجه الواحدي في «الوسيط» (٩٠/١).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠/١) وعزه لابن جرير وعبد بن حميد عن مجاهد.

وهو عند الطبري في «تفسيره» (٢٩٨/١).

قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ «إِنَّ» واسمها و «معكم» خبرها، والأصل في «إنا»: «إننا» لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وإنما حذفَت نُونِي «إِنَّ» لما اتصلت بنون «نا»، تخفيفاً.

وقال أبو البقاء^(١): «حذفت النون الوُسْطَى على القول الصحيح، كما حذفت في «إِنْ» إذا خففت».

و «مَعَ» ظرف والضمير بعده في محلّ خفض بإضافته إليه وهو الخبر - كما تقدم - فيتعلّق بمحذوف وهو ظرف مكان، وفهم الظرفية منه قلق.

قالوا: لأنه يدلّ على الصحبة، ومن لازم الصحبة الظرفية، وأما كونه ظرف مكان، لأنه يخبر به عن الجُثْثِ نحو: «زيد معك»، ولو كان ظرف زمان لم يَجُزْ فيه ذلك.

واعلم أن «مع» لا يجوز تسكين عينها إلا في شعر كقوله: [الوافر]

٢١٠ - فَرِيْشِي مِنْكُمْ وَهَوَايَ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَتْ زَيَارَتُكُمْ لِمَامًا^(٢)

وهي حينئذ على ظرفيتها خلافاً لمن زعم أنها حينئذ حرف جرّ، وإن كان النّحاس ادّعى الإجماع في ذلك، وهي من الأسماء اللازمة للإضافة، وقد تقطع لفظاً، فتتنصب حالاً غالباً، تقول: جاء الزيدان معاً أي: مصطحبين، وقد تقع خبراً، قال الشاعر: [الطويل]

٢١١ - حَنَنْتَ إِلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَغْبَاكُمَا مَعًا^(٣)

ف «شَغْبَاكُمَا» مبتدأ، و «مَعًا» خبره، على أنه يحتمل أن يكون الخبر محذوفاً، و «مَعًا» حال.

واختلفوا في «مع» حال قطعها عن الإضافة؛ هل هي من باب المقصور نحو: «عصى» و «رحا»، أو المنقوص نحو: «يد» و «دم»؟ قولان:

(١) ينظر الإملاء: ٢٠/١.

(٢) البيت لجرير ينظر ديوانه: ص ٢٢٥، وللراعي النميري في ملحق ديوانه: ص ٣٣١، وينظر الكتاب: ٤٢٨٧/٢، أوضح المسالك: ١٤٩/٣، ولسان العرب (مع)، وشرح ابن عقيل: ص ٣٩٥، وشرح الأشموني: ٣٢٠/٢، ووصف المباني: ص ٣٢٩، والجنى الداني: ص ٣٠٦، ومعاني القرآن: (١/٥٤)، والأمالي الشجرية: (١/٢٤٥)، (٢/٢٥٤)، وابن يعيش: (٢/١٢٨)، (٥/١٣٨)، وشرح الكافية الشافية: (٢/٩٥١)، وارتشاف الضرب: (٢/٢٦٧)، وشرح الألفية لابن الناظم: (٣٩٩)، والتصريح: (٢/٤٨)، (١٩٠)، ومجمع البيان: (١/١١٠)، والدر المصون: (١/١٢٤) شرح أبيات سيبويه: ٢/٢٩١، المقاصد النحوية: ٣/٤٣٢.

(٣) البيت للصمة القشيري ينظر الأغاني: ٨/٦، ٩، وأمالي القالي: ١/١٩٠، وسمط اللاكي: ص ٤٦١، وشرح ديوان الحماسة: ص ١٢١٥، والمقاصد النحوية: ٣/٤٣١، العيني: (٣/٤٣١)، شرح الألفية لابن الناظم: (٣٩٩)، والدر المصون: (١/١٢٤).

الأول: قول يونس، والأخفش.

والثاني: قول الخليل وسيبويه، وتظهر فائدة ذلك إذا سمّي به

فعلى الأول تقول: «جاءني معاً»، و «رأيت معاً» و «مررت بمعاً».

وعلى الثاني: «جاءني مع» و «رأيت معاً» و «مررت بمع» ك «يَد»، ولا دليل على

القول الأول في قوله: «وشعباكما معاً»؛ لأن معاً منصوب على الظرف النائب عن الخبر،

نحو: «زيد عندك» وفيها كلام كثير.

فصل في نظم الآية

لم كانت مُحَاطبتهم للمؤمنين بالجملة الفعلية ومخاطبة شياطينهم بالجملة الاسمية

محقة بـ «إن»؟

قال ابن الخطيب: الجواب: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين؛

لأنهم كانوا في ادعاء حدوث الإيمان منهم، لا في ادعاء أنهم في الدرجة الكاملة منه، إما

لأن أنفسهم لا تساعدهم على المبالغة، لأن القول الصادر عن التفاق والكرهية قلماً

يحصل معه المبالغة، وإما لعلمهم بأن ادعاء الكمال في الإيمان لا يروج على المسلمين،

وأما كلامهم مع إخوانهم، فكانوا يقولونه عن الاعتقاد، ويعلمون أنّ المستمعين يقبلون

ذلك منهم، فلا جرم كان التأكيد لائقاً به. واختلفوا في قائل هذا القول أھمّ كلّ

المُتأفقين، أو بعضهم؟

فمن حمل الشياطين على كبار المُتأفقين، فحمل هذا القول على أنه من صغارهم،

فكانوا يقولون للمؤمنين: «آمنّا»، وإذا عادوا إلى أكابرهم قالوا: «إنا معكم»، ومن قال:

المراد بالشياطين الكفار لم يمنع إضافة هذا القول إلى كلّ المُتأفقين.

وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُضِلُّوهُمْ﴾ [البقرة: ١١]، وهذه

الجملة الظاهر أنها لا محلّ لها من الإعراب لاستثناها؛ إذ هي جواب لرؤسائهم، كأنهم

لما قالوا لهم: «إنا معكم» توجه عليهم سؤال منهم، وهو: فما بالكم مع المؤمنين

تُظَاهرونهم على دينهم، فأجابوهم بهذه الجملة.

وقيل: محلّها النصب، لأنها بدلٌ من قوله: «إنا معكم».

وقياس تخفيف همزة «مستهزؤون» ونحوه أن تجعل بَيْنَ بَيْنَ، أي بين الهمزة

والحرف الذي منه حركتها وهو «الواو»، وهو رأي سيبويه، ومذهب الأخفش قلبها «ياء»

محضة.

وقد وقف حمزة على ﴿مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ و ﴿فَمَالِئُونَ﴾ [الصافات: ٦٦] و ﴿لِطُغْيَانٍ﴾

[الصف: ٨] و ﴿لِوَاطِئُونَ﴾ [التوبة: ٣٧] و ﴿وَسَتُنْزِلُوكَ﴾ [يونس: ٥٣] و ﴿لِخَاطِئِينَ﴾

[يوسف: ٥٧] و ﴿لِخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٧]، و ﴿مُتَكِينٍ﴾ [الكهف: ٣١] و ﴿مُتَكُونٍ﴾

[يس: ٥٦]، و ﴿الْمُنْشِقُونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] بحذف صورة الهمزة اتباعاً لرسم المصحف.

وقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ تأكيد لقولهم: «إِنَّا مَعَكُمْ».

وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ الله: رفع بالابتداء، و «يستهزئ» جملة فعلية في محل رفع خبر، و «بِهِمْ» متعلق به، ولا محل لهذه الجملة لاستئنافها.

و «يُمْدَهُمْ» يتركهم ويُمهلهم، وهو في محل رفع أيضاً لعطفه على الخبر، وهو «يستهزئ». و «يَعْمَهُونَ» في محل الحال من المفعول في «يُمْدَهُمْ»، أو من الضمير في «طغيانهم»، وجاءت الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف مصدر.

و «في طغيانهم» يحتمل أن يتعلّق بـ «يُمْدَهُمْ»، أو بـ «يعمّهون»، وقدّم عليه، إلا إذا جعل «يعمّهون» حالاً من الضمير في «طغيانهم»، فلا يتعلّق به حينئذ، لفساد المعنى.

وقد منع أبو البقاء أن يكون «في طغيانهم»، و «يعمّهون» حالين من الضمير في «يُمْدَهُمْ» معللاً ذلك بأن العامل الواحد لا يعمل في حالين، وهذا على رأي من منع ذلك.

وأما من يجيز تعدّد الحال مع عدم تعدّد صاحبها فيجيز ذلك، إلا أنه في هذه الآية ينبغي أن يمنع من ذلك لا لما ذكره أبو البقاء، بل لأن المعنى يأبى جعل هذا الجار والمجرور حالاً؛ إذ المعنى منصب على أنه متعلّق بأحد الفعلين، أعني: «يُمْدَهُمْ»، أو «يعمّهون» لا بمحذوف على أنه حال.

والمشهور فتح «الياء» من «يُمْدَهُمْ».

وقرىء شاذاً^(١) «يُمْدَهُمْ» بضم الياء.

ف قيل: الثلاثي^(٢) والرباعي بمعنى واحد تقول: «مده» و «أمده» بكذا.

وقيل: «مده» إذا زاده عن جنسه، و «أمده» إذا أراده من غير جنسه.

وقيل: مده في الشرّ لقوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُم مِّنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، وأمده في الخير لقوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِئْكُمْ بِخَيْرِهَا وَيُعَرِّقْ فِي الْوُجُوهِ﴾ [الطور: ٢٢]، «أَن يُمْدَكُم رَّبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٤] إلا أنه يعكر على هذين الفرقين أنه قرئ: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْوُجُوهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] باللغتين، ويمكن أن يجاب عنه بما ذكره الفارسي في توجيه ضم «الياء» أنه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، ﴿فَسَيَّرُهُ لِّلْمَسَرَّةِ﴾ [الليل: ١٠] يعني أبو علي - رحمه الله - بذلك أنه على سبيل التهكم.

(١) انظر الكشف: ٦٧/١، والبحر المحيط: ٢٠٣/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٨٠/١.

(٢) في أ: الثاني.

وأصل المدد الزيادة.

وقال الزمخشري^(١): فإن قلت: لم زعمت أنه من المَدَد دون المَد في العُمَر والإملاء والإمهال؟

قلت: كفاك دليلاً على ذلك قراءة ابن كثير، وابن محيصن^(٢): «ويمدهم» وقراءة نافع^(٣): ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] على أن الذي بمعنى أمهل إنما هو مَد له بـ «اللام» كأملى له.

والاستهزاء لغة: السخرية واللعب؛ يُقال: هَزَيْء به، واستهزأ، قال: [الرجز]

٢١٢ - قَدْ هَزِئْتُ مِنِّي أُمَّ طَيْسَلَةَ قَالَتْ: أَرَأَهُ مُغْدِماً لَّا مَالَ لَهُ^(٤)

وقيل: أصله الانتقام؛ وأنشد: [الطويل]

٢١٣ - قَدْ اسْتَهْزَؤُوا مِنْهُمْ بِالْفَنِيِّ مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ وَسَطَ الصَّحَاصِحِ جُنْمٍ^(٥)

فعلى هذا القول الثاني نسبة الاستهزاء إليه - تعالى - على ظاهرها.

وأما على القول الأول فلا بد من تأويل وهو من وجوه:

الأول: قيل: المعنى: يجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب ليزدوج الكلام، ومنه: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنْ أَعَدَّكُمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ إِنَّ فلاناً هَجَانِي، وهو يعلم أنني لَسْتُ بِشَاعِرٍ، اللَّهُمَّ فَاهْجُهُ، اللَّهُمَّ فَاعْنُهُ عَدَدَ مَا هَجَانِي»^(٦)؛ وقال عليه الصلاة والسلام: «تَكَلَّفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(٧)؛ وقال عمرو بن كلثوم: [الوافر]

(١) ينظر الكشاف: ٦٧/١.

(٢) انظر: القراءة السابقة.

(٣) ستأتي في الأعراف آية (٢٠٢).

(٤) البيت لصخر الهلالي. ينظر أمالي القالي: (٢/٢٨٤)، التكت والعيون: (١/١٣٧)، القرطبي: (١/٢٠٧) الدر المصون: (١/١٢٦).

(٥) ينظر القرطبي: ١/١٤٥، والدر المصون: ١/١٢٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في العلل (٢/٢٦٢ - ٢٦٣) رقم (٢٢٨٣) وقال أبو حاتم: هذا حديث خطأ إنما يروونه عن عدي بن ثابت مرسلاً عن النبي ﷺ بلا البراء بن عازب.

(٧) أخرجه البخاري (٤/٢٥١) رقم (١٩٧٠) بلفظ: خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ومسلم (صلاة المسافرين) ب (٣١) رقم (٢٢) وأحمد (٦/٨٤) والبيهقي (٣/١٧) وعبد الرزاق =

٢١٤ - أَلَا يَجْهَلْنَ أَحَدًا عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

وثانيها: أن ضرر استهزائهم بالمؤمنين راجع إليهم، وغير ضار بالمؤمنين، فيصير كأن الله استهزأ بهم.

وثالثها: أن من آثار الاستهزاء حُصول الهوان والحقارة، فذكر الاستهزاء، والمراد حُصول الهوان لهم فعبّر بالسبب عن المُسبَّب.

ورابعها: أن استهزاء الله بهم أن يظهر لهم من أحكامه في الدنيا ما لهم عند الله خلافها في الآخرة، كما أنهم أظهروا [للنبي و]^(٢) المؤمنين أمراً مع أن الحاصل منهم في السر خلافه، وهذا ضعيف؛ لأنه - تعالى - لما أظهر لهم أحكام الدنيا، فقد أظهر الأدلة الواضحة بما يعاملون به في الدار الآخرة، فليس في ذلك مخالفة لما أظهره في الدنيا.

وخامسها: أن الله - تعالى - يعاملهم مُعاملة المُستهزِئ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلأنه أطلع الرسول على أسرارهم لمُبَالِغتهم في إخفائها، وأما في الآخرة فقال ابن عباس: هو أن يفتح لهم باباً من الجنة، فإذا رأوه المنافقون خرجوا من الجحيم متوجهين إلى الجنة، فإذا وصلوا إلى باب الجنة، فهناك يغلق دونهم الباب، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ یَضْحَكُونَ﴾^(٣) [المطففين: ٣٤] وقيل: هو أن یضرب للمؤمنين نور یمشون به على صراط، فإذا وصل المنافقون إليه حیل بينهم وبينه، كما قال تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَیْنَهُمْ سُورًا﴾ [الحديد: ١٣] الآية.

فإن قيل: هلا قيل: إن الله يستهزئ بهم ليكون مطابقاً لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ﴾ [البقرة: ١٤]؟

= (٢٠٥٦٦) وابن عبد البر في التمهيد (١٩٢/١) والطبري في تفسيره (٥٠/٢٩). وأخرجه أبو داود في السنن (٤٣٥/١) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا فإن أحب العمل إلى الله أؤدومه وإن قل والنسائي في السنن (٢/٦٨) كتاب القبلة (٩) باب المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة حديث رقم (٧٦٢). وابن ماجه في السنن (١٤١٧/٢) كتاب الزهد (٣٧) باب المداومة على العمل (٢٧)، حديث رقم (٤٢٤٠).

وأحمد في المسند (٦١/٦)، ١٧٦، ٢٤١، (٢٧٦).

وابن أبي شيبة في المصنف (٨٣/٣).

وذكره ابن حجر في فتح الباري ١٧٣/٤.

والزبيدي في إحطاف السادة المتقين (١٦٠/٥) ولفظه تكلفوا من العمل ما تطيقون.

(١) البيت من معلقته المشهورة. ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني (١٠٢)، والتبيان في علم المعاني والبدیع والبيان (٣٤٨)، والبحر (١٨٦/١)، والقرطبي: (١٤٥/١) والدر المصون: (١٢٦/١).

(٢) سقط في أ.

(٣) الأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٩/١) وعزاه للبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس.

والجواب: أنَّ «يستَهْزِئ» يفيد حدوث الاستهزاء وتجذده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].
و «الطُّغْيَان»: الضلال مصدر طَغَى يَطْغَى طُغْيَاناً وَطُغْيَاناً بكسر الطاء وضمها.
وبكسر الطاء قرأ زيد بن علي^(١)، ولام «طغى» قيل: ياء. وقيل: واو، يقال: طَغَيْتُ وَطَغَوْتُ، وأصل المادة مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، ومنه: طغى الماء.

و «الْعَمَّة»: التردد والتحير، وهو قريب من الْعَمَى، إلا أن بينهما عموماً وخصوصاً؛ لأن الْعَمَى يطلق على ذهاب ضوء العين، وعلى الخطأ في الرأي، والْعَمَّة لا يطلق إلا على الخطأ في الرأي، يقال: عَمِيَ عَمَّاهُ وَعَمَّاهُنَّ فهو عَمِيَّةٌ وَعَامِيَّةٌ.

فصل في الرد على المعتزلة

قالت المعتزلة: هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] أضاف ذلك الغي إلى إخوانهم، فكيف يكون مضافاً إلى الله.

وثانيها: أن الله - تعالى - ذمهم على هذا الطغيان، فلو كان فعلاً لله - تعالى - فكيف يذمهم عليه؟

وثالثها: لو كان فعلاً لله - تعالى - لبطلت النبوة، وبطل القرآن، فكان الاشتغال بتفسيره عبثاً.

ورابعها: أنه - تعالى - أضاف الطغيان إليهم بقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، ولو كان من الله لما أضافه إليهم فظهر أنه إنما أضافه إليهم ليعلم أنه - تعالى - غير خالق لذلك، ومصادقه أنه حين أسند المَدَّ إلى الشياطين أطلق الغي، ولم يقيده بالإضافة في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ إذا ثبت هذا، فلا بُدَّ من التأويل، وهو من وجوه:

أحدها: قال الكعبي وأبو مسلم الأصفهاني: إن الله - تعالى - لَمَّا منحهم أُلُطَافَهُ التي منحها للمؤمنين، وخَذَلَهُمْ بسبب كفرهم وإصرارهم عليه بقيت قلوبهم مُظْلَمَةً بتزايد الرِّين فيها، وكتزايد النور في قلوب المؤمنين، فسمى ذلك النور مدداً، وأسند إلى الله تعالى؛ لأنه مسبب عن فعله بهم.

وثانيها: أن يحمل على منع القسر والإلجاء.

وثالثها: أن يسند فعل الشيطان إلى الله - تعالى - لأنه بتمكينه، وإقداره، والتَّخْلِيَةِ بينه وبين إغواء عباده.

(١) وهي لغة يقال: طغيان بالضم والكسر كما قالوا: لقيان، وغيان بالضم والكسر. انظر البحر المحيط:

ورابعها: قال الجُبَّائي: ويمدهم أي يمد عمرهم، ثم إنهم مع ذلك في طغيانهم يعمهون، وهذا ضعيف من وجهين:

الأول: ما بيَّنَّا أنه لا يجوز في اللغة تفسير «ويمدهم» بالمَدِّ في العمر.

الثاني: هَبْ أنه يصحَّ ذلك، ولكنه يفيد أنه - تعالى - يمد عمرهم بغرض أن يكونوا في طُغْيَانِهِمْ يعمهون، وذلك يفيد الإشكال.

أجاب القاضي عن ذلك بأنه ليس المراد أنه - تعالى - يمدَّ عمرهم بغرض أن يكونوا في الطغيان، بل المراد أنه - تعالى - يبقِيهم، ويلطف بهم في الطاعة، فيأبون إلا أن يعمهوا.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

«أولئك»: رفع بالابتداء و «الذين» وصلته خبره.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ﴾ هذه الجملة عطف على الجملة الواقعة صلة، وهي: «اشترُوا».

وزعم بعضهم أنها خبر المبتدأ، وأنَّ الفاء دخلت في الخبر لما تضمَّنه الموصول من معنى الشرط، فيصير نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ثم قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾. وهذا وهم؛ لأن «الذين» ليس مبتدأ حتى يدعي دخول الفاء في خبره، بل هو خبر عن «أولئك» كما تقدَّم. فإن قيل: يكون الموصول مبتدأ ثانياً، فتكون الفاء دخلت في خبره.

قلنا: يلزم من ذلك عدم الربط بين المبتدأ والجملة الواقعة خبراً عنه، وأيضاً فإنَّ الصلة ماضية معنى.

فإن قيل: يكون «الذين» بدلاً من «أولئك» فالجواب يصير الموصول مخصوصاً لإبداله من مخصوص، والصلة أيضاً ماضية.

فإن قيل: يكون «الذين» صفة لـ «أولئك»، ويصير نظير قولك: «الرجل الذي يأتيني فله درهم».

قلنا: يرد بما رد به السؤال الثاني، وبأنه لا يجوز أن يكون وصفاً له؛ لأنه أعرف منه، ففسد هذا القول.

والمشهور ضمَّ واو «اشترُوا» لالتقاء الساكنين، وإنما ضمت تشبيهاً بقاء الفاعل.

وقيل: للفرق بين واو الجمع والواو الأصلية نحو: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٢].

وقيل: لأن الضمة - هنا - أخفَّ من الكسرة؛ لأنها من جنس الواو.

وقيل: حركت بحركة الياء المحذوفة، فإن الأصل: «اشترىوا» كما سيأتي.

وقيل: هي للجمع فهي مثل: «نحن». وقرئ بكسرهما^(١) على أصل التقاء الساكنين، وبفتحها؛ لأنها أخف.

وأجاز الكسائي همزها تشبيهاً لها بـ «أذُور» و «أثُوب» وهو ضعيف؛ لأن ضمها غير لازم.

وقال أبو البقاء: «ومنهم من يَخْتَلِسُهَا، فيحذفها لالتقاء الساكنين؛ وهو ضعيف جداً، لأن قبلها فتحة، والفتحة لا تدلّ عليها».

وأصل اشتروا: اشتريوا، فتحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وبقيت الفتحة دالةً عليها.

وقيل: بل حذفت الضمة من الياء فسكنت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء لالتقائها ساكنةً مع «الواو».

فإن قيل: واو الجمع قد حركت، فينبغي أن يعود الساكن المحذوف؟

فالجواب: أن هذه الحركة عارضةٌ فهي في حكم الساكن، ولم يجيء ذلك إلا في ضرورة الشعر؛ وأنشد الكسائي:

٢١٥ - يَا صَبَاحَ لَمَ تَنَامِ الْعَشِيَّ^(٢)
فأعاد الألف لما حركت الميم حركةً عارضةً.

و «الضلالة» مفعوله، وهي: الجور عن القصد، وفقد الاهتداء، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين.

و «بالهدى» متعلق بـ «اشترىوا» والباء هنا للعوض، وهي تدخل على المتروك أبداً.

فأما قوله تعالى: ﴿فَلْيَقْتَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]، فإن ظاهره أن الآخرة هي المأخوذة لا المتروكة.

فالجواب ما قاله الزمخشري: «أن المراد بـ «المشتريين» المبطلون وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق، ويخلصوا الإيمان بالله - تعالى - ورسوله، ويجاهدوا في الله حقّ الجهاد، فحيث دخلت «الباء» على المتروك».

والشراء - هاهنا - مجاز عن الاستبدال بمعنى أنهم لما تركوا الهدى، وآثروا الضلالة، جعلوا بمنزلة المشتريين لها بالهدى، ثم رشح هذا المجاز بقوله تعالى: ﴿كَمَا

(١) وهو قراءة ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر، وقرأ بالفتح قعنب أبو السّمّال العدوي، انظر المحرر الوجيز: ٩٨/١، والبحر المحيط: ٢٠٤/١، والقرطبي: ١٤٧/١.

(٢) ينظر الدر المصون: ١٢٧/١.

رَبِّحَتْ بِحَرِّهِمْ ﴿١﴾ فَاسْتَدَ الرُّبْحَ إِلَى التُّجَارَةِ، والمعنى: فما ربحوا في تِجَارَتِهِمْ؛ ونظير هذا التَّرْشِيح قول الآخر: [الطويل]

٢١٦ - بَكَى الْحَزُّ مِنْ رَوْحٍ وَأَنْكَرَ جِلْدَهُ وَعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُدَامِ الْمَطَارِفِ ^(١)
لما أسند البكاء إلى الْحَزِّ من أجل هذا الرجل - وهو رَوْح - وإنكاره لجلده مجازاً رَشَّحه بقوله: «وَعَجَّتْ الْمَطَارِفُ مِنْ جُدَامٍ» أي: استغاثت الثياب من هذه القبيلة. وقول الآخر: [الطويل]

٢١٧ - وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنُ دَايَةِ وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي ^(٢)
لما جعل «النَّسْرَ» عبارة عن الشَّيْب، و «ابن داية» وهو الغُرَاب عبارة عن الشباب، مجازاً رَشَّحه بذكر التعشُّش في الْوَكْرِ، وقول الآخر: [الوافر]

٢١٨ - فَمَا أُمُّ الرُّذَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّتْ بِعَالِمَةٍ بِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّعَ فِي قَفَاهَا تَنَفَّقْنَا بِالْحَبْلِ الثُّوَامِ ^(٣)
لما قال: «قَصَّعَ فِي قَفَاهَا» أي: دخل من القاصعاء، وهي: جُحْر من جِحْرَةِ الْيَرْبُوع رَشَّحه بقوله: «تَنَفَّقْنَا» أي: أخرجنه من النَّافِقَاءِ، وهي - أيضاً - من جِحْرَةِ الْيَرْبُوع فكذا هنا لما ذكر سبحانه الشَّرَّ، أتبعه بما يُشَاكِلُه، وهو الريح تمثيلاً لخسارتهم. والريح: الزيادة على رأس المال.

وقوله: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» هذه الجملة معطوفة على قوله: «فَمَا رَبِّحَتْ بِحَرِّهِمْ».

والمهتدي: اسم فاعل من اهتدى، و «افتعل» هنا للمُطَاوَعَة، ولا يكون «افتعل» للمطَاوَعَة إلا من فعل متعد.

وزعم بعضهم أنه يجيء من اللازِم، واستدل على ذلك بقول الشاعر: [الرجز]

٢١٩ - حَتَّى إِذَا اشْتَالَ سُهَيْلٌ فِي السَّحَرِ كَشَفَلَةَ الْقَابِسِ تَرْمِي بِالشَّرَرِ ^(٤)
قال: ف «اشْتَالَ» افتعل لمُطَاوَعَة «شال»، وهو لازم، وهذا وهم؛ لأن «افتعل» هنا ليس للمُطَاوَعَة، بل بمعنى «فَعَلَ» المجرد.

(١) البيت لحميدة بنت النعمان. ينظر الكتاب: (٢٥/٢)، والمقتضب: (٣/٣٦٤)، وشرح جمل الزجاجي: (٢٦٤/١)، والمخصص: (٤٠/١٧) والاقطصاب: (١١٧، ٢٠٦)، البحر المحيط: (١/٢٠٥)، الدر المصون: (١٢٦/١).

(٢) البيت لابن المعتز. ينظر ديوانه: ٤٣/٢، شواهد الكشاف: ٣٩٤/٤، الدر: ١٢٨/١.

(٣) ينظر البيتان في الكشاف: ٧١/١، الدر المصون: ١٢٨/١.

(٤) ينظر البيت في الممتع: (١٩٣)، المنصف: (٧٥/١)، واللسان مادة (شول)، البحر المحيط: (١/١٩٥)، روح المعاني: (١٦٢/١)، والدر المصون: (١٢٨/١).

ومعنى الآية أنهم ما كانوا مهتدين من الضلالة، وقيل: مُصِيبِينَ فِي تِجَارَتِهِمْ؛ لأنَّ المقصود من التَّجَارَةِ سلامةُ رأس المال، والريح، وهؤلاء أضاعوا الأمرين؛ لأنَّ رأس مالهم هو العَقْلُ الخالي عن المانع، فلما اعتقدوا هذه الضلالات صارت تلك العقائد الفاسدة مانعةً من الاشتغال بطلب العقائد الحقّة.

فهؤلاء مع أنهم لم يربحوا فقد أفسدوا رأس المال، وهو العقل الهادي إلى العقائد الحقّة.

وقال قتادة: «انتقلوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الطاعة إلى المعصية، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة».

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧)

اعلم أن المقصود من ضرب المِثَال أنه يؤثر في القَلْب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المَثَلِ تشبيه الخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح في الترغيب في الإيمان لذا مثل بالظلمة، فإذا أخبرت عن ضعف أمر ومثله بِسُجِّ العنكبوت كان ذلك أبلغ في وقعه في القلب بالخبر مجرداً.

قوله: «مثلهم»: مبتدأ و «كمثل» جار ومجرور خبره، فيتعلّق بمحذوف على قاعدة الباب، ولا مبالاة بخلاف من يقول: إِنَّ «كاف» التشبيه لا تتعلّق بشيء، والتقدير: مثلهم مستقر كَمَثَلٍ. وأجاز أبو البقاء^(١) وابن عطية^(٢) أن تكون «الكاف» اسماً هي الخبر، ونظيره قول الشاعر: [البسيط]

٢٢٠ - أَتَنْتَهُونَ؟ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِي شَطِطٍ كَالطُّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّئْتُ وَالْفُتْلُ^(٣)

وهذا مذهب الأخفش: يجيز أن تكون «الكاف» اسماً مطلقاً.

وأما مذهب سيبويه فلا يُجِيزُ ذلك إلا في شعر، وأما تنظيره بالبيت فليس كما قال؛ لأنَّ في البيت نضطر إلى جعلها اسماً لكونها فاعلة، بخلاف الآية.

(١) البيت للأعشى ينظر ديوانه: ١١٣، والأشباه والنظائر: ٢٧٩/٧، والجنى الداني: ٨٢، وخزانة الأدب: ٤٥٣/٩ و ٤٥٤، والدرر: ١٥٩/٤، وسر صناعة الإعراب: ٢٨٣/١، شرح شواهد الإيضاح: ٢٣٤، وشرح المفصل: ٤٣/٨، ولسان العرب [دنا]، والمقاصد النحوية: ٢٩١/٣، والخصائص: ٣٦٨/٢، ورصف المباني: ١٩٥، أمالي ابن الشجري: (٢٢٩/٢) والأصول: (١/١) (٤٣٩) وشرح جمل الزجاجي: (٤٧٨/١)، وشرح الألفية لابن الناطم: (٣٦٩)، والدر المصون: ١/١٢٨، المحرر: ٩٩/١، والبحر المحيط: ٢٠٩/١، وروح المعاني: (١/١٦٣).

(٣) تقدم برقم (٢٢٠).

(٢) ينظر الاملاء: ٢٠/١.

والذي ينبغي أن يقال: إن «كاف» التشبيه لها ثلاثة أحوال:
حال يتعين فيها أن تكون اسماً، وهي ما إذا كانت فاعلة، أو مجرورة بحرف، أو
إضافة. مثال الفاعل: [البسيط]

٢٢١ - أَتَتْهُمْ وَلَنْ يَنْتَهَى (١)

البيت.

ومثال جرّها بحرف قول امرئ القيس: [الطويل]

٢٢٢ - وَرَحْنَا بِكَانِنِ الْمَاءِ يُجْنَبُ وَسَطْنَا تَصَوَّبُ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي (٢)

وقوله: [الوافر]

٢٢٣ - وَرَغْتُ بِكَالْهَرَاوَةِ أَعْوَجِي إِذَا وَنَّتِ الرُّكَّابُ جَرَى وَثَابَا (٣)

ومثال جرّها بالإضافة قوله: [السريع أو الرجز]

٢٢٤ - فَصَيِّرُوا مِثْلَ كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ (٤)

وحال يتعين أن تكون فيها حرفاً، وهي: الواقعة صلة، نحو: جاء الذي كزيد؛ لأن جعلها اسماً يستلزم حذف عائد مبتدأ من غير طول الصلة، وهذا ممتنع عند البصريين. وحال يجوز فيها الأمران، وهي ما عدا ذلك نحو: «زيد كعمرو».

وأبعد من جعلها زائدة في الآية الكريمة، أي: مثلهم مثل الذي، ونظره بقوله: «فَصَيِّرُوا مِثْلَ كَعَصِفٍ» كأنه جعل المثل والمثل بمعنى واحد، والوجه أن المثل - هنا - بمعنى القصة والتقدير: صفتهم وقصتهم كقصة المستوقد، فليست زائدة على هذا

(١) ينظر المحرر الوجيز: ٩٩/١.

(٢) ينظر ديوانه ص ١٧٦، وأدب الكاتب: ص ٥٠٥، وخزانة الأدب: ١٦٧/١٠، ١٧١، ورصف المباني: ص ١٩٦، وأمالى ابن الشجري: (٢٩٩/٢)، والاقتضاب: (٤٢٩)، وشرح جمل الزجاجي: (٤٧٨/١)، والجامع لأحكام القرآن: (١٤٨/١)، والدر المصون: (١٢٩/١).

(٣) البيت لابن غادية السلمي ينظر الاقتضاب: ص ٤٢٩، وأدب الكاتب: ص ٥٠٥، ولسان العرب (وثب)، (ثوب)، والمقرب: ١٩٦/١، وجمهرة اللغة: ص ١٣١٨، ورصف المباني: ص ١٩٦، وسر صناعة الإعراب: ص ٢٨٦، شرح جمل الزجاجي: ٤٧٨/١، المخصص: ٦٤/١٤، الدر المصون: ١٢٩/١.

(٤) البيت لرؤية في ملحق ديوانه ص ١٨١؛ وخزانة الأدب ١٦٨/١٠، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٩؛ وشرح التصريح ٢٥٢/١، وشرح شواهد المغني ٥٠٣/١، والمقاصد النحوية ٤٠٢/٢، ولحميد الأرقط في الدرر ٢٥٠/٢، والكتاب ٤٠٨/١، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٥٢/٢؛ والجنى الداني ص ٩٠؛ وخزانة الأدب ٧٣/٧، ورصف المباني ص ٢٠١؛ وسر صناعة الإعراب ص ٢٩٦، وشرح الأشموني ١٥٨/١؛ ولسان العرب ٢٤٧/٩ (عصف)؛ ومغني اللبيب ١٨٠/١؛ والمقتضب ١٤١/٤، ٣٥٠، وجمع الهوامع ١٥٠/١، والدر المصون ١٢٩/١.

التأويل، وهذا جواب عن سؤال أيضاً، وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدَ﴾ يقتضي تشبيه مثلهم مثل المستوفد، فما مثل المنافقين ومثل المستوفد حتى شبه أحدهما بالآخر؟

فالجواب: أن يقال: استعير المثل للقصة وللصفة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: قصتهم العجيبة كقصة الذي استوفد ناراً، وكذا قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي فيما قصصنا عليه من العجائب قصة الجنة العجيبة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة.

﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: وصفهم وشأنهم المتعجب منه، ولكن المثل - بالفتح - في الأصل بمعنى مثل ومثيل نحو: شبه وشبه وشبيه. وقيل: بل هي في الأصل الصفة.

وأما المثل في قولهم: «ضرب مثلاً» فهو القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه، ولذلك حوفظ على لفظه فلم يغير.

و «الذي»: في محل خفض بالإضافة، وهو موصول للمفرد المذكر، ولكن المراد به - هنا - جمع ولذلك روعي مغماه في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ فأعاد الضمير عليه جمعاً، والأولى أن يقال: إن «الذي» وقع وصفاً لشيء يفهم الجمع، ثم حذف ذلك الموصوف للدلالة عليه.

والتقدير: ومثلهم كمثال الفريق الذي استوفد، أو الجمع الذي استوفد؛ ويكون قد روعي الوصف^(١) مرة، فعاد الضمير عليه مفرداً في قوله: ﴿اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ و «حوله»، والموصوف أخرى فعاد الضمير عليه مجموعاً في قوله: «بنورهم»، و «تركهم».

وقيل: إن المنافقين ذاتهم لم يشبهوا بذات المستوفد، وإنما شبهت قصتهم بقصة المستوفد، ومثله قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ [الجمعة: ٥] وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ الْمَعْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقيل: المعنى: ومثل كل واحد منهم كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧] أي: يخرج كل واحد منكم. وهم أبو البقاء، فجعل هذه الآية من باب ما حذفت منه النون تخفيفاً، وأن الأصل: «الذين» ثم خففت بالحذف، وكأنه مثل قوله تعالى: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]؛ وقول الشاعر: [الطويل]

٢٢٥ - وَإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ^(٢)

والأصل: «كالذين خاضوا» «وإن الذين حانت» وهذا وهم؛ لأنه لو كان من باب

ما حذفت النون منه لوجب مُطَابَقَةُ الضمير جمعاً كما في قوله تعالى: ﴿كَأَلَّذِي خَاصُوا﴾ و «دِمَاؤُهُمْ»، فلما قال تعالى: ﴿أَسْتَوَفَدَ﴾ بلفظ الإفراد تَبَيَّنَ أحد الأمرين المتقدمين: إما بصلة من باب وقوع المفرد موقع الجمع؛ لأن المراد به الجنس، أو أنه من باب ما وقع فيه من صفة لموصوف يفهم الجمع.

وقال الزمخشري ما معناه: إِنَّ هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿كَأَلَّذِي خَاصُوا﴾، واعتل لتسويغ ذلك بأمرين.

أحدهما: أن «الذي» لما كان وصلةً لوصف المعارف ناسب حذف بعضه لاستطالته، قال: «ولذلك نهكوه بالحذف، فحذفوا ياءه ثم كسرتة، ثم اقتصروا منه على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين».

والأمر الثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون، إنما ذلك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر المَوْصُولَاتِ لَفْظُ الْجَمْعِ والمفرد فيهن سواء؟ وهذا القول فيه نظر من وجهين:

أحدهما: أن قوله ظاهر في جَعْل هذه الآية من باب حذف نون «الذين»، وفيه ما تقدّم من أنه كان ينبغي أن يُطَابَق الضمير جمعاً كما في الآية الأخرى التي نظر بها.

والوجه الثاني: أنه اعتقد كون الموصول بقيته «الذي»، وليس كذلك، بل «أل» الموصولة اسم موصول مستقل، أي: غير مأخوذ من شيء، على أن الراجع من جهة الدليل كون «أل» الموصولة حرفاً لا اسماً كما سيأتي.

وليس لمرجح أن يرجح قول الزمخشري بأنهم قالوا: إِنَّ الميم في قولهم: «مُ اللهُ» بقية «أيمن»، فإذا انتهكوا «أيمن» بالحذف حتى صار على حرف واحد، فأولى أن يقال بذلك فيما بقي على حرفين، لأن «أل» زائدة على ماهية «الذي»، فيكونون قد حذفوا جميع الاسم، وتركوا ذلك الزائد عليه، بخلاف «ميم» «أيمن»، وأيضاً فإن القول بأن «الميم» بقية «أيمن» قول ضعيف مردود ياباه قول الجُمهُور.

وفي «الذي» لُغَات: أشهرها ثبوت الياء ساكنة وقد تُشَدَّد مكسورة مطلقاً، أو جارية بوجوه الإعراب، كقوله: [الوافر]

٢٢٦ - وَلَيْسَ الْمَالُ فَاعِلُهُ بِمَالٍ وَإِنْ أَرْضُكَ إِلَّا لِّلَّذِي
يَسْأَلُ بِهِ الْعَلَاءَ وَيَضْطَفِيهِ لِأَقْرَبِ أَقْرَبَيْنِهِ وَلِلْقَصِيِّ^(١)

(١) ينظر الأمالي الشجرية: (٣١٥/٢). والأزهية: (٢٩٣)، والإنصاف: (٦٧٥/٢)، وشرح جمل الزجاجي: (١٧٠/١)، والهمع: (٨٢/١)، الخزانة: (٤٩٧/٢)، والدرر: (٥٥/٢)، واللسان (لذا)، ووصف المباني: (٧٦)، والدر المصون: (١٣٠/١).

فهذا يحتمل أن يكون مبنياً، وأن يكون معرباً. وقد تُحذف ساكناً ما قبلها؛ كقول الآخر: [الطويل]

٢٢٧ - فَلَمْ أَرِ بَيْتاً كَانَ أَحْسَنَ بَهْجَةً مِنْ اللَّذِّ بِهِ مِنْ آلِ عَزَّةٍ عَامِرٌ^(١)
أو مكسوراً؛ كقوله: [الرجز]

٢٢٨ - وَاللَّذِّ لَوْ شَاءَ لَكَانَتْ بَرًّا أَوْ جَبَلًا أَشَمَّ مُشْمَخِرًا^(٢)
ومثل هذه اللغات في «التي» أيضاً.

قال بعضهم: «وقولهم: هذه لغات ليس بجيد؛ لأن هذه لم ترد إلا ضرورة، فلا ينبغي أن تسمى لغات».

و «استوقد»: «استفعل» بمعنى «أفعل»، نحو: «استجاب» بمعنى «أجاب»، وهو رأي الأخفش وعليه قول الشاعر: [الطويل]

٢٢٩ - وَذَاعَ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الْهُدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(٣)
أي: فلم يجبه.

وقيل: بل السَّيْن للطلب، ورجح قول الأخفش بأن كونه للطلب يستدعي حذف جملة، ألا ترى أن المعنى: استدعوا ناراً فأوقدوها، فلما أضاءت؛ لأن الإضاءة لا تنشأ عن الطلب إنما تنشأ عن الإيقاد.
والفاء في قوله: «فَلَمَّا» للسبب.

وقرأ ابن السَّمِيف: «كمثل الذين» بلفظ الجمع، واستوقد بالإنفراد، وهي مُشْكَلَة، وقد خرجوها على أوجه أضعف منها وهي التوهم، أي: كأنه نطق بـ «مَنْ»؛ إذ أعاد ضمير المفرد على الجمع كقولهم: «ضربني وضربت قومك» أي: ضربني من، أو يعود على اسم فاعل مفهوم من «استوقد»، والعائد على الموصول مَحذوف، وإن لم يكمل شرط الحذف، والتقدير: استوقدها مستوقدٌ لهم. وهذه القراءة تقوي قول من يقول: إنَّ أصل «الذي»: «الذين»، فحذفت النون.

و «لَمَّا» حرف وجوب لوجوب هذا مذهب سيبويه.

وزعم الفارسي وتبعه أبو البقاء، أنها ظرف بمعنى «حين»، وأن العامل فيها جوابها،

(١) ينظر البيت في الإنصاف: (٦٧١)، الدرر (٥٦/١)، والهمع: (٨٢/١)، والدر المصون: (١٣٠/١).

(٢) ينظر الأمالي الشجرية: ٣٠٥/١، الإنصاف: ٦٧٦/٢، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور: ١٧٠/١، اللمع: ٨٢/١، خزنة الأدب: ٥٠٥/٥، الدرر: ٥٦/١، الخزنة: ٤٩٨/٢، الدر: ١٣٠/١.

(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي ينظر الأصمعيات ٩٦، معاني القرآن للأخفش ٢٠٨/١، مجاز القرآن ١/٦٧، ١١٢، ٢٤٥، ٣٢٦، والعجز في أدب الكاتب ٤١٩.

وقد ردّ عليه بأنها أجيب بـ «ما» النافية، و «إذا» الفجائية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَخَنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، و «ما» النافية، و «إذا» الفجائية لا يعمل ما بعدهما فيما قبلهما، فانتفى أن تكون ظرفاً.

وتكون «لما» أيضاً جازمة لفعل واحد، معناها نفى الماضي المتصل بزمان الحال، ويجوز حذف مجزومها؛ قال الشاعر: [الوافر]

٢٣٠ - فَجِئْتُ قُبُورَهُمْ بَدَاءً وَلَمَّا فَنَادَيْتُ الْقُبُورَ فَلَمْ يُجِبْنِي^(١)
وتكون بمعنى «إلا»، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٥] في قراءة من قرأ بالتشديد^(٢).

و «أضاء»: يكون لازماً ومتعدياً، فإن كان متعدياً، ف «ما» مفعول به، وهي موصولة، و «حوله» ظرف مكان مخفوض به، صلة لها، ولا يتصرف، وبمعناه: حوال؛ قال الشاعر: [الرجز]

٢٣١ - وَأَنَا أُمْشِي الدَّالِّيَ حَوَالِكََا^(٣)

ويُشَيَان؛ قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا»^(٤).

(١) ينظر خزانة الأدب: ١١٣/١٠، ١١٧، والدرر: ٢٤٥/٤، ٦٩/٥، والأشباه والنظائر: ١١٣/٤، ولسان العرب (لمم)، وشرح الأشموني: ٥٧٦/٣، وشرح شواهد المغني: ٦٨١/٢، ومغني اللبيب: ٢٨٠/١، وجمع الهوامع: ٥٧/٢، والصاحبي في فقه اللغة: ص ١٤٩، الكافية الشافية: ١٥٧٧/٣، الدر: ١٣١/١.

(٢) ستأتي في الزخرف (٥٣).

(٣) البيت لقب. ينظر الكتاب: ١٧٦/١، الكامل: ٣٧٤، أمالي الزجاجي: ١٣٠، المخصص: ١٣/٢٢٦، ٢٣٣، الهمع: ٤١/١، الدرر: ١٥/١، الدر: ١٣١/١.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٤٧/٢)، كتاب الجمعة باب الاستسقاء في الجمعة حديث رقم (٩٣٣)، (٧٧/٢) كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء في المسجد حديث رقم (١٠١٣)، (١٠١٤)، (١٠١٥)، (٤٥/٨) كتاب الأدب باب التبسم والضحك حديث رقم (٦٠٩٣)، (١٣٤/٨) كتاب الدعوات باب الدعاء غير مستقبل القبلة حديث رقم (٦٣٤٢).

ومسلم في الصحيح (٦١٢/٢)، (٦١٤) كتاب الاستسقاء (٩) باب الدعاء في الاستسقاء (٢) حديث رقم (٨٩٧/٨).

والنسائي في السنن (٣/١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧).

وابن ماجه في السنن حديث رقم (١٢٦٩).

وأحمد في المسند (٣/١٠٤، ١٨٧، ١٩٤، ٢٦١، ٢٧١) (٢٣٦/٤) - والبيهقي في السنن (٣/٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦)، (٢٢١/٤) - وابن سعد (١٧/١/١)، (٤٢/٢/١) وابن أبي شيبة (١٠/٢١٩)، (٤٨١/١١) - وابن خزيمة في صحيحه حديث رقم (١٤٢٣)، (١٧٨٩) وعبد الرزاق في مصنفه حديث رقم (٤٩١٠)، (٤٩١١) والطبراني في الكبير (١٠/٣٤٦).

ويجمعان على «أحوال».

ويجوز أن تكون «ما» نكرة موصوفة، و «حوله» صفتها، وإن كان لازماً، فالفاعل ضمير «النار» أيضاً، و «ما» زائدة، و «حوله» منصوب على الظرف العامل فيه «أضاء». وأجاز الزمخشري أن تكون «ما» فاعله موصولة، أو نكرة موصوفة، وأُثِّبَ الفعل على المعنى، والتقدير: فلما أضاءت الجهة التي حوله أو جهة حوله.

وأجاز أبو البقاء فيها أيضاً أن تكون منصوبة على الظرف، وهي حينئذ: إما بمعنى الذي، أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت النار المكان الذي حوله، أو مكاناً حوله، فإنه قال: يقال: ضاءت النار، وأضاءت بمعنى، فعلى هذا تكون «ما» ظرفاً.

وفي «ما» ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون بمعنى الذي.

والثاني: هي نكرة موصوفة، أي: مكاناً حوله.

والثالث: هي زائدة.

وفي عبارته بعض مناقشة، فإنه بعد حكمه على «ما» بأنها ظرفية كيف يُجَوِّزُ فيها - والحالة هذه - أن تكون زائدة، وإنما أراد في «ما» هذه من حيث الجملة ثلاثة أوجه.

وقول الشاعر: [الطويل]

٢٣٢ - أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دَجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَابِقَهُ^(١)

يحتمل التعدي وال لزوم كآلية الكريمة.

وقرأ ابن السَّمِيع: «ضاءت» ثلاثياً.

قوله: «ذهب الله بنورهم» هذه الجملة الظاهر أنها جواب لـ «ما».

وقال الزمخشري: «جوابها محذوف، تقديره: فلما أضاءت خَمَدَتْ» وجعل هذا أبلغ من ذكر الجواب، وجعل جملة قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مستأنفة أو بدلاً من جملة التمثيل.

وقد رد عليه بعضهم هذا بوجهين:

أحدهما: أن هذا التقدير مع وجود ما يغني عنه، فلا حاجة إليه؛ إذ التقديرات إنما تكون عند الضرورات.

(١) البيت لأبي الطمحان القيني ينظر أمالي المرتضى ٢٥٧/١، وتخليص الشواهد ص ٢٠٢، وخزانة الأدب ٩٥/٨، ٩٦، وديوان المعاني ٢٢/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٩٨، وكتاب الصناعتين ص ٣٦٠، ولسان العرب (خضض)، والمقاصد النحوية ٥٦٧/١، وللقيط بن زرارة في الحيوان ٩٣/٣، وينظر الدر المصون ١٣٢/١ الشعر والشعراء ص ٧١٥.

والثاني: أنه لا تبدل الجملة الفعلية من الجملة الاسمية.

و «بنورهم» متعلق بـ «ذهب»، والباء فيه للتعدية وهي مُرادفة للهمزة في التعدية، هذا مذهب الجمهور.

وزعم أبو العباس أنَّ بينهما فرقاً، وهو أن الباء يلزم معها مُصاحبة الفاعل للمفعول في ذلك الفعل الذي قبله، والهمزة لا يلزم فيها ذلك.

فإذا قلت: «ذهبت يزيد» فلا بُدَّ أن تكون قد صاحبتَه في الذهاب فذهبت معه.

وإذا قلت: أذهبتَه جاز أن يكون قد صاحبتَه وألاً يكون.

وقد رد الجمهور على المُبرِّد بهذه الآية؛ لأن مصاحبتَه - تعالى - لهم في الذهاب مستحيلة.

ولكن قد أجاب [أبو الحسن] ابن عُصفور عن هذا بأنه يجوز أن يكون - تعالى - قد أسند إلى نفسه ذهاباً يليق به، كما أسند إلى نفسه - تعالى - المجيء والإتيان على معنى يليق به، وإنما يُرد عليه بقول الشاعر: [الطويل]

٢٣٣ - ديارُ التي كانتَ ونَحْنُ على مِنى تَحُلُ بنا لولا نَجاءَ الرِّكائبِ^(١)

أي: تجعلنا حلالاً بعد أن كُنَّا مُحْرَمِينَ بالحج، ولم تكن هي مُحْرَمَةً حتى تصاحبهم في الحِلِّ؛ وكذا قول امرئ القيس: [الطويل]

٢٣٤ - كُمِيتَ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مِثْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالمُتَنَزِّلِ^(٢)

«الصفواء» الصخرة، وهي لم تصاحب الذي تزلّه.

والضمير في «بنورهم» عائد على مَعْنَى الذي كما تقدم.

وقال بعضهم: هو عائد على مُضَافٍ محذوف تقديره: كمثل أصحاب الذي استوقد، واحتاج هذا القائل إلى هذا التقدير، قال: حتى يتطابق المشبه والمشبه به؛ لأنَّ المشبه جمع، فلو لم يقدر هذا المُضَاف، وهو «أصحاب» لزم أن يشبه الجمع بالمفرد وهو الذي استوقد. ولا أدري ما الذي حمل هذا القائل على مَنع تشبيه الجمع بالمفرد في صفة جامعة بينهما، وأيضاً فإنَّ المشبه والمشبه به إنما هو القَصَّتَان، فلم يقع التشبيه إلا بين قَصَّتَيْن إحداهما مُضَافَةٌ إلى جمع، والأخرى إلى مُفْرَد.

(١) البيت لقيس بن الخطيم ينظر ديوانه: ص ٧٧، وخزانة الأدب: ٢٧/٧، وشرح شواهد الإيضاح: ص ١٤٨، ولسان العرب (حلل)، الأزمنة والأمكنة: ٢٧٨/١، وجواهر الأدب: ص ٤٥، المخصص: ٥٧/١٥، البحر المحيط: ٢١٤/١، الدر المصون: ١٣٢/١.

(٢) البيت من معلقته المشهورة. ينظر ديوانه: (٢٠)، شرح القصائد العشر: (١١٠)، وللشنقيطي: (٦٥)، وشرح المعلقات السبع للزوزني: (٢٤)، وشرح الجمل: (٦٠٤/٢) والشعر والشعراء: (١/١٣٠) والدر المصون: (١/١٣٢).

قوله: ﴿وَرَكَّهْمَ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ هذه جملة معطوفة.

فإن قيل: لم قيل: ذهب بنورهم، ولم يقل: أذهب الله نورهم؟

فالجواب: أن معنى أذهب: أزاله، وجعله ذاهباً، ومعنى ذهب به: إذا أخذه، ومضى به معه، ومنه: ذهب السلطان بماله: أخذه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٥] فالمعنى: أخذ الله نوره، وأمسكه، فهو أبلغ من الإذهب، وقرأ اليماني: «أَذْهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ».

فإن قيل: هلا قيل: ذهب الله بضوئهم [لقوله: ﴿فَلَمَّا أَصَاءَتْ﴾]؟

الجواب: ذكر النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة^(١).

فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم ذهاب [الكمال، وبقاء] ما يسمى نوراً والغرض إزالة النور عنهم بالكلية^(٢)، ألا ترى كيف ذكر عقيبه: ﴿وَرَكَّهْمَ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ والظلمة عبارة عن عدم النور.

وقوله: ﴿وَرَكَّهْمَ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾^(٣) هذه جملة معطوفة على قوله: «ذهب الله»، وأصل الترك: التخلية، ويراد به التصيير، فيتعدى لاثنتين على الصحيح؛ كقول الشاعر: [البيط]

٢٣٥ - أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ^(٤)^(٥)

(١) سقط في أ. (٢) في أ: بالمطية.

(٣) سقط في أ.

(٤) البيت للعباس بن مرداس. ينظر ديوانه: ٤٧، قصيدة رقم ٢، ص ٣١، المقتضب: ٣٥/٢، الكتاب: ٣٧/١، المحتسب: ٥١/١، أمالي ابن الشجري: ١٦٥/١، اللع: ٨٢/٢، الدرر: ١٠٦/٢، شرح المفصل: ٤٢/٢، ٥٠/٨، الخزانة: ٣٣٩/١، الشذور: ٣٦٩، المغني: ٣١٥/١، ونسب البيت إلى خفاف بن ندبة وهو في ملحقات ديوانه: ص ١٢٦، ونصه (أمرتك الزشد) ونسب لعمر بن معديكرب الزبيدي وهو في ديوانه: ٦٣، الأصول: ١٧٨/١، شرح الجمل لابن عصفور: ٣٠٥/١، الدرر: ٢/١٠٦، الدر: ١٣٣/١.

(٥) الأفعال المقتضية للمفعول على ضربين: فعل يصل إلى مفعوله بنفسه، نحو: ضربت زيداً، فالفعل هنا أفضى بنفسه بعد الفاعل إلى المفعول؛ لأن في الفعل قوة أفضت إلى مباشرة الاسم، وفعل ضَعَفَ عن تجاوز الفاعل إلى المفعول؛ فاحتاج إلى ما يستعين به على تناوله، والوصول إليه، وذلك نحو: مرتت وعجبت وذهبت، لو قلت: عجبت زيداً، ومررت جعفرأ، لم يجز ذلك؛ لضعف هذه الأفعال في العرف والاستعمال من الإفضاء إلى هذه الأسماء، فلما ضَعُفَتْ اقتضى القياس تقويتها؛ لتصل إلى ما تقتضيه من المفاعيل، فرفدوها بالحروف، وجعلوها موصلة لها إليها، فقالوا: مرتت بزيد، وعجبت من خالد، وذهبت إلى محمد، وخص كل قبيل من هذه الأفعال بقبيل من هذه الحروف، هذا هو القياس، إلا أنهم قد يحذفون هذه الحروف في بعض الاستعمال؛ تخفيفاً في بعض كلامهم، فيصل الفعل بنفسه فيعمل، قالوا من ذلك: اخترت الرجال زيداً واستغفرت الله ذنباً، وأمرت زيداً الخير؛ قال الله تعالى: «واختار موسى قومه سبعين رجلاً»، فقولهم: اخترت الرجال زيداً، أصله من الرجال؛ لأن =

فإن قلنا: هو متعدّ لاثنتين كان المفعول الأول هو الضمير، والمفعول الثاني: «في ظلمات»، و «لا يبصرون» حال، وهي حال مؤكدة؛ لأن من كان في ظلمة فهو لا يُبصر. وصاحب الحال: إما الضمير المنصوب، أو المرفوع المُستَكَنّ في الجار والمجرور.

ولا يجوز أن يكون «في ظلمات» حالاً، و «لا يبصرون» هو المفعول الثاني؛ لأن المفعول الثاني خبر في الأصل، والخبر لا يؤتى به للتأكيد، فإذا جعلت «في ظلمات» حالاً فهم منه عدم الإبصار، فلو يفد قولك بعد ذلك: «لا يبصرون» إلا التأكيد، لكن التأكيد ليس من شأن الأخبار، بل من شأن الأحوال؛ لأنها فضلات.

ويؤيد ما ذكرت أن النحويين لما أعربوا قول امرئ القيس: [الطويل]

٢٣٦ - إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ بِشَقٍّ وَشَقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ^(١)

أعربوا: «شق» مبتدأ و «عندنا» خبره، و «لم يُحوّل» جملة حالية مؤكدة؛ قالوا: وجاز الابتداء بالنكرة، لأنه موضع تفصيل، وأبوا أن يجعلوا «لم يُحوّل» خبراً، و «عندنا» صفة لـ «شق» مُسوِّغاً للابتداء به قالوا: لأنه فهم معناه من قوله: «عندنا»؛ لأنه إذا كان عنده عُلِمَ منه أنه لم يُحوّل.

وقد أعربه أبو البقاء كذلك، وهو مردود بما ذكرت.

ويجوز إذا جعلنا «لا يبصرون» هو المفعول الثاني أن يتعلّق «في ظلمات» به، أو بـ «تركهم»، التقدير: «وتركهم لا يبصرون في ظلمات». وإن كان «ترك» متعدياً لواحد كان «في ظلمات» متعلّقاً بـ «تركهم»، و «لا يبصرون» حال مؤكدة، ويجوز أن يكون «في ظلمات» حالاً من الضمير المنصوب في «تركهم»، فيتعلّق بمحذوف، و «لا يبصرون»

= «اختار» فعل يتعدى إلى مفعول واحد بغير حرف الجر، وإلى الثاني به، والمقدّم في الرتبة وهو المنصوب بغير حرف جر، فإن قدمت المجرور، فلضرب من العناية للبيان، والنية به التأخير، والبيت الذي معنا الشاهد فيه قوله: «أمرتك الخير» وقوله: «أمرت به» فإن العبارة الأولى قد تعدى فيها الفعل الذي هو: «أمر»، إلى مفعولين بنفسه، وفي العبارة الثانية: قد تعدى إلى الأول منهما بنفسه؛ وهو النائب عن الفاعل، وإلى الثاني بحرف الجر، والذي في كلام «سيبويه» والأعلم يدل على أنهما يعتبران الأصل في هذا الفعل، أنه يتعدى إلى ثاني مفعوليّه بحرف الجر، ثم قد يحذف حرف الجر فيصل الفعل إلى المفعول الثاني بنفسه، فيدل ذلك على أن النصب عندهما على نزع الخافض، وأنه يقتصر فيه على المسموع، قال الأعلم: «أراد الشاعر: أمرتك بالخير؛ فحذف ووصل الفعل، ونصب، وسوّغ الحذف والنصب أن الخبر اسم فعل يحسن «أن» وما عملت فيه في موضعه، وأن يحذف معها حرف الجر كثيراً؛ تقول: أمرتك أن تفعل، تريد: بأن تفعل... فإن قلت: أمرتك بزيد، لم يجز أن تقول: أمرتك زيداً؛ لما بينت لك» ويريد بقوله «اسم فعل»: أنه اسم معنّى دال على الحدث. ينظر المصادر السابقة لتخريج البيت.

(١) ينظر ديوانه: ١٢، رصف المباني: ٣١٦، شرح القصائد العشر: (٧٤)، والشنقيطي: (٦٠)، والبحر:

(٢١٥/١) والدر المصون: (١٣٣/١).

حال أيضاً، إما من الضمير في تركهم، فيكون له حالان، ويجري فيه الخلاف المتقدم، وإما من الضمير المرفوع المستكن في الجار والمجرور قبله، فتكون حالين متداخلتين.

فصل في سبب حذف المفعول

فإن قيل: لم حذف المفعول من «يبصرون»؟

فالجواب: أنه من قبيل المَثْرُوك الذي لا يلتفت إلى إخطاره بِالْبَالِ، لا من قبيل المقدّر المَنَوِيَّ كَأَن الفعل غير متعدّ أصلاً.

قال ابن الخطيب^(١): ما وجه التمثيل في أعطي نوراً، ثم سلب ذلك النور، مع أنَّ المنافق ليس هو نور، وأيضاً أن من استوقد ناراً فأضاءت قليلاً، فقد انتفع بها وبنورها ثم حرم، والمنافقون لا انتفاع لهم ألبتة بالإيمان، وأيضاً مستوقد النَّار قد اكتسب لنفسه النور، والله - تعالى - ذهب بنوره، وتركه في الظُّلمات، والمنافق لم يكتسب خيراً، وما حصل له من الحيرة، فقد أتى فيه من قبل نفسه، فما وجه التشبيه؟

والجواب: أنَّ العلماء ذكروا في كيفية التشبيه وجوهاً:

أحدها: قال السدي: إن ناساً دخلوا في الإسلام عند وصوله - عليه الصلاة والسلام - إلى «المدينة» ثم إنهم نافقوا، والتشبيه - هاهنا - في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة من الدنيا، وأما المتحير في الدين، فإنه يخسر نفسه في الآخرة أبد الأبد^(٢).

وثانيها: إن لم يصح ما قاله السدي بل كانوا مُنافقين من أول الأمر، فهاهنا تأويل آخر.

قال ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، والضحاك، والسدي، والحسن: نزلت في المُنافقين يقول: مَثَلُهُمْ في نفاقهم كَمَثَلِ رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مَغَارَةٍ، فاستدفاً، ورأى ما حوله فأنقَى مما يخاف، فَبَيَّنَّا هو كذلك إذ طَفِئَتْ ناره، فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهارهم كلمة الإيمان آمنوا على أموالهم، وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، وأورثوهم، وقاسموهم الغنائم، وسائر أحكام المسلمين، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظُّلْمَةِ والخوف^(٣)، ولما كان ذلك بالإضافة إلى العذاب الدائم مثل الذرة، شبههم بمستوقد النَّار الذي انتفع بضوئها قليلاً، ثم سلب ذلك، فدامت حسرته وحيرته للظلمة العظيمة التي جاءته عقيب الثور اليسير.

(١) ينظر الفخر الرازي: ٦٧/٢.

(٢) انظر الدر المنثور: (١/٧٢/٧٣) للسيوطي.

(٣) ينظر المصدر السابق.

وثالثها: أن نقول ليس التشبيه في أن للمنافق نوراً، بل وجه التشبيه بالمستوقد أنه لما زال الثور عنه تحيروا تحير من كان في نور ثم زال عنه أشد من تحير سالك الطريق في ظلمة مستمرة، لكنه - تعالى - ذكر النور في مستوقد النار لكي يصح أن يوصف بهذه الظلمة الشديدة، لا أن وجه التشبيه مجمع النور والظلمة.

ورابعها: قال مجاهد: إن الذي أظهره يوهم أنه من باب النور الذي ينتفع به، وذهاب النور هو ما يظهره لأصحابه من الكفر والتناق، ومن قال بهذا قال: إن المثل إنما عطف على قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] فالنار مثل لقولهم: «آمنّا» وذهابه مثل لقولهم للكفار «إنّا معكم».

فإن قيل: كيف صار ما يُظهره المنافق من كلمة الإيمان ممثلاً بالنور، وهو حين تكلم بها أبطن خلافها؟

قلنا: لو ضم إلى القول اعتقاداً له وعملاً به لأتم النور لنفسه، لكنه لما لم يفعل لم يتم نوره، وإنما سمي مجرد ذلك القول نوراً؛ لأنه قول حق في نفسه.

وخامسها: يجوز أن يكون استيقاد النار عبارة عن إظهار المنافق كلمة الإيمان، وإنما سمي نوراً؛ لأنه يتزين به ظاهراً فيهم، ويصير ممدوحاً بسببه فيما بينهم، ثم إن الله يذهب ذلك النور بهتك ستر المنافق بتعريف نبيه والمؤمنين حقيقة أمره، فيظهر له اسم التناق بدل ما يظهر منه من اسم الإيمان، فيبقى في ظلمات لا يبصر؛ إذ الثور الذي كان له قبل كشف الله أمره قد زال.

وسادسها: أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هذاهم الذي باعوه بالنار المضیئة ما حول المستوقد، والضلالة التي اشتروها، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم، وتركه إيّاهم في ظلمات.

وسابعها: يجوز أن يكون المستوقد - هاهنا - مستوقد نار لا يرضاها الله تعالى، والغرض تشبيه الفتنة التي حاول المنافقون إثارتها بهذه النار، فإن الفتنة التي كانوا يثيرونها كانت قليلة البقاء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وثامنها: قال سعيد بن جبیر: نزلت في اليهود، وانتظارهم لخروج النبي - عليه الصلاة والسلام - لإيقاد النار، وكفرهم به بعد ظهوره، كزوال ذلك النور؛ قاله محمد بن كعب، وعطاء.

والموقود - هنا - هو سطوع النار وارتفاع لهبها.

والنار: جوهر لطيف مضيء حام محرق، واشتقاقها من نار يثور إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطراباً، والنور مشتق منها، وهو ضوءها، والمنار العلامة، والمئارة هي الشيء الذي يؤذن عليها ويقال أيضاً للشيء الذي يوضع عليه السراج منارة، ومنه الثورة لأنها

تطهر البدن، والإضاءة فرط الإنارة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وما حول الشيء فهو الذي يتصل به تقول: دار حوله وحواليه.
والْحَوْلُ: السَّنة؛ لأنها تحول، وحال عن العهد أي: تغير، ومنه حال لونه.
والحوالة: انقلاب الحق من شخص إلى شخص، والمُحاولة: طلب الفعل بعد أن لم يكن طالباً له، والْحَوْلُ: انقلاب العين، وَالْحَوْلُ: الانقلاب قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

والظلمة: عدم الثور عما من شأنه أن يَسْتَنِيرَ، والظلم في الأصل عِبَارَةٌ عن النقصان قال تعالى: ﴿ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَطْلِمْ لَهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي: لم تَنْقُصْ.
والظلم: الثلج، لأنه ينقص سريعاً. والظلم: ماء آسن وطلاوته وبياضه تشبيهاً له بالثلج.

قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

الجمهور على رفعها على أنها خبر مبتدأ محذوف، هم صم بكم، ويجيء فيه الخلاف المشهور في تعدد الخبر، فمن أجاز ذلك حمل الآية عليه من غير تأويل، ومن منع ذلك قال: هذه الأخبار، وإن تعددت لفظاً، فهي متحدة معنى؛ لأن المعنى: هم غير قائلين للحق بسبب عما هم وصممهم، فيكون من باب: «هذا حُلُوٌ حَامِضٌ» أي: مُزٌّ، وهذا أعسر أيسر أي: أضبط، وقول الشاعر: [الطويل]

٢٣٧ - يَنَامُ بِإِخْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الْأَعَادِي، فَهُوَ يَقْطَانُ هَاجِعٌ^(١)
أي: متحرز.

أو يقدر لكل خبر مبتدأ تقديره: هم صم، هم بكم، هم عُمِيٌّ.
والمعنى: أنهم جامعون لهذه الأوصاف الثلاثة، ولولا ذلك لجاز أن تكون هذه الآية من باب ما تعدد فيه الخبر لتعدد المبتدأ، كقولك: الزيدون فقهاء شعراء كاتبون، فإنه يحتمل أن يكون المعنى أن بعضهم فقهاء، وبعضهم شعراء، وبعضهم كاتبون، وأنهم ليسوا جامعين لهذه الأوصاف الثلاثة، بل بعضهم اختص بالفقه، والبعض الآخر اختص بالشعر، والآخر بالكتابة.

وقرأ بعضهم^(٢) «صمًا بكمًا عمياً» بالنصب، وفيه ثلاثة أوجه:

(١) البيت لحمد بن ثور ينظر ديوانه: ص ١٠٥، وأمالى المرتضى: ٢/٢١٣، وخزانة الأدب: ٤/٢٩٢، والشعر والشعراء: ١/٣٩٨، والمقاصد النحوية: ٢/٥٦٢، تخليص الشواهد: ص ٢١٤، وشرح الأشموني: ١/١٠٦، وشرح ابن عقيل: ص ١٣٢، الدر المصون: ١/١٣٤.

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة أم المؤمنين.

انظر المحرر الوجيز: ١/١٠١، والبحر المحيط: ١/٢١٧، والقرطبي: ١/١٤٩.

أحدها: أنه حالٌ، وفيه وجهان:

أحدهما: هو حال من الضمير المنصوب في «تركهم».

والثاني: من المرفوع في «لا يُبْصِرُونَ».

الثاني: الضُّب على الذَّم كقوله: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] وقول الآخر:

٢٣٨ - سَقَوْنِي الْحَمْرَ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي عُدَاةَ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ^(١)
أي: أذمُّ عُدَاةَ الله.

الثالث: أن يكون منصوباً بـ «ترك»، أي: صمًا بكماً عمياً.

والصَّم: داء يمنع من السَّماع، وأصله من الصَّلابة، يقال: قناة صَمَاء: أي: صلبة.

وقيل: أصله من الانسداد، ومنه: صممت القَارُورَةُ أي: سددها.

والبَكَمُ: داءٌ يمنع الكلام.

وقيل: هو عدم الفَهْم.

وقيل: الأبكم من وُلِدَ أَخْرَسَ.

وقوله: «فهم لا يرجعون» جملة خبرية معطوفة على الجملة الخبرية قبلها.

وقيل: بل الأولى دعاء عليهم بالصَّم، ولا حاجة إلى ذلك.

وقال أبو البقاء: وقيل: فهم لا يرجعون حال، وهو خطأ؛ لأن «الفاء» ترتب،

والأحوال لا ترتب فيها.

و «رجع» يكون قاصراً ومتعدياً باعتبارين، وهذيل تقول: «أرجعه غيره»، فإذا كان

بمعنى «عاد» كان لازماً، وإذا كان بمعنى «أعاد» كان متعدياً، والآية الكريمة تحتل

التَّقْدِيرَيْن، فإن جعلناه متعدياً، فالمفعول محذوف، تقديره: لا يرجعون جواباً، مثل

قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَءْيِهِ لَقَائِدٌ﴾ [الطارق: ٨]، وزعم بعضهم أنه يَضْمَن معنى «صار»، فيرفع

الاسم، وينصب الخبر، وجعل منه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً

يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٢).

(١) البيت لعروة بن الورد ينظر ديوانه: ص ٥٨، الأغاني: ٣/٣٦، ٣٨، الكتاب: ٧٠/٢، لسان العرب

(نسأ)، أمالي المرتضى: ١/٢٠٦، مجالس ثعلب: ٢/٤١٧، وشرح أبيات سيبويه: (١١٧)،

القرطبي: (١/١٣٩)، الدر المصون: (١/١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٦٨/١) كتاب العلم باب الانصات للعلماء حديث رقم (١٢١)، (٤/٣)

كتاب الحج باب الخطبة أيام منى حديث رقم (١٧٣٩)، (١٧٤١)، (١٤/٦) كتاب المغازي باب حجة

الوداع حديث رقم (٤٤٠٥) ومسلم في الصحيح (١/٨١ - ٨٢) كتاب الإيمان (١) باب بيان معنى قول

النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفاراً (٢٩) حديث رقم (٦٥/١١٨).

ومن منع جريانه مجرى «صار» جعل المنصوب حالاً.

فصل في المراد بنفي السمع والبصر عنهم

لما كان المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون، وينطقون، ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يَنْقُ إِلَّا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد، وإعراضهم عن سماع القرآن، وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب، فلذلك جعله بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة، ولم يبصر طريق الرشd، فهو بمنزلة الأعمى.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: من التمسك بالنفاق فهم مستمرون على نفاقهم أبداً.

وقيل: لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها.

وقيل: أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتداءوا منه؟

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَيُرَقُّ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

اعلم أن هذا مثل ثانٍ للمنافقين، وكيفية المشابهة من وجوه:

أحدها: أنه إذا حصل السحاب والرعد والبرق، واجتمع مع ظلمة السحاب ظلمة الليل، وظلمة المطر عند ورود الصواعق عليهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، وأن البرق يكاد يخطف أبصارهم، فإذا أضاء لهم مشوا فيه، وإذا ذهب بقوا في ظلمة عظيمة، فوقفوا متحيرين؛ لأن من أصابه البرق في هذه الظلمات الثلاث ثم ذهب عنه

= وأبو داود في السنن حديث رقم (٤٦٨٦).

والترمذي في السنن حديث رقم (٢١٩٣).

والنسائي في السنن (١٢٦/٧، ١٢٧).

وابن ماجه في السنن حديث رقم (٣٩٤٢)، (٣٩٤٣).

وأحمد في المسند (٢٣٠/١، ٤٠٢)، (١٠٤/٢) - والبيهقي في السنن (١٤٠/٥، ١٦٦)، (٩٢/٦)، (١٨٩/٨).

والطبراني في الكبير (٣٨٣، ٣٤٨/٢)، (١٦١/٨)، (١٩٢/١٠)، (٢٨٢/١٢)، (٣٥٩، ٣٦٢، ٤١٦) - وابن عدي في الكامل (٢٥٩٣/٧) والحاكم في المستدرک (٩٣/١) - وذكره المنذري في الترغيب (١/١٣٢) - وابن حجر في فتح الباري (٢١٧/١)، (٥٥٣/١٠)، (١٩١/١٢)، (٢٦/١٣) - والسيوطي في الدر المنثور (٢٠/٣، ٢٣٥).

تشتد حيرته، وتعظم الظلمة في عينيه أكثر من الذي لم يزل في الظلمة، فشبه المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالذين بهؤلاء الذين وصفهم، إذا كانوا لا يرون طريقاً، ولا يهتدون.

وثانيها: أن المَطرَ وإن كان نافعاً إلا أنه لما وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلاً، فكذا إظهار الإيمان نافعاً للمنافقين لو وافقه الباطن، فإذا فقد منه الإخلاص، وحصل معه النفاق كان ضرراً في الدين.

وثالثها: أن من هذا حاله، فقد بلغ النهاية في الحيرة لاجتماع أنواع الظلمات، وحصول أنواع المخافة، فحصلت في المنافقين نهاية الحيرة في الدين، ونهاية الخوف في الدنيا؛ لأن النفاق يتصور في كل وقت أنه لو حصل الوقوف على باطنه لقتل، فلا يزال الخوف في قلبه مع النفاق.

ورابعها: المراد من الصيب هو الإيمان والقرآن، والظلمات والرعد والبرق هي الأشياء الشاقة على المنافقين من التكليف كالصلاة والصوم وترك الرياسات، والجهاد مع الآباء والأمهات، وترك الأديان القديمة، والانقياد لمحمد - عليه الصلاة والسلام - مع شدة استنكافهم عن الانقياد، فكان الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب^(١) الذي [هو]^(٢) أشد الأشياء نفعاً بسبب هذه الأمور المقارنة، كذلك هؤلاء. والمراد من قوله: ﴿كَلِمَاتٍ أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أنه متى حصل لهم شيء من المنافع، وهي عصمة أموالهم ودمائهم، وحصول الغنائم، فإنهم يرغبون في الدين.

قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي متى لم يجدوا شيئاً من تلك المنافع، فحينئذ يكرهون الإيمان، ولا يرغبون فيه.

فصل في «أو»

في «أو» خمسة أقوال:

أظهرها: أنها للتفصيل بمعنى: أن الناظرين في حال هؤلاء منهم من يشبههم بحال المستوقد، ومنهم من يشبههم بأصحاب^(٣) صيب هذه صفته.

قال ابن الخطيب: «والثاني أبلغ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة».

والثاني: أنها للإبهام، أي: أن الله أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء أو بهؤلاء.

والثالث: أنها للشك، بمعنى: أن الناظر يشك في تشبيههم.

الرابع: أنها للإباحة.

الخامس: أنها للتخيير، قالوا: لأن أصلها تساوي شيئين فصاعداً في الشك، ثم اتسع فيها، فاستعيرت للتساوي في غير الشك كقولك: «جالس الحسن أو ابن سيرين»

(١) في أ: بحال.

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ: المصعب.

يريد أنهما سيّان، وأن يجالس أيهما شاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ إِلَّا مَا أَكَلُوا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: الإثم والكفر متساويان في وجوب عصيانهما، وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين:

أحدهما: كونها بمعنى «الواو»؛ وأنشدوا: [البسيط]

٢٣٩ - نَالِ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ^(١)
وقال تعالى: ﴿تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقال: [الطويل]

٢٤٠ - وَقَدْ زَعَمْتُ لَيْلَى بِأَنِّي فَاجِرٌ لِنَفْسِي نَقَاها أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا^(٢)
قال ابن الخطيب^(٣): وهذه الوجوه مطردة في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

المعنى الثاني: كونها بمعنى: «بل»؛ قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] وأنشدوا: [الطويل]

٢٤١ - بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْقِ الضُّحَى وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ^(٤)
أي: بل أنت.

و «كصيب» معطوف على «كَمَثَلٍ»، فهو في محل رفع، ولا بد من حذف مضافين؛ ليصح المعنى، التقدير يراد: «أو كمثال ذوي صيب» ولذلك رجع عليه ضمير الجمع في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ﴾؛ لأن المعنى على تشبيههم بأصحاب الصَّيْب لا بالصَّيْب نفسه.

(١) البيت لجريز ينظر ديوانه: ص ٤١٦، الأزهية: ص ١١٤، خزانة الأدب: ٦٩/١١، والدرر: ٦/١١٨، شرح التصريح: ٢٨٣/١، شرح شواهد المغني: ١٩٦/١، مغني اللبيب: ٦٢/١، ٧٠، المقاصد النحوية: ٤٨٥/٢، ١٤٥/٤، وأوضح المسالك: ١٢٤/٢، والجنى الداني: ص ٢٣٠، وشرح الأشموني: ١٧٨/١، وشرح ابن عقيل: ص ٤٩٩، وشرح عمدة الحافظ: ٦٢٧، شرح قطر الندى: ص ١٨٤، همع الهوامع: ١٣٤/٢، النكت والعيون: ١٤٥/١، الدر المصون: ١٣٥/١.

(٢) البيت لتوبة بن الحمير ينظر خزانة الأدب: ١٨/١١، مغني اللبيب: ٦٢/١، شرح شواهد المغني: ١/١٩٤، الأزهية: ص ١١٤، أمالي المرتضى: ٥٧/٢، الدرر: ١١٧/٦، وبلا نسبة ورد في همع الهوامع: ١٣٤/٢، لسان العرب (أوا) رصف المباني: ص ١٣٢، ٤٢٧.

(٣) ينظر الفخر الرازي: ٧١/٢.

(٤) البيت لذي الرمة. ينظر ملحقات ديوانه: (٨٥٧)، والخصائص: (٤٥٨/٢)، والإنصاف: (٤٧٨)، المحتسب: (٩٩/١)، الخزانة: (٤٢٣/٤) ومعاني القرآن: (٧٢/١)، والأزهية: (١٢١)، وحروف المعاني: (٥٢)، واللسان (أوى). وشرح جمل الزجاجي: (٢٣٥/١) والأضداد (٢٨٢)، والدر المصون: (١٣٥/١).

و «الصَّيْب» المَطَرُ سمي بذلك لنزوله، يقال: صاب يصوب إذا نزل؛ ومنه: صَوَّبَ رأسه: إذا خفضه؛ قال [الطويل]

٢٤٢ - فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأِكِ تَنْزُلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(١)
وقال آخر: [الطويل]

٢٤٣ - فَلَا تَغْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ سَقَتْكَ رَوَايَا الْمُزْنِ حَيْثُ تَصُوبُ^(٢)

وقيل: إنه من صَابَ يَصُوبُ: إذا قصد، ولا يقال: صَيَّبَ إلا للمطر الجَوَاد، كان - عليه الصلاة والسلام - يقول: «اللهم اجعله صَيِّباً هَنِيئاً»^(٣) أي: مطراً جواداً، ويقال أيضاً للسحاب: صَيَّبَ؛ قال الشماخ: [الطويل]

٢٤٤ - وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّغْدِ صَيَّبُ^(٤)

وتنكير «صيب» يدل على نوع زائد من المطر شديد هائل كما نكرت «النَّار» في التمثيل الأول.

وقرىء «كصائب»، والصَّيْبُ أبلغ.

(١) البيت لعلقمة الفحل ينظر صلة ديوانه ص: ١١٨، ولتمتم بن نويرة ينظر ديوانه: ص ٨٧، وشرح أشعار الهذليين: ٢٢٢/١، أو لرجل من عبد القيس أو لأبي وجزة، أو لعلقمة في المقاصد النحوية: ٥٣٢/٤، وينظر لسان العرب (صوب)، (ألك)، (لأك)، (ملك)، والكتاب: ٣٨٠/٤، وشرح شواهد الشافية: ص ٢٨٧، وشرح شافية ابن الحاجب: ٣٤٦/٢، وجمهرة اللغة: ص ٩٨٢، وأمالى ابن الحاجب: ص ٨٤٣، والأشباه والنظائر: ٦٩/٨، والاشتقاق: ص ٢٦، وإصلاح المنطق: ص ٧١، والمتنصف: ١٠٢/٢، والمفضليات: (٣٩٤)، جمل الزجاجي (٦٠)، ومعاني الزجاج (٨٠/١)، مجاز القرآن (٣٣/١) والتهذيب (ألك)، الطبري (١٨٢/١)، القرطبي: (١٨٢/١)، المحرر الوجيز: (١/١١٦)، والأمالى الشجرية: (٢٠/٢)، (٢٩٢)، والدر المصون: (١/١٣٥).

(٢) البيت لعلقمة. ينظر ديوانه: (٣٤)، أمالي ابن الشجري: (٢/٢٠)، والمفضليات: (٣٩٢)، القرطبي: (١٥١/١)، النكت والعيون: (٨١/١)، والدر المصون: (١/١٣٥) ..

(٣) أخرجه النسائي في السنن (١٦٤/٣) عن عائشة ولفظه اللهم اجعله صيباً نافعاً كتاب الاستسقاء (١٧) باب القول عند المطر (١٥) حديث رقم (١٥٢٣).

وابن ماجه في السنن (١٢٨٠/٢) كتاب الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر حديث رقم (٣٨٩٠).

وأحمد في المسند (٩٠/٦) - وابن أبي شيبه (٢١٩/١٠) وابن عساكر (٤٠٩/٢).

وذكره الزبيدي في الاتحاف (١٠٤/٥) والهندي في كنز العمال حديث رقم (٢٣٥٥١).

(٤) عجز بيت للشماخ ينظر ديوانه: (٤٣٢)، وذكره الشيخ محمد عليان المرزوقي في حاشيته على تفسير الكشاف وذكر صدره:

عفا آية نسج الجنوب مع الصبا

وقيل للنبغة الذبياني، وقيل للهيثم بن خوار. ينظر الكشاف: ٨١/١، البحر المحيط: ٢١٨/١، والرازي: ١٧٢/٢.

واختلف في وزن «صَيَّب».

فقد ذهب البصرون أنه «فَعِيل»، والأصل: صَيَّبَ أدغم كـ «مَيَّت» و «هَيَّن»، والأصل: مَيَّوت وهَيَّون.

وقال بعض الكوفيين: وزنه «فَعِيل» والأصل: صَوَّبَ بزنة طويل.

قال النحاس: وهذا خطأ؛ لأنه كان ينبغي أن يصح ولا يُعَلَّ كطويل، وكذا قال أبو البقاء.

وقيل وزنه: «فَعِيل» فقلب وأدغم.

واعلم أنه إذا قيل بأن الجملة من قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَسُورَهُمْ﴾ استثنائية، ومن قوله: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾ إنها من وصف المنافقين كاننا جملتي اعتراض بين المتعاطفين، أعني قوله: «كَمَثَلٌ» و «كَصَيَّبٍ» وهي مسألة خلاف منعها الفارسي ورد عليه بقول الشاعر: [الوافر]

٢٤٥ - لَعَمْرِكَ وَالْخُطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ وَفِي طُولِ الْمُعَاشِرَةِ الثَّقَالِي
لَقَدْ بَالَيْتُ مَظْعَنَ أُمِّ أَوْفَى وَلَكِنْ أُمُّ أَوْفَى لَا تُبَالِي^(١)

ففصل بين القسم، وهو «لعمرك» وبين جوابه، وهو «لَقَدْ بَالَيْتُ»^(٢) بجملتين إحداهما: «والخطوب مغيرات».

والثانية: «وفي طول المعاشرة الثقال».

و «من السماء» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يتعلّق بـ «صيب»؛ لأنه يعمل عمل الفعل، والتقدير: كمطر يَصُوب من السماء، و «مِنْ» لابتداء الغاية.

والثاني: أن يكون في محلّ جر صفة لـ «صيب»، فيتعلّق بمحذوف، وتكون «من» للتبعض، ولا بُدَّ حينئذ من حذف مضاف تقديره: كصَيَّبَ كائن من أمطار السَّمَاءِ.

والسَّمَاءُ: هذه المطلة، وهي في الأصل كل ما علاك من سَقْفٍ ونحوه، مشتقة من السُّمو، وهو الارتفاع، والأصل: سَمَاو، وإنما قُلِبَت الواو همزة لوقوعها طرفاً بعد ألف زائدة وهو بدل مُطَرَّد، نحو: «كساء ورداء»، بخلاف «سقاية وشقاوة» لعدم تطرف حرف العلة، ولذلك لما دخلت عليها تاء التأنيث صَحَّتْ؛ نحو: «سماوة».

قال الشاعر: [الرجز]

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ينظر ديوانه: ٣٤٢، وشرح شواهد المغني: ٨٢١/٢، واللامات: ٨٤، مغني اللبيب: ٣٩٥/٢، والدر المصون: (١/١٣٦).

(٢) في أ: بالبيت.

٢٤٦ - طَيِّ السَّيَالِي زُلْفًا فَرَزْلَفَا سَمَاوَةَ الْهَلَالِ حَتَّى اخْقَوْقَفَا^(١)

والسماء مؤنث قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقد تذكّر؛ قال تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]؛ وأنشد: [الوافر]

٢٤٧ - وَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا لَحِجَفْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ^(٢)

فأعاد الضمير من قوله: «إِلَيْهِ» على «السَّمَاء» مذكراً، ويجمع على «سَمَاوَاتٍ»، وأسميّة، وسميّة، والأصل «فعل»، إلا أنه أعلّ إعلال «عصي» بقلب الواوين ياءين، وهو قلب مطّرد في الجمع، ويقلّ في المفرد نحو: عتا - عَتَيْتًا، كما شذّ التصحيح في الجمع قالوا: «إنكم لتنظرون في نُحُو كثيرة»، وجمع أيضاً على «سمااء»، ولكن مفردة «سَمَاوَة»، فيكون من باب تَمَرَّة وتَمَرٍ، ويدلّ على ذلك قوله: [الطويل]

٢٤٨ - فَوْقَ سَبْعِ سَمَائِيَا^(٣)

ووجه الدلالة أنه مُيَّز به «سَبْع» ولا تَمَيَّز هي وأخواتها إلا بجمع مجرور.

وفي قوله: «من السَّمَاءِ» ردّ على من قال: إن المطر إنما يحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء، فتتعدّد هناك من شدة برد الهواء، ثم ينزل مرة أخرى، فذاك هو المطر، فأبطل الله هذا المذهب بأن بيّن أن الصَّيْب نزل من السَّمَاء، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَّرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] يحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون صفة لـ «صَيَّب».

(١) البيت للعجاج. ينظر ديوانه: (٢٣٢/٢)، والكتاب: (٣٥٩/١)، والتهذيب واللسان (حقف)، مجاز القرآن: (٣٠/١)، وغريب القرآن: (٢١٠)، والبحر المحيط: (٢١٨/١)، والدر المصون: (١/١٣٦).

(٢) ينظر البيت في إعراب ثلاثين سورة (٩٨)، البحر: (٢١٩/١)، الدر المصون: (١/١٣٦)، روح المعاني: (١/١٧١).

(٣) جزء من عجز بيت لامية بن أبي الصلت وتمام البيت:

له ما رأت عين البصير وفوقه سماء الإله

ينظر ديوانه: (٧٠)، والكتاب: ٥٩/٢، والمقتضب: (١٤٤/١)، الخصائص: (٢١١/١)، الخزانة: (١١٨/١)، والمخصص: ٣/٩، والمنصف: (٦٦/٢، ٦٨)، واللسان (سما)، والمذكر والمؤنث للمبرد: ١٢١٠ والأصول: ٩٣/٢، وما ينصرف وما لا ينصرف: ١١٥، والسيرافي: ١٣٨/١.

والشاهد فيه - سمائيا -؛ حيث حرك الياء في الجر ضرورة، ويضاف إلى هذا ضرورتان أخريان: جمع «سمااء» على «فعائل»؛ كشمال وشماثل، والمستعمل فيها «سماوات»، والأخرى: أنه لم يغيرها إلى الفتح والقلب، فيقول: «سمايا»؛ كما يقال: خطايا.

الثاني: أن يكون حالاً منه، وإن كان نكرة لتخصيصه، إما بالعمل في الجار بعده، أو بصفة بالجار بعده.

الثالث: أن يكون حالاً من الضمير المُسْتَكِنَ في «من السماء» إذا قيل: إنه صفة لـ «صَيَّبَ»، فيتعلق في التقادير الثلاثة بمحذوف، إلا أنه على القول الأول في محل جر لكونه صفة لمجرور، وعلى القولين الأخيرين في محل نصب على الحال.

و «ظلمات» على جميع هذه الأقوال فاعل به؛ لأن الجار والمجرور والظرف متى اعتمدا على موصوف، أو ذي حال، أو ذي خبر، أو على نفي، أو استفهام عملاً عمل الفعل، والأخفش يُعْمِلُهُمَا مطلقاً كالوصف، وسيأتي تحرير ذلك.

الرابع: أن يكون خبراً مقدماً، و «ظلمات» مبتدأ، والجملة تحتمل وجهين:
الأول: الجر على أنها صفة لـ «صيب».

والثاني: النصب على الحال، وصاحب الحال يحتمل أن يكون «كصيب»، وإن كان نكرة لتخصيصه بما تقدمه، وأن يكون الضمير المستكن في «من السماء» إذا جعل وصفاً لـ «صَيَّبَ»، والضمير في «فيه» ضمير «الصيب»، واعلم أن جعل الجار صفة أو حالاً، ورفع «ظلمات» على الفاعلية به أَرْجَحُ من جعل ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ جملة برأسها في محل صفة أو حال؛ لأن الجار أقرب إلى المفرد من الجملة، وأصل الصفة والحال أن يكونا مفردين.

و «رَعَدٌ وَبَرْقٌ»: معطوفان على «ظلمات» بالاعتبارين المتقدمين، وهما في الأصل مصدران تقول: رَعَدَتِ السماءُ تَرَعُدُ رَعْدًا، وَبَرَقَتْ بَرْقًا.

قال أبو البقاء: وهما على ذلك مُوَحَّدَتَانِ هنا يعني على المصدرية ويجوز أن يكونا بمعنى الرعد والبارق، نحو: رجل عَدَل.

والظاهر أنهما في الآية ليس المراد بهما المصدر، بل جعلاً اسماً [للهمز واللمعان].

والبرق: اللَّمَعَان، وهو مقصود الآية، ولا حاجة حينئذ إلى جعلهما بمعنى اسم فاعل.

وقال علي وابن عباس - رضي الله عنهما - وأكثر المفسرين: الرعد: اسم ملك يسوق السحاب، والبرق: لَمَعَانٌ سَوَّطٌ من نور يزر به الملك السحاب.

وقيل: الرعد صوت انضغاط السحاب.

وقيل: تسبيح الملك.

وقيل: الرعد نطق الملك، والبرق ضحكه.

وقال مجاهد: الرعد اسم الملك؛ ويقال لصوته أيضاً: رعد، والبرق اسم ملك

يسوق السحاب.

وقال شهر بن حوشب: الرعد ملك يُزْجِي السحاب، فإذا تبددت ضمها فإذا اشتد

غضبه طارت من فيه النار فهي الصواعق.

وقيل: الرعد صوت انحراق الريح بين السحاب. فإن قيل: لم جمع «الظلمات»، وأفرد «الرعد والبرق»؟

فالجواب: أن في «ظلمات» اجتمع أنواع من الظلمة، وهي ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة تكاثف المطر، وأما الرعد والبرق فكل واحد منهما نوع واحد. ونكرت؛ لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف.

﴿يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ﴾، وهذه الجملة الظاهر أنها لا محل لها لاستئنافها كأنه قيل: ما حالهم؟ فقيل: يجعلون.

وقيل: بل لها محل، ثم اختلف فيه فقيل: جر؛ لأنها صفة للمجرور، أي: أصحاب صيب جاعلين، والضمير محذوف.

أو نابت الألف واللام منابه، تقديره: يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق منه أو من صواعقه.

وقيل: محلها نصب على الحال من الضمير في «فيه».

والكلام في العائد كما تقدم، والجعل - هنا - بمعنى الإلقاء، ويكون بمعنى الخلق، فيتعدى لواحد، ويكون بمعنى «صَيَّرَ» أو «سمى»، فيتعدى لاثنتين، ويكون للشروع، فيعمل عمل «عسى».

و «أَصَابِعُهُمْ» جمع إصبع، وفيها عشر لغات: بثلاث الهمزة مع تثنية الباء، والعاشرة «أصبوع» بضم الهمزة.

والواو في «يَجْعَلُونَ» تعود للمُضَاف المحذوف، كما تقدم إيضاحه.

واعلم أنه إذا حذف المضاف جاز فيه اعتباران:

أحدهما: أن يلتفت إليه.

والثاني: ألا يلتفت إليه، وقد جمع الأمران في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، والتقدير: وكم من أهل قرية فلم يراعها في قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا﴾، ورعاها في قوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ وذكر الأصابع، وإن كان المجموع إنما هو رؤوس الأصابع تسمية للبعض باسم الكل كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقْطَعُوا آيِدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، و ﴿فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ كلاهما متعلق بالجعل، و «من» معناها التعليل.

و «الصَّوَاعِقُ»: جمع صاعقة، وهي الضَّجَّة الشديدة من صوت الرعد تكون معها القطعة من النار.

ويقال: «ساعة» بالسَّين، و «صاعقة»، و «صاقعة» بتقديم القاف؛ وأنشد: [الطويل]

٢٤٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمُجْرِمِينَ أَصَابَهُمْ صَوَاقِعٌ لَا بَلَّ هُنَّ فَوْقَ الصَّوَاقِعِ^(١)
ومثله قول الآخر: [الرجز]

٢٥٠ - يَخْكُونَ بِالْمَضْقُولَةِ الْقَوَاطِعِ تَشْقُقُ الْيَدَيْنِ بِالصَّوَاقِعِ^(٢)
وهي قراءة الحسن.

قال النَّحَّاس: وهي لغة «تميم»، وبعض «بني ربيعة»، فيحتمل أن تكون «صاقعة» مقلوبة من «صَاقِعَة»، ويحتمل ألا تكون، وهو الأظهر لثبوتها لغةً مستقلةً كما تقدم.
ويقال: «صقعة» أيضاً، وقد قرأ بها الكسائي^(٣) في «الذاريات».

يقال: صُعِقَ زيد، وأصعقه غيره قال: [لطويل]

٢٥١ - تَرَى الثُّغَرَاتِ الرُّزْقَ تَحْتَ لَبَانِهِ أَحَادَ وَمَثْنَى أَصَعَقَتْهَا صَوَاهِلُهُ^(٤)
وقيل: «الصَّاعِقَة» [قصف رعد ينقض منها شعلة]^(٥) من نارٍ لطيفة قوية لا تمرُّ بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع قوتها سريعة الخمود.

وقيل: الصَّاعِقَة: قطعة عذاب ينزلها الله على من يشاء، وروي عن سالم بن عبد الله ابن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرُّعْدِ والصَّوَاعِقِ قال: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بغضبك وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(٦).

قوله: ﴿حَذَرُ الْمَوْتِ﴾ أي: مَخَافَةُ الهلاك، وفيه وجهان:

أظهرهما: أنه مفعول من أجله ناصبه «يجعلون»، ولا يضر تعدد المفعول من أجله؛ لأن الفعل يعمل بعلة.

(١) ينظر البيت في لسان العرب منسوباً لابن أحرمر (صقع)، البحر المحيط: (١/٢٢٠)، روح المعاني: (١٧٤/١)، والدر المصون: (١٣٨/١).

(٢) نسبه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/١٥٣) لأبي النجم وهو في البحر المحيط (١/٢٢٠)، والدر المصون (١/١٣٨).

(٣) ستأتي في الذاريات آية (٤٤).

(٤) البيت لابن مقبل في ديوانه ٢٥٢، وإصلاح المنطق ٢٠٥، وتذكرة النحاة ٩٠/١، وشرح شواهد الإيضاح ٥٢٩، والمعاني الكبير ٦٠٦، وتذكرة النحاة ٦٨٤، والصاحبي في فقه اللغة ١٤٠، ولسان العرب [فرد]، [نعر]، [صقع]، مجالس ثعلب ١٥٥، وجمع الهوامع ٢٦/١، الدرر (٧/١)، القرطبي (١/١٥٣)، والدر المصون (١/١٣٨).

(٥) في ب: الوقعة الشديدة من صوت الرعد معها قطعة.

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٥/٤٦٩) كتاب الدعوات (٤٩) باب ما يقول إذا سمع الرعد (٥٠) حديث رقم (٣٤٥٠) وقال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٦٩، باب ما يقول إذا سمع الرعد والصواعق. وذكره الهندي في كنز العمال حديث رقم (١٨٠٣٥).

الثاني: أنه منصوب على المصدر وعامله محذوف تقديره يحذرون حذراً مثل حَذَرِ الموت. و «الْحَذَرُ» و «الْحِذَارُ» مصدران لـ «حذر» أي: خاف خوفاً شديداً.
واعلم أن المفعول من أجله بالنسبة إلى نصبه وجره بالحرف على ثلاثة أقسام:
قسم يكثر نصبه، وهو ما كان غير معرف بـ «أل» ولا مضاف نحو: «جئت إكراماً لك».

وقسم عكسه، وهو ما كان معرفاً بـ «أل»؛ ومن مجيئه منصوباً قول الشاعر:
[الرجز]

٢٥٢ - لَا أَقْعُدُ الْجُبْنَ عَنِ الْهَيْجَاءِ وَلَوْ تَوَالَتْ زُمَرُ الْأَعْدَاءِ^(١)
وقسم يستوي فيه الأمران، وهو المضاف كالأية الكريمة، ويكون معرفة ونكرة، وقد جمع حاتم الطائي الأمرين في قوله: [الطويل]

٢٥٣ - وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادْخَارَهُ وَأَعْرِضُ عَنْ شَتَمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا^(٢)
و «حَذَرِ الْمَوْتِ» مصدر مضاف إلى المفعول، وفاعله محذوف، وهو أحد المواضع التي يجوز فيها حذف الفاعل وحده.
والثاني: فعل ما لم يسم فاعله.

والثالث: فاعل «أفعل» في التعجب على الصحيح، وما عدا هذه لا يجوز فيه حذف الفاعل وحده خلافاً للكوفيين.

والموت: ضد الحياة؛ يقال: مَاتَ يَمُوتُ وَيَمَاتُ؛ قال الشاعر: [الرجز]

٢٥٤ - بُنِيَّتِي سَيِّدَةُ الْبَنَاتِ عِيشِي وَلَا يُؤْمَنُ أَنْ تَمَاتِي^(٣)
وعلى هذه اللغة قريء «مِثْنَا» و «مِثْ» - بكسر الميم - كـ «خِفْنَا» و «خِفْتُ»، فوزن «مَاتَ» على اللغة الأولى: «فَعَلَ» بفتح العين، وعلى الثانية: «فَعِلَ» بكسرهما، و «الْمَوَاتُ»: بالضمِّ الموت أيضاً، وبالفتح: ما لا روح فيه، والمَوَاتَانِ بالتحريك ضد

(١) ينظر الهمع: (١٩٥/١)، الأشموني: (١٢٥/٢)، والعيني: (٦٩/٣)، الدرر: (١٦٧/١)، شرح الكافية الشافية: (٦٧٢/٢) وشرح ابن عقيل: (١٨٧/٢) وشرح الألفية لابن الناظم: (٢٧٢) وشرح الألفية للمرادي: (٨٨/٢) والتصريح: (٣٣٦/١)، الدر المصون: (١٣٨/١).

(٢) ينظر ديوانه: ص ٢٢٤، وخزانة الأدب: ١٢٢/٣، ١٢٣، ١٢٤، وشرح أبيات سيبويه: ٤٥/١، وشرح شواهد المغني: ٩٥٢/٢، الكتاب: ٣٦٨/١، وشرح المفصل: ٥٤/٢، واللمع: ص ١٤١، والمقاصد النحوية: ٧٥/٣، ونوادر أبي زيد: ص ١١٠، أسرار العربية: ص ١٨٧، وخزانة الأدب: ١١٥/٣، ولسان العرب (عوز)، (خصص)، والعيني: (٧٥/٣)، والأشموني: (١٨٩/٢)، والكشاف: (٨٥/١)، وروح المعاني: (١٧٤/١)، والدر المصون: (١٣٨/١).

(٣) ينظر البيت في اللسان (موت)، القرطبي: (١٥٣/١)، والدر المصون: (١٣٩/١).

الحيوان؛ ومنه قولهم: «اشْتَرِ الْمَوْتَانِ، وَلَا تَشْتَرِ الْحَيَوَانَ»، أي: اشتر الأَرْضَيْنِ، وَلَا تَشْتَرِ الرَّقِيقَ، فإنه في مَغْرِضِ الْهَلَاكِ؛ و «الموتان» بضم «الميم»: وقوع الموت في الماشية، ومُوتَ فلانٌ بالتشديد للمبالغة؛ قال: [الوافر]

٢٥٥ - فَعَزَّوَةٌ مَاتَ مَوْتًا مُسْتَرِيحًا فَهَذَا أَنَا ذَا أَمَوْتُ كُلِّ يَوْمٍ^(١)
و «المُسْتَمِيت»: الأمر المُسْتَرْسِل؛ قال رؤبة: [الرجز]

٢٥٦ - وَزَيْدُ الْبَخْرِ لَهُ كَتِيبٌ وَاللَّيْلُ فَوْقَ الْمَاءِ مُسْتَمِيتٌ^(٢)
قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وهو مجاز أي: لا يفوتونه. ف قيل: عالم بهم، كما قال: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: جامعهم وقدرته مُسْتَوْلِيَةٌ عليهم؛ كما قال: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

وقال مجاهد: «يجمعهم فيعذبهم»^(٣).

وقيل: يهلكهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: تَهْلِكُوا جميعاً.

وقيل: «ثُمَّ» مضافٌ محذوف، أي: عقابه محيطٌ بهم.

وقال أبو عمرو، والكسائي: «الْكَافِرِينَ» [بالإمالة]^(٤) ولا يميلان ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، وهذه الجملة^(٥) مبتدأ وخبر.

وأصل «مُحِيطٌ»: «مُخَوِّطٌ»؛ لأنه من حَاطَ يَحُوِّطُ فَأَعْلَلَ كإِعْلَالَ «نَسْتَعِين».

والإحاطة: حصر الشيء من جميع جهاته، وهذه الجملة قال الزمخشري: «هي اعتراض لا محل لها من الإعراب» كأنه يعني بذلك أن جملة قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ﴾، وجملة قوله: ﴿يَكَاذُ الْبُزْقُ﴾ شيءٌ واحد؛ لأنهما من قصة واحدة؛ فوقع ما بينهما اعتراضاً.

«يَكَاذُ» مضارع «كَادَ»، وهي لِمُقَارَبَةِ الفعل، تعمل عمل «كان» إلا أن خبرها لا يكون إلا مُضَارِعاً، وشذَّ مجيئه اسماً صريحاً؛ قال: [الطويل]

(١) ينظر اللسان: (موت)، والدر المصون: ١٣٩/١.

(٢) ينظر البيت في ديوانه: (٢٦)، القرطبي: (١٥٤/١)، الدر المصون: ١٣٩/١، واللسان (موت).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٢/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

(٤) في ب: في محل النصب والخفض.

(٥) في أ: الجملة من.

٢٥٧ - فَأَبْتُ إِلَىٰ فَهْمٍ وَمَا كَذْتُ آيَاً وَكَمْ مِثْلَهَا فَأَرَقْتُهَا وَهِيَ تَضْفِرُ^(١)
والأكثر في خبرها تجرده من «أن»، عكس «عسى»، وقد شدّ اقترانه بها؛ قال
رُؤْبَةُ: [الرجز]

٢٥٨ - قَدْ كَادَ مِنْ طُولِ الْبَلَىٰ أَنْ يَمَحَصَا^(٢)

لأنها لمقاربة الفعل، و «أن» تخلص للاستقبال، فتنافيا.

واعلم أن خبرها - إذا كانت هي مثبتة - منفي في المعنى، لأنها للمقاربة.
فإذا^(٣) قلت: «كَادَ زَيْدٌ يَفْعَلُ» كان معناه: قارب الفعل إلا أنه لم يفعل، فإذا نُفِيتِ،
انتفى خبرها بطريق الأولى؛ لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل انتفى هو من باب أولى؛ ولهذا
كان قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكْدُ بِرَبِّهَا﴾ [النور: ٤٠] أبلغ من أن لو قيل: لَمْ يَرْهَا، لأنه لم
يقارب الرؤية، فكيف له بها؟

وزعم جماعة منهم ابن جني، وأبو البقاء، وابن عطية أن نفيها إثبات، وإثباتها
نفي؛ حتى ألغز بعضهم فيها؛ فقال: [الطويل]

٢٥٩ - أَنَحْوِي هَذَا الْعَصْرَ مَا هِيَ لَفْظَةٌ جَرَتْ فِي لِسَانِي جُزْهَمَ وَتُمُودُ
إِذَا نُفِيتَ - وَاللَّهِ أَغْلَمُ - أَثْبِتَتْ وَإِنْ أَثْبِتَتْ قَامَتْ مَقَامَ جُحُودِ^(٤)
وحكوا عن ذي الرمة أنه لما أنشد قوله: [الطويل]

٢٦٠ - إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدُ
عيب عليه؛ لأنه قال: «لم يكد يَبْرَحُ»، فيكون قد بَرَحَ، فغيّره إلى قوله: «لَمْ
يَزَلْ»، أو ما هو بمعناه.

(١) البيت لتأبط شراً في ديوانه ص ٩١ ينظر الخصائص: ٣٩١/١، خزانة الأدب: ٣٧٤/٨، ٣٧٥،
٣٧٦، الأغاني: ١٥٩/٢١، الدرر: ١٥٠/٢، شرح التصريح: ٢٠٣/١، شرح ديوان الحماسة
للمرزوقي: ص ٨٣، شرح شواهد الإيضاح: ص ٦٢٩، ولسان العرب (كيد)، المقاصد النحوية: ٢/
١٦٥، الإنصاف: ٥٤٤/٢، وأوضح المسالك: ٣٠٢/١، رصف المبانى: ص ١٩٠، شرح ابن
عقيل: ص ١٦٤، شرح عمدة الحفاظ: ص ٨٢٢، شرح المفصل: ١٣/٧، همع الهوامع: ١٣٠/١،
وشواهد الكتاب: (٤٧٨/١)، والدر المصون: (١٣٩/١).

(٢) ينظر البيت في ملحق ديوانه: (٧٢)، والكتاب: ٤٧٨/١، وابن يعيش: ١٢١/٧، والخزانة: ٩٠/٤،
واللسان (مصح)، والدر المصون: ١٣٩/١.

(٣) في ب: فإن.

(٤) البيتان لأبي العلاء المعري. ينظر الهمع: (١٣٢/١)، الأشموني: (٢٦٨/١)، الدرر: (١١٠/١٠)،
والدر المصون: (١٤٠/١).

(٥) ينظر البيت في ديوانه: (١١٩٢). شرح المفصل: (١٢٤/٧)، الأشموني: (٢٦٨/١٠)، الخزانة: (٤/
١٧٤)، والدر المصون: (١٤٠/١).

والذي غَرَّ هؤلاء قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] قالوا: «فهي هنا منفية»، وخبرها مثبت في المعنى؛ لأن الذبح وقع لقوله: «فَذَبْحُوهَا»، والجواب عن هذه الآية من وجهين:

أحدهما: أنه يحمل على اختلاف وقتين، أي: ذبحوها في وقت، وما كادوا يفعلون في وقت آخر.

والثاني: أنه عبر بنفي مُقَابَرَةِ الفعل عن شِدَّةِ تَعَثُّبِهِمْ، وعسرهم في الفعل.

وأما ما حَكَّوْهُ عن ذي الرُّمَّة، فقد غَلَطَ الجمهورُ ذا الرُّمَّة في رجوعِهِ عن قوله الأول، وقالوا: «هو أبلغ وأحسن مما [غيره إليه]»^(١).

واعلم أن خبر «كاد» وأخواتها - غير «عسى» - لا يكون فاعله إلا ضميراً عائداً على اسمها؛ لأنها للمقاربة أو للشروع، بخلاف «عسى»، فإنها للترجي؛ تقول: «عسى زيد أن يقوم أبوه»، ولا يجوز ذلك في غيرها، فأما قوله: [الطويل]

٢٦١ - وَقَفْتُ عَلَى رَنْبٍ لِمِيَّةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُحَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُئُهُ تُكَلِّمُنِي أَخْبَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ^(٢)

فأتى بالفاعل ظاهراً، فقد حملة بعضهم على الشُّذُودِ، وينبغي أن يقال: إنما جاز ذلك؛ لأن الأحجار والملاعب هي عبارة عن الرُّبْعِ، فهي هو، فكأنه قيل: حتى كاد يكلمني؛ ولكنه عبر [عنه]^(٣) بمجموع أجزائه.

وأما قول الآخر: [البسيط]

٢٦٢ - وَقَدْ جَعَلْتُ إِذَا مَا قُمْتُ يُثْقِلُنِي ثَوْبِي فَأَنْهَضُ نَهَضَ الشَّارِبِ السَّكِرِ
وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ مُغْتَدِلًا فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ^(٤)

(١) في أ: عبر به.

(٢) البيتان لذي الرمة ينظر ديوانه: ص ٨٢١، والكتاب: ٥٩/٤، ولسان العرب (سقى)، (شكا)، والمقاصد النحوية: ١٧٦/٢، وشرح أبيات سيبويه: ٣٦٤/٢، وشرح التصريح: ٢٠٤/١، والدرر: ١٥٥/٢، وشرح شافعية ابن الحاجب: ٩١/١، ٩٢، وشرح شواهد الإيضاح: ص ٥٨٣، وشرح شواهد الشافعية: ص ٤١، وأدب الكاتب: ص ٤٦٢، والمتع في التصريف: ص ١٨٧، وبلا نسبة في أوضح المسالك: ٣٠٧/١، وشرح الأشموني: ١٣٠/١، والصاحبي في فقه اللغة: ص ٢٢٦، وجمع الهوامع: ١٣١/١، والدر المصون: ١٤٠/١.

(٣) سقط في أ.

(٤) البيتان لعمر بن أحمَر ينظر ملحَق ديوانه: ص ٧٢، خزانة الأدب: ٣٥٩/٩، ٣٦٢، ولأبي حية النمري في الحيوان: ٤٨٣/٦، شرح التصريح: ٢٠٤/١، شرح شواهد الإيضاح: ص ٧٤، والمقاصد النحوية: ١٧٣/٢، ولابن أحمَر أو لأبي حية النمري في الدرر: ١٣٣/٢، ولأبي حية أو للحكم بن عبدل في شرح شواهد المغني: ٩١١/٢، وبلا نسبة في أوضح المسالك: ٣٠٥/١، شرح الأشموني: =

فَأَتَى [بفاعل] ^(١) [خبر] ^(٢) جعل ظاهراً، فقد أجيب عنه بوجهين:

أحدهما: أنه على حذف مضاف، تقديره: وقد جعل ثوبي إذا ما قمت يثقلني.

والثاني: أنه من باب ^(٣) إقامة السبب مقام المُسَبَّبِ، فإن نهوضه كذا متسبب عن إئصال ثوبه إِيَّاهُ، والمعنى: وقد جعلت أنهض نهض الشارب الثمل لإئصال ثوبي إِيَّاي.

ووزن «كَادَ كَوْدَ» بكسر العين، وهي من ذوات الواو؛ كـ «خَافَ» يَخَافُ، وفيها لغة أخرى: فتح عينها، فعلى هذه اللغة تضم فائوها إذا أسندت إلى تاء المتكلم وأخواتها، فتقول: «كَذْتُ، وَكُذْنَا»؛ مثل: قُلْتُ، وَقُلْنَا، وقد تنقل كسر عينها إلى فائها مع الإسناد إلى ظاهر، كقوله: [الطويل]

٢٦٣ - وَكَيْدَ ضِبَاغِ الْقَفِّ يَأْكُلُنْ جُثَّتِي وَكَيْدِ خِرَاشٍ عِنْدَ ذَلِكَ يَنْتَمُ ^(٤)

ولا يجوز زيادتها خلافاً [للاخفش] ^(٥)، وسيأتي إن شاء الله هذا كله في «كاد»

الناقصة.

أما «كاد» التامة بمعنى «مَكَرَ» فوزنها فَعَلَ بفتح العين من ذوات «الياء»؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

و «البرق» اسمها، و «يخطف» خبرها ويقال: خَطَفَ يَخْطِفُ [بكسر عين الماضي، وفتح المضارع، وخطَفَ يَخْطِفُ] ^(٦) عكس اللغة الأولى وفيه تراكيب كثيرة، والمشهور منها الأولى.

الثانية: يخطف بكسر الطاء، قرأها مجاهد ^(٧).

الثالثة: عن الحسن بفتح «الياء والخاء والطاء»، مع تشديد «الطاء»، والأصل: يَخْطِفُ، فأبدلت «تاء» الافتعال «طاء» للإدغام.

= ١٣٠/١، شرح التصريح: ٢٠٦/١، ومغني اللبيب: ٥٧٩/٢، المقرب: ١٠١/١ وأمالى القالي: (٢)/ (١٦٣)، الخصائص: (٢٠٧/١)، والشذور: (١٩٠) والدر المصون: (١٤٠/١).

(١) في أ: بها على.

(٢) زيادة يستقيم بها المعنى.

(٣) في أ: أنه مسبب.

(٤) البيت لأبي خراش الهذلي. ينظر ديوان الهذليين: (١٤٨/٢)، وشرح المفصل: (٧٢/١٠)، والمنصف: (٢٥٢/١)، والممتع: (٤٣٩)، والدر المصون: (١٤١/١).

(٥) في أ: خلافاً لمن يقول.

(٦) سقط في أ.

(٧) وهي قراءة علي بن الحسين ويحيى بن زيد.

قال ابن عطية: ونسب المهدي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم. انظر المحرر الوجيز: ١٠٣/١، والبحر المحيط: ٢٢٧/١، والدر المصون: ١٤١/١.

الرابعة: كذلك، إلا أنه بكسر^(١) الطاء على [أنه]^(٢) أصل التقاء الساكنين.

الخامسة: كذلك، إلا أنه بكسر «الخاء» إتباعاً لكسرة الطاء.

السادسة: كذلك إلا أنه بكسر الياء أيضاً إتباعاً للخاء.

السابعة: «يخطف» على الأضل.

الثامنة: يَخْطِفُ بفتح الياء، وسكون الخاء، وتشديد الطاء [وهي رديئة لتأديتها إلى

التقاء ساكنين].

التاسعة: بضم الياء، وفتح الخاء، وتشديد الطاء^(٣) مكسورة، والتضعيف فيه

للتكثير لا للتعدية.

العاشرة: «يَخْطِفُ» عن أَبِي من قوله: ﴿وَيَخْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

و «الْخَطْفُ»: أخذ شيء بسرعة، وهذه الجملة - أعني قوله: «يَكَادُ البرق يخطف»

لا محل لها، لأنه استئناف كأنه قيل: كيف يكون حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل: يكاد يخطف، ويحتمل أن تكون في محل جر صفة لـ «ذوي» المحذوفة، التقدير: كذوي صيَب كائد البرق يخطف.

قوله: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾.

«كُلُّ» نصب على الظرف؛ لأنها أضيفت إلى «ما» الظرفية، والعامل فيها جوابها،

وهو «مشوا».

وقيل: «ما» نكرة موصوفة ومعناها الوقت أيضاً، والعائد محذوف تقديره: كل وقت

أضاء لهم فيه، ف «أضاء» على الأول لا محل له؛ لكونه صلة، ومحلّه الجر على الثاني.

و «أضاء» يجوز أن يكون لازماً.

وقال المبرّد: «هو متعدّد، ومفعوله محذوف أي: أضاء لهم البرق الطريق»، ف «الهاء»

في «فيه» تعود على البرق في قول الجمهور، وعلى الطريق المحذوف في قول المبرّد.

و «فيه» متعلّق بـ «مشوا»، و «في» على بابها أي: إنه محيط بهم.

وقيل: بمعنى الباء، ولا بد من حذف على القولين: أي: مشوا في ضوئه: أي

بضوئه، ولا محل لجملة قوله: «مشوا»؛ لأنها مستأنفة، كأنه جواب لمن يقول: كيف يمضون^(٤) في حالي ظهور البرق وخفائه؟

والمقصود تمثيل شدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيَب، وما هم

فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون، وما يذرون.

(٣) سقط في أ.

(٤) في أ: يصنعون.

(١) في أ: كسر.

(٢) سقط في أ.

واعلم أن «كلّ» من ألفاظ العموم^(١)، وهو اسم جمع لازم للإضافة، وقد يحذف ما يُضَاف إليه، وهل تنوينه حينئذ تنوين عوض، أو تنوين صرف؟ قولان:

والمضاف إليه «كلّ» إن كان معرفة وحذف، بقيت على تعريفها، فلهذا انتصب^(٢) عنها الحال، ولا يدخلها الألف واللام، وإن وقع ذلك في عبارة بعضهم، وربما انتصب حالاً، وأصلها أن تستعمل توكيداً كـ «أجمع»، والأحسن استعمالها مبتدأ، وليس كونها مفعولاً بها مقصوراً على السماع، ولا مختصاً بالشعر، خلافاً لزمع ذلك.

وإذا أضيفت إلى نكرة أو معرفة بلام الجنس حسن أن تلي العوامل اللفظية، وإذا أضيفت إلى نكرة تعين اعتبار تلك النكرة فيما لها من ضمير وغيره، تقول: «كل رجال أتوك، فأكرمهم»، ولا يجوز أن تراعي لفظ «كل» فتقول: «كلّ رجال أتاك، فأكرمهم»، و «كلّ رجل أتاك، فأكرمهم» ولا تقول «كلّ رجل أتوك، فأكرمهم»؛ اعتباراً بالمعنى، فأما قوله: [الكامل]

٢٦٤ - جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فَتَرَكْنَ كُلَّ حَديقَةٍ كَالذَّرْهِمِ^(٣)
فراعى المعنى، فهو شاذ لا يقاس عليه.

وإذا أضيفت إلى معرفة فوجهان، سواء كانت بالإضافة لفظاً؛ نحو: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] فراعى لفظ «كلّ».

أو معنى نحو: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] فراعى لفظها، وقال: ﴿وَكُلُّ أَوْتَوْ دَخِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] فراعى المعنى.

وقول بعضهم: «إن «كلما» تفيد التكرار» ليس ذلك من وضعها، وإنما استفيد من العموم التي دلّت عليه.

فإنك إذا قلت: «كلما جئتني أكرمتك» كان المعنى أكرمك^(٤) في كل فرد [فرد]^(٥) من جيئاتك إليّ.

(١) (كلا)، (كلتا) والخبر عنها يكون مفرداً، ومن خصائصها: أنها لا تعرب إلا إذا أضيفت إلى مضمّر، بخلاف «كلّ» فإنها تعرب مطلقاً.

(٢) في أ: ينتصب.

(٣) البيت لعنترة. ينظر ديوانه: ص ١٩٦، وجمهرة اللغة: ص ٨٢، ٤٩٧، ولسان العرب (ثر)، (حر)، (حدق)؛ ومغني اللبيب: ١/١٩٨، والمقاصد النحوية: ٣/٣٨٠، والدرر: ٥/١٣٦، وشرح شواهد المغني: ١/٤٨٠، ٢/٥٤١، وسر صناعة الإعراب: ١/١٨١، جمهرة اللغة: ص ٤٢٥، وشرح الأشموني: ٢/٣١٠، وجمع الهوامع: ٢/٧٤، وشرح التبريزي على المعلقات: (٣٣١)، والدر المصون: (١٤٢/١).

(٤) في أ: أكرمتك.

(٥) سقط في أ.

وقرأ ابن أبي عبلة^(١) «ضَاء» ثلاثياً، وهي تدل على أن الرباعي لازم.

وقرىء^(٢): «وَإِذَا أَظْلَمَ» مبنياً للمفعول، وجعله^(٣) الزمخشري دالاً على أن «أظلم» متعدي، واستأنس أيضاً بقول حبيب: [الطويل]

٢٦٥ - هُمَا أَظْلَمَا حَالِي ثُمَّتْ أَجْلِيَا ظَلَامَيْنِهِمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ^(٤)

ولا دليل في الآية؛ لاحتمال أن أصله: «وَإِذَا أَظْلَمَ اللَّيْلُ عَلَيْهِم»، فلما بني للمفعول حذف الليل، وقام «عَلَيْهِم» مقامه، وأما بيت حبيب فمولد.

وإنما صدرت الجملة الأولى بـ «كَلَمًا» والثانية بـ «إِذَا»، قال الزمخشري: «لأنهم حراس على وجود ما همهم به، معقود من إمكان المشي وتأنيبه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقُّف والتَّحْبُّس»^(٥) وهذا هو الظاهر، إلا أن من النحويين من زعم أن «إِذَا» تفيد التكرار أيضاً؛ وأنشد: [البسط]

٢٦٦ - إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحُبِّ فِي كَبْدِي أَقْبَلْتُ^(٦) نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ ابْتَرَدُ^(٧)

قال: «معناها معنى «كَلَمًا».

قوله: «قَامُوا» أي وقفوا أو ثبتوا^(٨) في مكانهم، ومنه: «قامت السوق».

قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾.

«لو» حرف لما كان سيقع^(٩) لوقوع غيره، هذه عبارة سيبويه وهي أولى من عبارة غيره، وهي حرف امتناع لامتناع لصحة العبارة الأولى في نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُمُنِيَ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

وفي قوله عليه السلام: «نِعْمَ الْعَبْدُ ضَهَبٌ، لو لم يخف الله لم يغصه»^(١٠) وعدم

(١) انظر البحر المحيط: ٢٢٨/١، والمحرم الوجيز: ١٠٤/١، والدر المصون: ١٤٢/١.

(٢) قرأ بها يزيد بن قطيب والضحاك.

انظر المحرم الوجيز: ١٠٤/١، والبحر المحيط: ٢٢٨/١، والكشاف: ٨٦/١.

(٣) في أ: وجعلها.

(٤) ينظر ديوانه: (١٥٧/١)، الكشاف: (٨٦/١)، والدر المصون: (١٤٢/١).

(٥) في أ: التحسن.

(٦) في أ: وردت.

(٧) ينظر روح المعاني: (١٧٥/١)، الدر المصون: (١٤٣/١)، اللسان (برد).

(٨) في ب: وتلبوا.

(٩) في ب: ليقع.

(١٠) الحديث ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٤٤٦/٢) وقال: اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب

المعاني وأهل العربية من حديث عمر وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به

بعد البحث وكذا كثير من أهل اللغة لكن نقل في المقاصد عن الحافظ ابن حجر أنه ظفر به في مشكل =

صَحَّةُ الثَّانِيَةِ فِي ذَلِكَ كَمَا سَيَأْتِي مُحَرَّرًا، وَلِفْسَادِ قَوْلِهِمْ: «لَوْ كَانَ إِنْسَانًا لَكَانَ حَيَوَانًا»؛ إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنْ امْتِنَاعِ الْإِنْسَانِ امْتِنَاعُ الْحَيَوَانِ، وَلَا يَجْزِمُ بِهَا خِلَافًا لِقَوْلِهِمْ، فَأَمَّا قَوْلُهُ: [الرمل] ٢٦٧ - لَوْ يَشَأُ طَارَ بِهِ ذُو مَيْعَةٍ لَأَحِقَّ الْأَطَالُ نَهْدُ ذُو خَصَلٍ^(١) وقول الآخر: [البسيط]

٢٦٨ - تَامَتْ فَوَازِكُ لَوْ يَخْرُجُكَ مَا صَنَعْتَ إِخْدَى نِسَاءِ بَنِي ذُهْلٍ بَنِي شَيْبَانَ^(٢) فمن تسكين المتحرك ضرورة. وأكثر ما تكون شرطاً في الماضي، وقد تأتي بمعنى «إن»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا﴾ [النساء: ٩] وقوله: [الطويل]

٢٦٩ - وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخْبَلِيَّةِ سَلِمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ لَسَلِمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ^(٣)^(٤)

ولا تكون مصدرية على الصحيح، وقد تُشَرَّبُ معنى التمني، فتنصب المضارع بعد «الفاء» جواباً لها؛ نحو: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ﴾ [الشعراء: ١٠٢] وسيأتي تحريره إن شاء الله تعالى.

قال ابن الخطيب^(٥): المشهور أن «لو» تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، ومنهم من أنكر ذلك، وزعم أنها لا تفيد إلا الرِّبْطَ، واحتج عليه بالآية والخبر:

أما الآية فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فلو أفادت كلمة «لو» انتفاء الشيء لانتفاء غيره لزم التناقض؛ لأن قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنه ما علم فيهم خيراً وما أسمعهم، وقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يفيد أنه ما أسمعهم، ولا تولوا؛ لكن عدم

= الحديث لابن قتيبة من غير إسناد وقال في «اللائي» منهم من يجعله من كلام عمر وقد كثر السؤال عنه ولم أفق له على أصل.

(١) البيت لعلمة الفحل. ينظر ديوانه: ١٣٤، ولامرأة من بني الحارث في الحماسة البصرية: ٢٤٣/١، وخزانة الأدب: ٢٩٨/١١، والدرر: ٩٧/٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١١٠٨، وشرح شواهد المغني: ٦٦٤/٢، ولعلمة أو لامرأة من بني الحارث في المقاصد النحوية: ٥٣٩/٢، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر: ٣٣٤/١، وتذكرة النحاة: ٣٩، والجنى الداني: ٢٨٧، وشرح الأشموني: ٥٨٤/٣، ومغني اللبيب: ٢٧١/١، وجمع الهوامع: ٦٤/٢، وينظر الدر المصون: ١٤٣/١.

(٢) البيت للقيط بن زرارة ينظر لسان العرب (تيم)، والعقد الفريد: ٨٤/٦، وجمهرة اللغة: ص ٤١١، وشرح الأشموني: ٥٨٤/٣، ٦٠٤، وشرح شواهد المغني: ٦٦٥/٢، ومغني اللبيب: ٢٧١/١، الدر المصون: (١٤٣/١).

(٣) سقط في أ. (٤) البيتان لتوبة بن الحمير. ينظر الأمالي: (١٩٧/١)، شرح ابن عقيل: (١٩٣/٣)، الحماسة: (٦٥/٢)، الدرر: (٨٠/٢)، والدر المصون: (١٤٣/١).

(٥) ينظر الفخر الرازي: ٧٤/٢.

التولي خير، فيلزم أن يكون قد علم فيهم خيراً، وما علم فيهم خيراً. وأما الخبر فقوله عليه الصلاة والسلام: «نعم الرَّجُلُ ضَهْنَبٌ»^(١) لو لم يَخَفِ اللَّهُ لم يَغْصِهِ فعلى مقتضى قولهم: يلزم أنه خاف الله وعصاه، وذلك مناقض، فعلمنا أن كلمة «لو» إنما تفيد الربط.

و «شاء» أصله: «شيء» على «فعل» بكسر العين، وإنما قلبت «الياء» «ألفاً» للقاعدة الممهدة ومفعوله محذوف تقديره: ولو شاء الله إذهاباً؛ وكثر^(٢) حذف مفعوله ومفعول «أراد»، حتى لا يكاد ينطق به إلا في الشيء المستغرب؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤]؛ وأنشدوا: [الطويل]

٢٧٠ - وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ^(٣)
واللام في «لذهب» جواب «لو».

واعلم أن جوابها يكثر دخول «اللام» عليه مثبتاً، وقد تحذف؛ قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

ويقل دخولها عليه منفياً بـ «مَا»، ويمتنع دخولها عليه منفياً بغير «مَا»؛ نحو: «لو قمت لَمْ أَقُمْ»؛ لتوالي لامين^(٤) فيثقل، وقد يحذف؛ كقوله: [الكامل]

٢٧١ - لَا يُلْفِكَ الرَّاجُوكَ إِلَّا مُظْهِرًا خُلِقَ الْكِرَامُ وَلَوْ تَكُونُ عَدِيمًا^(٥)
و «بسمهم» متعلق بـ «ذهب».

وقرىء^(٦) «لَا ذَهَبَ» فتكون «الياء» زائدة أو تكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى، ونحوه ﴿تَلَبُّثٌ بِالَّذِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] والمراد من السمع: الأسماع، أي: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة.

(١) صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى النمري، سبته الروم فابتاعته كلب فقدمت به مكة فابتاعه ابن جدعان فأعتقه، صحابي مشهور، شهد بدرأ له أحاديث، انفرد له البخاري بحديث ومسلم بثلاثة وعنه ابن عمر، وابن أبي ليلى وابن المسيب. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وثلاثين، وقال يعقوب بن سفيان: سنة أربع وصلى عليه سعد. ينظر الخلاصة: ٤٧٢/١ (٣١١٦)، تهذيب الكمال: ٦١٣/٢، تهذيب التهذيب: ٤٣٨/٤، تقريب التهذيب: ٣٧٠/١، الكاشف: ٣٢/٢.

(٢) في أ: وكثير.
(٣) البيت لإسحاق الخزيمي. ينظر الكامل: (٣/٤)؛ الدلائل: (١١٦)، شرح الحماسة: (١٠٥٣/٣)، الدر المصون: (١٤٣/١).

(٤) في أ: الاثنين.
(٥) البيت ينظر في جواهر الأدب: ص ٢٦٧، شرح التصريح: ٢٥٦/٢، وشرح شواهد المغني: ٢/٤٤٦، ومغني اللبيب: ٢٦١/١، والمقاصد النحوية: ٤٦٩/٤، وشرح الأشموني: ٦٠٠/٣، والجنى الداني: ص ٢٨٥، الدر المصون: (١٤٤/١).

(٦) قرأ بها ابن أبي عتبة.

انظر المحرر الوجيز: ١٠٤/١، والبحر المحيط: ٢٣٠/١، والدر المصون: ١٤٤/١.

وقيل: لذهب بما استفادوا من العِزِّ^(١) والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر.
 وقرأ ابن عامر وحزمة^(٢) «شاء» و «جاء» حيث كان بالإمالة.
 قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه جملة مؤكدة لمعنى ما قبلها، و «كُلُّ شيء» متعلق بـ «قدير» وهو «فعليل» بمعنى «فاعل»، مشتق من القُدرة، وهي القوة والاستطاعة، وفعلها «قَدَرَ» بفتح العين، وله ثلاثة عشر مصدرأ: «قُدْرَة» بتثنية القاف، و «مَقْدَرَة» بتثنية الدال، و «قَدْرًا»، و «قَدَرًا»، و «قُدْرًا»، و «قُدْرَانًا»، و «مَقْدِرًا»، و «مَقْدَرًا» و «قدير» أبلغ من «قادر»، قاله الزجاج.

وقيل: هما بمعنى واحد؛ قاله الهروي^(٣).

والشيء: ما صحَّ أن يعلم من وَجْه ويخبر عنه، وهو في الأصل مصدر «شاء» يشاء، وهل يطلق على المعدم والمستحيل؟ خلاف مشهور.

فَصْلٌ فِي بَيَانِ هَلِ الْمَعْدُومُ شَيْءٌ؟

استدل بعضهم بهذه الآية على أن المعدم شيء، قال: «لأنه - تعالى - أثبت القدرة على الشيء، والموجود لا قدرة عليه؛ لاستحالة إيجاد الموجود، فالذي عليه القدرة معدم وهو شيء، فالمعدم شيء».

والجواب: لو صحَّ هذا الكلام لزم أن ما لا يقدر الله عليه ألا يكون شيئاً، فالموجود إذا لم يقدر الله عليه وجب ألا يكون شيئاً.

فصل في بيان وصف الله تعالى بالشيء

قال ابن الخطيب: احتج جَهْمٌ بهذه الآية على أنه - تعالى - ليس بشيء. لأنه - تعالى - ليس بمقدور له، فوجب ألا يكون شيئاً، واحتج أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

قال: «لو كان الله - تعالى - شيئاً، لكان - تعالى - مثل نفسه، فكان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كذب، فوجب ألا يكون شيئاً؛ حتى لا تتناقض هذه الآية».

(١) في أ: الغي.

(٢) وكذلك أمال ابن ذكوان وخلف، والداجوني عن هشام.

انظر إتحاف فضلاء البشر: ٣٨١/١.

(٣) أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني أبو عبيد الهروي باحث من أهل هراة (في خراسان) له كتاب الغريبين، غريب القرآن وغريب الحديث، و «ولاة هراة». ينظر الأعلام: ١/ ٢١٠ (١١٢٠)، وفيات الأعيان: ٢٨/١، بغية الوعاة: ١٦١.

قال ابن الخطيب^(١): وهذا الخلاف في الاسم؛ لأنه لا واسطة بين الموجود والمعدوم، قال: واحتج أصحابنا بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٩].

وبقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] والمستثنى داخل في المستثنى منه، فوجب أن يكون شيئاً.

فصل في أن مقدور العبد مقدور لله تعالى

قال ابن الخطيب^(٢): احتج أصحابنا بهذه الآية على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى، خلافاً لأبي هاشم وأبي علي.

وجه الاستدلال: أن مقدور العبد شيء، وكل شيء مقدور لله - تعالى - بهذه الآية، فيلزم أن يكون مقدور العبد مقدوراً لله تعالى.

فصل في جواز تخصيص العام

تخصيص العام جائز في الجملة^(٣)، وأيضاً تخصيص العام بدليل

(١) ينظر الرازي: ٧٤/٢.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) والعام من حيث هو عام يقبل التخصيص، فإن العلماء إلا شذوذاً منهم متفقون على هذا، وهو مقطوع به في الشريعة المطهرة، حتى قيل: ليس في القرآن عام غير مخصص، إلا في ستة مواضع فقط، وخلاف العلماء في جواز تأخير المخصص عن العام وعدمه: فالحنفية يوجبون كونه مقارناً، وغيرهم يجيزون تأخيره، وهو ينبنى على الخلاف في قطعية العام؛ فالحنفية لما قالوا بقطعية العام والتخصيص يصيره ظنياً، فهو مغير له من القطع إلى الظن، فيكون بيان تغيير، وهو لا يجوز تأخيره، وعند غيرهم: العام لكونه ظنياً لا يغيّره المخصص، بل يقرر الاحتمال الذي كان فيه من قبل، فيكون حينئذ بيان تقرير فيجوز تأخيره، ثم التخصيص الذي قلنا: إنه يلحق العام، وهو عبارة عن قصر العام على بعض متناولاته، بمعنى: إخراج بعض ما كان داخلاً تحت العام، على تقدير عدم المخصص، وهو بعد أن يلحقه التخصيص يبقى حجة، فيما عدا المخرج؛ كما كان - مثل ما روي أن فاطمة - رضي الله تعالى عنها - احتجّت على أبي بكر - رضي الله عنه - في ميراث أبيها، بعموم آية الوصية مع أن القاتل والكافر خصاً منها، ولم ينكر أحد من الصحابة احتجاجها، بل عدل أبو بكر - رضي الله عنه - في حرمانها إلى الاحتجاج بقوله - عليه السلام - «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ولا نورث». والعام في نظر أهل الأصول هو: عرفه أبو الحسين البصري في «المعتمد» بقوله: «هو اللفظ المستغرق لما يصلح له». وزاد الإمام الرازي على هذا التعريف في «المحصول»: «... بوضع واحد» وعليه جرى البيضاوي في «منهاج».

وعرفه الإمام الحرمين الجويني في «الورقات» بقوله: «العام ما عمّ شيئين فصاعداً».

وإلى ذلك ذهب الإمام الغزالي؛ حيث عرفه بأنه: اللفظ الواحد الدال من جهة واحدة على شيئين فصاعداً...

العقل^(١)، فإن قيل: إذا كان اللَّفْظُ موضوعاً للكل، ثم تبين أن الكل غير مراد كان كذباً، وذلك يوجب الطعن في كل القرآن.

والجواب: أن لفظ «الكل» كما أنه يستعمل في المجموع، فقد يستعمل مجازاً في الأكثر، وإذا كان ذلك مجازاً مشهوراً في اللُّغة لم يكن استعمال اللفظ فيه كذباً، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه - تعالى - لما بين أحكام الفرق الثلاثة - أعني المؤمنين والكفار والمنافقين - أقبل عليهم بالخطاب وهو من باب «الالتفات».

= ويرى «سيف الدين الأميدي»: أن العام هو اللَّفْظُ الواحد الدَّالُّ على قَسْمَيْنِ فصاعداً مطلقاً معاً.

واختار ابن الحاجب أن العام ما دلَّ على مسميات؛ باعتبار أمر اشتركت فيه مطلقاً.

ويرى أبو بكر الجصاص من الحنفية أن العام ما ينتظم جمعاً من الأسماء أو المعاني.

وعرفه الإمام فخر الدين البزدوي بأنه: «كل لَفْظٍ يَنْتَظِمُ جمعاً من الأسماء لَفْظاً أو معنى».

ويرى الإمام السَّفيُّ: أنه ما يتناول أفراداً متَّفِقَةً الخُدُودِ على سبيل الشُّمولِ.

ينظر البرهان لإمام الحرمين: ٣١٨/١، البحر المحيط للزركشي: ٥/٣، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١٨٥/٢، سلاسل الذهب للزركشي: ص ٢١٩، التمهيد للإسنوي: ص ٢٩٧، نهاية السؤل له: ٣١٢/٢، زوائد الأصول له: ص ٢٤٨، منهاج العقول للبدخشي: ٧٥/٢، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري: ص ٦٩، التحصيل من المحصول للأرموي: ٣٤٣/١، المنحول للغزالي: ص ١٣٨، المستصفى له: ٣٢/٢، حاشية البناني: ٣٩٢/١، الإبهاج لابن السبكي: ٨٢/٢، الآيات البيّنات لابن قاسم العبادي: ٢٥٤/٢، تخرّيج الفروع على الأصول للزنجاني: ص ٣٢٦، حاشية العطار على جمع الجوامع: ٥٠٥/١، المعتمد لأبي الحسين: ١٨٩/١، إحكام الفصول في أحكام الأصول للبايجي: ص ٢٣٠، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٣٧٩/٣، التحرير لابن الهمام: ص ٦٤، تيسير التحرير لأمر بادشاه: ١٩١/١، ميزان الأصول للسمرقندي: ٣٨٥/١، كشف الأسرار للنسفي: ١٥٩/١، حاشية الفتازاني والشرّيف على مختصر المنتهى: ١٠١/٢، شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر الفتازاني: ٣٨/١، حاشية نسّامات الأسحار لابن عابدين: ص ٦٨، شرح المنار لابن ملك: ص ٤٥، الوجيز للكرامستي: ص ١١، الموافقات للشاطبي: ٢٦٠/٣، تقريب الوصول لابن جُزَيّ: ص ٧، إرشاد الفحول للشوكاني: ص ١١٢، شرح مختصر المنار للكوراني: ص ٤٥، نشر البنود للشنقيطي: ٢٢/١، فواتح الرحموت لابن نظام الدين الأنصاري: ١/٢٥٥، شرح الكوكب المنير للفتوح: ص ٣٤٣.

(١) كما يعلم بضرورته تخصيص الله - تعالى - عن قوله تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾، ونظيره: تخصيص الصبي والمجنون عن خطاب التكليف؛ لعدم فهمهما إياه. ومنهم من منع ذلك، وهو باطل، إذ العقل لما عارض العموم، امتنع إعمالهما وتركهما وإعمال النقل فقط؛ إذ ترجّحه على العقل الذي هو أصله يقدح فيهما، فتعيّن إعمال العقل فقط، فإن أراد بالمخصّص المؤثر في التخصيص، لم يكن العقل مخصّصاً، ولا الكتاب، ولا الستة أيضاً؛ إذ الإرادة هي المؤثرة في التخصيص. ينظر التحصيل: ٣٨٦/١.

«يا» حرف نداء وهي أم الباب.

وزعم بعضهم أنها اسم فعل، وقد تحذف نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

وينادى بها المندوب والمستغاث. قال أبو حيان^(١): «وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها».

وزعم بعضهم أن قراءة^(٢): «أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ» [الزمر: ٩] بتخفيف الميم أن الهمزة فيه للنداء، وهو غريب، وقد يراد بها مجرد التنبيه فيليها الجمل الاسمية والفعلية، قال تعالى: ﴿أَلَا يَا اسْجُدُوا﴾ [النمل: ٢٥] بتخفيف ألا؛ وقال الشاعر: [الطويل]

٢٧٢ - أَلَا يَا اسْقِيَانِي قَبْلَ غَارَةِ سِنَجَالٍ

وقال آخر: [البسيط]

٢٧٣ - يَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمْ وَالصَّالِحِينَ عَلَى سَمْعَانَ مِنْ جَارٍ^(٤)

و «أي» اسم منادى في محل نصب، ولكنه بني على «الضم»؛ لأنه مفرد معرفة، وزعم الأخفش أنها هنا موصولة، وأن المرفوع بعدها خبر مبتدأ مضمرة، والجملة صلة، والتقدير: «يا الَّذِينَ هُمْ النَّاسُ»، والصحيح الأول، والمرفوع بعدها صفة لها، [والمشهور]^(٥): «يلزم رفعه، ولا يجوز نصبه على المحل خلافاً للمازني».

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان بن يوسف، الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر النحوي اللغوي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي، الجياني، الغرناطي، ثم المصري. ولد في ٦٥٢ قرأ العربية علي رضي الدين القسطنطيني، وبهاء الدين ابن النحاس وغيرهما، سمع نحواً من أربعمئة شيخ، وكان ظاهرياً فانتحى إلى الشافعية، له مصنفات منها «البحر المحيط في التفسير» والنهر من البحر، «وشرح التسهيل» «وارتشاف الضرب». سمع منه الأئمة العلماء، وأضر قبل موته بقليل توفي بالقاهرة في صفر سنة خمس وأربعين وسبعمئة.

انفرط ابن قاضي شهبة: ٦٧/٣، الأعلام: ٢٦/٨، ط. السبكي: ٣١/٦، الدرر الكامنة: ٣٠٢/٤.

(٢) ستأتي في الزمر آية (٩).

(٣) صدر بيت للشماخ بن ضرار وعجزه:

وقبل منايا غاديات وآجال

ينظر ديوانه: (٤٥٦) وهو من شواهد الكتاب: (٣٠٧/٢)، ابن يعيش: (١١٥/٨)، الدرر المصون: (١٤٤/١).

(٤) ينظر البيت في أمالي ابن الحاجب: ص ٤٤٨، الإنصاف: ١١٨/١، الجني الداني: ص ٣٥٦، خزنة الأدب: ١٩٧/١١، جواهر الأدب: ص ٢٩٠، الدرر: ٢٥/٣، ١١٨/٥، رصف المباني: ص ٣، ٤، شرح أبيات سيبويه: ٣١/٢، شرح شواهد المغني: ٧٩٦/٢، شرح المفصل: ٢٤/٢، ٤٠، الكتاب: ٢١٩/٢، اللامات: ص ٣٧، ومغني اللبيب: ص ٣٧٣/٢، المقاصد النحوية: ٢٦١/٤، همع الهوامع: ١٧٤/١، ٧٠/٢، والكامل: (٤٧)، السمط: (٥٤٦)، والدر المصون: (١٤٥/١).

(٥) سقط في أ.

و «ها» زائدة للتنبيه لازمة لها، والمشهور فتح هَائِهَا، ويجوز ضمُّها إِتِّبَاعاً للياء، وقد قرأ ابن عامر^(١) بذلك في بعض المواضع نحو «أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ» [النور: ٣١] والمرسوم يساعده.

ولا توصف «أي» هذه إلا بما فيه الألف واللام، أو بموصول هما فيه، أو باسم إشارة نحو: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] وقال الشاعر: [الطويل]

٢٧٤ - أَلَا أَيُّهَذَا النَّابِغُ السَّيِّدُ إِنَّنِي عَلَى نَائِيهَا مُسْتَبْسِلٌ مِنْ وَرَائِهَا^(٢)

وفسر بعضهم يا زيد: أنادي زيداً، وأخطب زيداً، وهو خطأ من وجوه:

أحدها: أن قوله: «أنادي زيداً» خبر يحتمل الصدق والكذب، وقوله: يا زيد لا يحتملها.

وثانيها: أن قولنا: «يا زيد» يقتضي أن زيداً منادى في الحال، و «أنادي زيداً» لا يقتضي ذلك.

وثالثها: أن قولنا: «يا زيد» يقتضي صيرورة زيد مخاطباً هذا الخطاب، و «أنادي زيداً» لا يقتضي ذلك؛ لأنه لا يمكن أن يخبر إنساناً آخر بأن أنادي زيداً.

ورابعها: أن قولنا: أنادي زيداً إخبار عن النداء، والإخبار عن النداء غير النداء.

واعلم أن «يا» حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وإن كان لنداء القريب، [لكن بسبب أمر مهم جداً، وأما نداء القريب فله: «أي» والهمزة^(٣)] ثم استعمل في نداء من سها وغفل وإن قرب، تنزيلاً له منزلة البعيد.

فإن قيل: فلم يقول الداعي: «يا رب»، «يا الله» وهو أقرب إليه من حبل الوريد؟

قلنا: هو استبعاد لنفسه من مَظَانِّ الرُّلُقَى، إقراراً على نفسه بالتقصير.

و «أي» وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام كما أن «ذو» الذي وصلة إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل، وهم اسم مبهم، فافتقر إلى ما يزيل إبهامه، فلا بد وأن يردفه اسم جنس، أو ما جرى مجراه، ويتصف به حتى يحصل المقصود بالنداء.

ول «أي» معانٍ آخر كالاستفهام، والشرط، وكونها موصولة، ونكرة موصوفة لنكرة، وحالاً لمعروفة. و «النَّاس» صفة «أي»، أو خبر مبتدأ محذوف حسب ما تقدم من الخلاف.

(١) ستأتي في النور ٣١.

(٢) البيت للفضل بن الأخضر. ينظر الحماسة: (٣٠١/١)، المقرب: (١٧٦/١)، والدر المصون: (١/١٤٥).

(٣) سقط في أ.

و «اعبدوا ربكم» جملة أمرية لا محلّ لها؛ لأنها ابتدائية.

«الَّذِي خَلَقَكُمْ» فيه ثلاثة أوجه:

أظهرها: نصبه على التثنية لـ «ربكم».

الثاني: نصبه على القطع.

الثالث: رفعه على القطع أيضاً. وقد تقدّم معناه.

فصل في تقسيم ورود النداء في القرآن الكريم

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ» خطاب لأهل «مكة»، و «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» لأهل «المدينة»^(١)، ورد على قوله هذه الآية بأن البقرة مدنية.

وقال غيره: كلّ ما كان في القرآن من قوله: «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني.

وأما قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمنه مكّي، ومنه [مدني]^(٢) وهذا خطاب عام؛ لأنه لفظ جمع معرف، فيفيد العموم، لكنه مخصوص في حقّ ما لا يفهم، كالصّبي، والمجنون، والغافل، ومن لا يقدر، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومنهم من قال: إنه مخصوص في حق العبيد، لأنّ الله - تعالى - أوجب عليهم طاعة مواليتهم، واشتغالهم بطاعة المولى كمنعهم عن الاشتغال بالعبادات، والأمر الدّال على وجوب طاعة المولى أخصّ من الأمر الدّال على وجوب العبادة، والخاصّ مقدّم على العام، والكلام على هذا مذكور في أصول الفقه.

قال ابن الخطيب: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يتناول جميع الناس الموجودين في ذلك العصر، فهل يتناول الذين سيوجدون بعد ذلك أم لا؟

قال: «والأقرب أنه لا يتناولهم؛ لأن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب مُشَافِهة، وخطاب المُشَافِهة مع المعدوم لا يجوز»، وأيضاً فالذين سيوجدون ما كانوا موجودين في تلك الحالة، وما لا يكون موجوداً لا يكون إنساناً، فلا يدخل تحت قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

فإن قيل: فوجب أن يتناول أحداً من الذين وجدوا بعد ذلك الزمان، وإنه باطل قطعاً.

قلنا: لو لم يوجد دليل منفصل لكان الأمر كذلك، إلّا أنا عرفنا بالتّواتر من دين

(١) ذكر هذا الأثر السيوطي في «الدر المنثور» (٧٣/١) عن ابن مسعود وعزاه للبخاري والحاكم وابن مردويه. وعزاه أيضاً لأبي عبيد وابن أبي شبة وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر وأبي الشيخ في «التفسير» عن علقمة.

(٢) سقط في أ.

محمد ﷺ أن تلك الخطابات ثابتة في حَقٍّ من سيوجد بعد ذلك إلى قيام الساعة؛ فلهذه الدلالة المنفصلة أوجبنا العموم.

فصل في المراد بالعبادة في القرآن

قال ابن عباس رضي الله عنه: «كُلَّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد».

وقال ابن الخطيب^(١): قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر كل واحد بالعبادة، فهل يفيد أمر الكل بكل عبادة؟ الحق لا؛ لأن قوله: ﴿أَعْبُدُوا﴾ معناه: أدخلوا هذه الماهية في الوجود، فإذا أتوا بفرد من أفراد هذه الماهية في الوجود فقد أدخلوا الماهية^(٢) في الوجود؛ لأن الفرد من أفراد الماهية مشتمل على الماهية، لأن هذه العبادة عبارة عن العبادة مع قيد كونها هذه، ومتى وجد المركب فقد وجد فيه قيده، فالآتي بفرد من أفراد العبادة أتى بالعبادة، وأتى بتمام ما اقتضاه قولنا: «اعبدوا»، وإذا كان كذلك وجب خروجه عن العهدة.

فصل في قول منكري التكليف

ذكر ابن الخطيب^(٣) عن منكري التكليف أنهم لا يجوزون ورود الأمر من الله - تعالى - بالتكليف لوجوه:

منها أن الذي ورد به التكليف: إما أن يكون قد علم الله في الأزل^(٤) وقوعه، أو علم أنه لا يقع، أو لم يعلم لا هذا ولا ذاك، فإن كان الأول كان واجب الوقوع، فلا فائدة في الأمر به، وإن علم أنه لا يقع كان ممتنع الوقوع، فكان الأمر به أمراً بإيقاع الممتنع، وإن لم يعلم لا هذا ولا ذاك كان ذلك قولاً بالجهل على الله، وهو محال.

وأيضاً فورود الأمر بالتكليف إما أن يكون لفائدة، أو لا لفائدة، فإن كان لفائدة إما أن يعود إلى المعبود، أو إلى العابد^(٥)، أما إلى المعبود فمحال؛ لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته لا يكون كاملاً بغيره، ولأننا نعلم بالضرورة أن الإله العالي على الدهر والزمان يستحيل أن ينتفع بركوع العبد وسجوده. وإن كانت الفائدة تعود إلى العابد^(٦) فمحال؛ لأن جميع الفوائد محصورة في حصول اللذة ودفع الألم، وهو - سبحانه وتعالى - قادر على تحصيل كل ذلك للعبد، من غير واسطة هذه المشاق، فيكون توسطها عبثاً،

(١) ينظر الرازي: ٧٧/٢.

(٢) الماهية: تطلق غالباً على الأمر المتعقل، مع قطع النظر عن الوجود الخارجي؛ والأمر المتعقل من حيث إنه مقول في جواب «ما هو» يسمى: ماهية؛ ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى: حقيقة؛ ومن حيث إنه محل الحوادث: جوهرأ. انظر التعريفات للجرجاني: ص (٢٠٥).

(٣) ينظر الرازي: ٧٨/٢.

(٤) في أ: العباد.

(٥) في أ: العباد.

(٦) في أ: الأولى.

والعبث غير جائز على الحكيم. وأيضاً إنَّ العبد غير موجد لأفعاله؛ لأنه غير عالم بتفاصيلها، ومن لا يعلم تفاصيل الشيء لا يكون موجداً له، وإذا لم يكن العبد موجداً لأفعال نفسه، فإن أمره بذلك الفعل حالة ما خلقه فيه فقد أمره بتحصيل الحاصل، وإن أمره حالة ما لم يخلقه فيه فقد أمره بالمحال، وكل ذلك باطل.

وأجاب ابن الخطيب بوجهين:

أحدهما: أن أصحاب هذه الشبهة، أوجبوا بما ذكروه اعتقاد عدم التكليف، فهذا التكليف ينفي التكليف، وإنه متناقض.

والثاني: أن عندنا يحسن من الله كل شيء، سواء كان ذلك تكليف ما لا يطاق أو غيره؛ لأنه - تعالى - خالقُ مالك، والمالك لا اعتراض عليه في فعله.

والخلق اختراع الشيء على غير مثال سبق، وهذه الصفة ينفرد بها الباري تعالى، ويُطلق أيضاً على «التقدير»؛ قال زهير: [الكامل]

٢٧٥ - وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَغَضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(١)

وقال الحجاج: «ما خلقتُ إلا فريتُ ولا وعدتُ إلا وفيتُ» وهذه الصفة لا يختص بها الله تعالى، وقد غلط أبو عبد الله البصري في أنه لا يطلق اسم «الخالق» على الله - تعالى؛ قال: «لأنه مُحالٌ، وذلك أن التقدير والتسوية في حق الله ممتنعان، لأنهما عبارة عن التفكير والظن»، وكأنه لم يسمع قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤] ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وكأنه لا يعلم أن الخلق يكون عبارة عن الإنشاء والاختراع.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ محله العطف على المنصوب في «خلقكم» و «من قبلكم» صلة «الذين»، فيتعلق بمحذوف على ما تقرر. و «من» لابتداء الغاية، واستشكل بعضهم وقوع «من قبلكم» صلة من حيث إن كل ما جاز أن يخبر به جاز أن يقع صلة، و «من قبلكم» ناقص ليس في الإخبار به عن الأعيان فائدة إلا بتأويل، فكذاك الصلة.

قال: وتأويله أن ظرف الزمان إذا وصف صح الإخبار والوصل به تقول: «نحن في يوم طيب»، فيكون التقدير هنا - والله أعلم - «والذين كانوا من زمان قبل زمانكم».

وقال أبو البقاء^(٢): «والتقدير: «والذين خلقهم من قبل خلقكم، فحذف الخلق، وأقام الضمير مقامه».

وقرأ زيد بن علي: «وَالَّذِينَ مَن قَبْلَكُمْ» - بفتح الميم -.

(١) ينظر البيت في ديوانه: (٩٤)، المحرر الوجيز: (١١٤/١)، الرازي: (٨٩/١)، روح المعاني: (١/١٨٤)، والقرطبي: (١٥٧/١)، والدر المصون: (١٤٦/١).

(٢) ينظر الاملاء: ٢٣/١.

قال الزمخشري^(١): ووجهها على إشكالها أن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصَلَّتِهِ تأكيداً، كما أقحم جرير في قوله: [البسيط]

٢٧٦ - يَا تَيْمُ تَيْمَ عَدِي لَا أَبَا لَكُمْ^(٢)

تيمماً الثاني بين الأول، وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في نحو: «لَا أَبَا لَكَ» قيل: هذا الذي قاله مذهب لبعضهم؛ ومنه قوله: [الطويل]

٢٧٧ - مِنَ النَّفَرِ اللَّاءِ الَّذِينَ إِذَا هُمْ يَهَابُ اللَّئَامُ حَلَقَةَ الْبَابِ قَعَقَعُوا^(٣)

ف «إذا» وجوابها صلة «اللاء»، ولا صلة للذين؛ لأنه توكيد للأول، إلا أن بعضهم يرد هذا القول، ويجعله فاسداً من جهة أنه لا يؤكد الحرف إلا بإعادة ما اتصل به، فالموصول أولى بذلك، وخرج الآية والبيت على أن «مَنْ قَبْلَكُمْ» صلة للموصول الثاني، والموصول الثاني وصلته خبر لمبتدأ محذوف، والمبتدأ وخبره صلة الأول، والتقدير: «وَالَّذِينَ هُمْ مَنْ قَبْلَكُمْ»، وكذا [البيت]^(٤) فجعل «إذا» وجوابها صلة [لِلَّذِينَ، وَالَّذِينَ] خبر لمبتدأ محذوف، وذلك المبتدأ وخبره صلة^(٥) لـ «اللاء»، ولا يخفى ما في هذا التعسف.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

«لعل» واسمها وخبرها، وإذا ورد ذلك في كلام الله - تعالى - فللناس فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن «لعل» على بابها من الترجي والإطماع، ولكن بالنسبة إلى المخاطبين، أي: لعلكم تتقون على رجائكم وطمعكم؛ وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَوْا﴾ [طه: ٤٢]: أي: اذهباً على رجائكم.

(١) صدر بيت وعجزه:

لا يلقى نكمتكم في سوء عَمَرٍ

ينظر ديوانه: (٢١١)، المقتضب: (٢٢٩/٤)، الخصائص: (٣٤٥/١)، النوادر: (١٣٩)، الأزهية: (٢٤٧)، العيني: (٢٤٠/٤)، أمالي ابن الشجري: (٨٣/٢)، والكشاف: (٩١/١)، والدر المصون: (١٤٦/١).

(٢) ينظر الكشاف: ٩١/١.

(٣) البيت لأبي الربيس ينظر في خزنة الأدب: ٧٨/٦، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ولسان العرب (لوى)، الأشباه والنظائر: ٣٠٨/٤، والحيوان: ٤٨٦/٣، والعقد الفريد: ٣٤٣/٥، الدر المصون: (١٤٦/١).

(٤) سقط في أ.

(٥) سقط في أ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا لِلتَّغْلِيلِ: أَي: اْعْبُدُوا رَبَّكُمْ؛ لَكِنِّي تَتَّقُوا، وَبِهِ قَالَ قُطْرُبٌ، وَالطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُمَا؛ وَأَنْشَدُوا: [الطويل]

٢٧٨ - وَقُلْتُمْ لَنَا: كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوَوَّثَقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهْدُكُمْ كَلَمَعَ سَرَابٍ فِي الْمَلَأِ مُتَأَلِّقٍ^(١) أَي: لِنَكْفُ الْحَرْبَ^(٢)، وَلَوْ كَانَتْ «لَعَلَّ» لِلتَّرْجِي، لَمْ يَقُلْ: وَوَوَّثَقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ.

وَالثَّلَاثُ: أَنَّهَا لِلتَّعَرُّضِ لِلشَّيْءِ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَفْعَلُوا ذَلِكَ مَتَعَرِّضِينَ لِأَن تَتَّقُوا.

وَقَالَ الْقَفَّالُ: «لَعَلَّ» مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَكَرُّرِ الشَّيْءِ لِقَوْلِهِمْ: عَلَلًا بَعْدَ نَهْلٍ، وَ «اللام» فِيهَا هِيَ «لام» التَّأْكِيدِ كَاللَّامِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي «لَقَدْ»، فَأَصْلُ «لَعَلَّ»: «عَلَّ»؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «عَلَّكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا»: أَي لَعَلَّكَ. وَإِنْ كَانَتْ حَقِيقَةً فِي التَّكَرُّرِ وَالتَّأْكِيدِ، كَانَ^(٣) قَوْلُ الْقَائِلِ: أَفْعَلْ كَذَا لَعَلَّكَ تَظْفَرُ بِحَاجَتِكَ. مَعْنَاهُ: أَفْعَلْهُ؛ فَإِنْ فَعَلْتَ لَهُ يُوَكِّدُ طَلْبَكَ لَهُ وَيَقْوِيكَ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ مَتَعَلِّقَةٌ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى بِ «اعْبُدُوا» أَي: اْعْبُدُوا عَلَى رَجَائِكُمُ التَّقْوَى، أَوْ لِتَتَّقُوا، أَوْ مَتَعَرِّضِينَ لِلتَّقْوَى، وَإِلَيْهِ مَالُ الْمَهْدَوِيِّ، وَأَبُو الْبَقَاءِ.

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «[يَتَجَهَّ]^(٤) تَعَلَّقَهَا بِخَلْقِكُمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَهُوَ بِحَيْثُ يَرِجَى أَنْ يَكُونَ مُتَّقِيًا»، إِلَّا أَنَّ الْمَهْدَوِيَّ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: لِأَنَّ مِنْ ذُرَاهُ اللَّهِ لَجَهَنَّمَ لَمْ يَخْلُقْهُ لِيَتَّقِيَ، وَلَمْ يَذْكُرِ الزَّمْخَشَرِيَّ غَيْرَ تَعَلَّقَهَا بِ «خَلْقِكُمْ» ثُمَّ رَتَبَ عَلَى ذَلِكَ سَوَالِينَ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَمَا خَلَقَ الْمُخَاطَبِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، كَذَلِكَ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِذَلِكَ فَلَمْ خَصَّ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ قَبْلِهِمْ؟

وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِرْهُ عَلَيْهِمْ، بَلْ غَلَّبَ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْغَائِبِينَ فِي اللفظِ وَالْمَعْنَى عَلَى إِرَادَةِ الْجَمِيعِ.

السُّؤَالُ الثَّانِي: هَلَا قِيلَ: «تَعْبُدُونَ» لِأَجْلِ «اعْبُدُوا» أَوْ اتَّقُوا لِمَكَانِ «تَتَّقُونَ» لِيَتَجَاوَبَ^(٥) طَرَفَا النِّظْمِ؟

وَأَجَابَ بِأَنَّ التَّقْوَى لَيْسَتْ غَيْرُ الْعِبَادَةِ حَتَّى يُوْدِيَ ذَلِكَ إِلَى تَنَافُرِ النَّظْمِ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى قِصَارَى أَمْرِ الْعَابِدِ، وَأَقْصَى جِهَدِهِ.

(١) يَنْظُرُ الْبَيْتَانِ فِي أَمَالِي ابْنِ الشَّجَرِيِّ: (٥١/١)، الطَّبْرِيُّ: (١٩٧/١)، وَرُوحُ الْمَعَانِي: (١٨٦/١)، الْقُرْطُبِيُّ: (١٥٨/١)، الدَّرُ الْمَصُونُ: (١٤٧/١).

(٢) فِي أ: الْحُرُوبِ.

(٤) سَقَطَ فِي أ.

(٥) فِي أ: لِيَتَجَاوَزَ.

(٣) فِي أ: وَأَنْ.

قال أبو حَيَّان^(١): وأما قوله: ليتجاوب طرفا النَّظْم، فليس بشيء؛ لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفي النظم، إذ يصير اللفظ: اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون، وهذا بعيد في المعنى؛ إذ هو مثل: اضرب زيدا لعلك تضربه، واقصد خالداً لعلك تقصده، ولا يخفى ما في ذلك من غثاثة اللفظ، وفساد المعنى، والذي يظهر به صحته أن يكون «لعلكم تتقون» متعلقاً بقوله: «اعبدوا» فالَّذي نودوا لأجله هو الأمر بالعبادة، فناسب أن يتعلّق بها ذلك، وأتى بالموصول وصلته في سبيل التوضيح، أو المدح الذي تعلقت به العبادة، فلم يُجأ بالموصول ليحدث^(٢) عنه، بل جاء في ضمن المقصود بالعبادة، فلم يكن يتعلّق به دون المقصود، وأجاب بعضهم عن كلام الزمخشري بأنه جعل «لعل» متعلقة بـ «خلقكم» لا بـ «اعبدوا»، فلا يصير التقدير: اعبدوا لعلكم تعبدون، وإنما التقدير: اعبدوا الذي خلقكم لعلكم تعبدون؛ أي خلقكم لأجل العبادة، يوضحه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وفي «لَعَلَّ» لغات كثيرة، وقد يُجرُّ بها؛ قال: [الوافر]

٢٧٩ - لَعَلَّ اللَّهُ فَضْلَكُمْ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ أَنْ أَمْكُمُ شَرِيحاً^(٣)

ولا تنصب الاسمين على الصحيح، وقد تدخل «أَنَّ» في خبرها؛ حملاً على «عَسَى»؛ قال: [الطويل]

٢٨٠ - لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تُلِمَ مُلِمَةً.....^(٥)

وقد تأتي للاستفهام والتعليل كما تقدم، ولكن أصلها أن تكون للترجي والطمع في المحبوبات والإشفاق من المكروهات كـ «عسى»، وفيها كلام طويل يأتي في غضون هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

و «تَتَّقُونَ» أصله «توتقيون»؛ لأنه من «الوقاية»، فأبدلت الواو ياء قبل تاء الافتعال، وأدغمت فيها، وقد تقدم ذلك في «المتقين»، ثم استثقلت «الضمة» على «الياء» فقدرت، فسكنت الياء والواو بعدها، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وضمت القاف لتجانسها، فوزنه^(٦) الآن «تفتعون»، وهذه الجملة أعني «لعلكم تتقون» لا يجوز أن تكون حالاً؛ لأنها طلبية، وإن كانت عبارة بعضهم ثوهم ذلك، ومفعول «تتقون» محذوف أي: تتقون الشرك، أو النار.

(١) ينظر البحر المحيط: ٢٣٥/١. (٢) في أ: ليحذر.

(٣) في أ: مريم.

(٤) ينظر في خزنة الأدب: ٤٢٢/١٠، ٤٢٣، ٤٣٠، وجواهر الأدب: ص ٤٠٣، وأوضح المسالك: ٣/ ٤٧، وشرح ابن عقيل: ص ٣٥١، وشرح الأشموني: ٢/ ٢٨٤، وشرح التصريح: ٢/ ٢، وشرح قطر الندى: ص ٢٤٩، والمقاصد النحوية: ٣/ ٢٤٧، والمقرب: ١/ ١٩٣، ووصف المباني: ص ٣٧٥، والجنى الداني: ص ٥٨٤، والعيني: (٣/ ٢٤٧)، والدر المصون: (١/ ١٤٧).

(٥) ينظر الدر المصون: ١/ ١٤٨. (٦) في أ: فوزنها.

فَصْلٌ فِي الاستدلال بالآية على الصانع

هذه الآية تدلّ على الصانع القادر الفاعل المختار، سأل بعض الدهرية الشافعي - رضي الله تعالى عنه - ما الدليل على الصانع؟ فقال: ورقة الفِرْصَاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم.

قال: فتأكلها دودة القَرّ فيخرج منها الإبريسم، ويأكلها النحل فيخرج منها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، وتأكلها الطِّبَاء فينعقد في نوافجها المسك، فمن الذي جعلها لذلك مع أن الطّبع واحد؟ فاستحسنوا ذلك وآمنوا على يديه، وكانوا سبعة عشر.

وسئل أبو حنيفة - رضي الله عنه - عن الصّانع فقال: الوالد يريد الذكر، فيكون أنثى، وبالعكس فيدلّ على الصّانع. وتمسك أحمد بن حنبل بقلعة حصينة مَلْسَاء لا فُرْجَةَ فيها، ظاهرها كالفضّة المذّابة، وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير، فلا بُدّ من الفاعل؛ عنى بالقلعة البيضة، وبالحيوان الفرخ.

وقال آخر: عرفت الصّانع بنحلة بأحد طرفيها عسل، وبالأخر لسع، والعسل مقلوب لسع.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وخلق الذين من قبلهم لا يقتضي وجوب العبادة عليهم.

والجواب: أن الأمر وإن كان على ما ذكر ولكن علمهم بأن الله - تعالى - خلقهم كعلمهم بأنه خلق من قبلهم؛ لأن طريقة العلم بذلك واحدة.

وأيضاً أن من قبلهم كالأصول لهم، وخلق الأصول يجري مجرى الإنعام على الفروع، كأنه - تعالى - يذكرهم عظيم إنعامه عليهم، أي: لا تظن أنني إنما أنعمت عليك حين وجدت، بل كنت منعماً عليك قبل أن وجدت بألوف سنين، بسبب أنني كنت خالقاً لأصولك.

فإن قيل: إذا كانت العبادة تقوى فقلوه: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما وجهه؟

والجواب من وجهين:

الأول: لا نسلم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى؛ لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المَضَارّ، والعبادة فعل المأمور به، ونفس هذا الفعل ليس هو نفس الاحتراز، بل موجب الاحتراز، فإنه - تعالى - قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لتحترزوا به عن عقابه.

وإذا قيل في نفس الفعل: «إنه اتقاء»، فذلك غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لما اتصل أحد الأمرين بالآخر أجري اسمه عليه.

الثاني: أنه - تعالى - إنما خلق المكلفين لكي يتقوا ويطيعوا، على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكانه - تعالى - أمر بعبادة الرب الذي خلقهم لهذا الغرض، وهذا التأويل لائق بأصول المعتزلة.

فَصْلٌ فِي الْقَرَاءَاتِ فِي الْآيَةِ

قرأ أبو عمرو^(١): خَلَقَكُمْ بِالْإِدْغَامِ، وقرأ ابن السَّمِيعِ^(٢): «وَخَلَقَ مَنْ قَبْلَكُمْ».

قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ يحتمل النصب والرَّفع، فالنصب من خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون نصبه على القطع.

الثاني: أنه نعت لربكم.

الثالث: أنه بدل منه.

الرابع: أنه مفعول لـ «تتقون»، وبه قال أبو البقاء.

الخامس: أنه نعت النعت، أي: الموصول الأول، لكن المختار أن النعت لا ينعت، بل إن جاء ما يوهم ذلك جعل نعتاً للأول، إلا أن يمنع مانع فيكون نعتاً للنعت، نحو قولهم: «يا أيها الفارس ذو الجمة»^(٣) فذو الجمة نعت للفارس لا لـ «أي»؛ لأنها لا تنعت إلا بما تقدم ذكره.

والرَّفع من وجهين:

أحدهما وهو الأصح: أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الذي جعل.

والثاني: أنه مبتدأ، وخبره قوله بعد ذلك: فلا تجعلوا لله، وهذا فيه نظر من

وجهين:

أحدهما: أن صلته ماضية فلم يشبه الشرط، فلا يزداد في خبره «الفاء».

الثاني: عدم الرابط، إلا أن يقال بمذهب الأخفش، وهو أن يجعل الربط مكرر الاسم الظاهر إذا كان بمعناه نحو: «زيد قام أبو عبد الله» إذا كان أبو عبد الله كنية لزيد، وكذلك هنا أقام الجلالة مقام الضمير، كأنه قال: الذي جعل لكم، فلا تجعلوا له أنداداً.

و «الذي» كلمة موضوعة للإشارة إلى المفرد^(٤) عند محاولة تعريفه بقضية معلومة كقولك^(٥): ذهب الرجل الذي أبوه منطلق، فأبوه منطلق قضية معلومة، فإذا حاولت تعريف الرجل بهذه القضية المعلومة أدخلت عليه الذي، وهو يحقق قولهم: إنه مستعمل لوصف المعارف بالجمل.

(١) انظر تفسير الرازي: ٩٣/٢.

(٤) في أ: الفرد.

(٢) ينظر تفسير الرازي: ٩٣/٢.

(٥) في أ: كقوله.

(٣) في أ: الجهة.

وإذا ثبت هذا فقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يقتضي أنهم كانوا عالمين بوجود شيء جعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

و «جعل» فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى «صَيَّرَ» فتتعدى لمفعولين فيكون «الأرض» مفعولاً أول، و «فراشاً»، مفعولاً ثانياً.

والثاني: أن يكون بمعنى «خلق» فيتعدى لواحد وهو «الأرض» ويكون «فراشاً» حالاً.

و «السماء بناءً» عطف على «الأرض فراشاً» على التقديرين المتقدمين، و «لكم» متعلق بالجعل أي: لأجلكم، والفراش: قيل: البساط، وقيل: مثلها. وقيل: ما يوطأ، ويُقعد عليه.

واعلم أنه - تعالى - ذكرها هنا أنه جعل الأرض فراشاً، ونظيره قوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا﴾ [النمل: ٦١] وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

واعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

قال ابن الخطيب^(١): أحدها: كونها ساكنة؛ فإنها لو كانت متحركة لم يمكن الانتفاع بها لما تقرر في المعقولات.

الثاني: ألا تكون في غاية الصلابة كالحجر؛ فإن الثوم عليه والمشي مما يؤلم البدن، وأيضاً لو كانت الأرض من الذهب مثلاً لتعذرت الزراعة ولتعذر حفرها، وتركيبها لما يراد.

وألاً تكون في غاية اللين كالماء الذي تغوص فيه الرجل.

الثالث: ألا يكون في غاية اللطافة والشفافية؛ فإن الشفاف لا يستقر النور عليه، وما كان كذلك فإنه لا يتسخن بالشمس فكان يبرد جداً، فجعل كيفية لونه أخضر ليستقر النور عليه، فيتسخن فيصلح أن يكون فراشاً للحيوانات.

الرابع: أن تكون بارزة من الماء؛ لأن طبع الأرض أن يكون غائصاً في الماء فكان يجب أن تكون البحار محيطة بالأرض، ولو كانت كذلك لما كانت فراشاً لنا، فقلب^(٢) الله طبيعة الأرض وأخرج بعض أجزائها [من المياه]^(٣) كالجزيرة البارزة حتى صلحت لأن تكون فراشاً لنا.

(٣) سقط في ب.

(٢) في أ: فقلب.

(١) ينظر الرازي: ٩٤/٣.

ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشاً ألا تكون كرة واستدل بهذه الآية، وهذا بعيد؛ لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح^(١) في إمكان الاستقرار عليه، والذي يؤيده كون الجبال أوتاداً للأرض ويمكن الاستقرار عليها، فها هنا أولى.

فصل في منافع الأرض وصفاتها

فأولها: الأشياء المتولدة فيها من المعادن، والنبات، والحيوان، والآثار العلوية والسفلية، ولا يعلم تفصيلها إلا الله تعالى.

وثانيها: اختلاف بقاع الأرض، فمنها أرض رخوة، وصلبة، ورملة، وسبخة، وحرّة، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزٌ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بَنَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وثالثها: اختلاف طعمها وروائحها.

ورابعها: اختلاف ألوانها فأحمر، وأبيض، وأسود، ورمادي، وأغبر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرِيبٌ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

وخامسها: انصداعها بالنبات، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْغِ﴾ [الطارق: ١٢].

وسادسها: كونها خازنة للماء المنزل، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَشْكَتُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وسابعها: العيون والأنهار العظام.

وثامنها: ما فيها من المقاور والقلوات ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْتَهَا﴾ [ق: ٧].

وتاسعها: أن لها طبع الكرم؛ لأنك تدفع إليها حبة واحدة وهي تردّها عليك سبعمائة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعاشرها: حباتها بعد موتها ﴿وَوَايَةً لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا﴾ [يس: ٣٣].

الحادي عشر: ما فيها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

الثانية عشرة: ما فيها من النبات المختلف ألوانه، وأنواعه، ومنافعه: ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

وفي اختلاف ألوانها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر، ومنها

(١) في أ: كالمسطح.

قوت البهائم: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] ومطعموم البشر، فمنها الطعام ومنها الإدام، ومنها الرّواء، ومنها الفاكهة، ومنها الأنواع المختلفة في الحلاوة والحموضة، ومنها كسوة البشر؛ لأن الكسوة إما نباتية وهي القطن والكتان، وإما حيوانية وهي الشعر والصوف، والأبرنس، والجلود، وهي من الحيوانات التي بئها الله في الأرض، فالمطعموم من الأرض، والملبوس من الأرض؛ ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا نعلمها نحن، والله [تعالى عالم بها]^(١)،

فَصْلٌ

قال بعضهم: السماء أفضل من الأرض لوجوه:

أحدها: أن السماء متعبّد الملائكة، وما فيها بقعة عُصي الله فيها.

وثانيها: لما أتى آدم - عليه الصلاة والسلام - في الجنة بتلك المعصية قيل: اهبط من الجنة، وقال الله: «لا يسكن في جوارى من عصاني».

وثالثها: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] ولم يذكر في الأرض مثل ذلك.

ورابعها: في أكثر الأمر ورد ذكر السماء مقدماً على الأرض في الذكر.

وقال آخرون: بل الأرض أفضل؛ لوجوه:

أحدها: أنه - تعالى - وصف بقاعاً في الأرض بالبركة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، ﴿فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

ووصف أرض «الشام» بالبركة فقال: ﴿مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ووصف جملة الأرض بالبركة فقال: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ [فصلت: ٩] إلى قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

فإن قيل: فأى بركة في الفلوات الخالية، والمفاوز المهلكة؟

قلنا: إنها مساكن الوحوش ومرعاها، ومساكن الناس إذا احتاجوا إليها، فلهذه البركة قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] وهذه الآيات وإن كانت حاصلة لغير المؤمنين، لكن لما لم ينتفع بها إلا الموقنون جعلها آيات للمؤمنين تشريفاً لهم كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

(١) في ب: أعلم.

وثانيها: أنه - سبحانه - خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال: ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] ولم يخلق من السماء شيئاً، لأنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وثالثها: أن الله - تعالى - أكرم نبيه، فجعل الأرض كلها مسجداً، وجعل ترابها طهوراً.

فَضْلٌ فِي فَضْلِ السَّمَاءِ

وهو من وجوه:

الأول: أن الله - تعالى - زينها بسبعة أشياء: بالمصابيح ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].

وبالقمر ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وبالشمس ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وبالعرش، وبالكروسي، وباللوح المحفوظ، وبالقلم، فهذه السبعة ثلاثة منها ظاهرة، وأربعة مثبتة^(١) بالدلائل السمعية^(٢).

الثاني: أنه - تعالى - سماها بأسماء تدل على عظم شأنها سماء، وسقفاً محفوظاً، وسبعاً طباقاً، وسبعاً شداداً، ثم ذكر عاقبة أمرها فقال: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ﴾ [المرسلات: ٩]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، و ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ [المعارج: ٨]، ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]. ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وذكر مبدأها فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقال: ﴿أَوَّلَ بَرٍّ أَكْفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فهذا الاستقصاء والتشديد في كيفية حدوثها وفنائها يدل على أنه - سبحانه وتعالى - خلقها لحكمة بالغة على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

الثالث: أنه - تعالى - جعل السماء قبلة الدعاء، فالأيدي تُرفع إليها، والوجوه تتوجه نحوها، وهي منزل الأنوار، ومحل الضياء والصفاء، والطهارة، والعصمة من الخلل والفساد.

والبناء: مصدر «بنيت»، وإنما قلبت «الياء» همزة لتطرفها بعد ألف زائدة، وقد يراد به المفعول، و «أنزل» عطف على «جعل» و «من السماء» متعلق به، وهي لابتداء الغاية،

(١) في أ: مينة.

(٢) في أ: السبعة.

ويجوز أن يتعلّق بمحذوف على أن تكون حالاً من «ما»؛ لأن صفة النكرة إذا قدمت عليها نصبت حالاً، وحينئذ معناها التبويض، وثُمَّ مضاف محذوف أي: من مياه السماء ماء.

وأصل «ماء» موه بدليل قولهم: «مَاهَتِ الرُّكْبَةُ تَمُوهُ» وفي جمعه مياه وأمواه، وفي تصغيره: مويه، فتحرّكت «الياء» وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فاجتمع حرفان خفيفان: «الألف» و «الهاء»، فأبدلوا من «الهاء» أختها وهي الهمزة؛ لأنها أجلد منها.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وإنما ينزل من السحاب؟ فالجواب أن يقال: ينزل من السَّمَاءِ إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض.

فَصْلٌ فِي أَوْجِهٍ وَرُودٍ لَفْظِ الْمَاءِ

قال أبو العباس المقري: ورد لفظ الماء في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى الماء المُطْلَقِ كهذه الآية.

الثاني: بمعنى النطفة. قال تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦].

وقوله: ﴿مِنْ سُلَّالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

الثالث: بمعنى القرآن. قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾ [الرعد:

١٧] بمعنى القرآن، احتمله الناس على قَدَرٍ.

قوله: «فأخرج» عطف على «أنزل» مرتب عليه، و «به» متعلق به، و «الباء» فيه

للسببية، و «من الثمرات» متعلّق به أيضاً، و «من» هنا للتبويض، كأنه قصد بتنكير^(١) الماء والرّزق معنى البعضية، كأنه قيل: وأنزل من السماء بعض الماء، فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم؛ إذ ليس جميع رزقهم هو بعض الثمرات، إنما ذكر بعض رزقهم.

وأبعد من جعلها زائدة لوجهين:

أحدهما: زيادتها في الواجب، وكون المجرور بها معرفة، وهذا لا يقول به بضريّ

ولا كوفيّ إلاّ أبا الحسن الأخفش^(٢).

والثاني: أن يكون جميع الثمرات رزقاً لنا. وهذا يخالف الواقع؛ إذ كثير من

الثمرات ليس رزقاً لنا. وجعلها الزمخشري لبيان الجنس، وفيه نظر؛ إذ لم يتقدم ما يبين هذا، وكأنه يعني أنه بيان لـ «رزقاً» من حيث المعنى.

و «رزقاً» ظاهره أنه مفعول به ناصبه «أخرج»، ويجوز أن يكون «من الثمرات» في موضع

المفعول به، والتقدير: فأخرج ببعض الماء بعض الثمرات، وفي «رزقاً» حينئذ وجهان:

(٢) ينظر معاني القرآن: ٩٨.

(١) في أ: تذكير.

أحدهما: أن يكون حالاً على أن الرزق بمعنى المرزوق كالطُّخَن والرُّغِي .
والثاني: أن يكون مصدراً منصوباً على المفعول من أجله، وفيه شروط النصب موجودة .

وأجاز أبو البقاء^(١) أن يكون «من الثمرات» حالاً من «رزقاً»؛ لأنه لو تأخر لكان نعتاً، فعلى هذا يتعلّق بمحذوف .

وجعل الزمخشري «من الثمرات» واقعاً موقع الثمر أو الثمار، يعني مما ناب فيه جمع قلّة عن جمع الكثرة نحو: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ [الدخان: ١٥] و ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولا حاجة تدعو إلى هذا؛ لأن جمع السّلامة المحلّي بـ «أل» التي للعموم يقع للكثرة، فلا فرق إذن بين الثّمَرَات والثّمَار، ولذلك ردّ المحققون قول من ردّ على حَسَن بن ثابت^(٢) رضي الله عنه: [الطويل]

٢٨١ - لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَفْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا^(٣)
قالوا: كان ينبغي أن يقول: «الجفّان»، و «سيوفنا»؛ لأنه أمدح، وليس بصحيح؛ لما ذكرت قبل ذلك .

و «لكم» يحتمل التعلّق بـ «أخرج»، ويحتمل التعلّق بمحذوف، على أن يكون صفة لـ «رزقاً» . هذا إن أريد بالرزق المرزوق، وإن أريد به المصدر، فيحتمل أن تكون الكاف في «لكم» مفعولاً بالمصدر واللام مقوية له نحو: «ضربت ابني تأديباً له» أي: تأديبه .

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ «الفاء» للتسبب أي: تسبب عن إيجاد هذه الآيات الباهرة النهي عن اتخاذكم الأنداد، و «لا» ناهية، و «تجعلوا» مجزوم بها، علامة جزمه حذف النون، وهي هنا بمعنى تُصَيِّرُوا .

وأجاز أبو البقاء أن تكون بمعنى: تُسَمُّوا، وعلى القولين فيتعدى لاثنتين .
أولهما: «أنداداً» .

(١) ينظر الاملاء: ٢٤/١ .

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، توفي سنة ٥٤هـ . ينظر تهذيب التهذيب: ٢٤٧/١، الإصابة: ٣٢٦/١، خزانة الأدب: ١١١/١، الأعلام: ١٧٦/٢ .

(٣) ينظر ديوانه: ص ١٣١، وأسرار العربية: ص ٣٥٦، وخزانة الأدب: ١٠٦/٨، -، ١٠٧، ١١٠، ١١٦، ولسان العرب (جدا)، والكتاب: ٥٧٨/٣، وشرح المفصل: ١٠/٥، وشرح شواهد الإيضاح: ص ٥٢١، والمحتسب: ١٨٧/١، والمقاصد النحوية: ٥٢٧/٤، شرح الأشموني: ٦٧١/٣، الخصائص: ٢٠٦/٢، المقتضب: ١٨٨/٢، والأشباه والنظائر: ١٣٥/١، ١٣٥/١، وشواهد الكتاب: (٢/١٨١)، والدر المصون: (١٤٩/١) .

وثانيهما: الجار والمجرور قبله، وهو واجب التقديم، و «أنداداً» جمع نَدَ.

وقال أبو البقاء: «أنداداً» جمع «نَدَ» و «نديد»، وفي جعله جمع «نديد» نظر؛ لأنّ أفعلاً يحفظ في فعليل بمعنى فاعل، نحو: شريف وأشراف، ولا يقاس عليه.

فإن قيل: بم تعلّق قوله: «فلا تجعلوا»؟

فالجواب فيه وجوه:

أحدها: أن يتعلّق بالأمر أي: اعبدوا، ولا تجعلوا لله أنداداً، فإن أصل العبادة

التوحيد.

وثانيها: بـ «لعل» على أن ينتصب بـ «تجعلوا» انتصاب «فَأُطْلِعَ» في قراءة^(١)

حَفْصٍ.

قال الزمخشري^(٢): والمعنى خلقكم لكي تتقوا، وتخافوا عقابه، فلا تثبتوا له ندّاً، فإنه من أعظم موجبات العقاب، فعلى هذا تكون «لا» نافية، والفعل بعدها منصوب بإضمار «أن» في جواب الترجي، وهذا لا يجيزه البصريون، وسيأتي تأويل «فَأُطْلِعَ»، ونظائره في موضعه إن شاء الله تعالى.

وثالثها: بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾.

إذا جعلت «الذي» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الذي خلق لكم هذه الدلائل الباهرة، فلا تتخذوا له شريكاً.

و «النَّدُ»: المقاوم المضاهي، سواء كان مثلاً، أو ضدّاً، أو خلافاً.

وقيل: هو الضدّ عن أبي عبيدة.

وقيل: الكفّ والمثل؛ قال حسان: [الوافر]

٢٨٢ - أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِنْدٌ فَشَرُّكُمْ مَخْبِرُكُمْ مَّا الْفِدَاءُ^(٣)

أي: «وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ».

وقد روي ذلك؛ وقال آخر: [الرمّل]

٢٨٣ - نَحْمَدُ اللَّهَ وَلَا نَدُّ لَهُ عِنْدَهُ الْخَيْرُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ^(٤)

(١) ستأتي في غافر (٣٧).

(٢) ينظر الكشف: ٩٥/١.

(٣) ينظر ديوانه: ص ٧٦، وخزانة الأدب: ٢٣٢/٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ولسان العرب (ندد)، (عرش)، وشرح الأشموني: ٣/٣٨٨، الطبري: (١٩٨/١)، القرطبي: (١٦٠/١)، والدر المصون: (١/١٥٠).

(٤) البيت للبيد بن ربيعة. ينظر ديوانه: (١٧٤)، القرطبي: (١٦٠/١)، والدر المصون: (١/١٥٠).

وقال الزمخشري^(١): النَّذُّ الْمِثْلُ، ولا يقال إلا للنَّذِّ^(٢) المخالف؛ قال جرير^(٣):
[الوافر]

٢٨٤ - أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِذًا وَمَا تَنِيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدٌ^(٤)
ونَادَذْتُ الرَّجُلَ: خالفته ونافرته، من: نَذَّ يَنْذُو نَذْوًا، أي: نَفَرَ.
ومنه الحديث: «أَيُّ بَعِيرٍ نَذَّ فَأَعْيَاهُمْ»^(٥).

ويقال: «نَدِيدَةٌ» على المبالغة؛ قال لبيد^(٦): [الطويل]

٢٨٥ - لِكَيْلَا يَكُونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتِي وَأَجْعَلَ أَقْوَامًا عُمُومًا عَمَاعِمًا^(٧)
وأما «النَّذ» بفتح النون فهو التَّلُّ المرتفع، والنَّذُّ الطيب أيضاً، ليس بعربي.
وقرأ محمد بن السَّمِيفِ^(٨): «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِذًا»،
فإن قيل: إنهم لم يقولوا: إن الأصنام تنازع الله.

قلنا: لما عبدها وسموها آلهة أشبهت حالهم خَالَ من يعتقد أنها آلهة قادرة على
منازعة فقيل لهم ذلك على سبيل التهكُّم بهم.

قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال،

(١) ينظر الكشف: ٩٥/١.

(٢) في أ: للمثل.

(٣) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ابن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم ولد سنة ٢٨هـ، أشعر أهل
عصره ولد ومات في اليمامة. وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءاً مرأ - فلم
يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل وكان عفيفاً وهو من أغزل الناس شعراً، توفي سنة ١١٠هـ. ينظر
الأعلام: ١١٩/٢ (١٧١٨)، وفيات الأعيان: ١/١٠٢، والشعر والشعراء: ١٧٩، خزائن البغدادى:
٣٦/١.

(٤) ينظر البيت في ديوانه: (١٦٤)، الكشف: (٩٥/١)، مجالس العلماء: (١١٤)، والدر المصون: (١/١٥٠).

(٥) في أ: فأغناهم.

(٦) لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل
عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي - ﷺ - يُعَدُّ من الصحابة، ومن المؤلفات قلوبهم. وترك
الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، سكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب
المعلقات، وكان كريماً: نذر ألا تهيب الصبا إلا نحر وأطعم، جمع بعض شعره في ديوان. توفي
سنة ٤١هـ.

انظر خزائن الأدب للبغدادى: ١/٣٣٧، الأعلام: ٥/٢٤٠، سمط اللآلي: ١٣.

(٧) ينظر البيت في ديوانه: (٢٨٦)، القرطبي: ١/٢٣١، الدر المصون: ١/١٥٠.

(٨) انظر تفسير الرازي: ٢/١٠٣، والبحر المحيط: ١/٢٣٩، ونسبها إلى زيد بن علي بن محمد بن
السَّمِيفِ.

ومفعول العلم متروك، لأن المعنى: وأنتم من أهل العلم، أو حذف اختصاراً أي: وأنتم تعلمون بطلان ذلك، والاسم من «أنتم» قيل: «أن» و «التاء» حرف خطاب يتغير بحسب المخاطب، وقيل: بل «التاء» هي الاسم، و «أن» عماد قبلها.

وقيل: بل هو ضمير برمته وهو ضمير رفع منفصل وحكم ميمه بالنسبة إلى السكون والحركة والإشباع والاختلاس حكم «ميم» هم، وقد تقدّم جميع ذلك. والمعنى: إنكم لكمال عقولكم تعلمون أن هذه الأشياء لا يصح جعلها أنداداً لله - تعالى - فلا تقولوا ذلك؛ فإن القول القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح. وهذا الخطاب للكافرين، والمنافقين، قاله ابن عباس رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف وصفهم بالعلم، وقد نعتهم بالختم، والطبع، والصمم، والعمى؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: وأنتم تعلمون العلم الخاص أن الله خلق، وأنزل الماء، وأنبت الرزق، وهو المنعم عليهم دون الأنداد.

الثاني: وأنتم تعلمون وحدانيته بالفرد والإمكان لو تدبرتم ونظرتهم، وفي هذا دليل على استعمال حجج المعقول، وإبطال التقليد. وقال ابن فورك^(١): يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، والمعنى: لا ترتدوا أيها المؤمنون، وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم بأن الله واحد.

فَصْلٌ فِي فِرْقِ الْمُشْرِكِينَ

قال ابن الخطيب^(٢): ليس في العالم أحد يثبت له شريكاً يساويه في الوجود، والقدرة، والعلم، والحكم، هذا مما لم يوجد، لكن الثنوية يثبتون إلهين، أحدهما: حكيم يفعل الخير، والثاني: سفيه يفعل الشر؛ وأما اتخاذ معبود سوى الله، فالذاهبون إلى ذلك فرق.

فمنهم عبدة الكواكب.

ومنهم الصّابئة فإنهم يقولون: إنّ الله - تعالى - خلق هذه الكواكب، وهي مدبّرات لهذا العالم قالوا: فيجب علينا أن نعبد الكواكب، والكواكب تعبد الله تعالى.

(١) محمد بن الحسين بن فُورك، أبو بكر الأصفهاني، المتكلم، الأصولي، الأديب، النحوي، الواعظ، أخذ طريقة أبي الحسن الأشعري عن أبي الحسين الباهلي وغيره، أحى الله تعالى به أنواعاً من العلوم، وبلغت مصنّفاته الشيء الكثير، وجرت له مناظرات عظيمة. مات سنة ٤٠٦. انظر ط. ابن قاضي شهبة: ١٩٠/١، ط. السبكي: ٥٢/٣، تبين كذب المفتري: ص ٢٣٢. الأعلام: ٣١٣/٦، مرآة الجنان: ١٧/٣، النجوم الزاهرة: ٢٤٠/٤.

(٢) ينظر الفخر الرازي: ١٠٣/٢.

الفريق الثاني: الذين يعبدون المسيح عليه الصلاة والسلام^(١).

(١) لم ينقل من طريق صحيح عن ملة من الملل؛ إسلامية أو غير إسلامية، أنها صرّحت بأن الله - تعالى - اتخذ صاحبة، وإنما الذي نقل: هو أن طائفة من النصارى قالت: (المسيح ابن الله)، وطائفة من اليهود قالت: (عزير ابن الله)، وجاء في القرآن آيات كثيرة ترد على هاتين الطائفتين، نذكر من بين هذه الآيات آية واحدة، مع تبين جهة الردّ الذي تضمنته، قال - تبارك وتعالى -: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بيان ذلك: أن يقال لهاتين الطائفتين: إمّا أن تريدوا بقولكم (إن الله ابناً) أن الله أحدثه وأبدعه لا على مثال سبق؛ لكونه لم يتولد من نطفة، أو اختصّ بمزايا لم توجد في غيره، ولا في من سبقه، وإمّا أن تريدوا ذلك المعنى المتعارف من الولادة في الحيوان، وإمّا أن تريدوا معنى آخر، فإن أردتم المعنى الأول، يُردّ عليكم بخلق السموات والأرض؛ فإن الله أبدعهما لا على مثال سبق، وأودع فيهما من الخواص والمزايا ما لا يدخل تحت حضر، ومع ذلك؛ لم يقل أحد من المّليين؛ بأن السموات والأرض ابن الله - فبطل قولكم: إن الله ابناً بهذا المعنى، وإلى هذا الردّ أشير بقوله: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وإن أردتم الولادة المعروفة في الحيوان، فهذا باطل أيضاً؛ لوجوه: الأول؛ أن تلك الولادة لا تصلح إلا ممن كانت صاحبة وشهوة، ويفصل عنه جزء، ويحتبس ذلك الجزء في رحم تلك صاحبة، - وهذه الأحوال إمّا تصح في الجسم الذي يصحّ عليه الاجتماع، والافتراق، وباقي عوارض الجسم، وهذا محال على خالق العالم؛ لأنه قديم مخالف للممكنات، وقد أشير إلى هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾.

الثاني: - إن تحصيل الولد بهذا الطريق، إنما يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق، والإيجاد، والتكوين دفعة واحدة، - فإذا أراد الولد، وعجز عن تكوينه دفعة واحدة، عدل إلى تحصيله بالطريق المعتاد، أمّا من كان خالقاً لجميع الممكنات، قادراً على كل المحدثات، فإنه إذا أراد إحداث شيء قال له: «كن فيكون» وحيث كان الإله بهذا الوصف، امتنع إحداثه للشخص بطريق الولادة، وهذا الوجه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

الثالث: إن ذلك الولد إمّا أن يكون قديماً، وإمّا أن يكون حادثاً لا جائز أن يكون قديماً؛ لأن القديم لا يحتاج لغيره، وهذا الولد يحتاج إلى أبيه في تكوينه، فبطل كونه قديماً، فتعين كونه حادثاً وحينئذ يُقال لهؤلاء القائلين: إن الله ابناً، قد بُتّ بالدليل العقلي أن الله - تعالى - عالم بكل شيء، فإمّا أن يعلم أن في تحصيل ولد كمالاً ونفعاً له، وإمّا أن يعلم أن لا كمال، ولا نفع في تحصيله فإن كان يعلم أن في تحصيل الولد كمالاً ونفعاً، فلا وقت يفرض إلا والداعي إلى إيجاد هذا الولد متحقق، وهذا يُوجب كون الولد أزلياً، وهو محال، ولم يقل به أحد أصلاً، وإن كان يعلم أن لا كمال في إيجاد، ولا نفع في تحصيله - وجب ألا يحدث في وقت من الأوقات، فلا ولد له أصلاً، وإلى هذا الوجه أشير بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وإن أردتم معنى غير ما ذكر، فينبوه لنا لتكلم معكم فيه.

ونقل عن طوائف النصارى القول بالاتحاد، وعن بعضهم القول بالحلول، وعن بعضهم القول بأن عيسى ابن الله، وعن بعض طوائف اليهود القول بأن عزيراً ابن الله، واختلف النقل عن النصارى في معنى الاتحاد: ف قيل: معناه أنّ الكلمة وهي: صفة العلم ظهرت في «عيسى»، وصارت فيه هيكلًا، وقيل: معناه المخارجة، بمعنى: أن يكون من الكلمة وعيسى شيء ثالث. وأما القول بالحلول؛ فمعناه على رأي بعض فرقهم: أن الكلمة - وهي صفة العلم - حلّت في المسيح، وعلى رأي البعض الآخر، أن ذات الله حلّت في المسيح، ولما كان كلامهم في الحلول والاتحاد مضطرباً، وغير منضبط على وجه صحيح - نذكر الصور العقلية التي تتأتى في الاتحاد والحلول؛ فنقول:

الثالث: عبدة الأوثان. واعلم أنه لا دين من أديان الكفر أقدم من دين عباد النار؛

= إما أن يقولوا باتحاد ذات الله بالمسيح، أو حلول ذاته فيه، أو حلول صفته فيه، وكل ذلك إما بيد عيسى أو بنفسه، وإما ألا يقولوا بشيء من ذلك؛ وحينئذ فإما أن يقولوا: أعطاه الله قُدرة على الخلق والإيجاد أو لا، ولكن خصه الله بالميزات، وسماه «ابناً» تشریفاً؛ كما سَمَى إبراهيم «خليلاً»، فهذه ثمانية احتمالات كلها باطلة للأدلة التي أحالت حلول الله واتحاده، والسابع باطل؛ لما ثبت أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، وبقي احتمال اتحاد الكلمة بذات المسيح، وهو باطل أيضاً؛ لأن الكلمة المراد منها عندهم صفة العلم والاتحاد بجميع معانيه، وأفراده مستحيل على الله بالأدلة السابقة، والشبهة التي أوقعت النصارى في هذه الكلمات؛ هي ما جاء في الإنجيل في عدة مواضع؛ من ذكر الله بلفظ الأب، وذكر عيسى بلفظ الابن، وذكر الاتحاد والحلول تصريحاً أو تلويحاً.

فمن ذلك: ما جاء في إنجيل (يوحنا)، في الإصحاح الرابع عشر (يا فيلسوف، من يراني ويعاني، فقد رأى الأب، فكيف تقول أنت: أرنا الأب ولا تؤمن أني بأبي وأبي بي واقع واقع، وأن الكلام الذي أتكلم به ليس من قبل نفسي، بل من قبل أبي الحال في، وهو الذي يجعل هذه الأعمال التي أعمل، آمن وصدق أني بأبي وأبي بي).

هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية المتداول عندهم، فأخذ بعضهم الاتحاد من قوله: (من يراني ويعاني فقد رأى الأب)، وأخذ بعضهم الحلول من قوله: (أبي الحال في)، وأخذ البنوة من التصريح بلفظ الأب مرة بعد أخرى، وهذا لا يصلح دليلاً؛ لوجهين:

الوجه الأول: توافرت الأدلة على حصول التغيير والتبديل في الإنجيل، فاحتمل أن يكون ذلك المذكور في إنجيل «يوحنا» مما حصل فيه التغيير والتبديل، فلا يصلح حينئذ أن يكون دليلاً؛ فلا يصح به الاستدلال.

الثاني: أن نتنزل ونقول: لا تغيير ولا تبديل في ذلك المنقول، لكن دلالته على مدعاهم ليست يقينية؛ لجواز أن يكون المراد من الاتحاد الذي فهمه بعضهم من الجملة الأولى الاتحاد في بيان طريق الحق، وإظهار كلمة الصدق؛ كما يقال: أنا وفلان واحد في هذا القول؛ ولجواز أن يكون المراد من الحلول المصرح به في بعض الجمل حلول آثار صنع الله؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكهم والأبرص؛ ولجواز أن يكون المراد من الأب المُبْدِي؛ فإن القدماء كانوا يطلقون الأب على المبدئ، فمعنى قوله: أبي مُبْدِي ومُوجِدِي، وسمى عيسى «ابناً»؛ تشریفاً له؛ كما سَمَى إبراهيم «خليلاً».

وأيضاً فمن كان متوجهاً لشيء ومقيماً عليه، يقال له: «ابنه»؛ كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء السبيل، فجاز أن يكون تسمية عيسى بالابن؛ لتوجهه في أكثر الأحوال إلى الحق، واستغراقه أغلب الأوقات في جناب القدس، ومما يؤكد ذلك أنه جاء في الإصحاح السابع عشر من إنجيل «يوحنا»؛ حيث دعا عيسى للحواريين ما لفظه: (وكما أنت يا أبي بي وأنا بك فليكونوا هم أيضاً نفساً واحداً؛ ليؤمن أهل العلم بأنك أنت أرسلتني، وأنا قد استودعتهم بالمجد الذي مجدتني به، ودفعته إليهم؛ ليكونوا على الإيمان، كما أنا وأنت أيضاً واحد، وكما أنت حال في كذلك أنا فيهم؛ ليكون كما لهم واحداً) هذا لفظ الإنجيل، وقد تبين منه معنى الاتحاد والحلول على وجه مُغاير لما فهموه، وجاء في «الإصحاح التاسع عشر» ما لفظه: إني صاعد إلى أبيكم، وإلهي وإلهكم، وهذا يدل بواسطة العطف، على أن المراد من الأب الإله، وعلى أنه مساو لهم في معنى البنوة والعبودية، فهذه النصوص تدحض حججهم، وتلزيمهم إذا أرادوا الحق بالرجوع إلى ما نصّت به الأدلة العقلية المتقدمة؛ من استحالة الاتحاد والحلول والبنوة. أما بعض اليهود الذين قالوا: إن عُزَيْراً ابنُ الله، فقد أشار الله - تعالى - إليه بقوله: (وقالت اليهود عزيزُ ابن الله). نسب الله ذلك القول إلى اليهود، مع أنه قول لطائفة منهم؛ جرياً على عادة العرب في إيقاع =

لأنه يروى أنّ النار لما أكلت قربان «هابيل» جاء «إبليس» إلى «قابيل»، وأخبره أنها إنما أكلت قربان أخيه؛ لأنه عبدها، فعبدت النار من ذلك الوقت.

وقيل: لا دين من أديان الكفر أقدم من دين عبدة الأوثان؛ لأن أقدم الأنبياء الذين نقل إلينا تاريخهم هو نوح عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إنما جاء بالرد عليهم على ما أخبر الله - تعالى - عن قومه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْرُونَ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَافُوثَ وَيَعْقُوبَ وَشَارًا﴾ [نوح: ٢٣] فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح عليه الصلاة والسلام باقية إلى الآن، والمذهب الذي هذا شأنه، فيستحيل معرفة فساد بالضرورة، لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقه وخلق السماء والأرض علم ضروري، فيستحيل إطباق الجمع العظيم عليه؛ فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك، والعلماء ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: ما ذكره أبو معشر جَعْفَرُ بن محمد المنجم البلخي^(١) أن كثيراً من أهل «الصّين» و «الهند» كانوا يقولون بالله، وملائكته، ويعتقدون أنه - تعالى - جسم وصورة كأحسن ما يكون من الصُّور، وهكذا حال الملائكة أيضاً في صورهم الحسنة، وأنهم كلّهم قد احتجبوا عنا بالسماء، وأن الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر، حسنة المراءى، على الهيئة^(٢) التي كانوا يعتقدونها من صور الإله والملائكة، فيعكفون على عبادتها قاصدين به طلب الزُّلفى إلى الله - سبحانه - وملائكته. فإن صحَّ ما قال أبو معشر، فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد الشبه.

وثانيها: ما ذكر أكثر العلماء أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب؛ فإنه بحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس يحدث الفصول المختلفة، والأحوال المتباينة، ثم إنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب، فاعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة في الدنيا بكيفية وقوعها في طوابع الناس، فلما اعتقدوا ذلك

= اسم الجماعة على الواحد، والسبب الذي دعا هذه الطائفة إلى القول بأن عزيزاً ابن الله: أن اليهود تركوا العمل بما في التوراة، وعملوا بغير الحق، فعاقبهم الله تعالى؛ بأن أنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم، ففزع «عزيز» إلى الله، وابتهل إليه، فعاد حفظ التوراة إلى قلبه، فأنذر قومه به، فلما جرّبوه، وجدوه صادقاً فيه؛ فقالوا: ما تيسر هذا لعزير دون سواه إلا لأنه ابن الله، وهذه شبهة واهية لا يصح الاستناد إليها؛ لأن إجابة المطلب مرتبطة بالقبول، والقرب من الله، والخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه، لا بالبنوة كما يزعمون.

(١) جعفر بن محمد بن عمر البلخي أبو معشر: عالم فلكي مشهور كان أولاً من أصحاب الحديث وتعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره تصانيفه كثيرة، منها كتاب الطبائع والمدخل الكبير والألوف في بيوت العبادات والدول والملل والملاحم وهيئة الفلك وطبائع البلدان والأمطار والرياح توفي سنة ٣٧٢هـ. ينظر الأعلام: ٢/ ١٢٧ (١٨١٩)، الفهرست لابن النديم: ١/ ٢٧٧، ابن خلكان: ١/ ١١٢.

(٢) في ب: الماهية.

بالغوا في تعظيمها، فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها، وهي التي خلقت هذه العوالم، ومنهم من اعتقد أنها مخلوقة للإله الأكبر، لكنها [خالقة لهذا]^(١) العالم، فالأولون اعتقدوا أنها هي الإله في الحقيقة، والآخرين أنها هي الوسائط بين الله وبين البشر، فلا جرم اشتغلوا^(٢) بعبادتها والخضوع لها، ثم لما رأوا الكواكب مستترة في أكثر الأوقات عن الأبصار اتخذوا لها أصناماً، وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادات الأجرام العالية، ومتقربين إلى أشباحها الغائبة، ثم لما طالت المدة ألغوا ذكر الكواكب وتجرّدوا لعبادة تلك التماثيل، فهؤلاء في الحقيقة عبدة الكواكب.

وثالثها: أن أصحاب الأحكام كانوا يعيّنون سنين متطاولة، نحو الألف والألفين، ويزعمون أن [من اتخذ]^(٣) طلسماً في ذلك الوقت على^(٤) وجه خاص، فإنه ينفع في أحوال مخصوصة نحو السّعادة والخصب، ودفع الآفات، وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عَظّموه لاعتقادهم أنهم يتنفعون به، فلمّا بالغوا في ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة، ولمّا طالت مدة ذلك الفعل نسوا مبدأ الأمر، وانشغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الأمر.

ورابعها: أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون في أنه مجاب الدعوة، ومقبول الشّفاعَة عند الله - تعالى - اتخذوا أصناماً على صورته، ويعبدونه على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعاً لهم يوم القيامة عند الله - تعالى - على ما أخبر الله عنهم في قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وخامسها: لعلهم اتخذوها محاريب لصلاتهم، وطاقاتهم، ويسجدون إليها لا لها كما أنا نسجد إلى القبلة لا للقبلة، ولما استمرت هذه الحالة ظنّ الجهال من القوم أنه يجب عبادتها.

وسادسها: لعلهم كانوا يعتقدون جواز حلول الرب فيها فعبدها على هذا التأويل. فهذه هي الوجوه التي يمكن حمل هذه المقالة عليها حتى ليصير^(٥) بحيث يعلم بطلانه بضرورة العقل.

واعلم أن إقامة الدلالة على افتقار العالم إلى الصّانع المختار يبطل القول بعبادة الأوثان على كلّ التأويلات، والله أعلم.

فَصْلٌ

اعلم أن من بيوت الأصنام المشهورة «غمدان» الذي بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة «صنعاء»، وخبره عثمان بن عفان، ومنها «نوبهار بلخ» الذي بناه «منوشهر» الملك

(١) في أ: خلقت هذا.

(٢) في أ: استقلوا.

(٣) سقط في أ.

(٤) في أ: عمل على.

(٥) في ب: لا تغتر.

على اسم القمر، ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل: ود بـ «دومة الجندل» لكلب، و «سواع» لبني هذيل، و «يغوث» بـ «اليمن» لمذحج، و «يعوق» لمرادية همدان و «نسر» بأرض «حمير» لذي الكُلاع، و «اللات» بـ «الطائف» لـ «ثقيف»، و «منة» بـ «يثرب» للخزرج، و «العزى» لكنانة بنواحي «مكة» و «أساف» و «نائلة» على «الصفاء» و «المروة».

وكان قُصَيّ جَدّ رسول الله ﷺ ينهّاهم عن عبادتها، ويدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وكذلك زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ^(١)، وهو الذي يقول: [الوافر]

٢٨٦ - أَرَبٌ وَاحِدٌ أَمْ أَلْفُ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ؟!
تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعاً كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا لَنَا آلِي وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

اعلم أنه سبحانه لما أقام الدلائل القاطعة على إثبات الصانع، وأبطل القول بالشريك عقبه بما يدل على^(٣) النبوة، ولما كانت نبوة محمد ﷺ مبنية على كون القرآن معجزاً أقام الدلالة على كونه معجزاً. واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين:

الأول: ألا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة:

إما أن يكون مساوياً لكلام الفصحاء، أو زائداً على كلام الفصحاء بقدر لا ينقض^(٤) العادة، أو زائداً عليه بقدر ينقض العادة، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث.

وإنما قلنا: إنهما باطلان؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن يأتيوا [بمثل سورة منه]^(٥) إما مجتمعين، أو منفردين، فإذا^(٦) وقع التنازع، فالشهود والحكام مزيلون الشبهة وذلك نهاية الاحتجاج؛ لأنه كان من معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال، وارتكبوا المهالك والمحن، وكانوا في الحمية والألفة على حد لا يقبلون الحق، فكيف الباطل، وكل ذلك

(١) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، القرشي العدوي، نصير المرأة في الجاهلية، وأحد الحكماء. وهو ابن عم عمر بن الخطاب. لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان، كان عدواً لواد البنات. توفي سنة ١٧ قبل الهجرة.

انظر الأغاني: ١٥/٣، خزائن البغداد: ٩٩/٣، الأعلام: ٦٠/٣.

(٢) ينظر روح المعاني: ١٩١/١، الرازي: ١٠٥/١.

(٣) في أ: على أن.

(٥) في أ: بسورة مثله.

(٤) في ب: ينتقض.

(٦) في أ: فإن.

يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، فلما لم يأتوا بمثلها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزاً.

واعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة، تدلُّ على أنه بلغ في الفصاحة النهاية التي لا غاية لها:

أحدها: أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات مثل وصف بعير، أو فرس، أو جارية، أو ملك، أو ضربة^(١)، أو طعنة أو وصف حرب، أو وصف غارة، وليس في القرآن شيء من هذا، فكان يجب على هذا ألا يحصل فيه شيء من الفصاحة، التي اتفقت العرب في كلامهم عليها.

وثانيها: أنه - تعالى - راعي فيه [طريقة]^(٢) الصدق، وتنزه عن الكذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكذب، ولزم الصدق، زكي^(٣) شعره، ألا ترى لبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت لما أسلما زكي شعرهما، [ولم يكن شعرهما]^(٤) الإسلامي في الوجوه كشعرهما في الجاهلية، والقرآن مع لزوم الصدق وتنزهه عن الكذب بلغ الغاية في الفصاحة كما ترى.

وثالثها: أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح في القصيدة كلها، إنما هو بيت أو بيتان والباقي ليس كذلك، وأما القرآن فكله فصيح، فعجز الخلق عن بعضه كما عجزوا عن جملة.

ورابعها: أن كل من وصف شيئاً بشعر، فإذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وأما القرآن ففيه تكرار كثير، وهو في غاية الفصاحة، ولم يظهر التفاوت أصلاً.

وخامسها: أنهم قالوا: شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب، وذكر النساء، وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى^(٥) عند الطلب، ووصف الخمر، وزهير عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن، ويضعف كلامه في غيره، والقرآن جاء فصيحاً في كل الفنون.

(١) في ب: حكومة.

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ: زال.

(٤) سقط في أ.

(٥) ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي. أبو بصير، المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس غزير الشعر يسلك فيه كل مسلك وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه وكان يغنى بشعره فسمي «صناجة العرب» لقب بالأعشى لضعف بصره وعمي في أواخر أيامه. مولده ووفاته في قرية «منفوحة» باليمامة قرب مدينة «الرياض» وفيها داره وبها قبره.

ينظر الأعلام: ٧/ ٣٤١ (٢٨٣٢)، خزنة البغدادى: ١/ ٨٤ - ٨٦.

وسادسها: أن القرآن أصل للعلوم كلها، فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلم النحو، واللغة، وعلم الزهد في الدنيا، وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق.

وأما الطريق الثاني: أن يقول: القرآن لا يخلو إما أن يكون بالغاً في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع توفر داعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزاً، فثبت أنَّ القرآن معجز على جميع الوجوه.

«إن» حرف شرط يجزم فعلين: شرطاً وجزاء، فلا تقول: «إن غربت الشمس».

فإن قيل: فكيف قال هاهنا: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، وهذا خطاب مع الكفار، والله تعالى يعلم أنهم في ريب، وهم يعلمون ويقرون أنهم في ريب، ومع ذلك فالتعليق حسن.

فالجواب: الخصائص الإلهية لا تدخل في الأوضاع العربية، بل الأوضاع العربية مبنية على خصائص الخلق، والله - تعالى - أنزل القرآن بلغة العرب، وعلى منوالهم، فكل ما كان في لغة العرب حسناً نزل القرآن على ذلك الوجه، وما كان نسخاً في لسان العرب لم ينزل في القرآن، فثبت بهذا أن كل ما جاء في العادة مشكوكاً فيه بين الناس، حسن تعليقه، سواء كان من قبل الله - تعالى - أو من قبل غيره، وسواء كان معلوماً للسامع أو المتكلم أم لا، وكذلك حسن قولك: إن كان زيد في الدار فأكرمه، مع أنك تعلم أن زيدا في الدار؛ لأن حصول زيد في الدار، شأنه أن يكون في العادة مشكوكاً فيه، ولا يكون إلا في المحتمل وقوعه، وهي أم الباب؛ فلذلك يحذف مجزومها كثيراً، وقد يحذف الشرط والجزاء معاً؛ قال: [الرجز]

٢٨٧ - قَالَتْ بَنَاتُ الْعَمِّ: يَا سَلَمَى وَإِنْ كَانَ فَقِيراً مُغْدِماً قَالَتْ: وَإِنْ^(١)

أي: وإن كان فقيراً تزوجته.

وتكون «إن» نافية فتعمل وتهمل، وتكون مخففة وزائدة باطراد وعدمه، وأجاز بعضهم أن تكون بمعنى «إذا»، وبعضهم أن تكون بمعنى «قد»، ولها أحكام كثيرة.

و «في ريب» خبر كان، فيتعلق بمحذوف، ومحل «كان» الجزم، وهي وإن كانت ماضية لفظاً فهي مستقبلية معنى.

وزعم المبرد أنَّ لـ «كان» الناقصة حكماً مع «إن»، ليس لغيرها من الأفعال

(١) البيت لرؤية. ينظر ملحقات ديوانه: (١٨٦)، المقرب: (٢٧٧/١)، شرح شواهد المغني: (٩٣٦)،

المغني: (٦٤٩/٢)، رصف المباني: (١٠٦)، ضرائر الشعر: (١٨٥)، التصريح: (١٩٥٨)، الدر

المصون: (١٥١/١).

الناقصة، فزعم أنه لقوة «كان» أن «إن» الشرطية لا تقلب معناها إلى الاستقبال، بل تكون على مَعْنَاهَا من المُضِيِّ، وتبعه في ذلك أبو البَقَاءِ، وعلل ذلك بأن كثيراً استعملوها غير دالة على حدث^(١)، وهذا مردود عند الجمهور، لأن التعليق إنما يكون في المستقبل، وتأولوا ما ظاهره غير ذلك نحو: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ [يوسف: ٢٦] إما بإضمار «يكن» بعد «إن»، وإما على التبيين، والتقدير: «إن يكن قميصه، أو إن يتبين كون قميصه» ولما خفي هذا المعنى على بعضهم جعل «إن» هنا بمنزلة «إذ» وقوله: «في ريب» مجاز من حيث إنه جعل الريب ظرفاً محيطاً بهم، بمنزلة المكان لكثرة وقوعه منهم.

و «مِمَّا» يتعلّق بمحذوف؛ لأنه صفة لريب، فهو في محل جرّ، و «من» للسببية، أو لابتداء الغاية، ولا يجوز أن تكون للتبعيض، ويجوز أن تتعلّق بـ «ريب» أي: إن ارتبتم من أجل، ف «من» هنا للسببية، و «ما» موصولة أو نكرة موصوفة، والعائد على كلا القولين محذوف، أي: نزلناه^(٢)، والتضعيف في «نزلنا» هنا للتعدية مرادفاً لهزمة التعدي، ويدلّ عليه قراءة^(٣) «أنزلنا» بالهمز، وجعل الزمخشري التضعيف هنا دالاً على نزوله منجماً في أوقات مختلفة.

قال بعضهم: «وهذا الذي ذهب إليه في تضعيف الكلمة هنا، هو الذي يعبر عنه بالتكثير أي يفعل مرة بعد مرة، فيدل على ذلك بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة» قال: «وذهل^(٤) عن قاعدة، وهي أن التضعيف الدال على ذلك من شرطه أن يكون في الأفعال المتعدية قبل التضعيف غالباً نحو: «جَرَحْتُ زَيْدًا، وَفَتَحْتُ الباب»، ولا يقال: «جَلَسَ زَيْدٌ» و «نَزَلَ» [لأنه]^(٥) لم يكن متعدياً قبل التضعيف، وإن ما جعله متعدياً تضعيفه».

وقوله: «غالباً» لأنه قد جاء التضعيف دالاً على الكثرة في اللازم قليلاً نحو: «مَوْتُ المال»، وأيضاً بالتضعيف الدال على الكثرة لا يجعل القاصر متعدياً، كما تقدم في «مَوْتُ المال»، و «نَزَلَ» كان قاصراً، فصار بالتضعيف متعدياً، فدلّ على أنّ تضعيفه للنقل لا للتكثير، وأيضاً كان يحتاج قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] إلى تأويل، وأيضاً فقد جاء التضعيف حيث لا يمكن فيه التكثير، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] إلا بتأويل بعيد جداً، إذ ليس المعنى على أنهم اقترحوا تكرير نزول [آية، ولا أنه علق تكرير نزول]^(٦) مَلَكٌ رسول على تقدير كون ملائكة في الأرض.

(١) في أ: حذف.

(٢) في أ: أنزلناه.

(٣) وقرأ بها يزيد بن قطيب. انظر البحر المحيط: ٢٤٤/١، والدر المصون: ٢٥١/١.

(٤) في أ: وذهب.

(٥) سقط في أ.

(٦) سقط في ب.

وفي قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأن قبله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فلو جاء الكلام عليه لقليل: «مما نزل على عبده» ولكن التفات للتفخيم.

و «على عبدينا» متعلق بـ «نَزَّلْنَا» وعُدِّي بـ «على» لإفادتها الاستعلاء، كأن المنزل تمكّن من المنزل^(١) عليه ولبسه، ولهذا جاء أكثر القرآن بالتعدي بها دون «إلى» فإنها تفيد الانتهاء والوصول فقط، والإضافة في «عبدنا» تفيد التشريف؛ كقوله: [السريع]

٢٨٨ - يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءٍ يَفْرِقُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عِنْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَشْمَائِي^(٢)
وقرى^(٣) «عبادنا» فقليل: المراد النبي - عليه الصلاة والسلام - وأمته؛ لأن جدوى^(٤) المنزل حاصل لهم.

وقيل: المراد بهم جميع الأنبياء عليهم السلام.

والعبد: مأخوذ من التعبد، وهو التذلل؛ قال طرفة: [الطويل]

٢٨٩ - إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ^(٥)
أي: المذلّل.

ولما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمي بها أشرف الخطط سمى نبيه عبداً.

قوله: ﴿قَاتُوا سُورَةَ﴾ جواب الشرط، والفاء هنا واجبة؛ لأن ما بعدها لا يصح أن يكون شرطاً بنفسه، وأصل «قَاتُوا» «إِئْتُوا» مثل: اضربوا، فالهمزة الأولى همزة وصل أتى بها للابتداء بالسّاكن، والثانية فاء الكلمة، فلما اجتمع همزتان، وجب قلب ثانيهما ياءً على حَذِّ «إيمان» وبابه، واستثقلت «الضمة» على «الياء» التي هي «لام» الكلمة فقدرت، فسكنت «الياء»، وبعدها «واو» الضمير ساكنة، فحذفت «الياء» لالتقاء ساكنين، وضمّت «التاء» للتجانس، فوزن «إيتوا»: «افعوا»، وهذه الهمزة إنما يحتاج إليها ابتداءً، أما في الدّرج فإنه يُسْتَعْنَى عنها، وتعود الهمزة التي هي «فاء» الكلمة؛ لأنها إنّما قُلبت ياءً للكسر الذي كان قبلها، وقد زال نحو: «قَاتُوا» وبابه، وقد تحذف الهمزة التي هي «فاء» الكلمة في الأمر كقوله: [الطويل]

٢٩٠ - فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَنْهَضْ لَكُمْ فَنَبْرَكُمْ فَتُونَا فَعَادُونَا إِذَا بِالْجَرَائِمِ^(٦)

(١) في أ: المنزل.

(٢) ينظر البحر: (٢٤٥/١)، القرطبي: (١٦١/١)، وروح المعاني: (١٩٣/١)، والدر المصون: (١/١٥٢).

(٣) انظر الكشف: ٩٧/١، والبحر المحيط: ٢٤٥/١، والدر المصون: ١٥٤/١.

(٤) في أ: حدوث.

(٥) ينظر ديوانه: (٣١).

(٦) ينظر البيت في البحر: ٢٤٢/١، ضرائر الشعر: ص (١٠٠)، والدر المصون: (١/١٥٢).

يريد: فأتونا كقوله: فأتوا.

قال ابن كيسان: «وهو أمر معناه التعجيز؛ لأنه - تعالى - علم عجزهم عنه».

و «بسورة» متعلق بأتوا، والسورة واحدة السُور، وهي طائفة من القرآن.

وقيل: السُورة الدرجة الرفيعة، قال النابغة: [الطويل]

٢٩١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ^(١)

وسميت سورة القرآن بذلك؛ لأن قارئها يشرف بها وترفعه، أو لرفعة شأنها، وجلالة محلها في الدين، وإن جعلت واوها منقلبة عن «الهمزة»، فيكون اشتقاقها من «السُور»، وهو البقية، والفضلة؛ ومنه: «أسأروا في الإناء»؛ قال الأعشى: [المتقارب]

٢٩٢ - فَبَإِثْنٍ وَقَدْ أُسَارَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعًا عَلَى نَائِبِهَا مُسْتَطِيرًا^(٢)

أي: أبقيت، ويدل على ذلك أن «تميمًا» وغيرها يهزون فيقولون: سورة بالهمزة.

وسميت سورة القرآن بذلك؛ لأنها قطعة منه، وهي على هذا مخففة من «الهمز».

وقيل: اشتقاقها من سُور البناء؛ لأنها تحيط بقارئها، وتحفظه كسُور المدينة، ولكن جَمَعَ سُورَةَ القرآن سُور بفتح الواو، وَجَمَعَ سُورَةَ البناء سُور بسكونها، ففرقوا بينهما في الجمع.

فإن قيل: ما فائدة تقطيع القرآن سُورًا؟

قلنا: وجوه:

أحدها: ما لأجله بوب المصنفون كتبهم أبواباً وفصولاً.

وثانيها: أن الجنس إذا حصل تحته كان أفراد كل نوع من صاحبه أحسن.

وثالثها: أن القارئ إذا ختم سورة، أو باباً من الكتاب، ثم أخذ في آخر كان أنشط له، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى فرسخاً نشطه للمسير.

فَضْلٌ فِي بَيَانِ أَنْ تَرْتِيبَ الْقُرْآنِ تَوْقِيفِي

قال ابن الخطيب^(٣): قوله: «فأتوا بسورة» يدل على أن القرآن وما هو عليه من كونه سوراً هو على حد ما أنزله الله - تعالى - بخلاف قول كثير من أهل الحديث، أنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان، فلذلك صحَّ التحدي بالقرآن على وجوه:

(١) ينظر ديوانه: (١٢٨)، روح المعاني: (٣٤/١)، الدر المصون: (١٥٣/١)، البحر المحيط: ٢٤٢/١، المصون: (١٥٤).

(٢) ينظر ديوانه: (٣١٧)، الدر المصون: (١٥٣/١).

(٣) ينظر الرازي: ١٠٨/٢.

أحدها: قوله: ﴿فَأَتُوا بِكَلْبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ [القصص: ٤٩].

وثانيها: قوله: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وثالثها: قوله: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣].

ورابعها: قوله: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ونظير هذا لمن يتحدّى صاحبه فيقول: ائتني بمثله، ائتني بنصفه، ائتني بربعه، ائتني بمسألة مثله، فإن^(١) هذا هو النهاية في التحدي، وإزالة العُذر.

قوله: ﴿مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ في الهاء ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تعود على «ما نزلنا» عند الجمهور كعمرو، وابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم، فيكون «من مثله» صفة لـ «سورة»، ويتعلّق بمحذوف على ما تقرر: أي بسورة كائنة^(٢) من مثل المنزل في فصاحته، وإخباره بالغيوب، وغير ذلك، ويكون معنى «من» التبعية.

واختار ابن عطية والمهدوي أن تكون لليبان، وأجازا هما وأبو البقاء أن تكون زائدة ولا تجيء إلا على قول الأخفش.

الثاني: أنها تعود على «عبدنا» فيتعلّق «من مثله» بـ «أتوا»، ويكون معنى «من» ابتداء الغاية، ويجوز على هذا الوجه أيضاً أن تكون صفة لسورة أي: «بسورة كائنة من رجل مثل عبدنا أُمي^(٣) لا يقرأ ولا يكتب».

قال القرطبي: و «من» على هذين التأويلين للتبعية.

الثالث: قال أبو البقاء: «إنها تعود على الأنداد بلفظ المفرد كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَبْرَةٍ شَقِيقِكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦] ولا حاجة تدعو إلى ذلك، والمعنى ياباه أيضاً.

قال القرطبي: وقيل: يعود على التوراة والإنجيل، والمعنى: فأتوا بسورة من كتاب مثله؛ فإنها تصدّق ما فيه، والوقف على «مثله» ليس بتمام؛ لأن «وادعوا» نسق عليه.

قوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ هذه جملة أمر معطوفة على الأمر قبلها، فهي في محلّ جزم أيضاً، ووزن «ادعوا» افعوا؛ لأن لام الكلمة محذوف دلالة على السكون في الأمر الذي هو جزم في المضارع، و «الواو» ضمير الفاعلين.

و «شهداءكم» مفعول به جمع «شهود» كظريف.

وقيل: بل جمع «شاهد» كـ «شاعر»، والأول أولى؛ لأطراد «فعلاء» في «فعليل»

(٣) في أ: أي.

(٢) في أ: كافية.

(١) في أ: كان.

دون «فاعل»، والشهادة الحضور، وفي المراد من الشهداء وجهان:

الأول: المراد من الشهداء الأوثان.

والثاني: المراد من الشهداء أكابرهم، أو من يوافقهم في إنكار أمر محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنى: ادعوا أكابركم، ورؤساءكم ليعينوكم على المَعَارضة، أو ليشاهدوا ما تأتون به، فيكون [الرد على الجميع أوكد]^(١). و «من دون الله» متعلق بـ «ادعوا» من دون الله شهداءكم، فلا تستشهدوا بالله، فكأنه قال: وادعوا من غير الله من يشهد لكم، ويحتمل أن يتعلّق بـ «شهداءكم» والمعنى: ادعوا من اتخذتموه من دون الله، وزعمتم^(٢) أنهم يشهدون لكم بصحة عبادتكم إياهم، وأعوانكم من دون أولياء الله الذين تستعينون بهم دون الله، أو يكون معنى «من دون الله» بين يدي الله؛ كقوله: [الطويل]

٢٩٣ - تَرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُهُ لِيُوجِهَ آخِيَهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبُ^(٣)

أي: تريك القذى قدامها وهي قدامه؛ لرفقتها وصفائها.

واختار أبو البقاء^(٤) أن يكون «من دون الله» حالاً من «شهداءكم» والعامل فيه محذوف قال: «تقديره: شهداءكم منفردين عن الله، أو عن أنصار الله».

و «دون» من ظروف الأمكنة، ولا تتصرف على المشهور إلا بالجبر بـ «من».

وزعم الأخفش أنها متصرفة، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَتَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن: ١١] فقال: «دون» مبتدأ و «متا» خبره، وإنما بني لإضافته إلى مبني، وقد شدّ رفعه خبراً في قول الشاعر: [الطويل]

٢٩٤ - أَلَمْ تَرَ أَنِّي قَدْ حَمَيْتُ حَقِيقَتِي وَبَاشَرْتُ حَدَّ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ دُونُهَا^(٥)

وهو من الأسماء اللازمة للإضافة لفظاً ومعنى.

وأما «دون» التي بمعنى رديء فتلك صفة كسائر الصفات، تقول: «هذا ثوب دون»، و «رأيت ثوباً دوناً» أي: رديئاً، وليست مما نحن فيه.

و «دون» أيضاً نقيض «فوق» ويقال: هذا دون ذاك، أي: أقرب منه، ويقال في الأخذ بالشيء: دونكه.

(١) في أ: المراد الجمع أو كفار.

(٢) في أ: رغبتهم.

(٣) البيت للأعشى. ينظر الجمهرة: (١١٤/٣)، الكشف: (١٠٠/١)، والدر المصون: (١٥٣/١).

(٤) ينظر الإملاء: ٢٥/١.

(٥) البيت لموسى بن جابر ينظر الدرر: ١٣٠/٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٣٧١، شرح التصريح: ٢٩٠/١، وشرح شذور الذهب: ص ١٠٦، وجمع الهوامع: ٢١٣/١، شواهد البحر: (١/١٢٠)، وروح المعاني: (١٩٥/١)، والدر المصون: (١٥٣/١).

قال تميم للحجاج: أقرنا صالحاً - وكان قد صلبه - فقال: دونكموه.
قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا شرط حذف جوابه للدلالة عليه تقديره: إن كنتم صادقين فافعلوا، ومتعلق الصدق محذوف، والظاهر تقديره هكذا: إن كنتم صادقين في كونكم في ريب من المنزل على عبدنا أنه من عندنا.
وقيل: فيما تقدرون عليه من المعارضة، وقد صرح بذلك عنهم في آية أخرى، حيث قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] والصدق ضد الكذب وقد تقدم، والصديق مشتق منه لصدقه في الوعد والنصح، والصدق من الرماح: الصلبة.

فصل في التهكم بالكافرين

قال ابن الخطيب: «وفي أمرهم بأن يستظهروا بالجماد الذي ينطق في معارضة القرآن المعجز بالفصاحة غاية التهكم بهم».

فصل في الاحتجاج على الجبرية

قال القاضي: هذا التحدي يبطل القول بالجبر من وجوه:
أحدها: أنه مبني على تعذر مثله ممن يصح الفعل منه، فمن ينفي كون العبد فاعلاً لم يمكنه إثبات التحدي أصلاً، وفي هذا إبطال الاستدلال بالمعجز.
وثانيها: أن تعذره على قولهم يكون لفقد القدرة الموجودة، ويستوي في ذلك ما كان معجزاً، وما لا يكون، فلا يصح معنى التحدي على قولهم.
وثالثها: أن ما يضاف إلى العبد فالله - تعالى - هو الخالق له، فتحديه يعود في التحقيق^(١) إلى أنه متحد لنفسه، وهو قادر على مثله من غير شك فيجب ألا يثبت الإعجاز على هذا القول.
ورابعها: أن المعجز إنما يدل بما فيه من بعض العادة، فإذا كان من قولهم: إن المعتاد أيضاً ليس بفعل لم يثبت هذا الفرق، فلا يصح الاستدلال بالمعجز.
وخامسها: أن الرسول ﷺ يحتج بأنه - تعالى - إنما خصه بذلك، تصديقاً له فيما ادّعاه، ولو لم يكن ذلك من قبله - تعالى - لم يكن داخلاً في الإعجاز، وعلى قولهم بالجبر لا يصح هذا الفرق؛ لأن المعتاد وغير المعتاد لا يكون إلا من قبله.
والجواب: أن المطلوب من التحدي أن يأتي الخصم بالمتحدى به قصداً، وأن يقع ذلك منه اتفاقاً.

(١) في أ: التخليق.

والثاني باطل؛ لأن الاتفاقيات لا تكون في وسعِهِ؛ فثبت الأول، وإذا كان كذلك ثبت أن إتيانه بالمتحدى موقوف على أن يحصل في قلبه^(١) قصد إليه، فذاك^(٢) القصد إن كان منه لزم التسلسل، وهو محال، وإن كان من الله - تعالى - فحيثئذ يعود الجبر، ويلزمه كل ما أورده علينا، فبطل كل ما قال.

قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ «إن» الشرطية داخلية على جملة «لم تفعلوا» و «تفعلوا» مجزوم بـ «لم»، كما تدخل «إن» الشرطية على فعل منفي بـ «لا» نحو: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا﴾ [الأنفال: ٧٣]، فيكون لم تفعلوا في محل جزم بها.

وقوله: «فاتقوا» جواب الشرط، ويكون قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ جملة معترضة بين الشرط وجزائه^(٣).

وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية: وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، [ولن تفعلوا فإن لم تفعلوا فاتقوا الثَّار، وفيه نظر لا يخفى، وإنما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾^(٤) وَلَنْ تَفْعَلُوا] فعبر بالفعل عن الإتيان؛ لأن الفعل يجري مجرى الكناية، فيعبر به عن كل فعل، ويغني عن طول ما تكنى به.

وقال الزمخشري^(٥): «لو لم يعدل من لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل، لاستطِيعَ أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، ولن تأتوا بسورة من مثله».

قال أبو حيان: «ولا يلزم ما قال؛ لأنه لو قال: ﴿فإن لم تأتوا ولن تأتوا﴾ كان المعنى على ما ذكر، ويكون قد حذف ذلك اختصاراً، كما حذف اختصاراً مفعول «لم تفعلوا»، ولن تفعلوا» ألا [ترى]^(٦) أن التقدير: فإن لم تفعلوا الإتيان بسورة من مثله، ولن تفعلوا الإتيان بسورة من مثله؟».

فإن قيل: كيف دخلت «إن» على «لم» ولا يدخل عامل على عامل^(٧)؟

فالجواب: أنَّ «إن» ها هنا غير عاملة في اللفظ، ودخلت على «لم» كما تدخل على الماضي، لأنها لا تعمل في «لم» كما لم تعمل في الماضي، فمعنى «إن لم تفعلوا» إن تركتم الفعل.

و «لَنْ» حرف نصف معناه نفي المستقبل، ويختص بصيغة المضارع كـ «لَمْ»، ولا يقتضي نفيه التَّأْيِيدَ، وليس أقلُّ مدة من نفي «لَا»، ولا نونه^(٨) بدلاً من ألف «لَا»، ولا هو مرْكَباً من «لَا أَنْ»؛ خلافاً للخليل، وزعم قوم أنها قد تجزم، منهم أبو عبيدة؛ وأنشدوا: [الخفيف]

(٥) ينظر الكشف: ١٠١/١.

(٦) سقط في أ.

(٧) في أ: فاعل.

(٨) في أ: كونه.

(١) في ب: قبله.

(٢) في أ: هذا.

(٣) في أ: وجوابه.

(٤) سقط في أ.

٢٩٥ - لَنْ يَخْبَ الْآنَ مِنْ رَجَائِكَ مَنْ حَزَرَكَ مِنْ دُونِ بَابِكَ الْحَلَقَةَ^(١)
وقال النابغة: [البسيط]

٢٩٦ - فَلَنْ أَعْرِضَ أَبَيْتَ اللَّعْنِ بِالصَّفْدِ
ويمكن تأويل ذلك بأنه مما سَكَنَ فيه للضرورة.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا النَّارَ﴾ هذا جواب الشرط كما تقدم، والكثير في لغة العرب: «اتَّقَى يَتَّقِي» على افْتَعَلَ يَفْتَعِلُ، ولغة «تميم» و «أسد»: تَقَى يَتَّقِي؛ مثل: رَمَى يَرْمِي، فيسكنون ما بعد حرف المضارعة؛ حكى هذه اللغة سيبويه، ومنهم من يحرك ما بعد حرف المضارعة؛ وأنشدوا: [الوافر]

٢٩٧ - تَقْوُهُ أَثَمُهَا الْفَثِيانُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ غَلَبَ الْجُدُودَ^(٣)
وقال آخر: [الطويل]

٢٩٨ - تَقَى اللَّهَ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَثْلُو^(٤)
قوله تعالى: ﴿الْأَنَارَ﴾ مفعول به، و «التي» صفتها، وفيها أربع اللغات المتقدمة، كقوله: [الكامل]

٢٩٩ - شَغِفَتْ بِكَ اللَّثَّ تَيْمَثَكَ فَمِثْلُ مَا بِكَ مَا بِهَا مِنْ لَوْعَةٍ وَغَرَامٍ^(٥)
وقال آخر: [الوافر]

٣٠٠ - فَقُلْ لِّلَّتْ تَلُومُكَ إِنَّ نَفْسِي أَرَاهَا لَا تُعَوِّذُ بِالتَّمِيمِ^(٦)

(١) البيت لأعرابي ينظر الدرر: ٦٣/٤، وشرح شواهد المغني: ٦٨٨/٢، الأشباه والنظائر: ٣٣٦/١، وشرح الأشموني: ٥٤٨/٣، ومغني اللبيب: ٢٨٥/١، وجمع الهوامع: ٤/٢، وروح المعاني: (١/١٩٨)، والدر المصون: (١/١٥٤).

(٢) عجز بيت وصدرة:

هذا الثناء فإن تسمع لقائله

ينظر ديوانه: (٢٥)، القرطبي: (١/١٦٣)، المحرر الوجيز: (١/١٠٧)، الدر المصون: (١/١٥٥).
(٣) البيت لخداش بن زهير. ينظر سر صناعة الإعراب: ١/١٩٨، والمقاصد النحوية: ٢/٣٧١، ونوادر أبي زيد: ص ٢٧، والممتع في التصريف: ١/٢٢٣، والمنصف: ١/٢٩٠، والدر المصون: (١/١٥٥).

(٤) عجز بيت لعبد الله بن همام السلولي وصدرة:

زيادتنا نعمان لا تحرمنا

ينظر الخصائص: (٢/٢٨٦)، المحتسب: (٢/٣٧٢)، الأمالي الشجرية: (١/٢٠٥)، اللسان: (تخذ)، والدر المصون: (١/١٥٥).

(٥) ينظر الهمع: (١/٨٢)، أمالي ابن الشجري: ٢/٣٠٨، والدر: ١/٥٦، والخزانة: ٢/٢٩٩، والدر المصون: ١/١٥٥.

(٦) ينظر خزانة الأدب: ٦/٦، والدر: ١/٢٥٨، والأزهية: ص ٣٠٣، وجمع الهوامع: ١/٨٢، وأمالي ابن الشجري: (٢/٣٠٨)، والدر المصون: (١/١٥٥).

و «وقودها النَّاس والحجارة» جملة من مبتدأ وخبر، صلة وعائد، والألف واللام في «النار» للعهد.

فإن قيل: الصَّلَة مقررة، فيجب أن تكون معلومة فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟

والجواب: لا يمتنع أن يتقدّم لهم بذلك الصَّلَة معهودة عند السامع بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] وقوله: ﴿فَغَشَّيْنَاهَا مَا غَشَّيْنَا﴾ [النجم: ٥٤] وقال: ﴿فَغَشَّيْنَاهُم مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ﴾ [طه: ٧٨] إلا أنه خلاف المشهور أو لتقدم ذكرها في سورة التحريم - وهي مدنية بالاتفاق - وقد غلط الزمخشري في ذلك.

والمشهور فتح واو الوقود، وهو اسم ما يوقد به. وقيل: هو مصدر كالولوع والقَبُول والوَضُوء والطَّهُور، ولم يَجِء مصدر على «فَعُول» غير هذه الألفاظ فيما حكاه سيويه.

وزاد الكسائي: الوَزُوع. وقرئ^(١) شاذًا في سورة «ق» ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فتصير سبعة، وهناك ذكرت هذه القراءة، ولكن المشهور أن الوقود والوَضُوء والطَّهُور بالفتح اسم، وبالضم مصدر.

وقرأ^(٢) عيسى بن عمر بفتحها وهو مصدر.

وقال ابن عطية: وقد حُكِيَ جميعاً في الخطب، وقد حُكِيَ في المصدر. انتهى. فإن أريد اسم ما يوقد به فلا حاجة إلى تأويل، وإن أريد بهما المصدر فلا بد من تأويل، وهو إما المُبَالِغَةُ أي: جُعِلُوا نفس التوقد مبالغة في وضعهم بالعذاب، وإما حذف مضاف، إما من الأول أي أصحاب توقدها، وإما من الثاني أي: يوقدها إحراق الناس، ثم حذف المُضَاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. والهاء في «الحجارة» لتأنيث الجمع.

فَضْلٌ فِي تَثْنِيَةِ «الَّتِي» وَجَمْعِهِ

وفي تثنية «التي» ثلاث لغات:

«الَّتَانِ»، و «الَّتَا» بحذف النون، و «الَّتَانِ» بتشديد النون، وفي جمعها خَمْسُ

(١) ستأتي في سورة ق آية (٣٨).

(٢) قرأ بها مجاهد، وطلحة، وأبو حيو، وعيسى بن عمر الهمداني، واختلف عن الحسن. انظر المحرر الوجيز: ١٠٧/١، وقال ابن عطية: قال ابن جني: من قرأ بضم الواو، فهو على حذف مضاف، تقديره: ذو وقودها؛ لأن الوقود بالضم مصدر، وليس بالناس، وقد جاء عنهم: الوقود بالفتح في المصدر؛ ومثله ولعت به «ولو عا» بفتح الواو، وكله شاذ، والباب هو الضم. ١ هـ. ينظر البحر المحيط: ٢٤٩/١، والدر المصون: ١٥٥/١، والقرطبي: ١٦٤/١.

لُغَاتٍ: «اللَّاتِي» - وهي لغة القرآن - و «اللَّاتِ» - بكسر التاء بلا ياء - و «اللَّوَاتِي»، و «اللَّوَاتِ» - بلا ياء، وأنشد أبو عُبَيْدَةَ: [الرجز]

٣٠١ - مِنَ اللَّوَاتِي وَالَّتِي وَاللَّاتِ رَعَمَنْ أَنِّي قَدْ كَبِرْتُ لِذَاتِي^(١)
و «اللَّوَاءِ» بإسقاط «التاء» حكاها الجوهري.

وزاد ابن السَّجَرِيُّ: «اللَّائِي» بالهمز وإثبات «الياء»، و «اللَّاءِ» بكسر «الهمزة» وحذف «الياء» و «اللَّاءِ» بحذف الهمزة، فإن جمعت الجمع، قلت في «اللَّائِي»: «اللَّوَاتِي» وفي «اللَّائِي»: «اللَّوَاتِي».

قال الجوهري: وتصغير «الَّتِي» «اللَّيَّيَا» بالفتح والتشديد، قال الراجز: [الرجز]

٣٠٢ - بَعْدَ اللَّيَّيَا وَاللَّيَّيَا وَالَّتِي إِذَا عَلَنَهَا أَنْفُسُ تَرَدَّتْ^(٢)

وبعض الشعراء أدخل على «الَّتِي» حرفَ النداء، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا: «يَا أَلَّه» وحده، فكأنه شبهها به؛ من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها؛ وقال: [الوافر]

٣٠٣ - مِّنْ أَجْلِكَ يَا الَّتِي تَبِمَتْ قَلْبِي وَأَنْتِ بِخَيْلَةٍ بِالْوُدِّ عَنِّي^(٣)
ويقال: «وقع فلان في اللَّيَّيَا وَالَّتِي» وهما اسمان من أسماء الداهية.

فَصْلٌ

قال ابن الخطيب^(٤): انتفاء إتيانهم بالسورة واجب، فهلاً جيء بـ «إِذَا» الذي للوجوب دون «إِنْ» الذي^(٥) للشك؟ والجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه ساق القول معهم على حسب حسابهم، وأنهم لم يكونوا بعد جازمين بالعجز عن المعارضة؛ لاتكالهم على فصاحتهم، واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أنه تهكَّم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة لمن هو دونه: «إِنْ غلبتك لم أَبْقِ عليك»، وهو عالم أنه غالبه تهكماً به. فإن قيل: ما معنى

(١) ينظر مجاز القرآن: ١١٩/١، وخزانة الأدب: ٨٠/٦، ١٥٤، ولسان العرب (لنا)، والقرطبي: ١/١٦٣.

(٢) ينظر القرطبي: ١٦٣/١.

(٣) ينظر أسرار العربية: ص ٢٣٠، والكتاب: ١٩٧/٢، ولسان العرب (لنا)، والمقتضب: ٢٤١/٤، وخزانة الأدب: ٢٩٣/٢، والدرر: ٣١/٣، والأشباه والنظائر: ١٧٩/٢، والإنصاف: ٣٣٦/١، والجنى الداني: ص ٢٤٥، وشرح عمدة الحافظ: ص ٢٩٩، وشرح المفصل: ٢٨/٢، واللامات: ص ٥٣، وجمع الهوامع: ١٧٤/١.

(٤) ينظر الفخر الرازي: ١١١/٢.

(٥) في أ: التي.

اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله. والجواب: إذا ظهر عجزهم عن المُعَارضة صَحَّ عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صَحَّ ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، فاتقاء النار يوجب ترك العناد، فأقيم المؤثر مقام الأثر، وجعل قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ قائماً مقام قوله: فاتركوا العناد، فأتاب النار منابه.

و «الحجارة» روي عن ابن مسعود والفراء - رضي الله تعالى عنهما - أنها حجارة الكبريت^(١)، وخَصَّتْ بذلك؛ لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الإيقاد، وتنن الرائحة، وكثرة الدُخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت.

وقيل: المراد بالحجارة الأصنام، لأنهم لما قرنوا أنفسهم بها في الدنيا حيث نحتوها أصناماً، وجعلوها أنداداً لله، وعبدوها من دونه قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وفي معنى «الناس والحجارة» و «حصب جهنم» في معنى «وقودها».

ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء، والشهداء الذين يشفعون لهم، ويستدفعون بها المضار عن أنفسهم جعلهم الله عذابهم، فقرنهم بها محماة في نار جهنم إبلاغاً في تحسيرهم، ونحوه ما يفعل بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشعوا بها، ومنعوا من الحقوق، حيث يحمي عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال ابن الخطيب^(٢): والقول بأنها حجارة الكبريت تخصيص بغير دليل، بل فيه ما يدل على فساده؛ لأن الغرض هُنا تفخيم صفة النار، والإيقاد بحجارة الكبريت أمر معتاد، فلا يدل الإيقاد بها على قوة النار.

أما لو حملناه على سائر الحجارة، دلَّ على عظم أمر النار؛ فإن سائر الأحجار تطفأ بها النيران، فكأنه قال: تلك النار نار بلغت لقوتها أن تتعلَّق في أول أمرها بالحجارة التي هي مطفئة لنيران الدنيا.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨١/١) بإسنادين عن ابن مسعود موقوفاً وأخرجه الحاكم (٢/٢٦١) من طريق محمد بن عبيد عن مسعر عن عبد الملك الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبه إلى: عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وهناد بن السري في كتاب الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في «الشعب».

(٢) ينظر الرازي: ١١٣/٢.

قال القرطبي: «وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] دليل على أنه ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكره في غير موضع، من كون الجن والشياطين فيها» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذٍ في النَّارِ»^(١) وفي تأويله وجهان: أحدهما: كل من آذى الناس في الدنيا عذبه الله في الآخرة بالنار.

والثاني: أن كل ما يؤذي النَّاس في الدنيا من السَّباع والهوام وغيرها في النار معدة لعقوبة أهل النار.

وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هي للكافرين خاصة.

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب^(٢) - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، إن أبا طالب^(٣) كان يحوطك وينصرك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وَجَدْتُهُ فِي غَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَخْضَاخٍ»^(٤).

وفي رواية: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ويدل على هذا التأويل قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وقال ابن الخطيب^(٥): وليس فيها ما يدل على أنه ليس هناك نيران آخر غير موصوفة بهذه الصفة، معدة لفساق أهل الصلاة.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل لما لم يسم فاعله، والقائم مقام الفاعل ضمير «النَّارِ»، والتاء واجبة، لأن الفعل أسند إلى ضمير المؤنث، ولا يلتفت إلى قوله: [المتقارب]

(١) أخرجه الخطيب (٢٩٩/١١) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٤٩/٢) وابن عساكر كما في «كنز العمال» (٥٢٣/١٤) رقم (٣٩٤٨٤) قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. وقال المتقي الهندي في «الكنز» (٥٢٣/١٤): قال المناوي: خبر غريب.

(٢) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل: من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ولد في ٥١ هـ وهو جد الخلفاء العباسيين، قال رسول الله ﷺ في وصفه: أجود قريش كفاً وأوصلها، هذا بقية آبائي، وهو عمه، كان محسناً لقومه وعمي في آخر حياته توفي في ٣٢ هـ. ينظر نكت الهميان: ١٧٥، صفة الصفوة: ٢٠٣/١، ذيل المذيل: ١٠، ابن عساكر: ٢٢٦/٧، الخميس: ١٦٥/١، المرزباني: ٢٦٢، المحبر: ٦٣، الأعلام: ٢٦٢/٣.

(٣) عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، أبو طالب: والد علي رضي الله عنه، وعم النبي ﷺ وكافله ومربيه، ومناصره، كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم، ومن الخطباء العقلاء الأباة، وله تجارة كسائر قريش، نشأ النبي في بيته، وسافر معه إلى الشام، ودافع عن النبي أثناء الدعوة ولد سنة ٨٥ قبل الهجرة وتوفي سنة ٣ قبل الهجرة.

ينظر طبقات ابن سعد: ٧٥/١، ابن الأثير: ٣٤/٢، الأعلام: ١٦٦/٤.

(٤) أخرجه البخاري: ٢٣٢/٧، ٢٣٣، كتاب مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلم والحميدي رقم (٤٦٠).

(٥) ينظر الرازي: ١١٣/٢.

٣٠٤ - فَلَا مُزْنَةَ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا^(١)
لأنه ضرورة؛ خلافاً لابن كيسان.

و «للكافرين» متعلق به، ومعنى «أَعِدَّتْ»: هَيَّئَتْ؛ قال: [مجزوء الكامل]
٣٠٥ - أَعِدَّدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا بِقَّةً وَعَدَاءً عَلَّ نَدَى^(٢)
وقرىء^(٣): «أَعِدَّدْتُ» من العَدَاد بمعنى العدة، وهذه الجملة الظاهر أنها لا محل

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي.

ينظر الكتاب لسيبويه: ٤٦/٢، والعيني: ٤٦٤/٢، وابن يعيش: ٩٤/٥، وهمع الهوامع: ١٧١/٢، والمغني: ٦٥٦/٢ رقم ٨٩٥، وابن السجري: ١٥٨/١، ١٦١، ومجاز القرآن: ٦٧/٢، ١٢٤، والأخفش: ٣٠٠/٥٥، ومعاني القرآن للفراء: ١٢٧/١، والكامل: ٢٧٩/٢، ٩١/٣، المذكر والمؤنث للمبرد: ١١٢، والمسائل الشيرازيات: ص ٩، والإيضاح باب المذكر والمؤنث، والخصائص: ١١٤/٢، والمحتسب: ١١٢/٢، والإفصاح لأبي نصر الفارقي: ٩٩، والتنبيه لعلي بن حمزة: ٣٠٣، البسيط في شرح جمل الزجاجي: ص ٢٦٥/١، وشرح أبيات سيبويه لابن السيرافي: ٥٥٧/١، فرحة الأديب: ١٠٢، إعراب القرآن للنحاس: ٦١٩/١، ما يجوز للشاعر في الضرورة: ١٠٢٣، الرد على النحاة: ٦٣، شرح المفصل: ٩٤/٥، ضرائر الشعر: ٢٧٥، رصف المباني: ١٦٦، شرح اللمحة البدرية: ٢٩٢/٢، والتصريح: ٢٧٨/١.

والأصل في اتصال تاء التأنيث بالفعل، إن كان الضمير المفرد مؤنثاً، تلحق الفعل علامة تفصل بين تأنيث الفاعل وتذكيره لا غير، وهي التاء؛ فتقول: هند قامت؛ كما تقول: قامت هند، فإن كان التأنيث لفظياً غير معنوي، كنت في إثبات العلامة وحذفها مخيراً، نحو: «قالت الأعراب»، و «قال نسوة»؛ لأن تأنيث الجماعة غير حقيقي؛ وكذلك إذا وقع الفصل بينهما، قال الله - تعالى -: «قد جاءكم موعظة من ربكم»، وقال تعالى: «قد جاءكم بصائر من ربكم»، ففصل بينهما بالمفعول، وأثبت وحذف، وقالت العرب: حضر القاضي اليوم امرأة، فحذفوا مع الفصل في التأنيث الحقيقي. فإن تأخر الفعل عن التأنيث غير الحقيقي، لم تحذف العلامة إلا في ضرورة الشعر، نحو:

فلا مزنه ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

بتأويل: ولا مكان أبقل؛ لأنك إذا أضمرت الفاعل صار الضمير بمنزلة جزء من الفعل، ويقبح أن يكون الجزء مخالفاً طبيعة كله في التذكير والتأنيث. (شرح اللمع لابن برهان العكبري ص ٤٤/١).

ومنهم من يرويه: ولا أرض أبقلت إبقالها - على تخفيف الهمزة من «إبقالها»، وإلقاء حركتها على التاء من أبقلت، ولا شاهد فيه على هذه الرواية، وهذه الرواية من إصلاح بعض الرواة، والذي أنشده الرواة هو الموجود في الكتب القديمة. (شرح أبيات سيبويه ٣٩٣/١) وقال ابن خلف: الشاهد أنه ذكر فيه «أبقل» مع أنه مسند إلى ضمير الأرض؛ للضرورة حملاً على المكان، وهو قبيح. وقال أبو حنيفة الدينوري في كتاب «النبات» عندما أنشد هذا البيت: إن الأرض تذكر وتؤنث، وكذلك السماء فلا ضرورة فيه، وزعم «الصاغانى» في «العباب»: أن الرواية «ولا روض أبقل إبقالها» - ولو كان البيت كذلك، لقال: ولا روض أبقل إبقاله، بتذكير الضمير، مع أن سيبويه رواه: ولا أرض، وهو ثقة والاعتماد عليه أكثر. (شرح أبيات المغني ص ١٧/٨).

(٢) البيت لعمر بن معد يكرب. ينظر الحماسة: (١٠٤/١)، الدر المصنوع: (١٥٦/١).

(٣) قرأ بها عبد الله بن مسعود.

انظر الشواذ ص ٤، والبحر المحيط: ٢٥١/١، والدر المصنوع: ١٥٦/١.

لها؛ لكونها مستأنفة جواباً لمن قال: لمن أعدت^(١)؟

وقال أبو البقاء: محلها النصب على الحال من «النار»، والعامل فيها «اتقوا».

قيل: وفيه نظر، فإنها معدة للكافرين اتقوا أم لم يتقوا، فتكون حالاً لازمة، لكن الأصل في الحال التي ليست للتوكيد أن تكون منتقلة، فالأولى أن تكون استثنافاً.

قال أبو البقاء^(٢): ولا يجوز أن تكون حالاً من الضمير في «وقودها» لثلاثة أشياء: أحدها: أنها مضاف إليها.

الثاني: أن الحطب لا يعمل يعني أنه اسم جامد.

الثالث: الفصل بين المصدر أو ما يعمل عمله، وبين ما يعمل فيه الخبر وهو «الناس»، يعني أن الوقود بالضم، وإن كان مصدرأ صالحاً للعمل، فلا يجوز ذلك أيضاً؛ لأنه عامل في الحال، وقد فصلت بيه وبينها بأجنبي، وهو «الناس» وقال السجستاني: «أعدت للكافرين» من صلة «التي» كقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن «التي» هنا وصلت بقوله: «وقودها الناس» فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية، بخلاف التي في «آل عمران».

قلت: ويمكن ألا يكون غلطاً؛ لأننا لا نسلم أن «وقودها الناس» - والحالة هذه - صلة، بل إما معترضة، لأن فيها تأكيداً وإما حالاً، وهذان الوجهان لا يمنعهما معنى، ولا صناعة.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

اعلم: أنه - سبحانه وتعالى - لما تكلم في التوحيد والثبوة، تكلم بعدهما في المَعَاد، وبين عقاب^(٣) الكافر، وثواب المُطِيع، ومن عادة الله - تعالى - أنه إذا ذَكَرَ الوَعِيدَ، أن يعقبه بذكر الوَعْدِ.

وها هنا فُصُولٌ:

الأول: هذه الآيات صريحة في أن الجنة والنار مخلوقتان؛ لأنه - تعالى - [قال]^(٤) في صفة النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، وقال في صفة الجنة في آية أخرى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال هاهنا: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، وهذا إخبار عن وقوع هذا الملك وحصوله، وحصول الملك في الحال يقتضي حصول

(١) في أ: عذاب.

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ: أعددت.

(٤) ينظر الإملاء: ٢٥/١.

الْمَمْلُوكِ فِي الْحَالِ؛ فَذَلَّ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ.

الثاني: مَجَامِعُ اللَّذَاتِ: إما الْمَسْكَن، أو الْمَطْعَم، أو الْمَنَكْح.

فَوَصَفَ تَعَالَى الْمَسْكَنَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَالْمَطْعَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ وَالْمَنَكْحَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

ثم هذه الأشياءُ إِنْ حَصَلَتْ، وقَارَنَهَا خَوْفُ الزَّوَالِ، كَانَ النَّعِيمُ مُنْعَصًا، فَبَيَّنَ - تَعَالَى - زَوَالَ هَذَا الْخَوْفِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ فَذَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى كَمَالِ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ.

الثالث: قَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذه الجملةُ مَغْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا، عَطْفٌ جُمْلَةً ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى جُمْلَةِ ثَوَابِ الْكَافِرِينَ، وَجَازَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَذْهَبَ سِبْيَوِيَّه - وَهُوَ الصَّحِيحُ - أَنَّهُ لَا يَشْتَرِطُ فِي عَطْفِ الْجُمْلَةِ التَّوَافُقُ مَعْنَى، بَلْ تُعْطَفُ الطَّلَبِيَّةُ عَلَى الْخَبَرِيَّةِ؛ وَبِالْعَكْسِ؛ [بَدِيلٌ] ^(١) قَوْلُهُ: [الطويل]

٣٠٦ - تُنَاقِي عَزَّالًا عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَامِرٍ وَكَحَلْ أَمَاقِيكَ الْحَسَانَ بِإِثْمِدٍ ^(٢)
وقول امرئ القيس: [الطويل]

٣٠٧ - وَإِنَّ شِفَائِي عِبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلٍ ^(٣)؟
وقال ابنُ الْخَطِيبِ: لَيْسَ الَّذِي اعْتَمَدَ بِالْعَطْفِ هُوَ الْأَمْرُ، حَتَّى يَطْلُبَ لَهُ مَشَاكِلُ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ يَعْطِفُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا الْمَعْتَمَدُ بِالْعَطْفِ هُوَ جُمْلَةُ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَهِيَ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ وَضَفِّ عِقَابِ الْكَافِرِينَ كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ يَعَاقِبُ بِالْقَيْدِ وَالضَّرْبِ وَبَشَّرَ عَمْرٌو بِالْعَفْوِ وَالْإِطْلَاقِ.

وَأَجَازَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَبُو الْبَقَاءِ أَنَّ يَكُونُ عَطْفًا عَلَى «فَاتَّقُوا» لِيَعْطِفَ أَمْرًا عَلَى أَمْرٍ، وَهَذَا قَدْ رَدَّهُ أَبُو حَيَّانَ بِأَنَّ «فَاتَّقُوا» جَوَابُ الشَّرْطِ، فَالْمَعْطُوفُ يَكُونُ جَوَابًا؛ لِأَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُهُ، وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ تَبَشِيرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَرْتَبُ عَلَى قَوْلِهِ: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا».

وقرئ: «وَبَشَّرَ» [مَاضِيًا] مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ.

(١) سقط في أ.

(٢) البيت لحسان بن ثابت. ينظر ديوانه: ص ١٣٤، وشرح شواهد المغني: ٨٧٢/٢، شرح الأشموني: ٤٣٤/٢، ومغني اللبيب: ٤٨٣/٢، الدرر المصون: (١/١٥٧).

(٣) ينظر ديوانه: ٩، وخزانة الأدب: ٤٤٨/٣، ٢٧٧/٥، و ٢٨٠، والدرر: ١٣٩/٥، وسر صناعة الإعراب: ٢٥٧/١، شرح أبيات سيبويه: ٤٤٩/١، وشرح شواهد المغني: ٧٧٢/٢، والكتاب: ٢/١٤٢، ولسان العرب [عول] [هلل]، والمنصف: ٤٠/٣، وشرح الأشموني: ٤٣٤/٢، شرح شواهد المغني: ٨٧٢/٢، مغني اللبيب: ٣٥٠/٢، همع الهوامع: ٧٧/٤، وشرح التبريزي على المعلقات: (٥٧)، والشنقيطي: (٥٩)، والمقتضب: ٧٤/٤، والدرر المصون: ١٥٧/١.

وقال الزمخشري: «وهو عَطَفَ على أعدت».

قيل: وهذا لا يتأتى على إعراب «أعدت» حالاً؛ لأنها لا تصلح للحالية.

وقيل: عطفها على «أعدت» فاسد؛ لأن «أعدت» صلة «التي»، والمعطوف على الصلة صلة، ولا يصلح أن يقال: «الباء» التي بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جنَّاتٍ، إلا أن يعتقد أن قوله: «أَعِدْتُ» مستأنفٌ، والظاهرُ أنَّه من تمام الصلة، وأنَّه حالٌ من الضمير في «وقودها»، والمأمور بالبشارة يجوز أن يكون الرسول عليه السَّلام، وأن يكون كُلُّ سَامِعٍ، كما قال عليه السلام: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالْثَّوْرِ النَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، لم يأمر بذلك أحداً بعينه، وإنما كل أحدٍ مأمور به.

و «البشارة»: أَوَّلُ خَبَرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ قالوا: لأنَّ أثرها يظهرُ في البَشَرَةِ، وهي ظاهرُ جِلْدِ الْإِنْسَانِ؛ وَأَنْشَدُوا: [الوافر]

٣٠٨ - يُبَشِّرُنِي الْغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلْتُكَ مِنْ بَشِيرٍ^(٢)
وقال آخر: [الطويل]

٣٠٩ - وَبَشَّرْتَنِي يَا سَعْدُ أَنَّ أَحِبَّتِي جَفَوْنِي وَأَنَّ الْوَدَّ مَوْعِدُهُ الْحَشَرُ^(٣)
وهذا رأي سيبويه^(٤)، إلا أنَّ الأكثر استعمالها في الخير، وإن استعملت في الشَّرِّ فَيَقِيدُ؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وإن أُطْلِقَتْ، كان للخير.
وقال البغوي: «البشارة كل خبر صدق».

وقال ابن الخطيب: إنَّها الخبرُ الذي يُظْهِرُ السرور، ولهذا قال الفقهاء: إذا قال لعبيده: أَيُّكُمْ يُبَشِّرُنِي بِقُدُومِ فُلَانٍ فَهُوَ خَيْرٌ، فَبَشِّرْهُ فُرَادَى، عَتَقَ أَوْلَهُمْ؛ لأنَّه هو الذي أفاد خبره السرور. ولو قال مكان «بَشِّرُنِي»: أَخْبِرْنِي عَتَقُوا جَمِيعاً؟ لأنَّهم جميعاً أخبروه، وظاهرُ كلام الزمخشري أنَّها تختص بالخير؛ لأنَّه تَأَوَّلَ «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ» على العكس في

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «الكبير» (٣٥٨/١٢) وابن عساكر: (٥١/٢) والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣/٢) وقال: وفيه العباس بن عامر الضبي ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله موثقون وأخرجه الترمذي (٢٢٣) وأبو داود (٢٢٠/١) وابن ماجه (٧٨١) عن بريدة الأسلمي مرفوعاً بلفظ: بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وللحديث شواهد انظرها في «مجمع الزوائد» (٣١/٣).

(٢) ينظر البحر المحيط: (٢٥٣/١)، الدر المصون: (١٥٧/١).

(٣) البيت لسلمة بن يزيد الجعفي ينظر الدرر: ١٨٢/٤، سمط اللآلي: ص ٧٠٨، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ١٠٨١، المقاصد النحوية: ٢٧٣/٣، وليلى بنت سلمى في حماسة البحري: ص ٣٧٤، همع الهوامع: ٣٥/٢، والدر المصون: ١٥٧/١.

(٤) ينظر الكتاب: ١٠٧/٢، ٢٢٧.

الكلام الذي يقصد به الزيادة في غيظ المُستَهْزَأِ بِهِ وتَأْلُمِهِ، كما يقول الرَّجُلُ لِعَدُوِّهِ: أَبْشِرْ بقتل ذريتكَ ونَهَبِ مالك .

والفِعْلُ منها بَشَرَ وَبَشَّرَ مخففاً ومثقلاً، فالتثقيل للتكثير بالنسبة إلى البشيرة .

وقد قُرِئَ^(١) المضارعُ مخففاً ومشدداً .

وأما الماضي فلم يقرأ به إلا مثقلاً نحو ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١] وفيه لغة أخرى: أَبَشَرَ مثل أَكْرَمَ .

وأنكر أبو حَاتِمٍ التخفيف، وليس بصواب لمجيء مضارعه .

وبمعنى البشارة: البُشُور والتَّبَشِيرُ والإِبْشَار، وإن اختلفت أفعالها، والبِشَارَةُ أيضاً: الجَمَالُ، والبَشِيرُ: الجميلُ، وتَبَاشِيرُ الفَجْرِ أوَائِلُهُ .

وكون صلة «الَّذِينَ» فعلاً ماضياً دون كونه اسم فاعل، دليلٌ على أنه يستحقُّ التبشير بفضل الله ممن وقع منه الإيمانُ، وتحققَ به وبالأعمال الصالحة .

و «الصَّالِحَاتُ»: جمع «صالحة»، وهي من الصفات التي جَرَتْ مجرى الأسماء في إيلائها العوامل؛ قال: [البسيط]

٣١٠ - كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنْفُكُ صَالِحَةً مِنْ آلٍ لَأَمْ يَظْهَرَ الْغَيْبُ تَأْتِينِي^(٢)

وعلامَةُ نصبه الكسرة؛ لَأَنَّهُ من باب جمع المؤنث السالم نيابة عن الفتحة، التي هي أصلُ النَّصْبِ .

قال معاذ^(٣): «العملُ الصَّالِحُ الذي فيه أربعة أشياء: العِلْمُ والنِّيَّةُ والصَّبْرُ والإِخْلَاصُ» .

وقال عثمان بن عَفَّان: «أخلصوا الأعمال» .

فَضْلٌ

قال ابن الخطيب^(٤): هذه الآية تدلُّ على أَنَّ الأعمالَ غيرَ داخلَةٍ في الإيمان؛ [لأنَّه لما ذكر الإيمان]^(٥)، ثُمَّ عطف عليه العمل الصالح، فوجب التغير وإلا لزم التكرار، وهو خلاف الأصل .

قوله: ﴿أَنْ لَّهُمْ جَنَّتٌ﴾ .

(١) انظر السبعة: ٢٠٥، والدر المصون: ١٥٧/١ .

(٢) البيت للخطبة. ينظر ديوانه: (٨٦)، الكشف: ٥٤٧/٤، الدر المصون: ١٥٨/١ .

(٣) في أ: قتادة .

(٤) ينظر الفخر الرازي: ١١٧/٢ .

(٥) سقط في أ .

«جَنَّاتٍ»: اسم: «أَنَّ». و «لَهُمْ» حَبْرٌ مُقَدَّمٌ. ولا يجوز تقديم خبر «أَنَّ وأخواتها إلا ظرفاً أو حرف جرٍّ، و «أَنَّ» وما في حيزها^(١) في محل جرٍّ عند الخليل والكسائي، ونصب عند سيبويه والفرّاء؛ لأنَّ الأصل: وَيَبْشُرُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنَّ لَهُمْ، فحذف حرف الجرِّ مع «أَنَّ»، وهو حذفٌ مُطَرِّدٌ معها، ومع «أَنَّ» الناصبة للمضارع، بشرط أَمْنِ اللَّبْسِ، بسبب طولهما بالصلة، فلمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ، جرى الخلافُ المذكورُ، فالخليل والكسائي يقولان: «كَأَنَّ الحرف موجود، فالجرُّ باقٍ».

واستدلَّ الأخفشُ لهما بقول الشاعر: [الطويل]

٣١١ - وَمَا زُرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً إِلَيَّ وَلَا دِينَ بِهَا أَنَا طَالِبُهُ^(٢)
فَعَطَفُ «دِينَ» بالجرِّ على محلِّ «أَنْ تَكُونَ» يَبِينُ كونها مجرورةً.
قيل: «ويحتملُ أن يكون من باب عطفِ التَّوَهُّمِ، فلا دليلَ فيه».

والفرّاء وسيبويه يقولان: وَجَدْنَاهُمْ إِذَا حَذَفُوا حَرْفَ الْجَرِّ، نَصَبُوا؛ كقوله: [الوافر]

٣١٢ - تَمُرُونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا كَلَامُكُمْ عَلَيَّ إِذَنْ حَرَامٌ^(٣)
أي: بالديار، ولا يجوزُ الجرُّ إلَّا في نادرٍ شعريٍّ؛ كقوله: [الطويل]

٣١٣ - إِذَا قِيلَ: أَيُّ النَّاسِ شَرُّ قَبِيلَةٍ؟ أَشَارَتْ كُلِّيبٌ بِالْأَكْفِ الْأَصَابِعِ^(٤)
أي: إلى كُلِّيبٍ؛ وقول الآخر: [الكامل]

٣١٤ - حَتَّى تَبَدِّخَ فَازَتْقَى الْأَعْلَامِ^(٥)
أي: إلى الْأَعْلَامِ.

(١) في أ: خبرها.

(٢) البيت للفرزدق ينظر ديوانه: ٨٤/١، والكتاب: ٢٩/٣، وشرح أبيات سيبويه ١٠٣/٢، ولسان العرب (حنطب)، وتخليص الشواهد: ص ٥١١، والدرر: ١٨٣/٥، وسمط اللآلي: ص ٥٧٢، وشرح شواهد المغني: ص ٨٨٥، والإنصاف: ص ٣٩٥، والمقاصد النحوية: ٥٥٦/٢، وبلا نسبة في شرح الأشموني: ١٩٧/١، ومغني اللبيب: ص ٥٢٦، وجمع الهوامع: ٨١/٢.

(٣) تقدم برقم (١٥٩).

(٤) البيت للفرزدق ينظر ديوانه: ٤٢٠/١، وتخليص الشواهد: ص ٥٠٤، وخزانة الأدب: ١١٣/٩، ١١٥، والدرر: ١٩١/٤، وشرح التصريح: ٣١٢/١، وشرح شواهد المغني: ١٢/١، والمقاصد النحوية: ٥٤٢/٢، وأوضح المسالك: ١٧٨/٢، وشرح الأشموني: ١٩٦/١، وشرح ابن عقيل: ص ٣٧٤، ومغني اللبيب: ٦١/١، ٦٤٣/٢، وجمع الهوامع: ٣٦/٢، ٨١، والدرر المصون: ١٥٨/١.

(٥) عجز بيت وصدرة:

وكريمة من آل قيس ألفته

ينظر الجمع: (٣٦/٢)، الدرر المصون: (١٩٢/٤)، شرح الأشموني: (٣٠٠/٢)، شرح ابن عقيل: ص (٣٧٥)، لسان العرب (ألف)، المقاصد النحوية: ٣٤١/٣، الدرر المصون: (١٥٨/١).

و «الْجَنَّةُ»: الْبُسْتَانُ.

وقيل: الْأَرْضُ ذَاتِ الشَّجَرِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِسِتْرِهَا مِنْ فِيهَا، وَمِنْهُ «الْجَنِينُ» لِاسْتِتَارِهِ، وَ «الْمَجْنُ»: التُّرْسُ، وَكَذَلِكَ «الْجَنَّةُ» لِأَنَّهُ يَسْتُرُ صَاحِبَهُ، وَ «الْجَنَّةُ» لِاسْتِتَارِهِمْ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ.

قال الفراء: «الْجَنَّةُ» مَا فِيهِ النَّخِيلُ، وَ «الْفَرْدُوسُ»: مَا فِيهِ الْكَرْمُ.

فإن قيل: لَمْ نُكْرِتْ «الْجَنَّاتُ» وَعُرِفَتْ «الْأَنْهَارُ»؟ فالجواب: أَنَّ «الْجَنَّةَ» اسْمٌ لِدَارِ الثَّوَابِ كُلِّهَا، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى جَنَّاتٍ كَثِيرَةٍ مُرتَبَةٌ مُرتَبٌ عَلَى اسْتِحْقَاقَاتِ الْعَامِلِينَ، لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهُمْ جَنَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ.

وأما تعريف «الأنهار»، فالمرادُ به الجنس، كما يقال: لفلان بستانٌ فيه الماء الجاري والتين والعنب، يشيرُ إلى الأجناس التي في علم المخاطب، أو يشار باللام إلى أنهارٍ مذكورةٍ في قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه الجملة في محل نصبٍ، لأنها صفةٌ لـ «جَنَّاتٍ».

و «تَجْرِي» مرفوعٌ لتجرُّده من الناصب والجازم، وعلامةُ رفعه ضمةٌ مقدَّرةٌ في «الياء» استثقالاً، وكذلك تقدَّرُ في كُلِّ فَعْلٍ مُغْتَلٍ نحو: «يَدْعُو»، وَ «يَخْشَى»، إِلَّا أَنَّهَا تُقَدَّرُ فِي «الْأَلِفِ» تَعَذُّراً.

«من تحتها» أي: من تحت أشجارها ومساكنها.

وقيل: من تحتها أي: بأمرهم.

كقول فرعون: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] أي: بأمرى.

و «الأنهار»: جمعُ نَهَرٍ بالفتح، وهي اللَّغَةُ الْعَالِيَةُ، وفيه تسكين «الهاء» ولكن أفعالٌ لا ينقاس في «فَعْلٍ» السَّاكِنِ الْعَيْنِ، بل يحفظ نحو: «أَفْرَاحٌ»، وَ «أَزْنَادٌ»، وَ «أَفْرَادٌ».

و «النَّهْرُ»: دُونَ الْبَحْرِ، وَفَوْقَ الْجَدُولِ، وَهَلْ هُوَ مَجْرَى الْمَاءِ، أَوِ الْمَاءُ الْجَارِي نَفْسُهُ؟

والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ «نَهَرْتُ» أَي: وَسَعْتُ.

قال قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ يَصِفُ طَعْنَةً: [الطويل]

٣١٥ - مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا

(١)

أي: وَسَعَتْ.

ومنه: «النَّهَارُ» لاتساع ضوئِهِ، وإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى الْمَاءِ مَجَازاً إِطْلَاقاً لِلْمَحَلِّ عَلَى الْحَالِّ.

ومنه قوله عليه السَّلَامُ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ»^(١) معناه: مَا وَسَّعَ الدَّبْنُ؛ حَتَّى يَجْرِي الدَّمُ كَالنَّهْرِ، وَجَمْعُ النَّهْرِ: نَهْرٌ وَأَنْهَارٌ، وَنَهْرٌ نَهْرٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ.
قال أبو ذؤَيْب^(٢): [المتقارب]

٣١٦ - أَقَامَتْ بِهِ وَابْتَنَتْ خَيْمَةً عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهْرٍ^(٣)
رُوِيَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ لَيْسَتْ فِي أَحَادِيدٍ، إِنَّمَا تَجْرِي عَلَى سَطْحِ الْجَنَّةِ مُنْبَسِطَةً بِالْقُدْرَةِ، وَالْوَقْفُ عَلَى «الْأَنْهَارِ» حَسَنٌ وَلَيْسَ بِتَامٍ وَ «مَنْ تَحْتَهَا» مُتَعَلِّقٌ بـ «تَجْرِي»، وَ «تَحْتَ» مَكَانٌ لَا يَتَصَرَّفُ، وَهُوَ نَقِيضُ «فَوْقَ»، إِذَا أُضِيفَ أُعْرِبَا، وَإِذَا قُطِعَا بَنِيَا عَلَى الضَّمِّ. وَ «مِنْ» لابتداء الغاية.
وقيل: زائدة.

وقيل: بمعنى «في»، وهما ضعيفان.

واعلم أَنَّهُ إِذَا قِيلَ بِأَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْأَرْضُ ذَاتُ الشَّجَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، أَي: مِنْ تَحْتَ عَذَقِهَا أَوْ أَشْجَارِهَا.

وإن قيل: بِأَنَّهَا الشَّجَرُ نَفْسَهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ.

وَإِذَا قِيلَ بِأَنَّ الْأَنْهَارَ اسْمٌ لِلْمَاءِ الْجَارِي فَيُسَبَّغُ الْجَزِيءُ إِلَيْهِ حَقِيقَةً، [وإن قيل بِأَنَّهُ اسْمٌ لِلأَخْذِ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ، فَسَبَّغَ الْجَزِيءُ إِلَيْهِ]^(٤) مَجَازٌ؛ كَقَوْلِ مَهْلَهْلِ^(٥): [الكامل]

(١) أخرجه البخاري (١٥٥/٥ - ١٥٦) «كتاب الشركة» باب قسمة الغنائم (٢٤٨٨، ٢٥٠٧، ٣٠٧٥، ٥٤٩٨، ٥٥٠٣، ٥٥٠٦، ٥٥٠٩، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤) ومسلم (١٥٥٩/٣) (١٩٦٨/٢٢) وأبو داود (٢٨٢١) والترمذي (٢٨١/١) وابن ماجه (٣١٧٨، ٣١٨٣) والنسائي (٢٠٦/٢ - ٢٠٧) وأحمد (٤/١٤٠) وابن الجارود (٨٩٥) والبيهقي (٢٤٦/٩، ٢٤٧، ٢٨١).

ومن حديث مري بن قطري عن عدي بن حاتم بلفظ: أنهر الدم بما شئت واذكر اسم الله عز وجل.
أخرجه أبو داود (٢٨٢٤) والنسائي (٢٠٦/٢) وابن ماجه (٣١٧٧) والحاكم (٢٤٠/٤) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) خويلد بن خالد بن محرث أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة من مضر: شاعر فحل مخضرم، أدرک الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة، وقد على النبي ﷺ ليلة وفاته فأدرکه وهو مسجى وشهد دفنه. ينظر الأعلام: ٢/٣٢٥ (٣٩٧٤)، الأغاني: ٦/٥٦، الشعر والشعراء: ٢٥٢، خزنة البغدادي: ٢٠٣/١.

(٣) ينظر ديوان الهذليين: ١٤٦/١. (٤) سقط في أ.

(٥) عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني جشم، من تغلب، أبو ليلى، المهلهل شاعر من أبطال =

٣١٧ - نُبِئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلْبُ الْمَجْلِسِ^(١)

قال أبو حيَّان^(٢): وقد ناقض ابن عطية كلامه هنا، فإنه قال: «والأنهار: المياه في مجاريها المتطاولَةِ الواسعة» ثم قال: نُسِبَ الجريُّ إلى الثَّهرِ، وإنَّما يجري الماء وحده توسعاً وتجوُّزاً، كما قال: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وكما قال: [الكامل]

١٣١٨ - نُبِئْتُ أَنَّ النَّارَ
(٣)

والألف واللام في «الأنهار» للجنس.

وقيل: للعهد لذكرها في سورة القتال.

وقال الزمخشري: يجوز أن تكون عوضاً من الضمير كقوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مریم: ٤] أي: «أنهارها» بمعنى أن الأصل: واشتعل رأسي، فعوض «أل» عن ياء المتكلم، وهذا ليس مذهب البصريين، بل قال به بعض الكوفيين؛ وهو مردود بأنَّه لو كانت «أل» عوضاً من الضمير، لَمَا جُمِعَ بينهما، وقد جُمِعَ بينهما؛ قال النَّابِغَةُ: [الطويل]

٣١٨ ب - رَجِيبٌ قَطَابُ الْجَنِبِ مِنْهَا رَقِيقَةٌ بَجَسِ الثَّدَايِ بِضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ^(٤)

فقال: الجيب منها، وأما ما ورد، وظاهره ذلك، فيأتي تأويله في موضعه.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ﴾.

تقدّم القول في «كُلَّمَا» وهذا لا يخلو إمّا أن يكون صفة ثانية لـ «جَنَاتٍ تجري»، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة؛ لأنَّه لَمَّا قيل: «أَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ» لم يخلُ قَلْبُ السَّامِعِ أَنْ يقع فيه أَنَّ ثمار تلك الجَنَاتِ تُشبه ثَمَارَ الدُّنْيَا أم لا؟

والعاملُ في «كُلَّمَا» هاهنا «قالوا».

و «مِنْهَا» متعلِّقٌ بـ «رُزِقُوا»، و «مِنْ» لابتداء الغاية، وكذلك «مِنْ ثَمَرَةٍ»، لأنَّها بدلٌ من قوله: «مِنْهَا» بدلٌ اشتمالٍ بإعادة العاملِ.

= العرب في الجاهلية من أهل نجد وهو خال امرئ القيس الشاعر قيل لقب مهلهلاً لأنه أول من هلهل نسج الشعر أي رققه وكان من أصبح الناس وجهاً ومن أفصحهم لساناً عكف في صباه على اللهو والتشبيب بالنساء، فسماه أخوه كليب زير النساء أي جلسهن، ولما قتل جساس بن مرة كليلاً ثار المهلهل فانقطع عن الشراب واللهو وآلى أن يثار لأخيه فكانت وقائع بكر وتغلب التي دامت أربعين سنة وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة أما شعره فعالي الطبقة.

ينظر الأعلام: ٢٢٠/٤ (١٤٨٧)، الشعر والشعراء: ٩٩، جمهرة أشعار العرب: ١١٥.

(١) ينظر أمالي القاضي: (٩٥/١)، مجالس ثعلب: (٣٧/١)، القرطبي: (٢٣٩/١)، الدر المصون: (١٥٩/١).

(٢) ينظر البحر المحيط: ٢٥٦/١.

(٣) تقدم قريباً.

(٤) البيت لطرفة في معلقته، وليس للنابغة كما قال المؤلف. ينظر ديوانه: ص ١٣٠، خزانة الأدب: ٤/

٣٠٣، ٢٢٨/٨، والمحتسب: ١٨٣/١، وشرح التصريح: ٨٣/٢.

وإنما قلنا: إنه بدل اشتمال؛ لأنه لا يتعلّق حرفان بمعنى واحدٍ بعاملٍ واحد، إلاّ على سبيل البدلية، أو العطف.

وأجاز الزّمخشري أنّ «مِنْ» للبيان كقولك: «رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا»؛ وفيه نظر؛ لأنّ من شرط ذلك أن يَحِلَّ مَحَلُّهَا مَوْصُولٌ، وأن يكون ما قبلها مُحَلِّى بـ «أل» الجنسية، وأيضاً فليس قبلها شيء يَتَبَيَّنُ بها، وكونها بياناً لما بعدها بعيد جداً، وهو غير المصطلح.

«رَزَقًا» مفعول ثانٍ لـ «رَزَقُوا»، وهو بمعنى «مَرْزُوقٍ»، وكونه مصدرأ بعيداً لقوله: ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾، والمصدر لا يؤتى به متشابهاً، وإنما يؤتى بالمرزوق كذلك.

قوله: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

«قالوا»: هو العامل في «كلما» كما تقدّم، و «هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا» مبتدأ وخبر في محل نصب بالقول، وعائِدُ الموصول محذوف؛ لاستكمالهِ الشُّروط، أي: رَزَقْنَاهُ. و «مِنْ قَبْلُ» متعلّق به.

و «مِنْ» لابتداء الغاية، ولَمَّا قطعت «قَبْلُ» بُنِيَتْ [وإنما بنيت]^(١) على الضمّة؛ لأنها حركة لم تكن لها حال إعرابها.

واختلف في هذه الجملة، فقليل: لا محلّ لها من الإعراب؟ لأنها استئنافية، فإنّه قيل: لَمَّا وصفت الجنّات ما حالها؟ فقليل: كُلُّمَا رَزَقُوا قَالُوا.

وقيل: لَهَا محلّ، ثُمَّ اختلف فيه، فقليل: رَفَعَ على أنّه خبر مبتدأ محذوف، واختلف في ذلك المبتدأ، فقليل: ضمير «الجنّات»، أي: هِيَ كُلُّمَا وقيل ضمير «الَّذِينَ آمَنُوا» أي: هُم كُلُّمَا رَزَقُوا قَالُوا ذلك.

وقيل: مَحَلُّهَا نَصَبٌ على الحال، وصاحبها: إمّا «الَّذِينَ آمَنُوا»، وإمّا «جنّات»، وجاز ذلك، وإن كانت نكرة؛ لأنها تخصصت بالصفة، وعلى هذين تكون حالاً مُقَدَّرَةً؛ لأنّ وقت البشارة بالجنّات لم يكونوا مرزوقين ذلك.

وقيل: مَحَلُّهَا نَصَبٌ على أنّها صفة لـ «جنّات» أيضاً.

فَصْلٌ فِي الْمَشْبَهَةِ فِي الْآيَةِ

الآية تدلّ على أنّهم شَبَّهُوا رزقهم الذي يأتيهم في الجنّة بِرِزْقِهِمْ قبل ذلك، فالمُشَبَّه بهُ أهو من أرزاق الدنيا، أم من أرزاق الآخرة؟ ففيه وجهان:

(١) سقط في ب.

أحدهما: أنه من أَرْزَقَ الدنيا، وفيه وجهان:

أحدهما: هذا الذي وَعَدْنَا به في الدنيا.

والثاني: هذا الذي رَزَقْنَا في الدنيا، لأنَّ لونه يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طَعْمَهُ غير ذلك.

الوجه الثاني: أنَّ المُشَبَّه به ثمار الآخرة، واختلفوا فيما حصلت المشابهة فيه على وجهين:

الأول: المراد تساوي ثوابهم في كُلِّ الأوقات في القدر^(١) والدرجة؛ حتَّى لا يزيَد ولا ينقص.

الثاني: المراد المُشَابَهة في المنظر، فيكون الثاني كأنَّه الأوَّل على ما رُوِيَ عن الحسن، ثُمَّ هُؤَلاءِ اختلفوا^(٢)، فمنهم من يقول: الاشتباه كما يقع في المنظر يقع في الطَّعم. ومنهم من يقول: وإن حصل الاشتباه في اللَّون، لكنَّها تكون مختلفة في الطَّعم. قال الحسن: يؤتى أَحَدُهُمْ بالصَّحفة فيأكل منها، ثُمَّ يُؤْتَى بالأخرى فيقول: هذا الذي أُتِينَا به من قَبْلُ، فيقول الملك: «كُلْ فاللَّون واحدٌ، والطَّعم مختلفٌ».

فإن قيل: قوله: ﴿كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا﴾ مع قوله: «قَالُوا: هذا الذي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ» - هذا صيغة عموم، فيشمل كُلَّ الأوقات التي رَزَقُوا فيها، فيدخل فيه أوَّل مرَّة رَزَقُوا في الجَنَّة، فلا بُدَّ وأن يقولوا: «هذا الذي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ» فما الجواب على قولنا بأنَّ المُشَبَّه به ثَمَارُ الآخرة؟ والجواب أنَّ عمل ذلك على ما وعدوا به في الدُّنيا، أو يكون تقدير الكلام: هذا الَّذِي رَزَقْنَا فِي الْأَرْلِ.

قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ الظاهر أنَّها جملة مستأنفة.

وقال الزمخشريُّ فيها: هو كقولك: «فَلَانُ أَحْسَنُ بِفَلَانٍ» ونعم ما فعل، ورأى من الرَّاى كذا، وكان صواباً.

ومنه: ﴿وَجَعَلُوا آعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

وما أشبه ذلك من الجُمَل التي تُساق في الكلام معترضةً للتقرير، يعني بكونها معترضة، أي من أحوال أهل الجَنَّة، فَإِنَّ بَعْدَهَا: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾، وإذا كانت معترضة فلا محلَّ لها. وقيل: هي عَطْفٌ على «قَالُوا».

وقيل: مَحَلُّهَا النَّصْبُ على الحال، وصاحبها فاعل «قَالُوا» أي: قالوا هذا الكلام في

(١) في أ: الوقت.

(٢) أخرج الطبري في «تفسيره» (٣٨٩/١) عن الحسن قال: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» قال: يشبه بعضه بعضاً، ليس فيه من رذل.

هذا الحال، ولا بُدَّ من تقدير «قد» قبل الفعل، أي: «وَقَدْ أَتَوْا»، وَأَصْلُ أَتَوْا: أُتِيُوا مِثْل: ضَرَبُوا، فَأَعِلَّ كَنْظَائِرُهُ.

[وقرأ هارون^(١) الأعور: «وَأَتَوْا»^(٢) مبنياً للفاعل، والضَّمير للولدان والخدم للتصريح بهم في غير موضع، والضَّمير في «به» يعود على المرزوق الذي هو الثمرات، كما أن هذا إشارة إليه. وقال الزمخشري: «يعود إلى المرزوق في الدُّنْيَا والآخرة؛ لأنَّ قوله: ﴿الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ انطوى تحته ذكر ما رَزَقُوهُ فِي الدَّارَيْنِ.

ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، فَإِنَّهُ أُولَىٰ بِنَاهُمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

أي: بجنسي الغنيِّ والفقير المدلول عليهما بقوله: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ ويعني بقوله: «انطوى تحته ذِكْرُ ما رَزَقُوهُ فِي الدَّارَيْنِ» أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّقْدِيرُ: مِثْلُ الَّذِي رَزَقْنَاهُ كَانَ قَدْ انطوى على المرزوقين معاً، كما أَنَّ قَوْلَكَ: «زَيْدٌ مِثْلُ حَاتِمٍ» مُنْطَوٍ عَلَى زَيْدٍ وَحَاتِمٍ.

قال أبو حيَّان: «وما قاله غيرُ ظاهر؛ لأنَّ الظاهرَ عَوْدُهُ عَلَى المرزوقِ فِي الآخرة فقط؛ لَأَنَّهُ هُوَ الْمُحَدَّثُ عَنْهُ، وَالْمَشْبَهُ بِالَّذِي رَزَقُوهُ مِنْ قَبْلُ، لَا سِيَّمَا إِذَا فُسِّرَتِ الْقِبْلِيَّةُ بِمَا فِي الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَوْدُهُ عَلَى المرزوقِ فِي الْجَنَّةِ فَقَطْ، وَكَذَلِكَ إِذَا أُعْرِبَتِ الْجُمْلَةُ حَالاً؛ إِذْ يَصِيرُ التَّقْدِيرُ: قَالُوا: هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَقَدْ أَتَوْا بِهِ؛ لِأَنَّهُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، كَأَنَّهُ أَتَوْا بِهِ مُتَشَابِهاً وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفاً عَلَى قَالُوا، لَا يَصِحُّ عَوْدُهُ عَلَى المرزوقِ فِي الدَّارَيْنِ؛ لِأَنَّ الْإِتْيَانَ إِذْ ذَاكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَاضِياً مَعْنَى؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ فِي «كُلَّمَا» أَوْ مَا فِي حَيْزِهَا يَحْتَمِلُ هُنَا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَلُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْلُو مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهَا مُسْتَأْنَفَةً لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ أَيْضاً، لِأَنَّ هَذِهِ مُحَدَّثٌ بِهَا عَنِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالِهَا».

قوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «به»، أي: يشبه بعضه في المنظر، ويختلف في الطعم^(٣)، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم رضي الله - تعالى - عنهم.

وقال عكرمة: «يُشْبِهُ ثَمَرُ الدُّنْيَا، وَيَبَيِّنُهُ فِي جِلِّ الصِّفَاتِ»^(٤).

(١) في ب: وقرأها.

(٢) بها قرأ هارون الأعور والعتكى.

انظر البحر المحيط: ٢٥٨/١، والدر المصون: ١٦٠/١.

(٣) هذه الآثار أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢).

وذكرها الطبري في الدر المنثور (١/٨٣) وعزاها لوكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن

مجاهد ولعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/٣٩١).

قال ابن عباس: «هذا على وجه التّعجب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة، وعظم خالقها».

وقال قتادة: «خياراً لا رذل»^(١) فيه^(٢)، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مُّشْتَبِهٌ﴾ [الزمر: ٢٣] وليس كثمار الدنيا التي لا تشابه؛ لأن فيها خياراً وغير خياراً.

قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ «لهم» خبر مُقَدَّم، وأزواج مبتدأ، و «فيها» متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر.

قال أبو البقاء: «لا يكون فيها الخبر، لأن الفائدة تقل؛ إذ الفائدة في جعل الأزواج لهم».

وقوله: «مُطَهَّرَةٌ» صفة، وأتى بها مفردة على حد: النساء طَهَّرَتْ ومنه بيت

الحماسة: [الكامل]

٣١٩ - وَإِذَا الْعَذْرَاۗئِ بِالْذُّخَانِ تَلَقَّعَتْ وَاسْتَفْجَلَتْ نَضَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتِ^(٣)

وقرأ^(٤) زيد بن علي^(٥): «مُطَهَّرَاتٌ» على حد: النساء طَهَّرْنَ.

وقرأ^(٦) عبيد بن عمير^(٧): «مُطَهَّرَةٌ» يعني: متطهرة.

والزوج ما يكون معه آخر، ويقال زوج للرجل والمرأة، وأمّا «زوجة» فقليل.

قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول: زوجة، ونَقَلَ الفراء أنها لغة «تميم»، وأشد

للفرزدي: [الطويل]

٣٢٠ - وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا^(٨)

(١) في أ: بذل.

(٢) أخرجه الطبري: (١/٣٩٠) عن قتادة.

(٣) البيت لسلمي بن ربيعة. ينظر خزائن الأدب: ٢٦/٨، ٤٤، والدرر: ١/١٨٤، وشرح ديوان الحماسة: ص ٥٥، وشرح المفصل: ١٠٥/٥، ونوادر أبي زيد: ص ١٢١، ولعلباء بن أرقم في الأصمعيات:

ص ١٦٢، وشرح اختيارات المفضل: ص ٨١٦، وجمع الهوامع: ١/٦٠، والدر المصون: ١/١٦١.

(٤) قرأ بها زيد بن علي.

انظر تفسير الرازي: ١٢١/٢، والبحر المحيط: ١/٢٦٠، والدر المصون: ١/١٦١.

(٥) زيد بن علي بن أحمد بن محمد بن عمران بن أبي بلال أبو القاسم العجلي الكوفي شيخ العراق إمام حاذق ثقة توفي زيد ببغداد سنة ثمان وخمسين وثلاثة مائة. ينظر الغاية: ١/٢٩٨ (١٣٠٨).

(٦) انظر البحر المحيط: ١/٢٦٠، والرازي: ١٢١/٢.

(٧) عبيد بن عمير بن قتادة أبو عاصم الليثي المكي القاضي ذكر ثابت البناني أنه قص على عهد عمر رضي

الله عنه، وردت عنه الرواية في حروف القرآن روى عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب روى عنه

مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار، قال مسلم ولد في زمن النبي ﷺ، قال مجاهد كنا نفخر على الناس

بأربعة بفقيننا وبقارئنا وبقاضيينا ومؤذنيننا بفقيننا ابن عباس، وقارئنا عبد الله بن السائب وقاضيينا عبيد بن

عمير، ومؤذنيننا أبو محذورة. مات سنة أربع وسبعين. ينظر الغاية: ١/٤٩٦، ٤٩٧ (٢٠٦٤).

(٨) ينظر ديوانه: (١٣٨)، الأضداد: (٣٢٧)، الدر المصون: (١/١٦١).

وفي الحديث عن عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ^(١) فِي حَقِّ عَائِشَةَ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ^(٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاخْتَارَهُ الْكَسَائِيُّ. وَالزَّوْجُ أَيْضاً: الصَّنْفُ^(٤)، وَالتَّثْنِيَةُ: زَوْجَانِ.

وَالطَّهَارَةُ: النِّظَافَةُ، وَالْفِعْلُ مِنْهَا طَهَّرَ بِالْفَتْحِ، وَيَقِيلُ الضَّمُّ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهَا «طَاهِرٌ» فَهُوَ مَقِيسٌ عَلَى الْأَوَّلِ، شَادَّ عَلَى الثَّانِي، كـ «خَاثِرٌ» وَ «حَامِضٌ» مِنْ خَثَرَ اللَّبَنُ وَحَمِضَ بَضْمٌ^(٥) الْعَيْنِ. فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا قِيلَ: طَاهِرَةٌ، الْجَوَابُ: فِي الْمُطَهَّرَةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ مُطَهَّرًا طَهَّرَهُنَّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ يَفِيدُ فَخَامَةً أَمْرَ أَهْلِ الثَّوَابِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - هُوَ الَّذِي رَزَقَهُنَّ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا يَيْلُرْنَ وَلَا يَتَعَوَّطْنَ وَلَا يِلْدَنَ وَلَا يَحْضَنَ، وَلَا يَمْنِينَ وَلَا يُبْغِضْنَ». وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «مُطَهَّرَةٌ فِي اللُّغَةِ أَجْمَعَ مِنْ طَاهِرَةٍ وَأَبْلَغُ».

(١) عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ بْنِ عَامِرِ بْنِ الْحَصِينِ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ يَامِ بْنِ عَنَسِ الْعَنْسِيِّ أَبُو الْيَقْطَانِ مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ، صَحَابِي جَلِيلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْمَشَاهِدَ، وَكَانَ أَحَدَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ. لَهُ اثْنَانِ وَسِتُونَ حَدِيثًا، اتَّفَقَا عَلَى حَدِيثَيْنِ، وَاتَّفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِثَلَاثٍ وَمُسْلِمٌ بِحَدِيثٍ. وَعَنْهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو وَائِلٍ، قَالَ عَلِيٌّ: اسْتَأْذَنَ عَمَارٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْحَبًا بِالطَّيِّبِ الْمُطِيبِ. قُتِلَ بِصَفِينٍ مَعَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنْظُرُ الْخُلَاصَةُ: ٢/٢٦١، طَبَقَاتُ ابْنِ سَعْدٍ: ٣/١٧٦، تَارِيخُ بَغْدَادٍ: ١/١٥٠، دُولُ الْإِسْلَامِ: ١/٢٨، سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ: ١/٤٠٦.

(٢) عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا التِّيمِيَّةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ، حَبِيبَةُ النَّبِيِّ ﷺ، لَهَا أَلْفَانِ وَمِائَتَانِ وَعَشْرَةٌ أَحَادِيثٌ وَعَنْهَا مَسْرُوقٌ وَالْأَسْوَدُ وَابْنُ الْمُسَيْبِ وَعُرْوَةُ وَالْقَاسِمُ وَخَلْقٌ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «فَضَّلْتُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلْتُ الثَّرِيدَ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» وَقَالَ عُرْوَةُ: مَا رَأَيْتُ أَعْلَمَ بِالشَّعْرِ مِنْ عَائِشَةَ، وَقَالَ الْقَاسِمُ: كَانَتْ تَصُومُ الدَّهْرَ، وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ: تُوْفِيَتْ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَدَفِنَتْ بِالْبَقِيعِ.

يَنْظُرُ تَرْجُمَتَهَا فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ: (١٢/٤٣٣ رَقْم ٢٨٤١)، التَّقْرِيبُ: ٢/٦٠٦، أَسْمَاءُ الصَّحَابَةِ الرَّوَاةِ: ت/٤. الثَّقَاتُ: ٣/٣٢٣. أَسَدُ الْغَابَةِ: ٧/١٨٨، أَعْلَامُ النِّسَاءِ: ٣/٩، تَنْوِيرُ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ: ٩٤، ١١٦، السَّمَطُ الثَّمِينُ: ٣٣، الدَّرُ الْمُنْتَوَرُ: ٢٨، الْاِسْتِيعَابُ: ٤/١٨٨١. الْاِصَابَةُ: ٤/٣٤٨، ٨/١٦. تَجْرِيدُ أَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ: ٢/٢٨٦.

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْبُخَارِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: حَبِيبُ الْإِسْلَامِ وَالْحَافِظُ لِلْحَدِيثِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، صَاحِبُ «الْجَامِعِ الصَّحِيحِ» وَ «التَّارِيخِ» وَ «الضَّعْفَاءِ» وَ «خُلُقِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ» وَ «الْأَدَبِ الْمِفْرَدِ»، وَلَدَ فِي بَخَارَى ١٩٤ هـ، وَنَشَأَ يَتِيمًا، وَقَامَ بِرَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ (سَنَةَ ٢١٠ هـ) فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، فَزَارَ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقَ وَمِصْرَ وَالشَّامَ، وَسَمِعَ مِنْ نَحْوِ أَلْفِ شَيْخٍ، وَجَمَعَ نَحْوَ سِتِّ مِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ، اخْتَارَ مِنْهَا فِي صَحِيحِهِ مَا وَثَّقَ بِرَوَايَتِهِ. تُوْفِيَ سَنَةَ ٢٥٦ هـ.

يَنْظُرُ الْأَعْلَامُ: ٦/٣٤٦، تَذَكُّرَةُ الْحَفَازِ: ٢/١٢٢، تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ: ٩/٤٧، دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ: ٣/٤١٩، طَبَقَاتُ الْحَنَابِلَةِ: ١/٢٧١.

(٤) فِي أ: الصِّفَةُ.

(٥) فِي أ: بَفَتْحٍ.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هم مبتدأ، وخالدون خبره، وفيها متعلق به .
وقال القرطبي: «والظرف مَلْغِيٌّ، وقُدِّمَ ليوافق رؤوس الآي» وأجازوا أن يكون
«فيها» خبراً أول، و «خالدون» خبر ثانٍ، وليس هذا بِسَدِيدٍ، وهذه الجملة والتي قبلها
عطفٌ على الجملة قبلهما حسب ما تقدّم.

وقال أبو البقاء: «وهاتان الجملتان مستأنفتان، ويجوز أن تكون الثانية حالاً من الهاء
والميم في «لهم»، والعامِلُ فيها معنى الاستقرار».

قال القرطبي^(١): «ويجوز في غير القرآن نصب «خالدین» على الحال».

و «الخلود»: المكث الطويل، وهل يُطْلَقُ على ما لا نهاية له بطريق الحقيقة أو
المجاز؟ قولان.

قالت المعتزلة^(٢): «الخلد»^(٣): هو الثبات اللازم، والبقاء الدائم الذي لا يقطع،
واحتجوا بالآية، ويقولون: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْآخِلَةَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:
٣٤] فنفي الخلد عن البشر مع أنه - تعالى - أعطى بعضهم العمر الطويل، والمنفي غير
المثبت، فالخلد هو البقاء الدائم؛ ويقول امرئ القيس: [الطويل]

٣٢١ - وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخْلَدٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ^(٤)

قال ابن الخطيب^(٥): وقال أصحابنا: الخلد هو الثبات الطويل، سواء دام أو لم
يَدَمْ؛ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠] ولو كان التأييد داخلاً
في مفهوم الخلد، لكان ذلك تكرراً، واستدلوا أيضاً بالعرف؛ يقال: حبس فلان فلاناً
حبساً مُخْلَداً، ويكتب في الأوقاف: وقف فلان وقفاً مُخْلَداً.

وقال الآخرون: «العقل يدُلُّ على دوامه؛ لأنه لو لم يجب الدوام، لجوزوا
انقطاعه، فكان خوف الانقطاع ينغص عليهم تلك النعمة، لأن النعمة كلما كانت أعظم
كان خوف انقطاعها أعظم وقعا في القلب، وهذا يقتضي ألا ينفك أهل الثواب [ألبتة]^(٦)
من الغم والحسرة، وقد يجاب عنه بأنهم عرفوا ذلك بقريئة قوله: «أبدًا».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا

(١) ينظر القرطبي: ١٦٧/١.

(٢) ينظر الفخر الرازي: ١٢١/٢.

(٣) في أ: الخلود.

(٤) ينظر ديوانه: (٢٧)، الكتاب: ٢٢٧/٢، المحتسب: ١٣٠/٢، أمالي ابن الشجري: ٢٧٤/١، الدرر:
١٠٧/٢، الدر المصون: ١٦٢/١.

(٥) ينظر الفخر الرازي: ١٢١/٢.

(٦) سقط في ب.

الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾
الَّذِينَ يَتَفَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

اعلم أنه - تعالى - لما بيّن كون القرآن مُعْجَزًا، أورد الكُفَّار هنا شبهةً قدحاً في ذلك، وهي أنه جاء في القرآن ذِكرُ الثَّحْلِ، والعنكبوت، والثَّمَلِ، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفُصَحَاءِ، فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته، فضلاً عن كونه مُعْجَزًا، وأجاب الله - تعالى - عنه بأن صِغَر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة، إذا كان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة، فهذا هو الإشارة إلى كيفية تَعَلُّق هذه الآية بما قبلها.

روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - أنه لما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] فطعن في أصنامهم، ثُمَّ شَبَّهَ عِبَادَتَهَا ببيتِ العنكبوت. قالت اليهود: أي قدر للدُّبَابِ والعنكبوت حتَّى يَضْرِبَ الله المَثَلَ بهما؟! فنزلت هذه الآية^(١).

وقيل: إنَّ المُنَافِقِينَ طَعَنُوا في ضرب الأمثالِ بالثَّارِ، والظلمات، والرَّعد، والْبَرْقِ في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾. قالوا: الله أَجَلٌ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية^(٢)، وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس.

وروى عطاء عن ابن عباس أيضاً أنَّ هذا الطعن كان من المشركين^(٣).

فقال القفال رحمه الله: الكلُّ محتملٌ هاهنا. أمّا اليهود، فلأنه قيل في آخر الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا صفة اليهود؛ لأنَّ الخطاب بالوفاء بالعهد إنَّما هو لبني إسرائيل، وأمّا الكُفَّار والمنافقون فقد ذكروا في سورة «المدثر»: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، فالذين في قلوبهم مرض هم الكافرون والمنافقون، والذين كفروا يحتمل المشركين، لأنَّ السورة مَكِّيَّة، فقد جُمِعَ الفريقان هاهنا.

إذا ثبت هذا، فنقول: احتمال الكلِّ هاهنا قائم؛ لأنَّ الكافرين والمنافقين واليهود

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨٨/١) وعزاه لعبد الغني الثقفي في «تفسيره» والواحدي عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨٨/١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة.

(٣) أخرجه عبد الغني الثقفي في «تفسيره» والواحدي كما في «الدر المنثور» (٨٨/١) عن ابن عباس.

كانوا مُتَوَافِقِينَ فِي إِيْذَاءِ الرَّسُولِ، وَقَدْ مَضَى مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ، وَالْيَهُودَ، وَالْمُشْرِكِينَ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.
ثُمَّ قَالَ الْقَفَالُ: «وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَنْزَلَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ مَفِيدٌ فِي نَفْسِهِ».

فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْحَيَاءِ وَاشْتِقَاقِهِ

الحياء: تَغَيَّرُ وَانْكَسَارُ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفٍ مَا يُعَابُ بِهِ وَيُذَمُّ^(١)، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: نَقَصَتْ حَيَاتُهُ، وَاعْتَلَتْ مَجَازًا، كَمَا يُقَالُ: نَسِيَ وَخَشِيَ، وَشَظِيَ الْقَوْسُ: إِذَا اعْتَلَتْ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ، جُعِلَ الْحَيُّ لَمَّا يَعْتَرِيهِ مِنَ الْانْكَسَارِ، وَالتَّغَيَّرِ مُنْتَكَسٌ^(٢) الْقُوَّةُ مُنْتَقَصُ الْحَيَاةِ كَمَا قَالُوا: فَلَانَ هَلَكَ مِنْ كَذَا حَيَاءً، وَمَاتَ حَيَاءً، وَذَابَ حَيَاءً، يَعْنِي بِقَوْلِهِ: «نَسِيَ وَخَشِيَ وَشَظِيَ» أَي: أَصِيبَ نَسَاهُ، وَهُوَ «عَرَقٌ» وَحَشَاهُ، وَهُوَ مَا احْتَوَى عَلَيْهِ الْبَطْنُ، وَشَظَاهُ وَهُوَ عَظْمٌ فِي الْوَرِكِ، وَاسْتَعْمَالُهُ هُنَا فِي حَقِّ اللَّهِ - تَعَالَى - مَجَازٌ عَنِ التَّرْكِ.

وَقِيلَ: مَجَازٌ عَنِ الْخَشْيَةِ؛ لِأَنَّهَا أَيْضًا مِنْ ثَمَرَاتِهِ، وَرَجَّحَهُ الطَّبْرِيُّ، وَجَعَلَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ، يَعْنِي أَنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا قَالُوا: أَمَّا يَسْتَحْيِ رَبُّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَضْرِبَ الْمَثَلَ بِالْمُحَقَّرَاتِ، «قُوبِلَ» قَوْلُهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾؛ [وَنظِيرُهُ قَوْلُ]^(٣) أَبِي تَمَّامٍ: [الْكَامِلُ]

٣٢٢ - مَنْ مُبْلَغٌ أَفْنَاءٌ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ^(٤)
لَوْ لَمْ يَذْكُرْ بِنَاءَ الدَّارِ لَمْ يَصِحَّ بِنَاءُ الْجَارِ.

وَقِيلَ: مَعْنَى لَا يَسْتَحْيِي، لَا يَمْتَنِعُ، وَأَضْلُ الْاسْتِحْيَاءِ الْانْقِبَاضُ عَنِ الشَّيْءِ، وَالِامْتِنَاعُ مِنْهُ؛ خَوْفًا مِنْ مُوَاقَعَةِ^(٥) الْقَبِيحِ، وَهَذَا مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: «جَاءَتْ أُمُّ سَلِيمٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ»^(٦) الْمَعْنَى لَا يَأْمُرُ بِالْحَيَاءِ فِيهِ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ ذِكْرِهِ.

قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ: «الْقَانُونُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ ثَبِتَتْ لِلْعَبِيدِ مِمَّا يَخْتَصُ^(٧) بِالْأَجْسَامِ، فَإِذَا وَصَفَ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ مُحْمُولٌ عَلَى نَهَايَاتِ الْأَعْرَاضِ، لَا

(١) فِي أ: وَقَدْ تَقَدَّمَ. (٢) فِي أ: مُنْكَسٌ.

(٣) فِي ب: وَنَظِيرُهُ بِقَوْلِهِ.

(٤) يَنْظُرُ الْبَيْتَ فِي دِيْوَانِهِ: ٤٧/٣، الْكَشَافُ: ١١٣/١، الدَّرُ الْمَصُونُ: ١٦٣/١.

(٥) فِي أ: مُوَافَقَةٌ.

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: (٤٦/١، ٨٠) وَمُسْلِمٌ (١٧٢/١) وَالنَّسَائِيُّ (٤٢/١).

(٧) فِي ب: يَنْتَقِصُ.

على بدايات الأعراض، مثاله: أن الحياء حالةٌ تَحْصُلُ للإنسان، ولكن لها مبدأً ومنتهى، أمَّا المبدأ فهو التغيُّر الجسماني الذي يلحق الإنسان من خوف أن يُنسَبَ إليه القبيح، وأمَّا النهاية فهو أن يترك الإنسان ذلك الفعل، فإذا ورد الحياء في حقِّ الله تعالى، فليس المراد منه ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته، بل تركُّ الفعل الذي هو منتهاه وغايته، وكذلك الغضب [له مقدِّمة] ^(١) وهو غليان دم القلب وشهوة الانتقام ^(٢) وله ^(٣) غاية، وهي إنزال العقاب بالمغضوب عليه، فإذا وصفنا الله - تعالى - بالغضب، فليس المراد ذلك المبدأ، يعني شهوة الانتقام، وغليان دم القلب، بل المراد تلك النهاية، وهي إنزال العقاب ^(٤)، فهذا هو القانون الكلِّي في هذا الباب.

فَصْلٌ فِي تَنْزِيهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

قال القاضي: ما لا يجوز على الله - تعالى - من هذا الجنس إثباتاً، فيجب ألاَّ يطلق على طريقة النفي عليه، وإنَّما يقال: إنَّه - تعالى - لا يوصفُ به، فأما أن يقال: «لا يستحي» ويطلق عليه فمحالٌ؛ لأنَّه يُوهم نفي ما يجوز عليه، وما ذكره الله - تعالى - في كتابه من قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ سِنَّةً وَلَا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] فهو بصورة النفي، وليس بنفي على الحقيقة، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] وليس كل ما ورد في القرآن إطلاقه جائز أن يُطلق في المخاطبة، فلا يجوز أن يطلق ذلك إلاَّ مع بيان أنَّ ذلك مُحالٌ.

ولقائل أن يقول: لا شك أنَّ هذه الصِّفَات متنفية عن الله تعالى، فكان الإخبار عن انتفاءها يدلُّ على صحتها عليه.

فنقول: هذه الدلالة ممنوعة، وذلك أنَّ تخصيص هذا النفي بالذكر، لا يدلُّ على ثبوته لغيره، لو قرُن اللَّفْظ بما يدلُّ على انتفاء الصِّحَّة كان ذلك أحسن، من حيث إنه يكون مبالغة في البيان، وليس إذا كان غيره أحسن أن يكون ذلك قبيحاً.

فَصْلٌ فِي إِعْرَابِ الْآيَةِ

قوله: «لا يستحيي» جملة في محلِّ الرفع خبراً لـ «أن»، واستفعل هنا للإغناء عن الثلاثي المجرد.

وقال الزمخشري: «إنَّه موافق له أي: قد ورد «حيي»، و «استحيي» بمعنى واحد، والمشهور: استحيي يستحيي فهو مستحي ومُستحي منه من غير حذف».

(٣) في ب: عليه.

(٤) في أ: العذاب.

(١) سقط في أ.

(٢) في أ: الإقدام.

قال القرطبي^(١): و «يستحي» أصله يَسْتَحْيِي عينه ولامه حرفا علة أعلت «اللام» منه بأن استثقلت الضمة على «الياء» فسكنت، والجمعُ مستحيون ومستحيين، وقد جاء استحي يستحي فهو مستح مثل: استَقَى يَسْتَقِي.

وقرأ^(٢) به ابن محيصن.

ويروى عن ابن كثير، وهي لغة «تميم» و «بكر بن وائل»، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى «الحاء» فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الثانية، فسكنت، فحذف إحداهما للالتقاء، والجمعُ مستحون ومستحين، قاله الجوهري.

ونقل بعضهم أن المحذوف هنا مختلفٌ فيه؛ فقليل: عينُ الكلمة، فوزنه يَسْتَقِل.

وقيل: لامه، فوزنه يَسْتَفِع، ثُمَّ نُقِلَت حركة اللام على القول الأول، وحركة العين على القول الثاني إلى الفاء، وهي الحاء؛ ومن الحذف قوله: [الطويل]

٣٢٣ - أَلَا تَسْتَحِي مِنَّا الْمُلُوكُ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا لَا يَبُؤُ الدَّمُ بِالدَّمِ^(٣)

وقال آخر: [الطويل]

٣٢٤ - إِذَا مَا اسْتَحَيْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعَنْ بِسَبْتٍ فِي إِتَاءٍ مِنَ الْوَرْدِ^(٤)

و «استحي» يتعدى تارة بنفسه، وتارة بحرف جرٍ تقول: استحيته وعليه:

إذا ما استحين الماء ..

واستحييت منه؛ وعليه:

أَلَا تَسْتَحِي مِنَّا الْمُلُوكُ ..

فيحتمل أن يكون قد تعدى في هذه الآية إلى أن يضرب بنفسه، فيكون في محل نصب قولاً واحداً، ويحتمل أن يكون تعدى إليه بحرف الجر المحذوف، وحينئذٍ يجري الخلاف المتقدم في قوله: «أَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ».

و «يَضْرِبُ» معناه: يُبَيِّنُ فيتعدى لواحد.

وقيل: معناه التصيير، فيتعدى لاثنتين نحو: «ضَرَبْتُ الطَّيْنَ لَبَنًا».

وقال بعضهم: «لا يتعدى لاثنتين إلا مع المثل خاصة»، فعلى القول الأول يكون

(١) ينظر القرطبي: ١/١٦٨.

(٢) وقرأ بها شبل بن عباد، ويعقوب، وهي لغة بني تميم. يجرونها مجرى يستحي. انظر الشواذ: ٤، والقراءات الشاذة للشيخ القاضي: ٢٤، والبحر المحيط: ١/٢٦٤، وإتحاف فضلاء البشر: ١/٣٨٢.

(٣) البيت لجابر بن حني التغلبي ينظر شرح اختيارات المفضل: ص ٩٥١، ولسان العرب (بوا)، (مكس)، والكتاب: ٣/٩٥، الدر المصيون: ١/١٦٢.

(٤) ينظر البيت في الكشف: ١/١١٣، الدر المصون: ١/١٦٢.

«مَثَلًا» مفعولاً و «ما» زائدة.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: «معاذ الله أن يكون في القرآن زيادة».

وقال ابن الخطيب^(١): والأصح قول أبي مُسْلِمٍ؛ لأن الله - تعالى - وصف القرآن بكونه: هدى وبَيِّنَاتٍ، وكونه لَعُوقاً ينافي ذلك، فعلى هذا يكون «ما» صفة للنكرة قبلها، لتزداد النكرة اتساعاً. ونظيره قولهم: «لَأَمْرٌ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ»، وقول امرئ القيس: [المديد]

٣٢٥ - وَحَدِيثُ الرِّكْبِ يَوْمَ هُنَا وَحَدِيثُ مَا عَلَى قِصْرِهِ^(٢)

وقال أبو البقاء: وقيل: «ما» نكرة موصوفة، ولم يجعل بعوضة صفتها، بل جعلها بدلاً منها، وفيه نظر؛ إذ يحتاج أن يُقدَّرَ صفةً محذوفة ولا ضرورة إلى ذلك، فكان الأولى أن يجعل بعوضةً صفتها بمعنى أنه وصفها بالجنس المُنْكَرِ لإبهامه، فهي في معنى «قليل»، وإليه ذهب الفراء والزجاج وثعلب، وتكون «ما» وصفتها حينئذ بدلاً من «مَثَلًا» و «بعوضة» بدلاً من «ما»، أو عطف بيان لها، إن قيل: «ما» صفة لـ «مَثَلًا»، أو نعت لـ «ما» إن قيل: إنها بدلٌ من «مَثَلًا» كما تقدّم في قول الفراء، وبدلٌ من «مَثَلًا» أو عطف بيان له إن قيل: إن «ما» زائدة.

وقيل: «بعوضة» هو المفعول، و «مَثَلًا» نُصِبَ على الحالِ قُدِّمَ على النكرة.

وقيل: نُصِبَ على إسقاط الخافض، التقدير: ما بين بعوضة، فلَمَّا حُذِفَتْ «بين» أعربت «بعوضة» بإعرابها، وتكون الفاء في قوله: «فما فوقها» بمعنى إلى، أي: إلى ما فوقها، ويعزى هذا للكسائي والفراء وغيرهم من الكوفيين؛ وأنشدوا: [البسيط]

٣٢٦ - يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَا قَرْنَا إِلَى قَدَمٍ وَلَا حِبَالٍ مُجَبٍّ وَاصِلٍ تَصِلُ^(٣)

أي: ما بين قرْنٍ.

وحَكَّوْا: «له عشرون ما ناقةً فَجَمَلًا»، وعلى القول الثاني يكون «مَثَلًا» مفعولاً أوَّلًا، و «ما» تحتمل الوجهين المتقدمين، و «بعوضة» مفعول ثانٍ.

وقيل: بعوضة هي المفعول الأول، و «مَثَلًا» هو الثاني، وَلِكِنَّهُ قُدِّمَ.

وتلخّص مما تقدّم أنّ في «ما» ثلاثة أوجه:

زائدة، صفة لما قبلها، نكرة موصوفة، وأنّ في «مَثَلًا» ثلاثة أيضاً:

(١) ينظر الرازي: ١٢٤/٢.

(٢) ينظر ديوانه: (١٠٣)، والدر المصون: ١٦٣/١.

(٣) ينظر البيت في خزانة الأدب: ٧/١١، والدر: ٨٣/٦، وشرح شواهد المغني: ٤٦٤/١، مغني اللبيب: ١٦٢٠/١، مع الهوامع: ١٣١/٢، الدر المصون: ١٦٣/١.

مفعول أول، أو مفعول ثان، أو حال مقدّمة^(١)، وأنّ في «بعوضة» تسعة أوجه، والصواب من ذلك كلّهُ أن يكون «ضَرَبَ» متعدّياً لواحدٍ بمعنى يَبِنُ، و «مثلاً» مفعولٌ به، بدليل قوله: «ضَرَبَ مَثْلَ»، و «ما» صفةٌ للنكرة، و «بعوضة» بدلٌ لا عطف بيان، لأنّ عطف البيان ممنوع عند جمهور البصريين في النكرات.

وقرأ^(٢) إبراهيم بن أبي عَبَلَةَ والضَّحَّاكُ ورؤية بن العجاج برفع «بعوضة» واتفقوا على أنّها خبرٌ لمبتدأ، ولكنهم اختلفوا في ذلك المبتدأ، فقيل: هو «ما» على أنّها استفهاميةٌ أي: أيُّ شيءٍ بعوضةٌ، وإليه ذهب الزمخشري ورَجَّحَهُ.

وقيل: المبتدأ مضمّرٌ تقديره: هو بعوضةٌ، وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أن تُجَعَلَ هذه الجملة صلة لـ «ما» لكونها بمعنى الذي، ولكنّه حذف العائد، وإن لم تَطُل الصلّة، وهذا لا يجوز عند البصريين إلّا في «أيّ» خاصّة لطولها بالإضافة، وأمّا غيرها فشاذٌّ، أو ضرورة كقراءة^(٣): «تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ» [الأنعام: ١٥٤] وقوله: [البسيط]

٣٢٧ - مَنْ يُعْنِ بِالْحَقِّ لَا يَنْطِقُ بِمَا سَفَهَ وَلَا يَحِذُّ عَنْ سَبِيلِ الْحَمْدِ وَالْكَرَمِ^(٤)
أي: الذي هو أحسنٌ، وبما هو سَفَهٌ، وتكون «ما» على هذا بدلاً من «مثلاً» كأنّه قيل: مثلاً الذي هو بعوضةٌ.

قال النَّحَّاسُ^(٥): «والحذف في «ما» أقبحُ منه في «الذي» لأن «الذي» إنّما له وجه واحد، والاسم معه أطول».

والثاني: أن تُجَعَلَ «ما» زائدة، أو صفةٌ، وتكون «هو بعوضة» جملة كالمفسّرة لما انطوى عليه الكلام.

(١) في أ: مقدرة.

(٢) وقرأ بها «قطرب». انظر الكشف: ١١٥/١، وقال الزمخشري: «وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج، وهو أضعف العرب للشيخ والقيصوم، والمشهود له بالفصاحة، وكانوا يشبهون به الحسن...».

وانظر البحر المحيط: ٢٦٧/١، والدر المصون: ١٦٤/١.

(٣) ستأتي في سورة الأنعام آية (١٥٤).

(٤) ينظر أوضح المسالك: ١٦٨/١، وتخليص الشواهد: ص ١٦٠، والدر: ٣٠٠/١، وشرح التصريح: ١٤٤/١، والمقاصد النحوية: ٤٤٦/١، وشرح الأشموني: ٧٨/١، وجمع الهوامع: ٩٠/١، الدر المصون: ١٦٤/١.

(٥) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب. مولده بمصر، ووفاته بمصر أيضاً سنة ٣٣٨هـ، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، زار العراق واجتمع بعلمائه، من مصنفاته: «تفسير القرآن» و «إعراب القرآن» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» و «شرح المعلقات السبع». ينظر الأعلام: ٢٠٨/١، البداية والنهاية: ٢٢٢/١١، إنباه الرواة: ١٠١/١.

ويقال: إنَّ معنى: «ضربتُ له مثلاً» مُثِّلْتُ له مَثَلاً، وهذه الأبنية على ضربٍ واحدٍ، وعلى مثال [واحد]^(١) ونوعٍ واحدٍ.

والضربُ: النوعُ، والبعوضةُ: واحدةُ البعوض، وهو معروف، وهو في الأصلِ وَضَفٌ على فَعُولٍ كَالْقَطُوعِ، مأخوذ من البَغَضِ، وهو القَطْعُ، وكذلك البَضْعُ والعَضْبُ؛ قال: [الوافر]

٣٢٨ - لَنِغَمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دِئَارٍ إِذَا مَا خَافَ بَغْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا^(٢)
وقال الجوهري: البعوض: البَقُّ، الواحدة بعوضة، سُميت بذلك لصغرها.

فَضْلٌ فِي اسْتِحْسَانِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ

اعلم أنَّ ضربَ الأمثال من الأمور المستحسنة في العقول، وقد اشتهر العربُ في التمثيل بأحقَرِ الأشياء، فقالوا في التمثيل بالذَّرة: «أجمع من ذرَّة»، و «أضبط من ذرَّة»، «وأخفى من ذرَّة»، وفي التمثيل بالذُّباب: «أجراً من الذُّباب»، «وأخطأ من الذُّباب»، «وأطيش من الذُّباب»، و «أشبه من الذُّباب بالذُّباب»، «وألخ من الذُّباب».

وفي التمثيل بالقراد: «أسمع من قراد»، وأضعف من قرادة، وأعلق من قرادة، وأغم من قرادة، وأدب من قرادة.

وقالوا في الجراد: أَطْيِرُ من جَرَادَةٍ، وَأَخْطِمُ من جَرَادَةٍ، وَأَفْسُدُ من جَرَادَةٍ، وَأَصْفِي من لعاب الجرادَة.

وفي الفراشة: «أضعف من فراشة»، و «أجمل من فراشة»، و «أطيش من فراشة».

وفي البعوضة: «كلفني مَخَّ البعوضة»، مثلٌ في تكليف ما لا يُطَاقُ. فقولهم: ضرب الأمثال لهذه الأشياء الحقيرة لا يليق بالله تعالى.

قلنا: هذا جَهْلٌ، لأنَّه - تعالى - هو الذي خلق الكبير والصغير، وحكمه في كُلِّ ما خلق وبراً عام؛ لأنَّه قد أحكم جميعه، وليس الصغير أخفَّ عليه من العظيم، ولا العظيم أصعب عليه من الصَّغير، وإذا كان الكلُّ بمنزلةٍ واحدةٍ لم يكن الكبير أَوْلَى من أن يضره مثلاً لعباده من الصغير، بل المعتبر فيه ما يليق بالقضيَّة، وإذا كان الأليق بها الذُّباب والعنكبوت، ضرب المثل بهما، لا بالفيل والجمال، فإذا أراد أن يُقَيِّحَ عبادتهم للأصنام، ويُقَيِّحَ عدولهم عن عبادة الرحمن، صَلَحَ أن يضرب المثل بالذُّباب، لِيُبَيِّنَ أن قدر مَضَرَّتِها لا تندفع بهذه الأصنام، ويضرب المثل ببيت العنكبوت؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ عبادتها أَوْهَى وأضعف

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر البيت في اللسان (بعض) شواهد الكشف: ١١٥/١، الدر المصون: ١٦٤/١، والمحرم الوجيز: ١١١/١.

من ذلك، كُلَّمَا كَانَ الْمَضْرُوبُ بِهِ الْمَثْلُ أضعف كان المثل أقوى وأوضح، وضرب المثل بالعوضة؛ لَأَنَّهُ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ صَغِيرٌ جَدًّا، وَخَرَطُومُهُ فِي غَايَةِ الصَّغَرِ، ثُمَّ إِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مَجُوفٌ، ثُمَّ ذَلِكَ الْخَرَطُومُ مَعَ فَرْطِ صَغَرِهِ، وَكَوْنِهِ مَجُوفًا يَغُوصُ فِي جِلْدِ الْفِيلِ وَالْجَامُوسِ عَلَى ثَخَانَتَيْهِ، كَمَا يَضْرِبُ الرَّجُلُ أَصَابِعَهُ فِي الْخَبِيصِ، وَذَلِكَ لَمَّا رَكَّبَ اللَّهُ فِي رَأْسِ خَرَطُومِهِ مِنَ السَّمِّ.

قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قد تقدّم أنّ «الفاء» بمعنى «إلى»، وهو قولٌ مرجوحٌ جدًّا، و«ما» في «فَمَا فَوْقَهَا» إن نصبنا «بعوضة» كانت معطوفةً عليها موصولةً بمعنى «الذي»، وصلتها الظرف، أو موصوفةٌ وصفتها الظرفُ أيضاً، وإن رفعنا «بعوضة»، وجعلنا «ما» الأولى موصولةً أو استفهامية، فالثانية معطوفة عليها، لكن في جعلنا «ما» موصولةً يكون ذلك من عطف المفردات، وفي جعلنا إياها استفهامية يكون من عطف الجملة، وإن جعلنا «ما» زائدة، أو صفةً لنكرة، و «بعوضة» خبراً لـ «هو» مضمراً كانت «ما» معطوفة على بعوضة.

فَصْلٌ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَمَا فَوْقَهَا»

قال الكسائي وأبو عبيدة، وغيرهما: معنى «فما فوقها» والله أعلم: ما دونها في الصَّغَرِ، وَالْمَحْقُوقُونَ مَالُوا إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ تَحْقِيرُ الْأَوْتَانِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْمَشْبَهُ بِهِ أَشَدَّ حَقَارَةً كَانَ الْمَقْصُودُ أَكْمَلَ حَصُولاً فِي هَذَا الْبَابِ.

وقال قتادة، وابن جريج: «المعنى في الكبر كالذباب، والعنكبوت، والكلب، والحمار؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ أَنْكَرُوا تَمَثِيلَ اللَّهِ بِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ».

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

«أما» حرفٌ ضَمَّنَ مَعْنَى اسْمٍ شَرْطٍ وَفَعْلِهِ، كَذَا قَدَّرَهُ سِيبَوِيهِ قَالَ: «أما» بمنزلة مَهْمَا يَكُ مِنْ شَيْءٍ.

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ^(١): وفائدته في الكلام أن يعطيه فَضْلَ توكيد، تقول: زيدٌ ذاهبٌ، فإذا قصدت توكيد ذلك، وأنت لا محالة ذاهبٌ، قلت: أما زيدٌ فذاهبٌ.

وقال بعضهم: «أما» حرفٌ تفصيلٌ لما أجمله المتكلم، أو أدعاه المخاطب، ولا يليها إلا المبتدأ، وتلزم الفاء في جوابها، ولا تُحذفُ إلا مع قولٍ ظاهرٍ ومقدّرٍ كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: فيقال لهم: أَكْفَرْتُمْ، وقد تحذفُ حيث لا قولٌ؛ كقوله: [الطويل]

٣٢٩ - فَأَمَّا الْقِتَالُ لَا قِتَالَ لَدَيْنَكُمْ وَلَكِنْ سَيْرًا فِي عِرَاضِ الْمَوَاكِبِ^(٢)

(١) ينظر الكشف: ١١٧/١.

(٢) البيت للحارث بن خالد المخزومي ينظر ديوانه: ص ٤٥، وخزانة الأدب: ١/٤٥٢، والدرر: ٥/ =

أي: فلا قتال.

ولا يجوز أن تليها «الفاء» مباشرة، ولا أن تتأخر عنها بِجُزْأَي جملَةٍ، لو قلت: «أَمَّا زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ فِي الدَّارِ» لم يجز، ويجوز أَنْ يَتَقَدَّمَ معمولٌ ما بعد «الفاء» عليها متليًّا أَمَّا كقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]

ولا يجوز الفصلُ بَيْنَ أَمَّا والفاءِ بمعمولٍ خبر «إِنَّ» خلافاً للمبرد، ولا بمعمولٍ خبر «ليت» و «لعلَّ» خلافاً للفرّاء، وإن وقع بعدها مصدرٌ نحو: «أَمَّا عِلْمًا فَعَالِمٌ» فإن كان نكرةً جاز نصبه عند التمييزين بِرُجْحَانٍ، وَضَعْفَ رَفْعُهُ، وإن كان معرفةً التزموا فيه الرِّفْعَ، وأجاز الحجازيون فيه الرفع والنصب نحو: «أَمَّا الْعِلْمُ فَعَالِمٌ»، ونصب المنكر عند سيبويه على الحال، والمعرف مفعول له.

وأما الأخفشُ فنصبهما عنده على المفعول المطلق، والنصب بفعل الشرط المقدّر، أو بما بعد الفاء، ما لم يمنع مانعٌ، فيتعيّن فعلُ الشرط نحو: أَمَّا عِلْمًا فَلَا عِلْمٌ لَهُ أَوْ: فَإِنَّ زَيْدًا عَالِمٌ؛ لأن «لا» و «إِنَّ» لا يعمَلُ ما بعدهما فيما قبلهما.

وأما الرفعُ فالظاهرُ أنه بفعل الشرط المقدّر، أي: مهما يُذَكَّرُ عِلْمٌ، أَوْ: العلمُ فزِيدَ عَالِمٌ، ويجوز أن يكون مبتدأ، وعَالِمٌ خبر مبتدأ محذوف، والجملَةُ خبرُهُ، والتقدير: أَمَّا عِلْمٌ - أَوْ الْعِلْمُ - فزِيدَ عَالِمٌ بِهِ، وجاز الابتداء بالنكرة، لأنَّه موضعُ تفصيل، وفيها كلام طويل.

و «الَّذِينَ آمَنُوا» فِي مَحَلِّ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَ «فَيَعْلَمُونَ» خبره.

قوله: «فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

الفاء جواب «أَمَّا» لما تضمنته من معنى الشرط، و «أَنَّهُ الْحَقُّ» سَادُّ مَسَدِّ الْمَفْعُولِينَ عند الجمهور، [وساد^(١) مسدِّ المفعول الأوّل فقط، والثاني محذوف، عند الأخفش، أي: فيعلمون حَقِيقَتَهُ ثَابِتَةً.

وقال الجمهور: لا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ وجود النسبة فيها بعد «أَنَّ» كافٍ فِي تَعَلُّقِ الْعِلْمِ، أَوْ الظَّنِّ بِهِ، وَالضَّمِيرُ فِي «أَنَّهُ» عَائِدٌ عَلَى الْمَثَلِ.

وقيل: على ضرب المثل المفهوم من الفعل.

= ١١٠، أسرار العربية: ص ١٠٦، والأشياء والنظائر: ١٥٣/٢، وأوضح المسالك: ٢٣٠٤/٤، والجنى الداني: ص ٥٢٤، وسر صناعة الإعراب: ص ٢٦٥، وشرح شواهد الإيضاح: ص ١٠٧، وشرح شواهد المغني: ص ١٧٧، وشرح ابن عقيل: ص ٥٩٧، وشرح المفصل: ١٣٤/٧، ٤١٢/٩، والمنصف: ١١٨/٣، ومغني اللبيب: ص ٥٦، والمقاصد التحوية: ٥٧٧/١، ٤٧٤/٤، والمقتضب: ٧١/٢، وجمع الهوامع: ٦٧/٢، الدر المصون: ١٦٥/١.

(١) سقط في ب.

وقيل: على ترك الاستحياء.

و «الحقُّ»: هو الثابت، ومنه حَقَّ الأمرُ أي: ثبت، ويقابله الباطل.

و «الحق» واحدُ الحقوق، و «الحَقَّة» بفتح الحاء أخص منه، يقال: هذه حَقَّتِي، أي: حَقِّي.

و «من رَبِّهِمْ» في محل نصب على الحال من الحقُّ أي: كائنًا وصادرًا من رَبِّهِمْ، و «مِنْ» لابتداء الغاية المجازية.

وقال أبو البقاء^(١): والعامل فيه معنى الحق، وصاحبُ الحالِ الضمير المستتر فيه أي من الحق؛ لأنَّه مشتق، فيتحمَّلُ ضميرًا.

قوله: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» لغة «بني تميم»، و «بني عامر» في «أَمَّا» «أَيْمًا» يدلون من أحد الميَمين ياء؛ كراهيةً للتضعيف؛ وأنشد عمرُ بنُ أبي ربيعة: [الطويل]

٣٣٠ - رَأَتْ رَجُلًا أَيْمًا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَكُ وَأَيْمًا بِالْعَشِيِّ فَيَخْضَرُ^(٢)
قوله: «فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ».

اعلم أنَّ «ما» له في كلام العرب ستة استعمالات:

أحدها: أن تكون «ما» اسم استفهام في محل رفع بالابتداء، و «ذا» اسم إشارة خبره.

والثاني: أن تكون «ما» استفهامية و «ذا» بمعنى الذي، والجملة بعدها صلة، وعائدها محذوف، والأجود حينئذ أن يرفع ما أجيبَ به أو أُبدِلَ منه؛ كقوله: [الطويل]

٣٣١ - لَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْخَبَ فَيَقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ^(٣)

(١) ينظر الاملاء: ٢٦/١.

(٢) ينظر البيت في ديوانه: (٩٤)، خزنة الأدب: ٣١٥/٥، ٣٢١، ٣٦٧/١١، مغني اللبيب: ٥٥/١، والأزهية: ص ١٤٨، والدرر: ١٠٨/٥، والأغاني: ٨١/١، وشرح شواهد المغني: ص ١٧٤، والمحتسب: ٢٨٤/١، والمتعمق في التصريف: ٣٧٥/١، والجنى الداني: ص ٥٢٧، وتذكرة النحاة: ص ١٢٠، ورصف المباني: ص ٩٩، وهمع الهوامع: ٦٧/٢، وشرح الأشموني: ٦٠٨/٣، ولسان العرب «ضحاً».

(٣) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه: ٢٥٤، والأزهية: ٢٠٦، الجنى الداني: ٢٣٩، خزنة الأدب: ٢/٢٠٢، ديوان المعاني: ١١٩/١، شرح أبيات سيبويه: ٤٠/٢، شرح التصريح: ١٣٩، شرح شواهد المغني: ١٥٠/١ و ٧١١/٢، والكتاب: ٤١٧/٢، ولسان العرب (نخب) (حول)، المعاني الكبير: (١٢٠)، مغني اللبيب: ٣٠٠، والبيت بلا نسبة في أوضح المسالك: ١٥٩/١، ورصف المباني: ١٨٨، شرح الأشموني: ٧٣/١، شرح المفصل: ١٤٩/٣ و ١٥٠ و ٢٣/٤، كتاب اللامات: ٦٤، مجالس ثعلب: ٥٣٠، وينظر الدر المصون: ١٦٦/١.

ف «ذا» هنا بمعنى الذي؛ لأنه أُبدِلَ منه مرفوعٌ، وهو «أُنْحَبُ»، وكذا ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] في قراءة أبي عمرو^(١).

والثالث: أن يُعْلَبَ حكم «ما» على «ذا» فَيُتْرَكَ، ويصيرُ بمنزلة اسم واحد، فيكون في محل نصب بالفعلِ بَعْدَهُ، والأجودُ حينئذٍ أن يُنْصَبَ جوابُهُ والمبدلُ منه كقوله: «مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ: الْعَفْوَ» في قراءة غير أبي عمرو^(٢)، و ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَيْكُمُ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠] عند الجميع. ومنه قوله: [البسيط]

٣٣٢ - يَا خُزَرَ تَغْلِبْ مَاذَا بَالُ نَسْوَتِكُمْ لَا يَسْتَفِيقَنَّ إِلَى الدِّينَيْنِ تَحَنُّانًا^(٣)
ف «ماذا» مبتدأ، و «بَالُ نسوتكم» خبره.

الرابع: أن يُجْعَلَ «ماذا» بمنزلة الموصول تغليباً لـ «ذا» على «ما» عكس الصورة التي قبله، وهو قليلٌ جداً؛ ومنه قوله: [الوافر]

٣٣٣ - دَعِيَ مَاذَا عَلِمْتَ سَأْتِقِيهِ وَلَكِنْ بِالْمُغَيَّبِ حَدَّثِينِي^(٤)
ف «ماذا» بمعنى الذي؛ لأنَّ ما قبله لا تعلق له به.

الخامس: زعم الفَارِسِيُّ أنَّ «ماذا» كله تكون نكرة موصوفة، وأنشد: «دَعِيَ مَاذَا عَلِمْتَ» أي: دَعِيَ شيئاً معلوماً، وقد تقدّم تأويله.

السادس: وهو أضعفها أن تكون «ما» استفهاماً، و «ذا» زائدة، وجميع ما تقدّم يَصْلُحُ أن يكون مثلاً له، ولكنَّ زيادة الأسماء ممنوعة أو قليلة جداً.

إذا عُرِفَ ذلك فقوله «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ» يجوز فيه وجهان دون الأربعة الباقية:

أحدهما: أن تكون «ما» استفهامية في محلّ دفع بالابتداء، و «ذا» بمعنى «الذي»، و «أَرَادَ اللَّهُ» صِلَةٌ، والعائدُ محذوف لاستكمال شروطه، تقديره: «أَرَادَهُ اللَّهُ» والموصول خَبَرُ «ما» الاستفهامية.

والثاني: أن تكون «مَاذَا» بمنزلة اسم واحد في محلّ نَصْبٍ بالفعلِ بعده، تقديره:

(١) انظر البحر المحيط: ١٦٨/٢، والحجة للقراء السبعة: ٣١٥/٢، وحجة القراءات: ١٣٣، وإتحاف فضلاء البشر: ٤٣٧/١، والدر المصون: ٥٣٧/١، وشرح طيبة النشر: ٩٧/٤، وشرح شعله: ٢٨٩.

(٢) ستأتي في النحل (٣٠).

(٣) البيت لجرير ينظر ديوانه: ص ١٦٧، والجنى الداني: ص ٢٤٠، والدر: ٢٧٠/١، وشرح شواهد المغني: ٧٨١/٢، ومغني اللبيب: ص ٣٠١، وجمع الهوامع: ٨٤/١، الدر المصون: ١٦٦/١.

(٤) البيت للمثقب العبدي ينظر ديوانه: ص ٢١٣، وخزانة الأدب: ٤٨٩/٧، ٨٠/١١، وشرح شواهد المغني: ص ١٩١، ولسحيم بن وثيل الرياحي في المقاصد النحوية: ١٩٢/١، ولأبي حية النميري في لسان العرب (أبي)، ولمزرد بن ضرار ينظر ديوانه: ص ٦٨، الجنى الداني: ص ٢٤١، والدر: ١/٢٧١، والكتاب: ٤١٨/٢، ولسان العرب (ذوا)، ومغني اللبيب: ص ٢٣٠١، ٣٠، الدر المصون: ١٦٦/١.

أَيُّ شَيْءٍ أَرَادَ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: وَهُوَ الْجَيِّدُ وَمَحَلُّ هَذِهِ الْجُمْلَةِ النَّصْبُ بِالْقَوْلِ، وَ «مَثَلًا» نَصَبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، قِيلَ: وَجَاءَ عَلَى مَعْنَى التَّوَكُّيدِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِهَذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَثَلٌ، فَجَاءَ التَّمْيِيزُ بَعْدَهُ مُؤَكِّدًا لِلْأَسْمِ الَّذِي أُشِيرَ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَاخْتَلَفَ فِي صَاحِبِهَا، فَقِيلَ: اسْمُ الْإِشَارَةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ.

وَقِيلَ: اسْمُ اللَّهِ - تَعَالَى - أَيُّ: مُتَمَثِّلًا بِذَلِكَ.

وَقِيلَ: عَلَى الْقَطْعِ وَهُوَ رَأْيُ الْكُوفِيِّينَ، وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ: أَنَّهُ كَانَ أَصْلُهُ أَنْ يَتَّبَعَ مَا قَبْلَهُ، وَالْأَصْلُ: بِهَذَا الْمَثَلِ، فَلَمَّا قُطِعَ عَنِ التَّبَعِيَّةِ انْتَصَبَ؛ وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ: [الطَّوِيلُ]

٣٣٤ - سَوَامِقُ جَبَّارٍ أُنِيبُ فُرُوعُهُ وَعَالَيْنِ قِنُونَانَا مِنَ الْبُسْرِ أَخْمَرَا^(١)
أصله: مِنَ الْبُسْرِ الْأَخْمَرِ.

فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْإِرَادَةِ وَاشْتِقَاقِهَا

و «الْإِرَادَةُ» لُغَةٌ طَلَبُ الشَّيْءِ مَعَ الْمَيْلِ إِلَيْهِ، وَقَدْ تَجَرَّدَ لِلطَّلَبِ، وَهِيَ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَعَيْنُهَا وَآؤٌ مِنْ رَادٍّ يَرُودُ، أَيُّ: طَلَبٌ، فَأَصْلُ «أَرَادَ» «أَزَوَدَ» مَثَلٌ: أَقَامَ، وَالْمَصْدَرُ الْإِرَادَةُ مَثَلُ الْإِقَامَةِ، وَأَصْلُهَا: إِزْوَادٌ فَأَعْلَتْ وَغَوَّضَ مِنْ مَحْذُوفِهَا تَاءُ التَّأْنِيثِ.

فَضْلٌ فِي مَاهِيَةِ الْإِرَادَةِ

و «الْإِرَادَةُ» مَاهِيَةٌ يَجِدُهَا الْعَاقِلُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيُذَكَّرُ بِالتَّفَرُّقِ الْبَدِيعِيَّةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عِلْمِهِ^(٢) وَقُدْرَتِهِ وَأَلَمِهِ وَلَذَّتِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَصَوُّرُ مَاهِيَّتِهَا مُحْتَاجًا إِلَى التَّعْرِيفِ.

وَقَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ: إِنَّهَا صِفَةٌ تَقْتَضِي رُجْحَانًا أَحَدَ طَرَفِي الْجَائِزِ عَلَى الْآخَرِ، لَا فِي الْوُقُوعِ، بَلْ فِي الْإِقْيَاقِ، وَاحْتَرَزْنَا بِهَذَا الْقَيْدِ الْآخِرِ عَنِ الْقُدْرَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ الْبَاءُ فِيهِ لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ فِي «يَهْدِي بِهِ»، وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ لَا مَحَلَّ لِهَمَا؛ لِأَنَّهُمَا كَالْبَيَانِ لِلْجُمْلَتَيْنِ الْمُصَدَّرَتَيْنِ بِ «أَمَّا»، وَهُمَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقِيلَ: فِي مَحَلِّ نَصْبٍ؛ لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ لـ «مَثَلًا» أَيُّ: مَثَلًا يُفَرِّقُ النَّاسَ بِهِ إِلَى ضَلَالٍ وَمُهْتَدِينَ، وَهُمَا عَلَى هَذَا مِنْ كَلَامِ الْكُفَّارِ.

(١) ينظر ديوانه: (٥٧)، البحر المحيط: ٤٥٩/٣، وروي صدره هكذا فأتت أعاليه وآدت أصوله، الدر المصون: (٣٦٧/١).

(٢) في ب: عمله.

وأجاز أبو البقاء^(١) أن تكون حالاً من اسم الله، أي: مُضِلّاً به كثيراً، وهادياً به [كثيراً]^(٢).

وجوّز ابن عطية^(٣) أن يكون جملة قوله: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» من كلام الكُفَّار، وجملة قوله: «وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» من كلام البارئ تعالى. وهذا ليس بظاهرٍ لأنَّه إلْبَاسٌ في التركيب.

والضميرُ في «به» عائذٌ على «ضرب» المضاف تقديرًا إلى المَثَل، أي بضرب المَثَل، وقيل: الضميرُ الأوَّلُ للتكذيب، والثاني للتصديق، ودلَّ على ذلك قوة الكلام.

[وَقُرِءَ]^(٤): «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرٌ، وَيُهْدَى بِهِ كَثِيرٌ، وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ» بالبناء للمفعول^(٥).

وَقُرِءَ أَيْضًا^(٦): «يُضِلُّ كَثِيرٌ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ، وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ» بالبناء للفاعل.

قال بعضهم: «وهي قراءة القَدَرِيَّة، وقد نَقَلَ ابن عطية عن أبي عمرو الدَّانِي أَنَّهَا قراءة المعتزلة»^(٧). ثم قال: «وابن أبي عُبَلَةَ من ثِقَاتِ الشَّامِيِّينَ» يعني قارئها، وفي الجملة فهي مخالفة لسواد المصحف.

فإن قيل: كيف وصف المهتدين هنا بالكثرة وهم قليلون؛ لقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، و ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فالجواب أنَّهم، وإن كانوا قليلين في الصُّورَة، فهم كثيرون في الحقيقة؛ كقوله: [البسيط].

٣٣٥ - إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا^(٨)
فصار ذلك باعتبارين.

(١) ينظر الإملاء: ٢٦/١.

(٢) سقط في أ.

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ١١٢/١.

(٤) قرأ بها زيد بن علي.

انظر البحر المحيط: ٢٧٠/١، والدر المصون: ١٦٧/١.

(٥) سقط في أ.

(٦) وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة.

انظر المحرر الوجيز: ١١٢/١، والبحر المحيط: ٢٧٠/١، والدر المصون: ١٦٧/١.

(٧) المنقول في «المحرر الوجيز» عن «أبي عمرو الداني» قوله: هذه قراءة القدرية، وابن أبي عبلة من ثقات الشاميين، ومن أهل السُّنَّة، ولا تصح هذه القراءة عنه، مع أنها مخالفة خط المصحف. ينظر المحرر الوجيز: ١١٢/١.

(٨) ينظر الكشف: ١١٨/١، والدر المصون: ١٦٧/١.

فَضْلٌ فِي اسْتِعْمَالَاتِ الْهَمْزَةِ

قال ابن الخطيب: «الهمزة تجيء تارةً لتنقل الفعل من غير التعدي إلى التعدي كقولك: «خَرَجَ» فَإِنَّهُ غير متعَدٍّ، فإذا قلت: «أَخْرَجَ» فقد جعلته متعدياً، وقد تجيء لتنقل الفعل من التعدي إلى غير التعدي كقوله «كَبَيْتُهُ فَأَكْبُ»^(١)، وقد تجيء لمجرد الوجدان».

حُكِيَ عن عمرو بن معديكرب^(٢) أَنَّهُ قَالَ لِبْنِي سَلِيمَ: «قَاتَلْنَاكُمْ فَمَا أَجَبْنَاكُمْ، وَهَاجَبْنَاكُمْ فَمَا أَفْحَمْنَاكُمْ، وَسَلَّأْنَاكُمْ فَمَا أَبْخَلْنَاكُمْ»، أَي: مَا وَجَدْنَاكُمْ جَبْنَاءَ وَلَا مَفْحَمِينَ، وَلَا بَخْلَاءَ. وَيُقَالُ: أَتَيْتُ أَرْضَ فُلَانٍ فَأَعْمَرْتُهَا، أَي: وَجَدْتُهَا عَامِرَةً.

ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يقال: الهمزة لا تفيد إلا نقل الفعل من غير التعدي إلى التعدي، وأما قوله: «كَبَيْتُهُ فَأَكْبُ»، فلعل المراد كببته فأكب نفسه على نفسه فيكون قد ذكر الفعل مع حذف المفعولين، وهذا ليس بعرف!

وأما قوله: «قَاتَلْنَاكُمْ فَمَا أَجَبْنَاكُمْ» فالمراد ما أثر قتالنا في صيرورتكم جبناً، وكذا القول في البواقي وهذا الذي قلناه أولى دفعاً للاشتراك.

إذا ثبت هذا فنقول قولنا: «أَضَلَّهُ اللهُ» لا يمكن حمله إلا على وجهين: أحدهما: أَنَّهُ صَيَّرَهُ ضَالًّا عَنِ الدِّينِ.

والثاني: وَجَدَهُ ضَالًّا.

فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْإِضْلَالِ

واعلم أن معنى الإضلال عن الدين في اللغة: هو الدعاء إلى ترك الدين، وتقييده في عَيْنِهِ، وهذا هو الإضلال الذي أضافه الله - تعالى - إلى «إبليس» فقال: ﴿إِنَّكَ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] وقال: ﴿وَلَا ضَلَّلْنَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٩].

وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا الَّذِينَ أَضَلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا﴾ [فصلت: ٢٩]، وأيضاً أضاف هذا الإضلال إلى فرعون، فقال: ﴿وَاضْلَلْ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩].

واعلم أَنَّ الْأُمَّةَ مَجْمُوعَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِضْلَالَ بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ مَا دَعَا إِلَى الْكُفْرِ، وَمَا رَغَّبَ فِيهِ، بَلْ نَهَى عَنْهُ، وَزَجَرَ وَتَوَعَّدَ بِالْعِقَابِ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ فِي الْإِضْلَالِ فِي اللُّغَةِ هَذَا، وَهَذَا الْمَعْنَى مُنْفِي بِالْإِجْمَاعِ، ثَبَتَ انْعِقَادُ

(١) في أ: فانكب.

(٢) عمرو بن كريب بن صالح الرعيني أحد المقدمين في أيام عبد العزيز بن مروان بمصر، جعل له ولاية الحرس والأعوان والخييل، بعد وفاة جندب بن مرثد الرعيني وكانا من ثقاته فعاش عمرو بعد سلفه أربعين ليلة وتوفي بالقاهرة سنة ٨٣ هـ.

ينظر الأعلام: ٨٤/٥ (٥٤٨)، الولاة والقضاة: ٥٣.

الإجماع على أنه لا يجوز إجراء هذا اللَّفْظ على ظاهره، وعند هذا افتقر أهل الجَبْرِ والقدر إلى التأويل.

أما أهل الجَبْرِ فقد حملوه على أَنَّهُ - تعالى - خالق الضلال والكفر فيهم وصدّهم عن الإيمان، وحال بينهم وبينه، ورُبَّمَا قالوا: هذا هو حقيقة اللفظ في أصل اللغة؛ لأنَّ الإضلال عبارة عن جَعْلِ الشَّيْءِ ضالًّا كما أَنَّ الإخراج والإدخال عبارة عن جَعْلِ الشَّيْءِ خارجاً وداخلاً. وأما المعتزلة فقالوا: التأويل من وجوه:

أحدها: قالوا: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ضَلَّ باختياره عن حضور شيء من غير أن يكون لذلك الشَّيْءِ أثر في ضلاله فيقال لذلك الشَّيْءِ: إِنَّهُ أَضَلَّهُ قال تعالى في حق الأصنام: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] أي: ضَلُّوا بِهِمْ وقال: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣] أي: ضَلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِهِمْ.

وقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] أي: لم يزدهم الدُّعَاءَ إِلَّا فِرَارًا.

وقال: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرًا حَتَّىٰ أَسْوَأَكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] وهم لم ينسوهم في الحقيقة، وكانوا يُذَكِّرُونَهُم الله.

وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

فأخبر تعالى أَنَّ نزول السورة المشتملة على الشَّرَائِعِ يُعَرِّفُ أحوالهم.

فمنهم من يصلح عليها؛ فيزداد بها إيماناً، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كُفْرًا، فأضيفت الزيادة في الإيمان، والزيادة في الكُفْرِ إلى السُّورَةِ؛ إذ كانوا إِنَّمَا صلحوا عند نزولها وفسدوا، فهكذا أُضيف الضَّلَالُ والهُدَىٰ إلى الله تعالى؛ إذ كان حدوثهما عند ضربه - تعالى - الأمثال لهم.

وثانيها: أَنَّ الإضلال هو التسمية بالضلالة، فيقال: أَضَلَّهُ إِذَا سَمَاهُ ضالًّا، وأكفر فلان فلاناً إِذَا سَمَاهُ كافراً، وذهب إليه قطرب، وكثير من المعتزلة.

ومن أهل اللغة من أنكره، وقال: إِنَّمَا يقال: ضللتَه تضليلاً، إِذَا سَمَيْتُهُ ضالًّا، وكذلك فَسَقْتَهُ وَفَجَرْتَهُ، أي: سَمَيْتُهُ: فاسقاً وفاجراً.

وأجيب عنه بأنَّه حتى صَيَّرَهُ في نَفْسِهِ ضالًّا لَزِمَهُ أَي يُصَيِّرُهُ محكوماً عليه بالضلال فهذا الحكم من لوازم ذلك التصيير وإطلاق اسم الملزوم على اللازم مجاز مشهور.

وثالثها: أن يكون الإضلال هو التَّخْلِيَةُ، وترك المنع بالقهر، والجبر، فيقال: أَضَلَّهُ أَي: خَلَّاهُ وضلاله.

قالوا: ومجازه من قولهم: «أَفْسَدَ فُلَانٌ ابْنَهُ، وأهلكه» إذا لم يتعهده بالتأديب؛ ومنه قوله: [الوافر]

٣٣٦ - أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا (١)

ويقال لمن ترك^(٢) سيفه في الأرضِ النَّدِيَّةِ حَتَّى فَسَدَ وصدىء: أفسدت سيفك وأصدأته.

ورابعها: الضلال، والإضلال هو العذاب والتعذيب لقوله ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ [القمر: ٤٨]، فوصفهم بأنهم يوم القيامة في ضلال، وذلك هو عذابه.

وخامسها: أن تحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال، كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ١] قيل: أهلكها، وأبطلها، ومجازه من قولهم: «ضَلَّ الماء في اللَّبَنِ» إذا صار مستهلكاً فيه.

ويقال: أَضَلَّ الْقَوْمُ مَيِّتُهُمْ، أي: واروه في قبره فأخفوه حتى صار لا يُرَى.

وقالوا: ﴿أَوَدَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] فيحتمل أن يضل الله إنساناً أي: يهلكه ويعدمه.

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإضلال عن الجنَّة.

قالت المعتزلة: وهذا في الحقيقة ليس تأويلاً، بل حَمْلٌ لِلْفَظ على ظاهره فإن الآية تدل على أنه يضلُّهم، وليس فيها دلالة على أنه عن ماذا يضلُّهم؟ فنحن نحملها على أنه - تعالى - يضلُّهم عن طريق الجنَّة، ثم حملوا كل ما في القرآن من هذا الجنس على هذا المحمل، وهو اختيار الجبائي. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَتَتْهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] أي: يضلُّه عن الجنَّة وثوابها هذا كله إذا حملنا الهمزة في الإضلال على التعدية.

وسابعها: أن تحمل الهمزة لا على التعدية، بل على الوجدان على ما تقدَّم، فيقال: أَضَلَّ فُلَانٌ بَعِيرَهُ أي: ضلَّ عنه، فمعنى إضلال الله - تعالى - لهم أنه وجدهم ضالِّين.

وثامنها: أن يكون قوله: «يُضِلُّ به كثيراً، وَيَهْدِي به كثيراً» من تمام قول الكفار كأنهم قالوا: ماذا أراد الله بهذا المثل الذي لا يظهر وجه الفائدة فيه؟

(١) صدر بيت للعرجي وعجزه:

ليوم كريهة وسداد ثغر

ينظر اللسان: (ضيع).

(٢) في أ: ألقى.

ثُمَّ قَالُوا: يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، ذَكَرُوهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ، فَهَذَا مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» أَيَّ مَا أَضَلَّ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. هَذَا مَجْمُوعُ كَلَامِ الْمُعْتَزَلَةِ.

قَالَتِ الْجَبَرِيَّةُ^(١): وَهَذَا مُعَارَضٌ بِمَسْأَلَةِ الدَّاعِي، وَهِيَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْإِهْدَاءِ وَالضَّلَالِ لَمْ يَفْعَلْ أَحَدَهُمَا دُونَ الْآخَرِ؟

وَمُعَارَضٌ أَيْضًا بِمَسْأَلَةِ الْعِلْمِ عَلَى مَا سَبَقَ تَقْرِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

وَالْجَوَابُ عَنِ الْآيَاتِ يَأْتِي فِي مَوَاضِعِهِ.

قَوْلُهُ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» «الْفَاسِقِينَ» مَفْعُولٌ لـ «يَضِلُّ» وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُفْرَغٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ، وَيَجُوزُ عِنْدَ الْقُرَّاءِ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ أَحَدًا إِلَّا الْفَاسِقِينَ»؛ كَقَوْلِهِ: [الطويل]

٣٣٧ - نَجَا سَالِمٌ وَالنَّفْسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفْنٌ سَيْفٍ وَمُثْرَا^(٢)

(١) معنى الجبر: نفي الفعل عن العبد وإضافته لله - تعالى -.

وفكرة الجبر ليست عربية، وقد تلقاها «الجعد من درهم» عن يهودي، وتلقاها عن «الجعد» «جهم بن صفوان».

وقد شاعت هذه الفكرة في أول العصر الأموي، وانتشرت حتى صارت مذهباً في آخره، وتنسب فرقة الجبرية إلى «جهم بن صفوان»؛ لأنه يعتبر أكبر الدعاة لهذه النحلة، وأعظم أنصارها؛ ولهذا سميت بـ «الجهمية».

وكان مولى لـ «بني راسب» من أهل خراسان وأقام بـ «الكوفة»، ولخطابته أثر كبير فيمن تبعه، وقد ظهر بمذهبه (في ترمذ)، وكان وزيراً للحارث بن سريح، ولما خرج «الحارث» على بني أمية، وهزم على يد «سالم بن أحوز المازني» الذي بعثه عامل الأمويين على خراسان ووقع «الجهم» أسيراً في يده، فقتله في سنة ١٢٨هـ.

مبادئ الجبرية:

أولاً - الإنسان مجبور في فعله، فلا يوصف بالاستطاعة، ولا قدرة له ولا اختيار، وإنما يخلق الله فيه الأفعال كما يخلقها في الجمادات.

ثانياً - لا يوصف الله بصفة وصف بها خلقه؛ لأن هذا يقتضي التشبيه؛ ولهذا نفى صفات المعاني عن الله - تعالى -.

ثالثاً - القول بخلق القرآن؛ لإنكارهم صفة الكلام.

رابعاً - وجوب المعرفة بالعقل، والإيمان هو المعرفة.

خامساً - إنكار رؤية الله لما تقتضيه من التشبيه. وغير ذلك كما هو مبسوط في كتب الملل والنحل.

(٢) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي ينظر شرح أشعار الهذليين: ٥٥٨/٢، العقد الفريد: ٢٤٤/٥، لسان العرب (جفن)، تذكرة النحاة: ص ٥٢٦، جمهرة اللغة: ص ١٣١٩، ووصف المباني: ص ٨٦، الصاحبي في فقه اللغة: ص ١٣٦، المعاني الكبير: ص ٩٧٢، المقرب: ١٦٧/١، الدر المصون ١٦/٠.

أي: لم ينبُج بشيء، ومنع أبو البقاء نصبه على الاستثناء، كأنه اعتبر مذهب جمهور البصريين.

و «الفِسْقُ» لغة: الخروج، يقال: فسقت الرُّطْبَةُ عن قِشْرِهَا، أي: خَرَجَتْ، والفأرة من جُخْرِهَا.

و «الفاسِقُ»: خارج عن طاعة الله، يقال: فسقَ يَفْسُقُ وَيَفْسِقُ بالضم والكسر في المضارع فسقاً وفُسوقاً، عن الأخفش، فهو فاسِقٌ.

وزعم ابن الأعرابي، أنه لم يسمع في كلام الجاهلية، ولا في شعرهم «فاسق»، وهذا عجيب، وهو كلامٌ عربيٌّ حكاه عنه ابن فارس والجوهري، وقد ذكر ابن الأتباري في كتاب «الزاهر» لما تكلّم على معنى «الفِسْقِ» قولُ رُؤْبَةِ: [الرجز]

٣٣٨ - يَهْوِيْنَ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَن قَصْدِهَا جَوَائِرًا^(١)

و «الفسيق»: الدائم الفسق، ويقال في النداء: يا فاسق ويا خبيث، يريد يا أيها الفاسق ويا أيها الخبيث. والفسق في عرف الاستعمال الشرعي الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بعضيان. واختلف أهل القبله في أنه مؤمنٌ أو كافر.

فعند بعضهم أنه مؤمن، وعند الخوارج: أنه كافر، وعند المعتزلة: أنه لا مؤمن ولا كافر.

واختَجَّ الخَوَارِجُ^(٢) بقوله تعالى: ﴿يَسَّ آلَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

(١) ينظر ملحق ديوانه: (١٩٠) والكتاب: (٤٩/١)، الخصائص: (٤٣٢/٢)، الشذور: (٣٣٤)، الدر المصون: (١٦٨/١).

(٢) هم أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن اعتقادهم، وحماسةً لرأيهم، وقد دفعهم التعصب لفكرتهم إلى الاستهداف للمخاطرة، وقسوة القلب على من خالفهم.

وقد نشأت هذه الفرقة: بسبب الخلاف بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما -، وذلك أنه نشب القتال بينهما في موقعة «صفين»، وطلب معاوية وصحبه تحكيم كتاب الله؛ خوفاً من الهزيمة، واختلف أصحاب علي في إجابة طلب معاوية، ثم كانت نهاية الجدل قبول التحكيم. من مبادئهم:

١ - صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في أول ولايته، وكان يجب عزله عندما غير طريقة أبي بكر وعمر وقدم أقربه.

٢ - صحة خلافة علي إلى وقت التحكيم، ولما أخطأ كفّروه مع الحكّمين.

٣ - الخلافة يجب أن تكون باختيار حر بين المسلمين، سواء كان المختار قرشياً أو عبداً حبشياً، وليس من حقه أن يتنازل أو يحكم، وعليه أن يخضع تماماً لأوامر الدين، وإلا وجب عزله.

٤ - العمل جزء من الإيمان؛ لأن الإيمان تصديق وعمل، ومن عصى الله، يكون كافراً، والذنوب كلها كبائر.

٥ - وجوب الخروج على الإمام الجائر، ولا يقولون بالثبوتة مثل الشيعة. ينظر الملل والنحل: ١١٤/١

وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَزَقْنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] وهذه مسألة طويلة مذكورة في علم الكلام.

قوله: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ» فيه أربعة وجوه:

أحدها: أن يكون نعتاً لـ «الفاستقين».

والثاني: أنه منصوب على الذم.

والثالث: أنه مرفوع بالابتداء، وخبره الجملة من قوله «أُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ».

والرابع: أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هم الفاسقون. والعهد^(١) في كلامهم على^(٢)

معان:

منها الوصية والضمان، والاكتفاء، والأمر.

و «مِنْ بَعْدِ» متعلق بـ «ينقضون»، و «من» لابتداء الغاية، وقيل: زائدة، وليس بشيء. والضمير في ميثاقه يجوز أن يعود على العهد، وأن يعود على اسم الله تعالى، فهو على الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثاني مضاف للفاعل.

و «الميثاق» العهد المؤكّد باليمين مفعّل من الوثاق والمعاودة، والجمع: المواثيق على الأصل؛ لأن أصل ميثاق: موثاق، صارت «الواو» «ياء»؛ لانكسار ما قبلها وهو مصدر كـ «الميلاد» و «الميعاد» بمعنى الولادة، والوعد؛ وقال ابن عطية^(٣): هو اسم في وضع المصدر؛ كقوله: [الوافر]

٣٣٩ - أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةِ الرَّتَاعَا^(٤)

أي: إغطائك، ولا حاجة تدعو إلى ذلك، والمادة تدل على الشد والرّبط، وجمعه مواثيق، وميثاق أيضاً، وميثاق؛ وأنشد ابن الأعرابي: [الطويل]

٣٤٠ - جَمَى لَا يَحُلُّ الدَّهْرُ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَهْدَ الْمِثَاقِ^(٥)

(١) في أ: العمل.

(٢) في ب: في.

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ١١٣/١.

(٤) البيت للقطامي ينظر ديوانه: ص ٣٧، وتذكرة النحاة: ص ٤٥٦، وخزانة الأدب: ١٣٦/٨، ١٣٧، والدرر: ٦٢/٣، وشرح التصريح: ٦٤/٢، وشرح شواهد المغني: ٨٤٩/٢، وشرح عمدة الحافظ: ص ٦٩٥، ولسان العرب (عطا)، (رهف)، ومعاهد التنصيص: ١٧٩/١، والمقاصد النحوية: ٣/٥٠٥، والأشباه والنظائر: ٤١١/٢، وأوضح المسالك: ٢١١/٣، وشرح الأشموني: ٣٣٦/٢، وشرح شذور الذهب: ص ٥٢٨، وشرح ابن عقيل: ص ٤١٤، وهمع الهوامع: ١٨٨/١، ٩٥/٢، والدر المصون: ١٦٨/١.

(٥) البيت لعياض بن درة الطائي ينظر لسان العرب (وثق)؛ والمقاصد النحوية: ٥٣٧/٤، ونوادر أبي زيد: =

وَالْمَوْتِيقُ: الميثاق والموائقة والمُعَاهَدَة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: ٧].

فَضْلٌ فِي النَقْضِ

النقضُ إفسادُ ما أبرمته من بناءٍ أو حبلٍ أو عهدٍ، والرجوع به إلى الحالة الأولى .
والنقاضة: ما نُقضَ من حبل الشعر، والمُنَاقِضَةُ في القول: أن يتكَلَّمَ بما يناقض معناه، والنَّقِیْضَةُ في الشعر ما ينقضُ به .

وَالنَّقْضُ: المنقُوض، واختلف النَّاسُ في هذا الْعَهْدِ، فقليل: هو الذي أخذه اللَّهُ على بني آدم - عليه السَّلام - حين استخرجهم من ظهره .

قال المتكلمون: «هذا ساقطٌ»؛ لأنَّه - تعالى - لا يحتج على العباد بعهد وميثاق لا يشعرون به، كما لا يؤاخذهم بالسَّهْوِ والنسيان وقيل: هو وصيَّةُ اللَّهِ - تعالى - إلى خلقه، وأمره إياهم بها أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم من معصيته في كتبه على ألسنة رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به، وقيل: بل نَصَبَ الأدلَّةَ على وحدانيته بالسموات، والأرض، وسائر الصنعة، وهو بمنزلة الْعَهْدِ، ونقضهم ترك النَّظَرِ في ذلك .

وقيل: هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبينوا نبوة محمد عليه السَّلام، ولا يكتُموا أمره، فالآية على هذا في أهل الكتاب .

وقال أبو إسحاق الزَّجَّاج: عهده جَلَّ وعَزَّ ما أخذه على النَّبِيِّينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ، أَلَّا يَكْفُرُوا بالنبي - ﷺ - ودليل ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي .

قوله: «وَيَقْطَعُونَ» عطف على «يَنْقُضُونَ» فهي صلة أيضاً، و «ما» موصولة، و «أمر» اللُّهُ به» صلتها وعائدها .

وأجاز أبو البقاء أن تكون نكرة موصوفة، ولا يجوز أن تكون مصدرية لعود الضمير عليها إلا عند أبي الحسن وابن السراج وهي مفعولة بـ «يَقْطَعُونَ» والقطع معروف، والمصدر - في الرَّحِمِ - القطيعة، يقال: قطع رحمه قطيعة فهو رجل قُطِعَ وَقُطِعَةً، مثل «هُمَزَةٍ»، وَقُطِعَتْ الحبل قُطْعاً، وقطعت النهر قُطُوعاً، وَقُطِعَت الطير قُطُوعاً، وَقُطَاعاً، وَقُطَاعاً إذا خرجت من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ .

وأصاب الناس قُطْعَةً: إذا قلت مياهم، ورجل به قُطِعَ أي انبهار .

= ص ٦٥، وبلا نسبة في إصلاح المنطق: ص ١٣٨، والخصائص: ٣/١٥٧، وشرح الأشموني: ٣/

٧١٥، وشرح شافية ابن الحاجب: ١/٢١٠، وشرح شواهد الشافية: ص ٩٥، وشرح المفصل: ٥/

١٢٢، الدر المصون: ١/١٦٩.

قوله : «مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» «ما» في موضع نصب بـ «يقطعون» و «أَنْ يُوصَلَ» فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : الجر على البدل من الضمير في «بِهِ» أي ما أمر الله بَوَصْلِهِ ؛ كقول امرئ القيس : [الطويل]

٣٤١ - أَمِنْ ذِكْرِ سَلَمَى أَنْ نَأْتِكَ تَوْصُ فَتَقْصُرُ عَنْهَا خُطْوَةً أَوْ تَبْوُصُ^(١) أي : أَمِنْ نَأْيِهَا .

والنصب وفيه وجهان :

أحدهما : أنه بدل من «مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ» بدل اشتمال .

والثاني : أنه مفعول من أجله ، فقدره المهدوي : كراهية أن يوصل ، وقدره غيره : ألا يوصل .

والرفع على أنه خبر مبتدأ [مضمر]^(٢) أي : هو أن يوصل ، وهذا بعيداً جداً ، وإن كان أبو البقاء ذكره .

واختلف في الشيء الذي أمر بوصله ف قيل : صلة الأرحام ، وحقوق القرابات التي أمر الله بوصلها ، وهو كقوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد : ٢٢] وفيه إشارة إلى أنهم قطعوا ما بينهم وبين النبي - ﷺ - من القرابة ، وعلى هذا فالآية خاصة .

وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ، فقطعوا بينهما بأن قالوا ، ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ، فقطعوه بتصديق بعضهم ، وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله ، وعبادته في الأرض ، وإقامة شرائعه ، وحفظ حدوده ، فهي عامة في كل ما أمر الله - تعالى - به أن يوصل ، هذا قول الجمهور .

وقيل : إن الله - تعالى - أمرهم أن يصلوا حَبْلَهُمْ بِحَبْلِ الْمُؤْمِنِينَ ، فانقطعوا عن المؤمنين ، واتصلوا بالكفار .

وقيل : إنهم نهوا عن التنازع وإثارة الفتن ، وهم كانوا مشتغلين بذلك .

و «يُفْسِدُونَ» عطف على الصلة أيضاً ، و «في الأرض» متعلق به .

والأظهر أن يراد به الفساد في الأرض الذي يتعدى دون ما يقف عليهم .

وقيل : يعبدون غير الله ، ويجورون في الأفعال ، إذ هي بحسب شهواتهم ، ثم إنه -

(١) ينظر ديوانه : ص ١٧٧ ، ولسان العرب (قصر) ، (بوص) ، رصف المبانى : ص ٤٣٥ ، الدر المصون :

١٦٩/١ .

(٢) سقط في أ .

تعالى - أخبر أن من فعل هذه الأفاعيل خسر فقال: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» كقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقد تقدم أنه يجوز أن تكون هذه الجملة خبر «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ» إذا جعل مبتدأ.

وإن لم يجعل مبتدأ، فهي مستأنفة، فلا محل لها حينئذ، و «هم» زائدة، ويجوز أن يكون «هم» مبتدأ ثان، و «الْخَاسِرُونَ» خبره، والثاني وخبره خبر الأول.

والخاسر: الذي نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز.

والخسران: النقصان، كان في ميزان أو غيره؛ قال جرير: [الرجز]

٣٤٢ - إِنَّ سَلِيطاً فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ أَوْلَادَ قَوْمٍ خَلِقُوا أَقْنَةً^(١)
يعني بالخسار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم.

قال الجوهري: وخسرت الشيء بالفتح - وأخسرتة نقصته.

والْخَسَارُ وَالْخَسَارَةُ وَالْخَيْسَرُ: الضَّلَالُ والهَلَاكُ. فقيل للهالك: خاسر؛ لأنه خسر نفسه، وأهله يوم القيامة، ومنع منزله من الجنة.

فصل

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه، وكل عهد جائز ألزمه المرء نفسه، فلا يحل له نقضه، سواء أكان بين مسلم أم غيره، لزم الله - تعالى - من نقض عهده.

وقد قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقد قال لنبية عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] فنهاه عن العَدْرِ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد، على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

اعلم أنه - تعالى - لما تكلم في دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد شرع في شرح النعم التي عمت جميع المكلفين. فالمراد بهذا الاستخبار التَّبَكُّيت والتعنيف.

قوله: «كيف» استفهام يسأل به عن الأحوال، وبني لتضمنه معنى الهمزة، وبني على أخف الحركات، وكان سبيلها أن تكون ساكنة؛ لأن فيها معنى الاستفهام الذي معناه التعجب.

(١) ينظر البيت في ديوانه: (٥٩٨)، القرطبي: (٢٤٨/١)، الطبري: (٤١٧/١)، الدر المصون: (١/١).

وشدّ دخول حرف الجر عليها، قالوا: «على كيف تبيح الأَخْمَرِينَ».

وكونها شرطاً قليلاً، ولا يجزم بها خلافاً للكوفيين، وإذا أبدل منها اسم، أو وقع جواباً، فهو منصوبٌ إن كان بعدها فعل متسلّط عليها نحو كيف قمت؟ أصحیحاً أم سقيماً؟ وكيف سرت؟ فتقول: رَاشِداً، وإلا فمرفوعان نحو: كيد زيد؟ أصحیح أم سقیم؟ وإن وقع بعدها اسم مسؤول عنه بها، فهو مبتدأ، وهي خبر مقدم، نحو: كيف زيد؟ وقد يحذف الفعل بعدها، قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾ [التوبة: ٨] أي: كيف تَوَالُونَهُمْ؟.

وكيف في هذه الآية منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه، أي: في أي حالة تكفرون؟ وعلى الحال عند الأخفش. أي: على أي حال تكفرون؟ والعامل فيها على القولين «تكفرون»، وصاحب الحال الضمير في «تكفرون».

ولم يذكر أبو البقاء غير مذهب الأخفش، ثم قال: والتقدير: معاندين تكفرون؟ وفي هذا التقدير نظر؛ إذ يذهب معه معنى الاستفهام المقصود به التعجب، أو التوبيخ، أو الإنكار.

قال الزمخشري^(١) بعد أن جعل الاستفهام للإنكار: وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، وقد علم أن كلّ موجود لا بدُّ له من حالٍ، ومُحَالٌ أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني.

وفي الكلام التفات من الغيبة في قوله «وأما الذين كفروا» إلى آخره إلى الخطاب في قوله: «تَكْفُرُونَ» و «كُنتُمْ».

وفائدته: أن الإنكار إذا توجّه إلى المخاطب كان أبلغ.

وجاء «تَكْفُرُونَ» مضارعاً لا ماضياً؛ لأن المنكر الدوام على الكفر، والمضارع هو المشعر بذلك، ولئلا يكون ذلك توبيخاً لمن آمن بعد كفر. و «كَفَر» يتعدّى بحرف الجر نحو: «تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ» ﴿تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٠] ﴿كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ [فصلت: ٤١] وقد يتعدّى بنفسه في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ١٨] وذلك لما ضمن معنى جحدوا.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لأهل الكتاب، وهم لم يكفروا بالله؟ فالجواب أنهم [لما]^(٢) لم يسمعوا أمر محمد - ﷺ - ولم يصدقوه فيما جاء به، فقد أشركوا؛ لأنهم لم يقرؤا بأن القرآن من عند الله، ومن يزعم أن القرآن من كلام البشر، فقد أشرك بالله، وصار ناقضاً للعهد.

(١) ينظر الكشف: ١/١٢١.

(٢) سقط في ب.

فصل في الرد على المعتزلة

قال المعتزلة : هذه الآية تدلّ على أن الكفر من قبل العباد من وجوه :

أحدها : أنه - تعالى - لو كان هو الخالق للكفر فيهم لما جاز أن يقول : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ» موبخاً لهم ، كما لا يجوز أن يقول : كيف تَسْوَدُّونَ وتبيضون وتصحون وتسقمون لما كان ذلك كله من خلقه فيهم .

وثانيها : إذا كان خلقهم أولاً للشقاء والنار ، وما أراد بخلقهم إلا الكفر^(١) وإرادة الوقوع في النَّار ، فكيف يصح أن يقول موبخاً لهم : «كيف تكفرون» ؟ .

وثالثها : أنه - تعالى - إذا قال للعبيد كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، فهذا الكلام إما أن يكون موجهاً للحجة على العبد ، وطلباً للجواب منه ، أو ليس كذلك ، فإن لم يكن لطلب هذا المعنى لم يكن في ذكره فائدة ، فيكون هذا الخطاب عبثاً ، وإن ذكره لتوجيه الحجة على العبد ، فللعبد أن يقول : حصل في حقي أمور كثيرة موجبة للكفر .

فالأول : أنك علمت بالكفر مني ، والعلم بالكفر يوجب الكفر .

والثاني : أنك أردت الكفر مني ، وهذه الإرادة موجبة له .

والرابع : أنك خلقت في قدرة موجبة للكفر .

والخامس : أنك خلقت في إرادة موجبة للكفر .

والسادس : أنك خلقت في قدرة موجبة للإرادة الموجبة للكفر .

ثم لما حصلت هذه الأسباب الستة في حصول الكفر ، فالإيمان متوقّف على حُصول هذه الأسباب الستة في طرف الإيمان ، وهي بأسرها كانت مفقودة ، فقد حصل لعدم الإيمان اثنا عشر سبباً واحداً منها مستقل [بالمنع من الإيمان]^(٢) ومع قيام هذه الأسباب الكثيرة كيف يعقل أن يقال : كيف تكفرون بالله ؟ وآيات أخر تأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى .

والجواب عن هذا أن الله - سبحانه - علم أنه لا يكون ، فلو وجد [لانتقلب عليه]^(٣) جهلاً ، وهو محال ، ووقوعه محال ، وأيضاً فالقدرة على الكفر إن كانت صالحة للإيمان امتنع كونها مصدراً للإيمان على التعيين إلا لمرجح ، وذلك المرجح إن كان من العبد عاد السؤال ، وإن كان من الله ، فما لم يحصل ذلك المرجح من الله امتنع حصول الكفر ، وإذا حصل ذلك المرجح وجب ، وعلى هذا يعقل قوله : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ» قاله ابن الخطيب .

قوله : «وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» «الواو» : «واو» الحال ، وعلامتها أن يصلح موضعها

(١) في أ : للكفر .

(٢) في أ : بقلب .

(٣) في أ : بالإيمان .

«إذ». [والجملة في] ^(١) موضع نَضَبٍ على الحال، ولا بد من إضمار «قد» ليصح وقوع الماضي حالاً.

وقال الزمخشري ^(٢): فإن قلت: كيف صح أن يكون حالاً، وهو ماضٍ؟

قلت: لم تدخل «الواو» على «كُنْتُمْ أَمْوَاتًا» وحده، ولكن على جملة قوله: «كُنْتُمْ أَمْوَاتًا» إلى «تُرْجَعُونَ» كأنه قيل: كيف تكفرون بالله، وقصتكم ^(٣) هذه، وحالكم أنكم كنتم أَمْوَاتًا في أصلاب آبائكم، فجعلكم أحياء، ثم يميتكم بعد هذه الحَيَاة ثم يحييكم بعد الموت، ثم يُحَاسِبُكُمْ؟.

ثم قال: فإن قلت: بعض القصّة ماضٍ، وبعضها مستقبل، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقع حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه، فما الحاضر الذي وقع حالاً؟

قلت: هو العلم بالقصّة كأنه قيل: كيف تكفرون، وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها؟.

قال أبو حيان ما معناه: هذا تكلف، يعني تأويله هذه الجملة بالجملة الاسمية. قال: والذي حمّله على ذلك اعتقاده أن الجمل مندرجة في حكم الجملة الأولى، قال: ولا يتعيّن، بل يكون قوله تعالى: «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وما بعده جملاً مستأنفة أخبر بها - تعالى - لا داخله تحت الحال، ولذلك غاير بينها وبين ما قبلها من الجمل بحرف العطف، وصيغة الفعل السابقين لها في قوله: «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ».

و «الفاء» في قوله «فأحياكم» على بابها من التّعقيب، و «ثم» على بابها من التّراخي؛ لأن المراد بالموت الأول العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثاني المَوْتُ المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث، فجاءت الفاء، و «ثم» على بابهما من التّعقيب والتراخي على هذا التفسير، وهو أحسن الأقوال.

ويعزى لابن عباس وابن مسعود ومجاهد ^(٤)، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن البعث.

قال ابن عطية: وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا مَحِيدَ للكفار عنه لإقرارهم بهما، وإذا أذعنت نفوس الكُفَّار لكونهم أَمْوَاتًا معدومين، ثم الإحياء في الدنيا، ثم الإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جحدهم له دعوى لا حُجّة عليها، والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا.

(٣) في أ: وقصيتكم.

(١) في أ: وجملة قسم.

(٤) ذكر هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور: ٨٨/١.

(٢) ينظر الكشف: ١٢١/١.

وقيل: لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماتهُ في الدنيا، ثم أخياه في الدنيا.

وقيل: كنتم أمواتاً في ظهر آدم، ثم أخرجكم من ظهره كالذّر، ثم يميّتكم موت الدنيا، ثم يبعثكم.

وقيل: كنتم أمواتاً - أي نُطفأً - في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم، ثم يميّتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم في القبر للمسألة، ثم يميّتكم في القبر، ثم يحييكم حياة النشْر إلى الحُشْرِ وهي الحياة التي ليس بعدها موت.

قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي ثلاث مَوْتَات، وثلاث إحياءات، وكونهم موتى في ظهر ابن آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفأً في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، فعلى هذا تنجي أربع موات وأربع إحياءات.

وقد قيل: إن الله - تعالى - أوجدكم قبل خلق آدم - عليه الصّلاة والسّلام - كالهَبَاءِ، ثم أماتهم، فيكون على هذا خمس موات، وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد - ﷺ - إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النَّارِ الَّذِينَ هم أهلها فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فيها وَلَا يَحْيَوْنَ، ولكن ناس أصابَتْهُمْ النَّارُ بذنوبهم - أو قال بِخَطَايَاهُمْ - فأما تهم الله إِمَاتَةٌ حتى إذا كانوا فَحْماً أذن في الشّفاة، فجيء بهم ضَبَائِرُ ضَبَائِرٍ، فَبُثُّوا على أنهار الجَنَّةِ ثم قيل: يا أهل الجَنَّةِ أفيضوا عليهم فينبِتون نَبَاتَ الحَبَّةِ تكون في حَمِيلِ السَّيْلِ»^(١) الحديث.

قال: فقلوه: «فأما تهم الله» حقيقة في الموت، لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريراً لهم.

وقيل: يجوز أن يكون «أما تهم» عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة، والأول أصح، وقد أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكّد بالمصدر لم يكن مجازاً، وإنما هو على الحقيقة، كقوله: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً» [النساء: ١٦٤]، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقيل: المعنى: وكنتم أمواتاً بالخمول، فأحياكم بأن ذكركم، وشرفتم بهذا الدين، والنبى الذي جاءكم، ثم يميّتكم فيموت ذكركم، ثم يحييكم للبعث.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: ١٧٢/١ - ١٧٣ كتاب الإيمان (١) باب إثبات الشفاة وإخراج الموحدين من النار (٨٢) حديث رقم (١٨٥/٣٠٦).

وابن ماجه في السنن (١٤٤١/٢) كتاب الزهد باب ذكر الشفاة حديث رقم (٤٣٠٩) - وأحمد في المسند (١١، ٥/٣).

والدارمي في السنن ٣٣٢/٢ - والحاكم في المستدرک (٦١٩/٣) وابن عساكر ١١٠/٦ - وذكره القرطبي في التفسير ٢٥٠/١، ٥٤/٥ والهندي في كنز العمال حديث رقم ٣٩٥٢٩.

فصل في أوجه ورود لفظ الموت

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ «الموت» على خمسة أوجه:

الأول: بمعنى «النُفْطَة» كهذه الآية.

الثاني: بمعنى «الكفر» قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ومثله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

الثالث: بمعنى «الأرض التي لا نبات لها»، قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣].

الرابع: بمعنى «الضم» قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

الخامس: بمعنى «مفارقة الروح الجسد».

فصل في أوجه ورود لفظ الحياة

الأول: بمعنى دخول الروح في الجسد كهذه الآية.

الثاني: بمعنى «الإسلام» قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: هديناه إلى الإسلام.

الثالث: بمعنى «صفاء القلب» قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] أي يصفى القلوب بعد سوادها.

الرابع: بمعنى «الإنبات» قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي: أنبتناها.

الخامس: بمعنى «حياة الأنفس» قال تعالى: ﴿يَلَيِّتُنِي قَدْ مَتَّ لِحَاكِي﴾ [الفجر: ٢٤].

السادس: بمعنى «العيش» قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] أي: لنرزقه عيشاً طيباً.

فصل في إثبات عذاب القبر

قال ابن الخطيب: احتج قوم بهذه الآية على بطلان عذاب القبر، قالوا: لأنه - تعالى - بين أنه يحييهم مرة في الدنيا، وأخرى في الآخرة، ولم يذكر حياة القبر، ويؤيده قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦] ولم يذكر حياة فيما بين هاتين الحالتين، قالوا: ولا يجوز الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنِي﴾ [غافر: ١١]؛ لأنه قول الكفار، ولأن كثيراً من الناس أثبتوا حياة الدُّر في صُلب آدم حين استخرجهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣٢]

وعلى هذا التقدير حصل حَيَاتَان وموتَتَان من غير حَاجَةٍ إلى إثبات حَيَاةٍ في القبر، فالجواب لم يلزم من عدم الفِكر في هذه الآية ألا تكون حاصلة، وأيضاً فلنقال أن يقول: إن الله - تعالى - ذكر حَيَاة القبر في هذا الآية؛ لأن قوله: «ثُمَّ يُخَيِّكُم» ليس هو الحياة الدائمة، وإلا لما صح أن يقول: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»؛ لأن كلمة «ثُمَّ» تقتضي التَّراخي، والرجوع إلى الله - تعالى - حاصل عقب الحَيَاة الدائمة من غير تَرَاخٍ، فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلاً على حياة القبر كان قريباً.

قوله: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» الضمير في «إليه» لله تعالى، وهذا ظاهر؛ لأنه كالضمائر قبله، وثُمَّ مضاف محذوف أي: إلى ثوابه وعقابه.

وقيل: على الجزاء على الأعمال.

وقيل: على المكان الذي يتولّى الله فيه الحكم بينكم^(١).

وقيل: على الإحياء المدلول عليه بـ «أحياكم»، يعني: أنكم ترجعون إلى الحال الأولى التي كنتم عليها في ابتداء الحياة الأولى من كونكم لا تملكون لأنفسكم شيئاً. والجمهور على قراءة «تُرْجَعُونَ» مبنياً للمفعول.

وقرأ يحيى^(٢) بن يعمر، وابن أبي إسحاق^(٣)، ومُجَاهِد، وابن مُحَيِّصَن^(٤)، وسلام، ويعقوب مبنياً للفاعل حيث جاء.

ووجه القراءتين أن «رجع» يكون قاصراً ومتعدياً، فقراءة الجمهور من المتعدي، وهو أرجح؛ لأن أصلها «ثُمَّ إِلَيْهِ مرجعكم» لأن الإسناد في الأفعال السابقة لله تعالى، فناسب أن يكون هذا كذا، ولكنه بني للمفعول لأجل الفواصل والمقاطع.

و «أموات» جمع «مَيِّت» وقياسه على فعائل كسَيِّد وسيائد، والأولى أن يكون «أموات» جمع «مَيِّت»^(٥) مخففاً كـ «أقوال» في جمع «قول»، وقد تقدمت هذه المأذة.

(١) سقط في ب.

(٢) وقرأ بها الفياض بن غزوان.

انظر البحر المحيط: ٢٧٨/١، والدر المصون: ١٧١/١، وشرح الطيبة: ١٠/٤، وإتحاف: ٣٨٢/١، ٣٨٣.

(٣) عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، النحوي، البصري جد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، أحد العشرة، أخذ القراءة عرضاً عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، من أول من وضع النحو مع أبي الأسود الدؤلي. توفي سنة ١٢٩هـ، وقيل: غير ذلك. وصلى عليه بلال بن أبي بردة. ينظر غاية النهاية: ٤١٠/١ (١٧٤٤).

(٤) سلام بن سليمان الطويل، أبو المنذر المزني، مولاهم البصري، ثم الكوفي، ثقة جليل، ومقرئ كبير، أخذ القراءة عن عاصم بن أبي النجود. ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو حاتم: صدوق. مات سنة ١٧١هـ. ينظر الغاية: ٣٠٩/١ (١٣٦٠).

(٥) سقط في ب.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

هذا هو النعمة الثانية التي عَمَّتْ المكلفين بأسرهم.

«هو» مبتدأ، وهو ضمير مرفوع منفصل للغائب المذكور، والمشهور تخفيف واوه وفتحها، وقد تشدد؛ كقوله: [الطويل]

٣٤٣ - وَإِنَّ لِسَانِي شُهَدَاءُ يُشْفَقُونَ بِهَا وَهُوَ عَلَىٰ مَنْ صَبَّ اللَّهُ عَلَقُمُ^(١)
وقد تسكن، وقد تحذف كقوله: [الطويل]

٣٤٤ - فَبَيْنَاهُ يَشْرِي رَحْلَهُ (٢)

والموصول بعده خبر عنه. و «لكم» متعلق بـ «خلق»، ومعناها السببية، أي: لأجلكم، وقيل: للملك والإباحة، فيكون تمليكاً خاصاً بما ينتفع به.

وقيل: للاختصاص، و «ما» موصولة، و «في الأرض» صلتها، وهي في محل نصب مفعول به، و «جميعاً» حال من المفعول بمعنى «كل»، ولا دلالة لها على الاجتماع في الزمان، وهذا هو الفارق بين قولك: جَاءُوا جميعاً و «جاءوا معاً» فَإِنَّ «مع» تقتضي المصاحبة في الزمان، بخلاف «جميع» قيل: وهي - هُنَا - حال مؤكدة، لأن قوله: «ما في الأرض» عام.

فصل في بيان أن الأصل في المنافع الإباحة

استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الأصل في المنافع الإباحة.

وقيل: إنها تدل على حرمة أكل الطين، لأنه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض، وفيه نظر؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه،

(١) البيت لرجل من همدان ينظر في شرح التصريح: ١٤٨/١، والمقاصد النحوية: ٤٥١/١، تخليص الشواهد: ص ١٦٥، وأوضح المسالك: ١٧٧/١، وخزانة الأدب: ٢٦٦/٥، والجنى الداني: ص ٤٧٤، وشرح الأشموني: ٨١/١، والدرر: ٢٣٩/٦، وشرح شواهد المغني: ٨٤٢/٢، وشرح المفصل: ٩٦/٣، ولسان العرب (ها)، ومغني اللبيب: ٤٣٤/٢، وجمع الهوامع: ٦١/١، ١٥٧/٢، والدر المصون: ١٧١/١.

(٢) جزء من صدر بيت للعجير السلولي وتمام البيت:

..... قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب

ينظر خزانة الأدب: ٢٥٧/٥، ٢٦٠، ٤٧٣/٩، والدرر: ١٨٨/١، وشرح أبيات سيبويه: ٣٣٢/١، وشرح شواهد الإيضاح: ص ٢٨٤، ولسان العرب «هربد»، «ها»، والإنصاف: ص ٥١٢، والخصائص: ٦٩/١، ورفص المباني: ص ١٦، وشرح المفصل: ٦٨/١، ٩٦/٣، والدر المصون: ١٧١/١.

وأيضاً فالمعادن داخله في ذلك، وكذلك عروق الأرض، وما يجري مجرى البعض لها.
وقد تقدّم تفسير الخلق، وتقدير الآية كأنه - سبحانه وتعالى - قال: كيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً فأحياكم؟ وكيف تكفرون بالله، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟
أو يقال: كيف تكفرون بقدرة الله على الإعادة، وقد أحياكم بعد موتكم، وقد خلق لكم كل ما في الأرض، فكيف يعجز عن إعادتكم؟
قوله: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ».

أصل «ثم» أن تقتضي تراخياً زمانياً، ولا زمان هنا، فقيل: إشارة إلى التراخي بين رُتَبَتَيْ خلق الأرض والسماء.

وقيل: لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال أخر من جعل الجبال والبركة، وتقدير الأقوات، كما أشار إليه في الآية الأخرى عطف بـ «ثم»؛ إذ بين خلق الأرض والاستواء إلى السماء تراخ.

و «استوى»: معناه لغة: استقام واعتدل، من استوى العود.

وقيل: علا وارتفع؛ قال الشاعر: [الطويل]

٣٤٥ - فَأَوْرَدْتُهُمْ مَاءً بَفِيقَاءَ قَفْرَةٍ وَقَدْ خَلَقَ النُّجْمَ الْيَمَانِيَّ فَاسْتَوَى^(١)

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَاقِ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

ومعناه هنا: قصد وعمل. وفاعل «استوى» ضمير يعود على الله.

وقيل: يعود على الدُّخَانِ نقله ابن عطية.

وهو غلط لوجهين:

أحدهما: عدم ما يدلّ عليه.

والثاني: أنه يرده قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» [فصلت: ١١].

و «إلى» حرف انتهاء على بابها.

وقيل: هي بمعنى «على»؛ فتكون في المعنى كقول الشاعر: [الرجز]

٣٤٦ - قَدْ اسْتَوَى بِبَشَرٍ عَلَى الْعِرَاقِ مَنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقٍ^(٢)

ومثله قوله الآخر: [الطويل]

(١) ينظر البيت في القرطبي: (٢٥٤/١)، الدر المصون: (١٧٢/١).

(٢) ينظر البيت في رصف المباني: (٤٣١)، اللسان: (سوا)، البحر: (٢٨٠/١)، القرطبي: (١٧٦/١)، الزجاجي: (٥٠٩/١)، مجمع البيان: (١٥٧/١)، ديوان الحماسة للمرزوقي: (١٥٤١/٣)، الدر المصون: (١٧٢/١).

٣٤٧ - فَلَمَّا عَلَوْنَا وَاسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمْ تَرَكْنَاهُمْ صَرْعَى لِنَشْرِ وَكَاسِرٍ^(١)

وقيل: ثَمَّ مضاف محذوف ضميره هو الفاعل، أي: استوى أمره، و «إِلَى السَّمَاءِ» متعلق بـ «اسْتَوَى»، والضمير في «فَسَوَّاهُنَّ» يعود على السَّمَاءِ، إما لأنها جمع «سماوة» كما تقدم، وإما لأنها اسم جنس يطلق على الجمع.

وقال الزمخشري: «هُنَّ» ضمير مبهم، و «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» تفسيره، كقولهم: «رَبُّهُ رَجُلًا»، وقد رد عليه هذا بأنه ليس من [المواضع التي يفسر فيها الضمير بما بعده؛ لأن النحويين حصروا ذلك في سبع مواضع]^(٢):

ضمير الشأن، والمجرور بـ «رب»، والمرفوع بـ «نعم وبئس»، وما جرى مجراهما، وبأول المتنازعين، والمفسر بخبره، وبالمُبدَل منه.

ثم قال هذا المعترض: إلا أن يتخيل فيه أن يكون «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» بدلاً، وهو الذي يقتضيه تشبيهه بـ «رَبُّهُ رَجُلًا». فإنه ضمير مبهم ليس عائداً على شيء قبله، لكن هذا يضعف بكون التقدير يجعله غير مرتبط بما قبله ارتباطاً كلياً، فيكون أخبرنا بإخبارين:

أحدهما: أنه استوى إلى السماء.

والثاني: أنه سوى سبع سماوات.

وظاهر الكلام أن الذي استوى إليه هو المستوي بعينه.

ومعنى تسويتهم: تعديل خلقهم، وإخلاؤه من العوج، والفطور وإتمام خلقهم.

قوله: «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» في نصبه خمسة أوجه:

أحسنها: أنه بدل من الضمير في «فَسَوَّاهُنَّ» العائد على «السَّمَاءِ» كقولك: أخوك مررت به زيد.

الثاني: أنه بدل من الضمير أيضاً، ولكن هذا الضمير يفسره ما بعده، وهذا يضعف بما ضعف به قول الزمخشري المتقدم.

الثالث: أنه مفعول به، والأصل: فسوى منهم سبع سماوات، وشبهوه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَزَلَ بِرُوحِنَا وَصَبَّحْتَ بِمُزْمِرٍ سَبْعِينَ نَجْمًا لَلْإِبْرَاهِيمَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه قاله أبو البقاء وغيره، وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: بالنسبة إلى اللفظ.

والثاني: بالنسبة إلى المعنى.

(١) ينظر البيت في القرطبي: (٢٧٨/٣)، مجمع البيان: (١٥٧/١)، البحر: (٢٨٠/١)، الدر المصون: (١٧٢/١).

(٢) سقط في أ.

أما الأول فلأنه ليس من الأفعال المتعدية لاثنين .

أحدهما : بإسقاط الخافض ؛ لأنها محصورة في «أمر» و «اختار» وأخواتهما .
الثاني : أنه يقتضي أن يكون ثمّ سماوات كثيرة ، سوى من جملتها سبعاً ، وليس كذلك .

الرابع : أن «سوى» بمعنى «صَيَّر» ، فيتعدى لاثنين ، فيكون «سَبَعَ» مفعولاً ثانياً ، وهذا لم يثبت أيضاً ، أعني جعل «سَوَى» مثل «صَيَّر» .

فصل في هيئة السماوات السبع

اعلم أن القرآن - هاهنا - قد دلّ على سبع سماوات .

وقال أصحاب الهيئة : أقربها إلينا كرة القمر ، وفوقها كرة عطارد ، ثم كرة الزهرة ، ثم كرة الشمس ، ثم كرة المريخ ، ثم كرة المشتري ، ثم كرة زُحَل ، قالوا : لأن الكوكب الأسفل إذا مرّ بين أبصارنا ، وبين الكوكب الأعلى ، فإنهما يصيران ككوكب واحد ، ويتميز السّائر عن المَشْتُور بلونه الغالب كَحُمْرَةِ المريخ ، وَصُفْرَةِ عطارد ، وَبَيَاضِ الزهرة ، وَزُرْقَةِ المُشْتَرِي ، وكدره زُحَل ، وكلّ كوكب فإنه يكشف الكوكب الذي فوقه .

فصل في الاستدلال على سبق خلق السماوات على الأرض

قال [بعض الملاحدة]^(١) : هذه الآية تدلّ على أن خلق الأرض قبل خلق السّماء ، وكذا قوله : ﴿أَبْطَغَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت : ٩] إلى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ وقال في سورة «النازعات» : ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [النازعات : ٢٧] إلى أن قال : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات : ٣٠] وهذا يقتضي أن يكون خلق الأرض بعد السماء ، وذكروا في الجواب وجوهاً :

أحدها : يجوز أن يكون خلق الأرض قبل السماء إلا أنه ما دَحَاهَا حتى خلق السماء ؛ لأن التدحية هي البَسْط .

ولقائل أن يقول : هذا مُشْكَل من وجهين :

الأول : أن الأرض جسم عظيم ، فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية ، وإذا كانت التدحية متأخرة عن خلق السماء كان خلقها لا مَحَالَةً متأخراً عن خلق السماء .

الثاني : أن قوله : «خَلَقَ لَكُمْ الْأَرْضَ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ» يدلّ على أن خلق الأرض ، وخلق كل ما فيها متقدم على خلق السماء ، وخلق هذه الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة ، فهذه الآية تدلّ على كونها مدحوة قبل خلق السّماء ، فيعود التَّنَاقُضُ .

والجواب الثاني: أن قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يقتضي تقديم خلق السماء على الأرض، ولا يقتضي أن تكون تسوية السماء مقدّمة على خلق الأرض، وعلى هذا التّقدير يزول التناقض.

ولقائل أن يقول: قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرْأَسَمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾ يقتضي أن يكون خلق السماء، وتسويتها مقدّماً على تدحية الأرض، ولكن تدحية الأرض ملازمة لخلق ذات الأرض، وحينئذ يعود السؤال.

والجواب الثالث وهو الصحيح أن قوله: «ثُمَّ» ليس للترتيب هاهنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم، على مثل قول الرّجل لغيره: أليس قد أعطيتك النعم العظيمة، ثم وقعت الخُصوم عنك، ولعلّ بعض ما أخره في الذكر قد تقدّم فكذا هاهنا، والله أعلم.

فإن قيل: هل يدلّ التخصيص على سبع سموات على نفّي العدد الزائد؟

قال ابن الخطيب^(١): الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدلّ على نفّي الزائد.

فصل في إثبات سبع أرضين

ورد في التنزيل أن السموات سبع، ولم يأت في التنزيل أن الأرضين سبع إلاّ قوله ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] وهو محتمل للتأويل، لكنه وردت أحاديث كثيرة صحيحة تدلّ على أن الأرضين سبع كما روي في «الصحيحين» عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢) إلى غير ذلك.

وروي أبو الضحى - واسمه مسلم - عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - قال: «الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» قال: سبع أرضين في كل أرض نبيّ كنيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى» قال البيهقي: إسناد هذا عن ابن عباس صحيح^(٣) وهو شاذ لا أعلم لأبي الضحى عليه دليلاً^(٤).

(١) ينظر الفخر الرازي: ١٤٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٢٣/٤) كتاب بدء الخلق باب في سبع أرضين حديث رقم (٣١٩٥)، (٢٦١/٣) كتاب المظالم باب إثم من ظلم شيئاً حديث رقم ٤٥٣، ٢٤٥٢.

ومسلم في الصحيح (١٢٣١/٣ - ١٢٣٢) كتاب المساقاة (٢٢) باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (٣٠) حديث رقم (١٦١٢/١٢٤٢) وأحمد في المسند ٦/٦٤، ٧٩، ٢٥٢ وذكره المنذري في الترغيب ١٥/٣ - وابن كثير في التفسير: ١٨٢/٨ والهندي في كنز العمال حديث رقم (٣٠٣٦٢).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢٣٨/٦) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في «الشعب» و «الأسماء والصفات» وقال السيوطي: قال البيهقي: هذا إسناد صحيح لكنه شاذ ولا أعلم لأبي الضحى متابعاً عليه.

(٤) في أ: مخالفاً.

و «السَّماء» تكون جمعاً لـ «سماوة» في قول الأخفش، و «سماة» في قول الزجاج، وجمع الجمع «سَمَوات» و «سماوات»، فجاء «سِوَاهن» إما على أن «السَّماء» جمع، وإما على أنها مفرد اسم جنس، وقد تقدّم الكلام على «السَّماء» في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هو: مبتدأ، و «عليم» خبره، والجار قبله يتعلّق به.

واعلم أنه يجوز تسكين هاء «هُوَ» و «هي» بَعْدَ «الواو» و «الفاء» و «لام» الابتداء و «ثم»؛ نحو: ﴿فَهِىَ كَالْحَبَابَةِ﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القصص: ٦١] ﴿لَهُوَ الْغَفِيُّ﴾ [الحج: ٦٤] ﴿لَهُىَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقرأ بها الكسائي وقالون عن نافع، تشبيهاً لـ «هُوَ» بـ «عَضُد» ولـ «هي» بـ «كِتِف»، فكما يجوز تسكين عين «عَضُد» و «كِتِف» يجوز تسكين هاء «هُوَ»، و «هي» بعد الأحرف المذكورة؛ إجراءً للمنفصل مجرى المتصل؛ لكثرة دورها معها، وقد تسكن بعد كاف الجر؛ كقوله: [الطويل]

٣٤٨ - فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا هُنَّ كَهَيِّ فَكَيْفَ لِي سُلُوْا وَلَا أَنْفَكُ صَبًا مُتِيْمًا^(١)

وبعد همزة الاستفهام؛ كقوله: [البسيط]

٣٤٩ - فَقُمْتُ لِلطَّيْفِ مُزْتاعاً فَأَرَقْنِي فَقُلْتُ: أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلُمٌ^(٢)

وبعد «لكن» في قراءة ابن^(٣) حَمْدُون^(٤): ﴿لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٣٨] وكذا في قوله: ﴿يُمِلُّ هُوَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فإن قيل: عليم «فعليل» من «علم»، و «علم» متعدّ بنفسه، فكيف تعدّى بـ «الباء»، وكان من حقه إذا تقدم مفعوله أن يتعدّى إليه بنفسه أو بـ

(١) ينظر همع الهوامع: (٦١/١)، الدرر: (٣٧/١)، الدر المصون: (١٧٣/١).

(٢) البيت لزياد بن منقذ ينظر في خزنة الأدب: ٥/٢٤٤، ٢٤٥، والدرر: ١/١٩٠، وشرح التصريح: ٢/١٤٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ١٣٩٦، ١٤٠٢، وشرح شواهد الشافية ص ١٩٠، وشرح شواهد المغني: ١/١٣٤، ومعجم البلدان: ١/٢٥٦ (أميلج)، والمقاصد النحوية: ١/٢٥٩، ٤/١٣٧، أوضح المسالك: ٣/٣٧٠، والخصائص: ١/٣٠٥، ٢/٣٣٠، وشرح المفصل: ٩/١٣٩، ولسان العرب (هيا)، ومغني اللبيب: ١/٤١، وأمالى ابن الحاجب: ١/٤٥٦، الأشباه والنظائر ٢/١٢٧، همع الهوامع: ٢/١٣٢، الدر المصون: ١/١٧٣.

(٣) قرأ بها زيد بن علي، وعمران بن عثمان أبو البرهسم الزبيدي.

انظر غاية النهاية: ١/٦٠٤، والمحزر الوجيز: ١/١١٧، والبحر المحيط: ١/٢٨٩، والدر المصون: ١/١٧٧.

(٤) محمد بن حمدون أبو الحسن الواسطي الحذاء، وهم فيه صاحب «التجريد» فسّمَاهُ عليّاً، ووهم فيه الهذلي فسّمَاهُ عبد الله، ثقة ضابط، على قبل - وراجع ابن عون، وسمع الحروف من شعيب بن أيوب الصريفي، قرأ عليه أبو أحمد السامري عرضاً، وروى عنه القراءة أبو بكر بن مجاهد. كان من أهل الثقة والإتقان والضبط، توفي سنة ٣١٠ هـ. ينظر الغاية: ٢/١٣٥ (٢٩٨٣).

«اللام» المقوية، وإذا تأخر أن يتعدى إليه بنفسه فقط؟.

فالجواب: أن أمثله المبالغة خالفت أفعالها، وأسماء فاعليها لمعنى وهو شبهها بـ «أفعل» التفضيل بجامع ما فيها من معنى المبالغة، و «أفعل» التفضيل له حكم في التعدي، فأعطيت أمثلة المبالغة ذلك الحكم، وهو أنها لا تَخْلُو من أن تكون من فعل متعد بنفسه أو لا.

فإن كان الأول فإما أن يفهم علماً أو جهلاً أو لا.

فإن كان الأول تعدت بالباء نحو: ﴿هُوَ أَكْثَرُ بِكْرًا﴾ [النجم: ٣٢] ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦] و «زيد جهول بك» و «أنت أجهل به» وإن كان الثاني تعدت بـ «اللام» نحو: «أنا أضرب لزيد منك» و «أنا ضراب له»، ومنه: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وإن كانت من متعد بحرف جرّ تعدت هي بذلك الحرف نحو: «أنا أصبر على كذا» و «أنا صبور عليه»، و «أزهد فيه منك»، و «زهيد فيه».

فصل في إثبات العلم لله سبحانه بخلقه

هذه الآية تدلّ على أنه لا يمكن أن يكون خالقاً للأرض وما فيها، وللسموات وما فيها من العجائب والغرائب إلا إذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها وكنياتها، وذلك يدلّ على أمور:

أحدها: أن يفسد قول الفلاسفة الذين قالوا: إنه لا يعلم الجزئيات، ويدلّ على صحة قول المتكلمين فإنهم قالوا: إنه - تعالى - فاعل لهذه الأجسام على سبيل الإحكام والإثقان، وكل فاعل على هذا الوجه، فإنه لا بد وأن يكون عالماً بما فعله كما ذكر في هذه الآية.

وثانيها: يدلّ على فساد قول المعتزلة، وذلك لأنه - سبحانه وتعالى - بين أن الخالق للشيء على سبيل التقدير والتحديد، لا بد وأن يكون عالماً به وبتفاصيله، لأن خالقه قد خصّه بقدر دون قدر، والتخصيص بقدر معين لا بدّ وأن يكون بإرادة، وإلا فقد حصل الرُّجْحَان من غير مرجح، والإرادة مشروطة بالعلم، فثبت أن خالق الشيء لا بد وأن يكون عالماً به على سبيل التفصيل.

فلو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بها، وبتفاصيلها في العدد والكمية والكيفية، فلما لم يحصل هذا العلم علمنا أنه غير موجد لأفعال نفسه.

وثالثها: قالت المعتزلة: إذا جمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ظهر أنه - تعالى - عالم بذاته.

والجواب: قوله تعالى: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» عام، وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] خاص والخاص مقدّم على العام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذه الآية دالة على كيفية تنظيم الله - تعالى - لآدم عليه الصلاة والسلام، فيكون ذلك إنعاماً عاماً على جميع بني آدم، فيكون هذا هو النعمة الثالثة من تلك النعم العامة التي أوردتها.

«إذ» ظرفُ زمانٍ ماضٍ، يخلص المضارع للمضي، وبني لشبهه بالحرف في الوضع والافتقار، وتليه الجُمْلُ مطلقاً.

قال المبرد: إذا جاء «إذ» مع المستقبل كان معناه ماضياً كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] يريد: إذ مكروا، وإذا جاء مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد يبقى على مُضِيِّهِ كهذه الآية.

وإذا كانت الجملة فعلية قبح تقديم الاسم، وتأخير الفعل نحو: «إذ زيد قام»، ولا يتصرف إلا بإضافة الزمن إليه، نحو: «يومئذ» و «حينئذ»، ولا يكون مفعولاً به، وإن قال به أكثر المعربين، فإنهم يقدرون «ذكر وقت كذا»، ولا ظرف مكان، ولا زائداً، ولا حرفاً للتعليل، ولا للمفاجأة خلافاً لمن زعم ذلك.

وقد تحذف الجملة المضاف هو إليها للعلم، ويعوض منها تنوين كقوله: ﴿وَأَنْتَ حِينِئذٍ تُنْظَرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤] وليس كسوته - والحالة هذه - كسرة إعراب، ولا تنوينه تنوين صرفٍ خلافاً للأخفش، بل الكسر لالتقاء الساكنين، والتنوين للعوض بدليل وجود الكسر، ولا إضافة؛ قال الشاعر: [الوافر]

٣٥٠ - نَهَيْتُكَ عَنْ طِلَابِكَ أَمْ عَمِرُوا بِمَقَابَةِ وَأَنْتَ إِذْ صَحِيحٌ^(١)

وللأخفش أن يقول: أصله: «وأنت حينئذ» فلما حذف المضاف بقي المضاف إليه على حاله، ولم يقم مقامه نحو: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] بالجر، إلا أنه ضعيف.

و «قَالَ رَبُّكَ»: جملة فعلية في محل خفض بإضافة الظرف إليها، واعلم أن «إذ» فيه تسعة أوجه، أحسنها أنه منصوب بـ «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا» أي: قالوا ذلك القول وقت قول الله عز وجل إني جاعل في الأرض خليفة، وهذا أسهل الأوجه.

(١) ينظر البيت في ديوان الهذليين: (٦٨/١)، ابن عيش: (٢٩/٣)، (٣١/٩)، الخصائص: (٣٧٦/٢)،

مغني اللبيب: (٨٦/١)، الجنى الذاتي: (١٨٧)، شرح الأشموني: (٥٦/١)، خزانة الأدب: (٦/

٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٤)، اللسان: شلل، الدر المصون: (١٧٤/١).

- الثاني: أنه منصوب بـ «اذكر» مقدراً، وقد تقدم أنه لا يتصرف، فلا يقع مفعولاً.
- الثالث: أنه منصوب بـ «خلقكم» المتقدم في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] والواو زائدة. وهذا ليس بشيء لطول الفصل.
- الرابع: أنه منصوب بـ «قال» بعده، وهذا فاسد؛ لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف.
- الخامس: أنه زائد، ويُعزى لأبي عبيدة.
- السادس: أنه بمعنى «قد».
- السابع: أنه خبر لمبتدأ مَحذُوف تقديره: ابتداء خلقكم وَقْتُ قول ربك.
- الثامن: أنه منصوب بفعل لائقٍ تقديره: ابتداء خلقكم وَقْتُ قوله ذلك.
- وهذان ضعيفان، لأن وقت ابتداء الخَلْق ليس وقت القول، وأيضاً فإنه لا يتصرف.
- التاسع: أنه منصوب بـ «أحياكم» مقدراً، وهذا مردودٌ باختلاف الوقتين أيضاً.
- و «للملائكة» متعلق بـ «قال» واللام للتبليغ. و «ملائكة» جمع «مَلَك»، واختلف في «ملك» على ستة أقوال، وذلك أنهم اختلفوا في ميمه، هل هي أصلية أو زائدة؟ والقائلون بأصلتها اختلفوا.
- فقال بعضهم: «ملك» وزنه «فَعَلَ» من الملك، وشذَّ جمعه على «فَعَائِلَة»، فالشذوذ في جمعه فقط.
- وقال بعضهم: بل أصله «مَلَأَك»، والهمزة فيه زائدة كـ «شَمَأَل»، ثم نقلت حركة الهمزة إلى «اللام»، وحذفت الهمزة تخفيفاً، والجمع جاء على أصل الزيادة، فهذان قولان عند هؤلاء.
- والقائلون بزيادتها اختلفوا أيضاً:
- فمنهم من قال: هو مشتقٌ من «أَلَك» أي: أرسل، ففاؤه همزة، وعينه لام؛ ويدل عليه قوله: [المنسرح]
- ٣٥١ - أَبْلِغْ أَبَا دَخْتَنُوسَ مَأْلَكَةَ عَنِ الَّذِي قَدْ يُقَالُ مِلْكَذِبٌ^(١)
- وقال الآخر: [الرمل]
- ٣٥٢ - وَغُلَامٍ أَرْسَلْنَاهُ أُمُّهُ بِأَلْوِكَ فَبَدَّلْنَا مَا سَأَلَ^(٢)
- وقال آخر: [الرمل]

(١) ينظر الخصائص: (٣١١/١) (٣٧٥/٣) الأمالي الشجرية: (٩٧/١)، (٣٨٦)، المفصل: (٣٥/٨)، (٩/١٠٠، ١١٦)، اللسان ألك، الدر المصون: (١٧٥/١).

(٢) ينظر ديوان لبید: (١٧٨)، الخصائص: (٢٧٥/٣)، المنصف: (١١٤/٢)، التبيان: (٤٦/١)، مجمع البيان: (١٥٩/١)، ابن الجوزي: (٥٨/١)، القرطبي: (٢٦٢/١)، الطبري: (٤٤٦/١)، اللسان: ألك، الدر المصون: (١٧٥/١).

٣٥٣ - أَبْلِغِ الثُّغْمَانَ عَنِّي مَالِكاً أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتَظَارِي^(١)
فأصل ملك: مألوك، ثم قلبت العين إلى موضع «الفاء»، و «الفاء» إلى موضع
«العين» على وزن «مَعْقَل» ثم نقلت حركة «الهمزة» إلى «اللام»، وحذفت «الهمزة» تخفيفاً،
فيكون وزن ملك: «مَعْلًا» بحذف الفاء.

ومنهم من قال: هو مشتق من «لأك» أي: أرسل أيضاً، ففاؤه لام، وعينه همزة، ثم نقلت
حركة الهمزة، وحذفت كما تقدم، ويدل على ذلك أنه قد نطق بهذا الأصل قال: [الطويل]

٣٥٤ - فَلَسْتَ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لَمَلَاكِ تَنْزَلَ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(٢)
ثم جاء الجمع على الأصل، فردت الهمزة على كلا القولين، فوزن «ملائكة» على
هذا القول «مَفَاعِلَة»، وعلى القول الذي قبله «مَعَايِلَة» بالقَلْب.

وقيل: هو مشتق من: «لَاكُهُ - يَلُوكُهُ» إذا «أداره - يديره»؛ لأن الملك يدير الرسالة في
فِيهِ، فأصل مَلَك: مَلُوك، فنقلت حركة «الواو» إلى «اللام» الساكنة قبلها، فتحرك حرف
العلّة، وانفتح ما قبله فقلب «ألفاً»، فصار: ملاكاً مثل: «مقام»، ثم حذفت الألف تخفيفاً،
فوزنه: «مفل» بحذف العين، وأصل «ملائكة»: «ملاوكة»، فقلبت «الواو همزة»، ولكن
شرط قلب الواو والياء همزة بعد ألف مفاعل أن تكون زائدة نحو: «عَجَائِز» و «رَسَائِل»،
على أنه قد جاء ذلك في الأصل قليلاً قالوا: «مَصَائِب» و «مَنَائِر»، وقرئ شاذاً:
﴿مَعَائِش﴾ [الأعراف: ١٠] بالهمز، فهذه خمسة أقوال.

السادس: قال النضر بن شَمِيل^(٣): لا اشتقاق لـ «الملك» عند العرب «والهاء» في
«ملائكة» لتأنيث الجمع، نحو: «صَلَادِمَة».

وقيل: للمبالغة كـ «عَلَامَة» و «نَسَابَة»، وليس بشيء، وقد تحذف هذه الهاء شذوذاً؛
قال الشاعر: [الطويل]

٣٥٥ - أَبَا خَالِدٍ صَلَّتْ عَلَيْكَ الْمَلَائِكُ^(٤)

(١) البيت لعدي بن زيد ينظر ديوانه: ص ٩٣، خزانة الأدب: ٥١٣/٨، الاشتقاق: ص ٢٦، والأغاني:
٩٤/٢، شرح شواهد المغني: ٦٥٨/٢، الشعر والشعراء: ٢٣٥/١، والمنصف: ١٠٤/٢، جهمرة
اللغة ص ٩٨٢، الممتع في التصريف: ١١٩/١، المحتسب: ٤٤/١، مجمع البيان: ١٥٩/١،
الزجاج: ٨٠/١، القرطبي: ٢٦٢/١، الطبري: ٤٢٦/١، الدر المصون: ١٧٥/١.

(٢) تقدم.

(٣) النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب
ورواية الحديث وفقه اللغة، ولد بـ «مرو» (من بلاد خراسان) سنة ١٢٢هـ. من مصنفاته: «الصفات»
كبير، في صفات الإنسان والبيوت والجيال والإبل والغنم والطير والكواكب والزروع، و «كتاب
السلح» و «المعاني» و «غريب الحديث» و «الأنواء». وتوفي بـ «مرو» سنة ٢٠٣هـ.
ينظر الأعلام: ٣٣٨، وفيات الأعيان: ١٦١/٢، غاية النهاية: ٣٤١.

(٤) لم نهتد إلى قائله ولا إلى تمامه، وينظر المنصف: ١٠٣/٢، والبحر المحيط: ٢٨٤/١، الدرر: (١)
(٢٥١)، الدر المصون: (١٧٦/١).

فصل في ماهية الملائكة

اختلفوا في ماهية الملائكة، وحقيقتهم، والضابط فيه أن يقال: إن الملائكة ذوات قائمة بأنفسها، وهي إما متحيزة، أو ليست بمتحيزة، فإن كانت متحيزة فها هنا أقوال: أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات، وهذا قول أكثر المسلمين.

الثاني: قول طوائف من عبدة الأوثان: أن الملائكة هي هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد، والإنحاس، فالمُسعدات منها ملائكة الرحمة، والمنحسات منها ملائكة العذاب.

الثالث: قول معظم المجوس، والثنوية: وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين، وهما النور والظلمة، وهما في الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران، متضادا النفس والصورة، مختلفا الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل خير، نقي طيب الريح، كريم النفس يسر ولا يضر، وينفع ولا يمنع، ويحيا ولا يلى، وجوهر الظلمة على ضد ذلك.

ثم إن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء، وهم الملائكة لا على سبيل التناكح، بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم، والضوء من المضيء، وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء، وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفه لا على سبيل التناكح.

القول الثاني: وهو أنها ذوات قائمة بأنفسها، وليست بمتحيزة، ولا بأجسام. فها هنا قولان:

الأول: قول طوائف من النصارى، وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين.

والثاني: قول الفلاسفة وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة ألبتة، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية، وأنها أكمل قوة منها، وأكثر علما منها، وأنها للنفوس البشرية جارية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء، ثم إن هذه الجواهر على قسمين: منها ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب كنفسنا الناطقة بالنسبة إلى أبداننا، ومنها ما هي لا على شيء من تدبير الأفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله، ومحبة ومشتغلة بطاعته، وهذا القسم هم الملائكة المقربون، ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السموات، كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا الناطقة، فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما، ومنهم من أثبت أنواعا آخر من الملائكة، وهي الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي، ثم إن المدبرات لهذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة، وإن كانت شريرة فهم الشياطين.

فصل في شرح كثرتهم

قال عليه الصلاة والسلام: «أُطِّبَ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُطَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ، أو راعٍ»^(١).

[وروي أن بني آدم عشر الجن، والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عُشْر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكِّلين بها، وكلّ هؤلاء عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي نَزَر قليل، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد من سُرَادِقَات العرش التي عددها ستمائة ألف، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السماوات والأرضون وما فيها وما بينها، فإنها كلها تكون شيئاً يسيراً وقدرأ صغيراً، وما من مقدار موضع قدم إلا وفيه مَلَكٌ ساجد، أو راعٍ]^(٢) وقائم، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتفديس، ثم كل هؤلاء في مُقَابِلَةِ الملائكة الذين يَحُومُونَ حول العرش كالقَطَرَةِ في البحر، ولا يعلم عَدَدُهُمْ إِلَّا اللَّهُ تعالى، ثم مع هؤلاء ملائكة اللُّوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام، والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام، ولا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إِلَّا الله تعالى، على ما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وروي في بعض كتب التذكير أنه - عليه الصلاة والسلام - حين عرج به رأى ملائكة في مَوْضِعٍ بمنزلة سوق بعضهم يمشي ثُجَاءَ بعض، فسأل رسول الله - ﷺ - إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ فقال جبريل عليه السلام: لا أَدْرِي إِلَّا أَنِّي أَرَاهُمْ مَذْخَلَتْ ولا أرى واحداً منهم قد رأيته قبل ذلك، ثم سأل واحداً منهم وقيل له: مَذْكَمَ خَلَقْتَ؟ فقال: لا أدري غير أن الله - تعالى - يخلق كوكباً في كل أربعمئة ألف سنة، فخلق مثل ذلك الكوكب منذ خَلَقْنِي أربعمئة ألف مرة فسبحانه من إله ما أعظم قدرته وما أجلّ كماله.

فصل فيمن قيل له من الملائكة: «إني جاعل»

اختلفوا في المَلَائِكَةِ الَّذِينَ قال لهم: «إني جاعلٌ لهم» كُلُّ المَلَائِكَةِ، أو بعضهم؟ فروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه سبّحانه إنما قال هذا القول للملائكة الذين [كانوا مُحَارِبِينَ] مع «إبليس»؛ لأن الله - تعالى - لما أسكن الجن الأرض، فأفسدوا فيها،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٤/٤٨١ - ٤٨٢) كتاب الزهد (٣٧) باب (٩) قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً حديث رقم (٢٣١٢) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وابن ماجه في السنن ٢/١٤٠٢ كتاب الزهد (٣٧) باب الحزن والبكاء (١٩) حديث رقم ٤١٩٠ - وأحمد في المسند (٥/١٧٢، ١٧٣) وذكره المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/٥٣٦.

(٢) سقط في أ.

وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، بعث الله «إبليس» في جُنْدٍ من الملائكة، فقتلهم «إبليس» بعسكره حتى أخرجوهم من الأرض، وألْحَقُوهُمْ بِجَزَائِرِ الْبَحْرِ، وشعوب الْجِبَالِ، وَسَكَنُوا الْأَرْضَ، وخَفَّفَ الله عنهم العبادة، وأعطى «إبليس» ملك الأرض، وملك سماء الدنيا، وخزانة الجنة، فكان يعبد الله تارة في الأرض، وتارة في السماء، وتارة في الجنة، فأخذ العجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الْمُلْكُ إِلَّا لِأَنِّي أكرم الملائكة عليه فقال تعالى لهم: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

وقال أكثر الصحابة والتابعين إنه قال ذلك لجماعة الملائكة من غير تخصيص، لأن لفظ الملائكة يفيد العموم.

فإن قيل: ما الفائدة في أن الله قال للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» مع أنه مُنَزَّه عن الحاجة إلى المشورة؟.

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه - تعالى - علم أنهم إذا اطلَّعُوا على ذلك السرَّ أوردوا عليه ذلك السؤال، فكانت المصلحة تقتضي إحاطتهم بذلك الجواب، فعرفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السؤال، ويسمعوا ذلك الجواب.

والثاني: أنه - تعالى - علم عباده المشورة.

قوله: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» هذه الجملة معمول القول، فهي في محل نصب به، وكسرت «إِنَّ» هنا، لوقوعها بعد القول المجرد من معنى الظنِّ محكية به، فإن كان بمعنى الظنِّ جرى فيها وجهان: الفتح والكسر؛ وأنشدوا: [الطويل]

٣٥٦ - إِذَا قُلْتُ إِنِّي آيِبٌ أَهْلَ بَلَدَةٍ نَزَعْتُ بِهَا عَنْهُ الْوَلِيَّةَ بِالْهَجْرِ^(١)
وكان ينبغي أن يفتح ليس إلا؛ نظراً لمعنى الظن، لكن قد يقال جاز الكسر مُرَاعَاةً لصورة القول.

و «إن» على ثلاثة أقسام:

قسم يجب فيه كسرها، وقسم يجب فيه فتحها، وقسم يجوز فيه الوجهان.

والضابط الكلِّي في ذلك: أن كلَّ موضع سَدَّ مسدَّها المصدر، وجب فيه فتحها؛ نحو: «بلغني أنك قائمٌ»، وكلَّ موضع لم يَسُدَّ مسدَّها، وجب فيه كسرها؛ كوقوعها بعد القول ومبتدأةً وصلَّةً وحالاً، وكلَّ موضع جاز أن يسدَّ مسدَّها، جاز الوجهان؛ كوقوعها بعد فاء الجزاء، و «إذا» الفجائية.

(١) البيت للحطيئة ينظر ديوانه: ص ٢٢٥، وتخليص الشواهد: ص ٤٥٩، خزانة الأدب: ٢/٤٤٠، شرح

التصريح: ١/٢٦٢، المقاصد النحوية: ٢/٤٣٢، أوضح المسالك: ٢/٧٢، شرح الأشموني: ١/

١٦٥، الدرر المصون: ١/١٧٦.

و «جاعل» فيه قولان :

أحدهما : أنه بمعنى «خالق» فيكون «خليفة» مفعولاً به و «في الأرض» فيه حينئذ قولان :

أحدهما : وهو الواضح - أنه متعلق بـ «جاعل» والثاني : أنه متعلق بمحذوف ؛ لأنه حال من النكرة بعده .

القول الثاني : أنه بمعنى «مُصَيِّر» ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ ، فيكون «خليفة» هو المفعول الأول ، و «في الأرض» هو الثاني قدم عليه ، ويتعلق بمحذوف على ما تقرر .

والأرض قيل : إنها «مكة» ، روى ابن سابط^(١) عن النبي - ﷺ - قال : «دُجِيتِ الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ» ولذلك سميت «أم القرى» ، قال : وقبر نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب بين «زمزم» والمَقَامِ^(٢) .

والظاهر أن الأرض في الآية جميع الأرض من المشرق والمغرب .

و «خليفة» يجوز أن يكون بمعنى «فاعل» أي : يخلفكم أو يخلف من كان قبله من الجن ، وهذا أصح ، لدخول تاء التأنيث عليه .

وقيل : بمعنى «مفعول» أي : يخلف كل جيل من تقدمه ، وليس دخول «التاء» حينئذ قياساً ، إلا أن يقال : إن «خليفة» جرى مجرى الجَوَامِدِ كـ «النَّطِيحَةِ» و «الدَّيْبَةِ» . وإنما وُحِدَ «خليفة» وإن كان المراد الجمع ؛ لأنه أريد به آدم وذريته ، ولكن استغني بذكره كما يستغني بذكر أبي القَبِيلَةِ نحو : «مُضَرٌّ» و «رَبِيعَةٌ» وقيل : المعنى على الجنس .

وقال «ابن الخطيب» : الخليفة : اسم يصلح للواحد والجمع كما يصلح للذكر والأنثى .

و «الْخَلْفُ» - بالتحريك - من الصَّالِحِينَ ، ويتسكينها من الطَّالِحِينَ .

واختلفوا في أنه لِمَ سَمَّاهُ - أي : خليفة - على وجهين :

فروي عن «ابن عباس» أنه - تعالى - لما نفى الجن من الأرض ، وأسكنها آدم كان

(١) عبد الرحمن بن سابط القرشي الجمحي المكي أرسل وعن عمر ومعاذ ومرسلأ ، وعن عائشة بواسطة في فرد حديث وسعد وجابر ، وعنه علقمة بن مرثد وابن جريج والليث وخلق ، وثقه ابن معين وقال : لم يسمع من أبي أمامة والدارقطني وجماعة ، قال ابن سعد : مات بمكة سنة ثمان مائة ومائة . ينظر الخلاصة : ١٣٣/٢ (٤٠٩٦) ، تقريب التهذيب : ٤٨٠/١ (٩٤٣) ، تاريخ البخاري الكبير : ٥/٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٦٥/٩ ، تاريخ البخاري الصغير : ٢٨٥/١ .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير : (٤٤٨/١) .

وذكره ابن كثير في التفسير : ١٠٠/١ وعزاه لابن أبي حاتم وذكره السيوطي في الدر المنثور : (٤٦/١) وزاد نسبه لابن عساكر عن ابن سابط .

آدم - عليه الصلاة والسلام - خليفة لأولئك الجن الذين تقدّموه، لأنه خلفهم^(١).

والثاني: إنما سمّاه الله خليفة، لأنه يخلف الله في الحكم بين خلقه، ويروى عن ابن مسعود، وابن عباس، والسدي وهذا^(٢) الرأي متأكد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]. [روى أبو ذر قال: قلت: يا رسول الله أنبياء كان آدم مرسلًا؟ قال: نعم.. الحديث]^(٣).

فإن قيل: لمن كان رسولاً، ولم يكن في الأرض أحد؟

فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً في كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، وأنزل عليه تحريم الميتة والدّم ولحم الخنزير، وعاش تسعمائة وثلاثين سنة. ذكره أهل التوراة والله أعلم. [وروي عن وهب بن منبه أنه عاش ألف سنة]^(٤).

وقرىء^(٥): «خليفة» بالقاف، و «خليفة» منصوب بـ «جاعل» كما تقدّم؛ لأنه أسمى فاعل، وأسم الفاعل يعمل عمله مطلقاً إن كان فيه الألف واللام، ويشترط الحال أو الاستقبال والاعتماد إذا لم يكونا فيه، ويجوز إضافته لمعموله تخفيفاً ما لم يفصل بينهما كهذه الآية.

فصل في وجوب نصب خليفة للناس

هذه الآية دليل على وجوب نصب إمام وخليفة يسمع له وَيُطَاع^(٦)، لتجتمع به

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٣/١).

(٢) في أ: فأهل.

(٣) سقط في ب.

(٤) سقط في ب.

(٥) قرأ بها زيد بن علي وعمران بن عثمان أبو البرهسم الزبيدي.

ينظر غاية النهاية: ٦٠٤/١، المحرر الوجيز: ١١٧/١، البحر المحيط: ٢٨٩/١، الدر المصون: ١/١٧٧.

(٦) ذهب جمهور العلماء إلى أن نصب الخليفة، وإقامته على الأمة واجب على المسلمين.

وخالفهم الأصم من المعتزلة، وبعض الخوارج؛ إذ قالوا بجواز نصب الخليفة لا وجوبه، والواجب عندهم إضفاء أحكام الشرع، فإذا انفقت الأمة على العدل، وتواطأت على تنفيذ أحكام الله تعالى، لم تحتج إلى خليفة، ولا يجب عليها نضبه. والقائلون بوجوب نصب الخليفة اختلفوا في طريقه: فذهب أهل السنة، وأكثر المعتزلة إلى أن نصبه واجب بالسمع، وذهب جماعة منهم: الجاحظ، والخيّاط، والكّغبي، وأبو الحسين البصري إلى أن نصبه واجب بالعقل.

استدل أهل السنة، ومن وافقهم على الوجوب سمعاً بأمور:

الأول: تواتر إجماع المسلمين في الصدر الأول بعد وفاة الرسول - ﷺ - على امتناع خلو الوقت عن خليفة، حتى قال أبو بكر في خطبته حين وفاة الرسول - عليه السلام -: «ألا إن محمداً قد مات، ولا بد =

الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بَيْنَ الأئمة إلا ما روي عن

= لهذا الدين مَن يقوم به» فبادر الكلُّ إلى قبول قوله، ولم يقل أحد: لا حاجة لنا بذلك، بل اتفقوا عليه، وأخذوا ينظرون فيمن يتولَّى أمرهم، وتركوا له أهم الأشياء، وهو دفن النبي - ﷺ -، واختلاف الصحابة في تعيين الخليفة لا يقدح في ذلك الاتفاق، ولم يزل الناس بعدهم على ذلك في كل عصر وزمن.

الثاني: أن الشارع أمر بإقامة الحدود، وسد الثغور، وتجهيز الجيوش للجهاد، وكثير من الأمور المتعلقة بحفظ النظام، وحماية البيضة ممَّا لا يتم إلا بخليفة؛ إذ لا يمكن لآحاد الناس أن يقوم به، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدوراً عليه - فهو واجب.

الثالث: أن في نصب الخليفة جَلْب منافع كثيرة، ودفع مضارَّ عديدة، وكل ما كان كذلك فهو واجب بالإجماع؛ وذلك لأنَّا نعلم علماً ضرورياً أن اجتماع الناس الموصول إلى صلاحهم في دينهم ودنياهم، لا يتم إلا بسلطانٍ قاهرٍ يدرأ المفساد، ويحفظ المصالح، ويمنع ما تتسارع إليه طباعهم، وتتنازع عليه أطماعهم. ولهذا لا ينتظم أمر أذنَى اجتماع؛ كرفقة طريق بدون رئيس يقتدون برأيه، وربما يحصل مثل هذا بين الحيوانات كالنحل؛ إذ لها عظيم يقوم مقام الرئيس، ينتظم به أمرها، فإذا هلك، شاع بينها الانقسام والفساد.

ونوقش هذا الدليل بأن في نصب الخليفة مضارَّ كثيرة، وقد قال النبي - ﷺ -: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضَارَ». فإن تولية الإنسان على مثله ليحكم عليه فيما يهتدي إليه، وفيما لا يهتدي إليه ضررٌ لا محالة. وقد يستنكف عنه بعض الناس؛ كما وقع فيما مضى، فيفضي ذلك إلى الاختلاف والفتنة، وهذا ضررٌ عظيم. ويزاد على ذلك: أن الخليفة لا تجب عصمته، فيتصوَّر منه الكفر والفسوق، وإن لم يعزل، أضُرَّ بالأمة، وإن عُزل، أدَّى ذلك إلى الفتنة؛ لاحتياج الناس إلى محاربته. وأجيب عن ذلك: بأن المضارَّ اللازمة من ترك نصب الخليفة أكثر بكثير من المضار الناشئة من نصبه، ودفع الضرر الأعظم عند التعارض واجب.

قال العلامة «السعد» في «شرح المقاصد» بعد أن ذكر الأدلة الثلاثة: وقد يتمسك بمثل قوله - تعالى -: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وقوله - ﷺ -: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً» فإن وجوب الطاعة والمعرفة يقتضي الحصول.

واستدل القائلون بوجوب نصب الخليفة عقلاً: بأن طباع العقلاء توجب التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، وأن كل أمة لا تستغني عن قوَّة تحمي قوانينها، وتدير شئون أفرادها، وعليه فوجود الحاكم الوازع ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري الذي تختلف فيه الأهواء، وتتشتت الآراء، فيكثر النزاع، ويشتد الخصام، وتسود الفوضى؛ لذلك يقول الأفوه - وهو شاعر جاهلي -: (البيسط)

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سِرَاةَ لَهُمْ وَلَا سِرَاةَ إِذَا جُهِلَ لَهُمْ سَادُوا

وردَّ هذا الدليل: بأنه مبني على قاعدة (ما أدركه العقل حسناً، فهو عند الله حسن، وما أدركه قبيحاً فهو عند الله قبيح).

وهي قاعدة باطلة، إذ لو كان العقل كافياً في درك الأحكام الشرعية، وانتظام أمر الناس في دينهم ودنياهم، لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل - عليهم السلام - إلى الخلق.

وهذا هو الصواب الذي تركن إليه النَّفس، ويطمئن إليه القلب، ويخضع له الفكر السليم؛ لأن العقول متباينة ومتفاوتة، فربَّ أمر يكون حسناً في نظر بعض العقول، هو قبيح في نظر بعض آخر، فكيف يدرك العقل الأحكام الشرعية؟ وكيف يكون متعلق المدح والثواب والذم والعقاب؟ لا بد إذاً في انتظام أمر المجتمع من قانون سماوي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ =

الأصم، وأتباعه أنها غير واجبة في الدين - وأن الأمة متى أقاموا حججهم وجهادهم،

= يكون هو المرجع في تعريف الأحكام الشرعية، وتنظيم شأن المجتمع، حتى يسود العدل، ويستقر في نصابه، وينتظم أمر الدين والدنيا.

هذه أدلة القائلين بوجوب نصب الخليفة، على اختلافهم في طريق الوجوب.

أما القائلون بعدم وجوب نصب الخليفة، فاستدلوا بما يأتي:

الأول: توفر الناس على مصالحهم الدنيوية، وتعاونهم على واجباتهم الدينية مما يحث عليه طبعهم، وينادي به دينهم، فلا حاجة بهم إلى قيام حاكم عليهم فيما يستقلون به؛ ويدل على ذلك انتظام أحوال العرب، وأهل البادية النائية عن السلطان وحكمه.

الثاني: انتفاع الناس بالخليفة لا يكون إلا بالوصول إليه، ولا يخفى أن وصول آحاد الرعية إليه في كل ما يطرأ لهم من الأمور الدنيوية متعذر عادة، فلا فائدة إذاً في نصبه للعامة؛ فلا يكون واجباً، بل جائزاً.

الثالث: اشترط العلماء في الخليفة شروطاً قلماً تتوقف في كل عصر؛ وعلى ذلك فإن أقام المسلمون فاقدها، لم يأتوا بالواجب عليهم، وإن لم يقيموه، فقد تركوا الواجب، فوجوب نصبه يستلزم أحد الأمرين الممتنعين؛ فيكون ممتنعاً.

ورد دليلهم الأول: بأنه وإن كان ممكناً عقلاً، فهو ممتنع عادة لما نشاهده من قيام الفتن، وحدث الخلاف والشقاق عند موت الولاة؛ حيث كان العرب من سكان البادية قساة غلاظاً أجلافاً يشنون الغارات لأنفة الأسباب، ويقتلون الأنفس والذرائر؛ فهم إذن بعيدون عن آداب الدين وسياسة الدنيا.

ورد الثاني: بمنع ما يدعونه من أن الانتفاع بالإمام لا يكون إلا بالوصول إليه فقط، بل كما يكون بالوصول إليه يكون بوصول أحكامه وسياسته إلى الرعية، ونصبه من يرجعون إليه في مصالحهم.

ورد الثالث: بأن الواجب على المسلمين أن يبايعوا من كان مستجمعاً للشروط الواجبة، فإذا تعذر وجود بعض الشروط، دخلت المسألة في حكم الضرورات، والضرورات تقدر بقدرها، فيكون الواجب حينئذ مبايعة من كان مستجمعاً لأكثر الشروط من أهلها، مع الاجتهاد، والسعي لاستكمالها كلها فيه.

قال ابن خلدون بعد أن ذكر مذهب القائلين بجواز نصب الخليفة: «والذي حملهم على هذا المذهب، إنما هو الفرار عن الملك، ومذاهبه؛ من الاستطالة والتغلب، والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك، والنعي على أهله، ومرغبة في رفضه، واعلم أن الشرع لم يدم الملك لذاته، ولا حظر القيام به، وإنما ذم المفساد الناشئة عنه من القهر والظلم، والتمتع بالذات، ولا شك أن في هذه مفساد محظورة، وهي من توابعه؛ كما أننى على العدل والنصفة، وإقامة مراسيم الدين، والذب عنه، وأوجب بإزائها الثواب، وهي كلها من توابع الملك، فإذا وقع الدم للملك على صفة، وحال دون حال أخرى، ولم يدم لذاته... الخ».

خلاصة القول: أن وجوب نصب الخليفة الذي ذهب إليه جمهور العلماء ليس وجوباً عينياً، بل هو وجوب كفائي، شأنه شأن سائر الواجبات الكفائية؛ من جهاد، وطلب علم، ونحو ذلك، فإذا قام بهذه الوظيفة من يصلح لها، سقط وجوبها عن كافة المسلمين، وإن لم يقم بها أحد، أثم من الناس فريقان:

الأول: أهل الاختيار المعروفون بشروطهم، حتى يختاروا خليفة المسلمين.

والثاني: أهل الخلافة، حتى ينتصب أحدهم، ويتولى أمورها، وليس على غير هذين الفريقين من الأمة حرج ولا مائم.

ينظر الخلافة أو الإمامة العظمى للسيد محمد رشيد رضا: (ص ٢٦).

مقدمة ابن خلدون، (ص ١٦٠).

«الأحكام السلطانية» للمأزدي (ص ٣).

وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفئء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك، وشروط الإمامة المذكورة في كتب الفقه.

قوله: «قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قد تقدم أن «قالوا» عامل في «إِذْ قَالَ رَبُّكَ»، وأنه المختار، والهمزة في «أتجعل» للاستفهام على بابها، وقال الزمخشري: «للتعجب»، وقيل: للتقرير؛ كقوله: [الوافر]

٣٥٧ - أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْذَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحٌ^(١)
وقال «أبو البقاء» للاسترشاد، أي: أتجعل فيها من يفسد كمن كان قبل. و «فيها» الأولى متعلقة بـ «تجعل» إن قيل: إنها بمعنى «الخلق»، و «من يفسد» مفعول به.

وإن قيل: إنها بمعنى «التصيير»، فيكون «فيها» مفعولاً ثانياً قَدْماً على الأول، وهو «من يفسد»، و «من» تحتل أن تكون موصولة، أو نكرة موصوفة، فعلى الأول لا محلّ للجمله بعدها من الإعراب، وعلى الثاني محلها نصب، و «فيها» الثانية متعلقة بـ «يفسد». و «يسفك» عطف على «يفسد» بالاعتبارين.

والجمهور على رَفَعِهِ، وقرئ منصوباً^(٢) على جواب الاستفهام بعد «الواو» التي تقتضي الجمع بإضمار «أن» كقوله: [الكامل]

٣٥٨ - أَتَبَيْتُ رَبَّانَ الْجُفُونِ مِنَ الْكَرَى وَأَبَيْتُ مِنْكَ بَلِيلَةَ الْمَلْسُوعِ^(٣)
وقال «ابن عطية»: «منصوب بواو الصرف» وهذه عبارة الكوفيين، ومعنى «واو الصرف» أن الفعل كان يقتضي إعراباً، فصرفته «الواو» عنه إلى نصب.
والمشهور «يَسْفِكُ» بكسر الفاء، وقرئ بضمها^(٤) وقرئ أيضاً^(٥) بضم حرف المضارعة من «أَسْفِكُ».

(١) ينظر البيت في ديوان جرير: (٨٩)، المفصل: (١٢٣/٨)، الخصائص: (٤٦٣/٢)، المغني: (١١)، شواهد المغني: (٤٣)، الأخفش: (٢١٩/١)، مجاز القرآن: (١٨٤/٣٥/١)، (١٥٠/١١٨/٢)، إعجاز القرآن: (١٣٠)، اللسان: نقص، الدر المصون: (١٧٧/١).

(٢) قرأ بها الأعرج فيما رواه عنه أسيد، وكذلك قرأ بها ابن هرمز.
انظر البحر المحيط: ٢٩٠/١، والدر المصون: ١٧٧/١، والقرطبي: ١٩٠/١، والمححر الوجيز: ١/١١٨.

(٣) البيت للشريف الرضي ينظر ديوانه: ٤٩٧/١، وحاشية الشيخ ياسين: ١٨٤/١، والدر: ٨٧/٤، وللشريف المرتضى في مغني اللبيب: ٦٦٨/٢، شرح الأشموني: ٥٦٦/٣، وجمع الهوامع: ١٣/٢، الدر المصون: ١٧٧/١.

(٤) وهي قراءة أبي حيو، وابن أبي عبله.

انظر المححر الوجيز: ١١٨/١، والبحر المحيط: ٢٩٠/١، والدر المصون: ١٧٧/١.

(٥) انظر البحر المحيط: ٢٩٠/١، والدر المصون: ١٧٧/١.

وقرىء أيضاً^(١) مشدداً للتكثير. و «السَّفْك» : هو الصَّب، ولا يستعمل إلا في الدم.

وقال ابن فارس والجوهري : «يستعمل أيضاً في الدمع».

وقال «المَهْدَوِي» : ولا يستعمل السَّفْك إلا في الدم، وقد يستعمل في نثر الكلام، يقال : سفك الكلام، أي : نثره.

و «السَّفَاك» : السفاح، وهو القادر على الكلام.

و «الدِّمَاء» جمع «دَم» ولا يكون اسمٌ معربٌ على حرفين، فلا بُدَّ له من ثالث محذوف هو لامه، ويجوز أن تكون «واواً» وأن تكون «ياء»؛ لقولهم في التثنية «دَمَوَان» و «دَمَيَان»؛ قال الشاعر : [الوافر]

٣٥٩ - فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ ذُبَحْنَا جَرَى الدَّمِيَانِ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ^(٢)
وهل وزن دم : «فَعْل» بسكون العين، أو «فَعَل» بفتحها؟ قولان؛ وقد يَرُدُّ مَحذُوفُهُ، فيستعمل مقصوراً كـ «عَصَا»؛ وعليه قول الشاعر :

٣٦٠ - كَأَطُومٍ فَقَدَتْ بُرْغَزَهَا أَغَقَبَتْهَا الْغُبْسُ مِنْهُ عَدَمًا
غَفَلْتُ ثُمَّ أَتَتْ تَرْقُبُهُ فَإِذَا هِيَ بِمِظَامٍ وَدَمًا^(٣)
«الأَطُوم» : الناقة، «وبرغزها» : ولدها، و «الغُبْسُ» : الضباع.

وقد تشدد ميمه؛ قال الشاعر : [البسيط]

٣٦١ - أَهَانَ دَمَكُ فَرْغاً بَعْدَ عِزَّتِهِ يَا عَمْرُو بَغْيُكَ إِضْرَاراً عَلَى الْحَسَدِ^(٤)
وأصل الدِّمَاء : «الدِّمَّاء» أو «الدِّمَّاي» فقلب حرف العلة همزة لوقوعه طرفاً بعد ألف زائدة، نحو : «كِسَاء» و «رِدَاء».

(١) انظر البحر المحيط : ٢٩٠/١، الدر المصون : ١٧٧/١.

(٢) البيت للمثقب العبدى ينظر ملحق ديوانه : ص ٢٨٣، والمقاصد النحوية : ١٩٢/١، والأزهية : ص ١٤١، ولعلي بن بدال في أمالي الزجاجي : ص ٢٠، وخزانة الأدب : ٢٦٧/١، وشرح شواهد الشافية : ص ١١٢، وللمثقب أو لعلي بن بدال ينظر خزانة الأدب : ٤٨٢/٧، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٨، الإنصاف : ٣٥٧/١، وجمهرة اللغة : ص ٦٨٦، ١٣٠٧، ووصف المباني : ص ٢٤٢، وسر صناعة الإعراب : ٣٩٥/١، وشرح الأشموني : ٦٦٩/٣، وشرح شافية ابن الحاجب : ٦٤/٢، وشرح شواهد الإيضاح : ص ٢٨١، وشرح المفصل : ١٥١/٤، ١٥٢، ٨٤/٥، ٥/٦، ٢٤/٩، ولسان العرب (أخا)، (وفي)، والمقتضب : ٢٣١/١، ٢٣٨/٢، ١٥٣/٣، والمقرب : ٤٤/٢، والممتع في التصريف : ٦٢٤/٢، والمنصف : ١٤٨/٢، الدر المصون : (١٧٨/١).

(٣) ينظر البيتان في المنصف : (١٤٨/٢)، ابن الشجري : (٣٤/٢)، الهمع : (٣٩/١)، الدرر : (١٣/١)، وصف المباني : (١٦)، ابن يعيش : (٨٤/٥)، الخزانة : (٤٩١/٧)، الجوزي : (٦١/٦/١)، الدر المصون : (١٧٨/١).

(٤) ينظر البيت في الهمع : (١٢٠/١)، الدرر : (١٣/١)، الدر المصون : (١٧٨/١).

فإن قيل : الملائكة لا يعملون إلا بما علموا ، ولا يسبقونه بالقول ، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ .

فالجواب : اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال : إنهم ذكروا ذلك عن ظَنِّ قِيَّاسٍ على حالِ الْجَنِّ الذين كانوا في الأرض قبل آدم عليه الصَّلَاة والسلام ، قاله ابن عباس ، والكلبي وأحمد بن يحيى .

الثاني : أنهم عرفوا خلقه آدم ، وعرفوا أنه مركَّب من الأخلاط الأربعة فلا بد وأن يتولد منه المشهور بالغَضَبِ ، فيتولد الفساد من الشَّهْوَةِ ، وسَفْكِ الدَّماء من الغضب .

ومنهم من قال : إنهم قالوا ذلك على يَقِينٍ ، وهو مروي عن «ابن مسعود» وناس من الصحابة ، وذكروا وجوهاً :

أحدها : أنه - تعالى - لما قال : «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ .

قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، فعند ذلك قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ» ؟ .

إما على طريق التعجُّب من استخلاف الله من يعصيه ، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه ، وينعم عليه بذلك ، وإما على طريق الاستعظام والاستكبار للفعلين جميعاً الاستخلاف والعصيان .

وثانيها : أنه - تعالى - كان قد أعلم الملائكة أنه إذا كان في الأرض خلقٌ عظيم أفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء .

وثالثها : قال ابن زَيْدٍ : لما خلق الله النَّارَ خافت الملائكة خوفاً شديداً ، فقالوا : ربنا لمن خلقت هذه النار؟ قال : لمن عَصَانِي من خلقي ، ولم يَكُنْ لله يومئذ خلقٌ سوى الملائكة ، ولم يكن في الأرض خلقٌ ألبتة ، فلما قال : «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» عرفوا أن المعصية تظهر منهم .

ورابعها : لما كتب القلم في اللوح [المحفوظ]^(١) ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلعلَّهم طالعوا اللوح ، فعرفوا ذلك .

وخامسها : إذا كان مَعْنَى الخليفة من يكون نائباً لله في الحكم والقضاء ، والاحتياج إلى الحاكم والقاضي إنما يكون عند التنازع ، والتَّطَالُم ، فكان الإخبار عن وجود الخليفة إخباراً عن وقوع الفساد والشَّرُّ بطريق الالتزام .

(١) سقط في ب .

وسادسها: قال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل في الأرض خليفةً يفعل كذا وكذا، قالوا: أتجعل فيها الذي علمناه أم غيره.

قوله: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» الواو: للحال، و «نحن نسبح»: جملة من مبتدأ وخبر في محلّ النصب على الحال.

و «بحمدك»: متعلّق بمحذوف؛ لأنه حالٌ أيضاً، و «الباء» فيه للمصاحبة أي: نسبح ملتبسين بحمدك، نحو: جاء زيدٌ بشيابه. فهما حالان مُتَدَاخِلان، أي حال في حال. وقيل: «الباء» للسببية فتتعلّق بالتسبيح، قال «ابن عطية»: ويحتمل أن يكون قولهم: «بحمدك» اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: ونحن نسبح ونقدس، ثم اعتراضاً على جهة التسليم، أي: وأنت المَحْمُودُ في الهداية إلى ذلك وكأنه يحاول أنه تكون «الباء» للسببية، ولكن يكون ما تعلّقت به «الباء» فعلاً محذوفاً لا ثِقاً بالمعنى تقديره: حصل لنا التسبيح والتقديس بسبب حمدك.

و «الحمد» هنا: مصدر مُضَاف لمفعوله، وفاعله محذوف تقديره بحمدنا إِيَّاكَ، وزعم بعضهم أنّ الفاعل مضمّر فيه، وهو غلط؛ لأنّ المصدر اسم جامد لا يضمّر فيه على أنه قد حكي الخلاف في المصدر الواقع موقع الفعل، نحو: «ضرباً زيداً» هل يتحمّل ضميراً أم لا وقد تقدم.

و «نُقَدِّسُ» عطف على «نُسَبِّحُ» فهو خبر أيضاً عن «نحن»، ومفعوله محذوف أي: نقديس أنفسنا وأفعالنا لك.

و «لك» متعلّق به، أو بـ «نسبح» ومعناها العلة.

وقيل: زائدة، فإنّ ما قبلها متعدّد بنفسه، وهو ضعيف، إذ لا تُزَاد «اللام» إلا مع تقديم المعمول، أو يكون العامل فرعاً.

وقيل: هي مُعَدِّيَّة، نحو: «سجدت لله».

وقيل: للبيان كهي في قولك: «سُقياً لك» فعلى هذا تتعلّق بمحذوف، ويكون خبر مبتدأ مضمّر أي: تقديساً لك.

وهذا التقدير أحسن من تقدير قولهم: أعني؛ لأنه أليق بالموضع. وأبعد من زعم أن جملة «ونحن نسبح» داخلّة في حيز استفهام مقدر تقديره: وأنحن نسبح أم ننتغير؟ واستحسنه ابن عطية^(١) مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: «أتجعل» وهذا ياباه الجمهور، أعني: حذف همزة الاستفهام من غير ذكر «أم» المعادلة وهو رأي «الأخفش»، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ يَمَعُ نَمَطًا عَلَى﴾ [الشعراء: ٢٢] أي: وأنتك نعمة.

وقول الآخر: [الطويل]

٣٦٢ - طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرُبُ وَلَا لِعِبَاءٍ مِنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ^(١)
أي: وأذو الشيب؟

وقول الآخر: [المنسرح]

٣٦٣ - أَفْرَحَ أَنْ أُزْرَأَ الْكَرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلًا^(٢)
أي: أأفرح؟

فأما مع «أم» فإنه جائز لدلالاتها عليه؛ كقوله: [الطويل]

٣٦٤ - لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا بِسَبْعِ رَمِينَ الْجَمْرِ أَمْ بِثَمَانٍ^(٣)
أي: أبسبع؟

و «التسبيح»: التنزيه والبراءة، وأصله من السَّبَح وهو البعد، ومنه السَّابح في الماء، فمعنى «سبحان الله» أي: تنزيهاً له وبراءة عما لا يليق بجلاله ومنه: [السريع]

٣٦٥ - أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مَنْ عَلَقَمَةَ الْفَاحِرِ^(٤)
أي: تنزيهاً، وهو مختص بالباري تعالى.

قال «الراغب» في قوله: سبحان من عَلَقَمَةَ الْفَاحِرِ إن أصله: سُبْحَانَ عَلَقَمَةَ، على سبيل التهكم فزاد فيه «من».

(١) البيت للكميت في جواهر الأدب: ص ٣٦، وخزانة الأدب: ٣١٣/٤، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٩، ١١/١٢٣، والدرر: ٨١/٣، وشرح شواهد المغني: ص ٣٤، والمحتسب: ٥٠/١، ٢٠٥/٢، ومغني اللبيب: ص ١٤، والمقاصد النحوية: ١١٢/٣، وهمع الهوامع: ٦٩/٢، الدر المصون: ١٧٩/١.

(٢) ينظر البيت في الكشف: (٢٩٦/٤)، التهذيب: (٢٦٣/١١)، التفتازاني: (٧٩٠/٢)، اللسان: جزأ، الدر المصون: (١٧٩/١).

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة ينظر ديوانه: ص ٢٦٦، وخزانة الأدب: ١٢٢/١١، ١٢٤، ١٢٧، ١٣٢، والدرر: ١٠٠/٦، وشرح أبيات سيبويه: ١٥١/٢، والكتاب: ١٧٥/٣، وشرح شواهد المغني: ١/٣١، وشرح المفصل: ١٥٤/٨، ومغني اللبيب: ١٤/١، والمقاصد النحوية: ١٤٢/٤، والأزهية: ص ١٢٧، وبلا نسبة في جواهر الأدب: ص ٣٥، والمحتسب: ٥٠/١، والمقتضب: ٢٩٤/٣، وشرح ابن عقيل: ص ٤٩٦، وشرح عمدة الحافظ: ص ٦٢٠، والصاحبي في فقه اللغة: ص ١٨٤، ووصف المباني: ص ٤٥، والجنى الداني: ص ٣٥، وهمع الهوامع: ١٣٢/٢، الدر المصون: ١٧٩/١.

(٤) البيت للأعشى في ديوانه: ص ١٩٣، وأساس البلاغة (سبح)، الأشباه والنظائر: ١٠٩/٢، جمهرة اللغة: ص ٢٧٨، خزانة الأدب: ١٨٥/١، ٢٣٤/٧، ٢٣٥، ٢٣٨، الخصائص: ٤٣٥/٢، الدرر: ٧٠/٣، شرح أبيات سيبويه: ١٥٧/١، شرح شواهد المغني: ٩٠٥/٢، شرح المفصل: ٣٧/١، ١٢٠، الكتاب: ٣٢٤/١، لسان العرب (سبح)، خزانة الأدب: ٣٨٨/٣، ٢٨٦/٦، والمقتضب: ٣/٢١٨، المقرب: ١٤٩/١، همع الهوامع: ١٩٠/١، ٥٢/٢، الدر المصون: ١٧٩/١.

وقيل : تقديره : سبحانه الله من أجل عِلْمِهِ ، فظاهر قوله أنه يجوز أن يقال لغير الباري على سبيل التهكم ، وفيه نظر .

و «التقديس» : التطهير ، ومنه الأرض المقدسة ، وبيت المقدس ، وروح القدس ؛ وقال الشاعر : [الطويل]

٣٦٦ - فَأَذْرَكْنَهُ يَأْخُذَنَّ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوِلْدَانُ ثُوبَ الْمُقَدَّسِ^(١)
أي : المَطْهَر لهم .

وقال : «الزمخشري»^(٢) : هو من قدس في الأرض : إذا ذهب فيها وأبعد ، فمعناه قريب من معنى «نسبح» .

ثم اختلفوا على وجوه :

أحدها : نظهرك أي : نَصِفُكَ بما يليق بك من العلو والعزة .

وثانيها : قول مجاهد : نظهر أنفسنا من ذنوبنا ابتغاء لمرضااتك .

وثالثها : قول أبي مسلم : نظهر أفعالنا من ذنوبنا حتى تكون خالصة لك .

ورابعها : نظهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك حتى تصير مستغرقة في أنوار معرفتك ..

قالت المعتزلة : هذه الآية تدل على مذهبنا من وجوه :

أحدها : قولهم : «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» أضافوا هذه الأفعال إلى أنفسهم ، فلو كانت أفعالا لله - تعالى - لما حسن التمدح بذلك ، ولا فضل لذلك على سفك الدماء ؛ إذ كل ذلك من فعل الله تعالى .

وثانيها : إذا كان لا فاحشة ، ولا ظلم ، ولا وجود إلا بصنعه وخلقته ومشيئته ، فكيف يصح التنزيه والتقديس ؟

وثالثها : أن قوله : «أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» يدل على مذهب العدل ، لأنه لو كان خالقا للكفر لكان خلقهم لذلك الكفر ، فكان ينبغي أن يكون الجواب نعم خلقهم ليفسدوا وليقتلوا ، فلما لم يرخص بهذا الجواب سقط هذا المذهب .

ورابعها : لو كان الفساد والقَتْل من فعل الله - تعالى - لكان ذلك جاريا مجرى أجسامهم ، وألوانهم ، وكما لا يصح التعجب من هذه الأشياء ، فكذا من الفساد والقتل .

والجواب : المعارضة بمسألة الداعي والعلم ، والله أعلم .

قوله : «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» .

(١) ينظر ديوان امرئ القيس : (١٠٤) ، القرطبي : (١٩١/١) ، اللسان قدس ، الدر المصون : (١/١٨٠) .

(٢) ينظر الكشف : ١/١٢٥ .

أصل «إني»: إني، فاجتمع ثلاثة أمثال، فحذفنا أحدها، وهل هو «نون» الوقاية، أو «النون» الوسطى؟

قولان: الصحيح الثاني، وهذا شبيه^(١) بما تقدم في ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وبابه، والجملة في محل نصب بالقول.

و «أعلم» يجوز فيه أن يكون فعلاً مضارعاً، وهو الظاهر، و «ما» مفعول به، وهي: إما نكرة موصوفة أو موصولة، وعلى كل تقدير، فالعائد محذوف لاستكمال الشرط، أي: تعلمونه.

وقال «المهدي، ومكي»^(٢) وتبعهما «أبو البقاء»^(٣): إن «أعلم» اسم بمعنى «عالم»؛ كقوله: [الطويل]

٣٦٧ - لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ عَلَى آيِنَا تَغْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ^(٤)

فـ «ما» يجوز فيها أن تكون في محل جر بالإضافة، أو نصب بـ «أعلم»، ولم ينون «أعلم» لعدم انصرافه بإجماع النحاة.

واختلفوا في أفعال إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه نحو: «هؤلاء حَوَاجَ بيت الله».

وهذا مبني على أصلين ضعيفين:

أحدهما: جعل «أفعل» بمعنى «فاعل» من غير تفضيل.

والثاني: أن «أفعل» إذا كانت بمعنى اسم الفاعل عملت عمله، والجمهور لا يشتونها.

وقيل: «أعلم» على بابها من كونها للتفضيل، والمفضل عليه محذوف، أي: أعلم منكم، و «ما» منصوبة بفعل محذوف دلّ عليه «أفعل» أي: علمت ما لا تعلمون، ولا جائز أن ينصب بـ «أفعل» التفضيل؛ لأنه أضعف من الصفة المشبهة التي هي أضعف من اسم الفاعل الذي هو أضعف من الفعل في العمل، وهذا يكون نظير ما أولوه من قول الشاعر: [الطويل]

(١) في ب: يشبه. (٢) ينظر المشكل: ٣٥/١.

(٣) ينظر الإملاء: ٢٨/١.

(٤) البيت لمعن بن أوس في ديوانه: ٣٩، خزانة الأدب: ٢٤٤/٨ و ٢٤٥ و ٢٨٩ و ٢٩٤، شرح التصريح: ٥١/٢، شرح ديوان لحامسة للمرزوقي: ١١٢٦، لسان العرب (كبر)، (وجل)، المقاصد النحوية: ٤٩٣/٣، الأشباه والنظائر: ١٤٠/٨، وأوضح المسالك: ١٦١/٣، جمهرة اللغة: ٤٩٣، شرح الأشموني: ٣٢٢/٢، شرح شذور الذهب: ١٣٣، شرح قطر الندى: ٢٣، شرح المفصل: ٨٧/٤، القرطبي: ١٩١/١، والمنصف: ٣٥/٣، أمالي ابن الشجري: ٣٢٨/١، والدر المصون: ١٨٠/١.

٣٦٨ - فَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبِحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقَيْنَا فَوَارِسًا أَكْرَّ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَائِسَ^(١)
 فـ «القوائس» منصوب بفعل مقدر أي: بـ «ضرب» لا بـ «أضرب»، وفي ادعاء مثل ذلك في الآية الكريمة بعد الحذف يتبين المفضل عليه، والناصب لـ «ما».

فصل في بيان علام الجواب في الآية

اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» فقيل: إنه جواب لتعجبهم، كأنه قال: لا تتعجبوا من أن فيهم من يفسد، ويقتل، فإنني أعلم مع هذا أن فيهم صالحين، ومتقين، وأنتم لا تعلمون.

وقيل: إنه جواب لغمهم كأنه قال: لا تغتموا بسبب وجود المفسدين، فإنني أعلم أيضاً أن فيهم جمعاً من المتقين، ومن لو أقسم على لأبره. وقيل: إنه طلب الحكمة كأنه قال: إن مصلحتكم أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

وقال «ابن عباس»: كان «إبليس» - لعنه الله - قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء، وشرفه، فاعتقد أن ذلك لمزية له، فاستحب الكفر والمعصية في جانب آدم - عليه الصلاة والسلام - وقالت الملائكة: «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله لهم: «إني أعلم ما لا تَعْلَمُونَ»^(٢)، وقيل: المعنى عام، أي: أعلم ما لا تعلمون مما كان، وما يكون، وما هو كائن.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)

اعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة، فأجابهم على سبيل الإجمال بقوله: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

أراد الله تعالى أن يزيدهم بياناً، وأن يفصل لهم ذاك المُجْمَل، فبين تعالى لهم من فضل آدم - عليه الصلاة والسلام - ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علم آدم الأسماء

(١) البيتان للعباس بن مرداس ينظر ديوانه: ص ٦٩، والأصمعيات: ص ٢٠٥، وحماسة البحرى: ص ٤٨، وخزانة الأدب: ٣١٩/٨، ٣٢١، وشرح التصريح: ٣٣٩/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٤٤١، ١٧٠٠، ولسان العرب (قنس)، ونوادير أبي زيد: ص ٥٩، وخزانة الأدب: ٢١٠/٧، والأشياء والنظائر: ٣٤٤/١، ٧٩/٤، وأمالى ابن الحاجب: ٤٦٠/١، وشرح الأشموني: ٢٩١/١، ومغني اللبيب: ص ٦١٨/٢، الكشف: ٤٢٩/٤، الدر المصون: ١٨٠/١.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩٥/١).

كلها، ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كَمَال فَضْله، وقُصُورهم عنه في العلم، فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي.

فصل في إعراب الآية

قوله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ» هذه الجملة يجوز ألا يكون لها محلّ من الإعراب، لاستثناها، وأن يكون محلها الجر، لعطفها على «قَالَ رَبُّكَ».

و «علم» متعدية إلى اثنين، وكانت قبل التضعيف متعدية لواحد؛ لأنها عرفانية، فتعدّت بالتضعيف لآخر، وفرقوا بين «علم» العرفانية واليقينية في التعدية، فإذا أرادوا أن يعدّوا اليقينية عدوها بالهمزة ذكر ذلك «أبو علي الشلوبين».

وفاعل «علم» يعود على البارئ تعالى، و «آدم» مفعوله.

وآدم - عليه الصلاة والسلام - كُنِيته أبو البَشَر، وقيل: أبو محمد ذكره السُّهيلي، وقيل: كُنِيته في الأرض أبو البشر، وكُنِيته في الجنة أبو محمد.

وأصله بهمزتين، لأنه «أفعل» إلا أنهم لَيُّنُوا الثانية، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها «واوًا» فقلت: «أوادم» في الجمع؛ لأنه ليس لها أصل في الياء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو، عن «الأخفش».

وفي «آدم» ستة أقوال: أرجحها أنه اسم أعجمي لا اشتقاق فيه، ووزنه «فَاعَل» كَنَظَائِرُه نحو: «آزر» و «شالخ»، وإنما مُنِعَ من الصَّرف للعلمية والعُجْمَة الشخصية.

والثاني: أنه مشتقٌّ من «الأذمة»، وهي حُمْرَة تميل إلى السَّوَاد، واختلفوا في الأذمة، فزعم «الضُّحَاك» أنها السُّمْرَة، وزعم «النَّضْر» أنها البياض، وأن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان أبيض، مأخوذ من قولهم: ناقة أذماء، إذا كانت بيضاء، وعلى هذا الاشتقاق جمعه «أذم» و «أواذم»، ك «حُمُرٍ» و «أَحَامِرٍ»، ولا ينصرف بوجه.

الثالث: أنه مشتقٌّ من أديم الأرض، وهو وجهها. ومنع من الصَّرف على هَذَيْنِ القولين للوزن والعلمية.

الرابع: أنه مشتقٌّ من أديم أيضاً على هذا الوزن أعني وزن فاعل، وهذا خطأ، لأنه كان ينبغي أن ينصرف، لأن كونه مشتقٌّ من الأذمة، وهو أديم الأرض جمعه «أذْمُون» فيلزم قائلو هذه المقالة صرفه.

الخامس: أنه عِبْرِيّ من الإدام، وهو التراب.

السادس: قال «الطبري»: إنه في الأصل فعل رباعي مثل: «أكرم»، وسمي به لغرض إظهار الشيء حتى تعرف جهته.

والحاصل أن ادعاء الاشتقاق فيه بعيد؛ لأن الأسماء الأعجمية لا يَدْخُلُهَا اشتقاق ولا تصريف.

و «آدم» وإن كان مفعولاً لفظاً فهو فاعل معنى، و «الأسماء» مفعول ثانٍ، والمسألة من باب «أعطى وكَسَا»، وله أحكام تأتي إن شاء الله تعالى.

وقرىء^(١): «عَلَّمَ» مبنياً للمفعول و «آدم» رفع لقيامه مقام الفاعل. و «كُلَّهَا» تأكيد للأسماء تابع أبدأ، وقد يلي العوامل كما تقدّم.

وقوله: «الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا» الظاهر أنه لا يحتاج إلى ادّعاء حذف؛ لأن المعنى: وعلم آدم الأسماء، ولم يبين لنا أسماء مخصوصة، بل دلّ قوله: «كلها» على الشمول، والحكمة حاصلة بتعلّم الأسماء، وإن لم يعلم مسمياتها، أو يكون أطلق الأسماء، وأراد المسميات، فعَلَى هذين الوجهين لا حَذَف.

وقيل: لا بُدّ من حذف، واختلفوا فيه، فقيل: تقديره: أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه للعلم.

قال الزمخشري: وعوض منه «اللام»، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] ورجّح هذا القول بقوله: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ»، «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ» ولم يقل: «أَنْبِئُونِي بِهِؤُلَاءِ»، «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِهِمْ» ولكن في قوله «وعوض منه اللام» نظر؛ لأن الألف واللام لا تقوم مقام الإضافة عند البصريين. وقيل: تقديره: مسميات الأسماء، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ورجّح هذا القول بقوله: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ» لأن الأسماء لا تجمع كذلك، فدلّ عوده على المسميات، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ﴾ [النور: ٤٠].

تقديره: أو كَذِي ظُلُمَاتٍ، فالهاء في «يغشاه» تعود على «ذي» المحذوف.

فصل في المراد بالأسماء في الآية

اختلف أهل التأويل في معنى الأسماء التي علّمها لآدم - عليه الصلاة والسلام - فقال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ومجاهد، وابن جبير: علمه أسماء جميع الأشياء كلّها جليلها وحقيرها^(٢).

وروى عاصم بن كليب عن سعد^(٣) مولى الحسن بن علي قال: «كنت جالساً عند ابن عباس، فذكروا اسم الآنية واسم السوط، قال ابن عباس: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا». وروى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: «علمه أسماء كلّ شيء حتى القصة»

(١) قرأ بها يزيد البيهقي واليماني والحسن.

انظر الشواذ: ٤، المحرر الوجيز: ١١٩/١، والبحر المحيط: ٢٩٤/١، والدر المصون: ١٨١/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٨٤/١.

(٢) ذكر هذه الآثار السيوطي في «الدر المنثور» ١٠٠/١ - ١٠١.

(٣) سعيد بن مبرور الطائي، بالولاء، أبو البحري ثائر، من فقهاء أهل الكوفة.

والقصيدة وحتى الجفنة والمخلب» وعن قتادة قال: علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم تعلم الملائكة^(١)، وسمى كل شيء باسمه، وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه. قال النحاس: «وهذا أحسن ما روي».

وقال الطبري «علمه أسماء الملائكة وذريته» واختار هذا، ورجحه بقوله: «ثم عرضهم».

وقال القتيبي «أسماء ما خلق في الأرض».

وقيل: أسماء الأجناس والأنواع.

وقال الربيع بن أنس^(٢): «أسماء الملائكة».

وقيل: أسماء ذريته.

وقيل: أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وقيل: صنعة كل شيء.

وقال أصحاب التأويل: إن الله - عز وجل - علم آدم جميع اللغات، ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا في البلاد، واختص كل فرقة منهم بلغة.

فصل في بيان أن اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟

قال «الأشعري» و «الجبائي» و «الكعبي»: اللغات كلها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى خلق علماً ضرورياً بتلك الألفاظ، وتلك المعاني، وبأن تلك الألفاظ موضوعة^(٣)

= ثقة في الحديث، روى عن ابن عباس وطبقته. وثار على الحجاج مع ابن الأشعث، فجاء القراء يؤمرونه عليهم، فاعتذر بأنه من الموالي، ونصحهم بتأخير رجل من العرب، فأمروا جهم بن زحر الخثعمي، ولما كانت وقعة «دير الجماجم» طعنه أحد رجال الحجاج برمح فقتله سنة ٨٢ هـ. انظر إيضاحات عن المسائل السياسية: ١٢٢، تاريخ الصحافة العربية: ٤/٢٠، الأعلام: ٩٩/٣. (١) انظر «الدر المنثور» (١/١٠٠/١٠١) للسيوطي و «جامع البيان» للطبري (١/٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥). (٢) في ب: خثيم.

(٣) والخلاف في أن اللغات توقيفية، أو اصطلاحية، جعله بعضهم مفرعاً على الخلاف في خلق الأفعال؛ ولهذا كان مذهب «الأشعري» هنا التوقيف؛ عملاً بأصله في مسألة الكلام.

وقال ابن الحاجب في أماليه: يتفرع عليه ما إذا ثبت في لغة العرب لفظ يطلقونه على الباري - تعالى -. فإن قلنا: إن الواضع الله لم يحتاج إلى إذن من الشرع؛ لثبوت أن الله - تعالى - هو الواضع. وإن قلنا: إن الواضع العرب واحد أو جماعة، لم يكفنا إطلاق اللفظ؛ لجواز أن يطلقوا على الباري - تعالى - ما يمنع الشرع بعد وروده إطلاقه. انتهى.

وهذا مردود؛ إذ لا يلزم من وضع اللغة الإذن في استعمالها، ألا ترى أن كلمة «كفر» موضوعة قطعاً، ولا يتعلق بها إثم ولا عقاب؛ كسائر ما يكون لغواً ولا مهملات.

وأعلم أن القائلين بالتوقيف اختجوا بالمنقول والمعقول:

لتلك المعاني: لقوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

= أما المنقول: فمن وجوه ثلاثة:

الأول: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

وجه التمسك به: أن الله - تعالى - صرَّحَ أنه علَّمَ آدمَ الأسماء كلها، وَعَلَّمَ، أي: أَوْجَدَ فيه العِلْمَ؛ وذلك لأن التعليم تفعيل، وهو لإثبات الأثر الثلاثي المُشْتَقُّ منه، بالنقل عن أَيْمَةِ اللغة، فيكون لإثبات العلم بالأسماء في آدم، ويلزم من ذلك التوقيف؛ وذلك لأن الأسماء بأسرها توقيفية، على ما صرَّح به في الآية، وبَيَّنَّا وَجْهَ التمسك بها، فيلزم كون الأفعال والحروف أيضاً توقيفية؛ لِوُجُوه ثلاثة:

أحدها: عدم القائل بالفصل؛ وذلك لأن من الناس من قال: تكون الأسماء والأفعال والحروف توقيفية، ومنهم من قال: تكون الجميع اصطلاحية، فالقول بكون الأسماء توقيفية دون الأفعال والحروف قول ثالث، وهو باطل بالإجماع.

الثاني: أنه يتعذر الإعراب عن جميع المعاني التي في النفس بالأسماء وحدها، فلا بد من تعلُّم الأفعال والحروف؛ ليحصل التمكن من التعبير عن جميع المعاني، فتكون الأسماء والأفعال والحروف توقيفية، وهو المطلوب.

الثالث: هو أن الاسم مشتق من السُّمَّة وهي العلامة، والأفعال والحروف علامات على مسمياتها، فيلزم من ذلك دخولها تحت قوله - تعالى -: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

أما الأول: فإنه مذهب بعض أئمة العربية، ونحن نفرع على هذا المذهب.

وأما الثاني: فظاهر، وأما تخصيص كل واحد من الاسمين باسم خاص، وهو الفعل والحرف، فذلك حادث وهو عُزْفُ النحاة، وأما الوضع الأول فهو ما ذكرناه.

الوجه الثاني من الوجوه النقلية الدالة على التوقيف: قوله - تعالى -: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ».

وجه التمسك بالآية هو: أن الله - تعالى - ذَمَّهُمْ على تسمية بعض الأشياء بما سَمَّوْهَا به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف وإلا لما صَحَّ هذا الذم؛ لكون الكل اصطلاحاً منهم.

الثالث من الوجوه النقلية: قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّيَرَاتِ» وَالْوَاوُكُمُ.

وجه التمسك بها: أن هذه الآية إنما سيقَّت للدلالة على كمال القدرة الأزلية، فبعد ذلك لا يخلو إما أن يكون المراد بها: اختلاف تأليفات الألسنة واختلاف صورها، أو اختلاف اللغات التي تجري على اللسان.

وَوَجْهُ الْحَصْرِ:

أن المراد من اللفظ إما الحقيقة أو المَجَاز قطعاً، الأول: وهو الحقيقة، والثاني: وهو المجاز، وقد تَعَيَّنَ بدليل تبادره إلى الذهن دون غيره من مجازات هذا اللفظ.

وإذا ثبت المراد في أحدهما، فنقول: لا يجوز حمل اللفظ عليهما؛ لأنه حمل للفظ على الحقيقة والمجاز معاً، وذلك لا يجوز؛ على ما سيأتي، فتعَيَّنَ الحَمْلُ على أحدهما دون آخر.

وإذا ثبت ذلك، فنقول: الحمل على اللغات الجارية على الألسنة أَوْلَى من الحمل على الألسنة؛ لأن الاختلاف في اللغات أبلغ، وأكمل من الاختلاف في الألسنة؛ وذلك لأن صور الألسنة وأشكالها تشابه جداً، ولا كذلك اللغات، فتكون دلالة اختلاف اللغات على ما سَيَقَّت الآية لأجله أبلغ وأكَّد، فتعَيَّنَ الحَمْلُ عليه.

ونقل «ابن الحاجب» الحَمْلَ على اللغات بالاتِّفَاق، فصار تقدير الكلام - والله أعلم -: «ومن آياته =

وقال «أبو هاشم»: إنه لا بد من تقدم لغة اصطلاحية، وأن الوضع لا بد وأن يكون مسبقاً على الاصطلاح، واحتج بأمور:

أحدها: أنه لو حصل العلم الضروري بأنه - تعالى - وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصارت صفة الله معلومة بالضرورة، مع أن ذاته معلومة بالاستدلال، وذلك مُحال، ولا جائز أن يحصل لغير العاقل، لأنه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكم العجيبة لغير العاقل، فالقول بالتوقيف فاسد.

وثانيها: أنه - تعالى - خاطب الملائكة، وذلك يوجب تقدّم لغة على ذلك التكلم.

وثالثها: أن قوله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء، وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم، وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم.

= خلق اللغات، وذلك هو التوقيف.

وأما المعقول فمن وجهين:

الأول: هو أن الاصطلاح لا يتصور، إلا بأن المُصْطَلَح يُعْرَفُ غيره ما اضْطَلَحَ هو عليه، من الألفاظ التي وضعها، والمعاني التي وضع لها الألفاظ، ولا يمكن التّعرِيف إلا بطريق، ولا طريق إلا الألفاظ والكتابة وأيّما كان فذلك الطريق لا يُفِيدُ لِدَاتِهِ؛ لما بيّنّا أن دلالة الألفاظ ليست ذاتية، فتعيّن أن يكون الطريق هو: إما الوضع أو الاصطلاح، والكلام فيه كما في الأول، فيلزم التسلسل؛ وهو مُحال، أو التوقيف؛ وهو المطلوب.

الوجه الثاني من وَجْهَيِ المعقول: هو أن الألفاظ لو كانت اصطلاحية، لارتفع الأمان عن الشريعة؛ لأنها لعلها على خلاف الواقع بأن بُدِّلَتْ وَغَيِّرَتْ، فلا يحصل لنا الوثوق بشيء من الأحكام المستفادة من الكتاب؛ لاحتمال أنها كانت في الأصل لمعنى والمراد ذلك المعنى، ثم غَيِّرَتْ ونحن نحملها على ما غَيِّرَتْ إليه دون الأول؛ لجهلنا به الآن.

ولا يُقال: هذا الاحتمال مُنْقَذِح، وإن قلنا بكونها توقيفية؛ لأنّا منع ذلك؛ وذلك لأن طريق التوقيف هو العلم الضروري؛ بأنّ واضعاً وضع هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني، ودخول التّخْرِيف فيه ممنوع؛ ولأن الوضع إذا كان من الله، فالله يصوّنه عن التّغْيِيرِ والتّخْرِيف غالباً.

انظر البرهان لإمام الحرمين: ١/١٦٩، البحر المحيط للزركشي: ٢/٥، الإحكام في أصول الأحكام للآمدّي: ١/٧٠، سلاسل الذهب للزركشي: ص ١٦٣، التمهيد للإسنوي: ص ١٣٥، نهاية السؤل له: ٢/١١، زوائد الأصول له: ص ٢١١، منهاج العقول للبدخشي: ١/٢٢٠، غاية الوصول للشيوخ زكريا الأنصاري: ص ٤١، التحصيل من المحصول للأرموي: ١/١٩٣، المنحول للغزالي: ص ٧٠، المستصفى له: ١/٣١٨، حاشية البناني: ١/٢٦٩، الإبهاج لابن السبكي: ١/١٩٤، الآيات البينات لابن قاسم العبادي: ٢/٦٠، حاشية العطار على جمع الجوامع: ١/٣٥٢، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ١/٤٢، التحرير لابن الهمام: ص ١٦، تيسير التحرير لأمير بادشاه: ١/٤٩، حاشية الفتازاني والشريف على مختصر المنتهى: ١/١١٥، تقريب الوصول لابن جزي: ص ٧١، نشر البنود للشنقيطي: ١/١٠٤، فواتح الرحموت لابن نظام الدين الأنصاري: ١/١٧٧، شرح الكوكب المنير للفتوح: ص ٢٨.

ورابعها: أن آدم - عليه الصّلاة والسلام - لما تَحَدَّى الملائكة بعلم الأسماء، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقاً في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات على ذلك التعليم.

فصل في بيان هل كان آدم نبياً قبل المعصية؟

قالت المعتزلة: إن علم آدم الأسماء معجزة دالة على نبوته - عليه الصلاة والسلام - والأقرب أنه كان مبعوثاً إلى حواء، ولا يبعد أيضاً أن يكون مبعوثاً إلى من توجه التحدي إليهم من الملائكة؛ لأن جميعهم وإن كانوا رسلاً فقد يجوز الإرسال إلى الرسول، كبعثة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى لوط - عليه الصلاة والسلام - واحتجوا بأن حصول ذلك العلم له ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزاً، وإذا ثبت كونه معجزاً ثبت كونه رسولاً في ذلك الوقت.

ولقائل أن يقول: لا نسلم أن ذلك العلم ناقض للعادة؛ لأن حصول العلم باللغة لمن علمه الله، وعدم حصوله لمن لم يعلمه ليس بناقض للعادة

وأيضاً فإما أن يقال: الملائكة علموا كون تلك الأسماء موضوعة لتلك المسميات، فحينئذ تحصل المعارضة، ولا تظهر المزية، وإن لم يعلموا ذلك، فكيف عرفوا أن آدم أصاب فيما ذكر من كون كل واحد من تلك الألفاظ اسماً لكل واحد من تلك المعاني؟ واعلم أنه يمكن دفع هذا السؤال من وجهين:

الأول: ربّما كان لكل صنف من أصناف الملائكة لغة من هذه اللغات، وكان كل صنف جاهلاً بلغة الصنف الآخر، ثم إن جميع أصناف الملائكة حضروا وإن آدم - عليه الصلاة والسلام - لما عدّ عليهم جميع تلك اللغات بأسرها عرف كل صنف إصابته في تلك اللغة خاصّة، فعرفوا بهذه الطريق صدقه إلا أنهم بأسرهم عجزوا عن معرفة تلك اللغات بأسرها، فكان ذلك معجزاً.

الثاني: لا يمتنع أن يقال: إنه - تعالى - عرفهم قبل ذلك أنهم إذا سمعوا من آدم - عليه الصلاة والسلام - أظهر فعلاً خارقاً للعادة، فلم لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات أو من باب الإرهاص؟ وهما عندنا جائزان.

واحتج من قطع بأنه - عليه الصّلاة والسلام - ما كان نبياً في ذلك الوقت بوجوه:

أحدها: أنه لو كان نبياً في ذلك الزمان لكان قد صدرت منه المعصية بعد النبوة، وذلك غير جائز.

وثانيها: لو كان رسولاً في ذلك الوقت لكان إما أن يكون مبعوثاً إلى أحد، أو لا يكون مبعوثاً إلى أحد، وإما أن يكون مبعوثاً إلى الملائكة والإنس والجن، والأوّل باطل، لأن الملائكة عند المعتزلة أفضل من البشر، ولا يجوز جعل الأدون رسولاً إلى الأشرف؛ لأن الرسول متبوع، والأمة تبع، وجعل الأدون متبوع الأشرف خلاف الأصل، وأيضاً

فالممرء إلى قبول القول ممن هو من جنسه أمكن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] ولا جائز أن يكون مبعوثاً إلى البشر، لأنه ما كان هناك أحد من البشر إلا حواء، وحواء ما عرفت التكليف إلا بواسطة آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَا نَقْرَبُ هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] شافيهما بهذا التكليف، وما جعل آدم واسطة، ولا جائز أن يكون مبعوثاً إلى الجن؛ لأنه ما كان في السماء أحد من الجن، ولا جائز أيضاً أن يكون مبعوثاً إلى أحد، لأن المقصود من جعله رسولاً التبليغ، فحيث لا مبلغ لم يكن في جعله رسولاً فائدة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّيْنَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢] دليل على أنه إنما اجتباه ربه بعد الزلة، فوجب أن يكون قبل الزلة غير مجتبي، وإذا لم يكن ذلك الوقت مجتبي وجب ألا يكون رسولاً؛ لأن الاجتباء والرسالة متلازمان، لأن الاجتباء لا معنى له إلا التخصيص بأنواع التشریفات، وكل من جعله الله رسولاً، فقد خصه بذلك لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَعْمَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾.

«ثم»: حرف للتراخي كما تقدم، والضمير في «عَرَضَهُمْ» للمسميات المقدرة، أو لإطلاق الأسماء وإرادة المسميات، كما تقدم.

وقيل: يعود على الأسماء. ونقل عن ابن عباس، ويؤيده قراءة أبي^(١) «عَرَضَهَا»، وقراءة^(٢) ابن مسعود^(٣): «عَرَضَهُنَّ» إلا أن في هذا القول جعل ضمير غير العقلاء كضمير العقلاء أو نقول: إنما قال ابن عباس ذلك بناء منه أنه أطلق الأسماء، وأراد المسميات كما تقدم وهو واضح.

و «عَلَى الْمَلَائِكَةِ» متعلق بـ «عَرَضَهُمْ».

قال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص، لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: «أَنْتَبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ».

وفي الحديث: «إِنَّهُ عَرَضَهُمْ أَمْثَالَ الذَّرِّ»^(٤).

(١) انظر الشواذ: ١٤، والمحرر الوجيز: ١٢٠/١، والبحر المحيط: ٢٩٦/١، والدر المصون: ١٨٢/١، والقرطبي: ١٩٥/١.

(٢) في ب: ومن حرف.

(٣) ينظر تخريج القراءة السابقة.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٧٩/٢ عن ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي - ﷺ - قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صُورِ النَّاسِ، يَلْعَوُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسْ فَتَلْعَوُهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، وَيَسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ عَصَارَةَ أَهْلِ النَّارِ».

وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء^(١).

فصل في بيان أول من تكلم بالعربية

اختلف في أول من تكلم بالعربية.

روى كعب الأحبار: أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها، وتكلم بالألسنة كلها آدم عليه الصلاة والسلام. فإن قيل: روى ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدَان عن كعب قال: أول من تكلم بالعربية جبريل - عليه الصلاة والسلام - وهو الذي ألقاها على لسان نُوح عليه الصلاة والسلام، وألقاها نوح على لسان ابنه سَام.

وقد روي أيضاً: أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قَحْطَان، وروي غير ذلك، والجواب الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه الصلاة والسلام - والقرآن يشهد له. الآية.

وقال ﷺ: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا حَتَّى الْقَضْعَةَ وَالْقُصَيْعَةَ»^(٢) وما ذكره يحتمل أن يكون المراد به أول من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وكذلك إن صَحَّ ما سواه فإنه يكون محمولاً على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية.

وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة، وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل، على ما تقدم. قوله: «أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ».

«الإنباء» الإخبار، وأصل أنبأ أن يتعدى لاثنتين ثانيهما بحرف الجر كهذه الآية، وقد يحذف حرف الجر، قال تعالى: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ [التحریم: ٣] أي: بهذا، وقد يتضمّن معنى أعلم اليقينية، فيتعدى تعديتها إلى ثلاثة مفاعيل، ومثل أنبأ: نبأ وأخبر، وخبر وحدث.

و «هؤلاء» في محل خفض بالإضافة، وهو اسم إشارة، ورتبته دُنياً، ويُمَدُّ وَيُقْصَرُ؛ كقوله: [الخفيف]

٣٦٩ - هُوَ لِي ثُمَّ هُوَ لِي كُلًّا أَعْطَيْتَ نِعَالًا مَخْذُوءَةً بِمِثَالِ^(٣)

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠١/١) عن ابن عباس ومجاهد.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٠/١) عن ابن عباس وأخرجه الطبري في تفسيره (٤٨٣/١) عن ابن عباس.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه: ٦١، شرح المفصل: ١٣٧/٣، المقتضب: ٢٧٨/٤، البحر المحيط: ١/٢٨٥، القرطبي: ١٩٦/١، والدر المصون: ١٨٢/١.

والمشهور بناؤه على الكسْرِ، وقد يضم، وقد ينوّن مكسوراً، وقد تبدل همزته هاء، فيقال: هُوْلَاهُ، وقد يقال: هُوْلَاءٍ؛ كقوله: [الوافر]

٣٧٠ - تَجَلَّدَ لَا يَقُلْ هَوْلَاءٍ: هَذَا بَكَى لَمَّا بَكَى أَسْفَاءَ عَلَيْكَ^(١)
ولامه عند الفارسي همزة فتكون فاؤه ولامه من مادة واحدة، وعند المبرد أصلها ياء، وإنما قلبت همزة لتطرفها بعد الألف الزائدة.

قوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تقدّم نظيره وجوابه محذوف أي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَأَنْبِئُونِي. والكوفيون والمبرد يرون أن الجواب هو المتقدم، وهو مردود بقولهم: «أَنْتَ ظَالِمٌ إِنْ فَعَلْتَ» لأنه لو كان جواباً لوجب الفاء معه كما تجب معه متأخراً.

وقال ابن عطية: إِنْ كُنْ الجواب مَحْذُوفاً هو رأي المبرد، وكونه متقدماً هو رأي سيبويه، وهو وهم؛ لأن المنقول عن المبرد أن التقدير: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنْ بَنَى آدَمُ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَأَنْبِئُونِي. وهذه الآية دالة على فضيلة العلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)
قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ^(٣)

«سبحان»: اسم مصدر، وهو التسبيح، وقيل: بل هو مصدر؛ لأنه سمع له فعل ثلاثي، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة، وقد يفرد، وإذا أفرد، منع الصّرف للتعريف، وزيادة الألف والنون؛ كقوله: [السريع].

٣٧١ - أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ^(٢)
وَقَدْ جَاءَ مُنُونًا كقوله: [البسيط]

٣٧٢ - سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا نَعُوذُ بِهِ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمْدُ^(٣)
فقيل: صرف ضرورة.

وقيل: هو بمنزلة «قَبْلُ» و «بَعْدُ»، إِنْ نَوِيَ تعريفه بقي على حاله، وَإِنْ نَكَرَ أَعْرَبَ منصرفاً، وهذا البيت يساعد على كونه مصدرًا لا اسم مصدر، لوروده منصرفاً.

(١) ينظر تذكرة النحاة: ص ٥٠٦، وخزانة الأدب: ٤٣٧/٥، ٤٣٨، وشرح المفصل: ١٣٦/٣، الدر المصون: ١٨٢/١.

(٢) تقدم برقم (٣٦٥).

(٣) ينظر ديوان أمية بن أبي الصلت: (٣٠)، الخزانة: (٣٧/٢٠)، الشجري: (٣٤٨/١)، الدرر: (١/١٦٣)، المقتضب: (٢١٧/٣)، ابن يعيش: (٣٧/١)، (١٢٠)، (٣٦/٤)، الهمع: (١٨٩٠/١)، الدر المصون: (١٨٣/١).

ولقائل القول الأول أن يجيب عنه بأن هذا نكرة لا معرفة، وهو من الأسماء اللازمة النصب على المصدرية، فلا ينصرف والناصب له فعل مقدر لا يجوز إظهاره، وقد روي عن الكسائي أنه جعله مُنادى تقديره: يا سُبْحَانَكَ ومنعه جمهور النحويين وإضافته - هُنَا - إلى المفعول؛ لأن المعنى: نسبحك نحن.

وقيل: بل إضافته للفاعل، والمعنى تنزهت وتباعدت من السوء. وسبحانك العامل فيه في محل نصب بالقول.

قوله: «لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا» كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و «إِلَّا» حرف استثناء، و «ما» موصولة، و «علمتنا» صلتها، وعائدها محذوف، على أن يكون «علم» بمعنى «معلوم»، ويجوز أن تكون مصدرية، وهي في محل نصب على الاستثناء، ولا يجوز أن تكون منصوبة بالعلم الذي هو اسم «لا»؛ لأنه إذا عمل كان معرباً.

وقيل: في محل رفع على البدل من اسم «لا» على الموضع.

وقال ابن عطية: هو بدل من خبر التبرئة كقولهم: «لا إله إلا الله»، وفيه نظر؛ لأن الاستثناء إنمّا هو من المحكوم عليه بقيد الحكم لا من المحكوم به.

ونقل هو عن «الزّهراوي»: أن «ما» منصوبة بـ «علمتنا» بعدها، وهذا غير معقول؛ لأنه كيف ينتصب الموصول بصلته وتعمل فيه؟.

قال أبو حيان: إلّا أن يتكلّف له وجه بعيد، وهو أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى لكن، وتكون «ما» شرطية، و «علمتنا» ناصب لها، وهو في محل جزم بها، والجواب محذوف، والتقدير: «لكن ما علمتنا علمناه».

قوله: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

فصل

الضمير يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون تأكيداً لاسم «إِنَّ»، فيكون منصوب المحل، وأن يكون مبتدأ، وخبره ما بعده، والجملة خبر «إِنَّ»، وأن يكون فصلاً، وفيه الخلاف المشهور.

وهل له محل من الإعراب أم لا؟

وإذا قيل: إن له محلاً، فهل بإعراب ما قبله كما قال الفراء^(١)، فيكون في محل نصب، أو بإعراب ما بعده فيكون في محل رفع كقول الكسائي؟

قوله: «الحكيم» خبر ثانٍ أو صفة «العليم»، وهما «فعيل» بمعنى «فاعل» وفيهما من المُبالغة ما ليس فيه.

(١) ينظر معاني القرآن: ١/١٤٨، ٢/٢٣٨.

و «الحكم» لغة: الإتقان، والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه حَكَمَ الدابة؛ وقال جرير: [الكامل]

٣٧٣ - أَبْنِي حَنِيفَةً أَخْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا^(١)

وقدم «العليم» على «الحكيم»؛ لأنه هو المتصل به في قوله: «وعلم»، وقوله: «لا عِلْمَ لنا» فناسب اتصاله به؛ ولأن الحِكْمَةَ ناشئة عن العلم وأثر له، وكثيراً ما تقدّم صفة العلم عليها.

والحكيم صفة ذاتٍ إن فسر بذِي الحِكْمَةِ، وصفة فعلٍ إن فسر بأنه المحكم لصنعتة فكان الملائكة قالت: أنت العالم بكل المعلومات، فأمكنك تعليم آدم، وأنت الحكيم في هذا الفعل المصيب فيه.

وعن «ابن عباس» أن مراد الملائكة من «الحكيم» أنه هو الذي حكم بجعل آدم - عليه الصلاة والسلام - خليفة في الأرض^(٢).

فصل

احتج أهل الإسلام بهذه الآية على أنه لا سَبِيلَ إلى معرفة المغيبات إلا بتعليم الله - تعالى - وأنه لا يمكن التوصل إليها بعلم النجوم والكهانة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

قوله: «يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ».

آدم: مبني على الضم؛ لأنه مفرد معرفة، وكل ما كان كذلك بُني على ما كان يرفع به، وهو في محل نصب لوقوعه موقع المفعول به، فإن تقديره: ادعوا آدم، وبني لوقوعه موقع المضمّر، والأصل: يا إياك كقولهم: «يَا إِيَّاكَ قَدْ كَفَيْتُكَ»، و «يا أنت»؛ كقوله [الرجز]

٣٧٤ - يَا أَبْجَرُ بْنَ أَبْجَرٍ يَا أَتَا أَنْتَ الَّذِي طَلَفْتَ عَامَ جُفْتَا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ وَقَدْ أَسَأْنَا^(٣)

و «يَا إِيَّاكَ» أقيس من «يا أنت»؛ لأن الموضع موضع نصب، ف «إياك» أليق به،

(١) ينظر ديوانه: (٥٠)، الكشف: (٣٣٦/٤)، اللسان: حكم، الدر المصون: (١٨٤/١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/٦٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ٧٨.

وأورده الشوكاني في «فتح القدير» (١/٦٥) وعزاه لابن جرير.

(٣) ينظر الأبيات في التصريح: (٢/١٦٤)، الهمع: (١/١٧٤)، الدرر: (١/١٥١)، شرح الأشموني:

(٣/١٣٥)، أوضح المسالك: (٣/٧٢)، الدر المصون: (١/١٨٤).

وتحرزت بالمفرد عن المضاف نحو: يا عبد الله، ومن الشبيه به، وهو عبارة عما كان الثاني فيه من تمام معنى الأول نحو: «يا خيراً من زيد» و «يا ثلاثة وثلاثين»، وبالمعرفة من النكرة المقصودة؛ نحو قوله: [الطويل]

٣٧٥ - فَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانٍ أَنْ لَا تَلَاقِيَا^(١)
فإن هذه الأنواع الثلاثة معربة نصباً.

«أنبتهم» فعل أمر، وفاعل، ومفعول، والمشهور «أنبتهم» مهموز مضموماً، وقرئ^(٢) بكسر الهاء. ويروى عن «ابن عامر»، كأنه أتبع الهاء لحركة «الباء»، ولم يعتدب «الهمزة»، لأنها ساكنة، فهي حاجز غير حصين.

وقرئ^(٣) بحذف الهمزة، وزويت عن «ابن كثير»، قال «ابن جني» هذا على إبدال الهمزة ياء، كما تقول: أنبت كأعطيت، قال: وهذا ضعيف في اللغة؛ لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر.

وهذا من أبي الفتح غير مرض، لأن البدل جاء في سعة الكلام، حكى «الأخفش» في «الأوسط» أنهم يقولون في أخطأت: أخطيت، وفي توضأت: توضيت.
قال: وربما حرّكوه إلى «الواو»، وهو قليل قالوا: «رَفَوْتُ» في «رَفَأْتُ»، ولم أسمع «رَفَيْتُ».

إذا تقرر ذلك، فللنحويين في صرف العلة المبدل من الهمزة نظر في أنه هل يجرى مجرى العلة الأصلي أم ينظر إلى أصله؟ ورتبوا على ذلك أحكاماً، ومن جملتها: هل يحذف جزءاً كالحرف غير المبدل أم لا نظراً إلى أصله؟ واستدل بعضهم على حذفه جزءاً بقول زهير: [الطويل]

(١) البيت لعبد يغوث بن وقاص ينظر خزانة الأدب: ١٩٤/٢، ١٩٥، ١٩٧، والكتاب: ٢/٢٠٠، ولسان العرب (عرض)، والمقاصد النحوية: ٢٠٦/٤، والعقد الفريد: ٢٢٩/٥، وشرح التصريح: ١٦٧/٢، والأشباه والنظائر: ٢٤٣/٦، وشرح اختيارات المفضل: ص ٧٦٧، خزانة الأدب: ٤١٣/١، ٩/٢٢٣، والمقتضب: ٤٢٠٤/٤، ووصف المباني: ص ١٣٧، وشرح الأشموني: ٤٤٥/٢، وشرح شذور الذهب: ص ١٤٥، وشرح ابن عقيل: ص ٥١٥، وشرح قطر الندي: ص ٢٠٣، الدر المصون: ١٨٤/١.

(٢) ونسبها أبو علي الفارسي إلى ابن كثير، وقال: قال أحمد: هذا خطأ لا يجوز. انظر الحجة للقراء السبعة: ٦/٢ - ٧، والسبعة: ١٥٣، والبحر المحيط: ٢٩٨/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٨٦/١، والدر المصون: ١٨٤/١، وإعراب القراءات: ٨٢/١.

(٣) وهي قراءة ابن كثير من طريق القواس، وقراءة الحسن والأعرج. انظر المحرر الوجيز: ١٢٢/١، والبحر المحيط: ٢٩٨/١، والدر المصون: ١٨٤/١، والمحتسب: ٦٦/١.

٣٧٦ - جَرِيءٌ مَتَى يُظْلَمَ يُعَاقِبُ بِظُلْمِهِ سَرِيعاً وَإِلَّا يُبَدَّ بِالظُّلْمِ يُظْلِمُ^(١)

لأن أصله: «يبدأ» بالهمزة، فكذلك هذه الآية أبدلت الهمزة ياء، ثم حذفت حملاً للأمر على المجزوم.

وقرىء: «أُنْبِئُهُمْ»^(٢) بإثبات «الياء» نظراً إلى «الهمزة» وهل تضم «الهاء» نظراً للأصل أم تكسر نظراً للصورة؟

وجهان منقولان عن «حمزة» عند الوقف عليه.

و «بِأَسْمَائِهِمْ»: متعلق بـ «أُنْبِئُهُمْ»، وهو المفعول الثاني كما تقدّم، وقد يتعدّى بـ «عن» نحو: «أنبأته عن حاله»، وأما تعديته بـ «من» في قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] فسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

قوله: «فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

والمراد من هذا الغيب أنه كان عالماً بأحوال آدم قبل نطقه، وهذا يدل على أنه سبحانه يعلم الأشياء قبل حدوثها، وذلك يدل على بطلان مذهب «هشام بن الحكم» في أنه لا يعلم الأشياء إلا عند وقوعها، فإن قيل: قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يدل على أن العبد قد يعلم الغيب؛ لأن الإيمان بالشئ فرع العلم به، وهذا الآية مشعرة بأن علم الغيب ليس إلا لله تعالى، وأن كل من سواه فهم خالون عن علم الغيب.

والجواب: ما تقدم في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قوله: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ» «قال» جواب «فلما»، والهمزة للتقرير إذا دخلت على نفي قررته، فيصير إثباتاً كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا.

و «لم» حرف جزم، و «أقل»: مجزوم بها حذفت عينه، وهي «الواو» لالتقاء الساكنين، و «لكم» متعلق به، و «اللام» للتبليغ، والجملة من قوله: «إني أعلم» في محل نصب بالقول.

وقد تقدم نظائر هذا التركيب.

قوله: «وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ» كقوله «أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» من كون «أعلم» فعلاً مضارعاً، و «أفعل» بمعنى «فاعل» أو «أفعل» تفضيل، وكون ما في محل نصب أو جر، وقد تقدم.

(١) ينظر ديوانه: ص ٢٤، وخزانة الأدب: ١٧/٣، ١٣/٧، والدرر: ١٦٥/١، وسر صناعة الإعراب: ٧٣٩/٢، وشرح شواهد الشافية: ص ١٠، وشرح شواهد المعني: ٣٨٥/١، والممتع في التصريف: ٣٨١/١، ٤٥٨/٢، وشرح شافية ابن الحاجب: ٢٦/١، والمقرب: ٥٠/١، وجمع الهوامع: ٥٢/١، الدر المصون: ١٨٤/١.

(٢) قرأ بها ابن أبي عبلة، انظر الشواذ: ٤، والبحر المحيط: ٢٩٨/١، والدر المصون: ١٨٥/١.

والظاهر: أن جملة قوله: «وأعلم» معطوفة على قوله: «إني أعلم غيب»، فتكون في محل نصب بالقول.

وقال «أبو البقاء»^(١): إنه مستأنف، وليس محكياً بالقول، ثم جَوَّز فيه ذلك.

و «تبدون» وزنه: «تفعون»؛ لأن أصله: تبدون مثل: تخرجون، فأعلّ بحذف «الواو» بعد سكونها، و «الإبداء»: الإظهار، و «الكتم» الإخفاء؛ يقال: بدأ يبدؤ بدءاً؛ قال: [الطويل]

٣٧٧ - بَدَا لَكَ فِي تِلْكَ الْقُلُوصِ بَدَاءٌ^(٢)

وقوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» عطف على «ما» الأولى بحسب ما تكون عليه من الإعراب.

روي عن ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير: أن قوله: «ما تُبْدُونَ» أراد به قولهم: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» وبقوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» أراد به ما أسر «إبليس» في نفسه من الكبر وألاً يسجد.

قال «ابن عطية»^(٣): وجاء «تكتمون» للجماعة، والكاظم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جئني منهم واحد: أنتم فعلتم كذا، أي: منكم فاعله، وهذا مع قُضد تعنيف، ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] وإنما ناداه منهم عُيْنَةٌ.

وقيل: «الأقرع»^(٤).

وقيل: «إني أعلم ما لا تعلمون» من الأمور الغائبة، والأسرار الخفية التي يظن في

(١) ينظر الاملاء: ٣٠/١.

(٢) عجز بيت لمحمد بن بشير العدوالي الخارجي وصدده:

لعلك والموعود حق لقاءه

ينظر الخصائص: (٣٦٨)، ابن الشجري: (١٧/٢)، الهمع: (٢٤٧/١)، الدرر: (٢٠٤/١)، الأغاني: (١٥/١٤)، التصريح: (٢٦٨/١)، اللسان: (بدا)، التاج: (بدا)، الدر المصون: (١٨٥/١).

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ١٢٣/١.

(٤) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي من سادات العرب في الجاهلية قدم على رسول الله ﷺ في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا، وشهد حيناً وفتح مكة والطائف وسكن المدينة، وكان من المؤلفة قلوبهم ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة، واستشهد بالجوزجان وفي المؤرخين من يرى أن اسمه «فراس» وأن الأقرع لقب له لقرع كان برأسه وكان حكماً في الجاهلية.

ينظر الأعلام: ٥/٢ (٣٦)، الذيل على الكاشف: رقم ٨٦، تعجيل المنفعة: ٦١، تاريخ البخاري الصغير: ٥٩، أسد الغابة: ١٣٥/١، الإصابة: ١٠١/١.

الظاهر أنه لا مصلحة فيها، ولكن لعلمي بالأسرار المغيبة أعلم أن المصلحة في خلقها. وقيل إنه - تعالى - لما خلق آدم رأت الملائكة خلقاً عجيباً قالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه، فهذا الذي كَتَمُوا، ويجوز أن يكون هذا القول سرّاً أسروه بينهم، فأبداه بعضهم لبعض، وأسروه عن غيرهم، فكان في هذا الفعل الواحد إبداء وكتمان. وقالت طائفة: الإنداء والكَتْمُ المراد به العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع، وهذه الآية تدلّ على فضيلة العلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)

العامل في «إذ» محذوف دلّ عليه قوله: «فَسَجَدُوا»، تقديره: أطاعوا وانقادوا، فسجدوا؛ لأن السجود ناشئ عن الانقياد. وقيل: العامل «اذكر» مقدراً.

وقيل: زائدة وقد تقدّم ضعف هذين القولين. وقال «ابن عطية»: «وإذ قلنا» معطوف على «إذ» المتقدمة، ولا يصحّ هذا لاختلاف الوقتين.

وقيل: «إذ» بدل من «إذ» الأولى، ولا يصحّ لما تقدّم، ولتوسط حرف العطف، وجملة «قلنا» في محلّ خَفَضٍ بالظرف، ومنه التفات من الغيبة إلى التكلّم للعظمة، و«اللام» للتبليغ كنظائرها.

والمشهور جرّ تاء «الملائكة» بالحرف، وقرأ^(١) «أبو جعفر» بالضم إتباعاً لضمّة «الجيم»، ولم يعتد بالسّاكن، وغلظه الرّجّاج وخطأه الفارسي^(٢)، وشبهه بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجِي﴾ [يوسف: ٣١] بضم تاء التّأنيث، وليس بصحيح، لأن تلك حركة التّقاء السّاكنين، وهذه حركة إعراب، فلا يتلاعب بها، والمقصود هناك يحصل بأيّ حركة كانت.

وقال الزمخشري: لا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية إلا في لغة ضعيفة كقراءة^(٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] يعني بكسر الدال.

(١) وكذلك قرأ بها سليمان بن مهران، وقيل: هي لغة أزد شنوءة.

انظر البحر المحيط: ٣٠٢/١، والدر المصون: ١٨٦/١، والمحرر الوجيز: ١٢٤/١، والقرطبي: ١/٢٠٠، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٨٧/١.

(٢) سقط في ب.

(٣) وهي قراءة الحسن. انظر البحر المحيط: ١٣١/١، والدر المصون: ٦٥/١، والمحتسب: ٣٧/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٦٣/١.

قال الشيخ «شهاب الدين»: وهذا أكثر شذوذاً، وأضعف من ذاك مع ما في ذاك من الضعف المتقدم؛ لأن - هناك - فاصلاً، وإن كان ساكناً.

وقال «أبو البقاء»: وهي قراءة ضعيفة جداً، وأحسن ما تحمل عليه أن يكون الراوي لم يضبط عن [القاريء]^(١) وذلك أن [القاريء]^(١) أشار إلى الضم تنبيهاً على أن الهمزة المحذوفة مضمومة في الابتداء، فلم يدرك الراوي هذه الإشارة، وقيل: إنه نوى الوقف على «التاء» ساكنة، ثم حركها بالضم اتباعاً لحركة الجيم، وهذا من إجراء الوصل مجرى الوقف.

ومثله ما روي عن امرأة رأت رجلاً مع نساء، فقالت: «أفي السَوْتَتْنَتْنَة» - نوت الوقف على «سوءة»، فسكنت التاء، ثم ألقت عليها حركة همزة «أتتن» فعلى هذا تكون هذه حركة الساكنين، وحينئذ تكون كقوله: «قَالَتْ: أَخْرُجْ» وبابه، وإنما أكثر الناس توجيه هذه القراءة لجلالة قارئها أبي جعفر يزيد بن القَعْقَاع شيخ نافع شيخ أهل «المدينة» وترجمتهما مشهورة.

و «اسجدوا» في محل نصب بالقول، و «اللام» في «لآدم» الظاهر أنها متعلقة بـ «اسجدوا»، ومعناها التعليل، أي: لأجله.

وقيل: بمعنى «إلى» أي: إلى [جهته له]^(٢) جعل قبة لهم، والسجود لله.

وقيل: بمعنى مع، لأنه كان إمامهم كذا نقل.

وقيل: اللام للبيان فتعلق بمحذوف، ولا حاجة إلى ذلك.

و «فسجدوا» الفاء للتعقيب، والتقدير: فسجدوا له، فحذف الجار للعلم به، والسُّجُود لغة: التذلل والخضوع، وغايته وضع الجبهة على الأرض، وقال «ابن السكيت»: «هو الميل»، قال «زيد الخيل»: [الطويل]

٣٧٨ - بِجَمْعِ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ^(٣)
يريد: أن الحوافر تطأ الأرض، فجعل بأثر الأكم للحوافر سجوداً؛ وقال آخر:
[المقارب]

٣٧٩ - سُجُودَ النَّصَارَى لِأَخْبَارِهَا^(٤)

(١) سقط في ب.

(٢) سقط في أ.

(٣) ينظر الصحاح: (٤٨٣/٢)، البحر: (٣٠٠/١)، المحرر الوجيز: (٢٣١/١)، الاضداد: (٢٥٧)، القرطبي: (٢٠٠/١)، اللسان «سجر»، الدر المصون: (١٨٧/١).

(٤) عجز بيت لحميد بن ثور وصدرة يأتي في الشاهد التالي وهو في ديوانه: ٩٦، الصحاح: (٤٨٤/٢)، إصلاح المنطق: (٢٤٧)، اللسان «سجد»، القرطبي: (٢٠٠/١)، الدر المصون: (١٨٧/١).

وفرق بعضهم بين «سجد»، و «أسجد» ف «سجد»: وضع جبهته، وأسجد: أمّال رأسه وطأطأ؛ قال الشاعر: [المقارب]

٣٨٠ - فُضُولُ أَرْمَتْهَا أَسْجَدَتْ سُجُودَ النَّصَارَى لِأَخْبَارِهَا^(١)
وقال آخر: [الطويل]

٣٨١ - وَقُلْنَ لَهُ أَسْجِدْ لِلنَّبِيِّ فَأَسْجَدَا^(٢)
يعني: أن البعير طأطأ رأسه لأجلها.

وَدَرَاهِمُ الْأَسْجَادِ: دَرَاهِمُ عَلَيْهَا صُورٌ كَانُوا يَسْجُدُونَ لَهَا، قال: [الكامل]

٣٨٢ - وَأَفَى بِهَا كَدَرَاهِمُ الْأَسْجَادِ^(٣)

فصل في تعداد النعم العامة على بني آدم

اعلم أن هذا هو النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر، وهو أنه خصص آدم بالخلافة أولاً، ثم خصصه بالعلم ثانياً، ثم بلوغه في العلم إلى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته في العلم، ثم ذكر الآن كونه مسجوداً للملائكة.

فإن قيل: الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله - تعالى - خلقه آدم بدليل قوله: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [ص ٧١ - ٧٢]، فظاهر هذه الآية يدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - لما صار حيّاً صار مسجود الملائكة؛ لأن «الفاء» في قوله: «فَقَعُوا» للتعقيب، وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء، ومناظرته مع الملائكة في ذلك الوقت حصل بعد أن صار مسجود الملائكة.

فالجواب: أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سُجُودَ عِبَادَةٍ، ثم اختلفوا على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ذلك السجود كان لله - تعالى - وآدم - عليه الصلاة والسلام - كان كالقِبْلَةِ، وطعنوا في هذا القول من وجهين:

الأول: أنه لا يقال: صَلَّيْتُ لِلْقِبْلَةِ، بل يقال: صَلَّيْتُ إِلَى الْقِبْلَةِ، فلو كان - عليه الصلاة والسلام - قبله ل قيل: اسْجُدُوا إِلَى آدَمَ.

(١) تقدم برقم (٣٧٩).

(٢) هذا صدر بيت قاله أعرابي من بني أسد. ينظر الصحاح: (٤٨٤/٢)، القرطبي: (٢٠٠/١)، اللسان «سجد»، الدر المصون: (١٨٧/١).

(٣) عجز بيت للأسود بن يعفر وصدره:

من خمر ذي نطق أغن منطق

ينظر الصحاح: (٤٨٤/٢)، القاموس المحيط: (٣١٠/١)، اللسان «سجد»، القرطبي: (٢٠٠/١)، الدر المصون: (١٨٧/١).

الثاني: أن «إبليس» قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] أي: أن كونه مسجوداً يدلّ على أنه أعظم حالاً من الساجد، ولو كان قبلة لما حصلت هذه الدرجة بدليل أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - كان يصلّي إلى الكعبة، ولم تكن الكعبة أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام.

والجواب عن الأول: أنه كما يجوز أن يقال: صَلَّيْتُ إِلَى الْقِبْلَةِ، جاز أن يقال: صَلَّيْتُ لِلْقِبْلَةِ؛ قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وَالصَّلَاةُ لِلَّهِ لَا لِلدُّلُوكِ؛ وقال حسان: [البسيط]

٣٨٣ - مَا كُنْتُ أَغْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْصَرَفٌ عَنْ هَاشِمٍ ثُمَّ مِنْهَا عَنْ أَبِي حَسَنِ
أَلَيْسَ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِكُمْ وَأَغْرِفَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ^(١)

والجواب عن الثاني: لا نسلم أن التكرّم حصل بمجرد ذلك السجود، بل لعله حصل بذلك مع أمور أخرى.

والقول الثاني: أن السجدة كانت لآدم تعظيماً له وتحيّة له كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك.

قال قتادة: قوله: ﴿وَحَرُّوا لِمُ سَجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] كانت تحية الناس يومئذ.

الثالث: أنَّ السجود في أصل اللغة: هو الانقياد والخضوع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

واعلم أن القول الأول ضعيف، لأن المقصود تعظيم آدم عليه الصلاة والسلام، وجعله مجرد القبلة لا يفيد تعظيم حاله.

والقول الثالث: ضعيف أيضاً؛ لأن السجود في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير.

فإن قيل: السجود عبادة، والعبادة لغير الله لا تجوز.

فالجواب: لا نسلم أنه عبادة؛ لأن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيداً كالقول، كقيام أحدنا للغير يُقَيِّدُ من الإعظام ما يفيد القول، وما ذاك إلا للعادة، وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون في بعض الأوقات سقوط الإنسان على الأرض وإصاقه الجبين بها مفيداً ضرباً من التعظيم، وإن لم يكن ذلك عبادة، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبد الله الملائكة بذلك إظهاراً لرفعته وكرامته.

فصل في بيان أن الأنبياء أفضل من الملائكة

قال أكثر أهل السنة: الأنبياء أفضل من الملائكة.

(١) ينظر الرازي: ١٩٥/٢.

وقالت المعتزلة: الملائكة أَفْضَلُ من الأنبياء، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني [وأبي عبد الله الحليمي]^(١).

وحجة المعتزلة أمور:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩] والمراد من هذه العِندِيَّةِ القرب، والشرف، وهذا حاصل لهم لا لغيرهم.

ولقائل أن يقول: إنه - تعالى - أثبت هذه الصفة في الآخرة لأحاد المؤمنين في قوله: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وأما في الدنيا فقال عليه الصلوة والسلام يقول الله سبحانه: «أَنَا مَعَ الْمُتَكَبِّرَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَخْلِي».

وهذا أكثر إشعاراً بالتعظيم؛ لأن كون الله - تعالى - عند العبد أدخل في التعظيم من كون العبد عند الله.

وثانيها: قالوا: عبادات الملائكة أَشَقُّ من عبادات البشر، فيكونون أكثر ثواباً من عبادات البشر، فإن الملائكة سُكَّانُ السماوات، وهي جَنَّات، وهم آمنون من المَرَضِ والفقر، ثم إنهم مع استكمال أسباب النعم لهم خاشعون وَجِلُونَ كأنهم مَسْجُونُونَ لا يلتفتون إلى نعيم الجنات، بل يقبلون على الطاعة الشاقة، ولا يقدر أحد من بني آدم أن يبقى كذلك يوماً واحداً فضلاً عن تلك الأعصار المتطاول، ويؤيده قصّة آدم - عليه الصلوة والسلام - فإنه أطلق له الأكل في جميع مواضع الجنة، ثم إنه منع من شجرة واحدة فلم يملك نفسه.

وثالثها: أن انتقال المكلف من نوع عِبَادَةٍ إلى نوع آخر كالانتقال من بُسْتَانٍ إلى بستان، أما الإقامة على نوع واحد، فإنها تورث المَشَقَّةَ والمَلَالَةَ، والملائكة كل واحد منهم مُوَظَّبٌ على عمل واحد لا يعدل عنه إلى غيره، فكانت عبادتهم أَشَقَّ، فيكون أفضل لقوله عليه الصلوة والسلام: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا»^(٢) أي: أَشَقُّهَا، وقوله لعائشة: «إِنَّمَا أَجْرُكَ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكَ»^(٣).

ولقائل أن يقول: في الوجه الأول لا نسلم أن عبادة الملائكة أَشَقُّ.

أما قولهم: السماوات جنات.

(١) سقط في ب.

(٢) ينظر الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ٣١٩/١ عن ابن عباس أنه سئل أي الأعمال أفضل فقال أحمرها.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/٧١٤ - ٧١٥) كتاب العمرة (٢٦) باب أجر العمرة على قدر النصب (٨) حديث رقم (١٧٨٧) وأحمد في المسند (٦/٤٣).

قلنا: نسلم، ولم قلتُم بأن العبادة في المَوَاضِع الطَّيِّبَةِ أَشَقَّ من العبادة في المَوَاضِع الرَّدِيئَةِ؟ أكثر ما في الباب أنه تهيأَ لهم أسباب النعم، فامتناعه عنها مع تهيئتها له أشق، ولكنه معارض بما أن أسباب البلاء مجتمعة على البشر، ومع هذا يرضون بقضاء الله، ولا يغيروهم تلك المِحَنُ عن المُواظبة على عبوديته، وهذا أعظم في العبودية.

وأما قولهم: المُواظبة على نَوْع واحد من العبادة أَشَقَّ.

قلنا: لما اعتادوا نوعاً واحداً صاروا كالمَجْبُورِينَ الذين لا يقدرُونَ على خِلافِهِ؛ لأنَّ العادة طبيعة خامسة، ولذلك قال ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّوْمِ صَوْمُ دَاوُدَ كَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً»^(١).

ورابعها: قالوا: عبادات المَلَائِكَةِ أَذْوَمُ؛ لأنَّ أعمارهم أطول، فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْعِبَادِ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»^(٢).

ولقائل أن يقول: إن نوحاً ولقمان والخَضِرَ - عليهم الصَّلَاة والسلام - كانوا أطول عمراً من محمد - عليه الصلاة والسلام - فوجب أن يكونوا أفضل منه، وذلك باطل بالاتفاق.

وخامسها: أنهم أسبق في كل الْعِبَادَاتِ فيكونون أفضل لقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّقُونَ أَوْلَئِكَ الْمَقَرُّونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: (٨١٢/٢) كتاب الصيام (١٣) باب النهي عن صوم الدهر وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم (٣٥) حديث رقم (١١٥٩/١٨١).

والنسائي في السنن (٢٠٩/٤) كتاب الصيام (٢٢) باب صوم يوم وإفطار يوم (٧٦) حديث رقم (٢٣٨٨) وابن عساكر ٤١٩/٦ - وذكره ابن حجر في فتح الباري: ٢٢١/٤، وابن كثير في البداية والنهاية: ١٦/٢.

والزيدي في الإتحاف: ٢٦١/٤.

والهندي في كنز العمال حديث رقم ٢٤١٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٤٨٩/٤) كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (٢١)، (٢٢) حديث رقم (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر وعبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه أن رجلاً قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال فأَيُّ الناس شر؟ قال من طال عمره وساء عمله. حديث رقم ٢٣٣٠ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أحمد في المسند (١٨٨/٤)، (٤٠/٥)، (٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠) - والدارمي في السنن (٣٠٨/٢) والبيهقي في السنن (٣٧١/٣) - والحاكم في المستدرک (٣٣٩/١) - والطبراني في الصغير (٢٠/٢). وابن أبي شيبة (٢٥٤/١٣، ٢٥٦) وذكره المنذري في الترغيب ٢٥٤/٤.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (٧٠٥/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة (٢٠) حديث رقم (١٠١٧/٦٩) والترمذي في السنن حديث رقم ٢٦٧٥ وابن ماجه في السنن حديث رقم (٢٠٧). وأحمد في المسند (٣٦١/٤، ٣٦٢) - وابن أبي شيبة (١٠٩/٣) وابن خزيمة في =

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي أن يكون آدم - عليه الصلاة والسلام - أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه أول من سنَّ عبادة الله من البشر وأسبق، وذلك باطل .
وسادسها: أن الملائكة رُسُل إلى الأنبياء، والرسول أفضل من الأمة.

فإن قيل: إن السلطان إذا أرسل واحداً إلى جمع عظيم ليكون حاكماً فيهم، فإنه يكون أشرف منهم، أما إذا أرسل واحداً إلى واحد، فقد لا يكون الرسول أشرف، كما إذا أرسل السلطان مَمْلُوكَهُ إلى وزيره في مُهِمَّةٍ [فإنه لا يلزم أن يكون ذلك العبد أشرف من الوزير]^(١). قلنا: لكن جبريل - عليه السلام - مبعوث إلى كافة الأنبياء والرسل من البشر، فعلى هذا يكون جبريل أفضل منهم.

وأيضاً أن الملك قد يكون رسولاً إلى ملك آخر أو إلى أحد من الأنبياء، وعلى التقديرين الملك رسول، وأمته رسل، والرسول الذي كل أمته رسل أفضل من الرسول الذي ليس كذلك، ولأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان رسولاً إلى لوط - عليه السلام - فكان أفضل منه، وموسى كان رسولاً إلى الأنبياء الذين كانوا في عَصْرِهِ، فكان أفضل منهم.

ولقائل أن يقول: الملك إذا أرسل رسولاً إلى بعض النواحي، فقد يكون ذلك الرسول حاكماً ومتولياً أمورهم، وقد يكون ليخبرهم عن بعض الأمور مع أنه لا يجعله حاكماً عليهم، فالقسم الأول هم الأنبياء المبعوثون إلى أممهم، فلا جرم كانوا أفضل من أممهم.

فإن قلتم: إن بَعْثَ الملائكة إلى الأنبياء من القسم الأول حتى يلزم أن يكونوا أفضل من الأنبياء.

وسابعها: قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فقوله: «ولا الملائكة» خرج مخرج التأكيد للأول، وهذا التأكيد إنما يكون بذكر الأفضل يقال: هذه الخَشَبَةُ لا يقدر على حملها العَشْرَةُ، ولا المائة، ولا يقال: لا يقدر على حملها العشرة ولا الواحد، ويقال: هذا العالم لا يَسْتَنْكِفُ عن خدمته الوزير ولا الملك، ولا يقال: لا يستنكف عن خدمته الوزير ولا البواب.

ولقائل أن يقول: هذه الآية إن دَلَّتْ، فإنما تدلُّ على فضل الملائكة المقربين على المسيح، لكن لا يلزم منه فَضْلُ الملائكة المقربين على مَنْ هُوَ أفضل من المسيح، وهو

= صحيحه حديث رقم (٢٤٧٧) - والبيهقي في السنن (١٧٦/٤) - والطبراني في الكبير (٣٥٨/٢) - والدارمي في السنن (١٣١/١) - وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٠١/٦ والبيهقي في الزوائد ١/١٧١، ١٧٠.

محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - وموسى وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - بإجماع المسلمين .

ثم نقول قوله: «ولا الملائكة» ليس فيه إلا «واو» العطف، و «الواو» للجمع المطلق، فيدلّ على أنّ المسيح لا يستنكف، والملائكة لا يستنكفون، فأما أن يدلّ على أن الملائكة أفضل من المسيح فلا:

قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْهُرَ الْحَرَامِ وَلَا أَمْوَالَهُمْ﴾ [المائدة: ٢] أو نقول: سلمنا أن عيسى دون مجموع الملائكة في الفضل، فلم قلتم: دون كل واحد من الملائكة في الفضل؟ فإن قيل: وصف الملائكة بكونهم مقربين يوجب ألا يكون المسيح كذلك .

قلنا: تخصيص الشيء بالذكر لا يدلّ على نفيه عما عداه .

وثامنها: قوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] ولو لم يكن متقدراً عند آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - أن الملك أفضل من البشر لم يقدر «إبليس» على غرورهما بذلك .

ولقائل أن يقول: هذا قول «إبليس» فلا يكون حجة، ولا يقال: إن آدم اعتقد صحة ذلك، واعتقاد آدم حجة، لأننا نقول: لعلّ آدم - عليه الصلاة والسلام - ما كان نبياً في ذلك الوقت، فلم يلزم من فضل الملك عليه في ذلك الوقت فضل الملك عليه حال ما صار نبياً، ولأن الزلة جائزة على الأنبياء .

وأيضاً فهب أن الآية تدلّ على أن الملك أفضل من البشر في بعض الأمور المرغوبة .

فلم قلتم: إنها تدلّ على فضل الملك على البشر في باب القدرة والقوة، والحسن والجمال، والصفاء والنقاء عن الكدورات الحاصلة بسبب التركيبات؟ فإن الملائكة خلقوا من الأنوار وآدم خلق^(١) من التراب، فلعلّ آدم وإن كان أفضل منهم في كثرة الثواب إلا أنه رغب في أن يكون مساوياً لهم في تلك الأمور المعدودة .

وتاسعها: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

ولقائل أن يقول: يحتمل أن يكون المراد: ولا أقول لكم إنني ملك في كثرة العلوم، وشدة القوة، ويؤيده أن الكفار طالبوه بأمور عظيمة نحو: صعود السماء، ونقل الجبال، وإحضار الأموال العظيمة، وأيضاً قوله: «قل: لا أقول لكم عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» يدلّ على

اعترافه بأنه لا يعلم كلّ المعلومات، فلذلك لا أدعي قُدْرَةَ مِثْلَ قُدْرَةِ الملك، ولا علماً مثل علمه .

وعاشرها : قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

فإن قيل : لِمَ لا يجوز أن يكون المراد التشبيه في الجمال؟

قلنا : الأوّلَى أن يكون هذا التشبيه في السّيرة لا في الصّورة، لأن الملك إنما تكون سِيرَتُهُ المرضية لا بمجرد الصورة .

ولقائل أن يقول : قول المرأة : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ﴾ [يوسف : ٣٢] كالصريح في أن مراد النّساء بقولهن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] تعظيم لحسن يوسف وجماله لا في السّيرة ؛ لأن ظهور عُذْرِهَا في شِدَّةِ عشقها، إنما حصل بسبب فرط يوسف في الجَمَال لا بسبب فرط زُهدِه وورعه، فإن ذلك لا يُنَاسِبُ شِدَّةَ عشقها .

سلمنا أن المراد تشبيه يوسف - عليه الصلاة والسلام - بِالْمَلَكِ في حسن السّيرة، فلم قلتُم : يجب أن يكون يوسف أقل ثواباً من الملائكة؟

الحادي عشر : قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠]، ومخلوقات الله - تعالى - إما المكلفون، أو من عداهم، ولا شك أن المكلفين أفضل من غيرهم، فالمكلفون أربعة أنواع : الملائكة، والإنس، والجنّ، والشیاطين، ولا شك أن الإنس أفضل من الجنّ والشیاطين، فلو كان البشر أفضل من الملائكة لزم أن يكون البشر أفضل من كلّ المخلوقات، وحينئذ لا يبقى لقوله : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ فائدة .

بل كان ينبغي أن يقال : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى جَمِيعِ مَنْ خَلَقْنَا ﴾، ولما لم يقل ذلك علمنا أن الملك أفضل من البشر .

ولقائل أن يقول : هذا تمسكٌ بدليل الخطاب ؛ لأن التصريح بأنهم أفضل من كثير من المخلوقات لا يدلّ على أنه ليس أفضل من الباقي إلا بواسطة دليل الخطاب .

وأيضاً فهب أن جنس الملائكة أفضل من [جنس بني آدم، ولكن لا يلزم من كون أحد المجموعين أفضل من] ^(١) المجموع الثاني [أن يكون كلّ واحد من أفراد المجموع الأول أفضل من أفراد المجموع الثاني] ^(٢)، فإننا إذا قدرنا عشرة من العبيد كلّ واحد منهم يساوي مائة دينار، وعشرة أخرى حصل فيهم عبد يساوي مائتي دينار والتسعة الباقية كل واحد منهم ديناراً، فالمجموع الأول أفضل من المجموع الثاني، إلا أنه حصل في المجموع الثّاني واحد هو أفضل من كلّ واحد من آحاد المجموع الأول فكذا ها هنا .

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىكُمْ لِحَافِينَ كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] فیدخل فيه الأنبياء وغيرهم، وهذا يقتضي كونهم أفضل من البشر لوجهين:

الأول: أنه - تعالى - جعلهم حَفَظَةً، والحافظ للمكلف عن المعصية يكون أبعد عن الخطأ من المحفوظ، وذلك يقتضي كونهم أبعد عن المعاصي، وأقرب إلى الطاعات من البشر، وذلك يقتضي مزيد الفضل.

والثاني: أنه - سبحانه - جعل كتابتهم حُجَّةً للبشر في الطاعات، وعليهم في المعاصي، وذلك يقتضي أن يكون قولهم أولى بالقبول من قول البشر، ولو كان البشر أعظم حالاً منهم لكان الأمر بالعكس.

ولقائل أن يقول: أما كون الحافظ أكرم من المحفوظ، فهذا بعيد، فإن الملك قد يوكل بعض عبده على ولده.

وأما الثاني فقد يكون الشاهد أدون حالاً من المشهود عليه.

الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبا: ٣٨].

والمقصود من ذكر أحوالهم المبالغة في شرح عظمة الله وجلاله، ولو كان في الخلق طائفة أخرى قيامهم وتضرعهم أقوى في الإنباء عن عظمة الله وجلاله وكبريائه من قيامهم لكان ذكرهم أولى.

ولقائل أن يقول: ذلك يدل على أنهم أزيد حالاً من البشر في بعض الأمور، فلم لا يجوز أن تكون تلك الحالة هي قوتهم وشدتهم وبطشهم؟ وهذا كما يقال: إن السلطان لما جلس وقف حول سريرته ملوك أطراف العالم خاضعين فإن عظمة السلطان إنما تشرح بذلك، ثم إن هذا لا يدل على أنهم أكرم عند السلطان من ولده، فكذا ها هنا.

الرابع عشر: قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فبين تعالى أنه لا بد في صحة الإيمان من الإيمان بهذه الأشياء، فبدأ بنفسه، وثنى بالملائكة، وثالث بالكتب، ورابع بالرسول، وكذا في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والتقديم في الذكر يدل على التقديم في الدرجة؛ لأن تقديم الأذون على الأشرف في الذكر قبيح عرفاً، فوجب أن يكون قبيحاً شرعاً.

ولقائل أن يقول: هذه الحجة ضعيفة؛ لأن الاعتماد إن كان على «الواو» ف«الواو» لا تفيد الترتيب، وإن كان على التقديم في الذكر فينتقص بتقديم سورة «تبت» على سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، فجعل صلوات

الملائكة كالتشريف للنبي - ﷺ - وذلك يدلّ على كون الملائكة أشرف من النبي . ولقائل أن يقول : هذا ينتقض بقوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» فأمر المؤمنين بالصلاة على النبي ، ولم يلزم كون المؤمنين أفضل من النبي ، فكذا في الملائكة .

واحتج من قال بتفضيل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - على الملائكة بأمر :

أحدها : أن الله - تعالى - أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وثبت أن آدم لم يكن كالقِبْلَةِ ، فوجب أن يكون آدم أفضل منهم ؛ لأن السجود نهاية التواضع ، وتكليف الأشرف بنهاية التواضع للأدْوَنِ مُسْتَقْبَحٌ في العقول .

وثانيها : أن آدم - عليه الصلاة والسلام - خليفة له ، والمراد منه خلافة الولاية لقوله : ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص : ٢٦] .

ومعلوم أن أعلى الناس منصباً عند الملك من كان قائماً مقامه في الولاية والتصرف ، فهذا يدل على أن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان أشرف الخلائق .

فالدنيا خلقت متعةً لبقائه ، والآخرة مملكة لجزائه ، وصارت الشياطين ملعونين بسبب التكبر عليه ، والجن رعيته ، والملائكة في طاعته وسجوده ، والتواضع له ، ثم صار بعضهم حافظين له ولذريته ، وبعضهم منزلين لرزقه وبعضهم مستغفرين لزلّاته .

وثالثها : أن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان أعلم ، والأعلم أفضل ، أما أنه أعلم فلائه - تعالى - لما طلب منهم علم الأسماء ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة : ٣٢] فعند ذلك قال الله : ﴿يَكَادُمْ أَنْ يَنْتَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة : ٣٣] وذلك يدلّ على أن آدم - عليه الصلاة والسلام - كان عالماً بما لم يكونوا عالمين به ، والعالم أفضل لقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٣٣] والعالم عبارة عن كل ما سوى الله - تعالى - فمعناه أن الله - تعالى - اصطفاهم على المخلوقات .

فإن قيل : يُشْكَلُ بقوله تعالى : ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٤٧] .

قلنا : الإشكال مدفوع ؛ لأن قوله : «وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» خطاب مع الأنبياء الذين كانوا أسلاف اليهود ، وحينما كانوا موجودين لم يكن محمد - عليه الصلاة والسلام - موجوداً في ذلك الزمان ، والمعدوم لا يكون من العالمين ؛ لأن اشتقاق العالم من العِلْمِ فكل ما كان عالماً على الله ودليلاً عليه فهو عالم ، وإذا كان كذلك لم يلزم اضطفاء الله إياهم على العالمين في ذلك الوقت أن يكونوا أفضل من محمد - عليه الصلاة والسلام -

والملائكة كانوا موجودين، فيلزم أن يكون الله - تعالى - قد اصطفى هؤلاء على الملائكة، وأيضاً فهب أن تلك الآية دَخَلَهَا التخصيص لقيام الدليل، وها هنا فلا دليل يوجب ترك الظاهر، فوجب إجراؤه على ظاهره في العموم.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والملائكة من جملة العالمين، فكان محمد - عليه الصلاة والسلام - رحمة لهم، فوجب أن يكون أفضل منهم.

وسادسها: أنَّ الآدمي له شهوة داعية إلى المَعْصِيَةِ والملك ليست له هذه الشهوة، والفعل مع المعارض القوي أشد منه بدون المعارض.

فإن قيل: الملائكة لهم شهوة تدعوهم إلى المعصية، وهي شهوة الرئاسة.

قلنا: هَب أن الأمر كذلك، لكن البشر لهم أنواع كثيرة من الشهوات مثل شهوة البَطْن والْفَرْج، وشهوة الرئاسة والملك ليس له إلا شهوة واحدة، وهي شهوة الرئاسة، والمبتلى بأنواع كثيرة من الشهوات تكون الطاعة عليه أشق من المبتلى بشهوة واحدة. وأيضاً الملائكة لا يعملون إلا بالنص لقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] وقوله: ﴿لَا يَسْفِيحُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَقْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس، والعمل بالاستنباط أشق من العمل بالنص، وأيضاً فإن الشبهات للبشر أكثر منها للملائكة؛ لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السَّيَّارة أسباباً لحوادث هذا العالم، فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة، والملائكة لا يحتاجون إليها، لأنهم ساكنون في عالم السَّمَاوَات، فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبّر الصَّانع، وأيضاً فإن الشيطان لا سَبِيلَ له إلى وسوسة الملائكة، وهو مسلَّط على البشر في الوَسْوَسَةِ، وذلك تفاوت عظيم. إذا ثبت أن طاعتهم أشق، فوجب أن يكونوا أكثر ثواباً للنص والقياس.

فأما النص قوله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَحْمَرُهَا» أي: أشقُّها، وأما القياس فإن الشيخ الذي ليس له مِثْلٌ إلى النَّسَاء إذا امتنع عن الرِّثَا ليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنه مع المِثْلِ الشَّدِيد، والشُّوق العظيم.

وسابعها: أن الله - تعالى - خلق للملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق للبهايم شهوة بلا عَقْل، وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين، فصار الآدمي بسبب العَقْل فوق البهيمة بدرجة، فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة، ثم وجدنا الآدمي إذا غلب هَوَاهُ عقله، فإنه يصير دون البهيمة على ما قال: «أولئك كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» فيجب أن يقال: إذا غلب عقله هواه أن يكون فوق الملائكة اعتباراً لأحد الطرفين بالآخر.

وثامنها: أن الملائكة حَفَظَةٌ، وبنو آدم محفوظون، والمحفوظ أشرف من الحافظ، أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الأول، فقالوا: قد سبق بيان أنَّ من الناس من قال:

المراد من السُّجود التَّوَّاضع لا وَضْع الجَنْبَةِ على الأرض، وإن سلم أنه وضع الجبهة لكنه قال: السُّجود لله وآدم قبله، فزال الإشْكَال، وإن سلم أن السجود كان لآدم، فلم قلت: إن ذلك لا يجوز من الأشرف؟ وذلك أن الحكمة قد تقتضي إظهار نهاية الانقياد، والطاعة، فإن للسلطان أن يجلس عَبْدًا من عبيده، ويأمر الأكابر بخدمته، ويكون غرضه إظهار كونهم مُطِيعِينَ مُتَقَادِينَ له في كُلِّيات الأمور، وأيضاً فإن الله - تعالى - يفعل ما يَشَاءُ، ويحكم ما يريد، فإن أفعاله غير معللة، ولذلك قلنا: إنه لا اعتراض عليه في خلق الكُفْرِ في الإنسان، ثم يعذبه عليه أبد الآباد، وإذا كان كذلك، فكيف يعترض عليه في أن أمر الأعلى بالسجود لمن هو دونه.

وأما الحجّة الثانية فجوابها أن كون آدم خليفة في الأرض وهذا يقتضي أن يكون آدم - عليه السلام - كان أَشْرَفَ من كل من في الأرض ولا يدلّ على كونه أشرف من ملائكة السماء.

فإن قيل: قِيمَ لم يجعل واحداً من ملائكة السماء خليفة له في الأرض؟ قلت: لوجوه: منها أن البشر لا يطيقون رُؤْيَةَ الملائكة، ومنها أن الجنس إلى الجنس أميل.

وأما الحجّة الثالثة: فلا نسلم أن آدم كان أعلم منهم، وأكثر ما في الباب أن آدم - عليه الصّلاة والسّلام - كان عالماً بتلك اللّغات، وهم ما علموها، لكنهم لعلهم كانوا عالمين بسائر الأشياء، مع أن آدم - عليه السلام - ما كان عالماً بها ويحقق هذا أن محمداً - عليه أفضل الصلاة والسلام - أفضل من آدم - عليه السلام - مع أن محمداً ما كان عالماً بهذه اللّغات بأسرها، وأيضاً فإن «إبليس» كان عالماً بأن قرب الشجرة مما يوجب خروج آدم من الجنّة، وأن آدم - عليه السلام - ليس كذلك، والهُدْهُدُ قال لسليمان صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَحْطَطُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] ولم يكن أفضل من سُلَيْمَانَ، سلمنا أنه كان أعلم منهم، ولكن لِمَ لَمْ يَجْزْ أن يقال: إن طاعاتهم أكثر إخلاصاً من طاعة آدم عليه الصلاة والسلام؟

وأما الحجّة الرابعة: فهي قويّة.

وأما الخامسة: فلا يلزم من كون محمد - عليه الصّلاة والسلام - رحمة لهم أن يكون أفضل منهم كما في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] ولا يمتنع أن يكون - عليه الصلاة والسلام - رحمةً لهم من وجه، وهم يكونون رحمة له من وجه آخر.

وأما الحجّة السادسة: وهي أن عبادة البشر أشقّ فهذا ينتقض بما أنا نرى الواحد من الصّوفية يتحمّل في طريق المُجَاهِدة من المَشَاقِّ والمتاعب ما يقطع بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يتحمّل مثلها مع أنا نعلم أن محمداً عليه الصلاة والسلام أفضل من الكل.

أما الحُجَّةُ السَّابِعةُ : فهي جمع بين الطَّرفين من غير جامع .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضل منهم ، فما الحكمة بالأمر بالسجود له ؟

قيل له : إنَّ الملائكة لما استعظموا تَسْبِيحَهُمْ ، وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريه استغناء عنهم ، وعن عبادتهم .

وقال بعضهم : عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به ، فأمروا بالسجود له تكريماً ، ويحتمل أن يكون إنما أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فإن قيل : فقد استدَلَّ ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - على فضل البشر بأن الله - تعالى - أقسم بحياة مُحَمَّدٍ عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ [الحجر : ٧٢] وأمنه من العذاب لقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ، وقال للملائكة : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٢٩] .

قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بِحَيَاةِ نفسه سبحانه فلم يقل : «لَعَمْرِي» وأقسم بالسماء والأرض ، ولم يدلَّ على أنها أرفع قدراً من العرش ، وأقسم بـ «التين والزيتون» .

وأما قوله سبحانه : «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ» فهو نظير قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ ﴾ [الزمر : ٦٥] وهذا آخر الكلام في هذه المسألة .

قوله : «إِلَّا إِبْلِيسَ» «إِلَّا» حرف استثناء ، و «إِبْلِيسَ» نصب على الاستثناء ، وهل نصبه بـ «إِلَّا» وحدها أو بالفعل وحده أو به بوساطة «إِلَّا» أو بفعل محذوف أو بـ «أن» أقوال ؟

وهل هو استثناء متصل أو منقطع ؟ خلاف مشهور .

والأصح أنه متصل - وأما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فلا يرد ؛ لأن الملائكة قد يسمون جنًّا لاجتماعهم ، قال الشاعر في سليمان : [الطويل]

٣٨٤ - وَسَخَّرَ مِنْ جِنَّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةَ قِيَاماً لَدَيْهِ يَغْمَلُونَ بِلاَ أَجْرِ^(١)

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ﴾ [الصافات : ١٥٨] يعني : الملائكة .

واعلم أن المستثنى على أربعة أقسام :

قسم واجب النَّصْب ، وقسم واجب الجَرِّ ، وقسم جائز فيه النصب والجر ، وقسم جائز فيه النَّصْب والبَدَل مِمَّا قبله ، والأرجح البَدَل .

(١) البيت للأعشى وليس في ديوانه وهو في البحر ٣٠٤/١ ، مجمع البيان ١/١٨٢ ، الطبري (٥٠٦) ، الدر

الأول: المُسْتَثْنَى من الموجب والمقدّم، والمكرر والمنقطع عند «الحجاز» مطلقاً، والواقع بعد «لا يَكُونُ» و «لَيْسَ» و «مَا خَلَا» و «مَا عَدَا» عند غير الجَزْمِيِّ^(١)؛ نحو: «قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدًا»، و «مَا قَامَ إِلَّا زَيْدًا الْقَوْمُ»، و «مَا قَامَ أَحَدٌ إِلَّا زَيْدًا إِلَّا عَمْرَأَ»، و «قَامُوا إِلَّا حِمَارًا» و «قَامُوا لَا يَكُونُ زَيْدًا» أو «لَيْسَ زَيْدًا» و «مَا خَلَا زَيْدًا» و «مَا عَدَا زَيْدًا».

الثاني: المستثنى بـ «غَيْرَ» و «سِوَى» و «سِوَى» و «سِوَاءَ».

الثالث: المستثنى بـ «عَدَا» و «حَاشَا» و «خَلَا».

الرابع: المستثنى من غير الموجب؛ نحو: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٦٦].

و «إبليس» اختلف فيه، فقيل: إنه اسم أعجمي منح من الصّرف للعلمية والعُجْمة، وهذا هو الصّحيح، قاله «الرّجاج» وغيره؛ وقيل: إنه مشتقّ من «الإِبْلَاس» وهو اليأس من رحمة الله - تعالى - والبعدُ عنها؛ قال: [السريع أو الرجز]

٣٨٥ - وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلَاسٌ^(٢)

ووزنه عند هؤلاء: «إِفْعِيل»؛ واعترض عليهم بأنه كان ينبغي أن يكون منصرفاً، وأجابوا بأنه أشبه الأسماء الأعجمية لعدم نظيره في الأسماء العربية؛ ورد عليهم بأن مثله في العربية كثير؛ نحو: «إِزْمِيل» و «إِكْلِيل» و «إِغْرِض» و «إِخْرِيط».

وقيل: لما لم يقسم به أحدٌ من العرب، صار كأنه دَخِيلٌ في لسانهم، فأشبهه الأعجمية، وفيه بُعْدٌ.

فصل في جنس إبليس

اختلفوا في «إبليس».

فقال أكثر المتكلمين والمعتزلة: إنه لم يكن من الملائكة، وهو مروى عن ابن عَبَّاس، وابن زيد، والحسن، وقتادة - رضي الله عنهم - قالوا: «إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن ملكاً فأشبهه الحرف».

وقال شهر بن حَوْشَب، وبعض الأصوليين: «كان من الجن الذين كانوا في الأرض، وقتلهم الملائكة فَسَبَّوهُ صغيراً وتعبّد مع الملائكة وخطب».

وحكاه الطبري، وابن مسعود، وابن جريح، وابن المسيب، وقتادة وغيرهم، وهو

(١) صالح بن إسحاق أبو عمر الجرمي البصري مولى جرم بن زيان من قبائل اليمن انتهى إليه علم النحو في زمانه، توفي سنة خمس وعشرين ومائتين.

ينظر: بغية الوعاة: ٨/٢ - ٩.

(٢) ينظر البيت في الخصائص: (٣٦٠/١)، الأشموني: (٢٦٧/١)، الطبري: (٥١٠/١)، اللسان «بلس»، الدر المصون: (١٨٧/١).

اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري، وهو ظاهر الآية أنه من الملائكة.

قال ابن عباس: «وكان اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة، وكان من أولي الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعد»^(١).

روى سليمان بن حَرْب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة، فلما عصى الله غضب عليه فلعنه، فصار شيطاناً.

وحكى الماوردي عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة.

وقال سعيد بن جبیر: إن الجن سبَّط من الملائكة خلُقوا من نار، وإبليس منهم، وخلق معاشر الملائكة من نور^(٢).

حجة القول الأول، وهو أنه لم يكن من الملائكة وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإذا كان من الجن وجب أن ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ أَصْفَادُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِثْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، وهذا صريح في الفرق بين الجن والمَلَك.

فإن قيل: لا نسلم أنه كان من الجن؛ لأن قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ يجوز أن يكون المراد كان من الجنة على ما روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان من الجن كان خازن الجنة.

سلمنا ذلك، لكن لم لا يجوز أن يكون قوله: «من الجن» أي: صار من الجن كقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

سلمنا ما ذكرتم، فلم قلتم: إن كونه من الجن ينافي كونه من الملائكة؛ لأن الجن مأخوذ من الاجتنان، وهو السر، ولهذا سمي الجنين جنيناً لاجتنانه، ومنه الجنة لكونها ساترة، والجنة لكونها مستترة بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل به، والملائكة مستترون عن الأعين، فوجب جواز إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة، يؤيد هذا التأويل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخِزْيَةِ سَبَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وذلك لأن قريشاً قالت: الملائكة بنات الله، فهذه الآية تدل على أن الملائكة تسمى جناً.

والجواب: لا يجوز أن يكون المراد من قوله: «كان من الجن» أنه كان خازن الجنة؛ لأن قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] يشعر بتعليل تركه السجود

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٥٠٢/٥٠٣) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٣٩).

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/١٠٢) وزاد نسبه لابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب «الأضداد» والبيهقي في الشعب عن ابن عباس.

(٢) ينظر الدر المنثور: ١/١٠٢ - ١٠٣.

بكونه جنياً، ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازن الجنة، فبطل ذلك .

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَاءً﴾ قلنا: يحتمل أن بعض الكفار أثبت ذلك النسب في الجن، كما أثبت في الملائكة، وأيضاً فقد بينا أن الملك يسمى جنّاً بحسب أصل اللغة، لكن لفظ الجن بحسب العرف اختص بالغير، كما أن لفظ الدابة يتناول كل ما دبّ بحسب اللغة الأصلية، كلغة بحسب العرف اختص ببعض ما يدب، فيحتمل أن تكون هذه الآية على اللغة الأصلية والآية التي ذكرناها على العرف الحادث .

وثانيها: أن «إبليس» له ذرية لقوله تعالى: ﴿أَفَنَسَخِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ﴾ [الكهف: ٥٠] والملائكة لا ذرية لها؛ لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى، والملائكة لا أنثى فيها لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] أنكر على من حكم عليهم بالأنوثة .

وثالثها: أن الملائكة معصومون، و «إبليس» لم يكن كذلك فوجب ألا يكون من الملائكة .

ورابعها: أن «إبليس» مخلوق من نار لقوله تعالى حكاية عن «إبليس»: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] .

قال: ﴿وَالجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] والملائكة مخلوقون من الثور، لما روت عائشة عن النبي ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نورٍ وخلق الجن من مارج من نار»^(١) .

حجة القول الثاني، وهو أن «إبليس» كان من الملائكة أمران :

الأول: أن الله - تعالى - استثناء من الملائكة، والاستثناء المنقطع مشهور في كلام العرب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْنِيماً إِلَّا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢] وأيضاً فلأنه كان جنياً واحداً بين الألوف من الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: فسجدوا، ثم استثنى هو منهم استثناء واحد منهم؛ لأننا

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٢٩٥/٤) كتاب الزهد (٥٣) باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (١٢) حديث رقم (٢٩٩٨/٦٣) وأحمد في المسند (١٥٣/٦، ١٦٨) - وابن عساكر ٦٤٣/٢ والبيهقي في السنن (٣/٩) - وعبد الرزاق في مصنفه حديث رقم (٢٠٩٠٤) - وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: (١٠٥٤، ٥٥٥) - والسيوطي في الدر المنثور ١٤٣/٦ - وابن كثير في التفسير ٣/٣٨٨، ٥/١٦٣، ٤٦٧/٧ .

نقول: كل واحد من هَذَيْنِ الوجهين على خلاف الأصل، وذلك إنما يُصَار إليه عند الضرورة، والدلائل التي ذكرتموها في نفي كونه من الملائكة ليس فيها إلا الاعتماد على العُمومات، فلو جعلناه من الملائكة لزم تَخْصِيص ما عَوَّلْتُمْ عليه من العُمومات.

ولو قلنا: إنه ليس من الملائكة لزمنا جعل الاستثناء منقطعاً، فكان قولنا أولى، وأيضاً فالاستثناء إنما يتحقق من الشيء والصرف، ومعنى الصرف إنما يتحقق حيث لولا الصرف لدخل، والشيء لا يدخل في غير جنسه، فيمتنع تحقق معنى الاستثناء منه.

وأما قوله: إنه جني واحد من الملائكة فنقول: إنما يجوز إجراؤكم الكثير على القليل إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه، أما إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد لم يجز إجراؤكم غيره عليه.

الثاني: قالوا: لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ متناولاً، ولا استحال أن يكون تركه السجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، ولما حصلت هذه الأمور، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله، ولن يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة. لا يقال: إنه وإن لم يكن من الملائكة إلا أنه لما نشأ منهم، وطالت خُلُطته بهم والتصق بهم علا ولكن الله تعالى أمره بالسجود بلفظ آخر ما حكاه في القرآن بدليل قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] لأننا نقول: أما الأول فجوابه: أن المُخَالَطَة لا توجب ما ذكرتموه ولهذا قيل في أصول الفقه: خطاب الذكور لا يتناول الإناث وبالعكس مع شدة المخالطة بين الصنفين، وأيضاً فشدّة المُخَالَطَة بين الملائكة، وبين «إبليس» لما لم يمنع اقتصار اللعن على إبليس، فكيف يمنع اقتصار ذلك التكليف على الملائكة، ولنا كونه أمر بأمر آخر غير محكي في القرآن، فإن ترتيب الحكم على الوصف يشعر بالعلبة، فلما ذكر قوله: «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ» عقيب قوله: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ»، أشعر هذا التعقيب بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مُخَالَفَة هذا الأمر، لا بسبب مُخَالَطَة أمر آخر، وطريق الجمع بين الدليلين ما ذكرنا عن ابن عباس أن «إبليس» كان من الملائكة، فلما عَصَى الله غضب عليه، فَصَّار شيطَاناً.

وقول سعيد بن جبیر إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار، وإبليس منهم وليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشّهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة، وحكى الثعلبي عن ابن عباس: «أنَّ إبليسَ كان من حَيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنّ خلقوا من نار السّموم، وخلقت الملائكة من نُور، وكان اسمه بالسريانية عَزَازِيل، وبالعربية الحَارِث، وكان من خزّان الجنة، وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سُلْطَانُهَا، وسلطان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهداً، وأكثرهم علماً، وكان يَسُوسُ ما بين السّماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة، فذلك الذي دعاه إلى الكُفْرِ، فعصى الله، فمسخه شيطَاناً رجيماً».

قوله تعالى: «أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ».

الظاهر أن هاتين الجملتين استثنائيتان جواباً لمن قال: فما فعل؟

والوقف على قوله: «إِلَّا إِبْلِيسَ» تام.

وقال أبو البقاء: «في موضع نصب على الحال من «إِبْلِيسَ» تقديره: ترك السجود كارهاً له ومستكبراً عنه».

فالوقف عنده على «واستكبر»، وجوز في قوله: «وَكَاَنَ مِنَ الْكَافِرِينَ» أن يكون مستأنفاً، وأن يكون حالاً أيضاً، و «الإباء»: الامتناع؛ قال الشاعر: [الوافر]

٣٨٦ - وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا قَدْ أَبَيْنَا وَشَرُّ مَوَاطِنِ الْحَسَبِ الْإِبَاءُ^(١)

وهو من الأفعال المفيدة للنفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء المفرغ قال تعالى: ﴿وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمِّ تُوْرُومُ﴾ [التوبة: ٣٢].

والمشهور «أَبَى - يَأْبَى» بكسرها في الماضي، وفتحها في المضارع، وهذا قياس، فيحتمل أن يكون من قال: «أَبَى - يَأْبَى» بالفتح فيهما استغنى بمضارع من قال «أَبَى» بالكسر ويكون من التداخل نحو: «رَكَن - يَزْكُن» وبابه.

واستكبر بمعنى: تَكَبَّرَ، وإنما قدم الإباء عليه، وإن كان متأخراً عنه في الترتيب؛ لأنه من الأفعال الظاهرة؛ بخلاف الاستكبار؛ فإنه من أفعال القلوب.

قوله: «وَكَاَنَ» قيل: هي هنا بمعنى «صَارَ»؛ كقوله: [الطويل]

٣٨٧ - بَتِّيْهَاءَ قَفْرِ وَالْمِطِيِّ كَأَنَّهَا قَطَا الْحَزْنَ قَدْ كَانَتْ فِرَاحاً بُيُوضُهَا^(٢)

أي: قد صارت. ورد هذا ابن فورك وقال: «تردّه الأصول، والأظهر أنها على بابها والمعنى: كان من القوم الكافرين الذين كانوا في الأرض قبل خَلْقِ آدَمَ على ما روي، وكان في علم الله».

فصل في بيان بطلان قول أهل الجبر

قال القاضي: هذه الآية تدلُّ على بطلان قول أهل الجبر من وجوه:

أحدها: أنهم يزعمون أنه لما لم يسجد لم يقدر على السُّجود؛ لأن عندهم القُدرة

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى ينظر ديوانه: ص ٧٤، والأشباه والنظائر: ١٨٤/٥، الدر المصون: ١/١٨٨.

(٢) البيت لعمر بن أحمَر ينظر ديوانه: ص ١١٩، وخزانة الأدب: ١٠١/٩، ولسان العرب (عرض)، (كون)، والحيوان: ٧٥/٥، وله أو لابن كَنزة في شرح شواهد الإيضاح: ص ٥٢٥، وينظر أسرار العربية: ص ١٣٧، وشرح الأشموني: ١١١/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ص ٦٨، وشرح المفصل: ١٠٢/٧، والمعاني الكبير: ٣١٣/١، الدر المصون: ١/١٨٨.

على الفعل شرط، فإن من لا يقدر على الشيء لا يقال: إنه أباه.

وثانيها: أن من لا يَقْدِرُ على الفعل لا يقال: استكبر بأن لم يفعل، وإنما يوصف بالاستكبار إذا لم يفعل مع أنه لو أراد الفعل لأمكنه.

وثالثها: قال: «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» ولا يجوز أن يكون كافراً بأن لم يفعل ما لا يقدر عليه.

ورابعها: أن استكباره، وامتناعه خلق من الله فيه، فهو بأن يكون معذوراً أولى من أن يكون مذموماً قال: ومن اعتقد مذهباً يقيم العذر لإبليس فهو خاسر الصِّفَّة.

والجواب: يقال له: صدور ذلك عن «إبليس» لا يخلو، إما أن يكون عن قَصْدٍ وداعٍ أو لا.

فإن وقع لا عن فاعل، فكيف يثبت الصانع، وإن وقع عن العبد فوقع ذلك القصد عنه إن كان عن قصد آخر فيلزم التسلسل.

وإن كان لا عن قَصْدٍ فقد وقع الفعل لا عن قَصْدٍ.

[أما إن قلت وقع ذلك الفعل عنه لا عن قصد^(١) وداع، قد ترجح الممكن من غير مرجح، وهو يسد باب إثبات الصانع، وأيضاً فإن كان كذلك كان وقوع ذلك الفعل اتفاقياً، والاتفاقي لا يكون في وسعه واختياره، فكيف يؤمر به وينهى عنه، وإن وقع عن فاعل هو الله، فحينئذ يلزمك كل ما أوردته علينا.

فإن قيل: هذا^(٢) منقوض بأفعال الله - سبحانه وتعالى - فإن التقسيم وارد فيها ليست اتفاقية ولا خبراً؟

قلنا: الله - تعالى - واجب الوجود لذاته، وإذا كان كذلك كان واجب الوجود أيضاً في صفاته، وإذا كان كذلك فهو مُسْتَعْنٍ في فاعليته عن المؤثرات والمرجحات، إذ لو افتقر لكان محتاجاً.

فصل في بيان حال إبليس

قال قوم: كان «إبليس» منافقاً منذ كان.

وقال آخرون: كان كافراً، واستدلوا بقوله: «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ»؛ لأن كلمة «من» للتبعيض، والحكم عليه بأنه بعض الكافرين يقتضي وجود قوم آخرين من الكفار حتى يكون هو بعضاً منهم، ويؤكد ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ قال: إن الله خلق خلقاً من الملائكة، ثم قال لهم: إني خالق بشرأ من طين؛ فإذا سوّيته، ونفخت فيه من روحي فَقْعُوا له سَاجِدِينَ. فقالوا: لا تفعل ذلك، فبعث الله عليهم ناراً، فأحرقتهم، وكان «إبليس» من أولئك الذين أبوا.

(١) سقط في أ.

(٢) في ب: هل.

وقال آخرون: إِنَّ «كان» ها هنا بمعنى «صار» فيكون معنى الآية صار من الذين وقعوا في الكُفْر بعد ذلك، وأنه كان قبل ذلك مؤمناً، وهذا قول «الأصم»، وذكر في مثاله قوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧] فأضاف بعضهم إلى بعض بسبب المُوافقة في الدين، وأيضاً فإن هذه إضافة لفرد من أفراد الماهية إلى تلك الماهية، وصحّة هذه الإضافة لا تقتضي وجود تلك الماهية، كما أن الحيوان الذي خلقه الله تَعَالَى أولاً يصح أن يقال: إنه فرد من أفراد الحيوان، لا بمعنى أنه وَاحِدٌ من الحيوانات الموجودة خارج الذهن، بل بمعنى أنه فرد من أفراد هذه الماهية. واعلم أنه يتفرع على هَذَا أن «إبليس» هل كان أول من كفر بالله؟ والذي عليه الأكثر أن أول من كفر بالله.

فصل في بيان أن الأمر كان للملائكة كلهم

قال الأكثرون: إن جميع الملائكة كانوا مأمورين بالسُّجود لآدم، واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: أن لفظ المَلَأَكَة صيغة جمع، وهي تفيد العموم، لا سيما وقد أكدت بأكمل وجوه التوكيد في قوله: «كَلِّمَهُمْ أَجْمَعُونَ».

الثاني: أن استثناء «إبليس» منهم، واستثناء الشخص الواحد منهم يدلّ على أن من عدا ذلك الشخص يكون داخلاً في ذلك الحكم، ومن الناس من أنكر ذلك، وقال: المأمور بهذا السُّجود هم ملائكة الأرض، واستعظم أن يكون أكابر الملائكة مأمورين بذلك.

وأما الحُكَمَاءُ فإنهم يحملون المَلَأَكَة على الجَوَاهِر الرُّوحَانِيَّةِ، وقالوا: يستحيل أن تكون الأرواح السَّمَاوِيَّةُ مُنْقَادَةً للنفوس الناطقة، إنما المراد من الملائكة المأمورين بالسجود القوى البشرية المُطِيعَة للنفس الناطقة، والكلام في هذه المسألة مذكور في العقلیات.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

الجملة من قوله: ﴿وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ معطوفة على جملة «إِذْ قُلْنَا» لا على «قلنا» وحده لاختلاف زمنيتهما.

و «أنت» توكيد للضمير المُسْتَكِنَ في «اسكن» ليصح العطف عليه^(١) «وزوجك»

(١) وحاصل المواضع التي يستكن فيها الضمير وجوباً، ونعني بواجب الاستتار: ما لا يحلّ محلّه الظاهر،

عطف عليه، هذا هو مذهب البصريين، أعني اشتراط الفعل بين المتعاطفين إذا كان المعطوف عليه ضميراً مرفوعاً متصلاً، ولا يشترط أن يكون الفاصل توكيداً، بل أي فصل كان، نحو: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما الكوفيون فيجيزون ذلك من غير فاصل؛ وأنشدوا: [الخفيف]

٣٨٨ - قُلْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ وَزَهْرٌ تَهَادَى كِنَعَاكِ الْفَلَا تَعَسَّفَنَّ رَمَلًا^(١)

وهذا عند البصريين ضرورة لا يقاس عليه، وقد منع بعضهم أن يكون «زوجك» عطفاً على الضمير المستكن في «اسكن»، وجعله من عطف الجمل، بمعنى أن يكون «زوجك» مرفوعاً بفعل محذوف، أي: وَلْتَسْكُنْ زَوْجُكَ، فحذف لدلالة «اسكن» عليه^(٢)، ونظيره قوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُمْ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ [طه: ٥٨] وزعم أنه مذهب سيبويه، وكان شبهته في ذلك أن من حَقَّ المعطوف حلوله محل المعطوف عليه، ولا يصح هنا حلول «زوجك» محل الضمير لأنَّ فاعل فعل الأمر الواحد المذكور نحو: «قُمْ واسكن» لا يكون

= الأول: فعل الأمر للواحد المخاطب؛ كافعل، فالتقدير: أنت، وهذا الضمير لا يجوز إبرازه؛ لأنه لا يحل محله الظاهر، فلا تقول: افعل زيد، فأما: افعل أنت، واسكن أنت، ف«أنت» توكيد للضمير المستتر، وعلى ذكر المصنف - رحمه الله - فإن كان الأمر لواحدة، أو لاثنتين، أو لجماعة، برز الضمير، نحو: اضربي، واضربا، واضربوا، واضربن.

الثاني: الفعل المضارع الذي في أوله همزة، نحو: أوافق، والتقدير: (أنا)، فإن قلت: أوافق أنا، وكان (أنا) تأكيداً للضمير المستتر.

الثالث: الفعل المضارع الذي في أوله النون، نحو: «نغبت» أي: نحن.

الرابع: الفعل المضارع الذي في أوله التاء لخطاب الواحد، نحو: تشكر (أي: أنت). وقد جمع ذلك ابن مالك فقال:

ومن ضمير الرفع ما يستتر كافعل أوافق نغبت إذ تشكر

انظر التصريح على التوضيح: (١٠٠/١ - ١٠١)، وشرح ابن عقيل: (٩٥/١ - ٩٧)، والكتاب لسيبويه: (١٢٥/١)، وحاشية الصبان على الأشموني: (١١٢/١ - ١١٣)، وجمع الهوامع: (٦٢/١)، وشرح المفصل: (٧٦/٨)، وارتشاف الضرب: (٦٥٧/٢ - ٦٥٨).

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ملحق ديوانه ٤٩٨، شرح أبيات سيبويه ١٠١/٢، شرح عمدة الحافظ ٦٥٨، شرح المفصل ٧٦/٣، اللمع ١٨٤، ٣٨٦/٢، شرح الأشموني ٤٢٩/٢، شرح ابن عقيل ٥٠١، الكتاب ٣٧٩/٢، الدرر ١٩١/٢، الدر المصون ١٨٩/١.

(٢) إذا عطفت على الضمير المرفوع المستكن، أو البارز، فذهب البصريون إلى أنه لا يجوز إلا بالفصل بين المتعاطفين، بتوكيد بضمير منفصل، أو بغيره.

وذهب الكوفيون وابن الأنباري: إلى أنه لا يشترط في ذلك الفصل، بل يجوز في الكلام قمت وزيد، وحكي عن أبي علي إجازة ذلك من غير فصل، وفي كتاب سيبويه - حين ذكر انفصال بعض الضمائر: وكذلك (كنا وأنت ذاهبين) إلا أن الشراح تأولوه، ولا يعتد عند البصريين بفصل كاف (رويدك)، بل يؤكد إذا عطفت على الضمير المرفوع في (رويدك)؛ فتقول: رويدك أنت وزيد.

ينظر ارتشاف الضرب: ٦٥٨/٢.

إلا ضميراً مستتراً، وكذلك فاعل يفعل، فكيف يصح وقوع الظاهر موقع المضمّر الذي قبله؟ وهذا الذي يزعم ليس بشيء؛ لأنّ مذهب سيّويه بنصّه يخالفه؛ ولأنّه لا خلاف في صحّة «تقوم هند وزيد» ولا يصحّ مباشرة «زيد» لا «تقوم» لتأنيته.

و «السُّكُون» و «السُّكْنَى»: الاستقرار، ومنه «المِسْكِينُ» لعدم حركته وتصرفه، والسُّكْنَى لأنها تقطع حركة المَذْبُوح، والسُّكْنَى لأن بها يذهب القَلْبُ.

وسكّان السفينة عربي لأنه يسكنها عن الاضطراب، والسكن: النار.

قال الشاعر: [مشطور السريع]

٣٨٩ - قَدْ قَوْمَتْ بِسَكْنٍ وَأَذْهَانُ^(١)

و «الْجَنَ»: مقعول به لا ظرف، نحو: «سكنت الدار».

وقيل: هي ظرف على الاتساع، وكان الأصل تعديته إليها بـ «في» لكونها ظرف مكان مختص، وما بعد القول منصوب به.

فصل في بيان هل الأمر في الآية للإباحة أو لغير ذلك

اختلفوا في قوله: «اسكن» هل هو أمر أو إباحة؟

فروي عن قتادة: أن الله ابتلى آدم بإسكان الجنة كما ابتلى الملائكة بالسُّجُود، وذلك لأنه كلفه بأن يكون في الجنة يأكل منها حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة. وقال آخرون: إن ذلك إباحة.

والصحيح أن ذلك الإسكان مشتمل على إباحة، وهي الانتفاع بجميع نعم الجنة وعلى تكليف، وهو النهي عن أكل الشجرة.

قال بعضهم: قوله: «اسكن» تنبيه عن الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون ملكاً؛ لأن من أسكن رجلاً مسكناً له فإنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرج منه إذا انقضت مدة الإسكان، وكان «الشُّعْبِي» يقول: إذا قال الرجل: داري لك سُّكْنَى حتى تموت، فهي له حياته وموته، وإذا قال: داري هذه أسكنها حتى تموت، فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات، ونحو السُّكْنَى العُمَرَى، إلا أن الخلاف في العُمَرَى أقوى منه في السُّكْنَى.

قال «الحربي»: سمعت «ابن الأعرابي» يقول: لم يختلف العرب في أن هذه الأشياء على ملك أربابها، ومنافعها لمن جعلت له العُمَرَى والرُّقْبَى والإفقار والإخبال والمنحة والعرة والسُّكْنَى والإطراق.

فصل في وقت خلق حواء

اختلفوا في الوقت الذي خلقت زوجته فيه، فذكر «السدي» عن ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة رضي الله عنهم: أن الله - تعالى - لما أخرج «إبليس» من الجنة، وأسكن آدم بقي فيها وخذه ما كان معه من يستأنس به، فألقى الله - تعالى - عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ووضع مكانه لحماً، وخلق حواء منه، فلما استيقظ وجد عند رأسه امرأة قاعدة فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ فقالت الملائكة: لنجرب علمه من عنده، قال: امرأة، قيل: ولم سميت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أخذت، فقالوا له: ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي^(١).

وعن «ابن عباس» رضي الله عنهما قال: «بعث الله جنداً من الملائكة، فحملوا آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - على سريبر من ذهب كما يحمل الملوك، ولباسهما النور حتى أدخلوا الجنة».

فهذا الخبر يدل على أن حواء خلقت قبل إدخالهما الجنة.

روى الحسن عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إن المرأة خلقت من ضلع الرجل، فإذا أردت تقويمها كسرتها، وإن تركتها انتفعت بها واستقامت»^(٢)، وهذا القول منقول «عن أبي بن كعب، وابن عباس، وهب بن منبه، وسفيان بن عيينة».

واختاره ابن قتيبة في «المعازي»، [والقاضي منذر بن سعيد البلوطي]^(٣) وحكاه عن «أبي حنيفة» وأصحابه، وهو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.

وفي رواية: «وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ لن تستقيم لك على طريقة واحدة، فإن استمتمت بها، استمتمت وبها عوج، وإن ذهب ثقيمتها كسرتها، وكسرها طلاقها»؛ وقال الشاعر: [الطويل]

(١) أخرجه الطبري (٥١٣/١) رقم (٧١٠) والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبه لابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (١٠٩١/٢) كتاب الرضاع (١٧) باب الوصية بالنساء (١٨) حديث رقم (٥٩، ١٤٦٩، ٦٠، ١٤٦٩).

والترمذي في السنن حديث رقم (١١٨٨).

والدارمي في السنن (١٤٨/٢).

وابن حبان في الموارد حديث رقم (١٣٠٨).

وابن أبي شيبه (٢٧٦/٥).

والبخاري في الأدب المفرد (٧٤٧).

(٣) سقط في ب.

٣٩٠ - هِيَ الضِّلْعُ الْعَوَجَاءُ لَسْتُ تُقِيمُهَا أَلَا إِنَّ تَقْوِيمَ الضَّلُوعِ انكِسَارُهَا
أَتَجْمَعُ ضَعْفًا وَاقْتِدَارًا عَلَى الْفَتْلِ أَلَيْسَ عَجِيبًا ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا^(١)

فصل في بيان خلافهم في الجنة المقصودة

اختلفوا في هذه الجنة هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنها كانت في السماء، فهل هي دار ثواب أو جنة الخلد؟

فقال أبو القاسم البلخي، وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض وحملوا الإهباط على الانتقال من بُقْعَةٍ إِلَى بُقْعَةٍ كما في قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١] واحتجاً عليه بوجوه:

أحدها: أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه العُرُورُ من «إبليس»، ولما صحّ قوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وثانيها: أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وثالثها: أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

ورابعها: أن جنة الخلد لا يفنى نعيمها لقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى أن قال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ يُجْذَوْفُ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع.

وخامسها: لا نزاع في أن الله - تعالى - خلق آدم في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان - تعالى - قد نقله إلى السماء لكان أولى بالذكر؛ لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم، فدلّ على أن ذلك لم يحصل، وذلك يوجب أن هذه الجنة غير جنة الخلد.

وقال «الجبائي»: أن تلك الجنة كانت في السماء السابعة، والدليل عليه قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾، ثم إن الإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض.

وقال أكثر العلماء: إنها دار الثواب؛ لأنّ الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم؛ لأن سكّون جميع الجّنان مُحَال، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، وجنة الخلد هي المعهودة بين المسلمين، فوجب صرف اللفظ إليها.

(١) ينظر البيتان في القرطبي: ٢٠٨/١، والبيت الأول في اللسان (ضلع).

وقال بعضهم: الكلّ ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف وترك القطع، والله أعلم.

فصل في إعراب الآية

قوله: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ هذه الجملة عطف على «اسكنن»، فهي في محل نصب بالقول، وأصل «كلّ»: «أؤكل» بهمزتين: الأولى همزة وصل، والثانية فاء الكلمة، فلو جاءت هذه الكلمة على الأصل لقليل: أؤكل بإبدال الثانية حرفاً مجانساً لحركة ما قبلها، إلا أن العرب حذفَت فاءه في الأمر تخفيفاً، فاستغنت حينئذ عن همزة الوصل، فوزنه «عُلّ» ومثله: «حُذْ» و «مُرْ»، ولا يقاس على هذه الأفعال غيرها، فلا تقول: من «أَجَرَ - جُر» ولا تَرُدُّ العرب هذه الفاء في العطف، بل تقول: «قم وخذ وكل» إلا «مُر»، فإن الكثير ردّ فاءه بعد الواو والفاء، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ [طه: ١٣٢]، وعدم الرد قليل.

وحكى سيبويه «أؤكل» على الأصل، وهو شاذ.

وقال «ابن عطية»^(١): حذف النون من «كلّا» للأمر.

وهذه العبارة موهمة لمذهب الكوفيين من أن الأمر عندهم معرب على التدرّج، وهو عند البصريين محمول على المجزوم، فإن سكن المجزوم سكن الأمر منه، وإن حذف منه حرف حذف من الأمر.

و «منها» متعلّق به، و «من» للتبعية، ولا بُدّ من حذف مضاف أي: من ثمارها ويجوز أن تكون «من» لابتداء الغاية، وهو حسن.

فإن قيل: ما الحكمة في عطفه هنا «وكلّا» بالواو، وفي «الأعراف» بالفاء؟

والجواب: كلّ فعل عطف عليه شيء، وكان الفعل بمنزلة الشرط، وذلك الشيء بمنزلة الجزاء، عطف الثاني على الأوّل بالفاء دون الواو، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٥٨] فعطف «كلوا» على «ادخلوا» بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها فكانه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل، والأكل متعلّق بوجوده ببيّن ذلك قوله في سورة «الأعراف»: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ [الأعراف: ١٦١] فعطف «كلوا» على قوله: «اسكنوا» بالواو دون الفاء؛ لأن «اسكنوا» من السكّن، وهو المقام مع طول اللبث والأكل لا يختص بوجوده بوجوده؛ لأن من دخل بستاناً قد يأكل منه، وإن كان مجتازاً، فلما لم يتعلّق الثاني بالأول تعلّق الجزاء بالشرط وجب العطف بالواو دون الفاء. إذا ثبت هذا

(١) ينظر المحرر الوجيز: ١٢٦/١.

فقوله: «اسكن» يقال لمن أراد منه: الزم المَكَانَ الذي دخلته، فلا تنفك عنه، ويقال أيضاً لمن لم يدخله: اسكن هذا المكان يعني: ادخله واسكن فيه، فقوله في سورة البقرة: ﴿أَسْكَنْ أَنتَ وَرَزَقَكَ الْجَنَّةَ وَكَلا﴾ إنما ورد بعد أن كان آدم في الجنة، فكان المراد منه اللبث والاستقرار، وقد بيّنّا أن الأكل لا يتعلّق به، فلهذا ورد بلفظ الواو، وفي سورة «الأعراف» هذا الأمر إنما ورد قبل دخول الجنة، فكان المراد منه دخول الجنة، وقد بيّنّا أن الأكل متعلّق به، فلهذا ورد بلفظ الفاء، والله أعلم.

و «رَغَدًا» نعت لمصدر مَحذوف، وقد تقدم أن مذهب سيبويه في هذا ونحوه أن ينتصب حالاً.

وقيل: هو مصدر في موضع الحال أي: كلاً طَيِّبَيْنِ مُهَيَّأَيْنِ.

وقرأ النّخعي^(١) وابن وثّاب: «رَغَدًا» بسكون الغين، وهي لغة «تميم».

وقال بعضهم: كل فعل حلقي العين صحيح اللّام يجوز فُتَحَ عينه وتسكينها، نحو: «نَهَرَ وَبَخَرَ» وهي لغة «تميم».

وهذا فيه نظر، بل المنقول أن «فَعَلًا» بسكون العين إذا كانت عينه حَلْقِيَةً لا يجوز فتحها عند البصريين، إلّا أن يسمع فيقتصر عليه، ويكون ذلك على لُغَتَيْنِ؛ لأن إحداهما مأخوذة من الأخرى.

وأما الكوفيون فبعض هذا عندهم ذو لُغَتَيْنِ، وبعضه أصله السّكون، ويجوز فتحه قياساً، أما أن «فَعَلًا» المفتوح العين الحَلْقِيَةً يجوز فيه التسكين، فيجوز في السّحر: السّحر، فهذا لا يجيزه أحد.

و «الرّغد»: الواسع الهنيء؛ قال امرؤ القيس: [الرمّل]

٣٩١ - بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا يَأْمُرُ الْأَخْدَاتِ فِي عَيْشِ رَغْدٍ^(٢)

ويقال: رَغَدَ عيشهم - بضم الغين وبكسرها - وأرغد القوم: صاروا في رَغْدٍ.

«حَيْثُ شَيْئًا» حيث: ظرف مكان، والمشهور بناؤها على الضم لشبهها بالحرف في الافتقار إلى جملة، وكانت حركتها ضمة تشبيهاً بـ «قَبْلُ وَيَعْدُ».

ونقل «الكسائي» إعرابها عن «قيس» وفيها لغات: «حَيْثُ» بتثليث الشاء، و «حَوْثُ» بتثليثها أيضاً، ونقل: «حَاثُ» بالألف.

(١) انظر المحرر الوجيز: ١/١٢٧، والبحر المحيط: ١/٣٠٩، والدر المصون: ١/١٨٩، والقرطبي: ١/٢٠٨.

(٢) البيت ليس في ديوانه، وهو في البحر: ١/٣٠٥، مجمع البيان: ١/١٨٦، المحرر الوجيز: ١/٢٣٧، الدر المصون: ١/١٩٠.

وهي لازمة الظرفية لا تتصرف، وقد تجر بـ «من» كقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وهي لازمة للإضافة إلى جملة مطلقاً، ولا تضاف إلى المفرد إلا نادراً؛ قالوا: [الرجز]

٣٩٢ - أَمَا تَرَى حَيْثُ سَهِيلٌ طَالِعًا^(١)

وقال آخر: [الطويل]

٣٩٣ - وَنَطَعْنَهُمْ تَحْتَ الْحَبَى بَعْدَ ضَرْبِهِمْ بِيَبِيضِ الْمَوَاضِي حَيْثُ لَيَّ الْعَمَائِمِ^(٢)

وقد تزداد عليها «ما» فتجزم فعلين شرطاً وجزاء كـ «إن»، ولا يجزم بها دون «ما» خلافاً لقوم، وقد تُشَرَّبُ معنى التعليل، وزعم الأخفش أنها تكون ظرف زمان، وأنشد: [المديد]

٣٩٤ - لِفَتَى عَقْلٍ يَعِيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهُ^(٣)

ولا دليل فيه، لأنها على بابها. والعامل فيها هنا «كُلا» أي: «كلا أي مكان شئتما» توسعة عليهما.

وأجاز «أبو البقاء»^(٤) أن تكون بدلاً من «الجنة»، قال: «لأن الجنة مفعول بها، فيكون حيث مفعولاً به» وفيه نظر؛ لأنها لا تتصرف كما تقدم إلا بالجر بـ «من».

و «شئتما» الجملة في محل خفض بإضافة الظرف إليه. وهل الكسرة التي على الشين أصل كقولك: جئتما وخفتما، أو محولة من فتحة لتدل على ذوات الياء نحو: يعتمد؟

قولان مبنيان على وزن شاء ما هو؟ فمذهب المبرد أنه: «فَعَلَ» بفتح العين، ومذهب سيبويه «فَعِلَ» بكسرها، ولا يخفى تصريفهما.

(١) ينظر البيت في شرح المفصل: (٩٠/٤)، الشذور: (١٢٩)، الخزانة: (١٥٥/٣)، الدرر: (١٨٠/١)، مغني اللبيب: (١٣٣/١)، ابن الناظم: (٣٩١)، الأشموني: (٢٥٤/٢)، الهمع: (٢١٢/١) وتماهه: نجماً مضيئاً كالشهاب لامعاً، الدر المصون: (١٩٠/١).

(٢) البيت للفرزدق ينظر في شرح شواهد المغني: ٣٨٩/١، والمقاصد النحوية: ٣٨٧/٣، أوضح المسالك: ١٢٥/٣، وخزانة الأدب: ٥٥٣/٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٤/٧، والدرر: ١٢٣/٣، وشرح التصريح: ٣٩/٢، وشرح المفصل: ٩٢/٤، وشرح الأشموني: ٣١٤/٢، ومغني اللبيب: ١٣٢/١، وهمع الهوامع: ٢١٢/١، الدر المصون: ١٩٠/١.

(٣) البيت لطرفة بن العبد ينظر ديوانه: ص ٨٦، وخزانة الأدب: ١٩/٧، والدرر: ١٢٥/٣، وسمط اللآلي: ص ٣١٩، ولسان العرب (سوق)، (هدى)، شرح المفصل: ٩٢/٤، ومجالس ثعلب: ص ٢٣٨، وهمع الهوامع: ٢١٢/١، الدر المصون: ١٩٠/١.

(٤) ينظر الاملاء: ٣٠/١.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ «لا» ناهية و «تَقْرَبُوا» مجزوم بها حذفت نونه .
 وقرئ^(١): «تَقْرَبُوا» بكسر حرف المُضَارعة، و «الألف» فاعل، وتقول: «قَرَبْتُ» الأمر «أَقْرَبُهُ» - بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع أي: التبتت به .
 وقال «الجَوْهَرِيُّ» «قَرُبَ» - بالضم - «يَقْرُبُ» - «قُرْبًا» أي دنا . و «قَرَبْتُهُ» - بالكسر - «قَرَبَانًا» دنوت منه .

وَقَرَبْتُ - أَقْرُبُ - قَرَابَةً - مثل: كَتَبْتُ - أَكْتُبُ - كِتَابَةً - إذا سِرْتُ إلى الماء وبينك وبينه ليلة .

وقيل: إذا قيل: لا تَقْرُبْ - بفتح الرّاء كان معناه: لا تلتبس بالفعل، وإذا قيل: لا تَقْرُبْ - بالضّم - لا تَدُنْ منه .

و «هذه» مفعول به اسم إشارة للمؤنث، وفيها لغات: هَذِي وَهَذِهِ وَهَذِهِ بكسر الهاء بإشباع [ودونه] «وَهَذِهِ» بسكونها و «ذِهِ» بكسر الذال فقط، والهاء بدل من الياء لقربها منها في الخفاء .

قال «ابن عطية» ونقل أيضاً عن النّحاس^(٢) وليس في الكلام هاء تأنيث مكسور ما قبلها غير «هذه»، وفيه نظر؛ لأن تلك الهاء التي تدلّ على التأنيث ليست هذه؛ لأن «تيك» بدل من تاء التأنيث في الوقف، وأما هذه الهاء فلا دلالة لها على التأنيث، بل الدّال عليه مجموع الكلمة كما لا يقال: الياء في «هذي» للتأنيث، وحكمها في القرب والبعد والتوسط، ودخول هاء التنبيه وكاف الخطاب حكم «ذا» وقد تقدم .

ويقال فيها أيضاً: «تِيكَ» و «تِيلِكَ» و «تَالِكَ»؛ قال: [الوافر]

٣٩٥ - تَعَلَّمْنَا أَنَّ بَعْدَ الْعَيِّ رُشْدًا وَأَنَّ لِسَالِكَ الْعُمَرِ انْكِسَارًا^(٣)

قال هشام: ويقال: «تَا فَعَلْتُ»؛ وأنشد: [الطويل]

٣٩٦ - خَلِيلِي لَوْلَا سَاكِنُ الدَّارِ لَمْ أَقِمْ بِنَا الدَّارِ إِلَّا عَابِرَ ابْنِ سَبِيلٍ^(٤)

و «الشجرة» بدل من «هذه» .

وقيل: نعت لها لتأويلها بمشتق، أي: بهذه الحاضرة من الشجر . والمشهور أنّ اسم الإشارة إذا وقع بعده مشتق كان نعتاً له، وإن كان جامداً كان بدلاً منه .

(١) قرأ بها يحيى بن وثاب، وهي لغة عند الحجازيين .

انظر الشواذ: ٤، والبحر المحيط: ٣٠٩/١، والدر المصون: ١٩١/١ .

(٢) ينظر إعراب القرآن: ١٦٣/١ .

(٣) ينظر البيت في الهمع: (٧٥/١)، الدرر: (٤٩/١)، خزانة الأدب: (١٢٩/٩، ١٣٠)، القرطبي: (٢/

٥٤)، الدر المصون: (١٩١/١)، اللسان «تا» .

(٤) ينظر القرطبي: (٢١٣/١)، الدر المصون: (٢٨٤/١) .

و «الشجرة» واحدة «الشجر»: اسم جنس، وهو ما كان على ساق، وله أغصان، وقيل: لا حاجة إلى ذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ مع أنها كالزرع والبطيخ، فلم يخرجها ذهابه على وجه الأرض من أن يكون شجراً. قال المبرد: «وأحسب كل ما تفرعت له عِيدَان وأغصان، فالعرب تسميه شجراً في وقت تشعبه».

وأصل هذا أنه كلما تشجر، أي: أخذ يَمْنَةً ويسرة، يقال: رأيت فلاناً قد شجرته الرِّمَاح، قال تعالى: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وَتَشَاوَرَ الرُّجُلَانِ فِي أَمْرٍ كَذَا.

وقرىء^(١): «الشَّجَرَة» بكسر الشين والجيم، وبإبدالها ياء مع فتح الشين، وكسرها؛ لقربها منها مخرجاً؛ كما أبدلت الجيم منها في قوله: [الرجز]

٣٩٧ - يَا رَبِّ إِنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حَجَّتِجَ فَلَا يَزَالُ شَاحِجٌ يَأْتِيكَ بِحِجٍّ^(٢)
يريد: حجتي وبني.

وقال الراجز أيضاً: [الرجز]

٣٩٨ - خَالِي غَوْفٌ وَأَبُو عَلِجٍ الْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالْعَشِيجِ^(٣)
يريد: أبو عليّ، وبالعشيّ.

وقال الشاعر في «شيرة»: [الطويل]

٣٩٩ - إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنَى فَأَبْعَدُكُنَّ اللَّهُ مِنْ شِيرَاتِ^(٤)
وقال أبو عمرو: «إنما يقرأ بها برابر مكة وسودانها، وجمعت «الشَّجَرَة» على «شَجَرَاء»، ولم يأت جمع على هذه الزُّنَّةِ إِلَّا قَصْبَةٌ وَقَصْبَاءٌ، وَطَرْفَةٌ وَطَرْفَاءٌ، وَخَلْفَةٌ وَخَلْفَاءٌ.

(١) هذه القراءة حكاها هارون الأعور عن بعض القراء.

انظر الشواذ: ٤، والمحذر الرجز: ١٢٧/١، والبحر المحيط: ٣١٠/١، والدر المصون: ١٩١/١.

(٢) ينظر نوادر أبي زيد: (٤٥٥)، ابن السكيت (٩٦)، الأصول: (٢٧٤/٢)، المحتسب: (٧٥/١)، سر الصناعة: (١٩٣/١)، التبصرة: (٨٦٦/٢)، ابن يعيش (٥٠/١٠)، الرضي (٢٨٧/٢)، الممتع: (١/١)، (٣٥٥)، الأشموني: (١٤٧/٣)، التصريح: (٣٦٧/٢)، الدرر: (١٥٥/١)، الدر المصون: (١/١). (١٩١).

(٣) ينظر الكتاب: (١٨٢/٤)، سر الصناعة: (١٩٢/١)، المحتسب: (٧٥/١)، المنصف: (١٧٨/٢)، أمالي القالي: (٧٩/٢)، ابن يعيش: (٧٤/٩)، (٥٠/١٠)، التبصرة: (٨٦٥/٢)، شرح الأشموني: (٣٤٦/٤)، التصريح: (٣٧١/٢).

(٤) ينظر أمالي القالي: (٢٣٨/٢)، المزهر: (١٤٦/١)، العيني: (٥٨٩/٤)، السمط: (٨٣٤)، الكشف: (٣٦٤/٤)، الدر المصون: (١٩١/١).

وكان الأصمعي يقول: «حَلِيفَة - بكسر اللام»، وعند سيبويه أن هذه الألفاظ واحدة وجمع.

و «المشجرة»: موضع الأشجار، وأرض مشجرة، وهذه الأرض أشجر من هذه أي أكثر شجراً، قاله الجوهري.

فصل في جنس الشجرة المذكورة

اختلف العلماء في هذه الشجرة المنهي عنها، فروي عن بعض العلماء أنه نهى عن جنس من الشجر.

وقال آخرون: إنما نهى عن شَجَرٍ بعينه، واختلفوا في تلك الشجرة.

روى السُّدي عن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبیر، وجَعْدَة بن هُبَيْرَة هي الكَرْمُ، ولذلك حرمت علينا الحُمْر^(١).

وقال ابن عباس أيضاً، وأبو مالك وقتادة، ورواه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ هي السُّنبلة، والحَبَّة منها كشكل البقر، أحلى من العَسَل. وألين من الزَّبد، قاله وهب بن منبه^(٢).

ونقل ابن جريج عن بعض الصحابة أنها التين، وهو مروي أيضاً عن مجاهد وقتادة^(٣)، ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها، ذكره السهيلي.

وروي عن قتادة أيضاً هي شجرة العلم، وفيها من كل شيء.

وقال عَلِيّ: شجرة الكافور.

فصل في الإشعار بأن سكنى آدم لا تدوم

قال بعض أرباب المعاني في قوله: «ولا تقربا» إشعار بالوقوع في الخطيئة، والخروج من الجنة، وأنَّ سُكْنَاهُ فيها لا يدوم، لأن المخلد لا يخطر عليه شيء، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فدلَّ على خروجه منها.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٧/١) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وأخرجه ابن جرير (٥١٩/١) عن ابن مسعود وأخرجه أيضاً (٥١٩/١) عن جعد بن هبيرة وزاد نسبه السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٧/١) لوكيع وابن سعد وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٥١٨/١) عن وهب وابن عباس وأبي مالك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/١) (١٠٧) وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن ابن عباس. ووكيع وعبد بن حميد وأبي الشيخ عن أبي مالك الغفاري.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٧/١).

فصل في المراد بالنهاي عن الأكل من الشجرة

هذا النهي^(١) نهى تحريم، أو تنزيه؟ فيه خلاف.

(١) النهي خلاف الأمر: نهى ينهى نهياً: كفه؛ فانتهى، وتناهى: كفّ، وهو واوِي يائي، يقال في الواوِي: نهوته عن الشيء، وفي اليائي: نهيته، ونفس نهَاء: منتهية عن الشيء، وتناهاوا عن الأمر وعن المنكر: نهى بعضهم بعضاً، وفي التنزيل العزيز: «كانوا لا يتناهون عن منكرِ فَعَلُوهُ». والنهاية والنهاية آخر كل شيء؛ وذلك لأن آخره ينهى عن التماضي فيرتدع، والنهي والنهي: الموضع الذي له حاجز، كأنه ينهى الماء أن يفيض منه. ونُهيّة الوَيْد: الفرضة التي في رأسه، تنهى الحبل أن ينسلخ. والنهي: العقل، يكون واحداً وجمعاً، واحده نُهيّة، سمي بذلك؛ لأنه ينهى عن القبيح. وناهيك بفلان: كافيك به، ويؤخذ من ذلك؛ أن جميع اشتقاقات كلمة «نهي» تفيد المنع والحظر. وتعريف النهي في اصطلاح الفقهاء والأصوليين: يعتبر النهي قسماً من أقسام الكلام؛ حيث إن الكلام ينقسم إلى: أمر، ونهي، وخبر، وإنشاء، ووعد، ووعيد، وغيرها، فالنهي أحد هذه الأقسام. واختلف العلماء بإزاء إثبات كلام النفس إلى طائفتين: طائفة أثبتت كلام النفس، وهم الأشاعرة ومن لفّ لفهم، والطائفة الثانية نفت تحقّق الكلام النفسي، وهم المعتزلة ومن وافقهم. ونحا كل فريق طريقاً خاصاً إلى تحديد النهي بما يلائم وجهة نظره، في إثبات كلام النفس أو نفيه؛ فالأشاعرة المثبتون لكلام النفس عرّفوه تارة باعتبار حقيقته الكلامية، وعرفوه تارة أخرى باللفظ الدالّ على تلك الحقيقة.

مذهب الأشاعرة في تعريف النهي باعتبار حقيقته الكلامية:

الصحيح في تعريفه على ما اختاره ابن الحاجب: أنه «اقتضاء كفّ عن فعل على جهة الاستعلاء». وتعريفه عندهم باعتبار أنه لفظ دالّ على المعنى النفسي، وهو المناسب لغرض الأصوليين؛ لأن بحثهم إنما هو عن الأدلة اللفظية السمعية، من حيث يوصل العلم بأحوالها العارضة لها من عموم، وخصوص، وإطلاق، وتقييد، ونحوه، إلى القدرة على إثبات الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين، وإن كان مرجع الأدلة السمعية إلى الكلام النفسي.

وذهب القاضي أبو بكر، وإمام الحرمين، والإمام الغزالي: بأنه «القول المقتضي طاعة المنهي بترك المنهي عنه» وهذا ما اختاره الجمهور من الشافعية. قال الكمال ما محصله: «وهو المختار» معنى تعريف النهي اللفظي الذي هو غرض الأصولي أنه لطلب الكفّ عن الفعل، صيغة تخصّه، بمعنى: أنها لا تستعمل في غيره على سبيل الحقيقة، وقد وقع في هذا خلاف، والصحيح أنّ له لفظاً يخصّه، وحاصل تعريف النهي اللفظي ذكر ما يميّز صيغته عن غيرها من الصيغ، فسميت هذه المميزات حدّاً. - مذهب المعتزلة في تعريف النهي:

لسبب أن المعتزلة أنكرت الكلام النفسي، لم يعرفوا النهي باعتبار المعنى القائم بالنفس، وأنه اقتضاء الكفّ أو طلب الكف؛ لأن هذا نوع من الكلام النفسي، فعرفوه تارة باعتبار أنّه لفظ، وعرفوه تارة أخرى باعتبار الإرادة المقترنة بالصيغة، ومرة ثالثة عرفوه باعتبار أنه نفْي الإرادة.

وقد عرّفه جمهورهم باعتبار أنه لفظ؛ قالوا: «هو قول القائل لمن دونه: لا تفعل» أي: قول القائل لفظاً موضوعاً لطلب ترك الفعل من الفاعل.

واتفق العلماء على أن صيغة النهي «لا تفعل» ترد لعدّة معان منها:

١ - التحريم؛ كقوله - تعالى -: «ولا تَقْرَبُوا الزَّنا»، «لا تأكلوا الرِّبا أضعافاً مضاعفة»، «ولا تقتلوا أنفسكم التي حرّم الله إلا بالحق».

قال قوم: هذا نهى تنزيه؛ لأن هذ الصيغة وردت في التنزيه والتحريم، والأصل عدم الاشتراك فلا بُد من جعل اللفظ حقيقةً في القَدَر المشترك بين القسمين، وما ذلك إلا أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل، من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل، أو الإطلاق فيه كان ثابتاً بحكم الأصل، فإن الأصل في المنافع الإباحة، فإذا ضممنا مَذْلُولَ اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلاً على التنزيه، قالوا: وهذا هو الأولى بهذا المقام؛ لأن على هذا التقدير يرجع حاصل معصية آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى ترك الأولى، ومعلوم أن كل مذهب أفضى إلى عِصْمَةِ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان أولى.

وقال آخرون: بل هذا نهى تحريم، واحتجوا عليه بأمور:

أحدها: أن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٤] فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول.

- ٢ - كراهة التحريم؛ كقوله - عليه السلام -: «لَا يَبِغْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ».
 - ٣ - كراهة التنزيه؛ كقوله - عليه السلام -: «لَا يَمْسُكُنْ أَحَدُكُمْ ذِكْرَهُ بِيَمِينِهِ وَهُوَ يَبُولُ».
 - ٤ - التحذير؛ كقوله - تعالى -: «وَلَا تَمْدَنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ».
 - ٥ - بيان العاقبة؛ كقوله - تعالى -: «وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».
 - ٦ - الدعاء؛ كقوله - تعالى -: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا».
 - ٧ - التثبيت؛ كقوله - تعالى -: «لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ».
 - ٨ - الإرشاد؛ كقوله - تعالى -: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ».
 - ٩ - التسوية؛ كقوله - تعالى -: «اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا».
 - ١٠ - التهديد؛ كقول السيد لعبده: «لَا تَمَثِّلْ أَمْرِي».
 - ١١ - الالتماس؛ كقول الصديق لصديقه: «لَا تَبْرُخْ مَكَانَكَ».
- واتفقوا أيضاً على أن الصيغة إذا استعملت في غير الحرمة والكراهة من المحامل، لا تكون حقيقة، فهي إذاً مجاز، فيما عدا طلب الترك واقتضاءه.
- البرهان لإمام الحرمين ١/ ٢٨٣، البحر المحيط للزركشي ٢/ ٤٢٦، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢/ ١٧٤، سلاسل الذهب للزركشي ص ٢٠١، التمهيد للإسنوي ص ٢٩٠، نهاية السؤل له ٢/ ٢٩٣، زوائد الأصول له ص ٢٣٨، منهاج العقول للبدخشي ٢/ ٦٧، التحصيل من المحصول للآرموي ١/ ٢٦١، المنحول للغزالي ص ١٢٦، المستصفى له ٢/ ٢٤، حاشية البناني ١/ ٣٩٠، الإبهاج لابن السبكي ٢/ ٦٦، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/ ٤٩٦، المعتمد لأبي الحسين ١/ ١٦٨، إحكام الفصول في أحكام الأصول للبايجي ص ٢٢٨، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٣/ ٢٦٩، تيسير التحرير لأمير بادشاه ١/ ٣٧٤، كشف الأسرار للنسفي ١/ ١٤٠، حاشية التفਤازاني والشريف على مختصر المنتهى ٢/ ٩٥، شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ١/ ١٤٩، حاشية نسيمات الأسحار لابن عابدين ص ٦١، شرح المنار لابن ملك ص ٤٤، الموافقات للشاطبي ٣/ ١٤٤، تقريب الوصول لابن جُزَيّ ص ٩٥، إرشاد الفحول للشوكاني ص ١٠٩، الكوكب المنير للفتوح ص ٣٣٧.

وثانيها: قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن أكلتما منها ظلتما أنفسكما ألا ترى لما أكلّا ﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

وثالثها: لو كان للتنزيه لما استحقَّ آدم بفعله الإخراج من الجنة، ولما وجبت التوبة عليه.

قال ابن الخطيب: الجواب عن الأول: أن النهي وإن كان في الأصل للتنزيه، لكنه قد يحمل على التحريم بدليل منفصل.

وعن الثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فتظلمنا أنفسكما بفعل ما الأولى بكما تركه؛ لأنكما إذا فعلتما ذلك أخرجتما من الجنة التي لا تظمآن فيها، ولا تضحيان ولا تجوعان ولا تقرآن إلى موضع ليس فيه شيء من هذا.

وعن الثالث: أنا لا نسلم أن الإخراج من الجنة كان لهذا السبب.

فصل في فحوى الآية

قال قوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يفيد بفحواه النهي عن الأكل؛ وفيه نظر لأن النهي عن قربان لا يستلزم النهي عن الأكل؛ إذ ربما كان الصلاح في ترك قربها مع أنه لو حمل إليه لجاز له أكله، بل الظاهر [إنما] يتناول النهي عن القرب.

وأما النهي عن الأكل، فإنما عرف بدلائل أخرى وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] ولأنه حدث الكلام بالأكل فقال: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فصار ذلك كالدلالة على أنه تعالى نهاهما عن أكل ثمرة تلك الشجرة، لكن النهي بهذا القول يعم الأكل، وسائر الانتفاعات، ولو كان نص على الأكل ما كان يعم ذلك، ففيه مزيد فائدة.

قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتكونا: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مجزوماً عطفاً على «تقربا»؛ كقوله: [الطويل]

٤٠٠ - فَقُلْتُ لَهُ: صَوِّبْ وَلَا تَجْهَدْنَهُ فَيُذْرِكَ مِنْ أَعْلَى الْقَطَاةِ فَتَزْلُقِي^(١)

والثاني: أنه منصوب على جواب التَّهْنِئَةِ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْفُوا فِيهِ فَيَحِلَّ﴾ [طه: ٨١] والنصب بإضمار «أن» عند البصريين، وبالفاء نفسها عند الجرمي، وبالخلاف عند الكوفيين. وهكذا كل ما يأتي مثل هذا.

و «الظَّالِمِينَ» خبر «كان».

(١) البيت لعمر بن عمار الطائي ينظر شرح أبيات سيويه: ٦٢/٢، والكتاب: ١٠١/٣، ولامرىء القيس ينظر ديوانه: ص ١٧٤، ولسان العرب [ذرا]، والمحتسب: ١٨١/٢، وخزانة الأدب: ٥٢٦/٨، ومجالس ثعلب: ٤٣٦/٢، والمقتضب: ٢٣/٤، الدر المصون: ١٩٢/١.

و «الظلم»: وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قيل للأرض التي لم تستحق الحفر، فتحفر: مظلومة، قال النابغة: [البسيط]

٤٠١ - إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأَيًّا مَا أَبَيْتُهَا وَالنُّؤْيِيَّ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ^(١)

وقيل: سميت مظلومة؛ لأن المطر لم يأتها؛ قال عمرو بن قميئة: [الكامل]

٤٠٢ - ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهَا انْهِلَالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النُّطَافُ بِهَا بُعَيْدَ الْمُقْلَعِ^(٢)

وقالوا: «مَنْ أَشَبَّهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ»؛ قال: [الرجز]

٤٠٣ - بِأَبِيهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ وَمَنْ يُشَابِهَ أَبَهُ فَمَا ظَلَمَ^(٣)

والمراد من الآية هو أنكما إن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما؛ لأن الأكل من الشجرة لا يقتضي ظلم الغير، وقد يكون ظالماً بأن يظلم نفسه، وبأن يظلم غيره، فظلم النفس أعم وأعظم. والظلم على وجوه:

الأول: ظلم الظالم لنفسه بالمعصية كهذه الآية أي: فتكونا من العاصين.

الثاني: الظالمون المشركون، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]

يعني: المشركين.

الثالث: الظلم: الضرر، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[النحل: ١١٨]، أي: ما ضررناهم، ولكن كانوا أنفسهم يضررون.

الرابع: الظلم: الجحود، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:

٥١] ومثله: «فَظَلَمُوا بِهَا» أي: فجحدوا بها.

قوله تعالى: ﴿فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦)

المفعول في قوله: «فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ» واجب التقديم، لأنه ضمير متصل، والفاعل

ظاهر، وكل ما كان كذا فهذا حكمه.

وقرأ «حمزة»^(٤): «فَازَلَهُمَا» والقراءتان يحتمل أن تكونا بمعنى واحد، وذلك أن

(١) ينظر البيت في ديوانه: (٩)، شواهد الكتاب: (٣٢١/٢)، الخزانة: (١٤٥/٢)، العيني: (٤٩٦/٤)،

الدرر: (١٩١/١)، معاني الفراء: (٢٨٨/١)، القرطبي: (٣٠٩/١)، اللسان: ظلم، الدر المصون:

(١٩٢/١).

(٢) ينظر المفضليات: (٤٤)، الطبري: (٢٣٠/٢)، الحيوان: (١٦١/١)، الدر المصون: (١٩٢/١).

(٣) البيت لرؤية. ينظر ملحقات ديوانه: (١٨٢)، أوضح المسالك: (٣٢/١)، الأشموني: (١٧٠/١)،

الدر: (١٢/١)، الدر المصون: (٩٢/١).

(٤) انظر الحجة للقراء السبعة: ١٤/٢، وطيبة النشر: ١٨/٤، والعنوان: ٦٩، وإعراب القراءات السبع =

قراءة الجماعة «أزلهما» يجوز أن تكون من «زَلَّ عَنِ الْمَكَانِ»: إذا تنحى عنه، فتكون من الزوال كقراءة «حمزة»، ويدل عليه قول امرئ القيس: [الطويل]

٤٠٤ - كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ^(١)
وقال أيضاً: [الطويل]

٤٠٥ - يَزِلُّ الْعَلَامُ الْخِفُّ عَنْ صَهَوَاتِهِ وَيُلْوِي بِأَنْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ^(٢)

فرددنا قراءة الجماعة إلى قراءة «حمزة»، أو نرد قراءة «حمزة» إلى قراءة الجماعة بأن نقول: معنى أزالهما أي: صرفهما عن طاعة الله، فأوقعهما في الزلّة؛ لأن إغواءه وإيقاعه لهما في الزلّة سبب للزوال، ويحتمل أن تفيد كل قراءة معنى مستقلاً، فقراءة الجماعة تؤذن بإيقاعهما في الزلّة، فيكون «زَلَّ» بمعنى: استزلّ، وقراءة «حمزة» تؤذن بتنحيتهما عن مكانهما، ولا بُدَّ من المجاز في كلتا القراءتين، لأن الزلّ أصله من زلّة القدم، فاستعمل هنا في زلّة الرأي والتنحية لا يقدر عليها الشيطان، وإنما يقدر على الوسوسة التي هي سبب التنحية.

و «عنها» متعلّق بالفعل قبله، ومعنى «عن» هنا السببية إن أعدنا الضمير على «الشجرة» أي: أوقعهما في الزلّة بسبب الشجرة.

قال «الزمخشري» لفظة «عن» في هذه الآية كما في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

ويجوز أن تكون على بابها من المُجاوزه إن عاد الضمير على «الجنة»، وهو الأظهر، لتقدّم ذكرها، وتجيء عليه قراءة «حمزة» واضحة، ولا تظهر قراءته كلّ الظهور على كون الضمير لـ «الشجرة».

قال «ابن عطية»^(٣) فأما من قرأ «أزالهما» فإنه يعود على «الجنة» فقط.

وقيل: الضمير للطاعة، أو للحالة، أو للسماء، وإن لم يجر لهما ذكر لدلالة السياق عليهما. وهذا بعيد جداً.

فإن قيل: إن الله - تعالى - قد أضاف الإزلال إلى «إبليس» فلم عاتبهما على ذلك الفعل؟

= وعللها: ٨١/١، والسبعة: ١٥٣، وحجة القراءات: ٩٤، وشرح شعله: ٢٦١، وإتحاف: ٣٨٨/١.

وقرأ بها الحسن وأبو رجاء. انظر البحر المحيط: ٣١٣/١، والقرطبي: ٢١٣/١.

(١) تقدم برقم (٢٣٤).

(٢) ينظر الزجاجي: (٢/٤٤٥)، المعلقات للزوزني: (٢٥)، المقرب (٤٨٥)، التبريزي: (١١٦)، الشنقيطي: (٦٦)، الدر المصون: (١/١٩٣).

(٣) ينظر المحرر الوجيز: ١/١٢٩.

والجواب: أن قوله: «فأزلهما» أنهما عند وَسْوَستِهِ أتيا بذلك الفعل، وأضيف ذلك إلى «إبليس» كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] قال تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، هذا قول المعتزلة، والتحقيق في هذه الإضافة ما ذكرناه، وهو أن القادر على الفعل والترك مع التساوي يستحيل أن يكون موجداً لأحد هذين الأمرين إلا عند انضمام الداعي إليه، والداعي في حق العبد عبارة عن علم أو ظن، أو اعتقاد بكون الفعل مشتملاً على مصلحة، فإذا حصل ذلك العلم أو الظن بسبب منبه نبه عليه كان الفعل مضافاً إلى ذلك المنبه؛ لأنه هو الفاعل لما لأجله صار الفاعل بالقوة فاعلاً بالفعل، فهكذا المعنى انضاف - ها هنا - إلى الوسوسة.

فإن قيل: كيف كانت الوسوسة؟

فالجواب: هي التي حكى الله عنها في قوله: ﴿مَا نَهَكَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلم يقبلا ذلك منه، فلما أيس عدل إلى اليمين على ما قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فلم يصدقاها. والظاهر أنه بعد ذلك عدل إلى شيء آخر، وهو أنه شغلها باستيفاء اللذات المباحة حتى صارا مستغرقين فيها، فَحَصَلَ بسبب استغراقهما فيها نسيان النهي، فعند ذلك حصل ما حصل، والله أعلم.

فصل في بيان كيف وسوس إبليس لآدم

اختلفوا في أنه كيف تمكن إبليس من وسوسة آدم عليه الصلاة والسلام، مع أن إبليس كان خارج الجنة، وآدم عليه الصلاة والسلام داخل الجنة؟ وذكروا فيه وجوهاً: أحدها: ما روي عن وهب بن منبه والسدي عن ابن عباس وغيره: أن إبليس أراد دخول الجنة، فمنعته الخزنة، فأتى الحية بعد ما عرض نفسه على سائر الحيوانات فما قبله واحد من الحيوانات، فابتلعت الحية وأدخلته الجنة خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فيها واشتغل بالوسوسة، فلا جرم لعنت الحية، وسقطت قوائمها، وصارت تمشي على بطنها، وجعل رزقها في التراب، وصارت عدواً لبني آدم، وأمرنا بقتلها في الحِلِّ والحَرَمِ^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): وهذا وأمثاله يجب ألا يلتفت إليه؛ لأن إبليس لو قدر على

(١) أخرجه الطبري (١/٥٢٥ - ٥٢٦) عن وهب بن منبه وأخرجه أيضاً (١/٥٢٧) عن ابن عباس وابن مسعود.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/١٨٠) وزاد نسبه لابن أبي حاتم عن ابن مسعود وعبد الرزاق عن ابن عباس وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عباس أيضاً.

(٢) ينظر الرازي: ١٥/٣.

الدخول في قَمِ الحَيَّة فلم لم يقدر على أن يجعل نفسه حَيَّة ثم يدخل الجَنَّة؟ ولأن الحية لو فعلت ذلك، فلم عوقبت مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة؟ وأيضاً فلما خرج من بطنها صارت في الجنة كانت الملائكة والخزنة يرونه.

وثانيها: أن «إبليس» دخل الجَنَّة في صورة دابة، وهذا القول أقلّ فساداً من الأول.
وثالثها: قال بعض أهل الأصول: لعلّ آدم وحواء - عليهما السلام - كانا يخرجان إلى باب الجنة، وإبليس كان بقرب الماء يُوسِّسُ لهما.

ورابعها: قال الحسن: كان إبليس في الأرض، وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة.
قال بعضهم: هذا بعيد؛ لأن الوسوسة كلام خفي، والكلام الخفي لا يمكن إيصاله من الأرض إلى السماء.

واختلفوا في أن «إبليس» باشر خطابهما، أو أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعه.

حجّة الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُ﴾ [الأعراف: ٢١] وذلك يقتضي المُشافهة، وكذا قوله: ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وحجّة الثاني: أن آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - كان يعرفانه، ويعرفان ما عنده من العداوة والحسد، فيستحيل في العادة أن يقبلا قوله، فلا بد وأن يكون المباشر للوسوسة بعض أتباع إبليس.

وقد يُجَاب عن هذا بأن إبليس لما خالف أمر ربه ولعن لعله انتقل من تلك الصورة التي يُعرَف بها إلى صورة أخرى، ولعلّ إبليس تشكّل لهما في صورة لا يعرفانها، فإن له قدرة التشكل، والله أعلم.

فصل في بيان أن آدم عصي ربه ناسياً

اختلفوا في صدور ذلك الفعل عن آدم - عليه الصلاة والسلام - بعد النبوة، هل فعله ناسياً أو ذاكرًا؟

قال طائفة من المتكلمين: فعله ناسياً، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] ومثله بالصَّائم إذا أكل ناسياً، وهذا باطل من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُ﴾ يدلّ على أنه ما نسي النهي حال الإقدام.

الثاني: أنه لو كان ناسياً لما عوتب على ذلك الفعل.

أما من حيث العقل فلأن الناسي غير قادر على الفعل فلا يكون مكلفاً به لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالشَّيْءَانُ». وقد يجاب عن الأول بأننا لا نسلّم أن آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - قَبِلَا من إبليس ذلك الكلام وَصَدَقَاهُ؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في ذلك التصديق أعظم من أكل الشجرة؛ لأن إبليس لما قال لهما: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ الآية فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله - تعالى - ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره، والرضا بحكمه، وأن يعتقدوا فيه كون إبليس ناصحاً لهما، وأن الرب - تعالى - قد غشهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة، فوجب أن تكون المُعَاتَبَةُ في ذلك أشد، وأيضاً آدم - عليه الصلاة والسلام - كان عالماً بتمرد «إبليس»، وكونه مبغضاً له وحاسداً له، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوّه مع هذه القرائن، وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام.

وأما الجواب الثاني: فهو أن العتاب إنما حصل على قلة التحفّظ من أسباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خَطَرِهِمْ ومثْلُوهُ بقوله: ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النَّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ثم قال: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»^(١)، ولقد كان على النبي ﷺ من التّشديدات في التّكليف ما لم يكن على غيره.

وذكر بعض المفسرين أن حواء سقته الخمر، فسكر وفي أثناء السكر فعل ذلك قالوا وهذا ليس ببعيد؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان مأذوناً له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة، فكان مأذوناً له في تناول الخمر، ولقائل أن يقول: إن خمر الجنة لا يسكر لقوله تعالى في صفة خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصفافات: ٤٧].

القول الثاني: أن آدم - عليه الصلاة والسلام - فعله عامداً؛ فهاهنا قولان:

أحدهما: أن ذلك النهي نهى تنزيهه، لا نهى تحريمه، وقد تقدم.

الثاني: أنه تعمّد وأقدم على الأكل بسبب اجتهداء أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة، وهذا اختيار أكثر المعتزلة.

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ١٣٣٤/٢ كتاب الفتن (٣٦) باب الصبر على البلاء (٢٣) حديث رقم ٤٠٢٣ - والحاكم في المستدرک ٤٤٣/٣.

والبخاري في التاريخ الكبير ١١٥/٨.

وذكره الزبيدي في الإتحاف ١١٦/٥، ١٢١/٨، ٥٦٠، ٥٢٣/٩.

والهندي في كنز العمال حديث رقم ٦٧٨٠، ٦٧٨١، ٦٨٣٠.

وبيان خطأ الاجتهاد أنه لما قيل له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فلفظ «هذه» يشار به إلى الشخص، وقد يشار به إلى النوع، كما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هَذَانِ حَلَالٌ لِإِنَاثِ أُمْتِي حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِهَا» وأراد به نوعهما، وتوضأ مرة وقال: «هَذَا وَضُوءٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ» وأراد نوعه، فلما سمع آدم - عليه الصلاة والسلام - قوله: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» ظن أن التهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، فكان مخطئاً في ذلك الاجتهاد؛ لأن مراد الله - تعالى - التهي عن النوع لا عن الشخص.

والاجتهاد في الفروع إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا.

فإن قيل: الكلام على هذا القول من وجوه:

أحدها: أن كلمة «هذا» في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر، وهو لا يكون إلا شيئاً معيناً، فإن أشير بها إلى النوع، فذاك على خلاف الأصل، وأيضاً فلائنه - تعالى - لا تجوز الإشارة عليه، فوجب أن يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص، فكان ما عداه خارجاً عن النهي لا محالة، وإذا ثبت هذا فالمجتهد مكلف بحمل اللفظ على حقيقته، فأدم - عليه الصلاة والسلام - لما حمل لفظ «هذه» على المُعَيَّن كان قد فعل الواجب، ولا يجوز له حمله على النوع، وهذا متأيد بأمرين:

أحدهما: أن قوله: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل.

والثاني: أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع المنافع إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل على ذلك المعين، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب تناول غيره وإن كان من ذلك النوع المنهي عنه عتاباً، فوجب على هذا أن يكون مصيباً لا مخطئاً.

الاعتراض الثاني: هب أن لفظة «هذه» مترددة بين الشخص والنوع، ولكن هل قرن الله بهذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو لا؟

فإن قرن به، فلما أن يقال: إن آدم - عليه الصلاة والسلام - قصر في معرفة ذلك البيان، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب، وإن لم يقصر بل عرفه، فحينئذ يكون إقدامه على تناول من شجرة من ذلك النوع إقداماً على الذنب قصداً.

الاعتراض الثالث: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين، فوجب ألا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلاً وشرعاً، وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإقدام على الاجتهاد معصية.

الاعتراض الرابع: هذه المسألة إما أن تكون من المَسَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ أو الظنِّية، فإن كانت من القطعيات كان الخطأ فيها كبيراً، وحينئذ يعود الإشكال، وإن كانت من الظنِّيات فإن قلنا: إن كل مجتهد مصيب فلا يتحقّق الخطأ فيها أصلاً.

وإن قلنا: المصيب فيها واحد، والمخطيء فيها معذور بالاتفاق، فكيف صار هذا القدر من الخطأ سبباً لإخراج آدم - عليه الصلاة والسلام - من الجنة؟

والجواب عن الأول: أن لفظة «هذا» وإن كان في الأصل إشارة إلى الشَّخص، لكنه قد يستعمل في الإشارة إلى النوع كما تقدم بيانه.

والجواب عن الثاني: أن الله - سبحانه وتعالى - كان قد قرن به ما دلّ على أن المراد هو النوع، لكن لعلّ آدم - عليه الصلاة والسلام - قصر في معرفة ذلك الدليل؛ لأنه ظنّ أنه لا يلزمه ذلك في الحال.

أو يقال: إنه عرف ذلك الدليل في وقت ما نهاه الله - تعالى - عن عين الشَّجرة، فلما طالت المدة غفل عنه؛ لأن في الخبر أن آدم - عليه الصلاة والسلام - بقي في الجَنَّة الدهر الطويل، ثم أخرج.

والجواب عن الثالث: أنه لا حاجة هاهنا إلى إثبات أن الأنبياء تمسَّكوا بالاجتهاد، فإنّا بيّنا أنّ آدم - عليه الصَّلاة والسَّلام - قصّر في معرفة تلك الدَّلالة، وإن كان قد عرفها، لكنه قد نسيها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

والجواب عن الرابع: يمكن أن يقال [كانت]^(١) الدلالة قطعية [إلا أنه]^(٢) - عليه الصَّلاة والسَّلام - لما نسيها صار التَّشْيَان عذراً في ألا يصير الذنب كبيراً، أو يقال: كانت ظنيةً إلا أنه ترتّب عليه من التَّشديدات ما لم يترتّب على خطأ سائر المجتهدين؛ لأن ذلك يجوز أن يختلف باختلاف الأشخاص، وكما أن الرسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - مخصوص بأمور كثيرة في باب التَّشديدات بما لا يثبت في حق الأمة فكذا هاهنا.

واعلم أنه يمكن أن يقال في المسألة وجه آخر، وهو أنه - تعالى - لما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فهم آدم - عليه الصَّلاة والسَّلام - من هذا النهي أنهما إنما نُهيّا حال اجتماعهما؛ لأن قوله: «وَلَا تَقْرَبَا» نهى لهما عن الجمع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد، فلعل الخطأ في الاجتهاد إنما وقع من هذا الوجه.

قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

(٢) في أ: لأنه.

(١) سقط في أ.

«الفاء» - هنا^(١) - فاء السببية.

وقال المَهْدَوِيُّ: إذا جعل «فَأَزَلَّهُمَا» بمعنى زَلَّ عن المَكَان كان قوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ تأكيداً، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر، وهذا الذي قاله المَهْدَوِيُّ أشبه شيء بالتأسيس لا التأكيد، لإفادته معنى جديداً.

قال «ابن عطية»: وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره: فأكلا من الشجرة، يعني بذلك أن المحذوف [يقدر]^(٢) قبل قوله: «فَأَزَلَّهُمَا».

و «مِمَّا كَانَا» متعلق بـ «أخرج»، و «ما» يجوز أن تكون موصولة اسمية، وأن تكون نكرة موصوفة، أي: من المكان أو النعيم الذي كانا فيه، أو من مكان، أو نعيم كانا فيه، فالجملة من «كان» واسمها وخبرها لا محل لها على الأول ومحلها الجرّ على الثاني، و «من» لا ابتداء الغاية.

فصل في قصة الإغواء

روي عن ابن عَبَّاس، وقتادة قال الله تعالى لآدم: أَلَمْ يَكْ فِيمَا أَبْحَثْتَ الْجَنَّةَ مَذْذُوحَةً عن الشَّجَرَةِ، قال: بلى يا رَبَّ وعزَّتْكَ، ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تَنَالُ العِيشَ إلا كَدًّا، فأهبطا من الجنة، فكانا يأكلان فيها رغداً فعلم [صنعة]^(٣) الحديد، وأمر بالحَرْثِ فحرث وزرع وسقى، حتى إذا بلغ حصداً، ثم دَاسَهُ، ثم دَرَاه، ثم طحنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله تعالى^(٤). ويروى أن «إبليس» أخذ من الشجرة التي نهى آدم - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - عنها فجاء بها إلى حَوَاء فقال: انظري إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها، فلم يزل يغويها حتى أخذتها فأكلتها وقالت لآدم: كُلْ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُ فَلَمْ تَضُرَّنِي، فأكل منها فبدت لهما سَوَانُهُمَا، [وبقيا] عرايا، فطلبا ما يستتران به، فتباعدا عن الأشجار عنهما، وبكّوه بالمعصية، فرحمته^(٥) شجرة التين، فأخذ من ورقها، فاستترّوا به قَبْلِي بِالْعُرْيِ دُونَ الشَّجَرِ^(٦).

(١) زاد في أ: هنا واضحة.

(٢) في أ: تقدير.

(٣) سقط في ب.

(٤) ذكر هذا الأثر السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٨/١) وعزاه لسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر وابن عساكر في «تاريخه» عن ابن عباس.

(٥) في ب: وحمته.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٦/١) وفي «التاريخ» (٥٤/١) وذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/١٤٣).

وقيل لحواء: كما أدميت الشجرة، فذلك يصيبك الدّم كلّ شهر، وتَحْمِلين وتَضَعين كرهاً، وتُشْرِفين [به] ^(١) على المَوْت، وزاد ^(٢) الطبري والنقاش ^(٣)، وتكونين سفيهة وقد كنت حليلة [ولعنت] ^(٤) الحية وردّت قوائمها في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم، ولذلك أمرنا بِقَتْلِهَا ^(٥).

قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ جملة أمرية في محلّ نصب بالقول قبلها، وحذفت الألف من «اهْبِطُوا» في اللفظ؛ لأنها ألف وصل، وحذفت الألف من «قلنا» في اللفظ؛ لسكونها وسكون الهاء بعدها.

وقرىء ^(٦): «اهْبُطُوا» بضم الباء، وهو كثير في غير المتعدّي.

وأما الماضي فـ «هَبَطَ» بالفتح فقط، وجاء في مضارعه اللَّغَتَانِ، والمصدر «الهبوط» بالضم، وهو النزول.

وقيل: الانتقال مطلقاً.

وقال المفضل ^(٧): الهبوط: الخروج من البلد، وهو - أيضاً - الدخول.

وفيه نظر: لأن «إبليس» حين أبى عن السُّجود أخرج من الجنة لقوله تعالى: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيئاً﴾ [الحجر: ٣٤] وزلة آدم وحواء إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة، فكيف يكون متناولاً له فيها وهو من الأضداد؟

والضمير في «اهبطوا» الظاهر أنه لجماعة، فقيل: لآدم وحواء والحية وإبليس ^(٨).

(١) سقط في ب.

(٢) أخرجه أحمد بن منيع وابن أبي الدنيا في كتاب «البكاء» وابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠٩/١).

(٣) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون، أبو بكر النقاش عالم القرآن وتفسيره صاحب شفاء الصدور توفي سنة ٣٥١ هـ ينظر وفيات الأعيان: (٤٨٩/١)، إرشاد الأريب: (٤٩٦/٦)، غاية النهاية: (١١٩/٢)، الأعلام: (٨١/٦).

(٤) سقط في ب.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٩/١) وفي تاريخه (٥٥/١).

(٦) قرأ بها أبو حيوة فيما رواه عنه محمد بن مصفى.

انظر المحرر الوجيز: ١/١٢٩، والبحر المحيط: ١/٣١٤، والدر المصون: ١/١٩٣، والقرطبي: ١/٢١٨.

(٧) المفضل بن محمد الضبي النحوي المقرئ الأديب توفي سنة ١٦٨، ينظر غاية النهاية: (٣١٧/٢).

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٥/١) عن أبي صالح.

وأخرجه أيضاً عن ابن عباس (٥٣٦/١) وكذا في «تاريخه» (٥٦/١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١١٠/١) وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقيل: لهما وللحية. وفيه بعد؛ لأن المكلفين بالإجماع هم الملائكة والجن والإنس.

وقيل: لهما وللوسوسة. وفيه بعد.

وقيل: لبني آدم وبني إبليس^(١)، وهذا وإن كان نقل عن «مجاهد والحسن» لا ينبغي أن يقال؛ لأنهما لم يولد لهما في الجنة بالاتفاق. وقال الرَّمْخُسَرِيُّ: إنه يعود لآدم وحواء، والمراد هما وذريتهما؛ لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلاً كأنهما الإنس كلهم، ويدلّ عليه: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣]. وهذا ضعيف؛ لأن الدّرية ما كانوا موجودين في ذلك الوقت، فكيف يتناولهم الخطاب؟ أما من زعم أن أقل الجمع اثنان، فلا يرد عليه شيء من هذا.

قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هذه جملة من مبتدأ وخبر، وفيها قولان:

أصحهما: أنها في محل نصب على الحال، أي: اهبطوا متعادين.

والثاني: أنها لا محل لها؛ لأنها استئناف إخبار بالعداوة.

وأفرد لفظ «عدو» وإن كان المراد به جمعاً لأحد وجهين:

إما اعتباراً بلفظة «بعض» فإنه مفرد، وإما لأن «عدواً» أشبه بالمصادر في الوزن كـ «القبول» ونحوه.

وقد صرح «أبو البقاء»^(٢) بأن بعضهم جعل «عدواً» مصدرأ، قال: وقيل: «عدو» مصدر كـ «القبول والولوع»، فلذلك لم يجمع.

وعبارة «مكي»^(٣) قريبة من هذا. فإنه قال: وإنما وحد وقبله جمع؛ لأنه بمعنى المصدر، تقديره: «ذوي عداوة» ونحوه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشعراء: ٧٧] و﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

واشتقاق العدو من «عدا» - «يعدو»: إذا ظلم.

وقيل: من «عَدَا» - «يَعْدُو»: إذا جاوز الحق، وهما متقاربان.

وقيل: من عَدَوْتِي الجبل، وهما طَرَفَاهُ، فاعتبروا بعد ما بينهما.

ويقال: عدوة، وقد يجمع على «أعداء».

فأما حصول العداوة بين آدم وإبليس فلقوله تعالى: ﴿يَقَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٥٣٥) وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (١/١١٠) عن مجاهد.

(٢) ينظر الإملاء: ١/١٩٣.

(٣) ينظر المشكل: ١/٢٠٤.

وأما عداوة الحَيَّة فلما نقله أهل التفسير من إدخاله إبليس في فيها، وقوله ﷺ: «اقتلوا الحَيَّات صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا وَأَبْيَضَهَا وَأَسْوَدَهَا، فَإِنْ مِنْ قَتَلَهَا كَانَتْ لَهُ فِدَاءٌ مِنَ النَّارِ وَمَنْ قَتَلَتْهُ كَانَ شَهِيداً»^(١).

وما كان من الحيات في البيوت فلا يُقتل حتى يؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله ﷺ: «إِنْ بِالْمَدِينَةِ جُنَّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئاً فَأَذْنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَأَ لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»^(٢).

وفي رواية: «إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْهَا فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثاً، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَأَقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ»^(٣).

وصفة الإنذار أن يقول: أنذرتكم بالعهد الذي أخذه عليكم نُوحٌ - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - وأنشدكم بالعهد الذي أخذه عليكم سليمان - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - أن تخرجوا.

وأما كون الجن حيات فلقوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «الْجَنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَافٍ فُلْتُ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَثُلُثُ حَيَّاتٍ وَكِلَابٍ، وَثُلُثُ يَحْلُونَ وَيَضَعُونَ»^(٤).

واللَّامُ في «لِبَعْضٍ» متعلقة بـ «عدو»، فلما قدم عليه انتصب حالاً، فتتعلق اللام حينئذ بمحذوف، وهذه الجملة الحالية لا حاجة إلى ادعاء حذف «واو» الحال منها؛ لأن الرَبْطَ حصل بالضمير، وإن كان الأكثر في الجمل الاسمية الواقعة حالاً أن تقترب بالواو.

و «البعض» في الأصل مصدر بَعْضَ الشَّيْءِ يَبْعُضُهُ، إِذَا قَطَعَهُ فَأَطْلَقَ عَلَى الْقِطْعَةِ مِنَ النَّاسِ؛ لَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْهُ، وَهُوَ مُقَابِلُ «كُلٍّ»، وَحُكْمُهُ حُكْمُهُ فِي لُزُومِ الْإِضَافَةِ مَعْنَى، وَأَنَّهُ

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «الكبير» (٢٠/٥، ٨١) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤٩/٤) عن سراء بنت نبهان الغنوية.

وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفيه أحمد بن الحارث الغساني وهو متروك. والحديث ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٤/١٥) رقم (٤٠٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم «كتاب السلام» باب قتل الحيات وغيرها رقم (١٣٩) ومالك في «الموطأ» (٩٧٧) والبخاري في «شرح السنة» (١٩٤/١٢) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٩٤/٤).

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (٣١٧/٢) رقم (٢٤٦٦) عن أبي سعيد وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥١/٤) عن سهل بن سعد بلفظ: هذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فتعدوا منه فإن عاد فاقتلوه.

وعزه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه الحاكم: (٤٥٦/٢) وابن حبان (٢٠٠٧) والطبراني في «الكبير» (٢١٤/٢٢) وفي «مسند الشاميين» رقم (١٩٥٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (٣٨٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٧/٥) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٩٥/٤) عن أبي ثعلبة الخشني.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله وثقوا.

معرفة بنية الإضافة فلا تدخل عليه «أل» وينتصب عنه الحال؛ تقول: «مررت ببعض جالساً» وله لفظ ومعنى، وقد تقدم تقرير ذلك.

تنبيه

من قال: إن جنة آدم كانت في السماء فسّر الهبوط بالنزول من العلو إلى أسفل، ومن قال: إنها كانت في الأرض فسرّه بالتحول من مكان إلى آخر كقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

هذه الجملة يجوز فيها الوجهان المتقدمان في الجملة قبلها من الحالية، والاستئناف كأنه قيل: اهبطوا مُتَعَادِينَ، ومستحقين الاستقرار.

و «لكم» خبر مقدم. و «في الأرض» متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار.

وتعلقه به على وجهين:

أحدهما: أنه حال.

والثاني: أنه غير حال، بل كسائر الظروف، ويجوز أن يكون «في الأرض» هو الخبر، و «لكم» متعلق بما يتعلق به هو من الاستقرار، لكن على أنه غير حال؛ لثلا يلزم تقديم الحال على عاملها المعنوي، على أن بعض النحويين أجاز ذلك إذا كانت الحال نفسها ظرفاً، أو حرف جر كهذه الآية، فيكون في «لكم» أيضاً الوجهان، قال بعضهم: ولا يجوز أن يكون «في الأرض» متعلقاً بـ «مستقر»، سواء جعل مكاناً أو مصدراً؛ أما كونه مكاناً فلأن أسماء الأمكنة لا تعمل، وأما كونه مصدراً فلأن المَصْدَرَ الموصول لا يجوز تقديم معموله عليه.

ولقائل أن يقول: هو متعلق به على أنه مصدر، لكنه غير مؤول بحرف مَصْدَرِيٍّ، بل بمنزلة المصدر في قولهم: «لَهُ ذِكَاؤٌ ذَكَاؤُ الْحُكَمَاءِ» وقد اعتذر صاحب هذا القول بهذا العذر نفسه في موضع آخر مثل هذا. و «إِلَىٰ حِينٍ» الظاهر أنه متعلق بـ «متاع»، وأن المسألة من باب الإعمال؛ لأن كل واحد من قوله: «مستقر ومتاع» يطلب قوله: «إِلَىٰ حِينٍ» من جهة المعنى. وجاء الإعمال هنا على مختار البصريين، وهو إعمال الثاني وإهمال الأول، فلذلك حذف منه، والتقدير: ولكم في الأرض مستقر إليه، ومتاع إلى حين، ولو جاء على إعمال الأول لأضمر في الثاني.

فإن قيل: من شرط الإعمال أن يصح تسلط كل من العاملين على المعمول، و «مستقر» لا يصح تسلطه عليه لثلا يلزم الفصل بين المَصْدَر ومعموله، والمصدر بتقدير الموصول.

فالجواب: أن المحذور في المصدر الذي يُرَاد به الحدث، وهذا لم يرد به حَدَثٌ،

فلا يؤول بموصول، وأيضاً فإنَّ الظرف وشبهه فيه رَوَّاحِ الفعل حتى الأعلام؛ كقوله:
[الرجز]

٤٠٦ - أَنَا ابْنُ مَرْوَةَ إِذْ جَدَّ النَّفَرُ^(١)

و «مستقر» يجوز أن يكون اسم مكان، وأن يكون اسم مصدر، «مستفعل» من
الْقَرَار، وهو اللَّبُّث؛ ولذلك سميت الأرض قراراً؛ قال: [الكامل]

٤٠٧ - فَتَرَكْنِ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالَّذِهِمْ^(٢)

ويقال: استقر وَقَرَّ بمعنى واحد.

قال قوم: «المُسْتَقَرَّ»: حالتا الحياة والموت، وروى السدي عن ابن عباس أن
المُسْتَقَرَّ هو القبر، والأول أولى؛ لأنه - تعالى - قرن به المَتَاع من الأكل والشرب وغيره،
وذلك لا يليق إلا بِحَالِ الْحَيَاةِ؛ ولأنه خاطبهم بذلك عند الإهباط، وذلك يقتضي حال
الحياة والمَتَاع.

واختار أبو البقاء^(٣) أن يكون «إلى حِينٍ» في مَحَلِّ رفع صفة لـ «متاع».

و «المتاع»: البُلْغَةُ مأخوذة من متع النهار، أي: ارتفع.

وقال أبو العباس المقرئ: و «المتاع» على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى «العيش» كهذه الآية.

الثاني: بمعنى «المنفعة» قال تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ

[المائدة: ٩٦] أي: منفعة لكم ولأنعامكم.

الثالث: بمعنى «قليل» قال تعالى: ﴿وَمَا لِحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]

أي: قليل.

و «الحين»: القطعة من الزمان طويلة كانت أو قصيرة، وهذا هو المشهور.

وقيل: الوقت البعيد، ويقال: عاملته مُحَايَنَةً، من الحِين، وَأُخِينْتُ بِالْمَكَانِ: إذا

أقمت به حِيناً. وحان حين كذا، أي: قرب؛ قالت بُيُوتَةُ: [الطويل]

٤٠٨ - وَإِنْ سُلُوِي عَنْ جَمِيلٍ لِّسَاعَةٍ مِّنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينُهَا^(٤)

وقال بعضهم: تَرَاد علىه التَّاء فيقال: «تَحِينُ قُمْتُ»، وسيأتي تحقيقه إن شاء الله

(١) البيت لعبد الله بن مارية. ينظر المسالك: (٣/٣٨٩)، الإنصاف: (٤٣٢)، الدرر: (٢/١٤١)، (٢٣٤)،

مغني اللبيب: (٢/٢٣٤)، شواهد المغني: (٢/٨٤٤)، الهمع: (٢/١٠٧)، (١٠٨)، التصريح: (٢/

٢٤١)، اللسان «نقد»، الدر المصون: (١/١٩٥).

(٢) تقدم برقم (٢٦٤).

(٣) ينظر الاملاء: ٣١/١.

(٤) ينظر البيت في القرطبي: (١/٣٢٢)، الأضداد: (٢٤٤)، اللسان: «حين»، الدر المصون: (١/١٩٥).

تعالى، وأنشد على زيادة التاء قوله: [الكامل]

٤٠٩ - أَلْعَاطِفُونَ تَحِينُ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أَيْنَ الْمُطْعِمِ^(١)

فصل في المراد بالحين

واختلفوا في «الحين» على أقوال فقالت فرقة: إلى الموت.

وقيل: إلى قيام الساعة، فالأول قول من يقول: المستقر هو البقاء في الدنيا.

والثاني قول من يقول: المستقر هو في القبور.

وقيل: الحين: الأجل، والحين: المدة، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ﴾ [الإنسان: ١].

والحين: الساعة، قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ [الزمر: ٥٨] والحين ستة أشهر، قال تعالى: ﴿تَوَفَّيْ أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وقيل كل سنة، والحين: الغدوة والعشية، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

وقيل: الحين: اسم كالوقت يصح لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت.

فصل في هبوط آدم ومن معه

يروى أن آدم أهبط بـ «سرنديب في الهند» بجبل يقال له «نود»، ومعه ريح الجنة فعلق بشجرها، وأوديتها، فامتلاً ما هنالك طيباً، فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه الصلاة والسلام.

وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع، فأورث ولده الصلح^(٢).

روى البخاري عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وطوله ستون ذراعاً»^(٣).

وأهبطت حواء بـ «جدة» وإبليس بـ «الأبلّة» و «الأبلّة» موضع من «البصرة» على أميال، والحية بـ «بيسان».

(١) البيت لأبي وجزة السعدي ينظر في لسان العرب (ليت)، (عطف)، (أين)، (حين)، (ما)، وخزانة الأدب: ٤/١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٠، والدرر: ٢/١١٥، ١١٦، والإنصاف: ١/١٠٨، الأزهية: ص ٢٦٤، الجنى الداني: ص ٤٨٧، والدرر: ٢/١٢٢، ووصف المباني: ص ١٦٣، ١٧٣، وسر صناعة الإعراب: ١/١٦٣، وشرح الأشموني: ٣/٨٨٢، ومجالس ثعلب: ١/٢٧٠١، والممتع في التصريف: ١/٢٧٣، وجمع الهوامع: ١/١٢٦، الدر المصون: ١/٩٥.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/١١٤) وعزاه لابن سعد عن ابن عباس.

(٣) أخرجه البخاري (٤/٦٠) ومسلم كتاب صفة الجنة باب ١١ رقم ٢٨ وأحمد (٢/٣١٥) وعبد الرزاق (١٩٤٣٥) وأبو عوانة (١/١٨٨).

وقيل: بـ «سجستان»، وقيل: بـ «أصفهان»^(١)، ولولا أن العزب يأكُلها ويغنى كثيراً منها لخلت^(٢) «سجستان» من أجل الحيات. [ذكره أبو الحسن المسعودي]^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلْتَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

الفاء في قوله: «فَلْتَقَىٰ» عاطفة لهذه الجملة على ما قبلها، و «تلقى» «تفعل» من اللِّقَاء بمعنى المجرّد.

وله معانٍ آخر: مطاوعة «فعل» نحو: «كسرتَه فتكسر».

والتجنب نحو: «تجنب» أي: جانب الجَنَب.

والتكلف نحو: تحلّم.

والصيرورة نحو: تألّم.

والاتخاذ: نحو: تَبَيَّنْتُ الصبي، أي: اتخذته ابناً.

ومُواصلة العمل في مُهَلَّةٍ نحو: تجرّع وتفهم.

ومُوافقة استفعل نحو: تكبر.

والتوقُّع نحو: تخوِّف.

والطَّلَب نحو: تنجّز حاجته.

والتكثير نحو: تغطّيت بالثياب.

والتلبّس بالمُسَمَّى المُشْتَقّ منه نحو: تقمّص، أو العمل فيه نحو: تسخر.

والختل: نحو: تغفلته.

وزعم بعضهم أن أصل «تَلَقَّى»: «تَلَقَّنَ» بالنون فأبدلت النون ألفاً، وهذا غلط؛ لأن ذلك إنما ورد في المضغف نحو «قَصَبْتُ أَظْافِرِي» و «تَطَنَّنْتُ» و «أَمَلَيْتُ الْكِتَابَ» في «قَصَبْتُ»، و «تَطَنَّنْتُ»، و «أَمَلَلْتُ» فأحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا.

قال القفال: أصل التلقّي هو التعرّض للقاء، ثم وضع في موضع الاستقبال للمتلقّي، ثم يوضع موضع القبول والأخذ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْآفِرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] ويقال: خرجنا نتلقى [الحاج]^(٤)، أي: نستقبلهم، وكان - عليه الصّلاة والسّلام - يتلقّى الوحي، أي: يستقبله ويأخذه.

وإذا كان هذا أصل الكلمة، وكان من تلقى رجلاً فتلاقيا لقي كل واحد صاحبه، فأضيف الاجتماع إليهما معاً صلح أن يشتركا في الوصف بذلك، فجاز أن يقال: تلقّى آدم

(١) ذكر هذا الأثر السيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/١) وعزاه للدليمي في مسند الفردوس عن علي بسند واه.

(٢) في ب: لأخلت.

(٤) في ب: الحاج.

(٣) سقط في ب.

بالنَّصَب على معنى جاءته عن الله - تعالى - كلمات، و «من ربه» متعلّق بـ «تلقى»، و «من» لابتداء الغاية مجازاً.

وأجاز أبو البقاء أن يكون في الأصل صفة لـ «كلمات» فلما قدم انتصب حالاً، فيتعلّق بمحذوف، و «كلمات» مفعول به.

وقرأ^(١) «ابن كثير» بنصب «آدم»، ورفع «كلمات»، وذلك أن مَنْ تَلَقَّاكَ فقد تلقّيته، فتصبح نسبة الفعل إلى كلّ واحد.

وقيل: لما كانت الكلمات سبباً في توبته جعلت فاعلة، ولم يؤنث الفعل على هذه القراءة وإن كان الفاعل مؤنثاً؛ لأنه غير حقيقي، وللفضل أيضاً، وهذا سبيل كل فعل فصل بينه وبين فاعله المؤنث بشيء، أو كان الفاعل مؤنثاً مجازياً.

فصل في الكلمات التي دعا بها آدم ربه

اختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟

فروى «سعيد بن جبير» رضي الله عنه: أن آدم - عليه الصلاة والسلام - قال: يا ربّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ بِلَا وِاسِطَةٍ؟ قال: بلى قال: يا ربّ أَلَمْ تَنْفَخْ فِيّ مِنْ رُوحِكَ؟ قال: بلى. قال: أَلَمْ تُسَكِّنِي جَنَّتِكَ؟ قال: بلى. قال: يا ربّ أَلَمْ تُسَبِّحْ رَحِمَتَكَ غَضَبِكَ؟ قال: بلى. قال يا ربّ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ تَرُدَّنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قال: بلى. فهو قوله: ﴿فَلَقَّآءَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ قَاتَبٌ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وزاد السدي فيه: يا ربّ هل كنت كتبت علي ذنباً؟ قال: نعم^(٣).

وقال الثّخعي: أتيت ابن عباس فقلت: ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علّم الله آدم وحواء أمر الحجّ فحججا، وهي الكلمات التي تقال في الحجّ، فلما فرغا من الحجّ أوحى الله - تعالى - إليهما أني^(٤) قبلت توبتكما.

وروي عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومجاهد، وقتادة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥) [الأعراف:

(١) انظر حجة القراءات: ٩٤، والحجة للقراء السبعة: ٢٣/٢، وإعراب القراءات: ٨٢/١، والعنوان: ٦٩، وشرح الطيبة: ١٩/٤، وشرح شعلة: ٢٦١، وإتحاف: ٣٨٨/١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٣/١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١١٦/١) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «التوبة» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٤/١).

(٤) في ب: بأني.

(٥) أخرجه الطبري (٥٤٣/١) في تفسيره عن أبي العالية.

[٢٣]، وعن مجاهد أيضاً: «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

وقالت طائفة: رأي مكتوباً على ساق العرش: محمد رسول الله، فتشقق بذلك^(٢).

وعن ابن عباس، ووهب بن منبه أن الكلمات سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت عملت سوءاً، وظلمت نفسي [فاغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً، وظلمت نفسي]^(٣) فقب عليّ إنك أنت التّوّاب الرحيم^(٤).

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أراد الله أن يثوب على آدم، وطاف بالبيت سبعاً - والبيت حينئذ ربوة حمراء - فلما صلى ركعتين استقبل البيت، وقال: «اللهم إنك تعلم سرّي وعلايتي، فاقبل مغذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك إيماناً يثابّر قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي ورضني بما قسمت لي» فأوحى الله - تعالى - إلى آدم يا آدم يا آدم قد غفرت لك ذنوبك، ولن يأتي أحد من ذريتك، فيدعوني بمثل الذي دعوتني إلا غفرت ذنبه، وكشفت همومه وغمومه، ونزعت الفقر من عينه، وجاءته الدنيا وهو لا يريد^(٥).

قوله: ﴿قَابَ عَلَيْهِ﴾ عطف على ما قبله، ولا بُدَّ من تقدير جملة قبلها أي: فقالها. و «الكلمات» جمع «كلمة» وهي: اللفظ الدالّ على معنى مفرد، وتطلق على الجمل

= وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في «الشعب» عن قتادة كما في «الدر المنثور» (١١٧/١).

وأخرجه الثعلبي من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وأخرجه ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (١١٧/١).

وأخرجه الطبري (٥٤٥/١) عن مجاهد وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (١١٨/١) لو كيع

وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وأخرجه هناد في الزهد عن سعيد بن جبير كما في «الدر المنثور» (١١٨/١).

وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن والضحاك كما في «الدر» (١١٨/١).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٥/١) وذكره ابن كثير في تفسيره (١٤٧/١).

(٢) روي هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٦١٥/٢) وقال: صحيح الإسناد.

ورده الذهبي بقوله: بل موضوع.

وأورده ابن كثير في تاريخه (٣٢٣/٢) وأقر كلام الذهبي.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٠٧).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٥٣/٨): رواه الطبراني في «الأوسط والصغير» وفيه من لم أعرفهم.

(٣) سقط في ب.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١١٨/١) وعزاه لعبد بن حميد عن عبد الله بن زيد والبيهقي في

«الشعب» وابن عساكر عن أنس.

(٥) أخرجه الجندي وابن عساكر في «فضائل مكة» والطبراني عن عائشة كما ذكره السيوطي في «الدر

المنثور» (١١٧/١).

المفيدة مجازاً تسمية لكل باسم الجزء كقوله تعالى: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّيَةٍ﴾ ثم فسرهما بقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُ﴾ [آل عمران: ٦٤] إلى آخر الآية، وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يريد قوله: ﴿رَبِّ آتِجُونِي﴾ إلى آخره، وقال رسول الله ﷺ: «أُضِدُّ كَلِمَةً قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةً لَبِيدٌ»^(١) وهو قوله: [الطويل]

٤١٠ - أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَامَحَالَةٍ زَائِلٌ^(٢)
فسمى هذا البيت كلمة، والتوبة: الرجوع، ومعنى وصف الله - تعالى - بذلك أنه عبارة عن العطف على عباده، وإنقاذهم من العذاب.
وقيل: قبول توبته.

وقيل: خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسمى، وآخر الطاعات على جوارحه، ووصف العبد بها ظاهر؛ لأنه يرجع عن المعصية إلى الطاعة.
و «التواب الرحيم» صفتا مبالغة، ولا يختصان بالباري تعالى.

قال تعالى: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولا يطلق عليه «تائب»، وإن صرح بفعله مسند إليه تعالى. وقدم «التواب» على «الرحيم» لمناسبة «فتاب عليه»، ولأنه مناسب لخمتم الفواصل بالرحيم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وأدغم أبو عمرو هاء «إنه» في هاء «هو»، واعترض على هذا بأن بين المثليين ما يمنع من الإدغام وهو «الواو»؛ وأجيب: بأن «الواو» وضلة زائدة لا يعتد بها؛ بدليل سقوطها في قوله: [الوافر]

٤١١ - لَهُ رَجُلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرٌ^(٣)

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١٢٨/٥) كتاب المناقب باب أيام الجاهلية حديث رقم (٣٨٤١) عن أبي هريرة.

وابن ماجه في السنن (٢٣٦/٢) كتاب الأدب باب الشعر حديث رقم (٣٧٥٧) - وأحمد في المسند (٢/٣٣٩)، (٢٤٨/٣)، (٣٩٣، ٤٥٨) - والبخاري في التاريخ الكبير (٢٤٩/٧) وذكره التبريزي في مشكاة المصابيح حديث رقم ٤٧٨٦.

(٢) ينظر في ديوانه: ٢٥٦، جواهر الأدب: ٣٨٢، خزائن الأدب: ٢/٢٥٥ و ٢٥٧، الدرر: ٧١/١، ديوان المعاني: ١١٨/١، وسمط اللآلي: ٢٥٣، شرح الأشموني: ١١/١، شرح التصريح: ٢٩/١، شرح شذور الذهب: ٣٣٩، شرح شواهد المغني: ١٥٠/١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ٣٩٢، شرح المفصل: ٧٨/٢، العقد الفريد: ٢٧٣/٥، لسان العرب (رجز)، المقاصد النحوية: ٥/١ و ٧ و ٢٩١، أوضح المسالك: ٢٨٩/٢، رصف المباني: ٢٦٩، شرح قطر الندى: ٢٤٨، والدر المصون: ١٩٦/١.

(٣) البيت للشماخ في ديوانه: ص ١٥٥ وينظر شرح أبيات سيبويه: ٤٣٧/١، والكتاب: ٣٠/١، لسان العرب (ها)، والدر: ١٨١/١، الخصائص: ٣٧١/١، الإنصاف: ٥١٦/٢، الأشباه والنظائر: ٢/٢ =

وقوله: [البسيط]

٤١٢ - أَوْ مُغْبِرُ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيِّتِهِ مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اغْتَمَرَ^(١)
والمشهور قراءة «إنه» بكسر «إن»، وقرئ^(٢) بفتحها على تقدير لام العلة، وقرأ^(٣)
الأعمش: «آدم من ربه» مدغماً.

فصل في نظم الآية

قوله: «فتاب عليه» أي: قبل توبته، أو وفقه للتوبة، وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم الجمعة.

فإن قيل: لم قال «عليه» ولم يقل: «عليهما»، وحواء مُشاركة له في الذنب.

فالجواب: أنها كانت تبعاً له كما طوى حكم النساء في القرآن والسنة.

وقيل: لأنه خصّه بالذكر في أول القصّة بقوله: ﴿أَسْكَنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، فكَذلك خصّه بالذكر في التلقي.

وقيل: لأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله السّتر بها، ولذلك لم يذكرها في القصّة في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)

كرر قوله: «قلنا: اهبطوا»؛ لأن الهبوطين مختلفان باعتبار تعلّقهما، فالهبوط الأول علّق به العداوة^(٤)، والثاني علّق به إتيان الهدى.

وقيل: لأن الهبوط الأول من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض. واستبعده بعضهم لوجهين:

الأول: لقوله: ﴿وَلَكُرِّي فِي الْأَرْضِ مُسْفَرٌ﴾ [البقرة: ٣٦] وذكر هذا في الهبوط الثاني

= ٣٧٩، خزنة الأدب: ٣٨٨/٢، ٢٧٠/٥، ٢٧١، والمقتضب: ٢٦٧/١، همع الهوامع: ٥٩/١، الدر المصون: ١٩٦/١.

(١) البيت لرجل من باهلة ينظر شرح أبيات سيويه: ٤٢٢/١، الكتاب: ٣٠/١، الإنصاف: ٥١٦/٢، خزنة الأدب: ٢٦٩/٥، لسان العرب (عبر)، والمقتضب: ٣٨/١، المقرب: ٢٠٤/٢، الدر المصون: ١٩٦/١.

(٢) قرأ بها أبو نوفل بن أبي عقرب. انظر البحر المحيط: ٣١٩/١، والدر المصون: ١٩٦/١، والقرطبي: ٢٢٣/١.

(٣) ونسبت إلى أبي عمرو، ويعقوب.

انظر إتحاف فضلاء البشر: ٣٨٩/١.

(٤) في أ: العذاب.

أولى . وهذا ضعيف؛ لأنه يجوز أن يراد: ولكم في الأرض مستقر بعد ذلك .
 وثانيهما: أنه قال في الهبوط الثاني: «اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً»، والضمير في «منها» عائد إلى «الجنة»، وذلك يقتضي كون الهبوط الثاني من الجنة .
 قال «ابن عطية»^(١): وحكى «النقاش» أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والأولى في ترتيب الآية إنما هو إلى الأرض، وهو الآخر^(٢) في الوقوع .
 وقيل: كرّر على سبيل التأكيد نحو قولك: «قم قم» .
 والضمير في «منها» يعود على الجنة، أو السماء .

قال «ابن الخطيب»^(٣): وعندي فيه وجه ثالث، وهو أن آدم وحواء لما أتيا بالزلة أمرا بالهبوط، فتابا بعد الأمر بالهبوط، فأعاد الله الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلما أن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها، بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة؛ لأن الأمر به كان تحقيقاً للوعد المتقدم في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) [البقرة: ٣٠] .

قوله: «جَمِيعاً» حال من فاعل «اهبطوا» أي: مجتمعين: إما في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة؛ لأن المراد الاشتراك في أصل الفعل، وهذا هو الفرق بين «جاءوا جميعاً»، و «جاءوا معاً»، فإن قولك: «معاً» يستلزم مجيئهم جميعاً في زمن واحد، لما دلّت عليه «مع» من الاضطحاح بخلاف «جميعاً» فإنها لا تفيد إلا أنه لم يتخلف أحد منهم عن المجيء من غير تعرض لاتحاد الزمان .

و «جميع» في الأصل من ألفاظ التوكيد، نحو: «كل»، وبعضهم عدها معها .

وقال «ابن عطية»: و «جميعاً» حال من الضمير في «اهبطوا»، وليس بمصدر ولا اسم فاعل، ولكنه عوض منهما دالّ عليهما، كأنه قال: هبوطاً جميعاً أو هابطين جميعاً، كأنه يعني أن الحال في الحقيقة محذوف، وأن «جميعاً» تأكيد له، إلا أن تقديره بالمصدر ينفي جعله حالاً إلا بتأويل لا حاجة إليه .

(١) ينظر المحرر الوجيز: ١٣١/١ .

(٢) في ب: الأخير .

(٣) ينظر الفخر الرازي: ٢٥/٣ .

(٤) في أ: قال الحكيم الترمذي: إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض، جاء «إبليس» إلى السَّبَّاح، فأشلاههم على آدم ليؤذوه، وكان أشدهم عليه الكَلْبُ، فأُمِيتَ فؤاده، فروي أن جبريل - عليه السلام - أمره أن يضع يده على رأسه، فوضعها، فاطمان إليه وألفه، فصار ممن يكرمه، ويحرس ولده، ويموت فؤاده، فيفزع من الآدميين، فلو رمي بَمَدْرٍ، ولَّى هارباً ثم يعود ألفاً له، ففيه شعبة من «إبليس»، وفيه شعبة من مِسْحَةِ آدم - عليه السلام -، فهو بشعبة إبليس ينبج، ويهر، ويعدو على الآدمي، وبمِسْحَةِ آدم مات فؤاده، حتى ذلَّ، وانقاد، وألف به وبولده، يحرسهم، ولهشه على كل أحواله من موت فؤاده . قلت: ولا أظن هذا ثابتاً .

وقال بعضهم: التَّقْدِير: قلنا: اهبطوا مجتمعين، فهبطوا جميعاً، فحذف الحال من الأول لدلالة الثاني عليه، وحذف العامل من الثاني لدلالة الأول عليه، وهذا تكلف لم تدع إليه الضرورة.

قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ﴾ الفاء مرتبة معقبة. و «إمّا» أصلها: إن الشرطية زيدت عليها «ما» تأكيداً، و «يأتينكم» في محلّ جزم بالشرط؛ لأنه بني لاتصاله بنون التوكيد.

وقيل: بل هو معرب مطلقاً.

وقيل: مبني مطلقاً.

والصحيح: التفصيل: إن باشرته كهذه الآية بني، وإلا أعرب، نحو: هل يَقُومَانِ؟ وبني على الفتح طلباً للخفة، وقيل: بل بني على السكون، وحرك بالفتح لالتقاء الساكنين.

وذهب الزجاج والمبرد إلى أن الفعل الواقع بعد «إن» الشرطية المؤكدة بـ «ما» يجب تأكيده بالنون، قالوا: ولذلك لم يأت التّنزيل إلاّ عليه، وذهب سيبويه إلى أنّه جائز لا واجب؛ لكثرة ما جاء به منه في الشعر غير مؤكّد، فكثرة مجيئه غير مؤكّد يدلّ على عدم الوجوب؛ فمن ذلك قوله: [الطويل]

٤١٣ - فَإِمَّا تَرِينِي كَابِنَةَ الرَّمْلِ ضَاحِيَا
عَلَى رِقَّةٍ أَخْفَى وَلَا أَتَعْلُ^(١)
وقول الآخر: [البسيط]

٤١٤ - يَا صَاحِ إِمَّا تَجِدْنِي غَيْرَ دِي جِدَّةٍ
فَمَا التَّحْلِي عَنِ الْخُلَانِ مِنْ شَيْمِي^(٢)
وقول الآخر: [المتقارب]

٤١٥ - فَإِمَّا تَرِينِي وَلِي لِمَّةٍ
فَلِإِن الْحَوَادِثَ أَوْدَى بِهَا^(٣)
وقول الآخر: [الكامل]

٤١٦ - زَعَمْتَ تَمَاضِرُ أَتْنِي إِمَّا أُمْتُ
يَسْدُذُ أُبَيْتُوهَا الْأَصَاغِرُ خَلَّتِي^(٤)

(١) البيت للشنفرى. ينظر البحر المحيط: ٣٢١/١، شرح الأشموني: ٤٩٧/٢، والدر المصون: ١٩٧/١.
(٢) ينظر أوضح المسالك: ٩٧/٤، وخزانة الأدب: ٤٣١/١١، وشرح الأشموني: ٤٩٧/٢، وشرح التصريح: ٢٠٤/٢، والمقاصد النحوية: ٣٣٩/٤، الدر المصون: ١٩٧/١.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه (٢٢١) وهو في الكتاب (٤٦/٢)، وابن يعيش (٩٥/٥)، (٤١/٦/٩)، الأمالي الشجرية (٣٤٥/٢)، الإنصاف (٤٦٤/٢)، التصريح (٢٧٨/١)، الأشموني (٥٤/٢)، (٣/٢١٦)، الدر المصون ١٩٨/١.

(٤) البيت لسلمى بن ربيعة ينظر الأصمعيّات: (١٦١)، الحماسة: (٢٨٦/١)، النوادر: (١٢١)، ابن الشجري: (٦٩/٢)، الهمع: (٦٣/٢)، المفصل: (٥١٩)، الدرر: (٧٩/٢)، الدر المصون: (١/١٩٧)، والبحر المحيط: (٣٢١/١).

وقال المهدوي: «إما» هي «إن» التي للشرط زيدت عليها «ما» ليصح دخول «التون» للتوكيد في الفعل، ولو سقطت «ما» لم تدخل التون، و «ما» تؤكد أول الكلام، والتون تؤكد آخره، وتبعه ابن عطية.

وقال بعضهم: هذا الذي ذهب إليه من أن التون لازمة لفعل الشرط إذا وصلت «إن» بـ «ما» هو مذهب المبرد والرجاج، وليس في كلامهما ما يدل على لزوم «التون» كما ترى، غاية ما فيه أنهما اشترطا في صحة تأكيده بالنون زيادة «ما» على «إن»، أما كون التوكيد لازماً، وغير لازم، فلم يتعرضا له، وقد جاء تأكيد الشرط بغير «إن»؛ كقوله: [الكامل]

٤١٧ - مَنْ يُثَقِّفَنَّ مِنْهُمْ فَلَائِسَ بِأَيْبٍ أَبْدَأُ وَقَتْلُ بَنِي قُتَيْبَةَ شَافِي^(١)

و «مني» متعلق بـ «يأتين» وهي لابتداء الغاية مجازاً، ويجوز أن تكون في محل حال من «هدى» لأنه في الأصل صفة نكرة قدم عليها، وهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٣٧]. و «هدى» فاعل، والفاء مع ما بعدها من قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ﴾ جواب الشرط الأول، والفاء في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب الثاني. وقد وقع الشرط الثاني وجوابه جواب الأول، ونقل عن «الكسائي» أن قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواب الشرطين معاً. قال «ابن عطية» بعد نقله عن «الكسائي» ذلك: هكذا حكى، وفيه نظر، ولا يتوجه أن يخالف سيبويه هنا، وإنما الخلاف في نحو قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فيقول سيبويه: جواب أحد الشرطين محذوف، لدلالة قوله: «فروح» عليه.

ويقول الكوفيون: «فروح» جواب الشرطين، وأما في هذه الآية، فالمعنى يمنع أن يكون «فلا خوف» جواباً للشرطين.

وقيل: جواب الشرط الأول محذوف تقديره: «فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى فَاتَّبِعُوهُ»، وقوله: «فمن تبع» جملة مستقلة [وهو بعيد أيضاً]^(٢).

فصل في المراد بالهدى

اختلف في «الهُدَى» فقال «السدي»: كتاب الله، وقال قوم: الهدى الرسل، وهذا

(١) البيت لبنت مرة بن عاهان ينظر خزانة الأدب: ٣٨٧/١١، ٣٩٩، والدرر: ١٦٣/٥، ولبنت أبي الحصين ينظر شرح أبيات سيبويه: ٢٦٢/٢، وأوضح المسالك: ١٠٧/٤، وشرح الأشموني: ٢/٥٠٠، وشرح التصريح: ٢٠٥/٢، وشرح ابن عقيل: ص ٥٤٧، والكتاب: ٥١٦/٣، والمقتضب: ١٤/٣، والمقاصد النحوية: ٣٣٠/٤، والمقرب: ٧٤/٢، وجمع الهوامع: ٧٩/٢، الدر المصون: ١٩٨/١.

(٢) سقط في ب.

إنما يتم لو كان المُخَاطَب بهذا الكلام آدم وبنيه، فالرُّسُل إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر.

وقيل: المراد من الهدى كل دلالة وبيان.

وقيل: التوفيق للهداية. وفي قوله: «مني هدى» إشارة إلى أن أفعال العباد خلق لله تعالى.

و «من» يجوز أن تكون شرطية، وهو الظاهر، ويجوز أن تكون موصولة، ودخلت الفاء في خبرها تشبيهاً لها بالشرط، ولا حاجة إلى هذا، فإن كانت شرطية كان «تبع» في محل جزم، وكذا «فلا خوف» لكونهما شرطاً وجزاء، وإن كانت موصولةً فلا محلّ لـ «تبع»، وإذا قيل بأنها شرطية فهي مبتدأ أيضاً، وفي خبرها خلاف مشهور.

والأصح أنه فعل الشرط، بدليل أنه يلزم عود ضمير من فعل الشرط اسم الشرط، ولا يلزم ذلك في الجواب، تقول: «من يقيم أكرم زيداً»، فليس في «أكرم زيداً» ضمير يعود على «من» ولو كان خبراً للزم فيه ضمير.

ولو قلت: «من يقيم زيداً أكرمه» وأنت تعيد الهاء على «من» لم يجز، لخلو فعل الشرط من الضمير.

وقيل: الخبر الجواب، ويلزم هؤلاء أن يأتوا فيه بعائد على اسم الشرط، فلا يجوز عندهم: «من يقيم أكرم زيداً» ولكنه جائز، هذا ما أورده أبو البقاء.

وسأتي تحقيق القول في لزوم عود الضمير من الجواب إلى اسم الشرط عند قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقيل: مجموع الشرط والجزاء هو الخبر، لأن الفائدة إنما تحصل بهما.

وقيل: ما كان فيه ضمير عائد على المبتدأ، فهو الخبر والمشهور «هَدَايَ»، وقرئ: «هَدْيٍ» بقلب الألف ياء، وإدغامها في ياء المتكلم، وهي لغة «هَدَيْلَ»، يقولون في عَصَاي: عَصْيٍ، وقال شاعرهم: [الكامل]

٤١٨ - سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمْ فَخُزُّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ^(١)

كأنهم لما لم يصلوا إلى ما تستحقه ياء المتكلم من كسر ما قبلها لكونه ألفاً أتوا بما يجانس الكسرة، فقلبو الألف ياء.

(١) البيت لأبي ذؤيب في إنباه الرواة ٥٢/١، والدرر ٥١/٥، وسر صناعة الإعراب ٧٠٠/٢، وشرح أشعار الهذليين ٧/١، وشرح شواهد المغني ٢٦٢/١، وشرح قطر الندى ص ١٩١، وشرح المفصل ٣٣/٣، وكتاب اللامات ص ٩٨، ولسان العرب (هوا)؛ والمحتسب ٧٦/١، والمقاصد النحوية ٣/٤٩٣، وجمع الهوامع ٥٣/٢، وأوضح المسالك ١٩٩/٣، وجواهر الأدب ص ١٧٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٢، وشرح الأشموني ٣٣١/٢، والمقرب ٢١٧/١، الدر المصون ١٩٩/١.

نقل «النحاس» هذه العلة عن الخليل وسيبويه وهذه لغة مطردة عندهم إلا أن تكون الألف للثنائية، فإنهم يشتونها نحو: «جاء مسلماي، وغلاماي».

قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ قد تقدّم أنه يجوز أن يكون جواباً للشرط، فيكون في محلّ جزم، وأن يكون خبراً لـ «من» إذا قيل بأنها موصولة، وهو أولى لمقابلته بالْمَوْضُول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٣٩]، فيكون في محل رفع، و «لا» يجوز أن تكون عاملة عمل «ليس» فيكون «خوف» اسمها، و «عليهم» في محل نصب خبرها، ويجوز أن تكون غير عاملة، فيكون «خوف» مبتدأ، و «عليهم» في محل رفع خبره، وهذا أولى مما قبله لوجهين:

أحدهما: أن عملها عمل «ليس» قليل، ولم يثبت إلا شيء محتمل، وهو قوله: [الطويل]

٤١٩ - تَعَزَّ فَلَاشَيْءٌ عَلَى الْأَرْضِ بَاقِيَا وَلَا وَرَزٌ مِمَّا قَضَى اللَّهُ وَاقِيَا^(١)

والثاني: أن الجملة التي بعدها وهي «وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ» تعين أن تكون «لا» فيها غير عاملة؛ لأنها لا تعمل في المعارف، فجعلها غير عاملة فيه مُشَاكَلَةٌ لما بعدها، وقد وَهَمَ بعضهم، فجعلها عاملة في المعرفة؛ مستدلاً بقوله: [الطويل]

٤٢٠ - وَحَلَّتْ سَوَادَ الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيَا سِوَاهَا وَلَا فِي حُبِّهَا مُتَرَاخِيَا^(٢)

ف «أنا» اسمها و «بَاغِيَا» خبرها.

قيل: ولا حجة فيه؛ لأن «بَاغِيَا» حال عاملها محذوف هو الخبر في الحقيقة تقديره: وَلَا أَنَا أَرَى بَاغِيَا، أو يكون التقدير: وَلَا أَرَى بَاغِيَا، فلما حذف الفعل انفصل الضمير.

وقرى^(٣): «فَلَا خَوْفٌ» بالرفع من غير تنوين، والأحسن فيه أن تكون الإضافة مقدرة، أي: خوف شيء.

(١) ينظر أوضح المسالك: ٢٨٩/١، وتخليص الشواهد: ص ٢٩٤، والجنى الداني: ص ٢٩٢، وجواهر الأدب: ص ٢٣٨، والدرر: ١١١/٢، وشرح الأشموني: ٢٤٧/١، وشرح التصريح: ١٩٩/١، وشرح شذور الذهب: ص ٥٦، وشرح شواهد المغني: ٦١٢/٢، وشرح ابن عقيل: ص ١٥٨، وشرح عمدة الحافظ: ص ٢١٦، وشرح قطر الندى: ص ١١٤، ومغني اللبيب: ٢٣٩/١، والمقاصد النحوية: ١٠٢/٢، وجمع الهوامع: ١٢٥/١، الدر المصون: ١٩٩/١.

(٢) البيت للناطقة الجعدي. ينظر ديوانه: ص ١٧١، الأشباه والنظائر: ١١٠/٨، تخليص الشواهد: ص ٢٩٤، الجنى الداني: ص ٢٩٣، شرح التصريح: ١٩٩/١، شرح شواهد المغني: ٦١٣/٢، مغني اللبيب: ٢٤٠/١، المقاصد النحوية: ١٤١/٢، جواهر الأدب: ص ٢٤٧، شرح ابن عقيل: ص ١٥٩، جمع الهوامع: ١٢٥/١، الدر المصون: ٢٠٠/١.

(٣) قرأ بها ابن محيصن.

انظر المحرر الوجيز: ١٣٢/١، والبحر المحيط: ٣٢٢/١، والدر المصون: ٢٠٠/١، وإتحاف فضلاء البشر: ٣٨٩/١.

وقيل: لأنه على نيّة الألف واللام.

وقيل: حذف التنوين تخفيفاً، وقرأ الزهري، والحسن، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق، ويعقوب: «فَلَا خَوْفٌ» مبنياً على الفتح؛ لأنها «لا» التبرئة، وهي أبلغ في النفي، ولكن الناس رجّحوا قراءة الرفع.

قال «أبو البقاء»: لوجهين:

أحدهما: أنه عطف عليه ما لا يجوز فيه إلا الرفع. وهو قوله: «ولا هم» لأنه معرفة، و «لا» لا تعمل في المعارف، فالأولى أن يجعل المعطوف عليه كذلك لِتَشَاكُلَ الجملتان، ثم نظره بقولهم: «قام زيد وعمراً كلمته» يعني في تزجيج التّضب في جملة الاشتغال للتشاكل.

ثم قال: والوجه الثاني: من جهة المعنى، وذلك أن البناء يدلّ على نفي الخوف عنهم بالكلية، وليس المراد ذلك، بل المراد نفيه عنهم في الآخرة.

فإن قيل: لم لا يكون وجه الرفع أن هذا الكلام مذكور في جزاء من اتبع الهدى، ولا يليق أن ينفي عنهم الخوف اليسير، ويتوهم بثبوت الخوف الكثير.

قيل: الرفع يجوز أن يضمّر معه نفي الكثير، تقديره: ولا خوف كثير عليهم، فيتوهم ثبوت القليل، وهو عكس ما قدر في السؤال، فبان أن الوجه في الرفع ما ذكرنا.

قوله: «ولا هم يحزنون» تقدّم أنه جملة منفية، وأن الصّحيح أنها غير عاملة. و «يحزنون» في محلّ رفع خبر للمبتدأ، وعلى ذلك القول الضّعيف يكون في محلّ نصب و «الخوف»: الدّعر والفزع، يقال: خاف يَخَاف خوفاً، فهو خائف، والأصل: خوف بوزن «علم» ويتعدّى بالهمزة والتضعيف، قال تعالى: ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٠] ولا يكون إلا في الأمر المستقبل.

والْحُزْنُ: ضد السرور، وهو مأخوذ من «الحزن»، وهو ما غلظ من الأرض، فكأنه ما غلظ من الهَمِّ، ولا يكون إلا في الأمر الماضي، يقال: حَزَنَ يَحْزَنُ حُزْناً وَحَزْناً، ويتعدّى بالهمزة نحو: أَحْزَنْتُهُ، وَحَزَنْتَهُ بمعناه، فيكون «فعل» و «أفعل» بمعنى. وقيل: أَحْزَنْتُهُ حَصَلَ لَهُ حُزْناً.

وقيل: الفتحة مُعَدِّيَّة للفعل نحو: شَتَرْتُ عَيْنَهُ وَشَتَرَهَا اللهُ، وهذا على قول من يرى أن الحركة تعدي الفعل، وقد قرئ باللغتين^(١): «حَزَنْتُهُ وَأَحْزَنْتُهُ»، وسيأتي تحقيقهما إن شاء الله تعالى.

فَصْلٌ فِي لُغَاتِ «حَزَنٍ»

قال ابن الخطيب: قال اليزيدي: حَزَنَهُ لغة «قريش»، وأَحْزَنَهُ لغة «تميم»، وحَزَنَ الرجل - بالكسر - فهو حَزَنٌ وحَزِينٌ، وأَحْزَنَ فهو مَحْزُونٌ، واختَزَنَ وتَحَزَّنَ بمعنى. وهذه الجملة مع اختصارها تجمع شيئاً كثيراً من المعاني؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ دخل فيه الإنعام بجميع الأدلة العقلية، والشرعية الواردة للبيان، وجميع ما لا يتم ذلك إلا به من العقل، ووجوه التمكن، وجميع قوله: ﴿فَمَن يَبْعِ هُدَاى﴾ تأمل الأدلة بنصها والنظر فيها، واستنتاج المعارف منها، والعمل بها وجميع قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جميع ما أعد الله - تعالى - لأوليائه؛ لأن زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات، وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كل اللذات والمرادات، وقدم عدم الخوف على عدم الحزن؛ لأن زوال ما لا ينبغي مقدّم على طلب ما ينبغي وهذا يدل على أن المكلف الذي أطاع الله - تعالى - لا يلحقه خوف في القبر، ولا عند البعث، ولا عند حضور الموفق، ولا عند تطاير الكتب، ولا عند نصب الموازين، ولا عند الصراط كما قال: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال قوم من المتكلمين: إن أهوال القيامة كما تصل إلى الكفار والفساق تصل إلى المؤمنين لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] فإذا انكشفت تلك الأهوال، وصاروا إلى الجنة والرضوان صار ما تقدّم كأن لم يكن، بل ربما كان زائداً في الالتذاذ بما يجده من النعيم، وهذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ أخص من قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، والخاص مقدّم على العام.

فإن قيل: هذا يقتضي نفْي الخوف والحزن مطلقاً في الدنيا والآخرة، وليس الأمر كذلك؛ لأنهما حصلا في الدنيا للمؤمنين أكثر من حصولهما لغير المؤمنين قال عليه الصلاة والسلام: «خُصَّ الْبَلَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ».

وأيضاً فالمؤمن لا يمكنه القطع بأنه أتى بالعبادات كما ينبغي، فخوف التقصير حاصل وأيضاً فخوف سوء العاقبة حاصل.

قلنا: قرائن الكلام تدلّ على أن المراد نفيهما في الآخرة لا في الدنيا، ولذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا حين دخلوا الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩)

لما وعد الله من اتبع الهدى بالأمن من العذاب والحزن عقبه بذكر من أعد له العذاب مثال الذين كفروا. و «الذين» مبتدأ وما بعدها صلة وعائد، و «بآياتنا» متعلق

بـ «كذبوا»، ويجوز أن تكون الآية من باب الإعمال؛ لأن «كفروا» يطلبها، ويكون من إعمال الثاني للحذف من الأول، والتقدير: والذين كفروا بنا وكذبوا بآياتنا.

و «أولئك» مبتدأ ثان، و «أصحاب» خبره، والجملة خبر الأول، ويجوز أن يكون «أولئك» بدلاً من الموصول، أو عطف بيان له، و «أصحاب» خبر المبتدأ الموصول. وقوله: «هم فيها خالدون» جملة اسمية في محل نصب على الحال للتصريح بذلك في مواضع قال تعالى: «أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ».

وأجاز «أبو البقاء»: أن تكون حالاً من «النار» قال: لأن فيها ضميراً يعود عليها، ويكون العامل فيها معنى الإضافة، أو اللام المقدرة.

وقد عرف ما في ذلك، ويجوز أن تكون في محل رفع خبر لـ «أولئك» أيضاً، فيكون قد أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: مفرد وهو «أصحاب».

والثاني: جملة، وقد عرف ما فيه من الخلاف.

و «فيها» متعلق بـ «خالدون» قالوا: وقد حذف من الكلام الأول ما أثبت في الثاني، ومن الثاني ما أثبت في الأول، والتقدير: فمن تبع هُداي فلا خوف ولا حزن يلحقه، وهو صاحب الحجة، ومن كفر وكذب لحقه الخوف والحزن، وهو صاحب النار؛ لأن التقسيم يقتضي ذلك، ونظروه بقول الشاعر: [الطويل]

٤٢١ - وَإِنِّي لَتَغْرُونِي لِذِكْرِكَ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعُضْفُورُ بَلَلُهُ الْقَطَرُ^(١)

«والآية» لغة: العلامة؛ قال النابغة: [الطويل]

٤٢٢ - تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِيَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ^(٢)

وسميت آية القرآن [آية]^(٣)؛ لأنه علامة لانفصال ما قبلها عما بعدها، وقيل:

(١) البيت لأبي صخر الهذلي ينظر في الأغاني: ٦٩/٥، ١٧٠، خزنة الأدب: ٢٥٤/٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، الإنصاف: ٣٣٦/١، الدرر: ٧٩/٣، شرح أشعار الهذليين: ٩٥٧/٢، شرح التصريح: ١/ ٣٣٦، لسان العرب (رمث)، والمقاصد النحوية: ٦٤٦/٢، ٦٤٨، أوضح المسالك: ٢٢٧/٢، شرح الأشموني: ٢١٦/١، شرح شذور الذهب: ص ٢٩٨، شرح ابن عقيل: ص ٣٦١، شرح قطر الندى: ص ٢٢٨، شرح المفصل: ٦٧/٢، المقرب: ٦٢/١، همع الهوامع: ١٩٤/١، الدر المصون: ١/ ٢٠١.

(٢) ينظر ديوانه: ص ٣١، وخزنة الأدب: ٤٥٣/٢، وشرح أبيات سيبويه: ٤٤٧/١، والصاحبي في فقه اللغة: ص ١١٣، والكتاب: ٨٦/٢، ولسان العرب (عشر)، والمقاصد النحوية: ٤٠٦/٣، ٤٨٢/٤، أوضح المسالك: ٢٦١/٤، وشرح التصريح: ٢٧٦/٢، وشرح شواهد الشافية: ص ١٠٨، والمقتضب: ٣٢٢/٤، والمقرب: ١٤٧/١، الدر المصون: ٢٠١/١.

(٣) سقط في أ.

سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنها تجمع حروفاً من القرآن، فيكون من قولهم: «خَرَجَ بَنُو فُلَانٍ بِأَيْتِهِمْ»، أي: بجماعتهم؛ قال: [الطويل]

٤٢٣ - خَرَجْنَا مِنَ النَّقَبَيْنِ لَا حَيٍّ مِثْلُنَا بِأَيَاتِنَا نُزْجِي اللَّقَاحَ الْمَطَافِلَا^(١)

واختلف النحويون في وزنها: فمذهب «سيبويه والخليل» أنها «فَعْلَةٌ» والأصل: «أَيَّة» - بفتح العين - تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وهذا شاذ؛ لأنه إذا اجتمع حرفاً علةً أعلَّ الأخير؛ لأنه محلّ التغيير نحو: هوى وحوى، ومثلها في الشذوذ: «غَايَةٌ، وَطَايَةٌ، وَرَايَةٌ».

ومذهب «الكسائي» أن أصلها: «أَيَّة» على وزن «فَاعِلَةٌ»، فكان القياس أن يدغم فيقال: آية كـ «دَابَّة»، إلا أنه ترك ذلك تخفيفاً، فحذفوا عينها، كما حذفوا «كَيْتُونَةٌ» والأصل: «كَيْتُونَةٌ» بتشديد الياء، وضعفوا هذا بأن «كَيْتُونَةٌ» أثقل فتناسب التخفيف بخلاف هذه.

ومذهب «الفرّاء» أنها «فَعْلَةٌ» بسكون العين، واختاره «أبو البقاء» قال: لأنها من تأيأ القوم، إذا اجتمعوا، وقالوا في الجمع: آياء، فظهرت الياء الأولى، والهمزة الأخيرة بدل من ياء، ووزنه «أفعال» والألف الثانية بدل من همزة هي فاء الكلمة، ولو كانت عينها «واو» لقالوا في الجمع: «آواء»، ثم إنهم قلبوا «الياء» الساكنة «ألفاً» على غير قياس. يعني: أن حرف العلة لا يقلب حتى يتحرك وينفتح ما قبله.

وذهب بعض الكوفيين إلى أن وزنها «أَيَّة» بكسر العين مثل «نَبَقَةٌ» فَأَعْلَ، وهو في الشذوذ كمذهب «سيبويه والخليل».

وقيل: وزنها «فَعْلَةٌ» بضم العين، وقيل: أصلها «أَيَاة» بإعلال الثاني، فقلبت: بأن قدمت اللام، وأخرت العين، وهو ضعيف. فهذه ستة مذاهب لا يسلم واحد منها من شذوذ.

فصل في معنى «الصّحبة»

الصّحبة: الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمان ما، فإن كانت الملازمة والخُلطة فهي كمال الصّحبة.

تمّ الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني

وأوله: «قوله تعالى: يا بني إسرائيل اذكروا...»

(١) البيت لبرج بن مسهر الطائي، ينظر القرطبي: ٤٨/١، والدر المصون: ٢٠١/١.

فهرس محتويات
الجزء الأول من اللباب

فهرس المحتويات

٣	 المقدمة
٣	 إضاءة على عصر ابن عادل
٤	 أولاً: الحالة السياسية في عصر المماليك البرجية
٩	 نبذة حول الموقف في بلاد الشام خلال عصر المماليك الجراكسة
٩	 الجراكسة وتيمورلنك
١٠	 الخلافة العباسية ودولة المماليك
١١	 ثانياً: الحالة الاجتماعية في عصر السلاطين الجراكسة
١٤	 ثالثاً: الحالة الاقتصادية في عصر السلاطين الجراكسة
١٦	 رابعاً: الحالة الثقافية في عصر سلاطين الجراكسة
٢٠	 ترجمة الإمام المفسر ابن عادل الحنبلي
٢٤	 التفسير والتأويل
٢٧	 «الفرق بين التفسير والتأويل»
٢٩	 «حاجة الناس إلى التفسير»
٣٣	 فهم الصحابة للقرآن الكريم
٣٤	 أشهر مفسري القرآن من الصحابة
٤١	 قيمة التفسير المأثور عن الصحابة
٥٧	 قيمة التفسير المأثور عن التابعين
٥٨	 سمات التفسير في تلك المرحلة
٥٨	 التفسير في عصر التدوين
٥٩	 أقسام التفسير
٦٦	 بعض ما حوى الكتاب

- أولاً: الشواهد الشعرية في الكتاب ٦٦
- ثانياً: الحديث في الباب ٦٦
- نسبة الكتاب للمؤلف ٧٠
- وصف نسخ «اللباب في علوم الكتاب» ٧٢

تفسير سورة الفاتحة

- فَضْلٌ فِي أَنْ الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة ٨١
- فَضْلٌ فِي حُكْمِ التَّعَوُّذِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ٨٧
- فَضْلٌ فِي الْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ بِالتَّعَوُّذِ ٨٨
- فَضْلٌ فِي مَوْضِعِ الاستعاذة من الصلاة ٨٨
- فَضْلٌ فِي بَيَانِ هَلِ التَّعَوُّذُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟ ٨٩
- فَضْلٌ فِي بَيَانِ سَبَبِ الاستعاذة ٨٩
- فَضْلٌ فِي السَّنَةِ فِي أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ مَرْتَلًا ٩٠
- فَضْلٌ فِي اسْتِحْبَابِ تَحْسِينِ الْقِرَاءَةِ جَهْرًا ٩١
- فَضْلٌ فِي صِحَةِ الصَّلَاةِ مَعَ النُّطْقِ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ ٩١
- فَضْلٌ فِي عَدَمِ جَوَازِ الصَّلَاةِ بِالْوُجُوهِ الشَّاذَةِ ٩٢
- فَضْلٌ فِي قَوْلِهِمْ: «الْقِرَاءَاتُ الْمَشْهُورَةُ مَنْقُولَةٌ بِالتَّوَاتُرِ» ٩٢
- فَضْلٌ فِي اسْتِقْصَائِ الاستعاذة وإعرابها ٩٤
- فَضْلٌ فِي اخْتِجَاجِ الْمُعْتَزِلَةِ لِإِبْطَالِ الْجَبْرِ ١٠٠
- فَضْلٌ فِي الْمُسْتَعَاذِ بِهِ ١٠٥
- فَضْلٌ فِي الْمُسْتَعِيدِ ١٠٥
- فَضْلٌ فِي الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ ١١٠
- فَضْلٌ فِي وَجُودِ الْجِنِّ ١١١
- فَضْلٌ فِي قُدْرَةِ الْجِنِّ عَلَى التَّفْوِذِ خِلَالَ الْبَشَرِ ١١٥
- فَضْلٌ فِي تَنْزِهِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ شَهْوَتِي الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ ١١٦
- فَضْلٌ فِي اسْتِقْصَائِ الْبَسْمَلَةِ ١١٦
- فَضْلٌ فِي مَا يَحْصُلُ بِهِ الْجَرِ ١١٩
- فَضْلٌ فِي لُغَاتِ «الْأَسْمِ» ١٢٧

١٣٠	فَصْلٌ في متعلّق الجار والمجرور
١٣٣	فَصْلٌ الاسم هل هو نفس المسمى أم لا؟
١٣٤	فَصْلٌ في الأدلة على أن الاسم لا يجوز أن يكون هو المسمى
١٤٣	فصل في اختصاص لفظ الجلالة به سبحانه
١٤٤	فصل في خواص لفظ الجلالة
١٤٥	فصل في رسم لفظ الجلالة
١٥١	فصل في بيان هل البسملة آية من كل سورة أم لا
١٥٣	فصل في بيان أن أسماء الله توقيفية أم اصطلاحية
١٥٤	فَصْلٌ في بَيَانِ صِفَاتٍ لا تُثَبَّتُ في حق الله
١٥٥	فَصْلٌ في عدد أسماء الله
١٥٥	فَصْلٌ في فضل البسملة
١٥٦	فَصْلٌ الباء من «بسم الله» مشتق من البر
١٥٩	[سورة فاتحة الكتاب]
١٦٤	فَصْلٌ في فضائلها
١٦٥	«القول في التَّزْوِيلِ»
١٧٥	فَصْلٌ تمسك الجبرية والقدرية بقوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾
١٧٧	فَصْلٌ هل وجوب الشكر يثبت بالعقل أو الشرع؟
١٨٢	فصل في وجوه تربية الله لعبده
١٨٢	فَصْلٌ اختلفوا في ﴿العالمين﴾
١٩٤	فصل فيمن قرأ بالإدغام هنا
١٩٥	فصل في كلام القدرية والجبرية
٢٠٠	فصل في معنى العبادة
٢٠٢	فصل في نظم الآية
٢٠٢	فصل في نون «نعبد»
٢٢٦	فَصْلٌ في عصمة الأنبياء والملائكة
٢٢٦	فَصْلٌ في إضافة الغضب لله
٢٢٦	فَصْلٌ المكلفون ثلاث فرق

٢٢٨	فصل في حروف لم ترد في هذه السورة
٢٣١	فصل في وجوب القراءة في الصلاة
٢٣٢	فَصْلُ قراءة الفاتحة واجبة في الصلاة
٢٤٣	فصل في بيان هل التسمية آية من الفاتحة أم لا؟
٢٤٦	فصل في بيان عدد آيات الفاتحة
٢٤٧	فَصْلُ هل البَسْمَلَةُ آية من أوائل السور أم لا؟
٢٤٨	فصل في الجهر بالتسمية والإسرار بها

تفسير سورة البقرة

٢٥١	الآيتان: ١، ٢
٢٥٣	فصل في الحروف المقطعة
٢٧٤	فصل في المقصود بالهدى
٢٧٥	فصل في اشتقاق المتقي
٢٧٩	الآية: ٣
٢٨٦	فصل في معنى «يؤمنون بالغيب»
٢٩٤	فصل في معاني «من»
٢٩٤	فصل في قوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون»
٢٩٥	الآية: ٤
٢٩٩	فصل في معنى فلان آمن بكذا
٣٠٢	فصل فيما استحقّ به المؤمنون المدح
٣٠٢	الآية: ٥
٣٠٥	فصل فيمن احتج بالآية على مذهبه
٣٠٧	الآية: ٦
٣١٣	فصل في استعمالات «سواء»
٣١٥	فصل في المراد بالكافرين في الآية
٣١٥	فصل في تحقيق حد الكفر
٣١٨	فصل في الردّ على المعتزلة

٣١٩	فصل في المذهب الحق في «تكليف ما لا يطاق»
٣٢٠	الآية: ٧
٣٢٦	فصل في أيهما أفضل: السمع أو البصر؟
٣٢٦	فصل في ألفاظ وردت بمعنى الختم
٣٢٧	الآية: ٨
٣٣٢	فصل في سبب نزول الآية
٣٣٢	فصل في حقيقة النفاق
٣٣٤	فصل في بيان أقبح الكفر
٣٣٥	فصل في ادعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر
٣٣٥	الآيتان: ٩، ١٠
٣٤٠	فصل في حد الخديعة
٣٤٠	فصل في امتناع مخادعة الله تعالى
٣٤٠	فصل في بيان الغرض من الخداع في الآية
٣٤٢	فصل في أوجه ورود لفظ المرض
٣٤٤	فصل في معنى الآية
٣٤٦	الآيتان: ١١، ١٢
٣٥١	فصل في أوجه ورود لفظ الفساد
٣٥١	فصل في بيان من القائل
٣٥٢	فصل في مراد المنافقين بالإصلاح
٣٥٤	الآية: ١٣
٣٥٦	فصل في أوجه ورود لفظ الناس
٣٥٧	فصل في إعراب الآية
٣٥٨	فصل في نظم الآية
٣٥٩	فصل في تعلق الآية بما قبلها
٣٥٩	الآيتان: ١٤، ١٥
٣٦٢	فصل في نظم الآية
٣٦٦	فصل في الرد على المعتزلة

٣٦٧		الآية: ١٦
٣٧٠		الآية: ١٧
٣٨٠		فصل في سبب حذف المفعول
٣٨٢		الآية: ١٨
٣٨٤		فصل في المراد بنفي السمع والبصر عنهم
٣٨٤		الآيتان: ١٩، ٢٠
٣٨٥		فصل في «أو»
٤٠٣		فَصْلٌ في بيان هل المعدوم شيء؟
٤٠٣		فصل في بيان وصف الله تعالى بالشيء
٤٠٤		فصل في أن مقدور العبد مقدور لله تعالى
٤٠٤		فصل في جواز تخصيص العام
٤٠٥		الآيتان: ٢١، ٢٢
٤٠٨		فصل في تقسيم ورود النداء في القرآن الكريم
٤٠٩		فصل في المراد بالعبادة في القرآن
٤٠٩		فصل في قول منكري التكليف
٤١٤		فَصْلٌ في الاستدلال بالآية على الصانع
٤١٥		فَصْلٌ في القراءات في الآية
٤١٧		فَصْلٌ في منافع الأرض وصفاتها
٤١٨		فَصْلٌ في تفضيل السماء على الأرض
٤١٩		فَصْلٌ في فَضْلِ السَّمَاءِ
٤٢٠		فَصْلٌ في أوجه ورود لفظ الماء
٤٢٤		فَصْلٌ في فرق المشركين
٤٢٩		الآيتان: ٢٣، ٢٤
٤٣٤		فَصْلٌ في بيان أن ترتيب القرآن توقيفي
٤٣٧		فَصْلٌ في التهكم بالكافرين
٤٣٧		فصل في الاحتجاج على الجبرية
٤٤٠		فَصْلٌ في تشنية «التي» وجمعه

٤٤٥	 الآية: ٢٥
٤٥٣	 فَضْلٌ فِي الْمَشْبَهَةِ بِهِ فِي الْآيَةِ
٤٥٩	 الْآيَتَانِ: ٢٦، ٢٧
٤٦٠	 فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْحَيَاءِ وَاشْتِقَاقِهِ
٤٦١	 فَضْلٌ فِي تَنْزِيهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ
٤٦١	 فَضْلٌ فِي إِعْرَابِ الْآيَةِ
٤٦٥	 فَضْلٌ فِي اسْتِحْسَانِ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ
٤٦٦	 فَضْلٌ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَمَا فَوْقَهَا»
٤٧٠	 فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْإِرَادَةِ وَاشْتِقَاقِهَا
٤٧٠	 فَضْلٌ فِي مَاهِيَةِ الْإِرَادَةِ
٤٧٢	 فَضْلٌ فِي اسْتِعْمَالِ الْهَمْزَةِ
٤٧٢	 فَضْلٌ فِي مَعْنَى الْإِضْلَالِ
٤٧٨	 فَضْلٌ فِي النِّقْضِ
٤٨٠	 فَصْلٌ فِي الدَّلِيلِ عَلَى الْإِلْتِزَامِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ
٤٨٠	 الآية: ٢٨
٤٨٢	 فَصْلٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ
٤٨٥	 فَصْلٌ فِي أَوْجِهِ وَرُودِ لَفْظِ الْمَوْتِ
٤٨٥	 فَصْلٌ فِي أَوْجِهِ وَرُودِ لَفْظِ الْحَيَاةِ
٤٨٥	 فَصْلٌ فِي إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ
٤٨٧	 الآية: ٢٩
٤٨٧	 فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَنَافِعِ الْإِبَاحَةِ
٤٩٠	 فَصْلٌ فِي هَيْئَةِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ
٤٩٠	 فَصْلٌ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى سَبْقِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ
٤٩١	 فَصْلٌ فِي إِثْبَاتِ سَبْعِ أَرْضِينَ
٤٩٣	 فَصْلٌ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِخَلْقِهِ
٤٩٤	 الآية: ٣٠
٤٩٧	 فَصْلٌ فِي مَاهِيَةِ الْمَلَائِكَةِ

٤٩٨	فصل في شرح كثرتهم
٤٩٨	فصل فيمن قيل له من الملائكة: «إني جاعل»
٥٠١	فصل في وجوب نصب خليفة للناس
٥١١	فصل في بيان علام الجواب في الآية
٥١١	الآية: ٣١
٥١٢	فصل في إعراب الآية
٥١٣	فصل في المراد بالأسماء في الآية
٥١٤	فصل في بيان أن اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟
٥١٧	فصل في بيان هل كان آدم نبياً قبل المعصية؟
٥١٩	فصل في بيان أول من تكلم بالعربية
٥٢٠	الآيتان: ٣٢، ٣٣
٥٢٦	الآية: ٣٤
٥٢٨	فصل في تعداد النعم العامة على بني آدم
٥٢٩	فصل في بيان أن الأنبياء أفضل من الملائكة
٥٤٠	فصل في جنس إبليس
٥٤٤	فصل في بيان بطلان قول أهل الجبر
٥٤٥	فصل في بيان حال إبليس
٥٤٦	الآية: ٣٥
٥٤٦	فصل في بيان أن الأمر كان للملائكة كلهم
٥٤٨	فصل في بيان هل الأمر في الآية للإباحة أو لغير ذلك
٥٤٩	فصل في وقت خلق حواء
٥٥٠	فصل في بيان خلافهم في الجنة المقصودة
٥٥١	فصل في إعراب الآية
٥٥٦	فصل في جنس الشجرة المذكورة
٥٥٦	فصل في الإشعار بأن سكنى آدم لا تدوم
٥٥٧	فصل في المراد بالنهي عن الأكل من الشجرة
٥٥٩	فصل في فحوى الآية

٥٦٠	 الآية: ٣٦
٥٦٢	 فصل في بيان كيف وسوس إبليس لآدم
٥٦٣	 فصل في بيان أن آدم عصى ربه ناسياً
٥٦٧	 فصل في قصة الإغواء
٥٧٣	 فصل في المراد بالحين
٥٧٣	 فصل في هبوط آدم ومن معه
٥٧٤	 الآية: ٣٧
٥٧٥	 فصل في الكلمات التي دعا بها آدم ربه
٥٧٨	 فصل في نظم الآية
٥٧٨	 الآية: ٣٨
٥٨١	 فصل في المراد بالهدى
٥٨٥	 فصل في لغات «حزن»
٥٨٥	 الآية: ٣٩
٥٨٧	 فصل في معنى «الصحة»

الكتاب في علوم الكتاب

تأليف

الإمام المفسر أبي حفص عمر بن عليّ
ابن عادل الدمشقي الحنبلي
المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود / الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه برسائله للجامعة

الدكتور محمد سعد رمضان / الدكتور محمد المتولي الدسوقي حبيب

الجزء العشرون

المحتوى :

أول سورة الإنسان - آخر سورة النساء

منشورات

محمد عيسى بريفين

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب

العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة

أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة

كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر. أو برمجته على اسطوانات

ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©

All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الطريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١ ٠٠)

صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohatory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3



9 782745 122988

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>

e-mail : baydoun@dm.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الإنسان

مكية، وهي إحدى وثلاثون آية، ومائتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وخمسون حرفاً.

قال ابن عباس ومقاتل والكلبي: هي مكية^(١)

وقال الجمهور: مدنية.

وقيل: فيها مكي من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخر السورة وما تقدمه مدني.

وذكر ابن وهب قال: وحدثنا ابن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي ﷺ فقال له: عمر بن الخطاب: لا تثقل على النبي ﷺ فقال له دعه يا ابن الخطاب قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه، وبلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَجَ نَفْسَ صَاحِبِكُمْ - أَوْ أَخِيكُمْ - الشَّقْوَ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

وقال القشيري: إن هذه السورة نزلت في علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -، والمقصود من السورة عام، وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ في «هل» هذه وجهان:

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٠/٦) وعزاه إلى النحاس عن ابن عباس.

وينظر تفسير الماوردي (١٢٦١/٦) والقرطبي (٧٧/١٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٧/١٩).

أحدهما: أنها على بابها من الاستفهام المحض، أي: هو ممن يسأل عنه لغرابته أتى عليه حين من الدهر لم يكن كذا فإنه يكون الجواب: أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكورة. كذا قاله أبو حيان^(١).

وقال مكي في تقرير كونها على بابها من الاستفهام: والأحسن أن تكون على بابها للاستفهام الذي معناه التقرير، وإنما هو تقرير لمن أنكر البعث فلا بد أن يقول: نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه، فيقال له: من أحدثه بعد أن لم يكن وكونه بعد عدمه، كيف يمتنع عليه بعثه، وإحيائه بعد موته، وهو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: فهلا تذكرون، فتعلمون أن من أنشأ شيئاً بعد أن لم يكن قادراً على إعادته بعد موته وعدمه انتهى.

فقد جعلها لاستفهام التقرير لا للاستفهام المحض، وهذا هو الذي يجب أن يكون؛ لأن الاستفهام لا يرد من الباري - تعالى - على هذا النحو وما أشبهه.

والثاني: قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة وحكي أيضاً عن سيبويه: أنها بمعنى «قد» قال الفراء: «هل» تكون جحداً وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تقرر: بأنك أعطيته، والجدد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟.

وقال الزمخشري: «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة، والأصل: «أهل»؛ بدليل قوله: [البسيط]

٥٠١٩ - سَائِلٌ فَوَارِسٌ يَرْبُوعٌ لِّشَدِيدَتِنَا أَهْلٌ رَأَوْنَا بَوَادِي الْقِفِّ ذِي الْأَكْمِ؟^(٢)

فالمعنى: أقد أتى، على التقرير والتقريب جميعاً، أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب «حين من الدهر لم يكن» فيه ﴿شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أي: شيئاً منسياً غير مذكور انتهى.

فقوله: «على التقرير» يعني المفهوم من الاستفهام، وهو الذي فهمه مكي من نفس «هل» وقوله: «والتقريب» يعني المفهوم من «قد» التي وقع موقعها «هل»، ومعنى قوله: «الاستفهام خاصة» أن «هل» لا تكون بمعنى «قد» إلا ومعها استفهام لفظاً كالبيت المتقدم، أو تقديراً كآلية الكريمة.

فلو قلت: هل جاء زيد، يعني: قد قام، من غير استفهام لم يجز. وغيره قد جعلها بمعنى «قد» من غير هذا القيد.

وبعضهم لا يجيز ذلك ألبتة ويتأول البيت المتقدم على أنه مما جمع فيه بين حرفي معنى للتأكيد، وحسن ذلك اختلاف لفظهما؛ كقوله: [الطويل]

٥٠٢٠ - فَأُضْبَحْنَ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ بِمَاءٍ بِهِ^(١)

فالباء بمعنى «عن» وهي مؤكدة لها، وإذا كانوا قد أكدوا مع اتفاق اللفظ؛ كقوله:

[الوافر]

٥٠٢١ - فَلَا - وَاللَّهِ - لَا يُلْقَى لِمَا بِي وَلَا لِمَا بِهِمْ أَبَدًا دَوَاءً^(٢)

فلأن يؤكد مع اختلافه أخرى، ولم يذكر الزمخشري غير كونها بمعنى «قد»، وبقي على الزمخشري قيد آخر، وهو أن يقول: في الجمل الفعلية، لأنه متى دخلت «هل» على جملة اسمية استحال كونها بمعنى «قد» لأن «قد» مختصة بالأفعال.

قال شهاب الدين^(٣): وعندي أن هذا لا يرد لأنه تقرر أن «قد» لا تباشر الأسماء.

فصل في المراد بالإنسان المذكور في الآية

قال قتادة والثوري وعكرمة والشعبي: إن المراد بالإنسان هنا آدم - عليه الصلاة والسلام - وهو مروي عن ابن عباس^(٤).

وقيل: المراد بالإنسان: بنو آدم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ﴾.

فالإنسان في الموضعين واحد وعلى هذا فيكون نظم الآية أحسن.

وقوله ﴿حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ﴾.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقي بين «مكة» والطائف^(٥).

وعن ابن عباس في رواية الضحاك أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه في^(٦) مائة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح^(٧).

وحكى الماوردي عن ابن عباس - رضي الله عنه -: أن الحين المذكور هاهنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره^(٨).

وقال الحسن: خلق الله تبارك وتعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الدر المصون ٤٣٧/٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٣/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨١/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن المنذر وينظر تفسير الماوردي (١٦١/٦).

(٥) في أ: بعد.

(٦) تقدم.

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٦٢/٦) عن ابن عباس.

(٨) تقدم.

والبحر في الأيام الست التي خلق الله - تعالى - فيها السماوات والأرض، وآخر ما خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - فهو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾^(١).

فإن قيل: إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً، والآية تقتضي أنه مضى على الإنسان حال كونه إنساناً «حين من الدهر» مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً.

فالجواب: أن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان، ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح، ويصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان، ومن قال: إن الإنسان هو النفس الناطقة، وأنها موجودة قبل وجود الأبدان فالإشكال عنهم زائل، واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، وإذا كان كذلك فلا بد من محدث قادر. قوله: «لم يكن» في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها في موضع نصب على الحال من الإنسان، أي هل أتى عليه حين في هذه الحال.

والثاني: أنها في موضع رفع نعتاً لـ «حين» بعد نعت، وعلى هذا فالعائد محذوف، تقديره: حين لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. والأول أظهر لفظاً ومعنى.

فصل في تفسير الآية

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾: لا في السماء ولا في الأرض^(٢).

وقيل: كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري ما اسمه. ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. قاله الفراء وقطرب وثعلب.

وقال يحيى بن سلام: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق حيواناً بعده^(٣)، ومن قال: إن المراد من الإنسان الجنس من ذرية آدم - عليه الصلاة والسلام - فالمراد بالحين تسعة أشهر مدة الحمل في بطن أمه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ إذ كان مضغاً وعلقة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له.

وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لما قرأ هذه الآية: ليتها تمت فلا نبتلى، أي ليت المدة التي أتت على آدم لم يكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده، وسمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً يقرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾. فقال: ليتها تمت^(٤).

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٠٨/٣٠ - ٢٠٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٨/١٩). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨١/٦) وعزه إلى ابن المبارك في «الزهد» وأبي عبيد في «فضائله» وعبد بن حميد وابن المنذر.

قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾. يعني ابن آدم من غير خلاف «من نُطْفَةٍ» أي: من ماء يقطر وهو المنى، وكل ماء قليل في وعاء، فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه: [الرجز]

٥٠٢٢ - مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ هَلْ أَنْتَ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَيْءٍ؟^(١)
وجمعها: نطف ونطاف.

قوله: «أَمْشَاج»: نعت لـ «نُطْفَةٍ» ووقع الجمع نعتاً لمفرد؛ لأنه في معنى الجمع كقوله تعالى: ﴿رَفَرَفِي خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] أو جعل جزء من النطفة نطفة، فاعتبر ذلك فوصفت بالجمع.

وقال الزمخشري: «نُطْفَةُ أَمْشَاجٍ» كِبْرْمَةِ أَعْشَارٍ وَبُرٌّ أَكْبَاشٍ وَثُوبٌ أَخْلَاقٍ وَأَرْضٌ يَبَابٌ وَهِيَ أَلْفَاظٌ مَفْرَدَةٌ غَيْرُ جُمُوعٍ وَلِذَلِكَ وَقَعَتْ صِفَاتٌ لِلْأَفْرَادِ، وَيُقَالُ: نُطْفَةٌ مَشْجٌ؛ قَالَ الشَّمَاخُ: [الوافر]

٥٠٢٣ - طَوْتُ أَحْشَاءٍ مُرْتَجَةٍ لَوْقٍ عَلَى مَشْجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينٌ^(٢)
ولا يصح في «أَمْشَاجٍ» أن يكون تكسيراً له بل هما مثلاًن في الأفراد لوصف المفرد بهما.

فقد منع أن يكون «أَمْشَاجٍ» جمع «مشج» بالكسر.
قال أبو حيان^(٣): وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن «أفعالاً» لا يكون مفرداً.

قال سيبويه: وليس في الكلام «أفعال» إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع، وما ورد من وصف المفرد بـ «أفعال» تأولوه انتهى.

قال شهاب الدين^(٤): هو لم يجعل «أفعالاً» مفرداً، إنما قال: يوصف به المفرد، يعني التأويل ذكرته من أنهم جعلوا كل قطعة من البُرْزَةِ بُرْزَةً، وكل قطعة من البرد برداً، فوصفوهما بالجمع.

وقال أبو حيان^(٥): «الْأَمْشَاجُ»: الْأَخْلَاطُ، وَاحِدُهَا «مَشْجٌ» بَفَتْحَتَيْنِ أَوْ مَشْجٌ كَعْدَلٍ وَأَعْدَالٍ، أَوْ مَشِيجٌ كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ؛ وَقَالَ رُوْبَةُ: [الرجز]

(١) ينظر اللسان (شنن)، والقرطبي ٧٨/١٩، وجامع البيان ٧٨/٢٩.

(٢) ينظر ديوانه ٣١٨، والكشاف ٦٦٦/٤، وشرح شواهد ص ٥٥٩، والكامل ١١٣/٣٠، واللسان (شجج)، والبحر ٣٨٤/٨، والدر المصون ٧٣٧/٦.

(٣) البحر المحيط ٣٩٤/٨. (٤) الدر المصون ٤٣٧/٦.

(٥) البحر المحيط ٣٩١/٨.

٥٠٢٤ - يَطْرَحْنَ كُلُّ مُعْجَلٍ مُشَاجٍ لَمْ يُكْسَ جِلْدًا مِنْ دَمِ أَمْشَاجٍ^(١)
وقال الهذلي يصف السهم لهم بأنه قد نفذ في الرمية فالتطخ ريشه وفوقاه بدم يسير:
[الوافر]

٥٠٢٥ - كَأَنَّ الرَّيْشَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهُ خِلَافُ النَّضْلِ سَيْطَ بِهِ مَشِيجٌ^(٢)
ويقال: مَشِجٌ يَمْشِجُ مَشْجًا إِذَا خَلَطَ، فَمَشِيجٌ كـ «خَلِيطٌ»، ومَمْشُوجٌ كـ «مَخْلُوطٌ» انتهى.
فجوز أن يكون جمعاً لـ «مَشِيجٍ» كعدل، وقد تقدم أن الزمخشري منع من ذلك.
وقال الزمخشري: «ومشجه ومزجه بمعنى، من نقطة قد امتزج فيها الماءان».
وقال القرطبي^(٣): ويقال: مشجت هذا بهذا أي: خلطته، فهو مَمْشُوجٌ ومَشِيجٌ،
مثل مخلوط وخليط، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم، وهو دم الحيض^(٤)، وذلك أنَّ
المرأة إذا بلغت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها، فاختلطت النطفة بالدم.
وقال الفراء: أمشاج: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعلقة.

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: الأمشاج في الحمرة، والبياض في
الحمرة^(٥)، وعنه أيضاً قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر
رقيق، فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل، وما كان
من دم ولحم وشعر فهو من ماء المرأة^(٦).

قال القرطبي^(٧): «وقد روي هذا مرفوعاً؛ ذكره البزار».

وعن ابن مسعود: أمشاجها عروق المضغة^(٨).

وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وصفراء^(٩).

وقال ابن عباس: خلق من ألوان، خلق من تراب ثم من ماء الفرج والرحم وهي
نطفة ثم علقه، ثم مضغة ثم عظم ثم لحم^(١٠)، ونحوه.

(١) ينظر ديوانه ص (٣٢)، والطبري ١٢٦/٢٩، والبحر ٣٨٤/٨، والدر المصون ٤٣٧/٦.

(٢) ينظر ديوان الهذليين ١٠٤/٣، ومجاز القرآن ٢٧٩/٢، والطبري ١٢٦/٢٩، والبحر المحيط ٨/٣٨٤، والكامل ٩١/٢، والدر المصون ٤٠٣/٦.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٧٩/١٩. (٤) في أ: الحيضة.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٩/١٩).

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٢٦/٤ - ٤٢٧) وينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٧٩/١٩.

(٨) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨١/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٥/١٢) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٢/٦).

وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(١٠) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٥/١٢).

قال قتادة: هي أطوار الخلق: طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظماً، ثم يكسو العظام لحماً^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): وقيل: إن الله - تعالى - جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والتقدير: من نطفة ذات أمشاج، فحذف المضاف وتم الكلام.

قوله: «نبتليه». يجوز في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها حال من فاعل خلقنا، أي: خلقناه حال كوننا مبتلين له.

والثاني: أنها حال من الإنسان، وصح ذلك لأن في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذي الحال، ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة إن كان معنى «نبتليه» نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقه كما قال ابن عباس وأن تكون مقدرة إن كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف؛ لأنه وقت خلقه غير مكلف.

وقال الزمخشري: «ويجوز أن يكون ناقلين له من حال إلى حال، فسمي ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة».

قال شهاب الدين^(٣): «وهذا معنى قول ابن عباس المتقدم».

وقال بعضهم: في الكلام تقديم وتأخير، والأصل: إننا جعلناه سمياً بصيراً لنبتليه، أي: جعلناه ذلك للابتلاء، وهذا لا حاجة إليه.

فصل في تفسير قوله تعالى نبتليه

قوله: «نبتليه»: لنبتليه، كقولك: «جئتك أقضي حقك، أي لأقضي حقك وآتيك أستمحك كذا» ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ أي: لتستكثر.

ومعنى «نبتليه» نختبره، وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار، وفيما يختبر به وجهان:

أحدهما: قال الكلبي: نختبره بالخير والشر^(٤).

والثاني: قال الحسن: نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء^(٥).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٥/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٢/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٢٠٩/٣٠. (٣) ينظر الدر المصون ٤٣٨/٦.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٦٣/٦) والقرطبي (٧٩/١٩).

(٥) ينظر المصدر السابق.

وقيل: «تَبْتَلِيهِ» نكَّفه بالعمل بعد الخلق. قاله مقاتل رحمه الله. وقيل: نكَّفه؛ ليكون مأموراً بالطاعة، ومنهياً عن المعاصي.
وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

والمعنى: إنا خلقناه في هذه الأمشاج لا للعبث بل للابتلاء والامتحان، ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنياتان عن الفهم والتمييز، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، والمعنى: جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى وبصراً يبصر به الهدى كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لِمَ تَقْبِذُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ﴾ [مريم: ٤٢] وقد يراد بالسميع المطيع، كقوله: «سَمْعًا وَطَاعَةً»، وبالبصير: العالم، يقال: لفلان بصر في هذا الأمر.

وقيل: المراد بالسمع والبصر: الحاستان المعروفتان، والله - تعالى - خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم الحواس وأشرفهما.

قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر يبعث الرسل فأمّن أو كفر.

وقال مجاهد: السبيل هنا خروجه من الرحم^(١).

وقيل: منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله.

فصل في أن العقل متأخر عن الحواس

قال ابن الخطيب^(٢): أخبر الله - تعالى - أنه بعد أن ركبته وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال، قال: والآية تدل على أن العقل متأخر عن الحواس، وهو كذلك ثم ينشأ عنها عقائد صادقة أولية كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأن الكل أعظم من الجزء وهذه العلوم الأولية هي العقل.

قال الفراء: هذا يتعدى بنفسه وباللام.

قوله: ﴿إِنَّا شَاكِرًا﴾. نصب على الحال، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من مفعول «هَدَيْنَاهُ» أي: هديناه مبيناً له كلتا حالتيه.

قال أبو البقاء: وقيل: وهي حال مقدرة.

قال شهاب الدين^(٣): لأنه حمل الهداية على أول البيان له وفي ذلك الوقت غير متصف بإحدى الصفتين.

(١) ذكره الماوردي (٦/١٦٤) والقرطبي (١٩/٨٠) عن أبي صالح والضحاك والسدي.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/٢١٠. (٣) الدر المصون ٦/٤٣٨.

والثاني: أنه حال من «السبيل» على المجاز.

قال الزمخشري: «يجوز أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل، إما سبيلاً شاكراً، وإما سبيلاً كفوراً، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً».

والعامة على كسر همزة «إما»، وهي المرادفة لـ «أو» وقد تقدم خلاف النحويين فيها.

ونقل مكي عن الكوفيين أن هاهنا: «إن» الشرطية زيدت بعدها «ما» ثم قال: «وهذا لا يجيزه البصريون؛ لأن «إن» الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمّر فعل نحو: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦]، ولا يصح إضمار الفعل هنا؛ لأنه كان يلزم رفع «شاكراً»، وأيضاً لا دليل على الفعل» انتهى.

قال شهاب الدين^(١): لا نسلم أنه يلزم رفع «شاكراً» مع إضمار الفعل، ويمكن أن يضمّر فعل ينصب «شاكراً» تقديره: إنا خلقناه شاكراً فشكوراً، وإنا خلقناه كافراً فكفوراً.

وقرأ أبو السمال^(٢)، وأبو العجاج: بفتحها، وفيها وجهان:

أحدهما: أنها العاطفة وأنها لغة، وبعضهم فتح الهمزة؛ وأنشدوا على ذلك:

[الطويل]

٥٠٢٦ - تُنْفَخُهَا أَمَّا شِمَالٌ عَرِيَّةٌ وَأَمَّا صَبَا جُنْحِ الْعِشِيِّ هَبُوبٌ^(٣)

بفتح الهمزة.

ويجوز مع فتح الهمزة إبدال ميمها الأولى ياء؛ قال: [البسيط]

٥٠٢٧ - أَيْنَمَا إِلَى جَنَّةٍ أَيْنَمَا إِلَى نَارٍ^(٤)

وحذف الواو بينهما.

والثاني: أنها «إما» التفصيلية وجوابها مقدر.

قال الزمخشري: وهي قراءة حسنة، والمعنى: إما شاكراً فبتوفيقنا، وإما كفوراً فبسوء اختياره انتهى، ولم يذكر غيره.

(١) السابق.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٤٠٩/٥، والبحر المحيط ٣٨٦/٨.

(٣) البيت لأبي القمقام الأسدي ينظر خزنة الأدب ٨٧/١١، والدرر ١٢٠/٦، ورصف المباني ص ١٠١، وجمع الهوامع ١٣٥/٢، والمقرب ٢٣١/١، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢٣٢/١، والبحر ٣٨٧/٨، والدر المصون ٤٣٩/٦.

(٤) تقدم.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب بعد حكايته أن «شاكراً وكفوراً» حالان: إنَّ المعنى: كلما يتعلق بهداية الله تعالى وإرشاده فقد تمَّ حالتي الكفر والإيمان.

وقيل: وانتصب «شاكراً وكفوراً» بإضمار «كان» والتقدير: سواء كان شاكراً أو كان كفوراً.

وقيل: معناه إنا هديناه السبيل ليكون إما شاكراً وإما كفوراً، أي يتميز شكره من كفره، وطاعته من معصيته كقوله تعالى: ﴿يَبْلُوكُمْ أَيَكُفِّرُ بَعْضُهُمْ [الملك: ٢] قَالَ الْقِفَالُ: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل كقولك: «قد نصحت لك إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك» فتحذف الفاء، وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد، أي: إنا هديناه السبيل، فإن شاء فليشكر، وإن شاء فليكفر فإننا قد أعتدنا للكافرين كذا كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقيل: حالان من السبيل، فإن شاء فليشكر، وإن شاء فليكفر.

وقيل: حالان من السبيل، أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

قال ابن الخطيب^(١)^(٢): وهذه الأقوال لائقة بمذهب المعتزلة.

وقيل قول خامس مطابق لمذهب أهل السنة واختاره الفراء وهو أن تكون «إما» في هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] والتقدير: إنا هديناه السبيل، ثم جعلناه تارة شاكراً، وتارة كفوراً ويؤيده قراءة أبي السمال المتقدمة، قالت المعتزلة: هذا التأويل باطل لتهديده الكفار بعد هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَغْتَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَلْنَا سَعِيرًا﴾، ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول، وهو أنه - تعالى - هدى جميع المكلفين، سواء آمن أو كفر، وبهذا بطل قول المجبرة.

وأجيب: بأنه - تعالى - لما علم من الكافر أنه لا يؤمن، ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بالجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان، وهذا تكليف بالجمع بين متنافيين، فإن لم يصر هذا عذراً في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضاً أن يخلق الكفر فيه، ولا يصير ذلك عذراً في سقوط التهديد والوعيد، فإذا ثبت هذا ظهر أن هنا التأويل هو الحق، وبطل تأويل المعتزلة.

فصل في جمعه تعالى بين الشاكر والكفور

قال القرطبي^(١): «جمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة نفيًا للمبالغة في الشكر، وإثباتًا لها في الكفر؛ لأن شكر الله - تعالى - لا يؤدي فانتفت عنه المبالغة، ولم ينتف عن الكفر المبالغة فقل شكره لكثرة النعم عليه وكثرة كفره وإن قل مع الإحسان إليه، حكاة الماوردي».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلْنَا وَسْعِيرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٦) ﴿يُفُونَ بِالَّذِئْرِ وَيَحْفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ (١٠) ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ (١١) ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ (١٣) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (١٤) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضْلِهِ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فَضْلِهِ قَدَرُوا نَفِيرًا﴾ (١٦) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلًا﴾ (١٧) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا﴾ (١٨) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا﴾ (١٩) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَّشْكُورًا﴾ (٢٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾.

قرأ نافع والكسائي^(٢)، وهاشم، وأبو بكر: بتنوين «سَلَاسِلًا» والباقون: بغير تنوين. ووقف هؤلاء، وحمزة، وقنبل عليه بالالف بلا خلاف. وابن ذكوان والبزي وحفص: بالالف وبدونها - يعني بلا ألف - والباقون: وقفوا بالالف بلا خلاف.

فقد تحصل من هذا أن القراء على أربع مراتب، منهم من ينون وصلًا ويقف بالالف وقفًا بلا خلاف وهما حمزة وقنبل، ومنهم من لم ينون ويقف بالالف بلا خلاف، وهو أبو عمرو وحده، ومنهم من لم ينون ويقف بالالف تارة وبدونها أخرى، وهم ابن ذكوان وحفص والبزي، فهذا ضبط ذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨٠/١٩.

(٢) ينظر: الحجة ٣٤٨/٦، وإعراب القراءات ٤١٩/٢ - ٤٢٠، وحجة القراءات ٤٣٧.

فأما التنوين في «سلاسل» فذكروا له أوجهاً:

منها: أنه قصد بذلك التناسب؛ لأن ما قبله وما بعده منون منصوب.

ومنها: أن الكسائي وغيره من أهل «الكوفة» حكوا عن بعض العرب أنهم يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا «أفعل منك».

قال الأخفش: سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف؛ لأن الأصل في الأسماء الصرف، وترك الصرف لعارض فيها، وأن هذا الجمع قد جمع وإن كان قليلاً قالوا: «صواحب وصواحيبات»، وفي الحديث: «إِنَّكُمْ لَصَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ»^(١)؛ وقال: [الرجز]

٥٠٢٨ - قَدْ جَرَّتِ الطَّيْرُ إِيمَانِيًّا^(٢)

فجمع «إيمان» جمع تصحيح المذكر.

وأشدوا: [الكامل]

٥٠٢٩ - وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خَضَعَ الرُّقَابِ نَوَاسِ الْأَبْصَارِ^(٣)

بكسر السين من «نواكس» وبعدها ياء تظهر خطأ لا لفظاً لالتقاء الساكنين، وهذا على رواية كسر السين، والأشهر فيها نصب السين، فلما جمع شابه المفردات فانصرف.

ومنها: أنه مرسوم في إمام «الحجّاز» و «الكوفة» بالألف، رواه أبو عبيد، ورواه قالون عن نافع، وروى بعضهم ذلك عن مصاحف «البصرة» أيضاً.

وقال الزمخشري: وفيه وجهان:

أحدهما: أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق، ويجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضري برواية الشعر وممن لسانه على صرف ما لا ينصرف.

قال شهاب الدين^(٤): «وفي هذه العبارة فظاظة وغلظة، لا سيما على مشيخة

(١) تقدم.

(٢) ينظر الخصائص ٢٣٦/٣، والمقرب ١٢٨/٢ وسمط اللآلئ ٦٨١/١، والدر المصون ٤٣٩/٦.

(٣) البيت للفرزدق في ديوانه ٢٦٦/١؛ وجمهرة اللغة ص ٦٠٧؛ وخزانة الأدب ٢٠٦/١؛ وشرح أبيات سيويه ٣٦٧/٢؛ وشرح التصريح ٣١٣/٢؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٩؛ وشرح شواهد الشافية ص ١٤٢؛ وشرح المفضل ٥٦/٥؛ والكتاب ٦٣٣/٣؛ ولسان العرب (نكس)، (خضع)؛ والمقتضب ١٢١/١، ٢١٩/٢.

(٤) ينظر الدر المصون ٤٣٩/٦.

الإسلام، وأئمة العلماء الأعلام، ووقف هؤلاء بالألف ظاهر».

وأما لمن لم ينونه فظاهر، لأنه على صيغة منتهى الجموع.

وقولهم: قد جمع نحو «صواحيبات، وأيامنين» لا يقدح؛ لأن المحذور جمع التكسير، وهذا جمع تصحيح، وعدم وقوفهم بالألف واضح أيضاً. وأما من لم ينون ووقف بالألف فاتباعاً للرسم الكريم كما تقدم.

وأيضاً: فإن الروم في المفتوح لا يجوز القراء، والقارئ قد يبين الحركة في وقفه فأتوا بالألف ليبين منها الفتحة.

وروي عن بعضهم أنه يقول: «رَأَيْتُ عُمَرَاً» بالألف، يعني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والسلاسل: جمع سلسلة: وهي القيود في جهنم، وقد تقدم الكلام عنها في سورة «الحاقة».

فصل

اعلم، أنه بين - هاهنا - حال الفريقين، وأنه تعبد العقلاء، وكلفهم ومكنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب، ومن وحد وشكر فله الثواب، والاعتداد هو اعتداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه، كقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عِثِدِ﴾ [ق: ٢٣]، والأغلال: جمع غل، تغل بها أيديهم إلى أعناقهم. وتقدم الكلام في السعير أيضاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الآية. لما ذكر ما أعد للكافرين ذكر ما أعد للساكرين، والأبرار أهل الصدق، واحدهم: برّ، وهو من امثل أمر الله تعالى.

وقيل: البر: الموحد، والأبرار: جمع «بار» مثل: «شاهد وأشهد».

وقيل: هو جمع «بر» مثل: «نهر وأنهار».

وفي «الصحيح»^(١): وجمع البر: الأبرار، وجمع البار: البررة، وفلان ببر خالقه ويتبرره أي يطيعه، والأم برة بولدها.

وروي ابن عمر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - الْأَبْرَارَ؛ لِأَنَّهُمْ بَرُّوا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوْلَدُكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢).

وقال الحسن: البر الذي لا يؤذي الذر^(٣).

(١) ينظر الصحيح ٥٨٨/٢.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٢٣/٤) وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٥٤٩٢) وعزاه للطبراني عن ابن عمر.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٦٥/٦) بمعناه والقرطبي (١٩/٨١).

وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حق الله، ويوفون بالنذر، وفي الحديث: «الأَبْرَارُ الَّذِينَ لَا يُؤَدُّونَ أَحَدًا»^(١).

﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾. أي: من إناء فيه الشراب.

قال ابن عباس: يريد الخمر^(٢).

والكأس في اللغة: الإناء فيه الشراب، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأساً.

قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ المزاج: ما يمزج به أي: يخلط، يقال: مزجه يمزجه مزجاً أي: خلطه يخلطه خلطاً.

قال حسان: [الوافر]

٥٠٣٠ - كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَنِي رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ^(٣)

فالمزاج كالقيوم اسم لما يقاوم به الشيء، ومنه مزاج البدن: وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة.

و«الكافور»: طيب معروف، وكأن اشتقاقه من الكفر، وهو الستر لأنه يغطي الأشياء برائحته، والكافور أيضاً: كمائم الشجر الذي يغطي ثمرتها.

قال بعضهم: الكافور: «فاعول» من الكفر كالناقور من النقر، والغاموس من الغمس، تقول: غامسته في الماء أي: غمسته، والكفر: القرية والجبل العظيم؛ قال: [الطويل]

٥٠٣١ - تُطْلَعُ رِيَاهُ مِنَ الْكَفَرَاتِ^(٤)

والكافور: البحر، والكافر: الليل، والكافر: الساتر لنعم الله تعالى، والكافر: الزارع لتورثته الحب في الأرض؛ قال الشاعر: [السريع]

٥٠٣٢ - وَكَافِرٍ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ لِلْكَافِرِ^(٥)

والكفارة: تغطية الإثم في اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة، والكافور: ماء جوف شجر مكنون، فيغرزونه بالحديد، فيخرج إلى ظاهر الشجر، فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الأشجار.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) تقدم.

(٤) عجز بيت لعبد الله بن نمير الثقفي وصدره:

له أرج من مجمر الهند ساطع

ينظر اللسان (أرج)، (كفر).

(٥) ينظر اللسان (كفر).

ويقال: كفر الرجل يكفر إذا وضع يده على صدره.

فصل في الآية

قال ابن الخطيب^(١): مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيقاً، فما السبب في ذكره؟.

والجواب من وجوه:

أحدها: قال ابن عباس: اسم عين ماء في الجنة يقال له: عين الكافور أي: يمازجه ماء هذا العين التي تسمى كافوراً في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرت^(٢).

وثانيها: أن رائحة الكافور عرض، والعرض لا يكون إلا في جسم، فخلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك التراب فسمي ذلك الجسم كافوراً وإن كان طعمه طيباً فيكون ريحها لا طعمها.

وثالثها: أن الله تبارك وتعالى يخلق الكافور في الجنة مع طعم لذيق ويسلب عنه ما فيه من المضرة، ثم إنه - تعالى - يمزجه بذلك الشراب كما أنه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها من المضرات في الدنيا.

قال سعيد عن قتادة: يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك^(٣).

وقيل: أراد بالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب، كقوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَعَلُوا نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: كَنَارٍ.

وقيل: كان في علم الله تعالى، و «كان» زائدة، أي: من كأس مزاجها.

قال القرطبي^(٤): ويقال: «كافور وقافور»، وهي قراءة عبد الله^(٥) بالقاف بدل الكاف، وهذا من التعاقب بين الحرفين كقولهم: «عربي فجّ وكجّ».

ومفعول «يشربون» إما محذوف، أي: يشربون ماء أو خمرًا من كأس، وإما مذكور وهو «عيناً»، وإما «من كأس» و «من» مزيدة فيه، وهذا يتمشى عند الكوفيين والأخفش.

وقال الزمخشري: «فإن قلت: لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً، وبحرف

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢١٣.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٢/١٩) والرازي (٢١٣/٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٨/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٨٢/١٩.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/٤٤١.

الإلصاق آخرًا؟ قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم، وأول غايته، وأما العين فيها يمزجون شرابهم، فكان المعنى: يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول: شربت الماء بالعسل.

قوله: ﴿عَيْنًا﴾. في نصبها أوجه:

أحدها: بدل من «كافورًا»؛ لأن ماءها في بياض الكافور وفي رائحته وفي برده.

الثاني: أنها بدل من محل «من كأس». قاله مكي. ولم يقدر حذف مضاف.

وقدر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف، قال: كأنه قيل: يشربون خمرًا،

خمر عين. وأما أبو البقاء فجعل المضاف مقدرًا على وجه البديل من «كافور».

قال: «والثاني: بدل من كافور، أي من ماء عين، أو خمر عين». وهو معنى

حسن.

والثالث: أنها مفعول بـ «يشربون» يفسره ما بعده، أي يشربون عينًا من كأس.

الرابع: أن ينتصب على الاختصاص.

الخامس: بإضمار «يشربون» يفسره ما بعده، قاله أبو البقاء. وفيه نظر؛ لأن الظاهر

أنه صفة لـ «عين» فلا يصح أن يفسر.

السادس: بإضمار «يعطون».

السابع: على الحال من الضمير في «مزاجها». قاله مكي.

وقال القرطبي^(١): «نصب بإضمار أعني».

قوله: «يشرب بها». في الباء أوجه:

أحدها: أنها مزيدة، أي: يشربها، ويدل له^(٢) قراءة ابن أبي عبلة: يشربها معدى

إلى الضمير بنفسه.

الثاني: أنها بمعنى «من».

الثالث: أنها حالية، أي: يشرب ممزوجة بها.

الرابع: أنها متعلقة بـ «يشرب» والضمير يعود على الكأس، أي: يشربون العين

بذلك الكأس، والباء للإلصاق كما تقدم في قول الزمخشري.

الخامس: أنه على تضمين «يشربون» معنى يلتذون بها شاربين.

السادس: على تضمينه معنى يروى، أي: يروى بها عباد الله، وكهذه الآية الكريمة

في بعض الأوجه قول الهذلي: [الطويل]

٥٠٣٣ - شَرِبْنِ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعْتَ مَتَى لَجَجِ خُضِرَ لَهُنَّ نَسِيجُ^(٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨٢/١٩.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٣١٠/٥، والبحر المحيط ٣٨٧/٨، والدر المصون ٤٤١/٦.

(٣) تقدم.

فهذه يحتمل الزيادة ويحتمل أن تكون بمعنى «من».

وقال الفراء: «يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها: يروى بها، وينفع بها، وأما يشربونها فبيّن، وأنشد قول الهذلي، قال: ومثله: يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً».

والجملة من قوله «يشرب بها» في محل نصب صفة لـ «عيناً» إن جعلنا الضمير في «بها» عائداً على «عيناً» ولم نجعله مفسراً لناصب كما قاله أبو البقاء، و «يفجرونها» في موضع الحال.

فصل في المراد بعباد الله هاهنا

قال ابن الخطيب^(١): قوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ يفيد أن كل عباد الله يشربون منها، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان، وإذا ثبت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] لا يتناول الكفار، بل يختص بالمؤمنين، فيصير تقدير الآية: لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر، ولا تدل الآية على أنه - تعالى - لا يريد الكفر للكفار.

قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. أي: يشققونها شقاً كما يفجر الرجل النهر هاهنا وهاهنا إلى حيث شاءوا، ويتبعهم حيث مالوا مالت معهم.

روى القرطبي^(٢) عن الحسن - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أزْبُعُ عُيُونٍ فِي الْجَنَّةِ اثْنَانِ يَجْرِيَانِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ؛ إِحْدَاهُمَا الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا وَعَيْنَانِ يَجْرِيَانِ مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ نَضَاحَتَانِ: إِحْدَاهُمَا الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى سَلْسِبِلًا، وَالْأُخْرَى: التَّنْسِيمُ»^(٣) ذكره الحكيمة الترمذي في «نوادير الأصول».

وقال: فالتنسيم للمقربين خاصة، شراباً لهم، والكافور للأبرار شراباً لهم، يمزج للأبرار من التنسيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار [منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب فما كان للأبرار مزاج]^(٤) للمقربين صرف، وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج، والأبرار هم الصادقون والمقربون: هم الصديقون.

قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدَى﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً لا محلّ له ألبته، ويجوز أن يكون خبراً لـ «كان» مضمرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٨٣.

(١) ينظر الرازي ٣/٢١٤.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨٨) وعزاه إلى الحكيمة الترمذي في «نوادير الأصول».

(٤) سقط من: ب.

قال الفراء: التقدير «كانوا يوفون بالنذر في الدنيا، وكانوا يخافون» انتهى. وهذا لا حاجة إليه.

الثالث: جواب لمن قال: ما لهم يرزقون ذلك؟.

قال الزمخشري: «يوفون» جواب من عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟.

قال أبو حيان^(١): «واستعمل «عسى» صلة لـ «من» وهو لا يجوز، وأتى بالمضارع بعد «عسى» غير مقرون بـ «أن» وهو قليل أو في الشعر».

فصل في معنى الآية

معناه: لا يخلفون إذا نذروا، وقال معمر عن قتادة: يأتون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وغيره من الواجبات^(٢).

وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله تعالى^(٣).

وقال الفراء والجرجاني: وفي الكلام إضمار، أي: كانوا يوفون بالنذر في الدنيا والعرب قد تزيد مرة «كان» وتحذف أخرى.

وقال الكلبي: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» أي: يتممون العهود لقوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل: ٩١]، و ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] أمرٌ بالوفاء بها؛ لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان.

قال القرطبي^(٤): «والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه [من شيء يفعله، وإن شئت قلت في حد النذر هو إيجاب المكلف على نفسه]^(٥) من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه».

وقال ابن الخطيب^(٦): الإيفاء بالشيء هو الإتيان به وافيًا.

وقال أبو مسلم: النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله فهو وعد، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن تقول: لله عليّ كذا وكذا من الصدقة، أو يسلم بأمر يلتزمه من الله - تعالى - مثل أن تقول: إن شفى الله مريضى، أو ردّ غائبى

(١) ينظر البحر المحيط ٣٩٥/٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٩/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٩/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٣/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٨٣/١٩. (٥) سقط من ب.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٢١٤.

فعليّ كذا وكذا، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر كقوله : إن أتى فلان الدار فعلي هذا، فمنهم من جعله كاليمين، ومنهم من جعله من باب النذور.

فصل في المراد بالإيفاء بالنذر

قال القشيري : روى أشهب عن مالك - رضي الله عنه - أنه قال : «يُوفُونَ بالنَّذْرِ» هو نذر العتق، والصيام، والصلاة.

وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال : قال مالك : «يُوفُونَ بالنَّذْرِ» قال : النذر هو اليمين .

قال ابن الخطيب^(١) : هذه الآية تدلّ على وجوب الوفاء بالنذر؛ لأنه تعالى قال عقيبها : «وَيَخَافُونَ يَوْمًا»، وهذا يقتضي أنهم إنما وقّوا بالنذر خوفاً من شر ذلك اليوم، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجباً ويؤكد قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل : ٧١] وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلَيُوفُوا نُذُرَهُمْ﴾ [الحج : ٢٩] وهذا محتمل ليوفوا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم .

فصل في زيادة كان

قال الفراء وجماعة من أهل المعاني : «كان» في قوله تعالى : ﴿كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا﴾ زائدة وأما هاهنا فكان محذوفة، والتقدير : كانوا يوفون بالنذر .

قال ابن الخطيب^(٢) : ولقائل أن يقول : إنا بينا أن «كان» في قوله تعالى : ﴿كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا﴾ ليست بزائدة، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها؛ لأنه - تعالى - ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أي : سيشربون، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال، ثم قال السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن يوفون بالنذر .

قوله : ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، أي : يخافون يوم القيامة، و «كَانَ شَرُّهُ» في موضع نصب صفة لـ «يَوْمٍ» .

و «المُسْتَطِيرُ» : المنتشر، يقال : اسْتَطَارَ يَسْتَطِيرُ اسْتِطَارًا، فهو مستطير، وهو «استفعل» من الطيران .

قال الأعشى : [المتقارب]

٥٠٣٤ - فَبَآنَتْ وَقَدْ أَسَارَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعًا عَلَى نَائِبِهَا مُسْتَطِيرًا^(٣)

والعرب تقول : استطار الصدع في القارورة والزجاجة، أو استطال إذا امتدّ، ويقال : استطار الحريق إذا انتشر .

وقال الفراء: المستطير: المستطيل، كأنه يريد أنه مثله في المعنى، لأنه أبدل من اللام راء، والفجر: فجران، مستطيل كذنب السرحان وهو الكاذب، ومستطير، وهو الصادق لانتشاره في الأفق.

قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض^(١).

وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات، فانشقت وتناثرت بالكواكب وفزعت الملائكة في الأرض، ونسفت الجبال وغارت المياه^(٢).

فإن قيل: أحوال القيامة وأحوالها كلها فعل الله تعالى، وكل ما كان فعلاً لله، فهو حكمة وصواب، وما كان كذلك لا يكون شرّاً، فكيف وصفها الله بأنها شرٌّ؟.

والجواب: إنما سميت شرّاً لكونها مضرة بمن تنزل عليه، وصعبة عليه كما سميت الأمراض، وسائر الأمور المكروهة شروراً.

قال ابن الخطيب^(٣): وقيل: المستطير هو الذي يكون سريع الوصول إلى أهله، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع.

فإن قيل: لم قال: كان شره، ولم يقل: سيكون شره مستطيراً؟.

فالجواب: أن اللفظ وإن كان للماضي إلا أن معناه كان شره في علم الله وحكمته^(٤).

قوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ وهذا الجار والمجرور حال إما من «الطعام» أي: كائنين على حبهم الطعام كقوله تعالى: ﴿وَأَقِ أَلْمَالَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن عباس ومجاهد: على قلة حبهم إياه وشهوتهم له^(٥)، وإما من الفاعل.

والضمير في «حبه» لله تعالى، أي: على حب الله، وعلى التقدير: فهو مصدر مضاف للمفعول.

قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام.

قوله «مسكيناً». أي: ذا مسكنة، «ويَتِيمًا» أي: من يتامى المسلمين «وأسيراً» أي: الذي يؤسر فيحبس، وذلك أن المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه، واليتيم: هو الذي مات من يكتسب له، وبقي عاجزاً عن الكسب لصغره، والأسير: هو المأخوذ من قومه المملوك رقبة، الذي لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٩/١٢).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٤/١٩) عن مقاتل.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٢١٥/٣٠. (٤) في أ: وحكمه.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٥٩/١٢) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٤/٦).

وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان».

قال ابن عباس والحسن وقتادة: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم^(١).
فإن قيل: لما وجب قتله، فكيف يجب إطعامه؟

فالجواب: أن القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، وكذلك لا يحسن فيمن عليه قصاص أن يفعل به ما هو دون القتل، ويجب على الإمام أن يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين.
وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأسير: المحبوس^(٢).

وقال السدي: الأسير: المملوك^(٣)، وقيل: الأسير: الغريم، قال رسول الله ﷺ: «أَسِيرُكَ غَرِيمُكَ»^(٤) وقال عطاء: الأسير من أهل القبلة وغيرهم^(٥).

قال القرطبي^(٦): «هذا يعم جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قرينة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا».

وقيل: الأسير: الزوجة، قال ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ»^(٧).

قال القفال^(٨): واللفظ يحتمل كل ذلك؛ لأن أصل الأسر هو الشك بالقدر، وكان الأسير يفعل به ذلك حساً له.

فصل في الكلام على الآية

قال القرطبي^(٩): قيل نسخ آية المسكين آية الصدقات، وإطعام الأسير بالسيف قاله سعيد بن جبير.

وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام.

وقال الماوردي: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خبله وجنونه، وأسر المشرك انتقام يقف على رأي الإمام، وهذا برٌّ وإحسان.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٠/١٢) عن الحسن وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨٤) عن الحسن وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه وذكره أيضاً عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٠/١٢) عن مجاهد وسعيد بن جبير.

(٣) ورد مثله مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨٥) وعزاه إلى ابن مردويه وابن نعيم.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٦٩٨/٤).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٨٤) وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير وعطاء.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٨٤. (٧) تقدم.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٢١٧. (٩) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٨٤.

قوله ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِرَجَاءِ اللَّهِ﴾ على إضمار القول، أي: يقولون بالسنتهم لليتيم والمسكين والأسير إنما نطعمكم في الله - جل ثناؤه - فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه ﴿لَا تُبْذِرْ مَنكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا تنثروا علينا بذلك.

قال ابن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا^(١).

وعن مجاهد: أما إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله منهم، فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب^(٢).

قيل: هذه الآيات نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري نذر نذراً فوفى به.

وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر، وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد، وأبو عبيدة - رضي الله عنهم - ذكره الماوردي.

وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً، ویتيماً، وأسيراً^(٣).

وقيل: نزلت في علي وفاطمة - رضي الله عنهما - وجارية لهما اسمها فضة.

قال القرطبي^(٤): نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، وما ذكر عن علي، وفاطمة لا يصح.

وروى جابر الجعفي في قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِ﴾، عن قبر مولى علي - رضي الله عنه - قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا أبا الحسن لو نذرت عن ولدك نذراً، فقال علي - رضي الله عنه - إن برأ ولدي صمت لله ثلاثة أيام شكراً.

وقالت فاطمة - رضي الله عنها - مثل ذلك، وقال الحسن والحسين مثل ذلك وذكر الحديث. قال أهل الحديث: جابر الجعفي كذاب.

فصل في الإحسان إلى الغير

قال ابن الخطيب^(٥): اعلم أن الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله، وتارة يكون لغير الله، إما طلباً لمكافأة أو طلباً لحمدٍ وثناء، وتارة يكون لهما، وهذا هو الشرك، والأول هو المقبول عند الله، وأما القسمان الباقيان فمردودان، قال تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنَ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٤/١٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦١/١٢) عن مجاهد.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٤/١٩). (٤) الجامع لأحكام القرآن ٨٥/١٩.

(٥) الفخر الرازي ٢١٨/٣٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لَّيْرِيُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن ذَكْوَرِ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى، إذا عرفت ذلك فنقول: القوم لما قالوا: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ» بقي فيه احتمال، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْدُوا مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

فصل في الشكور والكفور

الشُّكُور والكُفُور: مصدران كـ «الشكر والكفر» وهو على وزن «الدُّخُول والخُرُوج» هذا قول جمهور أهل اللغة.

وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور، جماعة الشكر، وجعلت الكفور في قوله تعالى: ﴿فَأَبَى أَفْطَلِيْمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ مثل «برد وبرود» وإن شئت جعلته مصدراً واحداً في معنى جمع مثل: قعد قعوداً، وخرج خروجاً. قوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتهم. والثاني: لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل ترك المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل: إنه - تعالى - لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر، علل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين: بطلب رضا الله تعالى، وبالخوف، فما الحكمة في ذلك؟.

فالجواب: أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله، فلما كان كذلك، لا جرم علله بخوف القيامة فقط، وإما الإطعام فالله - تعالى - هو الذي شرعه، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله: «يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا». القَمْطَرِيرُ: الشديد، وأصله كما قال الزجاج: «مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطريها وزمت بأنفها».

قال الزمخشري: اشتقاقه من القطر، وجعلت الميم زائدة^(١)؛ قال أسد بن ناعصة:

[الخفيف]

٥٠٣٥ - واضْطَلَبْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِأَسْلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرَ الصَّبَاحِ^(٢)

(١) في أ: فريدة.

(٢) ينظر الكشف ٦٦٩/٤، والقرطبي ٩٠/١٩، والبحر ٣٨٤/٨، والدر المصون ٤٤٢/٦.

قال أبو حيان: واختلف النحاة في هذا الوزن، والأكثر على أنه لا يثبت «افمعلّ» في أوزان الأفعال ويقال: اقمطرّ يقمطرّ فهو مقمطرّ؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٠٣٦ - قَدْ جَعَلْتُ شَبَوَةَ تَرْبَرُ تَكْسُو اسْتَهَا لَحْمًا وَتَقْمَطِرُ^(١)

ويوم قَمَطَرِيرٍ وَقُمَاطِرٍ: بمعنى شديد؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٠٣٧ - فَفِرُّوا إِذَا مَا الْحَرْبُ نَارُ غُبَارِهَا وَلَجَّ بِهَا الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقُمَاطِرُ^(٢)

وقال الزجاج: الْقَمَطَرِيرُ: الذي يعبسُ حتى يجتمع ما بين عينيه. انتهى.

فعلى هذا استعماله في اليوم مجاز، وفي بعض كلام الزمخشري، أنه جعله من «القمط» فعلى هذا تكون الرّاءان فيه مزيدتين.

وقال القرطبي^(٣): «القمطيرير: الطويل»؛ قال الشاعر:

٥٠٣٨ - شَدِيدًا عَبُوسًا قَمَطِرِيرًا^(٤)

تقول العرب: يوم قمطيرير، وقُمَاطِرٍ، وعصيب بمعنى؛ وأنشد الفراء: [الطويل]

٥٠٣٩ - بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا عَلَيْنُكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ^(٥)

بضم القاف، واقمطرّ: إذا اشتد، وقال الأخفش: القمطيرير: أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء؛ وأنشد: [الطويل]

٥٠٤٠ - فَفِرُّوا إِذَا مَا الْحَزْبُ

البيت المتقدم^(٦).

وقال الكسائي: يقال: اقمطرّ اليوم وازمهراً اقمطراراً وازمهراً، وهو القمطيرير والزمهريز، ويوم مقمطرّ، إذا كان صعباً شديداً؛ قال الهذلي: [الطويل]

٥٠٤١ - بَنُو الْحَزْبِ أَرْضَعْنَا لَهُمْ مَقْمَطَرَةً وَمَنْ يُلْقَ مِنَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ يَهْرَبُ^(٧)

(١) ينظر اللسان (قمطر)، والبحر ٣٥٤/٨، والدر المصون ٤٤٢/٦.

(٢) ينظر اللسان (لجج) و (قمطر)، والقرطبي ٨٨/١٩، والبحر ٣٨٤/٨، والدر المصون ٤٤٢/٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨٨/١٩.

(٤) ينظر القرطبي ٨٨/١٩.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ٢١٦/٣، وإعراب القرآن ٩٩/٥، والطبري ١٣١/٢٩، ومجمع البيان ٦١١/١٠، والقرطبي ٨٨/١٩، واللسان (قمطر).

(٦) تقدم.

(٧) البيت لحذيفة بن أنس.

ورواية البيت كما في ديوان الهذليين:

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة فمن يلق منا يلق سيد مدرب

ينظر ديوان الهذليين ٢٥/٣، والقرطبي ٨٨/١٩.

و «العبوس» أيضاً صفة لـ «اليوم»، «يوماً» تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، والمعنى: نخاف يوماً ذا عبوس.

وقال ابن عباس: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران.

وقال مجاهد: إن العبوس بالشفتين، والقُمطيرير بالجبهة والحاجبين فجعلهما من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم^(١).

قوله: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾. أي: دفع عنهم بأس ذلك اليوم وشدته وعذابه.

وقرأ^(٢) أبو جعفر: «فوقَّاهم الله» بتشديد القاف على المبالغة.

واعلم أنه - تعالى - لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين: لأجل رضا الله تعالى والخوف من القيامة، بين هنا أنه أعطاهم هذين الغرضين وهو أنه حفظهم من أهوال القيامة، وهو قوله جل ثنائه ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ وأما طلبهم رضا الله فأعطاهم الله بسببه «نُضْرَةً» في الوجه، أي حسناً، حين رأوه، «وسروراً» في القلب قال الضحاك: النضرة: البياض والنقاء^(٣).

وقال ابن جبير: الحسن والبهاء^(٤).

وقال ابن زيد: أثر النعمة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَّهَمُ بِمَا صَبَرُوا﴾. «ما» مصدرية، و «جَزَّةٌ» مفعول ثانٍ، أي: جزاهم جنة بصبرهم وقدر مكّي مضافاً، فقال: تقديره دخول الجنة، ولبس حرير، والمعنى: وجزاهم بصبرهم على الفقر.

وقال القرطبي^(٦): على الصوم.

وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام، وهي أيام نذر.

وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم عن معصية الله ومحارمه، وهذا يدل على أن الآيات نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً.

وروى ابن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر، فقال: «الصَّبْرُ أربعة: الصَّبْرُ عند الصَّدْمَةِ الْأُولَى، والصَّبْرُ على أداءِ الْفَرَائِضِ، والصَّبْرُ على اجْتِنَابِ محارمِ اللَّهِ تعالى، والصَّبْرُ على الْمَصَائِبِ»^(٧).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٥/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤١١/٥، والبحر المحيط ٣٨٨/٨.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٦٧/٦) والقرطبي (٨٩/١٩).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر تفسير القرطبي (٨٩/١٩).

(٧) ينظر المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿جَنَّةٌ وَحَرِيرًا﴾. أي: أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير.

قوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾. حال من مفعول «جزارهم» والعامل فيها «جزى» ولا يعمل فيها «صبروا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة.

وقرأ علي^(١) - رضي الله عنه - : «وجازاهم».

وجوز أبو البقاء: أن يكون صفة لـ «جَنَّةٌ».

وهذا لا يجوز عند البصريين؛ لأنه كان يلزم بروز الضمير، فيقال: «مُتَكَبِّرِينَ هُمْ فيها» لجريان الصفة على غير من هي له.

وقد منع مكي أن يكون «متكئين» صفة لـ «جنة» لما ذكرنا من عدم بروز الضمير.

وممن ذهب إلى كون «متكئين» صفة لـ «جنة»، الزمخشري، فإنه قال: «ويجوز أن يكون مُتَكَبِّرِينَ، ولا يَرُونَ، وذَانِيَةً، كلها صفات الجنة». وهو مردود بما تقدم.

ولا يجوز أن يكون «متكئين» حالاً من فاعل «صبروا»؛ لأن الصبر كان في الدنيا، واتكاؤهم إنما هو في الآخرة. قال معناه مكي.

ولقائل أن يقول: إن لم يكن المانع إلا هذا فاجعلها حالاً مقدرة، لا ما لهم بسبب صبرهم إلى هذه الحالة، وله نظائر.

قال ابن الخطيب^(٢): وقال الأخفش: وقد ينصب على المدح والضمير في «فيها» أي في الجنة وقال الفراء: وإن شئت جعلت «متكئين» تابعاً، كأنه قال: جزاؤهم جنة متكئين فيها.

والأرائك: السُرُر في الحجال، وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: إحداها الأريكة لا تكون إلا حجلة على سرير. وثانيها: السَّجَل، وهو الدلو الممتلئ ماء، فإذا صفرت لم تسم سجلاً، وكذلك الذنوب لا تسمى ذنوباً حتى تملأ، قاله القرطبي^(٣).

وهذا فيه نظر، لأنه قد ورد في شعر العرب يصف البازي؛ قال: [الكامل]

٥٠٤٢ - يَغْشَى الْمُهْجَهَجَ كَالذَّنُوبِ الْمُرْسَلِ^(٤)

يعني الدلو إذا ألقى في البئر، وهو لا يلقى في البئر إلا إذا كان فارغاً.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤١١/٥، والبحر المحيط ٣٨٨/٨.

(٢) الفخر الرازي ٢١٩/٣٠. (٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٩/١٩.

(٤) عجز بيت للبيد وصدده:

أَوْ ذُو زَوَائِدَ لَا يَطَافُ بِأَرْضِهِ

ينظر ديوانه ص ١٢٧، واللسان (هجهج).

قال: والكأس لا تسمى كأساً حتى تُثَرَّعَ من الخمر، قال: وكذلك الطبق الذي تهدي فيه الهدية إذا كانت فيه يسمى مهدي، فإذا كان فارغاً يُسمى طبقاً أو خواناً.
قال ابن الأعرابي: مهدي - بكسر الميم -، ولا يسمى الطبق مهدي إلا وفيه ما يهدي، والمهداء - بالمد - الذي من عادته أن يهدي.

وقيل: الأرائك: الفرش على السرر؛ قال ذو الرمة: [الطويل]

٥٠٤٣ - خُدُودٌ جَفَتْ فِي السَّيْرِ حَتَّى كَانَتْما يُبَاشِرْنَ بِالْمَفْزَاءِ مَسَّ الْأَرَائِكِ^(١)

أي: الفرش على السرر.

قوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾. فيها أوجه:

أحدها: أنها حال ثانية من مفعول «جزاهم».

الثاني: أنها حال من الضمير المرفوع المستكن في «مُتَكَيِّنَ» فتكون حالاً متداخلة.

الثالث: أن تكون صفة لـ «جنة» كـ «متكئين» عند من يرى ذلك - كما تقدم - عن الزمخشري.

والزمهير: أشد البرد، وهذا هو المعروف؛ وقيل: هو القمر بلغة طيء؛ وأنشد:
[الرجز]

٥٠٤٤ - فِي لَيْلَةٍ ظَلَامُهَا قَدْ اغْتَكَرَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهِيرُ مَا نَهَرَ^(٢)

ويروى: ما ظهر، أي: لم يطلع القمر، والمعنى: لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا، ولا قمرأ كقمر الدنيا، أي: أنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار، لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر، والمعنى: أن الجنة لا يحتاج فيها إلى شمس ولا إلى قمر، ووزنه «فعلليل»، وقيل: المعنى: لا يرون في الجنة شدة حر كحر الشمس، ولا زمهيراً، أي: ولا برداً مفرطاً.

قال رسول الله ﷺ: «اشْتَكَيْتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا سُبْحَانَهُ، قَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَّ بَعْضِي بَعْضًا، فَجَعَلَ لَهَا نَفْسَيْنِ: نَفْسًا فِي الشِّتَاءِ، وَنَفْسًا فِي الصَّيْفِ، فَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهِيرِهَا، وَشِدَّةُ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ فِي الصَّيْفِ مِنْ سَمُومِهَا»^(٣).

(١) ينظر ديوانه ١٧٢٩/٣، ومجاز القرآن ٤٠١/١، ١٦٤/٢، والقرطبي ٨٨/١٩.

(٢) ينظر الكشف ٦٧٠/٤، والقرطبي ٩٠/١٩، والبحر ٣٨٥/٨، والدر المصون ٤٤٣/٦، وروح المعاني ٢٩/٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢/٢)، كتاب مواقيت الصلاة: باب الإبراد بالظهر في شدة الحر رقم (٥٣٦)، (٥٣٧) ومسلم (٤٣٠/١) كتاب المساجد: باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر رقم (١٨٠/٦١٥) والشافعي في «مسنده» (٥٢/١) رقم (١٥٤) والترمذي (٢٥٩٥) وابن ماجه (٤٣١٩) وأحمد (٢٣٨/٢، ٢٧٧) والبغوي في «شرح السنة» (٢٤/٢) رقم (٣٦٢) من حديث أبي هريرة.

قال مرة الهمداني: الزمهرير: البرد القاطع.

وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد.
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو لونٌ من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألو الله أن يعذبهم في النار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً.

قوله: ﴿وَدَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ﴾ العامة على نصبها، وفيها أوجه:

أحدها: أنها عطف على محل «لا يرون».

الثاني: أنها معطوفة على «مُتَكِنِينَ» فيكون فيها ما فيها.

قال الزمخشري: «فإن قلت: «ودانية عليهم ظلالها» علام عطف؟».

قلت: على الجملة التي قبلها؛ لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في «عليهم»، إلا أنها اسم مفرد، وتلك جماعة في حكم مفرد، تقديره: غير رائيين فيها شمساً، ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقمر ودنو الظلال عليهم».

الثالث: أنها صفة لمحذوف، أي: وجنة دانية.

قال أبو البقاء: كأنه قيل: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً» أي: أخرى دانية عليهم ظلالها، لأنهم قد وعدوا جنتين، لأنهم خافوا مقام ربهم، بقولهم: «إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَمَطَرِيرًا».

الرابع: أنها صفة لـ «جنة» الملفوظ بها. قاله الزجاج.

وقال الفراء: نصب على المدح، أي: دانية عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقرأ أبو حيوة^(١): «ودانية» بالرفع، وفيها وجهان:

أظهرهما: أن يكون «ظلالها» مبتدأ، «ودانية» خبر مقدم، والجملة في موضع الحال.

قال الزمخشري: «والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، والحال أن ظلالها دانية».

والثاني: أن ترتفع «دانية» بالابتداء، و «ظلالها» فاعل به، وبها استدلال الأخفش على جواز إعمال اسم الفاعل، وإن لم يعتمد، نحو «قائم الزيدون»، فإن «دانية» لم تعتمد على شيء مما ذكره النحويون، ومع ذلك فقد رفعت «ظلالها».

(١) ينظر: البحر المحيط ٣٨٨/٨، والدر المصون ٤٤٣/٦.

وهذا لا حجة فيه لجواز أن يكون مبتدأ وخبراً مقدماً كما تقدم.

وقال أبو البقاء: وحكي بالجبر، أي: في جنة دانية، وهو ضعيف، لأنه عطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار. يعنى أنه قرئ^(١) شاذاً: «وَدَانِيَّةٌ» بالجبر على أنها صفة لمحذوف، ويكون حينئذٍ نسقاً على الضمير المجرور من قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: ولا في جنة دانية، وهو رأي الكوفيين حيث يجوزون العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، ولذلك ضعفه، وتقدم الكلام على ذلك في البقرة.

وأما رفع «ظلالها» فيجوز أن يكون مبتدأ، و «عليهم» خبر مقدم، ولا يرتفع بـ «دانية»؛ لأن «دنا» يتعدى بـ «إلى» لا بـ «على»، ويجوز أن يرفع بـ «دانية» على أن يضمن معنى مشرفة؛ لأن «دنا» و «أشرف» متقاربان، قال معناه أبو البقاء، وهذان الوجهان جاريان في قراءة من نصب «دانية».

وقرأ الأعمش^(٢): «ودانياً» بالتذكير، للفصل بين الوصف وبين مرفوعه بـ «عليهم»، أو لأن الجمع مذكر.

وقرأ أبي^(٣): «وَدَانٍ عَلَيْهِمْ» بالتذكير مرفوعاً، وهي شاذة. فمذهب الأخفش حيث يرفع باسم الفاعل وإن لم يعتمد، ولا جائز أن يعربا مبتدأ وخبراً لعدم المطابقة.

وقال مكي: «وَقَرِئَ «ودانياً» بالتذكير» ثم قال: «ويجوز: «ودانية» بالرفع، ويجوز «دانٍ» بالرفع والتذكير»، فلم يصرح بأنهما قرئتا، وقد تقدم أنهما مقروء بهما، فكأنه لم يطلع على ذلك.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: معناه: أن ظل الأشجار في الجنة قريب من الأبرار فهي مظلة عليهم زيادة على نعيمهم.

قال ابن الخطيب^(٤): فإن قيل: الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس، وهناك لا شمس في الجنة، فكيف يحصل الظل؟.

فالجواب: أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت الأشجار مظلة منها وإن كان لا شمس ولا قمر كما أن أمشاطهم الذهب والفضة، وإن كان لا وسخ ولا شعث. ثم قوله: ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال عطفاً على دانية

(١) ينظر: الدر المصون ٤٤٣/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤١١/٥، والبحر المحيط ٣٨٨/٨، والدر المصون ٤٤٤/٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤١١/٥ - ٤١٢، والبحر المحيط ٣٨٨/٨، والدر المصون ٤٤٤/٦.

(٤) الفخر الرازي: ٢٢٠/٣٠.

فيمن نصبها، أي: ومذلة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «عليهم» سواء نصبت «دانية» أو رفعتها، أو جررتها، ويجوز أن تكون مستأنفة.

وأما على قراءة رفع «ودانية» فتكون جملة فعلية عطف على اسمية، ويجوز أن تكون حالاً كما تقدم.

فصل في تذليل قُطُوف الجنة

والمعنى: وسخرت لهم قُطُوفها، أي: ثمارها «تذليلاً» أي: تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك.

قال ابن قتيبة: «ذَلَّتْ» أدنيت منهم، من قولهم: حائط ذليل إذا كان قصير السمك. وقيل: «ذَلَّتْ» أي: جعلت منقاداً لا تمتنع على قُطُوفها كيف شاءوا.

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: ذَلَّتْ لهم، فهم يتناولون منها كيف شاءوا، فمن أكل قائماً لم يؤذه، ومن أكل جالساً لم يؤذه، ومن أكل مضطجاً لم يؤذه^(١).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد^(٢).

وتذليل القُطُوف: تسهيل التناول، والقُطُوف: الثمار، الواحد: قُطْف - بكسر القاف - سمي به؛ لأنه يقطف، كما سمي الجنى لأنه يُجنى.

قوله: ﴿تَذَلَّلَا﴾ تأكيد لما وصف به من الذل، كقوله تعالى: ﴿وَوَزَّلْنَاهُ نَازِلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

قال الماوردي: ويحتمل أن تكون تذليل قُطُوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها وقال النحاس: ويقال: المذل الذي قد ذلله الماء، أي: أرواه.

ويقال: المذل: الذي يفيثه أدنى ريح لنعمته، ويقال: المسوى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذُلِّل نخلك، أي: سوه.

قوله: ﴿وَيُطَاقُ عَلَيْهِمْ يُائِيهِ مِّنْ فَضْوٍ وَكَوَافٍ﴾ لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شربهم، وقدم وصف الأواني التي يشرب بها، ومعنى «يطاف» أي: يدور على هؤلاء الأبرار والخدم إذا أرادوا الشراب بأنية من فضة.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٤/١٢) عن مجاهد مثله وأخرجه الحاكم (٥١١/٢): عن البراء وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٦/٦) وزاد نسبه إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شبة وهناد بن السري وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث».

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩١/١٩).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء^(١)، أي: الذي في الجنة أشرف وأعلا، ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى: يُسْقَوْنَ في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب، كما قال تعالى: ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي والبرد، فنبه بذكر أحدهما على الأخرى. قوله: «بآنية» هذا هو القائم مقام الفاعل؛ لأنه هو المفعول به في المعنى، ويجوز أن يكون «عليهم».

و «آنية» جمع إناء، والأصل: «أأنية» بهمزتين، الأولى مزيدة للجمع، والثانية فاء الكلمة، فقلبت الثانية ألفاً وجوباً، وهذا نظير: كساء وأكسية، وغطاه وأغطية، ونظيره في صحيح اللام: حمار وأحمرة.

وقوله «مِنْ فِضَّةٍ» نعت لـ «آنية».

قوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾. الأكواب هي الكيزان العظام التي لا آذان لها ولا عرى، الواحد منها كوب؛ وقال عدي: [السريع]

٥٠٤٥ - مُتَّكِبًا تُقَرِّعُ أَبْوَابُهُ يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ^(٢)

قوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾. اختلف القراء في هذين الحرفين بالنسبة إلى التنوين وعدمه، وفي الوقوف بالألف وعدمها، كما تقدم خلافتهم في «سلاسل».

واعلم أن القراء فيهما على خمس مراتب:

إحداها^(٣): تنوينهما معاً والوقف عليهما بالألف لنافع والكسائي وأبي بكر.

الثانية: مقابلة هذه، وهي عدم تنوينهما، وعدم الوقف عليهما بالألف، لحمزة وحده.

الثالثة: عدم تنوينهما والوقف عليهما بالألف وعلى الثاني بدونها لهشام وحده.

والرابعة: تنوين الأول دون الثاني، والوقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها لابن كثير وحده.

الخامسة: عدم تنوينهما معاً، والوقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها، لأبي عمرو، وابن ذكوان، وحفص.

فأما من نونهما فكما مرّ في تنوين «سلاسل»؛ لأنها صيغة منتهى الجموع، ذاك على «مفاعل» وذا على «مفاعيل»، والوقف بالألف التي هي بدل من التنوين، وفيه موافقة للمصاحف المرسومة، فإنهما مرسومان فيهما بالألف على ما نقل أبو عبيد.

(١) ينظر القرطبي (٩١/١٩).

(٢) تقدم.

(٣) تنظر هذه الوجوه في: السبعة ٦٦٤، والحجة ٦/٣٤٨، ٣٤٩، وإعراب القراءات ٢/٤٢٠ - ٤٢١، وحجة القراءات ٧٣٩.

وأما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالألف عليهما فظاهر جداً.

وأما من نون الأول دون الثاني، فإنه ناسب بين الأول وبين رءوس الآي ولم يناسب بين الثاني والأول والوجه في وقفه على الأول بالألف وعلى الثاني بغير ألف ظاهر.

وقد روى أبو عبيد أنه كذلك في مصاحف أهل «البصرة».

وأما من لم ينونهما، ووقف على الأول بالألف، وعلى الثاني بدونها، فلأن الأول رأس آية، فناسب بينه وبين رءوس الآي في الوقف بالألف، وفرق بينه وبين الثاني؛ لأنه ليس برأس آية.

وأما من لم ينونهما ووقف عليهما بالألف، فلأنه ناسب بين الأول وبين رءوس الآي، وناسب بين الثاني وبين الأول.

وحصل مما تقدم في «سلاسل» وفي هذين الحرفين، أن القراء منهم من وافق مصحفه، ومنهم من خالفه لاتباع الأثر. وتقدم الكلام على «قوارير» في سورة «النمل»^(١)، والله الحمد.

وقال الزمخشري: «وهذا التنوين بدل من حرف الإطلاق لأنه فاصلة، وفي الثاني لاتباعه الأول». يعني أنهم يأتون بالتنوين بدلاً من حرف الإطلاق الذي للترنم؛ كقوله: [الرجز]

٥٠٤٦ - يَا صَاحِبَ الدُّمُوعِ الذُّرْفَنِ^(٢)

وفي انتصاب «قوارير» وجهان:

أظهرهما: أنه خبر «كان».

والثاني: أنها حال و «كان» تامة، أي كونت فكانت.

قال أبو البقاء: «وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها، ولو كان التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف».

وقرأ الأعمش^(٣): «قَوَارِيرُ» بالرفع، على إضمار مبتدأ، أي: هي قوارير، و «مِنْ فِضَّةٍ» صفة لـ «قوارير»، والمعنى: في صفاء القوارير، وبياض الفضة، فصفائها صفاء الزجاج وهي من فضة.

(١) آية ٤٤.

(٢) الرجز للعجاج ينظر ديوانه ٢/٢١٩، وتخليص الشواهد ص ٤٧، وخزانة الأدب ٣/٤٤٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/٣٥١، والكتاب ٤/٢٠٧، والمقاصد النحوية ١/٢٦، والإيضاح ص ١٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٣٨٩، والدر المصون ٦/٤٤٥.

فصل في وصف تربة الجنة

رُوي أن أرض الجنة من فضة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي منها، ذكره ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيت في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة.

قال ابن الخطيب^(١): ومعنى «كانت» هو من يكون، من قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أي: فتكونت قوارير بتكوين الله - تعالى - تفخيماً لتلك الخلقة العظيمة العجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهريين المتباينين، ثم قال: فإن قيل: كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن أصل القوارير في الدنيا الرَّمْل، وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة، فكما أن الله - تعالى - قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية، فكذلك قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة، فالغرض من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة الفضة إلى الرمل، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين فكذا بين القارورتين.

وثانيها: ما تقدم من قول ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، أي: أنها جامعة بين صفاء الزجاج وشفافيته وبين نقاء الفضة وشرفها^(٢).

وثالثها: أنه ليس المراد بالقوارير الزجاج، بل العرب تسمي ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة مما رق وصفا قارورة، فالمعنى: وأكواب من فضة مستديرة صافية.

قوله: ﴿تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ «قوارير»، والواو في «قَدَرُوها» فيها وجهان:

أحدهما: أنها عطف عليهم، ومعنى تقديرهم إياها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم، فجاءت كما قدروا.

والثاني: أن الواو للطائفين للدلالة عليهم في قوله تعالى: «وَيُطَافُ»، والمعنى: أنهم قدروا شربها على قدر ريِّ الشارب، وهذا ألد الشراب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها، ولا يعجز. قاله الزمخشري.

وجوز أبو البقاء: أن تكون الجملة مستأنفة.

(٢) في أ: ونقائها.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٢٠/٣٠.

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدر ريّهم بغير زيادة ولا نقصان^(١)، قال الكلبي: وذلك ألدّ وأشهى، والمعنى: قدرتها الملائكة التي تطوف عليهم^(٢)، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قدروها على ملء الكف لا يزيد ولا ينقص حتى لا تؤذيهم بثقل، أو بإفراط صغر^(٣).

وقرأ علي، وابن^(٤) عباس، والسلمي، والشعبي، وزيد بن علي، وعبيد بن عمير، وأبو عمرو في رواية الأصمعي: «قُدّروها» بضم القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول أي: جعلت لهم على قدر إرادتهم.

وجعله الفارسي من باب المقلوب، قال: كان اللفظُ قدرُوا عليها، وفي المعنى قلب؛ لأن حقيقة المعنى أن يقال: قدرت عليهم، فهي مثل قوله تعالى: ﴿لَسَنَؤُا بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ومثل قول العرب: إذا طلعت الجوزاء، ألقى العود على الحرباء.

قال الزمخشري: ووجهه أن يكون من قدر منقولاً، تقول: قدرت الشيء وقَدَرْتِه فلان: إذا جعلك قادراً له، ومعناه: جعلوا قادرين لها كما شاءوا، وأطلق لهم أن يقدرُوا على حسب ما اشتهوا.

وقال أبو حاتم: قدرت الأواني على قدر ريهم ما لم يسم فاعله، فحذف الري فصارت الواو مكان الهاء والميم، لما حذف المضاف مما قبلها، وصارت الواو مفعول ما لم يسم فاعله، واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدير النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من الهاء والميم حتى أقيمت مقام الفاعل.

وفي هذا التخريج تكلف مع عجرفة ألفاظه.

وقال أبو حيان^(٥): والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة أن يكون الأصل: قدر ريهم منها تقديراً، فحذف المضاف وهو الري، وأقيم الضمير بنفسه، فصار قدروها، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف، واتساع في الفعل.

قال شهاب الدين^(٦): وهذا منتزع من تفسير كلام أبي حاتم.

وقال القرطبي^(٧): وقال المهدوي: من قرأها «قدروها» فهو راجع إلى معنى القراءة

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٦٧/١٢) عن مجاهد والحسن. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٧/٦) من طريق مجاهد عن ابن عباس وعزاه إلى الفريابي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٢/١٩).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٢/٥، والبحر المحيط ٣٨٩/٨، والدر المصون ٤٤٥/٦.

(٥) البحر المحيط ٣٩٨/٨. (٦) الدر المصون ٤٤٥/٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٩٢/١٩.

الأخرى، وكان الأصل: قدروا عليها، فحذف حرف الجر، والمعنى: قدرت عليهم؛ وأنشد سيبويه البيت: [البسيط]

٥٠٤٧ - أَلَيْتُ حَبَّ الْعِرَاقِ الدُّهْرَ أَكُلُهُ وَالْحَبُّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ^(١)

وذهب إلى أن المعنى: على حب العراق، وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَفْثِيرًا﴾.

أي: لا يفضل عن الري ولا ينقص منه، فقد ألهمت الأقداح معرفة مقدار ري المشتبهى حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر ذلك الحكيم الترمذي في «نادر الأصول».

قوله: ﴿وَسَقَوْنَ فِيهَا كَلَسًا﴾. وهي الخمر في الإناء «كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا»، «كان» صلة، أي: مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلًا، وكانت العرب يستلذون من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم المأكول، ويحدث في المشروب ضرباً من اللذع، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب.

والزنجبيل: نبت معروف؛ وسميت الكأس بذلك؛ لوجود طعم الزنجبيل فيها؛ وأنشد الزمخشري للأعشى: [المتقارب]

٥٠٤٨ - كَأَنَّ الْقَرْنُفُلَ وَالزَّجْبِيلَ لَبَّاتًا بِفِيهَا وَأَزْيَا مَشُورًا^(٢)

وأنشد للمسيب بن علس يصف ثغر امرأة: [الكامل]

١٥٠٤٩ - وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّجْبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتُهُ وَسُلَاقَةُ الْخَمْرِ^(٣)

ويروى: وسلافة الكرم.

وقال مجاهد: «الزنجبيل» اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار، وكذا قال قتادة^(٤)، وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل.

والمعنى: كأن فيها، وتكون قد عطفت «رأيت» الثاني على الأول، ويكون فعل الجواب محذوفاً، ويكون فعل الجواب المحذوف هو الناصب لقوله تعالى: ﴿نَعِيمًا﴾، والتقدير: إذا صدر منك رؤية؛ ثم صدر منك رؤية أخرى رأيت نعيماً وملكاً فرأيت هذا هو الجواب.

(١) تقدم.

(٢) رواية البيت كما في ديوان الأعشى:

كَأَنَّ جَنْبِيًّا مِنَ الزَّجْبِيلِ لَبَّاتًا بِفِيهَا وَأَزْيَا مَشُورًا

ينظر ديوان الأعشى ص ٨٥، والكشاف ٦٧٢/٤، واللسان (زنجبيل)، ومجمع البيان ٦/٣٨٥، ١٠/٦٢١، والقرطبي ٩٢/١٩، والدر المصون ٤٤٦/٦.

(٣) ينظر الكشاف ٦٧٢/٤، والقرطبي ٩٢/١٩، والبحر ٨/٣٨٥، والدر المصون ٤٤٦/٦.

(٤) ذكره الطبري في «تفسيره» (٣٦٨/١٢) والماوردي (١٧٠/٦) والقرطبي (٩٢/١٩).

فصل في بيان الخطاب لمن؟!

هذا الخطاب قيل: للنبي ﷺ.

وقيل: عام، والنعيم: ما يتنعم به.

والملك الكبير: قال سفيان الثوري: بلغنا أن الملك الكبير، تسليم الملائكة عليهم.

وقيل: كون التيجان على رؤوسهم كما يكون على رؤوس الملوك.

وقال السدي ومقاتل: هو استئذان الملائكة عليهم^(١).

وقال الحكيم الترمذي: هو ملك التكوين إذا أراد شيئاً قال له: كن.

وفي الخبر: أن الملك الكبير هو أن أدناهم منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وأن أفضلهم منزلة من ينظر في وجه ربّه - تعالى - كل يوم مرتين.

و «عيناً» فيها من الوجوه ما تقدم، قوله «سلسيلاً» السلسيل: ما سهل انحداره في الحلق، قال الزجاج: هو في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة، وقال الزمخشري: يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسيل، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية، ودلت على غاية السلاسة.

قال أبو حيان^(٢): فإن كان عنى أنه زيدت حقيقة فليس بجيد؛ لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو، وإن عنى أنها حرف جاء في سنخ الكلمة، وليس في سلسل ولا سلسال؛ فيصح، ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة.

وقال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسيل إلا في القرآن.

وقال مكّي: هو اسم أعجمي نكرة فلذلك صرف. ووزن سلسبيل فعليل مثل درديس^(٣).

وقيل: فعليل؛ لأن الفاء مكررة.

وقرأ طلحة سلسيل دون تنوين ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث؛ لأنها اسم لعين بعينها، وعلى هذا فكيف صرفت في قراءة العامة؟ فيجواب أنها سميت بذلك لا على

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٤/١٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط ٣٩٠/٨.

(٣) الدُّرْدَيْسُ: خُرْزَة سوداء كأن سوادها لون كبد إذا رفعتها واستشففتها رأيتها تشفُّ مثل لون العنبة الحمراء تَتَحَبَّبُ بها المرأة إلى زوجها انظر اللسان (دريس).

جهة العلمية بل على جهة الإطلاق المجرد، أو يكون من باب تنوين «سلاسل» و «قوارير» وقد تقدم.

وأغرب ما قيل في هذا الحرف: أنه مركب من كلمتين من فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول، والتقدير سل أنت سبيلاً إليها.

قال الزمخشري: وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن معناه سل سبيلاً إليها، قال: وهذا غير مستقيم على ظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل: سل سبيلاً جعلت علماً للعين؛ كما قيل: تأبط شراً، وذرى حباً، وسميت بذلك؛ لأنه لا يشرب منها إلا من سأل سبيلاً إليها بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل علي أبدع وفي شعر بعض المحدثين:

٥٠٤٩ ب - سَلْ سَبِيلًا فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْسِ - سِ بِرَاحٍ كَأَنَّهَا سَلْسَبِيلٌ^(١)

قال أبو حيان^(٢) بعد تعجبه من هذا القول: وأعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته.

قال شهاب الدين^(٣): ولو تأمل ما قاله الزمخشري لم يلّمه ولم يتعجب منه؛ لأن الزمخشري هو الذي شنع على هذا القول غاية التشنيع.

وقال أبو البقاء: والسلسيل كلمة واحدة. وفي قوله كلمة واحدة تلويح وإيماء إلى هذا الوجه المذكور.

قوله: «ثم» هذا ظرف مكان، وهو مختص بالبعد، وفي انتصابه وجهان:

أظهرهما: أنه منصوب على الظرف، ومفعول الرؤية غير مذكور؛ لأنَّ القَصْد: وإذا صدرت منك رؤية في ذلك المكان رأيت كيت وكيت، ف «رأيت» الثاني جواب لـ «إذا».

وقال الفراء: «ثم» مفعولة به لـ «رأيت»، والمعنى: وإذا رأيت ما ثم، وصلح إضمار «ما»، كما قال ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، يريد: ما بينكم.

قال الزجاج: لا يجوز إضمار «ما».

وقال الفراء: «وإذا رأيت» تقديره: ما ثم، ف «ما» مفعول، وحذفت «ما»، وقامت «ثم» مقام «ما».

وقال الزمخشري تابعاً لأبي إسحاق: ومن قال: معناه: ما ثم، فقد أخطأ؛ لأن «ثم» صلة لـ «ما» ولا يجوز إسقاط الموصول، وترك الصلة.

(١) ينظر: الكشف ٦٧٢/٤، والدر المصون ٤٤٦/٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٣٩٠/٨. (٣) ينظر الدر المصون ٤٤٦/٦.

وفي هذا نظر؛ لأن الكوفيين يجوزون مثل هذا، واستدلوا عليه بأبيات وآيات تقدم الكلام عليها مستوفى في أوائل هذا الموضوع.

وقال ابن عطية: و «ثم» ظرف والعامل فيه «رأيت» أو معناه، والتقدير: رأيت ما ثم فحذفت ما.

قال أبو حيان^(١): وهذا فاسد؛ لأنه من حيث جعله معمولاً لـ «رأيت» لا يكون صلة لـ «ما»؛ لأن العامل فيه إذ ذاك محذوف: أي ما استقر ثم.

قال شهاب الدين^(٢): ويمكن أن يجاب عنه، بأن قوله أو معناه هو القول بأنه صلة لموصول فيكونان وجهين لا وجهاً واحداً حتى يلزمه الفساد، ولولا ذلك لكان قوله أو معناه لا معنى له، ويعني بمعناه أي معنى الفعل من حيث الجملة، وهو الاستقرار المقدر.

والعامة على فتح الثاء من «ثم» كما تقدم.

وقرأ حميد الأعرج بضمها، على أنها العاطفة، وتكون قد عطفت «رأيت» الثاني على الأول ويكون فعل الجواب محذوفاً، ويكون فعل الجواب المحذوف هو الناصب لقوله «نعيماً» والتقدير: وإذا صدرت منك رؤية ثم صدرت رؤية أخرى رأيت نعيماً وملكاً؛ فرأيت هذا هو الجواب.

فصل

واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادماً في تلك المجالس.

فقال ﴿وَيَطُوبُ عَلَيْهِمْ وَلِلَّذِينَ تَحْلَدُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة، قال الفراء يقال مخلصون مسورون ويقال مقرطون، وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلصون محلون.

والصفة الثالثة: قوله تعالى ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَيْثُ لَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه:

أحدها: شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ولو كان صفاً لشبهوا باللؤلؤ المنظوم؛ ألا ترى أنه تعالى قال ﴿وَيَطُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين.

وثانيها: أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفة لأنه أحسن وأكثر ماء.

(١) ينظر البحر المحيط ٨/٣٩١.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٤٤٧.

وثالثها: قال القاضي هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه .
واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة، أتبعه بما يدل على أن هناك أموراً أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ .

فصل

اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه، وكل ذلك مستحققر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة، وما هو إلا أن تصير نفسه منتقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت، وأما ما هو على أصول المتكلمين، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره، قال ابن عباس لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه . ويقال إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أذناه، وقيل لا زوال له وقيل إذ أردوا شيئاً حصل، ومنهم من حملة على التعظيم، فقال الكلبي هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان .

فصل

قال بعضهم قوله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ خطاب لمحمد خاصة، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أرايت إن دخلت الجنة أترى عيناى ما ترى عيناك؟ فقال نعم، فبكى حتى مات، وقال آخرون بل هو خطاب لكل أحد .

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ . قرأ نافع وحزمة^(١): بسكون الياء وكسر الهاء، والباقون: بفتح الياء وضم الهاء، لما سكنت الياء كسر الهاء، ولما تحركت ضمت على ما تقدم في أول الكتاب .

فأما قراءة نافع وحزمة، ففيها أوجه:

(١) ينظر: السبعة ٦٦٤، والحجة ٦/٣٥٤، وإعراب القراءات ٢/٤٢٢، وحجة القراءات ٧٣٩.

أظهرها: أن يكون خبراً مقدماً، و «ثياب» مبتدأ مؤخر.

والثاني: أن «عليهم» مبتدأ، و «ثياب» مرفوع على جهة الفاعلية، وإن لم يعتمد الوصف، وهذا قول الأخفش.

والثالث: أن «عليهم» منصوب، وإنما سكن تخفيفاً. قاله أبو البقاء.

وإذا كان منصوباً فسيأتي فيه أوجه، وهي واردة هنا، إلا أن تقدير الفتحة من المنقوص لا يجوز إلا في ضرورة أو شذوذ، وهذه القراءة متواترة، فلا ينبغي أن يقال به فيها، وأما قراءة من نصب، ففيه أوجه:

أحدها: أنه ظرف خبر مقدم، و «ثياب» مبتدأ مؤخر، كأنه قيل: فوقهم ثياب.

قال أبو البقاء: لأن عليهم بمعنى فوقهم.

قال ابن عطية: يجوز في النصب أن يكون على الظرف؛ لأنه بمعنى فوقهم.

قال أبو حيان^(١): وعالٍ وعالية اسم فاعل فيحتاج في إثبات كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب: «عاليك أو عاليتك ثوب».

قال شهاب الدين^(٢): قد وردت ألفاظه من صيغة أسماء الفاعلين ظرفاً، نحو خارج الدار، وداخلها وظاهرها، وباطنها، تقول: جلست خارج الدار، وكذلك البواقي، فكذاك هنا.

الثاني: أنه حال من الضمير في «عليهم».

الثالث: أنه حال من مفعول «حَسِبْتُهُمْ».

الرابع: أنه حال من مضاف مقدر، أي: رأيت أهل نعيم وملك كبير عليهم، ف «عليهم» حال من «أهل» المقدر، ذكر هذه الأوجه الثلاثة: الزمخشري، فإنه قال: «وعاليهم» بالنصب على أنه حال من الضمير في «يطوف عليهم» أو في «حسبتهم»، أي: يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب، أو حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب، ويجوز أن يراد: رأيت أهل نعيم وملك عليهم ثياب.

قال أبو حيان^(٣): أما أن يكون حالاً من الضمير في «حَسِبْتُهُمْ»، فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول، وهو لا يعود إلا على «ولدان»، وهذا لا يصح؛ لأن الضمائر الآتية بعد ذلك تدل على أنها للمعطوف عليهم من قوله تعالى ﴿وَسُلُّواْ﴾، ﴿وَسَقَنَّهُمْ﴾ و ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ﴾ وفك الضمائر يجعل هذا كذا وذلك كذا مع عدم الاحتياج إلى ذلك، والاضطرار إلى ذلك لا يجوز، وأما جعله حالاً من محذوف، وتقديره: أهل نعيم، فلا

(٢) الدر المصون ٦/٤٤٧.

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/٣٩٩.

(٣) البحر المحيط ٨/٣٩٩.

حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف.

قال شهاب الدين^(١): جعل أحد الضمائر لشيء، والآخر لشيء آخر لا يمنع صحة ذلك مع ما يميز عود كل واحد إلى ما يليق به، وكذلك تقدير المحذوف غير ممنوع أيضاً، وإن كان الأحسن أن تتفق الضمائر وألاً يقدر محذوف، والزمخشري إنما ذكر ذلك على سبيل التجويز لا على سبيل أنه مساوٍ أو أولى، فيرد عليه ما ذكره.

الخامس: أنه حال من مفعول «لَقَّاهُمْ».

السادس: أنه حال من مفعول «جزاهم». ذكرهما مكي.

وعلى هذه الأوجه التي انتصب فيها على الحال يرتفع به «ثياب» على الفاعلية، ولا يضر إضافته إلى معرفة في وقوعه حالاً؛ لأن الإضافة لفظية كقوله تعالى: ﴿عَارِضٌ مُّطَرِّئًا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فأنث «عارضاً» ولم يؤنث عالياً لأن مرفوعه غير حقيقي التأنيث.

السابع: أن ينتصب «عليهم» على الظرف، ويرتفع «ثياب» به على جهة الفاعلية، وهذا ما ش على قول الأخفش والكوفيين حيث يعملون الظرف وعديله، وإن لم يعتمد، كما تقدم ذلك في الصف.

وإذا رفع «عليهم» بالابتداء، و «ثياب» على أنه فاعل به، كان مفرداً على بابه لوقوع موقع الفعل، وإذا جعل خبراً مقدماً كان مفرداً لا يراد به الجمع، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَقَطَّ دَائِرَ الْقَوْمِ﴾ [الأنعام: ٤٥] أي أدبار. قاله مكي.

وقرأ ابن مسعود^(٢) وزيد بن علي: «عليتهم» مؤنثاً بالتاء مرفوعاً.

والأعمش وأبان عن عاصم كذلك^(٣)، إلا أنه منصوب.

وقد عرف الرفع والنصب مما تقدم.

وقرأت عائشة^(٤) - رضي الله عنها - «عَلَيْتَهُمْ» فعلاً ماضياً متصلاً بتاء التأنيث الساكنة، و «ثياب» فاعل به، وهي مقوية للأوجه المذكورة في رفع «ثياب» بالصفة في قراءة الباقيين كما تقدم تفصيله.

وقرأ ابن سيرين^(٥) ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبله وخلائق: جاراً ومجروراً.

وإعرابه كإعراب «عليهم» ظرفاً في جواز كونه خبراً مقدماً، أو حالاً مما تقدم وارتفاع «ثياب» به على التفصيل المذكور.

(١) الدر المصون ٤٤٨/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٣/٥، والدر المصون ٤٤٨/٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٣٩١/٨، والدر المصون ٤٤٨/٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٤/٥، والبحر المحيط ٣٩١/٨، والدر المصون ٤٤٨/٦.

(٥) ينظر السابق.

فصل في الضمير في عاليهم

قال ابن الخطيب^(١): والضمير في «عاليهم» إما للولدان أو للأبرار.

فكأنهم يلبسون عدة من الثياب، فيكون الذي يعلوها أفضلها، ولهذا قال تعالى «عاليهم» أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس، والمعنى: أن حجالهم من الحرير والديباج.

قوله تعالى: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. قرأ العامة: بإضافة الثياب لما بعدها.

وأبو حيوة^(٢) وابن أبي عبله: «ثِيَابٌ» منونة، «سُندُسٌ خُضِرُ وَإِسْتَبْرَقٌ» برفع الجميع ف «سُندُسٌ» نعت لـ «ثِيَابٌ»؛ لأن «السندس» نوع، و «خُضِرُ» نعت لـ «سُندُسٌ» يكون أخضر وغير أخضر، كما أن الثياب تكون سندساً وغيره، و «إِسْتَبْرَقٌ» نسق على ما قبله، أي: وثياب إستبرق.

واعلم أن القراء السبعة في «خُضِرُ»، و «إِسْتَبْرَقٌ» على أربع مراتب^(٣).

الأولى: رفعهما، لنافع وحفص فقط.

الثانية: خفضهما، للأخوين فقط.

الثالثة: رفع الأول، وخفض الثاني، لأبي عمرو وابن عامر فقط.

الرابعة: عكسه، لابن كثير وأبي بكر فقط.

فأما القراءة الأولى: فإن رفع «خُضِرُ» على النعت لـ «ثياب»، ورفع «إِسْتَبْرَقٌ» نسق على «الثياب» ولكن على حذف مضاف، أي: وثياب إستبرق، ومثله: على زيد ثوبٌ خزٌ وكتانٍ، أي: وثوبٌ كتانٍ.

وأما القراءة الثانية: فيكون جر «خُضِرُ» على النعت لـ «سندس».

ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع، فقال مكي: هو اسم جمع.

وقيل: هو جمع «سندسة» كـ «تمر وتمرّة»، ووصف اسم الجنس بالجمع يصح، قال تعالى ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]، و ﴿أَعْبَارُ نَحْلِ مُنْعَرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، و ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ [يس: ٨٠] وإذا كانوا قد وصفوا المحل لكونه مراداً به الجنس بالجمع في قولهم: «أهلك الناس الدينارُ الحمرُ والدّرهمُ البيضُ»، وفي التنزيل: ﴿أَوْ

(١) الفخر الرازي ٢٢٣/٣٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٤/٥، والبحر المحيط ٣٩١/٨، والدر المصون ٤٤٨/٦.

(٣) ينظر في هذه القراءات: السبعة ٦٦٥، والحجة ٣٥٦، ٣٥٧، وإعراب القراءات ٤٢٢/٢ - ٤٢٤، وحجة القراءات ٧٣٩ - ٧٤١.

الطِّفْلِ الذَّيْبِ ﴿ [النور: ٣١] فلأن يوجد ذلك في أسماء الجموع أو أسماء الأجناس الفارق بينها وبين واحدتها تاء التأنيث بطريق الأولى، وجر «إستبرق» نسقاً على «سندس»، لأن المعنى ثياب من سندس، وثياب من إستبرق.

وأما القراءة الثالثة: فرفع «خضر» نعتاً لـ «ثياب» وجر «إستبرق» نسقاً على سندس أي: ثياب خضر من سندس، ومن إستبرق، فعلى هذا يكون الإستبرق أيضاً أخضر.

وأما القراءة الرابعة: فجر «خضر» على أنه نعت لـ «سندس» ورفع «إستبرق» على النسق على «ثياب» بحذف مضاف، أي: وثياب استبرق. وتقدم الكلام على مادة السندس والإستبرق في سورة الكهف^(١).

وقرأ ابن محيصن^(٢): «وإستبرق» بفتح القاف، ثم اضطرب النقل عنه في الهمزة، فبعضهم ينقل عنه أنه قطعها، وبعضهم ينقل أنه وصلها.

قال الزمخشري: «وقرىء: «وإستبرق» نصباً في موضع الجر على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف، تقول الإستبرق، إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد جعل علماً لهذا الضرب من الثياب، وقرأ: «واستبرق» بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى بـ «استفعل» من البريق، وهو ليس بصحيح - أيضاً - لأنه معرب مشهور تعريبه وأصله استبره».

وقال أبو حيان^(٣): ودل قوله: إلا أن يزعم ابن محيصن، وقوله بعد: وقرىء «وإستبرق» بوصل الألف والفتح، أن قراءة ابن محيصن هي بقطع الهمزة مع فتح القاف، والمنقول عنه في كتب القراءات: أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف.

قال شهاب الدين^(٤): قد سبق الزمخشري إلى هذا مكى، فإنه قال: وقد قرأ ابن محيصن بغير صرف، وهو وهم إن جعله اسماً؛ لأنه نكرة منصرفة.

وقيل: بل جعله فعلاً ماضياً من «برق» فهو جائز في اللفظ بعيد في المعنى.

وقيل: إنه في الأصل فعل ماض على «استفعل» من «برق»، فهو عربي من البريق، فلما سمي به قطعت ألفه؛ لأنه ليس من أصل الأسماء أن يدخلها ألف الوصل، وإنما دخلت معتلة مغيرة عن أصلها، معدودة، لا يقاس عليها؛ انتهى، فدل قوله «قطعت ألفه» إلى آخره، أنه قرأ بقطع الهمزة وفتح القاف، ودل قوله أولاً: وقيل: بل جعله فعلاً ماضياً من «برق»، أنه قرأ بوصل الألف، لأنه لا يتصور أن يحكم عليه بالفعلية غير منقول إلى

(١) آية ٣١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤/٥١٤، والبحر المحيط ٨/٣٩٢، والدر المصون ٦/٤٤٩.

(٣) البحر المحيط ٨/٤٠٠. (٤) الدر المصون ٦/٤٤٩.

الأسماء، ويترك ألفه ألف قطع ألبتة، وهذا جهل باللغة، فيكون قد رُوِيَ عنه قراءتا قطع الألف ووصلها، فظهر أن الزمخشري لم ينفرد بالنقل عن ابن محيصن بقطع الهمزة.

وقال أبو حاتم في قراءة ابن محيصن: لا يجوز، والصواب: أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب قطع الألف، وإجراؤه على قراءة الجماعة.

قال أبو حيان^(١): نقول: إن ابن محيصن قارئ جليل مشهور بمعرفة العربية، وقد أخذ عن أكابر العلماء، فيتطلب لقراءته وجه، وذلك أنه يجعل «استفعل» من البريق، تقول: برق واستبرق، كـ «عجب واستعجب»، ولما كان قوله: «خضر» يدل على الخضرة، وهي لون ذلك السُّنْدُس، وكانت الخضرة مما يكون فيها لشدتها دُهمة وغبش، أخبر أن في ذلك بريقاً وحسناً يزيل غبشيته، فـ «استبرق» فعل ماضٍ، والضمير فيه عائِد على السُّنْدُس، أو على الأخضر الدالّ عليه خضر، وهذا التخريج أولى من تلحين من يعرف العربية، وتوهم ضابط ثقة. وهذا هو الذي ذكره مكي. وهذه القراءة قد تقدمت في سورة الكهف.

قوله تعالى: ﴿رُحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ عطف على «وَيُطَوَّفُ» عطف ماضياً لفظاً مستقبلاً معنى، وأبرزه بلفظ الماضي لتحقيقه.

وقال الزمخشري بعد سؤال وجواب من حيث المعنى: وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب وسوار من فضة.

وناقشه أبو حيان في قوله: «بالمعصم»، فقال^(٢): قوله: «بالمعصم» إما أن يكون مفعول «أحسن» وإما أن يكون بدلاً منه، وقد فصل بينهما بالجار والمجرور، فإن كان الأول فلا يجوز؛ لأنه لم يعهد زيادة الباء في مفعول «أفعل» التعجب، لا تقول: ما أحسن بزيد، تريد: ما أحسن زيداً، وإن كان الثاني ففي هذا الفصل خلاف، والمنقول عن بعضهم أنه لا يجوز، والمولد منا إذا تكلم ينبغي أن يتحرز في كلامه فيما فيه خلاف.

قال شهاب الدين^(٣): وأي غرض له في تتبع كلام هذا الرجل حتى في الشيء اليسير على أن الصحيح جواز، وهو المسموع من العرب نثراً؛ قال عمرو بن معديكرب: لله درُّ بني مجاشع ما أكثر في الهيجاء لقاءها، وأثبت في المكرمات بقاءها، وأحسن في اللزبات عطاءها، والتشاغل بغير هذا أولى.

فصل في المراد بالأساور

قال هنا: «أساور من فضة» وفي سورة «فاطر»: ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠. (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠٠. (٣) الدر المصون ٦/ ٤٥٠.

[فاطر: ٣٣]، وفي سورة «الحج»: ﴿يُحْكَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣] فقيل: حلي^(١) الرجل الفضة.

وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب، وسواران من فضة، وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن أهل الجنة. قاله سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

وقيل: يعطى كل أحد ما يرغب فيه وتميل نفسه إليه.

وقيل: أسورة الفضة إنما تكون للولدان وأسورة الذهب للنساء.

وقيل: هذا للنساء والصبيان.

وقيل: هذا بحسب الأوقات.

قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾]^(٢)، قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة تخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فيجري عليهم بنصرة النعيم، فلا تتغير آبشارهم، ولا تتشعث أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خزنة الجنة، فيقولون لهم: ﴿سَلِّمُ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٣) [الزمر: ٧٣].

وقال النخعي وأبو قلابة: هو إذا شربوه بعد أكلمهم طهرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رشح مسك وضمرت بطونهم^(٤).

وقال مقاتل: هو من عين ماء على باب الجنة ينبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غشٍّ وغُلٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذى^(٥)، وعلى هذا فيكون «فعولاً» للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. قاله القرطبي^(٦).

قال ابن الخطيب^(٧): قوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾ فيه قولان:

الأول: المبالغة في كونه طاهراً ثم على هذا التفسير احتمالان:

أحدهما: ألا يكون نجساً كخمر الدنيا.

(١) في أ: الرجال. (٢) سقط من ب.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٦/١٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٢/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٨٩/٦) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٦/١٩) عن مقاتل.

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٩٦/١٩). (٧) ينظر الفخر الرازي (٢٢٥/٣٠).

وثانيهما^(١): المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة، يعني ما مسته الأيدي الوضيعة والأرجل الدنسة.

وثانيهما: أنه لا يؤول إلى النجاسة، لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهراً؛ لأنه يطهرُ باطنهم عن الأخلاق الذميمة والأشياء المؤذية.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع ما ذكره قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور والزنجبيل والسلسيل، أو هذا نوع آخر؟ قلنا: بل هذا نوع آخر، لوجوه:
أحدها: التكرار.

والثاني: أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه تبارك وتعالى، بقوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وذلك يدل على فضل هذا على غيره.

والثالث: ما روي من أنه يقدم إليهم الأطعمة والأشربة، فإذا فرغوا منها أثوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسك، وهذا يدل على أن الشراب مغاير لتلك الأشربة، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقاً يفوح منه ريح كريح المسك وكل ذلك يدل على المغايرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً﴾، أي: يقال لهم: إن هذا كان جزاؤكم، أي: ثواب أعمالكم، فيزداد بذلك القول فرحهم وسرورهم، كما أن المعاقب يزداد غمّه، إذا قيل له: هذا جزاء عملك الرديء «وَكَانَ سَعْيُكُمْ» أي: عملكم «مَشْكُورًا» أي: من قبل الله وشكره للعبد قبول طاعته وثناؤه عليه وإثابته.

وقال قتادة: غفر لهم الذنب وشكر لهم الحسنى^(٢).

وقيل: هذا إخبار من الله - تعالى - لعباده في الدنيا كأنه - تعالى - شرح لهم ثواب أهل الجنة، أي أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبيدي لكم خلقتها ولأجلكم أعددتها.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب^(٣): وفي الآية سؤالان:

(١) في ب: والثانية.

(٢) ينظر القرطبي (٩٦/١٩) وأخرجه الطبري (٣٧٣/١٢).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٢٦/٣٠.

الأول: إذا كان فعل العبد خلقاً لله - تعالى - فكيف يعقل أن يكون فعل الله - تعالى - جزءاً على فعل الله؟.

والجواب: أن الجزء هو الكافي وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله.

السؤال الثاني: كون سعي العبد مشكوراً يقتضي كون الله شاكراً له؟.

والجواب: كون الله - تعالى - شاكراً للعبد محال إلا على وجه المجاز، وهو من ثلاثة أوجه:

الأول: قال القاضي: إن الثواب مقابل لعملهم كما أن الشكر مقابل للنعم.

والثاني: قال القفال: إنه مشهور في كلام الناس أن يقولوا للراضي بالقليل والمثنى به أنه مشكور، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده، وهو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات وإعطائه إياهم عليها ثواباً كبيراً.

الثالث: أن منتهى درجة العبد أن يكون راضياً من ربه مرضياً لربه، كما قال تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَىٰ إِلَيْكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، وكونها راضية من ربه أقل درجة من كونها مرضية لربه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُ جَزَاءً﴾ إشارة إلى الأمر الذي تصير به النفس راضية مرضية، وقوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا﴾ إشارة إلى كونها مرضية لربه لما كانت هذه الحالة أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصدقيين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٧٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) ﴿

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾. يجوز أن يكون تأكيداً لاسم «إن» وأن يكون فصلاً و «نَزَّلْنَا» على هذين الوجهين هو خبر «إن»، ويجوز أن يكون «نحن» مبتدأ، و «نَزَّلْنَا» خبره والجملة خبر «إن».

وقال مكي: «نَحْنُ» في موضع نصب على الصفة لاسم «إن» لأن المضممر يوصف بالمضممر؛ إذ هو بمعنى التأكيد لا بمعنى الغلبة، ولا يوصف بالمظهر؛ لأنه بمعنى التحلية والمضممر مستغن عن التحلية، لأنه لم يضمّر إلا بعد أن عرف تحليته وعينه، وهو محتاج إلى التأكيد لتأكيد الخبر عنه.

قال شهاب الدين^(١): وهذه عبارة غريبة جداً، كيف يجعل المضممر موصوفاً بمثله،

(١) الدر المصون ٦/ ٤٥٠.

ولا نعلم خلافاً في عدم جواز وصف المضمّر إلا ما نقل عن الكسائي أنه جوّز وصف ضمير الغائب بضمير آخر، فلا خلاف في عدم جوازه، ثم كلامه يؤول إلى التأكيد فلا حاجة إلى العدول عنه.

فصل في مناسبة اتصال الآية بما قبلها

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما ذكر أصناف الوعد والوعيد بين أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر ولا كهانة ولا شعر وأنه حقّ. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أنزل القرآن متفرقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة فلذلك قال: «نَزَّلْنَا»^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر تعالى أن ذلك وحي من الله تعالى ولا جرم بالغ في تكرار الضمير بعد إيقاعه تأكيداً على تأكيد فكأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفار يقولون: إن ذلك كهانة فأنا الله الملك الحق، أقول على سبيل التأكيد: إن ذلك وحي حقّ وتنزيل صدق من عندي، وفي ذلك فائدتان:

إحداهما: إزالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار؛ لأن الله - تعالى - عظّمه وصدقه.

والثانية: تقويته على تحمّل مشاق التكليف، فكأنه - تعالى - يقول: إني ما نزلت عليك القرآن متفرقاً إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: اصبر على أذى المشركين، ثم نسخ بآية القتال.

وقيل: اصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو انتظر حكم الله إذ وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة، ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا﴾ أي: ذا إثم ﴿أَوْ كُفُورًا﴾ أي: لا تطع الكفار.

روى معمر عن قتادة، قال: قال أبو جهل: إن رأيت محمداً لأطأنّ على عنقه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا أَوْ كُفُورًا﴾^(٣).

وقيل: نزلت في عتبة بن أبي ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة ففيهما نزلت، وعرض عليه عتبة

(١) ينظر القرطبي (٩٦/١٩) والطبري (٣٧٣/١٢).

(٢) ينظر الفخر الرازي (٢٢٧/٣٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٣/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٠/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

ابنته وكانت من أجمل النساء، وعرض عليه الوليد أن يعطيه من الأموال حتى يرضى، ويترك ما هو عليه، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ عشر آيات من أول «حم» السجدة، إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ - ١٣]، فانصرفا عنه وقال أحدهما: ظننت أن الكعبة ستقع عليّ.

قوله: ﴿أَوْ كُفُّورًا﴾. في «أو» هذه أوجه:

أحدها: أنها على بابها، وهو قول سيويه.

قال أبو البقاء: وتفيد في النهي عن الجميع، لأنك إذا قلت في الإباحة: جالس الحسن أو ابن سيرين كان التقدير: جالس أحدهما فإذا نهى قال: لا تكلم زيداً أو عمرأ، فالتقدير: لا تكلم أحدهما، فأيهما كلمه كان أحدهما فيكون ممنوعاً منه، فكذلك في الآية، ويؤول المعنى إلى تقدير: ولا تطع منهما آثماً ولا كفوراً.

قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: معنى «أو» ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو لتكون نهياً عن طاعتها جميعاً؟

قلت: لو قال: لا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما، وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما هو عن طاعتها جميعاً أنهى، كما إذا نهى أن يقول لأبويه: «أف» علم أنه منهي عن ضربهما على طريق الأولى.

الثاني: أنها بمعنى «لا»، أي: لا تطع من أثم ولا من كفر.

قال مكّي: «وهو قول الفراء، وهو بمعنى الإباحة التي ذكرنا».

الثالث: أنها بمعنى الواو، وقد تقدم أن ذلك قول الكوفيين.

والكفور وإن كان يستلزم الإثم إلا أنه عطف لأحد أمرين:

إما أن يكونا شخصين بعينهما كما تقدم فالآثم عتبة، والكفور الوليد.

وإما لما قاله الزمخشري: «فإن قلت: كانوا كلهم كفراً، فما معنى القسمة في قوله «آثماً أو كفوراً»؟

قلت: معناه لا تطع منهم ركباً لما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه، لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر، أو غير إثم ولا كفر، فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث».

فصل

قال ابن الخطيب^(١): قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يدخل فيه ألا تطع فيه آثماً أو كفوراً، فكان ذكره بعد ذلك تكراراً؟

(١) ينظر الفخر الرازي ٢٨/٣٠.

والجواب: أن الأول أمر بالمأمورات، والثاني: نهى عن المنهيات، ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح، فيكون التصريح منه مفيداً.

فإن قيل: إنه ﷺ ما كان يطيع أحداً منهم، فما فائدة هذا النهي؟.

فالجواب: أن المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد لأجل ما تركب فيهم من الشهوة الداعية إلى الفساد، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله - تعالى - وإرشاده لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم - عليه الصلاة والسلام - ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم أنه لا بد من الرغبة إلى الله - تعالى - والتضرع إليه أن يصونه عن الشبهات والشهوات.

فإن قيل: ما الفرق بين الآثم والكفور؟.

فالجواب: أن الآثم هو الآتي بالمعاصي أي معصية كانت، والكفور: هو الجاحد للنعمة، فكل كفور آثم، وليس كل آثم كفوراً، لأن الإثم عام في المعاصي كلها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فسمى الشرك إثمًا، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكُنْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظِلْهَرِ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]. قد نزلت هذه الآيات على أن الإثم جميع المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ آثَمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. أي: صلْ لربك أول النهار وآخره ففي أوله صلاة الصبح والظهر والعصر، وهو الأصيل، ﴿وَمِنْ آثَمٍ فَاسْجُدْ لَمْ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة، ﴿وَسَيِّئُهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني الططوع فيه^(١). قاله ابن حبيب.

وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة^(٢).

وقيل: هو الذكر المطلق، سواء كان في الصلاة أو في غيرها.

وقال ابن زيد وغيره: إن قوله تعالى: ﴿وَسَيِّئُهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ منسوخ بالصلوات الخمس^(٣).

وقيل: هو ندب.

وقيل: هو مخصوص بالنبي عليه الصلاة والسلام.

وجمع الأصيل: الأصائل، والأصل، كقولك: سفائن وسفن، والأصائل: جمع الجمع، ودخلت «من» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١].

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٧/١٩).

(١) في أ: في الليل.

(٣) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿وَسَخِّحْهُ﴾ فيه دليل على عدم صحة قول بعض أهل المعاني والبيان، أن الجمع بين الحاء والهاء - مثلاً - يخرج الكلم عن فصاحتها؛ وجعلوا من ذلك قوله: [الطويل]

٥٠٥٠ - كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِيَ وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَخَدِي^(١) البيت لأبي تمام، ويمكن أن يفرق بين ما أنشده وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرر فيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (٢٧) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾. توبيخ وتقريع والمراد أهل «مكة»، والعاجلة: الدنيا.

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله ﷺ بالتعظيم والأمر والنهي، عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، ومعناه: إن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر والإعراض عما ينفعهم في الآخرة، هو محبتهم للذات العاجلة والراحات الدنيوية البدنية.

قوله: ﴿وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾، أي: بين أيديهم، وقال: «وَرَاءَهُمْ» ولم يقل: قُدَّامَهُمْ لأمر:

أحدها: أنهم لما أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم.

وثانيها: المراد: يذرون وراءهم مصالح يوم ثقیل، أي عسير، فأسقط المضاف.

وثالثها: أن «وراء» يستعمل بمعنى «قُدَّام»، كقوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقال مكِّي: سمي «وراء» لتوازيه عنك، فظاهر هذا أنه حقيقة، والصحيح أنه استعير لـ «قُدَّام».

قوله: «يَوْمًا». مفعول بـ «يَذْرُونَ» لا ظرف، ووصفه بالثقل على المجاز؛ لأنه من صفات الأعيان لا المعاني.

(١) قائله - كما قال المؤلف بعده - هو أبو تمام. ينظر ديوانه ١٦٦/٢ ومعاهد التنصيص ٣٥/١، والدر

وقيل: معناه يتركون الإيمان بيوم القيامة.

وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوته، وحُبُّهم العاجلة: أخذهم الرِّشَا على ما كتموه، وقيل: أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا، والآية تَعْمُ، واليوم الثقيل: يوم القيامة، وسمي ثَقِيلاً لشِدائده وأهواله وقيل: للقضاء فيه بين العباد.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَهُمْ﴾ أي من طين، ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلقهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم، والأسر: الخلق.

قال أبو عبيد: يقال: فرس شديد الأسر، أي: الخلق، ويقال: أسره الله، إذا شدد خلقه؛ قال لبيد: [الرملة]

٥٠٥١ - سَاهِمُ الْوَجْهِ شَدِيدُ أَسْرِهِ مُشْرِفُ الْحَارِكِ مَخْبُوكُ الْكَتِيدِ^(١)
وقال الأخطل: [الكامل]

٥٠٥٢ - مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدِ أَسْرِهِ سَلِسُ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالَا^(٢)
وقال أبو هريرة والحسن والربيع رضي الله عنهم: شَدَدْنَا مَقَاصِلَهُمْ^(٣).

قال أهل اللغة: الأسر: الرُّبْط، ومنه: أَسِرَ الرَّجُلُ، إذا أوثق بالقيد، وفرس مأسورة الخلق وفرس مأسورة بالعقب، والإسار: هو القيد الذي يشد به الأقتاب، تقول: أسرت القتب أسراً، أي: شددته وربطته.

فصل في معنى الأسر

قال ابن زيد: الأسر القوة، والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية، أي: سويت خلقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي^(٤).

قال ابن الخطيب^(٥): وهذا الكلام يوجب عليهم طاعة الله تعالى من حيث الترغيب والترهيب، أما الترغيب فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة، وخلق لهم جميع ما يمكن الانتفاع به، فإذا أحبوا اللذات العاجلة، وتلك اللذات لا تحصل إلا بالمتنفع والمنتفع به، وهما لا يحصلان إلا بتكوين

(١) يروى الشطر الثاني برواية: مُشْرِفُ الْحَالِ مَخْبُوكُ الْكَفْلِ.

ينظر ديوان لبيد (١٤٤)، واللسان (حبك) (حرك)، والقرطبي ٩٨/١٩.

(٢) ينظر ديوان الأخطل ص ٣٨٨، والطبري ١٣٩/٢٩، ومجمع البيان ١٠/٦٢٥، والقرطبي ٩٨/١٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٥/١٢) عن أبي هريرة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٠/٦) عن الربيع وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وذكره أيضاً عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٥/١٢). (٥) ينظر الفخر الرازي (٣٠/٢٢٨).

الله وإيجاده، وهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله - تعالى - وترك التمرد.

وأما التهيب فإنه قادرٌ على أن يميتهم وأن يسلب النعم عنهم، وأن يلقي بهم في كل محنة وبلية، فلأجل الخوف من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم الانقياد لله - تعالى - وترك التمرد، فكأنه قيل: هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة حسنة إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله - تعالى - والانقياد له، فلم توسلتم به إلى الكفر بالله - تعالى - والإعراض عن حكمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوعَ الله منهم^(١).

وقال ابن الخطيب^(٢): معناه: إذا شئنا أهلكناهم، وأتيننا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦١]، والغرض منه: بيان الاستغناء التام عنهم، كأنه قيل: لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة، وبتقدير إن ثبتت الحاجة، فلا حاجة بنا إلى هؤلاء الأقوام؛ فإننا قادرون على إبدالهم وإيجاد أمثالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَتَيْنَا النَّاسَ وَيَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [النساء: ١٣٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهم - معناه: لغيرنا محاسنهم إلى أقبح الصور^(٣).

وقيل: أمثالهم في الكفر.

فصل في نظم الآية

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾: وحقه أن يجيء بـ «إن» لا بـ «إذا»، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا سَبَّحْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: أنَّ «إذا» للمحقق، و «إن» للمحتمل، وهو تعالى لم يشأ ذلك، وجوابه أن «إذا» قد تقع موقع «إن» كالعكس.

قال ابن الخطيب^(٤): فكأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف، لأن كل واحد من «إن» و «إذا» حرف شرط، إلا أن حرف «إن» لا يستعمل فيما هو معلوم الوقوع، فلا يقال: إن طلعت الشمس أكرمتك.

أما حرف «إذا» فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع تقول ابتداء: إذا طلعت الشمس - فهانها - لما كان الله تعالى عالماً أنه سيجيء وقت يبدل الله تعالى فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف «إذا».

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٩٩/١٩).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٩/١٩).

(٤) ينظر الفخر الرازي ٢٣٠/٣٠.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٣٠/٣٠.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾. أي: هذه السورة موعظة، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى طاعته.
وقيل: «سبيلاً» أي وسيلة.

وقيل: وجهة وطريقة إلى الخير والمعنى: أن هذه السورة لما فيها من الترتيب العجيب، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب تذكرة للمتأملين وتبصرة للمتبصرين.

فصل في قول الجبرية

قال ابن الخطيب^(١): متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منهما صريح مذهب الجبر، لأن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الآية يقتضي أن مشيئة العبد متى كانت خالصة، فإنها تكون مستلزمة للفعل، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يقتضي كون مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد، ومستلزم المستلزم مستلزم، فإن مشيئة الله - تعالى - مستلزمة لفعل العبد، وذلك هو الجبر، وكذا الاستدلال على الجبر بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، لأن هذه الآية أيضاً تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل، ثم التقدير ما تقدم.

قال القاضي: المذكور هاهنا اتخاذ السبيل إلى الله - تعالى - وهو أمر قد شاءه؛ لأنه أمر به فلا بد وأن يكون قد شاءه، وهذا لا يقتضي أن يقال: العبد لا يشاء إلا ما قد شاء الله على الإطلاق إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أن الله تعالى أرادته وشاءه. وهذا الكلام لا تعلق له بالاستدلال الذي ذكرناه، فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص العام بالصُّور المتقدمة، وذلك ضعيف لأن خصوص ما قبل الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية وارداً بحيث تعم تلك الصورة وغيرها.

قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه حال، أي إلا في حال مشيئة الله تعالى. قاله أبو البقاء.

وفيه نظر: لأن هذا مقدر بالمعرفة إلا أن يريد تفسير المعنى.

والثاني: أنه ظرف.

قال الزمخشري: «فإن قلت: ما محل أن يشاء الله؟»

قلت: النصب على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله تعالى، وكذلك قرأ ابن

مسعود^(٢): «إلا ما يشاء الله، لأن «ما» مع الفعل كـ «إن» معه».

ورّد أبو حيان^(٣): بأنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر الصريح، لو قلت: أجيئك أن

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٣٠. (٢) ينظر: الكشاف ٤/٦٧٦، والمحرر الوجيز ٥/٤١٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٠٢.

يصبح الديك، أو ما يصيح، لم يجز. قال شهاب الدين^(١): قد تقدم الكلام في ذلك مراراً. وقرأ نافع والكوفيون: «تشاءون» خطاباً لسائر الخلق، أو على الالتفات من الغيبة في قوله تعالى: ﴿تَحْنُ خَلَقْنَهُمْ﴾، والباقون^(٢): بالغيبة جرياً على قوله: «خلقناهم» وما بعده.

قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أي الطاعة والاستقامة، واتخاذ السبيل إلى الله ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه، وليس لهم، وأنه لا ينفذ مشيئة أحد، ولا تقدم إلا تقدم مشيئة الله تعالى، قيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية.

قال القرطبي^(٣): والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته.

قال الفراء: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» جواب لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم، فقال: «وَمَا تَشَاءُونَ» ذلك السبيل «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» لكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم «حَكِيمًا» في أمره ونهيه لكم. قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. أي: يدخله الجنة راحماً له.

قال ابن الخطيب^(٤): إن فسرنا الرحمة بالإيمان فالآية صريحة في أن الإيمان من الله تعالى وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله تعالى وفضله، وإحسانه لا بسبب الاستحقاق؛ لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل أو الحاجة، وهما محالان على الله تعالى، والمفضي إلى المحال محال، فتركه محال، فوجوده واجب عقلاً، وعدمه ممتنع عقلاً، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة البتة.

قوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾، أي: ويعذب الظالمين، وهو منصوب على الاشتغال بفعل يفسره «أَعَدَّ لَهُمْ» من حيث المعنى لا من حيث اللفظ، تقديره: وعذب الظالمين، ونحوه: «زيداً مرت به» أي: جاوزت ولاست. وكان النصب هنا مختاراً لعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها، وهو قوله «يُدْخِلُ».

قال الزجاج: نصب «الظَّالِمِينَ» لأن قبله منصوباً، أي: يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين، أي: المشركين، ويكون «أَعَدَّ لَهُمْ» تفسيراً لهذا المضمرة؛ قال الشاعر:

[المنسرح]

٥٠٥٣ - أَضْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

(١) الدر المصون ٦/٤٥٢.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٥، والحجة ٦/٣٦٧، وإعراب القراءات ٢/٤٢٤ - ٤٢٥، وحجة القراءات ٧٤١.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٩٩. (٤) الفخر الرازي: ٣٠/٢٣٢.

وَالذُّنْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَزْتُ بِهِ وَخَدِي وَأَخْشَى الرِّيحَ وَالْمَطَرَ^(١)
أي: أخشى الذنوب أخشاه.

قال الزجاج: والاختيار النصب، وإن جاز الرفع.

وقوله تعالى في «حَمَّ عَسَقَ»: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ﴾ [الشورى: ٨]
ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فنصب في المعنى، فلم يجز العطف على
المنصوب قبله فارتفع بالابتداء، وهاهنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ يدل على «وَيُعَذَّبُ» فجاز
النصب.

وقرأ الزبير، وأبان^(٢) بن عثمان، وابن أبي عجلة: «وَالظَّالِمُونَ» رفعاً على الابتداء،
وما بعده الخبر، وهو أمر مرجوح لعدم المناسبة.

وقرأ ابن مسعود^(٣): «وَاللِّظَّالِمِينَ» بلام الجر، وفيه وجهان:

أظهرهما^(٤): أن يكون «لِلظَّالِمِينَ» متعلقاً بـ «أَعَدَّ» بعده، ويكون «لَهُمْ» تأكيداً.

والثاني: وهو ضعيف، أن يكون من باب الاشتغال، على أن يقدر فعلاً مثل
الظاهر، ويجر الاسم بحرف الجر، فتقول: «بزيد مررت به» أي: مررت بزيد مررت به،
والمعروف في لغة العرب مذهب الجمهور، وهو إضمار فعل ناصب موافق لفعل الظاهر
في المعنى، فإن ورد نحو «بزيد مررت به» عُدَّ من التوكيد لا من الاشتغال. والأليم:
المؤلم.

روى الثعلبي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ
سُورَةَ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى جَنَّةً وَحَرِيرًا»^(٥).

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشف ٦٧٦/٤، والمحرر الوجيز ٥١٥/٥، والبحر المحيط ٣٩٣/٨.

(٣) ينظر: السابق، والدر المصون ٤٥٢/٦.

(٤) في أ: أشهرهما.

(٥) تقدم تخريجه.

سورة المرسلات

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة - رضي الله عنهم - : إلا آية منها^(١) ، وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات : ٤٨] ، مدنية .

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : نزلت ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ على النبي ﷺ ليلة الجن ونحن نسير معه ، حتى أويئنا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه ، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حيّة ، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ، فقال النبي ﷺ : «وَقَيْتُمْ شَرَّهَا كَمَا وَقَيْتُمْ شَرَّكُمْ»^(٢) .

وعن كريب مولى ابن عباس ، قال : قرأت سورة ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ فسمعتني أم الفضل امرأة العباس ، فبكت ، وقالت : والله يا بُنَيَّ ، لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب^(٣) .

وهي خمسون آية ، ومائة وإحدى وثمانون كلمة ، وثمانمائة وستة عشر حرفاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا﴾ ① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥

أحدها: أنه مفعول من أجله، أي: لأجل العرف، وهو ضد النكر، فإن الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة، فالمعنى فيهم ظاهر، وإن كانوا بعثوا للعذاب فذلك العذاب وإن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين، والمراد بالمرسلات، إما الملائكة، وإما الأنبياء، وإما الرياح، أي: والملائكة المرسلات، أو والأنبياء المرسلات، أو والرياح المرسلات. و «العرف» المعروف، والإحسان، قال: [البسيط]

٥٠٥٤ - مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَغْدُمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(١)
وقد يقال: كيف جمع صفة المذكر العاقل بالألف والتاء، وحقه أن يجمع بالواو والنون، نقول: الأنبياء المرسلون، ولا نقول: المرسلات؟.

والجواب: أن المرسلات جمع مرسل، ومرسلة: صفة لجماعة من الأنبياء والمرسلات: جمع مرسل الواقعة صفة لجماعة، لا جمع مرسل مفرد.
والثاني: أن ينتصب على الحال بمعنى متتابعة، من قولهم: جاءوا كعرف الفرس، وهم على فلان كعرف الضبع، إذا تألبوا عليه.

قال ابن الخطيب^(٢): يكون مصدراً، كأنه قيل: والمرسلات إرسالاً، أي متتابعة.
الثالث: أن ينتصب على إسقاط الخافض، أي: المرسلات بالعرف، وفيه ضعف، وقد تقدم الكلام على العرف في الأعراف^(٣).

والعامة: على تسكين رائه، وعيسى^(٤): بضمها، وهو على تثقيل المخفف، نحو: «بكر» في «بكر»، ويحتمل أن يكون هو الأصل، والمشهور مخففة منه، ويحتمل أن يكونا وزنين مستقلين.

فصل في المراد بالمرسلات

جمهور المفسرين على أن «المرسلات» هي الرياح.
وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالعرف من أمر الله ونهيه والخبر والوحي، وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي^(٥).

- (١) البيت للخطبة. ينظر ديوانه ص ١٠٩، والخصائص ٤٨٩/٢، وشرح الأشموني ٥٨٧/٣، والبحلاء ص ٢١٩، والبحر المحيط ٣٩٥/٨، والدر المصون ٤٥٣/٦.
 - (٢) ينظر: الفخر الرازي: ٢٣٣/٣٠. (٣) آية ٤٦.
 - (٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٧/٥، والبحر المحيط ٣٩٥/٨، والدر المصون ٤٥٣/٦.
 - (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٨/١٢) عن ابن مسعود ومسروق وأبي صالح. وأخرجه الحاكم (٥١١/٢) عن أبي هريرة وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
- وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٢/٦) وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله^(١).

وقال أبو صالح: الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات.

وعن ابن عباس وابن مسعود: أنها الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾^(٢) [الأعراف: ٥٧]، ومعنى «عُرْفًا» أي: يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس، وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات: السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت إليه ومن أرسلت إليه.

وقيل: إنها الزواجر والمواعظ، و «عُرْفًا» على هذا التأويل: متتابعات كعرف الفرس. قاله ابن عباس.

وقيل: جاريات، قاله الحسن، يعني في القلوب.

وقيل: معروفات في العقول.

قوله تعالى: ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾. هذا المصدر مؤكد لاسم الفاعل.

والمراد بالعاصفات: الرياح. قاله المهدوي.

وقال ابن عباس: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف، وهو ورق الزرع وحطامه.

وقال: العاصفات الملائكة شبهت بسرعة جريها في أمر الله - تعالى - بالرياح، وكذلك «نَشْرًا»، و«عُرْفًا» انتصابهما على المصدر.

وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، وناقة عصف، أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب^(٣) بالقوم، أي: ذهبت بهم.

وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخوف.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا﴾. هي الملائكة الموكِّلون بالسحاب ينشرونها.

وقال ابن مسعود ومجاهد: هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته ينشر السحاب للغيث، وهو مروي عن أبي صالح.

وعنه أيضاً: هي الأمطار لأنها تنشر النبات، فالنَّشْر بمعنى الإحياء، يقال: نشر الله الميت وأنشره، بمعنى أحياه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ [عبس: ٢٢].

وروي عن السدي: أنها الملائكة تنشر كتب الله تعالى^(٤)، وروي الضحاك عن ابن

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٧٥/٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٧٧/١٢) عن ابن مسعود وابن عباس وأبي صالح ومجاهد.

(٣) في ب: الريح.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨٠/١٢) عن السدي.

عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب، وأعمال بني آدم^(١)، وروى الضحاك: أنها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد^(٢).

وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَالنَّيِّرَاتِ﴾ - بالواو - لأنه استثناف قسم آخر.

قوله: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا﴾: هي الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح^(٤).

وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال^(٥)، وروى أنس عن مجاهد قال: «الفارقات»^(٦) الرياح تفرق بين السحاب وتبدده.

وروى سعيد عن قتادة قال: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا﴾، الفرقان فرق الله بين الحق والباطل والحلال والحرام، وهو قول الحسن وابن كيسان^(٧).

وقيل: هم الرسل فرقوا بين ما أمر الله - تعالى - به، ونهى عنه؛ أي بينوا ذلك.

وقيل: السحابات الماطرة تشبهاً بالثاقة الفارقة، وهي الحامل التي تخرج وتند في الأرض حين تضع، ونوق فوارق وفُرَّق.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا﴾. هي الملائكة، أي: تلقي كتب الله إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قاله المهدوي.

وقيل: هو جبريل - عليه الصلاة والسلام - وسمي باسم الجمع تعظيماً لأنه كان ينزل بها وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أمهم ما أنزل عليهم. قاله قطرب.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾ مفعول به، ناصبه «المُلْقِيَاتِ».

وقرأ العامة: «فالمُلْقِيَاتِ» - بسكون اللام وتخفيف القاف - اسم فاعل.

وقرأ ابن عباس^(٨): بفتح اللام وتشديد القاف، اسم مفعول من التلقي، وهي إيصال

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٧٦/٦) والقرطبي (١٠١/١٩).

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨١/١٢) عن ابن عباس وأبي صالح.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠١/١٩).

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٧٦/٦) وينظر المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨١/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٢/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٧/٥، والبحر المحيط ٣٩٦/٨، والدر المصون ٤٥٤/٦.

الكلام إلى المخاطب. وروى عنه المهدوي أيضاً: فتح القاف، أي: يلقيه من قبل الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦].

قوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾. فيهما أوجه:

أحدها: أنهما بدلان من «ذِكْرًا».

الثاني: أنهما منصوبان به على المفعولية، وإعمال المصدر المنون جائز، ومنه ﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَبِينًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥].

الثالث: أنهما مفعولان من أجلهما، والعامل فيهما، إما «الملقيات»، وإما «ذِكْرًا»؛ لأن كلاً منهما يصلح أن يكون معلولاً^(١) بأحدهما.

وحينئذ يجوز في «عُذْرًا، ونُذْرًا» وجهان:

أحدهما: أن يكونا مصدرين - بسكون العين - كالشكر والكفر.

والثاني: أن يكونا جمع عذير، ونذير، المراد بهما المصدر، بمعنى الإعذار والإنذار، كالنكير بمعنى الإنكار.

الثالث^(٢): أنهما منصوبان على الحال من «الملقيات» أو من الضمير فيها، وحينئذ يجوز أن يكونا مصدرين واقعين موقع الحال، بالتأويل المعروف في أمثاله، وأن يكونا جمع «عذير ونذير» مراداً بهما المصدر، أو مراداً بهما اسم الفاعل بمعنى المعذر والمنذر، أي: معذرين، أو منذرين.

وقرأ العامة: بسكون الدال من ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

وقرأ زيد^(٣) بن ثابت، وابن خارجة، وطلحة: بضمها.

والحرميَّان، وابن عامر، وأبو بكر^(٤): بسكونها في «عُذْرًا» وضمها في «نُذْرًا»، والسكون والضم - كما تقدم - في أنه يجوز أن يكون كل منهما أصلاً للآخر، وأن يكونا أصلين، ويجوز في كل من المثقل والمخفف أن يكون مصدرًا، وأن يكون جمعاً سكنت عينه تخفيفاً.

وقرأ إبراهيم التيمي^(٥): «عُذْرًا ونُذْرًا» بواو العطف موضع «أو»، وهي تدل على أن «أو» بمعنى الواو.

(١) في أ: مفعولاً. (٢) في أ: الرابع.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٧/٥، والبحر المحيط ٣٩٦/٨، والدر المصون ٤٥٤/٦.

(٤) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٣٦٢/٦، وإعراب القراءات ٤٢٦/٢، وحجة القراءات ٧٤٢.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٧/٥، والدر المصون ٤٥٤/٦.

فصل في معنى الآية

والمعنى: يلقي الوحي إعداراً من الله تعالى وإنذاراً إلى خلقه من عذابه. قاله الفراء.

وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يعذرون وينذرون.

وروي سعيد عن قتادة: «عُذْرًا» قال: عذراً لله - تعالى - إلى خلقه، ونذراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به^(١)، وروي الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «عُذْرًا» أي: ما يقبله الله - تعالى - من معاذير أوليائه، وهي التوبة «أو نُذْرًا» ينذر أعداءه^(٢).

فصل في المراد بهذه الكلمات الخمس

قال ابن الخطيب^(٣): اعلم أن هذه الكلمات الخمس، إما أن يكون المراد منها جنساً واحداً، أو أجناساً مختلفة، فالأول فيه وجوه:

أحدها: أن المراد بها الملائكة والمرسلات هي الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - إما لإيصال النعمة إلى قوم أو لإيصال النعمة إلى آخرين، وقوله تعالى: «عُرْفًا» إما أن يكون العُرف هو الذي ضد النكر، فإن كانوا الملائكة المبعوثين للرحمة، فالمعنى فيهم ظاهر وإن بعثوا للعذاب فذلك العذاب وإن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والمؤمنين، أو يكون العرف التتابع، وقوله تعالى: ﴿فَالْعَصَفَاتِ عَصَفًا﴾ فمعناه أن الملائكة عصفوا في طيرانهم كعصف الرياح، أو يعصفون بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ نَشْرًا﴾ أي: أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، أو نشروا الشرائع في الأرض، أو نشروا الرحمة والعذاب، أو المراد الملائكة الذين ينشرون الكتب التي فيها أعمال بني آدم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، وقوله تعالى: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا﴾ أي: أنهم يفرقون بين الحق والباطل، وقوله: ﴿فَالْمُؤَيَّنَتِ ذِكْرًا﴾ أي أنهم يلقون الذكر إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والمراد بالذكر إما العلم والحكمة أو القرآن، لقوله تعالى: ﴿أَتُلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، وهذا المُلقى وإن كان جبريل وحده إلا أنه سُمي باسم الجمع تعظيماً له.

واعلم أن الملائكة أقسام: قسم يرسل لإنزال الوحي على الأنبياء، وقسم يرسل لكتابة أعمال بني آدم، وقسم يرسل لقبض الأرواح، وقسم يرسل بالوحي من سماء إلى سماء.

الوجه الثاني: أن المراد بهذه الكلمات الخمس: الرياح، أقسم الله - تعالى - بالرياح

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٨٢/١٢). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٠٢).

(٣) ينظر الرازي ٢٣٠/٣٠.

عند إرسالها عُرْفًا، أي: متتابعة، كشعر العرف، ثم إنها تشتدّ حتى تصير عواصف ورياح رحمة تنشر السحاب في الجو، قال الله تعالى: ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالنَّشِيرَاتِ شَرْكَ﴾ أي: أنها تنشر السحاب، أو أنها تلحق الأشجار والنبات، فتكون ناشرة، وقوله تعالى: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا﴾ أي: أنها تفرق بين أجزاء السحاب، أو أنها تخرب بعض القرى، وذلك يصير سبباً لظهور الفرق بين أولياء الله وأعدائه، أو أنها عند هبوبها تفرّق الخلق فمن مقرّ خاضع، ومن منكر جاحد.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُفَصِّتِ ذِكْرًا﴾ أي: أن العاقل إذا شاهد هبوب تلك الرياح التي تقلع القلاع وتهدم الصخور والجبال، وترفع أمواج البحار تمسك بذكر الله - تعالى - والتجأ إلى إعانة الله - تعالى - فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والإيمان والعبودية في القلب.

الوجه الثالث: قال ابن الخطيب^(١): من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخمس على القرآن، وعندي أنه يمكن حمل جميعها على القرآن، فقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ المراد منه الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل على محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ أي هذه الآيات نزلت بكل عرف وخير، كيف لا وهي الهداية إلى سبيل النجاة الموصلة إلى مجامع الخيرات، والمراد بـ «العاصفات عصفًا» أن دولة الإسلام والقرآن إن كانت ضعيفة في أولها، ثم عظمت وقهرت سائر الملل والأديان، فكان دولة القرآن عصفت سائر الدول والملل والأديان وقهرتها، وجعلتها باطلة دائرة.

والمراد بـ «النَّاشِرَاتِ نَشْرًا»، أن آيات القرآن نشرت الحكيم والهداية في قلوب العالمين شرقاً وغرباً.

والمراد بـ «الفارقات فرقًا» أن آيات القرآن فرّقت بين الحقّ والباطل، ولذلك سمي القرآن فرقاناً، والمراد بـ «الملقيات ذكراً» أن القرآن ذكر، قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، ﴿وَأَنَّمْ لَدَكُورْ لَكَ وَلَقَوْمُكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ﴿وَأَنَّمْ لَدَكُورْ لَلْمُفَصِّتِ﴾ [الحاقة: ٤٨].

الوجه الرابع: قال ابن الخطيب^(٢): ويمكن حملها أيضاً على بعثة الرُّسل، فالمراد بـ «المرسلات عرفًا» هم المرسلون بالوحي المشتمل على كل خير ومعروف، ﴿فَالْمُفَصِّتِ عَصْفًا﴾ أن كل أمر لكل رسول يكون في أول أمره حقيراً ضعيفاً، ثم يشتدّ ويعظم ويصير في القوة كعصف الرياح ﴿وَالنَّشِيرَاتِ شَرْكَ﴾ انتشار دينهم، ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا﴾ أنهم يفرقون بين الحق والباطل، ﴿فَالْمُفَصِّتِ ذِكْرًا﴾ أنهم يأمرونهم بالذكر ويحثّونهم عليه.

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٣٥.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٧٥.

الاحتمال الثاني: وهو ألا يكون المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً، وفيه وجوه:

أحدها: قال الزجاج، واختاره القاضي: أن الثلاثة الأول هي الرياح، فقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هي الرياح التي تتصل على العرف المعتاد، والعاصفات: ما اشتد عنها، والنَّاشِرَات: ما ينشر السحاب، وقوله تعالى: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا﴾ هم الملائكة الذين يُفَرِّقُونَ بين الحقِّ والباطل والحلال والحرام بما يتحملونه من القرآن والوحي، وكذا قوله: ﴿فَالْمُفَيِّتِ ذِكْرًا﴾ أنها الملائكة المتحملون للذكر الذي يلقونه إلى الرسل.

فإن قيل: ما المجانسة بين الريح وبين الملائكة حتى جمع بينهما في القسم؟

قلت: الملائكة روحانيون فهم سبب طاقتهم وسرعة حركاتهم كالرياح.

وثانيها: أن الآيتين الأوليين هما الرياح، والثلاثة الباقية منهم الملائكة؛ لأنها تنشر الوحي والدين، ثم لذلك الوحي أثران:

الأول: حصول الفرق بين المحق والمبطل.

والثاني: ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة، ويؤكد هذا أنه قال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فَاَلْعَصْفَتِ عَصْفًا، ثم عطف الثاني على الأول بحرف الواو، فقال: «وَالنَّاشِرَاتِ» وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة.

قال ابن الخطيب^(١): ويمكن أن يكون المراد بالأولين الملائكة، فقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ملائكة الرحمة، وقوله تعالى: ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية آيات القرآن؛ لأنها تنشر الحق في القلوب والأرواح، وتفرق بين الحق والباطل، وتلقي الذكر في القلوب والألسنة.

فصل في وجه دخول الفاء والواو في جواب القسم

قال القفال: الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم، والواو في بعض مبني على أصل، وهو أن عند أهل اللغة أن الفاء تقتضي الوصل والتعلق، فإذا قيل: قام زيد فذهب، فالمعنى: أنه قام ليذهب، فكان قيامه سبباً لذهابه ومتصلاً به، فإذا قيل: قام وذهب، فهما خبران، وكل واحد منهما قائم بنفسه، لا يتعلق بالآخر. ثم إن القفال رحمه الله لما مهد هذا الأصل، فرع عليه الكلام في هذه الآية بوجوه.

قال ابن الخطيب^(٢): وتلك الوجوه لا يميل القلب إليها، وأنا أنوع على هذا الأصل

(١) الفخر الرازي ٣٠/٢٣٦.

(٢) السابق.

فأقول: أما من جعل الأولين صفة لشيء، والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد، فنقول: إن حملناها على الملائكة فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً، وذلك الطيران هو العصف، فالعصف مرتب على الإرسال، فإن الملائكة أول ما يلقيون الوحي إلى الرُّسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشرأ، بل الخلق يردون الأنبياء في أول الأمر فيكذبونهم وينسبونهم إلى السحر والجنون، فلا جرم أن يذكر الفاء التي تفيد التعقيب، بل ذكر الواو، وإذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذلك الحق على الألسنة فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء، فكأنه - والله أعلم - قال: يا محمد، أنا أرسلت إليك الملك بالوحي الذي هو عنوان كل سعادة وخير، ولكن لا تطمع في أن ينتشر ذلك الأمر في الحال، ولكن لا بد من الصبر وتحمل المشقة، ثم إذا جاء وقت النصره اجعل دينك ظاهراً منتشراً في شرق العالم وغربه، وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق، فتصير الأديان باطلة، ضعيفة، ساقطة، ودينك الحق ظاهراً عالياً، وهنالك يظهر ذكر الله على الألسنة، وفي المحاريب وعلى المنابر، ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر مناسبة سائر الوجوه.

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. هذا جواب القسم، وقوله: «والمُرسلات» وما بعده معطوف عليه، وليس قسماً مستقلاً، لما تقدم في أول الكتاب، لوقوع الفاء هنا عاطفة؛ لأنها لا تكون للقسم، و «ما» موصولة بمعنى «الذي» هي اسم إن و «تُوعَدُونَ» صلتها، والعائد محذوف، أي إن الذي توعدونه، و «لواقِع» خبرها، وكان من حق «إن» أن تكون منفصلة عن «ما» الموصولة، ولكنهم كتبوها متصلة بها.

فصل في الموعود به

إنما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم ثم لذكره علامات القيامة بعده.

وقال الكلبي: المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع بكم^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۖ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۖ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ۖ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۖ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۚ وَلَبَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۚ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۚ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ۚ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۚ وَلَبَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۚ﴾

ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوءها، ومُجَي نورها كطُمَس الكتاب، يقال: طمس الشيء إذا درس، وطمس فهو مطموس، والريح

تطمس الآثار، فتكون الريح طامسة، والأثر طامس بمعنى مطموس.

قال ابن الخطيب^(١): ويحتمل أن تكون محقت ذواتها، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿نُشِرَتْ﴾.

و «النُّجُومُ» مرتفعة بفعل مضمر يفسره ما بعده عند البصريين غير الأخفش، وبالابتداء عند الكوفيين والأخفش.

وفي جواب «إذا» قولان:

أحدهما: محذوف، تقديره: فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون، لدلالة قوله إنما توعدون لواقع أو بان الأمر.

والثاني: أنه «لَأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلْتُ» على إضمار القول، أي يقال: لأي يوم أُجِّلْتُ، فالفعل في الحقيقة هو الجواب.

وقيل: الجواب: «وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ». نقله مكي، وهو غلط؛ لأنه لو كان جواباً للزمته الفاء لكونه جملة اسمية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾. أي: فتحت وشقت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩]، والفرج: الشق، ونظيره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال: فرجت للطي^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾. أي: ذهب بها كلها بسرعة، من أنسفت الشيء إذا اختطفته، وقيل: تنشق كالحب المغلق إذا نسف بالمنسف، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنَحْرِقَنَّ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، ونظيره: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، ﴿فَقَلَّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وقرى^(٣): «طُمِست، وفُرِجت، ونُسفت» مشددة.

وكان ابن عباس يقول: سويت بالأرض^(٤)، والعرب تقول: فرس نسوف، إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بشر: [الوافر]

٥٠٥٥ - نَسُوفٌ لِلْحَزَامِ بِمَرْفَقَيْهَا.....^(٥)

(١) الفخر الرازي ٢٣٧/٣٠. (٢) ينظر القرطبي (١٩/١٠٢).

(٣) قرأ بها عمرو بن ميمون كما في البحر ٣٩٦/٨.

(٤) ينظر القرطبي (١٩/١٠٢).

(٥) صدر بيت وعجزه:

يَسُدُّ خَوَاءَ طَبَائِعِهَا الْقُبَارُ

ينظر اللسان (خوى)، و (نسف)، والقرطبي (١٩/١٠٢).

ونسفت الناقة الكلاً إذا رعتهُ.

قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾. قرأ أبو عمرو^(١): «وَقُنْتُ» بالواو، والباقون: بهمزة بدل الواو. قالوا: والواو هي الأصل؛ لأنه من الوقت، والهمزة بدل لأنها مضمومة ضمة لازمة، وكل واو انضمت وكانت ضمته لازمة فإنها تبدل على الاطراد همزة أولاً، تقول: صلى القوم إحداً، تريد: وحداناً، وهذه أجوه حسان؛ لأن ضمة الواو ثقيلة وبعدها واو فالجمع بينهما يجري مجرى جمع المثليين فيكون ثقیلاً، ولم يجز البدل في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]؛ لأن الضمة غير لازمة، قاله الفراء. وقد تقدم ذكر ذلك أول الكتاب.

فصل في المراد بالتأقيت

قال مجاهد والزجاج: المراد بهذا التأقيت تبين الوقت الذي تحضرون فيه للشهادة على أممكم، أي: جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت: الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه، فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقيل: المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه، وليس في اللفظ بيان أنه يحصل لوقت أي شيء، ولم يبينه ليذهب الوهم إلى كل جانب، فيكون التهويل فيه أشد، فيحتمل أن يكون المراد تكوين وقت جمعهم للفوز بالثواب، وأن يكون وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به، وسؤال الأمم عما أجابوا هم لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وأن يكون وقت مشاهدة الجنة والنار وسائر أحوال القيامة، وقيل: «أَقْنَتْ» أي: أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد.

فصل في قراءات الآية

قرأ أبو جعفر^(٢) وشيبة: بالواو وتخفيف القاف، وهو «فعلت» من الوقت، ومنه ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وقرىء - أيضاً - «وُوقِتت» - بواوين -، وهو «فوعلت» من الوقت أيضاً مثل: عُوهِدَت.

قال القرطبي^(٣): «ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز، وقد قرأ يحيى

(١) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/٣٦٤، وإعراب القراءات ٢/٤٢٨، وحجة القراءات ٧٤٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤١٨، وقال: وهي قراءة ابن مسعود والحسن، وينظر: البحر المحيط ٨/٣٩٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٠٣.

وأَيُوب^(١) وخالد بن إلياس وسلام: «أَقِثْتُ» بالهمز والتخفيف؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾. الجار متعلق بـ «أجلت» وهذه الجملة معمولٌ لقول مضمر، أي: يقال وهذا القول المضمر يجوز أن يكون جواباً لـ «إذا» - كما تقدم - وأن يكون حالاً من مرفوع «أقتت» أي: مقولاً فيها لأي يوم أجلت أي: أخرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم، فهو استفهام على التعظيم، أي ليوم الفصل أجلت، كأنه تعالى قال: يعجب العباد من تعظيم ذلك اليوم، فيقال: لأي يوم أجلت الأمور المتعلقة بهذه الرسل، وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب، ونشر الدواوين ووضع الموازين.

قوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بدل من «لأي يوم» بإعادة العامل.

وقيل: بل يتعلق بفعل مقدر أي أجلت ليوم الفصل، وقيل: اللام بمعنى «إلى» ذكرها مكي.

فصل في المراد بيوم الفصل

اعلم أنه تعالى بين ذلك اليوم فقال: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾، قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) [الدخان: ٤٠].

قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾. أتبع التعظيم تعظيماً، أي: وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهابته، ثم أتبعه بهويل ثالث، وهو قوله: «وَيْلٌ» مبتدأ، سوغ الابتداء به كونه دعاء.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف وقعت النكرة مبتدأ في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ﴾؟ قلت: هو في أصله مصدر منصوب ساذ مسدّ فعله، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على إثبات معنى الهلاك، ودوامه للمدعو عليهم، ونحوه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، ويجوز «قِيلاً» بالنصب، ولكنه لم يقرأ به».

قال شهاب الدين^(٣): «هذا الذي ذكره ليس من المسوغات التي عدها النحويون وإنما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول إلى الرفع ما ذكره».

و «يَوْمُئِذٍ» ظرف للويل.

وجوز أبو البقاء: أن يكون صفة للويل، وللمكذبين خبره.

(١) ينظر: البحر المحيط ٣٩٦/٨، ونسبها إلى النخعي والحسن، وعيسى، وخالد.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٣٨/٣٠). (٣) ينظر: الدر المصون ٤٥٥/٦.

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي^(١): ﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب وخزي لمن كذب بالله تعالى وبرسله، وعلى تقدير تكذيبهم؛ فإنَّ لكل مكذب شيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به وهو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره؛ لأنه أفتح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله تعالى، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وهو قوله: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦].

وقيل: كرره لمعنى تكرار التخويف والوعيد.

وروي عن النعمان بن بشير قال: «ويل» واد في جهنم فيه ألوان العذاب، قاله ابن عباس وغيره^(٢).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضْتُ عَلَى جَهَنَّمَ فَلَمْ أَرْ فِيهَا وَادِيًا أَكْبَرَ مِنْ الْوَيْلِ»^(٣).

ودوي أيضاً أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشيء فيما سفلى من الأرض، وقد علم العباد في الدنيا أن شرِّ المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسلات من الجيف وماء الحمَّامات، فذكر أن ذلك الوادي مستنقع صديد أهل النَّار والشرك ليعلم العاقل أنه لا شيء أقدَرُ منه قذارةً، ولا أُنْتَنُ منه نتناً.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَهْلِكْ أَوَّلَينَ﴾. العامة: على ضم حرف المضارعة، من «أَهْلَكَ» رباعياً، وقتادة: بفتحه^(٤).

قال الزمخشري: من هلكه بمعنى «أهلكه»؛ قال العجاج: [الرجز]

٥٠٥٦ - وَمَهْمَ هَالِكٌ مَنْ تَعَرَّجَا^(٥)

ف «من» معمول الهالك، وهو من «هلك»، إلا أن بعض الناس جعل هذا دليلاً على إعمال الصِّفة المشبهة في الموصول، وجعلها من اللازم؛ لأن شرط الصفة المشبهة أن تكون من فعل لازم، فعلى هذا لا دليل فيه.

قوله: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾.

العامة: على رفع العين استئنافاً أي: ثم نحن نتبعهم، كذا قدره أبو البقاء.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٣/١٩. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٠٣).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: الكشاف ٦٧٨/٤، والبحر المحيط ٣٩٧/٨، والدر المصون ٤٥٥/٦.

(٥) تقدم.

وقال: «وليس بمعطوف، لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا الأولين، ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك، وليس كذلك؛ لأن هلاك الآخرين لم يقع بعد».

قال شهاب الدين^(١): ولا حاجة في وجه الاستئناف إلى تقدير مبتدأ قبل الفعل، بل يجعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله: «أَلَمْ نُهْلِكْ»، ويدل على هذا الاستئناف قراءة^(٢) عبد الله: «ثُمَّ سَتُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ» بسين التنفيس، وقرأ الأعرج^(٣) والعباس عن أبي عمرو: بتسكينها، وفيها وجهان:

أحدهما: أنه تسكين للمرفوع، فهو مستأنف كالرفوع لفظاً.

والثاني: أنه معطوف على مجزوم، والمعنى بالآخرين حينئذ قوم شعيب ولوط وموسى، وبالأولين قوم نوح وعاد وشمود.

قال ابن الخطيب^(٤): وهذا القول ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ﴾ مضارع، وهو للحال والاستقبال، ولا يتناول الماضي، وإنما المراد بالأولين: جميع الكفار الذين كانوا في عهد محمد ﷺ، وقوله: ﴿ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ على الاستئناف، أي: سنفعل ذلك، ونتبع الأول الآخر، ويدل على الاستئناف قراءة عبد الله في تتبعهم تدل على الاشتراك، وحينئذ يكون المراد به الماضي لا المستقبل.

قلنا: لو كان المراد هو الماضي لوقع التنافي بين القراءتين، وهو غير جائز، فعلمنا أن تسكين العين ليس للجزم، بل للتخفيف.

قوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الشنيع نفعل بكل من أجرم.

فصل في المراد بالآية

المقصود من هذه الآية تخويف الكفار وتحذيرهم من الكفر، أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم - عليه الصلاة والسلام - إلى محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - «ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ» أي: نُلحق الآخرين بالأولين، ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ما فعلنا بمن تقدم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف وإما بالهلاك، ثم قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ كأنه تعالى يقول: أما الدنيا: فحاصلهم الهلاك، وأما الآخرة فالعذاب الشديد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] فإن قيل: المراد من قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكْ الْآوَّلِينَ﴾ هو مطلق الإمامة،

(١) الدر المصون ٤٥٦/٦.

(٢) ينظر: الكشف ٦٧٩/٤، والمحرر الوجيز ٤١٨/٥، والبحر المحيط ٣٩٧/٨.

(٣) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٣٦٤/٦، والبحر المحيط ٣٩٧/٨.

(٤) ينظر: الفخر الرازي: ٢٣٩/٣٠.

والإماتة بالعذاب فإن كان مطلق الإماتة لم يكن ذلك تخويفاً للكفار؛ لأن ذلك معلوم حاصل للمؤمن والكافر، فلا يكون تخويفاً للكفار، وإن كانت الإماتة بالعذاب فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون فعل بكفّار قريش مثل هذا، ومعلوم أن ذلك لم يوجد، وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِنُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّا فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فالجواب: قال ابن الخطيب^(١): لم لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالث، وهو الإماتة المستعقبية للذم واللّعن، فكأنه قيل: أولئك المتقدمون لحرصهم على الدنيا عادوا الأنبياء وخاصموهم، ثم ماتوا ففاتتهم الدنيا، وبقي اللّعن عليهم في الدنيا والعقوبة في الآخرة دائماً سرمداً، فهكذا يكون حال الكفار الموجودين، وهذا من أعظم وجوه الزجر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿إِلَّا قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدَرُونَ﴾ ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾. أي: ضعيف حقير وهو النطفة، وهذا نوع آخر من تخويف الكفار، وهو من وجهين:

الأول: أنه - تعالى - ذكرهم عظيم إنعامه عليهم، وكلما كانت نعمه عليهم أكثر كانت جنائيتهم في حقه أقبح وأفحش، فيكون العقاب أعظم، فلهذا قال جل ذكره عقيب هذه الأنعام: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

والثاني: أنه تعالى ذكرهم كونه تعالى قادراً على الابتداء، والظاهر في العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، لا جرم قال في حقهم: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، أي: مكان حريز وهو الرّحم.

﴿إِلَّا قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال مجاهد: إلى أن نصوره، وقيل: إلى وقت الولادة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدَرُونَ﴾، قرأ نافع^(٢) والكسائي: بالتشديد من التقدير، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُوا﴾ [عبس: ٤].

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٤٠/٣٠.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحنة ٣٦٥/٦، وإعراب القراءات ٤٢٨/٢، وحجة القراءات ٧٤٣.

والباقون: بالتخفيف، من القدرة، ويدل عليه ﴿فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾.

ويجوز أن يكون المعنى على القراءة الأولى: فنعم القادرون على تقديره، وإن جعلت «القادرون» بمعنى «المقدرون» كان جمعاً بين اللفظين، ومعناها واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبُّكَ﴾ [الطارق: ١٧]؛ وقول الأعشى: [البسيط]

٥٠٥٧ - وَأَنْكَرْتَنِي وَقَدْ كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا^(١)
وقال الكسائي والفراء: هما لغتان بمعنى.

قال القتيبي: «قَدَرْنَا» بمعنى «قَدَرْنَا» مشددة، كما تقول: قدرت كذا وقدرته ومنه قوله ﷺ في الهلال: «إِذَا غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ» أي: قدروا له المسير والمنازل.
وقال محمد بن الجهم عن الفراء: أنه ذكر تشديدها عن علي - رضي الله عنه - وتخفيفها.

قال: ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً، لأن العرب تقول: قدر عليه الموت وقدر، قال تعالى: ﴿مَنْ قَدَرْنَا يَنْكَرُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦] قرئ بالتخفيف والتشديد، وقدر عليه رزقه وقدر، واحتج الذين خففوا فقالوا: لو كانت كذلك لكانت «فَنِعَمَ الْمُقْدِرُونَ».

قال الفراء: والعرب تجمع بين اللغتين، واستدل بقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ الآية، [الطارق: ١٧] وذكر بيت الأعشى المتقدم.

وقيل: المعنى قَدَرْنَا قصيراً وطويلاً، ونحوه عن ابن عباس: قدرنا ملكنا.
قال المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِي سَلِيمَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هذا هو النوع الرابع من تخويف الكفار؛ لأنه - تعالى - ذكرهم في الآية المتقدمة بالنعمة التي في الأنفس لأنها كالأصل للنعمة التي في الآفاق، ثم قال في آخرها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأن النعم كلما كانت أكثر كانت الخيانة أقبح وكان استحقاق الذم أشد، وذكر في هذه الآية النعمة التي في الأنفس؛ لأنها كالأصل للنعمة التي في الآفاق، قالوا: فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان

(١) ينظر ديوان الأعشى ص ١٠٥، والمحتسب ٢/٢٩٨، والخصائص ٣/٣١٠، ومعاني القرآن للفراء ٣/٢٢٤، ومجاز القرآن ١/٢٩٣، والأملاني لأبي علي القالي ٣/٢٢١، وإعراب القرآن ٥/١١٧، والطبري ٢٩/١٤٥، ومجمع البيان ١٠/٦٣١، واللسان نكر، والبر المصون ٦/٤٥٦.

الانتفاع بشيء من المخلوقات ممكناً - والله أعلم -، وإنما قدم الأرض لأنها أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجة.

والكِفَات: اسم للوعاء الذي يكفت فيه أي يجمع. قاله أبو عبيد، يقال: كفته يكفته أي جمعه وضمه.

وفي الحديث: «اَكْفِتُوا صَبَانَكُمْ»^(١)، قال الصمصامة بن الطرمّاح: [الوافر]

٥٠٥٨ - وَأَنْتَ عَدَاً الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيًّا وَأَنْتَ عَدَاً تَضُمُّكَ فِي كِفَاتٍ^(٢)

وقيل: الكِفَات: اسم لما يكفت كـ «الضُّمَام والجماع»، يقال: هذا الباب جماع الأبواب، والمعنى: نجعل الأرض ضامة تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، والكفت: الضم والجمع؛ وأنشد سيبويه: [الوافر]

٥٠٥٩ - كِرَامَ حِينَ تَنْكِفُ الْأَفَاعِي إِلَى أَحْجَارِهِنَّ مِنَ الصَّقِيعِ^(٣)

وروي عن ربيعة في النبش، قال: تقطع يده، فقليل له: لم قلت ذلك؟ فقال: إن الله - تعالى - يقول: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ فالأرض حِرز، وكانوا يسمون بقيع الغرقد كفته، لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم، والأموات في قبورهم، وأيضاً استقرار الناس على وجه الأرض، ثم اضطجاعهم عليها، انضمام منهم إليها.

وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، والأرض منقسمة إلى حيٍّ وهو الذي ينبت، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت.

وفي انتصاب: «كِفَاتًا، أحياء وأمواتًا» وجهان:

أحدهما: أنه مفعول ثانٍ لـ «نجعل»؛ لأنها للتصيير.

والثاني: أنه منصوب على الحال من «الأرض»، والمفعول الثاني: «أحياء وأمواتًا»

بمعنى: ألم نصيرها أحياء بالنبات، وأمواتاً بغير نبات، أي: بعضها كذا، وبعضها كذا.

وقيل: «كِفَاتًا» جمع كافت كـ «صيام، وقيام» جمع «صائم، وقائم».

وقيل: بل هو مصدر كالكتاب والحساب.

وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهراً لبطن وبطناً لظهر، ويقال: انكفت

القوم إلى منازلهم، أي: انقلبوا، فمعنى الكفات: أنهم يتصرفون على ظهرها، وينقلبون إليها فيدفنون فيها.

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٣٣) وأحمد (٣/٣٨٨).

(٢) ينظر اللسان (كفت)، والقرطبي ١٩/١٠٥، والدر المصون ٦/٤٥٦.

(٣) نسب البيت إلى خالد بن أبي فهر، ينظر الكتاب ٣/٥٧٧، وشرح أبيات سيبويه ٢/٣١٦، والمقتضب ٢/١٩٧، والقرطبي ١٩/١٠٥.

قوله: ﴿أَحْيَاءَ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه منصوب بـ «كفات» قاله مكي، والزمخشري؛ وبدأ به بعد أن جعل «كفَاتاً» اسم ما يكفت، كقولهم: الضمام والجماع.

وهذا يمنع أن يكون «كفَاتاً» ناصباً لـ «أحْيَاءَ»؛ لأنه ليس من الأسماء العاملة، وكذلك إذا جعلناه بمعنى الوعاء على قول أبي عبيدة، فإنه لا يعمل أيضاً، وقد نصّ النحاة على أن أسماء الأمكنة والأزمنة والآلات وإن كانت مشتقة جارية على الأفعال لا تعمل، نحو: مَرَمَى، وَمَنْجَل.

وفي اسم المصدر خلاف مشهور، ولكن إنما يتمشى نصبهما بـ «كفات» على قول أبي البقاء، فإنه يجوز فيه إلا أن يكون جمعاً لاسم فاعل أو مصدرأ، وكلاهما من الأسماء العاملة.

الوجه الثاني: أن ينتصب بفعل مقدر يدل عليه «كفاتاً» أي: يكفتهم أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، وبه ثنى الزمخشري.

الثالث: أن ينتصب على الحال من محذوف، أي: يكفتكم أحياء وأمواتاً، لأنه قد علم أنها كفات للإنس قاله الزمخشري، وإليه نحا مكي، إلا أنه قدره غائباً أي تجمعهم الأرض في هاتين الحالتين.

الرابع: أن ينتصب مفعولاً ثانياً لـ «نجعل» و «كفاتاً» حال، كما تقدم تقريره.

وتنكير «أحياء وأمواتاً» إما للتفخيم، أي يجمع أحياء لا يقدرون وأمواتاً لا يحصون، وإما للتبعيض؛ لأن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء ولا الأموات، وكذلك التنكير في «ماء فراتاً» يحتمل المعنيين أيضاً، أما التفخيم فواضح لعظم المنة عليهم وأما التبعيض، فلقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرِّ﴾ [النور: ٤٣] فهذا مفهم للتبعيض والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسِيَ شَلِخَنِي﴾. أي جعلنا في الأرض «رواسي» وهي الثوابت «شامخات»، وهي الجبال الطوال، جمع شامخ، وهي المرتفعة جداً، ومنه شمخ بأنفه إذا تكبر، جعل كناية عن ذلك كثني العطف، وصعر الخد وإن لم يحصل شيء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرَاتاً﴾، أي: وجعلنا لكم سُقْيَا، والفرات: الماء العذب يُشْرَبُ وَيُسْقَى به الزرع، أي: خلقنا الجبال، وأنزلنا الماء الفرات، وهذه الأمور أعجب من البعث.

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه -: في الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن^(١).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٠٥).

وفي مسلم: سيحان وجيحان، والنيل، والفرات، كل من أنهار الجنة^(١).

قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)

قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾. أي: يقال لهم ذلك.

والعامة: على «انطلقوا» الثاني كالأول بصيغة الأمر على التأكيد وروى رويس عن يعقوب^(٢): «انطلقوا» - بفتح اللام - فعلاً ماضياً على الخبر، أي: لما أمروا امتثلوا ذلك، وهذا موضع الفاء، فكان ينبغي أن يكون التركيب فانطلقوا، نحو قولك: قلت له: اذهب فذهب، وعدم الفاء هنا ليس بواضح.

فصل في كيفية عذاب الكفار في الآخرة

هذا هو النوع الخامس من تخويف الكُفَّار، وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة والمعنى: يقال لهم: انطلقوا إلى ما كذبتُم به من العذاب، يعني النار، فقد شاهدتموها عياناً.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ﴾ أي: دخان ذي ثلاث شعب، يعني الدخان الذي يرتفع، ثم يتشعب إلى ثلاث شعب، وكذلك بيان دخان جهنم العظيم إذا ارتفع تشعب.

قال أبو مسلم: ويحتمل في ثلاث شعبٍ ما ذكره بعد ذلك، وهو أنه غير ظليل، وأنه لا يغني من اللهب، وبأنه يرمي بشرر، ثم وصف الظليل، فقال:

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: لا يدفع من لهب جهنم شيئاً، أي: ليس كالظل الذي يقي حرَّ الشمس، وهذا تهكم بهم، وتعريض بأن ظلَّهم غير ظلِّ المؤمنين، وأنه لا يمنع حرَّ الشمس.

واللهب ما يعلو على النار إذا اضطربت من أحمر، وأصفر، وأخضر.

وقيل: إن الشعب الثلاث من الضريع، والرُّقُوم، والغسلين؛ قاله الضحاك.

وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان، لأنها ثلاثة أحوال هي غاية أوصاف النار إذا اضطربت واشتدت.

وقيل: عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب، فأما النور فيقف على رءوس

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٣/٤) كتاب الجنة: باب ما في الدنيا من أنهار الجنة حديث (٢٨٣٩/٢٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤١٩/٥، والبحر المحيط ٣٩٧/٨، والدر المصون ٤٥٧/٦.

المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكفار.

وقيل: هو السراق، وهو لسان من النار يحيط بهم يتشعب منه ثلاث شعب، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم، لقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وتسمية النار بالظل مجاز من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقْسَمُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقيل: هو الظل من يحموم لقوله تعالى: ﴿وُظِلُّوا مِنْ تَحْتِهِمْ لَا يَارِدُ لَهُمْ كَرِيرٌ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤].

وفي الحديث: «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو مِنْ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ وَلَا لَهُمْ أَكْفَانٌ، فَتَلْحَقُهُمُ الشَّمْسُ وَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِمْ، ثُمَّ يُنْجِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ إِلَى ظِلٍّ مِنْ ظِلِّهِ، فَهَنَّاكَ يَقُولُونَ: ﴿فَرَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ [الطور: ٢٧] ويقال للمكذبين: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه»^(١).

قوله: ﴿لَا ظِلِّ لِي﴾ صفة لـ «ظل»، و «لا» متوسطة بين الصفة والموصوف لإفادة النفي، وجيء بالصفة الأولى اسماً، وبالثانية فعلاً دلالة على نفي ثبوت هذه الصفة واستقرارها للظل، ونفي التجدد والحدوث للإغناء عن اللهب، يقال: أغني عني وجهك، أي أبعد؛ لأن الغني عن الشيء يباعده كما أن المحتاج إليه يقاربه.

قال الزمخشري: «ولا يغني» في محل الجر، أي وغير مُغْنٍ عنهم من حر اللهب شيئاً. ﴿إِنَّهَا﴾ أي إن جهنم، لأن السياق^(٢) كله لأجلها.

وقرأ العامة: «بشر» بفتح الشين وعدم ألف بين الرأين.

وورش^(٣) يرقق^(٤) الرأ الأولى لكسر التي بعدها.

وقرأ ابن عباس وابن مقسم: بكسر الشين^(٥) وألف بين الرأين.

وعيسى^(٦) كذلك، إلا أنه يفتح الشين.

فقرأة ابن عباس: يجوز أن تكون جمعاً لـ «شرة»، و «فَعَلَةٌ» تجمع على «فِعَالٌ» نحو «رَقَبَةٌ وَرِقَابٌ، وَرَجَةٌ وَرِحَابٌ».

(١) تقدم.

(٢) في ب: البيان.

(٣) في أ: وعيسى.

(٤) ينظر: الد المصون ٤٥٧/٦.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٣٩٨/٨، والدر المصون ٤٥٧/٦.

(٦) ينظر: السابق.

وأن يكون جمعاً لـ «شر» لا يراد به «أفعل» التفضيل، يقال: رجل شر، ورجال أشرار ورجل خير ورجال أخيار، ويؤنثان، فيقال: امرأة شرّة وامرأة خيرة، فإن أريد بهما التفضيل امتنع ذلك فيهما، واختصاً بأحكام مذكورة في كتب النحو، أي: ترمي بشار من العذاب، أو بشار من الخلق.

وأما قراءة عيسى: فهو جمع شرارة بالألف، وهي لغة تميم، والشررة والشرارة: ما تطاير من النار منصرفاً.

قال القرطبي^(١): «الشرر: واحدته شررة، والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شررت الثوب إذا بسطته للشمس ليجفّ. والقَصْر: البناء العالي».

قوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ العامة على فتح القاف وسكون الصاد، وهو من القصر المعروف شبهت به في كبره وعظمه.

وابن عباس وتلميذه ابن جبير والحسن^(٢): بفتح القاف والصاد، وهي جمع قصرة - بالفتح - والقصرة: أعناق الإبل والنخل وأصول الشجر.

وقرأ ابن^(٣) جبير والحسن أيضاً: بكسر القاف وفتح الصاد، جمع قصرة بفتح القاف.

قال الزمخشري: «كحاجة وحوج».

وقال أبو حيان^(٤): «كحلقة من الحديد وحلق».

وقرئ^(٥): «كالْقَصْرِ» بفتح القاف وكسر الصاد.

قال شهاب الدين^(٦): ولم أر لها توجيهاً، ويظهر أن يكون ذلك من باب الإبتاع والأصل: كالقصر - بسكون الصاد - ثم أتبع الصاد حركة الراء فكسرها، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في المشغول بحركة نحو «كَتِيف» و«كَبِد» فلأن يفعلوه في الخالي منها أولى، ويجوز أن يكون ذلك للنقل، بمعنى أنه وقف على الكلمة، فنقل كسرة الراء إلى الساكن قبلها، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، وهو باب شائع عند القراء والنحاة.

وقرأ عبد الله^(٧): قُصِر، وفيها وجهان:

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٠٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٢٠، والبحر المحيط ٨/٣٩٨، والدر المصون ٦/٤٥٨.

(٣) ينظر السابق. (٤) البحر المحيط ٨/٤٠٣.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/٣٩٨، والدر المصون ٦/٤٥٨.

(٦) الدر المصون ٦/٤٥٨. (٧) ينظر: البحر المحيط ٨/٣٩٨، والدر المصون ٦/٤٥٨.

أحدهما: أنه جمع قصر، كـ «رَهْنٌ وَرُهْنٌ». قاله الزمخشري.

والثاني: أنه مقصور من قصور؛ كقوله: [الرجز]

٥٠٦٠ - فِيهَا عَيَّابِيلُ أَسْوَدٌ وَنُمُرٌ^(١)

يريد: نمور، فقصر، وكقوله: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم: ١] يريد: النجوم.

وتخريج الزمخشري أولى، لأن محل الثاني إما الضرورة، وإما الندور.

قوله: «جَمَالَات» قرأ الأخوان وحفص: «جَمَالَةٌ»، والباقون^(٢): «جَمَالَات».

ف «الجَمَالَة» نحو «ذكر، وذَكَارَة، وحجر، وَحِجَارَة».

والثاني: أنه جمع كـ «الذَّكَارَة، والحِجَارَة». قاله أبو البقاء.

والأول: قول النحاة.

وأما «جَمَالَات»، فيجوز أن يكون جمعاً لـ «جَمَالَة»، وأن يكون جمعاً لـ «جَمَال»،

فيكون جمع الجمع، ويجوز أن يكون جمعاً لـ «جَمِيل» المفرد كقولهم: «رجالات قريش» كذا قالوه. وفيه نظر؛ لأنهم نَصُّوا على أن الأسماء الجامدة، وغير العاقلة لا تجمع بالالف والتاء، إلا إذا لم تكسر، فإن كسرت لم تجمع، وقالوا: ولذلك لحن المتنبي في قوله: [الطويل]

٥٠٦١ - إِذَا كَانَ بَغْضُ النَّاسِ سَيِّئاً لِدَوْلَةٍ فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهُمْ وَطُبُورٌ^(٣)

فجمع «بوقاً» على «بوقات» مع قولهم: «أبواق»، فكذلك «جَمَالَات» مع قولهم:

«جَمَل، وَجَمَال» على أن بعضهم لا يجيز ذلك، ويجعل نحو «حمامات، وسجلات» شاذاً، وإن لم يكسر.

وقرأ ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وأبو رجاء^(٤)، بخلاف عنهم كذلك، إلا

أنهم ضموا الجيم، وهي حبال السفن.

وقيل: قُلُوصُ الجسور، الواحد منها جملة، لاشتغالها على طاقات الحبال، وفيها

وجهان:

أحدهما: أن يكون «جَمَالَات» - بالضم - جمع جمال، فـ «جمال» جمع «جملة»،

كذا قال أبو حيَّان، ويحتاج في إثبات أن «جَمَالَات» جمع «جملة» بالضم إلى نقل.

(١) تقدم.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٦، والحجة ٦/٣٦٥، وإعراب القراءات ٢/٤٢٩، وحجة القراءات ٧٤٤.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٢٠، والبحر المحيط ٨/٣٩٨، والدر المصون ٦/٤٥٧.

- والثاني: أن «جماليات» جمع «جمالة». قاله الزمخشري. وهو ظاهر.
- وقرأ ابن عباس والسلمي^(١) وأبو حيوة: «جُمَالَة» بضم الجيم لما قاله الزمخشري آنفاً.
- وروي عن علي - رضي الله عنه - أنها قطع الثَّحاس.
- قوله: ﴿صُفْرٌ﴾. صفة لـ «جماليات» أو لـ «جمالة» لأنه إما جمع أو اسم جمع.
- والعامة: على سكون الفاء جمع، والحسن^(٢) بضمها، كأنه إتباع، ووقع التشبيه بها في غاية الفصاحة.
- قال الزمخشري: وقيل: «صُفْر» سود تضرب إلى الصفرة، وفي شعر عمران بن حطَّان الخارجي: [الطويل]
- ٥٠٦٢ - دَعَتْهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمَتْهُمْ بِمِثْلِ الْجَمَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةُ الشَّوَى^(٣)
- وقال أبو العلاء: [الكامل]
- ٥٠٦٣ - حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الدَّوَابِّ فِي الدُّجَى تَزْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافٍ^(٤)
- فشبَّهها بالطَّراف، وهو بيت الأدم في العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن، ولتبجحه بما سؤل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته قوله: حمراء، توطئة لها ومنادة عليها تنبيهاً للسامعين على مكانها، ولقد عمي، جمع الله له عمى الدارين عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُلٌ صُفْرٌ﴾ فإنه بمنزلة قوله: كبيت أحمر وعلى أن في التشبيه بالقصر، وهو الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطول في الهواء. انتهى.
- وكان قد قال قبل ذلك بقليل: «شبَّهت بالقصور، ثم بالجمال لبيان التشبيه؛ ألا ترى أنهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل».
- والأفدان: القصور؛ كأنه يشير إلى قول عنترة: [الكامل]
- ٥٠٦٤ - فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا فِدْنٌ لَأَقْضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ^(٥)

فصل في المراد بالقصر

قال القرطبي^(٦): القصر: البناء العالي.

- (١) ينظر: السابق.
- (٢) ينظر السابق.
- (٣) ينظر الكشف ٦٨١/٤، والقرطبي ١٠٧/١٩، والبحر المحيط ٣٩٨/٨، والدر المصون ٤٥٩/٦.
- (٤) ينظر: الكشف ٦٨١/٤، والدر المصون ٤٥٩/٦.
- (٥) ينظر ديوان عنترة ص ١١٩، ومجمع البيان ٣٦٤/١، والمعلقات للزوزني ١٤٢، والبحر ٣٩٨/٨، والدر المصون ٤٥٩/٦.
- (٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٠٦/١٩.

وقيل: القصر: جمع قصرة - ساكنة الصاد - مثل جمر وجمرة، وتمر وتمرّة، والقصر: الواحدة من جزل الحطب الغليظ.

قال سعيد بن جبير، والضحاك: هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقطع.

وقيل: أعناقه، شبه الشرر بالجمال الصفر، وهي الإبل السود، والعرب تسمي السود من الإبل صفراً.

قال الشاعر: [الخفيف]

٥٠٦٥ - تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرُ أَوْلَاهَا كَالرَّبِيبِ^(١)
أي: هنّ سود، وإنما سميت السود من الإبل صفراً؛ لأنه يشوب سوادها شيء من صفرة.

قال الترمذي: وهذا القول ضعيف، ومحال في اللغة أن يكون من يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب^(٢)، فالعجب ممن قد قال هذا، وقد قال تعالى: ﴿جَمَلْتُ صُفْرًا﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. والجماليات: الجمال.

وقال الفراء: يجوز أن تكون الجمالات - بالضم - من الشيء المجمل، يقال: أجملت الحساب، وجاء القوم جملة، أي مجتمعين.

والمعنى: أن هذا الشرر يرتفع كأنه شيء مجموع غليظ أصفر.

قيل: شبهها بالجماليات لسرعة سيرها.

وقيل: لمتابعة بعضها بعضاً.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْلَزُونَ (٣٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لَكَذِيبِينَ (٣٧)

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ العامة على رفع «يوم» خبراً لـ «هذا»، أي تقول الملائكة: هذا يوم لا ينطقون.

ويجوز أن يكون قوله «انطَلِقُوا» من قول الملائكة ثم يقول الله لأوليائه: هذا يوم لا ينطق الكافر، ومعنى اليوم السّاعة والوقت.

وزيد بن علي، والأعرج، والأعمش، وأبو حيوة، وعاصم^(٣) في بعض طرقه: بالفتح، وفيه وجهان:

أحدهما: أن الفتحة فتحة بناء، وهو خبر لـ «هذا» كما تقدم.

(١) تقدم.

(٢) في ب: الشيء.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٠/٥، والبحر المحيط ٣٩٩/٨، والدر المصون ٤٥٩/٦.

والثاني: أنه منصوب على الظرف واقعاً خبراً لـ «هذا» على أن يشار به لما تقدم من الوعيد، كأنه قيل: هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون وقد تقدم آخر المائدة ما يشبه هذا في قوله تعالى: «هذا يَوْمٌ يَنْفَعُ» إلا أن النصب هناك متواتر.

قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ العامة: على عدم تسمية الفاعل. وحكى الأهوازي عن زيد بن^(١) علي: «ولا يَأْذَنُ» سمي الفاعل، وهو الله تعالى.

وقوله: فيعتذرون». في رفعه وجهان:

أحدهما: أنه مستأنف، أي فهم يعتذرون.

قال أبو البقاء: ويكون المعنى: أنهم لا ينطقون نطقاً ينفعهم، أو ينطقون نطقاً في بعض المواقف ولا ينطقون في بعضها.

والثاني: أنه معطوف على «يؤذن» فيكون منفيّاً، ولو نصب لكان متسبباً عنه.

وقال ابن عطية: «ولم ينصب في جواب الثقي لتشابه^(٢) رءوس الآي، والوجهان جائزان».

فظهر من كلامه أنهما بمعنى واحد، وليس كذلك بل المرفوع له معنى غير معنى المنصوب، وإلى هذا ذهب الأعلام إلى أن الفعل قد يرتفع ويكون معناه النصب، ورد عليه ابن عصفور.

قال الفرّاء في قوله «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»: الفاء نسق، أي عطف على «يؤذن»، وأجيز ذلك، لأن آخر الكلام بالنون، ولو قال: فيعتذروا، لم يوافق الآيات، وقد قال: «لا يقضى عليهم فيموتوا» [فاطر: ٣٦]، بالنصب، وكل صواب، ومثله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، بالرفع والنصب.

فصل في تخويف الكفار

هذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار، لأن الله - تعالى - بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح، ولا لهم قدرة على رفع العذاب عن أنفسهم، واعلم أن يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلمون فيها ولا يعتذرون.

روى عكرمة: أن ابن عباس - رضي الله عنهما - سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ و ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]. فقال له: إن الله - تعالى - يقول: ﴿وَأَرَأَيْتُمْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ

(١) ينظر: البحر المحيط ٣٩٩/٨، والدر المصون ٤٦٠/٦.

(٢) في ب: لمناسبة.

كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿[الحج: ٤٧] فَإِنْ لِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ لَوْنًا مِنْ هَذِهِ الْأَلْوَانِ^(١)﴾.

وقال الحسن: فيه إضمار، أي هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد، فكأنه ما نطق، كما يقال لمن ذكر كلاماً غير مفيد: ما قلت شيئاً^(٢)، وقيل: إن هذا وقت جوابهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قال الفراء: أراد بقوله: «لا ينطقون» تلك الساعة، وذلك القدر من الوقت الذي لا ينطقون فيه، كما تقول: آتاك يوم يقدم فلان، والمعنى: ساعة يقدم، وليس باليوم كله؛ لأن القدوم إنما يكون في وقت يسير ولا يمتد في كل اليوم.

وأجاب ابن الخطيب^(٣): بأن قوله تعالى ﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾ لفظ مطلق، والمطلق لا يفيد العموم لا في الأنواع، ولا في الأوقات، بدليل أنك تقول: فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير، وتارة تقول: فلان لا ينطق شيئاً ألبتة، فهذا يدل على أن مفهوم «لا ينطق» مشترك بين الدائم والمؤقت، وإذا كان كذلك فمفهوم «لا ينطق» يكفي في صدقه عدم النطق ببعض الأشياء، وفي بعض الأوقات، وذلك لا ينافي حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر، فيكتفى في صدق قوله: «لَا يَنْطِقُونَ» أنهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت واحد، وهو وقت السؤال.

فإن قيل: لو حلف لا ينطق في هذا اليوم حنث في قطعه في جزء منه. قلنا: ذلك لعرف الإيمان وبحثنا في عرف اللفظ من حيث هو.

قال ابن الخطيب^(٤): فإن قيل: قوله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» يوهم أن لهم عذراً، وقد منعوا من ذكره، وهذا لا يليق بالحكمة؟.

فالجواب: أن ليس لهم عذر في الحقيقة، ولكن ربما تخيلوا خيلاً فاسداً أن لهم فيه عذراً، فهم لا يؤذن لهم في ذكر ذلك العذر الفاسد.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّيْكُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَكِيدِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ﴾. هذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم، أي: يقال لهم: هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق، فيتبين المحق من المبطل.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٨/١٩) عن الحسن.

(٢) ينظر التخریج السابق.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٢٤٦/٣٠.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٢٤٧/٣.

﴿جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ .

قال ابن عباس: جمع الذين كذبوا محمداً ﷺ والذين كذبوا النبيين من قبله .
﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ أي: حيلة في الخلاص من العذاب «فَكِيدُوا» أي:
فاحتالوا لأنفسكم وفاء، ولن تجدوا ذلك^(١).

وقيل: فإن كان لكم كيد أي إن قدرتم على حرب «فَكِيدُوا» أي: حاربوني رواه
الضحاك عن ابن عباس أيضاً، قال: يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمداً وتحاربوني،
فاليوم حاربوني .

وقيل: إنكم كنتم في الدنيا تعملون المعاصي، وقد عجزتم الآن عنها، وعن الدفع
عن أنفسكم .

وقيل: إنه من قول النبي ﷺ فيكون كقول هود - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَكِيدُونِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود: ٥٥] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا
وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ .

قال مقاتل والكلبي: المراد^(٢) بالمتقين: الذين يتقون الشرك بالله تعالى؛ لأن
السورة من أولها إلى آخرها في تقرير الكفار على كفرهم وتخويفهم^(٣).

قال ابن الخطيب^(٤): فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض، وإلا
لتفككت السورة في نظمها وترتيبها، وإنما يتم النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب
إيمانهم، فأما من جعله بسبب الطاعة فلا يليق بالنظم، وأيضاً فإن المتقي للشرك يصدق
عليه أنه متقٍ؛ لأن غاية هذا أنه عام مخصوص، فتبقى حُجَّة فيما عدا محل التخصيص،
وأيضاً فإن يحمل اللفظ على المعنى الكامل أولى وأكمل أنواع التقوى تقوى الشرك،
فالحمل عليه أولى .

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٠٨) عن الحسن .

(٢) في أ: أراد .

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/٢٤٨) عن مقاتل والكلبي .

(٤) الفخر الرازي ٣٠/٢٤٩ .

وقال بعضهم: هذه الآية أيضاً من جملة التهديد، فإن الكفار في الدنيا يكون الموت عليهم أسهل من أن يكون للمؤمنين دولة، فإذا رأوا عاقبة الفريقين في الآخرة تضاعف خسرانهم وندمهم، ولما أوعد الكفار بظل ذي ثلاث شعب، وعد المؤمنين بظلال وعيون وفواكه.

قوله: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾. هذه قراءة العامة.

والأعمش والزهري وطلحة^(١) والأعرج: «ظَلَّل» جمع ظلة، يعني في الجنة. وتقدم في «يونس»^(٢) مثل لها.

قوله: ﴿كُلُوا﴾. معمولاً لقول ذلك المنصوب على الحال من الضمير المستكن في الظرف، أي كائنين في ظلال مقولاً لهم: وكذلك كلوا وتمتعوا قليلاً، فإن كان ذلك مقولاً لهم في الدنيا فواضح، وإن كان مقولاً في الآخرة فيكون تذكيراً بحالهم، أي حقاً بأن يقال لهم في دنياهم كذا؛ ومثله قوله: [المديد]

٥٠٦٦ - إخوتي لا تَبْعِدُوا أَبَدًا وَيَلَى، وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا^(٣) أي هم أهل إن دعا لهم بذلك.

قوله ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. أي: نشيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

فصل في الكلام على الآية

اختلفوا في قوله ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ هل هو أمر أو إذن؟.

فقال أبو هاشم: هو أمر، وأراد الله تعالى منهم الأكل والشرب لأن سرورهم يعظم بذلك إذا علموا أن الله تعالى أراحه منهم جزاء على عملهم، فكما يريد إجلالهم وإعظامهم بذلك، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب منهم. وقال أبو علي: ليس بأمر وإنما يقوله على وجه الإكرام، والأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف لا في الآخرة.

فصل فيمن قال: العمل يوجب الثواب

تمسك من قال: العمل يوجب الثواب بالباء في قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن الخطيب^(٤): وهذا ضعيف؛ لأن الباء للإلصاق، ولما جعل هذا العمل

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٢٢، والبحر المحيط ٨/٤٠٠، والدر المصون ٦/٤٦٠.

(٢) آية ٥٦.

(٣) البيت لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية. ينظر الحماسة ١/٣٨٣، والمغني ١/٢١٠، والكشاف ٤/٦٨٢، والدر المصون ٦/٤٦٠.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/٢٤٩.

علامة لهذا الثواب كان الإتيان بذلك كالألة والصلة إلى تحصيل ذلك الثواب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ المقصود منه تذكير الكفار بما فاتهم من النعيم العظيم ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات، فلما لم يفعلوا وقعوا فيما وقعوا فيه.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين وهو وعيد وتهديد، وهو حال من المكذبين، أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ أي كافرون.

وقيل: مكتسبون فعلاً يضرهم في الآخرة من الشرك، فكأنه - تعالى - يقول للكافر: إنك في الدنيا عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها لمحبتك الدنيا، ورغبتك في طبيباتها، إلا أن طبيباتها قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة، فالمشتغل بتعظيمها يجري مجرى لُقمَةٍ واحدة من الحلوى، وفيها السم المهلك، فإنه يقال لآكلها تذكيراً له ونصحاً: كُلْ هذا، وويل لك منه بعد؛ فإنك من الهالكين بسببه، فهذا وإن كان في اللفظ أمر إلا أنه في المعنى نهْيٌ بليغ وزجر عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار، أي: إذا قيل لهؤلاء المشركين: «ارْكَعُوا» أي: صلوا «لَا يَرْكَعُونَ» أي: لا يصلون. قاله مجاهد^(١). قال مقاتل: نزلت في ثيف، حين امتنعوا من الصلاة فنزلت فيهم^(٢).

قال مقاتل: قال لهم النبي ﷺ: أَسْلِمُوا وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا نَنَحْنِي، فإنها مَسْبَةٌ علينا فقال رسول الله ﷺ: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ»^(٣). وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود^(٤) فلا يستطيعون.

وقال قتادة: هذا في الدنيا^(٥).

فصل في وجوب الركوع

قال ابن العربي: هذه الآية تدلّ على وجوب الركوع، وكونه ركناً في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩٤/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٧/٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٩/١٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٧٨/٢) كتاب الخراج والفيء والإمارة: باب ما جاء في خبر مكة رقم (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبي العاص.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٩/١٩ - ١١٠). (٥) ينظر المصدر السابق.

وقال قوم: إن هذا إنما يكون في الآخرة، وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يدعون إلى السجود كشفاً لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد لله تمكن من السجود، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقاً واحداً.

وقيل: إذا قيل لهم: اخضعوا للحق لا يخضعون، فهي عامة في الصلاة وغيرها، وإنما ذكر الصلاة لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد، والأمر بالصلاة أمر بالإيمان لا يصح من غير إيمان.

فصل في المراد بالآية

حكى ابن الخطيب^(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المراد بقوله: «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» هو الصلوات، قال: وهذا ظاهر، لأن الركوع من أركانها فبين أن هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة^(٢)، وأنهم حال كفرهم يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة، لأن الله - تعالى - ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة.

فصل في أن الأمر للوجوب

استدلوا بهذه الآية على أن الأمر للوجوب، لأن الله - تعالى - ذمهم بمحمود ترك الأمور به، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب.

فإن قيل: إنما ذمهم لكفرهم.

فالجواب: أنه - تعالى - ذمهم على كفرهم من وجوه، إلا أنه - تعالى - إنما ذمهم في هذه الآية لترك الأمور به؛ فدل على أن ترك الأمور به غير جائز. قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾. متعلق بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

والعامة: على الغيبة، وقرأ ابن عامر في رواية ويعقوب^(٣): بالخطاب على الالتفات، أو على الانفصال.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب^(٤): اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها في الوجوه العشرة المذكورة، وحثاً على التمسك بالنظر والاستدلال، والانقياد للدين الحق، ختم السورة بالتعجب من الكفار، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٥٠/٣٠. (٢) في أ: الشرائع.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٢/٥، والبحر المحيط ٤٠٠/٨، والدر المصون ٤٦٠/٦.

(٤) الفخر الرازي ٢٥٠/٣٠.

الدلائل العقلية^(١) بعد تجليتها ووضوحها، ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ﴾.

قال القاضي: هذه الآية تدلّ على أن القرآن محدث؛ لأن الله - تعالى - وصفه بأنه حديث، والحديث ضد القديم، والضدان لا يجتمعان، فإذا كان حديثاً وجب ألا يكون قديماً.

وأجيب: بأن المراد منه هذه الألفاظ، ولا نزاع في أنها محدثة.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «الْمُرْسَلَاتِ» كُتِبَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(٢).

سورة النبأ

مكية، وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية، ومائة وثلاثة وسبعون كلمة، وسبعمائة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْلَفُونَ (٣) ﴿

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قد تقدم أن البزي يدخل هاء (١) السكت عوضاً من ألف «ما» الاستفهامية في الوقف.

ونقل عن ابن كثير (٢) أنه يقرأ «عمه» - بالهاء - وصلاً، أجرى الوصل مجرى الوقف.

وقرأ عبد الله، وأبي، وعكرمة وعيسى (٣): «عَمَّا» بإثبات الألف، وقد تقدم أنه يجوز ضرورة وفي قليل من الكلام؛ ومنه قوله: [الوافر]

٥٠٦٧ - عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمْنِي لَثِيمٌ كَخِزِيرٍ تَمَرَّغٌ فِي رَمَادٍ (٤)

وتقدم أن الزمخشري جعل منه ﴿يَمَّا عَفَّرَ لِي رَقِي﴾ [يس: ٢٧] في «يس»، و «عم» فيه قولان:

أظهرهما (٥): أنه متعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ».

قال أبو إسحاق: الكلام تام في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب، فيقول: يتساءلون عن النبأ العظيم فاقتضى إيجاز القرآن، وبلاغته أن يبادر المحتجّ بالجواب الذي يقتضيه الحال والمجاورة اقتضاءً بالحجة، وإسراعاً إلى موضع قطعهم.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٣/٥، والبحر المحيط ٤٠٢/٨، والدر المصون ٤٦١/٦.

(٢) ينظر: السابق، والكشاف ٦٨٤/٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٣/٥، والبحر المحيط ٤٠٢/٨، والدر المصون ٤٦١/٦.

(٤) تقدم. (٥) في أ: أحدهما.

والثاني: أنه متعلق بفعل مقدر، ويتعلق «عن النبأ العظيم» بهذا الفعل الظاهر.

قال الزمخشري: «وعن ابن كثير: أنه قرأ «عمّه» بهاء السكت، ولا يخلو إما أن يجري الوصل مجرى الوقف، وإما أن يقف، ويتبدىء بـ «يتساءلون عن النبأ العظيم» على أن يضمّر «يتساءلون»؛ لأن ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسر».

فصل في لفظ عم

قال ابن الخطيب^(١): «عم» أصله: «عن ما»؛ لأنه حرف جر دخل على «ما» الاستفهامية.

قال حسان بن ثابت: [الوافر]

٥٠٦٨ - عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَيْتِمُ^(٢)

والاستعمال الكثير على الحذف، وعلى الأصل قليل، وذكروا في سبب الحذف وجوهاً:

أحدها: قال الزجاج: لأن الميم تشرك النون في الغنة في الأنف فصارا كالحرفين المتماثلين.

وثانيها: قال الجرجاني: أنهم إذا وضعوها في استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن يكون اسماً، كقولهم: فيم ولم ويم وحتام.

وثالثها: قالوا: حذفت الألف لاتصال «ما» بحرف الجر حتى صارت كالجاء منه لينبىء عن شدة الاتصال.

ورابعها: حذف للتخفيف في الكلام، فإنه لفظ كثير الترداد على اللسان.

فصل في أن السائل والمجيب هو الله تعالى

قال ابن الخطيب^(٣): قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ سؤال، وقوله: «عن النبأ العظيم» جواب، والسائل والمجيب هو الله تعالى، وذلك يدل على علمه بالغيب، بل بجميع المعلومات، وفائدة ذكره في معرض السؤال والجواب؛ لأنه أقرب إلى التفهيم والإيضاح، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فصل في لفظ ما

«ما» لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء، وحقائقها، تقول: ما الملك؟ وما

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣/٣١.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣/٣١.

الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهياتها، وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، ثم إنَّ الشيء العظيم الذي يكون لفظه مزية يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول، فحصل بين الشيء المطلوب، وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه، فلذلك سئل عنه بما استعارة، وكأنه مجهول، ومنه ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة : ١، ٢]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَيْحِينَ﴾ [المطففين : ٨]، و ﴿مَا أَلْعَبُهُ﴾ [البلد : ١٢] وشبهه.

فصل

قال الفراء : السؤال هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن بينهم سؤال، قال تعالى : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُ قَائِلُ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصفافات : ٥٠، ٥١] الآية، وهذا يدل على التحدث.

فصل في نزول الآية

والضمير في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ لـ «قريش».

روى أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن، فتتحدث فيما بينهم، فمنهم المصدق، ومنهم المكذب به، فنزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١).

وقيل : «عم» قسم، فشدد المشركون أين يختصمون، بدليل قوله تعالى : ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ تُو كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد، والتهديد لا يليق إلا بالكفار.

فإن قيل : فما تصنع بقوله : ﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ مع أنَّ الكفار كانوا متفقين في إنكار الحشر؟ فالجواب : لا نسلم اتفاقهم في إنكار الحشر؛ لأن منهم من كان يثبت المعاد الروحاني، وهم جمهور النصارى، وأما المعاد الجسماني، فمنهم من كان شاكاً فيه لقوله : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت : ٥٠] ﴿وَلَكِنْ رَّجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِّيَ عِنْدُكَ لِلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت : ٥٠].

ومنهم من ينكره، ويقول : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام : ٢٩]. ومنهم من يُقرُّ به لكنه ينكر نبوة محمد ﷺ فقد حصل اختلافهم.

وأيضاً فهب أنهم كانوا منكرين له، لكن لعل اختلافهم في كيفية إنكاره، فمنهم من أنكروا لإنكاره الصانع المختار، ومنهم من ينكره؛ لاعتقاده أنَّ إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها، والقادر المختار إنما يكون قادراً على الممكن في نفسه.

وقيل : الضمير في «يتساءلون» هم الكفار والمؤمنون كانوا جميعاً يتساءلون عنه،

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١١١) من طريق أبي صالح عن ابن عباس.

فأما المسلمُ فيزداد يقيناً وبصيرةً في دينه، وأما الكافر فاستهزاءً وسخريةً، وعلى سبيل إيراد الشكوك، والشبهات.

قال ابن الخطيب^(١): ويحتملُ أنهم يسألون الرسول ﷺ ويقولون: ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة؟.

قوله: ﴿عَنِ النَّبِإِ﴾ يجوز فيه ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ﴾ في البدلية، والتعلق بفعلٍ مقدرٍ، ويزيد عليه هاهنا أنه يتعلق بالفعل الظاهر، ويتعلق ما قبله بمضمرٍ كما تقدم عن الزمخشري.

وقال ابن عطية: قال أكثر النحاة: «عن النبأ العظيم» يتعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ» الظاهر كأنه قال: لم يتساءلون عن النبأ، وقوله: «عَمَّ» هو استفهام توبيخ وتعظيم.

وقال المهدوي: «عن» ليس تتعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ» الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام، فيكون «أعن النبأ العظيم»؟ كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرنا امتناع تعلقه بـ «يَتَسَاءَلُونَ» الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بـ «يَتَسَاءَلُونَ» آخر مضمر، وحسن ذلك لتقدم «يَتَسَاءَلُونَ».

قال القرطبي^(٢): «وذكر بعضهم أن الاستفهام في قوله: «عن» مكرر إلا أنه مضمر كأنه قال: «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ أعن النبأ العظيم»، فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى، والنبأ العظيم، أي: الخبر الكبير، «الذي هم فيه مختلفون» أي: يخالف فيه بعضهم بعضاً فيصدق واحدٌ ويكذب آخر».

قوله: ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ خبر «هم» والجار متعلق بـ «هم»، والموصول يحتمل الحركات الثلاث إتباعاً وقطعاً رفعاً ونصباً.

فصل في المراد بهذا النبأ

قال ابن عباس - رضي الله عنه - «النبأ» هو القرآن^(٣)، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرِضُونَ﴾، فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم، وكانوا يختلفون فيه، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم قال: أساطير الأولين.

وقال قتادة: هو البعث بعد الموت اختلفوا فيه، فمصدق ومكذب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾^(٤) [النبأ: ١٧].

(١) الفخر الرازي: ٤/٣١. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١١١.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٩٨)، وعزه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٣٩٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٩٨)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه أمرُ النبي ﷺ؛ لأنه لما بعث سألَه اليهود عن أشياء كثيرة، فأخبره الله باختلافهم، وأيضاً فجعل الكفار يتساءلون فيما بينهم، ما هذا الذي حدث؟ فأنزل الله - تعالى - «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» وذلك أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، وعجبوا أن جاءهم بالتوحيد أيضاً كما قال تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فحكى الله - تعالى - عن مسألة بعضهم بعضاً على سبيل التعجب بقوله: «عم يتساءلون».

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥) ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩) ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِإِسَاءَا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١٦) قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ (٥)؛ التكرار للتوكيد.

وزعم ابن مالك: أَنَّهُ من باب التوكيد اللفظي، ولا يضر توسط حرف العطف، والنحويون يأبون هذا، ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد، والعامّة: على الغيبة في الفعلين.

والحسن وابن دینار^(١) وابن عامر بخلاف عنه بقاء الخطاب فيهما.

والضحّاك^(٢): قرأ الأول كالحسن، والثاني كالعامّة. والغيبة والخطاب واضحان.

فصل في لفظ كلا

قال القفال^(٣): «كلا» لفظة وضعت للردع، والمعنى: ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبا العظيم، إنه باطل، وإنه لا يكون.

وقيل: معناه: حقاً، ثم إنه - تعالى - كرر ذلك الردع والتهديد، فقال سبحانه ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيدٌ بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له، وأما تكرير الردع، فقيل: للتأكيد، ومعنى «ثم» الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد.

وقيل: ليس بتكرير.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٢٣، والدر المصون ٦/٤٦٢، وينظر الحجة ٦/٤٦٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٠٣، والدر المصون ٦/٤٠٢.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٥.

قال الضحاك: الأولى للكفار، والثانية للمؤمنين أي: سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم^(١).

وقال القاضي: يحتمل أن يريد بالأول سيعلمون معنى العذاب إذا شاهدوه، وبالثاني: سيعلمون العذاب.

وقيل: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ما الله فاعل بهم يوم القيامة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر ليس كما كانوا يتوهمون من أن الله غير باعث لهم.

قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ لما حكى الله - تعالى - عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلائل على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه - تعالى - قادراً على جميع الممكنات عالمياً بجميع المعلومات؛ لأنه إذا ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، فأثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعاً من مخلوقاته المتقنة المحكمة؛ فإن هذه الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، وإذا ثبت هذان الأصلان، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ثبت لا محالة كونه قادراً على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا وجه النظم.

قوله: «مِهْدًا». مفعول ثان؛ لأنَّ الجعل بمعنى التصيير، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق، فتكون «مِهْدًا» حالاً مقدرة.

وقرأ العامة: «مهاداً».

ومجاهد وعيسى^(٢) وبعض الكوفيين «مهذا»، وتقدمت هاتان القراءتان في سورة «طه»، وأن الكوفيين قرأوا «مهذا» في «طه» و «الزخرف» فقط، وتقدم الفرق بينهما ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾، والكلام عليها كالكلام في «مِهْدًا» في المفعولية والحالية، ولا بُدَّ من تأويلها بمشتق أيضاً، أي مثبتات.

والمهاد: الوطاء، وهو الفراش، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ومعنى «مِهْدًا» أي: كمهد الصبي، وهو ما يمهد للصبي فينوم عليه، و «أوتاداً» أي: لتسكن ولا تميل بأهلها.

قوله: ﴿وَحَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا﴾. أي: أصنافاً، ذكراً وأنثى.

وقيل: ألواناً.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩٧/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٩/٦)، عن الضحاك.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٤/٥، والبحر المحيط ٤٠٣/٨، والدر المصون ٤٦٢/٦.

وقيل: يدخل كل زوج بهيج، وقبيح، وحسن، وطويل وقصير، لتختلف الأحوال، فيقع الاعتبار.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ الظاهر أنه مفعول ثانٍ، ومعناه: راحة لأبدانكم، ومنه السبث أي: يوم الراحة، أي: قيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، ولا تعملوا فيه شيئاً. وأنكر ابن الأنباري هذا، وقال: لا يقال للراحة: سباتاً.

وقيل: أصله التمدد، يقال: سببت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسبات كالمد، ورجل مسبوث الخلق: أي ممدود، وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد، فسميت الراحة سبتاً.

وقيل: أصله القطع، يقال: سبت شعره سبتاً، أي: حلقه، وكأنه إذا نام انقطع عن الناس، وعن الاشتغال، فالسبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح، ويقال: سير سبت، أي سهل لئن.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا﴾. فيه استعارة حسنة؛ وعليه قول المتنبي: [الطويل]

٥٠٦٩ - وَكَمْ لِظِلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخْبِرُ أَنَّ الْمَانُوءَةَ تَكْذِبُ^(١)

والمعنى: يلبسكم ظلمته وتغشاكم. قاله الطبري، قال القفال^(٢): أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان، ويتغطى به، فيكون ذلك مغطياً، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته جعل لباساً لهم، فهذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز، ووجه النعمة في ذلك هو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو، أو إخفاء ما لا يجب اطلاع غيره عليه.

وقال ابن جبير والسدي: أي: أسكتاكم.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَلْهَارَ مَعَاشًا﴾. فيه إضمار، أي: وقت معاش، فيكون مفعولاً، وظرفاً للتبعض، أي: منصرفاً لطلب المعاش، وهو كل ما يعاش به من المطعم، والمشرب وغير ذلك، فـ «مَعَاشًا» على هذا اسم زمان ليكون الثاني هو الأول، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف مضاف، يقال: عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشةً، ومعنى كون النهار معيشة أن الخلق إنما يمكنهم القلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا﴾. أي: سبع سماوات محكمات، أي: محكمة الخلق وثيقة البنيان.

(١) ينظر ديوانه ٢٢٩/٢، والكشاف ٦٨٥/٤، والدر المصون ٦/٤٦٢.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٧/٣١.

وشداداً: جمع شديدة، أي: قوية لا يؤثر فيها مرور الأزمان^(١) لا فطور فيها ولا فروج، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾. أي: وقاداً، وهو الشمس، و «جَعَلَ» هنا بمعنى «خلق»؛ لأنها تعدت لمفعول واحد، والوهَّاج: المضيء المتلألئ، من قولهم: وهج الجوهر أي: تلألأ.

وقيل: الوهَّاج: الذي له وهج، يقال: وهَجَ يُوهِجُ، كـ «وَحَلَ يَوْحُلُ»، «ووهَجَ يَهْجُ» كـ «وَعَدَ يَعِدُ» وهجاً.

قال ابن عباس: وهَّاجاً: منيراً أي: متلألئاً^(٢).

قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾. يجوز في «من» أن تكون على بابها من ابتداء الغاية، وأن تكون للسببية، وتدل عليه قراءة عبد الله^(٣) بن زيد وعكرمة وقتادة: «بالمعصرات» بالباء بدل «من»، وهذا على الخلاف في «المعصرات» ما المراد بها، فعن ابن عباس: أنها السحاب، وهو قول سفيان والربيع وأبي العالية والضحاك، أي: السحاب التي تنعصر بالماء، ولم تمطر بعد كالمرأة المُعْصِر التي قد دَنَا حَيْضُهَا وَلَمْ تَحْضُ، يقال: أغصرت السحاب، أي: جاء وقت أن يعصرها الرياح فتمطر، كقولك: أجز الزرع، إذا جاز له أن يجز؛ وأنشد ابن قتيبة لأبي التَّجَم: [الرجز]

٥٠٧٠ - تَمْشِي الْهُوَيْنَى مَائِلًا خِمَارُهَا قَدْ أَغْصَرْتُ وَقَدْ دَنَا إِغْصَارُهَا^(٤)

ولولا تأويل «أغصرت» بذلك لكان ينبغي أن تكون «المعصرات» - بفتح الصاد - اسم مفعول؛ لأن الرياح تعصرها.

وقال الزمخشري: «وقرأ عكرمة: «بالمعصرات».

وفيه وجهان:

أحدهما: أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحاب؛ لأنه إذا كان الإنزال منها، فهو بها كما تقول: أعطى من يده درهماً، وأعطى بيده.

وعن ابن عباس ومجاهد: «المعصرات» الرياح ذوات الأعاصير كأنها تعصر السحاب.

(١) في ب: الزمان.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٩٨/١٢)، عن ابن عباس بمعناه وعن مجاهد مثله.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٩٩/٦)، وعزاه إلى أبي الشيخ في «العظمة».

(٣) ينظر: الكشف ٦٨٦/٤، والمحور الوجيز ٤٢٤/٥، والبحر المحيط ٤٠٤/٨.

(٤) يروى: «ساقطاً خمارها» مكان «مائلاً خمارها».

وقد نسب البيت إلى منظور بن مرثد الأسدي. ينظر ديوان الحماسة للمرزوقي ١٧٢/٣، وسمط

اللائي ٦٨٤/٢، واللسان (عصر)، والدر المصون ٤٦٢/٦، والقرطبي ١١٣/١٩.

وعن الحسن وقتادة: هي السماوات وتأويله: أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب، وكأَنَّ السماوات يعصرون، أي: يحملن على العصر، ويمكن منه.

فإن قلت: فما وجه من قرأ «من المعصرات» وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير، والمطر لا ينزل من الرياح؟.

قلت: الرياح هي التي تُنشيء السحاب، وتدرُّ أخلافه، فصَحَّ أن تجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْعَثُ الرِّيحَ فَتَخُولُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّحَابِ.

فإن صحَّ ذلك فالإنزال منها ظاهر.

فإن قلت: ذكر ابن كيسان أنه جعل «المعصرات» بمعنى المُغِيثَات، والعاصر المغيث لا المعصر، يقال: عصره فاعتصر.

قلت: وجهه أن يريد اللاتي أعصرت، أي: حان لها أن تعصر، أي: تغيث.

يعني أن «عصر» بمعنى الإغاثة: ثلاثي، فكيف قال هنا: «معصرات» بهذا المعنى وهو من الرباعي؟.

فأجابه عنه بما تقدم، يعني: أن الهمزة بمعنى الدخول في الشيء.

قال القرطبي^(١): «ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى: وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات ﴿مَاءً مُجَابًا﴾، وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب، كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان «بالمعصرات» لكان الريح أولى».

وفي «الصحاح»^(٢): والمعصرات: السحاب تعصر بالمطر، وأعصر القوم أي: مطروا، ومنه قراءة بعضهم: «وفيه تُعَصَّرُونَ» [يوسف: ٤٩]، والمعصر: الجارية التي فريث سنَّ البلوغ، والمعصر: السحابة التي حان لها أن تمطر، فقد أعصرت، ومنه «العَصْرُ» - بالتحريك - للملجأ الذي يلجأ إليه، والعصر - بالضم - أيضاً: الملجأ؛ وأنشد أبو زيد: [الخفيف]

٥٠٧١ - صَادِبًا يَسْتَفِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمُنْجُودِ^(٣)

قوله: ﴿مَاءً مُجَابًا﴾. الثَّجُّ: الانصباب بكثرة وبشدّة.

وفي الحديث: «أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ الْعَجُّ وَالثَّجُّ»^(٤).

فالعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١١٣/١٩. (٢) ينظر: الصحاح ٧٥٠/٢.

(٤) تقدم.

(٣) تقدم.

والتُّجُّ: إراقة دماءٍ حجج الهدى، يقال: ثَجَّ الماء بنفسه، أي: انصبَّ، وثَجَّجْتُهُ أنا: أي: صَبَّيْتُهُ ثَجًّا وثُجُوجًا، فيكون لازماً ومتعدياً؛ وقال الشاعر: [الطويل]
 ٥٠٧٢ - إِذَا رَجَفَتْ فِيهَا رَحاً مُرَجِحَةً تَبَعَّقَ ثَجَّاجاً غَزِيرَ الْحَوَافِلِ^(١)
 وقرأ الأعمش^(٢): «ثَجَّاحاً» - بالحاء المهملة - أخيراً.

قال الزمخشري: «ومثاجح الماء: مصائبه، والماء يثجج في الوادي». وكان ابن عباس مثجاً، يعني: يثجج الكلام ثجاً في خطبته. قوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء «حَبًّا» كالحنطة والشعير وغير ذلك. «وَنَبَاتًا» من النباتات، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. «وَجَنَاتٍ» أي: بساتين «أَلْفَافًا» أي: مُلتَفًا بعضها ببعض كتشعيب أعضائها. وفي الألفاف وجوه:

أحدها: أنه لا واحد له.

قال الزمخشري: «أَلْفَافًا»: مُلتَفَّةٌ، ولا واحد له كـ «الأوزاع» والأخفاف. والثاني: أنه جمع «لِف» - بكسر اللام - فيكون نحو: «سِرّ وأسرار»؛ وأنشد أبو علي الطوسي: [الرمل]
 ٥٠٧٣ - جَنَّةٌ لِفٌ وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهْرٌ^(٣)
 وهذا قول أكثر أهل اللغة، ذكره الكسائي.

الثالث: أنه جمع «لَفِيفٍ». قاله الكسائي، وأبو عبيدة كـ «شريف» و «أشراف»، و «شهيد» و «أشهاد»؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٠٧٤ - أَحَابِيشُ أَلْفَافٍ تَبَايَنَ فَرْعُهُمْ وَحَزْمُهُمْ عَنِ نِسْبَةِ الْمُتَعَرِّفِ^(٤)
 الرابع: أنه جمع الجمع، وذلك أن الأصل: «لِف» في المذكر، و «لَفَاء» في المؤنث كـ «أَحْمَرٌ وَحَمْرَاء»، ثُمَّ جمع «لِف» على «أَلْفَافٍ» إذ صار «لف» زنة «فعل» جمع جمعه قاله ابن قتيبة.

إلا أن الزمخشري قال: وما أظنه واجداً له نظيراً من نحو: «خضر وأخضار، وحمَر وأحمار».

(١) ينظر اللسان (وجف)، (رجحن)، و(حول)، والبحر ٨/٤٠٢، والدر المصون ٦/٤٦٣.

(٢) وقرأ بها الأعرج ينظر: البحر المحيط ٨/٤٠٤، والكشاف ٤/٦٨٦، والدر المصون ٦/٤٦٣.

(٣) ينظر الكشاف ٤/٦٨٧، والقرطبي ١٩/١١٤، والبحر ٨/٤٠٤، والدر المصون ٦/٤٦٣.

(٤) ينظر الدر المصون ٦/٤٦٣.

قال شهاب الدين^(١): كأنه يستبعد هذا القول من حيث إن نظائره لا تجمع على «أفعال» إذ لا يقال: «خضر ولا حمر»، وإن كانا جمعين لـ «أحمر وحمرء، وأخضر وخضرء»، وهذا غير لازم؛ لأن جمع الجمع لا ينقاس، ويكفي أن يكون له نظير في المفردات، كما رأيت من أن «لقاء» صار يضارع «فعلاء»، ولهذا امتنعوا من تكسير «مفاعِل ومفاعيل» لعدم نظيره في المفردات يحملان عليه.

الخامس: قال الزمخشري: «ولو قيل: هو جمع: «ملتفة» بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً».

وهذا تكلف لا حاجة إليه.

وأيضاً: فغالب عبارات النحاة في حذف الزوائد إنما هو في التصغير، يقولون: تصغير الترخيم بحذف الزوائد، وفي المصادر يقولون: هذا المصدر على حذف الزوائد. قال القرطبي^(٢): ويقال: شجرة لقاء، وشجر لف، وامرأة لقاء: أي: غليظة الساق مجتمعة اللحم.

وقيل: التقدير: ونُحِرْجُ به جئات ألفافاً، ثم حذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ (١٧) ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨) ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾. أي: وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين؛ لما وعد الله الجزاء والثواب، وسمي يوم الفصل؛ لأن الله - تعالى - يفصل فيه بين خلقه.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من «يَوْمِ الْفَصْلِ»، أو عطف بيان له، أو منصوباً بإضمار «أعني».

و «أفواجاً» حال من فاعل «تأتون».

وقرأ أبو عبيد^(٣): «في الصُّور» بفتح الواو وتقدم مثله.

فصل في النفخة الأخيرة

هذا النفخ هو النفخة الأخيرة التي عندها يكون الحشر، وهذا هو النفخ للأرواح.

وقيل: هو قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه للبعث.

(١) ينظر الدر المصون ٦/٤٦٣. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١١٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٢٥، والبحر المحيط ٨/٤٠٤، والدر المصون ٦/٤٦٤.

«فتأتون» أي: إلى موضع العرض.

«أفواجاً» أي: أمماً كل أممة مع إمامهم.

روى معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قلت: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ، لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرِ عَظِيمٍ»، ثم أرسل عينيه باكياً - ثم قال عليه الصلاة والسلام: «يُخْشَرُ عَشْرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أَشْتَاتًا قَدْ مَيَّزَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَبَدَّلَ صُورَهُمْ، فَمِنْهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنْكَسِنٌ أَرْجُلُهُمْ أَعْلَاهُمْ وَوُجُوهُهُمْ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ عُمِيًّا، وَبَعْضُهُمْ ضَمًّا، وَبَعْضُهُمْ يَمْضَعُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَهِيَ مَدْلَاءٌ عَلَى صُدُورِهِمْ، يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، يَتَقَذَّرُهُمُ الْجَمْعُ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مُصْلَبِينَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجَيْفِ، وَبَعْضُهُمْ مُلَبَّسِينَ جَلَابِيبَ لاصِقَةً بِجُلُودِهِمْ، فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ: فَالْقَتَاتُ مِنَ النَّاسِ - يَغْنِي: النَّمَامُ - وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَهْلُ السُّخْتِ وَالْحَرَامِ وَالْمَكْسِ، وَأَمَّا الْمُنْكَسُونَ رُءُوسُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا، وَأَمَّا الْعُمِيُّ: فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْحُكْمِ، وَأَمَّا الصُّمُّ الْبُكْمُ: فَالْمُعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَمْضَعُونَ أَلْسِنَتَهُمْ، فَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَخَالِفُ قَوْلَهُمْ فِعْلَهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ، وَأَمَّا الْمُصْلَبُونَ فِي جَذُوعِ النَّارِ، فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَأَمَّا الَّذِينَ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجَيْفِ، فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ، وَيَمْنَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجَلَابِيبَ فَأَهْلُ الْكِبَرِ وَالْفَخْرِ وَالْخِيَلِ»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾.

قرأ أبو عامر وحمزة والكسائي: «فُتِحَتْ» خفيفة، والباقون^(٢) بالثقل.

والمعنى: كُسرَت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: تَقَطَّعَتْ، فكانت قطعاً كالأبواب، فانتصاب الأبواب على هذا بحذف الكاف.

وقيل: التقدير: كانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً.

وقيل: أبوابها: طرقها.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠١)، وعزاه إلى ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل النخ.

(٢) ينظر: السبعة ٦٦٨، والحجة ٦/٣٦٨، وإعراب القراءات ٢/٤٣١، وحجة القراءات ٧٤٥.

وقيل : إِنَّ لكل عبد باباً في السماء لعمله ، وباباً لرزقه ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

قال القاضي : هذا الفتح هو معنى قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١١] ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : ١] إذ الفتح والتشقق تتقارب .

قال ابن الخطيب^(١) : وهذا ليس بقوي ؛ لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر ، فربما تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر ، بل الدلائل الصحيحة دلت على أن حصول فتح هذه الأبواب بحصول التفطر والتشقق بالكلية .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ يفيد أن السماء بكليتها تصير أبواباً بفعل ذلك .

فالجواب من وجوه :

أحدها : أن تلك الأبواب لما كثرت جداً صارت كأنها ليست إلا أبواباً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر : ١٢] أي : صارت كلها عيوناً تتفجر .

وثانيها : قال الواحدي : هذا من باب حذف المضاف ، أي : فكانت ذات أبواب .

وثالثها : أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ يعود إلى السماء ، والتقدير : فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً لنزول الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ وَشِيرَتِ الْجِبَالُ لَئِمًا فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

أي : لا شيء كما أن السراب كذلك يظنه الرائي ماء وليس بماء .

وقيل : نُسِفَتْ من أصولها .

وقيل : أزيلت عن مواضعها .

قال ابن الخطيب^(٢) : إن الله - تعالى - ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها بوجه ، بأن نقول :

أول أحوالها : الاندكأك ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤] .

والحالة الثانية : أن تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] .

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ .

والحالة الرابعة: أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة تارة في مواضعها في الأرض، فترسل الرياح، فتنسفها عن وجه الأرض، فتطيرها في الهواء كأنها مارة، فمن نظر إليها يحسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي في الحقيقة مارة، إلا أن مرورها^(١) بسبب مرور الرياح بها مندكة متسفة.

والحالة الخامسة: أن تصير سراباً، أي: لأي شيء كما رؤي السراب من بعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ لِلطَّغْيَنِ مَتَابًا ۖ (٢١) لِبِئْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ (٢٢) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ (٢٣) إِلَّا حِيمًا وَغَسَاقًا ۖ (٢٤) جَزَاءً وَفَاقًا ۖ (٢٥) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ (٢٦) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ (٢٧) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ (٢٨) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۖ (٢٩)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ «مِفْعَالاً» من الرصد، والرصد: كل شيء كان أمامك.

قرأ ابن يعمر وابن عمر والمنقري^(٢): «أَنَّ جَهَنَّمَ» بفتح «أن».

قال الزمخشري: على تعليل قيام الساعة، بأن جهنم كانت مرصاداً للطَّاعين، كأنه قيل: كان ذلك لإقامة الجزاء، يعني: أنه علة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ﴾ إلى آخره.

قال القفال^(٣): في المرصاد قولان:

أحدهما: أَنَّ المرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه، كالمضمار اسم للمكان الذي يضم فيه الخيل، والمِنْهَاج: اسم للمكان الذي ينهج فيه، أي: جهنم معدة لهم فالمرصاد بمعنى المحل، وعلى هذا فيه احتمالان:

الأول: أَنَّ خزنة جهنم يرصدون الكفار.

والثاني: أن مجاز المؤمنين، وممرهم على جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَكُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فخزنة الجنة يَسْتَقْبِلُونَ المؤمنين عند جهنم، ويرصدونهم عندها.

القول الثاني: أَنَّ «الْمِرْصَادَ» «مِفْعَال» من الرصد، وهو «الترقب» بمعنى أَنَّ ذلك يكثر منه، و «الْمِفْعَال» من أبنية المبالغة كـ «المِغْطَاء» و «المِغْمَار» و «المِطْعَان».

قيل: إِنَّهَا ترصد أعداء الله، وتشتد عليهم لقوله تعالى: تكاد تميز من الغيظ.

(١) في أ: مورها.

(٢) ينظر: الكشف ٦٨٨/٤، والمحزر الوجيز ٤٢٥/٥، والبحر المحيط ٤٠٥/٨.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ١٢/٣١.

وقيل: ترصدُ كُلَّ منافقٍ وكافرٍ.

فصل

دلت الآية على أنَّ جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى أن جهنم كانت مرصداً وإذا كان كذلك كانت الجنة لعدم الفارق.

قوله: ﴿لِّلطَّغِيَّيْنَ﴾ يجوز أن يكون صفة لـ «مِرْصَاداً»، وأن يكون حالاً من «مَأْبَأً» كان صفته فلما تقدّم نصبٌ على الحال، وعلى هذين الوجهين يتعلق بمحذوف، ويجوز أن يكون متعلقاً بنفس «مِرْصَاداً»، أو بنفس «مَأْبَأً»؛ لأنه بمعنى مرجع.

قال ابن الخطيب^(١): إن قيل بأن: «مِرْصَاداً» للكافرين فقط، كان قوله: «لِّلطَّغِيَّيْنَ» من تمام ما قبله، والتقدير: كانت مرصداً للطّاعين، ثم قوله: «مَأْبَأً» بدل قوله: «مرصداً»، وإن قيل: إنَّ مرصداً مطلقاً للكفار والمؤمنين كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ كلاماً تاماً وقوله تعالى: ﴿لِّلطَّغِيَّيْنَ مَأْبَأً﴾ كلاماً مبتدأ، كأنه قيل: إنَّ جهنم كانت مرصداً للكل، و «مَأْبَأً» للطّاعين خاصّة، فمن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله: «مرصداً» ومن ذهب إلى القول الثاني وقف عليه.

قال القرطبي^(٢): «لِّلطَّغِيَّيْنَ مَأْبَأً» بدلٌ من قوله: «مِرْصَاداً»، والمأب: المرجع، أي: مرجعاً يرجعون إليه، يقال: آب يثوب أوبة: إذا رجع.

وقال قتادة: مأوى ومنزلاً^(٣)، والمراد بالطّاعين من طغى في دينه بالكفر ودنياه بالظلم.

قوله: ﴿لِّلْبَشِيِّيْنَ﴾. منصوب على الحال من الضمير المستتر في «لِّلطّاعين»، وفي حال مقدرة.

وقرأ حمزة^(٤): «لِبَشِيْن» دون ألف.

والباقون: «لابشيين» بألف.

وضعف مكّي قراءة حمزة، قال: ومن قرأ: «لِبَشِيْن» شبهه بما هو خلقه في الإنسان نحو جذر وفَرْق، وهو بعيد؛ لأن اللبث ليس مما يكون خلقه في الإنسان وباب فعل إنما يكون لما هو خلقه في الإنسان. وليس اللبس بخلقة.

ورجّح الزمخشري قراءة حمزة، فقال: «قرأ: لابشيين» و«لبشيين» واللبث أقوى؛ لأن

(١) ينظر: السابق ١٣/٣١. (٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١١٦/١٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٠٣/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠١/٦)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ينظر: السبعة ٦٦٩، والحجة ٦/٣٦٩، وإعراب القراءات ٢/٤٣١، وحجة القراءات ٧٤٥.

اللابث يقال لمن وجد منه اللبث، ولا يقال: لبث إلا لمن شأنه اللبث، كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه».

وما قاله الزمخشري أصوب.

وأما قول مكّي: اللبث ليس بخلقة، فمسلم، لكنه بولغ في ذلك، فجعل بمنزلة الأشياء المختلفة.

و «لابثين» اسم فاعل من «لبث»، ويقويه أن المصدر منه «اللبث» - بالإسكان - ك «الشرب». قوله: «أحْقَاباً» منصوب على الظرف، وناصبه «لَابِثِينَ»، هذا هو المشهور، وقيل: منصوب بقوله: «لا يذوقون»، وهذا عند من يرى تقدم معمول ما بعد «لا» عليها وهو أحد الأوجه، وقد مر هذا مستوفى في أواخر الفاتحة وجوز الزمخشري أن ينتصب على الحال. قال: «وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من: حَقَبَ عامناً إذا قلَّ مطرُه وخيرُه، وحَقَبَ فلان إذا أخطأه الرزق، فهو حَقَبٌ وجمعه: «أَحْقَاب»، فينتصب حالاً عنهم، بمعنى: لَابِثِينَ فيها حَقَبِينَ جَحْدِينَ». وتقدم الكلام على الحَقَب في سورة «الكهف»^(١).

قال القرطبي^(٢): و «الحِقْبَةُ» - بالكسر - : السَّنة، والجمع حَقَبٌ؛ قال متمم بن نويرة: [الطويل]

٥٠٧٥ - وَكُنَّا كَنَدَمَائِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٣)
والْحُقْبُ - بالضم والسكون - : ثمانون سنة.

وقيل: أكثر من ذلك وأقل، والجمع: «أَحْقَاب».

قال الفراء: أصل الحقبة من التراذف والتتابع، يقال: «أَحَقَبَ»: إذا أردف، ومنه الحقبة، ومنه كل من حمل وزراً فقد احتقب، فعلى هذا معناه: لَابِثِينَ فيها أحقاباً، أي: دهوراً مترادفةً يتبع بعضهم بعضاً.

فصل في تحرير معنى الآية

المعنى: ما كَثُرَ في النَّارِ ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكُلَّمَا مضى حُقْبٌ جاء حُقْبٌ، و «الحُقْبُ» - بضمين - : الدَّهْرُ، والأحقاب: الدهور، والمعنى: لَابِثِينَ فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها، فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليها، إذ في الكلام ذكر الآخرة، كما يقال: أَيَّامُ الآخرة، أي: أيام بعد أيام إلى غير نهاية، أي: لَابِثِينَ فيها أزماناً ودهوراً، كُلَّمَا مضى زمنٌ يعقبه زمنٌ، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبداً من غير انقطاع، فكانه

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١١٦.

(١) الآية: ٦٠.

(٣) ينظر شعر متمم بن نويرة ص ١١١، والمفضليات ص ٥٣٥، والقرطبي ١٩، ١١٦، ومجمع البيان ٦٤١/١٠.

قال: أبدأ، وإنَّما كان يدل على التوقيت لو قال: خمسة أحقاب، أو عشرة ونحوه، وذكر الأحقاب؛ لأن الحقب كان أبعد شيء عندهم، فذكر ما يفهمونه، وهو كناية عن التأبید، أي: يمكنون فيها أبدأ.

وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود، وهذا الخلود في حق المشركين، ويمكن حمله على العصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب.

وقيل: الأحقاب وقت شربهم الحميم والغساق، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَبِثَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي في الأرض لتقدم ذكرها ويكون «لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا» جهنم.

قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه مستأنف، أخبر عنهم بذلك.

الثاني: أنه حال من الضمير في «لا يَبِثَنَّ» غير ذائقين، فهي حال متداخلة.

الثالث: أنه صفة لـ «أحقاب».

قال مكي: واحتمل الضمير؛ لأنه فعل فلم يجب إظهاره كأن قد جرى صفة على غير من هو له، وإنَّما جاز أن يكون نعتاً لـ «أحقاب» لأجل الضمير العائد على «الأحقاب» في «فيها»، ولو كان في موضع «يَذُوقُونَ» اسم فاعل لكان لا بُدَّ من إظهار الضمير إذا جعلته وصفاً لـ «أحقاب».

الرابع: أنه تفسير لقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ إذا جعلته منصوباً على الحال بالتأويل المتقدم عن الزمخشري، فإنه قال: «وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾. تفسير له».

الخامس: أنه حال أخرى من «للطاغين» كـ «لابئين».

فصل في معنى هذا البرد

قال أبو عبيدة: البرْدُ: النوم؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٠٧٦ - فَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نِعَاجًا وَلَا بَرْدًا^(١)

وهو قول مجاهدٍ والسديّ والكسائيّ والفضل بن خالدٍ وأبي معاذٍ النحويّ.

والعرب تقول: منع البرْدُ البرْدَ، يعني: أذهب النوم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: البرد برد الشراب.

وعنه - أيضاً - البرد: التَّوَم، والشراب: الماء^(١).

قال الزجاج: لا يذوقُونَ فيها بَرْدَ رِيحٍ، ولا بَرْدَ نَوْمٍ، ولا بَرْدَ ظِلٍّ. فجعل البرد كل شيء له رائحة.

وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بَرْدًا: أي روحاً ورائحة^(٢).

قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾. يجوز أن يكون استثناءً متصلاً من قوله: «شراباً»، ويجوز أن يكون مُنْقَطِعاً.

قال الزمخشري: «يعني لا يذوقُونَ فيها برداً، ولا روحاً ينفس عنهم حر النَّار «ولا شراباً» يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً».

قال شهاب الدين^(٣): «ومكي لما جعله منقطعاً جعل البرد عبارة عن النوم، قال: فإن جعلته النوم كان «إلا حميماً» استثناء ليس من الأول».

وإنما الذي حمل الزمخشري على الانقطاع مع صدق الشراب على الحميم والغساق، وصفه له بقوله: «ولا شراباً يسكن من عطشهم» فبهذا القيد صار الحميم ليس من جنس هذا الشراب؛ وإطلاق البرد على النوم لغة هزيل، وأنشد البيت المتقدم.

وقول العرب: منع البرد البرد، قيل: وسمي بذلك لأنه يقطع سورة العطش، والذوق على هذين القولين مجاز، أعني: كونه روحاً ينفس عنهم الحر، وكونه النوم مجاز، وأما على قول من جعله اسماً للشراب البارد المستلذ كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما وأنشد قول حسان رضي الله عنه: [الكامل]

٥٠٧٧ - يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ بَرْدِي تُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٤)

قال ابن الأثير: البريص: الماء القليل، والبرص: الشيء القليل؛ وقال الآخر:

[الطويل]

٥٠٧٨ - أَمَانِي مِنْ سُعْدَى حِسَانٍ كَأَنَّمَا سَقْنَكَ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمٍ بَرْدًا^(٥)

والذوق حقيقة، إلا أنه يصير فيه تكرار بقوله بعد ذلك «ولا شراباً».

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٨/١٩).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر الدر المصون ٤٦٥/٦.

(٤) ينظر ديوانه ص ١٢٢، وجمهرة اللغة ص ٣١٢، وخزانة الأدب ٤/٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ١١/١٨٨، والدرر ٥/٣٨، وشرح المفصل ٣/٢٥، ولسان العرب (برد)، و(برص)، و(صفق)، ومعجم ما استعجم ص ٢٤٠، وأمالى ابن الحاجب ١/٤٥١، وشرح الأشموني ٢/٣٢٤، وجمع الهوامع ٢/٥١، والطبري ٣/٦٧، وجمع البيان ١٠/٦٩١، والبحر المحيط ٨/٤٠٥، والدر المصون ٦/٤٦٥.

(٥) ينظر اللسان (سعد)، (برد)، والبحر ٨/٤٠٦، والدر المصون ٦/٤٦٥.

الثالث: أنه بدلٌ من قوله: «وَلَا شَرَابًا»، وهو الأحسن؛ لأن الكلام غير موجب.
قال أبو عبيدة: الحَمِيمُ: الماء الحارّ.
وقال ابن زيد: دموع أعينهم تجمع في حياض، ثم يسقونه.
وقال النحاس: أصل الحميم الماء الحار، ومنه اشتقَّ الحَمَام، ومنه الحُمَى ومنه
ظل من يحموم، إثمًا يراد به النهاية في الحر، والغساق: صديد أهل النار وقيحهم.
وقيل: الزمهرير، وتقدم خلاف القراء في «غساقًا» والكلام عليه وعلى «حَمِيم».
قال أبو معاذ: كنت أسمع مشايخنا يقولون: الغساق: فارسية معربة، يقولون للشيء
الذي يتقذرونه: خاشاك.
قوله: ﴿جَزَاءً﴾ منصوبٌ على المصدر، وعامله إما قوله: «لا يذوقون» إلى آخره؛
لأنه من قوة جوزوا بذلك، وإثما محذوف، و«وَفَاقًا» نعت له على المبالغة، أو على
حذف مضاف، أي: ذا مبالغة.
قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: معناه: موافقاً لأعمالهم، فالوفاقُ بمعنى:
«الموافقة» كالقتال من المقاتلة.
قال الفراء والأخفش: أي: جازيناهم جزاء وافق أعمالهم.
وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوفاق واللفق واحد.
وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم
من النار^(١).
وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوؤهم^(٢).
وقرأ أبو حيوة^(٣) وابن أبي عبلة: بتشديد الفاء من «وفقه كذا».
قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. أي: لا يخافون حساباً، أي: محاسبة
على أعمالهم، وقيل: لا يرجون ثواب حساب.
وقال الزجاج: إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، فيرجون حسابهم، فهو إشارة إلى
أنهم لم يكونوا مؤمنين.
قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ قرأ العامة: «كِذَابًا» بتشديد الذال، وكسر
الكاف.

وكان من حق مصدر «فَعَّل» أن يأتي على «التَّفْعِيل» نحو صَرَّفَ تصريفاً.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(١) ينظر القرطبي (١٩/١١٨).

(٣) ينظر: الكشف ٤/٦٨٩، والبحر المحيط ٨/٤٠٦، والدر المصون ٦/٤٦٥.

قال الزمخشري: و «فَعَال» في باب «فَعَل» كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره، وسمعي بعضهم أفسر آية، فقال: لقد فسرتها فساراً ما سمع بمثله.

قال غيره: وهي لغة بعض العرب يمانية؛ وأنشد: [الطويل]

٥٠٧٩ - لَقَدْ طَالَ مَا ثَبُطْتَنِي عَنْ صَحَابَتِي وَعَنْ حَاجَةِ قِضَاؤِهَا مِنْ شِفَائِيَا^(١)

يريد: تَقْضِيَّتُهَا، والأصل على «التفعيل»، وإنما هو مثل «زَكَّى تَزْكِيَّةً».

وسمع بعضهم يستفتي في حجه، فقال: ألحلق أحب إليك أم القصار؟ يريد التقصير.

قال الفراء: «هي لغة يمانية فصيحة، يقولون: كذبت كذاباً، وخرقت القميص خِرَاقاً، وكل فعل وزن «فَعَل»، فمصدره «فِعَال» في لغتهم مشددة».

وقرأ علي والأعمش وأبو رجاء^(٢) وعيسى البصري: بالتخفيف.

وهو مصدر أيضاً، إمّا لهذا الفعل الظاهر على حذف الزوائد، وإمّا لفعل مقدر كـ «أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً».

قال الزمخشري: «وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾ [نوح: ١٧]

يعني وكذبوا بآياتنا، فكذبوا كذاباً، أو تنصبه بـ «كذبوا»؛ لأنه يتضمن معنى «كذبوا»، لأن كل مكذب بالحق كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة، فمعناه: وكذبوا بآياتنا، فكاذبوا مكاذبة، أو كذبوا بها مكاذبين؛ لأنهم كانوا عند المسلمين مكاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب، فعل من يغالب فيبلغ فيه أقصى جهده».

وقال أبو الفضل: وذلك لغة «اليمن»، وذلك بأن يجعل مصدر «كذب» مخففاً «كِذْباً» بالتخفيف مثل «كَتَبَ كِتَاباً» فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه، مثل: «أعطيته عطاءً».

قال شهاب الدين^(٣): أمّا «كذب كذاباً» بالتخفيف، فهو مشهور، ومنه قول الأعشى: [مجزوء الكامل]

٥٠٨٠ - فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٤)

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢٢٩/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٧٤/٥، والقرطبي ١١٨/١٩، والبحر المحيط ٤٠٦/٨، والدر المصون ٤٦٦/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٧/٥، والبحر المحيط ٤٠٦/٨.

(٣) الدر المصون ٤٦٦/٦.

(٤) ينظر ابن عيش ٤٤/٦، وشواهد الإيضاح ص ٦٠٦، واللسان (صدق)، والكشاف ٦٨٩/٤، والقرطبي ١١٨/١٩، ومجاز القرآن ٢٨٣/٢، والكامل ٢٣٠/٢، والتاج (صدق)، والطبري ٣٠/١٤، ومجمع البيان ٦٤١/١٠، والبحر المحيط ٤٠٦/٨، والدر المصون ٤٦٦/٦.

وقرأ عمر^(١) بن عبد العزيز والماجشون: «كُذَاباً» بضم الكاف وتشديد الذال، وفيها وجهان:

أحدهما: أنه جمع كاذب، نحو: ضراب «في» ضارب، وعلى هذا، فانتصابه على الحال المؤكدة، أي: وكذبوا في حال كونهم كاذبين. قاله أبو البقاء.

والثاني: أنَّ «الكُذَّاب» بمعنى الواحد البليغ في الكذب، يقال: رجل كذاب، كقولك: حسان، فيجعل وصفاً لمصدر كذبوا: أي تكذيباً لهم كذاباً مفرطاً كذبه. قاله الزمخشري.

قال القرطبي^(٢): وفي «الضحاح»: وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ وهو أحد مصار المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء على «تَفْعِلَةٌ» مثل «تَوْصِيَةٌ»، وعلى «مُفْعَلٌ» مثل: ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ العامة على النصب على الاشتغال، وهو الراجح، لتقدم جملة فعلية.

وقرأ أبو السمال^(٣): برفع «كُل» على الابتداء، وما بعده الخبر وهذه الجملة معترض بها بين السبب والمسبب، لأن الأصل: «وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا» فـ «ذوقوا» مُسَبَّبٌ عن تَكْذِيبِهِمْ.

قوله: «أَخْصَيْنَاهُ». فيه أوجه:

أحدها: أنه مصدر من معنى أحصينا، أي إحصاء، فالتجوّز في نفس المصدر.

الثاني: أنه مصدر لـ «أَخْصَيْنَا» لأنه في معنى: «كَتَبْنَا» فالتجوّز في نفس الفعل.

قال الزمخشري: «لانتفاء الإحصاء»، والكتابة في معنى الضبط، والتحصيل.

قال ابن الخطيب^(٤): وإثماً عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة؛ لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم، ولهذا قال ﷺ: «قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»، فكأنه تعالى قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ إحصاء في القوة والثبات والتأكد، كالمكتوب، والمراد من قوله: «كِتَابًا» تأكيد ذلك الإحصاء والعلم، وهذا التأكيد إثماً ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر، فإن المكتوب يقبل الزوال، وعلم الله - تعالى - بالأشياء لا يقبل الزوال؛ لأنه واجب لذاته.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٧/٥، والبحر المحيط ٤٠٦/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٩/١٩.

(٣) ينظر: الكشف ٦٩٠/٤، والبحر المحيط ٤٠٦/٨، والدر المصون ٤٦٦/٦.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ١٨/٣١.

الثالث: أن يكون منصوباً على الحال، بمعنى مكتوباً في اللوح المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقيل: أراد ما كتبه الملائكة الموكلون بالعباد، بأمر الله - تعالى - إياهم بالكتابة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

فصل في المراد بالإحصاء

معنى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي: علمنا كل شيء علماً كما هو لا يزول، ولا يتبدل ونظيره قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

قال ابن الخطيب^(١): وهذه الآية لا تقبل التأويل، لأن الله - تبارك وتعالى - ذكر هذا تقديرأ لما ادعاه من قوله تعالى: «جزاء وفاقاً»، كأنه تعالى قال: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وعالم بجهات تلك الأفعال، وأحوالها؛ واعتباراتها التي لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلا قدر ما يكون وفاقاً لأعمالهم، وهذا القدر إنما يتم بثبوت كونه عالماً بالجزئيات، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كافر قطعاً.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

قال ابن الخطيب^(٢): هذه «الفاء» للجزاء، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم، فهذه «الفاء» أفادت عين فائدة قوله: «جزاء وفاقاً».

فإن قيل: أليس أنه - تعالى - قال في صفة الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فها هنا لما قال تعالى لهم: «فذوقوا»، فقد كلمهم؟

فالجواب: قال أكثر المفسرين: ويقال لهم: «فذوقوا».

ولقائل أن يقول: قوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾ لا يليق إلا بالله، والأقرب في الجواب أن يقال: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ [آل عمران: ٧٧] معناه: ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، فإن تخصيص العموم سائغ عند حصول القرينة، فإن قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ إنما ذكره لبيان أنه - تعالى - لا يقيم لهم وزناً، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب.

فإن قيل: إن كانت هذه الزيادة غير مستحقة كانت ظلماً، وإن كانت مستحقة كان تركها في أول الأمر إحساناً، والكريم لا يليق به الرجوع في إحسانه.

والجواب: أنها مستحقة، ودوامها زيادة لفعله بحسب الدوام، وأيضاً: فترك المستحق في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط.

فصل في الالتفات في هذه الآية

قال ابن الخطيب^(١): قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ يفيد معنى التعليل، وهو الالتفات من الغيبة للخطاب، فهو دالٌّ على الغضب، وفيه مبالغات: منها أن «لن» للتأكيد، ومنها الالتفات، ومنها إعادة قوله: «فذوقوا» بعد ذكر العذاب، قال أبو برزة رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن، قال عليه الصلاة والسلام: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٥٦] أي: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾^(٢) [النساء: ٥٦]، و ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾^(٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا^(٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا^(٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا^(٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا^(٣٥) بَرَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حَسَابًا^(٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا^(٣٧)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. تقدم تفسير المتقين، و «المفاز»: يحتمل أن يكون مصدرًا، بمعنى: فوزًا وظفرًا بالنعمة، ويحتمل أن يكون المراد فوزًا بالنجاة من العذاب، ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها، وأن يكون مجموع الأمرين.

وقال الضحاك^(٣): منتزهاً.

قوله: ﴿حَدَائِقَ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «مفازاً» بدل اشتمال، أو بدل كل من كل مبالغة في أن جعل نفس هذه الأشياء مفازاً.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار «أغني»، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز، فيُقَدَّر مضاف، أي فوز حدائق، وهي جمع حديقة، وهي البستان المحوط عليه، ويقال: أُحْدَقَ بِهِ أي أحاطَ.

والأعْنَابُ: جمعُ عنب، أي: كروم أعناب، فحذف، والتنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ يدل على تعظيم تلك الأعناب.

قوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا﴾. الكواعب: جمع كاعب، وهي من كعب ثديها وتفلك، أي يكون الثدي في التواء كالكعب والفلكة، وهي التأهد، يقال: كَعَبَتِ الجارية تكعب

(١) السابق.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٤)، عن أبي برزة موقوفاً وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٣٩)، عن الضحاك.

كُعباً، وكَعَبَتْ تُكْعِبُ تَكْعِيْباً، ونَهَدَتْ تَنْهَدُ نُهَوْدَاءُ؛ قال: [الطويل]

٥٠٨١ - وَكَانَ مِجْنَى ذُونٍ مَن كُنْتُ أَتْقِي ثَلَاثَ شُخُوصٍ: كَاعِبَانِ وَمُغْصِرٍ^(١)

وقال قيس بن عاصم المسعري: [الطويل]

٥٠٨٢ - وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةً وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَذَرِ مَا الْبُؤْسُ مُغْصِرٍ^(٢)

وقال الضحاك: الكواعب: العذارى^(٣)، والأتراب الأقران في السن، وقد تقدم ذكرهن في «الواقعة».

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾.

الدَّهَاقُ: المَلَأَى الْمُتْرَعَةَ.

قيل: هو مأخوذ من دهقه، أي: ضغطه، وشده بيده، كأنه ملأ اليد فانضغط، قال:

[الوافر]

٥٠٨٣ - لَأَنْتِ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْبَا مِّنَ الصَّادِي إِلَى كَأْسِ الدَّهَاقِ^(٤)

وهذا قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي عبيدة، والزجاج، والكسائي.

وقال عكرمة: ورَبِّمَا سمعت ابن عباس يقول: اسقنا وادهق لنا، ودعا ابن عباس غلاماً له فقال له: اسقنا دهاقاً، فجاء الغلام بها ملأى، فقال ابن عباس: هذا الدَّهَاقُ.

وقيل: الدَّهَاقُ: المتتابعة؛ قال رحمه الله: [الوافر]

٥٠٨٤ - أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَأَتْرَعُنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقاً^(٥)

وهذا قول أبي هريرة، وسعيد بن جبیر، ومجاهد.

قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب: أدهقت الحجارة إدهاقاً، وهي شدة ترادفها، ودخول بعضها في بعض. ذكره الليث.

والتَّابِعُ كالتَّادِخُل.

وعن عكرمة وزيد بن أسلم: أَنَّهَا الصَّافِيَةُ، وهو جمع «دهق»، وهو خشبتان يعصر بهما.

والمراد بالكأس: الْحَمْرُ.

(١) تقدم.

(٢) ينظر القرطبي ١٩/١١٩، والبحر ٨/٤٠٢، والدر المصون ٦/٤٦٧.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٨٨/٦)، والقرطبي (١١٩/١٩).

(٤) ينظر القرطبي ١٩/١٢٠، والبحر ٨/٤٠٢، والدر المصون ٦/٤٦٧.

(٥) البيت لخداش بن زهير. ينظر القرطبي ١٩/١٢٠، والبحر ٨/٤٠٢، والدر المصون ٦/٤٦٧.

قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو خمر، والتقدير: وخمر ذات دهاق، أي عصرت وصفيت بالدهاق، قاله القشيري.

وفي «الصحاح»^(١): وأَذْهَقْتُ الماءَ، أي: أفرغته إفرافاً شديداً، قال أبو عمرو: والدَّهْقُ - بالتحريك - ضرب من العذاب، وهو بالفارسية: «أشْكَنْجَه».

قال المبرد: والمدَّهوقُ: المُعَذَّبُ بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه.

وقال ابن الأعرابي: دهقت الشيء: أي: كسرتة وقطعته، وكذلك: «دَهَقْتُهُ» و «دَهَمَقْتُهُ» بزيادة الميم المثلثة.

وقال الأصمعي: «الدَّهْمَقَةُ»: لين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء لين، ومنه حديث عمر - رضي الله عنه -: لو شئت أن يدهمق لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا﴾^(٢) [الأحقاف: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا﴾. أي: في الجنة، وقيل: في الكأس. ﴿لَغَوًا وَلَا كِذَابًا﴾.

اللَّغَوُ: الباطل، وهو ما يلغى من الكلام ويطرح، ومنه الحديث: «إذا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ: أَنْصِتْ، فَقَدْ لَغَوْتَ»^(٣). وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو بخلاف الدنيا، و «لا كِذَابًا» أي: لا يتكاذبون في الجَنَّةِ.

وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنَّما خففها؛ لأنَّها ليست مقيدة بفعل يصير مصدراً له، وشدد قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ لأنَّ «كَذَّبُوا» يفيد المصدر بالكذاب.

قال شهاب الدين^(٤): «وإنَّما وافقَ الكسائي الجماعة في الأول للتصريح بفعله المشدد المقضي لعدم التخفيف في «كَذَّبُوا»، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿فَنَفَّجَرَ الْأَنْهَارَ﴾ [الإسراء: ٩١]، حيث لم يختلف فيه للتصريح معه بفعله بخلاف الأول».

وقال مكِّي: مَنْ شدد جعله مصدر «كَذَّبَ»، زيدت فيه الألف، كما زيدت في «إِكْرَامًا» وقولهم: تَكْذِيبًا، جعلوا التاء عوضاً من تشديد العين، والياء بدلاً من الألف غيروا أوله كما غيروا آخره، وأصل مصدر الرباعي أن يأتي على عدد حروف الماضي بزيادة ألف مع تغيير الحركات، وقالوا: «تَكَلَّمًا»، فأتي المصدر على عدد حروف الماضي بغير زيادة ألف، وذلك لكثرة حروفه، وضمت «اللام» ولم تكسر؛ لأنَّه ليس في الكلام اسم على «تفعَّل» ولم تفتح لثلاث تشبه بالماضي، وقراءة الكسائي: «كِذَابًا» - بالتخفيف - جعله مصدر كذب كذاباً.

(١) ينظر: الصحاح ٤/١٤٧٨.

(٣) تقدم.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٢٠).

(٤) الدر المصون ٦/٤٦٧.

وقيل: هو مصدر «كذب» كقولك: كتبت كتاباً.
قوله: ﴿جَزَاءً﴾. مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، كأنه قيل: جازى المتقين بمفاز.

قوله: ﴿عَطَاءً﴾ بدل من «جَزَاءً» وهو اسم مصدر؛ قال: [الوافر]
٥٠٨٥ - وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةِ الرِّتَاعَا^(١)

قال: وجعله الزمخشري^(٢): منصوباً بـ «جَزَاءً» نصب المفعول به.
ورده أبو حيان^(٣) بأنه جعل «جَزَاءً» مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة، التي هي «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ»، قال: «والمصدر المؤكد لا يعمل؛ لأنه لا ينحلُّ لحرف مصدرى والفعل، ولا نعلم في ذلك خلافاً».

قوله: «حَسَاباً». صفة لـ «عَطَاءً»، والمعنى: كافياً، فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه، أو على حذف مضاف، من قولهم: أحسبني الشيء أي: كفاني.
وقال قتادة: «عَطَاءٌ حِسَاباً» أي: كثيراً، يقال: أحسبت فلاناً، أي: أكثر له العطايا حتى قال: حسبي^(٤).

وقال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشر أمثالها، وقد وعد قوماً جزاء لا نهاية له، ولا مقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥) [الزمر: ١٠] وقرأ أبو البرهسم^(٦)، وشريح بن يزيده الحمصي: بتشديد السين مع بقاء الحاء على كسرهما.
وتخريجها: أنه مصدر، مثل: «كذاب» أقيم مقام الوصف، أي: عطاء محسباً، أي: كافياً.

وابن قطيب: كذلك، إلا أنه فتح الحاء.
قال أبو الفتح: بناء «فَعَّال» من «أَفْعَلَ» كـ «دَرَّأَكَ» من «أَذْرَكَ» بمعنى أنه صفة مبالغة من «حَسَبَ» بمعنى: كافي كذا.
وابن عباس^(٧): «حَسَنًا» بالنون من الحسن.
وسريح: «حَسْبًا»^(٨) بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحدة، أي: عطاء كافياً، من قولك: حَسْبُكَ كذا، أي: «كافيك».

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٦٩٠.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٠٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤١٤).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٢٠).

(٦) ينظر: الكشف ٤/٦٩٠، والمحور الوجيز ٥/٤٢٨، والبحر المحيط ٨/٤٠٧، والدر المصون ٦/٤٦٨.

(٧) ينظر: المحور الوجيز ٥/٤٢٨، والبحر المحيط ٨/٤٠٧، والدر المصون ٦/٤٦٨.

(٨) ينظر السابق.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾.

قرأ نافع، وابن كثير^(١)، وأبو عمرو: برفع «رب» و «الرحمن».

وابن عامر، وعاصم: بخفضهما.

والأخوان: بخفض الأول، ورفع الثاني.

فأما رفعهما، فيجوز من أوجه:

أحدها: أن يكون «ربُّ» خبر مبتدأ محذوف مضمر، أي: «هو رب»، و «الرحمن» كذلك، أو مبتدأ، خبره «لا يَمْلِكُون».

الثاني: أن يجعل «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» خبره، و «لا يملكون» خبر ثان، أو مستأنف.

الثالث: أن يكون «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» نعت، و «لا يملكون» خبر «ربُّ».

الرابع: أن يكون «ربُّ» مبتدأ، و «الرحمن» مبتدأ ثان، و «لا يملكون» خبره، والجملة خبر الأول، وحصل الرِّبْطُ بتكرير المبتدأ بمعناه، وهو رأي الأخفش، ويجوز أن يكون «لا يَمْلِكُون» حالاً وتكون لازمة.

وأما جرهما: فعلى البدل، أو البيان، أو النعت، كلاهما للأول، إلا أن تكرير البدل فيه نظر وتقدم التنبيه عليه في آخر الفاتحة^(٢).

وتجعل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ تابعاً للأول، و «الرَّحْمَنُ» تابعاً للثاني على ما تقدم.

وأما الأول، فعلى التبعية للأول.

وأما رفع الثاني، فعلى الابتداء، والخبر: الجملة الفعلية، أو على أنه خبر مبتدأ مضمر، و «لا يَمْلِكُون» على ما تقدم من الاستئناف، أو الخبر الثاني، أو الحال اللازمة. قوله: ﴿لَا يَمْلِكُون﴾.

نقل عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الضمير في «لا يملكون» راجع إلى المشركين، أي: لا يخاطبهم الله.

وأما المؤمنون فيشفعون، ويقبل الله - تعالى - منهم بعد إذنه لهم^(٣).

وقال القاضي: إنَّه راجع للمؤمنين، والمعنى: أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله - تعالى - في أمر من الأمور.

(١) ينظر السبعة ٦٦٩، والحجة ٦/٣٧٠، وإعراب القراءات ٤٣٣/٢، وحجة القراءات ٧٤٧.

(٢) آية ٧.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢١/٣١)، عن ابن عباس.

فصل في أن الله عدل في عقابه

لما ثبت أنه - تعالى - عدل لا يجور، وثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفر عدل، وثبت أن الثواب الذي أوصله إلى المؤمنين عدل، وأنه ما بخسهم حقهم، فبأي سبب يُخاطبونه .

وقيل : الضمير يعود لأهل السماوات والأرض، وإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله - تعالى - ومكالمته .

قال ابن الخطيب^(١) : وهذا هو الصواب .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ . منصوب على الظرف، إمّا بـ «لا يَتَكَلَّمُونَ» بعده، وإمّا بـ «لا يَمْلِكُونَ» و «صفاً» حال، أي : مُصطفين، و «لا يَتَكَلَّمُونَ» إمّا حال أو مستأنف .

فصل في المراد بالروح

اختلفوا في الروح .

فقال ابن عباس : هو ملك ما خلق الله بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفًا، وقام الملائكة كلهم صفًا^(٢)، ونحوه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع والأرضين السبع والجبال^(٣) .

وقيل : جبريل - عليه الصلاة والسلام - قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير^(٤) .

وروى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : الروح في هذه الآية جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ لَيْسُوا مَلَائِكَةً لَهُمْ رُءُوسٌ وَأَيْدٍ وَأَرْجُلٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾^(٥)، وهذا قول أبي صالح، ومجاهد، وعلي - رضي الله عنهم - وعلى هذا هو خلق

(١) ينظر : الفخر الرازي ٣١/٢١ .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٥/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في «الأسماء والصفات» .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٥/١٢) .

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٥/١٢)، عن الضحاك والشعبي .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٦/٦)، عن الضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ .

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٥/٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة»

وابن مردويه .

على صورة بني آدم كالناس، وليسوا بناس، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم، نقله البغوي^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - «هُمُ أَزْوَاجُ النَّاسِ»^(٢).

وقال مقاتل بن حيان: هُمُ أَشْرَافُ الْمَلَائِكَةِ^(٣).

وقال ابن أبي نجيج: هم حفظة على الملائكة^(٤).

وقال الحسن وقتادة: هم بنو آدم^(٥)، والمعنى: ذو الروح.

وقال العوفي، والقرظي: هذا ممّا كان يكتمه ابن عباس.

وقيل: أرواح بني آدم تقوم صفًا، فتقوم الملائكة صفًا، وذلك بين التفخيتين قبل أن ترد إلى الأجساد. قاله عطية.

وقال زيد بن أسلم: هو القرآن.

وقرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، و ﴿صَفًّا﴾ مصدر؛ أي: يقومون صفوفًا، والمصدر يغني عن الواحد والجمع كالعدل، والصوم، ويقال ليوم العيد: يوم الصف.

وقال في موضع آخر سبحانه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وهذا يدل على الصفوف، وهذا حين العرض والحساب، قيل: هما صفان.

وقيل: يقوم الكل صفًا واحدًا «لَا يَتَكَلَّمُونَ» أي: لا يشفعون.

قوله: ﴿إِلَّا مَن أَدْنَى﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «واو» يتكلمون، وهو الأرجح، لكونه غير موجب، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء.

والمعنى: لا يشفعون إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة.

وقيل: لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن، وقال صواباً.

والمعنى: لا يشفعون إلا في حق شخص أذن الرحمن في شفاعته، وذلك الشخص كان ممن قال صواباً، والمعنى قال صواباً، يعني: «حقاً». قاله الضحاك ومجاهد.

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لا يشفعون إلا لمن قال:

لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة، كالجواب من أجاب يجيب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤١٦).

(١) ينظر معالم التنزيل ٤/٤٤٠.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٦)، وعزاه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٢٢). (٥) ينظر المصدر السابق.

وقيل: «لا يتكلمون» يعني: الملائكة، والروح الذين كانوا صفًا لا يتكلمون هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرب تعالى في الشفاعة، وهم الذين قالوا صواباً، وأنهم يوحّدون الله - تعالى - ويسبّحونه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْيَوْمُ الْحَقِّ﴾. «ذلك» إشارة إلى ما تقدّم ذكره ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾، أي: موجباً بالعمل الصالح. وقال قتادة: «مآباً» سبيلاً^(١).

ثم إنه - تعالى - زاد في تخويف الكفار فقال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني العذاب في الآخرة، وسماه قريباً؛ لأن كل ما هو آت قريب. كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦]. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنه أقرب العذابين^(٢).

وقال مقاتل: هي قتل قريش بـ «بدر»، وهذا خطاب لكفار قريش، ولمشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا تُبعث، وإنّما سمّاه إنذاراً؛ لأنه - تعالى - قد خوّف بهذا الوصف نهاية التخويف، وهو معنى الإنذار^(٣).

قوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من «يوم» قبله، وأن يكون منصوباً بـ «عذاباً» أي: العذاب واقع في ذلك اليوم.

وجوز أبو البقاء أن يكون نعتاً لـ «قريباً» ولو جعله نعتاً لـ «عذاباً» كان أولى. والعامة: بفتح ميم «المرء» وهي الغالبة، وابن أبي إسحاق^(٤): بضمها، وهي لغة يتبعون اللام الفاء.

وخطأ أبو حاتم هذه القراءة، وليس بصواب لثبوتها لغة.

فصل في المراد بـ «المرء»

أراد بالمرء: المؤمن في قول الحسن، أي: ليجد لنفسه عملاً، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً، قال: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ فعلم أنه أراد بالمرء المؤمن، وقيل: المراد هنا أبي بن خلف، وعقبه بن أبي معيط، ويقول الكافر: أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد يرى في ذلك اليوم جزاء ما كسبت.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤١٨/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٧/٦)، وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢٣/١٩). (٣) ينظر المصدر السابق

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٩/٥، والبحر المحيط ٤٠٨/٨، والدر المصون ٤٦٩/٦.

قوله : ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ . يجوز في «ما» أن تكون استفهامية معلقة لـ «يُنْظَرُ» على أنه من النظر، فتكون الجملة في موضع نصب على إسقاط الخافض، وأن تكون موصولة مفعولة بها، والنَّظَرُ بمعنى الانتظار، أي : ينتظر الذي قدمت يده .
قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثُنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

العامية : لا يدغمون تاء «كنت تراباً» قالوا : لأنَّ الفاعل لا يحذف، والإدغام يشبه الحذف، وفي قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر شهادة عليه بذلك .

فصل في نزول هذه الآية

قال مقاتل : نزل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي . ويقول الكافر : «يا ليتني كنتُ تراباً» في أخيه الأسود بن عبد الأسد^(١) .

وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر هنا إبليس - لعنة الله عليه - وذلك بأنه عاب آدم - عليه الصلاة والسلام - بأنه خلق من تراب، وافتخر بأنه خلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه كان بمكان آدم، فيقول : يا ليتني كنت تراباً، قال : ورأيته في بعض التفاسير للقسيري أبي نصر .

روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : «يُخْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ مِنْ دَابَّةٍ، وَطَائِرٍ، وَإِنْسَانٍ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ : كُونُوا تُرَابًا، عند ذلك يَقُولُ الْكَافِرُ : يا ليتني كنتُ تراباً»^(٢) .

وقيل : معنى «يا ليتني كنت تراباً» أي : لم أبعث .

وقال أبو الزناد : إذا قُضِيَ بين الناس، وأُمِرَ بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولو من الجن : عودوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم : يا ليتني كنت تراباً .

وقال ليث بن أبي سليم : مؤمنو الجن يعودون تراباً .

وقال عمر بن عبد العزيز والزهرري والكلبي ومجاهد : مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها، وهذا أصح، فإنهم مكلفون : يُتَابَوْنَ وَيُعَاقَبُونَ كِبْنِي آدَمَ .

روى الثعلبي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ﴾ سقاه الله تعالى بَرْدَ الشَّرَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) .

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٢٣) .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤١٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٧)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث» .

(٣) تقدم تخريجه .

سورة [النازعات] ^(١)

مكية، وهي ست وأربعون آية، ومائة وسبعون كلمة، وسبعمائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ شُطًّا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبًّا ﴿٣﴾
فَالسَّيِّدَاتِ سَبًّا ﴿٤﴾ فَأَلْمَدِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يجوز في «غرقاً» أن يكون مصدراً على حذف الزوائد، بمعنى: «إغراقاً»، وانتصابه بما قبله لملاقاته في المعنى.

وإمّا على الحال، أي: ذوات إغراق، يقال: أغرق في الشيء يغرق فيه إذا أوغل، وبلغ أقصى غايته، ومنه أغرق النازع في القوس أي: بلغ غاية المد والاستغراق والاستيعاب.

فصل في المراد بالنازعات

أقسم الله تعالى بهذه الأسماء الخمسة على أن القيامة حق.

و «النازعات» قيل: هي الملائكة التي تنزع أرواح الكفار، قاله علي، وابن مسعود، ومسروق، ومجاهد ^(٢).

قال ابن مسعود: يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافر، وأصول القدمين نزعاً، كالسَّقُود ينزع من الصوف الرطب، ثم يغرقها، أي: يرجعها إلى أجسادهم، ثم ينزعها، فهذا عمله في الكفار ^(٣).

وقال سعيد بن جبير: نُزِعَتْ أرواحهم، ثم غرقت، ثم حرقت، ثم قذف بها في النار ^(٤).

(١) في أ: الساهرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٠)، عن ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٤١)، والقرطبي (١٩/١٢٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٠).

وقيل : يرى الكافر نفسه في وقت التَّنَزُّع كأنها تغرق .

وقال السدي : «وَالنَّازِعَاتُ» هي النفوس حين تغرق في الصُّدُور^(١) .

وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفوس^(٢) .

وقال الحسن وقتادة : هي النُّجُوم تنزع من أفق إلى أفق^(٣) ، أي : تذهب ، من قولهم : نزع إليها أي ذهب ، أو من قولهم : نزع الخيل ، أي : «جرت» ، «غرقاً» أي أنها تغرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر ، وهو قول أبي عبيدة وابن كيسان والأخفش .

وقال عطاء وعكرمة : «وَالنَّازِعَاتُ» القسي تنزع بالسهم .

«غرقاً» بمعنى : إغراق ، وإغراق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدِّ حتى ينتهي إلى النَّصْلِ ، ويقال لقشرة البيضة الدَّاخِلَةُ «غِرْقَى» .

وقيل : هم الغُرَّاءُ الرُّمَاءُ ، وهو والذي قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقسي فالمراد : النازعون بها تعظيماً لها ، كقوله تعالى : ﴿وَالْعَدِيدُ صَبِيحًا﴾ [العدايات : ١] .

وقال يحيى بن سلام : هي الوحش تنزع من الكلا^(٤) وتنفّر .

ومعنى «غرقاً» أي : إبعاداً في النزع .

قوله تعالى : ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُا﴾ .

اعلم أن «نَشَاطًا» وَسَبْحًا ، وَسَبْقًا» كلها مصادر .

وَالنَّشَاطُ : الرَّبْطُ ، وَالْإِنْشَاطُ : الْحَلْ ، يقال : نَشَطَ البعير : رَبَطُهُ ، وَأَنْشَطُهُ : حَلَهُ .

ومنه : «كأنما أنشط من عقال» ، فالهمزة للسَّلب ، ونشط : ذهب بسرعة ، ومنه قيل

لبقر الوحش : النواشط ؛ وقال هميان بن قحافة : [الرجز]

٥٠٨٦ - أَمْسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا الشَّامُ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطًا^(٥)

ونشط الحبل أنشطه أنشوطه : عقدته ، وَأَنْشَطْتُهُ : مددته ، ونشط كـ «أنشط» .

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٩/٦) ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن السدي . وأخرجه الطبري (٤٢١/١٢) .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢١/١٢) ، عن مجاهد .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٩/٦) ، وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ في «العظمة» .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٢/١٢) ، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٠٩/٦) ، عن قتادة والحسن وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٤) قي أ : الكلاب .

(٥) ينظر اللسان (نشط) ، والقرطبي ١٩/١٢٥ ، والبحر ٨/٤٠٩ ، والدر المصون ٦/٤٧٠ ، وروح المعاني ٦/٣٠ .

قال الأصمعي: بئرٌ أنشاط: أي: قريبة القعر، يخرج الدَّلُو منها بجذبة واحدة، وبئر نشوطة، قال: وهي التي لا تخرج الدلو منها حتى تنشط كثيراً.

فصل في المراد بالناشطات

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعنى الملائكة تنشط نفس المؤمن، فتقبضها كما ينشط العقل من يد البعير إذا حلَّ عنه^(١).

وقيل: يعنى أنفس الكفار والمنافقين تنشط كما ينشط العقب الذي يعقب به السَّرج. والنَّشَطُ: الجذبُ بسرعة.

ومنه الأنشطة: عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت مثل عقدة التكة.

قال الليث: أنشطه بأنشوطه وأنشوطتين أي: أوثقته، وأنشطت العقل، أي: مددت أنشوطته فأنحلت.

ويقال: نشط بمعنى أنشط، لغتان بمعنى.

وعن ابن عباس أيضاً: أن الناشطات الملائكة، لنشاطها تذهب وتجيء بأمر ربها حيثما كان^(٢).

وقال مجاهد: هو الموت ينشط نفس الإنسان^(٣).

وقال السدي: هي النفوس حين تَنَشَّط من القَدَمين^(٤).

وقال قتادة، والحسن والأخفش: هي النجوم تنشط من أفقٍ إلى أفقٍ^(٥)، أي: تذهب.

قال الجوهري: يعنى النجوم تنشط من بُرجٍ إلى برجٍ، كالثور الناشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

وقيل: «النازعات» للكافرين، «والناشطات» للمؤمنين، فالملائكة يجذبون أرواح المؤمنين برفقٍ.

والثَّرْعُ: جذبٌ بشدةٍ.

وقيل: هما جميعاً للكفار، والاثنان بعدهما للمؤمنين.

قوله: ﴿وَالسَّيِّحَتِ سَبْعًا﴾. قال عليُّ رضي الله عنه: هي الملائكة تُسَبِّح أرواح المؤمنين^(٦).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٢٥). (٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٢).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٢٥). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٢٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٢)، عن قتادة وينظر تفسير البغوي (٤/٤٤٢)، والمصدر السابق.

(٦) ذكره القرطبي (١٩/١٢٦)، عن علي.

قال الكلبي: كالذي يسبح في الماء، فأحياناً يَنْعَمُسُ، وأحياناً يرتفع يسألونها سلاً رقيقاً بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح^(١).

وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مُسرِعِينَ لأمر الله تعالى^(٢)، كما يقال للفرس الجواد: سابح إذا أسرع في جريه، وعن مجاهد: السابحات: الموت يسبح في نفوس بني آدم. وقيل: هي الخيل الغزاة.

قال عترة: [مجزوء الكامل]

٥٠٨٧ - وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسَى - بَحُّ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ سَبْحًا^(٣)

وقال قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها^(٤)، وكذا الشمس والقمر.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء^(٥).

وقال ابن عباس: أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته حين تخرج^(٦).

قوله تعالى: ﴿فَالسَّيِّفَتِ سَبَقًا﴾.

قال علي رضي الله عنه: هي الملائكة، تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو قول مسروق ومجاهد^(٧).

وعن مجاهد - أيضاً - وأبي روق: هي الملائكة سبقت بني آدم إلى العمل الصالح، فتكتبه^(٨).

وعن مجاهد - أيضاً - الموت يسبق الإنسان^(٩).

وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة^(١٠).

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٣/١٢)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٩)، عن أبي صالح وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر: السراج المنير ٤/٤٧٦، والقرطبي ١٩/١٢٦.

(٤) أخرجه الطبري (٤٢٣/١٢)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٣/١٢)، عن عطاء.

(٦) أخرجه القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٢٦)، عن ابن عباس.

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/١٩٣)، وينظر المصدر السابق.

(٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٤)، عن مجاهد.

(١٠) ذكره القرطبي (١٩/١٢٦).

وقال ابن مسعود: هي أنفس المؤمنين، تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها، وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى^(١).

وقال قتادة والحسن ومعمّر: هي النجوم تسبق بعضها^(٢).

وقال عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد^(٣).

وقيل: يحتمل أن تكون «السّابقات» ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة، أو نار؛ حكاه الماوردي.

قال الجرجاني: وذكر «السّابقات» بالفاء؛ لأنها مشتقة من التي قبلها، أي: واللاتي يسبقن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب.

قال الواحدي: قول صاحب النظم غير مطرد في قوله: «فالمُدبرَاتِ أُمراً»؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير.

قال ابن الخطيب ويمكن الجواب عن اعتراض الواحدي^(٤): بأنها لما أمرت سبحت، فسبقت، فدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، كقولك: قام زيد، فذهب، فضرب عمراً، أو لما سبقوا في الطاعات يسارعون إليها، ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير.

قوله: ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أُمراً﴾.

قيل: «أُمراً» مفعول بالمدبرات.

وقيل: حال، تدبره مأمورات، وهو بعيد.

قال القشيري: أجمعوا على أن المراد: الملائكة.

وقال الماوردي: فيه قولان:

أحدهما: الملائكة، قاله الجمهور.

والقول الثاني: هي الكواكب السبع، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل.

وفي تدبيرها الأمور وجهان:

أحدهما: تدبير طلوعها وأقولها.

(١) ذكره البغوي (٤/٤٤٢)، عن ابن مسعود وينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٠٩)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٤)، عن عطاء.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٣١.

والثاني: في تدبير ما قضى الله - تعالى - فيها من تقلاب الأحوال .

وحكى هذا القول - أيضاً - القشيري في تفسيره ، وأن الله - تعالى - علق كثيراً من تدبير العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها ، وإن كان من الله - تعالى - كما يُسمى الشيء باسم ما يجاوره .

وقال شهاب الدين^(١) : والمراد بهؤلاء إمّا طوائف الملائكة ، وإمّا طوائف خيل الغزاة ، وإمّا النجوم ، وإمّا المنّايا ، وإمّا بقر الوحش وما جرى مجراها لسرعتها ، وإمّا أرواح المؤمنين يعني المذكورين في جميع القسم^(٢) .

فصل في تدبير الملائكة

«تَدْبِيرُ الْمَلَائِكَةِ» : نزولها بالحلّال ، والحرام ، وتفصيله ، قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما إلى الله تعالى ، ولكن لما أنزلت الملائكة سُمّيت بذلك ، كما قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل : ١٠٢] يعني : جبريل نزلهُ على قلب محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزلهُ .

وروى عطاء عن ابن عباس : «فالمُدْبِرَاتِ أُمَرَاءُ» ، هي الملائكة وكُلت بتدبيرِ أحوال أهل الأرض في الرياح والأمطار^(٣) ، وغير ذلك .

قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة :

جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت واسمه عزرائيل ، وإسرافيل ، فأما جبريل ، فموكّل بالرياح ، والجنود ، وأما ميكائيل ، فموكّل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فموكّل بقبض الأرواح في البرّ والبحر ، وأما إسرافيل ، فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس في الملائكة أقرب من إسرافيل ، وبينه وبين العرش خمسمائة عام .
وقيل : وَكُلُّوا بِأَمْرِ عَرَفَهُمُ اللَّهُ بِهَا^(٤) .

فإن قيل : لِمَ قَالَ : «أُمَرَاءُ» ، ولم يَقُلْ : أُمُوراً ، فإنهم يدبرون أموراً كثيرة؟ .

فالجواب : أن المراد به الجنس ، فهو قائم مقام الجمع .

واعلم أنّ هذه الكلمات أقسم الله - تعالى - بها ، والله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لنا ذلك .

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٢٧) .

(١) الدر المصون ٦/٤٧٠ .

(٣) ينظر المصدر السابق .

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥١٠) ، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان» .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ، وهو جوابُ القسم، تقديره: لتُبْعَثَنَّ، للدلالة ما بعده عليه.

قال الفراء: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً﴾، أَلَسْتَ ترى أنه كالجواب لقولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً﴾ بُعِثَ؟ فاكتمى بقوله: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً﴾؟. وقال الأخفش والزجاج: يَنْفُخْنَ فِي الصُّورِ نَفْخَتَيْنِ، بدليل ذكر «الرّادفة» و «الرّاجفة»، وهما التّفختان.

قال الزمخشري^(١): فإن قلت: كيف جعلت «يَوْمَ تَرْجُفُ» ظرفاً للمضمّر الذي هو لتُبْعَثَنَّ، ولا يبعثون عند النفخة الأولى؟.

قلت: ٢ المعنى: لتبعثن في الوقت الواسع الذي تقع فيه النفختان، وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع، وهو وقت النفخة الأخرى، ودلّ على ذلك أن قوله: ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ جعل حالاً عن «الرّاجفة».

وقيل: العامل مقدر، أي: اذكر يوم ترجف.

وفي الجواب على هذا التقدير وجوه:

أحدها: قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات: ٢٦].

واستقبحه أبو بكر بن الأنباري، لطول الفصل.

الثاني: أنه قوله: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [الإنسان: ١]؛ لأن «هَلْ» بمعنى: «قَدْ».

وهذا غلط؛ لأنه كما تقدّم في «هَلْ أَتَى» أنّها لا تكون بمعنى: «قد» إلا في الاستفهام على ما قال الزمخشري.

الثالث: أن الجواب: «تَتَّبِعُهَا» وإنّما حذف «اللام»، والأصل: «الْيَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا»، فحذفت «اللام»، ولم تدخل نون التوكيد على تتبعها للفصل بين «اللام» المقدّرة، وبين الفعل المقسم عليه بالظرف، ومثله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

وقيل: في الكلام تقديم، وتأخير، أي: يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا الرّادِفَةُ والنّازعات.

وقال أبو حاتم: هو على التقديم، والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعات.

قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام.
وقيل: «يَوْمَ» منصوب بما دلَّ عليه «رَاجِفَةٌ»، أي: يَوْمَ تَرْجَفُ رَجَفَتْ.
وقيل: بما دلَّ عليه «خَاشِعَةٌ» أي: يوم ترجف خشعت، وقوله: «تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ» يجوز أن يكون حالاً من «الرَّاجِفَةِ»، وأن يكون مستأنفاً.

فصل في تفسير الآية

قال عبد الرحمن بن زيد: «الرَّاجِفَةُ» أي: المُضْطَرِبَةُ، ومعناه: أنَّ الأرض تضطرب، و «الرَّادِفَةُ» السَّاعَةُ.

وقال مجاهد: الزلزلة تتبعها الرادفة، أي: الصيحة.
وعنه - أيضاً -، وابن عباس والحسن وقتادة: هما الصَّيْحَتَانِ، أي: النفختان، أمَّا الأولى فتميت كُلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى، وأمَّا الثانية فتُخَيِّبُ كُلَّ شيءٍ بإذن الله تعالى.
قال عليه السلام: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(١).

وقال مجاهد: «الرَّاجِفَةُ» الرجفة حين تنشق السَّماءُ، وتُخْمَلُ الأرضُ والجبالُ، فتُدَكُّ دَكَّةً^(٢) واحدةً [وذلك بعد الزلزلة وقيل: الرجفة تحرك الأرض والرادفة زلزلة أخرى تفني الأرضين]^(٣).

وأصل «الرَّجْفَةِ» الحركة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ [المزمل: ١٤]، وليست الرجفة هناك من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرعدُ يرجف رجفاً ورجيفاً، أي: أظهرت الصوت والحركة، ومنه سُمِّيت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة النَّاسِ فيها.

وقيل: الرجفة هذه منكرة في السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وأما الرادفة: فكل شيء جاء بعد شيء آخر، يقال: ردفه: أي: جاء بعده.
قوله: ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ، و «يومئذ» منصوب بـ «وَأَجِفَّةٌ»، و «وَأَجِفَّةٌ» صفة القلوب،

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٢٥)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥١٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد والبيهقي في «البعث».

(٣) سقط من: ب.

وهو المسوغ للابتداء بالنكرة، و «أَبْصَارُهَا» مبتدأ ثانٍ، و «خَاشِعَةً» خبره، وهو خبره خبر الأول، وفي الكلام حذف مضاف، تقديره: أبصار أصحاب القلوب. قال ابن عطية^(١): وجاز ذلك، أي: الابتداء بـ «قُلُوب»؛ لأنها تخصصت بقوله: «يَوْمئذٍ».

ورد عليه أبو حيان^(٢): بأن ظرف الزمان لا يخص الجثث، يعني: لا يوصف به الجثث. و «الوَاجِفَةُ»: الخائفة الوجلة، قاله ابن عباس^(٣)، يقال: وَجَفَ يَجِفُ وَجِيفًا، وأصله: اضطراب القلب.

قال قيس بن الخطيم: [المنسرح]

٥٠٨٨ - إِنَّ بَنِي جَحْجَبَى وَأَسْرَثَهُمْ أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ^(٤)
وقال السدي: زائلة عن أماكنها، ونظيره: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾^(٥) [غافر: ١٨].
وقال المؤرج: قلقه مستوفزة، مُرتكضة غير ساكنة.

وقال المبرد: مضطربة، والمعنى متقارب، والمراد: قلوب الكفار، يقال: وَجَفَ القلب يَجِفُ وَجِيفًا: إذا خفق، كما يقال: وَجَبَ يَجِبُ وَجِيئًا - بالباء الموحدة - بدل الفاء، ومنه وجيف الفرس والثاقة في العدو. والإيجاف: حمل الدابة على السير السريع.

قوله: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾ أي: مُنْكَسِرَةٌ ذليلة من هول ما ترى، نظيره: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣].

قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول هؤلاء المكذبون المنكروون للبعث إذا قيل لهم: إنكم تُبْعَثُونَ، قالوا منكرين متعجبين: أُنْزِدُ بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء، كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

(١) المحرر الوجيز ٤٣١/٥. (٢) ينظر: البحر المحيط ٤١٣/٨.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٠/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) هذا البيت ملفق من بيتين من فائتي قيس المشهورة، أولهما قوله:

أَبْلَغُ بَنِي جَحْجَبَى وَقَوْمُهُمْ خَطْمَةٌ أَنَا وَرَاءَهُمْ أَثْفُ
والثاني بعد هذا البيت، وهو قوله:

أَنَا وَلَوْ قَدَّمُوا لِمَا عَلِمُوا أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُ
فركب من البيتين البيت المستشهد به؛ أخذ صدر الأول، وجعل له عَجَزَ البيت الثاني.

ينظر ديوان قيس بن الخطيم ص (١١١)، والأصمعيات ص ١٩٨، والأغاني ٢٣/٣، والبحر المحيط ٤١٢/٨، والدر المصون ٤٧١/٦.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢٨/١٩)،

قوله: ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾ «الحافرة»: الطريقة التي يرجع الإنسان فيها من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته، ثم يعبر عن الرجوع في الأحوال من آخر الأمر إلى أوله؛ قال: [الوافر]

٥٠٨٩ - أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ؟ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفْهِهِ وَعَارِهِ^(١)

يقول: أأرجع ما كنت عليه في شبابي مع الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت؟.

وأصله: أن الإنسان إذا رجع في طريقه أثرت قدماء فيها حفراً.

وقال الراغب: في قوله تعالى: ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾ مثل لمن يرد من حيث جاء، أي: أنحياً بعد أن نموت؟.

وقيل: «الحافرة»، الأرض التي جعلت قبورهم فيها، ومعناه: أئناً لمردودون ونحن في الحافرة؟ أي: في القبور.

وقوله: «في الحافرة» على هذا في موضع الحال، ويقال: رجع الشيخ إلى حافرته، أي: هزم لقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠].

وقولهم: «التقد عند الحافرة» لما يباع نقداً، وأصله من^(٢) الفرس إذا بيع، فيقال: لا يزول حافره، أو ينقد ثمنه.

والحفر: تأكل الأسنان، وقد حفر فوه حفراً، وقد أحفر المهر للأثناء والأرباع.

والحافرة: «فاعلة» بمعنى: «مفعولة»، وهي الأرض التي تحفر قبورهم فيها فهي بمعنى: «المحفورة»، كقوله تعالى: ﴿مَلَأُوا دِافِيَ﴾ [الطارق: ٦]، و﴿عِشْكَو رَاضِيَو﴾ [القارعة: ٧]، والمعنى: أئناً لمردودون في قبورنا.

وقيل: على النسب، أي: ذات حفر.

وقيل: سُميت الأرض الحافرة؛ لأنها مستقر الحوافر، كما سُميت القدم أرضاً؛ لأنها على الأرض، لقولهم: الحافرة جمع حافر بمعنى: القدم أي: نمشي أحياء على أقدامنا، ونطأ بها الأرض.

وقيل: هي أول الأمر.

ويقول التجار: «التقد في الحافرة» أي في أول السوم؛ وقال الشاعر: [السريع]

٥٠٩٠ - أَلَيْتُ لَا أُنْسَاكُمْ فَاغْلَمُوا حَتَّى يُرَدَّ النَّاسُ فِي الْحَافِرَةِ^(٣)

(١) ينظر سمط اللآلئ ١/ ١٢٢، وإصلاح المنطق ص ٣٢٧، والكشاف ٤/ ٦٩٤، والطبري ٣٠/ ٢٢، واللسان (حضر)، والقرطبي ١٩/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٤١٠، وجمع البيان ١٠/ ٦٥١، والدر المصون ٦/ ٤٧١.

(٢) في ب: في.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/ ١٢٨، والبحر ٨/ ٤١٣، والدر المصون ٦/ ٤٧٢، وفتح القدير ٥/ ٣٧٤.

وقال ابن زيد: الحافرة «النَّار»، وقرأ: «تلك إذا كَرَّه خاسرة»^(١).

وقال مقاتلٌ وزيدٌ بن أسلم: هي اسم من أسماء النار^(٢).

وقال ابنُ عباسٍ: الحافرة في كلام العرب: الأرض التي تغيَّرت وأنتنت بأجسادِ موتاهها^(٣)، من قولهم: حفرت أسنانه، أي: تأكلت، أي: دكها الوسخُ من باطنها وظاهرها، ويجوز تعلقه بـ «مردودون»، أو: بمحذوف على أنه حال.

فصل في تفسير الآية

قال ابن الخطيب^(٤): هذه الأحوال المتقدمة هي أحوال القيامة عند جمهور المفسرين.

وقال أبو مسلم: هذه الأحوال ليست هي أحوال القيامة؛ لأنه فسَّر «النَّازعات» بنزع القوس، و «النَّاشِطَات» بخروج السَّهم، و «السَّابِحَات» بعدو الفرس، و «السَّابِقَات» بسبقها، و «المُدْبِرَات» بالأمور التي تحصل أدبار ذلك الرمي، والعدو، ثم بنى على ذلك، فقال: «الرَّاجِفَة» هي خيلُ المشركين، وكذلك «الرَّادِفَة»، وهما طائفتان من المشركين غزوا رسول الله ﷺ فسبقت إحداهما الأخرى، والقلوب الواجفة، هي القلقَةُ، والأبصار الخاشعة، هي أبصار المنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، كأنه قيل: لَمَّا جاء خيل العدو ترجف؛ لأنها اضطربت قلوب المنافقين خوفاً، وخشعت أبصارهم جُبناً وضِعْفاً ثم قالوا: «أَيْنًا لمردودون في الحافرة» أي: نرجع إلى الدنيا حتى نتحمَّل هذا الخوف لأجلها. وقالوا أيضاً: «تلك إذا كَرَّه خاسرة»، فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله ﷺ من المشركين، وأوسطه حكاية لحال المنافقين، وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر، ثم إنه - تعالى - أجاب عن كلامهم بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.

قال ابن الخطيب^(٥): وكلام أبي مسلم محتملٌ، وإن كان على خلاف قول الجمهور.

قوله تعالى: ﴿إِذْ ذَا كُنَّا عِظَمًا مَخْرَجَةً﴾.

قرأ الأخوان وأبو بكر^(٦): «نَاخِرَة» بألف.

والباقون: «نَخْرَة» يَدُونَهَا.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٢٧/١٢ - ٤٢٨)، عن ابن زيد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢٨/١٩). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٢/٢١. (٥) الفخر الرازي ٣١/٣٣.

(٦) ينظر: السبعة ٦٧٠، ٦٧١، والحجة ٦/٣٧١، وإعراب القرارات ٢/٤٣٥، وحجة القراءات ٧٤٨.

وهما كـ «حَازِرٍ، وَحَازِرٍ» فاعل لمن صدر عنه الفعل، و «فعل» لمن كان فيه غريزة أو كالغريزة.

وقيل: نَاجِرَةٌ، وَنَجِرَةٌ بمعنى: بالية.

يقال: نَخِرَ العَظْمَ - بالكسر - أي بلي وتفتت.

وقيل: نَاجِرَةٌ، أي: صارت الريح تَنخِرُ فيها، أي: تصوت، وَنَجِرَةٌ أي: ينخر فيها دائماً.

وقيل: نَاجِرَةٌ، أي: بالية، ونخرة: متآكلة.

وعن أبي عمرو: النَّاخِرَةُ: التي لم تنخر بعد، والنَّخْرَةُ: البالية.

وقيل: النَّاخِرَةُ: المصوت فيها الريح، والنَّاخِرَةُ: البالية التي تعفنت.

قال الزمخشري^(١): «نَخِرَ الْعَظْمُ فَهُوَ نَخِرٌ وَنَاجِرٌ، كَقَوْلِكَ: طَمَعٌ، فَهُوَ طَمِيعٌ وَطَامِيعٌ، وَ «فَعِلٌ» أَبْلَغُ مِنْ فَاعِلٍ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا، وَهُوَ الْبَالِي الْأَجُوفُ الَّذِي تَمَرُّ فِيهِ الرِّيحُ، فَيَسْمَعُ لَهُ نَخِيرٌ».

ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٥٠٩١ - وَأَخْلَيْتُهَا مِنْ مُخْهَافِكَايَا قَوَارِيرُ فِي أَجْوَاهِهَا الرِّيحُ تَنخُرُ^(٢)

وقال الرَّاجِزُ لفرسه: [الرجز]

٥٠٩٢ - أَقْدِمِ سَجَاجِ إِنَّهَا الْأَسَاوِرَةُ لَا يَهْوِلُنكَ رُؤُوسُ نَادِرَةٍ
فَإِنَّمَا قَضْرُكَ تُرِبُ السَّاهِرَةِ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهَا فِي الْحَافِرَةِ
مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ عِظَاماً نَاجِرَةً^(٣)

وَنَخْرَةُ الرِّيحِ - بضم النون - شدة هبوبها، والنَّخْرَةُ أيضاً: مقدم أنف الفرس، والحمار، والخنزير، يقال: هشم نخرته، أي: مقدم أنفه.

و «إِذَا» منصوبٌ بِمُضْمَرٍ، أي: إِذَا كُنَّا كَذَا تُرِدُّ وَتُبْعَثُ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

«تلك» مبتدأ مشار بها إلى الرَّجْفَةِ والردة في الحافرة، و «كَرَّةٌ» خبرها، و «خَاسِرَةٌ»

(١) ينظر: الكشف ٤/٦٩٤.

(٢) البيت للحارثي ينظر ديوان الحماسة ٢/١٦٥، والبحر ٨/٤١٠، والدر المصون ٦/٤٧٢.

(٣) ينظر سمط اللآلئ ١/١٢٤، والاشتقاق لابن دريد ص ٦٧، ١٨، ٣١٦، والطبري ٣٠/٢٣، ٢٤، ومجمع البيان ١٠/٦١، واللسان (نخر)، والبحر ٨/٤١٠، والدر المصون ٦/٤٧٢، والقرطبي ١٣٠/١٩.

صفة، أي: ذاتُ خسرانٍ، أو أسند إليها الخسار مجازاً والمراد أصحابُها، والمعنى: إن كان رجوعنا إلى القيامة حقاً، فتلك الرجعة رجعة خاسرة [خائبة]^(١)، وهذا أفادته «إذن» فإنها حرف جواب وجزاء عند الجمهور.

وقيل: قد لا تكون جواباً.

وعن الحسن: أن «خاسرة» بمعنى كاذبة، أي: ليست كائنة^(٢).

وقال الربيع بن أنس: خاسرةٌ على من كَذَّب بها^(٣).

وقيل: كَرَّةٌ خُسْران، والمعنى: أهلُها خاسرون، كقولك: تِجَارَةٌ رابحةٌ، أي: يَرْبُحُ صاحبها.

وقال قتادة ومحمد بن كعب أي: لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحشرن بالنَّار، وإنما قالوا هذا لأنَّهم أوعِدُوا بالنار^(٤)، و «الْكُرَّةُ»: «الرجوع»، يقال: كَرَّه، وكَرَّرَ بنفسه، يتعدى ولا يتعدى.

والْكِرَّةُ: المرَّةُ، الجمع: الكِرَّات.

قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ ضمير الكرة، أي: لا تحسبوا تلك الكِرَّةَ صعبة على الله تعالى.

قال الزمخشري^(٥): «فإن قلت: بم يتعلق قوله: «فإنما هي»؟».

قلت: بمحذوف، معناه: لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة، يعني بالتعلُّق من حيث المعنى، وهو العطف.

وقوله: «فإذا هُم» المفاجأة والسبب هنا واضحان.

والزجرة: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في التَّفْخَةِ الواحدة «فإذا هُم» أي: الخلائق أجمعون، «بالساهرة» أي: على وجه الأرض من الفلاة، وصفت بما يقع فيها، وهو السهر لأجل الخوف^(٦).

وقيل: لأن السراب يجري فيها من قولهم: «عين ساهرة» أي جارية الماء، وفي ضدها نائمة.

[قال الزمخشري^(٧): «والساهرة»: الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك؛ لأن

(١) سقط من ب. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢٩/١٩).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (١٩٦/٦)، وينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر الكشف ٦٩٤/٤.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢٩/١٦)، عن ابن عباس.

(٧) ينظر الكشف ٦٩٤/٤.

السراب يجري فيها^(١) من قولهم: عين ساهرة، أي: جارية الماء، وفي ضدها نائمة؛ قال الأشعث بن قيس: [الطويل]

٥٠٩٣ - وَسَاهِرَةٌ يُضْحِي السَّرَابُ مُجَلَّلًا لَأَقْطَارَهَا قَدْ جُبْنَتْهَا مُتَلَثَّمًا^(٢)
أي: ساكنها لا ينام خوف الهلكة» انتهى؛ وقال أمية: [الوافر]

٥٠٩٤ - وَفِيهَا لَحْمٌ سَاهِرَةٌ وَبَخْرٌ وَمَا فَاهُوا بِهِ لَهُمْ مُقِيمٌ^(٣)
يريد: لحم حيوان أرض ساهرة؛ وقال أبو كبير الهذلي: [الكامل]

٥٠٩٥ - يَزْتَدِنُ سَاهِرَةٌ كَأَنَّ جَمِيمَهَا وَعَمِيمَهَا أَسْدَافُ لَيْلٍ مُظْلِمٍ^(٤)
وقال الراغب: هي وجه الأرض.

وقيل: أرض القيامة، وحقيقتها التي يكثر الوطء بها، كأنها سهرت من ذلك.
والأسهران: عرقان في الأنف.

والساهور: غلاف القمر الذي يدخل فيه عند كسوفه؛ قال: [البسيط]

٥٠٩٦ - أَوْ شُقَّةٌ خَرَجَتْ مِنْ بَطْنِ سَاهُورٍ^(٥)

أي: هذه المرأة بمنزلة قطعة القمر. وقال أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

٥٠٩٧ - قَمَرٌ وَسَاهُورٌ يُسَلُّ وَيُغَمَدُ^(٦)

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «الساهرة: أرض من فضة لم يُعْصَ اللَّهُ عليها منذُ خَلَقَهَا»^(٧).

وقيل: أرض يجدها الله يوم القيامة.

وقيل: الساهرة: اسم الأرض السابعة يأتي الله تعالى بها، فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض.

(١) سقط من: أ.

(٢) ينظر الكشف ٦٩٥/٤، والسراج المنير ٤٧٨/٤، والدر المصون ٤٧٣/٦.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢٣٢/٣، والقرطبي ١٣٠/١٩، واللسان (سهر)، والبحر ٨/٤١٠، والدر المصون ٤٧٣/٦.

(٤) ينظر ديوان الهذليين ١١١/٢، والقرطبي ١٣٠/١٩، واللسان (سدف)، و (سهر)، والبحر ٨/٤١٠، والدر المصون ٤٧٣/٦.

(٥) ينظر اللسان (سهر)، والقرطبي ١٣٠/١٩، والدر المصون ٤٧٣/٦.

(٦) عجز بيت وصدرة:

لا نقص فيه غير أن خبيثه

ينظر ابن يعيش ٢٥/٣، والخصائص ٤٥٣/٢، والخزانة ٢٣٢/٢، واللسان (سهر)، والصاح (سهر).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٢٩/١٩)، عن ابن عباس.

وقال الثوري: السَّاهرة: أرض «الشَّام».

وقال وهب بن منبه: جبل بيت المقدس.

وقال عثمان بن أبي العاتكة: إنَّه اسم مكان من الأرض بعينه، بـ «الشَّام»، وهو الصقع الذي بين جبل «أريحا»، وجبل «حسان» يمدُّه الله كيف يشاء.

وقال قتادة: هي جهنم^(١)، أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنَّما قيل لها: ساهرة؛ لأنَّهم لا ينامون عليها حينئذ.

وقيل: السَّاهرة بمعنى: الصحراء على شفير جهنم، أي: يوقفون بأرض القيامة، فيدوم السهر حينئذ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَتْهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرْثَهُ الْآيَةُ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴿

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي: قد جاءك وبلغك، وهذه تسليّة للنبي ﷺ، أي: أن فرعون كان أقوى من كفار عصرك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء.

وقيل: «هل» بمعنى: «ما» أي: ما أتاك، ولكنني أخبرك به، فإنَّ فيه عبرة لمن يخشى.

وقال ابن الخطيب^(٢): قوله: «هل أتاك» يحتمل أن يكون معناه: أليس قد أتاك حديث موسى، هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام، أمّا إن لم يكن قد أتاه، فقد يجوز أن يقال: «هل أتاك» أي: أنا أخبرك وتقدم الكلام على موسى وفرعون فإنَّ فيه عبرة لمن يخشى.

قوله: ﴿إِذْ نَادَتْهُ رَبُّهُ﴾ منصوب بـ «حديث» لا بـ «أتاك»؛ لاختلاف وقتيهما، وتقدم الخلاف بين القراء في «طوى» في سورة «طه: ١٢».

و «الوادي المقدس»: المبارك المطهر.

قال الفراء: «طوى» واد بين «المدينة» و «مصر»، قال: وهو معدول، من «طاو»، كما عدل «عمر» من «عامر».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣١/١٢)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٢/٦)، وعزا إلى ابن المنذر.

وينظر تفسير الماوردي (١٩٧/٦)، والبغوي (٤٤٤/٤)، والقرطبي (١٣٠/١٩).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٦/٣١.

قال الفراء: مَنْ صرفه قال: هو ذكر، ومن لم يصرفه جعله معدولاً كـ «عمر، وزفر».

قال: «والصَّرْفُ أَحْبُّ إِلَيَّ إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي الْمَعْدُولِ نَظِيرًا» أي: لم أجِدْ له اسماً من الواو والياء عدلٌ من «فاعل» إلى «فعل» غير طوى.

وقيل: «طوى» معناه: يا رجل، بالعبرانية، فكأنه قيل: اذهب يا رجل إلى فرعون، [قاله ابن عباس].

وقيل: الطوى أي: ناداه بعد طوي من الليل اذهب إلى فرعون^(١)؛ لأنك تقول: جئتكَ بعد طوي، أي بعد ساعة من الليل.

وقيل: معناه «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طوى» أي بُورِكَ فِيهِ مَرَّتَيْنِ.

قوله: ﴿أَذْهَبْ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً للنداء، أي: ناداه اذهب، ويجوز أن يكون على إضمار القول.

وقيل: هو على حذف، أي: أن اذهب، ويدل له قراءة^(٢) عبد الله: أن اذهب.

و «أن» هذه الظاهرة أو المقدرة، يحتمل أن تكون تفسيرية، وأن تكون مصدرية، أي: ناداه ربُّه بكذا.

«اذهب إلى فرعون إنه طغى» أي تجاوز القدر في العصيان.

قال ابن الخطيب^(٣): ولم يُبينْ أَنَّهُ طَغَى فِي أَيِّ شَيْءٍ.

ف قيل: تكبَّر على الله تعالى، وكفر به.

وقيل: تكبَّر على الخلق واستعبدَهُمْ.

روي عن الحسن قال: كان فرعون عُلْجاً من «همدان»^(٤).

وقال مجاهد: كان من أهل «إصطخر»^(٥) وعن الحسن - أيضاً - كان من أهل

«أصبهان»، يقال له: ذو ظفر، طوله أربعة أشبار^(٦).

قوله: ﴿هَلْ لَكَ﴾ خبر مبتدأ مضمَر.

و ﴿إِلَّا أَنْ تَزْكَى﴾ متعلِّقٌ بِذَلِكَ الْمَبْتَدَأِ، وهو حذفٌ سائِغٌ، والتقدير: هل لك سبيل

إلى التزكية، ومثله: هل لك في الخير، تريد: هل لك رغبة في الخير؛ قال: [الطويل]

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٦٩٥، والدر المصون ٦/٤٧٤.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٣٧. (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٣١).

(٥) ينظر المصدر السابق. (٦) ينظر المصدر السابق.

٥٠٩٨ - فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلِيٌّ فَإِنِّي بِصَبِيرٍ بَمَا أَغْيَا النُّطَاسِيَّ حَذِيْمًا^(١)

وقال أبو البقاء^(٢): لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى: أَدْعُوكَ، جَاءَ بِ «إِلَى».

وقال غيره: يقال: هل لك في كذا، هل لك إلى كذا كما تقول: هل ترغب فيه وهل ترغب إليه؟.

قال الواحدي: المبتدأ محذوف في اللفظ، مراد في المعنى، والتقدير: هل لك إلى أن تزكّي حاجة.

وقرأ نافع وابن كثير^(٣): بتشديد الزاي من «تَزَكَّى» والأصل تتزكى، وكذلك «تَصَدَّى» في السورة تحتها، فالحرميان: أدغما، والباقون: حذفوا، نحو تنزل، وتقدم الخلاف في أيتهما المحذوفة.

فصل في تفسير الآية

معنى «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى» أي: تُسَلِّمُ فَتَطْهَرُ مِنَ الذُّنُوبِ.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هل لك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله.

و «أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» أي: تَخَافُهُ وَتَتَّقِيهِ^(٤).

قال ابن الخطيب^(٥): سائر الآيات تدل على أنه - تعالى - لَمَّا نَادَى مُوسَى - عليه

الصلاة والسلام - ذكر له أشياء كثيرة، كقوله تعالى في سورة «طه»: ﴿ثَوْدَى يَمُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِرَبِّكَ مِنَّا الْكِبَرَى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٣، ٢٤].

فدلّ [قوله تعالى - هاهنا -: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى»]^(٦) أنه من جملة ما ناداه

به [لا كل ما ناداه به]^(٧)، وأيضاً فليس الغرض أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى فرعون فقط بل إلى كل من كان في الطور، إلا أنه خَصَّهُ بالذكر، لأنَّ دعوته جارية مجرى دعوة كُلِّ الْقَوْمِ.

فصل في كلام المعتزلة

تمسك المعتزلة^(٨) بهذه الآية في إبطال القول بأن الله - تعالى - يخلق فعل العبد،

(١) البيت لأوس بن حجر ينظر ديوانه ص ١١١، وخزانة الأدب ٤/ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦، وشرح شواهد الشافية ص ١١٦، ١١٧، واللسان (نطس)، و (خدم)، وجمهرة اللغة ص ٨٣٨، ١٣٢٧، والخصائص ٢/ ٤٥٣، وشرح المفصل ٣/ ٢٥، وضرائر الشعر ص ١٦٧.

(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٠.

(٣) ينظر: السبعة ٦٧١، والحجة ٦/ ٣٧٤، وإعراب القراءات ٢/ ٤٣٦، وحجة القراءات ٧٤٩.

(٤) ينظر المصدر السابق، وقد روي معناه عن عكرمة ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٣)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٦. (٦) سقط من: أ.

(٧) سقط من: أ. (٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٣٧.

فإن هذا استفهام على سبيل التقرير، أي: لك سبيل إلى أن تزكّى، ولو كان ذلك بفعل الله - تعالى - لانقلب الكلام حجةً على موسى.

والجواب: ما تقدّم في نظائره.

حكى القرطبي^(١) عن صخر بن جويرية قال: «لَمَّا بعث الله تعالى موسى - عليه الصلاة والسلام - إلى فرعون، قال له: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ» إلى قوله: «وأُهديكِ إلى ربِّك فتَخْشَى»، ولن يفعل، فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه، وقد علمت أنه لا يفعل، فأوحى الله - تعالى - إليه أن امض إلى ما أمرت به، فإنّ في السماء اثني عشر ألف ملك، يطلبون علم القدر، فلم يبلغوه، ولم يدركوه».

قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ «الفاء» في «فأراه»: معطوف على محذوف، يعني فذهب فأراه، كقوله تعالى: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فضرب فانفجرت.

واختلفوا في الآية الكبرى، أي: العلامة العظمى، وهي المعجزة.

ف قيل: هي العصا.

وقيل: اليد البيضاء تبرق كالشمس، قاله مقاتل والكلبي^(٢).

والأول: قول عطاء وابن عباس؛ لأنّه ليس في اليد إلا انقلاب لونها، وهذا كان حاصلًا في العصا؛ لأنّها لمّا انقلبت حيّة، فلا بد وأن يتغيّر اللون الأول، فإذا كل ما في اليد، فهو حاصل في العصا، وأمور أخرى، وهي الحياة في الجرم الجمادي، وتزايد الأجر إليه، وحصول القدرة الكبيرة والقوّة الشديدة، وابتلاعها أشياء كثيرة، وزوال الحياة، والقدرة عليها، وبقاء تلك الأجزاء التي عظمت، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حيّة، وكلّ واحد من هذه الوجوه كان معجزاً مستقلاً في نفسه، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا.

وقال مجاهد: هي مجموع العصا واليد.

وقيل: فلق البحر، وقيل: جميع آياته ومعجزاته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ أي: كذّب بنبيّ الله موسى و «عصى» ربّه تبارك وتعالى.

فإن قيل: كل من كذّب الله فقد عصى، فما فائدة قوله: «فكذب وعصى»؟.

فالجواب: كذّب بالقول، وعصى بالتمرد والتجبر.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٣١.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٨/٣١)، عن مقاتل والكلبي.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ أي: يعملُ بالفساد في الأرض.

وقيل: يعمل في نكاية موسى.

وقيل: «أَذْبَرَ يَسْعَى» هارباً من الحيّة.

قال ابن الخطيب^(١): معنى «أَذْبَرَ يَسْعَى» أي: أقبل يسعى، كما يقال: أقبل يفعل كذا، يعني: إن شاء يفعل، فموضع «أدبر» موضع «أقبل» لثلاً يوصف بالإقبال.

قوله: ﴿فَنَحْنُ فَنَادَى﴾ لم يذكر مفعولاهما، إذ المراد: فعل ذلك، أو يكون التقدير: فحشر قومه فناداهم.

وقوله «فَقَالَ» تفسير للنداء.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: فنَادَى فحشر؛ لأنَّ النداء قبل الحشر، ومعنى «حشر»، أي: جمع السحرة، وجمع أصحابه لِيَمْنَعُوهُ من الحيّة.

وقيل: جمع جنوده للقتال، والمحاسبة، و «السحرة»: المعارضة.

وقيل: حَشَرَ النَّاسَ لِلْحُضُورِ «فنادى»، أي: قال لهم بصوت عالٍ.

﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ أي: لا ربَّ فوقي.

وقيل: أمر منادياً ينادي فنَادَى في النَّاسِ بذلك.

وقيل: قام فيهم خطيباً فقال ذلك.

وعن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وسعيد بن جبير، ومقاتل: كلمته الأولى ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] والأخرى: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى»^(٢).

قال ابن عباس: كان بين الكلمتين أربعون سنة^(٣)، والمعنى: أمهله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة فعذبه بكلمتيه.

قال ابن الخطيب^(٤): واعلم أنا بيئاً في سورة «طه» أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض والجبال والنبات والحيوان، فإنَّ العلمَ بفساد ذلك ضروريٌّ، فمن تشكك فيه كان مجنوناً، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الرسل

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٩/١٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٤/١٢)، عن ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٣/٦)، عن الشعبي وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٤/١٢)، عن مجاهد وخيثمة الجعفي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٣/٦)، عن خيثمة وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

وذكره أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٩/٣١.

إليه، بل الرَّجُلُ كان دهرياً منكراً للصَّانِع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس لأحدٍ أمرٌ ولا نهْيٌ إلّا لي «أَنَا رَبُّكُمْ»، بمعنى مربيكم والمُحسِّن إليكم، وليس للعالم إلَه حتى يكون له عليكم أمرٌ، أو نهْيٌ، أو يبعث إليكم رسولاً.

قال القاضي: وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ألا يقول هذا القول؛ لأن عند ظهور الدلالة والمعجزة، كيف يليق أن يقول: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» فدلّت هذه الآية أنّه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ يجوز أن يكون مصدر الأخذ، والتجوز إما في الفعل، أي: نكل بالأخذ نكال الآخرة، وإما في المصدر، أي: أخذه أخذ نكال، ويجوز أن يكون مفعولاً له، أي: لأجل نكاله، ويضعف جعله حالاً لتعريفه، وتأويله كتأويل جهلك وطاقتك، غير مقيس.

ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة المتقدمة، أي: نكل الله [به] نكال الآخرة. قاله الزمخشري^(١)، وجعله كوعد الله، وصبغة الله.

وقال القرطبي^(٢): وقيل: نُصِبَ بَنَزَعَ حرف الصفة، أي: فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نُزِعَ الخافض نُصِبَ.

والنكال: اسم لما جعل نكالاً للغير، أي: عقوبة له حتى يعتبر، يقال: نكل فلانٌ بفلانٍ، إذا ألحقه عقوبة، والكلمة من الامتناع، ومنه التَّكُول عن اليمين، والنكل: القيد وقد مضى في سورة «المزمل»، والنكال: بمنزلة التنكيل، كالسلام بمعنى التسليم.

والآخرة والأولى: إمّا الدَّارَان وإمّا الكلمتان، والآخرة قوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى»، والأولى: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، كما تقدم، فحذف الموصول للعلم به.

فصل في تفسير الآخرة والأولى

قيل: الآخرة والأولى: هما الكلمتان كما تقدّم.

وقال الحسن وقتادة: «نكال الآخرة والأولى»: هو أن أغرقه في الدنيا وعذبه في الآخرة^(٣).

وروي عن قتادة - أيضاً -: الآخرة قوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى»، والأولى تكذيبه بموسى عليه الصلاة والسلام^(٤).

(١) ينظر: الكشف ٦٩٦/٤. (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٥/١٢)، عن قتادة وذكره الماوردي في «تفسيره» (١٩٨/٦).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٣٢) عن قتادة.

قال القفال^(١): وهذا كأنه هو الأظهر؛ لأنه - تعالى - قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الْكُرْبَىٰ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّرَ فَقَحَّشْنَا فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ فذكر القصتين، ثم قال: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾.

فظهر أن المراد: أنه عاقبه على هذين الأمرين.

ثم إنه - تعالى - ختم هذه القصة بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، إنَّ فيما قصصنا عليك اعتباراً وعظة لمن يخاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ مُّسْمِكُوهَا أَسْمَاءً خَلْقًا أَوْ نِسَاءً بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَنَّاعًا لَّكُمْ وَالْأَنْعَامَ لَكُمْ (٣٣).

قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ مُّسْمِكُوهَا أَسْمَاءً خَلْقًا﴾، يريد: أهل «مكة»، أي: أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم أم السماء؟.

فمن قدر على خلق السماء على عظمها، وعظم أحوالها، قدر على الإعادة، وهذا كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

والمقصود من الآية الاستدلال على منكري البعث، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

ومعنى الكلام: التقرير والتوبيخ.

ثم وصف تعالى السماء، فقال: «أُمُّ السَّمَاءِ بَنَاهَا»، عطف على «أنتم»، وقوله: «بَنَاهَا» بيان لكيفية خلقه إياها، فالوقوف على «السَّمَاءِ»، والابتداء بما بعدها، ونظيره قوله - تعالى - في «الزخرف»: ﴿إِنَّمَا إِلَهُمُنَا خَيْرٌ أَمُّهُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وقوله: «رَفَعَ سَمَكَهَا» جملة مفسرة لكيفية البناء، «وَالسَّمَكُ»: «الارتفاع».

قال الزمخشري^(٢): «جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديداً رفيعاً».

وسمكت الشيء: رفعت في الهواء، وسمك هو، أي: ارتفع سُمُوكاً، فهو قاصر ومتعد، وبناء مسموك، وسنام سَامِكٌ تَامِكٌ، أي: عالٍ مرتفع، وسماك البيت ما سمكته به، والمسموكات: السماوات ويقال: اسمك في الدِّيم، أي: اصعد في الدرجة، والسماك: نجم معروف، وهما اثنان، رامح وأعزل؛ قال الشاعر: [الكامل]

٥٠٩٩ - إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَىٰ لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ^(٣)

(١) ينظر: الفخر الرازي ٤٠/٣١.

(٢) ينظر: الكشاف ٦٩٦/٤.

(٣) تقدم.

وقال البغوي^(١): «رَفَعَ سَمَكَهَا» أي: سقفها.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال الكسائي والفراء والزجاج: هذا الكلام تم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، قال: لأنه من صلة السماء، والتقدير: «أم السماء التي بناها» فحذف «التي»، ومثل هذا الحذف جائز.

قال القفال^(٢): يقال: الرجل جاءك عاقل، أي: الرجل الذي جاءك عاقل، وإذا ثبت جواز ذلك في اللغة، فنقول: الدليل على أن قوله تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾ صلة لما قبله، أنه لو لم يكن صلة لكان صفة، فنقوله: «بَنَاهَا» صفة، ثم قوله: «رَفَعَ سَمَكَهَا» صفة، فقد توالت صفتان، لا تعلق لإحدهما بالآخرى، فكان يجب إدخال العاطف بينهما، كما في قوله: «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا»، ولما لم يكن كذلك، علمنا أن قوله: «بَنَاهَا» صلة للسَّمَاءِ، فكان التقدير: «أم السَّمَاءِ التي بناها»، وهذا يقتضي وجود سماء ما بناها الله، وذلك باطل. وقوله ﴿فَسَوَّيْهَا﴾ أي: خَلَقَهَا خَلْقًا مستويًا، لا تفاوت فيه، ولا فطور، ولا شقوق.

فصل فيمن استدل بالآية على أن السماء كرة

قال ابن الخطيب^(٣): واستدلوا بهذه الآية على كون السماء كرة، قالوا: لأنه لو لم تكن كرة لكان بعض جوانبها سطحاً، والبعض زاويةً والبعض خطاً، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا، والبعض الآخر أبعد، فلا تحصل التسوية الحقيقية، ثم قالوا: لما ثبت أنها محدثة مُفْتَقِرَةٌ إلى فاعل مختار، فأئى ضرر في الدين يُنافي كونها كرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ﴾. أي أظلم بلغة أنمار، يقال: غطش الليل، وأغطشته أنا؛ قال: [المقارِب]

٥١٠٠ - عَقَرْتُ لَهُمْ نَاقَتِي مَوْهِنًا فَلَيْلَهُمْ مُدْلَهُمْ غَطِشٌ^(٤)
وليل أغطش، وليلة غطشاء.

قال الراغب: وأصله من الأغطش، وهو الذي في عينه شبه عمش، ومنه فلاة غَطْشَى لا يهتدى فيها، والتَّغَاطُشُ: التَّعَامِي انتهى.

ويقال: أغطش الليلُ قاصراً كـ «أظلم»، فـ «أفعل» فيه متعدٌ ولازم، فالغَطْشُ والغَتَشُ: الظلمة، ورجل أغطش، أي: أغمى، أو شبيه به، وقد غطش، والمرأة:

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٤١/٣١.

(١) معالم التنزيل ٤/٤٤٥.

(٣) السابق ٤٣/٣١.

(٤) ينظر القرطبي ١٩/١٣٣، والدر المصون ٦/٤٧٥.

غَطْشَاءَ، وفلاة غَطْشَى لا يهتدى لها؛ قال الأعشى: [المقارب]

٥١٠١ - وَبَهْمَاءَ بِاللَّيْلِ غَطْشَى الْفَلَاةِ يُؤْنِسُنِي صَوْتُ قِيَادِهَا^(١)
ومعنى قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مظلماً، وأضاف الليل إلى السماء؛ لأنَّ الليل يكون بغروب الشمس، والشمس تضاف إلى السماء، ويقال: نجوم الليل؛ لأنَّ ظهورها بالليل.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، فيه حذف، أي: ضحى شمسها، وأضاف الليل والضحى لها للملازمة التي بينها وبينها، وإنما عبر عن النهار بالضحى؛ لأنَّ الضحى أكمل النهار بالنور والضوء.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي: بسطها، و «بَعْدَ» على بابها من التأخير، ولا معارضة بينها وبين آية فصلت؛ لأنَّه - تعالى - خلق الأرض غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض.

وقول أبي عبيدة: إنها بمعنى: «قَبْلَ» منكر عند العلماء.
والعرب تقول: دحوت الشيء أدحوه دخواً: إذا بسطه، ودحى يدحى دخياً: إذا بسطه، فهو من ذوات الواو والياء، فيكتب بالألف، والياء.
وقيل لعش التَّعامة: أدحو، وأدحى لانبساطه في الأرض.

وقال أمية بن أبي الصلت: [الوافر]

٥١٠٢ - وَبَتَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا فَهُمْ قُطَائِنُهَا حَتَّى التَّنَادِي^(٢)
وقيل: دَحَى بمعنى سَوَى.

قال زيد بن عمرو بن نفيل: [المقارب]

٥١٠٣ - وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا^(٣)
والعامية: على نصب الأرض، والجبال على إضمار فعلٍ مفسر بما بعده، وهو المختار لتقدم جملة فعلية.

ورفعهما^(٤) الحسن، وابن أبي عبله، وأبو حيوة وأبو السمال وعمرو بن عبيد: برفعهما على الابتداء، وعيسى برفع «الأرض» فقط.

(١) ينظر ديوانه ص ٢٦٠، والقرطبي ١٩/١٣٣، واللسان (غطش).

(٢) ينظر القرطبي ١٩/١٣٣، والبحر ٨/٤١٠، والدر المصون ٦/٤٧٥، وفتح القدير ٥/٣٧٩.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/١٣٣، والبحر ٨/٤١١، والدر المصون ٦/٤٧٥، وفتح القدير ٥/٣٧٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٣٤، والبحر المحيط ٨/٤١٥، والدر المصون ٦/٤٧٥.

فصل

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان، وكان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت^(١).

وحكى القرطبي^(٢) عن بعض أهل العلم أن «بَعْدَ» هنا في موضع: «مع»، كأنه قال: والأرض مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عَتَلِ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْعٌ﴾ [القلم: ١٣]، ومنه قولهم: «أنت أحق، وأنت بعد هذا سيء الخلق»؛ وقال الشاعر: [الطويل]
 ٥١٠٤ - فَقُلْتُ لَهَا: عَتِي إِلَيْكَ فَإِنِّي حَرَامٌ، وَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ لَبِيبٌ^(٣)
 أي: مع ذلك.

وقيل: «بعد» بمعنى: «قبل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: من قبل الفرقان؛ قال أبو كثير: [الطويل]

٥١٠٥ - حَمَدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عَزْوَةٍ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ وَبَغَضُ الشَّرِّ أَهْوَى مِنْ بَعْضِ^(٤)
 وزعموا أن خِرَاشاً نجا قبل عروة.

وقيل: «دَحَاها» حرثها وشَقَّها، قاله ابن زيد.

وقيل: «دَحَاها» مهَّدها للأقوات، والمعنى متقارب.

قوله: «أَخْرَجَ». فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون تفسيراً.

والثاني: أن يكون حالاً.

قال الزمخشري^(٥): فإن قلت هلاً أدخل حرف العطف على «أخرج»؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «دَحَاها» بمعنى: بسطها، ومهَّدها للسكنى، ثم فسر التمهيد بما

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٣٨/١٢)، من طريق عكرمة عن ابن عباس وينظر تفسير القرطبي (١٣٣/١٩).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣٣/١٩.

(٣) تقدم.

(٤) البيت ليس لأبي كبير الهذلي، ولكنه لأبي خراش الهذلي من قصيدة قالها عندما قتل أخوه عروة ونجا أبو خراش من الموت.

ينظر ديوان الهذليين ١٥٧/٢، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣٢٦/١، وشرح المفصل ١١٧/٣، والطبري ٢٩/٣٠، والقرطبي ١٣٣/١٩.

(٥) ينظر الكشف ٦٩٧/٤.

لا بد منه في تأتي سكنها من تسوية أمر المأكَل والمشرب وإمكان القرار عليها.
والثاني: أن يكون «أُخْرِجَ» حالاً، بإضمار «قد»، كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

واعلم أن إضمار «قد» هو قول الجمهور، وخالف الكوفيون والأخفش.
قوله: ﴿مِنْهَا مَاءَهَا﴾، أي: من الأرض عيونها المتفجرة بالماء.
و «مَرْعَاهَا» أي: النبات الذي يرعى، والمراد بمرعاها: ما يأكل النَّاسُ والأنعام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبِّئًا لَّمَّا صَبَّيْنَا ثُمَّ سَقَفْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَقْمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢]، واستعير الرعي للإنسان، كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]، وقد قرئ «نرتع» ويرتع من الرعي، والرعي في الأصل مكان أو زمان، أو مصدر، وهو هنا مصدر بمعنى: «المفعول»، وهو في حق آدميين استعارة.

قال ابن قتيبة: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فانظر كيف دلَّ بقوله «مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا» على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً، ومنها متاعاً للأنام من العشب، والشجر، والتمر، والحب والقضب، واللباس، والدواء، حتى النار والملح.
أما النار؛ فلأنها من العيdan، قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنَّهُمْ أَنشَأَتْمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنِشِّئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢].

وأما الملح؛ فلأنه من الماء.

قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾.

قراءة العامة: بنصب «الجبال».

وأرسي: ثبت فيها الجبال.

وقرأ الحسن، وعمر بن عبيد^(١)، وعمر بن ميمون، ونصر بن عاصم: بالرفع على الابتداء.

قوله تعالى: ﴿مَنْعًا لَكُمْ﴾.

العامة: على النصب مفعولاً له، أو مصدرراً لعامل مقدر، أي: متعكم، أو مصدرراً من غير اللفظ؛ لأن المعنى: أخرج منها ماءها ومرعاها أمتع بذلك.

وقيل: نُصِبَ بإسقاط حرف الصفة، تقديره: لتتمتعوا به متاعاً، والمعنى منفعة لكم ولأنعامكم.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٣٤/٥، والبحر المحيط ٤١٥/٨، والدر المصون ٤٧٥/٦.

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ في جواب «إذا» أوجه :

أحدها : قوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ، نحو : «إذا جاءك بنو تميم ، فأما العاصي فأهنه ، وأما الطائع فأكرمه» .

وقيل : محذوف .

فقدَرُه الزمخشري : فإن الأمر كذلك ، أي : فإنَّ الجحيم مأواه .

وقدَره غيره : انقسم الرءاؤون قسمين .

وقيل : عاينوا أو علموا .

وقيل : جوابها أدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة .

وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ .

والطَّامَةُ الكبرى : الدَّاهِيَةُ الْعُظْمَى التي تطم على غيرها من الدَّوَاهِي لعظمتها ، و «الطَّم» : «الدفن» ، ومنه : طَمَّ السَّيْلُ الرُّكِيَّةَ ، وفي المثل : جَرَى الْوَادِي فطَمَّ على الْقَرَى .

وقيل : مأخوذ من قولهم : طَمَّ الفرس طميماً ، إذا استفرغ جهده في الجري ، والمراد بها في القرآن : النَّفْخَةُ الثانية ؛ لأن بها يحصل ذلك .

قال ابن عباس : هي النَّفْخَةُ الثانية التي يكون معها البعث^(١) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أيضاً ، والضحاك : أَنَّهَا الْقِيَامَةُ ، سميت بذلك ؛ لِأَنَّهَا تَطْمُّ على كل شيء فتغمره^(٢) .

وقال القاسم بنُ الوليد الهمداني : الطَّامَةُ الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار^(٣) .

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٠٠/٦) ، عن الحسن . وذكره القرطبي (١٣٤/١٩) ، عن ابن عباس من طريق الضحاك عنه .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٠/١٢) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٥/٦) ، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وينظر تفسير الماوردي (٢٠٠/٦) ، والقرطبي (١٣٤/١٩) .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٠/١٢) ، عن القاسم بن الوليد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٥/٦) ، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر .

قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ بدل من «إذا»، أو: منصوباً بإضمار فعل، أي: أعني: يوم أو يوم يتذكر كيت وكيت.

قوله: ﴿مَا سَعَى﴾ أي: ما عمل من خير أو شر يراه مكتوباً في كتابه فيتذكره، وكان قد نسيه، لقوله تعالى: ﴿أَخْصَنُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].
قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ العامة على بنائه للمفعول مشدداً، و ﴿لَمَن يَرَى﴾ بياء الغيبة.

وزيد بن علي وعائشة وعكرمة^(١): مبنياً للفاعل مخففاً، و «ترى» بقاء من فوق، فجوزوا في تاء «ترى» أن تكون للتأنيث، وفي «ترى» ضمير الجحيم، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَاثِرٍ عَمِيٍّ﴾ [الفرقان: ١٢]، وأن تكون للخطاب، أي: ترى أنت يا محمد، والمراد: ترى الناس. وقرأ عبد الله^(٢): «لمن رأى» فعلاً ماضياً.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «بُرِّزَتْ» كشفت عنها تلتطى، فيراه كل ذي بصر، فالمؤمنون يمشرون عليها، ﴿وَلَمَن يَرَى﴾ «لَمَن يَرَى» [مريم: ٧١]، وأما الكفار فهي مأواهم^(٣).

وقيل: الرؤية هنا: استعارة، كقولهم: قد تبين الصبح لذي عينين.

وقيل: المراد: الكافر؛ لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب.

وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ أي: تجاوز الحد في العصيان.

قيل: نزلت في النَّصْرِ وأبيه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة.

قوله: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ إمّا هي المأوى له، أو هي مأواه، وقامت «أل» مقام الضمير، وهو رأي الكوفيين وقد تقدم تحقيق هذا والرد على قائله، خلافاً للبصريين؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥١٠٦ - رَحِيبٌ قَطَابُ الْجَنِبِ مِنْهَا رَقِيقَةٌ بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ^(٤)

إذ لو كانت «أل» عوضاً من الضمير لما جمع بينهما في هذا البيت، ولا بُدُّ من أحد هذين التأويلين في الآية الكريمة لأجل العائد من الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ، والذي

(١) ينظر: الكشف ٤/٦٩٧، والمححر الوجيز ٥/٤٣٤، والبحر المحيط ٨/٤١٥، والدر المصون ٦/٤٧٦.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٦٩٨، والمححر الوجيز ٥/٤٣٤، والدر المصون ٦/٤٧٦.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/١٣٤). (٤) تقدم.

حَسَّنَ عدم ذكر العائد كون الكلمة^(١) وقعت رأس فاصلة.

وقال الرمخشري^(٢): «فإن الجحيم مأواه، كما تقول للرجل: غُضَّ الطرف، تريد طرفك، وليس الألف و «اللام» بدلاً من الإضافة، ولكن لما علم أنَّ الطَّاعِي هو صاحب المأوى، وأنه لا يَغُضُّ الرجل طرف غيره تركت الإضافة، ودخول الألف واللام في «المأوى» والطرف، للتعريف؛ لأنَّهما معروفان».

قال أبو حيان^(٣): «وهو كلام لا يتحصَّل منه الرابط العائد على المبتدأ، إذ قد نفى مذهب الكوفيين، ولم يقدر ضميراً محذوفاً كما قدره البصريون، فرام حصول الرابط بلا رابط».

قال شهاب الدين^(٤): «ولكن لما علم إلى آخره، هو عين قول البصريين، ولا أدري كيف خفي عليه هذا».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: حَذَرَ مقامه بين يدي ربه.
وقال الربيع: مقامه يوم الحساب^(٥).

وقال مجاهد: خوفه في الدنيا من الله عند واقعة الذنب فيقلع عنه، نظيره: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

«وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى» أي: زجرها عن المعاصي والمحارم^(٦).

قال ابن الخطيب^(٧): هذان الوصفان مضادان للوصفين المتقدمين، فقوله تعالى: ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ ضدُّ قوله: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى»، و «نَهَى النَّفْسَ» ضدُّ قوله: «وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنتم في زمانٍ يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق، فنعوذ بالله من ذلك الزمن^(٨).

قوله: ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: المنزل، نزلت الآيتان في مصعب بن عمير، وأخيه عامر بن عمير^(٩).

(١) في ب: الآية.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٩٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤١٥.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٧٦.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥).

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠)، وينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٤٨.

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٥).

(٩) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٦٩٨): لم أجده.

روى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال: أمّا من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير، أسر يوم بدر، فأخذته الأنصار، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه، وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه، فقال: ما هو لي بأخ، شدوا أسيركم، فإنّ أمّه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً، فأوثقوه حتى بعثت أمه في فدائه^(١).

«وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» فمصعب بن عمير، وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم «أُحُدٍ» حين تفرّق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه، وهي السهام، فلما رآه رسول الله ﷺ مشحطاً في دمه، قال: «عِنْدَ اللَّهِ اخْتِسَبَ». وقال ﷺ لأصحابه: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَعَلَيْهِ بُرْدَانٍ مَا تُعْرَفُ قِيمَتُهُمَا وَإِنَّ شِرَاكَ نَعْلَيْهِ مِنْ ذَهَبٍ».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - «نزلت هذه الآية في رجلين: أبو جهل بن هشام، ومصعب بن عمير»^(٢).

وقال السدي: نزل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٣).

وقال الكلبي: هما عامتان.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَلَهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّهَا لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى (٤٦)

قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾. لما سمع المشركون أخبار القيامة، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل: «الطامة الكبرى»، و «الصّاحّة»، و «القارعة»، سألوا رسول الله ﷺ استهزاء، متى تكون الساعة؟

وقيل: يحتمل أن يكون ذلك إيهاماً لإيقاعهم أنّه لا أضلّ لذلك، ويحتمل أنّهم كانوا يسألونه عن وقت القيامة استعجالاً كقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾، أي: إقامتها، والمعنى: أي شيء يقيمها ويوجدّها، ويكون المعنى: أيان منتهاها ومستقرها، كما أنّ مرسى السفينة: مستقرّها الذي تنتهي إليه فأجابهم الله - تعالى - بقوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾.

قوله «فِيمَ» خبر مقدم، و «أَنْتَ» مبتدأ مؤخر، و «مِنْ ذِكْرِهَا» متعلق بما تعلق به الخبر، والمعنى: أنت في أي شيء من ذكراها، أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٣٥)، من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

وقال الزمخشري^(١): وعن عائشة - رضي الله عنها - لم يزل رسول الله ﷺ يذكر الساعة، ويسأل عنها ويذكرها حتى نزلت، قال: «فَهُوَ عَلَى هَذَا تَعَجَّبَ مِنْ كَثَرَةِ ذِكْرِهِ لَهَا كَأَنَّهُ قِيلَ: فِي أَيِّ شُغْلٍ وَاهْتِمَامٍ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا وَالسُّؤَالِ عَنْهَا»^(٢).

وقيل: الوقف على قوله: «فِيمَ»، وهو خبر مبتدأ مضمّر، أي: فيم هذا السؤال، ثم يبتدئ بقوله: «أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا» أي: إرسالك، وأنت خاتم الأنبياء، وآخر الرسل، والمبعوث في تسمية الساعة ذكر من ذكرها، وعلامة من علامتها، فكفاهم بذلك دليلاً على دُنُوها، ومشارفتها، والاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها.

قاله الزمخشري: وهو كلام حسن، لولا أنه يخالف الظاهر، وتفكيك لنظم الكلام.

ومعنى «إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا» منتهى علمها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال القرطبي^(٣): ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له، أي: فيم أنت من ذلك حتى يسألك بيانه، ولست ممن يعلمه، روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَحْشَنُّهَا﴾.

العامة: على إضافة الصفة لمعمولها تخفيفاً.

وقرأ عمر^(٤) بن عبد العزيز وأبو جعفر، وطلحة، وابنُ محيصن: بالتثنية، ويكون في موضع نصب، والمعنى: إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِكَ مَنْ يَخْشَى السَّاعَةَ.

قال الزمخشري^(٥): وهو الأصل، والإضافة تخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد الماضي، فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذرُ زيدٍ أمس.

(١) ينظر الكشف ٦٩٩/٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤١/١٢)، والبزار (٢٢٧٩ - كشف)، والحاكم (٥١٣/٢ - ٥١٤)، عن عائشة. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥١٥/٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن مردويه. وذكره السيوطي أيضاً في «الدر» (٥١٥/٦)، عن عروة مرسلاً وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وذكر الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/٧) الطريق الموصول وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح. وقد رجح أبو زرعة الطريق المرسل. ففي العلل (٦٨/٢) لابن أبي حاتم قال سمعت أبا زرعة يقول: الصحيح مرسل بلا عائشة.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣٦/١٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤٣٥/٥، والبحر المحيط ٤١٦/٨، والدر المصون ٤٧٧/٦.

(٥) الكشف ٦٩٩/٤.

قال أبو حيان^(١): قوله: «هُوَ الْأَصْلُ» يعني: «التنوين»، هو قول قاله غيره.
ثم اختار أبو حيان: أن الأصل الإضافة، قال: لأنَّ العمل إنما هو بالشبه،
والإضافة أصل في الأسماء، ثم قال: وقوله: «ليس إلا الإضافة» فيه تفصيل وخلاف
مذكور في كتب النحو.
قال شهاب الدين^(٢): لا يلزمه أن يذكر إلا محل الوفاق، بل هذان اللذان ذكرهما
مذهب جماهير الناس.

فصل في معنى الآية

المعنى: إِنَّمَا أَنْتَ مُخَوِّفٌ، وخص الإنذار بمن يخشى؛ لأنهم المنتفعون به، وإن كان
منذراً لكل مكلف، كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١].
قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني: الكُفَّار، يرون الساعة.
﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في دنياهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةٌ﴾ أي: قدر عشيَّة، ﴿أَوْ ضَحَاةٌ﴾ أي: أو قدر
الضُحَى الذي يلي تلك العَشِيَّة، والمراد: تقليل مدة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأضاف الضحى إلى العشيَّة إضافة الظرف إلى ضمير
الظرف الآخر تجوُّزاً واتساعاً، وذكرهما؛ لأنَّهما طرفا النهار، وحسَّن هذه الإضافة وقوع
الكلمة فاصلة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَوْ ضَحَاةٌ﴾ معناه: ضُحَى العَشِيَّة، وهذا غير معقول؛ لأنَّه
ليس للعشيَّة ضُحَى؟.

فالجواب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهاء والألف صلة للكلام، يريد: لم
يلبثوا إلا عشيَّة أو ضحى^(٣).

وقال الفراء والزجاج: المراد بإضافة الضُحَى إلى العشيَّة، إضافتها إلى يوم العشيَّة
على عادة العرب، يقولون: آتيك الغداة أو عشيها، وآتيك العشيَّة أو غداتها، فتكون
العشيَّة في معنى: آخر النهار، والغداة في معنى: أول النهار؛ وأنشد بعض بني عقيل:
[الرجز]

٥١٠٧ أ - نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً فِي دَارِهَا جُزْداً تَعَادَى طَرَفِي نَهَارِهَا
عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ سِرَارِهَا^(٤)

وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) البحر المحيط ٤١٦/٨. (٢) الدر المصون ٤٧٧/٦.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٤٩/٣١٠)، من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٤) ينظر الطبري ٣٠/٣٢، ومعاني القرآن ٣/٢٣٥، واللسان (صبح)، (سرر)، والقرطبي ١٩/١٣٧.

سورة عبس

وتسمى سورة السفرة مكيّة، وهي اثنان وأربعون آية، ومائة وثلاثون كلمة، وخمسمائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَظُنُّ ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ۚ (٥) فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠)﴾

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كَلَحَ بوجهه، يقال: عَبَسَ وَبَسَرَ وتولى، أي: أَعْرَضَ بوجهه.

قوله: ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أَنَّهُ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَنَاصِبُهُ: إِمَّا «تَوَلَّى» وَهُوَ قَوْلُ الْبَصْرِيِّينَ، وَإِمَّا «عَبَسَ» وَهُوَ قَوْلُ الْكُوفِيِّينَ، وَالْمَخْتَارُ مَذْهَبُ^(١) الْبَصْرِيِّينَ لِعَدَمِ الْإِضْمَارِ فِي الثَّانِي، وَتَقْدِمُ تَحْقِيقُ هَذَا فِي مَسَائِلِ النِّزَاعِ وَالتَّقْدِيرِ: لِأَنَّ جَاءَهُ الْأَعْمَى فَعَلَ ذَلِكَ.

قال القرطبي^(٢): إِنْ مِنْ قَرَأَ بِالْمَدِّ^(٣) عَلَى الْاسْتِفْهَامِ، فَـ «أَنْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وَالتَّقْدِيرُ: أَنَّ جَاءَهُ أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَوَلَّى؟ فَيُوقِفُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ عَلَى «تَوَلَّى»، وَلَا يُوقِفُ عَلَيْهِ عَلَى قِرَاءَةِ الْعَامَةِ.

فصل في سبب نزول الآية

قال المفسرون: أتى رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم، واسمُ أم مكتوم عاتكة بنتُ عامر بن مخزوم، وكان عند النبي ﷺ صنديدُ قريش: عُثْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَأَبُو

(١) في ب: قول. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٣٩.

(٣) وهي قراءة الحسن وأبي عمران الجوني وعيسى، ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٣٧، والبحر المحيط ٨/٤١٩، والدر المصون ٦/٤٧٨، وزاد «زيد بن علي».

جَهْلُ بَنِّ هِشَامٍ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءً أَنْ يَسْلَمَ بِإِسْلَامِهِمْ غَيْرُهُمْ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَكَرِهَ قَطْعَهُ لِكَلَامِهِ، وَعَبَسَ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

قال ابن العربي: أمّا قول المفسرين: إنه الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خلف والعباس، فهذا كله باطلٌ وجهلٌ؛ لأن أمية والوليد كانا بـ «مكة» وابن أم مكتوم كان بـ «المدينة» ما حضر معهما، ولا حضرا معه، وماتا كافرين، أحدهما: قبل الهجرة، والآخر في «بدر»، ولم يقصد أمية «المدينة» قط، ولا حضر معه مفرداً، ولا مع أحدٍ، وإنما أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشغول بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشغول بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه لكلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُمَيَّانِ والسُّفَلَةُ والعبيد، فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية.

قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم بسط له رداءه، ويقول: «مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، ويقول: «هَلْ مِنْ حَاجَةٍ؟» واستخلفه على «المدينة» مرتين في غزوتين غزاهما.

قال أنس رضي الله عنه: فرأيت يوم «القادسيّة» راكباً وعليه دِرْعٌ، ومعه راية سوداء^(١).

فصل في معاتبة الله تعالى رسوله

قال ابن الخطيب^(٢): ما فعله ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر، فكيف عاتب الله - تعالى - رسوله على تأديبه ابن أم مكتوم؟.

وإنما قلنا: إنه كان يستحق التأديب؛ لأنه وإن كان أعمى لا يرى القوم، لكنه سمع

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٤٤)، وذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/٧٠١)، وقال: أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أخبرني أنس بهذا وكذا رواه أبو يعلى والطبري من رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه.

وللحديث شاهد من حديث عائشة أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، وابن حبان (١٧٦٩)، والحاكم (٢/٥١٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٥٠/٣١.

مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان بسماعه يعرف شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ لغرض نفسه قبل تمام غرض النبي ﷺ معصية عظيمة.

وأيضاً: فَإِنَّ الْأَهَمَّ يَقْدَمُ عَلَى الْمُهَمِّ، وكان قد أسلم، وتعلّم ما يحتاج إليه من أمر دينه، أما أولئك الكفار، فلم يكونوا أسلموا بعد، وكان إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم، فكان كلام ابن أم مكتوم كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم.

وأيضاً: فَإِنَّ اللَّهَ - تعالى - ذمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرد ندائهم، فهذا النداء الذي هو كالصّارف للكفار عن [قبول] ^(١) الإيمانِ أولى أن يكون ذنباً، فثبت أن الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية.

وأيضاً: فمع هذا الاعتناء بابن أم مكتوم، فكيف لقب بالأعمى؟.

وأيضاً: فالنبي ﷺ يؤدّب أصحابه بما يراه مصلحة، والتّعيسُ من ذلك القليل، ومع الإذن فيه، كيف يعاتب عليه؟.

والجواب عن الأول: أَنَّ ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأنّ النبي ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنّه يرجو إسلامهم، ولكن الله عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصّفّة، أو ليعلم أنّ المؤمن الفقير خيرٌ من الغنى، وكان النظر إلى المؤمن أولى، وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً طمعاً في المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية.

وقيل: إنّما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ».

وقال ابن زيد: إنّما عبس النبي ﷺ لابن أم مكتوم، وأعرض عنه؛ لأنّه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاء منه، ومع هذا أنزل الله تعالى في حقه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيماً له، ولم يقل: عَبَسَتْ وَتَوَلَّيْتُ. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له، فقال: «وَمَا يُذَرِّكَ» أي: يعلمك «لَعَلَّهُ» ابن أم مكتوم «يَرْكُنِي» بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، وإنّما ذكره بلفظ الأعمى ليس للتحقير، بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه يستحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد، أن

تخصّه بالغلظة، وأمّا كونه مأذوناً له في تأديب أصحابه، لكن هنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك مما يوهّم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا السبب عوتب^(١).

فصل فيمن استدل بالآية على جواز صدور الذنوب من الأنبياء

قال ابن الخطيب^(٢): تمسك القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بهذه الآية.

وقالوا: لما عوتب النبي ﷺ على ذلك الفعل دلّ على أنّه كان معصية.

قال ابن الخطيب: وهذا بعيد لما ذكرنا في الجواب عن الأول، وأيضاً: فإن هذا من باب الاحتياط وترك الأفضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذُرْكُ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ الظاهر أنه أجرى الترجي مجرى الاستفهام، لما بينهما من معنى الطلب في التعليق، لأن المعنى منصب على تسليط الدراية على الترجي، إذ التقدير: لا يدري ما هو مترجى منه التركيب، أو التذكر.

وقيل: الوقف على «يذري»، والابتداء بما بعده على معنى: وما يطلعك على أمره، وعاقبة حاله، ثم ابتداء، فقال: «لعله يزكى».

فصل في تحرير الضمير في قوله: «لعله»

قيل: الضمير في «لعله» للكافر، يعني: لعل إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام.

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: قبول الحق، «وما يدريك» أنّ ما طمعت فيه كائن، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

قوله: ﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾.

قرأ عاصم: «فنتفعه» بالنصب.

والباقون^(٣): بالرفع.

فمن رفع، فهو نسق على قوله: «أو يذكّر».

ومن نصب، فعلى جواب الترجي كقوله في «المؤمن»^(٤): ﴿فَاطْلِعْ﴾ [غافر: ٣٧]، وهو مذهب كوفي وقد تقدم الكلام عليه.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٤٤)، مختصراً وذكره بتمامه القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٣٩)، عن ابن زيد.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٥١/٣١.

(٣) ينظر: السبعة ٦٧٢، والحجة ٦/٣٧٦، وإعراب القراءات ٢/٤٣٩، وحجة القراءات ٧٤٩.

(٤) يعني سورة «غافر».

وقال ابن عطية^(١): في جواب التمني؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ في حكم قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْجُونَ﴾.

قال أبو حيان^(٢): «وهذا ليس تمنياً إنما هو ترجُّ».

قال شهاب الدين^(٣): إنما يريد التمني المفهوم من الكلام، ويدلُّ له ما قاله أبو البقاء: «وبالنصب على جواب التمني في المعنى»، وإلاً فالفرق بين التمني والترجي لا يجهله ابن عطية.

وقال مكي: «من نصبه جعله جواب «لعل» بالفاء؛ لأنه غير موجب، فأشبه التمني والاستفهام، وهو غير معروف عند البصريين» وقرأ عاصم^(٤) في رواية الأعرج: «أو يذَّكَّرُ» - بسكون الذال، وتخفيف الكاف مضمومة - مضارع «ذكر»، والمعنى: أو يتعظ بما يقوله، «فتنفعه الذكرى» أي: العظة.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى﴾ قال عطاء: يريد عن الإيمان، وقال الكلبي: استغنى عن الله، وقال بعضهم: استغنى أثرى؛ وهو فاسد ههنا؛ لأن إقبال النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له أما من أثرى، فأنت تقبل عليه، ولأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا وَهُوَ يَخْشَى﴾ ولم يقل وهو فقير معدم، ومن قال: أما من استغنى بماله فهو صحيح، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن بما لهُ من المال.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ﴾ تقدمت فيه قراءتا التثقيب والتخفيف.

قال الزجاج: أي أنت تقبل عليه وتعرض له وتميل إليه، يقال تصدى فلان لفلان، يتصدَّد إذا تعرض له، والأصل فيه تصدّد يتصدَّد من الصدّد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك فأبدل أحد الأمثال حرف علة مثل: تظنيت وقصيت، وتقضى البازي قال الشاعر:

٥١٠٧ ب - تَصَدَّى لَوْضَاحٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ سِرَاجُ الدُّجَى يُجَبِّى إِلَيْهِ الْأَسَاوِرُ^(٥)

وقيل: هو من الصدى، وهو الصوت المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة.

وقيل: من الصدى وهو العطش، والمعنى على التعرض، ويتمحل لذلك إذا قلنا أصله من الصوت أو العطش.

وقرأ أبو جعفر «تُضْدي» بضم التاء وتخفيف الصاد. أي يصديق حرصك على إسلامه.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٣٧/٥. (٢) ينظر: البحر المحيط ٤١٩/٨.

(٣) ينظر: الدر المصون ٤٧٨/٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٤٣٧/٥، والبحر المحيط ٤١٩/٨، والدر المصون ٤٧٩/٦.

(٥) البيت للراعي النميري. ينظر ديوانه (١٠٩)، والبحر المحيط ٤١٧/٨، والدر المصون ٤٧٩٦.

يقال: صدى الرجل وصديته، وقال الزمخشري^(١): «قرىء «تُصدى» بضم التاء أي تعرض، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له؛ من الحرص والتهالك على إسلامه. قوله ﴿أَلَا يَرْكُ﴾ مبتدأ خبره «عليك» أي ليس عليك عدم تركيته.

والمعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم.

قوله: ﴿يَسْعَى﴾ حال من فاعل «جاءك» والمعنى أن يسرع في طلب الخير، كقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ جملة حالية من فاعل «يسعى» فهو حال من حال وجعلها حالاً ثانية معطوفة على الأولى ليس بالقوي وفيها ثلاثة أوجه يخشى الله ويخافه في ألا يهتم بأداء تكاليفه، أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك، أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى، وما كان له قائد.

قوله ﴿لَلَّغَى﴾ أصله تتلهى من لهي يلهى بكذا أي اشتغل وليس هو من اللهو في شيء.

وقال أبو حيان^(٢): ويمكن أن يكون منه لأن ما يبنى على فعل من ذوات الواو تنقلب واوه لانكسار ما قبلها. نحو شقي يشقى. فإن كان مصدره جاء بالياء فيكون من مادة غير مادة اللهو.

قال شهاب الدين^(٣): الناس إنما لم يجعلوه من اللهو لأجل أنه مسند إلى ضمير النبي ﷺ ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب الله إليه التفعّل من اللهو. بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر منه في بعض الأحيان، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا وإنما سقط الشيخ وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه «عنهو تلهى» بواو وهي صلة لهاء الكناية، وتشديد التاء والأصل تتلهى فادغم، وجاز الجمع بين ساكنين لوجود حرف علة وإدغام، وليس لهذه الآية نظير. وهو أنه إذا لقي صلة هاء الكناية ساكن آخر ثبتت الصلة بل يجب الحذف، وقرأ أبو جعفر «تُلْهَى» بضم التاء مبنياً للمفعول. أي يلهىك شأن الصناديد، وقرأ طلحة «تتلهى» بتاين وهي الأصل، وعنه بتاء واحدة وسكون اللام.

فصل

فإن قيل قوله: ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى﴾ فأنت عنه تلهى كان فيه اختصاصاً.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤١٩/٨.

(١) ينظر: الكشاف ٧٠١/٤، ٧٠٢.

(٣) ينظر: الدر المصون ٤٧٩/٦.

قلنا نعم، ومعناه إنكار التصدي والتلهي عنه، أي مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدى للغني، ويتلهى عن الفقير.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦)﴾

قوله: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله. قال الحسن: لما تلا جبريل على النبي ﷺ هذه الآيات عاد وجهه كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّا﴾ سري عنه، أي لا تفعل مثل ذلك قال ابن الخطيب^(١): وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى.

وقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فيه سؤالان:

الأول: قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ ضمير المذكر، والضميران عائدان إلى شيء واحد، فكيف القول فيه؟

الجواب: وفيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ضمير المؤنث، قال مقاتل: يعني آيات القرآن، وقال الكلبي: يعني هذه السورة وهو قول الأخفش والضمير في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ عائذ إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

الثاني: قال صاحب النظم: إنها تذكرة يعني بها القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكره لجاز كما قال في موضع آخر ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ والدليل على أن قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ المراد به القرآن قوله ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾.

فصل

كيف اتصال هذه الآية بما قبلها؟ الجواب: من وجهين:

الأول: كأنه قيل: هذا التأديب الذي أوحيته إليك وعرفته لك في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا أثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة.

الثاني: كأنه قيل: هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم، وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطيباً لقلوب أرباب الدنيا.

قوله: ﴿ذَكَّرُ﴾ يجوز أن يكون الضمير لله تعالى، لأن منزل التذكرة، وأن يكون للتذكرة، وذكر ضميرها؛ لأنها بمعنى الذكر والوعظ.

وقوله: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفة لتذكرة. فقوله ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُ﴾ جملة معترضة بين الصفة وموصوفها، ونحوها ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩] ويجوز أن يكون «في صحف» خبراً ثانياً لـ «إنها» والجملة معترضة بين الخبرين.

فصل

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين:

الأول: قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُ﴾ أي هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه.

والثاني: قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي تلك التذكرة معدة في هذه الصحف المكرمة، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة في صحف.

والمراد من «الصحف» قولان:

الأول: أنها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عند الله تعالى مرفوعة في السماء السابعة أو مرفوعة المقدار مطهرة عن أيدي الشياطين، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة.

قوله ﴿سَفَرَةٍ﴾ جمع سافر وهو الكاتب ومثله كاتب وكتبة، وسفرت بين القوم أسفر سفارة أصلحت بينهم قال:

١٠٧هـ - فَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَلَا أَمْشِي بِغُشٍّ إِنْ مَشَيْتُ^(١)

وسفرت المرأة: كشفت نقابها.

وقوله: ﴿كِرَامٍ﴾ هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق، ولا يشاركون فيها سواهم، وروى الضحاك عن ابن عباس في «كرام» قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه، أو تَبَرَّرَ لغائطه.

وقيل: يُؤْثِرُونَ منافع غيرهم على منافع أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿بَرٍّ وَابِرٍّ﴾ جمع بار، مثل: كافر وكفيرة، وساحر وسحرة وفاجر وفجرة، يقال: برٌّ وبارٌّ، إذا كان أهلاً للصدق، ومنه: برٌّ فلان في يمينه أي: صدق،

(١) ينظر: القرطبي ١٩/١٤١، والبحر المحيط ٨/٤١٧، وفتح القدير ٥/٣٨٣، والدر المصون ٦/

وفلان يَبِرُّ خالقه ويتبرَّره: أي: يُطِيعه، فمعنى «بررة» أي: مطيعين لله صادقين الله في أعمالهم.

فصل في المراد بالسفرة

قال ابن الخطيب^(١): قوله تعالى: ﴿يَأْيُذِي سَفَرٍ﴾ يقتضي أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدي هؤلاء السفرة، فقال القفال في تقريره: لما كان لا يمسه إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسه.

وقال القرطبي^(٢): إن المراد بقوله - تعالى - في سورة «الواقعة»: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أنهم الكرام البررة في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدَرْتُمْ (١٩) ثُمَّ أَسْبَلَ سَيْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرْتُمْ (٢١) ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرْتُمْ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا (٢٣) قوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾. أي: لعين.

وقيل: عذَّب، والإنسان: الكافر.

روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن من قتل الإنسان، فإن ما عني به الكافر^(٣).

قال النحويون: وهذا إما تعجب، أو استفهام تعجب.

قال ابن الخطيب^(٤): اعلم أنه - تعالى - لما ذكر ترفع صنديد قريش على فقراء المسلمين عجب [عباده]^(٥) المؤمنين من ذلك، فكأنه قيل: وأي سبب في هذا الترفع مع أنه أوله نطفة مدرة، وآخره جيفة قدرة، وهو فيما بين الوقتين حمال عذرة، فلا جرم أن يذكر - تعالى - ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم، وعلاجاً لكفرهم فإن خلقه الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر.

قيل: نزلت في عتبة بن أبي لهب، والظاهر العموم.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ﴾ دعاء عليه بأشدّ الأشياء؛ لأنّ القتل غاية شذائذ الدنيا، و ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾، تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله.

فإن قيل: الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز، والقادر على الكل كيف يليق به

(١) الفخر الرازي ٥٤/٣١. (٢) ينظر: لجامع لأحكام القرآن ١٩/١٤٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٤٦)، من طريق الأعمش عن مجاهد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٠)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٥٤/٣١. (٥) سقط من: أ.

ذلك؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء، فالعالم به كيف يليق ذلك به؟.

فالجواب: أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب، لبيان استحقاقهم لأعظم العقاب، حيث أتوا بأعظم القبائح كقولهم إذا تعجبوا من شيء: قاتله الله ما أخسه، وأخزاه الله ما أظلمه، والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا.

وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، والاستفهام بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قيل: استفهام توبيخ، أي: أي شيء دعاه إلى الكفر.

وقيل: استفهام تحقير له، فذكر أول مراتبه، وهو قوله تعالى: ﴿مِنْ تَطَفُّعِ خَلْقِهِ﴾، ولا شك أن النطفة شيء حقير مهين، ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر، وقوله: «فقدَّره» أي: أطواراً.

وقيل: سواء لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وقدَّر كُلَّ غُضُو فِي الكيفيَّة والكميَّة بالقدر اللائق لمصلحته، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ثُمَّ لما ذكر المرتبة الوسطى قال تعالى: ﴿ثُمَّ الْتَبِيلَ يَسْرُهُ﴾.

قيل: المراد: تيسير خروجه من بطن أمه، ولا شك أن خروجه حيًا من أضيقي المسالك من أعجب العجائب، يقال: إنه كان رأسه في بطن أمه من فوق، ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام، المراد منه قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: التمييز بين الخير والشر.

وقيل: مخصوص بالدين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْتَبِيلَ يَسْرُهُ﴾. يجوز أن يكون الضمير للإنسان، والسبيل ظرف، أي: يسر للإنسان الطريق، أي: طريق الخير، والشر، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال أبو البقاء^(١): ويجوز أن ينتصب بأنه مفعول ثانٍ لـ «يسره»، والهاء للإنسان، أي: يسره السبيل، أي: هداة له.

قال شهاب الدين^(٢): فلا بد من تضمينه معنى «أعطى» حتى ينصب اثنين، أو حذف حرف الجر أي: يسره للسبيل، ولذلك قدره بقوله: «هداه له»، ويجوز أن يكون «السبيل» منصوباً على الاشتغال بفعل مقدر، والضمير له، تقديره: ثم يسر السبيل يسره، أي: سهله للناس، كقوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وتقدم مثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣].

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨١.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٨٠.

فصل في تفسير الآية

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهدٍ قالا: سبيل الشقاء والسعادة^(١).
وقال ابن زيد: سبيل الإسلام^(٢)، وقال أبو بكر بن طاهر: يسر على كل أحد ما خلقه له وقدره عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «اعْمَلُوا فِكْلَ مُيسَّرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ»^(٣).
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُ فَآقَرُ﴾ هذه المرتبة الثالثة، أي: جعل له قبراً يوارى فيه يقال: قبره إذا دفنه، وأقبره، أي: جعله بحيث يقبر، وجعل له قبراً إكراماً له، ولم يجعله ممَّن يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير. قاله الفراء.
قال أبو عبيدة: «أقبره» جعل له قبراً، وأمر أن يقبر، والقابر: هو الدافن بيده؛ قال الأعشى: [السريع]

٥١٠٨ - لَوْ أَسْنَدَتْ مَيِّتاً إِلَى نَحْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرٍ^(٤)
يقال: قبرت الميت «أي» دفتته، وأقبره الله أي: صيَّره بحيث جعل له قبراً.
وتقول العرب: بترت ذنب البعير وأبتره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله وطردت فلاناً، والله أطرده، أي: صيَّره طريداً.
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾. أي: أحياء بعد موته، ومفعول شاء محذوف، أي: شاء إنشأه، و «أنشره» جواب «إذا».
وقرأ العامة: «أنشَر» بالالف.

وروي أبو حيوه عن نافع وشعيب عن ابن أبي حمزة: «نَشَرُهُ» ثلاثياً بغير ألف^(٥).
ونقلها أبو الفضل أيضاً، وقال: هما لغتان بمعنى الإحياء.
قال ابن الخطيب^(٦): وإنما قال: «إذا شاء أنشره» إشعاراً بأنَّ وقته غير معلوم، فتقديمه وتأخيرها موكلٌ إلى مشيئة الله تعالى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٨/١٢)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٨/١٢)، عن ابن زيد.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٣/١١)، كتاب: القدر، باب: وكان أمر الله قدراً مقدوراً حديث (٦٦٠٥)، ومسلم (٢٠٣٩/٤)، كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق حديث (٢٦٤٧/٦)، من حديث علي.
(٤) يروي صدرها مكان (نحراها).
ينظر ديوان الأعشى ص ٩٣، وسمط اللآلئ ١/٢٧٥، ٢/٧٥٦، ومجاز القرآن ٢/٢٨٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/٦٢٩، ٥/١٥٢، والطبري ٣٠/٣٦، ومجمع البيان ١٠/٦٦٣، والقرطبي ١٩/١٤٣.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٣٩، والبحر المحيط ٨/٤٢٠، والدر المصون ٦/٤٨٠.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٥٦.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوْهُ﴾ «كلاً»: ردع للإنسان عن تكبره، وترفعه، وعن كفه، وإصراره على إنكار التوحيد، وعلى إنكار البعث، والحشر والنشر وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: لا يقضي أحدٌ جميع ما أمر به، وهو إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن تقصير ألبيته^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): وعندي في هذا التفسير نظر؛ لأن الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق، وهو الإنسان في قوله تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوْهُ﴾ وليس المراد من الإنسان هنا: جميع الإنسان، بل الإنسان الكافر، فقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوْهُ﴾، كيف يمكن حمله على جميع الناس؟.

وقال ابن فورك: كلاً لما يقض الله ما أمره، [كلاً لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر، بل أمره بما لم يقض له به وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول لما يقض ما أمره]: لم يبال بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم - عليه الصلاة والسلام -.

وقيل: المعنى: إن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل الله تعالى، والتدبر في عجائب خلقه.

قوله: «ما أمره»، «ما»: موصولة.

قال أبو البقاء^(٣): بمعنى «الذي»، والعائد محذوف، أي: ما أمره به.

قال شهاب الدين^(٤): وفيه نظر، من حيث إنه قدر العائد مجروراً بحرف لم يجر الموصول، ولا أمره به، فإن قلت: «أمر» يتعدى إليه بحذف الحرف، فاعدره غير مجرور.

قلت: إذا قدرته غير مجرور فإما أن تُقدِّره متصلاً أو منفصلاً، وكلاهما مشكل، لما تقدم في أول «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وقال الحسن: «كلاً» معناه: «حقاً»، «لما يقض»: أي: لم يعمل بما أمره به^(٥).

قال القرطبي^(٦): و «ما» في قوله: «لما» عماد للكلام، كقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصِحَّحُنَّ نَدِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٨/١٢)، عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٠)، وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

وينظر تفسير الماوردي (٢٠٦/٦)، والقرطبي (١٤٣/١٩).

(٢) ينظر: الرازي ٥٦/٣١.

(٣) الإملاء ٢٨١/٢.

(٤) الدر المصون ٤٨٠/٦.

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤٣/١٩)، عن الحسن.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤٣/١٩.

وقال ابن الأنباري: الوقف على «كلًا» قبيح، والوقف على «أمره» و «نشره» جيد، فـ «كلًا» على هذا بمعنى حقًا.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّتُونَا وَغَلَآ (٢٩) وَحَدَّائِقَ عُبًّا (٣٠) وَفَكَهَهُ وَأَبَّا (٣١) مَنَّاعًا لَّكُمُ وَلَآئِعِمَكُمُ (٣٢)

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾.

قال ابن الخطيب^(١): اعلم أن عادة الله - تعالى - جارية في القرآن الكريم، كلما ذكر دلائل الأنفس يذكر عقبها دلائل الآفاق، فبدأ - هاهنا - بما يحتاج الإنسان إليه. واعلم أن الثبوت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض، فالسماء كالذكر، والأرض كالأنثى، فيبين نزول الماء من السماء إلى الأرض بقوله: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾.

وقال القرطبي^(٢): لما ذكر تعالى ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسر من رزقه، أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد، وهذا النظر نظر القلب بالفكر، والتدبر.

قال الحسن ومجاهد: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي: إلى مدخله ومخرجه^(٣).

روى الضحاك بن سفيان الكلابي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ضَحَّاكُ، مَا طَعَامُكَ؟» قلت: يا رسول الله، اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ، قال: «ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟» قلت: إلى ما قد علمته، قال: «فَإِنَّ اللَّهَ - تعالى - ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا»^(٤).

وقال أبو الوليد: سألت ابن عمر - رضي الله عنه - عن الرجل يدخل الخلاء، فينظر ما يخرج منه، قال: يأتيه الملك فيقول: انظر ما بخلت به إلى ما صار^(٥).

واعلم أن الطعام الذي يتناوله الإنسان له حالتان:

إحدهما متقدمة، وهي التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود.

(١) الفخر الرازي ٥٦/٣١. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٤٣.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٤٤)، ومثله عن ابن الزبير ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢١)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤٥٢)، والطبراني في «الكبير» (٨/٣٥٩)، من حديث الضحاك بن سفيان الكلابي.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٩١)، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان وقد وثق.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٤٤)، وروي بمعناه عن أبي قلابة ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

والحالة الثانية متأخرة وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان، حتى يحصل الانتفاع بذلك الطعام، فلما كانت الحالة الأولى أظهر للحسن؛ لا جرم اكتفى الله تعالى بذكرها.

قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾.

قرأ الكوفيون: «أَنَا» بفتح الهمزة غير مماله.

والباقون^(١): بالكسر.

والحسين بن علي: بالفتح والإمالة.

فأما القراءة الأولى، ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها بدل من «طعامه»، فيكون في محل جر، واستشكل بعضهم هذا الوجه، ورده بأنه ليس بواضح.

والثاني: أنه بدل اشتمال، بمعنى أن صب الماء سبب في إخراج الطعام، فهو مشتمل عليه بهذا التقدير، وقد نحا مكّي إلى هذا فقال: لأن هذه الأشياء مشتملة على الطعام ومنها يتكون، لأن معنى «إلى طعامه» إلى حدوث طعامه كيف يتأتى، فالاشتمال في هذا إنما هو من الثاني على الأول؛ لأن الاعتبار إنما هو في الأشياء التي يتكون منها الطعام لا في الطعام نفسه.

والوجه الثاني: أنها على تقدير لام العلة، أي: فليُنظر لأنا، ثم حذف الخافض فجرى الخلاف المشهور في محلها.

قال القرطبي^(٢): ف «أنا» في موضع خفضٍ على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى «أنا صَبَبْنَا»، فلا يحسن الوقف على «طعامه» في هذه القراءة.

والوجه الثالث: أنها في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو أنا صَبَبْنَا، وفيه ذلك النظر المتقدم؛ لأن الضمير إن عاد على الطعام، فالطعام ليس هو نفس الصب، وإن عاد على غيره، فهو غير معلوم، وجوابه ما تقدم.

وأما القراءة الثانية: فعلى الاستئناف، تقديرًا لنعمه عليه.

وأما القراءة الثالثة: «أنتي» التي بمعنى: «كَيْفَ»، وفيها معنى التَّعْجُب، فهي على هذه القراءة كلمة واحدة، وعلى غيرها كلمتان.

(١) ينظر: السبعة ٦٧٢، والحجة ٣٧٨/٦، وإعراب القراءات ٤٤٠/٢، وحجة القراءات ٧٥٠، والكشاف ٧٠٤/٤، والبحر المحيط ٤٢١/٨، والدر المصون ٤٨١/٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤٤.

قال القرطبي^(١): فمن أخذ بهذه القراءة، قال: الوقف على «طعامه» تام، ويقال: معنى «أنتى»: أين، إلا أن فيها كناية عن الوجوه، وتأويلها: من أي وجه صببنا؛ قال الكمي: [المنسرح]

٥١٠٩ - أنتى، ومن أين أبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب^(٢)

فصل في المراد بصب الماء

قوله: ﴿سَبَّأَ الْمَاءَ سَبًّا﴾، يعني: الغيث والأمطار، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: بالنبات ﴿فَأَبْتَلْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أي: قمحاً وشعيراً وسلقاً، وسائر ما يحصد ويدخر، وإنما قدم ذلك لأنها كالأصل في الأغذية، «وعنباً» وإنما ذكره بعد الحب؛ لأنه غذاء من وجه، وفاكهة من وجه.

قوله: ﴿وَقَضَّا﴾: القَضْبُ هنا، قال ابن عباس: هو الرطب؛ لأنه يقضب النخل، أي: يقطع، ورجَّحه بعضهم بذكره بعد العنب، وكثيراً ما يقتزمان. وقيل: القت.

قال القتيبي: كذا يسميه أهل «مكة».

وقيل: كل ما يُقَضَّب من البقول لبني آدم.

وقيل: هو الرطبة، والمقاضب: الأرض التي تنبتها.

قال الراغب: والقَضْبُ: كالقضيب، لكن القضيب يستعمل في فروع الشجر، والقَضْبُ يستعمل في البقل، والقَضْبُ: أي بالفتح قطع القَضْب والقضيب، وعنه وَقَضَّبَ أنه كان إذا رأى في ثوب تصلياً قضبه، وسيف قاضب وقضيب، أي: قاطع، فالقضيب - هاهنا - بمعنى: الفاعل، وفي الأول: بمعنى المفعول، وكذا قولهم: ناقة قضيب، لما تركب من بين الإبل ولما ترض، ويقال لكل ما لم يهذب: مقتضب، ومنه اقتضاب الحديث، لما لم يترو فيه.

وقال الخليل: القَضْبُ: أغصان الشجرة يتخذ منها سهام أو قسي.

وقال ابن عباس: إنه الفصفصة، وهو القت الرطب^(٣).

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: الكمي وقصائده الهاشميات ص ١٣٣، وشرح شواهد الألفية ص ٣١٠، وشرح المفصل ٤/ ١٠٩، ١١١، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٤٢، وشرح شافية ابن الحاجب ٢٧/ ٣، والقرطبي ١٤٤/ ١٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٤٩/ ١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢١/ ٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال الخليل: الْقَضْبُ: الفصفصة الرطبة.

وقيل: بالسین، فإذا يبست فهو قَت.

قوله: ﴿وَزَيْتُونًا﴾. وهي: شجرة الزيتون، ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني: النخيل.

قوله: ﴿وَحَدَائِقَ غُلَبًا﴾. جمع «أغلب» و«غلباء» كـ «حُمْر» في: «أحمر، وحُمْراء»،

يقال: حديقة غلباء، أي: غليظة الشجر ملتفة، واغلوب العشب أي: غلظ، وأصله في وصف الرقاب يقال: رجل أغلب، وامرأة غلباء، أي: غليظة الرقبة.

قال عمرو بن معديكرب: [الكامل]

٥١١٠ - يَسْعَى بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ بُزْلُ كُسَيْنٍ مِّنَ الْكُحَيْلِ جِلَالاً^(١)

ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً؛ قال العجاج: [الرجز]

٥١١١ - مَا زِلْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ أَلْوِي صُلْبِي وَالرَّأْسَ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الْأَغْلَبِ^(٢)

والغلبة: القهر؛ أن يُنال وتصيب عليه رقبته، هذا أصله، وحديقة غلباء: ملتفة، وحدائق غلب، وقال ابن عباس: الغلب جمع أغلب، وغلباء، وهي الغلاظ، وعنه أيضاً: الطوال.

وقال قتادة، وابن زيد: الغلب: التخلُّ الكرام^(٣).

وعن ابن زيد أيضاً وعكرمة: عظام الأوساط، والجذوع^(٤).

وقال مجاهد: ملتفة^(٥). وتقدم الكلام على الحقائق في سورة «النمل».

قوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾. الفاكهة: ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، كالتين،

والخوخ، وغيرهما.

قال ابن الخطيب^(٦): وقد استدلل بعضهم بأن الله - تعالى - لمَّا ذكر الفاكهة بعد ذكر

العنب، والزيتون، والنخل، وجب ألا يدخل هذه الأشياء في الفاكهة، وهذا أقرب^(٧) من جهة الظاهر؛ لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

(١) ينظر شعر عمرو بن معديكرب ص ١٤١، والكشاف ٧٠٤/٤، والقرطبي ١٤٤/١٩، والدر المصون ٤٨١/٦.

(٢) ينظر اللسان (بين)، و(صلب)، والقرطبي ١٤٤/١٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٠/١٢)، عن قتادة وابن زيد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٠/١٢)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢١/٦)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) ينظر الفخر الرازي ٥٨/٣١. (٧) في أ: قريب.

وَأَمَّا الْأَبُ: فقليل: الأبُّ للبهائم بمنزلة الفاكهة للناس.
وقيل: هو مطلق المرعى.

قال الشاعر يمدح النبي ﷺ: [الطويل]

٥١١٢ - لَهُ دَعْوَةٌ مَيِّمُونَةٌ رِيحُهَا الصَّبَا بِهَا يُنْبِتُ اللَّهُ الْحَصِيدَةَ وَالْأَبَا^(١)
وقيل: سمي المرعى أباً؛ لأنه يؤبُّ، أي: يؤم ويتجمع، والأبُّ والأمُّ بمعنى؛ قال
الشاعر: [الرمل]

٥١١٣ - جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا وَلَنَا الْأَبُ بِهِ وَالْمُكْرَعُ^(٢)
وَأَبٌ لَكَذَا يَوْبُ أَبَا، وَأَبٌ إِلَى وَطْنِهِ، إِذَا نَزَعَ الشَّيْءُ نَزَوْعاً: تَهِيئاً لِقَصْدِهِ، وهكذا
أَبٌ بِسَيْفِهِ، أَي: تَهِيئاً لِسِلْهِ، وقولهم: «إِبان ذلك» هو فعْلان منه، وهو الشَّيْءُ الْمُتَهَيَّئُ
لفعله ومجيئه، وقيل: الأبُّ: يابس الفاكهة لأنها تؤبُّ للشتاء، أي تعد.
وقيل: الأبُّ ما تأكله البهائم من العُشْبِ.

قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس، وما
يأكله الآدميون، هو: «الحصيد»^(٣).

وعن ابن عباس وابن أبي طلحة: الأبُّ، الثَّمَارُ الرُّطْبَةُ^(٤).

وقال الضحاك: هو التَّيْنُ خَاصَّةً^(٥). وهو محكي عن ابن عباس أيضاً. وقيل: الأبُّ
الفاكهة رطب الثمار ويابسها.

وقال إبراهيم التيمي: سئل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - عن تفسير الفاكهة
والأبِّ، فقال: أَيُّ سَمَاءٍ تَظْلِنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تَقْلَنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ^(٦).

وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، ثم قال: كل
هذا عرفناه فما الأبُّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده، ثم قال: هذا لعمر الله التكليف، وما
عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأبُّ؟

ثم قال: اتَّبِعُوا مَا بَيْنَ لَكُمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَمَا لَا فَدَعُوهُ^(٧).

(١) ينظر القرطبي ١٩/١٤٥، والبحر ٨/٤١٨، والدر المصون ٦/٤٨٢.

(٢) ينظر اللسان (أب)، والكشاف ٤/٧٠٤، والقرطبي ١٩/١٤٥، والبحر المحيط ٤٧١، ومجمع
البيان ١٠/٦٦٧.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٥٢). (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٥٣).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٢)، عن الضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٢) وعزاه إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٥١). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٢٢)، وزاد =

وروي عن النبي ﷺ قال: «خُلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ، وَرُزِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ عَلَى سَبْعٍ»^(١).

وإنما أراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «خُلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ» يعني: «مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ» [الحج: ٥] الآية.

والرزق من سبع، وهو قوله تعالى: «فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبًّا وَعِنًا وَقَضًا وَزَيْتُونًا» إلى قوله «وفاكهة» ثم قال: «وَأَبًا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم، والله أعلم.

قوله: «مَتَّعًا لَكُمْ»: نصب على المصدر المؤكد؛ لأن إنبات هذه الأشياء متاع لجميع الحيوانات، واعلم أنه - تعالى - لما ذكر ما يغتذي به الناس والحيوان، قال جل من قائل: «مَتَّعًا لَكُمْ وَلِأَقْنَمِكُمْ».

قال الفراء: جعلناه منفعة لكم ومتعة لكم ولأنعامكم، وهذا مثل ضربه الله لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دُثُوره كما تقدم بيانه في غير موضع.

قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ» (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴿

قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ»: وهي الصَّيْحَةُ التي تصخُّ الآذان، أي: تصمها لشدة وقعتها.

وقيل: هي مأخوذة من صَخَّ بالحجر أي: صَكَّ به.

وقال الزمخشري^(٢): «صَخَّ لحديثه مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً؛ لأن الناس يصخُّون لها».

وقال ابن العربي: الصاخة: التي تورث الصَّمَمَ، وإنَّها لمسمعة، وهذا من بدیع الفصاحة؛ كقول الشاعر: [البسيط]

٥١١٤ - أَصَمَّنِي سِرُّهُمْ إِثْمًا فُرْقَتِهِمْ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسَرِّ يُوْرُثِ الصَّمَمَا^(٣)
وقال آخر: [الطويل]

= نسبتہ إلى سعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» والخطيب.

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٤٥). (٢) ينظر الكشف ٤/٧٠٥.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/١٤٦، والبحر ٨/٤٢١، والدر المصون ٦/٤٨٢.

٥١١٥ - أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَصَمًّا (١)

وجواب «إذا» محذوف، يدل عليه قوله: «لَكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» والتقدير: فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه.

فصل في تعلق الآية

لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، والإنفاق مما امتن به عليهم.

وقال ابن الخطيب^(٢): لما ذكر تعالى هذه الأشياء، وكان المقصود منها أمور ثلاثة: أولها: الدلائل الدالة على التوحيد.

وثانيها: الدلائل الدالة على القدرة والمعاد.

وثالثها: أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته، وأن يتكبر على عبده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الأغراض، وهو شرح [أحوال الآخرة]^(٣)، فإن الإنسان إذا سمعها خاف، فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل، والإيمان بها، والإعراض عن الكفر، ويدعوه أيضاً إلى ترك التكبر على الناس، وإلى إظهار التواضع فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاعَةُ﴾ يعني: صيحة القيامة، وهي النفخة الأخيرة، تصخ الأسماع أي: تصمها، فلا تسمع إلا ما يدعى به الأحياء.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُصَيَّحَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلَّا الْجَنُّ وَالْإِنْسُ»^(٤).

قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ بدل من «إذا»، ولا يجوز أن يكون «يغنيه» عاملاً في «إذا»، ولا في «يوم»؛ لأنه صفة لـ «شأن» ولا يتقدم معمول الصفة على موصوفها. والعامّة على «يغنيه» من الإغناء.

(١) صدر بيت لأبي تمام الطائي وعجزه:

وأصبح مغنى الحسود بعدك بلفعما

ينظر ديوانه ٣٦١، والبحر ٤٢١/٨، والقرطبي ١٤٦/١٩، والدر المصون ٤٨٢/٦.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٥٨/٣١.

(٣) في أ: أحوال القيامة.

(٤) أخرجه أحمد (٤٨٦/٢)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (١١٣/٣ - ١١٥)، والحاكم (٢٧٨/١ - ٢٧٩)، وابن خزيمة (١٢٠/٣)، رقم (١٧٣٨)، وابن حبان (١٠٢٤ - موارد)، والبيهقي (٣٠٣ - ٣٥١)، من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وابن محيصن^(١) والزهرى، وابن أبي عبله وحميد، وابن السميع: «يعنيه» بفتح الياء والعين المهملة من قولهم: عناني في الأمر، أي: قصدني.

فصل في معنى الآية

قوله: «يَفِرُّ»، أي: يهرب في يوم مجيء الصاخة، «مِنْ أَخِيهِ» أي: من موالاة أخيه، ومكالمته لأنه مشغول بنفسه، لقوله بعده: ﴿لِكُلِّ آتٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أي: يشغله عن غيره.

وقيل: إنَّما يفرّ حذراً من مطالبتهم إياه بالتبعات، يقول الأخ: ما واسيتني بمالك، والأبوان يقولان: قصرت في برنا، والصاحبة تقول: أطعمتني الحرام، والبنون يقولون: ما علمتنا.

وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾ [الدخان: ٤١].

وقال عبد الله بن طاهر: يفرّ منهم لما تبين له عجزهم، وقلة حيلتهم.

وذكر الضحاك عن ابن عباس، قال: يفر قابيل من أخيه هابيل، ويفر النبي من أمه، ويفر إبراهيم من أبيه، ونوح من ابنه، ولوط من امرأته، وأدم من سوء بنيته^(٢).

قال ابن الخطيب^(٣): المراد: أن الذين كان المرء يفرّ إليهم في دار الدنيا، ويستجير بهم، فإنه يفرّ منهم في دار الآخرة، وذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ»، بل من أبويه، فإنهما أقرب من الأخوين، بل من الصاحبة والولد؛ لأنّ تعلق القلب بهما أشدّ من تعلقه بالأبوين. ثم لما ذكر الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى: ﴿لِكُلِّ آتٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

قال ابن قتيبة: «يعنيه» أي: يصرفه عن قرابته، ومنه يقال: أغنى عني وجهك، أي: اصرفه.

وقال أهل المعاني: إنّ ذلك الهم الذي حصل له قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع لهم آخر، فصار شبيهاً بالغني في أنه ملك شيئاً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾. لما ذكر تعالى حال يوم القيامة في الهول بين أن المكلفين فيه على قسمين: سعداء، وأشقياء، فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي: مضيئة مشرقة، وقد علمت ما لها من الفوز، والنعيم، من أسفر الصبح: إذا أضاء، وهي وجوه المؤمنين «ضاحكة» أي: مسرورة فرحة.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٤٢١، والدر المنصور ٦/ ٤٨٢.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٦). (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٥٩.

قال الكلبي : يعني بالفراغ من الحساب^(١) ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي : بما آتاها الله تعالى من الكرامة .
وقال عطاء الخراساني : «مسفرة» من طول ما اغبرت في سبيل الله .
وقال الضحاك : من آثار الوضوء^(٢) .
وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : من قيام الليل^(٣) ، لقوله عليه الصلاة والسلام :
«مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ»^(٤) .
قوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلْتَا غَبَرَةً﴾ .

قال المبرد : «الغبرة» الغبار ، والقترة : سواد كاللدخان .

وقال أبو عبيدة : القتر في كلام العرب : الغبار ، جمع القتره ؛ قال الفرزدق :
[البسيط]

٥١١٦ - مُتَوَجِّجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتَّبِعُهُ مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّايَاتِ وَالْقَتَرَا^(٥)
وفي عطفه على الغبرة ما يرد هذا إلا أن يقال : اختلف اللفظ فحسن العطف ،
كقوله : [الوافر]

٥١١٧ - كَذِبًا وَمَيْنًا^(٦)
وقوله : [الطويل]

٥١١٨ - التَّائِي وَالْبُغْدُ^(٧)
وهو خلاف الأصل ، وفي الحديث : «إِنَّ الْبَهَائِمَ إِذَا صَارَتْ تُرَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَوْلَ
ذَلِكَ التُّرَابِ فِي وُجُوهِ الْكُفَّارِ»^(٨) .
وقال زيد بن أسلم : القتره : ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى
الأرض ، والغبار والغبرة واحد^(٩) .

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٤٦/١٩) . (٢) ينظر المصدر السابق .

(٣) ينظر المصدر السابق .

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣) ، وابن عدي في «الكامل» (٥٢٦/٢) ، والعقيلي في «الضعفاء» (١/١٧٦) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٤١/١) ، وابن حبان في «المجروحين» (٢٠٧/١) ، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢) ، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٠٩/٢ - ١١١) .

وقال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٤٣٣/١) : هذا حديث ضعيف ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من عدة طرق وضعفها كلها وقال هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ .

(٥) تقدم . (٦) تقدم .

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٤٧/١٩) .

(٨) تقدم .

(٩) ينظر المصدر السابق .

قال ابن عباس: «تَرْهَقُهَا» أي: تغشاها، «قَتْرَةٌ» أي: كسوفٌ وسوادٌ^(١).
وعنه - أيضاً - : ذَلَّةٌ وشِدَّةٌ^(٢).

وقيل: تَرْهَقُهَا، أي: تدركها عن قُرب، كقولك: رَهَقْتُه الخيل إذا أدركته مسرعة، والرَّهَقُ: عجلة الهلاك، والقَتْرَةُ: سواد كالِدُخَان، ولا يرى أوحشٌ من اجتماع الغبار والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا غبرت، فجمع الله - تعالى - في وجوههم بين السواد، والغبرة، كما جمعوا بين الكفر، والفجور، والله أعلم.

والعامية: على فتح التاء في «قَتْرَةٌ»، وأسكنها^(٣) ابن أبي عبلة.

قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ﴾: جمع كافر، «الْفَجْرَةُ»: جمع فاجر، وهو الكاذب المُفْتَرِي على الله تعالى.

وقيل: الْفَاسِقُ، يقال: فَجَرَ فُجُوراً، أي: فسقَ، وفَجَرَ: أي: كذبَ. وأصله الميل، والفاجر المائل.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ ضَاخِكٌ مُسْتَبْشِرٌ»^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٥٤).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٢١٠).

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/٤٢١، والدر المصون ٦/٤٨٣.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة التكويد

مكيّة، وهي تسع وعشرون آية، ومائة وأربع كلمات، وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٦) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧) ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُلِّتْ﴾ (٨) ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (١٢) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ (١٣) عَلِمْتَ نَفْسُ مَا أَحْضَرْتَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: في ارتفاع الشمس وجهان:

أصحهما: أنها مرفوعة بفعل مقدر مبني للمفعول، حذف وفسّره ما بعده على الاشتغال، والرفع على هذا الوجه، أعني: إضمار الفعل واجب عند البصريين؛ لأنهم لا يجيزون أن يليها غيره، ويتأولون ما أوهم خلاف ذلك.

والثاني: أنها مرفوعة بالابتداء، وهو قول الكوفيين، والأخفش، لظواهر جاءت في الشعر، وانتصر له ابن مالك.

قال الزمخشري^(١): ارتفاع «الشمس» على الابتداء، أو الفاعلية؟.

قلت: بل على الفاعلية ثم ذكر نحو ما تقدم، ويعني بالفاعلية: ارتفاعها بفعل الجملة، وقد مرّ أنّه يسمي مفعول ما لم يسم فاعله فاعلاً، وارتفاع «النجوم» وما بعدها، كما تقدّم في «الشمس».

فصل في تفسير معنى التكويد

قد تقدّم تفسير التكويد في أول «تنزيل».

(١) ينظر: الكشاف ٧٠٧/٤.

قيل: التَّلْفِيفُ على جهة الاستدارة، كتكوير العمامة.

وفي الحديث: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخَوَرِ بَعْدَ الْكُورِ»، أي: من التشتت بعد الألفة.

وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها.

وَالْخَوَرُ: بالحاء المهملة والراء؛ الطُّيُّ وَاللَّفُّ، والكورُ والتَّكْوِيرُ واحدٌ.

وسميت كَارَةً القصار: كارة؛ لأنه يجمع ثيابه في ثوب واحد.

ثم إن الشيء الذي يَلْفٌ يصير مختلفياً عن الأعين، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس، وغيبويتها عن الأعين بـ «التكوير».

فلهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكويرها: إدخالها في العرش^(١).

وقال الحسن: ذهاب ضوئها^(٢)، وهو قول مجاهد وقتادة.

وروي عن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جبير: غورت^(٣).

وقال الربيع بن خيثم: «كُورَتْ»: رمي بها.

ومنه كورته فتكور: أي: سقط.

قال الأصمعي: يقال: طعنه فكوره وحوره أي: صرعه.

فمعنى «كورت»: أي: ألقيت ورميت عن الفلك.

وعن أبي صالح: «كورت» نكست.

وقال ابن الخطيب^(٤): وروي عن عمر^(٥) - رضي الله عنه - أن لفظة «كُورَتْ» مأخوذة من الفارسية، فإنه يقال للأعمى: كور^(٦).

قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾. أي: تناثرت وتساقطت.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

والأصل في الانكدار: الانصباب.

قال الخليل: انكدر عليهم القول إذا جاءوا أرسالاً، وانصبوا عليهم.

وقال أبو عبيدة: انصب كما ينصب العقاب إذا كسرت؛ قال العجاج يصف صقراً:

[الرجز]

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤٨/١٩) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٧/١٢) عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٥/٦) وعزاه إلى ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وذكره أيضاً عن سعيد بن جبير وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٦١/٣١. (٥) في أ: ابن عمر.

(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٦١/٣١) عن عمر.

٥١١٩ - أَبْصَرَ خِرْبَانٌ فَضَاءً فَاثْكَدَرُ تَقْضَى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ^(١)

روى ابن عباس - رضي الله عنهما - : قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَبْقَى فِي السَّمَاءِ يَوْمٌ يُؤْمَدُ نَجْمٌ إِلَّا سَقَطَ فِي الْأَرْضِ»^(٢).

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور بأيدي الملائكة، فإذا مات من في السموات، ومن في الأرض تساقطت تلك الكواكب من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها^(٣).

قال القرطبي^(٤): «ويحتمل أن يكون «انكدارها»: طمس آثارها، وسميت النجوم نجومًا لظهورها في السماء بضوئها.

وعن ابن عباس - أيضاً - : «انْكَدَرَتْ»: تَغَيَّرَتْ، فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها^(٥)، والمعنى متقارب.

قوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، يعني: قطعت عن وجه الأرض وسيرت في الهواء، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسْأَرُ الْجِبَالُ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠] في الهواء، لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقيل: سيرها أن تحوّل عن صفة الجبال للحجارة، فتكون كشيء مهيلًا، أي: رملًا سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباءً منبثًا، وتكون مثل السراب الذي ليس بشيء، وعادت الأرض قاعًا صفصفاً، ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾. العشار: جمع عشاء، وهي: الناقة التي مر لحملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع في تمام السنة وكذلك يقال في جمع نفساء.

قال القرطبي^(٦): وهو اسمها بعد ما تضع أيضاً، ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم، وإن كان قد جاوز ذلك، يقول الرجل لفرسه وقد قرح: قربوا مهري يسميه بمتقدم اسمه، وإنما خصّ العشار بالذكر؛ لأنها أعز ما يكون عند العرب، وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عشاء، أو المعنى: أن يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشاء لعطلها، واشتغل بنفسه، يقال: ناقة عشاء، وناقتان عشراوتان، ونوق عشار وعشراوات، بيدلون من همزة التأنيث واوًا.

(٢) تقدم.

(١) تقدم.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤٩/١٩) من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤٩/١٩). (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٨/١٢).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤٩/١٩.

وقد عثرت الناقة تعشيراً: أي: صارت عشاء.

وقيل: «العِشَارُ»: السحاب، و «عطلت»: أي: لا تمطر.

والعرب تشبه السحاب بالحامل، قال تعالى: ﴿فَالْحَمِيلَتِ وَقَرًا﴾ [الذاريات: ٢].

وقيل: الأرض تعطل زرعها.

والتعطيل: الإهمال، ومنه قيل للمرأة: عاطل إذا لم يكن عليها حلي. وتقدم في

«بشر معطلة»^(١).

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٢٠ - وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصنهُ ولا بمعطّل^(٢)

وقرأ ابن كثير^(٣) في رواية: «عُطِلْتُ» بتخفيف الطاء.

قال الرازي: هو غلط، إنما هو بفتحتين، بمعنى: «تعطّلت»؛ لأن التشديد فيه

للتعدي، يقال: عطلت الشيء، وأعطله فعطل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، الوحوش: ما لم يتأنس به من حيوان البر،

والوحش أيضاً: المكان الذي لا أنس فيه، ومنه: لقيته بوحش أي: ببلد قفر، والوحش:

الذي يبيت وجوفه خالياً من طعام، وجمعه: أوحاش، وسُمي به المنسوب إلى المكان

الوحشي: وحشي، وعبر بالوحشي عن الجانب الذي يضاد الإنسي، والإنسي: ما يقبل

من الإنسان وعلى هذا وحشي الفرس وإنسيه.

وقوله تعالى: ﴿حُشِرَتْ﴾. أي: جمعت، والحشر: الجمع قاله الحسن وقتادة وغيرهما^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حشرها موتها، رواه عكرمة^(٥)، وحشر كل

شيء: الموت لغير الجن والإنس، فإنهما يوافيان يوم القيامة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: يحشر كل شيء حتى الذباب^(٦).

وعن ابن عباس - أيضاً -: يحشر الوحوش غداً، أي: تُجمع، حتى يقتصر لبعضها

من بعض، فيقتصر للجماء من القرناء ثم يقال لها: كوني تراباً فتموت^(٧).

(١) سورة الحج آية ٤٥.

(٢) ينظر: ديوانه ص ١٦، والمعلقات العشر للزوزني ٢٥، والبحر ٤٢٤/٨، والمحذر الوجيز ١/٤٧٩، والدر المصون ٤٨٨/٦.

(٣) ينظر: إعراب القراءات ٤٤٣/٢، والبحر المحيط ٤٢٣/٨، والدر المصون ٤٨٥/٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٠/١٢) عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٥٩/١٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٧/٦) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) تقدم في سورة النبأ.

وقرأ الحسن^(١) وابن ميمون: «حُشِرَتْ» بتشديد الشين.

ومعنى الآية: أي: أن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف بني آدم؟.

وقيل: أي: أنها مع نفرتها اليوم من الناس، وتبدها في الصحاري، تنضم غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم؛ قاله أبي بن كعب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْيَحَاؤُ سُجِرَتْ﴾.

قرأ ابن كثير^(٢) وأبو عمرو: «سُجِرَتْ» بتخفيف الجيم.

والباقون: بثقلها على المبالغة والتنكير.

والمعنى: ملئت من الماء، والعرب تقول: سجرْتُ الحوضَ أسجره سجراً إذا

ملأته، وهو مسجورٌ، والمسجورُ والسَّاجِرُ في اللغة: المَلآن.

وروى الربيع بن خيثم: «سُجِرَتْ»: فاضت وملئت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْيَحَاؤُ فُجِرَتْ﴾

[الانفطار: ٣].

وقال الحسن: اختلطت وصارت شيئاً واحداً^(٣).

وقيل: أرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها حتى امتلأت.

وقال القشيري: يرفع الله الحاجز الذي ذكره - تعالى - في قوله: ﴿يَنْهَيَا بَرَزَخٌ لَا

يَنْفِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت الأرض كلها، وصارت بحراً واحداً.

وعن الحسن وقتادة وابن حيان: تيسس، فلا يبقى من مائها قطرة^(٤).

قال القشيري: وهو من سجرْتُ التنور أسجره سجراً: إذا أحميته، وإذا سلط عليه

الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة، وتقدم اشتقاق هذه المادة.

قال القفال^(٥): وهذا التأويل يحتمل وجوهاً:

الأول: أن تكون جهنم في قعر البحار، فهي الآن غير مسجرة بقوام الدنيا، فإذا

انتهت مدة الدنيا أوصل الله تعالى تأثير تلك النيران إلى البحار، فصارت مسجورة

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٤١، والبحر المحيط ٨/ ٤٢٤، والدر المصون ٦/ ٤٨٥.

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٣، والحجة ٦/ ٣٧٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤٢٤، وحجة القراءات ٧٥٠.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦١) عن قتادة والحسن.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧) عن الحسن والضحاك وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ٦٣.

بالكلية، وهذا قول ابن زيد، وعطية، وسفيان، وهب، وأبي، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس في رواية، والضحاك - رضي الله عنهم - أوقدت فصارت ناراً.

الثاني: قال ابن عباس: يُكوّر الله تعالى الشمس، والقمر، والنجوم في البحار، فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك يبعث الله - تعالى - [لها] ^(١) ريحاً دبوراً، فتفتخه حتى تصير ناراً، كذا جاء في الحديث ^(٢).

الثالث: أن يخلق الله - تعالى - تحت البحار نيراناً عظيمة حتى تسجر تلك المياه.

قال ابن الخطيب ^(٣): وهذه وجوه متكلفة، ولا حاجة إلى شيء منها؛ لأن القادر على تخريب الدنيا يقدر على أن يفعل في البحار ما شاء من تسجير مياهها، ومن قلب مياهها ناراً ^(٤) من غير حاجة إلى أن يلقي فيها الشمس والقمر، أو يكون تحتها نار جهنم. قال القرطبي ^(٥): وروي عن ابن عمرو - رضي الله عنه -: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم ^(٦).

وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فتحيروا ودهشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم، وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت، واضطربت، واحترقت، فصارت هباءً منبثاً، ففزعت الجن إلى الإنس، وفزعت الإنس إلى الجن، واختلط الدواب، والوحش، والهوام والطيور، وماج بعضها في بعض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، ثم قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح، فأماتهم ^(٧).

وقال ابن الخطيب ^(٨): وهذه العلامات يمكن أن تكون عند خراب الدنيا، وأن تكون بعد القيامة.

وقيل: معنى «سُجِّرَتْ» يحمر ماؤها حتى يصير كالدم، من قولهم: «عَيْنُ سَجْرَاءٍ» أي: حمراء.

(١) سقط من أ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٠/٦) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «الأهوال» وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٦٣/٣١. (٤) في أ: نيراناً.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥١/١٩. (٦) ينظر: تفسير القرطبي (١٥١/١٩).

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر: الفخر الرازي ٦٣/٣١.

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ .

العامّة : على تشديد «الواو» من «زُوِّجَتْ» من التزويج .

وروي عن عاصم^(١) : «زُوِّجَتْ» على وزن «فُعِلَتْ» .

قال أبو حيان^(٢) : «والمُفَاعَلَةُ» تكون من اثنين .

قال شهاب الدين^(٣) : وهي قراءة مشكّلة ؛ لأنّه لا ينبغي أن يلفظ بواو ساكنة ، ثم أخرى مكسورة ، وقد تقدم أنه متى اجتمع مثلاً ، وسكن أولهما وجب الإدغام حتى في كلمتين ، ففي كلمة واحدة أولى .

فصل في المراد بالآية

قال الثّعمان بن بشير : قال النبي ﷺ : «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» قال : «يُفَرَّقُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ كَعْمَلِهِ»^(٤) .

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : يقرن الفاجر مع الفاجر ، ويقرن الصالح مع الصالح^(٥) .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة : السّابقون زوج يعني صنفًا ، وأصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشّمال زوج^(٦) .

وعنه أيضاً قال : زوجت نفوس المؤمنين بالحوار العين ، وقرن الكفار والمنافقون بالشّياطين^(٧) .

وقال الزجاج : قرنت النفوس بأعمالها .

وقيل : قرنت الأرواح بالأجساد أي : وقت ردت إليها قاله عكرمة .

(١) ينظر : المحرر الوجيز ٤٤٢/٥ ، والبحر المحيط ٤٢٤/٨ ، والدر المصون ٤٨٥/٦ .

(٢) البحر المحيط ٤٢٤/٨ .

(٣) ينظر : الدر المصون ٤٨٥/٦ .

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٧/٦) وعزاه إلى ابن مردويه .

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٢/١٢) والحاكم (٥١٥/٢ - ٥١٦) عن الثّعمان بن بشير عن عمر ابن الخطاب .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٧/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث» وأبي نعيم في «الحلية» .

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥١/١٩) .

(٧) ينظر : المصدر السابق .

وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ .

الموءودة : هي البنت تدفن حية من الواد ، وهو الثقل ، لأنها تثقل بالتراب والجنبدل .

يقال : وأد يئد ، كـ «وعد» «يعد» .

وقال الزمخشري^(١) : «وأد يئد» ، مقلوب من «آد يئود» إذا أثقل ، قال الله تعالى :

﴿وَلَا يَتُودُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] ؛ لأنه إثقال بالتراب .

قال أبو حيان^(٢) : ولا يدعى ذلك ؛ لأن كلا منهما كامل التصرف في الماضي ،

والأمر ، والمضارع والمصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول ، وليس فيه شيء من مسوغات إدغام القلب ، والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة ، والآخر ليس كذلك ، أو أكثر استعمالاً من الآخر ، وهذا على ما قرره في أحكام علم التصريف .

فالأول : كـ «يئس وأيس» .

والثاني : كـ «طأمن واطمأن» .

والثالث : كـ «شوائع وشواعي» .

والرابع : كـ «لعمري ، ورعملي» .

قرأ العامة : «الموءودة» بهمزة بين واوين ساكتين ، كالموءودة .

وقرأ البزي^(٣) في رواية بهمزة مضمومة ، ثم واو ساكنة . وفيه وجهان :

أحدهما : أن تكون كقراءة الجماعة ، ثم نقل حركة الهمزة إلى «الواو» قبلها ،

وحذفت الهمزة فصار اللفظ : «الموودة» بواو مضمومة ، ثم أخرى ساكنة ، فقلبت «الواو» المضمومة همزة ، نحو «أجوه» في «وَجْوه» فصار اللفظ كما ترى ، ووزنها الآن «مفعولة» ؛ لأن المحذوف «عين» .

والثاني : أن تكون الجملة اسم مفعول من «آده يئوده» مثل «قاده يئوده» ، والأصل :

«مأوودة» ، مثل : «مقوودة» ، ثم حذف إحدى الواوين على الخلاف المشهور في الحذف من نحو : «مقول» و«مضون» ، فوزنها الآن إما «مفعلة» ، إن قلنا : إن المحذوف الواو الزائدة ، وإما «مفعولة» إن قلنا : إن المحذوف عين الكلمة ، وهذا يظهر فضل علم التصريف . وقرأ الموودة - بضم الواو الأولى - على أنه نقل حركة الهمزة بعد حذفها ، ولم يقلب الواو همزة .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٤٢٤ .

(١) الكشف ٤ / ٧٠٨ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ٨ / ٤٢٤ ، والدر المصون ٦ / ٤٨٥ .

وقرأ الأعمش^(١) : «المودة» ، [يسكون الواو]^(٢) ، وتوجيهه : أنه حذف الهمزة اعتباطاً ، فالتقى ساكنان ، فحذف ثانيهما ، ووزنها «المُفْلَة» : لأن الهمزة عين الكلمة ، وقد حذفت .
وقال مكى : بل هو تخفيف قياسى ، وذلك أنه نقل حركة «الهمزة» إلى «الواو» لم يهزها ، فاستثقل الضمة عليها فسكّنها ، فالتقى ساكنان ، فحذف الثانى .
وهذا كله خروج عن الظاهر .

وإنما يظهر فى ذلك ما نقله الفراء من أن حمزة وقف عليها كالموزة .
قالوا : لأجل الخط لأنها رسمت كذلك ، والرسم سُنّة متبعة .
والعامة على : «سُئِلْتُ» مبنياً للمفعول ، مضموم السين .
والحسن^(٣) : يكسرهما من سال يسال .
وقرأ أبو جعفر^(٤) : «قُتِلْتُ» - بتشديد التاء - على التكثير ؛ لأن المراد اسم الجنس ، فناسبه التكثير .

وقرأ عليّ وابن مسعود وابن عباس^(٥) - رضى الله عنهم - «سَأَلْتُ» مبنياً للفاعل ، «قُتِلْتُ» بضم التاء الأخيرة والتي للمتكلم ، حكاية لكلامها .
وعن أبيّ وابن مسعود - أيضاً - وابن يعمر^(٦) : «سَأَلْتُ» مبنياً للفاعل ، «قُتِلْتُ» بتاء التأنيث الساكنة ، كقراءة العامة .

فصل فى وأد أهل الجاهلية لبناتهم

كانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين :
إحدهما : كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، فالحقوا البنات به ؛ تبارك وتعالى عن ذلك .

والثانية : مخافة الحاجة والإملاق ، وإمّا خوفاً من السّبي والاسترقاق .
قال ابن عباس : كانت المرأة فى الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة ، وتمخّضت على رأسها فإن ولدت جارية رمت بها فى الحفرة ، وردّت التراب عليها ، وإن ولدت غلاماً حبسته^(٧) ، ومنه قول الراجز : [الرجز]

(١) ينظر : المحرر الوجيز ٥/٤٤٢ ، والبحر المحيط ٨/٤٢٤ ، والدر المصون ٦/٤٨٦ .

(٢) فى أ بزة الموزة .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز ٥/٤٤٢ ، والبحر المحيط ٨/٤٢٥ ، والدر المصون ٦/٤٨٦ .

(٤) ينظر : السابق . (٥) ينظر : السابق .

(٦) ينظر : البحر المحيط ٨/٤٢٥ ، والدر المصون ٦/٤٨٦ .

(٧) ينظر : القرطبي (١٩/١٥١) .

٥١٢١ - سَمَّيْتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ زَمَيْتُ^(١)

وقيل : كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد إبقاء حياتها ألبسها جبّة من صوف ، أو شعر ، ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول لأمتها : طيبيها ، وزينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها [وقد حفر لها بئراً في الصحراء]^(٢) ، فيذهب بها إلى البئر ، فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .

وكان صعصعة بن ناجية ممن يمنع الوأد ؛ فافتخر الفرزدق به في قوله : [المتقارب]

٥١٢٢ - وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ وَأَخِيَا الْوَيْدَ فَلَمْ يُوَادَّ^(٣)

فصل

رَوِيَ أَنَّ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنِّي وَأَدْتُ ثَمَانِي بَنَاتٍ كُنَّ لِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَاعْتِقِي عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً» ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي صَاحِبُ إِبِلٍ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : «فَاهْدِي عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً إِنْ شِئْتَ»^(٤) .

واعلم أَنَّ سَوَالَ الْمَوءودة سَوَالَ تَوْبِيخٍ لِقَاتِلِهَا ، كَمَا يَقَالُ لِلطِّفْلِ إِذَا ضُرِبَ : لِمَ ضُرِبْتَ ، وَمَا ذَنْبُكَ ؟ .

قَالَ الْحَسَنُ : أَرَادَ اللَّهُ تَوْبِيخَ قَاتِلِهَا ؛ لِأَنَّهَا قَتَلَتْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ^(٥) .

وَقَالَ ابْنُ أَسْلَمَ : بِأَيِّ ذَنْبٍ ضُرِبْتَ ، وَكَانُوا يَضْرِبُونَهَا^(٦) .

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿سُئِلَتْ﴾ مَعْنَاهُ : طُلِبَتْ ، كَأَنَّهُ يَرِيدُ كَمَا يَطْلُبُ بَدَمَ الْقَتِيلِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب : ١٥] أَي : مَطْلُوبًا ، فَكَأَنَّهَا طُلِبَتْ مِنْهُمْ ، فَقِيلَ : أَيْنَ أَوْلَادُكُمْ ؟ .

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «إِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَقْتُلُ وَلَدَهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقٌ وَلَدُهَا بِثَدْيَيْهَا ، مُلْطَخًا بِدَمَائِهِ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، هَذِهِ أُمِّي ، [وهذه]^(٧) قَتَلْتَنِي»^(٨) .

(١) ينظر : اللسان (زمت) ، ومجمع البيان ٦٧٤/١٠ ، والقرطبي ١٥٢/١٩ .

(٢) سقط من : ب .

(٣) ينظر ديوان الفرزدق ١٧٣/١ ، واللسان (وَأَد) والكشاف ٧٠٨/٤ ، ومجمع البيان ٦٧٢/١٠ ، والقرطبي ١٥٢/١٩ ، والبحر ٤٢٥/٨ .

(٤) تقدم تخريجه . (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٢/١٩) .

(٦) ينظر : المصدر السابق . (٧) سقط من : أ .

(٨) ينظر : تفسير القرطبي (١٥٢/١٩) .

والأول قول الجمهور، كقوله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِنْهَينَ﴾ [المائدة: ١١٦]، على جهة التوبيخ، والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموءودة: توبيخ لوائدها وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، أي: فبأي ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها كان أعظم في البيئة وظهور الحجة على قاتلها، وفي الآية دليل على أن أطفال المشركين لا يُعذبون، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

قرأ الأخوان^(١) وابن كثير وأبو عمرو: بالثقل، على تكرار النشر للمبالغة في تقرير العاصي، وتبشير المطيع.

وقيل: لتكرير ذلك من الإنسان.

والباقون: بالتخفيف. ونافع وحفص وابن ذكوان «سُعُرَتْ» بالثقل، والباقيون بالتخفيف.

قوله: ﴿نُشِرَتْ﴾، أي: فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد: صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير أو شر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾، أي: فُشِرَتْ، من قولهم: كشط جلد الشاة، أي: سلخها. وقرأ عبد الله «كشطت» - بالقاف - وقد تقدم أنهما متعاقبان كثيراً، وأنه قرئ: وقافوراً [وكافوراً]^(٢) في ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١]. [يقال: لبكت الشريد ولبقته]^(٣).

قال القرطبي^(٤): «يقال: كَشَطْتُ البعير كَشَطًا، نزعت جلده، ولا يقال: سلخته، لأن العرب لا تقول في البعير إلا كسطته أو جلده»، والمعنى: أزيلت عما فوقها.

قال الفراء: طويت.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾، أي: أوقدت، فأضرمت للكفار، وزيد في إحماها يقال: سعت النار وأسعرتها.

قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى اسودت فهي مظلمة»^(٥).

(١) ينظر: السبعة ٦٧٣، والحجة ٦/٣٧٩ - ٣٨٠، وإعراب القراءات ٢/٤٤٥، وحجة القراءات ٧٥١.

(٢) سقط من: ب. (٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٥٣.

(٥) أخرجه الترمذي (٣/٣٤٦) وابن ماجه (٢/٥٨٧) من حديث أبي هريرة.

احتج بهذه الآية من قال: إن النار مخلوقة الآن؛ لأنه يدل على أن سعيها معلق بيوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾، أي: أدنيت وقربت من المتقين.

قال الحسن - رضي الله عنه - [إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها.

وقال عبد الله بن زيد^(١): زُيِّنَتْ، والزُّلْفَى في كلام العرب: القُرْبَة.

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾، هذا جواب «إذا» أول السورة وما عطف عليها، والمعنى: ما عملت من خير وشر.

وروي عن ابن عباس وعمر - رضي الله عنهما - أنهما قرآها، فلما بلغا «علمت نفس ما أحضرت» قالوا: لهذا أجريت القصّة.

قال ابن الخطيب: ومعلوم أن العمل لا يمكن إحضاره، فالمراد: إذا ما أحضرته في صحائفها، أو ما أحضرته عند المحاسبة، وعند الميزان من آثار تلك الأعمال، أو المراد: ما أحضرت من استحقاق الجنة والنار، فإن كل نفس تعلم ما أحضرت، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرٌ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والتنكير في قوله: «نَفْسٌ» من عكس كلامهم الذي يقصدون به المبالغة، وإن كان اللفظ موضوعاً للتقليل، لقوله تعالى: ﴿زُبَيْمًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢]، أو يكون المراد: أن الكفار كانوا يتعبدون أنفسهم فيما يظنون طاعة، ثم يظهر لهم في القيامة خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُفِ (١٦) وَأَيُّلَ إِذَا عَسَّسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٨) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)

قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ﴾، أي: «أقسم»، و «لا» زائدة، كما تقدم.

«وَالْخُنُفِ»: جمع خنفس، والخنوس: الانقباض، يقال: خنس بين القوم، وانخنس.

وفي الحديث: «فانخنست»، أي: استخفيت. يقال: خنس عنه يخنس - بالضم - خنوساً.

والخنس: تأخر الأنف عن الشفة مع ارتفاع الأرنبة قليلاً.
ويقال: رجلٌ أخنس، وامرأةٌ خنساء، ومنه: الخنساء الشاعرة.
والخنس في القرآن، قيل: الكواكب السبعة السيارة القمران، وزحل، والمشتري والمريخ، والزهرة، وعطارد؛ لأنها تخنس في المغيب أو لأنها تختفي نهاراً.
وعن علي رضي الله عنه: هي زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد^(١).
وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان:
أحدهما: لأنها تستقبل الشمس، قاله بكر بن عبد الله المزني^(٢).
الثاني: تقطع المجرة، قاله ابن عباس^(٣).
وقيل: خُنُوسُها: رجوعها، وكُنُوسُها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس.
قال ابن الخطيب^(٤): الأظهر أن ذلك إشارة إلى رجوعها واستقامتها.
وقال الحسن وقتادة: هي النجوم كلها؛ لأنها تخنس بالنهار إذا غربت، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها، أي: تتأخر عن البصر لخفائها، وتكنس أي: تستتر، كما تكنس الظباء في المغارة، وهي الكناس، والكنس: الداخلة في الكناس، وهي بيت الوحش، والجواري: جمع جارية^(٥).
وعن ابن مسعود: هي بقر الوحش؛ لأن هذه صفتها^(٦).
وروي عن عكرمة قال: الخُنس: البقر، والكنس: هي الظباء، فهي خنس إذا رآين الإنسان خَنَسَنَ، وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن^(٧).

-
- (١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٨/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم من طريق الأصمغ بن نباتة عن علي.
 - (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٤/١٩) وأخرجه الطبري (٤٦٧/١٢).
 - (٣) ينظر: المصدر السابق.
 - (٤) ينظر: الفخر الرازي ٦٥/٣١.
 - (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٧/١٢) عن الحسن.
 - (٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٨/١٢) والحاكم (٥١٦/٢) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٣٧/٧) عن ابن مسعود.
 - وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
 - وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال صحيح.
 - وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٩/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن سعد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر من طرق عن عبد الله بن مسعود.
 - (٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٦٨/١٢ - ٤٦٩) عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.
 - وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٢٩/٦) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

قال القرطبي^(١): «والْخُنُسُ» على هذا: من الخنس في الأنف، وهو تأخير الأرنبة، وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس، والقول الأول أظهر لذكر الليل والصبح بعده. وحكي الماوردي: أنها الملائكة، والْخُنُسُ: الغيب، مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي يختفي^(٢) فيه، والْخُنُسُ: جمع كانس وكانسة. قوله تعالى: ﴿وَأَكْلِلْ إِذَا عَسَّسَ﴾. يقال: عَسَّسَ وَسَعَّسَ، أي: أقبل. قال العجاج: [الرجز]

٥١٢٣ - حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَّسَا^(٣)
أي: أدبر.

قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى «عسس»: أدبر حكاه الجوهرى. وقيل: دنا من أوله وأظلم، وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. وقيل: «أدبر» من لغة قريش خاصة. وقيل: أقبل ظلامه، ورجحه مقابلته بقوله تعالى ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهذا قريب من إدباره.

وقيل: هو لهما على طريق الاشتراك. قال الخليل وغيره: عسس الليل: إذا أقبل، أو أدبر. قال المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره. قال الماوردي: وأصل العس: الامتلاء.

ومنه قيل للقدح الكبير: عس، لامتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه، وأطلق على إدباره لانتهاه امتلائه، فعلى هذا يكون القسم بإقبال الليل وإدباره، وهو قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ لا يكون فيه تكرار. وعَسَّسَ: اسم موضع بالبادية، وأيضاً: هو اسم رجل. ويقال للذئب: العَسَّسُ والعَسَّاس؛ لأنه يعس في الليل ويطلب.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٥٥. (٢) في: ب يجتمع.

(٣) رواية البيت الثاني كما في الديوان:

وَأَعْسَفَ اللَّيْلُ إِذَا اللَّيْلُ غَسَا

ينظر ديوان العجاج ١٢٩، ومجاز القرآن ٢/٢٨٨، والطبري ٣٠/٥٠، ومجمع البيان ١٠/٦٧٦، والكشاف ٤/٧١١، والقرطبي ١٩/١٥٥، والبحر ٨/٤٢٢ وقد نسب البيتان إلى علقمة بن قرط.

ويقال للقنافذ: العساعس، لكثرة تردها بالليل، والتَّعَسُّسُ: الشم، والتَّعَسُّسُ - أيضاً -: طلب الصيد.

قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾، أي: امتد حتى يصير نهاراً واضحاً.

يقال للنهار إذا زاد: تنفس، ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف.

وفي كيفية المجاز قولان:

الأول: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز، فقل: تنفس الصبح.

الثاني: أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي خنس بحيث لا يتحرك، فإذا تنفس وجد راحة، فها هنا لما طلع الصبح، فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبّر عنه بالتنفس.

وقيل: ﴿إِذَا نَفَسَ﴾ أي إذا انشق وانفلق، ومنه تَنَفَّسَتِ القوسُ: أي: تصدعت. [وهذا آخر القسم]^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. قال الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ: الرسول الكريم: جبريل^(٢).

والمعنى: إنه لقول رسول كريم من الله كريم على الله، وأضاف الكلام إلى جبريل، ثم عزاه عنه فقال: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، ليعلم أهل التحقيق في التصديق أن الكلام لله تعالى.

وقيل: هو محمد ﷺ، فمن جعله جبريل، فقوته ظاهرة؛ لما روى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: عند الله سبحانه وتعالى.

«مكن» أي: ذي منزلة ومكانة.

وروى أبو صالح قال: يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن.

وقيل: المراد: القوة في أداء طاعة الله تعالى، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف.

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ هذه العندية ليست عندية الجهة، بل عندية الإشراف، والتكريم، والتعظيم.

(١) سقط من: ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٧١/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٣٠) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وذكره عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٦/١٩) عن الضحاك عن ابن عباس.

وقوله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»، وقوله سبحانه: ﴿مَكِينٌ﴾: قال الكسائي: يقال: مكن فلان عند فلان - بضم الكاف - تمكناً ومكانة، فعلى هذا هو ذو الجاه الذي يعطى ما يسأل.

قوله تعالى: ﴿مُطَاعٌ تَمْ﴾؛ أي: في السموات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من طاعة الملائكة جبريل - عليه السلام - أنه لما أسري برسول الله ﷺ قال جبريل لرضوان خازن الجنان: افتح له ففتح، فدخلها، فرأى ما فيها وقال لمالك خازن النار: افتح له ففتح، فدخلها، ورأى ما فيها^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٌ﴾، أي: مؤتمن على الوحي الذي يجيء به.

ومن قال: إن المراد محمد ﷺ فقال: «ذي قوة» على تبليغ الوحي «مطاع» أي: يطيعه من أطاع الله عز وجل.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ حتى يتهم في قوله، وهو من جواب القسم والضمير في قوله: «إنه» يعود إلى القرآن الذي نزل به جبريل - عليه السلام - على محمد ﷺ.

وقيل: يعود إلى الذي أخبركم به محمد ﷺ من أن أمر الساعة في هذه السورة ليس بكهانة، ولا ظن، ولا افتعال، إنما هو قول جبريل أتاه به وحياً من الله تعالى.

فصل فيمن استدل بالآية على تفضيل جبريل على سيدنا محمد

قال ابن الخطيب^(٢): احتج بهذه الآية من فضل جبريل - عليه الصلاة والسلام - على محمد ﷺ فقال: إذا وازنت بين قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٌ تَمْ أَمِينٌ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ظهر التفاوت العظيم.

قوله: «عند ذي»: يجوز أن يكون نعتاً لـ «رسول»، وأن يكون حالاً من «مكين»، وأصله الوصف، فلما قدم نصب حالاً.

قوله: ﴿تَمْ أَمِينٌ﴾. العامة: على فتح الثاء؛ لأنه ظرف مكان للبعد، والعامل فيه «مطاع».

وأبو البرهسم^(٣)، وأبو جعفر وأبو حيوة: بضمها، جعلوها عاطفة، والتراخي هنا في الرتبة؛ لأن الثانية أعظم من الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِآلِافٍ أَلْيَيْنَ﴾، أي: لقد رأى جبريل في صورته في ستمائة

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٠/٦) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) الفخر الرازي ٦٨/٣١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٤٤/٥، والبحر المحيط ٤٢٦/٨، والدر المصون ٤٨٧/٦.

جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أي : حيث تطلع الشمس من قبل المشرق .

وقيل : «بالأفق المبين» ؛ أقطار السماء ونواحيها .

قال الماوردي : فعلى هذا فيه ثلاثة أقوال :

الأول : أنه رآه في الأفق الشرقي . قاله سفيان .

الثاني : في أفق السماء الغربي ، حكاه ^(١) ابن شجرة .

الثالث : أنه رآه نحو «أجباد» ، وهو مشرق «مكة» ، قاله مجاهد ^(٢) .

وقيل : إنَّ محمداً ﷺ رأى ربه - عز وجل - بالأفق المبين ، وهو قول ابن مسعود وقد تقدم ذلك في سورة «والنجم» .

وفي «المبين» قولان :

أحدهما : أنه صفة للأفق ، قاله الربيع .

الثاني : أنه صفة لمن رآه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي ^(٣) : بالظاء ، بمعنى متهم ، من ظن بمعنى : اتهم ، فيتعدى لواحد .

وقيل : معناه بضعيف القوة عن التبليغ من قولهم : «بئر ظنون» أي : قليلة الماء ، والظنَّة التهمة ، واختاره أبو عبيدة وفي مصحف عبد الله ^(٤) كذلك .

والباقون : بالضاد ، بمعنى : بخيل بما يأتيه من قبل ربه ، من ضننت بالشيء أضنُّ ضناً ، يعني : لا يكتمه كما يكتُم الكاهن ذلك ، ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً ، إلا أن الطبري قال : بالضاد خطوط المصاحف كلها .

وليس كذلك لما كان رسول الله ﷺ يقرأ بها ، وهذا دليل على التمييز بين الحرفين خلافاً لمن يقول : إنه لو وقع أحدهما موقع الآخر بحال لجاز لعسر معرفته ، وقد شُئع الزمخشري على من يقول ذلك ، وذكر بعض المخارج ، وبعض الصفات بما يطول ذكره ^(٥) .

(١) في ب : قاله .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٧٢) عن مجاهد وينظر تفسير الماوردي (٦/٢١٨) والقرطبي (١٩/١٥٧) .

(٣) ينظر : السبعة ٦٧٣ ، والحجة ٦/٣٨٠ ، وإعراب القراءات ٢/٤٤٦ ، وحجة القراءات ٧٥٢ .

(٤) ينظر : الكشف ٤/٧١٣ ، والمحرم الوجيز ٥/٤٤٤ ، والبحر المحيط ٨/٤٢٦ ، والدر المصون ٦/٤٨٧ .

(٥) ينظر : الكشف ٤/٧١٣ .

و ﴿عَلَى الْآيَةِ﴾ متعلق بـ «ظنين»، أو بـ «ضنين» .
 و «الغيب»: القرآن، وخبر السماء هذا صفة محمد ﷺ .
 وقيل: صفة جبريل عليه السلام .

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾، أي: مَرْجُوم، والضمير في «هو» للقرآن، قالت قریش: إِنَّ هذا القرآن يجيء به شيطان، فيلقيه على لسانه، فنفى الله ذلك، يريدون بالشيطان: الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

فصل في الكلام على الآية

قال ابنُ الخطيب^(١): فإن قيل: إِنَّه حلف على أن القرآن قول جبريل - عليه السلام - فوجب علينا أن نصدقه، فإن لم نقطع بوجوب حمل اللفظ على الظاهر، فلا أقل من الاحتمال، وإذا كان كذلك ثبت أن هذا القرآن يحتمل أن يكون كلام جبريل لا كلام الله تعالى، وبتقدير أن يكون كلام جبريل لا يكون معجزاً، ولا يمكن أن يقال بأن جبريل معصوم؛ لأنَّ عصمته متفرعة على صدق النبي ﷺ وصدق النبي ﷺ على كون القرآن معجزاً، وكون القرآن معجزاً متفرع على عصمة جبريل، فيلزم دور .

فالجواب: أَنَّ الإعجاز ليس في الفصاحة، بل في سلب تلك الدواعي عن القلوب، وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى، لأن سلب القدرة عما هو مقدور لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾: فإن قيل^(٢): القول بصحة النبوة موقوف على نفي هذا الاحتمال فكيف يمكن نفيه بالدليل السمعي؟ .

قلنا: قد بينا أنه على القول بالصرف لا يتوقف صحة النبوة على نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي .

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦) **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** (٢٧) **﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾** (٢٨) **﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** (٢٩)

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ «أَيْنَ»: منصوب بـ «تذهبون»؛ لأنه ظرف مبهم .
 وقال أبو البقاء^(٣): أي: إلى أين؟ فحذف حرف الجر، كقولك: ذهب «الشام»، ويجوز أن يحمل على المعنى، كأنه قال: أين تؤمنون، يعني: أنه على الحذف، أو على التضمنين، وإليه نحا مكِّي أيضاً .

(٢) الفخر الرازي ٦٨/٣١ .

(١) ينظر: الفخر الرازي ٦٧/٣١ .

(٣) ينظر: الإملاء ٢٨١/٢ .

ولا حاجة إلى ذلك البتة لأنه ظرف مكان مبهم لا مختص .

فصل في تفسير الآية

قال قتادة: فإلى أين تعدلون عن هذا القول، وعن طاعته^(١) .

وقال الزجاج: فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم .

ويقال: أين تذهب وإلى أين تذهب .

وحكى الفراء عن العرب: ذهبت «الشام»، وخرجت «العراق»، وانطلقت السوق،

أي: إليها؛ وأنشد لبعض بني عقيل: [الوافر]

٥١٢٤ - تَصِيحُ بِنَا حَنِيفَةً إِذْ رَأَيْنَا وَأَيُّ الْأَرْضِ تَذْهَبُ لِلصَّيَاحِ^(٢)

يريد: إلى أي أرض تذهب، فحذف «إلى» .

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، يعني: القرآن ذكر للعالمين، أي: موعظة، وزجر .

و «إن» بمعنى: «ما» .

وقيل: ما محمد إلا ذكر .

قوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من «للعالمين» بإعادة العامل، وعلى هذا فقوله: ﴿أَنْ

يَسْتَقِيمَ﴾: مفعول «شاء» أي: لمن شاء الاستقامة، ويجوز أن يكون «لمن شاء» خبراً مقدماً،

ومفعول شاء محذوف، وأن يستقيم مبتدأ، وتقدم نظيره والمعنى: لمن شاء منكم أن يستقيم .

قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم وهذا هو القدر،

وهو رأس القدريّة، فنزلت: ﴿وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فبين بهذا أنه لا

يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله تعالى، ولا شراً إلا بخذلانه .

قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، أي: إلا وقت مشيئة الله تعالى .

وقال مكّي: «أن» في موضع خفض بإضمار «الباء»، أو في موضع نصب بحذف

الخافض .

يعني: أن الأصل «إلا بأن»، وحيث تكون للمصاحبة .

فصل في تفسير الآية

قال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله تعالى لها^(٣) .

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٨/١٩) .

(٢) ينظر معاني القرآن ٣/٢٤٣، والقرطبي ١٥٨/١٩ .

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٨/١٩) .

وقال وهب بن منبه - رضي الله عنه - : قرأت في تسعة^(١) وثمانين كتاباً مما أنزل الله - تعالى - على الأنبياء : من جعل إلى نفسه شيئاً فقد كفر، وفي التنزيل : ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَىٰ يَمِينِهِمُ الْمَلَكُوتَ وَلَكَنَّهُمْ لَأَوْقَوْا وَحَسْرَتًا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْجِئُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام : ١١١].

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس : ١٠٠].

وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، والآي في هذا كثيرة، وكذلك الأخبار وأن الله - تعالى - هدى بالإسلام، وأضل بالكفر^(٢).

قال ابن الخطيب^(٣) : وهذا عين^(٤) مذهبنا ؛ لأن الأفعال موقوفة على مشيئتنا، ومشيئتنا موقوفة على مشيئة الله، والموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء، فأفعال العباد ثبوتاً ونفيّاً موقوفة على مشيئة الله تعالى، وحمل المعتزلة ذلك على أنها مخصوصة بمشيئة الإلجاء والقهر، وذلك ضعيف ؛ لأن المشيئة الاختيارية حادثة، فلا بد من محذوف، فيعود الكلام . والله تعالى أعلم .

روى الشعبي عن أبي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، أعاده الله أَنْ يَفْضَحَهُ حِينَ تُنْشَرُ صَحِيفَتُهُ»^(٥) . والله أعلم بالصواب .

(١) في أ : سبعة .

(٢) ينظر : المصدر السابق .

(٣) ينظر : الفخر الرازي ٦٩/٣١ .

(٤) في أ : غير .

(٥) تقدم تخريجه .

سورة الانفطار

مكيّة، وهي تسع عشرة آية، وكلماتها ثمانون كلمة، وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، معناه: إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة يحصل الحشر والنشر، ومعنى «انفطرت»: انشقت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالسَّعْيِ﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩]، ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨].

قال الخليل: ولم يأت هذا على الفعل بل هو كقولهم: مُرْضِع، وَحَائِض، ولو كان على الفعل لكان «منفطر».

وقال القرطبي^(١): «تفطرت لهيبة الله تعالى، والفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير إذا طلع، فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء: تشقق، وسيف فطار: أي فيه شقوق». وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت؛ لأن عند انتقاض تركيب السماء تنتشر النجوم على الأرض، يقال: نثر الشيء أنثره نثراً فانثر. والنثار - بالضم - ما تناثر من الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

العامة على بنائه للمفعول مثقلاً.

وقرأ مجاهد^(٢): مبنياً للفاعل مخففاً من الفجور، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمَا بَرَزٌ لَا يُتَّبَعَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، فلما زال البرزخ بغيا.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٦٠.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٧١٤، والبحر المحيط ٨/٤٢٧، والدر المصون ٦/٤٨٨.

وقرأ مجاهد - أيضاً - والربيع بن خيثم، والزعفراني، والثوري^(١): مبنياً مخففاً.
ومعنى «فُجِّرَتْ» أي: دخل بعضها في بعض، واختلط العذب بالملح، فصار واحداً
بارتفاع الحاجر الذي جعله الله تعالى برزخاً بينهما.
وقيل: إنَّ مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا انفجرت تفرقت، وذهب ماؤها.
وقال الحسن: فجرت: ييست.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾. أي: قلبت، يقال: بَعَثَرَهُ وَبَحَثَرَهُ - بالعين والحاء -
قال الزمخشري^(٢): وهما مركبان من البعث والبحث، مضموم إليهما راء، يعني أنهما مما
اتفق معناه؛ لأن الراء مزيدة فيهما، إذ ليست من حروف الزيادة وهذا كـ «دَمَثَ»
و «دَمَثَرٌ» و «بَسَطَ» و «بَسَطَرٌ».

فصل في المراد ببعثرة القبور

والمعنى: قلب أعلاها وأسفلها، وقلب ظاهرها وباطنها، وخرج ما فيها من الموتى
أحياء.

وقيل: التبعثر: إخراج ما في باطنها من الذهب والفضة ثم يخرج الموتى بعد ذلك.
وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: جواب «إذا»، والمعنى: ما قدمت من
عمل صالح، أو شيء، أو أخرت من سيئة أو حسنة، وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت
من التركات على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].
والمقصود منه الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.
فإن قيل: أي وقت من القيامة يحصل هذا العلم؟.

قال ابن الخطيب^(٣): أمَّا العلم الإجمالي، فيحصل في أول زمان الحشر؛ لأن
المطيع يرى آثار السعادة في أول الأمر والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر، وأمَّا
العلم التفصيلي، فإنما يحصل عند قراءة الكتب، والمحاسبة.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ
﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ أي: المتجاوز.
والعامة: على «عَرَفَ» ثلاثياً، و «ما» الاستفهامية: في محل رفع على الابتداء.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٤٦/٥، والبحر المحيط ٤٢٧/٨، والدر المصون ٤٨٨/٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٧١٤/٤.

(٣) الفخر الرازي ٧١/٣١.

وقرأ ابن جبير، والأعمش^(١): «ما أَعْرَكَ»، فاحتمل أن تكون استفهامية، وأن تكون تعجبية، ومعنى «أعْرَه»: أدخله في الغرّة، أو جعله غارًا.

فصل في مناسبة الآية لما قبلها

لما أخبر في تلك الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر، ذكر هاهنا ما يدل عقلاً ونقلاً على إمكانه، أو على وقوعه، وذلك من وجهين:

الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع مواد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه ألا يتنقم من الظالم؟.

الثاني: أن القادر على خلق هذه البنية الإنسانية، ثم سواها، وعدلها، إمّا أن يقال: إنه - تعالى - خلقها لا لحكمة، وذلك عبث، وهو على الله تعالى محال؛ لأنه - تعالى - منزّه عن العبث، أو خلقها لحكمة، فتلك الحكمة أن تكون عائدة على الله تعالى، وذلك باطل؛ لأنه منزّه عن الاستكمال والانتفاع، فتعين أن تكون الحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة أن تظهر في الدنيا، فذلك باطل؛ لأن الدنيا دار بلاء وامتحان لا دار انتفاع وجزاء، فثبت أن تلك الحكمة إنما تظهر في دار الجزاء، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق، والتسوية، والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه تعالى يبعث الأموات ويحشرهم.

فصل في نزول الآية

هذا [خطاب]^(٢) لمنكري البعث.

روى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنها نزلت في الوليد بن المغيرة^(٣).

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الأشرم بن شريق^(٤)، وذلك أنه ضرب النبي ﷺ ولم يعاقبه الله تعالى، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية.

وقيل: يتناول جميع العصاة؛ لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعنى «ما أَعْرَكَ»: ما خدعك وسوّ لك الباطل حتى تركت الواجبات، وأثنت بالمحرمات.

والمعنى: ما الذي أئمنك من عقابه، هذا إذا حملنا الإنسان على جميع العصاة، فإن حملناه على الكافر، فالمعنى: ما الذي دعاك إلى الكفر، وإنكار الحشر والنشر.

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧١٥، والمحرق الوجيز ٥/٤٤٧، والبحر المحيط ٨/٤٢٧، والدر المصون ٦/٤٨٨.

(٢) في ب: جواب.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٦١).

(٤) ينظر المصدر السابق.

فإن قيل: كونه كريماً يقتضي ألا يغتر الإنسان بكرمه؛ لأنه جواد مطلق، والجواد الكريم يستوي عنده طاعة المطيع، وعصيان المذنب، وهذا لا يوجب الاغترار وروي عن عليّ - رضي الله عنه - أنه دعا غلامه مرات، فلم يجبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: لم لا تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه.

وقالوا - أيضاً - من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، وإذا ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به فكيف جعله - هاهنا - مانعاً من الاغترار؟.

فالجواب من وجوه:

الأول: أن المعنى لما كنت ترى حلم الله - تعالى - عن خلقه ظننت أن ذلك لا حساب، ولا دار إلا هذه الدار، فما الذي دعاك إلى الاغترار وجرأك على إنكار الحشر، والنشر، فإن ربك كريم، فهو من كرمه - تعالى - لا يعاجل بالعقوبة بسطاً في مدة التوبة، وتأخيراً للجزاء، وذلك لا يقتضي الاغترار.

الثاني: أن كرمه تعالى لما بلغ إلى حيث لا يمنع العاصي من أن يطيعه، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان أولى، فإذا كان كونه كريماً يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار، وترك الجزاء والاعترار.

الثالث: أن كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة، والاستحياء من الاغترار.

الرابع: قال بعضهم: إنما قال: «برئكَ الكريم» ليكون ذلك جواباً عن ذلك السؤال حتى يقول: غرني كرمك، فلولا كرمك لما فعلت؛ لأنك رأيت فسترت، وقدرت فأمهلت.

وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ ليس هو «الكافر».

فصل في غرور ابن آدم

قال قتادة - رضي الله عنه -: سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان^(١) وقال مقاتل: غره عفو الله حين لم يعاقبه أول مرة^(٢).

وقال السدي: غره عفو الله^(٣).

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول تعالى: ما

(١) ينظر المصدر السابق وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٥٥).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٥٥). (٣) ينظر المصدر السابق.

غَرَكَ يا ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبك المرسلين^(١)؟

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾، يحتمل الإتيان على البدل والبيان، والنعت، والقطع إلى الرفع والنصب.

واعلم أنه - تعالى - لما وصف نفسه بالكرم، ذكر هذه الأمور الثلاثة، كالدلالة على تحقق ذلك الكرم، فقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ لا شك أنه كرم؛ لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله تعالى: «فسواك» أي: جعلك سوياً سالم الأعضاء، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَكْثَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، أي: معتدل الخلق والأعضاء.

قال ذو النون: أي: سخر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخراً لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، ومدك بالإيمان وشرفك بالأمر والنهي، وفصلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

قوله: «فعدلك». قرأ الكوفيون: «عدلك» مخففاً، والباقون^(٢): مثقلاً.

فالتثقيل بمعنى: جعلك مناسب الأطراف، فلم يجعل إحدى يديك ورجليك أطول، ولا إحدى عينيك أوسع، فهو من التعديل، وهو كقوله تعالى: ﴿يَا قَدِيرِينَ عَلَّمَ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤].

قال علماء التشريح: إنه - تعالى - ركب جانبي الجثة على التساوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه، لا في العظام، ولا في أشكالها، ولا في الأوردة والشرابين، والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها.

وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: جعلك قائماً معتدلاً، حسن الصورة، لا كالبهيمة المنحنية^(٣).

وقال أبو علي الفارسي: «عدلك» خلقك، فأخرجك في أحسن تقويم، مستوياً على جميع الحيوان والنبات، وواصلاً في الكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم. وأما قراءة التخفيف فيحتمل هذا، أي: عدل بعض أعضائك ببعض، ويحتمل أن يكون من المعدول، أي: صرفك إلى ما شاء من الهيئات والأشكال والأشياء، وهذا قول الفراء.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٤، والحجة ٦/٣٨٢، وإعراب القراءات ٥/٤٤٨، وحجة القراءات ٧٥٢.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٧٤/٣١) من طريق عطاء عن ابن عباس.

ثم قال: والتشديد أحسن الوجهين؛ لأنك تقول: عدلتك إلى كذا، أي: صرفتك إلى كذا وكذا، ولا يحسن: عدلتك فيه، ولا صرفتك فيه.

وفي القراءة الأولى: جعل «في» من قوله: «في أي صورة» للتركيب، وهو حسن.

وفي قراءة الثانية جعل «في» صلة لقوله: «فعدلك»، وهو ضعيف.

ونقل القفال^(١) عن بعضهم: أنهما لغتان بمعنى واحد.

قوله: «في أي صورة»، يجوز فيه أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ «ركبك»، و «ما»: مزيدة على هذا، و «شاء» صفة لـ «صورة»، ولم يعطف «ركبك» على ما قبله بالفاء، كما عطف ما قبله بها؛ لأنه بيان لقوله: «فعدلك»، والتقدير: فعدلك ركبك في أي صورة من الصور العجيبة الحسنة التي شاءها - سبحانه وتعالى - والمعنى: وضعك في صورة اقتضتها مشيئته من حسن وقبح وطول، وقصر، وذكر، وأنوثة.

الثاني: أن يتعلق بمحذوف على أنه حال، أي: ركبك حاصلاً في بعض الصور.

الثالث: أنه يتعلق بعد ذلك بـ «عدلك» نقله أبو حيان^(٢) عن بعض المتأولين، ولم يعترض عليه، وهو معترض بأن في «أي» معنى الاستفهام، فلها صدر الكلام، فكيف يعمل فيها ما تقدمها؟.

وكان الزمخشري استشعر هذا فقال^(٣): ويكون في «أي» معنى التعجب، أي: فعدلك في أي صورة عجيبة، وهذا لا يحسن أن يكون مجوزاً لتقدم العامل على اسم الاستفهام، وإن دخله معنى التعجب، ألا ترى أن «كيف، وأي»، وإن دخلهما معنى التعجب، لا يتقدم عاملهما عليهما.

وقد اختلف النحويون في اسم الاستفهام إذا قصد به الاستئناف، هل يجوز تقديم عامله أم لا؟.

والصحيح أنه لا يجوز، ولذلك لا يجوز أن يتقدم عامل «كم» الخبرية عليها لشبهها في اللفظ بالاستفهامية، فهذا أولى، وعلى تعلقها بـ «عدلك»، تكون «ما» منصوبة على المصدر.

قال أبو البقاء^(٤): يجوز أن تكون «ما» زائدة، وأن تكون شرطية، وعلى الأمرين الجملة نعت لـ «صورة»، والعائد محذوف، أي: ركبك عليها، و «في»: تتعلق بـ «ركبك».

(١) ينظر: الفخر الرازي ٧٤/٣١.

(٣) ينظر: الكشاف ٧١٦/٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤٢٨/٨.

(٤) الإملاء ٢٨٢/٢.

وقيل : لا موضع للجملة ؛ لأن «في» تتعلق بأحد الفعلين والجميع كلام واحد، وإنما يتقدم الاستفهام على ما هو حقه . قوله : بأحد الفعلين ، يعني : «شاء وركبك»، فيحصل في «ما» ثلاثة أوجه : الزيادة، وكونها شرطية، وحيثنذ جوابها محذوف، والنصب على المصدرية، أي : واقعة موقع مصدر .

قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ .

العامّة : على «تكذبون» خطاباً، والحسن وأبو جعفر وشيبة^(١) : بياء الغيبة .

قال ابن الخطيب^(٢) : لما بين بالدلائل العقلية صحة القول بالبعث، والنشور على الجملة فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك، وهي أنواع :

الأول : أنه - تعالى - زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله «كلا»، و «بل» : حرف وضع في اللغة لنفي شيء قد تقدّم تحقيق غيره، فلا جرم ذكروا في تفسير «كلاً» وجوهاً :

الأول : قال القاضي : معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي عليكم، وإرشادي لكم، بل تكذبون بيوم الدين .

الثاني : «كلاً» ردع، أي : ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله تعالى، كأنه قال : وإنهم لا يرتعدون عن ذلك، بل يكذبون بالدين .

الثالث : قال القفال : أي : ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث، ولا نشور؛ لأن ذلك يوجب أن الله - تعالى - خلق الخلق عبثاً، وحاشاه من ذلك، ثم كأنه قال : إنهم لا ينتفعون بهذا البيان، بل يكذبون بالدين .

وقال الفراء : ليس كما غررت به، والمراد بالدين : الجزاء على الدين والإسلام .

وقيل : المراد من الدين : الحساب، أي : تكذبون بيوم الحساب .

النوع الثاني : قوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ : يجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل «تكذبون»، والحالة هذه، ويجوز أن تكون مستأنفة أخبرهم بذلك لينزجروا والمراد بالحافظين : الرقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم .

«كراماً» على الله «كاتبين» يكتبون أقوالكم وأعمالكم .

قال ابن الخطيب^(٣) : والمعنى : التعجب من حالهم، كأنه - تعالى - قال : إنكم

(١) ينظر : المحرر الوجيز ٥/٤٤٧، والبحر المحيط ٨/٤٢٨، والدر المصون ٦/٤٨٩ .

(٢) ينظر : الفخر الرازي ٣١/٥٧ .

(٣) ينظر : الفخر الرازي ٣١/٧٥ .

تَكْذِبُونَ بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء، وملائكة الله - تعالى - موَكَّلُونَ بكم، يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره: قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِينٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]

فصل في الرد على من طعن في حضور الكرام الكاتبين

قال ابن الخطيب: من الناس من طعن في حضور الكرام الكاتبين من وجوه:
الأول: لو كان الحفظة، وصحفهم وأقلامهم معنا، ونحن لا نراهم لجاز أن يكون بحضرتنا جبال، وأشخاص لا نراهم، وذلك دخول في الجهالات.

والثاني: هذه الكتابة، والضبط إن كان لا لفائدة فهو عبث، وهو غير جائز على الله تعالى، وإن كان لفائدة، فلا بد وأن تكون للعبد؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - متعالٍ عن النفع والضرر، وعن تطرق النسيان إليه، وغاية ذلك أنه حُجَّةٌ على الناس وتشديد عليهم لإقامة الحُجَّة، لكن هذا ضعيف؛ لأن من علم أن الله تعالى لا يجور، ولا يظلم، لا يحتاج في حقه إلى إثبات هذه الحجة، والذي لا يعلم لا ينتفع بهذه الحجة، لاحتمال أنه تعالى أمرهم بذلك ظلماً.

الثالث: أن أفعال القلوب غير مرئية، فهي من باب المغيبات، والله - تعالى - مختص بعلم الغيب، فلا تكتبوها، والآية تقتضي ذلك.

والجواب عن الأول: أن البنية عندنا ليست شرطاً في قبول الحياة؛ ولأن عند سلامة الأعضاء، وحصول جميع الشرائط لا يجب الإدراك، فيجوز على الأول: أن يكونوا أجراماً لطيفة، تتمزق، وتبقى حياتها ذلك، وعلى الثاني: يجوز أن يكونوا أجراماً كثيفة، ونحن لا نراهم.

وعن الثاني: أن الله - تعالى - أجرى أموره على عبادته على ما يتعارفونه في الدنيا فيما بينهم؛ لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم في إخراج كتاب، وشهود في إلزام الحجة، كما يشهد العدول عند الحاكم على القضاة.

وعن الثالث: أن ذلك مخصوص بأفعال الجوارح، فهو عام مخصوص، وفي مدح الحفظة، ووصفهم بهذه الصفات تعظيم لأمر الجزاء، وأنه من جلائل الأمور.

فصل في عموم الخطاب

هذا الخطاب وإن كان خطاب مشافهة إلا أن الأمة أجمعت على عموم هذا الحكم في حق المكلفين.

وقوله تعالى: ﴿لِحَافِظِينَ﴾: جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم، من غير أن

يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة، كما قيل: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، أو كما قيل: إنهم خمسة.

فصل في أن الكفار هل عليهم حفظة؟

اختلفوا في الكفار، هل عليهم حفظة؟

فقيل: لا؛ لأن أمرهم ظاهر وعلمهم واحد، قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: بل عليهم حفظة لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾، وأما من أوتي كتابه بشماله، ومن أوتي كتابه وراء ظهره، فأخبر أن لهم كتاباً وعليهم حفظة. فإن قيل: أي شيء يكتب الذي عن يمينه، ولا حسنة له؟ فالجواب: أن الذي عن شماله يكتب بإذن صاحبه، ويكون صاحبه شاهداً على ذلك، وإن لم يكتب.

فصل في معرفة الملائكة هم الإنسان

سُئِلَ سفيان: كيف تعرف الملائكة أن العبد هم بمعصية، أو بحسنة؟ قال: إذا هم العبد بحسنة وجد منه ريح المسك، وإن هم بسيئة وجد منه ريح متن.

فصل في أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم

دلّت هذه الآية على أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم، لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون، فدلّ على أنهم يكونون عالمين بها حتى أنهم يكتبونها، فإذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة.

قال الحسن: لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم^(١).

وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدثتم به أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ

(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

الأبرار: الذين بروا، وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله تعالى، واجتناب

معاصيه.

فصل في ذكر أحوال العالمين

لما وصف تعالى الكرام الكاتبين لأعمال العباد، ذكر أحوال العالمين، وقسمهم قسمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وهو نعيم الجنة، ﴿وَالْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وهو النَّار، وهذا تهديد عظيم للعصاة، وهذا التقسيم كقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قوله: ﴿يَصَلُّونَهَا﴾: يجوز فيه أن يكون حالاً من الضمير في الجار، لوقوعه خبراً، وأن يكون مستأنفاً.

وقرأ العامة: «يصلونها» مخففاً مبنياً للفاعل وتقدم مثله.

ومعنى ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يدخلونها يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: ليسوا غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، ثم عظم ذلك اليوم فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثم كرره تعجباً لشأنه، فقال: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾.

وقال ابن عباس: كل ما في القرآن من قوله: «وما أدراك» فقد أدراه، وكل شيء من قوله: «وما يدريك» فقد طوي عنه^(١).

قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو^(٢): برفع «يوم» على أنه خبر مبتدأ مضمّر، أي: هو يوم.

وجوز الزمخشري^(٣): أن يكون بدلاً مما قبله يعني قوله: «يوم الدين».

وقرأ أبو عمرو^(٤) في رواية: «يوم»: مرفوعاً منوناً على قطعه عن الإضافة، وجعل الجملة نعتاً له، والعائد محذوف، أي: لا تملك فيه.

وقرأ الباقر: «يوم» بالفتح.

ف قيل: هي فتحة إعراب، ونصبه بإضمار أعني، أو يتجاوزون، أو بإضمار اذكر، فيكون مفعولاً به، وعلى رأي الكوفيين يكون خبراً لمبتدأ مضمّر، وإنما بني لإضافته للفعل وإن كان معرباً، كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح؛ لإضافته إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾، وما أضيف إلى غير المتمكن، فقد يبنى على الفتح، وإن كان في موضع رفع، أو جرّ كما قال: [المنسرح]

(١) ينظر القرطبي (١٦٣/١٩).

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٤، والحجة ٦/٣٨٣، وإعراب القراءات ٢/٤٤٩، وحجة القراءات ٧٥٣.

(٣) ينظر الكشف ٤/٧٥٣. (٤) ينظر: الدر المصون ٦/٤٨٩.

٥١٢٥ - لَمْ يَمْنَعْ الشُّرْبَ غَيْرَ أَنْ نَطَقْتُ حَمَامَةً.....^(١)

قال الواحدي: والذي ذكره الزجاج من البناء على الفتح، إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي؛ نحو قوله: [الطويل]

٥١٢٦ - عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ.....^(٢)

البيت. أمّا مع الفعل المستقبل، فلا يجوز البناء عندهم، ويجوز البناء في قول الكوفيين.

قال ابن الخطيب^(٣): وذكر أبو علي أنه منصوبٌ على الظرفية؛ لأن اليوم لما جرى في أكثر الأمر ظرفاً، فنزل على حالة الأكثرية، والدليل عليه إجماع القراء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ولا يدفع ذلك أحد، ومما يقوّي النصب قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ [القارعة: ٤، ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ يَوْمَ لَمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ﴾ [الذاريات: ١٢، ١٣]، فالنصب في «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ» مثل هذا.

فصل فيمن استدل بالآية على نفي الشفاعة عن العصاة

تمسكوا بهذه الآية في نفي الشفاعة للعصاة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] وقد تقدم الجواب عنه في سورة البقرة.

قال مقاتل: يعني النفس الكافرة شيئاً من المنفعة^(٤).

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي: لن يملك الله - تعالى - في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أَغْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ بَعْدَ كُلِّ قَبْرِ حَسَنَةً، وَبَعْدَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَاءٍ حَسَنَةً، وَأَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ شَأْنُهُ»^(٥). ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الفخر للرزاي ٧٩/٣١.

(٤) ينظر: القرطبي (١٦٣/١٩).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة المطففين

مدنيّة في قول الحسن وعكرمة ومقاتل.

قال مقاتل: وهي أوّل سورة نزلت بـ «المدينة»^(١)

وقال ابن عباس وقتادة: مدنيّة إلا ثمان آيات، وهي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخرها مكي^(٢).

وقال الكلبي، وجابر بن زيد: نزلت بين «مكة» و «المدينة»^(٣)

وقال ابن مسعود والضحاك: مكيّة. وهي ست وثلاثون آية، ومائة وتسعة وستون كلمة، وسبعمائة وثمانون حرفاً^(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

«ويل»: ابتداء، وسوغ الابتداء به كونه دعاء، ولو نصب لجاز.

وقال مكي: والمختار في «ويل» وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع، ويجوز نصب، فإن كان مضافاً، أو معرفاً كان الاختيار فيه النصب نحو: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْرَءُوا﴾ [طه: ٦١]، و «للمطففين» خبره.

والمُطَفِّف: المُنْقِص، وحقيقته: الأخذ في كيل أو وزن شيئاً طفيفاً، أي: نزرأ حقيراً، ومنه قولهم: دُون التَّطْفِيف، أي: الشيء التَّافِه لقلته.

(١) ذكره الماوردي (٢٢٥/٦) والقرطبي (١٦٤/١٩).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٢٥/٦) عن ابن مسعود والضحاك.

قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفّف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف.

فصل في تعلق هذه السورة بما قبلها

قال ابن الخطيب^(١): اتصال أوّل هذه السورة بالمتقدمة أنّه تعالى بيّن في آخر تلك السورة أنّ من صفة يوم القيامة أنه لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً، والأمر يومئذٍ لله، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد منه الزجر على التطفيف، وهو البُخس في المكيال والميزان على سبيل الخفية.

واعلم أن الويل كلمة تذكر عند وقوع البلاء، يقال: ويل لك، وويل عليك، وفي اشتقاق لفظ التطفيف قولان:

الأول: قول الزجاج المتقدم.

والثاني: أنّ طف الشيء، هو جانبه وحرفه يقال: طفّ الوادي والإناء إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه، ولم يمتلئ، فهو طفافه وطففه، يقال: هذا طف المكيال وطفافه إذا قارب ملأه، لكنه بعد لم يمتلئ، ولهذا قيل للذي «ينقص» الكيل ولا يوفيه مطفّف. لأنه إنما يبلغ الطفاف.

فصل في نزول الآية

روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما قدم رسول الله ﷺ «المدينة»، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فاجتنبوا الكيل، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «خَمْسُ بَخْسٍ، ما نقص قومُ العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فسأ فيهم الفقر، ولا ظهر فيهم الفاحشة إلا ظهر فيهم الموت، ولا طفقوا المكيال إلا مُنعوا الثبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم المطر»^(٢).

وقال السدي: قدّم رسول الله ﷺ «المدينة»، وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكيل بالآخر فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٨٠/٣١.

(٢) أخرجه الطبري (٤٨٣/١٢) وابن ماجه (٧٤٨/٢) والنسائي (٥٠٨/٦) من طريق عكرمة عن ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٦/٦) وزاد نسبه إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عنه.

قلت: وأخرجه ابن حبان (١٧٧٠ - موارد) والحاكم (٣٣/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وروى ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: المطفف الرجل الذي يستأجر المكيال، وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزن عليه^(١).
قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه متعلق بـ «اكتالوا»، و «على» و «من» «يتعاقبان» هنا. قال الفراء: يقال: اکتلتُ على النَّاسِ: استوفيتُ مِنْهُمْ، وَاكْتَلْتُ مِنْهُمْ: أَخَذْتُ مَا عَلَيْهِمْ. وقيل: «على» بمعنى اکتل على ومنه بمعنى، والأول أوضح.
وقيل: «على» يتعلق بـ «يستوفون».

قال الزمخشري^(٢): لما كان اکتيالهم لا يضرهم، ويتحامل فيه عليهم أبدل «على» مكان «من» للدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق بـ «يستوفون»، وقَدَّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية، أي: يستوفون على الناس خاصة، فأَمَّا أَنْفُسُهُمْ فيستوفون لها. وهو حسن.
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾. رُسَمَتَا في المصحف بغير ألف بعد الواو في الفعلين، فمن ثم اختلف الناس في «هم» على وجهين.

أحدهما: هو ضمير نصب فيكون مفعولاً به، ويعود على الناس، أي: وإذا كالوا الناس أو وزنوا الناس، وعلى هذا فالأصل في هذين الفعلين التعدي لاثنيين: لأحدهما بنفسه بلا خلاف وللآخر بحرف الجر، ويجوز حذفه.

وهل كل منهما أصل بنفسه، أو أحدهما أصل للآخر؟ فيه خلاف، والتقدير: وإذا كالوا لهم طعاماً، أو وزنوه لهم، فحذف الحرف والمفعول؛ وأنشد: [الطويل]
٥١٢٧ - وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُوّاً وَعَسَاقِلاً وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَن بَنَاتِ الْأَوْبَرِ^(٣)
أي: جنيت لك.

والثاني: أنه ضمير رفع مؤكد للواو، والضمير عائد على «المطففين»، ويكون على هذا قد حذف المكيل والمكيل له، والموزون والموزون له.
إلا أن الزمخشري رد هذا فقال^(٤): «ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً

(١) أخرجه الحاكم (٥١٧/٢) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عبد الرحمن بن الأعرج عن ابن عمر. وسكت عنه الحاكم. وقال الذهبي: إبراهيم واه.

(٢) ينظر: الكشف ٧١٩/٤.

(٣) ينظر الاشتقاق ص ٤٠٢، والإنصاف ٣١٩/١، وأوضح المسالك ١٨٠/١، وتخليص الشواهد ص ١٦٧، وجمهرة اللغة ص ٣٣١، والخصائص ٥٨/٣، ووصف المباني ص ٧٨، وسر صناعة الإعراب ص ٣٦٦، وشرح ابن عقيل ص ٩٦، ولسان العرب (حجر)، و (سور)، و (غير)، و (وبر)، و (جحش)، و (أبل)، و (حفل)، و (عقل)، و (اسم)، و (جنى)، و (نجا)، والمحتسب ٢٢٤/٢، ومغني اللبيب ٥٢/١، ٢٢٠، والمقاصد النحوية ٤٩٨/١، والمقتضب ٤/٤٨، والمنصف ١٣٤/٣.

(٤) الكشف ٧١٩/٤.

«للمطففين»، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد، وذلك أن المعنى: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإذا أعطوهم أخسروا، وإن جعلت الضمير «للمطففين» انقلب إلى قولك: إذا أخذوا من الناس استوفوا، وإن تولوا الكيل، أو الوزن هم على الخصوص أخسروا، وهو كلام متنافر؛ لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشرة.

قال أبو حيان^(١): ولا تنافر فيه بوجه، ولا فرق بين أن يؤكد الضمير، وألاً يؤكد، والحديث واقع في الفعل، غاية ما في هذا أن متعلق الاستيفاء، وهو «على الناس» مذكور، وهو في «كالوهم أو وزنوهم» محذوف للعلم به؛ لأنه من المعلوم أنهم لا يخسرون ذلك لأنفسهم.

قال شهاب الدين^(٢): الزمخشري يريد أن يحافظ على أن المعنى مرتبط بشيئين: إذا أخذوا من غيرهم، وإذا أعطوا غيرهم، وهذا إنما فهم على تقدير أن يكون الضمير منصوباً عائداً على الناس، لا على كونه ضمير رفع عائداً على «المطففين»، ولا شك أن هذا المعنى الذي ذكره الزمخشري وأراد به أتم وأحسن من المعنى الثاني، ورجح الأول سقوط الألف بعد الواو؛ لأنه دال على اتصال الضمير.

إلاً أن الزمخشري استدرك فقال^(٣): «والتعلق في إبطاله بخط المصحف، وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه ركيك؛ لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط على أنني رأيت في الكتب المخطوطة بأيدي الأئمة المتقين هذه الألف مرفوضة، لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى جميعاً؛ لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع، وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك: «هم لم يدعوا، وهو يدعو»، فمن لم يثبتها قال: المعنى كافٍ في التفرقة بينهما، وعن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يرتكبان ذلك، أي: يجعلان الضميرين «للمطففين»، ويقفان عند الواوين وقيفة، يبينان بها ما أرادوا. ولم يذكر فعل الوزن أولاً، بل اقتصر على الكيل، فقال: «إذا اكتالوا»، ولم يقل: إذا اتزنوا، كما قال ثانياً: «أو وزنوهم».

قال ابن الخطيب^(٤): لأن الكيل والوزن بهما البيع والشراء، فأحدهما يدل على الآخر. وقال الزمخشري^(٥): «كأن المطففين كانوا لا يؤخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء، والسرقة؛ لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً». قوله: «يُخْسِرُونَ» جواب «إذا»، وهو يتعدى بالهمزة، يقال: خسر الرجل وأخسرته

(٢) الدر المصون ٦/٤٩١.

(٤) الفخر الرازي ٣١/٨١.

(١) البحر المحيط ٨/٤٣١.

(٣) الكشف ٤/٧٢٠.

(٥) الكشف ٤/٧٢٠.

أنا، فمفعوله محذوف، أي: يخسرون الناس متاعهم. قال المؤرج: يخسرون أي ينقصون بلغة «قريش».

فصل في تفسير الآية

قال الزجاج: المعنى: إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل والوزن.

أي: إذا استوفوا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن، «وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ» أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، أي: للناس، ولمَّا كان اکتيالهم من الناس اکتيالاً فيه إضرارٌ بهم، وتحاملٌ عليهم أقيمَ «على» مقام «من» للدلالة على ذلك.

وقال الكسائي والفراء: حذف الجار وأوصل الفعل، وهذا من كلام أهل الحجاز، ومن جاورهم، يقال: وزنك حقك، وكلتك طعامك أي: وزنت لك، وكلتُ لك، كما يقال: نصحتك، ونصحت لك، وكسيتك، وكسيت لك.

وقال الفراء: المراد اکتالوا من الناس، و «على» و «من» يتعاقبان؛ لأنه حق عليه فإذا قلت: اکتلت عليك، فكأنه قال: أخذت ما عليك، وإذا قلت: اکتلت منك فهو كقولك: استوفيت منك.

وقيل: على حذف مضاف، أي: إذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا لهم موزونهم. قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾: الظاهر أنها «ألا» التحضيضية، حضهم على ذلك، ويكون الظنُّ بمعنى: اليقين.

وقيل: هي «لا» النافية دخلت عليها همزة الاستفهام. ومعنى الآية: ألا يستيقن أولئك الذين يفعلون ذلك بأنهم مبعوثون ليوم عظيم، وهو يوم القيامة، وفي الظن هنا قولان:

أحدهما: أنَّ المراد به: العلم، وعلى هذا التقدير يحتملُ أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدِّقين بالبعث، ويحتملُ ألا يكونوا كذلك لتمكُّنهم من الاستدلال عليه بالفعل.

الثاني: أنَّ المراد بالظن هنا: هو الظن نفسه، لا العلم، ويكون المعنى: هؤلاء المطففون هَبَّ أنهم لا يجزمون بالبعث، ولكن لا أقل من الظن لوضوح أدلته، فإنَّ الأليق بحكمة الله - تعالى - ورحمته، ورعايته مصالح خلقه ألاَّ يهمل أمرهم بعد الموت، وأن يكون لهم نشر وحشر، وأن هذا الظن كافٍ في حصول الخوف.

قوله: ﴿يَوْمٌ﴾: يجوز نصبه بـ «مبعوثون».

قال الزمخشري^(١): أو بـ «يبعثون» مقدراً، أو على البديل من محل اليوم، أو

(١) الكشف ٧٢٠/٤.

بإضمار «أعني»، أو هو مرفوع المحل لإضافته للفعل وإن كان مضارعاً، كما هو رأي الكوفيين، ويدل على صحة هذين الوجهين، قراءة^(١) زيد بن علي: «يَوْمُ يَقُومُ» بالرفع، وما حكاه أبو معاذ^(٢) القاري: «يوم» بالجر على ما تقدم.

فصل في المراد بقيام الناس لرب العالمين

قيام الناس لرب العالمين إمّا للحساب، وإمّا قيامهم من القبور. وقال أبو مسلم^(٣): قيامهم له عبارة عن طاعتهم له وانقيادهم، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩]، وفي الحديث: «إِنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ لَا يُؤْمَرُ فِيهِمْ بِأَمْرٍ»^(٤).

وعن ابن عباس: وهو في حقّ المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة^(٥). وفي هذه الآيات مبالغات، منها أن الويل إنما يذكر عند شدة البلاء، ومنها الإنكار بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾، ومنها استعظامه - تعالى - لليوم، ومنها تأكيده بما بعده، وما يوهم ذلك، وما يقتضيه من خضوعهم وذلتهم، وفي هذا نكتة، وهي كأن قائلاً يقول: هذا التشديد العظيم، والوعيد البليغ، كيف يكون على التطفيف مع نزارته، وزهادته، وكرم المولى وإحسانه؟.

فأشار بقوله: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أنه مربيههم ومستول عن أمورهم، فلا يليق أن يهمل من أمورهم شيئاً.

فصل في الكلام على لفظ «المطفف»

قال القشيري: لفظ المطفّف يتناول التطفيف في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وإخفائه؛ وفي طلب الإنصاف والانتصاف، ويقال: من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه، فليس بمنصف، والمباشرة والصحبة من هذه المادة، والذي يرى عيب الناس، ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة، ومن طلب حقّ نفسه من الناس، ولا يعطيهم حقوقهم، كما يتطلبه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾.

(١) ينظر: البحر المحيط ٤٣٢/٨، والدر المصون ٤٩١/٦.

(٢) ينظر السابق. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٨٣/٣١.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المشور» (٥٣٧/٦) وعزاه إلى ابن مردويه عن أبي هريرة.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٨٣/٣١) عن ابن عباس.

«كَلَّا»: حرف ردع، أي: ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا، وهاهنا تم الكلام.
وقال الحسن: «كَلَّا»: ابتداء يتصل بما بعده على معنى «حقاً» إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ
الذي كتب فيه أعمالهم لفي سجين^(١).

اختلفوا في نون «سَجِّين».

ف قيل: هي أصلية، واشتقاقه من السَّجْن، وهو الحبس، وهو بناء مبالغة «فعيلاً» من
السجن، كـ «سِكِّير» و «فَسِّيق» من السكر والفسق وهو قول أبي عبيدة والمبرد والزجاج.

قال الواحدي: وهذا ضعيف؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً.

وقيل: «النون» بدل من «اللام»، والأصل: «سجيل» مشتقاً من السَّجَل، وهو الكتاب.

واختلفوا فيه أيضاً: هل هو اسم موضع، أو اسم كتاب مخصوص؟

وقيل: هو صفة، أو علمٌ منقول من وصف كـ «خاتم»، وهو مصروف إذ ليس فيه
إلا سبب واحد، وهو العلمية.

وإذا كان اسم مكان، فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾ إمّا بدل منه، أو خبر لمبتدأ
محذوف، وهو ضمير يعود عليه.

وعلى التقديرين فهو مشكل؛ لأن الكتاب ليس هو المكان.

ف قيل: التقدير، هو محل كتاب، ثم حذف المضاف.

وقيل: التقدير: وما أدراك ما كتاب سجين، والحذف إما من الأول وإما من الثاني.

وأما إذا قلنا: إنه اسم لكتاب فلا إشكال.

وقال ابن عطية^(٢): من قال: إن سجيناً موضع، فكتاب مرفوع على أنه خبر «إن»،
والظرف الذي هو «لفي سجين» ملغى، ومن جعله عبارة عن الخسار، فـ «كتاب» خبر
مبتدأ محذوف، والتقدير: هو كتاب، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو انتهى.

وهذا لا يصح - ألّبتة - إذ دخول اللام يعيّن كونه خبراً، فلا يكون ملغياً لا يقال:

«اللام» تدخل على معمول الخبر، فهذا منه، فيكون ملغى؛ لأنّه لو فرض الخبر، وهو
«كتاب» عاملاً أو صفة عاملة، وهو «مَرْقُوم» لا متنع ذلك، أمّا منع عمل «كتاب»، فلأنّه
موصوف، والمصدر الموصوف لا يعمل، وأمّا امتناع عمل «مَرْقُوم»؛ فلأنّه صفة،
ومعمول الصفة لا يتقدم على موصوفها، وأيضاً: فاللام إنما تدخل على معمول الخبر
بشرطه، وهذا ليس معمولاً للخبر، فتعيّن أن يكون الجار هو الخبر، وليس بملغى.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦٨/١٩) عن الحسن.

(٢) المحرر الوجيز ٤٥١/٥.

وأما قوله ثانياً: ويكون هذا الكلام تفسيراً لـ «سجين» ما هو، فهو مشكل، لأن الكتاب ليس هو الخسار الذي جعل الضمير عائداً عليه مخبراً عنه بـ «كتاب». وقال الزمخشري^(١): فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجار بأنه في سجين، وفُسِّرَ سجيناً بـ «كتاب مرقوم»، فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه؟. قلت: سجين: كتاب جامع هو: ديوان الشر دون الله فيه أعمال الشياطين، وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وسمي «سجيناً» «فعيلاً» من السجن؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم انتهى.

فصل في تفسير معنى سجين

قال عبد الله بن عمر وقتادة ومجاهد والضحاك: «سجين» هي الأرض السابعة السفلى، فيها أرواح الكفار^(٢). وروى البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين» أسفل سبع أرضين، و «عليون» في السماء السابعة تحت العرش^(٣). وقال الكلبي: هي صخرة تحت الأرض السابعة^(٤). وقال عكرمة: «لفي سجين» لفي خسارة وضلال^(٥). قال القشيري: «سجين»: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر، بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾، أي: ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت، ولا قومك. قال القرطبي^(٦): وليس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ما يدل على أن لفظ «سجين» ليس عربياً، كما لا يدل قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢٠]، بل هو تعظيم لأمر سجين.

(١) الكشف ٧٢١/٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٨٧/١٢) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٣٨/٦) عن مجاهد وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة» والمحاملي في «أماليه». وذكره عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

وقد ورد هذا المعنى مرفوعاً من حديث عائشة ذكره السيوطي أيضاً في «الدر المنثور» (٥٣٨/٦) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٧٢/١٩). (٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق. (٦) الجامع لأحكام القرآن ١٦٩/١٩.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ مَرْقُومٌ﴾؛ قال المفسرون: ليس هذا تفسيراً لـ «سجين»، بل هو بيان للكتاب المذكور في قوله: «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ» أي: هو كتاب مرقوم، أي: مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم، كالرقم لا ينسى ولا يمحي حتى يجازى به، والرقم: الخط؛ قال: [الطويل]

٥١٢٨ - سَأَرْقُمُ فِي الْمَاءِ الْقَرَّاحِ إِلَيْكُمْ عَلَى بُعْدِكُمْ، إِنْ كَانَ فِي الْمَاءِ رَاقِمٌ^(١)

وقيل: الرَّقْمُ: الختم بلغة حمير. [وتقدمت هذه المادة في سورة «الكهف»]^(٢).

وقال قتادة ومقاتل: رقم: نشر، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر.

قوله تعالى: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنْثَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قيل: إنه متصل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ لمن كذب بأخبار الله تعالى.

وقيل: إن قوله: «مرقوم» معناه: مرقم أي: يدل على الشقاوة يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ذلك اليوم من ذلك الكتاب.

ثم إنه - تعالى - أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُنْثَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ﴾ يجوز فيه الإتيان نعتاً وبدلاً وبياناً، والقطع رفعاً ونصباً.

واعلم أنه - تعالى - وصف المكذب بيوم الدين بثلاث صفات:

أولها: كونه معتدياً، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق.

وثانيها: الأثيم وهو المبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي.

وثالثها: ﴿إِذَا تُنْثَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمراد: الذين ينكرون النبوة، والمراد بالأساطير: قيل: أكاذيب الأولين. وقيل: أخبار الأولين.

قوله: ﴿إِذَا تُنْثَى عَلَيْهِ﴾. العامة على الخبر.

(١) ينظر اللسان (رقم)، والقرطبي ١٩/١٦٩، والبحر ٨/٤٣٢، والدر المصون ٦/٤٩٢.

(٢) سقط من أ.

والحسن: «أُنْذَا؟» على الاستفهام الإنكاري^(١).

والعامة: «تتلى» بتاءين من فوق.

وأبو حيوة^(٢) وابن مقسم: بالياء من تحت؛ لأن التأنيث مجازي.

فصل في المراد بالمكذب في الآية

قال الكلبي: المراد بالمكذب هنا: هو الوليد بن المغيرة - لعنه الله - لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ سَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُعْتَدٍ أَيُّمٍ﴾ وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفلم: ١٠ - ١٥].

ف قيل: هو الوليد بن المغيرة.

وقيل: هو النَّضْر بنُ الحارث.

وقيل: عام في كل موصوف بهذه الصفة^(٣).

قوله: ﴿كَلَّا﴾. ردع وزجر، أي: ليس هو أساطير الأولين.

وقال الحسن: معناها «حقاً» ران على قلوبهم.

وقال مقاتل: معناه: لا يؤمنون^(٤)، ثم استأنف: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قد تقدم

وقف حفص على لام «بل» في سورة «الكهف».

والرَّان: الغشاوة على القلب كالصدأ على الشيء الصقيل من سيف، ومراة، ونحوهما.

قال الشاعر: [الطويل]

٥١٢٩ - وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ وَانْجَلَى^(٥)

وأصل الرِّين: الغلبة، ومنه رانت الخمر على عقل شاربها.

وقال الزمخشري^(٦): «يقال: ران عليه الذنب، وغان عليه، رَيْنًا، وَغَيْنًا، وَالْغَيْنُ:

الغَيْم».

والغين أيضاً: شجر متلف، الواحدة غَيْنَاء، أي: خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان.

ويقال: رَانَ رَيْنًا وَرَيْنًا، فجاء مصدره مفتوح العين وساكنها.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والفضل^(٧): «رَانَ» بالإمالة؛ لأن فاء الفعل

(١) ينظر، البحر المحيط ٤٣٣/٨، والدر المصون ٤٩٢/٦.

(٢) ينظر: السابق، والمحرم الوجيز ٤٥١/٥. (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٧٠).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر اللسان (رين)، والبحر ٤٣٠/٨، والدر المصون ٤٩٣/٦.

(٦) الكشاف ٧٢١/٤٠.

(٧) ينظر: السبعة ٦٧٥، والحجة ٣٨٥/٦، وإعراب القراءات ٤٥١/٢، وحجة القراءات ٧٥٤.

راء، وعينه ألف منقلبة عن ياء، فحسنت الإمالة، ومن فتح فعلى الأصل مثل: كَال وَبَاعَ.

فصل في المراد بالرَّين والإقفال والطبع

قال أبو معاذ النحوي: الرِّينُ، والإقفال: [أن يسود القلب من الذنوب وهو] ^(١)أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب، قال تعالى: ﴿أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤]. قال الزجاج: «رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» بمعنى غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ.

وقال الحسن ومجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب، ويغشى، فيموت القلب ^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ عَلَى الذَّنْبِ يُوقِدُ عَلَى صَاحِبِهِ [جحيماً] ^(٣) ضخمة» ^(٤).

وقال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَتَزَعَّ واستغفر صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا، فَإِذَا زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْلُو قَلْبُهُ، فَذَلِكُمُ الرَّأُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» ^(٥).

قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ هو الفاعل، و «ما»: يحتمل أن تكون مصدرية، وأن تكون بمعنى: «الذي» والعائد محذوف، وأميل ألف «رَانَ»، وفخمت، فأمالها الأخوان وأبو بكرٍ وفخّمها الباقون، وأدغمت لام «بل» في الراء، وأظهرت. قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ﴾.

قال الزمخشري ^(٦): «كلاً» ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم.

وقال القفال ^(٧): إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم، أنه كان يقول: إن كانت الآخرة حقاً، فإن الله - تَعَالَى - يعطيه مالاً وولداً، ثم كذّبه الله - تَعَالَى - بقوله: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨].

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٠/١٢) عن مجاهد والحسن وذكره السيوطي عنهما وعزاه إلى عبد بن حميد ينظر «الدر المنثور» (٥٤١/٦).

(٣) سقط من: ب. (٤) تقدم.

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٣١) والنسائي في «التفسير» كما في «تحفة الأشراف» (٤٤٣/٩) وأحمد (٢/٢٩٧) والطبري في «تفسيره» (٤٩٠/١٢) والحاكم (٥١٧/٢) وابن حبان (١٧٧١ - موارد) من حديث أبي هريرة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) ينظر الكشاف ٧٢١/٤ - ٧٢٢. (٧) ينظر الرازي ٨٧/٣١.

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]، ﴿وَلَيْنَ تُجِيعَ إِلَى رَيْتٍ إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، فلما تكرر ذكره في القرآن، ترك الله ذكره - هاهنا - وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون من أن لهم في الآخرة الحسنى، بل هم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. وقال ابن عباس أيضاً: «كلاً» يريد لا يصدقون، ثم استأنف، فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾^(١) وقيل: قوله تعالى: «كلاً» تكرير، وتكون «كلاً» هذه هي المذكورة في قوله: «كلاً»، بل ران على قلوبهم».

قوله: ﴿عَنْ رَبِّهِمْ﴾. متعلق بالخبر، وكذلك «يومئذ»، والتنوين عوض عن جملة، تقديرها: «يوم إذ يقوم الناس»؛ لأنه لم يناسب إلا تقديرها.

فصل في حجب الكفار عن رؤية ربهم

قال أكثر المفسرين: محجوبون عن رؤيته، وهذا يدل على أن المؤمنين يرون ربهم - سبحانه وتعالى - ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة.

وأيضاً فإنه - تعالى - ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد، والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله للمؤمنين، وأجاب المعتزلة عن هذا بوجوه: أحدها: قال الجبائي^(٢): المراد أنهم محجوبون عن رحمة ربهم أي: ممنوعون كما تحجب الأم بالإخوة من الثلث إلى السدس، ومن ذلك يقال لمن منع من الدخول: حاجب.

وثانيها: قال أبو مسلم: «المحجوبون» غير مقرّبين، والحجاب: الرّد، وهو ضد القبول، فالمعنى: أنهم غير مقبولين عند الرؤية، فإنه يقال: حُجِبَ عن الأمير، وإن كان قد رآه عن بعد، بل يجب أن يحمل على المنع من رحمته.

وثالثها^(٣): قال الزمخشري^(٤): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يرد على الملوك إلا المكرّمين لديهم، ولا يُحجب عنهم إلا المبانون عنهم.

والجواب: أن الحجب في استعمالاته مشترك في المنع، فيكون حقيقة فيه، ومنع العبد بالنسبة إلى الله تعالى، إمّا عن العلم، وإمّا عن الرؤية، والأول: باطل؛ لأن الكفار يعلمون الله تعالى، فوجب حمله على الرؤية.

وأما الوجوه المذكورة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، ويؤيد ما قلنا: أقوال السلف من المفسرين:

(٣) في أ: رابعاً.

(١) ذكره البغوي (٤/٤٦٠).

(٤) ينظر: الكشف ٧٢٢/٤.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٨٧/٣١.

قال مقاتل: بل لا يرون ربهم بعد الحساب، والمؤمنون يرون ربهم.

وقال الكلبي: محجوبون عن رؤية ربهم والمؤمن لا يحجب^(١)، وسئل مالك بن أنس - رضي الله عنه - عن هذه الآية، فقال: كما حجب الله تعالى أعداءه فلم يروه، ولا بد أن يتجلى لأوليائه حتى يروه.

وعن الشافعي - رحمه الله - كما حجب قوم بالسخط دل على أنهم يرونه بالرضا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. أي: إن الكفار مع كونهم محجوبين من الله يدخلون النار.

﴿ثُمَّ بَالٌ﴾ أي: تقول لهم الخزنة: «هذا» أي: هذا العذاب ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وقوله: يقال يجوز أن يكون القائم مقام الفاعل ما دلّت عليه جملة قوله: «هذا الذي كُنتُمْ»، ويجوز أن تكون الجملة نفسها، ويجوز أن تكون المصدرية. [وقد تقدم تحريره في أول «البقرة»]^(٢).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ﴾ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْفُوعٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَمُهُمْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُرْسَلُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾: لما ذكر تعالى حال الكفار والمطففين أتبعه بذكر الأبرار الذين لا يطففون، فقال: «كَلَّا» أي: ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث، ومن أن كتاب الله أساطير الأولين، بل كتابهم في سجين، وكتاب الأبرار في عليين.

وقال مقاتل: «كَلَّا» أي: لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

قوله: ﴿لَفِي عَلَيِّنَ﴾. هو خبر «إِنَّ».

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٨٨/٣١) عن الكلبي.

(٢) سقط من ب.

وقال ابن عطية هنا كما قال هناك^(١)، ويرد عليه بما تقدم، و«عليون»: جمع «عليّ»، أو هو اسم مكان في أعلى الجنة، وجرى مجرى جمع العقلاء، فرفع بالواو، ونصب وجر بالياء، مع فوات شرط العقل.

وقال أبو البقاء^(٢): واحدها «عليّ» وهو الملك.

وقيل: هو صيغة للجمع مثل عشرين، ثم ذكر نحواً مما ذكره في «سجّين» من الحذف المتقدم.

وقال الزمخشري^(٣): «عليون» علم لديوان الخير الذي دُون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع «عليّ» «فعيل» من العلوك «سجّين» من السجن، سمي بذلك، إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعلى الدرجات في الجنة، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة.

وتلك الأقوال الماضية في «سجّين» كلّها عائدة هنا.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنّها السماء السابعة^(٤).
وقال مقاتل وقتادة: هي سدره المنتهى^(٥).

وقال الفراء: يعني: ارتفاعها بعد ارتفاع لا غاية له.

وقال الزجاج: أعلى الأمكنة.

وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة.

وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، وذلك تنبيه على أنّه معلوم، وأنه سيعرفه، ثم قال تعالى: ﴿كَتَبَ مَرْقُومٌ يَشْهَدُ الْمَرْقُومُ﴾ فبين أن كتابهم في هذا الكتاب بالمرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنه - تعالى - كما وكلّهم باللوح المحفوظ، فكذلك وكلّهم بحفظ كتّاب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له، ولا يمنع أن الحفظة إذا صعدت تكتب الأبرار بأنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين، فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم، أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وكلّوا بحفظه، ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حساباً يسيراً.

وقيل: المعنى: ارتفاع بعد ارتفاع.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٥٢. (٢) ينظر: الإملاء ٢/٢٨٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/٧٢٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٩٣) عن كعب وقتادة ومجاهد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤١) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٩٤) عن الضحّاك.

وقال أبو مسلم: هذا كناية عن العلو والرفعة، والأول كناية عن الذل والإهانة.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عَلْيُون»: لوحٌ من زبرجدة خضراء معلق تحت
العرش أعمالهم مكتوبة فيه^(١).

قال كعب وقتادة: هي قائمة العرش اليمنى^(٢).

وقال ابن عباس: هو الجنة^(٣).

وقال الضحاك: سدرَةُ المنتهى^(٤).

وقوله تعالى: ﴿كَلْبٌ مَرْقُومٌ﴾: ليس فيه تفسير عليين، أي: مكتوب أعمالهم كما تقدم
في كتاب الفجار.

وقيل: كتب هناك ما أعد الله لهم من الكرامة.

قوله: ﴿يَشْهَدُونَ﴾: جملة يجوز أن تكون صفة ثانية، وأن تكون مستأنفة، والمعنى:
أنَّ الملائكة الذين هم في عليين يشهدون، ويحضرون ذلك المكتوب وذلك الكتاب إذا
صعد به إلى عليين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. لَمَّا عَظُمَ كتابهم عَظُمَ منزلتهم بأنهم في النعيم،
ثم بين ذلك النعيم بأمرٍ ثلاثة: أولها: بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ﴾.

قال القفال: «الأرائك»: الأسيرة في الحجال، ولا تُسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا
كان كذلك.

وعن الحسن - رضي الله عنه - كُتِّبَ لا ندري ما الأريكة، حتى لقينا رجلاً من أهل
«اليمن»، أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك^(٥). وقوله: «يُنْظَرُونَ» قيل: إلى أنواع نعيمهم
من الحُور والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها.
وقال مقاتل: ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون^(٦).

وقيل: إذا اشتهاوا شيئاً نظروا إليه، فيحضرهم ذلك الشيء في الحال وقيل: يحمل
على الكل.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٧٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٩٣) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤١)
وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٩٤) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤١)
وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» ١٧٢/١٩. (٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/٨٩).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٧٣).

قال ابن الخطيب^(١): إنهم ينظرون إلى ربهم بدليل قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ﴾. العامة: على إسناد الفعل إلى المخاطب، أي: تعرف أنت يا محمد، أو كل من صح منه المعرفة.

وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وشيبة وطلحة ويعقوب والزعفراني^(٢): «تُعْرِفُ» مبنياً للمفعول، و «نَضْرَةُ»: بالرفع على قيامها مقام الفاعل.

وعلي بن زيد^(٣): كذلك إلا أنه بالياء أسفل؛ لأن التأنيث مجازي.

والمعنى: إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعيم مما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض.

وقال الحسن: النضرة في الوجه والسرور في القلب^(٤).

قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾.

قال الليث: الرَّحِيقُ: الخمر^(٥).

وقيل: الخمر الصافية الطيبة.

وقال مقاتل: الخمر البيضاء^(٦).

وقال ابن الخطيب^(٧): لعله الخمر الموصوف بقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

قوله: «مختوم»، أي: ختم ومنع أن تمسه يد إلى أن يفك ختم الأبرار.

قال القفال^(٨): يحتمل أن يكون ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به

العادة من ختم ما يكرم ويصان، وهناك خمر أخرى تجري أنهاراً، لقوله: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ حَمْرِ لَدَوْ لِلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، إلا أن هذا المختوم أشرف من الجاري.

وقال أبو عبيدة والمبرد والزجاج: «المختوم»: الذي له ختام أي: عاقبة.

وروى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: المختوم أشرف من الجاري الممزوج

ختامه، أي: آخر طعمه وعاقبته مسك، وختم كل شيء: الفراغ منه، ومنه يقال: ختمت

(١) ينظر الفخر الرازي ٨٩/٣١.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٤٥٣/٥، والبحر المحيط ٤٣٤/٨، والدر المصون ٤٩٤/٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٣٤/٨، والدر المصون ٤٩٤/٦.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦١/٤).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٦/١٢ - ٤٩٧) عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة وابن زيد.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦١/٤). (٧) ينظر: الفخر الرازي ٩٠/٣١.

(٨) ينظر: السابق.

القرآن، والأعمال بخواتيمها^(١)، ويؤيده قراءة علي^(٢) بن أبي طالب - كرم الله وجهه - واختاره الكسائي، فإنه قرأ: «خَاتَمُهُ مِسْكٌ» أي: آخره، كما يقال: خاتم النبيين، ومعناه واحد.

قال الفراء: وهما متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم: الاسم، والخِتام: المصدر، كقولهم: هو كريم الطباع والطابع، والخِتام والخاتم.

وقال قتادة: يمزج لهم بالكافور، ويختم لهم بالمسك^(٣).

وقال مجاهد: مختوم، أي: مطين^(٤).

قوله: ﴿خَتَمُهُ﴾ أي: طينه مسك.

قال ابن زيد: ختامه عند الله مسك، وختام الدنيا طين.

وقرأ الكسائي^(٥): «خَاتَمُهُ» بفتح التاء بعد الألف.

وبالقون: بتقديمها على الألف.

فوجه قراءة الكسائي: أنه جعله اسماً لما يختم به الكأس، بدليل قوله: «مَخْتُومٌ». ثم بين الخاتم ما هو، فروي عن الكسائي أيضاً: كسر التاء، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ آلَ يُونُسَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، والمعنى: خاتم رائحته مسك ووجه قراءة الجماعة: أن الختام هو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل بدله المسك.

قال الشاعر: [الوافر]

٥١٣٠ - كَأَنَّ مُشْغَسَعًا مِنْ خَمْرِ بُضْرَى تَمَثُّهُ الْبَحْثُ مَشْدُودَ الْخِتَامِ^(٦)

وقيل: خلطه ومزاجه.

وقيل: خاتمته أي: مقطع شربه يجد الإنسان فيه ريح المسك.

قيل: سُمِّيَ المسك مسكاً؛ لأن الغزال يُمسكه في سُرَّتِهِ، والمساكة: البُخْلُ وحبس

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٧٤/١٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٥٣/٥، والبحر المحيط ٤٣٤/٨، والدر المصون ٤٩٤/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٨/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٣/٦) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦١/٤).

(٥) ينظر: الحجة للقراء السبعة ٣٨٦/٦ - ٣٨٧، وإعراب القراءات ٤٥١/٢، وحجة القراءات ٧٥٤.

(٦) يروي البيت برواية:

فَبِشْنِ جَنَابَتِيْ مُصَوَّعَاتٍ وَبِثْ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ

ينظر معاني القرآن للقراء ٣٤٨/٣، واللسان (ختم)، (غلق)، والقرطبي ٩٧٤/١٩، والبحر ٤٣٤/٨، والدر المصون ٤٩٤/٦.

المال، يقال: رجل مَسِيكٌ لبخله، والمَسْكُ: الجلد لإمساكه ما فيه، والمَاسِكَةُ: التي أخطأت خافضتها فأصابت من مسكها غير موضع الختان، والمَسَكَةُ: سوار من قرن أو عاج لتمامه والمسكة - بضم الميم -: الشيء القليل، يقال: ما له مُسْكَةٌ، أي: عقل.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾. التَّنَافُسُ: المُغالبة في الشيء النفيس، يقال: نفسته به نفاسة، أي: بخلت به، وأصله من النَّفْسِ لعزتها.

قال الواحدي: نفست الشيء أنفسه نفاسةً: بَخِلْتُ به.

وقال البغوي^(١): وأصله من الشيء النَّفِيس أي: تحرص عليه نفوس النَّاس، ويريده كل واحد لنفسه، وينفس به على غيره أي: يَضُنُّ، والمعنى: وفي ذلك فليُريغ الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى.

وقال مجاهد: فليعمل العاملون^(٢)، كقوله تعالى: ﴿لِنُلْهِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١].

وقال عطاء: فليستبق المستبقون^(٣).

وقال مقاتل بن سليمان: فليتنازع المتنازعون^(٤).

قوله: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَنْجِيمٍ﴾، التَّسْنِيم: علمٌ لعينٍ في الجَنَّة.

فصل في المراد بالتسليم

قال الزمخشري^(٥): «التسليم» علمٌ لعينٍ بعينها، سميت بالتسليم الذي هو مصدر سَنَمه، إذا رفعه.

قال شهاب الدين^(٦): وفيه نظر؛ لأنه كان من حقه أن يمنع الصَّرف للعلمية والتأنيث، وإن كان مجازياً، ولا يقدح في ذلك كونه مذكر الأصل؛ لأن العبرة بحال العلمية، ألا ترى أنهم نصَّوا على أنه لو سمي بـ «زيد» امرأة وجب المنع، وإن كان في «هَند» وجهان، اللهم إلا أن يقول: ذهب بها مذهب النهر، ونحوه، فيكون كـ «واسط، ودانق».

فصل في معنى التسليم

التسليم: شرابٌ ينصبُّ عليهم من علوِّ في غرفهم ومنازلهم.

وقيل: يجري في الهواء منسماً فينصبُّ في أوانيهم فيملأها.

(١) ينظر: معالم التنزيل (٤/٤٦١).

(٢) ينظر المصدر السابق وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٢٣١).

(٣) ينظر المصدر السابق. (٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر: الكشاف (٤/٧٢٣). (٦) ينظر: الدر المصون ٦/٤٩٤.

قال قتادة: وأصل الكلمة من العلو، ويقال للشيء المرتفع سنام، ومنه سنام البعير، وتسمنت الحائط: إذا علوته.

وقال الضحاك: هو شراب اسمه: تسنيم، وهو من أشرف الشراب^(١).

قال ابن مسعود وابن عباس: هو خالص للمقربين يشربونها، ويمزج لسائر أهل الجنة، وهو قوله تعالى: «ومزاجه من تسنيم، عينا يشرب بها المقربون»^(٢).

وعن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال: هذا ما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٣) [السجدة: ١٧].

قوله: ﴿عَيْنًا﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه حال.

قال الزجاج: يعني من تسنيم، لأنه علم لشيء بعينه، إلا أنه يشكل بكونه جامداً.
الثاني: أنه منصوب على المدح. قاله الزمخشري^(٤).

الثالث: أنها منصوبة بـ «يُسْقَوْنَ» مقدراً. قاله الأخفش.

وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها، والباء زائدة، أو ضمير «يشرب» بمعنى يروى، وتقدم هذا مشبعاً في «هل أتى».

قال البغوي^(٥): التقدير: يشربها المقربون صرفاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، أي: أشركوا، يعني: كفار قريش أبا جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل من مترفي «مكة».

﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عمار، وخبّاب، وصهيب، وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين «يضحكون» استهزاء بهم.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: متعلق بـ «يضحكون» أي: من أجلهم، وقدم لأجل الفواصل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِهِمْ﴾ يعني: المؤمنين بالكفار «يَتَغَامَزُونَ»، والغمز: الإشارة بالجفن والحاجب، أي: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦٢/٦).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤٩٩/١٢ - ٥٠٠) عن ابن مسعود ومالك بن الحارث ومسروق وغيرهم. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٤/٦) عن ابن مسعود وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبه وابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وذكره عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٤/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ينظر الكشف ٧٢٣/٤. (٥) ينظر: معالم التنزيل ٤٦٢/٤.

وقيل: الغمزُ بمعنى: العيب يقال: غمزهُ، أي: عابه، وما في فلان غمِزٌ، أي: ما يعابُ به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا﴾ يعني: الكفار ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكَيْهٍ﴾ معجبين بما هم فيه، يتفكَّهُونَ تذكُّرهم بالسوء.

وقرأ حفص: «فكهي» دون ألف.

والباقون^(١): بها.

ف قيل: هما بمعنى، وقيل: «فكهي» أشرين، و «فاكهي» من التفكه.

وقيل: «فكهي» فرحين و «فاكهي» ناعمين.

وقيل: «فاكهي» أصحاب فاكهة ومزاح.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾. يجوز أن يكون المرفوع للكفار، والمنصوب للمؤمنين، أي: أن الكفار إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ قالوا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَصَّالُونَ﴾ أي: يأتون محمداً المختار، يرون أنهم على شيء، أي: هم على ضلال في تركهم التمتع الحاضر بسبب شراب لا يدرى هل له وجود أم لا؟ ويجوز العكس، وكذلك الضميران في ﴿أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المشركين عليهم، والمعنى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ يعني المشركين «عليهم» يعني المؤمنين «حافظين» أعمالهم، لم يוכלوا بحفظ أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. «فاليوم»: منصوب بـ «يَضْحَكُونَ»، ولا يضر تقديمه على المبتدأ، لأنه لو تقدم هنا العامل لجاز، إذ لا لبس بخلاف «زيد قائم في الدار» لا يجوز «في الدار زيد قائم».

ومعنى، «فاليوم» أي: في الآخرة يضحك المؤمنون من الكافرين، وفي سبب هذا الضحك وجوه:

منها: أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا، بسبب ما هم فيه من التضرر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين، بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء.

ومنها: أنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم باعوا الباقي بالفاني.

ومنها: أنهم يرون أنفسهم أنهم قد فازوا بالنعيم المقيم، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد.

ومنها: أنهم دخلوا الجنة، فأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار كيف يعذبون

(١) ينظر: السبعة ٦٧٦، والحجة ٦/٣٨٨، وإعراب القراءات ٢/٤٥٢، وحجة القراءات ٧٥٥.

في النار، ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور، ويلعن بعضهم بعضاً.

ومنها: قال أبو صالح: يقال لأهل النار - وهم فيها - اخرجوا، ويفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذلك سبب الضحك.

قوله: ﴿عَلَىٰ آلِكَ يَنْظُرُونَ﴾: الجار متعلق بـ «ينظرون»، و «ينظرون»: حال من «يضحكون»، أي: يضحكون ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان.

قوله: ﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾. يجوز أن تكون الجملة الاستفهامية معلقة للنظر قبلها، فتكون في محل نصب بعد إسقاط الخافض بـ «ينظرون».

وقيل: استئناف لا موضع له، ويجوز أن يكون على إضمار القول، أي: يقولون: هل ثوب، ومعنى «تُؤْتَبُ» أي: جُوزِي، يقال: ثُوبُهُ وأُثَابُهُ.

قال: [الطويل]

٥١٣١ - سَاجِرِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثُوبٌ وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْكَ وَتُحْمَدَ^(١)

ويدغم أبو عمرو والكسائي وحمزة^(٢): لام «هل» في الشاء.

قوله: «ما كانوا» فيه حذف، أي: ثواب ما كانوا، أو موصول اسمي أو حرفي.

قال المبرد: «ثوب» فعل من الثواب، وهو ما ثوب، يرجع على فاعله جزاء ما عمله من خير، أو شر، والثَّوَابُ: يستعمل في المكافأة بالشر.

وأشدد أبو عبيدة: [الوافر]

٥١٣٢ - أَلَا أَبْلِغُ أَبَا حَسَنِ رَسُولًا فَمَا لَكَ لَا يَجِيءُ إِلَى الثَّوَابِ^(٣)

وثُوبٌ وأُثَابٌ بمعنى واحد، والأولى أن يحمل على سبيل التَّهْكُم، كقوله: ﴿ذُقْ

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كأنه - تعالى - يقول للمؤمنين: هل جازينا هؤلاء الكفار على استهزائهم بطريقتكم كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة، فيكون هذا القول زائداً في سرورهم والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ «المُطَفِّفِينَ» سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) البيت لأوس بن حجر، ينظر الكشف ٧٢٤/٤، والبحر ٤٣٥/٨، والدر المصون ٤٩٥/٦.

(٢) ينظر: الحجة ٤٨٩/٦، وإعراب القراءات ٤٥٢/٢، والمحور الوجيز ٤٥٥/٥، وقال ابن عطية:

قال سيبويه: وذلك حسن وإن كان دون إدغام في الراء لتقاربهما في المخرج.

(٣) ينظر الفخر الرازي ١٠٣/٣١.

(٤) تقدم تخريجه.

سورة الانشقاق

مكية، وهي ثلاث وعشرون آية، ومائة وسبع كلمات، وأربعمائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (٣) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (٤) ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٥)

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُورَتْ﴾ [التكوير: ١] في إضمار الفعل وعدمه، وفي «إذا» هذه احتمالات:

أحدها: أن تكون شرطية.

والثاني: أن تكون غير شرطية.

فعلى الأول في جوابها خمسة أوجه:

أحدها: أنها «أذنت» [الانشقاق: ٢، ٥] والواو مزيدة.

قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع «حتى إذا» كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، أو مع «لَمَّا» كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَلَكُمُ اللَّجَيْنِ وَتَدَيَّنَتَا﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤]، أي: ناديناه، والواو لا تقحم مع غير هذين.

الثاني: أنه «فمُلاقِيه» أي فأنت ملاقيه وإليه ذهب الأخفش.

والثالث: أنه «يا أيُّها الإنسان» على حذف الفاء.

والرابع: أنه «يا أيُّها الإنسان» أيضاً، ولكن على إضمار القول، أي: يقال: «يا أيُّها الإنسان».

والخامس: أنه مقدَّر، تقديره: بعثتم.

وقيل: تقديره: لاقى كل إنسان كدحه وهو قوله: «فمُلاقِيه» ويكون قوله: «يا أيُّها الإنسان» معترض، كقولك: إذا كان كذا وكذا - يا أيُّها الإنسان - ترى عند ذلك ما عملت من خير أو شر.

ونقل القرطبي^(١) عن المبرد، أنه قال: فيه تقديم وتأخير، أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية إذا السماء انشقت.

وقيل: هو ما صرّح به في سورتي «التكوير» و «الانفطار»، وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [الانفطار: ٥]، قاله الزمخشري^(٢)، وهو حسن.

ونقل ابن الخطيب^(٣) عن الكسائي، أنه قال: إن الجواب هو قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْبُوتَهُ﴾ [الانشقاق: ٧]، واعترض في الكلام على قوله: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦].

والمعنى: إذا انشقت السماء وكان كذا وكذا، فمن أوتي كتابه بيمينه، فهو كذا ومن أوتي كتابه وراء ظهره، فهو كذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيَّتُكُم مِّنِي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ﴾ [البقرة: ٣٨].

قال النحاس: وهذا أصح ما قيل فيه وأحسنه.

وعلى الاحتمال الثاني: فيه وجهان:

أحدهما: أنها منصوبة مفعولاً بها بإضمار «واذكر».

والثاني: أنها مبتدأ، وخبرها «إذا» الثانية، و «الواو» مزيدة، تقديره: وقت انشقاق السماء وقت مذ الأرض، أي: يقع الأمران في وقت. قاله الأخفش أيضاً.

والعامل فيها إذا كانت ظرفاً - عند الجمهور - جوابها، إمّا المملووظ به، وإمّا المقدّر.

وقال مكّي: وقيل: العامل «انشقت».

وقال ابن عطية^(٤): قال بعض النحاة: العامل «انشقت» وأبى ذلك كثير من أئمتهم؛ لأن «إذا» مضافة إلى «انشقت»، ومن يجيز ذلك تضعف عنده الإضافة، ويقوى معنى الجزاء.

وقرأ العامة: «انشقت» بقاء التانيث ساكنة، وكذلك ما بعده.

وقرأ أبو عمرو في رواية^(٥) عبيد بن عقيل: بإشمام الكسر في الوقف خاصة، وفي الوصل خاصة بالسكون المحض.

قال أبو الفضل: وهذا من التغيرات التي تلحق الروي في القوافي، وفي هذا

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٧٨. (٢) ينظر: الكشف ٤/٧٢٥.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٤١/٩٥. (٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٥٧.

(٥) ينظر: إعراب القراءات ٢/٤٥٤، والمحرر الوجيز ٥/٤٥٦، والبحر المحيط ٨/٤٣٧، والدر المصون ٦/٤٩٧.

الإشمام بيان أن هذه «التاء» من علامة تأنيث الفعل للإناث، وليست مما ينقلب في الأسماء، فصار ذلك فارقاً بين الاسم والفعل، فيمن وقف على باقي الأسماء بالتاء، وذلك لغة طييء، وقد حمل في المصاحف بعض التاءات على ذلك.

وقال ابن عطية^(١): قال بعض النحاة: وقرأ أبو عمرو «انشقت» يقف على القاف، كأنه يشمها شيئاً من الجبر، وكذلك في أخواتها.

قال أبو حاتم: سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات.

وقال ابن خالويه^(٢): «انشقت» - بكسر التاء - عبيد عن أبي عمرو.

قال شهاب الدين^(٣): كأنه يريد إشمام الكسر، وأنه في الوقف دون الوصل؛ لأنه مطلق، وغيره مقيد، والمقيد يقضي على المطلق.

وقال أبو حيان^(٤): وذلك أن الفواصل تُجْرَى القوافي، فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي تكسر في الفواصل؛ ومثال كسرهما في القوافي؛ قول كثير عزة: [الطويل]

٥١٣٣ - وَمَا أَنَا بِالْدَّاعِي لَعَزَّةَ بِالرَّدَى وَلَا شَامِتٍ إِنْ نَفَلُ عَزَّةَ زَلَّتِ^(٥)

وكذلك في باقي القصيدة، وإجراء الفواصل في الوقف مُجْرَى القوافي مهيع معروف كقوله تعالى: ﴿الْطُّنُونَا﴾، والرسولا، في سورة «الأحزاب» [١٠ و ٦٦]، وحمل الوصل على حالة الوقف موجود في الفواصل أيضاً.

فصل في المراد بانشقاق السماء

انشقاق السماء من علامات القيامة، وقد تقدّم شرحه.

وعن علي - رضي الله عنه - أنها تنشق من المجرة، وقال: المجرة: باب السماء^(٦).

قوله: ﴿وَأَذْنَتْ﴾. عطف على «انشقت»، وقد تقدّم أنه جواب على زيادة الواو.

ومعنى «وأذنت»: أي: استمعت أمره، يقال: أذنت لك: استمعت لك، وفي الحديث: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ كَاذِبِهِ لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ»^(٧).

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٥٦. (٢) إعراب القراءات السبع ٢/٤٥٤.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/٤٩٧. (٤) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٣٧.

(٥) ينظر ديوان كُثَيْر عَزَّة (٤١)، والبحر المحيط ٨/٤٣٨، والدر المصون ٦/٤٩٧.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن علي.

(٧) أخرجه البخاري ١٣/٥١٨ في التوحيد: باب: قول النبي ﷺ الماهر بالقرآن (٢٥٤٤)، ومسلم ١/

٥٤٥، في صلاة المسافرين: باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٢٣٣/٧٩٢).

وأُنشد أبو عبيدة والمبرد والزجاج قول قعنب : [البسيط]

٥١٣٤ - صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(١)

وقال آخر : [البسيط]

٥١٣٥ - إِنْ يَأْذُنُوا رَبَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا وَمَا هُمْ أَذْنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا^(٢)

وقال الجحاف بن حكيم : [الطويل]

٥١٣٦ - أَذْنْتُ لَكُمْ لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ^(٣)

ومعنى الاستعارة - هاهنا - أنه لم يوجد في جزم السماء ما يمنع من تأثير قدرة الله تعالى في شقها، وتفريق أجزائها، فكأنها في قبول ذلك التأثير كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك أنصت، وأذعن، ولم يمتنع كقوله تعالى : ﴿قَالَتَا أَئِنَّا لَطَائِعِينَ﴾ [فصلت : ١١]، وذلك يدل على نفوذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً. قاله ابن الخطيب^(٤).

قوله : «وَحَقَّتْ». الفاعل في الأصل هو الله تعالى، أي : حقَّ الله عليها ذلك، أي : بسمعه وطاعته، يقال : هو حقيقٌ بكذا ومحقوق، والمعنى : وحقَّ لها أن تفعل .

قال الضحاك : «حَقَّتْ» أطاعت وحقَّ لها أن تُطيع^(٥).

وقال ابن الخطيب^(٦) : هو من قولك : محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وهي حقيقة بأن تنقاد، ولا تمتنع .

قوله : ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ مد الأديم .

وقيل : «مُدَّتْ» بمعنى : أمدت وزيد في سعتها وقال مقاتل رضي الله عنه : سُويت كمدَّ الأديم، فلا يبقى فيها بناء ولا جبل، كقوله تعالى : ﴿وَسَتَلَوْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾^(٧) [طه : ١٠] الآية .

(١) قاله قعنب ابن أم صاحب من شعراء عصر بني أمية ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ١٨٧/٢، وسمط اللآلئ ٣٦٢/١، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب : ص ٢٩٢، ومجاز القرآن ٢/٢٩١، ومعاني القرآن وإعرابه ٣٠٣/٥، والطبري ٧٢/٣٠، واللسان (أذن).

(٢) تقدم .

(٣) صدر بيت وعجزه :

فَأَسْمَعُ مُنُونِي بِالْخَنَّا وَالْفَوَاحِشِ

ينظر الكشف ٧٢٥/٤، والدر المصون ٤٩٧/٦.

(٤) ينظر : الفخر الرازي ٩٤/٣١.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٥/١٢) عن الضحاك ومثله عن السدي ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٧/٦) وعزاه إلى ابن المنذر .

(٦) ينظر : الفخر الرازي ٩٤/٣١. (٧) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٦٣/٤).

قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾. أي: أخرجت ما فيها من الموتى والكنوز، لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، «وتخلَّت» أي: خليت منها، ولم يبق في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة، ووصفت الأرض بذلك توسعاً وإلا فالتحقيق أن الله تبارك وتعالى هو المخرج لتلك الأشياء من بطن الأرض. قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾. تقدّم تفسيره، وهذا ليس بتكرار؛ لأن الأول في السماء وهذا في الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمَّ يَهْ ۖ﴾ (٦) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبٍ بِمِيزَنٍ ۖ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيِّرًا ۖ﴾ (٨) ﴿وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبٍ وَرَاءَ ظَهْرٍ ۖ﴾ (١٠) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ﴾ (١١) ﴿وَيَصِلُ سَعِيرًا ۖ﴾ (١٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ﴾ (١٣) ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ ۖ﴾ (١٤) ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ﴾ (١٥) قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾.

قيل: المراد جنس الإنسان^(١)، كقولك: يا أيها الرجل، فكان خطاباً خص به كل واحد من الناس.

قال القفال^(٢): وهو أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين، بخلاف اللفظ العام.

وقيل: المراد منه رجل بعينه، فقيل: هو محمد - عليه الصلاة والسلام -، والمعنى: أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله - تعالى - وإرشاد عباده، وتحمل الضرر من الكفار، فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل.

وقال ابن عباس: هو أبي بن خلف، وكدحه: هو جده واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - والإصرار على الكفر^(٣).

فصل في المراد بالكدح

الكَدْحُ: قال الزمخشري^(٤): جَهْدُ النَّفْسِ، والكَدْمُ فيه حتى يؤثر فيها، ومنه كدح جلده إذا خدشه، ومعنى «كادح» أي: جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت. انتهى. وقال ابن نفيل: [الطويل]

٥١٣٧ - وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ، وَآخَرَىٰ ابْتِغَىٰ الْعَيْشَ أَكْدَحُ^(٥)

(٢) الفخر الرازي ٣١/٩٦.

(٤) الكشاف ٤/٧٢٦.

(١) في أ الناس.

(٣) ينظر المصدر السابق عن ابن عباس.

(٥) تقدم.

وقال آخر: [الكامل]

٥١٣٨ - وَمَضَتْ بِشَاشَةً كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ وَيَقِيتُ أَكْدَحَ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ^(١)

وقال الراغب: وقد يستعمل الكدح دون الكدم بالأسنان.

وقال الخليل: الكدحُ دون الكدم.

فصل في معنى الآية

معنى «كادحٌ إلى ربك» أي: ساعٍ إليه في عملك.

والكدحُ: عمل الإنسان وجهده في الخير والشر.

قال قتادة والكلبي والضحاك: عامل لربك عملاً^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي:

إلى لقاء ربك، وهو الموت، أي: هذا الكدح استمر إلى هذا الزمن.

وقال القفال^(٣): تقديره: أنك كادح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربك.

قوله: «فملاقيه»: يجوز أن يكون عطفاً على «[إنك]^(٤) كادح»، والسبب فيه ظاهر،

ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمّر، أي: فأنت ملاقيه، وقد تقدم أنه يجوز أن يكون جواباً للشرط.

وقال ابن عطية^(٥): فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على التي قبلها، والتقدير:

فأنت ملاقيه. يعني بقوله: «على هذا» أي: على عود الضمير على كدحك.

قال أبو حيّان^(٦): «ولا يتعين ما قاله، بل يجوز أن يكون من عطف المفردات».

والضمير في «فملاقيه»: إمّا للرب، أي: ملاقي حكمه لا مفر لك منه. قاله

الزجاج.

وإمّا لـ «الكدح» إلا أن الكدح عمل، وهو عرض لا يبقى، فملاقاته ممتنعة،

فالمراد: جزاء كدحك.

وقال ابن الخطيب^(٧): المراد: ملاقة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال، ويتأكد

هذا بقوله بعده: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا﴾.

(١) ينظر القرطبي ٢٧٨/١٩، والبحر ٤٣٦/٨، والدر المصون ٤٩٨/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٠٧/١٢) عن قتادة وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤٧) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٩٦/٣١. (٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٤٥٧/٥. (٦) البحر المحيط ٤٣٩/٨.

(٧) الفخر الرازي ٩٦/٣١.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَيْبَهُ بِإِيمِينَةٍ﴾، أي: ديوان أعماله بيمينه.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، «سوف» من الله واجب، كقول القائل: اتبعني فسوف تجد خيراً، فإنه لا يريد الشك، وإنما يريد تحقيق الكلام، والحساب اليسير: هو عرض أعماله، فيثاب على الطاعة، ويتجاوز عن المعصية، ولا يقال: لم فعلت هذا، ولا يطالب بالحجة عليه.

قال عليه السلام: «مَنْ حُوسِبَ عُذْبٌ»، قالت عائشة - رضي الله عنها -: أَوْ لَيْسَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مِنْ نُوقَشَ الْحِسَابُ عُذْبٌ»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ في الجنة من الحُورِ العِينِ، والآدَمِيَّاتِ والذَرِّيَّاتِ إذا كانوا مؤمنين [«مَسْرُوراً» أي: مُغْتَبِطاً قَرِيرَ الْعَيْنِ]^(٢).

قال ابن الخطيب^(٣): فإن قيل: إنَّ المحاسبة تكون بين اثنين، وليس في القيامة لأحد مطالبة قبل ربه فيحاسبه؟.

فالجواب: إن العبد يقول: إلهي، فعلت الطاعة الفلانية، والرب - سبحانه وتعالى - يقول: فعلت المعصية الفلانية، فكان ذلك من الرب - سبحانه وتعالى - ومن العبد محاسبة، والدليل أنه - تعالى - خصَّ الكفَّار بأنه لا يكلمهم، فدل ذلك على أنه يكلم المطيعين، فتلك المكاملة محاسبة.

قوله: «مَسْرُوراً»: حال من فاعل «يَنْقَلِبُ».

وقرأ زيد^(٤) بن علي: «يُقَلَّبُ» مبنياً للمفعول من «قلبه» ثلاثياً.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَيْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.

قيل: نزلت في الأسود بن عبد الأسد. قاله ابن عباس. وقيل: عامة.

وقال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، ويجعل يده اليسرى ممدودة وراء ظهره^(٥).

وقيل: يحوّل وجهه إلى قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

وقيل: يؤتى كتابه بشماله من ورائه؛ لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين مُنِعَ من ذلك، وأوتي كتابه بشماله.

(١) تقدم.

(٢) سقط من أ.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٩٧/٣١.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٤٣٩/٨، والدر المصون ٤٩٨/٦.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩١/٣١) عن الكلبي.

[فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَيْبُ بِشْمَالِهِ﴾^(١) [الحاقة: ٢٥]، فكيف قال هنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَ كَيْبُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾؟ .

فالجواب: أنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره .

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾، أي: ينادي بالويل، والشبور: الهلاك إذا قرأ كتابه يقول: يا ويلاه يا ثُبُورَاهُ، كقوله تعالى: ﴿دَعُوا هَٰذَا لِكِ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] .

قوله: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم: بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام .

والباقون^(٢): بضم الياء وفتح اللام والتثقيب، وقد تقدم تخريج القراءتين في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ لَكَ سَعِيرًا﴾ [الآية: ١٠] .

وقرأ أبو الأشهب ونافع وعاصم وأبو عمرو^(٣) في رواية عنهم: «يُضَلَّى» بضم الياء وسكون الصاد من أصلاه .

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

قال القفال^(٤): مُنْعَمًا مستريحاً من التعب بأداء العبادات، واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والجهاد، مقدماً على المعاصي، آمناً من الحساب والعذاب والعقاب، لا يخاف الله - تعالى - ولا يرجوه، فأبدله الله بذلك السرور غماً باقياً لا ينقطع .

وقيل: إن قوله: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: متنعمين في الدنيا، معجبين بما هم عليه من الكفر بالله، والتكذيب بالبعث، يضحك ممن آمن بالله وصدق بالحساب، كما قال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٥) .

قوله: ﴿إِنَّكُمْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ . معنى «يَحُور» أي: يرجع، يقال: حَارَ يَحُورُ حَوْرًا؛ قال لبيد: [الطويل]

٥١٣٩ - وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضُوئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ^(٦)

ويستعمل بمعنى: «صار»، فيرفع الاسم وينصب الخبر عند بعضهم مستدلاً بهذا البيت، وموضع نصب «رماداً» على الحال .

(١) سقط من ب .

(٢) ينظر: السبعة ٦٧٧، والحجة ٦/٣٩٠، وإعراب القراءات ٢/٤٥٥، وحجة القراءات ٧٥٥ .

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٥٨، والبحر المحيط ٨/٤٣٩، والدر المصون ٦/٤٩٨ .

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/٩٨ .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) تقدم .

وقال الراغب: «الْحَوْرُ: التردد في الأمر، ومنه: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»، أي: من التردد في الأمر بعد المضي فيه، ومحاوراة الكلام: مراجعته، والمحور: العود الذي تجري فيه البكرة لتردها عليه، والمحار: المرجع والمصير».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما كنت أدري ما معنى: «حَوْر» حتى سمعت أعرابياً يقول لابنته: «حُورِي» أي: ارجعي^(١).

وقال عكرمة وداود بن أبي هند: «يَحُور»: كلمة بالحشية، ومعناها: يرجع^(٢). قال القرطبي: «ويجوز أن تتفق الكلمتان، فإنهما كلمة اشتقاق، ومنه: الخبز الحواري، لأنه يرجع إلى البياض».

والحور أيضاً: الهلاك.

قال الراجز: [الرجز]

٥١٤٠ - فِي بَشْرِ لَا حَوْرٍ سَرَى وَلَا شَعَرَ^(٣)

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَّنْ يَحُورَ﴾: «أن لن» هذه «أن» المخففة كالتي في أول سورة القيامة، وهي سادة مسد المفعولين، أو أحدهما على الخلاف.

وقوله: «بَلَى» جواب للنفي في «لن»، و «أن»: جواب قسم مقدر، والمعنى: إنه ظن أن لن يرجع إلينا ولن يبعث، ثم قال: «بَلَى» أي: ليس كما ظن بلى يحور إلينا، أي: يبعث.

﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [قال الكلبي: بصيراً به من يوم خلقه إلى أن يبعثه.

وقال عطاء: بصيراً]^(٤) بما سبق عليه في أم الكتاب من الشقاوة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۖ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۖ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ﴾

قوله: «فلا أقسم بالشفق» «لا»: صلة، «بالشفق» أي: بالحمرة التي تكون عند غروب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة.

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٠).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٨/٦) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد. ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٤٨/٦) وعزاه إلى الطستى في مسائله والطبراني.

(٤) سقط من ب.

(٣) تقدم.

قال الراغب: الشَّفَقُ: هو اختلاط ضوء النَّهار بسواد الليل عند غروب الشمس، والإشفاق: عناية مختلطة بخوف؛ لأن المُشْفِق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عُذِّي بـ «من» فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عُدِّي بـ «على» فمعنى العناية فيه أظهر. وقال الزمخشري^(١): «الشفق» الحُمْرة التي ترى في الغروب بعد سقوط الشمس، وبسقوطه يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما روي عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين: أنه البياض. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه، سمي شفقاً لرقته، ومنه الشفقة على الإنسان، رقة القلب عليه انتهى.

والشَّفَقُ: شفقان، الشَّفَقُ الأحمر، والآخر: الأبيض، والشفقُ والشفقةُ: اسمان للإشفاق؛ وقال الشاعر: [البسيط]

٥١٤١ - تَهَوَّى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(٢)

تقدم اختلاف العلماء في القسم بهذه الأشياء، هل هو قسم بها أو بخالقها؟ وأن المتقدمين ذهبوا إلى أن القسم واقع برب الشفق، وإن كان محذوفاً؛ لأن ذلك معلوم من ورود الحظر بأن يقسم بغير الله تعالى.

واعلم أن الصحيح في الشفق: أنه الحمرة؛ لأن أكثر الصحابة، والتابعين، والفقهاء عليه، وشواهد [كلام العرب]^(٣)، والاشتقاق، والسنة تشهد له.

قال الفراء: «وسمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ أحمر كأنه الشفق».

وقال الشاعر: [الرجز]

٥١٤٢ - وَأَحْمَرُ اللَّوْنِ كُمُخْمَرِ الشَّفَقِ^(٤)

وقال آخر: [البسيط]

٥١٤٣ - قُمْ يَا غُلَامُ أَعْنِي غَيْرَ مُرْتَبِكٍ عَلَى الزَّمَانِ بِكَأْسٍ حَشَوَهَا شَفَقُ^(٥)

ويقال للمغرة: الشَّفَقَةُ.

وفي «الصَّحاح»^(٦): الشَّفَقُ بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قرب من العتمة.

وقال الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل: غاب الشفق.

(١) ينظر: الكشف ٧٢٧/٤.

(٢) ينظر القرطبي ١٨١/١٩، والبحر ٤٣٧/٨ والدر المصون ٤٩٩/٦.

(٣) سقط من أ. (٤) ينظر القرطبي ١٨١/١٩.

(٥) ينظر القرطبي ١٨١/١٩. (٦) ينظر الصحاح ١٥٠١/٤.

وأصل الكلمة من رقة الشيء، يقال: شيء شفق، أي: لا تماسك له لرقته، وأشفق عليه أي: رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رقة القلب، وكذلك الشفق، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس.

وزعم بعض الحكماء: أن البياض لا يغيب أصلاً.

وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية، فرمقت البياض، فرأيته يتردد من أفق إلى أفق، ولم أره يغيب.

وقال ابن أبي أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر، وكل ما يتجدد وقته سقط اعتباره.

وروى النعمان بن بشير، قال: أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة، كان النبي ﷺ يصلّيها لسقوط القمر لثالثة^(١). وهذا تحديد.

وقال مجاهد: الشفق النهار كله^(٢)؛ لأنه عطف عليه ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾، فوجب أن يكون الأول هو النهار، فعلى هذا يكون القسم واقع بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش، والثاني: سكن، والشفق أيضاً: الرديء من الأشياء، يقال: عطاء مشفق: أي: مقلل؛ قال الكميث: [الكامل]

٥١٤٤ - مَلِكٌ أَغْرُ مِنْ الْمُلُوكِ تَحَلَّبَتْ لِلْسَّائِلِينَ يَدَاهُ غَيْرُ مُشْفِقٍ^(٣)

قوله: ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾، أي: جمع وضم ولف، ومنه: الوسق، وهو الطعام المجتمع الذي يكال أو يوزن، وهو سئون صاعاً، ثم صار اسماً، واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، والراعي وسقها، أي: جمعها؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥١٤٥ - إِنَّ لَنَا قَلَانِصاً حَقَائِقاً مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقاً^(٤)

والوسق - بالكسر -: الاسم، وبالفتح: المصدر، وطعام موسق: أي: مجموع،

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧/١) كتاب الصلاة، باب: في وقت صلاة العشاء الآخرة رقم (٤١٩) والترمذي (١/٣٠٦) أبواب الصلاة، باب: ما جاء في وقت صلاة العشاء الآخرة رقم (١٦٥) والنسائي (١/٢٦٤) - (٢٦٥) وأحمد (٤/٢٧٤) والدارمي (١/٢٧٥) والدارقطني (١/٢٧٠) والبيهقي (١/١٩٤ - ١٩٥) من حديث النعمان بن بشير.

وقال ابن العربي في «عارضة الأحوزي» (١/٢٧٧): حديث النعمان حديث صحيح وإن لم يخرج به الإمامان.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥١٠) عن مجاهد.

(٣) ينظر شعر الكميث بن زيد ص ٢٥٩، واللسان (شفق)، والقرطبي ١٩/١٨١.

(٤) هما للعجاج ينظر ملحقات ديوانه ٨٤، واللسان (وسق)، والقرطبي ١٩/١٨٢، والبحر ٨/٤٣٧، والدر المصون ٦/٤٩٩.

ويقال: وسقهُ فَاتَّسَقَ، واستوسقَ، ونظير وقوع «افتعل، واستفعل» مطاوعين: اتسع واستوسع، ومنه قولهم: وقيل: وسق، أي: عمل فيه؛ قال: [الطويل]
 ٥١٤٦ - وَيَوْمًا تَرَانَا صَالِحِينَ وَتَارَةً تَقُومُ بِنَا كَالوَاسِقِ الْمُتَلَبِّبِ^(١)

فصل في معنى الآية

قال عكرمة - رضي الله عنه -: «وما وسق»، أي: وما ساق من شيء إلى حيث يأوي^(٢) فالوسقُ: بمعنى الطرد، ومنه قيل للطريد من الإبل والغنم: وسيقة.
 وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «وما وسق» أي: وما جنَّ وستر^(٣).
 وعنه أيضاً: وما حمل، ووسقت الناقة تسق وسقاً: أي: حملت وأغلقت رحمها على الماء فهي ناقة واسق، ونوق وساق، مثل: نائم ونيام، وصاحب وصحاب، ومواسيق أيضاً، وأوسقت البعير: حملته حمله، وأوسقت النخلة: كثر حملها.
 وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان: حمل من الظلمة^(٤).
 وقال مقاتل: حمل من الكواكب^(٥).

وقال ابن جبير: «وما وسق» أي: وما حمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار^(٦).
 قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾. أي: امتلاً. قال الفراء: وهو امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر. وهو «افتعل» من «الوسق» وهو الضم والجمع كما تقدم، وأمر فلان متسق: أي: مجتمع على الصلاح منتظم، ويقال: اتسق الشيء إذا تابع.
 وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «إذا اتَّسَقَ» أي: استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار^(٧).

قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم.

وقرأ الأخوان، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومسروق، وأبو وائل، ومجاهد والنخعي، والشعبي، وابن جبير: بفتح الباء على الخطاب للواحد.

(١) ينظر اللسان (وسق)، والقرطبي ١٩/١٨٢، والبحر ٨/٤٤٠، والدر المصون ٦/٤٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥١١) عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤٩) وعزه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٢٣٧) والقرطبي (١٩/١٨٢).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٨٢).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٦٥) وينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥١٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٤٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

والباقون^(١) : بضمها على خطاب الجمع .

فالقراءة الأولى : روعي فيها إمّا خطاب الإنسان المتقدم ذكره في قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾ [الانشقاق : ٦] ، وإما خطاب غيره .

فقليل : خطابٌ للرسول - عليه الصلاة والسلام - أي : لتركبن يا محمد مع الكفار وجهادهم ، أو لتبدلن أنصاراً مسلمين ، من قولهم : الناس طبقات ولتركبن سماء [بعد سماء]^(٢) ، ودرجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى .

وقيل : التاء للتأنيث ، والفعل مسندٌ لضمير السماء .

قال ابن مسعود : لتركبن السماء حالاً بعد حالٍ تكون كالمهل وكالدخان ، وتنفطر وتنشق^(٣) .

والقراءة الثانية : روي فيها معنى الإنسان ؛ إذ المراد به : الجنس ، أي : لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونه نطفة ، ثم مضغة ، ثم حياً ، ثم ميتاً وغنياً وفقيراً .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ لما ذكره قبل هذه الآية فيمن يؤتى كتابه بيمينه ، ومن يؤتى كتابه وراء ظهره ، وقوله بعد ذلك «فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أي : لتركبن حالاً بعد حال من شدائد يوم القيامة ، أو لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب ، والاختلاف على الأنبياء . وقال مقاتلٌ : يعني الموت ثم الحياة^(٤) .

وعن ابن عباسٍ : يعني : الشدائد والأحوال والموت ، ثم البعث ، ثم العرض^(٥) .

وقال عكرمة : رضيع ، ثم فطيم [ثم غلام] ،^(٦) ثم شابٌ ، ثم شيخ^(٧) .

قال ابن الخطيب^(٨) : ويصلح أن يكون هذا خطاباً للمسلمين بتعريف نقل أحوالهم

(١) ينظر : السبعة ٦٧٧ ، وإعراب القراءات ٤٥٥/٢ ، وحجة القراءات ٧٥٦ ، والمحرر الوجيز ٥٥٩/٥ ، والبحر المحيط ٤٤٠/٨ ، والدر المصون ٤٩٩/٦ .

(٢) سقط من أ .

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٨/٧) وقال : رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف .

وأخرجه الطبري (١٢/٥١٣ - ٥١٤) عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم .

وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦/٥٤٩) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى أبي عبيد في «القراءات» وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه .

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/١٣٨) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات وذكره ابن حجر أيضاً في «المطالب العالية» (٣/٣٩٦) رقم (٣٨٠٤) وعزاه إلى أحمد بن منيع .

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٨٣) . (٥) ينظر المصدر السابق .

(٦) سقط من : ب . (٧) ينظر تفسير القرطبي (١٩/١٨٣) .

(٨) ينظر : الفخر الرازي ٣١/١٠١ .

بنصرهم، ومصيرهم إلى الظفر بعدوهم بعد الشدة التي تلقونها منهم كما قال تعالى: ﴿تُتَبَلَّوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقرأ عمر - رضي الله عنه^(١) - : «ليركبُن» بياء الغيبة وضم الباء على الإخبار عن الكفار:

وقرأ عمر - أيضاً - وابن عباس^(٢) - رضي الله عنهما - بالغيبة، وفتح الباء، أي: ليركبُن الإنسان.

وقيل: ليركبُن القمر أحوالاً من إسرار والاستهلال.

وقرأ^(٣) عبد الله وابن عباس: «لتركبُن» بكسر حرف المضارعة، وقد تقدم في «الفاصلة».

وقرأ بعضهم^(٤): بفتح المضارعة وكسر الباء، على إسناد الفعل للنفس، أي: لتركبن يا نفس.

قوله: «طبقاً»: مفعول به أو حال.

والطبق قال الزمخشري^(٥): الطَّبَق: ما طابق غيره، يقال: ما هذا بطبق كذا: أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: الطَّبَق، وأطباق الثرى ما تطابق منه، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها طبق، ومنه قوله - عز وجل -: ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي: حالاً بعد حال، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول، ويجوز أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات، ومنه طبقات الظهر لفقاره، الواحدة: طبقة على معنى: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض وهي الموت، وما بعده من مواطن القيامة انتهى.

وقيل: المعنى: لتركبن هذه الأحوال أمة بعد أمة؛ ومنه قول العباس فيه ﷺ:

[المنسرح]

٥١٤٧ - تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَاحِمٍ وَإِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقٌ^(٦)
فعلى هذا التفسير، يكون «طبقاً» حالاً، كأنه قيل: أمة بعد أمة.

وأما قول الأقرع: [البسيط]

٥١٤٨ - إِنِّي أَمْرٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقٍ^(٧)

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٥٩، والبحر المحيط ٨/٤٤٠، والدر المصون ٦/٤٩٩.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر السابق.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٤٠، والدر المصون ٦/٥٠٠.

(٥) الكشف ٤/٧٢٨.

(٦) ينظر القرطبي ١٩/١٨٤، والبحر ٨/٤٤٠، والدر المصون ٦/٥٠٠.

(٧) ينظر القرطبي ١٩/١٨٤، والدر المصون ٦/٥٠٠ والبحر ٨/٤٣٧.

فيحتمل الأمرين، أي: ساقني من حالة إلى أخرى، أو ساقني من أمة ناس إلى أمة ناس آخرين، ويكون نصب «طبقاً» على المعنيين على التشبيه بالظرف أو الحال، أي: متنقلاً، والطبق أيضاً: ما طابق الشيء أي: ساواه، [ومنه دلالة المطابقة].
قال امرؤ القيس:

٥١٤٩ - ديممة هـ ط ل^(١)

والطبق من الجراد أي الجماعة^(٢).

قوله: «عَنْ طبقٍ»: في «عن» هذه وجهان:

أحدهما: أنها في محل نصب على الحال من فاعل «تركبن». والثاني: أنها صفة لـ «طبقاً».

وقال الزمخشري^(٣): «فإن قلت: ما محل «عن طبق»؟ قلت: النصب على أنه صفة لـ «طبقاً»، أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، [أو حال من الضمير في «لتركبن»، أي: لتركبن طبقاً مجاوزين لطبق، أو مجاوراً]^(٤)، أو مجاورة على حسب القراءة.

وقال أبو البقاء^(٥): و «عن» بمعنى: «بعد»؛ قال: [الكامل]

٥١٥٠ - مَا زِلْتُ أَقْطَعُ مُنْهَلًا عَنْ مَنْهَلٍ حَتَّى أَنْخُتُ بِبَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ^(٦)

لأن الإنسان إذا صار من شيء إلى شيء، يكون الثاني بعد الأول فصلحت «بعد» و «عن» للمجازة، والصحيح أنها على بابها، وهي صفة، أي: طبقاً حاصلاً عن طبق، أي: حالاً عن حال. وقيل: جيلاً عن جيل. انتهى.

يعنى الخلاف المتقدم في التطبيق ما المراد به، هل هو الحال، أو الجيل، أو الأمة كما تقدم نقله؟ وحينئذ فلا نعرب طبقاً مفعولاً به، بل حالاً، كما تقدم، لكنه لم يذكر في طبق غير المفعول به، وفيه نظر، لما تقدم من استحالته، يعني إذ يصير التقدير: لتركبن طبقة أمة عن أمة، فتكون الأمة مركوبة لهم، وإن كان يصح على تأويل بعيد جداً وهو حذف مضاف، أي: لتركبن سنن، أو طريقة طبق بعد طبق.

فصل في حدوث العالم

هذا أدل دليل على «حدوث العالم» وإثبات الصانع.

(١) ينظر ديوانه (٧٨)، والبحر ٤٣٧/٨، والدر المصون ٥٠٠/٦.

(٢) سقط من ب. (٣) ينظر: الكشف ٧٢٨/٤.

(٤) سقط من أ. (٥) الإملاء ٢٨٤/٢.

(٦) ينظر الفخر الرازي ١١٢/٣١.

قالت الحكماء: من كان اليوم على حاله، فليعلم أن تدبيره إلى سواءه.
وقيل لأبي بكر الوراق: ما الدليل على أن لهذا العالم صانعاً؟ فقال: تحويل
الحالات، وعجز القوّة، وضعف الأركان وقهر النية ونسخ العزيمة.
قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. يعني: أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضّحت لهم
الآيات والدلالات، وهذا استفهام إنكار.
وقيل: تعجب أي: اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.
وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال.

قال ابن الخطيب^(١): فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة، وهو استفهام إنكار،
وإنما يحسن عند ظهور الحجة، وذلك أنه - تعالى - أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك
والعناصر، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها وهو ظلمة
الليل، وكذا قوله: ﴿وَأَيُّلٌ وَمَا وَسَقٌ﴾ فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور، وعلى
تغييرات أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ﴾ فإنه
يدل على حصول كمال القمر بعد نقصانه، ثم إنه أقسم - تعالى - بهذه الأحوال المتغيرة
على تغيير أحوال الخلق، وهذا يدل قطعاً على صحة القول بالبعث، لأن القادر على تغيير
الأحوال العلوية والسفلية من حال إلى حال بحسب المصالح، لا بد وأن يكون قادراً،
ومن كان كذلك لا محالة قادر على البعث والقيامة، فلما كانت هذه الآية كالدلالة العقلية
القاطعة بصحة البعث، لا جرم قال تعالى على سبيل الاستبعاد: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فصل في الكلام على الآية

قال القاضي^(٢): «لا يجوز أن يقول الحكيم لمن كان عاجزاً عن الإيمان: ﴿فَمَا لَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا يدل على كونهم قادرين، وهذا يقتضي أن تكون الاستطاعة قبل الفعل،
وأن يكونوا موجدين لأفعالهم، وأن لا يكون تعالى خالقاً للكفر فيهم، فهذه الآية من
المحكمات التي لا احتمال فيها ألبتة». وجوابه تقدم.

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ شرط، جوابه ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾، وهذه الجملة الشرطية في محل
نصب على الحال نسقاً على ما قبلها، أي: فما لهم إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون،
أي: لا يصلون قاله ابن عباس، وعطاء، والكلبي، ومقاتل [وقال أبو مسلم: المراد
الخضوع والاستكانة].

وقيل: المراد نفس السجود لما روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ
سجد فيها^(٣).

(١) ينظر: الفخر الرازي ١٠١/٣١.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: السابق.

وقال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن المعنى لا يدعون ولا يطيعون^(١).
قوله تعالى: ﴿يَا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾. العامة: على ضم الياء من «يكذبون» وفتح الكاف وتشديد الدال.

والضحاك وابن أبي عبة^(٢): بالفتح والإسكان والتخفيف [وتقدمت هاتان القراءتان أول البقرة]^(٣).

والمعنى: يُكْذِبُونَ بمحمد ﷺ وما جاء به.

قال مقاتل: نزلت في بني عمرو بن عمير، وكانوا أربعة، فأسلم اثنان منهم^(٤).
وقيل: هو في جميع الكفار.

قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. هذه هي قراءة العامة، من أوعى يُوعِي، أي: بما يضمرون في أنفسهم من التكذيب، رواه الضحاك عن ابن عباس.
وقال مجاهد: يكتمون من أفعالهم^(٥).

وقال ابن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة^(٦)، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع فيه، يقال: وعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء؛ قال الشاعر: [البسيط]

٥١٥١ - الْحَيْرُ أَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ^(٧)
وقرأ أبو رجاء^(٨): «يَعُونَ» من «وَعَى يَعِي»، يقال: وعاه إذا حفظه، يقال: وعيث الحديث، أعيه، وعياً، وأذن واعيةً، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم في جهنم على تكذيبهم وكفرهم، أي: جعل ذلك بمنزلة البشارة.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يجوز أن يكون متصلاً، وأن يكون منقطعاً، هذا إذا كانت الجملة من قوله: «لَهُمْ أَجْرٌ»: مستأنفة أو حالية، أمّا إذا كان الموصول مبتدأ والجملة خبره، فالاستثناء ليس من قبيل استثناء المفردات، ويكون من قسم المنقطع، أي: لكن الذين آمنوا لهم كيت وكيت.

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٥٩، والبحر المحيط ٨/٤٤٠، والدر المصون ٦/٥٠١.

(٣) سقط من ب. (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٨٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥١٧) عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥١٧) عن ابن زيد.

(٧) البيت لعبيد بن الأبرص ينظر القرطبي ١٩/١٨٥، واللسان (وعي).

(٨) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٤١، والدر المصون ٦/٥٠١.

وتتقدم معنى الممَّنُون في: «حم» السجدة، وأنَّ معناه: غير منقوص ولا مقطوع، يقال: مننت الحبل: إذا قطعته.

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس - رضي الله عنهما - عن قوله: «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمَّنُونٍ» فقال: غير مقطوع، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم، قد عرفه أخو يشكر؛ حيث يقول: [الخفيف]

٥١٥٢ - فَتَرَى خَلْفَهُنَّ مِنْ سُرْعَةِ الرَّجْعِ - عَمِينَ كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ^(١)

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنه يقطعه وراءها، وكل ضعيف مَين ومَمَّنُون.

وقال بعضهم: ليس هنا استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا.

وقد مضى القول فيه في سورة البقرة، والله تعالى أعلم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أعاده الله - تعالى - أن يُعطيه كتابه وراء ظهره»^(٢). وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) ينظر القرطبي ١٨٦/١٩.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة البروج

مكية، وهي اثنان وعشرون آية، ومائة وتسع كلمات، وأربعمائة وثمانية وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝۱ وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ ۝۲ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝۳ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝۴ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ۝۵ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝۶ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝۷ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝۸ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝۹ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝۱۰﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾. هذا قسم أقسم الله تعالى به، وفي البروج أقوال: قيل: والسَّماء ذات النجوم. قاله الحسنُ ومجاهدٌ وقتادةٌ والضحاكُ^(١). وقال ابنُ عباسٍ وعكرمةٌ ومجاهدٌ: هي قصور في السماء^(٢). وقال مجاهدٌ أيضاً: هي البروج الاثنا عشر^(٣)، وهو قول أبي عبيدة ويحيى بن سلام.

وقيل: هي منازل القمر.

قوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْوَعْدِ﴾: وهو يوم القيامة، وهذا قسم آخر، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه^(٤).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥١٨/١٢)، عن مجاهد وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٥٢)، عن مجاهد وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وذكره أيضاً عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥١٨/١٢)، عن ابن عباس.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٤٠/٦)، والقرطبي (١٨٧/١٩).

(٤) ينظر المصدر السابق.

قال القفال^(١): يحتمل أن يكون المراد: اليوم الموعود لانشقاق السماء وبناءها، وبطلان بروجها، وقوله تعالى: «الموعود» أي: الموعود به.

وقال مكِّي: «الموعود»: نعت لليوم، وثم ضمير محذوف به تتم الصفة، تقديره: الموعود به، ولولا ذلك ما صحَّت الصفة؛ إذ لا ضمير يعود على الموصوف من صفته. انتهى.

وكانه يعني أن اليوم موعود به غيره من الناس، فلا بُدَّ من ضمير يرجع إليه؛ لأنه موعود به، وهذا لا يحتاج إليه، إذ يجوز أن يكون قد تجوز بأن اليوم قد وعد بكذا، فيصح ذلك، ويكون فيه ضميرٌ عائِدٌ عليه.

قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. قال علي، وابنُ عباس، وابنُ عمر، وأبو هريرة - رضي الله عنهم -: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة^(٢)، وهو قول الحسن، ورواه أبو هريرة مرفوعاً - عن النبي ﷺ: «المَوْعُودُ: يومُ القيامة، واليَوْمُ المشهودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ، والشَّاهِدُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ». خرَّجه الترمذي في «جامعه»^(٣).

قال القشيري: فيوم الجمعة يشهد على عامله بما يعمل فيه.

قال القرطبي^(٤): وكذلك سائر الأيام والليالي، لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية ابن قرة عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَى الْعَبْدِ إِلَّا يُنَادَى فِيهِ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا خَلَقْتُ جَدِيداً، وَأَنَا فِيمَا تَعْمَلُ عَلَيْكَ شَهِيدٌ، فَأَعْمَلُ فِي خَيْرٍ أَشْهَدَ لَكَ فِيهِ غَدَاً، فَإِنِّي لَوْ قَدْ مَضَيْتُ لَمْ تَرْنِي أَبَدَاً، وَيَقُولُ اللَّيْلُ مِثْلَ ذَلِكَ»^(٥). حديث غريب.

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/١٠٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٢٠)، عن أبي هريرة وابن عباس وعلي بن أبي طالب وقتادة وابن زيد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٥٢)، عن ابن عباس وعزاه إلى ابن مردويه.

وذكره عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٢/٥٢٠)، من طريق موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٥٢)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٨٧.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/٣٠٣)، وقال غريب وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٣١٦١)، وعزاه إلى أبي القاسم حمزة بن يوسف السهمي في «كتاب آداب الدين» والرافعي عن معقل بن يسار.

وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير: أن الشاهد يوم الأضحى .

وقال سعيد بن المسيب^(١) الشاهد يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة .

[وروي عن علي - رضي الله عنه - : الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر]^(٢)

وعن ابن عباس والحسين بن علي - رضي الله عنهم - : المشهود: يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وعلى هذا ف قيل: الشاهد هو الله تعالى، وهو مروى عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير لقوله تعالى: ﴿وَكُنْ بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : الشاهد: محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٣) [البقرة: ١٤٣] .

وقيل: الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يشهدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ .

وقيل: آدم عليه الصلاة والسلام .

وقيل: عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] والمشهود أمته .

وعن ابن عباس ومحمد بن كعب: الشاهد: الإنسان، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) [النور: ٢٤] .

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمة، لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٥) [البقرة: ١٤٣]، والمشهود بنو آدم .

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨٨/١٩) . (٢) سقط من : ب .

(٣) أثر الحسين بن علي أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢١/١٢)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣/٧ - ٣٩)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير، والأوسط» وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٣/٦)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه .
أثر ابن عباس أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢١/١٢)، والبخاري كما في «المجمع» (١٣٩/٧)، وقال ورجاله ثقات .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٣/٦)، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر من طرق عنه .

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٢/١٢)، عن مجاهد وعكرمة وقتادة . وذكره الماوردي (٢٤١/٦)، عن ابن عباس .

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨٨/١٩) .

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾. هذا جواب القسم على المختار، وإنما حذفت اللام، والأصل: «القتل»؛ كقوله: [الطويل]

٥١٥٣ - حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالِي^(١)
وإنما حُسِّنَ حذفها للطول كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقيل: تقديره: لقد قتل، فحذف «اللام وقد»، وعلى هذا فقوله «قُتِلَ» خبر، لا دعاء.

وقيل: هي دعاء، فلا يكون جواباً.

وفي الجواب حينئذ أوجه:

أحدها: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ [البروج: ١٠].

الثاني: قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قاله المبرد.

الثالث: أنه مقدر، فقال الزمخشري ولم يذكر غيره^(٢): هو محذوف يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود ثم قال: «قُتِلَ» دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِسْنُ مَا أَكْفَرُوا﴾ [عبس: ١٧].

وقيل: التقدير: لتبعثن.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج، قاله أبو حاتم.

قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد، على

معنى: قام زيد والله.

وقرأ الحسن^(٣) وابن مقسم: «قُتِلَ» بتشديد التاء مبالغة أو تكثيراً.

قوله: ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، أي: لعن أصحاب الأخدود.

قال ابن عباس: كل شيء في القرآن «قُتِلَ» فهو: لُعِنَ، والأخدود الشق العظيم المستطيل الغائص في الأرض^(٤).

قال الزمخشري^(٥): والأخدود: الخد في الأرض وهو: الشق، ونحوهما بناء

ومعنى: الخق والأحقوق، ومنه: «فَسَاخَتْ قَوَائِمُهُ فِي أَخَاقِيقِ جِرْذَانٍ» انتهى.

فالأخد: في الأصل مصدر، وقد يقع على المفعول، وهو الشق نفسه، وأمّا

الأخدود فاسم له فقط.

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشاف ٧٢٩/٤.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٤٣/٨، والدر المصون ٥٠٢/٦.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٨/١٩). (٥) ينظر: الكشاف ٧٣٠/٤.

وقال الراغب: الخد والأخدود: شق في الأرض مستطيل غائص، وأصل ذلك من خَدَّي الإنسان، وهما ما اكتنفا الأنف عن اليمين والشمال، فالحَدُّ: يستعار للأرض ونحوها كاستعارة الوجه، وتخذ اللحم بزواله عن وجه الجسم، ثم يعبر بالمخدود عن المهزول والخداد: وسم في الخد.

وقال غيره: سمي الخد خدًا؛ لأن الدموع تخد فيه أخاديد، أي: مجاري، وجمع الأخدود: أخاديد، والمخدَّة؛ لأن الخد يوضع عليها، ويقال: اتخذ وجه [الرجل]^(١) إذا صارت فيه أخاديد من جراح.

فصل في نزول السورة

هذه السورة نزلت في تثبيت المؤمنين، وتصبيرهم على أذى المشركين، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتلوا بهم، فيعلموا أنَّ كفارهم عند الله - تعالى - بمنزلة الأمم السابقة.

وكان من حديث أصحاب الأخدود: أنه كان لبعض الملوك ساحرًا، فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهبًا، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب، ثم رأى في طريقه ذات يوم حيَّة قد حبست الناس، فقال: اللّهم إن كان هذا الراهب أحبَّ إليك من الساحر فقوني على قتل هذه الحيَّة، وأخذ حجرًا فرماها به فقتلها، فأعرض الغلام عن تعليم السحر، واشتغل بطريقة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي من الأذى، فاتفق أن عمي جليس الملك، وأناه بهدايا كثيرة، وقال له: إن أنت شفيتني، فهي لك أجمع، فقال الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله - تعالى - دعوته شفاك، فأمن بالله، فشفاه الله، فأبرأه فلما رآه الملك، قال: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّي، فغضب الملك وقال: هل لك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُّك الله، فعذبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: يا بني قد بلغ من سحرِكَ ما يبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ فقال: إني لا أشفي أحداً، إنّما يشفي الله تعالى، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقليل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقليل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبلٍ كذا وكذا، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه من دُروتِه، فذهبوا به، وصعدوا به الجبل، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبلُ، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، وقال: احملوه في سفينة وتوغلوا به في البحر،

(١) في ب: الأرض.

فإن رجع عن دينه وإلاً فأغرقوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، ونجا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع نخلة، ثم تأخذ سهماً من كناتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم به واضرب، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتي، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كناته، فوضعه في القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ورماه به فوق السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه، فمات، فقال الناس: آمناً برب الغلام، فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخايد في أفواه السكك أوقدت فيها النيران، وقال: من لم يرجع منهم طرحته فيها، حتى جاءت امرأة ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الصبي: يا أمّاه، اصبري، فإنك على الحق، فصبرت على ذلك^(١).

وفي رواية: أن الدابة التي حبست الناس كانت أسداً، وأن الغلام دفن، قيل: إنه خرج في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأصيبه على صدغه كما وضعها حين قتل^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النار ارتفعت من الأخدود، فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعاً فأحرقتهم^(٣).

وقال الضحاك: هم قوم من النصارى باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً، وأحرقهم فيه^(٤). حكاه الماوردي. وروي غير ذلك.

قال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، والآخر: بالشّام، والآخر: بفارس، أما الذي بالشّام فأنطينانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس، فلم ينزل الله في الذي بفارس والشّام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجران^(٥).

قال الكلبي: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوماً مؤمنين، فخذوا لهم سبعة

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٩ - ٢٣٠١)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: بيان قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام حديث (٣٠٠٥/٧٣)، والترمذي (٤٠٧/٥ - ٤٠٩)، كتاب: التفسير، باب: سورة البروج رقم (٣٣٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥١٠/٦ - ٥١٢)، عن صهيب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٥/٦)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) ينظر التخرّيج السابق والدر المنثور (٥٥٦/٦). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨٩/١٩).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٤٢/٦). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩١/١٩).

أخاديد، كل أخذود أربعون ذراعاً، وعرضه اثنا عشر ذراعاً، ثم طرحوا فيه النفط، والخطب، ثم عرضوهم عليها فمن أبى قذفوه فيها^(١).

فصل في المراد بأصحاب الأخدود

قال ابن الخطيب^(٢): يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود: القاتلين، ويمكن أن يكون المراد بهم: المقتولين، والمشهور أن المقتولين هم: المؤمنون.

وروي أن المقتولين هم الجبابرة، روي أنهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفار فأحرقتهم، ونجى الله - تعالى - المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس، والواحدي، وتأولوا قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ﴾ [البروج: ١٠] أي: في الآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا، فإن فسرنا أصحاب الأخدود بالقاتلين، فيكون قوله: ﴿قِيلَ أَتَصْحَبُ الْأَخْدُودَ﴾ دعاءً عليهم، أي: لعن أصحاب الأخدود، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ لِإِنْسِنَا مَا أَكْفَرُوا﴾ [عبس: ١٧]، ﴿قِيلَ لِّلْغَرَّاصُونِ﴾ [الذاريات: ١٠].

أو يكون المعنى: قتلوا بالنار كما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم.

وإن فسرنا أصحاب الأخدود بالمقتولين كان المعنى أن المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار، فيكون ذلك خبراً لا دعاء.

فصل في المقصود من هذه الآية

المقصود من هذه الآية: تثبيت قلوب المؤمنين بإخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار، ليتأسوا بهذا الغلام في صده على الأذى والصلب وبذله نفسه في إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه، وكذلك صبر الراهب على التمسك بالحق حتى نشر بالمشار، وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى.

قوله: ﴿النَّارِ﴾. العامة: على جرها، وفيها أوجه:

أحدها: أنه بدل من «الأخدود» بدل اشتمال؛ لأن «الأخدود» مشتمل عليها، وحيثئذ فلا بد من الضمير.

فقال البصريون: مقدراً، تقديره: النار.

وقال الكوفيون: «أل» قائمة مقام الضمير، تقديره: ناره، ثم حذف الضمير، وعوض عنه «أل» [وتقدم البحث معه في ذلك]^(٣).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ١٠٨/٣١.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

الثاني: أنه بدل كل من كل، ولا بد حينئذ من حذف مضاف، تقديره: أخذود النار.

الثالث: أن التقدير: ذي النَّار؛ لأنَّ الأخدود هو الشق في الأرض، حكاه أبو البقاء^(١).

وهذا يفهم أنَّ النَّار خفض بالإضافة لتلك الصفة المحذوفة، فلما حذف المضاف قام المضاف إليه مقامه في الإعراب، واتفق أن المحذوف كان مجروراً، وقوله: إن الأخدود هو الشق، تعليل بصحة كونه صاحب نار.

الرابع: أن النار خفض على الجوار، نقله مكِّي عن الكوفيين.

وهذا يقتضي أن النار كانت مستحقة لغير الجر، فعدل عنه إلى الجر للجوار، والذي يقتضي الحال أنه عدل عن الرفع، ويدل على ذلك أنه قد قرئ في الشاذ: «النَّارُ» رفعاً، والرفع على أنه خبر ابتداء مضمّر، تقديره: هي النار وقيل: بل هي مرفوعة على الفاعلية تقديره قتلته، أي: أحرقتهم، والمراد حينئذ بأصحاب الأخدود: المؤمنون.

وقرأ العامة: «الْوُقُودُ» بفتح الواو، والحسن، وأبو رجاء، وأبو حيوة^(٣)، وعيسى: بضمها، وتقدمت القراءة في أول «البقرة».

قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾. العامل في «إِذْ» إما: «قُتِلَ أَصْحَابُ»، أي: قتلوا في هذا الوقت.

وقيل: اذكر، مقدراً، فيكون مفعولاً به، ومعنى قعودهم عليها أي: على ما يقرب منها كحافتها؛ ومنه قول الأعشى: [الطويل]

٥١٥٤ - تَشَبُّ لِمُفْرُوزَيْنِ يَضْطَبِّلَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ^(٤)

وقال القرطبي^(٥): ومعنى «عليها» أي: «عندها» و«على» بمعنى: «عند»، والضمير في «هم» يجوز أن يكون للمؤمنين، وأن يكون للكافرين.

قوله: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. أي: حضور، يعني: الكفار كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبي القوه في النار.

وقيل: «على» بمعنى: «مع» أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٨٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٤٤٤، والدر المصون ٦/ ٥٠٣.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) ينظر ديوانه ص ٢٧٥، والأغاني ١١١٩، وخزانة الأدب ٧/ ١٤٤، ١٥٥، ١٥٧، وشرح شواهد المغني ١/ ٣٠٣، واللسان (حلق)، ومغني اللبيب ١/ ١٠١، ١٤٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٣).

قال ابن الخطيب^(١) : و «على» بمعنى : «عند» كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ [الشعراء : ١٤] أي : عندي .

[وقوله : «شهودٌ» إما حضور قاسية قلوبهم لا يرقون على المؤمنين ، أو هم مجدون في ذلك لا يخطر لهم أنه حق .

أو يكون المراد وصف المؤمنين بالتصلُّب في دينهم ، والثبات عليه ، وإن لم يؤثر فيهم حضور هؤلاء ، ولا استحيوا من مخالطتهم .

وإما أن يكون المراد بشهودهم شهادة الدعوة ؛ أي : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بما فعلوا بالمؤمنين .

وإما أنهم مثبتون في فعلهم متبصرون فيه كما يفعل الشهود ، ثم لا يرحمونهم مع ذلك^(٢) .

قوله : ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ ، العامة : على فتح القاف .

وزيد بن علي^(٣) ، وأبو حيوة ، وابن أبي عجلة : بكسرهما ، والفصيح : الفتح . وقد تقدم ذلك في سورة «المائدة»^(٤) و «براءة»^(٥) .

والمعنى : ما نقم الملك وأصحابه من الذين حرّقوهم ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ إِلَّا أَنْ صَدَقُوا بالله ؛ كقوله : [الطويل]

٥١٥٥ - وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ سُكْلَةٍ عَيْنَهَا كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلُ عِيُونِهَا^(٦)

وكقول ابن الرقيّات : [المنسرح]

٥١٥٦ - مَا تَقَمُّوا مِنْ بَنِي أُمِّيَّةٍ إِلَّا لَا أَتْلُهُمْ يَخْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا^(٧)

يعني أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحاً وتقدم الكلام على محل «أن» أيضاً في سورة «المائدة» .

وقوله تعالى : ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أتى بالفعل المستقبل تنبيهاً على أنَّ التعذيب إنما كان لأجل إيمانهم في المستقبل ، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى من الإيمان ، فكأنه قيل : أن يدوموا على إيمانهم ، و «العَزِيز» هو الغالب المنيع ، «الحميد» : المحمود في كل حال .

(١) الفخر الرازي ١٠٩/٣١ . (٢) سقط من : ب .

(٣) ينظر : الكشف ٧٣٢/٤ ، والمحرق الوجيز ٤٦٢/٨ ، والبحر المحيط ٤٤٤/٨ ، والدر المصون ٥٠٣/٦ .

(٤) آية ٥٩ . (٥) آية ٧٤ .

(٦) ينظر اللسان (شكل) ، والبحر ٤٤٤/٨ ، والدر المصون ٥٠٣/٦ .

(٧) ينظر ديوانه ص ٤ ، وسمط اللآلئ ٢٩٥/١ ، ومجاز القرآن ١٧٠/١ ، والكشاف ٧٣١/٤ ، واللسان

(نقم) ، والبحر ٤٤٤/٨ ، والدر المصون ٥٠٣/٦ .

﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ : لا شريك له فيهما .

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي : عالم بأعمال خلقه لا يخفى عليه خافية ، وهذا وعد عظيم للمطيعين ، ووعد للمجرمين .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)﴾

قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ : لما ذكر قصة أصحاب الأخدود ، أتبعها بما يتفرع من أحكام الثواب والعقاب ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا آمَنُوا وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي : حرقوهم بالنار ، والعرب يقولون : فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته ، ودينار مفتون ، ويسمى الصائع : فتان ، وكذلك الشيطان ، وورق فتين ، أي : فضة محرقة ، ويقال للحررة : فتين ، وهي الأرض التي تركبها حجارة سوداء ، كأنما أحرقت حجارتها بالنار لسوادها .

وقال ابن الخطيب^(١) : يحتمل أن يكون المراد بالذين فتنوا : كل من فعل ذلك ؛ لأن اللفظ والحكم عام .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي : من قبيح صنيعهم ، وهذا يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد ، وذلك يدل على القطع بأن الله يقبل التوبة ، فدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة .

قوله : ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ . هو خبر «إِنَّ الَّذِينَ» دخلت الفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط ، ولا يضر نسخه بـ «إِنْ» خلافاً للأخفش .

وارتفاع «عذاب» يجوز على الفاعلية بالجار قبله لوقوعه خبراً ، وهو الأحسن ، وأن يرتفع بالابتداء ، والمعنى : لهم عذاب جهنم لكفرهم .

وقيل : ولهم عذاب الحريق أي : ولهم في الآخرة عذاب الحريق ، والحريق : اسم من أسماء جهنم كالسعير ، والثار دركات وأنواع ، ولها أسماء ، وكانوا يعذبون بالزّمهرير في جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق .

والأول : عذاب ببردها .

والثاني : عذاب بحرّها .

(١) ينظر : الفخر الرازي ٣١ / ١١١ .

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. أي: هؤلاء الذين آمنوا بالله، أي: صدقوا به وبرسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ جَنَّتْ﴾ أي: بساتين.

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما ذكر تعالى وعيد المجرمين، ذكر وعد المؤمنين، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم الذي لا فوز يشبهه، وقال: «ذَلِكَ الْفَوْزُ» ولم يقل: تلك؛ لأن ذلك إشارة إلى إخبار الله تعالى بحضور الجنات، وتلك إشارة إلى الجنة الواحدة، وإخبار الله - تعالى - يدل على كونه راضياً. والفوز الكبير: هو رضا الله تعالى، لا دخول الجنة.

قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: أخذه الجبابرة والظلمة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال المبرد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ جواب القسم وقد تقدم ذلك.

والبطش: هو الأخذ بعنف، فإذا وصف بالشدة، فقد تضاعف.

قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدٌ﴾، يعني: الخلق عند أكثر العلماء يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم عند البعث، وروى عكرمة، قال: عجب الكفار من إحيائه تعالى الأموات^(١).

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - يبدى لهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة^(٢)، وهذا اختيار الطبري^(٣).

قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾: «العفور»: أي: الستور لعباده المؤمنين، والودود: مبالغة في الوداد.

قال ابن عباس: هو المتوّد لعباده المؤمنين بالمغفرة^(٤).

وعن المبرد: هو الذي لا ولد له، وأنشد: [المتقارب]

٥١٥٧ - وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ غُرِيَانَةً ذُلُولَ الْجَنَاحِ لَقَاحاً وَدُوداً^(٥)
أي: لا ولد لها تحنّ إليه.

وقيل: هو «فعول» بمعنى: «مفعول»، كالركوب والحلوب أي: يوده عباده الصالحون.

قوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلأ عاصماً: «المجيد» بالجر.

فقيل: نعت للعرش.

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩٥/١٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٩/١٢)، وذكره الماوردي (٢٤٣/٦)، والقرطبي (١٩٥/١٩)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥٥٧/٦).

(٣) ينظر: جامع البيان ٥٢٩/١٢. (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩٥/١٩).

(٥) ينظر القرطبي ١٩٤/١٩، والبحر ٤٤٥/٨، والدر المصون ٥٠٤/٦، وفتح القدير ٤١٣/٥.

وقيل: لـ «ربك» في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، قاله مكِّي. وقيل: لا يجوز أن يكون نعتاً للعرش؛ لأنه من صفات الله تعالى.

وقرأ الباقون^(١): بالرفع، على أنه خبر بعد خبر.

وقيل: هو نعت لـ «ذو»، واستدلّ بعضهم على تعدد الخبر بهذه الآية، ومن منع قال: لأنها في معنى خبر واحد، أي: جامع بين هذه الأوصاف الشريفة، أو كل منها خبر لمبتدأ مضمّر.

والمجيد: هو النهاية في الكرم والفضل، والله - تبارك وتعالى - هو المنعوت بذلك، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر المؤمنين.

ومعنى «ذو العرش» أي: ذو الملك والسلطان، كما يقال: فلان على سرير ملكه وإن لم يكن على سرير، ويقال: بلي عرشه، أي: ذهب سلطانه.

قوله: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: لا يمتنع عليه شيء يريد.

قال الزمخشري^(٢): «فعال» خبر مبتدأ محذوف، وإنما قيل: «فعال»؛ لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

وقال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة على وجه الإتيان لإعراب الغفور الودود.

وعن أبي السفر قال: دخل ناس من أصحاب النبي ﷺ على أبي بكر - رضي الله عنه - يعودونه، فقالوا: ألا نأتيك بطبيب؟ قال رضي الله عنه: قد رأيي، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعّال لما أريد^(٣).

فصل في أن الآية دلت على خلق الأفعال

دلّت هذه الآية على خلق الأفعال؛ لأنه تعالى يريد الإيمان، فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان، وإذا كان فاعلاً للإيمان وجب أن يكون فاعلاً للكفر ضرورة؛ لأنه لا قائل بالفرق.

فصل في تفسير الآية

قال القفال^(٤): «فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ» أي: يفعل ما يريد على ما يراه، لا يعترض عليه ولا يغلبه غالب، فيدخل أوليائه الجنة، لا يمنعه مانع، ويدخل أعداءه النار، لا ينصرهم

(١) ينظر: السبعة ٦٧٨، والحجة ٦/٣٩٣، وإعراب القراءات ٢/٤٥٧، وحجة القراءات ٧٥٧.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/٧٣٣. (٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٩٥).

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١١٣.

منه ناصر، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، فهو يفعل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ ﴿١٧﴾ فَرَعُونَ ثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۚ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۚ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ۚ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾، أي: قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم [تسليّة له بذلك] (١).

قوله تعالى: ﴿فَرَعُونَ وَثَمُودَ﴾. يجوز أن يكون بدلاً من الجنود، وحينئذ فكان ينبغي أن يأتي البدل مطابقاً للمبدل منه في الجمعية.

ف قيل: هو على حذف مضاف، أي: جنود فرعون.

وقيل: المراد فرعون وقومه، واستغني بذكره عن ذكرهم؛ لأنهم أتباعه.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار: أعني؛ لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه.

والمعنى: أنك قد عرفت ما فعل بهم حين كذبوا بأنبيائهم ورسلمهم.

قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: هؤلاء الذين لا يؤمنون بك في تكذيب لك كدأب من قبلهم، وإنما خُصَّ فرعون وثمود؛ لأن ثموداً في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك فدلّ بهما على أمثالهما، والله أعلم.

قوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾، أي: يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون، والمحاط به المحصور.

وقيل: والله أعلم بهم فيجازيهم.

قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ العامة: على تبعية مجيد لـ «قرآن»، وقرأ ابن (٢) السميع بإضافة «قرآن» لـ «مجيد».

ف قيل: هو على حذف مضاف، أي: قرآن رب مجيد.

كقوله: [الوافر]

٥١٥٨ - وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبِّ غَفُورٌ (٣)

(١) في أ: سأله بذلك ثم بينهم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٦٣، والبحر المحيط ٨/٤٤٦، والدر المصون ٦/٥٠٤.

(٣) عجز بيت لعروة بن الورد وصدره:

قليل عيبه، والعين جَمٌ

ينظر: ديوان عروة ٩٢، والعقد الفريد ٣/٢٩، والإنصاف ١/٤٨، والبحر ٨/٤٤٦، والدر المصون ٦/٥٠٤.

أي: غنى رب غفور.

وقيل: بل هو من إضافة الموصوف إلى صفته، فتتحد القراءتان، ولكن البصريين لا يجيزون هذا لثلا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه، ويتأولون ما ورد.

ومعنى «مَجِيدٌ» أي: متناهٍ في الشرف والكرم والبركة.

وقيل: «مَجِيدٌ» أي: غير مخلوق.

قوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، قرأ نافع^(١): برفع «محفوظ»: نعتاً لـ «قرآن».

والباقون: بالجر؛ نعتاً للوح.

والعامة: على فتح اللام، وقرأ ابن السميع^(٢) وابن يعمر: بضمها.

قال الزمخشري^(٣): يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح، «محفوظ»

من وصول الشياطين إليه.

وقال أبو الفضل: «اللّوح»: الهواء، وتفسير الزمخشري بالمعنى، وهو الذي أراده

ابن خالويه.

قال القرطبي^(٤): «في لوح محفوظ» أي: مكتوب في لوح، وهو محفوظ عند الله -

تعالى - من وصول الشياطين إليه.

وقيل: هو أم الكتاب، ومنه انتسخ القرآن والكتب.

وقال بعض المتكلمين: «اللوح» شيء يلوح للملائكة فيقرءونه.

وفي «الصّحاح»^(٥): لاح الشيء يلوح لوحاً ولواحاً: عطش، وكل عظم عريض،

واللوح: الذي يكتب فيه، واللّوح: بالضم، الهواء بين السماء والأرض. وأنشد دريد:

[الرجز]

٥١٥٩ - عَقَابُ لُوحِ الْجَوِّ أَعْلَى مَثْنَا

قال ابن الخطيب^(٦): قال - هاهنا -: «فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ»، وقال في آية أخرى:

﴿إِنَّهُمْ لِقَوْمٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾، فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون، هو اللوح

المحفوظ، ثم كونه محفوظاً يحتمل أن يكون المراد: محفوظاً عن أن يمسّه إلا

المُطَهَّرُونَ، ويحتمل أن يكون كونه محفوظاً عن اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة

(١) ينظر: السبعة ٦٧٨، والحجة ٣٩٦/٦، وإعراب القراءات ٤/٥٨٨، وحجة القراءات ٧٥٧.

(٢) ينظر: الكشف ٧٣٣/٤، والمحرر الوجيز ٤٦٣/٥، والبحر المحيط ٤٤٦/٨، والدر المصون ٦/٥٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٩٦.

(٤) الكشف ٧٣٣/٤.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١١٤.

(٦) ينظر: الصحاح ١/٤٠٢.

المقربين، ويحتمل أن يكون المراد: ألا يتغير ولا يتبدل. والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أَغْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعَدَدِ كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ، وَكُلِّ يَوْمٍ عَرَفَةٍ، يَكُونُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَشَرَ حَسَنَاتٍ»^(١).

سورة الطارق

مكيّة، وهي سبع عشرة آية، واثنان وسبعون كلمة، ومائتان وإحدى وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾، «السَّمَاءُ»: قسم، و «الطَّارِقُ»: قسم، والطَّارِقُ: هو النّجم الثاقب، كما بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

والطارق في الأصل: اسم فاعل من: طرق يطرق طروقاً: أي: جاء ليلاً؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٦٠ - فَمِثْلِكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ فَالْهَيْثُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحُولٍ^(١)

وأصله من الضرب، والطَّارِقُ بالحصى: الضارب به؛ قال: [الطويل]

٥١٦١ - لَعَمْرُكَ، مَا تَذَرِي الطَّوَارِقُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعٌ^(٢)

ثم اتّسع فقيّل لكل من أتى ليلاً: طارق، سواء كان كوكباً، أو غيره، ولا يكون الطارقُ نهاراً.

وروي أنه ﷺ: نهى أن يأتي الرجل أهله طروقاً^(٣).

(١) ويروى عن ذي تمام مُغِيل مكان عن ذي تَمَائِمَ مُحُول.

ينظر ديوانه ص ١٢، والأزھية ص ٢٤٤، والجنى الداني ص ٧٥، وجواهر الأدب ص ٦٣، وخزانة الأدب ٣٣٤/١، والدرر ١٩٣/٤، وشرح أبيات سيبويه ٤٥٠/١، وشرح شذور الذهب ص ٤١٦، وشرح شواهد المغني ٤٠٢/١، ٢٩٣، والكتاب ١٦٣/٢، واللسان (رضع)، (غيل)، والمقاصد النحوية ٣٣٦/٣، وأوضح المسالك ٧٣/٣، ورفص المباني ص ٣٨٧، وشرح الأشموني ٢/٢٩٩، ومغني اللبيب ١٣٦/١، ١٦١، وهمع الهوامع ٣٦/٢.

(٢) البيت للبيد بن ربيعة ينظر ديوانه ٩٠، وسمط اللآلئ ٣٨٨/١، واللسان (طرق)، والدر المصون ٥٠٦/٦.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩/٩)، كتاب النكاح، باب: لا يطرق أهله ليلاً رقم (٥٢٤٤)، ومسلم (٣/١٥٢٨)، كتاب الإمارة، باب: كراهة الطروق حديث (٧١٥/١٨٣)، من حديث جابر.

وقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، قال محمد بن الحسين: هو زُحَل.

وقال ابن زيد: هو الثُّرَيَّا، وعنه - أيضاً - : أنه زُحَل^(١).

وعن ابن عباس: هو الجدي^(٢)، وعن علي بن أبي طالب والفراء: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ»: نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط، فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وحين يهبط^(٣).

وفي «الصحيح»^(٤): «الطَّارِقُ: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح».

ومنه قول هند: [الرجز]

٥١٦٢ - نَخْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمِثِي عَلَى النَّمَارِقِ^(٥)

وقيل: هو اسم جنس، فيدخل فيه سائر الكواكب، وسمي ثاقباً؛ لأنه يثقب الظلام بضوئه، أي: ينفذ فيه. أي يرمي الشيطان فيحرقه.

قال الماوردي: وأصل الطرق: الدَّق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل: طارقاً، لاحتياجه في الوصول إلى الدق.

وروي أن أبا طالب أتى النبي ﷺ بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحطَّ نجم فامتلأت الأرض نوراً، ففرع أبو طالب، وقال: أيُّ شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا نَجْمٌ رُمِيَ بِهِ، وَإِنَّهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» فعجب أبو طالب، ونزلت السورة^(٦).

وقال مجاهد: «الثاقب»: المتوهج^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ تفخيم لشأن هذا المقسم به.

قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. قد تقدم في سورة «هود»: التخفيف والتشديد في «لما»، فمن خففها - هنا - كانت «إن»: مخففة من الثقيلة، و «كل»: مبتدأ، و «عليها»:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٣/١٢)، عن ابن زيد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣/٢٠). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الصحيح ١٥١٥/٤.

(٥) نسب البيت إلى هند بنت عتبة، وإلى هند بنت بياضة بن رياح بن طارق الإيادي، ولهند بنت الفند الزماني، وللقرشية.

ينظر أدب الكاتب ٩٠، والأغاني ٣٤٣/١٢، ١٤٧/١٥، وشرح شواهد المغني ٨٩/٢، واللسان (طرق)، ومعجم ما استعجم ص ٧٠، وجمهرة اللغة ص ٧٥٦، ومغني اللبيب ٣٨٧/٢، وجمع الهوامع ١٧١/١.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤٧٢/٤)، عن الكلبي، والقرطبي (٣/٢٠).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٣/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٦٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد عن مجاهد.

خبر مقدم، و «حافظ»: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «كل»، و «ما»: مزيدة بعد اللام الفارقة، ويجوز أن يكون «عليها»: هو الخبر وحده، و «حافظ»: فاعل به، وهو أحسن، ويجوز أن يكون «كل»: مبتدأ، و «حافظ»: خبره، و «عليها»: متعلق به، و «ما»: مزيدة أيضاً، هذا كله تفريع على قول البصريين.

وقال الكوفيون: «إن» هنا: نافية، واللام بمعنى: «إلا» إيجاباً بعد النفي، و «ما»: مزيدة. وتقدم الكلام في هذا مستوفى.

قال الفارسي: ويستعمل «لما» بمعنى: «إلا» في موضعين:

أحدهما: هذا، والآخر: في باب القسم، تقول: سألتك لما فعلت.

وروي عن الكسائي والأخفش وأبي عبيدة أنهم قالوا: لم نجد «لما» بمعنى: «إلا» في كلام العرب.

وأما قراءة التشديد: ف «إن» نافية، و «لما» بمعنى: «إلا» وتقدمت شواهد ذلك في سورة «هود»^(١).

وحكى هارون: أنه^(٢) قرئ «إن» بالتشديد، «كُلُّ» بالنصب على أنه اسمها، واللام: هي الدالخة في الخبر، و «ما»: مزيدة، و «حافظ»: خبرها.

وعلى كل تقدير ف «إن» وما في خبرها: جواب القسم سواء جعلها مخففة أو نافية.

وقيل: الجواب: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجَئِهِ﴾ وما بينهما اعتراض؛ وفيه بعد.

فصل في المراد بالحافظ^(٣)

قال قتادة: «حافظ» أي: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَثِيرِينَ﴾ [الأنفطار: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿لَمْ مَعْصَتُ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقيل: الحافظ: هو الله تعالى.

وقيل: الحافظ: هو العقل يرشد الإنسان إلى مصالحه، ويكفّه عن مضارّه.

قال القرطبي^(٤): العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله تعالى، قال الله

(١) آية ١١١.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤٤٩/٨، والدر المصون ٥٠٦/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٤/١٢)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٤٦/٦)، وينظر تفسير القرطبي (٤/٢٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٠.

تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٣] وما كان مثله.

قال ابن الخطيب^(١): المعنى: لما كانت كل نفس عليها حافظ، وجب أن يجتهد كل واحد، ويشغل بالمهم، وأهم الأشياء معرفة المبدأ والمعاد والمبدأ يقدم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ فَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩

قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾، أي: ابن آدم، «مِمَّ خُلِقَ»، وجه الاتصال بما قبله وصية الإنسان بالنظر في أول أمره حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فليعمل ليوم الإعادة والحشر والجزاء، ولا يملئ على الحافظ إلا ما يسره في عاقبه أمره.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، استفهام، أي: من أي شيء خلق، وهو جواب الاستفهام. قوله: ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾. فاعل بمعنى مفعول [كعكسه في قولهم: سيل مفعم]^(٢)، كقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] على وجه.

وقيل: «دافق» على النسب، أي: ذو دفق أو اندفاق.

وقال ابن عطية^(٣): يصح أن يكون الماء دافقاً؛ لأن بعضه يدفع بعضاً، أي: يدفعه، فمنه دافق، ومنه مدفوق انتهى. والدَّفَقُ: الصَّبُّ، ففعله متعد.

وقرأ زيد^(٤) بن علي: «مَدْفُوقٍ»، وكأنه فسر المعنى.

قال القرطبي^(٥): الصَّبُّ: دَفَقُ الماء، دفقت الماء، أدفقه دفقاً، أي: صببته فهو ماء دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سرُّ كاتم، أي: مكتوم؛ لأنه من قولك: دَفَقَ الماء على ما لم يسم فاعله، ولا يقال: دَفَقَ الماء، ويقال: دفق الله روحه: إذا دعى عليه بالموت. قال الفراء والأخفش: «ماءٍ دافقٍ»: أي مصبوب في الرَّحِمِ.

وقال الزجاج: «مِنْ مَاءٍ ذِي اندفاقٍ»، يقال: دَارِعٌ، وفَارِسٌ، ونَابِلٌ، أي ذو قَرَسٍ وِدَرٍ ونَبَلٍ، وهذا مذهب سيويه.

والدَّفَاقُ: هو المندفق بشدة قوته، وأراد مائين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحداً لامتزاجهما.

(١) ينظر: الفخر الرازي ١١٧/٣١.

(٢) سقط من: ب.

(٣) المحرر الوجيز ٤٦٥/٥.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٤٤٩/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٥/٢٠.

وقال ابن عباس: «دافق» لزج^(١).

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، أي: هذا الماء من بين الصلب، أي: الظهر وقرأ العامة: «يَخْرُجُ» مبنياً للفاعل، وابن أبي عبلة وابن مقسم^(٢): مبنياً للمفعول. وقرأ - أيضاً^(٣) -: وأهل «مكة»: «الصُّلْبِ» بضم الصاد واللام.

وقرأ اليماني^(٤): بفتحها؛ ومنه قول العجاج: [الرجز]

٥١٦٣ - فِي صَلْبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤَدَمِ^(٥)

[وفيه أربع لغات: «صُلْبٌ، وَصُلْبٌ، وَصَلْبٌ، وَصَالِبٌ، ومنه قوله»^(٦):

[المنسرح]

٥١٦٤ - تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ^(٧)

والترائب: جمع تربية، وهي موضع القلادة من عظام الصدر؛ لأن الولد مخلوق من مائهما؛ فماء الرجل في صلبه، وماء المرأة في ترائبها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ نُفُوسَ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]؛ وقال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٦٥ - مُهْفَهْفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَضْفُولَةٌ كَالسَّجَنَجِلِ^(٨)

وقال آخر: [الكامل]

٥١٦٦ - وَالزُّعْفَرَانُ عَلَى تَرَائِبِهَا شَرِقَ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّحْرُ^(٩)

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤/٢٠)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤٤٩/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٦٥/٥، والبحر المحيط ٤٤٩/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

(٤) السابق.

(٥) عجز بيت وصدره:

رَبَا الْعِظَامِ فَخْمَةُ الْمَخْدَمِ

ينظر اللسان (صلب)، والقرطبي ٦/١٩، والبحر ٤٤٩/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

(٦) في أما يلي:

وتقدمت لغاته في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وأعرافها صالب، كقول ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٧) تقدم.

(٨) ينظر ديوان امرئ القيس (١١٥)، وشرح المعلقات للزرزني (٣٠)، وإعراب القرآن ٢٠٠/٥، ومعاني القرآن وإعرابه ٣١٢/٥، واللسان (ترب)، والقرطبي ٥/٢٠، والبحر ٤٤٧/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

(٩) هو للمخبل السعدي، ينظر اللسان (ترب)، والطبري ٦٣/٣٠، ومجمع البيان ٧١٤/١٠، والقرطبي ٦/٢٠، والبحر المحيط ٤٤٧/٨، والدر المصون ٥٠٧/٦.

وقال المثقَّبُ العبدِيُّ : [الوافر]

٥١٦٧ - وَمَنْ ذَهَبَ يَلُوحُ عَلَى تَرِبٍ كَلُونِ الْعَاجِ لَيْسَ لَهُ غُضُونٌ^(١)

وقال الشاعر : [الرجز]

٥١٦٨ - أَشْرَفَ ثُدَيَاهَا عَلَى التَّرِبِ^(٢)

وعن ابن عباسٍ وعكرمة : الترائب : ما بين ثدييها^(٣) .

وقيل : الترائب : التراقي .

وقيل : أضلاع الرجل التي أسفل الصلب .

وحكى الزجاجُ : أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر ، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .

وعن ابن عباسٍ : أطراف المرء : يده ورجلاه وعيناه^(٤) ، وهو قول الضحاك .

وقيل : عصلوة القلب^(٥) ، وهو قول معمر بن أبي حبيبة .

قال ابن عطية^(٦) : وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة .

وقال سعيد بن جبيرة : هو الجيد^(٧) .

وقال مجاهد : ما بين المنكبين والصدر^(٨) .

وقال القرطبي^(٩) : والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصُّدر والنَّحر .

جاء في الحديث : أن الولد يخلق من ماء الرجل ، يخرج من صلبه العظم والعصب ، وماء المرأة التي يخرج من ترائبها اللحم والدم^(١٠) .

حكى القرطبي^(١١) : أنَّ ماء الرجل يخرج من الدُّماغ ، ثم يجتمع^(١٢) في الأنثيين ،

وهذا لا يعارض : « مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » ؛ لأنه إن نزل من الدُّماغ ، فإنما يمرُّ بين الصلب والترائب .

قال قتادة : المعنى : يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة^(١٣) .

(١) ينظر شعر المثقَّب العبدِي ص (٣٢) ، والمفضليات ص ٥٧٩ ، والطبري ٩٣/٣٠ ، وإعراب القرآن ١٩٩/٥ ، واللسان (ترب) والقرطبي ٦/٢٠ ، والبحر ٤٤٧/٨ ، والدر المصون ٥٠٧/٦ .

(٢) ينظر ابن الشجري ٣٤١/٢ ، والقرطبي ٦/٢٠ .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٤/١٢) . (٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٥/١٢) .

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٦/١٢) . (٦) ينظر المحرر الوجيز ٤٦٥/٥ .

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/٢٠) . (٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٥/١٢) .

(٩) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٥/٢٠ . (١٠) تقدم تخريجه .

(١١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٦/٢٠ . (١٢) في أ : ينزل .

(١٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٥/١٢) .

وحكى الفراء: أنَّ مثل هذا يأتي عن العرب، فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب.

والمعنى من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم إننا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الرجل والديه كثيراً، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المنى، وأيضاً فالمكثّر من الجماع يجد وجعاً في صلبه وظهره، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبساً من الماء.

قال المهدوي: من جعل المنى يخرج من بين صلب الرجل وترائب، فالضمير في «يخرج» للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان.

قوله: ﴿إِنَّهُ﴾. الضمير للخالق المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه.

قوله: ﴿عَلَى رَجَمِهِ﴾، في الهاء وجهان:

أحدهما: أنه ضمير الإنسان أي على بعثه بعد موته، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة^(١)، وهو اختيار الطبري^(٢)، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى التَّوَارِثُ﴾.

والثاني: أنه ضمير الماء، أي: يرجع المنى في الإخليل أو الصلب^(٣).

قاله الضحاك ومجاهد، والأول قول الضحاك أيضاً وعكرمة.

[وعن الضحاك أيضاً أن المعنى أنه على رد الإنسان من الكبير إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبير. حكاه المهدوي^(٤).]

وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصّبا ومن الصّبا إلى النّطفة^(٥).

وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى يخرج لقادر.

وقال الماوردي: يحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعثه إلى الآخرة؛ لأن الكفار يسألون فيها الرجعة، والرجع مصدر رجعت الشيء أي: رددته^(٦).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٧/١٢) عن قتادة.

(٢) ينظر: جامع البيان ٥٣٧/١٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٦/١٢)، عن مجاهد وعكرمة والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦١/٦)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وذكره أيضاً عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٧/١٢).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٣٧/١٢)، عن ابن زيد.

(٦) سقط من: ب.

قوله : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَافُ﴾ . فيه أوجه ، وقد رتبها أبو البقاء على الخلاف في الضمير ، فقال^(١) : على القول بكون الضمير للإنسان ، فيه أوجه :

أحدها : أنه معمول لـ «قادر» .

إلا أن ابن عطية قال^(٢) - بعد أن حكى أوجهاً عن النحاة - : «وكل هذه الفرق فرّقت من أن يكون العامل «لقادر» ، لئلاً يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده» . ثم قال : «وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل «لقادر» ، وذلك أنه قال : «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ» ؛ لأنه إذا قدر على ذلك في هذا الوقت كان في غيره أقدر بطريق الأولى .

الثاني : أن يكون العامل مضمّر على التبيين ، أي : يرجعه يوم تبلى .

الثالث : تقديره : اذكر ، فيكون مفعولاً به ، وعلى عوده على الماء يكون العامل فيه : اذكر انتهى ملخصاً .

وجوّز بعضهم أن يكون العامل فيه «نَاصِرٍ» ، وهو فاسد ؛ لأن ما بعد «ما» النافية وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلهما .

وقيل : العامل «رَجْعِهِ» ، وهو فاسدٌ ، لأنه قد فصل بين المصدر ومعموله بأجنبي ، وهو خبر «إِنَّ» . وبعضهم يقتصره في الظرف .

قوله : «تَبْلَى» تختبر وتعرف ؛ قال الرازي : [الرجز]

٥١٦٩ - قَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ تَزْدَرِينِي فَالْيَوْمَ أَبْلُوكَ وَتَبْتَلِينِي^(٣)

أي : أعرفك وتعرفني .

وقيل : ﴿يُنْفَخُ الْأَشْرَافُ﴾ تخرج من مخبأاتها وتظهر ، وهو كل ما استسرّه الإنسان من خير ، أو شر ، وأضمّره من إيمان ، أو كفر .

قال ابن الخطيب^(٤) : والسرائرُ : ما أسر في القلوب ، والمراد هنا : عرض الأعمال ، ونشر الصحف ، أو المعنى : اختبارها ، وتمييز الحسن منها من القبيح لترتيب الثواب والعقاب .

وقال رسول الله ﷺ : «اِثْمَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - خَلَقَهُ عَلَى أَرْبَعِ : الصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ ، وَالْغُسْلِ ، وَهُنَّ السَّرَائِرُ الَّتِي يَخْتَبِرُهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥) . ذكره المهدوي .

وروى الماوردي عن زيد بن أسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ : الأمانة ثلاث :

(١) ينظر : الإملاء ٢/ ٢٨٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦ .

(٣) ينظر القرطبي ٧/ ٢٠ .

(٤) ينظر : الفخر الرازي ٣١/ ١١٩ .

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦١) ، وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي الدرداء مرفوعاً .

الصَّلَاةُ، والصَّوْمُ، والجَنَابَةُ، اسْتَأْمَنَ اللَّهُ - تعالى - ابْنَ آدَمَ عَلَى الصَّلَاةِ، فَإِنْ شَاءَ قَالَ: صَلَّيْتُ، وَلَمْ يُصَلِّ، وَاسْتَأْمَنَ اللَّهُ تعالى ابْنَ آدَمَ عَلَى الصَّوْمِ، فَإِنْ شَاءَ قَالَ: [صُمْتُ وَلَمْ يَصُمْ وَاسْتَأْمَنَ اللَّهُ تعالى ابْنَ آدَمَ عَلَى الْجَنَابَةِ فَإِنْ شَاءَ قَالَ:] ^(١) اغْتَسَلْتُ وَلَمْ يَغْتَسِلْ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ﴾ ^(٢).

[وقال مالك - رضي الله عنه -: الوضوء من السرائر، والسرائر ما في القلوب يجزي الله به العباد] ^(٣).

وقال ابن العربي: قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: يغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة، وأشد ذلك الوديعة، تمثل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمى بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها، فيجعلها في عنقه، وإذا أراد أن يخرج بها زلت، فيتبعها، فيجعلها في عنقه، فهو كذلك دهر الدهرين ^(٤).

وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن اتئمت المرأة على فرجها ^(٥).
وقال سفيان: الحيضة والحمل من الأمانة، إن قالت: لم أحض وأنا حامل صدقت ما لم يأت ما يعرف فيه أنها كاذبة ^(٦).

قوله: ﴿فَأَلَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، أي: فما للإنسان من قوة، أي: منعة تمنعه، ولا ناصر ينصره عن ما نزل به.

قال ابن الخطيب ^(٧): ويمكن أن يتمسك بهذه الآية على نفي الشفاعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.
والجواب ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّامُ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَآكِدُ كَيْدًا ۝ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَتْمَلَهُمْ رُؤْدًا ۝﴾
قوله: ﴿وَالنَّامُ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.

قيل: الرجْع: مصدر، بمعنى رجوع الشمس والقمر إليها، والنجوم تطلع من ناحيته، وتغيب في أخرى.

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٨/٢٠)، وعزاه إلى الثعلبي.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (٨/٢٠)، وعزاه إلى الثعلبي.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) ينظر: المصدر السابق.

(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٢٠.

وقيل: الرَّجْعُ: المطر؛ قال المتنخل، يصف سيفاً يشبهه بالماء: [السريع]
 ٥١٧٠ - أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رُسُوبٌ إِذَا مَا ثَاخَ فِي مُخْتَفِلٍ يَخْتَلِي^(١)
 وقال: [البسيط]

٥١٧١ - رِيَاءُ شَمَاءٍ لَا يَأْوِي لِقَلَّتْهَا إِلَّا السَّحَابُ وَالْأَوْبُ وَالسَّبِيلُ^(٢)
 وقال الخليل: المطر نفسه، وهذا قول الزجاج.

قال ابن الخطيب^(٣): واعلم أن كلام الزجاج، وسائر علماء اللغة «صريح» في أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر، بل سمي رجعاً مجازاً، وحسن هذا المجاز وجوه:
 أحدها: قال القفال: كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته، ووصل الحروف به، وكذا المطر، لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً.

وثانيها: أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

والرجع - أيضاً - نبات الربيع.

وقيل: «ذَاتِ الرَّجْعِ» أي: ذات النفع.

وقيل: ذات الملائكة، لرجوعهم فيها بأعمال العباد، وهذا قسم.

﴿وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّتَعِ﴾ قسم آخر، أي: تتصدع عن النبات، والشجر، والثمار، والأنهار، نظيره: ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦].

والصَّدْعُ: بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتصدع به، وكأنه قال^(٤): والأرض ذات النبات الصادع للأرض.

[وقال مجاهد: الأرض ذات الطريق التي تصدعها المشاة.

وقيل: ذات الحرث لأنه يصدعها.

وقيل: ذات الأموات لانصداعها للنشور.

وقيل: هما الجبلان بينهما شق وطريق نافذ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾^(٥)
 [الأنبياء: ٣١].

(١) ينظر ديوان الهذليين ١٢/٢، ومجاز القرآن ٢٩٤/٢، ومعاني القرآن وإعرابه ٣١٢/٥، والقرطبي ٨/٢٠، والدر المصون ٥٠٨/٦، وفتح القدير ٤٢٠/٥.

(٢) البيت للمتنخل الهذلي ينظر: خزانة الأدب ٣/٥، ٧، وشرح أشعار الهذليين ١٢٨/٣، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣١٥، وشرح المفصل ٥٨/٣، ٥٩، واللسان (أوب).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ١٢٠/٣١.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٤٩/٦)، والقرطبي (٩/٢٠).

(٥) سقط من: ب.

قال ابن الخطيب^(١): واعلم أنه تعالى، كما جعل كيفية خلقه الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد، ذكر في هذا القسم كيفية خلقه النبات.

فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: كالأب، «والأرض ذات الصدع» كالأم، وكلاهما من النعم العظام؛ لأن نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء متكرراً، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك، ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾. وهذا جواب القسم، والضمير في «إنه» للقرآن، أي: إن القرآن يفصل بين الحق والباطل.

وقال القفال: يعود إلى الكلام المتقدم والمعنى: ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم يوم تبلى سرائركم قول فصل، وحق، والفصل: الحكم الذي ينفصل به الحق عن الباطل، ومنه فصل الخصومات، وهو قطعها بالحكم الجزم، [ويقال: هذا قول فصل قاطع للشر والنزاع].

وقيل: [معناه جد]^(٢) لقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾. أي: باللعب، والهزل: ضد الجد والتشمير في الأمر، يقال: هزل يهزل.

قال الكميث: [الطويل]

٥١٧٢ - تَجِدُ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَتَهْزِلُ^(٣)

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، أي: أن أعداء الله يكيدون كيداً، أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرراً.

قيل: الكَيْدُ، إلقاء الشبهات، كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] ﴿مَنْ يُخِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَجَدًّا﴾ [ص: ٥]، ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ﴿فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقيل: الطعن فيه بكونه ساحراً، أو شاعراً، أو مجنوناً، حاشاه من ذلك ﷺ.

وقيل: قصدهم قتله، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية.

وأما قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. أي: أجازيهم جزاء كيدهم.

(١) ينظر الفخر الرازي ١٢١/٣١. (٢) سقط من: ب.

(٣) عجز بيت وصدرة:

أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا

ينظر الكميث وقصائده الهاشميات ص ١٤١، واللسان (هزل)، والقرطبي ٩/٢، والبحر ٤٤٨/٨، والدر المصون ٥٠٨/٦.

وقيل: هو ما أوقع الله - تعالى - بهم يوم «بدر» من القتل، والأسر.

وقيل: استدراجهم من حيث لا يعلمون.

وقيل: كيد الله تعالى، بنصره وإعلاء درجته ﷺ تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]؛ وقول الشاعر: [الوافر]

٥١٧٣ - أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجَهْلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

وقوله تعالى: ﴿سَوِّأَ اللَّهُ فَاَسَنَّهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَذِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. قوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾. أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل، وارض بما تريده في أمورهم، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قوله: ﴿أَمْهَلُهُمْ﴾. هذه قراءة العامة، لما كرر الأمر تأكيداً خالف بين اللفظين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «مَهْلُهُمْ» كالأول، ومَهْلٌ وأمَهْلٌ بمعنى مثل: نزل وأنزل، والإمهال والتمهيل: الانتظار، يقال: أمهلتك كذا، أي: انتظرتك لتفعله، والاسم: المهلة والاستمهال: الانتظار، والمَهْلُ: الرَفْقُ والتؤدة، وتمهل في أمره: أي: أتاه، وتمهل تمهلاً: اعتدل وانتصب، والامتهال: سكون وفطور، ويقال: مهلاً يا فلان، أي رفقا وسكوناً.

قوله: ﴿رَوِّدًا﴾. مصدر مؤكد لمعنى العامل، وهو تصغير إرواد على الترخيم، وقيل: بل هو تصغير «رود» كذا قال أبو عبيد.

وأشدد: [البسيط]

٥١٧٤ - كَأَنَّهُ لَمِمْ يَمْشِي عَلَى رَوْدٍ^(٢)

أي: على مهل. واعلم أن «رويداً»: يستعمل مصدراً بدلاً من اللفظ بفعله، فيضاف تارة، كقوله تعالى: ﴿فَضْرَبَ أَزْوَاجَ﴾ [محمد: ٤]، ولا يضاف أخرى، نحو: رويداً زيداً، ويقع حالاً، نحو: ساروا رويداً، أي: متمهلين، ونعت المصدر، نحو: «ساروا رويداً»، أي: سيراً رويداً، وتفسير «رويداً» مهلاً، وتفسير «رويدك» أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى: «افعل» دون غيره، وإنما حُرِّكت الدال لالتقاء الساكنين، ونصب نصب

(١) ينظر سمط اللآلئ ٥٨٠/١، والمحرر الوجيز ١٥٩/١، وشرح شواهد الكشاف ص ٥٥١.

(٢) عجز بيت للجموح الظفري، وصدره:

تَكَادُ لَا تَكَلِّمُ الْبَطْحَاءَ وَطَائِفَهَا

ينظر ابن يعيش ١٩/٤، واللسان (ورد)، والقرطبي ٩/٢٠، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ٤٠٣، والدر المصون ٥٠٨/٦.

المصادر، وهو مصغرٌ مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من «إرواد»: وهو مصدر: «أرود، يرود»، وله أربعة أوجه: اسماً للفعل، وصفة، وحالاً، ومصدرأ، وقد تقدم ذكرها.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «رويداً» أي: قريباً^(١).

وقال قتادة: قليلاً^(٢).

وقيل: ﴿أَنَّهُمْ رَوِيًّا﴾: إلى يوم القيامة، وإنما صغر ذلك من حيث إن كل آت

قريب.

وقيل: «أمهلهم رويداً» إلى يوم يرد.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ

﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ أعطاه الله تعالى مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ»^(٣).
والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤١/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٢/٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤١/١٢)، عن قتادة.

(٣) تقدم تخريجه مراراً.

سورة الأعلى

مكية في قول الجمهور.

وقال الضحاك: مدنية، وهي تسع عشرة آية، واثنان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. يستحب للقارئ إذا قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أن يقول عقبيه: «سبحان ربي الأعلى» كذا جاء في الحديث^(١)، وقال جماعة من الصحابة والتابعين وقال ابن عباس والسدي: معنى «سبح اسم ربك الأعلى» أي: عظم ربك الأعلى، والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى^(٢).

كقول لبيد: [الطويل]

٥١٧٥ - إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا (٣)

[وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقوله الملحدون، وذكر الطبري أن المعنى: نزه اسم ربك الأعلى عن أن تسمي به أحداً سواه.

وقيل: المعنى: نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم لذكره، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية]^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٦/١)، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة رقم (٨٨٣)، وأحمد (١/٢٣٢)، والبيهقي (٣١٠/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٦/٦)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه.

وقد ورد موقوفاً عن ابن عباس من فعله، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٢/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٦/٦)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥١/٦)، والبغوي (٤/٤٧٥)، والقرطبي (١١/٢٠).

(٤) سقط من: ب.

(٣) تقدم.

قال ابن الخطيب^(١): معنى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وفي أسمائه، وفي أحكامه.
أمّا في ذاته، فإن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض.
وأمّا في صفاته، فإن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة.
وأمّا في أفعاله، فإن تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور.

وقالت المعتزلة: هو أن تعتقد أن كل ما فعله صواب حسن، وأنه سبحانه لا يفعل القبيح، ولا يرضى به، وأمّا في أسمائه: فإن لا تذكره - سبحانه وتعالى - إلاّ بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه، سواء ورد الإذن فيها أو لم يرد.
وأمّا في أحكامه: فهو أن تعلم أن ما كلفنا به ليس لنفّع يعود إليه، بل لمحضر المالكية على قولنا، أو لرعاية مصالح العباد على قول المعتزلة.

فصل فيمن استدل بالآية على أن الاسم نفس المسمى

قال ابن الخطيب^(٢): تُمسك بهذه الآية في أن الاسم نفس المسمى.
وأقول: الخوض في هذه المسألة لا يمكن إلا بعد الكشف عن محل النزاع، فنقول: إن كان الاسم عبارة عن اللفظ؛ والمسمى عبارة عن الذات، فليس الاسم المسمى بالضرورة، فكيف يمكن الاستدلال على ما علم بالضرورة؟ نعم هنا نكتة، وهي أن الاسم هو اللفظ الدال على معنى في نفسه من غير زمن، والاسم كذلك، فيكون اسماً لنفسه، فالاسم هنا نفس المسمى، فعلى هذا يرد من أطلق ذلك؛ لأن الحكم بالتعميم خطأ، والمراد: الذي يدل على أن الاسم نفس المسمى هو أن أحداً لا يقول: سبحانه الله وسبحان اسم ربنا، فمعنى «سبح اسم ربك» سبح ربك، والرب أيضاً اسم، فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه.

وهذا الاستدلال ضعيف، لما بينا أنه يمكن أن يكون وارداً بتسبيح الاسم، ويمكن أن يكون المراد: سبح المسمى، وذكر الاسم صلة فيه، ويكون المراد: سبح باسم ربك، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ويكون المعنى: سبح بذكر أسمائه.

فصل في تفسير الآية

روى أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنه -: صلّ بأمر ربك الأعلى قال: وهو أن يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٣) وروى عن عليّ - رضي الله عنه - وابن عباس، وابن

(١) ينظر الفخر الرازي ٣١/ ١٢٤.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) السابق.

عمر، وابن الزبير، وأبي موسى، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - كانوا إذا افتتحو قراءة هذه السورة، قالوا: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» امتثالاً لأمره في ابتدائها، فيختار الاقتداء بهم في قراءتهم، لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن، كما قاله بعض أهل الزنغ.

وقيل: إنها في قراءة أبي^(٢): «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى».

وروى ابن الأنباري بإسناده إلى عيسى بن عمر عن أبيه، قال: قرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في الصلاة: «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»، ثم قال: سبحان ربي الأعلى، فلما انقضت الصلاة، قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى، قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته^(٣).

وعن عقبة بن عامر الجهني، قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»^(٤).

قال القرطبي^(٥): «هذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى».

وقيل: معناه: ارفع صوتك بذكر ربك؛ قال جرير: [الكامل]

٥١٧٦ - قَبِّحَ الْإِلَهُ وَجْوهَ تَغْلِبَ كُلَّمَا سَبَّحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا تَكْبِيرًا^(٦)

قوله: «الأعلى»: يجوز جره: «صفة» لـ «ربك»، ونصبه صفة لـ «اسم»، إلا أن هذا يمنع أن يكون «الذي» صفة لـ «ربك»، بل يتعين جعله نعتاً لـ «اسم»، أو مقطوعاً لئلا يلزم الفصل بين الصفة والموصوف بصفة غيره؛ إذ يصير التركيب، مثل قولك: جاءني غلامٌ هندٍ العاقلُ الحسنة، فيفصل بـ «العاقل» بين «هند» وبين صفتها. وتقدم الكلام في إضافة الاسم إلى المسمى.

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوْءٌ﴾.

قال ابن الخطيب^(٧): يحتمل أن يريد الناس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٢/١٢)، عن علي وابن عمر وابن عباس. وينظر المصادر السابقة.

(٢) ونسبها الزمخشري لعلي، ينظر: الكشف ٧٣٨/٤، وفي المحرر الوجيز ٤٦٨/٥ نقلاً عن الطبري أن ابن عمر وعلياً قرءا كذلك، قال ابن عطية: وهي قراءة أبي موسى الأشعري، وابن الزبير، ومالك بن أبي دينار.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/٢٠)، وعزا إلى ابن الأنباري.

(٤) تقدم تخريجه في آخر سورة الواقعة. (٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢٠.

(٦) ينظر شرح ديوان جرير ص ٥٤٢، والإتقان في علوم القرآن ٣٦٣/١ والقرطبي ١٢/٢٠.

(٧) الفخر الرازي ١٢٦/٣١.

ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه الله تعالى، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً:
أحدها: اعتدال قامته، وحسن خلقته على ما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾
[التين: ٤] وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وثانيها: أن كل حيوان مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط، وأما الإنسان، فإنه خلقه بحيث يمكنه أن يأتي بجميع الأعمال بواسطة الآلات.

وثالثها: أنه - تعالى - هياه للتكليف، والقيام بأداء العبادات.

قال بعضهم: خلق في أصلاب الآباء، وسوى في أرحام الأمهات، ومن حمله على جميع الحيوانات، فمعناه: أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من آلات، وأعضاء، ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية هو أنه - تعالى - قادر على كل الممكنات، عالم بجميع المعلومات، يخلق ما أراد على وفق إرادته موصوفاً بالإحكام والإتقان، مبرأ عن النقص والاضطراب.

قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾؛ قرأ الكسائي وعلي - رضي الله عنه^(١) - والسلمي: «قدر» بتخفيف الدال، والباقون: بالتشديد.

والمعنى: قدر كل شيء بمقدار معلوم.

ومن خفف، قال القفال^(٢): معناه: ملك فهدى، وتأويله: أنه تعالى خلق كل شيء، فسوى، وملك ما خلق، أي تصرف فيه كيف شاء وأراد هذا هو الملك، فهداه لمنافعه ومصالحه.

ومنهم من قال: إنهما لغتان بمعنى واحد، وعليه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] بالتشديد والتخفيف، وقد تقدم.

فصل في معنى الآية

قال مجاهد: قَدَّرَ الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، وعنه: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعيتها^(٣).

وقيل: قَدَّرَ أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا أناساً، ولمراعيتهم إن كانوا وحوشاً.

(١) ينظر: السبعة ٦٨٠، والحجة ٦/٣٩٨، وإعراب القراءات ٢/٤٦٦، وحجة القراءات ٧٥٨، والقرطبي ١٢/٢٠.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٢٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٤٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٦٦)، وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قوله تعالى: «فَهْدَى»: عرف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى، كما قال تعالى في سورة «طه»: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي: الذكر للأنثى^(١).

وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهذاها له^(٢).

وقيل: «قَدَّرَ فَهْدَى» أي: قَدَّرَ لكل حيوان ما يصلحه، فهذاهُ إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، يقال: إن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت، وقد ألهمها الله تعالى، أن مسح العينين بورق الرازيانج الغض، يرد إليها بصرها، فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولها، وعماها، حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج، لا تخطئها، فتحك بها عينها، فترجع باصرة بإذن الله تعالى.

[وهدايات الإنسان إلى أن مصالحه من أغذيته وأدويته، وأمور دينه ودينه وإلهامات البهائم والطيور، وهوام الأرض باب ثابت واسع، فسبحان ربي الأعلى]^(٣).

وقال السدي: قَدَّرَ مدة الجنين في الرحم، ثم هداه إلى الخروج من الرحم^(٤).

وقال الفراء: «قَدَّى فَهْدَى» أي: وأضل، فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ويحتمل أن يكون بمعنى «دَعَا» إلى الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي لتدعو وقد دعا الكل إلى الإيمان^(٥).

وقيل: «فَهْدَى» أي: دلَّهم بأفعاله على توحيده وكونه عالماً قادراً.

واعلم أن الاستدلال بالخلق وبالهدى، هي معتمد الأنبياء.

قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وقال موسى - عليه الصلاة والسلام - لفرعون: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال هنا ذلك، وإنما خصت هذه الطريقة لوضوحها وكثرة عجائبها.

قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾، أي: النبات، لما ذكر سبحانه ما يختص بالناس، أتبعه بما يختص بسائر الحيوان من النعم، أي: هو القادر على إنبات العشب، لا كالأصنام التي عبدتها الكفرة، والمرعى: ما تخرجه الأرض من النبات، والثمار، والزروع، والحشيش.

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥٢/٦) عن السدي وذكره القرطبي (١٢/٢٠)، عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٢/٢٠)، عن عطاء.

(٣) سقط من: ب. (٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥٢/٦).

(٥) سقط من: ب.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: «المرعى»: الكَلأُ الأخضر^(١).

قوله: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. «غثاء»: إما مفعول ثانٍ، وإما حال.

«والغُثَاء»: - بتشديد الثاء وتخفيفها - وهو الصحيح، ما يغترفه السيل على جوانب

الوادي من النبات ونحوه؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥١٧٧ - كَأَنَّ طَمِيَّاتِ الْمُجِيمِرِ غُدْوَةً مِنْ السَّيْلِ وَالْأَغْثَاءِ فَلَكَ مِغْزَلٌ^(٢)

ورواه الفراء: «والأغثاء» على الجمع، وفيه غرابة من حيث جمع «فعالاً» على

«أفعال».

قوله تعالى: ﴿أَحْوَى﴾. فيه وجهان:

أظهرهما: أنه نعت لـ «غثاء».

والثاني: أنه حال من المرعى.

قال أبو البقاء^(٣): «فقدّم بعض الصلة»، يعني: أن الأصل أخرج المرعى أحوى،

فجعل غثاء.

قال شهابُ الدِّينِ^(٤): ولا يسمى هذا تقديماً لبعض الصلة.

والأحوى: «أفعل» من الحَوَّة، وهي سوادٌ يضرب إلى الخُضْرَةِ؛ قال ذو الرُّمَّة:

[البسيط]

٥١٧٨ - لَمَيَاءٌ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ^(٥)

وقد استدللَّ بعض النحاة على وجود بدل الغلط بهذا البيت.

وقيل: خضرة عليها سواد، والأحوى: الطَّيْبِي؛ لأن في ظهره خَطَيْن؛ قال:

[الطويل]

٥١٧٩ - وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرُ سِمَطِي لَوْلُو وَزَبَزَجِدُ^(٦)

ويقال: رجل أحوى، وامرأة حَوَاءٌ، وجمعهما «حَوٌّ» نحو: أَحْمَرُ وَحَمْرَاءُ وَحُمْرٌ،

قال القرطبي^(٧): «وفي الصَّحاح»: «والحَوَّة: حمرة الشفة، يقال: رجل أحوى وامرأة

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/٢٠).

(٢) ينظر ديوان امرئ القيس (٥)، والقرطبي ١٣/٢٩، والبحر ٨/٤٥٣.

(٣) الإملاء ٢/٢٨٥. (٤) الدر المصون ٦/٥٠٩.

(٥) تقدم.

(٦) البيت لطرفة بن العبد، ينظر ديوانه (٤٧)، شرح المعلقات السبع للزوزني، واللسان (سمط)،

والبحر ٨/٤٥٢، والدر المصون ٦/٥١٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٢٠.

حواء وقد حوِثُ، وبغير أخوى: إذا خالط خضرته سواد وصفرة، قال: وتصغير أخوى: أخيو في لغة من قال: أسود.

قال عبد الرحمن بن زيد: هذا مثلٌ ضربهُ الله تعالى للكُفَّار لذهاب الدنيا بعد نضارتها^(١)، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته.

قال أبو عبيدة: فجعله أسود من احتراقه وقدمه، والرطب إذا يبس اسود.

قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧) وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾

قوله: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، قال الواحدي: «سَنُقَرِّئُكَ»: أي: سنجعلك قارئاً، أي: نؤهلك للقراءة فلا تنسى ما تقرأه، أي: نجعلك قارئاً للقرآن فتحفظه، فهو نفي، أخبر الله - تعالى - أن نبيه ﷺ لا ينسى.

وقيل: نهى والألف للإشباع [وقد تقدم نحو من هذا في سورة يوسف وطه].

ومنع مكّي أن يكون نهياً؛ لأنه لا ينهى عما ليس باختياره، وهذا غير لازم، إذ المعنى: النهي عن تعاطي أسباب النسيان، وهو الشائع، وقيل: هذا بشرى من الله تعالى، بشره تعالى بأن جبريل - عليه الصلاة والسلام - لا يفرغ من آخر الوحي، حتى يتكلم هو بأوله لمخافة النسيان، فتزلت هذه الآية؛ فلا تنسى بعد ذلك شيئاً.

قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أنه مفرغ، أي: إلا ما شاء الله أن ينسيكه، فإنك تنساه، والمراد رفع تلاوته، وفي الحديث: «أَنَّهُ كَانَ يُصْبِحُ قَيْنَسَى الْآيَاتِ»^(٢)، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقيل: إن المعنى بذلك النذرة والقلّة.

قال ابن الخطيب^(٣): يشترط أن لا يكون ذلك القليل من الواجبات بل من الآداب والسنن، فإنه لو نسي من الواجبات، فلم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وهو غير جائز، كما ورد أنه ﷺ أسقط آية في صلاته، فحسب أبي أنها نُسخَتْ، فسأله، فقال ﷺ: نَسِيْتُهَا^(٤).

وقال الزمخشري^(٥): «والغرض نفي النسيان رأساً، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٨/٨.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ١٢٩/٣١.

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٧/٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٦٤٧).

(٥) ينظر الكشاف ٧٣٩/٤.

سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله، ولم يقصد أستثني شيئاً، وهو استعمال القلة في معنى النفي» انتهى.

وهذا القول سبقه إليه الفراء ومكي.

قال الفراء، وجماعة معه: هذا الاستثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى، وليس شئ أبيح استثناءه.

قال أبو حيان^(١): «وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى، ولا في كلام فصيح، وكذلك القول بأن «لا» للنفي، والألف فاصلة» انتهى.

وهذا الذي قاله أبو حيان لم يقصده القائل بكونه زائداً محضاً، بل بالمعنى الذي ذكره، وهو المبالغة في نفي النسيان، أو النهي عنه.

وقال مكي: «وقيل: معنى ذلك إلا ما شاء الله، وليس يشاء الله أن تنسى منه شيئاً، فهو بمنزلة قوله تعالى، في سورة «هود» في الموضعين: ﴿خَلْدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨] وليس يشاء جلّ ذكره ترك شيء من الخلود، لتقدم مشيئته لهم بالخلود».

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ﷺ^(٢).

وقيل: هو استثناء من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. نقله مكي.

والمعنى: ما شاء الله أن يناله بنو آدم، والبهايم، فإنه لا يضير ذلك.

قال شهاب الدين^(٣): وهذا ينبغي ألا يجوز البتة.

قال القرطبي^(٤): «قيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذا قد ينسى، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كلياً».

[وقيل هذا النسيان بمعنى النسخ إلا ما شاء الله ينسخه، والاستثناء نوع من النسخ.

وقيل: النسيان بمعنى الترك أي: يعصمك من أن تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه، فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة، ولا للنفي لا للنهي وقيل للنهي، وإنما أثبت الياء لرؤوس الآي، والمعنى: لا تغفل قراءته وتكراره فتساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة، والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً.

وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف وعليها القراءات.

وقيل: معناه: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله^(٥).

(٢) ينظر: القرطبي (١٤/٢٠).

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٠.

(٣) الدر المصون ٦/٥١٠.

(٥) سقط من: ب.

فصل في كيفية تعليم القرآن

ذكر في كيفية هذا التعليم والإقراء وجوهاً:

الأول: أن جبريل - عليه الصلاة والسلام - سيقراً عليك القرآن مرات، حتى تحفظه حفظاً لا تنساه.

وثانيها: أنا نشرحُ صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظه بالمرة الواحدة حفظاً لا تنساه.

وثالثها: أنه تعالى لما أمره ﷺ في أول السورة بالتسبيح، فكأنه تعالى قال: واظب على ذلك، ودُم عليه، فإننا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين، والآخرين، ويكون فيه ذكرك، وذكر قومك، وتجمعه في قلبك.

﴿وَيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ وهو العمل به.

فصل في الدلالة على المعجزة

هذه الآية تدلّ على المعجزة من وجهين:

الأول: أنه ﷺ كان رجلاً آمياً، فحفظه هذا الكتاب المطول من غير دراسة، ولا تكرار، ولا كتابة، خارق للعادة.

والثاني: أنه إخبار عن الوقوع في المستقبل، وقد وقع، فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً.

فصل في المراد بالآية

قال بعضهم: المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أمور:

أولها: التبرك بهذه الكلمة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، فكأنه تعالى يقول: إني عالم بجميع المعلومات، ثم بعواقب الأمور على التفصيل، ومع ذلك لا أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة، فأنت وأمتك يا محمد أولى بها، وهذا بناء على أن الاستثناء غير حاصل في الحقيقة، وأنه ﷺ لم ينس بعد ذلك شيئاً، كما قاله ابن عباس والكلبي وغيرهما.

وثانيها: قال الفراء: إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً ﷺ شيئاً إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً كذلك لقدر عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ١٦]، ثم إنا نقطع أنه تعالى ما شاء ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَكَ لِحَبَطٍ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦] مع أنه ﷺ ما أشرك ألبتة، ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى، يعرفه قدرته، حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله، وإحسانه، لا من قوته.

وثالثها: أن الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جَوَّزَ رسول الله ﷺ في كل ما ينزل عليه من الوحي، أن يكون ذلك هو المستثنى، فلا جرم كان يبالغ في التثبُّت، والتحفظ في جميع المواضع، وكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه ﷺ على التيقُّظ في جميع الأحوال.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الجَهْرُ: هو الإعلان من القول والعمل، «وَمَا يَخْفَى» من السرِّ.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ما في قلبك ونفسك^(١).

وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها^(٢).

وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك، «وَمَا يَخْفَى» هو ما نسخ في صدرك.

فصل في الكلام على «ما»

«ما»: اسمية، ولا يجوز أن تكون مصدرية، لثلا يلزم خلو الفعل من فاعل، ولولا ذلك لكان المصدرية أحسن ليعطف مصدر مؤول على مصدر صريح.

قوله: ﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾: عطف على «سُنْقِرُوكَ فَلَا تَنْسَى»، فهو داخل في حيز التنفيس، وما بينهما من الجملة اعتراض.

واليسرى: هي الطريقة اليسرى، وهي أعمال الخير، والتقدير: سنقرئك فلا تنسى، ونوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر، يعني في حفظ القرآن.

[قال ابن مسعود: اليسرى الجنة أي نيسرك للعمل المؤدي إلى الجنة^(٣) وقيل نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به وقيل نوفقك للشرعة لليسرى وهي الحنيفية السهلة السمحة، قال الضحاك: ^(٤) فإن قيل: المعهود في الكلام أن يقال: يسر الأمر لفلان، ولا يقال: يسر فلان للأمر.

فالجواب أن هذه العبارة كأنها اختيار القرآن هنا وفي سورة «والليل»، فكذا هي اختيار الرسول ﷺ في قوله: «اعْمَلُوا فِكُلِّ مِيسَرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ»، وفيه لطيفة: وهي أن الفاعل لا يترجح عنده الفعل عن الترك، ولا عكسه، إلا لمرجح، وعند ذلك المرجح يجب الفعل، فالفاعل إذن ميسر للفعل، إلا أن الفعل ميسر للفاعل، فذلك الرجحان هو المسمى بـ «التيسير».

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/٢٠). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥٤/٦)، وينظر المصدر السابق.

(٤) سقط من: ب.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)

قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾. أي: فعظ قومك يا محمد بالقرآن ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: الموعظة، و «إِنْ» شرطية، وفيه استبعاد لتذكرهم؛ ومنه قوله: [الوافر] ٥١٨٠ - لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي^(١) وقيل: «إِنْ» بمعنى: «إذا» كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي: إذا كنتم مؤمنين.

وقيل: هي بمعنى: «قد» ذكره ابن خالويه، وهو بعيد.
وقيل: بعده شيء محذوف، تقديره: إن نفعت الذكرى، وإن لم تنفع، كقوله: ﴿سَرِيلٌ تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، قاله الفراء والنحاس والجرجاني والزهراري.
وقيل: إنه مخصوص في قوم بأعيانهم.
وقيل: «إِنْ» بمعنى: «ما» أي: فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون «إِنْ» بمعنى: «ما» لا بمعنى: الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال. قاله ابن شجرة.

فصل في فائدة هذا الشرط

قال ابن الخطيب^(٢): «إِنَّهُ ﷺ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى الْكُلِّ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ تَذْكِيرُهُمْ سِوَاهُ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى، أَوْ لَمْ تَنْفَعَهُمْ، فَمَا فَائِدَةُ هَذَا الشَّرْطِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾؟ والجواب من وجوه: إمّا أن يكون المراد: التنبيه على أشرف الحالين، وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، قال: والمعلق بـ «إِنْ» على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ كُنْتُمْ فِي غَمٍّ﴾ [النساء: ١٠١]، فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، والمراجعة جائزة بدون هذا الظن، وإذا كان كذلك، فهذا الشرط فيه فوائد منها ما تقدم، ومنها: البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبي ﷺ على أنه لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعام.

(١) ينظر: البحر ٨/٤٥٤، والدر المصون ٦/٥١٠.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣١/١٣١.

فإن قيل: الله - تعالى - عالم بعواقب الأمور بمن يؤمن، ومن لا يؤمن، والتعليق بالشرط، إنما يحسن في حق من ليس بعالم.

فالجواب: أن أمر البعثة والدعوة شيء، وعلمه تعالى بالمغيبات، وعواقب الأمور غيره، ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر، كقوله تعالى لموسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام -: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وهو تعالى عالم بأنه لا يتذكر ولا يخشى.

فإن قيل: التذكير المأمور به، هل هو مضبوط بعدد أو لا؟ وكيف يكون الخروج عن عهدة التذكير؟

والجواب أن المعتبر في التذكير والتكرير هو العرف.

قوله: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾، أي: يتقي الله ويخافه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - نزلت في ابن أم مكتوم^(١).

وقيل: في عثمان بن عفان قال الماوردي: وقد يذكره من يرجوه إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية والرجاء قيل المعنى: عَمَّمُ أَنْتَ التذكير والوعظ وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء. حكاه القشيري، ولذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء.

فإن قيل: التذكير إنما يكون بشيء قد علم، وهؤلاء لم يزالوا كفاراً معاندين؟

فالجواب: أن ذلك لظهوره وقوة دليله، كأنه معلوم، لكنه يزول بسبب التقليد والعناد، فلذلك سمي بالتذكير، والسين في قوله: «سيدكر» يحتمل أن تكون بمعنى: «سوف»، و «سوف» من الله تعالى واجب، كقوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: أن من خشي، فإنه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التذكير والنظر.

قوله: ﴿وَيَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكري، يبعد عنها الأشقي، أي: الشقي في علم الله تعالى، لما بين من ينتفع بالذكرى بين بعده من لا ينتفع بها وهو الكافر الأشقي.

قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي: العظمى، وهي السفلى من طباق النار. قاله الفراء.

وعن الحسن: «الكبرى»: نار جهنم، والصغرى: نار الدنيا^(٢).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/٢٠)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر القرطبي (١٥/٢٠)، عن ابن عباس.

وقيل: في الآخرة نيران ودركات متفاضلة، كما في الدنيا ذُنُوبٌ ومعاصي متفاضلة، فكما أنَّ الكافر أشقى العصاة، فكذلك يصلى أعظم النيران.

فإن قيل: لفظ الأشقى لا يستدعي وجود الشقي فكيف حال هذا القسم؟.

فالجواب أن لفظ «الأشقى» لا يستدعي وجود الشقي إذ قد يرد هذا اللفظ من غير مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَآحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى»، كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال ابن الخطيب^(١): الفرق ثلاث: العارف، والمتوقف، والمعاند، فالسعيد: هو العارف، والمتوقف له بعض الشقاء، والأشقى: هو المعاند.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَبُوءُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾؛ لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْنِي عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

فإن قيل: هذه الآية تقتضي أن ثمة حالة غير الحياة والموت، وذلك غير معقول؟.

فالجواب: قال بعضهم: هذا كقول العرب للمبتلى بالبلاء الشديد: لا هو حي، ولا هو ميت.

وقيل: إن نفس أحدهم في النار تمر في حلقه، فلا تخرج للموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم، فيحى.

وقيل: حياتهم كحياة المذبوح وحركته قبل مفارقة الروح، فلا هو حي؛ لأن الروح لم تفارقه بعد، ولا هو ميت؛ لأن الميت هو الذي تفارق روحه جسده. و «ثم» للتراخي بين الرتب في الشدة.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ أي: صادف البقاء في الجنة، أي: من تطهر من الشرك بالإيمان قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة^(٢).

وقال الربيع والحسن: من كان عمله زاكياً نامياً^(٣) وهو قول الزجاج.

وقال قتادة: «زكّى»، أي: عمل صالحاً^(٤).

وعن عطاء، وأبي العالية: نزلت في صدقة الفطر^(٥).

(١) ينظر الرازي ١٣٣/٣١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٦/١٢)، عن ابن عباس و قتادة وعكرمة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٦٨/٦)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٦/١٢)، عن الحسن. و ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥٥/٦)، عن الربيع والحسن. و ذكره القرطبي (١٦/٢٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٦/١٢)، من طريق معمر عن قتادة. و ذكره القرطبي (١٦/٢٠).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٧/١٢)، عن أبي العالية. و ينظر المصدر السابق.

قال ابن سيرين: «قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلّى» قال: خرج فصلّى بعد ما أدى^(١).

والأول أظهر؛ لأن اللفظ المعتاد أن «يقال» في المال: زكى، ولا يقال: تزكى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال أبو الأحوص وعطاء: المراد بالآية: زكاة الأموال كلها^(٢).

قال بعضهم: لا أدري ما وجه هذا التأويل؛ لأن هذه السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد، ولا زكاة فطر.

قال البغوي^(٣): يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢]، والسورة مكية، وظهر أثر الحل يوم الفتح، قال ﷺ: «أَحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ».

وقيل: هذا في زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال، أي: زكى أعماله من الرياء [والتقصير]^(٤) وروى جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى؛ أي: شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أنني رسول الله»^(٥). وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى عطاء عن ابن عباس، قال: نزلت في عثمان - رضي الله عنه - قال: كان بـ «المدينة» منافق كانت له نخلة بـ «المدينة»، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسُر والرطب في دار الأنصاري، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق، فشكاه الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى المنافق، وهو لا يعلم بنفاقه، فقال: إن أخاك الأنصاري ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها؟ فقال: أبيع عاجلاً بآجل؟ لا أفعل، فذكروا أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته، ففيه نزلت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، ونزلت في المنافق: ﴿وَيَجْنِبْهَا لَاشْتَقَى﴾^(٦).

وقال الضحاك: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٧).

قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

قال ابن عباس والضحاك: وذكر اسم ربه في طريق المصلى، فصلّى صلاة العيد^(٨).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/٢٠).

(٢) ذكره الماوردي (٢٥٥/٦)، وينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٤/٤٧٧. (٤) سقط من: ب.

(٥) ينظر تفسير القرطبي ١٦/٢٠. (٦) ذكره القرطبي (١٦/٢٠).

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر: القرطبي (١٦/٢٠).

قال القرطبي^(١): «والسورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بـ «مكة» عيد».

قال القشيري: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمثل أمره في صدقة الفطر، وصلاة العيد فيما يأمر به في المستقبل.

قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾، أي: وذكر ربه.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما: معناه ذكر معاده وموقفه بين يدي الله تعالى، فعبده وصلى له^(٢).

وقيل: ذكر اسم ربه: التكبير في أول الصلاة؛ لأنها لا تنعقد إلا بذكره، وهو قوله: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الإحرام وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها، وفيه حجة لمن قال: الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله تعالى.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «هذا في الصلوات المفروضة».

روى عبد الله رضي الله عنه: «من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له».

قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، قرأ أبو عمرو^(٣): بالغية.

والباقون: بالخطاب ويؤيده قراءة أبي^(٤): «أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ».

وعلى الأول معناه: بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا على الاستكثار من الثواب.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أنه قرأ هذه الآية، فقال: أتدرون لم أثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قال: لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها، والأخرى: غيبت عنا فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل^(٥).

قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أي: والدَّارُ الآخرة خير، أي: أفضل وأبقى أي: أدام.

قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/٢٠. (٢) ينظر: القرطبي (١٦/٢٠).

(٣) ينظر: الحجة ٣٩٨/٦، وإعراب القراءات ٤٦٧/٢، وحجة القراءات ٧٥٩.

(٤) وقرأ بها ابن مسعود كما في: الكشف ٧٤١/٤، وقراءة أبي في: المحرر الوجيز ٤٧٠/٥.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٤٨/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٠/٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان».

قرأ أبو عمرو^(١)، في رواية الأعمش وهارون: بسكون الحاء في الحرفين، واختلفوا في المشار إليه بهذا.

فقيل: جميع السورة، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس^(٢).

وقال الضحاك: إن هذا القرآن «لفي الصحف الأولى» أي: الكتب الأولى^(٣).

﴿صُحُفْ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ يعني: الكتب المنزلة عليهما، ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما معناه: أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف.

وقال قتادة وابن زيد: المشار إليه هو قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وقال: تتابعت كتب الله تعالى - كما تسمعون - أن الآخرة خير وأبقى وقال الحسن: إن هذا لفي الصحف الأولى يعني من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى آخر السورة؛ لما روى أبو ذر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول هل في أيدينا شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال ﷺ: «نعم»، ثم قرأ أبو ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى آخر السورة.

وروى أبو ذر - رضي الله عنه - أنه سأل رسول الله ﷺ كم أنزل الله من كتاب؟ فقال رسول الله ﷺ: «مائة وأربع كتب: على آدم عشرة صحف، وعلى شِيث خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشرة صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان»^(٤).

قوله: «إبراهيم» قرأ العامة بالألف بعد الراء، وبالياء بعد الهاء.

وأبو رجاء: بحذفهما^(٥) والهاء مفتوحة، أو مكسورة، فعنه قراءتان.

وأبو موسى وابن الزبير^(٦): «إبراهام» - بألفين - وكذا في كل القرآن.

ومالك بن دينار^(٧): بألف بعد الراء فقط، والهاء مفتوحة.

وعبد الرحمن^(٨) بن أبي بكرة: «إِبْرَاهِيمَ» بحذف الألف وكسر الهاء وقد تقدم الكلام على هذا الاسم ولغاته مستوفى في سورة «البقرة»^(٩) والله الحمد على كل حال.

وقال ابن خالويه: وقد جاء «إِبْرَاهِيمَ» يعني بألف وضم الهاء.

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/٤٦٨، والمححر الوجيز ٥/٤٧١، والبحر المحيط ٨/٤٥٥، والدر المصون ٦/٥١١.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/٢٠). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه ابن حبان (٩٤ - موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١٦٥١)، والبيهقي (٩/٤)، وابن عدي في «الكامل» (٧/٢٦٩٩)، من حديث أبي ذر.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٥٥، والدر المصون ٦/٥١١.

(٦) السابق. (٧) السابق.

(٨) ينظر السابق، والمححر الوجيز ٥/٤٧١. (٩) آية ١٢٤.

وروى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - : قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ
الْأَعْلَى أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، عدد كُلِّ حَرْفٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ»^(١) .

(١) تقدم تخريجه .

سورة الغاشية

مكية [بالإجماع]^(١)، وهي ستٌ وعشرون آية، وثلثان وتسعون كلمة، وثلثمائة وإحدى وثمانون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِنَةٍ﴾ (٥) ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) ﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٧)

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. «هل» بمعنى: «قد»، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١] قاله قطرب، أي: قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها.

وقيل: هو استفهام على بابه، ويسميه أهل البيان: التسوييف، والمعنى: إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك، وهو معنى قول الكلبي.

وقال سعيد بن جبير، ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار^(٢)، ورواه أبو صالح عن ابن عباس لقوله تعالى: ﴿وَتَقَشَّىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلق.

وقيل: الغاشية أهل النار يغشونها، ويقحمون فيها.

وقيل: معنى «هل أتاك» أي: هذا لم يكن في علمك، ولا في علم قومك، قاله ابن عباس^(٣) أي: لم يكن أتاه قبل ذلك على التفصيل المذكور.

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾. قد تقدّم نظيره في سورة «القيامة»، وفي «النازعات»، والتنوين

(١) سقط من ب.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢٥٧/٦) والقرطبي (١٩/٢٠).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/٢٠).

في «يومئذ»؛ عوض من جملة، مدلول عليها باسم الفاعل من «الغاشية»، تقديره: يومئذ غشيت الناس؛ إذ لا تتقدم جملة مصرح بها، و «خاشعة» وما بعدها صفة.

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾^(١).

قال سفيان: أي: ذليلة بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع^(٢).

يقال: خشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه، وخشع الصوت: إذا خفي، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨].

[والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه.

قال قتادة وابن زيد: خاشعة أي في النار، والمراد بالوجوه وجوه الكفار كلهم قاله يحيى بن سلام^(٣). وقال ابن عباس: أراد وجوه اليهود والنصارى^(٤)-(٥).

قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ هذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا خاشعة في الآخرة.

قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملاً، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملاً.

وقوله: «ناصب» أي: تعب، يقال: نَصَبَ - بالكسر - ينصبُ نصباً: إذا تعب ونصباً أيضاً، وأنصبه غيره.

قال ابن عباس: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله تعالى، وعلى الكفر مثل عبدة الأوثان، والرهبان، وغيرهم، ولا يقبل الله - تعالى - منهم إلا ما كان خالصاً له^(٦).

وعن علي - رضي الله عنه - أنهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تُحَقَّرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وصيامكم مَعَ صِيَامِهِمْ، وأعمالكم مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَمَرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمَرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» الحديث^(٧).

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر المصدر السابق ومثله عن قتادة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٢) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٧) والقرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٩).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٣) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٥) سقط من: ب. (٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠).

(٧) ينظر المصدر السابق، وتقدم تخريج الحديث.

وروى سعيد عن قتادة: «عاملة ناصبة» قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله - عز وجل -، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة^(١).

قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم.

وقرأ ابن كثير في رواية، وابن محيصن وعيسى وحמיד^(٢): «نَاصِبَةً» بالنصب على الحال.

وقيل: على الذم.

والباقون: بالرفع، على الصفة، أو إضمار مبتدأ فيوقف على «خاشعة».

ومن جعل المعنى: في الآخرة جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن «وجوه»، فلا يوقف على «خاشعة» [وقيل: عاملة ناصبة أي: عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، وعلى هذا يحمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة خاشعة]^(٣).

وروى الحسن، قال: لما قدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «الشام»، أتاه راهب، شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر - رضي الله عنه بكى، فقيل: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين، طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾^(٤).

قوله: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾: هذا هو الخبر.

قرأ أبو عمرو وأبو بكر^(٥) ويعقوب - رضي الله عنهم - بضم التاء على ما لم يسم فاعله.

والباقون: بالفتح، على تسمية الفاعل، [والضمير على]^(٦) كلتا القراءتين للوجوه.

وقرأ أبو رجاء^(٧): بضم التاء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، وقد تقدم معنى ذلك كله في سورتي: «الانشقاق والنساء».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥١/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٢/٦) وزاد نسبتة إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٢/٥، والبحر المحيط ٤٥٧/٨، وزاد: عكرمة والسدي، والدر المصون ٥١٢/٦.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٢٠) عن الحسن وبمعناه عن أبي عمران الجوني أخرجه الحاكم وعبد الرزاق وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥٧٣/٦).

(٥) ينظر: السبعة ٦٨١، والحجة ٣٩٩/٦، وحجة القراءات ٧٥٩، وإعراب القراءات ٤٦٩/٢.

(٦) سقط من: ب. (٧) ينظر: البحر المحيط ٤٥٧/٨، والدر المصون ٥١٢/٦.

فصل في معنى الآية

والمعنى : يصيبها صلاؤها وحرؤها، «حامية» أي شديدة الحر، أي قد أوقدت وأحميت مدة طويلة، ومنه : حمي النهار - بالكسر - وحمي التنور حمياً فيهما، أي : اشتد حره، وحكى الكسائي : اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى .

قال عليه السلام : «إِنَّ اللَّهَ أَوْقَدَهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ»^(١).

قال الماوردي : فإن قيل : فما معنى وصفها بالحمي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟

قيل : قد اختلف في المراد بالحامية هاهنا .

قيل : المراد : أنها دائمة [الحمي]^(٢)، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها .

الثاني : أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مُحَارَمُهُ، وَمَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^(٣).

الثالث : أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، وترام مماستها، كما يحمي الأسد عرينه ؛ كقول الشاعر : [البسيط]

٥١٨١ - تَغْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِي^(٤)

الرابع : وقيل : المراد أنها حامية حمي غيظ وغضب مبالغة في شدة الانتقام، كقوله تعالى ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ﴾ [الملك : ٨] .

قوله : ﴿تُتَّقَى مِنْ عَيْنِ عَائِقَةٍ﴾ . أي : حارة التي انتهى حرها، كقوله تعالى : ﴿يَتَنَبَّاهِينَ حِمِيمًا﴾ [الرحمن : ٤٤]، و «آيئة» : صفة لـ «عين»، وأمالها هشام، لأن الألف غير منقلبة من غيرها، بل هي أصل بنفسها، وهذا بخلاف «آيئة» في سورة : «الإنسان»، فإن الألف هناك بدل من همزة، إذ هو جمع : «إناء» فوزنها : «فَاعِلَةٌ»، وهناك «أفعلة»، فاتحد اللفظ واختلف التصريف، وهذا من محاسن علم التصريف .

(١) تقدم تخريجه . (٢) سقط من ب .

(٣) أخرجه البخاري (١٥٣/١) كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه رقم (٥٢) وفي كتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين (٢٠٥١) ومسلم (١٢١٩/٣ - ١٢٢٠) كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩/١٠٧) من حديث النعمان بن بشير .

(٤) البيت للناطقة الذبياني ينظر القرطبي ٢١/٢٠ .

قال القرطبي^(١): «الآني: الذي قد انتهى حره، من الإيناء بمعنى: «التأخير»، يقال: أناه يؤنيه إيناء، أي: أخره وحبسه وأبطأه، نظيره قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حِمِيزٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، رُوِيَ أنه لو وقعت [نقطة]^(٢) منها على جبال الدنيا لذابت».

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾. لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم.

والضريع: شجر في النار، ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قریش: الشبرق إذا كان رطباً، وإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة، ولا بهيمة، ولا ترعاه، وهو سم قاتل. قاله عكرمة، ومجاهد وأكثر المفسرين^(٣).

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال: شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام لا الناس، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلك هزلاً^(٤).

والصحيح الأول؛ قال أبو ذؤيب: [الطويل]

٥١٨٢ - رَعَى الشَّبْرَقَ الرِّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى رَعَا ضَرِيعاً بَانَ مِنْهُ النَّحَائِصُ^(٥)

وقال الهذلي يذكر إبلاً وسوء مرعاها: [الكامل]

٥١٨٣ - وَحَبَسْنِ فِي هَزْمِ الضَّرِيعِ فَكُلَّهَا حَذَبَاءُ دَامِيَةِ الْيَدَيْنِ حُرُودُ^(٦)

وقال الخليل: الضريع: نبات متن الريح، يرمي به البحر.

وقال أيضاً: ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم، هي الضريع، فكأنه تعالى وصفه بالقلّة، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع.

وقيل: هو الزقوم.

وقيل: يابس العرفج إذا تحطم.

وقيل: نبت يشبه العوسج.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض، وما عليها^(٧).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١/٢٠. (٢) في أ: شرارة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٢/١٢ - ٥٥٣) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٣/٦) عن مجاهد وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وذكره عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد. وعن عكرمة وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢١/٢٠).

(٥) ينظر الكشف ٧٤٢/٤، والقرطبي ٢١/٢٠، والبحر ٤٥٦/٨، والدر المصون ٥١٣/٦.

(٦) ينظر ديوانة الهذليين ٧٣/٣، واللسان (ضرع)، والكشاف ٧٤٢/٤ والبحر ٤٥٦/٨، والدر المصون ٥١٢/٦.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٢/٢٠).

وقال سعيد بن جبير، وعكرمة: هي حجارة من نار^(١).

وقال القرطبي^(٢): والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «الضريع شيء يكون في النَّار: يشبه الشَّوك، أشدُّ مرارة من الصُّبر، وأثَنُّ من الجيفة، وأحرُّ من النَّارِ سماهُ اللهُ ضَرِيْعاً»^(٣).

قال القتيبي: ويجوز أن يكون الضريع، وشجرة الزقوم: نبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النَّار، وكذلك سلاسل النار، وأغلالها، وحياتها، وعقاربها، ولو كانت على ما نعلم لما بقيت على النار، وإنما دلَّنا الله على الغائب عند الحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة والمعاني مختلفة، وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها.

وزعم بعضهم: أنَّ الضريع: ليس بنبت في النار، ولا أنهم يأكلونه؛ لأن الضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكوا هزلاً، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلاً.

والمعنى أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع.

وقال الحكيم الترمذي: وهذا نظر سقيم من أهله، يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب الضريع قادر على أن ينبت في حريق النار، كما جعل - سبحانه وتعالى - في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون، فلا النار تحرق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفئ النار، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وكما قيل: حين نزلت: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، قالوا: يا رسول الله، كيف يمشون على وُجُوهِهِمْ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ»^(٤)، فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف العقل^(٥)، أو ليس قد أخبرنا أنه: ﴿كَلَّمَ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وعن الحسن: لا أدري ما الضريع، ولم أسمع فيه من الصحابة شيئاً.

قال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده، ويدلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه، فسمي بذلك؛ لأن أكله يتضرع في أن يعفى منه، للكراهة وخشونته.

قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل، أي: ذو ضراعة، أي: من شربه ذليل تلحقه ضراعة.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٢.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٢١). (٤) تقدم.

(٥) في أ: القلب.

فإن قيل : قد قال تعالى في موضع آخر : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴾ [الحاقة : ٣٥، ٣٦]. وقال تعالى - هاهنا - : ﴿ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ وهو غير الغسلين، فما وجه الجمع ؟ .
والجواب : أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد.
قال الكلبي : الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى^(١).
قوله : ﴿ لَا يَسِينُ ﴾.

قال الزمخشري^(٢) : «مرفوع المحل، أو مجرور على وصف طعام، أو ضريع».
قال أبو حيان^(٣) : «أما وصفه بـ «ضريع» فيصح؛ لأنه نبت نفي عنه السمن، والإغناء من الجوع، وأما رفعه على وصفه الطعام، فلا يصح؛ لأن الطعام منفي، والسمن منفي، فلا يصح تركيبه؛ لأنه يصير التقدير : ليس لهم طعام لا يسمن، ولا يغني من جوع إلا من ضريع، فيصير المعنى : أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير الضريع، كما تقول : ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو، فمعناه : أن له مالاً لا ينتفع به من غير مال عمرو».

قال شهاب الدين^(٤) : وهذا لا يرد؛ لأنه على تقدير تسليم القول بالمفهوم، وقد منع منه مانع، كالسياق في الآية الكريمة.

ثم قال أبو حيان^(٥) : ولو قيل : الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في : «إلا من ضريع»، كان صحيحاً؛ لأنه في موضع رفع، على أنه بدل من اسم ليس، أي : ليس لهم طعام إلا كائن من ضريع؛ إذ لا طعام من ضريع غير مسمن، ولا مغني من جوع، وهذا تركيب صحيح، ومعنى واضح.

وقال الزمخشري^(٦) أيضاً : «أو أريد لا طعام لهم أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع، أو أسمن، وهو عنهما بمعزل، كما تقول : ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد».

قال أبو حيان^(٧) : فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً؛ لأنه لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظ طعام، إذ ليس بطعام، والظاهر : الاتصال فيه، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴾ [الحاقة : ٣٦].

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠/٢١). (٢) ينظر : الكشف ٤/٧٤٣.

(٣) البحر المحيط ٨/٤٥٨. (٤) الدر المصون ٦/٥١٣.

(٥) البحر المحيط ٨/٤٥٨. (٦) الكشف ٤/٧٤٣.

(٧) البحر المحيط ٨/٤٥٨.

قال شهاب الدين^(١): وعلى قول الزمخشري المتقدم لا يلزم أن يكون منقطعاً، إذ المراد نفي الشيء بدليله أي: إن كان لهم طعام، فليس إلا هذا الذي لا يعده أحد طعاماً، ومثله: ليس له ظل إلا الشمس وقد مضى تحقيق هذا عند قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾^(٢) وقوله: [الطويل]

٥١٨٤ - وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ^(٣)

ومثله كثير.

فصل في المراد بالآية

المعنى: أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس؛ لأنه نوع من أنواع الشوك، والشوك مما ترعاه الإبل، وهذا النوع مما تنفر عنه الإبل، فإذا من منفعة الغذاء منتفية عنه، وهما: إمالة الجوع، وإفادة القوة والسمن في البدن أو يكون المعنى: ليس لهم طعام أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام للبهايم فضلاً عن الإنسان؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية، قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ وكذا فإن الإبل ترعاه رطباً، فإذا ييس لم تأكله.

وقيل: اشتبه عليهم أمره، فظنوه كغيره من الثبب النافع؛ لأن المضارعة المشابهة، فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع، فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع لا يسمن من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مسمن، ولا مغن من جوع.

قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۖ﴾ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَاقِبُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَّرَافٌ مَّثْبُوتَةٌ ﴿١٦﴾

قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾. أي: ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها^(٤)

وقيل: ذات بهجة وحسن، لقوله تعالى: ﴿تَقَرَّبُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةٌ التَّيْمِيرِ﴾ [المطففين: ٢٤]، أي: متنعمة «لِلسَّعْيِهَا»، أي: لعملها الذي عملته في الدنيا «راضية» في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها، وفيها واو مضمرة، والتقدير: ووجوه يومئذ، ليفصل بينها، وبين الوجوه المتقدمة، والوجوه عبارة عن الأنفس.

(٢) سورة الدخان آية ٥٦.

(١) الدر المصون ٥١٣/٦.

(٣) تقدم.

(٤) زاد في أ: لما ذكر تعالى وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي : مرتفعة ؛ لأنها فوق السماوات .

وقيل : عالية القدر ، لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .
قوله : ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو^(١) : بالياء من تحت مضمومة ؛ على ما لم يسم فاعله ،
« لاغية » رفعاً لقيامه مقام الفاعل .

وقرأ نافع كذلك إلا أنه بالتاء من فوق^(٢) ، والتذكير والتأنيث واضحان ؛ لأن التأنيث مجازي .

وقرأ الباقر : بفتح التاء من فوق ، ونصب : « لاغية » ، فيجوز أن تكون التاء للخطاب ، أي : لا تسمع أنت ، وأن تكون للتأنيث ، أي : لا تسمع الوجوه .

وقرأ الفضل والجحدري^(٣) : « لَا يَسْمَعُ » بياء الغيبة مفتوحة « لاغية » نصباً ، أي : لا يسمع فيها أحد .

و « لاغية » يجوز أن تكون صفة لكلمة على معنى : النسب ، أي : ذات لغو ، أو على إسناد اللغو إليها مجازاً ، وأن تكون صفة لجماعة ، أي : جماعة لاغية ، وأن تكون مصدرأ ، كالعافية والعاقبة ، كقوله : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ [الواقعة : ٢٥] ، واللغو اللغا واللاغية بمعنى واحد ؛ قال الشاعر : [الرجز]

٥١٨٥ - عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكْلُمِ^(٤)

قال الفراء والأخفش : أي : لا تسمع فيها كلمة لغو .
والمراد باللغو : ستة أوجه :

أحدها : كذباً وبهتاناً وكفراً بالله عز وجل ، قاله ابن عباس^(٥) .

الثاني : لا باطل ولا إثم ، قاله قتادة^(٦) .

الثالث : أنه الشتم ، قاله مجاهد^(٧) .

(١) ينظر : السبعة ٦٨١ ، والحجة ٣٩٩/٦ ، ٤٠٠ ، وإعراب القراءات ٤٦٩/٢ ، وحجة القراءات ٧٦٠ .

(٢) ينظر السابق . (٣) ينظر : الدر المصون ٥١٤/٦ .

(٤) البيت للعجاج وقبلة :

وَرَبِّ أَنْزَابٍ حَجِيجٍ كُظْمٍ

ينظر : ديوان العجاج ص ٢٩٦ ، ومجاز القرآن ٧/١ ، والمحتسب ٢٤٧/٢ واللسان (رفث) ،
و (كظم) ، و (سرب) ، والقرطبي ٢٣/٢ .

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٣/٢٠) .

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٤/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٤/٦) وزاد نسبته
إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم .

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٤/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧٤/٦) وزاد نسبته
إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر .

الرابع: المعصية، قاله الحسن^(١).

الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب، قاله الفراء.

وقال الكلبي: لا يسمع في الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة^(٢).

السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة لغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. قاله الفراء، وهو أحسن الأقوال، قاله القفال والزجاج.

قوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾. أي: بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخذود.

قال الزمخشري^(٣): يريد عيوناً في غاية الكثرة، كقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ [الانفطار: ٥].

قوله: ﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾، أي: عالية في الهواء.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ والأكواب: الكيزان التي لا عرى لها، والإبريق: هو ما له عروة وخرطوم، والكوب: ما ليس له عروة وخرطوم.

وقوله: ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ أي: معدة لأهلها.

وقيل: موضوعة على حافات العين الجارية.

وقيل: موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها، لكونها من ذهب، وفضة، وجوهر، وتلذذهم بالشرب منها.

وقيل: موضوعة عن حد الكبير، أي هي أوساط بين الصغير والكبير، كقوله تعالى: ﴿تَذَرُوهَا تَفْثِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦].

قوله: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾، النمارق جمع «نمرق» وهي الوسادة قالت:

١٥١٨٦ - نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمِشِي عَلَى النَّمَارِقِ^(٤)

وقال الشاعر:

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٢٦٠) والقرطبي (٢٣/ ٢٠).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر الكشف ٧٤٣/ ٤.

(٤) البيت لهند بنت عتبة في أدب الكاتب ص ٩٠؛ والأغاني ١٢/ ٣٤٣، ١٥/ ١٤٧؛ ولها أو لهند بنت بياضة بن رياح (أو رياح) بن طارق الإيادي في شرح شواهد المغني ٨٠٩/ ٢؛ ولسان العرب (طرق) ولهند بنت بياضة بن رياح بن طارق الإيادي في معجم ما استعجم ص ٧٠؛ ولهند بنت الفند الزماني (سهل بن شيان) في الأغاني ٢٣/ ٢٥٤؛ ولهند دون تحديد في لسان العرب (نمرق)؛ وللقرشية في جمهرة اللغة ص ٧٥٦؛ وبلا نسبة في الأغاني ١٢/ ٣٤٢؛ ومغني اللبيب ٣٨٧/ ٢؛ وجمع الهوامع ١/ ١٧١.

١٨٦هـ - كُهُولٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقٍ^(١)

والنمرق والنمرقة : وسادة صغيرة .

والنمرق : بضم النون والراء وكسرهما لغتان ؛ أشهرهما الأولى .

قوله : ﴿وَزَكَاتِي﴾ : جمع «زَرْبِيَّة» [بفتح الزاي وكسرهما]^(٢) لغتان مشهورتان ، وهي

البسط العراض .

وقيل : ما له منها خملة . قال أبو عبيدة : «الزَّرَابِيُّ» : الطنافس التي لها خمل رقيق ،

واحدتها : زَرْبِيَّة .

قال الكلبي والفراء : «الْمَبْنُوتَةُ» : المبسوطة^(٣) .

وقال عكرمة : بعضها فوق بعض^(٤) .

وقال الفراء : كثيرة .

وقال القتيبي : متفرقة في المجالس .

قال القرطبي^(٥) : وهذا أصح ، فهي كثيرة متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال أبو بكر بن الأنباري : وحدَّثنا أحمد بن الحسين ، قال : حدثنا حسين بن عرفة

قال : حدثنا عمار بن محمد ، قال : صليت خلف منصور بن المعتمر ، فقراً : ﴿هَلْ أَتَاكَ

حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ﴾ وقرأ^(٦) : ﴿وَزَكَاتِي مَبْنُوتَةً﴾ : متكئين فيها ناعمين .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٨) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٩)

قوله : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ، لما ذكر الله - تعالى - أمر الدارين تعجب

الكفار من ذلك ، فكذبوا وأنكروا ، فذكرهم الله صنعته ، وقدرته ، وأنه - تعالى - قادر على كل

شيء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض ، وذكر الإبل أولاً ؛ لأنها كثيرة في بلاد العرب ، ولم

يروا الفيلة ، فنبههم تعالى على عظيم من خلقه ، قد ذلله للصغير من خلقه يقوده وينيخه وينهضه ،

ويحمل عليه الثقيل من الأحمال ، وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك في شيء من الحيوان

غيره ، فأراهم عظيمًا من خلقه ، يدلهم بذلك على توحيده ، وعظيم قدرته تعالى .

(١) ينظر ديوانه (١١٣) ، والقرطبي ٢٠/٢٤ ، والبحر ٨/٤٥٧ والدر ٦/٥١٤ .

(٢) سقط من : ب .

(٣) ذكره القرطبي (٢٤/٢٠) عن الكلبي ومثله عن قتادة أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٥٥) وذكره

السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٧٤) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم .

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٧٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٤ . (٦) ينظر السابق .

وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير، وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر، ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق.

قال ابن الخطيب^(١): الإبل لها خواص، منها أنه - تعالى - جعل الحيوان الذي يقتنى أنواعاً، فتارة يقتنى ليؤكل لحمه، وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الناس في الأسفار، وتارة لنقل المتاع من بلد إلى بلد، وتارة للزينة والجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، ثم إنها فاقت في كل خصلة من هذه الخصال غيرها من الحيوان المختص ببعضها، مع صبرها على العطش، وقطع المفاوز بالأحمال الثقيلة، وقناعتها في العلف بنبات البر، ولقد ضللنا الطريق في مفازة، فقدموا جملأً واتبعوه، فهداهم للطريق بعد زمان طويل، مع كثرة المعاطف والتلول، فانظر كيف ثبت واهتدى على ما عجزت عنه ذوو العقول.

ومنها: أنه في غاية القوة والصبر على العمل.

ومنها: أنها مع كونها كذلك منقادة للصبي الصغير.

ومنها: أنها تحمل وهي باركة، ثم تقوم بحملها، وهذه الصفات توجب على العاقل أن ينظر في خلقها وتركيبها، ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم جلّت قدرته.

فصل

قال قتادة ومقاتل وغيرهما: لما ذكر الله - تعالى - السرر المرفوعة، قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبيّن أنّ الإبل «تبرك» حتى يحمل عليها، ثم تقوم، فلكذلك تلك السرر تتطامن، ثم ترتفع^(٢).

وقال المبرد: الإبل هنا: القطع العظيمة من السحاب.

وقال الثعلبي: ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة^(٣).

قال القرطبي^(٤): قد ذكره الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريش، قال أبو عمرو: من قرأها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بالتخفيف، عنى بها: البعير؛ لأنها من ذوات الأربع، يبرك، فتحمل عليه الحمولة، وغيره من ذوات الأربع، لا يحمل عليه إلا وهو قائم، ومن قرأها بالتثنية فقال: «الإبل» عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر.

وقال الماوردي: وفي الإبل وجهان:

أظهرهما: أنها «الإبل».

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٤/٢٠).

(١) الفخر الرازي ١٤٣/٣١.

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٥/٢٠).

(٣) ينظر المصدر السابق.

والثاني: أنها «السحاب» فإن كان المراد بها السحاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه.

وإن كان المراد بها الإبل من النعم؛ فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروره أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة بها أتم.

وقيل للحسن: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دمه^(١).

فصل في الكلام على الإبل

الإبل: اسم جمع، واحده: بعير، وناقة، وجمل، ولا واحد لها من لفظها، وهو مؤنث، ولذلك تدخل عليه تاء التأنيث حال تصغيره، فيقال: أيلة.

قال القرطبي^(٢): لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وربما قالوا للإبل: إبل - بسكون الباء - للتخفيف، والجمع: آبال واشتقوا من لفظه، فقالوا: تأبل زيد، أي كثرت إبله. وتعجبوا من هذا، فقالوا: ما أبله! أي: ما أكثر إبله! وتقدم في سورة «الأنعام»^(٣).

قوله: «كَيْفَ»: منصوب بـ «خُلِقَتْ» على حد نصبها في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾، والجملة بدل من «الإبل» بدل اشتمال، فتكون في محل جر، وهي في الحقيقة معلقة بالنظر، وقد دخلت «إلى» على «كيف» في قولهم: «انظر إلى كيف يصنع»، وقد تبدل الجملة المشتملة على استفهام من اسم ليس فيه استفهام، كقولهم: «عرفت زيدا أبو من هو» على خلاف بين النحويين.

وقرأ العامة: «خُلِقَتْ، وَرُفِعَتْ، وَنُصِبَتْ، وَسُطِحَتْ» مبنياً للمفعول، والتاء ساكنة للتأنيث.

وقرأ أمير المؤمنين، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة، قال القرطبي^(٤): وابن السميع وأبو العالية: «خُلِقَتْ» وما بعده بقاء المتكلم، مبنياً للفاعل.

والعامة على: «سُطِحَتْ» مخففاً.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو رجاء^(٥): «سُطِحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٨٠) عن الحسن.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢٥). (٣) آية ٢٨.

(٤) ينظر: السابق، والمحرم الوجيز ٥/٤٧٥، والبحر المحيط ٨/٤٥٩، والدر المصون ٦/٥١٤.

(٥) وكذا هارون الرشيد. ينظر: المحرم الوجيز ٥/٤٧٥، والبحر المحيط ٨/٤٥٩، والدر المصون ٦/٥١٤.

قال القرطبي^(١): «وقدم الإبل في الذكر، ولو قدم غيرها لجاز.

قال القشيري: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة.

قوله: ﴿وَالِىَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، أي: رفعت عن الأرض بغير عمدٍ بعيدة المدى.

وقيل: رفعت فلا ينالها شيء.

قوله: ﴿وَالِىَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً ثابتاً راسخاً لا يميل ولا يزول، وذلك أن

الأرض لما دحيت مادت، فأرساها بالجبال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

قوله: ﴿وَالِىَ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ممهدة، أي: بسطت ومدت، واستدل بعضهم

بهذا على أن الأرض ليست بكرة.

قال ابن الخطيب^(٢): وهو ضعيف؛ لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة تكون كل

قطعة منها كالسطح.

فإن قيل: ما المناسبة بين هذه الأشياء؟.

فالجواب: قال الزمخشري^(٣): من فسر الإبل بالسحاب، فالمناسبة ظاهرة، وذلك

تشبيه ومجاز، ومن حملها على الإبل، فالمناسبة بينها وبين السماء والأرض والجبال من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل على العرب، وكانوا يسافرون كثيراً، وكانوا يسرون عليها في

المهامه والقفار، مستوحشين منفردين عن الناس، والإنسان إذا انفرد أقبل على التفكر في

الأشياء؛ لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك من يشغل به سمعه وبصره، فلا بد من أن

يجعل دأبه الفكر، فإذا فكر في تلك الحال، فأول ما يقع بصره على الجمل الذي هو

راكبه، فيرى منظراً عجيباً، وإن نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً

لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت

الخلوة والانفراد، حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر.

الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع - جلّت قدرته - إلا أنها قسمان:

منها ما للشهوة فيه حظ كالوجه الحسن، والبساتين للثّروة، والذهب والفضة، ونحوها،

فهذه مع دالاتها على الصّانع، قد يمنع استحسانها عن إكمال النظر فيها.

ومنها ما لا حظ فيه للشهوة كهذه الأشياء، فأمر بالنظر فيها، إذ لا مانع من إكمال

النظر.

(٢) الفخر الرازي ٣١/١٤٤.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٥.

(٣) الكشف ٤/٧٤٥، والرازي ٣١/١٤٤.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: عظمهم يا محمد وخوفهم.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾: واعظ.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي بمسلط فتقتلهم، ثم نسختها آية السيف.

وقرأ العامة: «بمصيطر» بالصاد.

وهشام^(١): بالسّين.

وخلف: بإشمام الصاد زائياً بلا خلاف.

وعن خلاد: وجهان.

وقرأ هارون الأعور: «بمصيطر» - بفتح الطاء - اسم مفعول، لأن «سيطر» عندهم

متعدّ.

[أويدل على ذلك فعل المطاوعة، وهو تسيطر، ولم يجيء اسم فاعل على مفعول إلا

مسيطر، ومبيقر، ومهيمن، ومبيطر؛ من سيطر، ويقر، وهيمن، وييطر، وقد جاء مجيمر اسم واد، ومدبير، ويمكن أن يكون أصلهما مجمر ومدبر، فصغرا.

قال شهاب الدين^(٢): قد تقدم أن بعضهم جعل مهيماً مصغراً، وتقدم أنه خطأ

عظيم، وذلك في سورة المائدة^(٣).

قال القرطبي^(٤): «وفي الصحاح^(٥): المسيطر والمصيطر: المسلط على الشيء،

ليشرف عليه ويتعهّد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر؛ لأن معنى السطر ألاّ

يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطر، يقال: سيطرت علينا، وقال

تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، وسطره أي: صرعه».

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن من تولى عن الوعظ والتذكر،

فيعذبه الله العذاب الأكبر، وهو جهنم الدائم عذابها، وإنما قال: «الأكبر»؛ لأنهم عذبوا

في الدنيا بالجوع، والقحط، والأسر، والقتل، ويؤيد هذا التأويل: قراءة^(٦) ابن مسعود:

«إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ».

(١) ينظر قراءات هذه الكلمة في: السبعة ٦٨٢، والحجة ٤٠٠/٦ - ٤٠١ وإعراب القراءات ٤٧٠/٢،

والمحرز الوجيز ٤٧٥/٥، والبحر المحيط ٤٥٩/٨، والقرطبي ٢٦/٢٠.

(٢) الدر المصون ٥١٤/٦.

(٣) سقط من ب.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٦/٢٠.

(٥) الصحاح ٦٨٤/٢.

(٦) ينظر: الكشف ٧٤٥/٤، والمحرر الوجيز ٤٧٥/٥.

وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست مسلطاً إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلط عليه بالجهاد، والله - تعالى - يعذبه ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير.

وقرأ ابن عباس^(١) وزيد بن علي، وزيد بن أسلم، وقتادة: «ألا» حرف استفتاح وتنبيه؛ كقول امرئ القيس: [الطويل]

٥١٨٧ - أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُمْ صَالِحٍ^(٢)

و «مَنْ» على هذا شرط، فالجملة مقدره شرطية، والجواب: «فيعذبه الله»، والمبتدأ بعد الفاء مضمّر، والتقدير: فهو يعذبه الله؛ لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: «إلا من تولى وكفر يعذبه الله».

[قال شهاب الدين^(٣): أو موصول مضمن معناه]^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ^(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ^(٢٦)

قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾، أي: رجوعهم بعد الموت، والعامّة: على تخفيف الياء، مصدر: آب، يئوب، إياباً، أي: رجع، كقام يقوم قياماً؛ قال عبيد: [مخلع البسيط]

٥١٨٨ - وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَأْتُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَأْتُوبُ^(٥)
وقرأ أبو جعفر^(٦) وشيبة بتشديد هاء.

قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز جاز مثله في الصيام والقيام.

وقيل: لغتان بمعنى.

قال شهاب الدين^(٧): وقد اضطربت فيها أقوال التصريفيتين.

ف قيل: هو مصدر لـ «أَيَّبَ» على وزن «فَعِلَ» كـ «بَيَّنَّطَرَ» يقال منه: «أَيَّبَ يُؤَيَّبُ

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٧٥، والبحر المحيط ٨/٤٦٠، والدر المصون ٦/٥١٥.

(٢) صدر بيت وعجزه:

وَلَا سَيْئَمَا يَوْمَ بِذَارَةِ جُلْجُلٍ

ينظر ديوان امرئ القيس ص ١٠، والجنى الداني ص ٣٣٤، ٤٤٣، وخزانة الأدب ٣/٤٤٤، ٤٥١، والدر ٣/١٨٣، وشرح شواهد المغني ١/٤١٢، ٥٥٨/٢، وشرح المفصل ٢/٨٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٥٥، ولسان العرب (سوا)، ووصف المباني ص ١٩٣، وشرح الأشموني ١/٢٤١، ومغني اللبيب ص ١٤، ٣١٣، ٤٢١، وجمع الهوامع ١/٢٣٤.

(٣) الدر المصون ٦/٥١٥.

(٤) سقط من ب.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: الكشف ٤/٧٤٥، والمحرر الوجيز ٥/٤٧٥، والبحر المحيط ٨/٤٦٠، والدر المصون ٥/٥١٥.

(٧) الدر المصون ٥/٥١٥.

«إِيَابًا»، والأصل: أَيُوبَ يُؤْيِبُوبُ إِيَوَابًا كـ «بَيَّطَرَ بَيَّيْطَرُ»، فاجتمعت الواو والياء في جميع ذلك، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء المزيدة فيها، فـ «إِيَابَ» على هذا «فِيْعَال».

وقيل: بل هو مصدر لـ «أَوَّبَ» بزنة «فَعَوَّلَ» كـ «حَوَّكَلْ»، والأصل: «إِيَوَابَ» بواوين، الأولى: زائدة، والثانية: عين الكلمة، فسكنت الأولى بعد كسرة، فقلبت ياء، فصارت: «إِيَوَابًا»، فاجتمعت ياء وواو، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء بعدها، فوزنه «فِيْعَال» كـ «حِيْقَالْ»، والأصل: «حِيَوَقَالْ».

وقيل: بل هو مصدر لـ «أَوَّبَ»، على وزن «فَعَوَّلَ»، كـ «جَهَّوَر»، والأصل: «إِيَوَابَ» على وزن «فِعْوَالْ»، كـ «جِهْوَارَ»، والأولى عين الكلمة، والثانية زائدة، وفعل به ما فعل بما قبله من القلب والإدغام، للعلل المتقدمة، وهي مفهومة مما مر.

فإن قيل: الإدغام مانع من قلب الواو ياء.

قيل: إنما يمنع إذا كانت الواو والياء عينان، وقد عرفت أن الياء في: «فِيْعَالْ»، والواو في «فَعَوَّلْ»، وفَعَوَّلْ زائدتان.

وقيل: بل هو مصدر لـ «أَوَّبَ» بزنة: «فَعَّلَ» نحو: «كَذَّبَ كِذْبَابًا»، والأصل: «إِيَوَابَ» قلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها، فقيل: «إِيَوَابًا».

قال الزمخشري^(١): كديوان في «دِيَوَان»، ثم فعل به ما فعل بـ «سَيِّد ومَيِّت»، يعني أصله: سَيُّود، فقلبت وأدغم، وإلى هذا نحا أبو الفضل أيضاً.

إلا أن أبا حيان ردَّ ما قاله^(٢): بأنهم نصُّوا على أن الواو الموضوع على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً، فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة، قال: ومثلوا بنفس «إِيَوَابَ» مصدر: «أَوَّبَ» مشدداً، وبـ «اخرواط»، مصدر «اخروط» قال: وأما تشبيه الزمخشري بـ «ديوان»، فليس بجيد؛ لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة، ولم يقولوا: «دوان»، ولولا الجمع على: «دواوين» لم يعلم أن أصل هذه الياء واو، وقد نصوا على شذوذ: «ديوان»، فلا يقاس عليه غيره.

قال شهاب الدين^(٣): أما كونهم لم ينطقوا بـ «دوان»، فلم يلزم منه رد ما قاله الزمخشري، ونص النحاة على أن أصل «ديوان»: «دِيَوَان»، و «قيراط»: «قِرَّاط» بدليل الجمع على «دواوين وقراريط»، وكونه شاذاً لا يقدح؛ لأنه لم يذكره مقيساً عليه، بل منظرأ به.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٠.

(١) الكشف ٤/ ٧٤٥.

(٣) الدر المصون ٦/ ٥١٥.

وذهب مكّي إلى نحو من هذا، فقال: وأصل الياء: واو، ولكن انقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وكان يلزم من شدد أن يقول: إَوَابهم؛ لأنه من الواو، أو يقول: إِيوابهم، فيبدل من الأول المشدد ياء، كما قالوا «ديوان» وأصله: «دوان». انتهى.

وقيل: هو مصدر لـ «أَوْب» بزنة: «أَكْرَمَ» من الأوب، والأصل: «إِواب»، كـ «إِكْرَام»، فأبدلت الهمزة الثانية ياء لسكونها بعد همزة مكسورة، فصار اللفظ «إِيواباً»، اجتمعت الواو والياء على ما تقدم، فقلب، وأدغم، ووزنه: «إِفْعَال» وهذا واضح.

وقال ابن عطية في هذا الوجه^(١): سهلت الهمزة، وكان الإدغام يردها «إِواباً»، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس. انتهى.

وهذا ليس بجيد، لما عرفت من أنه لما قلبت الهمزة ياء، فالقياس أن تفعل ما تقدم من قلب الواو إلى الياء من دون عكس.

قال شهاب الدين^(٢): «وإنما ذكرت هذه الأوجه مشروحة، لصعوبتها، وعدم من يمعن النظر في مثل هذه المواضع القلقة، وقدم الخبر في قوله: «إِلَيْنَا، وَعَلَيْنَا» مبالغة في التشديد في الوعيد». والله أعلم.

روى الثعلبي في تفسيره عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْغَاشِيَةِ حَاسِبُهُ اللَّهُ حِسَاباً يَسِيراً»^(٣).

(١) المحرر الوجيز ٤٧٥/٥.

(٢) ينظر: الدر المصون ٥١٦/٦.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة الفجر

مكية، وهي ثلاثون آية، ومائة وتسع وثلاثون كلمة، وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥)

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾، قيل: جواب القسم المذكور، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَيَالمِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]، قاله ابن الأنباري.

وقيل: محذوف، لدلالة المعنى عليه، أي: ليجازي كل واحد بما عمل، بدليل ما فعل بالقرون الخالية.

وقدّره الزمخشري^(١): ليعذبَن، قال: يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله «فصَبَّ».

وقدّره أبو حيّان^(٢): بما دلت عليه خاتمة السورة قبله، أي: لإيابهم إلينا وحسابهم علينا.

وقال مقاتل: «هل» هنا: في موضع «إنَّ» تقديره: «إنَّ في ذلك قسماً لذي حجر، ف «هل» على هذا في موضع جواب القسم. انتهى.

وهذا قول باطل؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسماً عليه على تقدير تسليم أنَّ التركيب هكذا، وإنما ذكرناه للتنبيه على سقوطه.

وقيل: ثم مضاف محذوف، أي: صلاة الفجر، أو ربّ الفجر.

والعامة: على عدم التنوين في: «الفَجْرِ، والوَتْرِ، وَيَسْرِ».

وأبو الدينار^(٣) الأعرابي: بتنوين الثلاثة.

(١) ينظر: الكشاف ٧٤٧/٤. (٢) البحر المحيط ٤٦٤/٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٦٢/٨، والدر المصون ٥١٧/٦.

قال ابن خالويه: هذا ما روي عن بعض العرب أنه يقف على آخر القوافي: بالتونين، وإن كان فعلاً، وإن كان فيه الألف واللام؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥١٨٩ - أَقْلِي اللَّوْمَ عَاذَلْ وَالْعِتَابَيْنِ وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَنِ^(١)

يعني: هذا تنوين الترئم، وهو أن العربي إذا أراد ترك الترئم - وهو: مدّ الصوت - نَوَّنَ الكلمة، وإنما يكون في الروي المطلق.

وقد عاب بعضهم النحويين تنوين الترئم، وقال: بل ينبغي أن يسموه بتنوين تركه، ولهذا التنوين قسم آخر، يسمى: التنوين الغالي وهو ما يلحق الروي المقيد؛ كقوله: [الرجز]

٥١٩٠ - خَاوِي الْمُخْتَرَقْنِ^(٢)

على أن بعض العروضيين أنكروا وجوده، ولهذين التنوينين أحكام مخالفة لحكم التنوين المذكورة في علم النحو.

والحاصل: أن هذا القارئ أجرى الفواصل مجرى القوافي، وله نظائر منها: «الرُّسُولَا، والسَّيْلَا، وَالظُّنُونَا» «في الأحزاب ١٠ و ٦٦ و ٦٧» و«المتعال» في الرعد^(٣) و «عَشْرٍ» هنا.

قال الزمخشري^(٤): فإن قيل: فما بالها منكراً من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من نفس جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها، فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد؛ لأنها ليال معلومة معهودة؟.

قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون الكلمات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الإلغاز والتعمية.

(١) البيت لجربير ينظر ديوانه ص ٨١٣، وخزانة الأدب ١/٦٩، ٣٣٨، ١٥١/٣، والخصائص ٢/٩٦، والدرر ٥/١٧٦، ٦/٢٣٣، ٣٠٩، وشرح أبيات سيبويه ٢/٣٤٩، وسر صناعة الإعراب ص ٤٧١، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥١٣، ٦٧٧، ٧٢٦، وشرح الأشموني ١/١٢، وشرح شواهد المغني ٢/٧٦٢، وشرح المفصل ٩/٢٩، والكتاب ٤/٢٥٥، ٢٠٨، والمقاصد النحوية ١/٩١، وجمع الهوامع ٢/٨٠، ٢١٢، والإنصاف ص ٦٥٥، وجواهر الأدب ص ١٣٩، ١٤١، وأوضح المسالك ١/١٦، وخزانة الأدب ٧/٤٣٢، ١١/٣٧٤، ورصف المباني ص ٢٩، ٣٥٣، وشرح ابن عقيل ص ١٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٩٨، واللسان (خنا)، والمنصف ١/٢٢٤، ٢/٧٩، ونوادر أبي زيد ص ١٢٧.

(٢) البيت لرؤية بن العجاج وتماه:

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن

ينظر ديوانه ص ١٠٤، وابن يعيش ٢/١١٨، ٩/٢٩، ٣٤، والهمع ٢/٨٠، ٣٦ والضرائر ص ١٧ والأشموني ١/٣٢.

(٤) ينظر الكشف ٤/٧٤٦.

(٣) آية ٩.

يعني بتجانس اللامات، أن تكون كلها إمّا للجنس، وإما للعهد، والغرض الظاهر أن اللامات في: «الفجر»، وما معه، للجنس، فلو جيء بالليالي معرفة بلام العهد لفات التجانس.

أقسم سبحانه: بالفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر: أقسام خمسة. واختلف في «الفجر»، فقال عليّ وابنُ الزُّبَيْرِ وابنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهم -: «الفجر» هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم^(١).

قال ابنُ الخطيب^(٢): أقسم تعالى بما يحصل فيه، من حصول^(٣) النور، وانتشار الناس، وسائر الحيوان في طلب الأرزاق، وذلك مشاكل لنشور الموتى، وفيه عبرة لمن تأمل، كقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٨]، ومدح بكونه خالقاً، فقال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمُ الْآخِرُ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه: النهار كله، وعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله^(٤). وروى ابن محيصن عن عطية عن ابن عباس: يعني: فجر المحرم^(٥). قال قتادة: هو فجر أول يوم من المحرم^(٦) منه تنفجر السنة، وعنه أيضاً: صلاة الصبح.

وروى ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جعل لكل يوم ليلة قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف الليلة التي بعد عرفة فقد أدرك الحج إلى طلوع فجر يوم النحر، وهذا قول مجاهد.

وقال عكرمة: «والفجر» قال: انشقاق الفجر من يوم الجمعة.

وعن محمد بن كعب القرظي: «والفجر» قال: آخر أيام العشر إذا رفعت أو دفعت من جمع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأن الله تعالى قرن به الأيام، فقال تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذُنُوبَكُمْ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ يُخَوِّذُ مَتَى يَشَاءُ وَيُخَوِّذُ مَتَى يَشَاءُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٨/١٢) والحاكم (٥٢٢/٢) عن ابن عباس.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٧٧) وزاد نسبه إلى الفريابي وابن أبي حاتم والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ينظر: الفخر الرازي ١٤٧/٣١. (٣) في أ: ظهور.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٥٨/١٢). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٧/٢٠).

(٦) ينظر المصدر السابق.

وقيل : هي العيون التي تنفجر منها المياه .

قوله : ﴿وَلَيْالٍ عَشْرٍ﴾ .

العامية : على «ليالٍ» بالتونين ، «عشر» صفة لها .

وقرأ ابن عباس^(١) : «وليلٍ عشرٍ» بالإضافة .

فبعضهم قال : «ليالٍ» في هذه القراءة دون ياء ، وبعضهم^(٢) قال : «وليلي عشرٍ» بالياء ، وهو القياس .

وقيل : المراد : ليالي أيام عشر ، وكان من حقه على هذا أن يقال : عشرة ؛ لأن المعدود مذكر .

ويجاب عنه : بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان ، ومنه : «وَأَتَّبَعَهُ بِسَئِئَ مِنْ شَوَالٍ» .

وسمع الكسائي : صمنا من الشهر خمسا .

فصل في المراد بالعشر

قال ابن عباس ومجاهد والسدي والكلبي : هو عشر ذي الحجة^(٣) .

وقال مسروق : هي العشرة المذكورة في قوله - تعالى - في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام : ﴿وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ، وهي أفضل أيام السنة^(٤) ، قال رسول الله ﷺ : «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ»^(٥) ؛ ولأن ليلة يوم النحر داخله فيه رخصه الله تعالى موقفاً لمن يدرك الموقف يوم عرفة .

وعن ابن عباس أيضاً : هي العشر الأواخر من رمضان^(٦) .

وقال الضحاك : أقسم الله - تعالى - بها لشرفها بليلة القدر ، وكان ﷺ إذا دخل

(١) ينظر : الكشاف ٧٤٦/٤ ، والبحر المحيط ٨/٤٦٣ ، والدر المصون ٦/٥١٨ .

(٢) ينظر : المحر الوجيز ٥/٤٧٦ .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٦٠) عن ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة .

وأخرجه الحاكم (٢/٥٢٣) عن ابن عباس وصححه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٧٩) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» وذكره عن عبد الله بن الزبير ، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي حاتم .

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٦٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٧٩) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» .

(٥) أخرجه البخاري ٢/٤٥٧ في كتاب العيدين : باب فضل العلم في أيام التشريق (٩٦٩) وأبو داود ٢/٨١٥ في كتاب الصوم : باب في صوم العشر (٢٤٣٨) وأخرجه الترمذي ٣/١٣٠ في كتاب الصوم : باب ما جاء في الأيام العشر (٧٥٧) .

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٨١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر .

العشر الأواخر من رمضان، شد المئزر، وأيقظ أهله للتهجد^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ويمان والطبري: هو العشر الأول من المحرم؛ لأن آخرها يوم عاشوراء، ولصومه فضل عظيم^(٢).

قوله: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾.

قرأ الأخوان^(٣): بكسر الواو من: «الوتر».

والباقون: بفتحها، وهما لغتان، كالحَبَرِ والجَبَرِ، والفتح: لغة قريش ومن والاها، والكسر: لغة تميم.

وهاتان اللغتان في: «الوتر»، مقابل: «الشفع»، فأما في «الوتر» بمعنى: الثَّرة، فبالكسر وحده.

قال الزمخشري: ونقل الأصمعي فيه اللغتين أيضاً.

وقرأ أبو عمرو^(٤) في رواية يونس عنه: بفتح الواو وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، وأن يكون نقل كسرة الراء إلى التاء، إجراءً للوصول مجرى الوقف.

فصل في الشفع والوتر

قال ابن الخطيب^(٥): «الشَّفْعُ والوَتْرُ»: هو الذي تسميه العرب: الخساء والركاء، وتسميه العامة: الزَّوْجُ والفَرْدُ.

قال يونس: أهل العالية يقولون: «الوَتْرُ» بالفتح في العدد، و «الوَتْرُ» بالكسر في الذحل، وتميم يقولون: بكسر الواو فيهما، تقول: «أوترت أوتر إيتاراً» أي: جعلته وترّاً، ومنه قوله ﷺ: «من استَجَمَرَ فليُوتِرْ»^(٦).

واختلف في الشفع والوتر، فروى عمران بن حصين - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «الشَّفْعُ والوتر: الصَّلَاةُ، مِنْهَا شَفْعٌ، وَمِنْهَا وَتْرٌ»^(٧).

قال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «وَالْفَجْرُ لِيلَالٍ عَشْرٍ» قال: «هُوَ الصُّبْحُ وَعَشْرُ النَّحْرِ، والوتر: يومُ عرفة، والشَّفْعُ: يومُ النَّحْرِ»^(٨).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه عن ابن عباس.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٣، والحجة ٤٠٢/٦، وإعراب القراءات ٤٧٦/٢ وإعراب القراءات ٧٦١.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٤٦٣/٨، والدر المصون ٥١٨/٦.

(٥) الفخر الرازي ١٤٨/٣١.

(٦) تقدم.

(٧) أخرجه أحمد (٤٤٢/٤) والترمذي (٣٣٤٢) والحاكم (٥٢٢/٢) والطبري في «تفسيره» (٥٦٣/١٢) من طريق قتادة عن عمران بن عصام عن شيخ من أهل البصرة عن عمران بن حصين به وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة.

(٨) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٠/٧) وقال: رواه البزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عتبة وهو ثقة.

وهو قول ابن عباس وعكرمة، واختاره النحاس وقال: حديث أبي الزبير عن جابر، هو الذي صح عن النبي ﷺ وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين، فيوم عرفة؛ وتر؛ لأنه تاسعها، ويوم النحر: شفع؛ لأنه عاشرها.

وعن أبي أيوب، قال: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾، قال: «الشَّفْعُ: يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَالْوَتْرُ: لَيْلَةُ يَوْمِ النَّحْرِ»^(١).

وقال مجاهد وابن السميع وابن عباس: الشفع: خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٨]، والوتر: هو الله عز وجل.

ف قيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ. ونحوه قال محمد بن سيرين، ومسروق، وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والإنس والجن، والوتر: هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]. وقال ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، وَاللَّهُ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ»^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: الشفع: صلاة الصبح، والوتر: صلاة المغرب^(٣).

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، فالشفع منها: الركعتان الأوليان، والوتر: الثالثة^(٤).

وقال ابن الزبير: الشفع: الحادي عشر، والثاني عشر من أيام منى، والوتر: اليوم الثالث، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٥) [البقرة: ٢٠٣].

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٠/٧) وقال: رواه الطبراني في حديث طويل وفيه واصل بن السائب وهو متروك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٢/٦) وزاد نسبه إلى ابن مردويه بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٢/١٢) عن ابن عباس ومجاهد والحسن وأبي صالح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨١/٦) عن مجاهد وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وذكره عن أبي صالح وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٨/٢٠) عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٣/١٢) عن الربيع بن أنس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦).

(٥٨١) عن أبي العالية وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه.

وقال عطاء والضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة^(١).
وقيل: الشفع والوتر: آدم - عليه الصلاة والسلام - كان وترأ، فشفع بزوجه حواء،
رواه ابن أبي نجیح، وحكاه القشيري عن ابن عباس [رضي الله عنهما]. وفي رواية: الشفع
آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى^(٢).
وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر هي دركات النار، وهي سبع،
كأنه أقسم بالجنة والنار. قاله الحسين بن الفضل.
وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة.
وقال مقاتل بن حيان: الشفع الأيام والليالي، والوتر الذي لا ليلة بعده، وهو يوم
القيامة^(٣).
وقيل غير ذلك^(٤).

قال ابن الخطيب^(٥): كل هذه الوجوه محتملة، والظاهر لا شعار له بشيء من هذه
الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبر عن الرسول - عليه الصلاة والسلام -،
أو إجماع من أهل التأويل، حكم بأنه المراد، وإن لم يثبت، وجب أن يكون الكلام على
طريقة الجواز؛ لا على القطع، ولقائل أن يقول: إني أحمل الكلام على الكل؛ لأن
الألف واللام في: «الشفع والوتر» يفيد العموم.

قوله: ﴿وَأَلَّيْ إِذَا يَسَّرَ﴾، هذا قسم خامس، بعدما أقسم بالليالي العشر على
الخصوص، أقسم بالليل على العموم، ومعنى «يسر» أي: يسر في، كما يقال: ليل
نائم، ونهار صائم؛ قال: [الطويل]

٥١٩١ - لَقَدْ لُمْتَنَا يَا أُمَ غِيلَانَ فِي السَّرَى وَنَمَتِ، وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ^(٦)
ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ [سبأ: ٣٣]، وهذا قول أكثر
أهل المعاني، وهو قول القتيبي والأخفش.

وقال أكثر المفسرين: معنى «يسر»: سار فذهب.

وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل^(٧).

= وينظر تفسير الماوردي (٢٦٦/٦) والقرطبي (٢٨/٢٠).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٢/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٢/٦) وزاد نسبه
إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الماوردي (٢٦٦/٦) والقرطبي (٢٨/٢٠).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٨/٢٠). (٤) سقط من ب.

(٥) الفخر الرازي ١٤٩/٣١. (٦) تقدم.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٤/١٢) عن قتادة بلفظ: سار وذكره السيوطي بهذا اللفظ في «الدر
المنثور» (٥٨٢/٦) عن مجاهد وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد والطبري وابن أبي حاتم.

وقيل: المراد: ينقص، كقوله: ﴿إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير: ١٧].

و «يَسِرُّ»: منصوب بمحذوف، هو فعل القسم، أي: أقسم به وقت سراه، وحذف ياء «يَسِرُّ» وقفاً، وأثبتها وصلأً، نافع وأبو عمرو، وأثبتها في الحاليين^(١) ابن كثير، وحذفها في الحاليين الباقيون لسقوطها في خط المصحف الكريم.

وإثباتها هو الأصل؛ لأنها لام فعل مضارع مرفوع، وحذفها لموافقة المصحف، وموافقة رءوس الآي، وجرياً للفواصل مجرى القوافي.

ومن فرق بين حالتي الوقف والوصل؛ فلأن الوقف محل استراحة.

قال الزمخشري^(٢): «وياء «يسري» تحذف في الدَّرج اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة».

وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، [تقديره: (٣)] ليعذبين، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك.

قوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾.

قيل: «هل» على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير، كقولك: ألم أنعم عليك إذا كنت قد أنعمت.

وقيل: المراد بذلك: التوحيد، لما أقسم به وأقسم عليه، والمعنى: بل في ذلك مقنع لذي حِجر، ومعنى «لذي حِجر»: لذي لب وعقل؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥١٩٢ - وَكَيْفَ يُرْجَى أَنْ تَتُوبَ وَإِنَّمَا يُرْجَى مِنَ الْفِثْيَانِ مَنْ كَانَ ذَا حِجْرٍ^(٤)

وقال أبو مالك: «لِذِي حِجْرٍ»: أي: لذي ستر من الناس.

وقال الحسن: لذي جِلْم.

قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حِجر، ولذي عَقْل، ولذي جِلْم، ولذي ستر، الكل بمعنى العقل.

وأصل الحِجْر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها إنه لذو حِجر.

[ومنه سمي الحِجر: المنع، لامتناعه بصلايته، ومنه: حِجر الحاكم على فلان أي: منعه من التصرف، ولذلك سميت الحجرة حجرة، لامتناع ما فيها بها]^(٥).

(١) ينظر: الحجة ٦/٤٠٣، وإعراب القراءات ٢/٤٧٦، وحجة القراءات ٧٦١.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٧٤٦.

(٣) في أ: وهو.

(٤) ينظر القرطبي ٢٠/٣٠.

(٥) سقط من ب.

وقال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل.

والمعنى: أن كل ذلك دال على أن كل ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه دلائل وعجائب على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه.

قال القاضي^(١): وهذه الآية تدل على أن القسم واقع برب هذه الأمور؛ لأن الآية دالة على أن هذه مبالغة في القسم، والمبالغة لا تحصل إلا في القسم بالله تعالى؛ ولأن النهي قد ورد بأن يحلف العاقل بغير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ فَوَعُونَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَيَالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ﴾.

قرأ العامة: «بعاد»: مصروفًا، «إرم» بكسر الهمزة، وفتح الراء، والميم.

فـ «عاد» اسم لرجل في الأصل، ثم أطلق على القبيلة أو الحي، وقد تقدم الكلام عليه، وأما: «إرم» فقليل: اسم قبيلة. وقيل: اسم مدينة [اختلفوا في تعيينها، فقليل: «إسكندرية»، وقيل: «دمشق»، وهذان القولان ضعيفان؛ لأنها منازل كانت من «عمان» إلى «حضر موت»، وهي بلاد الرمال والأحفاف، وأما «الإسكندرية» و«دمشق»، فليستا من بلاد الرمال^(٢).

فإن كانت اسم قبيلة كانت بدلاً، أو عطف بيان، أو منصوبة بإضمار: «أعني»، وإن كانت اسم مدينة، فتعلق الإعراب من: «عاد» وتخريجه على حذف مضاف، كأنه قيل: بعاد أهل إرم. قاله الزمخشري^(٣).

وهو حسن، ويبعد أن يكون بدلاً من: «عاد»، بدل اشتمال، إذ لا ضمير، وتقديره قلق وقد يقال: إنه لما كان المراد^(٤) بـ «عاد»: مدينتهم؛ لأن «إرم» قائمة مقام ذلك، صح البدل.

وإِرمَ: اسم جد عاد، وهو عادُ بنُ عوصِ بنِ إرمَ بنِ نوح عليه الصلاة والسلام؛ قال زهير: [البسيط]

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٥٠.

(٢) سقط من ب.

(٣) الكشف ٧٤٧/٤.

(٤) في أ المعنى.

٥١٩٣ - وَأَخْرَيْنَ تَرَى الْمَآذِيَّ عُدَّتْهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ أَوْ مَا أُورِثَتْ إِرَمٌ^(١)
وقال ابن قيس الرقيات: [المنسرح]

٥١٩٤ - مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلَهُ أَذْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِرَمًا^(٢)
وقرأ الحسن^(٣): «عاد» غير مصروف.

قال أبو حيَّان^(٤): مضافاً إلى «إِرَمَ»، فجاز أن يكون «إِرَمَ» أباً، أو جدّاً، أو مدينة.
قال شهاب الدين^(٥): يتعين أن يكون في قراءة الحسن، غير مضاف، بل يكون كما كان منوناً، ويكون «إِرَمَ» بدلاً أو بياناً أو منصوباً بإضمار: أعني، ولو كان مضافاً لوجب صرفه وإنما منع «عاد» اعتباراً بمعنى: القبيلة، أو جاء على أحد الجائزين في: «هند» وبابه.

وقرأ الضحاك^(٦) في رواية: «بِعَادَ أَرَمَ» ممنوع الصرف، وفتح الهمزة من: «أرم». قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام التي هي الأعلام.
وعنه أيضاً: فتح الهمزة، وسكون الراء، وهو تخفيف: «أَرِمَ» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة، كما قرئ: ﴿بُورِقُكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وهي قراءة ابن الزبير، وعنه في: «عاد» مع هذه القراءة: الصرف وتركه.

وعنه - أيضاً - وعن ابن عباس: «أَرَمَ» بفتح الهمزة والراء والميم المشددة جعلاه فعلاً^(٧) ماضياً، [يقال: أرم العظم أي بلي، وأرم وأرمه غيره، فأفعل يكون لازماً ومتعدياً في هذا]^(٨).

و «ذات» على هذه القراءة مجرورة صفة لـ: «عاد» ويكون قد راعى لفظها تارة في قوله: «إِرَمَ»، فلم تلحق علامة التأنيث، ويكون: «أرم» معترضاً بين الصفة والموصوف، أي: أُرمت هي، بمعنى: رُمَتْ وبليت، وهو دعاء عليهم، ويجوز أن يكون فاعل: «أرم» ضمير الباري تعالى، والمفعول محذوف، أي: أرمها الله تعالى، والجملة الدعائية معترضة - أيضاً - وراعى معناها أخرى في: «ذات» فأنت.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ذات» بالنَّصْب، على أنها مفعول بـ

(١) تقدم.

(٢) ينظر الديوان ص ١٥٥، والكشاف ٧٤٧/٤، والقرطبي ٣١/٢٠، والبحر ٤٦١/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، والبحر المحيط ٤٦٤/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٤) البحر المحيط ٤٦٤/٨. (٥) الدر المصون ٥١٩/٦.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، والبحر المحيط ٤٦٤/٨.

(٧) ينظر: السابق، والدر المصون ٥١٩/٦. (٨) سقط من ب.

«أرم» وفاعل «أرم» ضمير يعود على الله - تعالى -، أي: أرمها الله، ويكون: «أرم» بدلاً من: «فَعَلَ رَبُّكَ» وتبييناً له.

وقرأ ابنُ الزُّبَيْرِ^(١): «بعادِ أرم» بإضافة: «عاد» إلى: «أرم» مفتوح الهمزة مكسور الراء، وقد تقدم أنه اسم مدينة.

وقرأ^(٢): «إِرم ذات»، بإضافة: «إرم» إلى: «ذات».

وروي عن مجاهد: «أرم»^(٣) يعني: بفتحتين، مصدر «أرم، يَأرم»، أي: هلك، فعلى هذا يكون منصوباً بـ: «فَعَلَ رَبُّكَ» نصب المصدر التشبيهي، والتقدير: كيف أهلك ربك عاداً إهلاك ذات العماد؟ وهذا أغرب الأقوال.

و «ذَاتِ العِمَادِ»: إن كان صفة لقبيلة، فمعناه: أنهم أصحاب خيام لها أعمدة يظعنون بها، أو هو كناية عن طول أبدانهم [كقولهم: رفيع العمد طويل النجاد] قاله ابن عباس رضي الله عنهما^(٤)، وإن كان صفة للمدينة، فمعناه: أنها ذات عُمَد من الحجارة. قوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ﴾: يجوز أن يكون: تابعاً، وأن يكون: مقطوعاً، رفعاً ونصباً.

والعامة على: «يُخْلَقُ» مبنياً للمفعول، «مِثْلُهَا» مرفوع على ما لم يسم فاعله.

وعن ابن الزُّبَيْرِ^(٥): «يُخْلَقُ» مبنياً للفاعل، «مِثْلُهَا» منصوب به، وعنه أيضاً: «نَخْلَقُ»^(٦) بنون العظمة.

فصل في الكلام على إرم وعاد

قال القرطبي^(٧): من لم يصف جعل «إرم»: اسم «عاد»، ولم يصرفه؛ لأنه جعل «عاداً» اسم أبيهم، و «إرم»: اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه، أو عطف بيان.

ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم، وتقديره: بعادِ أهل إرم، كقوله: ﴿وَسَثَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، ولم تنصرف - قبيلة كانت، أو أرضاً - للتعريف والتأنيث.

والإرم: العلم، أي: بعاد أهل ذات العلم، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد عام، وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً، إذ كانوا في بلاد العرب، وحجر ثمود موجود اليوم، وأمر فرعون يسمعه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب.

(١) ينظر، المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، البحر المحيط ٤٦٤/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤٦٤/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٣) ينظر السابق. (٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، والبحر المحيط ٤٦٤/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٦) ينظر السابق. (٧) الجامع لأحكام القرآن ٣٠/٢٠.

قوله: «بَعَادٍ»، أي: بقوم عاد.

قال أبو هريرة: كان الرجل من قوم عادٍ، يتخذ المصراع من حجارة، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة، لم يستطيعوا أن يقلوه^(١).

[وإرم قال ابن إسحاق: هو سام بن نوح عليه السلام.

وعن ابن عباس وابن إسحاق أيضاً قال: عاد بن إرم بن عاص بن سام بن نوح عليه السلام^(٢).

قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد منهم إرم بن سام، وأرفخشذ بن سام؛ فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك والطغاة والعصاة^(٣).

وإرم: قال مجاهد: «إرم» هي أمة من الأمم، وعنه أيضاً: أن معنى «إرم»: القديمة، وعنه أيضاً: القوية^(٤).

وقال قتادة: هي قبيلة من عاد^(٥).

وقيل: هما عادان، فالأولى: هي «إرم»، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، فقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح: عاد كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم يقال للأولين منهم: عاداً الأولى، وإرم: تسمية لهم باسم جدهم، ولمن بعدهم: عاد الأخيرة؛ قال ابن الرقيّات: [المنسرح]

٥١٩٥ - مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاءُ أَوْلَى أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِرْمًا^(٦)

وقال معمر: «إرم»: إليه مجمع عاد وشمود، وكان يقال: عاد وإرم، وعاد وشمود، وكانت القبائل تنسب إلى إرم، «ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد».

قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم، طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم، طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه^(٧).

وعن ابن عباس أيضاً: أن طول الرجل منهم، كان سبعين ذراعاً^(٨).

قال ابن العربي: وهو باطل؛ لأن في الصحيح: «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي الْهَوَاءِ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ إِلَى الْآنَ».

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣١/٢٠). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٦/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/٦) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٦/١٢). (٦) تقدم.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣١/٢٠). (٨) ينظر المصدر السابق.

وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً^(١).

قال أبو عبيدة: «ذَاتِ الْعِمَادِ»: أي: ذات الطول، يقال: رجل معمد إذا كان طويلاً ونحوه عن ابن عباس، ومجاهد.

وعن قتادة: كانوا عماداً لقومهم، يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي: سيدهم، وعنه أيضاً: كانوا أهل خيام وأعمدة ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلاء، ثم يرجعون إلى منازلهم.

وقيل: المعنى: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور.

وقال ابن زيد: «ذَاتِ الْعِمَادِ» يعني: إحكام البنيان بالعمد^(٢).

قال الجوهري^(٣): «والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث، والواحدة: عمادة».

وقال الضحاك: «ذَاتِ الْعِمَادِ» أي ذات الشدة والقوة مأخوذة من قوة الأعمدة بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٤) [فصلت: ١٥].

فصل في الضمير في «مثلها»

والضمير في: «مِثْلَهَا» يرجع إلى القبيلة، أي: لم يخلق مثل القبيلة في البلاد قوة وشدة، وعظم أجساد.

وعن الحسن وغيره: وفي حرف عبد الله^(٥): «التي لم يخلق مثلهم في البلاد».

وقيل: يرجع إلى المدينة، والأول أظهر وعليه الأكثر.

فصل

قال القرطبي^(٦): «رُوي عن مالك رضي الله عنه أن كتاباً وجد بـ «الاسكندرية» فلم يدر ما فيه، فإذا فيه «أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ، الَّذِي رَفَعَ الْعِمَادَ، بَنَيْتَهَا حِينَ لَا شَيْبَ وَلَا مَوْتَ» قال مالك: إن كان لتمرُّ بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة».

وروي: أنه كان لعاد ابنان: شَدَّاد، وشديد، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٩/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٣/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٦٨/١٢). (٣) ينظر الصحاح (٥١١/٢).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣١/٢٠) عن الضحاك.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٢/٢٠. (٦) ينظر السابق.

بعض صحارى عدن، في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب، والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابه: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل مما قدر عليه مما هنا، وبلغ خبره معاوية، فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر، قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت، فأبصر ابن قلابه، وقال: هذا والله ذلك الرجل.

فصل في إجمال القول في الكفار هاهنا

ذكر الله - تعالى - هاهنا - قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين، وهم: عاد، وثمود، وقوم فرعون، على سبيل الإجمال حيث قال: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»، ولم يبين كيفية ذلك العذاب، وبين في سورة: «الحاقة»، ما أبهم^(١) في هذه السورة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِطَاغِيَةٍ وَآمَنُوا عَادًا فَأَمْلِكُوا بِرَبِّعٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٢ و ٩].

قوله: ﴿وَتَمُودُ﴾.

قرأ العامة بمنع الصرف.

وابن وثاب^(٢): يصرفه، والذي يجوز فيه ما تقدم في: «التي لم يخلق».

و «جَابُوا» أي: قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها سيراً؛ قال:

[البيسط]

٥١٩٦ - مَا إِنْ رَأَيْتُ قُلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ سِتْنَيْنِ وَسَقَاً وَلَا جَابَتْ بِهِ بَلَدًا^(٣)
وَجَابَ الشَّيْءُ يَجُوبُهُ: أي: قطعه، ومنه سمي جيب القميص؛ لأنه جيب، أي قطع.

وقوله: «بِالْوَادِ»: متعلق إما بـ «جَابُوا» أي: فيه، وإما بمحذوف على أنه حال من «الصَّخْرَ»، أو من الفاعلين.

وأثبت في الحاليين: ابن كثير وورش بخلاف عن قنبل، فروي عنه إثباتها في

(١) في ب أصابهم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، والبحر المحيط ٤٦٥/٨، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٣) ينظر القرطبي ٣٣/٢٠، والبحر ٤٦٢/٨، واللسان (حوب)، والدر المصون ٥١٩/٦.

الحالين، وروي عنه: إثباتها في الوصل خاصة، وحذفها الباقون في الحالين، موافقة لخط المصحف، ومراعاة^(١) للفواصل كما تقدم في «يسر».

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس: كانوا يجوبون البلاد، ويجعلون من الجبال بيوتاً، لقوله - تعالى - : ﴿يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا﴾^(٢) [الحجر: ٨٢].

وقيل: أول من نحت من الجبال، والصخور والرخام: ثمود، وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينة، كلها من الحجارة.

وقوله تعالى: ﴿بِالْوَادِ﴾ أي: بوادي القرى. قاله محمد بن إسحاق.

[وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة، قال: أتى رسول الله ﷺ في غزاة «تبوك» على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير؛ فإنكم في واد ملعون».

وقيل: الوادي بين جبال، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلماً للسليل، ومنفذاً، فهو واد^(٣).

قوله: ﴿وَقَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾، أي: الجنود والعساكر والجموع. قاله ابن عباس.

وسمي «ذي الأوتاد» لكثرة مضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا.

وقيل: ذي الأوتاد، أي: ذي الملك الثابت.

كقوله: [الرجز]

٥١٩٧ - فِي ظِلِّ مَلِكٍ رَاسِخِ الْأَوْتَادِ^(٤)

وقيل: كان يشد الناس بالأوتاد إلى أن يموتوا، تجبراً منه وعتواً، كما فعل بامرأته آسية، وماشطتها.

قال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة ترفع بالبكرات، ثم يؤخذ له الإنسان، فيوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه^(٥).

وروى قتادة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: أن تلك الأوتاد، كانت ملاعب يلعبون تحتها^(٦).

قوله: ﴿الَّذِينَ طَفَّوْا﴾: يجوز فيه ما جاز في: «الذين» قبله، من الإتيان والقطع على الذم.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٧٨/٥، والدر المصون ٥١٩/٦.

(٢) ينظر القرطبي (٣١/٢٠) عن الضحاك. (٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر الفخر الرازي ١٦٩/٣١. (٥) ينظر تفسير القرطبي (٣١/٢٠) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٠/١٢).

قال ابن الخطيب^(١): يحتمل أن يرجع الضمير إلى فرعون خاصة؛ لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهو الأقرب. وأحسن الوجوه في إعرابه: أن يكون في محل نصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على: «هم الذين طغوا» مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون. يعني: عاداً، وفرعون، وثموداً طغوا، أي: تمردوا وعتوا، وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان، ثم فسر تعالى طغيانهم بقوله: ﴿فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾.

قال الكلبي: القتل، والمعصية لله تعالى.

قال القفال^(٢): والجملة أن الفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد.

قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أي: أفرغ عليهم، وألقى، يقال: صبَّ على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه؛ قال النابغة: [الطويل]

٥١٩٨ - فَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ أَحْسَنَ صُنْعِهِ وَكَانَ لَهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ نَاصِراً^(٣)
وقوله تعالى: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نصيب عذاب؛ وقيل: شدته؛ لأن السوط عندهم نهاية ما يعذب به.

قال الشاعر: [الطويل]

٥١٩٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ وَصَبَّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابٍ^(٤)
والسوط: هو الآلة المعروفة.

قيل: سمي سوطاً؛ لأنه يساط به اللحم عند الضرب أي: يختلط؛ قال كعب بن زهير: [البيسط]

٥٢٠٠ - لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دِمَها فَجَعَ وَلَعَ وَإِخْلَافَ وَتَبْدِيلُ^(٥)
وقال آخر: [الطويل]

٥٢٠١ - أَحَارَتْ إِنَّا لَوْ نَسَاطُ دِمَاؤُنَا تَزَايِلْنَ حَتَّى لَا يَمَسُّ دَمَ دَمًا^(٦)
[وقيل: هو في الأصل مصدر: ساطه يسوطه سوطاً، ثم سميت به الآلة]^(٧).

(١) ينظر الفخر الرازي ١٥٣/٣١. (٢) ينظر: الفخر الرازي ١٥٣/٣١.

(٣) ينظر ديوان النابغة ص ٧١، والقرطبي ٣٣/٢٠.

(٤) ينظر القرطبي ٣٣/٢٠. (٥) تقدم.

(٦) البيت للمتلمس ينظر مجمع البيان ٧٣٤/١٠ والبحر ٤٦٢/٨، والدر المصون ٥٢٠/٦.

(٧) سقط من ب.

وقال أبو زيد: أموالهم بينهم سويطة، أي: مختلطة.

فالسَّوْطُ: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمي: المسواط، وساطه: أي خلطه، فهو سائط، وأكثر من ذلك، يقال: سوط فلان أموره؛ قال: [الطويل]

٥٢٠٢ - فَسُطَّهَا ذَمِيمَ الرَّأْيِ غَيْرَ مُوَفَّقٍ فَلَسْتُ عَلَى تَسْوِيطِهَا بِمُعَانٍ^(١)

قال الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك أن السَّوْطَ: هو عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه غاية العذاب.

وقال الزجاج: أي: جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب.

[ويقال: ساط دابته يسوطها أي: ضربها بسوطه.

وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها^(٢)][^(٣).

قال قتادة: كل شيء عذب الله به، فهو سوط عذاب^(٤).

[واستعمال الصب في السوط استعارة بليغة شائعة في كلامهم.

قال القاضي^(٥): وشبه بصَّب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه^(٦).

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمَرَّصَادِ﴾، أي: يرصد عمل كل إنسان، حتى يجازيه به.

قال الحسن وعكرمة: والْمَرَّصَادُ: كالمرصد، وهو: المكان الذي يترقب فيه الرِّصْدُ^(٧)، جمع راصد كحرس، فالمرصاد «مفعال» من: «رصده»، كميات من وقته، قاله الزمخشري^(٨).

وجوز ابن عطية في المرصاد^(٩): أن يكون اسم فاعل، قال: كأنه قيل: «لبالراصد»، فعبّر ببناء المبالغة.

ورده أبو حيَّان^(١٠): بأنه لو كان كذلك لم تدخل عليه الباء، إذ ليس هو في موضع دخولها، لا زائدة، ولا غير زائدة.

(١) ينظر اللسان (سعط) والقرطبي ٣٤/٢٠. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٤/٢٠).

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٢/١٢) عن ابن زيد.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ١٥٣/٣١. (٦) سقط من ب.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٧٢/١٢) عن الحسن.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٥/٦) وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) ينظر: الكشف ٧٤٨/٤. (٩) المحرر الوجيز ٤٧٩/٥.

(١٠) البحر المحيط ٤٦٥/٨.

قال شهاب الدين^(١): قد وردت زيادتها في خبر: «إنَّ» كهذه الآية؛ وفي قول امرئ القيس: [الطويل]

٥٢٠٣ - فَإِنَّكَ مِمَّا أَخَذْتُ بِالْمُجْرِبِ^(٢)
إلاَّ أنَّ هذه ضرورة، لا يقاس عليه الكلام، فضلاً عن أفصحه.

فصل

تقدم الكلام في: «المرصاد»، عند قوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبا: ٢١]، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب بأنهم لا يفوتونه، كما قيل لبعض العرب: أين ربك؟ قال: بالمرصاد.

وقال الفراء: معناه: إليه المصير.

وقال الزجاج: يرصد من كفر به وعاند طاعته بالعذاب.

وقال الضحاك: يرصد أهل الظلم، والمعصية.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾
قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾: مبتدأ، وفي خبرها وجهان:

أصحهما: أنه الجملة من قوله: «فيقول»، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦] كما تقدم، والظرف حينئذ منصوب بالخبر؛ لأنه في نية التأخير، ولا يمنع الفاء من ذلك. قاله الزمخشري^(٣).

الثاني: «إذا»: شرطية، وجوابها: «فيقول»، وقوله: «فأكرمه»: معطوف على «ابتلاه»، والجملة الشرطية خبر: «الإنسان». قاله أبو البقاء^(٤).

وفيه نظر؛ لأن «أما» تلزم الفاء في الجملة الواقعة خبراً عما بعدها، ولا تحذف إلا مع قول مضمّر، كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] كما تقدم، إلا في ضرورة.

قال الزمخشري^(٥): «فإن قلت: بم أتصل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾؟»

قلت: بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَامِرْصَادًا﴾، فكأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة، فأما الإنسان، فلا يريد ذلك، ولا يهيم إلا العاجلة» انتهى.

(٢) تقدم.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/٢٨٦.

(١) الدر المصون ٦/٥٢٠.

(٣) ينظر: الكشف ٤/٧٤٩.

(٥) الكشف ٤/٧٤٩.

يعني: بالتعليق من حيث المعنى، وكيف عطفت هذه الجملة التفصيلية على ما قبلها مترتبة عليه، قوله: «لا يريد إلا الطاعة» على مذهبه، ومذهب أهل السنة: أن الله يريد الطاعة وغيرها، ولولا ذلك لم يقع ثم من لا يدخل في ملكه ما لا يريد، وإصلاح العبارة أن نقول: إن الله يريد من العبد والإنسان من غير حصر.

ثم قال: فإن قلت: كيف توازن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾، وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد «أما» و «أما» تقول: أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور، أما الإنسان أحسنت إلى زيد، فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه، فهو مسيء إليك.

قلت: هما متوازنان من حيث إن التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه، وذلك أن قوله «فيقول: ربّي أكرمني»: خبر المبتدأ، الذي هو «الإنسان»، ودخول الفاء لما في «أما» من معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في نية^(١) التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقاتل: ربي أكرمني وقت الابتلاء، فوجب أن يكون «فيقول» الثاني: خبراً لمبتدأ واجب تقديره.

فصل في المراد بالإنسان

قال ابن عباس: المراد بالإنسان: عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة^(٢).

وقيل: أمية بن خلف.

وقيل: أبي بن خلف.

﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: امتحنه، واختبره بالنعمة، و «ما» زائدة صلة، «فأكرمه» بالمال، و «نعمه» بما أوسع عليه، «فيقول: ربّي أكرمني»، فيفرح بذلك، ولا يحمد.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي: امتحنه بالفقر واختبره، «فقدّر» أي: ضيق، «عليه رزقه» على مقدار البلغة، «فيقول: ربي أهانني» أي: أولاني هواناً، وهذه صفة الكافر، الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده، والهوان بكثرة المال والحظ في الدنيا، وقلته، فأما المؤمن، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قال القرطبي^(٣): الآيتان صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته، وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا، لم يعطيني الله،

(١) في ب: تقدير.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٥/٢٠) عن ابن عباس.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٥/٢٠.

وكذا إن قتر عليه، يظن أن ذلك لهوانه على الله.

قوله: «فَقَدَرَ عَلَيْهِ».

قرأ ابن عامر^(١): بتشديد الدال.

والباقون: بتخفيفها، وهما لغتان بمعنى واحد، ومعناهما: التضييق.

قال القرطبي^(٢): والاختيار: التخفيف، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال أبو عمرو: و «قَدَرَ» أي: قتر. و «قَدَّرَ» مشدداً: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال: «رَبِّي أَهَانِي».

فصل في الكلام على أكرمن وأهانن

قوله: «أَكْرَمَنِي، أَهَانَنِي».

قرأ نافع: بإثبات يائهما وصلأ، وحذفهما وقفاً من غير خلاف عنه.

والمروي عن ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب: إثباتهما في الحالين؛ لأنهما اسم فلا تحذف.

واختلف عن أبي عمرو في الوصل: فروي^(٣) عنه الإثبات والحذف، والباقون يحذفونها في الحالتين.

وعلى الحذف قوله: [المتقارب]

٥٢٠٤ - وَمِنْ كَاشِحٍ ظَاهِرٍ عُمَرُ إِذَا مَا انْتَسَبْتُ لَهُ أَتَكْرَنُ^(٤)

يريد: أنكرني؛ ولأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة لا تخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

وقال الزمخشري^(٥): فإن قلت: هلا قال: فأهانته وقدر عليه رزقه، كما قال: «فأكرمه ونعمه»؟ قلت: لأن البسط: إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة، وأما التقدير، فليس بإهانة له؛ لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة، ولكن تركاً للكرامة، وقد يكون المولى مكرماً لعبده ومهيناً له، وغير مكرم ولا مهين، وإذا أهدي لك زيد هدية، قلت: أكرمني بالهدية، ولا تقول: أهانني، ولا أكرمني إذا لم يهد لك.

(١) ينظر: السابق، وحجة القراءات ٧٦١. (٢) السابق.

(٣) ينظر خلاف السبعة في: السبعة ٦٨٤، ٦٨٥، والحجة ٤٠٣/٦، ٤٠٩، وإعراب القراءات ٤٧٨/٢، وحجة القراءات ٧٦٤.

(٤) تقدم. (٥) الكشف ٧٤٩/٤.

وأجاب ابن الخطيب^(١) عن هذا السؤال: بأنه في قوله: «أكرمني» صادق، وفي قوله: «أهانني» غير صادق فهو ظهن أن قلة الدنيا، وتعسرها إهانة، وهذا جهل، واعتقاد فاسد، فكيف يحكي الله - تعالى - ذلك عنه؟.

قيل: لما قال: «فَأَكْرَمَهُ»، فقد صحَّ أنه أكرمه، ثم إنه لما حكى عنه أنه قال: «أكرمن» ذمه عليه، فكيف الجمع بينهما؟.

فالجواب: أن كلمة الإنكار: «كلاً»، فلم لا يجوز أن يقال: إنها مختصة بقوله تعالى: «ربي أهانن»؟.

سلمنا أن الإنكار عائد إليهما معاً، لكن يمكن أن يكون الذم؛ لأنه اعتقد أن ذلك الإكرام بالاستحقاق، أو أنه لما لم يعترف إلا عند سعة الدنيا، مع سبق النعم عليه من الصحة، والعقل دلّ على أن غرضه من ذلك ليس الشكر، بل محبة الدنيا، والتكثير بالأموال والأولاد، أو لأن كلامه يقتضي الإعراض عن الآخرة وإنكار البعث، كما حكى الله تعالى بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الكهف: ٣٥ و ٣٧].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (٧) وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتَحْبُوتُ أَمْالًا حُبًّا جَمًّا (٢٠) قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾: ردع للإنسان عن تلك المقالة.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - المعنى: لم أبتله بالغنى، لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر، لهوانه عليّ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر، والمشية والحكم المنزه عن التعليل^(٢)، وهذا مذهب أهل السنة، وأما على مذهب المعتزلة: فلمصالح خفية، لا يطلع عليها إلا هو - سبحانه - فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتصر على المؤمن لا لهوانه. قال الفراء في هذا الموضع: يعني: لم يكن للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله - تعالى - على الغنى والفقر.

قوله: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. قرأ أبو عمرو^(٣): «يكرمون»، وما بعده بياء الغيبة، حملاً على معنى الإنسان المتقدم، إذ المراد به الجنس، والجنس في معنى: الجمع. والباقون: بالتاء في الجميع، خطاباً للإنسان المراد به الجنس، على طريقة الالتفات.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٥٥ - ١٥٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٥/٢٠) عن ابن عباس.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٦/٤٠٩، وإعراب القراءات ٢/٤٧٩، وحجة القراءات ٧٦٢.

فصل فيمن نزلت فيه الآية

لما حكى قولهم، فكأنه قال: لهم فعل أشر من هذا القول، وهو أن الله - تعالى - يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون ما يلزمهم من إكرام اليتيم، فقرعهم بذلك، ووبخهم. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله.

وقال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف، وكان يدفعه عن حقه^(١).

قوله: ﴿وَلَا تَحْضُوتْ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾.

قرأ الكوفيون: «ولا تحاضون»، والأصل: تتحاضون، فحذف إحدى التاءين، أي: لا يحض بعضهم بعضاً.

وروي عن الكسائي^(٢): «تُحاضُونَ» بضم التاء، وهي قراءة زيد بن علي وعلقمة، أي: تحاضون أنفسهم.

والباقون^(٣): «تَحْضُونَ» من حَضَّه على كذا، أي: أغراه به، ومفعوله محذوف، أي: لا تحضون أنفسكم ولا غيرها، ويجوز ألا يقدر، أي: لا يوقعون الحَضَّ.

قوله: «على طعام»: متعلق بـ «تحضون»، و «طعام»: يجوز أن يكون على أصله من كونه اسماً للمطعم، ويكون على حذف مضاف، أي على بذل، أو إعطاء طعام، وأن يكون اسم مصدر بمعنى: الإطعام كالإعطاء بمعنى الإعطاء، فلا حذف حينئذ.

فصل في ترك إكرام اليتيم

اعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه:

أحدها: ترك بره وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْضُوتْ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾.

والثاني: دفعه عن حقه، وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلاً لَمّاً وَتُحِبُّونَ أَمْلاً حُبّاً جَمّاً﴾.

قوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلاً لَمّاً﴾ التاء في «الثرات»: بدل من الواو؛ لأنه من الوراثة ومثله: تولج، وتوراة، وتخمة وقد تقدم كما قالوا: تجاه، وتخمة، وتكأة، وتودة، ونحو ذلك.

والتراث: ميراث اليتامى، وقوله تعالى: ﴿أَكْلاً لَمّاً﴾، اللّم: الجمع الشديد، يقال: لمت الشيء لماً، أي: جمعته جمعاً.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٥/٢٠) عن ابن عباس.

(٢) وقرأ بها ابن المبارك كما في المحرر الوجيز ٤٨٠/٥، والقرطبي ٣٦/٢٠، والدر المصون ٥٢١/٦.

(٣) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٤١٠/٦، وإعراب القراءات ٤٧٩/٢، وحجة القراءات ٧٦٢ - ٧٦٣.

قال الحطّينة: [الطويل]

٥٢٠٥ - إِذَا كَانَ لَمَّا يُتْبَعِ الذَّمُّ رَبُّهُ فَلَا قَدَسَ الرَّحْمَنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا^(١)

وَلَمَمْتُ شَعْنَهُ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَ النَّابِغَةُ: [الطويل]

٥٢٠٦ - وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْبٍ أَيْ الرِّجَالِ الْمُهْذَبِ؟^(٢)

وَالجَمُّ: الكثير، ومنه: جمّة الماء.

قال زهير: [الطويل]

٥٢٠٧ - فَلَمَّا وَرَدْنَا الْمَاءَ زُرْقًا جِئَانُهُ.....^(٣)

ومنه: الجُمّة، للشعر، وقولهم: جاءوا الجماء الغفير من ذلك.

وكتيبة ملمومة وحجر ملموم، وقولهم: إن دارك لمومة، أي تلم الناس وتجمعهم، والآكل يلم الثريد، فيجمعه لقماً، ثم يأكله.

قال الحسن: يأكلون نصيبهم، ونصيب غيرهم، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم^(٤).

وقيل: إن المال الذي يتركه الميت بعضه حلال، وبعضه شبهة، وبعضه حرام، فالوارث يلم الكل، أي: يجمع البعض إلى البعض، ويأخذ الكل ويأكله.

قال الزمخشري^(٥): يجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى الوارث الذي ظفر بالمال، سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً لمّاً جامعاً بين ألوان المشتريات [من الأطعمة والأشربة والفواكه]^(٦).

[وقال ابن زيد: كان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم وتراثهم مع تراثهم]^(٧).

قوله: ﴿وَيُحْبَوْنَ أَلْمَالُ حُبّاً جَمّاً﴾ أي: كثيراً حلاله وحرامه.

وَالجَمُّ: الكثير، يقال: جم الشيء يجم جُمُوماً، فهو جم وجام، ومنه: جم الماء

(١) ينظر الكشف ٧٥١/٤، والقرطبي ٣٦/٢٠، والبحر ٤٦٢/٨، والدر المصون ٥٢٢/٦.

(٢) ينظر ديوان النابغة ٧٤، وابن الشجري (١/٢٦٧)، واللسان (شعث)، والقرطبي ٣٦/٢٠، والبحر ٤٦٢/٨، والدر المصون ٥٢٢/٦.

(٣) ينظر ديوانه (١٠٥)، والانطباع الشعري ص ٢٨١، ومجمع البيان ٧٣٥/١٠، والدر المصون ٦/٥٢٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٧٤). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٨٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر الكشف ٧٥١/٤.

(٦) سقط من: أ.

(٧) سقط من: ب.

في الحوض، إذا اجتمع وكثر، والجمعة: المكان الذي يجتمع فيه الماء، والجموم - بالضم - المصدر يقال: جم الماء يجم جموماً: إذا كثر في البئر واجتمع، والمعنى: يحبون المال حباً كثيراً شديداً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجِئَئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ لَهُ الْذِكْرُ ۖ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۖ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ۖ﴾ (٢١-٢٦)

قوله: ﴿كَلَّا﴾: ردع لهم عن ذلك، وإنكار لفعلهم، أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، فهو ردع لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها.

قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. في «دكاً» وجهان:

أحدهما: أنه مصدر مؤكد، و «دكاً» الثاني: تأكيد للأول، تأكيداً لفظياً. كذا قاله ابن عصفور وليس المعنى على ذلك.

والثاني: أنه نُصِبَ على الحال، والمعنى: مكرراً عليها الدُّكُّ، كـ «علمته الحساب باباً باباً»، وهذا ظاهر قول الزمخشري^(١).

وكذلك: «صَفًّا صَفًّا» حال أيضاً، أي: مصطفين، أو ذوي صفوف كثيرة.

قال الخليل: الدُّكُّ: كسر الحائط والجبل والدكداك: رمل متلبّد. ورجل مدك: أي شديد الوطء على الأرض. [فمعنى الدك على قول الخليل: كسر شيء على وجه الأرض من جبل أو حجر حين زلزلت فلم يبق على شيء]^(٢).

وقال المبرد: الدُّكُّ: حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط، واندك سنام البعير: إذا انفرش في ظهره، وناقعة دكاء كذلك، ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش، فمعنى الدك على قول الخليل: كسر الشيء على وجه الأرض من جبل أو حجر حين زلزلت، فلم يبق على ظهرها شيء، وعلى قول المبرد، معناه: أنها استوت في الانفراش، فذهب دورها، وقصورها، حتى صارت كالصخرة الملساء، وهذا معنى قول ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم^(٣).

قال ابن الخطيب^(٤): وهذا التَّدْكُ لا بد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة [فإذا زلزلت الأرض زلزلة] بعد زلزلة، فتكسر الجبال، وتنهدم، وتمتلئ الأغوار، وتصير ملساء، وذلك عند انقضاء الدنيا.

(١) ينظر: الكشاف ٧٥١/٤.

(٢) ثبت في أمكان هذه العبارة ما يلي: والدكداك رمل متلبّد، ورجل مدك: شديد الوطء على الأرض.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٣٠/٣٧). (٤) ينظر: الفخر الرازي ١٥٨/٣١.

قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. أي: جاء أمره وقضاؤه. قاله الحسن، وهو من باب حذف المضاف.

وقيل: جاءهم الربُّ بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْفَڪَاوِ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي بظلل.

وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيماً لشأن تلك الآيات، كقوله تعالى في الحديث: «يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي، وَاسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي وَاسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعَمْنِي»^(١).

وقيل: زالت الشبه، وارتفعت الشكوك، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشكوك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه [وقيل وجاء قهر ربك، كما تقول جاءتنا بنو أمية، أي: قهرهم].

قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستوت، والله - سبحانه وتعالى - لم يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأُنئى له التحول والانتقال، ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جريان الوقت على الشيء فوات الأوقات، ومن فاته الشيء، فهو عاجز.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: والملائكة صفاً بعد صف متحلِّقين بالجن والإنس^(٢).

قوله: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾.

«يومئذ»: منصوب بـ «جاء»، والقائم مقام الفاعل: «بجهنم» وجوز مكّي: أن يكون «يومئذ»: قائم مقام الفاعل.

وأما «يومئذ» الثاني فقليل: بدل من «إِذَا دُكَّتِ»، والعامل فيها: «يتذكر»، قاله الزمخشري^(٣) وهذا مذهب سيويه.

وقيل: إن العامل في «إِذَا دُكَّتِ»: يقول، والعامل في «يومئذ»: يتذكر، قاله أبو البقاء^(٤).

فصل

قال ابن مسعود ومقاتل: «تَقَادُ جَهَنَّمُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، كُلُّ زِمَامٍ بِيَدِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُونَهَا، لَهَا تَغِيْظٌ وَزَفِيرٌ، حَتَّى تَنْصَبَ عَنِ يَسَارِ الْعَرْشِ»^(٥).

(٢) سقط من ب.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/٢٨٧.

(٥) ورد هذا الأثر عن ابن مسعود مرفوعاً أخرجه مسلم وغيره وقد تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: الكشف ٤/٧٥١.

(١) تقدم.

رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

وقال أبو سعيد الخدري: لما نزلت: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تغير لون رسول الله ﷺ وعرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه، ثم قال: أقرأني جبريل: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، - الآية - ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، قال علي - رضي الله عنه -: قلت: يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: «يُؤْتَى بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، يَقُودُ بِكُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ، فَتَشْرُدُ شُرْدَةً لَوْ تَرَكْتَ لِأَخْرَقْتَ أَهْلَ الْجَمْعِ، ثُمَّ تَغْرُضُ لِي جَهَنَّمَ، فَتَقُولُ: مَا لِي وَلَكَ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ لِحْمَكَ عَلَيَّ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا قَالَ: نَفْسِي نَفْسِي، إِلَّا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّهُ يَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي، رَبِّ أُمَّتِي»^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): قال الأصوليون: معلوم أن جهنم لا تنقل من مكانها، ومعنى مجيئها: برزت وظهرت حتى يراها الخلق، ويعلم الكافر أن مصيره إليها.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾. تقدم الكلام في إعراب: «يومئذ»، والمعنى: يتعظ الكافر، ويتوب من همته بالدنيا وقيل: يتذكر أن ذلك كان ضللاً.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: ومن أين له الاتعاض والتوبة، وقد فرط فيها في الدنيا. وقيل: ومن أين له منفعة الذكرى، فلا بد من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين «يومئذ يتذكر» وبين: «وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» تناف. قاله الزمخشري^(٣).

قوله: «وَأَنَّى» خبر مقدم، و «الذكرى»: مبتدأ مؤخر، و «له» متعلق بما تعلق به الظرف.

قوله: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: في حياتي، فاللام بمعنى «في».

وقيل: أي: قدمت عملاً صالحاً أي لحياة لا موت فيها.

وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم، فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون ممن له حياة هنيئة.

فصل في شبهة للمعتزلة والرد عليها

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم وقصدهم، وأنهم ما كانوا محجوزين عن الطاعات، مجبرين على المعاصي.

والجواب: أن فعلهم كان معلقاً بقصد الله - تعالى - فبطل قولهم.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٧/٦) وعزاه إلى ابن مردويه عن أبي سعيد.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ١٥٨/٣١.

(٣) الكشف ٧٥٢/٤.

قرأ الكسائي: «لا يعذب»^(١) ولا يوثق مبنين للمفعول، ورواه أبو قلابة عن النبي ﷺ بفتح الثاء والذال، والباقون: قرأوهما مبنين للفاعل.

فأما قراءة الكسائي: فأسند الفعل فيها إلى: «أحد»، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى، والزبانية المتولون العذاب بأمر الله تعالى، وأما عذابه ووثاقه، فيجوز أن يكون المصدران مضافين للفاعل، والضمير لله تعالى، أو مضافين للمفعول، والضمير للإنسان، ويكون «عذاب» واقعاً موقع تعذيب، والمعنى: لا يُعَذَّبُ أَحَدٌ مثل تعذيب الله - تعالى - هذا الكافر، ولا يوثق أحد توثيقاً مثل إثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال، ولا يعذب أحد مثل تعذيب الكافر، ولا يوثق مثل إثاقه لكفره، وعناده.

والوثاق: بمعنى: الإيثاق، كالعطاء بمعنى الإعطاء، إلا أن في إعمال اسم المصدر عمل مسمّاه خلافاً مضطرباً، فنقل عن البصريين المنع، وعن الكوفيين الجواز، ونقل العكس عن الفريقين؛ ومن الإعمال قوله: [الوافر]

٥٢٠٨ - أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَيَعْدُ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرَّتَاعَا^(٢)

ومن منع: نصب المائة بفعل مضمر؛ وأصرح من هذا قول الشاعر: [الطويل]

٥٢٠٩ - تُكَلِّمُنِي فِيهَا شِفَاءً لِمَا بِيَا^(٣)

وقيل: المعنى: ولا يحمل عذاب الإنسان أحد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَلَا زُرَّةٌ وُزِّرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. قاله الزمخشري^(٤).

وأما قراءة الباقيين: فإنه أسند الفعل لفاعله، والضمير في: «عذابه»، و «وثاقه» يحتمل عوده على الباري - تعالى -، بمعنى: أنه لا يعذب في الدنيا، مثل عذاب الله تعالى يومئذ أحد، أي: أن عذاب من يعذب في الدنيا، ليس كعذاب الله - تعالى - يوم القيامة، كذا قاله أبو عبد الله.

وفيه نظر، من حيث إنه يلزم أن يكون: «يومئذ» معمولاً للمصدر التشبيهي، وهو ممتنع لتقدمه عليه، إلا أن يقال: إنه توسع فيه.

(١) ينظر: السبعة ٦٨٥، والحجة ٦/٤١١، وإعراب القراءات ٢/٤٨٠، وحجة القراءات ٧٦٣.

(٢) تقدم.

(٣) عجز بيت لذي الرمة وصدره:

فأشفي نفسي من تباريح ما بها

ويروى:

ألا هل إلى سبيل ساعة

ينظر ملحقات ديوان ذي الرمة (٦٧٥)، وشرح المفصل ١/٢١، والدرر ٥/٢٦٣، والهمع ٢/٩٥، والدر المصون ٦/٥٢٣.

(٤) ينظر الكشف ٤/٧٥٢.

وقيل: المعنى: لا يكُل عذابه، ولا وثاقه لأحد؛ لأن الأمر لله - تعالى - وحده في ذلك.

وقيل: المعنى: أنه في الشدة، والفظاعة، في حين لم يعذب أحد في الدنيا مثله. ورد هذا، بأن «لا»، إذا دخلت على المضارع صيرته مستقبلاً، وإذا كان مستقبلاً لم يطابق هذا المعنى، ولا يطلق على الماضي إلاً بمجازٍ بعيد، وبأن يومئذ المراد به يوم القيامة، لا دار الدنيا.

وقيل: المعنى: أنه لا يعذب أحد في الدنيا، مثل عذاب الله الكافر فيها، إلا أن هذا مردود بما ورد قبله.

ويحتمل عوده على الإنسان، بمعنى: لا يعذب أحد من زبانية العذاب، مثل ما يعذبون هذا الكافر، ويكون المعنى: لا يحمل أحد عذاب الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهذه الأوجه صعبة المرام على طالبها من غير هذا الكتاب.

وقرأ نافع^(١) في رواية، وأبو جعفر وشيبة، بخلاف عنهما: «وثاقه» بكسر الواو. والمراد بهذا الكافر المعذب، قيل: إبليس - لعنه الله -؛ لأنه أشد الناس عذاباً. وقال الفراء: هو أمية بن خلف.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ۖ﴾ (٢٩) و﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ (٣٠).

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾.

قرأ العامة: «يا أَيُّهَا النَّفْسُ» بناء التانيث.

وقرأ زيد بن^(٢) علي: «يا أَيُّهَا»، كنداء المذكر، ولم يجوز ذلك أحد، إلا صاحب البديع، وهذه شاهدة له، وله وجه: وهو أنها كما لم تطابق صفتها تشية وجمعاً، جاز ألا يطابقها تأنيثاً، تقول: يا أيها الرجلان، يا أيها الرجال.

فصل في الكلام على الآية

لما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا، وصف حال من اطمأن إلى معرفته وعبوديته، وسلم أمره إلى الله - تعالى -.

وقيل: هذا كلام الباري تعالى، إكراماً له كما كلّم موسى عليه السلام.

(١) وقرأ بها الخليل بن أحمد، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٨١، والبحر المحيط ٨/ ٤٦٧، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٤٦٧، والدر المصون ٦/ ٥٢٣.

وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله تعالى.

قال مجاهد وغيره: «المُطْمَئِنَّة»: الساكنة الموقنة، أيقنت أن الله تعالى ربها، فأجيب لذلك^(١).

وقال ابن عباس: المطمئنة بثواب الله^(٢)، وعن الحسن - رضي الله عنه -: المؤمنة الموقنة^(٣).

وعن مجاهد أيضاً: الراضية بقضاء الله^(٤).

وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله^(٥) تعالى.

وفي حرف أبي كعب^(٦): «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة».

وقيل: التي عملت على يقين بما وعد الله تعالى، في كتابه.

وقال ابن كيسان: المطمئنة - هنا -: المخلصة وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛

لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨] وقيل: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بالبعث والثواب.

وقال ابن زيد: المطمئنة، التي بشرت بالجنة، عند الموت، أو عند البعث، ويوم

الجمع^(٧).

قوله: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، أي: ارجعي إلى صاحبك، وجسدك.

قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء، واختاره الكلبي، يدل عليه قراءة ابن عباس^(٨):

«فادخلي في عبدي»، على التوحيد.

وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك.

وقال أبو صالح: ارجعي إلى الله، وهذا عند الموت.

وقوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ حالان، أي: جامعة بين الوصفين؛ لأنه لا يلزم من

أحدهما الآخر، والمعنى: راضية بالثواب، مرضية عنك في الأعمال، التي عملتها في الدنيا.

فصل في مجيء الأمر بمعنى الخبر

قال القفال^(٩): هذا وإن كان أمراً في الظاهر، فهو خبر في المعنى، والتقدير: أن

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨١/١٢). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٩/٢٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٠/١٢). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٩/٢٠).

(٥) ينظر المصدر السابق. (٦) ينظر: الكشاف ٧٥٢/٤، والقرطبي ٣٩/٢٠.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨١/١٢).

(٨) ينظر: جامع البيان ٥٨٣/١٢، والكشاف ٧٥٣/٤، والمحرر الوجيز ٤٨٢/٥، والبحر المحيط ٨/

٤٦٧، والدر المصون ٥٢٣/٦.

(٩) ينظر: الفخر الرازي ١٦٠/٣١.

النفس إن كانت مطمئنة رجعت إلى الله تعالى، وقال الله تعالى لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، قال: ويجيء الأمر بمعنى الخبر كثيراً في كلامهم، كقوله: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ».

فصل في فضل هذه الآية

قال سعيد بن زيد: قرأ رجل عند رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ»، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: مَا أَحْسَنَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»^(١).

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بـ «الطائف»، فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، لا ندري من تلاها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^(٢) [روى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة]^(٣).

وقيل: نزلت في خبيب بن عدي، الذي صلبه أهل «مكة»، وجعلوا وجهه إلى «المدينة»، فحول الله وجهه للقبلة.

قوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾، يجوز أن يكون في جسد عبادي، ويجوز أن يكون المعنى في زُمرَة عبادي. وقرأ ابن عباس وعكرمة وجماعة: «في عِبَادِي»، والمراد: الجنس، وتعدى الفعل الأول بـ «في»؛ لأنَّ الظرف ليس بحقيقي، نحو: دخلت في غمار الناس، وتعدى الثاني بنفسه؛ لأن الظرفية متحققة، كذا قيل، وهذا إنما يتأتى على أحد الوجهين، وهو أن المراد بالنفس: بعض المؤمنين، وأنه أمر بالدخول في زُمرَة عبادته، وأما إذا كان المراد بالنفس: الرُّوح، وأنها مأمورة بدخولها في الأجساد، فالظرفية متحققة فيه أيضاً.

فصل في المراد بالجنة هاهنا

قال ابن عباس: هذا يوم القيامة، وهو قول الضحاك^(٤).

والجمهور على أن المراد بالجنة: دار الخلود، التي هي سكن الأبرار، ودار الصالحين والأخيار.

ومعنى «في عِبَادِي» أي: في الصالحين، كقوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُم فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨١/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٨٨/٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلبة».

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٩/٢٠). (٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ٣٩/٢٠.

قال ابن الخطيب^(١): ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء، لا جرم قال تعالى: ﴿وَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي﴾، بقاء التعقيب، ولما كانت الجنة الجسمانية، لا يحصل الكون فيها إلا بعد قيام القيامة الكبرى، لا جرم قال تعالى: ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ بالواو والله تعالى أعلم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ غُفِرَ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)

(١) ينظر: الفخر الرازي ١٦٢/٣١.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة البلد

مكيّة، وهي عشرون آية، واثنان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَرَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾: يجوز أن تكون «لا»: زائدة، كما تقدم في: «لا أقسم بيوم القيامة»، قاله الأخفش، أي: أقسم؛ لأنه قال: «بهذا البلد»، وقد أقسم به في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، فكيف يجوز القسم به، وقد أقسم به سبحانه؛ قال الشاعر: [الطويل]

٥٢١٠ - تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاغْتَرَنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ^(١)

أي: يتقطع، ودخل حرف «لا»: صلة، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقد قال تعالى في سورة «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

وقرأ الحسن والأعمش^(٢) وابن كثير: «لَأَقْسِمُ» من غير ألفٍ بعد اللام إثباتاً. وأجاز الأخفش أيضاً، أن تكون بمعنى: «ألا».

وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا.

وقيل: هي نفي صحيح، والمعنى: لا أقسم بهذا البلد، إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. حكاه مكي، ورواه ابن أبي نجیح عن مجاهد، قال: «لا»: رد عليهم،

(١) ينظر: القرطبي ٤٠/٢٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٨٣/٥.

وهذا اختيار ابن العربي، لأنه قال: «وأما من قال: إنها رد، فهو قول ليس له رد؛ لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد».

فهو رد لكلام من أنكر البعث، ثم ابتدأ القسم.

وقال القشيري: قوله: «لا» رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور في الدنيا، أي: ليس الأمر كما تحسبه من أنه لم يقسم عليه أحد، ثم ابتدأ القسم، وأجمعوا على أن المراد بالبلد: مكة المشرفة، أي: أقسم بالبلد الحرام، الذي أنت فيه، لكرامتك عليّ وحيي لك.

قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن الجملة اعتراضية على أحد معنيين، إما على معنى: أنه - تعالى - أقسم بهذا البلد، وما بعده، على أن الإنسان في كبد، واعترض بينهما بهذه الجملة، يعني: ومن المكابدة، أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد، كما يستحل الصيد في غير الحرم.

وإما على معنى: أنه أقسم ببلدة، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد، واعترض بأن وعده فتح «مكة»، تميمًا للتسلية، فقال تعالى: وأنت حلٌّ به فيما يستقبل، تصنع فيه ما تريد من القتل، والأسر، ف «حلٌّ» بمعنى: حلال، قال معناه الزمخشري^(١). ثم قال: فإن قلت: أين نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ في معنى الاستقبال؟

قلت: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعدّه الإكرام والحباء: أنت مكرم محبوب، وهو في كلام الله أوسع؛ لأن الأحوال المستقبلية عنده، كالحاضرة المشاهدة، وكفأك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال؛ لأن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة وقت نزولها فما بال الفتح؟

الثاني من الوجهين الأولين: أن الجملة حالية، أي: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حالٌ بها، لعظم قدرك، أي: لا نقسم بشيء، وأنت أحق بالإقسام بك منه. وقيل: المعنى: لا أقسم به، وأنت مستحلٌ فيه، أي: مستحلٌ إذ ذاك.

فصل في المراد بهذا البلد

أجمع المفسرون على أن ذلك البلد «مكة»، وفضلها معروف، فإنه تعالى، جعله حرماً آمناً قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وجعل مسجده قبله لأهل

المشرق والمغرب، وقال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأمر النَّاس بحج البيت، فقال: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرٰهِيْمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَأْتُوْكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِيْك مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، وشرف مقام إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ اِبْرٰهِيْمَ مُصَلًّٰى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وحرم صيده، وجعل البيت المعمور بإزائه، ودحيت الأرض من تحته، فهذه الفضائل، وأكثر منها، لما اجتمعت في «مكة» لا جرم أقسم الله تعالى بها.

فصل في تفسير وأنت حل

روى منصور عن مجاهد: «وأنت حل»، قال: ما صنعت فيه من شيء، فأنت في حل^(١).

وكذا قال ابن عباس: أحل له يوم دخل «مكة»، أن يقتل من شاء، فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابه وغيرهما، ولم يحل لأحد من الناس، أن يقتل بها أحداً بعد رسول الله ﷺ^(٢). وقال السدي: أنت في حل ممن قاتلك أن تقتله^(٣).

وروى أبو صالح عن ابن عباس، قال: أحلت له ساعة من نهار، ثم أطبقت، وحرمت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح «مكة»^(٤).

[قال ابن زيد: ولم يكن بها أحد حلالاً غير النبي ﷺ^(٥) وقيل: معناه: وأنت مقيم فيه، وهو محللك أي: من أهل «مكة» نشأت بينهم، ويعرفون فضلك وطهارتك لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقيل: أنت فيه محسن، وأنا عنك فيه راضٍ^(٦).

وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حلٌ وحلالٌ ومحل، ورجل حرم وحرام ومحرم.

وقال قتادة: «وأنت حل به»: أي لست بآثم، قيل: معناه أنك غير مرتكب في هذا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٥/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٢/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٥/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩١/٦) وزاد نسبه إلى ابن مردويه.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤١/٢٠).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٢/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٦/١٢) عن ابن زيد.

(٦) سقط من: ب.

البلد ما يحرم عليك ارتكابه معرفة منك بحق هذا البيت لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه .

وقال شرحبيل بن سعد: «وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» أي: حلال، أي هم يحرمون «مكة» أن يقتلوا بها صيداً، أو يعضدوا بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك، ففيه تعجب من جرأتهم وشدة عداوتهم له .
قوله: ﴿وَاللَّهِ وَمَا وَلَدٌ﴾ .

قيل «ما» بمعنى: «من»، أو بمعنى: «الذي» .

وقيل: مصدرية أقسم بالشخص وفعله .

وقال الزمخشري^(١): «فإن قلت: هلا قيل: وَمَنْ وَلَدٌ؟» .

قلت: فيه ما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: بأي شيء وضعت، يعني: موضوعاً عجيب الشأن .

وقيل: «ما»: نافية، فيحتاج إلى إضمار موصول به يصح الكلام، تقديره: والذي ما ولد، إذ المراد بالوالد: الذي يولد له، «وَمَا وَلَدٌ» يعني: العاقر الذي لا يولد له، قال معناه ابن عباس، وتلميذه ابن جبير وعكرمة^(٢) .

فصل في الكلام على الآية

هذا معطوف على قوله: «لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ»، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، معترض بين المعطوف والمعطوف عليه .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح والطبري: المراد بالوالد: آدم عليه الصلاة والسلام، «وَمَا وَلَدٌ» أي: وما نسل من ولده، أقسم بهم؛ لأنهم أعجب ما خلق تعالى على وجه الأرض، لما فيهم من البنيان، والنطق، والتدبير، وإخراج العلوم، وفيهم الأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى، والأنصار لدينه، وأمر الملائكة بالسجود لآدم - عليه السلام - وعلمه الأسماء كلها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٣) [الإسراء: ٧٠] .

وقيل: هو إقسام بآدم، والصالحين من ذريته، وأما الطالحن، فكأنهم بهائم، كما

(١) ينظر: الكشف ٧٥٤/٤ .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٦/١٢) عن عكرمة وابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٦) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه الطبري (٥٨٦/١٢ - ٥٨٧) عن مجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٦) عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم . وذكره عن سعيد بن جبير وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد .

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالنَّمِيمِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقوله: ﴿هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وقيل: الوالد: إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ [ذريته].

وقيل: الوالد إبراهيم وإسماعيل، وما ولد محمد ﷺ لأنه أقسم بمكة وإبراهيم^(١). قال الفراء: وصلح «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣]، وهو خالق الذكر والأنثى.

قال الماوردي: ويحتمل أن الوالد: النبي ﷺ لتقدم ذكره، «وَمَا وَلَدٌ»: أمته، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ»^(٢)، فأقسم به وبأمرته، بعد أن أقسم ببلده، مبالغة في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾: هذا هو المقسم عليه، والكبد: المشقة.

قال الزمخشري^(٣): والكبد: أصله من قولك: كبد الرجل كبدًا، فهو أكبد، إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه، حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة، كما قيل: كبته بمعنى أهلكه، وأصله: كبده إذا أصاب كبده.

قال ليبد: [المنسرح]

٥٢١١ - يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرَبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ^(٤)

أي: في شدة الأمر، وصعوبة الخطب؛ وقال أبو الإصبع: [البسيط]

٥٢١٢ - لِي ابْنُ عَمٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ فِي كَبَدٍ لَظَلُّ مُخْتَجِرًا بِالنَّبْلِ يَزْمِينِي^(٥)

قال القرطبي^(٦): ومنه تكبد اللين: غلظ واشتد، ومنه الكبد؛ لأنه دمٌ تغلظ واشتد، ويقال: كابدت هذا الأمر، قاسيت شدته.

فصل في المراد بـ «الإنسان»

الإنسان هنا ابن آدم.

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/١) كتاب الطهارة: باب كراهية استقبال القبلة حديث (٨) وابن ماجه (١١٤/١) كتاب الطهارة: باب الاستنجاء بالحجارة حديث (٣١٣) والنسائي (٣٧/١) كتاب الطهارة: باب الاستطابة بالروث.

(٣) الكشف ٧٥٤/٤.

(٤) ينظر ديوان ليبد ص ٥٠، وإعراب القرآن ٧٠٥/٣، ٢٢٩/٥، والطبري ١٢٦/٣ ومجمع البيان ١٠/٧٤٦، والكشاف ٧٠٤/٤، والبحر ٤٦٨/٨، والدر المصون ٥٢٥/٦.

(٥) ينظر إعراب القرآن ٢٢٩/٥، والمفضليات (٣٢٦)، والبحر ٤٦٨/٨، والدر المصون ٥٢٥/٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٢٠.

قال ابن عباس والحسن: «في كبد» أي: في شدة ونصب^(١) وعن ابن عباس أيضاً: في شدة من حملة، وولادته، ورضاعه، ونبت أسنانه، وسائر أحواله^(٢).

وروى عكرمة عنه، قال: منتصباً في بطن أمه^(٣)، والكبد: الاستواء، والاستقامة، فهذا امتنان عليه في الحقيقة، ولم يخلق الله تعالى دابة في بطن أمها إلا منكبة على وجهها إلا ابن آدم، فإنه منتصب انتصاباً. وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما^(٤).

وقال يمان: لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ابن آدم، وهو مع ذلك أضعف الخلق. [وقال ابن كيسان: منتصباً في بطن أمه، فإذا أراد الله تعالى أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجل أمه.

وقال الحسن: كابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة]^(٥).

قال بعض العلماء: أول ما يكابد قطع سرتة، ثم إذا قمت قماطاً، وشد رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فات له لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج، ثم يكابد شغل الأولاد، والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد ميحناً في المال، والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمر عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت، ثم بعد ذلك مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث، والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ فلو كان الأمر إليه، ما اختار هذه الشدائد، ودل هذا على أن له خالقاً دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فليمتثل أمره. وقال ابن زيد: المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٧/١٢) عن ابن عباس والحسن.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٨/١٢) والحاكم (٥٢٣/٢) من طريق عطاء عن ابن عباس. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٦) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٣/٦) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن أبي حاتم. وأخرجه الطبري (٥٨٨/١٢) عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٨٨/١٢) عن إبراهيم وعكرمة والضحاك ومجاهد.

(٥) سقط من: ب.

وقوله تعالى: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في وسط السماء.

وقال الكلبي: إن هذا نزل في رجل من بني جمح، يقال له: أبو الأشدين واسمه أسيد بن كلدة بن جُمَح، وكان قوياً، وكان يأخذ الأديم العكاظي، فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق الأديم، ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي ﷺ وفيه نزل: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، يعني: لقوته^(١).

قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أیظن ابن آدم أن لن يحاسبه الله عز وجل قال ابن الخطيب^(٢): إن فسرنا الكبد بالشدة والقوة، فالمعنى: أیحسب الإنسان الشديد أن لشدة لا يقدر عليه أحد؟ وإن فسرناه بالمحنة، والبلاء، كان المعنى: أن الإنسان كان في النعمة، والشدة، أي: أیظن أنه في تلك الحالة لا يقدر عليه شيء، فهو استفهام على سبيل الإنكار.

قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾: يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً.

وقرأ العامة: «لَبَدَأَ» بضم اللام وفتح الباء.

وشدد أبو جعفر الباء جمع^(٣) لايد، مثل: راع وركع، وساجد وسُجِد، وعنه أيضاً^(٤): سكونها.

ومجاهد وابن أبي الزناد^(٥): بضميتين، وتقدم الكلام على هذه اللفظة في سورة: «الجن».

قال أبو عبيدة: «لَبَدَأَ»: فعل من التليد، وهذا المال الكثير، بعضه على بعض.

قال الزجاج: و «فعل» للكثرة، يقال: رجل حطم، إذا كان كثير الحطم.

قال الفراء: واحده: «لَبْدَةٌ»، و «لَبْدٌ»: جمع.

وجعل بعضهم: واحد، كـ «حطم»، وهو في الوجهين للكثرة، والمعنى: أنفقت مالا كثيراً مجتمعاً؛ لأن أهل الجاهلية يدعونه مكارم ومفاخر.

قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، أي: أیظن أن لم يعاينه أحد، بل علم الله ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلك، ولم يكن أنفقه. وقال: أیظن أن لم يره، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه.

وقال ابن عباس: كان أبو الأشدين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالا كثيراً، وهو في ذلك كاذب^(٦).

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/٤٨٨) عن مقاتل مثله.

(٢) الفخر الرازي ٣١/١٦٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٨٤، والبحر المحيط ٨/٤٧٠، والدر المصون ٦/٥٢٥.

(٤) ينظر السابق.

(٥) السابق.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٤٣).

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات، والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه، يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً منه، فيكون ندماً منه^(١).

قال القرطبي^(٢): «وروي عن النبي ﷺ: أنه كان يقرأ: «أَيَحْسُبُ»، بضم السين، في الموضعين».

وقال الحسن: يقول: أتلقت مالا كثيراً فمن يحاسبني به، دعني أحسبه، ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته، وأن الله - عز وجل - يرى صنيعة، ثم عدد عليه نعمه، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾: يبصر بهما، ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾: يستر بهما ثغره^(٣)، والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه، ونحصي عليه ما عمله.

قوله: ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾، الشفة: محذوفة اللام، والأصل: شفهة، بدليل تصغيرها على «شَفِيْهَةٌ»، وجمعها على «شفاه» ونظيره: سنة في إحدى اللغتين، وشافهته أي كلمته من غير واسطة، ولا يجمع بالألف والتاء، استغناء بتكسيورها عن تصحيحها.

قال القرطبي^(٤): «يقال: شفهاث وشفواث، والهاء: أقيس، والواو أعم تشبيهاً بالسنوات».

قال الأزهرى: «يقال: هذه شفة، في الوصل، وشفة، بالتاء والهاء».

قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، يعني: الطريقتين: طريق الخير وطريق الشر.

روى قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ، كان يقول: «يا أيها الناس، إنما هُمَا النّجْدَانِ: نَجْدُ الْخَيْرِ، وَنَجْدُ الشَّرِّ، فلم تجعلْ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ»^(٥).

فكانه لما وهمت الدلائل، جعلت كالطريق المرتفعة العالية، لكونها واضحة للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، بعد قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢ و ٣].

وروي عن عكرمة، قال: النجدان: الثديان، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك.

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/٤٨٨). (٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٤٣).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٤٣). (٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٥٩١) عن قتادة والحسن.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٩٥) عن الحسن وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن مردويه من طرق عنه.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَأَنَّهُمَا كَالطَّرِيقَيْنِ لِحَيَاةِ الْوَلَدِ، وَرَزَقَهُ^(١).

فقوله: «النجدين» إما ظرف، وإما على حذف الجار إن أريد بهما الشديان.
والتَّجْدُ في الأصل: العنق، لارتفاعه.

وقيل: الطريق العالي.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٢١٣ - فَرِيقَانِ مِنْهُمْ جَارِعَ بَطْنُ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعَ نَجْدٍ كَبْكَبِ^(٢)
ومنه سميت نجد، لعلوها عن انخفاض تهامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةُ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكْ رَقَبَةً ۚ أَوْ إِطْلَعْتَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَنَى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابِعُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ﴾^(٣)
قوله: ﴿فَلَا أَقْنَحَمَ الْعَقَبَةُ ۖ﴾.

قال الفراء والزجاج: ذكر «لا» مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد: «لا» مع الفعل الماضي، حتى تعيد «لا»، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] وإنما أفردتها لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: قائماً مقام التكرير، فكأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

وقال الزمخشري^(٣): هي متكررة في المعنى؛ لأن معنى: «فلا اقتحم العقبة»: فلا فكْ رَقَبَةٍ، ولا أطعم مسكيناً. ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك؟.

قال أبو حيَّان^(٤): ولا يتم له هذا إلا على قراءة: «فكْ» فعلاً ماضياً.

وقال الزجاج والمبرد وأبو عليٍّ، وذكره البخاري عن مجاهد: أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٢/١٢) عن ابن عباس والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥٩٥/٦) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس وينظر تفسير الماوردي (٢٧٧/٦) والقرطبي (٤٤/٢٠).

(٢) يروى الشطر الأول:

غداة غدوا فسالك بطن نخلة

ينظر الديوان ص ٤٣، وإصلاح المنطق ص ٥٦، ومجمع البيان ٧٤٦/١ واللسان (نجد)، والقرطبي ٤٤/٢٠، والبحر ٤٦٨/٨، والدر المصون ٥٢٥/٦.

(٤) البحر المحيط ٤٧١/٨.

(٣) الكشف ٧٥٦/٤.

كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١﴾ يدل على أن «لا» بمعنى: «لم»، ولا يلزم التكرير مع «لم»، فإن كررت «لا» كقوله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فصل في معنى الآية

المعنى: فهلاً أنفق ماله في اقتحام العقبة، الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد ﷺ هلاً أنفق في اقتحام العقبة، فيأمن، والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قُحوماً، أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وقُحِمَ الفرس فارسه تقحيماً على وجهه: إذا رماه وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، والقُحْمَةُ - بالضم - المهلكة والسنة الشديدة، يقال: أصاب العرب القُحْمَةُ: إذا أصابهم قحط [فدخلوا الريف] ^(١) والقُحْمُ: صعب الطريق.

قال عطاء: يريد عقبة جهنم ^(٢).

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط ^(٣).

قال الواحدي: وهذا فيه نظر؛ لأن من المعلوم أن هذا الإنسان وغيره، لم يقتحموا عقبة جهنم، ولا جاوزوها.

وقال ابن العربي: قال مجاهد: اقتحام العقبة في الدنيا؛ لأنه فسره بعد ذلك، بقوله: «فك رقية» أو أطعم في يوم يتيماً، أو مسكيناً، وهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا ^(٤).

وقال الحسن ومقاتل: هذا مثل ضربه الله تعالى، لمجاهدة النفس، والشيطان في أعمال البر ^(٥).

قال القفال ^(٦): قوله تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، معناه: فلا أنبى ماله فيما فيه اقتحام العقبة.

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحَمَ﴾ دعاء، أي: فلا نجا ولا سلم، من لم ينفق ماله في كذا وكذا.

وقيل: شبه عظيم الذنوب، وثقلها بعقبة، فإذا أعتق رقية، أو عمل صالحاً، كان مثله مثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب تضره، وتؤذيه وتثقله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾.

(١) سقط من ب. (٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣١/١٦٧).

(٣) ذكره الماوردي (٢٧٨/٦) والقرطبي (٤٥/٢٠).

(٤) ينظر المصدر السابق. (٥) ذكره الماوردي (٢٧٨/٦) والقرطبي (٤٥/٢٠).

(٦) ينظر: الفخر الرازي ١٦٧/٣١.

قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: «وَمَا أَدْرَاكَ»، فقد أخبر به، وكل شيء قال فيه: «وَمَا يُدْرِيكَ»، فإنه لم يخبره به، والمعنى: وما أدراك ما اقتحام العقبة، وهذا تعظيم للإلزام أمر الدين، والخطاب للنبي ﷺ ليعلمه اقتحام العقبة، ثم إنه تعالى فسر العقبة بقوله: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾.

قوله: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾.

قرأ أبو عمرو^(١) وابن كثير والكسائي: «فَكَ»: فعلاً ماضياً، و «رَقَبَةً»: نصباً، «أو أطعم»: فعلاً ماضياً.

والباقون: «فَكَ»: برفع الكاف اسماً، «رَقَبَةً»: خفض بالإضافة، «أو إطعم»: اسم مرفوع أيضاً.

فالقراءة الأولى: الفعل فيها، بدل من قوله: «اقتحم»، فهو بيان له، فكأنه قيل: فلا فك رقبة ولا أطعم.

والثانية: مرتفع فيها: «فَكَ»، على إضمار مبتدأ، أي: هو فك رقبة، «أو إطعم» على معنى الإباحة، وفي الكلام حذف مضاف، دل عليه «فلا اقتحم»، تقديره: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فالتقدير: اقتحام العقبة فك رقبة، أو إطعم، وإنما احتيج إلى تقدير هذا المضاف ليطابق المفسر والمفسر؛ ألا ترى أن المفسر - بكسر السين - مصدر، والمفسر - بفتح السين - وهو العقبة غير مصدر، فلو لم يقدر مضافاً، لكان المصدر، وهو «فَكَ» مفسراً للعين، وهي العقبة.

وقرأ أمير المؤمنين وأبو رجاء^(٢): «فَكَ، أو أطعم» فعلين - كما تقدم - إلا أنهما نصبا: «ذا» الألف.

وقرأ الحسن: «إطعم»^(٣)، و «ذا» بالألف أيضاً، وهو على هاتين القراءتين: مفعول: «أطعم»، أو «إطعم»، و «يتيماً» حينئذ بدل منه أو نعت له، وهو في قراءة العامة: «ذي» بالياء: نعت لـ «يوم»، على سبيل المجاز، وصف اليوم بالجوع مبالغة، كقولهم: ليلك قائم، ونهارك صائم، والفاعل لـ «إطعم»: محذوف، وهذا أحد المواضع التي يطرد فيها حذف الفاعل وحده عند البصريين.

فصل في الاستفهام في الآية

قال ابن زيد، وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام على معنى الإنكار،

(١) ينظر: السبعة ٦٨٦، والحجة ٦/٤١٣، وإعراب القراءات ٢/٤٨١، وحجة القراءات ٧٦٤.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٧١، والدر المصون ٦/٥٢٦.

(٣) ينظر: السابق، والمححر الوجيز ٥/٤٨٥.

تقديره: هلاً أقتحم العقبة، تقول: هلاً أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغبان، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد عليه الصلاة والسلام^(١).

فصل في الفرق بين الفك والرق

الفك: التفريق، ومنه فك القيد، وفك الرقبة، فرق بينها وبين صفة الرق بإيجاد الحرفة، وإبطال العبودية، ومنه فك الرهن، وهو إزالته عن المرتهن، قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فِكَاهُ مِنَ النَّارِ يَجْرِي عَلَى كُلِّ عَصَا مِنْهُ عُضْوٌ مِنْهُ» الحديث^(٢).

وسمي المرقوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، وسمي عتقها فكاً فكك الأسير من الأسر؛ قال: [البسيط]

٥٢١٤ - كَمِ مِنْ أَسِيرٍ فَكَّكَاهُ بِلَا تَمَنِ وَجَرُ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيَهَا^(٣)

قال الماوردي: ويحتمل ثانياً: أنه أراد فك رقبته، وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات، ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

فصل في أن العتق أفضل من الصدقة

قال أبو حنيفة - رضي الله عنه -: العتق أفضل من الصدقة، وعند صاحبيه الصدقة أفضل، والآية أدل على قول أبي حنيفة، لتقديم العتق على الصدقة.

قوله: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾، أي: مجاعة، والسَّغْبُ: الجوع، والسَّاعِبُ: الجائع.

قال شهاب الدين^(٤): والمسغبة: الجوع مع التعب، وربما قيل في العطش مع التعب.

قال الراغب: يقال سغب الرجل يسغب سغباً وسغبوا فهو ساعب، وسغبان، والمسغبة: مفعول منه.

وأشدد أبو عبيدة: [الطويل]

٥٢١٥ - فَلَوْ كُنْتُ جَاراً يَا بُنَّ قَيْسٍ بِنِ عَاصِمٍ لَمَآبَتْ شَبَعَانَا وَجَارُكَ سَاعِبًا^(٥)

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤٤/٢٠) عن ابن زيد.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر شرح ديوان حسان بن ثابت ٤٨٥، والقرطبي ٤٦/٢٠.

(٤) ينظر الدر المصون ٥٢٦/٦. (٥) ينظر القرطبي ٤٦/٢٠.

فصل

إطعام الطعام فضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل.
وقال النخعي في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾، قال: في يوم عزيز فيه الطعام.

قوله: ﴿يَتِمَّكَذَا مَقْرَبٍ﴾، أي: قرابة.

قال الزمخشري^(١): «والمَسْغَبَةُ، والمَقْرَبَةُ، والمَتْرَبَةُ: مفعلات، من سَغَبَ إذا جاع، وقرب في النسب، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، وترب إذا افتقر». وهذه الآية تدل على أن الصدقة على الأقارب، أفضل منها على الأجانب. واليتيم: قال بعض العلماء: اليتيم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأمهات.

وقال بعضهم: اليتيم: «الذي يموت أبواه».

قال قيس بن الملوح: [الطويل]

٥٢١٦ - إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لَيْلَى كَمَا شَكَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمٌ^(٢)
ويقال: يتم الرجل يتماً: إذا ضعف.

قوله: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبٍ﴾، أي: لا شيء له، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر يقال: ترب أي افتقر حتى لصق جلده بالتراب، فأما أترب بالالف فمعناه استغنى نحو: أثرى أي صار ماله كالتراب وكالثرى.

قال المفسرون: هو الذي ليس له مأوى إلا التراب.

وقال ابن عباس: هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له.

وقال مجاهد: الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره.

وقال قتادة: إنه ذو العيال.

وقال عكرمة عن ابن عباس: ذو المتربة هو البعيد عن وطنه، ليس له مأوى إلا التراب.

فصل في أن المسكين قد يملك شيئاً

احتجوا بهذه الآية على أن المسكين قد يملك شيئاً؛ لأنه لو كان المسكين هو الذي لا يملك شيئاً - ألبة - لكان تقييده بقوله: «ذا مَتْرَبَةٍ» تكرير.

(١) ينظر: الكشف ٧٥٦/٤.

(٢) ينظر ديوان مجنون ليلي ص ٢٤٤، والقرطبي ٤٦/٢٠.

قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. التراخي في الإيمان، وتباعده في المرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ لأن الإيمان هو السابق، ولا يثبت عمل إلاّ به. قاله الزمخشري^(١) وقيل: المعنى: ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان؛ لأنّ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات.

وقيل: التراخي في الذكر.

قال المفسرون: معناه أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبته، أو أطعم في يوم ذي مسغبة، حتى يكون من الذين آمنوا، أي: صدقوا، فإنّ شرط قبول الطاعات الإيمان بالله تعالى، فالإيمان بعد الإنفاق لا ينفع، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقيل: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة [فيكون المعنى: ثم كان مع تلك الطاعات من الذين آمنوا]^(٢)، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله - تعالى - ثم آمن بمحمد ﷺ.

وقيل: إن «ثُمَّ» بمعنى: الواو، أي: وكان هذا المعتق للرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا.

قوله: ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضاً على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب، ﴿وَتَوَّاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾، أي: بالرحمة على الخلق فإنهم إذا فعلوا ذلك، رحموا اليتيم والمسكين، ثم إنه تعالى بينهم، فقال تعالى:

﴿أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾، أي: الذين يؤتون كتبهم بإيمانهم، قاله محمد بن كعب القرظي^(٣).

[وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامين على أنفسهم]^(٤).

وقال ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن^(٥).

وقال ميمون بن مهران لأن منزلتهم عن اليمين^(٦).

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا شَاءَ بِنَا﴾، أي: القرآن، ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾ أي: يأخذون كتبهم

(٢) سقط من: ب.

(١) ينظر: الكشف ٧٥٧/٤.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤٨/٢٠). (٤) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

بشمائلهم قاله محمد بن كعب، وقال يحيى بن سلام: لأنهم مشائيم على أنفسهم^(١).

وقال ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر^(٢).

وقال ميمون: لأن منزلتهم على اليسار^(٣).

قال القرطبي^(٤): ويجمع هذه الأقوال أن يقال: إن أصحاب الميمنة أصحاب

الجنة، وأصحاب المشئمة أصحاب النار.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾، قرأ أبو عمرو وحمره وحفص: بالهمزة.

والباقون^(٥): بلا همز.

فالقراءة الأولى: من «أَصَدْتُ الباب» أي: أغلقته، أوصده، فهو مؤصد، قيل:

ويحتمل أن يكون من «أَوْصَدْتُ»، ولكنه همز الواو الساكنة لضمه ما قبلها، كما همز

﴿يَالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

والقراءة الثانية - أيضاً - تحتمل المادتين، ويكون قد خفف الهمزة، لسكونها بعد

ضمة.

وقد نقل الفراء عن السوسي الذي قاعدته إبدال مثل هذه الهمزة، أنه لا يبدل هذه،

وعللوا ذلك بالإلباس وأيقن أنه قرأ: «مؤصدة» بالواو من قاعدته تخفيف الهمزة.

والظاهر أن القراءتين من مادتين: الأولى من «أَصَدَ، يُوصِدُ» كـ «أكرم يكرم»،

والثانية من «أَوْصَدَ، يُوصِدُ» مثل «أوصل يوصل».

وقال الشاعر: [الطويل]

٥٢١٧ - تَحِجُّ إِلَى أَجْبَالٍ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونَهَا ابْنَابُ صَنْعَاءَ مُؤَصَّدَةٌ^(٦)

أي: مغلقة؛ وقال آخر: [الكامل]

٥٢١٨ - قَوْمٌ يَعْالِجُ قُمْلاً ابْنَاؤُهُمْ وَسَلَاسِلَ حِلَقاً وَبَاباً مُؤَصِّداً^(٧)

وكان أبو بكر راوي عاصم يكره الهمز في هذا الحرف، وقال: لنا إمام يهمز:

«مؤصدة»، فأشتهي أن أسد أذني إذا سمعته.

قال شهاب الدين^(٨): وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا ترك الهمزة مع حفظ حفص

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤٨/٢٠.

(٥) ينظر: السبعة ٦٨٦، والحجة ٦/٤١٦، وإعراب القراءات ٢/٤٨٦، وحجة القراءات ٧٦٦.

(٦) ينظر القرطبي ٤٨/٢٠، والبحر ٨/٤٦٩، وفتح القدير ٥/٤٤٥، والدر المصون ٦/٥٢٦.

(٧) ينظر البحر ٨/٤٧١، والدر المصون ٦/٥٢٦.

(٨) الدر المصون ٦/٥٢٧.

إياه عنه، وهو أضيظ لحرفه من أبي بكر، على ما نقله الفراء، وإن كان أبو بكر أكبر وأتقن، وأوثق عند أهل الحديث.

وقال القرطبي^(١): وأهل اللغة يقولون: أوصدت الباب وأصدته، أي: أغلقته، فمن قال: أوصدت، فالاسم: الوصاد.

ومن قال: آصدته، فالاسم: الإصاد.

قال الفراء: ويقال من هذا «الأصيد»، وهو الباب المطبق، ومعنى «مؤصدة» أي: مغلقة.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ﴾، يجوز أن تكون جملة مستأنفة، وأن تكون خبراً ثانياً، وأن يكون الخبر وحده: «عليهم»، و «نارٌ»: فاصل به، وهو الأحسن.

وقيل: معنى «عليهم نار»، أي: أحاطت النار بهم، كقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهُمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]. والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْأَمْنَ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٨/٢٠.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة الشمس

مكية، وهي خمس عشرة آية، وأربع وخمسون كلمة، ومائتان وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝ (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا حَمَلَهَا ۝ (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ (١٠)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾، وقد تقدّم أنّ جماعة من أهل الأصول؛ قالوا: التقدير: ورب الشمس، ورب سائر ما ذكر إلى تمام القسم.

واحتج قوم على بطلان هذا القول، بأن في جملة هذا القسم: ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾، وذلك هو الله تعالى، لا يجوز أن يكون المراد منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه، فإذا لا بد من تأويل، وهو أن «ما» مع ما بعده في حكم المصدر، فيكون التقدير: والسَّمَاءُ وبنائها.

واعترض الزمخشري عليه، فقال^(١): لو كان الأمر على هذا الوجه، لزم من عطف قوله: «فألهمها» عليه فساد النظم. قوله: ﴿وَضُحَاهَا﴾.

قال المبرّد: إن الضحى، والضُّحوة، مشتقان من الضحّ، وهو النور فأبدلت الألف، والواو من الحاء، تقول: ضُحوة، وضُحوات، وضُحى فالواو من «ضُحوة» مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في «ضُحى» مقلوبة عن الواو.

وقال أبو الهيثم: الضحّ نقيض الظل، وهو نور الشمس على ظهر وجه الأرض وأصله: الضحى، فاستثقلوا الياء مع سكون الواو فقلبوها ألفاً.

والضُّحى: مؤنثة، يقال: ارتفعت الضُّحى فوق الصخور، وقد تذكر، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على: «فُعَل» نحو «ضُرَد»،

(١) ينظر: الكشاف ٧٥٩/٤.

وَتُغَرِّ وهو ظرف غير متمكن مثل: سحر، تقول: لقيته ضحى، وضحى، إذا أردت به ضحى يومك لم تنونه.

وقال الفراء: الضحى، هو النهار، كقول قتادة، والمعروف عند العرب أنَّ الضحى إذا طلعت الشمس، وبُعَيْدَ ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد.

ومن قال: الضحى، النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس، ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلاَّ مع حرِّ الشمس، وقد استدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] أي: لا يؤذك الحر.

فصل في تفسير الآية

قال مجاهد: «وَضَحَاهَا» أي: ضوؤها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس؛ لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس^(١).

وقال قتادة: بهاؤها^(٢).

وقال السدي: حرها.

وقال اليزيدي: انبساطها.

وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق، فيكون القسم بها، وبمخلوقات الأرض كلها. حكاها الماوردي.

قال ابن الخطيب^(٣): إنَّما أقسم بالشمس، وضحاها، لكثرة ما يتعلق به من المصالح، فإنَّ أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر الصبح في المشرق، صار ذلك الضوء، كالروح الذي تنفخ فيه الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في القوة، والزيادة إلى غاية كمالها وقت الضحى، وذلك شبه استقرار أهل الجنة. قوله: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا لَئَلَهَا﴾، أي: تبعها، وذلك إذا سقطت رؤيا الهلال.

[قال الليث: تلوت فلاناً إذا تبعته.

وقال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلع، وفي آخر الشهر، يتلوها بالغروب^(٤)][^(٥).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٩٩/١٢) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٠) وزاد نسبته إلى القرطبي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٤٩/٢٠) عن قتادة.

(٣) ينظر الفخر الرازي ١٧٢/٣١.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٠/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وينظر تفسير الماوردي (٢٨٢/٦) والقرطبي (٤٩/٢٠).

(٥) سقط من: ب.

قال الفراء: «تَلَاهَا»: أخذ منها، يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس .
وقال الزجاج: «إِذَا تَلَاهَا» أي: حين استوى، واستدار، فكان مثلها في الضياء والنور.

وقال قتادة والكلبي: معناه: أن الشمس، إذا قربت، فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب^(١).

وقيل: يتلوها في كبر الجرم، بحسب الحسن في ارتباط مصالح هذا العالم بحركته .
قوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، الفاعل: ضمير النهار.

وقيل: عائد على الله تعالى، والضمير المنصوب، إمّا للشمس، وإمّا للظلمة، وإمّا للأرض.

ومعنى «جلاها» أي: كشفها، فمن قال: هي «الشمس»، فالمعنى: أنه يبين بضوئها جرمها، ومن قال: هي «الظلمة»، فهي وإن لم يجر لها ذكر، كقولك: أضحت باردة، تريد: أضحت غداً باردة، وهو قول الفراء والكلبي وغيرهما.

ومن قال: هي الدنيا والأرض، وإن لم يجر لهما ذكر، كقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

قوله: «إِذَا تَلَاهَا»، وما بعده فيه إشكال؛ لأنه إن جعل شرطاً اقتضى جواباً، ولا جواب لفظاً، وتقديره غير صالح، وإن جعل محضاً استدعى عاملاً وليس هنا عامل إلا فعل القسم حال؛ لأنه إنشاء، و «إِذَا» ظرف مستقبل، والحال لا يعمل في المستقبل.

ويخص «إِذَا» وما بعدها إشكال آخر ذكره الزمخشري، قال^(٢): فإن قلت: الأمر في نصب «إِذَا» معضل؛ لأنك لا تخلو إمّا أن تجعل الواو عاطفة، فت نصب بها وتجر، فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك: «مررت أمس بزيد واليوم عمرو»، وإمّا أن تجعلهن للقسم، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه.

قلت: الجواب فيه: أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً، فكان لها شأن خلاف شأن الباء، حيث أبرز معها الفعل وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل، والباء سادة مسددهما معاً، والواوات العواطف نوابغ عن هذه الواو، فحقهن أن يكنّ عوامل على الفعل، والجار جميعاً، كما تقول: «ضرب زيد بكرة وعمرو خالداً»، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام «ضرب» الذي هو عاملهما انتهى.

وقال أبو حيّان^(٣): أما قوله في واوات العطف: «فتنصب وتجر»، فليس هذا

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٠٠) عن ابن زيد.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٧٤.

(٣) الكشف ٤/٧٥٨.

بالمختار على أن يكون حرف العطف عاملاً لقيامه مقام العامل، بل المختار أن العمل إنما هو للعامل في المعطوف عليه، ثم إن الإنشاء حجة في ذلك.

وقوله: «فتقع في العطف على عاملين»، ليس ما في الآية من العطف على عاملين، وإنما هو من باب عطف اسمين مجرور ومنصوب، على اسمين مجرور ومنصوب، فصرف العطف لم ينب مناب عاملين، وذلك نحو قولك: مررت بزيد قائماً وعمرو جالساً؛ وأنشد سيبويه في كتابه: [الطويل]

٥٢١٩ - فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صَحَاحاً وَلَا مُسْتَنَكَّرٌ أَنْ تُعَقَّرَ^(١)

فهذا من عطف مجرور ومرفوع؛ والعطف على عاملين فيه أربعة مذاهب، ونسب الجواز إلى سيبويه.

وقوله في نحو قولك: «مررت أمس بزيد واليوم عمرو»، هذا المثال مخالف لما في الآية، بل وزان ما في الآية: «مررت بزيد أمس وعمرو اليوم» ونحن نجيز هذا. وأما قوله: «على استكراه»، فليس كما ذكر، بل كلام الخليل على المنع.

قال الخليل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ١ - ٣]: «الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء».

وأما قوله: «إن واو القسم ليس يطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً» فليس هذا الحكم مجعماً عليه، بل أجاز ابن كيسان التصريح بفعل القسم مع الواو، فتقول: «أقسم، أو أحلف والله لزيد قائم».

وأما قوله: «والواوات العواطف نواب عن هذا» إلى آخره، فمبني على أن حرف العطف عامل لنيابته مناب العامل، وليس هذا بالمختار.

قال: والذي يقول: إن المُعْضَل هو تقدير العامل في «إذا» بعد الإقسام، كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ٨]، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرَ وَالنَّجْمُ إِذَا أَشْفَر﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَشَّهَا﴾ [الليل: ٢ - ٤]، وما أشبهها ف «إذا» ظرف مستقبل، لا جائز أن يكون العامل فيه فعل القسم المحذوف؛ لأنه فعل إنشائي، فهو في الحال ينافي أن يعمل في المستقبل لإطلاق زمان العامل زمان المعمول، ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف أقيم المقسم به مقامه أي وطلوع النجم، ومجيء الليل، لأنه

(١) البيت للناطقة الجعدي ينظر ديوانه ص ٥٠، وأمالى المرتضى ٢٦٨/١ وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٨٥، وشرح أبيات سيبويه ٢٤١/١، والكتاب ٦٤/١ وخزانة الأدب ١٨١/٧، والمقتضب ٤/ ٢٠٠، ١٩٤.

معمول لذلك الفعل [فالطلوع حال، ولا يعمل فيه المستقبل ضرورة أن زمان المعمول زمان العامل ولا جائز أن يعمل فيه نفس المقسم به لأنه ليس من قبيل ما يعمل، سيما إن كان جزءاً^(١)، ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه، ويكون ذلك العامل في موضع الحال، وتقديره: والنجم كائناً إذا هوى والليل كائناً إذا يغشى، لأنه لا يلزم كائناً أن يكون منصوباً بالعامل، ولا يصح أن يكون معمولاً لشيء مما فرضناه أن يكون عاملاً، وأيضاً، فقد يكون المقسم به جثة، وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن الجثث كما لا تكون أخباراً. انتهى ما رد به أبو حيان وما استشكله من أمر العامل في «إذا».

قال شهاب الدين^(٢): المختار أن حرف العطف لا يعمل لقيامه مقام العامل، فلا يلزم أبا القاسم لأنه يختار القول الآخر، وقوله «ليس ما في الآية من العطف على عاملين» ممنوع بل فيه العطف على عاملين ولكنه فيه غموض، وبيان أنه من العطف على عاملين، أن قوله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا جَلَّهَا﴾ - ها هنا -، معمولان، أحدهما مجرور وهو «النهار»، والآخر منصوب، وهو الظرف عطفاً على معمول عاملين، والعاملان هنا في فعل المقسم به، الناصب لـ «إذا» الأولى، وواو القسم الجارة، فقد تحقق معك عاملان، لهما معمولان، فإذا عطفت مجروراً على مجرور، وظرفاً على ظرف، معمولين لعاملين، لزم ما قاله أبو القاسم، وكيف يجهل هذا مع التأمل والتحقيق؟!.

وأما قوله: «وأنشد سيبويه» إلى آخره، فهو اعتراف منه بأنه من العطف على عاملين، غاية ما في الباب أنه استند إلى حكمه لسبويه، وأما قوله: أجاز ابن كيسان، فلا يلزم مذهبه، وأما قوله: فالمثال ليس كآلية بل وزانها، إلى آخره، فصحيح لما فيه من تقديم الظرف الثاني على المجرور والمعطوف والآية والظرف فيها متأخر، وإنما مراد الزمخشري وجود معمول عاملين، وهو موجود في المثال المذكور إلا أن في الآية إشكالاً آخر، وهو كالتركيب للمسألة، وأما قوله: بل كلام الخليل يدل على المنع، إلى آخره، فليس فيه ردٌ عليه بالنسبة إلى قصده بل فيه تقوية لما قال، غاية ما في الباب أنه عبر بالاستكراه عن المنع، ولم يفهم المنع، وقوله: ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف، إلى آخره، فأقول: بل يجوز تقديره، وهو العامل، ولا يلزم ما قاله من اختلاف الزمانين، لأنه يجوز أن يقسم [الآن بطلوع النجم في المستقبل، فالقسم في الحال والطلوع في المستقبل، ويجوز أن يقسم^(٣) بالشيء الذي سيوجد وقوله «ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه» إلى آخره، ليس بممنوع بل يجوز ذلك ويكون حالاً

(١) سقط من أ.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٥٢٩.

(٣) سقط من ب.

مقدرة، وقوله «ويلزم ألا يكون له عامل» ليس كذلك بل له عامل وهو فعل القسم، ولا يضر كونه إنشائياً، لأن الحال مقدرة كما تقدم، وقوله «وقد يكون المقسم به جثة» جوابه: يقدر حينئذ حدث، يكون الظرف الزماني حالاً عنه وسئل ابن الحاجب عن هذه المسألة، فأجاب بنحو ما ذكرناه والله أعلم، ولا يخلو الكلام فيها من بحث.

قوله ﴿وَأَتْلِلْ إِذَا يَفْسُنَهَا﴾. المفعول «الشمس»: أي: يغشى الشمس فيذهب بضوئها عند سقوطها، قاله مجاهد^(١).

وقيل: للأرض أي: يغشى الدنيا بالظلمة، فتظلم الآفاق فالكناية ترجع إلى غير مذكور. وجيء بـ «يَغْشَاهَا» مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل؛ إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب «إذ غشيها» فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع. قوله ﴿وَأَسْمَاءَ وَمَا بَنَنَهَا﴾. في «ما» هذه وجهان:

أحدهما: أن «ما» موصولة بمعنى «الذي» وبه استشهد من يجوز وقوعها على العقلاء، ولأن المراد به الباري تعالى، وإليه ذهب الحسن ومجاهد وأبو عبيدة، واختاره ابن جرير^(٢).

والثاني: مصدر، أي وبنائها، وإليه ذهب الزجاج والمبرد، وهذا منهما بناء على أنها مختصة بغير العقلاء.

واعترض على هذا القول بأنه يلزم أن يكون القسم بنفس المصادر: بناء السماء وطحو الأرض، وتسوية النفس، وليس المقصود إلا القسم بفاعل هذه الأشياء، وهو الرب تعالى، وأجيب عنه بوجهين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف، أي: ورب بناء السماء ونحوه.

والثاني: أنه لا غرو لا يجوز في الإقسام بهذه الأشياء، كما أقسم سبحانه وتعالى بالصبح ونحوه.

وقال الزمخشري^(٣): «جعلت «ما» مصدرية في قوله «وما بناها»، «وما طحاها»، «وما سواها» وليس بالوجه، لقوله «فألهمها»، وما يؤدي إليه من فساد النظم، والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على «من» لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، وفي كلامهم: سبحانه من سخركن لنا» انتهى.

[يعني أن الفاعل في «فألهمها» عائد على الله تعالى، فليكن في بنائها كذلك]^(٤).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥٠/٢٠) عن مجاهد.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٢/٦٠٠ - ٦٠١. (٣) ينظر: الكشف ٤/٧٥٩.

(٤) سقط من ب.

وحينئذ يلزم عوده على شيء، وليس هنا ما يمكن عوده عليه غير «ما» فتعين أن تكون موصولة.

قال أبو حيان: «أما قوله «وليس بالوجه»، لقوله تعالى: ﴿فَالْمَمَّهَا﴾ يعني من عود الضمير في ﴿فَالْمَمَّهَا﴾ على الله تعالى، فيكون قد عاد على مذكور، وهو «ما» المراد به «الذي»، قال: ولا يلزم ذلك، لأننا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام، في «بَنَاهَا» ضمير عائد على الله تعالى، أي: وبناها هو، أي: الله تعالى، كما إذا رأيت زيدا قد ضرب عمرواً، فتقول: عجبت مما ضرب عمرو، تقديره: من ضرب عمرو هو، كان حسناً فصيحاً جائزاً، وعود الضمير على ما يفهم من سياق الكلام كثير. وقوله «وما يؤدي إليه من فساد النظم» ليس كذلك، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر.

وقوله «وإنما أوثرت» إلى آخره، لا يراد بـ «ما» ولا «من» الموصولتين، معنى الوصلية^(١)، لأنهما لا يوصف بهما «ما» دون «من».

وقوله «في كلامهم» إلى آخره، تأوله أصحابنا على أن «سبحان» علم، و «ما» مصدرية ظرفية.

قال شهاب الدين^(٢): أما ما رد به عليه من كونه يعود على ما يفهم من السياق، فليس يصلح ردّاً؛ لأنه إذا دار الأمر بين عوده على ملفوظ وبين غير ملفوظ به، فعوده على الملفوظ به أولى؛ لأنه الأصل وأما قوله: فلا ينفرد به «ما» دون «من»، فليس مراد الزمخشري أنها توصف بها وصفاً صريحاً، بل مراده أنها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته، ولذلك مثل النحويون بقوله تعالى: ﴿فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٣].

وقالوا: تقديره: فانكحوا الطيب من النساء، ولا شك أن هذا الحكم تنفرد به «ما» دون «من».

قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا﴾. أي: وطحوها، وقيل: ومن طحاها: أي بسطها، قال عامة المفسرين: أي دحاها.

قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد، أي: بسطها من كل جانب^(٣).

وَالطَّخُّ: البسط، طحا، يطحو، طحوأ، وطحى يطحى طحياً، وطحيت:

(١) في أ: الوصفية. (٢) ينظر الدر المصون ٥٣١/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠١/١٢) عن مجاهد وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠١/٦) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

اضطجعت، عن أبي عمرو، وعن ابن عباس: طحاها: أي قسمها^(١)، وقيل: خلقها؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥٢٢٠ - وَمَا تَذْرِي جَذِيمَةً مِّنْ طَحَاها وَلَا مَن سَاكِنُ الْعَرْشِ الرَّفِيعِ^(٢)

قال الماوردي: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خلق عليها.

ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطاحي، أي: المشرق المرتفع.

قال أبو عمرو: طحا الرجل إذا ذهب في الأرض، يقال: ما أدري أين طحا؟.

ويقال: طحا به قلبه، إذا ذهب به في كل شيء؛ قال علقمة: [الطويل]

٥٢٢١ - طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ^(٣)

قال ابن الخطيب^(٤): وإنما أخر هذا عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا بَنَيْنَا﴾ لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾.

قوله ﴿وَقَسَّ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾. قيل: المعنى، وتسويتها، ف «ما» مصدرية.

وقيل: المعنى، ومن سواها، وهو الله تعالى، قيل: المراد بالنفس: آدم عليه الصلاة والسلام.

وقيل: كل نفس منفوسة، فما التنكير إلا لتعظيمها، أي نفس عظيمة، وهي نفس آدم عليه الصلاة والسلام وإما للتكثير، كقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، و «سَوَّى» بمعنى هيا.

وقال مجاهد: سَوَّى خلقها وعدَّل، وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم، أي أقسم الله تعالى بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه - سبحانه وتعالى -.

قوله: ﴿فَالْقَمَرَ جُورَهَا﴾ أي: عَرَفَهَا طريقَ الفجور والتقوى، قاله ابن عباس ومجاهد^(٥).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠٦/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٠) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر القرطبي ٥/٢٠.

(٣) صدر بيت لعلقمة الفحل، وعجزه:

يعيد الشباب عصر حان مشيب

ينظر ديوانه ص ٣٣، والأضداد ص ١٤٩، وخزانة الأدب ٤/٣٩٢، ١١/٢٨٩، وجمهرة اللغة ص ٩٩، ووصف المباني ص ٣٥٤، والمفضليات ص ٣٩١، وابن الشجري ٢/٢٦٧، ومعاهد التنخيص ٦٣/١، والدر المصون ٦/٥٣١.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٧٤.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠١) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد أيضاً: عرفها الطاعة والمعصية^(١).

[وعن محمد بن كعب - رضي الله عنه - إذا أراد الله تعالى لعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ألهم المؤمن التقى تقواه وألهم الكافر فجوره^(٣)، وعن قتادة: بين لها فجورها وتقواها^(٤)، والفجور والتقوى مصدران في موضع المفعول^(٥).

قال الواحدي: الإلهام هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً، وإذا أوقع في قلبه فقد ألزمه إياه، من قولهم: لهم الشيء وألهمه: إذا بلغه، وألهمته ذلك الشيء، أي أبلغته، هذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد لأنه كالإبلاغ.
قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنه جواب القسم، والأصل: لقد وإنما حذف لطول الكلام، والثاني: أنه ليس بجواب، وإنما جيء به تابعاً لقوله تعالى: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، فالجواب محذوف، تقديره [ليدمرن]^(٦) الله عليهم، أي: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً - عليه الصلاة والسلام - قال، معناه الزمخشري^(٧). وقد ر غيره: لتبعثن.

وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف، والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها.

وفاعل «زكاها» و «دساها»، الظاهر أنه ضمير «من».

وقيل: ضمير الباري تعالى، أي: أفلح وفاز من زكاها بالطاعة، وقد خاب من دساها أي: خسرت نفس دساها الله تعالى بالمعصية، وأنحى الزمخشري على صاحب هذا القول لمنافرتة مذهبه^(٨).

قال شهاب الدين^(٩): والحق أنه خلاف الظاهر، لا لما قال الزمخشري، بل لمنافرة نظمه للاحتياج إلى عود الضمير على النفس مقيدة بإضافتها إلى ضمير «من».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٢/١٢) عن ابن عباس ومجاهد والضحاك.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥١/٢٠). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٢/١٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠١/٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) سقط من ب. (٦) في ب: فددم.

(٧) ينظر: الكشاف ٧٦٠/٤. (٨) ينظر السابق.

(٩) الدر المصون ٥٣٢/٦.

وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها الله وأغواها.

وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، «وخاب» خسر من دس نفسه في المعاصي. قاله قتادة.

وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه تزكى الزرع إذا كثر معه، ومنه تزكية القاضي الشاهد، لأنه يرفعه بالتعديل.

وقيل: دساها: أغواها، قال: [الطويل]

٥٢٢٢ - وَأَنْتَ الَّذِي دَسَيْتَ عَمْرًا فَأُضْبَحَتْ حَلَالُهُ مِنْهُ أُرَامِلَ ضُيْعًا^(١)

قال أهل اللغة: والأصل، دسها، من التدسيس [فكثرت الأمثال فأبدل من ثالثها حرف علة كما قالوا: قصيت أظفاري وأصله قصصت، وتقضي البازي، والتدسية: الإخفاء يعني أخفاه بالفجور، وقد نطق بالأصل الشاعر المتقدم. وقال آخر: [الكامل]

٥٢٢٣ - وَدَسَسْتَ عَمْرًا فِي الثَّرَابِ فَأُضْبَحَتْ [٢] (٣)

[وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياء. وقال ابن الأعرابي: «وَقَدْ خَابَ مِنْ دَسَاهَا» أي: دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم]^(٤).

قال الواحدي: فكأنه - تعالى - أقسم على فلاح من طهره وخساره من خذله لثلا يظن أن المراد بتولي ذلك من غير قضاء سابق، فقوله: «قَدْ أَفْلَحَ»: هو جواب القسم.

قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ نُمُودٌ يَطْعُونَهَا﴾ (١١) إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

قوله: ﴿كَذَبَتْ نُمُودٌ يَطْعُونَهَا﴾. في هذه الباء ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها للاستعانة مجازاً، كقولك: «كتبته بالقلم»، وبه بدأ الزمخشري^(٥)، يعني فعلت التكذيب بطغيانها، كقولك: ظلمني بجرأته على الله تعالى.

والثاني: أنها للتعدي، أي كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغيان، كقوله تعالى: ﴿فَأَعْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] قال ابن عباس - رضي الله عنه -: وكان اسم

(١) ويروى الشطر الثاني:

نَسَاوَهُمْ مِنْهُمْ أُرَامِلَ ضُيْعُ

ينظر القرطبي ٥٢/٢٠، والبحر ٤٧٢/٨، والدر المصون ٥٣١/٦.

(٣) سقط من ب.

(٥) الكشف ٧٦٠/٤.

(٢) تقدم.

(٤) سقط من أ.

العذاب الذي جاءها الطغوى، لأنه طغى عليهم^(١). قال ابن الخطيب^(٢): وهذا لا يبعد لأن الطغيان مجاوزة [الحد فسمي عذابهم طغوا لأنه كالصيحة مجاوزة]^(٣) للقدر المعتاد. والثالث: أنها للسببية، أي: بسبب طغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

وقال محمد بن كعب: بأجمعها^(٤).

وقيل: مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أشكل بروس الآي. وقيل: إن الأصل «بُطْغِيَانُهَا» إلا أن «فُعَلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واو ليفصل بين الاسم والوصف.

وقرأ العامة: «بطغواها» بفتح الطاء، وهو مصدر بمعنى الطغيان، وإنما قلبت الياء واواً لما تقدم، من الفرق بين الاسم والصفة، يعني أنهم يقرون ياء «فُعَلَى» - بالفتح - صفة، نحو جرياً، وصدياً، ويقلبونها في الاسم، نحو «تَقْوَى، وَشَرَوْى»، وكان الإقرار في الوصف، لأنه أثقل من الاسم والياء أخف من الواو، فلذلك جعلت في الأثقل.

وقرأ الحسن ومحمد^(٥) بن كعب والجحدري، وحماذ: بضم الطاء، وهو أيضاً مصدر، كالرُجْعَى والحسنَى، إلا أن هذا شاذ، إذ كان من حقه بقاء الياء على حالها، كالتُسْقِيَا، وبابها، وهذا كله عند من يقول: «طغيت طغياناً» بالياء، فأما من يقول: «طغوت» بالواو فالواو أصل عنده. قاله أبو البقاء^(٦)، وقد تقدم الكلام على اللغتين في البقرة.

قوله: ﴿إِذْ أُتْبِعَتْ أَشْقَاهَا﴾. يجوز في «إذ» وجهان:

أحدهما: أن تكون ظرفاً لـ «كذبت».

والثاني: أن تكون ظرفاً للطغوى.

و «انبعثت» مطاوع بعثت فلاناً على الأمر فانبعث له، و «أشقاها» فاعل «انبعثت» أي: نهض، والانبعث: الإسراع، وفيه وجهان: أحدهما: أن يراد به شخص معين، روي أن اسمه: قدار بن سالف.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٠٥) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٢) وعزاه للطبري.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ١٧٦/٣١. (٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٠٥) عن محمد بن كعب وينظر تفسير الماوردي (٦/٢٨٥) والقرطبي (٢٠/٥٢).

(٥) ينظر: الكشف ٤/٧٦٠، والمحرم الوجيز ٥/٤٩٨، والبحر المحيط ٨/٤٧٥، والدر المصون ٦/٥٣٢.

(٦) ينظر: الإملاء ٢/٢٨٨.

والثاني: أن يراد به جماعة قال الزمخشري^(١): ويجوز أن يكونوا جماعة للتسوية في «أفعل» التفضيل، إذا أضيف بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وكان يجوز أن يقول: «أشَقَّوْهَا». وكان ينبغي أن يقيد، فيقول: إذا أضيف إلى معرفة، لأن المضاف إلى النكرة حكمه الأفراد والتذكير مطلقاً كالمقترن بـ «من».

فصل

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيْعٌ فِي أَهْلِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» الحديث^(٢).

وروي عن علي - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ: قال له: «أَتَذَرِي من أَشَقَّى الْأَوَّلِينَ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال عليه الصلاة والسلام: «عَاقِرُ النَّاقَةِ»، ثم قال: «أَتَذَرِي من أَشَقَّى الْآخِرِينَ؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فَاتِلْكَ»^(٣).

قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾. إن كان المراد بـ «أشَقَّاهَا» جماعة، فعود الضمير من «لهم» عليهم واضح وإن كان المراد به علماً بعينه، فالضمير من «لهم» يعود على «ثمود»، والمراد برسول الله يعني: صالحاً.

وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ منصوب على التحذير، أي احذروا ناقة الله فلا تقربوها، وإضمار الناصب هنا واجب لمكان العطف، فإن إضمار الناصب يجب في ثلاثة مواضع: أحدها: أن يكون المحذر نفس «إياك» وبابه.

الثاني: أنه يجب فيه عطف.

الثالث: أنه يوجد فيه تكرار، نحو «الأسد الأسد والصبي الصبي»، والحدَر الحدَر.

وقيل: ذروا ناقة الله، كقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤].

وقرأ زيد بن علي: «ناقة الله» رفعاً، على إضمار مبتدأ مضمَر، أي: هذه ناقة الله فلا تتعرضوا لها.

(١) الكشف ٧٦٠/٤.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥/٨) كتاب التفسير: باب سورة الشمس رقم (٤٩٤٢) ومسلم (٢١٩١/٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: باب النار يدخلها الجبارون حديث (٢٨٥٥/٤٩) وأحمد (١٧/٤) والترمذي (٤١٠/٥) رقم (٣٣٤٣) والنسائي في «الكبرى» (٥١٥/٦) والطبري في «تفسيره» (١٢/٦٠٥) من حديث عبد الله بن زمعة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠٢/٦) وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) له شاهد من حديث عمار بن ياسر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٢/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبخاري وأبي نعيم في «الدلائل».

قوله: ﴿وَسُقَيْنَاهَا﴾. أي ذروها وشربها، فإنهم لما اقترحوا الناقة، أخرجها لهم من الصخرة وجعل لهم شرب يوم من بثرهم، ولها شرب يوم مكان ذلك، فشق عليهم، فكذبوه يعني صالحاً - عليه الصلاة والسلام - في وعيدهم بالعذاب.

﴿فَمَقَرُّوْهَا﴾ أي: عقرها الأشقى، وأضاف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله.

قال قتادة: بلغنا أنه لم يعقر حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم^(١).

وقال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس، وهذا خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم، فلهذا لم يقل: أشقيها.

قوله: ﴿فَدَمْدَمَ﴾. الدمدة: قيل: الإطباق، يقال: دمدمت عليه القبر، أي: أطبقته عليه، أي: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ﴿بِذَنِّهِمْ﴾ الذي هو الكفر والتكذيب والعقر. وقال المؤرج: الدمدة: الإهلاك باستئصال.

وروى الضحاك عن ابن عباس: «دمدم عليهم، دمر عليهم ربهم» ﴿بِذَنِّهِمْ﴾ أي: بجرمهم^(٢).

وقال الفراء: «فَدَمْدَمَ» أي: أرجف. وحقيقة الدمدة: تضعيف العذاب وترديده، ويقال: دممت على الشيء: أي: أطبقت عليه، فإذا كرر الإطباق قلت: دمدمت. وفي «الصاح»^(٣): ودمدمت الشيء: إذا ألصقته بالأرض وطحطحته.

[قال القشيري: وقيل دمدمت على الميت التراب أي سويته عليه، والمعنى على هذا فجعلهم تحت التراب فسواها أي فسوى عليهم الأرض، وعلى الأول: فسواها: أي فسوى الدمدة، وقيل: الدمدة حكاية صوت الهدة، وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت على صغيرهم وكبيرهم]^(٤).

وقال ابن الأنباري: دمدم: أي: غضب، والدمدة: الكلام الذي يزعج الرجل ودمدمت الثوب طليته بالصبغ والباء في بذنبهم للسببية.

وقرأ ابن الزبير: «فدهدم» بهاء بين الدالين بدل الميم^(٥)، وهي بمعنى القراءة المشهورة.

قال القرطبي^(٦): «وهما لغتان، كما يقال: امتقع لونه، وانتقع».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٦/١٢) عن قتادة.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥٣/٢٠). (٣) ينظر الصاح ١٩٢١/٥ (دمم).

(٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٤٨٩/٥، والبحر المحيط ٤٧٦/٨، والدر المصون ٥٣٣/٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٥٣/٢٠.

قوله: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾. الضمير المنصوب يجوز عوده على «ثمود» باعتبار القبيلة كما أعاده في قوله تعالى ﴿يَطْفَوْنَهَا﴾ ويجوز عوده على «الدممة» والعقوبة أي: سواها بينهم، فلم يفلت منهم أحد.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾. قرأ نافع^(١) وابن عامر: «فَلَا» بالفاء، والباقون: بالواو، ورسمت في مصاحف المدينة والشام بالفاء، وفي غيرها بالواو، فقد قرأ كل بما يوافق رسم مصحفه..

وروي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ: ولم يخف، وهي مؤيدة لقراءة الواو. ذكره الزمخشري^(٢).

فالفاء تقتضي التعقيب، وهو ظاهر، والواو يجوز أن تكون للحال، وأن تكون لاستئناف الإخبار.

قال القرطبي^(٣): روي أن ابن وهب وابن القاسم قالوا: أخرج إلينا مالك مصحفاً لجده، وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - حين كتب المصاحف، وفيه: «وَلَا يَخَافُ» بالواو وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراق: بالواو، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

وضمير الفاعل في «يَخَافُ» الأظهر عوده على الرب تبارك وتعالى، لأنه أقرب مذكور، وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد، والهاء في «عُقْبَاهَا» ترجع إلى الفعلة، وذلك لأنه تعالى يفعل ذلك بحق، وكل من فعل فعلاً بحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله.

وقيل: المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من أن يوصف بذلك.

وقيل: المعنى أنه بالغ في الإعذار إليهم مبالغة من لا يخاف عاقبة عذابهم.

وقيل: يرجع إلى رسول الله، أي: لا يخاف صالح - عليه الصلاة والسلام - عقبي هذه العقوبة لإنذاره إياهم، ونجاه الله حين أهلكهم.

وقال السدي والضحاك والكلبي: إن الضمير يرجع إلى «أَشْقَاهَا»، أي: انبعث لعقرها والحال أنه غير خائف عاقبة هذه الفعل الشنعاء، وهو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أيضاً^(٤).

في الكلام تقديم وتأخير: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها، وعقبي الشيء: خاتمته.

وروى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِكُلِّ شَيْءٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»^(٥).

(١) ينظر: السبعة ٦٨٩، والحجة ٤٢٠/٦، وإعراب القراءات ٤٩١/٢، وحجة القراءات ٧٦٦.

(٢) الكشف ٧٦١/٤. (٣) الجامع لأحكام القرآن ٥٤/٢٠.

(٤) ينظر القرطبي. (٥٣/٢٠). (٥) تقدم تخريجه.

سورة الليل

مكيّة، وقيل: مدنيّة، وهي إحدى وعشرون آية، وإحدى وسبعون كلمة، وثلاثمائة وعشرة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾. أي: يغطي، ولم يذكر مفعولاً، للعلم به.

وقيل: يغشى النهار.

وقيل: الأرض.

قال قتادة: أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، والنور نهراً والنهار مضيئاً مبصراً^(١).

قال ابن الخطيب^(٢): أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب، ويجيئهم النوم الذي جعله الله تعالى راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ثم أقسم تعالى بالنهار إذا تجلّى، لأن النهار إذا كشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، جاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم والطير والهوام من مكانها، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش، ولو كان كله نهراً لبطلت الراحة، لكن المصلحة في تعاقبهما، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، فقوله ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي: انكشف وظهر وبان بضوئه عن ظلمة الليل. وقرأ العامة: «تَجَلَّى» فعلاً ماضياً، وفاعله ضمير عائذ على النهار.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٠٩/١٢) عن قتادة.

(٢) الفخر الرازي ١٧٩/٣١.

وقرأ^(١) عبد الله بن عمير: «تتجلى» بتاءين، أي: الشمس، وقرأ: «تُجَلِّي»^(٢) بضم التاء وسكون الجيم أي: الشمس أيضاً، ولا بد من عائد على النهار محذوف أي: تتجلى أو تجلى فيه.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾. يجوز في «ما» أن تكون بمعنى «من» على ما تقدم في سورة «والشمس».

قال الحسن: معناه، والذي خلق فيكون قد أقسم بنفسه تعالى^(٣).

وقيل: مصدرية.

قال الزمخشري^(٤): «والقادر: العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد»، وقد تقدم هذا القول، والاعتراض عليه، والجواب عنه في السورة قبلها. وقرأ أبو الدرداء^(٥): «والذكر والأنثى»، وقرأ عبد الله^(٦): «والذي خلق»، وقرأ الكسائي، ونقلها^(٧) ثعلبة عن بعض السلف: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ﴾ بجر الذكر.

قال الزمخشري^(٨): «على أنه بدل من محل ما خلق بمعنى وما خلقه الله، أي: ومخلوق الله الذكر والأنثى، وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم بالخلق، إذ لا خالق سواه».

وقيل: المعنى، وما خلق من الذكر والأنثى، فتكون «من» مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه ويكون قسمه بهم تكريماً لهم وتشريفاً.

قال أبو حيان^(٩): وقد يخرج على توهم المصدر، أي: وخلق الذكر؛ كقوله:

[المقارِب]

٥٢٢٤ - تَطُوفُ الْعُقَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرَّاهِبُ^(١٠)

بجر «الراهب» على توهم النطق بالمصدر، أي: كطوف الراهب انتهى.

(١) ينظر: البحر المحيط ٤٧٧/٨، والدر المصون ٥٣٤/٦.

(٢) ينظر السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦١٠).

(٤) الكشف ٧٦١/٤.

(٥) وزعم الزمخشري وغيره أنها قراءة النبي ﷺ ينظر: الكشف ٧٦١/٤، والمحزر الوجيز ٤٩٠/٥، والبحر المحيط ٤٧٧/٨ وقال أبو حيان: «وما ثبت في الحديث من قراءة «والذكر والأنثى» نقل أحاد، مخالف للسواد؛ فلا يعد قرآناً»، وينظر: الدر المصون ٥٣٤/٦.

(٦) ينظر: الدر المصون ٥٣٤/٦.

(٧) ينظر: المحزر الوجيز ٤٩٠/٥، والبحر المحيط ٤٧٧/٨، والدر المصون ٥٣٤/٦.

(٨) الكشف ٧٦٢/٤.

(٩) ينظر البحر المحيط ٤٧٧/٨.

(١٠) ويروى الشطر الثاني:

كطوف النصاري بببيت الوثن

ينظر ديوان الأعشى ص ٢٠٩، والبحر ٤٧٧/٨، والدر المصون ٥٣٥/٦.

والذي يظهر في تخريج البيت أن أصله: الراهبي - بياء النسب - ثم خفف، وهو قليل، كقولهم: أحمر، وداودي، وهذا التخريج بعينه في قول امرئ القيس: [الطويل]
 ٥٢٢٥ - فَقِيلَ فِي مَقِيلٍ نَحْسُهُ مُتَغَيِّبٌ^(١)

لما استشهد به الكوفيون على تقديم الفاعل.

وروي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يقرأ: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ وَالذَّكْرُ وَالْأُنْثَىٰ﴾ ويسقط ﴿وَمَا خَلَقَ﴾.

وفي صحيح مسلم عن علقمة، قال: قدمنا «الشام»، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا، قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قال: سمعته يقرأ «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى، والذكر والأنثى» قال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وَمَا خَلَقَ» فلا أتابعهم^(٢).

وقال ابن الأنباري: حدثنا محمد بن يحيى المروزي بسنده إلى عبد الله، قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»^(٣).

قال ابن الأنباري: كل من هذين الحديثين مردود بخلاف الإجماع له، وإن حمزة وعاصمًا يرويان عن عبد الله بن مسعود فيما عليه جماعة من المسلمين، وموافقة الإجماع أولى من الأخذ بقول واحد يخالفه الإجماع.

فصل في المراد بالذكر والأنثى

قليل المراد بالذكر والأنثى، آدم وحواء - عليهما الصلاة والسلام - قاله ابن عباس والحسن والكلبي^(٤).

وقيل: جميع الذكور والإناث من جميع الحيوانات.

(١) عجز بيت وصدره:

فَقُلْ لَنَا يَوْمَ لَئِيْذٍ بِنِعْمَةِ

ينظر ديوان امرئ القيس ص (٣٧)، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١/١٦٠، والدر المصون ٥٣٥/٦.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧/٨) كتاب التفسير، باب: والنهار إذا تجلّى رقم (٤٩٤٣)، وأحمد (٤٤٩/٦) والترمذي (١٧٥/٥) رقم (٢٩٣٩) والنسائي في «الكبرى» (٥١٦/٦) والطبري في «تفسيره» (١٢/٦١٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٤/٦) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥٥/٢٠) وعزاه إلى ابن الأنباري.

(٤) ينظر تفسير الماوردي (٢٨٧/٦) والقرطبي (٥٦/٢٠).

وقيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته.

فصل في معنى الآية

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾. هذا جواب القسم، والمعنى: إن أعمالكم لتختلف، [ويجوز أن يكون محذوفاً كما قيل في نظائره المتقدمة، وشتى واحدة شتيت مثل مريض ومرضى، وإنما قيل للمختلف: شتى؛ لتباعد ما بين بعضه وبعضه، أي إن أعمالكم المتباعدة بعضه عن بعض لشتى، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى أي: فمنكم مؤمن، وبر، وكافر، وفاجر، ومطيع، وعاص.

وقيل: لشتى أي: لمختلف الجزاء فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار وقيل لمختلف الأخلاق، فمنكم راحم وقاسي وحليم وطائش وجواد وبخيل^(١).

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أبي بكر - رضي الله عنه - وأبي سفيان.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (٦) ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْيسْرِ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ (٩) ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرِ﴾ (١٠) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١١).

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾. قال ابن مسعود - رضي الله عنه - يعني أبا بكر^(٢)، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ أي: بذل واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخلف من الله تعالى على عطائه ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْيسْرِ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ غَرِبَتْ شَمْسُهُ إِلَّا بُعِثَ بِجَنَّتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلْفاً، وَأَعْطِ مُمْسِكاً تَلْفاً»^(٣).

وأُنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾... الآيات.

فصل

حذف مفعول «أعطى» ومفعول «اتقى»، ومفعول «صدق» المجرور بـ «على»، لأن الغرض ذكر هذه الأحداث دون متعلقاتها، وكذلك متعلقات البخل والاستغناء، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرِ﴾ إما من باب المقابلة لقوله ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْيسْرِ﴾ وإما نيسره: بمعنى نهيه، والتهيئة تكون في العسر واليسر.

(١) سقط من: ب.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (٣/٣٠٤) كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى فأما من أعطى واتقى رقم (١٤٤٢) ومسلم (٢/٧٠٠) كتاب الزكاة، باب: في المنفق والمسك حديث (٥٧/١٠١٠) من حديث أبي هريرة.

فصل في المراد بالإعطاء

قال المفسرون: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» المعسرين.

وقال قتادة: أعطى حق الله الواجب^(١).

وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى، أي بلا إله إلا الله، وهو قول ابن عباس والضحاك والسلمي رضي الله عنهم^(٢).

وقال مجاهد: بالجنة؛ لقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٣) [يونس: ٢٦].

وقال زيد بن أسلم: في الصلاة والزكاة والصوم^(٤).

وقوله: «فَسَيُسْرُهُ لَلْيُسْرَى» أي نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها.

وقال زيد بن أسلم: لليسرى؛ للجنة.

قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ - تَعَالَى - مَدْخَلَهَا» فقال القَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابَتِنَا؟ فَقَالَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «بَلْ اْعْمَلُوا فِكْلٌ مُّيسَّرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَإِنَّهُ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى»^(٥).

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى﴾. أي: ضنَّ بما عنده فلم يبذل خيراً، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿فَسَيُسْرُهُ لَلْيُسْرَى﴾، قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال نزلت في أمية بن خلف. وعن ابن عباس: «وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى»، أي: بخل بماله واستغنى عن ربه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخلف الذي وعده الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾^(٦) [سبأ: ٣٩].

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦١٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٢٨٨) والقرطبي (٢٠/٥٦).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦١٢، ٦١٣) عن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٥) عن أبي عبد الرحمن السلمي وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه الطبري «تفسيره» (١٢/٦١٤) عن ابن عباس.

[وقال مجاهد: وكذب بالحسنى أي بالجنة، وعنه: بلا إله إلا الله^(١). فنيسه للعسرى أي نسهل عليه طريقة العسرى للشر، وعن ابن مسعود: أي للنار]^(٢). قوله: ﴿فَسَيَرُّ لِّلْعُسْرَى﴾ يدل على أن التوفيق والخذلان من الله تعالى لأن التيسير يدل على الرجحان ولزم الوجوب، لأنه لا واسطة بين الفعل وترك، ومع الاستواء لا ترجيح فحال المرجوحية أولى بالامتناع، ومتى امتنع أحد الطرفين وجب الآخر إذ لا خروج عن النقيضين. أجاب القفال^(٣): أنه من باب تسمية أحد الضدين باسم الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠] فسمى الله الألفاظ الداعية إلى الطاعة تيسيراً لليسرى، وسمى ترك هذه الألفاظ تيسيراً للعسرى، أو هو من باب إضافة الفعل إلى السبب دون الفاعل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَصْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أو يكون على سبيل الحكم، والإخبار عنه.

وأجيب بأن هذا كله عدول عن الظاهر، والظاهر من جهتنا وهو المقصود من الحديث المتقدم: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَّنْفُوسَةٍ». قال القفال^(٤): معنى الحديث: أن النَّاسَ خلقوا للعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا ضعيف؛ لأن هذا جواب عن قولهم: «ألا نتكل؟» فقال: اعملوا فكل ميسر، لما وافق معلوم الله تعالى.

فصل في اليسرى والعسرى

التأنيث في «اليسرى» و «العسرى» إن أريد جماعة الأعمال فظاهر، وإن أريد عمل من الأعمال باعتبار الخصلة، أو الفعلة، أو الطريقة، فمن فسر اليسرى بالجنة، فتيسيرها بإكرام، وسهولة، ومن فسرهما بالخير، فتيسيره حظه عليه ونشاطه، بخلاف المنافق والمرائي، ودخلت السين في «فَسَيَرُّهُ» بمعنى الترجي، وهذا يفيد القطع من الله تعالى، أو لأن الأعمال بالخواتيم، فقد يعصي المطيع، وبالعكس، أو لأن أكثر الثواب يكون بالآخرة، وهي متأخرة.

قوله: ﴿وَمَا يَتَّقِي﴾، يجوز أن تكون «ما» نافية، أي: لا يغني عنه ماله شيئاً، وأن تكون استفهاماً إنكارياً، أي: أي شيء يغني عنه ماله إذا هلك، ووقع في جهنم وتردى، ويروى إما من الهلاك يقال: ردى الرجل يردى، إذا هلك؛ قال: [الطويل]

٥٢٢٦ - صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى^(٥)

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦١٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) سقط من ب. (٣) ينظر: الفخر الرازي ١٨٢/٣١.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ١٨٢/٣١. (٥) ينظر القرطبي ٥٨/١٩.

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: تردى: أي سقط في جهنم، ومنه «المرتدية»، ويقال: ردى من في البئر وتردى: إذا سقط في بئر أو نهر أو من جبل، ويقال: ما أدري أين ردى أي أين ذهب.

ويحتمل أن يكون من تردى، وهو كناية عن الموت؛ كقوله: [الكامل]

٥٢٢٧ - وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ مَضْجَعِي وَرُدَّا عَلَيَّ عَيْنِي فَضَلَّ رِدَائِيَا^(١)

وقول الآخر: [الطويل]

٥٢٢٨ - نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدُّهْرُ كُلُّهُ رِدَاءُ إِنْ تُلَوَّى فِيهِمَا وَخُتُوطُ^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۚ فَأَنْذَرْنَكَ نَارًا تَلْظَنُ ۚ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۚ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۚ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۚ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۖ إِلَّا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ وَلَسَوْفَ يَرَىٰ ۙ﴾

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، أن نبين طريق الهدى، من طريق الضلال، فالهدى بمعنى بيان الأحكام قاله الزجاج: أي: على الله بيان حلاله، وحرامه، وطاعته ومعصيته، وهو قول قتادة.

وقال الفراء: من سلك الهدى، فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى ﴿تَقِيكُمْ الْهَرَجَ﴾ وهي تقي الحر وهي تقي البرد، قاله الفراء أيضاً. وهو يروى عن ابن عباس رضي الله عنه.

فصل

لما عرفهم سبحانه أن سعيهم شتى، وبين ما للمحسنين من اليسرى، وللمسيئين من العسرى أخبرهم أنه قد مضى ما عليه من البيان، والدلالة، والترغيب، والترهيب، أي: إن الذي يجب علينا في الحكمة إذا خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم وجوه التعبد، ونبين المتعبد به.

قالت المعتزلة: إباحة الأعذار تقتضي أنه تعالى كلفهم بما في وسعهم وطاقتهم.

وأيضاً فكلمة «على» للوجوب، وأيضاً: فلو لم يستقل العبد بالإيجاد، لم يكن في نصب الأدلة فائدة، وجوابهم قد تقدم.

وزاد الواحدي: أن الفراء، قال: إن معنى: إن علينا للهدى والإضلال، فحذف المعطوف كقوله تعالى: ﴿سَرِيلٌ تَقِيكُمْ الْهَرَجَ﴾ [النحل: ٨١]، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، يريد: أرشد أوليائي للعمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي أن

(١) البيت لمالك بن الربيع التميمي ينظر الجمهرة (٦١٠)، والبحر ٤٧٨/٨، والدر المصون ٥٣٥/٦.

(٢) ينظر البحر ٤٧٨/٨ والدر المصون ٥٣٥/٦.

يعملوا بطاعتي، وهو معنى الإضلال، ورد المعتزلة هذا التأويل بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ [النحل: ٩]، وتقدم جوابهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾، أي: لنا كل ما في الدنيا، والآخرة، فلا يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤكم بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم، ولو شئنا لمنعناكم عن المعاصي لكن ذلك يخل بالتكليف، بل نمنعكم بالبيان والتعريف، والوعد والوعيد، ونكون نحن نملك الدارين، فليطلب منا سعادة الدارين؛ فالأول أوفق لقول المعتزلة، والثاني أوفق لقولنا.

وروى أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] فمن طلبهما من غير مالهما فقد أخطأ الطريق^(١).

قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾. قد تقدم في «البقرة»: أن البري يشدد^(٢) مثل هذه التاء، والتشديد فيها عسر لالتقاء الساكنين فيهما على غير حدهما، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ [الطور: ١٥] وقد تقدم.

وقال أبو البقاء^(٣): يقرأ بكسر التنوين، وتشديد التاء، وقد ذكر وجهه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] انتهى. وهذه قراءة غريبة، ولكنها موافقة للقياس من حيث إنه لم يلتق فيها ساكنان وقد ذكر وجهه، أي الذي قاله في «البقرة»، ولا يفيد هنا شيئاً ألبتة فإنه قال هناك: «ويقرأ بتشديد التاء، وقبله ألف، وهو جمع بين ساكنين، وإنما سوغ ذلك المد الذي في الألف».

وقرأ ابن الزبير، وسفيان^(٤)، وزيد بن علي، وطلحة: «تَلْظَى» بتاءين وهو الأصل. قال القرطبي^(٥): «وهي قراءة عبد الله بن عمير ويحيى بن يعمر».

فصل في معنى الآية

المعنى: خوفتكم، وحذرتكم ناراً تَلَظَى، أي: تلهب، وتوقد، وتوهج، يقال: تَلْظَتِ النار تَلَظِيًا، ومنه سميت جهنم: لظى. قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾، أي: لا يجد صلاها، وهو حرها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾، أي: الشقي.

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥٨/٢٠).

(٢) ينظر: السبعة ٦٩٠، والحجة ٤٢١/٦، وإعراب القراءات ٤٩٣/٢، والمحذر الوجيز ٤٩٢/٥، والبحر المحيط ٤٧٨/٨، والدر المصون ٥٣٥/٦.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/٢٨٨.

(٤) ينظر: المحذر الوجيز ٤٩٢/٥، والبحر المحيط ٤٧٨/٨، والدر المصون ٥٣٥/٦.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٥٩/٢٠.

قيل: الأشقى، والأتقى، بمعنى الشقي والتقّي، ولا تفضيل فيهما، لأن النار مختصة بالأكثر شقاء، وتجنبها ليس مختصاً بالأكثر تقوى.

وقيل: بل هما على بابهما، وإليه ذهب الزمخشري، فإنه قال^(١): فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾، وقد علم أن كل شقي يصلها، وكل تقّي يجنبها، لا يختص بالصلي أشقى الأتقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار، فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشقى، فما تصنع بقوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ فقد علم أن أفسق المسلمين يجب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة.

قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين؛ فقيل: الأشقى، وجعل: مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل وأمّية بن خلف وأبو بكر - رضي الله عنه.

قال: جوابه المراد بهما شخصان معينان. انتهى.

فصل

قال المفسرون: المراد بالأشقى، والشقي: الذي «كذب» نبي الله ﷺ «وتولّى» أعرض عن الإيمان.

وقال الفراء: معناه إلا مَنْ كان شقيّاً في علم الله تعالى.

قال بعضهم: «الأشقى» بمعنى الشقي؛ كقوله: [الطويل]

٥٢٢٩ - لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ^(٢)

«بأوحد»، أي: بواحد، ووحيد، ويوضع «أفعل» موضع «فعليل» نحو قولهم: «اللَّهُ أَكْبَرُ» بمعنى كبير وهو أهون عليه بمعنى هين، قالت المرجئة: الآية تدل على أن الوعيد مختص بالكافر.

والجواب: المعارضة بآيات الوعيد.

وأيضاً: فهذا إغراء بالمعاصي، وأيضاً، فقوله تعالى بعده: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ يدل على ترك هذه الظاهرة؛ لأن الفاسق ليس «بأتقى» فالمراد بقوله تعالى: ﴿نَارًا تَلْقَى﴾ أنها مخصوصة من بين النيران؛ لأن النار دركات، ولا يلزم من هذا أن الفاسق لا يدخل النار أصلاً، والمراد لا يصلها بعد الاستحقاق.

(١) ينظر: الكشاف ٤/٧٦٣، ٧٦٤.

(٢) عجز بيت لطرفة بن العبد وتماهه:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ينظر القرطبي ٢٠/٥٩.

وأجاب الواحدي: بأن معنى «لا يَصْلَاهَا»: لا يلزمها، وهذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر.

قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾، أي: يبعد عنها الأتقى، أي: التقى الخائف.

قال ابن عباس: وهو أبو بكر - رضي الله عنه^(١) -، ثم وصف الأتقى، فقال سبحانه: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلب بذلك رياء، ولا سمعة بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله.

قوله: «يَتَزَكَّى». قرأ العامة: «يَتَزَكَّى» مضارع «تَزَكَّى».

والحسن^(٢) بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم -: «يَزَكَّى» بإدغام الياء في الزاي، وفي هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها في موضع الحال من فاعل «يُؤْتِي»، أي: يؤتيه متزكياً به.

والثاني: أنها لا موضع لها من الإعراب على أنها بدل من صلة «الذي»، ذكرهما الزمخشري^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾، أي: ليس يتصدق ليجازى على نعمة بل يبتغي وجه ربه الأعلى، أي: المتعالي، و «تجزى» صفة لـ «نِعْمَةٍ»، أي: تجزى الإنسان، وإنما جيء به مضارعاً مبنياً للمفعول، لأجل الفواصل؛ إذ الأصل: يجزيها إياه أو يجزيه إياها.

قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾. في نصب «إِلَّا ابْتِغَاءَ» وجهان:

أحدهما: أنه مفعول له قال الزمخشري^(٤): «ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى؛ لأن المعنى: لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه، لا لمكافأة نعمة». وهذا أخذه من قول الفراء، فإنه قال: ونصب على تأويل: ما أعطيتك ابتغاء جزائك، بل ابتغاء وجه الله تعالى.

والثاني: أنه منصوب على الاستثناء المنقطع، إذ لم يندرج تحت جنس «مِنْ نِعْمَةٍ» وهذه قراءة العامة، أعني: النصب، والمد.

وقرأ يحيى^(٥): برفعه ممدوداً على البدل من محل «نِعْمَةٍ»؛ لأن محلها الرفع، إما على الفاعلية، وإما على الابتداء، و «من» مزيدة في الوجهين، والبدل لغة تميم؛ لأنهم يجرون المنقطع في غير الإيجاب مجرى المتصل، وأنشد الزمخشري^(٦) بالوجهين: النصب؛ والبدل قول بشر بن أبي خازم: [البسيط]

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٠٧/٦) وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤٧٩/٨، والدر المصون ٥٣٦/٦.

(٣) ينظر: الكشف ٧٦٤/٤. (٤) السابق ٧٦٥/٤.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٤٧٩/٨، والدر المصون ٥٣٦/٦.

(٦) الكشف ٧٦٤/٤.

٥٢٣٠ - أَضَحَّتْ خَلَاءَ قِفَارًا لَا أُنِيسَ بِهَا إِلَّا الْجَاذِرَ وَالظُّلْمَانَ تَخْتَلِفُ^(١)

وقول القائل في الرفع: [الرجز]

٥٢٣١ - وَبَلَدَةٍ لَيْسَ بِهَا أُنِيسُ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَالْأَعْيَسُ^(٢)

وفي التنزيل: ﴿مَا قَمَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

وقال مكِّي: «وأجاز الفراء الرفع في «ابتغاء» على البدل من موضع «نعمة»، وهو بعيد».

قال شهاب الدين^(٣): «كانه لم يطلع عليها قراءة، واستبعاده هو البعيد، فإنها لغة فاشية».

وقرأ ابن أبي^(٤) عيلة: «ابتغا» بالقصر.

فصل في سبب نزول الآية

روى عطاء، والضحاك عن ابن عباس، قال: عَذَّبَ المشركون بلالاً، وبلال يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ فَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَحَدٌ، يَعْنِي اللَّهُ يُنَجِّيكَ بِهَا»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ بِلَالاً يُعَذَّبُ فِي اللَّهِ»، فَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ الَّذِي يُرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَانصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَخَذَ رَظْلًا مِنْ ذَهَبٍ وَمَضَى بِهِ إِلَى أُمِيَّةَ بِنِ خَلْفٍ، فَقَالَ لَهُ: أَتَبِيعَنِي بِلَالًا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاشْتَرَاهُ، فَأَعْتَقَهُ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَا لِيَدٍ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ، فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ﴾، أَي: عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ «مِنْ نِعْمَةٍ» أَي: مَزِيَّةٍ وَمَتَّةٍ «تُجْزَى» بَلْ ابْتَغَى بِمَا فَعَلَ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى^(٥).

قال بعضهم: المراد ابتغاء ثوابه وكرامته لأن ابتغاء ذاته محال، وقال بعضهم: لا حاجة إلى هذا الإضمار، بل حقيقة هذه المسألة ترجع إلى أن العبد هل يمكن أن يحب ذات الله، والمراد من هذه المحبة ذاته، وكرامته. ذكره ابن الخطيب^(٦).

(١) ينظر الكشف ٧٦٤/٤، والقرطبي ٦٠/٢٠، والبحر ٤٧٩/٨ والدر المصون ٥٣٦/٦.

(٢) البيت لجبران العود، واسمه عامر بن الحارث. ينظر الديوان ص ٥٣ والكتاب ٤٥٣/١، ٣٢٢/٢، والمقتضب ٦١٩/٢، ٣٤٦، ٤١٤، وابن يعيش ٨٠/٢، ١١٧، ٢١/٧، ٥٢/٨، والأشموني ٢/١٤٧، والتصريح ٣٥٣/١، والهمع ٢٢٥/١، ١٤٤/٢ والدرر اللوامع ١٩٢/١، ٢٠٢/٢، والعيني ١٠٧/٢، ومعاني القرآن للفراء ٢٧٣/٣ والكشاف ٧٦٤/٤، والبحر ٤٧٩/٨، والقرطبي ٦٠/٢٠ والدرر المصون ٥٣٦/٦.

(٣) الدر المصون ٥٣٦/٦.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٤٧٩/٨، والدر المصون ٥٣٦/٦.

(٥) ينظر تفسير البغوي (٤٩٦/٤) والقرطبي (٦٠/٢٠).

(٦) ينظر: الفخر الرازي ١٨٧/٣١.

والأعلى من نعت الرب الذي استحق صفات العلو، ويجوز أن يكون ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة^(١).

قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. هذا جواب قسم مضمر، والعامّة: على «يرضى» مبنياً للفاعل وقرئ^(٢): بينائه للمفعول، من أرضاه الله تعالى.

[وهو قريب من قوله تعالى في آخر سورة طه ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾]^(٣) [طه: ١٣٠].

ومعنى الآية: سوف يعطيه الله تعالى في الجئة ما يرضى، بأن يعطيه أضعاف ما أنفق.

قال ابن الخطيب^(٤): وعندي فيه وجه آخر، وهو أن المراد أنه إنما طلب رضوان الله تعالى، وليس يرضى الله عنه، قال: وهذا أعظم من الأول؛ لأن رضا الله أكمل للعبد من رضاه عن ربه، والله أعلم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَاللَّيْلِ﴾ أَغْطَاهُ اللَّهُ حَتَّى يَرْضَى، وعافاه الله تعالى من العُسْرِ، وَيَسِّرَ لَهُ الْيُسْرَ»^(٥).

قال الثعلبي: وإذا ثبت نزولها بـ «مكة» ضعف تأويلها بقصة أبي الدحداح، وقوي تأويلها بنزولها في حق أبي بكر - رضي الله عنه - لأنه كان بـ «مكة»، وإنفاقه بـ «مكة» وقصة أبي الدحداح كانت بالمدينة.

وروي عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، زَوْجَنِي ابْنَتَهُ، وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهَجْرَةِ، وَأَعْتَقَ بِلَالاً مِنْ مَالِهِ»^(٦). والله أعلم.

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٩٢/٥، والبحر المحيط ٤٧٩/٨، والدر المصون ٥٣٦/٦.

(٣) سقط من ب. (٤) الفخر الرازي ١٨٧/٣١.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧١٤) وابن أبي عاصم (٥٧٧/٢) والعقيلي في «الضعفاء» (٢١٠/٤) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٥٥/١) من طريق المختار بن نافع عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن علي مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث يعرف بمختار قال البخاري هو منكر الحديث وقال، ابن حبان كان يأتي بالمناكير عن المشاهير حتى يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لذلك.

سورة الضحى

مكية، وهي إحدى عشرة آية، وأربعون كلمة، ومائة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، تقدم الكلام في «الضحى» والمراد به هنا: النهار، لمقابلته بقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، ولقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، أي: نهاراً.

وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى - عليه الصلاة والسلام - وبليلة^(١) المعراج.

وقيل: «الضحى» هي الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقال القرطبي^(٢): «يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم».

وقيل: الضحى نور الجنة، والليل ظلمة النار.

وقيل: الضحى نور قلوب العارفين كهيئة النهار، والليل سواد قلوب الكافرين كهيئة الليل، أقسم تعالى بهذه الأشياء.

وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضممار مجازه ورب الضحى وسيجيء معناه.

و «سَجَى»، أي: سكن، قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة.

يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة.

ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، ويقال: سَجَا الشَّيْءُ سَجْواً إذا سكن، وسَجَا

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦٢/٢٠). (٢) الجامع لأحكام القرآن ٦٢/٢٠.

البحر سُجُوءًا، أي: سكنت أمواجه وطرف ساج، أي: فاتر، ومنه استعير تسجية الميت، أي: تغطيته بالشوب؛ قاله الراغب.

وقال الأعشى: [الطويل]

٥٢٣٢ - فَمَا ذُنُبُنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكُمْ وَيَخْرُكَ سَاجَ مَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا^(١)

وقال الفراء: أظلم.

وقال ابن الأعرابي: اشتد ظلامه.

وقال الشاعر: [الرجز]

٥٢٣٣ - يَا حَبِذَا الْقَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجُ وَطُرُقُ مِثْلُ مُلَاءِ النَّسَاجِ^(٢)

[قال الضحاك: سجا غطى كل شيء^(٣).

قال الأصمعي: سجو الليل؛ تغطيته النهار، ومثل ما يسجى الرجل الشوب.

وعن ابن عباس: سجا أدبر، وعنه: أظلم^(٤).

وقال سعيد بن جبير: أقبل^(٥).

وعن مجاهد: سَجَا: استوى^(٦).

والقول الأول أشهر في اللغة، أي: سكن الناس فيه كما قال: نهار صائم وليل

قائم.

وقيل: سكونه استقرار ظلامه، وهو من ذوات الواو، وإنما أميل لموافقة رءوس

الآي، كالضحى، فإنه من ذوات الواو أيضاً^(٧).

فصل

قال ابن الخطيب^(٨): وقدم هنا الضحى، وفي السورة التي قبلها قدم الليل إما لأن لكل منهما أثر عظيم في صلاح العالم، ولليل فضيلة سبق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

(١) ينظر ديوانه ١٠٠، والقرطبي ٦٢/٢٠، والبحر ٨/٤٨٠، ومجمع البيان ١٠/٧٦٣، والدر المصون ٦/٣٧.

(٢) البيت للحارثي ينظر الخصائص ٢/١١٥، وشرح المفصل ٧/١٣٩، ١٤١، ومجاز القرآن ٢/٣٠٢، والطبري ٣٠/١٤٧، والبحر ٨/٤٨٠، ومجمع البيان ١٠/٧٦٢، والدر المصون ٦/٥٣٧.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٦٢/٢٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٢١) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٩).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٢٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٩) وزاد نسبه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) سقط من: ب.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٨٩.

وَالنُّورِ ﴿١﴾ [الأنعام: ١]، وللنهار فضيلة النور، فقدم سبحانه هذا تارة وقدم هذا تارة، كالركوع والسجود في قوله تعالى: ﴿أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَارْكَعْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقيل: قدم الليل في سورة أبي بكر - رضي الله عنه - لأن أبا بكر سبقه كفر، وقدم الضحى في سورة محمد ﷺ لأنه نور محض، ولم يتقدمه ذنب.

وقيل: لما كانت سورة «الليل» سورة أبي بكر - رضي الله عنه - وسورة «الضحى» سورة محمد ﷺ لم يجعل بينهما واسطة، ليعلم أنه لا واسطة بين محمد ﷺ وبين أبي بكر رضي الله عنه.

فصل في ذكر الضحى والليل

قال ابن الخطيب^(١): وذكر الضحى، وهو ساعة، وذكر الليل بجملته، إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل، كما أن محمداً ﷺ يوازن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأيضاً: فالضحى وقت السرور، والليل وقت الوحشة، ففيه إشارة إلى أن سرور الدنيا، أقل من شرورها، وأن هموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة، والليل ساعات، يروى أن الله - سبحانه وتعالى - لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء، ونادت: ماذا أمطر؟ فأجيب أن أمطر الهوم والأحزان مائة عام، ثم انكشفت، فأمرت مرة أخرى بذلك، وهكذا إلى ثلاثمائة سنة، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش. غمامة بيضاء، ونادت ماذا أمطر؟ فأجيب أن أمطر السرور ساعة فهذا ترى الهوم، والأحزان دائمة، والسرور قليلاً ونادراً، وقدم ذكر الضحى لأنه يشبه الحياة، وآخر الليل؛ لأنه يشبه الموت.

قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، هذا جواب القسم، والعامية: على تشديد الدال من التوديع. وقرأ^(٢) عروة بن الزبير وابنه هاشم، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة بتخفيفها، من قولهم: «ودَّعَهُ»، أي: تركه والمشهور في اللغة الاستغناء عن «ودع»، ووذَرَ واسم فاعلها، واسم مفعولها ومصدرها بـ «ترك» وما تصرف منه، وقد جاء «ودع ووذَرَ»؛ قال الشاعر: [الرملة]

٥٢٣٤ - سَلْ أَمِيرِي: مَا الَّذِي غَيَّرَهُ عَنْ وَصَالِي الْيَوْمِ حَتَّى وَدَّعَهُ^(٣)

(١) السابق. (٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٣.

(٣) نسب البيت إلى سويد بن أبي كاهل، ونسب إلى أبي الأسود الدؤلي، وكذلك نسب لأنس بن زنيم ويروى:

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٣٥ - وَثُمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَأَيْتَ أَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ^(١)

قيل: والتوديع مبالغة في الودع؛ لأن من ودعك مفارقاً، فقد بالغ في تركك.

قال القرطبي^(٢): واستعماله قليل يقال: هو يدع كذا، أي: يتركه.

قال المبرد: لا يكادون يقولون: ودع، ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت،

واستغنوا عنهما بـ «ترك».

قوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾، أي: ما أبغضك، يقال: قلاه يقليه - بكسر العين في المضارع -

وتقول: قلاه يقلاه، بالفتح؛ قال: [الهمز]

٥٢٣٦ - أَيَا مَنْ لَسْتُ أَنْسَاهُ وَلَا وَاللَّهِ أَقْلَاهُ

لَكَ اللَّهُ عَلَى ذَاكَ لَكَ اللَّهُ لَكَ اللَّهُ^(٣)

وحذف مفعول «قَلَا» مراعاة للفواصل مع العلم به، وكذا بعد «فَأَوَى» وما بعده.

فصل في «القلَى»

القلَى: البغض، أي: ما أبغضك ربك منذ أحبك، فإن فتحت القاف مددت،

تقول: قلاه يقليه قلَى وقلاء، كما تقول: قريت الضيف أقريه قرى وقراء، ويقلاه: لغة

طبيء. وأنشد:

٥٢٣٧ - أَيَا مَنْ أَمَّ الْقَمَرِ لَا نَقْلَاهَا^(٤)

أي: لا نبغضها، ونقلي: أي: نبغض؛ وقال: [الطويل]

٥٢٣٨ - أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ^(٥)

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

= لَيْتَ شِفْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهُ

ينظر المحتسب ٣٦٤/٢، والخصائص ٩٩/١، وشرح شواهد الشافية ص ٥٠، واللسان (ودع)،

والبحر المحيط ٤٨/٨، والدر المصون ٥٣٧/٦.

(١) ينظر الكشف ٧٦٦/٤، والقرطبي ٦٤/٢٠، والبحر ٤٨٠/٨، والدر المصون ٥٣٧/٦.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٤/٢٠).

(٣) يروى البيت الأول:

أَيَا مَنْ لَسْتُ أَنْسَاهُ وَلَا فِي الْبُغْدِ أَنْسَاهُ

ينظر الدرر ٤٨/٦، وشرح الأشموني ٤٩/٢، وشرح عمدة الحفاظ ص ٥٧٣، والمقاصد النحوية

٩٧/٤، وهمع الهوامع ١٢٥/٢، والدر المصون ٥٣٧/٦.

(٤) ينظر القرطبي ٦٤/٢٠، واللسان (قلا).

(٥) تقدم.

٥٢٣٩ - وَلَسْتُ بِمَقْلَبِي الْخِلَالِ وَلَا قَالَ^(١)

ومعنى الآية : ما ودعك ربك وما قلاك، فترك الكاف، لأنه رأس آية، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِكْرُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَالَّذِكْرُ لِلَّهِ﴾ [الأحزاب : ٣٥] أي : والذاكرات لله .

فصل في سبب نزول الآية

قال المفسرون : انحبس الوحي عن النبي ﷺ اثني عشر يوماً .

وقال ابن عباس : خمسة عشر يوماً [وقيل خمسة وعشرين يوماً .

وقال مقاتل : أربعين يوماً]^(٢) .

فقال المشركون : إن محمداً ﷺ قلاه ربه وودعه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء، فنزلت هذه الآية .

وروى البخاري عن جندب بن سفیان قال : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين، أو ثلاثاً، فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب - لعنة الله عليها - فقالت : يا محمداً، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قريبك منذ ليلتين، أو ثلاث، فأنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾^(٣) .

وروي عن أبي عمران الجوني، قال : أبطأ جبريل على النبي ﷺ حتى شق عليه، فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو، فنكت بين كتفيه، وأنزل عليه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾^(٤) .

وروي أن خولة كانت تخدم النبي ﷺ فقالت : إن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال : «يا خولة ما حدث في بيتي؟ ما لجبريل لا يأتييني؟» قالت خولة : فقلت : لو هيأت البيت، وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جرو ميت، فأخذته، فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله ﷺ ترعد لحياه - وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة - فقال : يا خولة دثريني، فأنزل

(١) عجز بيت وصدده :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى

ينظر ديوانه ص ٣٥، والسان (خلل)، والقرطبي ٦٤/٢٠ .

(٢) سقط من ب .

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠/٨) كتاب التفسير : باب ما ودعك ربك وما قلى، رقم (٤٩٥٠) ومسلم (٣/

١٤٢٢) كتاب الجهاد والسير : باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين رقم (١٧٩٧/١١٥)

والترمذي (٤١١/٥) رقم (٢٣٤٥) والنسائي في «الكبرى» (٥١٨/٦) والطبري في «تفسيره» (١٢/

٦٢٣) من حديث جندب بن عبد الله بن سفیان البجلي . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٦٣/٢٠) .

الله هذه السورة، ولما نزل جبريل سأل النبي ﷺ عن التأخر، فقال: «أما عَلِمْتَ أَنَّا لَا ندخلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ»^(١).

وقيل: لما سأله اليهود عن الروح، وذو القرنين وأهل الكهف، قال النبي ﷺ: «سَأَخْبِرُكُمْ غَدًا» ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي إلى أن نزل جبريل - عليه السلام - بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، فأخبره بما سئل عنه، وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الظاهر في هذه اللام أنها جواب القسم، وكذلك وفي «وَلَسَوْفَ» أقسم الله تعالى على أربعة أشياء: اثنان منفيان، وهما توديعه وقلاه، واثنان مثبتان مؤكدان، وهما كون الآخرة خيراً له من الأولى^(٢)، وأنه سوف يعطيه ما يرضيه. وقال الزمخشري^(٣): «فإن قلت: ما هذه اللام الداخلة على «سَوْفَ»؟»

قلت: هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف، تقديره: وأنت سوف - كما ذكرنا في «لأقسم» أن المعنى: لأنا أقسم - وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم، أو ابتداء، فلام القسم لا تدخل مع المضارع إلا مع نون التوكيد، فبقي أن تكون لام ابتداء، ولام الابتداء، لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ، والخبر، فلا بد من تقدير مبتدأ، وخبره، وأن يكون أصله: ولأنت سوف يعطيك.

ونقل أبو حيّان عنه، أنه قال: «وخلع من اللام دلالتها على الحال» انتهى. وهذا الذي رده على الزمخشري، يختار منه: أنها لام القسم، وقوله: «لا يدخل مع المضارع إلا مع نون التوكيد»، استثنى النحاة منه صورتين: إحداهما: أن لا يفصل بينها وبين الفعل حرف التنفيس كهذه الآية، وكقولك: «والله لسأعطيك».

والثاني: ألا يفصل بينهما بمعمول الفعل، كقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

ويدل لما قلت ما قال الفارسي: ليست هذه اللام هي التي في قولك: «إن زيداً لقائم»، بل هي التي في قولك: «لأقومن» ونابت «سَوْفَ» عن إحدى نوني التأكيد، فكأنه قال: ولنعطيك.

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤١/٧) وقال رواه الطبراني وأم حفص لم أعرفها. وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٩٦/٣) رقم (٣٨٠٦) وعزاه إلى ابن أبي شيبه في «مسنده».

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٠/٦) وزاد نسبه إلى ابن مردويه. (٢) في أ: الدنيا. (٣) الكشف ٤/٧٦٧.

وقوله: «خلع منها دلالتها على الحال» يعني أن لام الابتداء الداخلة على المضارع مخرجة للحال وهنا لا يمكن ذلك؛ لأجل حرف التنفيس، ولذلك خلعت الحالية منها.

وقال أبو حيَّان^(١): واللام في «وللآخرة» لام ابتداء أكدت مضمون الجملة، ثم حكى بعض ما تقدم عن الزمخشري وأبي علي، ثم قال: «ويجوز عندي أن تكون اللام في «وللآخرة خَيْرٌ» وفي «ولسوف يُعطيك» اللام التي يُتلقى بها القسم، عطفهما على جواب القسم، وهي قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، فيكون هذا قسماً على هذه الثلاثة» انتهى.

فظاهره أن هذه اللام في «وللآخرة» لام ابتداء غير متلقى بها القسم بدليل قوله ثانياً: «ويجوز عندي»، ولا يظهر انقطاع هذه الجملة عن جواب القسم ألبتة، وكذلك في «ولسوف»، وتقدير الزمخشري: مبتدأ بعدها لا ينافي كونها جواباً للقسم، إنما منع أن يكون جواباً لكونها داخلة على المضارع لفظاً، وتقديراً.

وقال ابن الخطيب^(٢): فإن قيل: ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير؟.

قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة.

فصل

قال ابن إسحاق: معنى قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، أي: ما عندي من مرجعك إليّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا.

روى علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ روى عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى، وهو قول علي والحسن^(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَنَنْبَغِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وهو قول عيسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغَفَّرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية، فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: «أذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يُبْكِيكَ» فأتى جبريل النبي ﷺ فسأله فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل: «أذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إِنَّا سَرَضْنِيكَ فِي أُمَّتِكَ،

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨١. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣١/ ١٩٤.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١١) وعزاه إلى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١١) عن الحسن وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

ولا نَسُوءُكَ^(١) وقال حرب بن شريح: سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم يا معشر أهل العراق تقولون: إِنَّ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنا نقول ذلك، قال: ولكننا أهل البيت نقول: إن أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وقيل: يعطيك ربك من الثواب، وقيل: من النصر، فترضى. وقيل: الحوض والشفاعة.

فصل في الكلام على انقطاع الوحي

وجه النظم، كأنه قيل: انقطاع الوحي لا يكون عزلاً عن النبوة، بل غايته أنه أمانة الموت للاستغناء عن الرسالة، فإن فُهِمَتْ مِنْهُ قَرَبُ الْمَوْتِ، فَاَلْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى، وفهم النبي ﷺ من الخطاب بقوله: ما ودعك ربك وما قلى تشريفاً عظيماً، فقيل له: «وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى»، أي: أَنَّ الْأَحْوالَ الْآتِيَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْمَاضِيَةِ، فهو وعد بأنه سيزيده عزاً إلى عزّه، وبيان أن الآخرة خيرٌ، كأنه ﷺ يفعل فيها ما يريد، ولأنه أثرها فهي ملكه، وملكه خير مما لا يكون ملكه، أو لأن الكفار يؤذونك وأمتك في الدنيا، وأما في الآخرة فهم شهداء على الناس، أو لأن خيرات الدنيا قليلة مقطوعة، ولم يقل: خير لك، لأن فيهم من الآخرة شر له، فلو ميزهم لافترضوا، ثم أخبر الله تعالى عن حاله التي كان عليها قبل الوحي، وذكره نعمه، فقال:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَحْذَرِكَ يَتِيمًا فَتَاوًى ۖ وَوَحَدَكَ ضَالًّا فَهَدًى ۖ وَوَجَدَكَ عَالِيًا ۖ فَأَغَى ۖ﴾ (٨) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ﴾ (٩) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ﴾ (١٠) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۖ﴾ (١١)

﴿أَلَمْ يَحْذَرِكَ يَتِيمًا فَتَاوًى﴾، العامة على: «فتاوى» بألف بعد الهمزة رباعياً.

وأبو الأشهب^(٢): «فتاوى» ثلاثياً.

قال الزمخشري^(٣): «وهو على معنيين: إما من «أواه» بمعنى «آواه» سمع بعض الرعاة يقول: أين آوى هذه الموقسة؟ وإما من آوى له، إذا رحمه». انتهى.

وعلى الثاني قوله: [الطويل]

٥٢٤٠ - أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ أِيَّةٌ لِنَفْسِي لَقَدْ طَالَ بْتُ غَيْرِ مُنِيلٍ^(٤)

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١/١٩١) كتاب الإيمان: باب دعاء النبي ﷺ لأُمته (٣٤٦ - ٢٠٢) والبخاري في «شرح السنة» (٧/٥٠٨) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٤، والبحر المحيط ٨/٤٨١، والدر المصون ٦/٥٣٨.

(٣) ينظر: الكشف ٤/٧٦٨.

(٤) ينظر اللسان (أوا)، والبحر ٨/٤٨١، وحاشية الدسوقي على المغني ٢/٥١، و٦/٥١٨.

أي: رحمة لنفسي، ووجه الدلالة من قوله «أين آوى هذه»، أنه لو كان من الرباعي [لقال: أأوى - بضم الهمزة الأولى وسكون الثانية - لأنه مضارع آوى مثل أكرم، وهذه الهمزة] المضمومة هي حرف المضارعة، والثانية هي فاء الكلمة، وأما همزة «أفعل» فمحذوفة على القاعدة، ولم تبدل هذه الهمزة كما أبدلت في «أومن» لثلاثي يستثقل بالإدغام، ولذلك نص الفراء على أن «تؤويه» من قوله تعالى ﴿وَفَصَّلَهِ آلِي تَوْيِهِ﴾ [المعارج: ١٣] لا يجوز إبدالها للثقل.

فصل

قال ابن الخطيب^(١): «يَجِدُكَ» من الوجود الذي بمعنى العلم، والمفعولان منصوبان بـ «وجد»، والوجود من الله العلم، والمعنى: ألم يعلمك الله يتيماً فأوى.
قال القرطبي^(٢): «يَتَيْمًا» لا أب لك، قد مات أبوك، «فأوى»، أي: جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك.
وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أؤتم النبي ﷺ من أبويه؟
فقال: لثلاث يكون لمخلوق عليه حق.

وعن مجاهد: هو من قول العرب: درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل، فمجاز الآية ألم يجدك واحداً في شرفك، لا نظير لك، فأواك الله بأصحاب يحفظونك، ويحيطونك.

فصل في جواب سؤال

أورد ابن الخطيب هنا سؤالاً: وهو أنه كيف يحسن من الجواد أن يمن بنعمه، فيقول: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوَى»، ويؤكد هذا السؤال أن الله - تعالى - حكى عن فرعون قوله لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا وَلَدًا﴾ [الشعراء: ١٨] في معرض الذم لفرعون فما كان مذموماً من فرعون، كيف يحسن من الله تعالى؟ قال: والجواب^(٣): أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك تقوية قلبه، ووعده بدوام النعمة، ولهذا ظهر الفرق بين هذا الامتنان، وبين امتنان فرعون، لأن امتنان فرعون معناه: فما بالك لا تخدمني، وامتنان الله تعالى: زيادة نعمه، كأنه يقول: ما لك تقطع عني رجاءك، ألسنت شرعت في تربيتك أتظنني تاركاً لما صنعت، بل لا بد وأن أتم النعمة كما قال تعالى: ﴿وَلَأَيَّمَّ لَيَّمَتِي عَلَىٰكَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

فإن قيل: إن الله تعالى من عليه بثلاثة أشياء، ثم أمره أن يذكر نعمة ربه، فما وجه المناسبة؟

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣١/١٩٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٦٥.

(٣) الفخر الرازي ٣١/١٩٥.

فالجواب: وجه المناسبة أن تقول: قضاء الدين واجب، والدين نوعان: مالي وإنعامي، والإنعامي أقوى وجوباً لأن المال قد يسقط بالإبراء، والإنعامي يتأكد بالإبراء، والمالي يقضى مرة فينجو منه الإنسان، والإنعامي يجب عليه قضاؤه طول عمره، فإذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم، هو مملوك، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم المالك، فكان العبد يقول: إلهي أخرجتني من العدم، إلى الوجود بشراً مستوياً، طاهر الظاهر نجس الباطن، بشارة منك، تستر عليّ ذنوبي بستر عفوك، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حصر لها، فيقول تبارك وتعالى: الطريق إلى ذلك أن تفعل في حق [عبيدي ذلك، وكنت عائلاً، فأغنيتك، فافعل في حق] ^(١) الأيتام ذلك ثم إذا فعلت كل ذلك، فاعلم أنما فعلته بتوفيقي، ولطفي، وإرشادي، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، أي: غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك أي: أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة، لقوله تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يغفل، وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ﴾ [يوسف: ٣] وقيل: معنى قوله: «ضالاً» لم تكن تدري القرآن، والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام، قاله الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] على ما تقدم في سورة الشورى.

وقال السدي والكلبي والفراء: وجدك ضالاً، أي: في قوم ضلال، فهداهم الله بك، أو فهداك إلى إرشادهم ^(٢).

وقيل: وجدك ضالاً عن الهجرة، فهداك وقيل: «ضالاً»، أي: ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف، وذوي القرنين، والروح، فأذكرك، لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقيل: ووجدك طالباً للقبلة فهداك إليها، لقوله تعالى: ﴿قَدْ رَكِبْتَ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب.

وقيل: وجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليهم، ويكون الضلال بمعنى الضياع.

وقيل: ووجدك محباً للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: في محبتك.

قال الشاعر: [الكامل]

٥٢٤١ - هَذَا الضَّلَالُ أَشَابَ مِنِّي الْمَفْرَقَا وَالْعَارِضِينَ وَلَمْ أَكُنْ مُتَحَقِّقَا

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦٥/٢٠).

(١) سقط من ب.

عَجَبًا لَعْرَةً فِي اخْتِيَارِ قَطِيعَتِي بَعْدَ الضَّلَالِ فَحَبَلَهَا قَدْ أَخْلَقَا^(١)
وقيل: ضالاً في شعاب «مكة»، فهذا وردك إلى جدك عبد المطلب.

وقال كعب - رضي الله عنه -: إن حليلة لما قضت حق الرضاع، جاءت رسول الله ﷺ لترده على عبد المطلب، فسمعت عند باب «مكة»: هنيئاً لك يا بطحاء «مكة»، اليوم يرد إليك الدين والبهاء والنور والجمال، قالت: فوضعت له لأصلح ثيابي^(٢)، فسمعت هدة شديدة فالتفت فلم أره، فقلت: معشر الناس، أين الصبي؟ فقالوا: لم نر شيئاً، فصحت: وامحمداه، فإذا شيخ فإن يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أن يرده إليك فعل، ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تنزل منتك على قريش، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل، فرده إن شئت، فانكب هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام؛ وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد، فألقى الشيخ عصاه، وارتعد، وقال: إن لابنك رباً لا يضيعه فاطلبه على مهل، فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع «مكة»، فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرع إلى الله أن يرده؛ وقال: [الرجز]

٥٢٤٢ - يَا رَبِّ، رُدَّ وَلَدِي مُحَمَّداً أَرُدُّهُ رَبِّي وَاضْطَنِعْ عِنْدِي يَدًا^(٣)

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضجوا، فإن لمحمد رباً لا يضيعه ولا يخذله، وإن محمداً بوادي «تهامة»، عند شجرة السمر، فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان وبالورق^(٤).

وفي رواية: فما زال عبد المطلب يردد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقه، ومحمد ﷺ بين يديه، وهو يقول: ألا تدري ماذا جرى من ابنك؟.

فقال عبد المطلب: ولم؟ قال: إني أنخت الناقة، وأركبته خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: رده الله إلى جده وبید عدوه، كما فعل بموسى - عليه الصلاة والسلام - حين حفظه عند فرعون^(٥).

وقال سعيد بن جبیر: خرج النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام ناقته في ليلة ظلماء فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل - عليه السلام - فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض «الهند»، ورده إلى القافلة ﷺ^(٦).

(١) ينظر القرطبي ٦٦/٢٠. (٢) في أ: شأني.

(٣) البيت لعبد المطلب بن هاشم ينظر القرطبي ٦٦/٢٠، والفخر الرازي ٣١/٢١٧.

(٤) ينظر القرطبي ٦٥/٢٠. (٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

وقيل: ووجدك ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل، وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش.

وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق، فقال تعالى لنبيه ﷺ: «وَجَدَكَ ضَالًّا» أي لا أحد على دينك، بل وأنت وحيد ليس معك أحد، فهديت بك الخلق إلي.

وقيل: ووجدك مغموراً في أهل الشرك، فميزك عنهم، يقال: ضل الماء في اللبن، ومنه ﴿أَيُّذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠٠]، أي: لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأننا لا نتميز من جملته وقيل: ضالاً عن معرفة الله حين كنت طفلاً صغيراً، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ سَبِيلًا﴾ فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة، فالمراد من الضال الخالي من العلم لا الموصوف بالاعتقاد، قيل: قد يخاطب النبي ﷺ، والمراد قومه فقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ أي وجد قومك ضالاً فهداهم بك.

وقيل: إنه كان على ما كان القوم عليه لا يظهر لهم في الظاهر الحال، وأما الشرك فلا يظن به بل على مواسم القوم في الظاهر أربعين سنة.

وقال الكلبي والسدي أي وجدك كافراً والقوم كفاراً فهداك، وقد مضى الرد على هذا القول في سورة الشورى.

قوله: ﴿وَوَجَدَكَ غَائِبًا فَأَفَقَّ﴾، العائل: الفقير، وهذه قراءة العامة يقال: عال زيد، أي: افتقر.

قال الشاعر: [الوافر]

٥٢٤٣ - وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْصِلُ^(١)

وقال جرير: [الكامل]

٥٢٤٤ - اللَّهُ أَنْزَلَ فِي الْكِتَابِ فَرِيضَةً لِابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ^(٢)

وقرأ اليماني^(٣): «عَيْلًا» بكسر الياء المشددة كـ «سيد».

وقال ابن الخطيب^(٤): العائل ذو العيلة، ثم أطلق على الفقير لم يكن له عيال،

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح، ينظر مجاز القرآن ٢٥٥/١، واللسان (عيل)، والطبري ١٤٩/٣٠، والقرطبي ٦٧/٢٠، ومجمع البيان ٧٦٣/١٠، والبحر ٤٨٢/٨، والدر المصون ٥٣٩/٦، وفتح القدير ٤٥٨/٥.

(٢) ينظر ديوانه ص ٥٠٣، والقرطبي ٩٧/٢٠، والبحر ٤٨١/٨، والدر المصون ٥٣٩/٦.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٩٤/٥، والبحر المحيط ٤٨١/٨، والدر المصون ٥٣٩/٦.

(٤) الفخر الرازي ١٩٧/٣١.

والمشهور أن المراد به الفقير، ويؤيده ما روي^(١) في مصحف عبد الله: «وَجَدَكَ عَدِيمًا». وقوله تعالى: ﴿فَأَغْنَى﴾، أي: فأغناك خديجة وتربية أبي طالب، ولما اختل ذلك أغناك بمال أبي بكر - رضي الله عنه -، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار - رضي الله عنهم -، ثم أمره بالجهد، وأغناه ﷺ بالغنائم. [وقال مقاتل: أغناك بما أعطاك من الرزق^(٢)].

وقال عطاء: وجدك فقير النفس، فأغنى قلبك، وقيل: فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها^(٣) [٤].

قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. اليتيم منصوب بـ «تَقْهَرْ»، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل؛ ألا ترى أن اليتيم منصوب بالمجزوم، وقد تقدم الجازم، لو قدمت المجزوم على جازمه، لامتنع، لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه، كالمجور لا يقدم على جاره.

وتقدم ذلك في سورة هود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وقرأ العامة: «تَقْهَرْ» بالقاف من الغلبة، وابن مسعود، والشعبي^(٥)، وإبراهيم النخعي والأشهب العقيلي: «تكهر» بالكاف. يقال: كهر في وجهه: أي عبس، وفلان ذو كهرة، أي: عبس الوجه.

ومنه الحديث: «قَبَائِي هُوَ وَأُمِّي فوالله ما كهربي».

قال أبو حيان^(٦): «وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور» انتهى.

والكهـر في الأصل: ارتفاع النهار مع شدة الحر.

وقيل: الكهر: الغلبة، والكهر: الزجر. والمعنى: لا تسلط عليه بالظلم، بل ادفع إليه حقه، واذكر يتمك. قاله الأخفش.

وقال مجاهد: لا تحتقر. وخص اليتيم، لأنه لا ناصر له غير الله تعالى، فغلظ في تأثير العقوبة على ظالمه، والمعنى: عامله كما عاملناك به، ونظيره: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ اللَّهُ فِيمَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ».

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٩٥. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٦٧).

(٣) ينظر: المصدر السابق. (٤) سقط من ب.

(٥) ينظر: الكشف ٤/٧٦٨، والمحرر الوجيز ٥/٤٩٥، والبحر المحيط ٨/٤٨٢، والدر المصون ٦/٥٣٩.

(٦) البحر المحيط ٨/٤٨٢.

فصل

دلت الآية على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى»^(١).
وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا فَكَانَ فِي نَفَقَتِهِ وَكَفَاهُ مِثْلَهُ، كَانَ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).
وقال النبي ﷺ: «مَنْ مَسَحَ بِرَأْسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَجَرَةٍ حَسَنَةٌ»^(٣).

فصل

الحكمة في أن الله تعالى اختار لنبيه اليتيم، أنه عرف حرارة اليتيم، فيرفق باليتيم، وأيضاً لشاركه في الاسم، فيكرمه لأجل ذلك، لقوله - عليه الصلاة والسلام -: «إِذَا سَمَّيْتُمُ الْوَلَدَ مُحَمَّدًا فَأَكْرَمُوهُ وَوَسَّعُوا لَهُ فِي الْمَجْلِسِ» وأيضاً ليعتمد من أول عمره على الله تعالى، فيشبه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في قوله: «حَسْبِيَ مِنْ سُؤَالِي، عِلْمُهُ بِحَالِي».

وأيضاً فالغالب أن اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا فيه عيباً، لم يجدوا فيه مطعناً. وأيضاً جعله يتيماً، ليعلم كل أحد فضيلته ابتداء من الله تعالى، لا من التعليم، لأن من له أب فإن أباه يعلمه، ويؤدبه.

وأيضاً فاليتيم والفقر نقص في العادة، فكونه ﷺ مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلباً للعادة، فكان معجزة ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، أي: فلا تزجره، يقال: نهره، وانتهره إذا زجره، وأغلظ له في القول، ولكن يرده ردّاً جميلاً.

[قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء.]

وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين^(٤).

قال رسول الله ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا، قُلْتُ: يَا رَبِّ، اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَسَخَّرْتَ مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ،

(١) تقدم تخريجه. (٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٠٩٧/٣).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣٩/٨) وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢٠٨/١)، (٢٩٦).

(٤) سقط من: ب.

وَأَعْطَيْتَ فَلَانًا كَذًا فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَمْ أُوتِ أَحَدًا قَبْلَكَ خَوَاتِيمَ سورة البقرة؟ أَلَمْ أَتُخِذْكَ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا؟. قلت: بلى يا رب^(١).

قوله: ﴿وَأَمَّا نِعْمَةَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. الجار متعلق بـ «حَدِّثْ» والفاء غير مانعة من ذلك قال مجاهد: تلك النعمة هي القرآن والحديث^(٢).

وعنه أيضاً: تلك النعمة هي النبوة، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك قيل: تلك النعمة هي أن وفقك الله تعالى، ورعيت حق اليتيم والسائل، فحدث بها؛ ليقتدي بك غيرك.

وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال: إذا عملت خيراً فحدث به الثقة من إخوانك ليقتدوا بك^(٣). إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

وروى مالك بن نضلة الجشمي، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فرآني رثَّ الثياب فقال: «أَلَاكَ مَالٌ؟».

قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال، قال: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيَرِ أثرُهُ عَلَيْكَ».

وقال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أثرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(٤).

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله أخر نفسه على حق اليتيم والسائل؟.

فالجواب: كأنه سبحانه وتعالى يقول: أنا غني، وهما محتاجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم، واختار قوله: «فحدث» على قوله «فخبر» ليكون ذلك حديثاً عنه وينسأه، ويعيده مرة أخرى.

فصل

يكبر القارىء في رواية البزي عن ابن كثير^(٥)، وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، وروى عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ أنه كان إذا بلغ آخر «الضحى» كبر بين كل سورة

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٥٥/١١) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦٣/٧) عن ابن عباس. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٥٦/٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١١/٦) وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم وأبي نعيم في «الدلائل» وابن مردويه وابن عساكر.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٢/٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٢/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن.

(٤) تقدم. (٥) ينظر تفسير القرطبي (٦٩/٢٠).

تكبيرة إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيرة^(١)، بل يفصل بينهما بسكتة، وكان المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ أياماً، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه، وقلاه، فنزلت هذه السورة فقال: «اللَّهُ أَكْبَرُ».

قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبي عن النبي

ﷺ.

ولا يكبر في [رواية]^(٢) الباقي، لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قال القرطبي^(٣): القرآن ثبت نقله بالتواتر سُورَه، وآياته، وحروفه بغير زيادة، ولا نقصان، وعلى هذا فالتكبير ليس بقرآن.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالضُّحَى﴾ كَانَ فِيْمَنْ يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، وَكُتِبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ بَعْدُ كُلِّ يَتِيمٍ وَسَائِلٍ»^(٤). والله أعلم.

(١) أخرجه الحاكم (٣/٣٠٤) من طريق أبي الحسن البزي عن عكرمة بن سليمان عن إسماعيل بن قسطنطين عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب مرفوعاً.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: البزي قد تكلم فيه. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٠٨) وزاد نسبه إلى ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) في أ: قراءة.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦٩/٢٠.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة «الم نشرح»

مكية، وهي ثمانى آيات، وتسع وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، الاستفهام إذا دخل على النفي قرره، فصار المعنى: قد شرحنا، ولذلك عطف عليه الماضي، ومثله: ﴿أَلَمْ تُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ﴾ [الشعراء: ١٨]، والعامّة: على جزم الحاء بـ «لَمْ».

وقرأ أبو جعفر^(١) المنصور: بفتحها.

فقال الزمخشري^(٢): وقالوا: لعلّه بين الحاء، وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها.

وقال ابن عطية^(٣): إن الأصل: «أَلَمْ نَشْرَحْنِ» بالنون الخفية، ثم أبدلها ألفاً ثم حذفها تخفيفاً كما أنشد أبو زيد: [الرجز]

٥٢٤٥ - مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ أَيُّوْمَ لَمْ يَقْدِرْ أَمْ يَوْمَ قَدِرْ^(٤)

بفتح راء: «يقدر» وكقوله: [المنسرح]

٥٢٤٦ - إِضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ^(٥)

(١) ينظر: الكشف ٧٧٠/٤، والمححر الوجيز ٤٩٦/٥، والبحر المحيط ٤٨٣/٨، والدر المصون ٥٤٠/٦.

(٢) الكشف ٧٧٠/٤. (٣) المححر الوجيز ٤٩٦/٥.

(٤) تقدم.

(٥) البيت لطرفة بن العبد ينظر ملحق ديوانه ص ١٥٥، وخزانة الأدب ٤٥/١١، والدر ١٧٤/٥، وشرح شواهد المغني (٢/٩٣٣)، وشرح المفصل ١٠٧/٦، واللسان (قنر)، والمقاصد النحوية ٤/٣٣٧، ونوادر أبي زيد ص ١٣، والإنصاف ٥٦٥/٢، وجمهرة اللغة ص ٨٥٢، ١١٧٦، =

بفتح باء «اضرب» انتهى . وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بـ «لم»، وهو قليل جداً، كقوله: [الرجز]

٥٢٤٧ - يَخْسِبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَغْلَمًا شَيْخاً عَلَى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمًا^(١)
فتتركب هذه القراءة من ثلاثة أصول كلها ضعيفة، لأن توكيد المجزوم بـ «لم»، ضعيف، وإبدالها ألفاً إنما هو في الوقف، فإجراء الوصل مجرى الوقف خلاف الأصل، وحذف الألف ضعيف؛ لأنه خلاف الأصل.

وخرجه أبو حيان^(٢) على لغة خرجها اللحياني في «نوادره» عن بعض العرب، وهو أن الجزم بـ «لن» والنصب بـ «لم» عكس المعروف عند الناس، وجعله أحسن مما تقدم .
وأشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار تطلب ثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما وعن بقية الصحابة أجمعين: [البسيط]

٥٢٤٨ - قَدْ كَانَ سُمْكَ الْهُدَى يَنْهَدُ قَائِمُهُ حَتَّى أَيْبَحَ لَهُ الْمُخْتَارُ فَاَنْغَمَدَا
فِي كُلِّ مَا هَمَّ أَنْضَى رَأْيُهُ قُدُمًا وَلَمْ يُشَاوِرْ فِي إِقْدَامِهِ أَحَدًا^(٣)
[ينصب راء «يشاور»، وجعله محتمل للتخريجين . وشرح الصدر: فتحه؛ أي ألم تفتح صدرك للإسلام .

وقال ابن عباس: ألم تلين قلبك وعن الحسن في قوله: ألم نشرح، وقال مكي: حلماً وعلماً^(٤).

وشرح الصدر: فتحه، روي أن جبريل - عليه السلام - أتاه وشق صدره، وأخرج قلبه، وغسله وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً، وإيماناً، ووضع في صدره، وطعن القاضي^(٥) في هذه الرواية من وجوه:

= والخصائص ١٢٦/١، وسر صناعة الإعراب ٨٢/١، وشرح الأشموني ٥٠٥/٢، والمحتسب ٢/٣٦٧، ومغني اللبيب ٦٤٣/٢، والممتنع في التصريف ١/٣٢٣.

(١) نسب البيت للعجاج، ولأبي حيان الفقعسي، ولمساور العبسي، وللدبيري، ولعبد بني عبس .
ينظر ملحق ديوان العجاج ٣٣١/٢، وخزانة الأدب ٤٠٩/١١، ٤١١، وشرح شواهد المغني ٢/٩٧٣، والمقاصد النحوية ٨٠/٤، والدرر ١٥٨/٥، وشرح التصريح ٢٠٥/٢، وشرح أبيات سيبويه ٢٦٦/٢، والإنصاف ٤٠٩/١، وأوضح المسالك ١٠٦/٤، وخزانة الأدب ٣٨٨/٨، ٤٥١، ورصف المياني ٣٣/٣٣٥، وسر صناعة الإعراب ٦٧٩/٢، وشرح الأشموني ٤٩٨/٢، وشرح ابن عقيل ٥٤٦، ومجالس ثعلب ص ٦٢٠، ونوادير أبي زيد ص ١٣٢، وهمع الهوامع ٧٨/٢.

(٢) ينظر البحر المحيط ٤٨٣/٨.

(٣) البيتان لعائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد الثقفي .

ينظر البحر ٨٣/٨ والدر المصون ٥٤١/٦، وفتح القدير ٥/٤٦١.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣/٣٢.

(٤) سقط من ب.

أحدها: أن هذه الواقعة إنما وقعت حال صغره ﷺ وذلك من المعجزات فلا يجوز أن يتقدم بثبوته.

وثانيها: أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجرام فلم يؤثر الغسل فيها.

وثالثها: أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً، بل الله تبارك تعالى يخلق فيه العلوم. وأجيب عن الأول: بأن تقديم المعجزات على زمان البعثة جائز، وهو المسمى بالإرهاص، ومثله في حق الرسول ﷺ كثير.

وعن الثاني، والثالث: لا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ميل القلب إلى المعاصي وإحجامه عن الطاعات، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لمواظبة صاحبه على الطاعات، واحترازه عن السيئات، فكان ذلك، كالعلامة للملائكة على عصمة صاحبه.

وأيضاً فإن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

روى ابن عباس - رضي الله عنهما - أنهم قالوا: يا رسول الله، أينشرح الصدر؟

قال: «نعم وينفسح»، قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟

قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت قبل نزول الموت»^(١).

قال القرطبي^(٢): معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ قد شرحنا، و «لَمْ» جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ومعناه: الله أحكم الحاكمين، وكذا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان: [الوافر]

٥٢٤٩ - أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونٌ رَاحَ^(٣) المعنى: أنتم كذا.

فإن قيل: لم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فذكر الصدر ولم يذكر القلب؟ فالجواب: لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال تعالى: ﴿يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] فبإبدال تلك الوسوسة بدواعي الخير هو الشرح، فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب.

وقيل: الصدر حزن القلب، فيقصده الشيطان، فإن وجد مسلكاً أغار فيه، وبث جنده فيه، وبث فيه الغموم، والهموم والحرص، فيقسو القلب حيثئذ، ولا يجد للطاعة

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» ٧١/٢٠. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٧١/٢٠.

(٣) تقدم.

لذة، ولا للإسلام حلاوة، فإذا طرد في الابتداء حصل الأمن، وانشرح الصدر.
فإن قيل: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ولم يقل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ صَدْرَكَ؟﴾.
فالجواب: كأنه تعالى يقول: لام بلام، فأنت إنما تفعل الطاعات لأجلي، وأنا أيضاً
جميع ما أفعله لأجلك.

فصل فيمن اعتبر «الضحى»، و «ألم نشرح» سورة واحدة

روي عن طاوس، وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقرآن: «الضحى»، و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في ركعة واحدة، ولا يفصلان بينهما ب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وذلك لأنهما رأيا أن أولهما يشبه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾. وليس كذلك، لأن حالة اغتمامه ﷺ بإيذاء الكفار، فهي حالة محنة وضيق، وهذه حالة انشراح الصدر، وطيب القلب فكيف يجتمعان؟.

قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، أي: حططنا عنك ذنبك.

وقرأ أنس - رضي الله عنه - وحللنا وحططنا^(١).

وقرأ ابن مسعود^(٢): «وَحَلَلْنَا عَنْكَ وَفَرَكَ». وهذه الآية مثل قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

قيل: الجميع كانوا قبل النبوة، أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ كان في يسر من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنماً، ولا وثناً.

قوله: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، أي: حمله على النقض، وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله، مثل لما كان يثقله ﷺ.

قال أهل اللغة: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل، وسمعت نقيض الرجل أي صريره؛ قال العباس بن مرداس: [الطويل]

٥٢٥٠ - وَأَنْقَضَ ظَهْرِي مَا تَطَوَّيْتُ مِنْهُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْفِقًا مُتَحَنِّنًا^(٣)

وقال جميل: [الطويل]

٥٢٥١ - وَحَتَّى تَدَاعَتْ بِالنَّقِيضِ جِبَالُهُ وَهَمَّتْ بِوَانِي زَوْرِهِ أَنْ تُحْطَمَا^(٤)

والمعنى: أثقل ظهرك حين سمع نقيضه، أي: صوته.

(١) ينظر: الكشف ٧٧٠/٤، والمحرر الوجيز ٤٩٧/٥.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر البحر ٤٨٤/٨، والدر المصون ٥٤١/٦، وفتح القدير ٤٦١/٥.

(٤) ينظر القرطبي ٧٢/٢٠، والبحر ٤٨٤/٨، والدر المصون ٥٤١/٦، وفتح القدير ٤٦١/٥.

والوزرُ: الحمل الثقيل .

قال المحاسبِيُّ : يعني : ثقل الوزر لو لم يعفُ الله عنه .

قال : وإنما وُصِفَتْ ذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بهذا الثقل مع كونها مغفورة لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها [وقال الحسين بن الفضل : يعني الخطأ والسهو .

وقيل : ذنوب أمتك أضافها إليه لاشتغال قلبه بها] ^(١) .

وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوة، والقيام بها، حتى لا تثقل عليك .

وقيل : كان في الابتداء يثقل عليه الوحي ، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل ، إلى أن جاءه جبريل - عليه السلام - وأزال ﷺ عنه ما كان يخاف من تغير العقل .

وقيل : عصمتك عن احتمال الوزر ، وحفظناك قيل النبوة في الأربعين من الأدناس ، حتى نزل عليك الوحي ، وأنت مطهر من الأدناس .

قوله : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، قال مجاهد : يعني بالتأذين ^(٢) .

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهم - يقول عز وجل له : لا ذكرت إلا ذكرت معي في الأذان ، والإقامة ، والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ويوم عرفة ، وعند الجمار وعلى الصفا والمروة وفي خطبة النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها ^(٣) . ولو أن رجلاً عبد الله تعالى ، وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع شيء وكان كافراً .

وقيل : أعلينا ذكرك ، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه .

وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وفي الأرض عند المؤمنين ، ورفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود ، وكرائم الدرجات . وقيل : عام في كل ذكر .

قوله : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ، العامة : على سكون السين في الكلم الأربع .

(١) سقط من : ب .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٧/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٥/٦) وزاد نسبته إلى الشافعي في «الرسالة» وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» .

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٢/٢٠ - ٧٣) من طريق الضحاك عن ابن عباس .

وابن وثاب وأبو جعفر^(١) وعيسى: بضمها، وفيه خلاف، هل هو أصل، أو منقول من المسكن؟ والألف واللام في العسر الأول لتعريف الجنس، وفي الثاني للعهد، وكذلك روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - لن يغلب عسر يسرين وروي أيضاً مرفوعاً أنه ﷺ خرج يضحك يقول: لن يغلب عسر يسرين^(٢) والسبب فيه أن العرب إذا أتت باسم، ثم أعادته مع الألف واللام، كان هو الأول، نحو: جاء رجل فأكرمته الرجل، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، ولو أعادته بغير ألف ولام كان غير الأول، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ لما أعاد العسر الثاني أعاده بـ «أل»، ولما كان اليُسْر الثاني غير الأول لم يعده بأل.

وقال الزمخشري^(٣): فإن قلت: ما معنى قول ابن عباس؟ وذكر ما تقدم.

قلت: هذا عمل على الظاهر، وبناء على قوة الرجاء، وأن موعد الله تعالى لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ، وأبلغه، والقول فيه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى كما كرر قوله: ﴿وَبَلِّغْ بِرُحْمَتِكَ لِلْمُكْذِبِينَ﴾ لتقرير معناها في النفوس، وتمكنها في القلوب، وكما يكرر المفرد في قوله: «جاء زيد زيد»، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيُسْر [لا محالة والثانية: عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسراً^(٤)، فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنما كان العسر واحداً لأنه لا يخلو، إما أن يكون تعريفه للعهد، وهو العسر الذي كانوا فيه، فهو هو، لأن حكمه حكم زيد في قولك: «إن مع زيد مالا، إن مع زيد مالا»، وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد، فهو هو أيضاً، وأما اليسر، فمكرر متناول لبعض الجنس، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر، فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال.

قال أبو البقاء^(٥): العسر في الموضعين واحد؛ لأن الألف واللام توجب تكرير الأول، وأما يُسْر في الموضعين، فاثنان، لأن النكرة إذا أريد تكريرها جيء

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤٩٧/٥، والبحر المحيط ٤٨٤/٨، والدر المصون ٥٤١/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٨/١٢)، عن الحسن وقتادة مرسلًا وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٦/٦)، عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

وذكره أيضاً عن الحسن وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن مردويه وعبد الرزاق والبيهقي.

وأخرجه الحاكم (٥٢٨/٢)، عن الحسن مرسلًا.

والحديث أخرجه ابن مردويه عن جابر مرفوعاً كما في «الدر المنثور» (٦١٦/٦).

وأخرجه الطبري (٦٢٩/١٢) عن ابن مسعود موقوفاً وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٦/٦) -

(٦١٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «الصبر» وابن

المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٤) سقط من أ.

(٣) ينظر الكشف ٧٧١/٤.

(٥) ينظر: الإملاء ٢٨٩/٢.

بضميرها، أو بالألف واللام ومن هنا قيل: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ».

وقال الزمخشري^(١) أيضاً فإن قلت: «إِنْ» مَعَ» للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله - تعالى - يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المترقب، حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة في التسلية، وتقوية للقلوب.

وقال أيضاً فإن قلت: فما معنى هذا التنكير؟.

قلت: التفخيم كأنه قيل: إنَّ مع العسر يسراً عظيماً، وأي يسر، وهو في مصحف ابن مسعود^(٢) مرة واحدة.

فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر، حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسر يسرين؟.

قلت: كأنه قصد اليسرين، أما في قوله: «يُسْرًا» من معنى التفخيم، فتأوله بيسر الدارين، وذلك يسران في الحقيقة.

فصل في تعلق هذه الآية بما قبلها

تعلق هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى بعث نبيه ﷺ فعيَّره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالا، فاغتم لذلك، وظن أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيراً عندهم، فعدد الله - تعالى - عليه منته بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾، أي: ما كنت فيه من أمر الجاهلية، ثم وعده بالغنى في الدنيا ليزيل في قلبه ما حصل فيه من التأذي، بكونهم عيَّروه بالفقر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فعطفه بالفاء أي: لا يحزنك ما عيَّروك به في الفقر، فإن مع ذلك يسراً عاجلاً في الدنيا فأنجز له ما وعده، فلم يمت، حتى فتح عليه «الحجاز»، و «اليمن» ووسع عليه ذات يده، حتَّى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، وترك لأهله قوت سنته، وهذا وإن كان خاصاً بالنبي - عليه الصلاة والسلام - فقد يدخل فيه بعض أمته ﷺ إن شاء الله تعالى، ثم ابتدأ فصلاً آخر من أمر الآخرة، فقال:

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهذا شيء آخر، والدليل على ابتدائه، تعديه من فاء، وواو، وغيرهما من حروف النسق التي تدخل على العطف، فهذا وعد عام لجميع للمؤمنين، ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ للمؤمنين يسراً في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا، ويسر الآخرة.

(١) الكشاف ٧٧١/٤.

(٢) ينظر: السابق، والمحرم الوجيز ٤٩٧/٥، والدر المصون ٥٤٢/٦.

قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾.

العامة: على فتح الراء من «فَرَّغْتَ»، وهي الشهيرة.

وقرأها أبو السمال^(١): مكسورة، وهي لغة فيه.

قال الزمخشري^(٢): «وليست بالفصيحة».

وقال الزمخشري أيضاً: «فإن قلت: كيف تعلق قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ بما

قبله؟».

قلت: لما عدد عليه نعمه السالفة، ووعدوه الآتفة، بعثه على الشكر، والاجتهاد في

العبادة، والنصب فيها».

وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك، فانصب في الدعاء^(٣).

العامة: على فتح الصاد وسكون الباء أمراً من النصب^(٤) وقرئ: بتشديد الباء

مفتوحة أمراً من الإنصاب.

وكذا قرئ: بكسر^(٥) الصاد ساكنة الباء، أمراً من النَّصْب بسكون الصاد.

قال شهاب الدين^(٦): ولا أظن الأولى إلا تصحيفاً، ولا الثانية إلا تحريفاً، فإنها

تروى عن الإمامية وتفسيرها: فإذا فرغت من النبوة فانصب الخليفة.

وقال ابن عطية^(٧): وهي قراءة شاذة، لم تثبت عن عالم.

قال الزمخشري^(٨): ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة، أنه قرأ: «فانصب» -

بكسر الصاد - أي: فانصب علماً للإمامة، ولو صح هذا للرافضي، لصح للناصبي أن يقرأ

هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي، وعداوته.

قال ابن مسعود: «إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل»^(٩).

وقال الكلبي: «إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين

والمؤمنات»^(١٠).

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٧، والبحر المحيط ٨/٤٨٤، والدر المصون ٦/٥٤٢.

(٢) ينظر: الكشف ٤/٧٧٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٢٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦١٧)، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٧، والبحر المحيط ٨/٤٨٤، والدر المصون ٦/٥٤٢.

(٥) ينظر السابق.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/٥٤٢.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٤٩٨.

(٨) ينظر: الكشف ٤/٧٧٢.

(٩) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦١٧) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وينظر تفسير

الماوردي (٦/٢٩٨).

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٧٤).

وقال الحسنُ وقتادة: «فإذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك»^(١).
قوله: ﴿وَلَيْكَ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

قرأ الجمهور: «فارغَب» أمر من «رغَب» ثلاثياً.
وقرأ زيد بن علي^(٢)، وابن أبي عبلة: «فَرغَب» بتشديد الغين، أمر من «رَغَب»
بتشديد الغين أي: فرغب الناس إلى طلب ما عنده.
عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ
قَرَأَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني»^(٣). والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٢٩/١٢) عن الحسن وابن زيد.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٩٨/٥، والبحر المحيط ٤٨٤/٨، والدر المصون ٥٤٢/٦.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة التين

مكية، وقال ابن عباس وقتادة: مدنية، وهي ثمان آيات، وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفاً^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ ثَبَتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعَ اللَّكَلَيْنِ﴾^(٢) [المؤمنون: ٢٠] ومن خواص التين: أنه غذاء وفاكهة، وهو سريع الهضم لا يمكث في المعدة، ويقلل البلغم، ويطهر الكليتين، ويزيل ما في المثانة من الرمل، ويسمن البدن، ويفتح مسام الكبد والطحال.

وروى أبو ذر - رضي الله عنه - قال: أهدى للنبي ﷺ سلً من تين، فقال: «كُلُوا» وأكل منه، ثم قال لأصحابه: «كُلُوا؛ لَوْ قُلْتُ: إِنَّ فَاكِهَةً نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ، لَقُلْتُ: هَذِهِ، لَأَنَّ فَاكِهَةَ الْجَنَّةِ بِلَا عَجَمٍ، فَكُلُوهَا، فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الْبَوَاسِيرَ، وَتَنْفَعُ مِنَ النُّقَرَسِ»^(٣).

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣٠٠).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٣١ - ٦٣٢)، عن الحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم وقتادة والكلبي. وأخرجه الحاكم (٢/٥٢٨)، عن ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٠)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الطب النبوي» ص ١٧٣ وعزاه إلى ابن السني وأبي نعيم في الطب والديلمي في «مسند الفردوس» قال ابن القيم في «الزاد» (٣/٢١٤): في ثبوته نظر. وذكره ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/٧٧٣)، وعزاه إلى أبي نعيم في «الطب» والثعلبي وقال: وفي إسناده من لا يعرف.

وعن علي بن موسى الرضى: «التين» يزيل نكهة الفم، ويطول الشعر، وهو أمان من الفالج، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة^(١).

وعن معاذ - رضي الله عنه - أنه استاك بقضيب زيتون، وقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «نِعْمَ السَّوَاكُ الزَّيْتُونُ، مِنْ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ، يُطَيِّبُ الْفَمَ، وَيُذْهِبُ الْحَفَرَ، وَهِيَ سِوَاكِي وَسِوَاكُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي»^(٢).

وعن ابن عباس: «التين» مسجد نوح - عليه الصلاة والسلام - الذي بني على الجودي والزيتون: «بيت المقدس»^(٣).

وقال الضحاك: التين: «المسجد الحرام»، والزيتون: «المسجد الأقصى»^(٤).

وقال عكرمة وابن زيد: التين: «مسجد دمشق»، والزيتون: «مسجد بيت المقدس»^(٥) [وقال قتادة: «التين: الجبل الذي عليه «دمشق»، والزيتون الذي عليه «بيت المقدس»].

وقال محمد بن كعب - رضي الله عنه -: التين: مسجد أصحاب الكهف والزيتون «إيليا»^(٦).

وقال عكرمة وابن زيد: التين: «دمشق»، والزيتون: «بيت المقدس»^(٧) وهذا اختيار الطبري^(٩).

وقيل: هما جبلان بالشام يقال لهما: طور زيتا وطور تينا بالسريانية، سميا بذلك لأنهما ينبتان التين والزيتون.

قال القرطبي^(١٠): «وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، لَأَنَّهُ الْحَقِيقَةُ، وَلَا يَعْدَلُ عَنِ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَجَازِ إِلَّا بِدَلِيلٍ».

قوله: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾. الطُّورُ جبل، و «سينين» اسم مكان، فأضيف الجبل للمكان الذي هو به.

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٩/٣٢) عن علي بن موسى الرضا.

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٠/٢) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه معلل بن محمد ولم أجد من ذكره.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٢/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦١٩/٦) وزاد نسبه إلى ابن مردويه وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٥/٢٠). (٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٢/١٢).

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥٠٤/٤). (٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٥/٣٠).

(٨) سقط من: ب. (٩) ينظر: جامع البيان ٦٣٤/١٢.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن ٧٦/٢٠.

قال الزمخشري^(١): «ونحو «سينون يبرون» في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب».

وقال أبو البقاء^(٢): هو لغة في «سيناء». انتهى.

وقرأ العامة: بكسر السين، وابن أبي إسحاق، وعمرو بن ميمون، وأبو رجاء^(٣): بفتحها وهي لغة بكر وتميم.

وقرأ عمر بن الخطاب، وعبيد الله، والحسن، وطلحة^(٤): سيناء بالكسر والمد. وعمر - أيضاً - وزيد بن علي^(٥): بفتحها والمد.

قال عمر بن ميمون: صليْتُ مع عُمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - العشاء بـ «مكة»، فقرأ: ﴿والتين والزيتون وطور سيناء وهذا البلد الأمين﴾ قال: وهكذا في قراءة عبد الله، ورفع صوته تعظيماً للبيت، وقرأ في الثانية بـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، و﴿لِيَلْفِ قُرَيْشٌ﴾. جمع بينهما^(٦). ذكره ابن الأنباري. [وقد تقدم في «المؤمنين»، وهذه لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية]^(٧).

وقال الأخفش: «سينين» شجر، الواحدة «السينينة»، وهو غريب جداً غير معروف عند أهل التفسير [وقال مجاهد: وطور جبل سينين، أي: مبارك بالسريانية، وهو قول قتادة والحسن^(٨)].

وعن ابن عباس: سينين أي: حسن بلغة الحبشة^(٩).

وعن عكرمة قال: هو الجبل الذي نادى الله تعالى منه موسى عليه السلام^(١٠).

وقال مقاتل والكلبي: «سينين» كل جبل فيه شجرٌ وثمرٌ، فهو سينين وسيناء، بلغة النبط^(١١).

(١) الكشاف ٧٧٣/٤. (٢) الإملاء ٢٨٩/٢.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٤٩٩/٥، والبحر المحيط ٤٨٥/٨، والدر المصون ٥٤٣/٦.

(٤) ينظر السابق. (٥) ينظر السابق.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٣/١٢)، مختصراً وذكره بتمامه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٠)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن الأنباري في «المصاحف».

(٧) سقط من: ب.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٤/١٢)، عن مجاهد وقاتدة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٠)، عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وذكره عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٣/١٢)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٠) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وذكره السيوطي أيضاً عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٧٦/٢٠). (١١) ينظر المصدر السابق.

وقال أبو علي: «سينين»: «فعليل»، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في «زحليل» للمكان الزلق، و «كرديدة»: للقطعة من التمر، وخنديدة: للطويل.

ولم ينصرف «سينين» كما لم ينصرف «سيناء» لأنه جعل اسماً لبقعة، أو أرض، ولو جعل اسماً للمكان، أو المنزل، أو اسم مذكر لانصرف، لأنك سميت مذكراً بمذكر.

وإنما أقسم بهذا الجبل، لأنه بالسَّنام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما، كما قال: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

ولا يجوز أن يكون «سينين» نعتاً للطور، لإضافته إليه.

قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. يعني «مكة»، والأمين على هذا «فعليل» للمبالغة، أي: آمن من فيه ومن [دخله من إنس، وطير، وحيوان، ويجوز أن يكون من آمن للرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين، وأمانته حفظه من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمّنه؛ لأنه مأمون الغوائل كما وصف بالأمن في قوله تعالى^(١) ﴿أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] يعني ذا أمن.

قال القرطبي^(٢): «أقسم الله تعالى بجبل «دمشق»، لأنه مأوى عيسى - عليه الصلاة والسلام - وبجبل بيت المقدس، لأنه مقام الأنبياء - عليهم السلام، وب «مكة» لأنها أثر إبراهيم، ودار محمد ﷺ».

قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، هذا جواب القسم [وأراد بالإنسان الكافر].

قيل: هو الوليد بن المغيرة.

وقيل: كلدة بن أسيد فعلى هذا نزلت في منكري البعث.

وقيل: المراد بالإنسان^(٣): آدم - عليه الصلاة والسلام - وذريته.

وقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ صفة لمحذوف، أي: في تقويم أحسن تقويم.

وقال أبو البقاء^(٤): «في أحسن تقويم» في موضع الحال من الإنسان، وأراد بالتقويم: القوام؛ لأن التقويم فعل، وذاك وصف للخالق لا للمخلوق، ويجوز أن يكون التقدير: في أحسن قوام التقويم، فحذف المضاف، ويجوز أن تكون «في» زائدة، أي: قومنا أحسن تقويم انتهى.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: أحسن تقويم، واعتداله، واستواء أسنانه، لأنه خلق كل شيء منكباً

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٧/٢٠.

(١) سقط من ب.

(٤) الإملاء ٢٨٩/٢.

(٣) سقط من ب.

حيلة يقال : سفل يسفل فهو سافل ، وهم سافلون كما تقول : علا يعلو فهو عال وهم عالون^(١).

وعن مجاهد وأبي العالية : «أسفل سافلين» إلى النار^(٢)، يعني الكافر.

قال علي رضي الله عنه : أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض ، فيبدأ بالأسفل فيملاً وهو أسفل السافلين^(٣). وعلى هذا التقدير : ثم رددناه إلى أسفل ، وفي أسفل السافلين .

قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : متصل على أن المعنى : رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً ، يعني أقبح من قبح خلقه ، وأشوههم صورة ، وهم أهل النار ، فالاتصال على هذا واضح .

والثاني : أنه منقطع على أن المعنى : ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في الحسن والصورة والشكل ، حيث نكسناه في خلقه ، فقوس ظهره ، وضعف بصره وسمعه والمعنى : ولكن والذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم ، وصبرهم على الابتداء بالشيخوخة ، ومشاق العبادة ، قاله الزمخشري^(٤) ملخصاً ، وقال : أسفل سافلين على الجمع ؛ لأن الإنسان في معنى الجمع .

قال الفراء : ولو قال : أسفل سافل جاز ، لأن لفظ الإنسان واحد كما تقول : هذا أفضل ، ولا تقول : أفضل قائمين ، لأنك تضمّر الواحد ، فإن كان الواحد غير مضمور له ، رجع اسمه بالتوحيد ، والجمع ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا﴾ [الشورى : ٤٨] .

قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

قال الضحاك : أجر بغير عمل .

وقيل : غير مقطوع أي : لا يمن به عليهم .

قوله تعالى : ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ . «مَا» استفهامية في محل رفع بالابتداء والخبر الفعل بعدها والمخاطب : الإنسان على طريقة الالتفات ، توبيخاً ، وإلزاماً للحجة ، والمعنى :

(١) سقط من : ب .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٣٨/١٢) ، عن الحسن وابن زيد .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٠/٦) ، عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٢/٣٢) عن علي رضي الله عنه .

(٤) ينظر : الكشف ٧٧٤/٤ .

فما يجعلك كاذباً بسبب الدين، وإنكاره، وقد خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال فما الذي يحملك بعد هذا الدليل إلى أن تكون كاذباً بسبب الجزاء [لأن كل مكذب بالحق، فهو كاذب فأى شيء يضطرك إلى أن تكون كاذباً يعني: أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء؛ لأن كل مكذب كاذب بسبب الجزاء]، والباء مثلها في قوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقيل: المخاطب رسول الله ﷺ وعلى هذا يكون المعنى: فماذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين، بعد هذه العبر التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت، قاله الفراء والأخفش.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْهَٰكِيمِينَ﴾ أي: أتقن الحاكمين صنعا في كل ما خلق، وإذا ثبتت القدرة، والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر، ووقوعه، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقيل: أحكم الحاكمين: قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق، وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي في الكلام صار إيجاباً، كقوله: [الوافر]

٥٢٥٢ - أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا^(١)

[قيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف.

وقيل: هي ثابتة لأنه لا تنافي بينهما]^(٢).

وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْهَٰكِيمِينَ﴾، قالوا: بلى، وإننا على ذلك من الشاهدين^(٣).

قال القاضي: هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح، ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم، لأنه تعالى أحكم الحاكمين، فلا يفعل فعل^(٤) السفهاء.

وأجيب: بالمعارضة بالعلم، والداعي، ثم نقول: السفيه من قامت السفاهة به، لا من خلق السفاهة، كما أن المتحرك من قامت الحركة به لا من خلقها. والله أعلم.

(١) تقدم.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٧٩/٢٠).

(٤) في أ: أفعال.

سورة العلق

مكية، وهي أول ما نزل من القرآن في قول أبي موسى وعائشة رضي الله عنها^(١).
وقيل: أول ما نزل الفاتحة، ثم سورة العلق، وهي عشرون آية، واثنان وسبعون كلمة،
ومائتان وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، العامة: على سكون الهمزة، أمر من القراءة، وقرأ عاصم^(٢)
في رواية الأعشى: براء مفتوحة، وكأنه قلب تلك الهمزة ألفاً، كقولهم: قرأ، يقرأ، نحو:
سعى، يسعى، فلما أمر منه، قيل: «اقرأ» بحذف الألف قياساً على حذفها من «اسع».

وهذا على حد قول زهير: [الطويل]

وَالْأَيْبَدَ بِالظُّلَمِ يَظْلِمُ ٥٢٥٣ -

وقد تقدم تحرير هذا.

قوله: ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، يجوز فيه أوجه:

أحدها: أن تكون الباء للحال، أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل: بسم الله الرحمن
الرحيم ثم اقرأ، قاله الزمخشري^(٤).

(١) أخرجه الحاكم (٥٢٩/٢) من طريق الزهري عن عائشة وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه
ووافقه الذهبي، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٤٢/٧) عن أبي موسى، وقال الهيثمي:
ورجاله رجال الصحيح. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٣/٦) وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبه
وابن الضريس وابن الأنباري في «المصاحف». وابن مردويه وأبي نعيم في «الحلية». وأخرجه
الحاكم (٥٢٨/٢)، والطبري في «تفسيره» (٦٤٥/١٢) من حديث عائشة، وقال الحاكم: صحيح
على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٣/٦) وزاد
نسبه إلى ابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤٨٨/٨)، والدر المصون (٥٤٥/٦).

(٣) تقدم.

(٤) الكشف (٧٧٥/٤).

الثاني : أن الباء مزيدة ، والتقدير : اقرأ باسم ربك ، كقوله : [البسيط]

٥٢٥٤ - سُودُ الْمَحَاجِرِ لَا يَفْرَأَنَّ بِالسُّورِ^(١)

قيل : الاسم فضلة أي اذكر ربك ، قالهما أبو عبيدة .

الثالث : أن الباء للاستعانة ، والمفعول محذوف ، تقديره : اقرأ ما يوحى إليك

مستعيناً باسم ربك .

الرابع : أنها بمعنى «عَلَى» ، أي : اقرأ على اسم ربك ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ

أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ﴾ [هود : ٤١] ، قاله الأخفش .

[وقد تقدم في أول الكتاب كيف قدم هذا الفعل على الجار والمجرور ، وقدر

متأخراً في «بسم الله الرحمن الرحيم» وتخريج الناس له ، فأغنى عن الإعادة]^(٢) .

فصل

قال أكثرُ المفسرين : هذه السورة أول ما نزل من القرآن ، نزل بها جبريل عليه

السلام على النبي ﷺ وهو قائم على «جِراء» ، فعلمه خمس آيات من هذه السورة .

وقال جابر بن عبد الله : أول ما نزل : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾^(٣) .

وقال أبو ميسرة الهمداني : أول ما نزل فاتحة الكتاب .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أول ما نزل من القرآن : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

قال القرطبي^(٤) : «الصحيح الأول» .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصادقة^(٥) ، فجاءه

الملك ، فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ، خرجه البخاري^(٦) .

وروت عائشة - رضي الله عنها - أنها أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ثم بعدها

«ن» ، والقلم ثم بعدها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ ، ثم بعدها «والضحى» ، ذكره الماوردي^(٧) .

ومعنى قوله : «اقرأ» أي : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك وهو أن تذكر

التسمية في ابتداء أول كل سورة ، أو اقرأ على اسم ربك ، على ما تقدم من الإعراب .

(٢) سقط من : ب .

(١) تقدم .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠ / ٨٠) .

(٣) تقدم تخريجه في سورة المدثر .

(٦) تقدم تخريجه .

(٥) في ب : الصالحة .

(٧) ينظر تفسير الماوردي (٦ / ٣٠٤) . وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦ / ٦٢٤) وعزاه إلى ابن

الأنباري في «المصاحف» .

قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، يجوز أن يكون «خَلَقَ» الثاني تفسيراً لـ «خَلَقَ» الأول، يعني أبهمه أولاً، ثم فسرهُ ثانياً بـ «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» تفخيماً لخلق الإنسان، ويجوز أن يكون حذف المفعول من الأول، تقديره: خلق كُلَّ شيء؛ لأنه مطلق، فيتناول كُلَّ مخلوق، وقوله : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تخصيص له بالذكر من بين ما يتناولهُ الخلق، لأنه المنزَّل إليه، ويجوز أن يكون تأكيداً لفظياً، فيكون قد أكد الصفة وحدها، كقولك: الذي قام قام زيد.

والمراد بالإنسان: الجنس، ولذلك قال تعالى: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقَة، لأن كل واحد مخلوق من علقَة، كما في الآية الأخرى، والعلقَة: الدَّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهو المسفوح، وذكر «الْعَلَقَ» بلفظ الجمع، لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا مِنْ عَلَقٍ بعد النُّطْفَةِ. والعلقَة: قطعة من دم رطبٍ، سميت بذلك؛ لأنها تعلق بما تمر عليه لرطوبتها، فإذا جفت لم تكن علقَة.

فصل

قال ابن الخطيب^(١): فإن قيل: فما وجه التسمية في المباح كالأكْل؟.

فالجواب: أنه يضيف ذاك إلى الله تعالى ليدفع ببركة اسمه الأذى، والضرر، أو ليدفع شركة الشيطان، ولأنه ربما استعان بذلك المباح على الطاعة، فيصير طاعة، وقال هنا: باسم ربِّك، وفي التسمية المعروفة: بسم الله الرحمن الرحيم، لأن الربَّ من صفات الفعل، وهي تستوجب العبادة بخلاف صفة الذات فأفاد الربُّ هنا معنيين:

أحدهما: أني رببتك فلزمك الفعل، فلا تتكاسل.

والثاني: أن الشروع ملزم للإتمام، وقد رببتك منذ كنت علقَة إلى الآن، فلم أضيعك، وقال هنا: «ربك»، وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] كأنه يقول سبحانه: هو لي وأنا له، كقوله ﷺ: «عليَّ منِّي وأنا مِنْهُ»^(٢)، لأن النعم واصله منِّي إليك، ولم يصل إليَّ منك خدمة فأقول: أنا لك، ثم لما أتى بالعبادات وفعل الطاعات، قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كالدليل على الربوبية، كأنه تعالى يقول: الدليل على أني ربُّك، أنك ما كنت معه بذاتك وصفاتك، فخلقتك ورببتك، ويحتمل أن يكون المعنى أنه حصل منه الخلق.

قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْآلَاءَ﴾، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَأَيْتَ الْآلَاءَ﴾، أي: الكريم.

وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم^(١)، [وقيل: اقرأ أولاً لنفسك، والثاني للتبليغ، والأول للتعميم من جبريل عليه السلام، والثاني للتعليم وقرأ في صلاتك].

وقيل: اقرأ وربك، أي: اقرأ يا محمد وربك يغنيك ويفهمك، وإن كنت غير قارئ^(٢). [والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمة، دلّ على كرمه^(٣)].

قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، يعني: الخط والكتابة، أي: علم الإنسان الخط بالقلم.

قال قتادة: العلم نعمة من الله عظيمة، ولولا ذلك لم يثّم دين، ولم يصلح عيش^(٤)، فدل على كمال كرمه تعالى، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضببت أخبار الأولين، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة. وسمي القلم، لأنه يقلم ومنه تقليم الظفر، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا.

وروى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قلت: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم، فاكْتُبْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»^(٥).

ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام، فقال: ربح لا يبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة.

وروى مجاهد عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده، ثم قال تعالى لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه الصلاة والسلام^(٦).

من علمه بالقلم؟ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال كعب الأحبار: أول من كتب بالقلم آدم عليه السلام^(٧).

وثانيها: قول الضحاك: أول ما كتب إدريس عليه الصلاة والسلام^(٨).

والثالث: أنه جميع من كتب بالقلم، لأنه ما علم إلا بتعليم الله تعالى.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨١/٢٠). (٢) سقط من: ب.

(٣) سقط من: أ.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٤٤/١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٢٥/٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٠٥/٦) والقرطبي (٨٢/٢٠).

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر المصدر السابق.

قال القرطبي^(١): الأقلام ثلاثة في الأصل.

الأول: الذي خلقه الله تعالى بيده، وأمره أن يكتب.

والقلم الثاني: قلم الملائكة الذي يكتبون به المقادير، والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم.

وروى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكُنُوا نِسَاءَكُمْ الْغُرَفَ وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ»^(٢).

قال بعض العلماء: وإنما حذرهم النبي ﷺ لأن في إساكنهن الغرف تطلُّعاً على الرجال، وليس في ذلك تحصُّن لهن ولا تسرُّ، وذلك لأنهن لا يملكن أنفسهن، حتى يشرفن على الرجال، فتحدث الفتنة والبلاء، فحذرهم أن يجعلوا لهن غرفاً ذريعة إلى الفتنة. وهو كما قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لِلنِّسَاءِ خَيْرٌ لَهُنَّ مِنْ أَلَّا يَرَاهُنَّ الرِّجَالُ، وَلَا يَرَوْنَ الرِّجَالَ»^(٣).

وذلك أنها خلقت من الرجل فنهمتها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجعلت سكناً له، فكل واحد منهما غير مأمونٍ على صاحبه، وكذلك تعليم الكتابة، ربما كانت سبباً في الفتنة، لأنها إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى؛ فالكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب، والخط آثار يده، وفيه تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان، فهي أبلغ من اللسان، فأحب رسول الله ﷺ أن يقطع عنهن أسباب الفتنة تحصيناً لهن، وطهارة لقلوبهن.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قيل: الإنسان هنا آدم - عليه الصلاة والسلام - علمه أسماء كل شيء، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقيل: الإنسان - هنا - محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقيل: عام، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٨٢/٢٠).

(٢) ذكره المتقي الهندي (٤٤٩٩٩)، وعزاه إلى الحكيم الترمذي عن ابن مسعود.

وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٢٤/١٤) عن عائشة قال ابن عراق في «تنزيه الشريعة»: ولا يصح.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨٣/٢٠).

[النحل: ٧٨]، لأنه تعالى بين أنه خلقه من نطفة، وأنعم عليه بالنعم المذكورة، ثم ذكر أنه إذا زاد عليه في النعمة فإنه يطغى، ويتجاوز الحد في المعاصي، واتباع هوى النفس، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾ (٧) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ (٨) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ (٩) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ (١٠) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ﴾ (١١) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ (١٢) ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤) ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ لَنُصْغَبَنَّ بِالتَّائِبَةِ﴾ (١٥) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (١٦) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) ﴿سَدِّعُ الزَّيْبَانَةَ﴾ (١٨) ﴿كَلَّا لَا تُطَعَّمُهُ وَاَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩) ﴿

قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾. إلى آخر السورة.

قيل: إنه نزل في أبي جهل، نهى النبي ﷺ عن الصلاة، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد، ويقرأ باسم الرب - تبارك وتعالى - وعلى هذا فليست السورة من أول ما نزل، ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أولى ما نزل، ثم نزل البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور إنما كان بأمر الله تعالى، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَأَنقُضُوا يَوْمَ تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل.

و «كلاً» بمعنى حقاً.

قال الجرجاني: لأن ليس قبله ولا بعده شيء يكون «كلاً» رداً له، كما قالوا في ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ [المدر: ٣٢]، فإنهم قالوا: معناه: أي والقمر؛ لأنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه.

وقال مقاتل: كلاً ليعلم الإنسان أن الله تعالى هو الذي خلقه من العلق، وعلمه بعد الجهل؛ لأنه عند صيرورته غنياً يطغى، ويتكبر ويصير مستغرق القلب في حُب الدنيا، فلا يفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها.

قوله: ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾، مفعول له، أي: رؤيته نفسه مُسْتَغْنِيَاً، وتعدى الفعل هنا إلى ضميره المتصلين؛ لأن هذا من خواص هذا الكتاب.

قال الزمخشري^(١): «ومعنى الرؤية، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين، و «أَشْتَقَى» هو المفعول الثاني».

قال شهاب الدين^(٢): والمسألة فيها خلاف، ذهب جماعة إلى أن «رأى» البصرية تعطى حكم العلمية، وجعل من ذلك قول عائشة - رضي الله عنها -: لقد رأيتنا مع رسول

(١) الكشف (٤/ ٧٧٧).

(٢) الدر المصون (٦/ ٥٤٦).

الله ﷻ وما لنا طعام إلا الأسودان^(١)؛ وأنشد: [الكامل]

٥٢٥٥ - وَلَقَدْ أَرَانِي لِرُمَاحٍ ذَرِيئَةً مِنْ عَن يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي^(٢)
وتقدم تحقيقه. وقرأ قبل^(٣) بخلاف عنه: «رأه» دون ألف بعد الهمزة، وهو
مقصود من «رأه» في قراءة العامة.

ولا شك أن الحذف جاء قليلاً، كقولهم: «أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة»
بحذف لام «تري»؛ وقول الآخر: [الرجز]

٥٢٥٦ - وَصَّانِي الْعَجَّاجِ فِيمَا وَصَّنِي^(٤)

يريد: فيما وصاني، ولما روي عن مجاهد هذه القراءة عن قبل، وقال: «قرأت بها
عليه» نسبة فيها إلى الغلط، ولا ينبغي ذلك، لأنه إذا ثبت ذلك قراءة، فإن لها وجهاً وإن
كان غيره أشهر منه، فلا ينبغي أن يقدم على تغليظه.

فصل في نزول الآية

قال ابن عباس في رواية «أبي صالح»: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون،
أتاه أبو جهل، فقال: يا محمد، أترزع أنه من استغنى طغي، فاجعل لنا جبال «مكة» ذهباً
لعلنا نأخذ منها فنطغي، فندع ديننا، وتنبع دينك، قال: فأتاه جبريل - عليه السلام -
فقال: يا محمد خيرهم في ذلك، فإن شاءوا فعلنا لهم ما أرادوه، فإن لم يفعلوا فعلنا بهم
كما فعلنا بأصحاب المائدة فعلم رسول الله ﷺ أنهم لا يقبلون ذلك، فكف عنهم أسفاً
عليهم^(٥).

[وقيل: أن رآه استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان، وحذف اللام من قوله: «أن
رأه» كما يقال: إنكم لتطغون أن رأيتم غناكم]^(٦).

قوله: ﴿إِنَّ إِلَ رَبِّكَ أَرْجَى﴾. هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له
وتحذيراً من عاقبة الطغيان، والمعنى: أن مرجع من هذا وصفه إلى الله تعالى، فيجازيه.

(١) تقدم.

(٢) البيت لقطري بن الفجاءة؛ ينظر ديوانه ص ١٧١، وخزانة الأدب (١/١٥٨)، ١٦٠، والدرر
(١٨٥١٤، ٢٦٩١٢)، وشرح التصريح (١٠/٢)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٣٦،
وشرح شواهد العيني (١/٤٣٨)، والمقاصد النحوية (٣/١٥٠)، ٣٠٥، وأسرار العربية ص ٢٥٥،
والأشباه والنظائر (٣/١٣)، وأوضح المسالك (٣٣/٥٧)، وجواهر الأدب ص ٣٢٢، ومغني اللبيب
(١/١٤٩)، وجمع الهوامع (١/١٥٦)، ٣٦/٢.

(٣) ينظر: السبعة (٦٩٢)، والحجة ٦/٤٢٣، وإعراب القراءات (٢/٥٠٨)، وحجة القراءات (٧٦٧).

(٤) البيت لرؤبة بن العجاج ينظر اللسان (وصى)، والبحر (٨/٤٨٩)، والدر المصون (٦/٥٤٦).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/٨٣). (٦) سقط من: ب.

والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر، يقال: رجع إليه رجوعاً ومرجعاً ورُجعى، على وزن «فُعلى».

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَبْعُ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ تقدم الكلام على ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَبْعُ﴾.

وقال الزمخشري^(١) هنا: فإن قلت: ما متعلق «أرأيت»؟

قلت: «الَّذِي يَنْهَى» مع الجملة الشرطية، وهما في موضع المفعولين، فإن قلت: فأين جواب الشرط؟

قلت: هو محذوف تقديره: «إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى، أَلَمْ يَغْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى»، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فإن قلت: كيف يصح أن يكون «أَلَمْ يَغْلَمْ» جواباً للشرط؟

قلت: كما صح في قولك: إن أكرمتك أتكرمني، وإن أحسن إليك زيد هل تحسنُ إليه؟

فإن قلت: فما أرأيت الثانية، وتوسطها بين مفعول «أرأيت»؟ قلت: هي زائدة مكررة للتأكيد.

قال شهاب الدين^(٢): اعلم أن «أَرَأَيْتَ» لا يكون مفعولها الثاني إلا جملة استفهامية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٧]، ومثله كثير، وهنا «أَرَأَيْتَ» ثلاث مرات، وقد صرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية، فيكون في موضع المفعول الثاني لها، ومفعولها الأول محذوف، وهو ضمير يعود على «الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا» الواقع مفعولاً لـ «أَرَأَيْتَ» الأولى، ومفعول «أَرَأَيْتَ» الأولى الذي هو الثاني محذوف، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد «أَرَأَيْتَ» الثالثة، وأما «أَرَأَيْتَ» الثانية، فلم يذكر لها مفعول، لا أول، ولا ثان، حذف الأول لدلالة المفعول من «أَرَأَيْتَ» الأولى عليه، وحذف الثاني لدلالة مفعول «أَرَأَيْتَ» الثالث عليه، فقد حذف الثاني من الأولى، والأول من الثالثة، والاثنان من الثانية، وليس طلب كل من «أَرَأَيْتَ» للجملة الاسمية على سبيل التنازع؛ لأنه يستدعي إضماراً. والجملة لا تضمّر إنما تضمّر المفردات، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة وأما الكلام على الشرط مع «أَرَأَيْتَ» هذه، فقد تقدم في «الأنعام»، ويجوز الزمخشري وقوع جواب الشرط استفهاماً بنفسه، وهذا لا يجوز، بل نصوا على وجوب ذكر الفاء في مثله، وإن ورد شيء من ذلك فهو ضرورة.

قال القرطبي^(٣): وقيل: كل واحد من «أَرَأَيْتَ» بدل من الأول، و «أَلَمْ يَغْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى» الخبر.

(٢) الدر المصون (٦/٥٤٦).

(١) الكشف (٤/٧٧٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٨٤).

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون: «الذي يَنْهَى» أبو جهل، وقوله تعالى: «عَبْدًا» يعني محمداً ﷺ، فإن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً لأطأَنَّ على عنقه. ثم إنه لما رأى رسول الله ﷺ في الصلاة نکص على عقبيه، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم، قال: إن بيني وبينه لخذقاً من نار وهو لا شديد.

قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه ^(١).

وعن الحسن: أنه أمية بن خلف، كان ينهى سلمان عن الصلاة.

وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: من هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْأُفُقَيْنِ أَنْزَارٌ أَوْ أَمْرٌ بِالْتَّقْوَى﴾ أي: أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد ﷺ على هذه الصفة، أليس ناهيه عن الصلاة والتقوى هالكاً؟.

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني أبا جهل كذب بكتاب الله، وأعرض عن الإيمان.

وقال الفراء: «أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى عبداً إذا صَلَّى»، والناهي مكذب متول عن الذكر، أي: فما أعجب هذا بما يقول، ثم قال: ويله «أَلَمْ يَلْعَلْ» أبو جهل «بأنَّ الله يَرَى»، أي: يراه ويعلم فعله، فهو تقريع وتوبيخ.

قال ابن الخطيب ^(٢): هذا خطاب للنبي ﷺ على سبيل التعجب، وفي وجه هذا التعجب وجوه:

أحدها: أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بأبي جهلٍ أو بعُمَرَ» ^(٣)، فقيل: أبعثل هذا يعز الإسلام وهو ينهى عبداً إذا صلى.

الثاني: أنه كان يلقب بأبي الحكم. فقيل: كيف يلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة.

الثالث: أنه كان يأمر وينهى ويعتقد وجوب طاعته، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب تعالى، وهذا عين الحماقة والتكبر، ف«عبداً» يدل على التعظيم، كأنه قيل: [ينهى أشد الخلق عبودية عن العبادة، وهذا عين الجهل، ولهذا لم يقل: ^(٤) ينهك، وأيضاً فإن هذا

(١) ينظر تفسير القرطبي (٨٣/٢٠). (٢) ينظر الفخر الرازي (٢١/٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٥٧٧/٥)، كتاب: المناقب، باب: في مناقب عمر حديث (٣٦٨٣) من طريق النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم في النضر أبي عمر وهو يروي مناكير من قبل حفظه.

وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٧/١٨٨، ١٨٩) من هذا الوجه.

(٤) سقط من: أ.

يدل على أن هذه عادته، ودأبه، فهو أبلغ في الذم أيضاً فهذا عام في كل من نهى عن الصلاة، وروي عن عليٍّ - رضي الله عنه - : أنه رأى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، ف قيل له: ألا تنهاهم فقال: أخشى أن أدخل في قوله تعالى: ﴿أَزَيْتَ الَّذِي يَبْعَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠]، فلم يصرح أيضاً بالنهي عن الصلاة^(١).

وأيضاً فيه: إجلال لمنصب رسول الله ﷺ أن ينهأ رجل لا سيما مثل هذا. قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله تعالى، أو كلا لن يصل أبو جهل إلى أن يقتل محمداً ﷺ ويطأ عنقه.

وقال مقاتل: كلا لا يعلم أن الله يرى، وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بناصيته يوم القيامة، وليسحبته بها في النار، كقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، فالآية وإن كانت في أبي جهل، فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمنع غيره عن الطاعة.

قوله: ﴿لَسْفَعًا﴾، الوقف على هذه النون بالألف، تشبيهاً لها بالتنوين، ولذلك يحذف بعد الضمة والكسرة وقفاً، وتكتب هنا ألفاً إتياعاً للوقف.

وروي^(٢) عن أبي عمرو: «لَسْفَعَنَ» بالنون الثقيلة. والسفع: الأخذ والقبض على الشيء بشدة، يقال: سفع بناصية فرسه، قال عمرو بن معديكرب: [الكامل]

٥٢٥٧ - قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأَيْتَهُمْ مَا بَيْنَ مُلْجَمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ^(٣) وقيل: هو الأخذ، بلغة قریش.

وقال الراغب: السفع: الأخذ بسعفة الفرس، أي: بسواد ناصيته، وباعتبار السواد قيل للأثافي: سفع، وبه سَفَعَةٌ غضب اعتباراً بما يعلم من اللون الدخاني وجه من اشتد به الغضب.

وقيل للصقر: أسفع، لما فيه من لمع السواد، وامرأة سفعاء اللون انتهى. وفي الحديث: «فَقَامَتِ امْرَأَةٌ سَفَعَاءُ الْخَدَّيْنِ»^(٤).

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢١/٣٢).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٥٠٣/٥)، والبحر المحيط (٤٩١/٨)، والدر المصون (٥٤٧/٦).

(٣) ينظر ديوانه (١٤٥)، والكشاف (٧٧٨/٤)، واللسان (سفع) والقرطبي (٨٥/٢٠)، والبحر (٤٨٧/٨)، والدر المصون (٤٧/٦).

(٤) أخرجه مسلم (٤٣٩/٣) - نووي) كتاب: صلاة العيدين، باب: (١) حديث (٤) من حديث جابر.

وقيل: هو مأخوذ من سفعت النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد.

قال: [الكامل]

٥٢٥٨ - أَثَافِي سَفْعاً فِي مُعَرَّسٍ مِرْجَلٍ وَنُؤِي كَجَذْمِ الْحَوْضِ أَثْلَمُ خَاشِعٌ^(١)

قال القرطبي^(٢): السفع الضرب، أي: ليلطمن وجهه، وكله متقارب المعنى، أي: يجمع عليه الضرب عند الأخذ، ثم يجر إلى جهنم.

وقرأ ابن مسعود^(٣): «لأسفعن»، أي: يقول الله تعالى: يا محمد أنا الذي أتولى إهانتة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ يَنْصِرُ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤]، والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانتة أخذوا بناصره.

قوله: ﴿نَاصِيَةٌ﴾ بدل من «الناصية»، بدل نكرة من معرفة.

قال الزمخشري^(٤): «وجاز بدلها عن المعرفة، وهي نكرة، لأنها وصفت، فاستقلت بفائدة».

قال شهاب الدين^(٥): وهذا مذهب الكوفيين، لا يجيزون إبدال نكرة من غيرها إلا بشرط وصفها، وكونها بلفظ الأول، ومذهب البصريين: لا يشترط بشيء؛ وأنشدوا: [الوافر] ٥٢٥٩ - فَلَا وَابِيكَ خَيْرٌ مِنْكَ إِنِّي لِيُؤْذِنِي التَّحَمُّمُ وَالصَّهِيلُ^(٦) وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبل^(٧)، وزيد بن علي: بنصب «ناصية كاذبة خاطئة» على الشتم.

وقرأ الكسائي في رواية^(٨): بالرفع، على إضمار: هي ناصية، ونسب الكذب والخطأ إليها مجازاً. والالف واللام في «الناصية» قيل: عوض من الإضافة، أي: بناصره.

وقيل: الضمير محذوف، أي: الناصية منه.

فصل في معنى الآية

والمعنى: لناخذن بناصرية أبي جهل «كاذبة» في قولها، «خاطئة» في فعلها،

(١) ينظر القرطبي ٨٥/٢٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٧٧٨/٤، والمحرر الوجيز ٥٠٣/٥.

(٣) الكشاف ٧٧٨/٤.

(٤) الدر المصون ٥٤٧/٦.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥٠٣/٥، والبحر المحيط ٤٩١/٨، والدر المصون ٥٤٧/٦.

(٧) ينظر السابق.

والخاطيء معاقب مأخوذ، والمخطيء غير مأخوذ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة كوصف الوجوه بالنظر في قوله «إلى ربها ناظرة»، وقيل: إن صاحبها كاذب خاطيء كما يقال: ليل قائم ونهار صائم، أي صائم في النهار وقائم في الليل، وإنما وصف الناصية بالكاذبة، لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً ﷺ، وكاذباً على رسوله ﷺ في أنه ساحر، وكاذب أنه ليس بنبي؛ لأن صاحبها يتمرد على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٧].

قوله: ﴿فَلْيَنْعُ نَادِيكُمْ﴾، إما أن يكون على حذف مضاف، أي: أهل ناديه، أو على التجوز في نداء النادي لاشتماله على الناس، كقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْفَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، والنادي والندي: المجلس المتجدد للحديث.

قال زهير: [الطويل]

٥٢٦٠ - فِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَثْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ^(١)
[وقالت أعرابية: هو سيد ناديه وثمال عافيه]^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وقال أبو عبيدة: «وناديه» أهل مجلسه، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله، والمعنى: فليدع عشيرته، فليستنصر بهم.
قوله: ﴿سَدْعُ الزَّيْنَةِ﴾.

قال الزمخشري^(٣): «والزبانية في كلام العرب: الشرط، الواحد: زبينة، كعفريّة من الزّبن، وهو الدّفع.

وقيل: زبني، وكأنه نسب إلى الزبن، ثم غير للنسب، كقولهم: أمسي، وأصله: زباني، فقيل: «زبانية» على التعويض.

وقال عيسى بن عمر والأخفش: واحدهم زابن.

وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كعباديد، وشمايط، وأبائيل، والحاصل: أن المادة تدل على الدفع.

قال: [الطويل]

٥٢٦١ - مَطَاعِيمُ فِي الْقُضْوَى مَطَاعِينَ فِي الْوَعَى زَبَانِيَّةٌ غُلِبَ عِظَامُ حُلُومُهَا^(٤)

(١) ينظر ديوانه ٩٧، والعمدة لابن رشيق ١٣٤/٢، واللسان (قوم)، والكشاف ٧٧٩/٤. والبحر ٨/٨٧، والدر المصون ٥٤٧/٦.

(٢) سقط من: ب. (٣) ينظر: الكشاف ٧٧٩/٤.

(٤) ينظر القرطبي ٨٥/٢٠، والدر المصون ٥٤٨/٦.

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٦٢ - وَمُسْتَعْجِبٌ مِّمَّا يَرَى مِنْ آتَاتِنَا وَلَوْ رَزَيْنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرْ^(١)

[قال عتبة: رَزَيْنَا الحرب، وزَيْنَّاها، ومنه الزبون لأنه يدفع من بائع إلى آخر.

وقال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: ومنه المزبنة في البيع؛ لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم^(٢).

وقرأ العامة: «سَنَدْعُ» بنون العظمة، ولم ترسم بالواو، وتقدم نظيره، نحو ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦].

وقرأ ابن أبي عبله^(٣): «سَيُدْعَى الزبانية» مبنياً للمفعول ورفع «الزبانية» لقيامها مقام الفاعل.

فصل في المراد بالزبانية

قال ابن عباس: الملائكة الغلاظ الشداد، وروي أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ فلما ذكر الزبانية رجع فزعاً، ف قيل له: أخشيت منه؟.

قال: لا، ولكن رأيت عنده فارساً، فهددني بالزبانية فما أدري ما الزبانية؛ ومال إليّ الفارس، فخشيت منه أن يأكلني.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: والله لو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. خرجه الترمذي بمعناه^(٤).

قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما يظنه أبو جهل «لا تُطْعَمُ» فيما دعاك إليه من ترك الصلاة «واسجد»، أي: صل لله «واقترَبْ» أي: اقترب إلى الله بالطاعة والعبادة.

وقيل: المعنى: إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء.

قال ﷺ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ تَعَالَى، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٥).

(١) البيت لأوس بن حجر ينظر ديوانه (١٢١)، والمحتسب ١٠٨/٢، والكمال ٣/٣٨٥، والحجة للفارسي ١/٢٦٥، ومجمع البيان ١/٧٧٩، والبحر ٨/٤٨٧، والدر المصون ٦/٥٤٨.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر: الكشاف (٤/٧٧٩)، والبحر المحيط (٨/٤٩١)، والدر المصون (٦/٥٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٤١٤)، كتاب: التفسير رقم (٣٣٤٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/١٥٨) من طريق عكرمة عن ابن عباس وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٥) تقدم.

وقال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١).

فالسجود في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة.

وقال ابن العربي: والظاهر أنه سجود الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْمَيْتَ الَّذِي بَنَىٰ عَدًّا إِذَا صَلَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم، وغيره من الأئمة عن أبي هريرة، أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» وفي ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ سجدتين^(٢)، فكان هذا نصاً على أن المراد سجود التلاوة.

روى الثعلبي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فكأنما قرأ المفصل كله»^(٣). والله تعالى أعلم.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد (٥٧٨): باب سجود التلاوة عن أبي هريرة. وقد تقدم تخريجه موسعاً.

(٣) تقدم تخريجه مراراً.

سورة القدر

مكية في قول أكثر المفسرين ذكره الثعلبي .

وحكي الماوردي عكسه .

وذكر الواقدي: أنها أول سورة نزلت بـ «المدينة»، وهي خمس آيات، وثلاثون كلمة، ومائة واثنًا عشر حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن، أضمر للعلم به ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً للإِنزال، والقرآن كله كالسورة الواحدة، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣٠] يريد: ليلة القدر.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزل به جبريل - عليه السلام - جملة^(١) واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان جبريل ينزله على النبي ﷺ منجماً، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة^(٢).

حكى الماوردي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح

(١) في أ: دفعة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٥١)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٨)، وزاد نسبه إلى ابن الضريس وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين في سماء الدنيا، فنجمته السَّفَرَةُ الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة^(١).

قال ابن العربي: وهذا باطل، ليس بين جبريل - عليه السَّلام - وبين الله واسطة، ولا بين جبريل محمد - عليهما السَّلام - واسطة.

وقيل: المعنى أنزل في شأنها وفضلها، فليست ظرفاً، وإنما كقول عمر - رضي الله عنه -: خشيت أن ينزل في قرآن، وقول عائشة - رضي الله عنها -: لأننا أحقر في نفسي أن ينزل في قرآن^(٢).

وسميت ليلة القدر بذلك؛ لأن الله يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السَّنة القابلة من أمر الموت، والأجل، والرزق، وغيره، ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل، عليهم السَّلام.

وعن ابن عباس أيضاً: أن الله يقضي الأفضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، وأما تضيقها بالملائكة قال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وقيل: سميت بذلك لعظمها، وشرفها، وقدرها، من قولهم: لفلان قدر: أي شرف ومنزلة. قاله الزهري. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعة فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

وقيل: لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر على أمه ذات قدر، والقدر: مصدر، والمراد ما يمضيه الله تعالى من الأمور، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وهو بمعنى القدر، إلا أنه بالتسكين، مصدر، وبالفتح اسم.

قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بين فضلها، وعظمها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف، لا تريد حقيقتها، وإنما تريد المبالغة في الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، يعني جمع الدهر.

[وقيل: إن العابد فيما مضى لا يسمى عابداً، حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل الله تعالى لهذه الأمة أمة محمد ﷺ عبادة ليلة خير من ألف شهر كانوا يعبدونها]^(٣).

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣١١/٦)، والقرطبي (٨٨/٢٠).

(٢) جزء من حديث الإفك وقد تقدم تخريجه.

(٣) سقط من: ب.

وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان - عليه الصلاة والسلام - خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر، فصار ملكهما ألف شهر، فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما.

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: إن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل حمل السلاح ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فنزلت هذه الآية، يعني خير من ألف شهر التي لبس السلاح فيها في سبيل الله، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنه^(١).

وقال مالك بن أنس - رضي الله عنه -: أرى رسول الله ﷺ أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته، فخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم^(٢).

وقال عكرمة وعروة: ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، يقال: عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوا الله - تعالى - طرفة عين: أيوب، وزكريا، وحزقيل بن العجوز، ويوشع ابن نون، فعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، عجبت أمتك من عبادة هؤلاء الثفر ثمانين سنة، لم يعصوا الله تعالى طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك، ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فسر بذلك رسول الله ﷺ^(٣).

قوله: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾، أي: تهبط من كل سماء إلى الأرض، ويؤمنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر، وقوله تعالى: ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾. يجوز أن ترتفع «الروح» بالابتداء، والجار بعده الخبر وأن ترتفع بالفاعلية عطفاً على الملائكة، و «فيها» متعلق بـ «تنزل» وأن يكون معطوفاً على الفاعل، و «فيها» ظرف أو حال، والمراد بالروح جبريل عليه السلام.

[وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة؛ جعله حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة.

وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة، وأقربهم إلى الله تعالى^(٤).

وقيل: هم جند الله - تعالى - غير الملائكة رواه ابن عباس مرفوعاً حكاه^(٥) الماوردي.

(١) ينظر تفسير القرطبي (٨٩/٢٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٩)، عن مجاهد وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) ينظر التفسير الكبير للفيخر الرازي (٣٠/٣٢).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٢٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن علي بن عروة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٠/٢٠). (٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣١٣).

وقيل: الروح خلق عظيم يقوم صفاً واحداً، والملائكة صفاً^(١).

وقيل: «الرُّوح»: الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها، بدليل قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، أي: بالرحمة فيها، أي: في ليلة القدر.

قوله: ﴿يَاذُنِ رَبِّهِمْ﴾. يجوز أن يتعلق بـ «تَنْزَلُ»، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من المرفوع بـ «تَنْزَلُ» أي: ملتبساً بإذن ربهم.

قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. يجوز في «مِنْ» وجهان:

أحدهما: أنها بمعنى اللام، وتتعلق بـ «تَنْزَلُ»، أي: تنزل من أجل كل أمر قضي إلى العام القابل.

الثاني: أنها بمعنى الباء، أي: تنزل بكل أمر، فهي للتعدي، قاله أبو حاتم.

وقرأ العامة: «أمر» واحد الأمور.

وقرأ ابن عباس، وعكرمة^(٢)، والكلبي: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، أي: من أجل كل

إنسان.

قال القرطبي^(٣): وتأولها الكلبي على أن جبريل - عليه السلام - ينزل فيها مع

الملائكة، فيسلمون على كُلِّ أَمْرٍ مسلم، فـ «مِنْ» بمعنى «عَلَى».

وقيل: من أجل كل ملك، وهو بعيد.

وقيل: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» ليس متعلقاً بـ «تَنْزَلُ» إنما هو متعلق بما بعده، أي: هي سلام

من كل أمر مخوف، وهذا لا يتم على ظاهره؛ لأن «سلام» مصدر لا يتقدم عليه معموله، وإنما المراد أنه متعلق بمحذوف يدل عليه هذا المصدر.

فصل في معنى الآية

قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن «هِيَ» ضمير الملائكة، و «سلام» بمعنى التسليم، أي: الملائكة ذات

التسليم على المؤمنين من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر وقيل: الملائكة يسلم بعضهم على بعض فيها.

الثاني: أنها ضمير ليلة القدر، و «سلام» بمعنى سلامة، أي: ليلة القدر ذات سلامة

من كل شيء مخوف.

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٠٦، والبحر المحيط ٨/٤٩٣، والدر المصون ٦/٥٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩١.

قال الضحاك: لا يقدر الله - تعالى - في تلك الليلة إلا السلامة^(١).

وقيل: هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة، قاله مجاهد^(٢).
وعلى التقديرين: يجوز أن يرتفع «سلام» على أنه خبر مقدم، و «هي» مبتدأ مؤخر، وهذا هو المشهور، ويجوز أن يرتفع بالابتداء، و «هي» فاعلة عند الأخفش؛ لأنه لا يشترط الاعتماد على الوصف.

وقد تقدم أن بعضهم يجعل الكلام تاماً على قوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ»، وتعلق «كُلُّ أَمْرٍ» بما بعده، وتقدم تأويله.

وقال أبو الفضل: «وقيل: معناه هي سلام من كل أمرٍ أو امرئ؛ أي سالمة، أو مسلمة منه، ولا يجوز أن يكون «سلام» بهذه اللفظة الظاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله، لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر، كما أن الصفة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول» انتهى.

[وقد تقدم أن معنى ذلك عند هذا القائل أن يتعلق بمحذوف مدلول عليه بـ «سلام» فهو تفسير معنى لا تفسير إعراب]^(٣).

وما يروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الكلام تمَّ عند قوله تعالى: «سلام» ويتبدى بـ «هي» على أنها خبر مبتدأ، والإشارة بذلك إلى أنها ليلة السابع والعشرين، لأن لفظه: هي سابعة وعشرون، من كلم هذه السورة، فلا ينبغي أن يعتقد صحته لأنه إلغاز وتغيير لنظم أفصح الكلام.

[قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ متعلق بـ «تنزل» أو بـ «سلام» وفيه إشكال للفصل بين المصدر والمعمول للمبتدأ، إلا أن يتوسع في الجار].

وقرأ الكسائي وابن محيصن: «مطلع» بكسر اللام، والباقون^(٤): بالفتح، والفتح هو القياس، والكسر سماع، وله أخوات تحفظ فيها الكسر مما ضم مضارعه، أو فتح، نحو: المَشْرِق، والمَغْرِب، والمنْشِك، والمنْشِكِن، والمُخْشِر، والمنْشِقَط.

قال القرطبي^(٥): «حكى في ذلك كله الفتح والكسر».

وهل هما مصدران أو المفتوح مصدر، والمكسور مكان؟ خلاف، وعلى كل تقدير، فالقياس في الفعل مطلقاً مما ضمت عين مضارعه أو فتحت فتح العين، وإنما يقع الفرق في المكسور العين الصحيح، نحو: «يضرِب».

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩١/٢٠). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: السبعة ٦٩٣، والحجة ٤٢٧/٦، وإعراب القراءات (٥١٠/٢)، وحجة القراءات ٧٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩١/٢٠.

فصل في تعيين ليلة القدر

اختلفوا في تعيين ليلة القدر، فالأكثر على أنها ليلة سبع وعشرين، لحديث أبي ابن كعب: أنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين^(١).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مُتَحَرِّياً لِلَّيْلَةِ الْقَدْرِ فَلْيَتَحَرَّهَا فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ»^(٢).

وقال أبي بن كعب: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ»^(٣).

وقال أبو بكر الوراق: كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فيكون سبعة وعشرين.

وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائه، فوجدته عذبا سلسا.

وقال أبو هريرة وغيره: هي في ليلة السنة كلها^(٤)، وإليه ذهب أبو حنيفة، وعنه أنها رفعت، وأنها إنما كانت مرة واحدة قال الخليل: من قال: إن فضلها لنزول القرآن [يقول] انقطعت، والجمهور على أنها في كل عام من رمضان، ثم اختلفوا.

ف قيل: هي ليلة إحدى وعشرين، وإليه مال الشافعي - رضي الله عنه - لحديث الماء والطين.

وقيل: ليلة الثالث والعشرين، لما روى ابن عمر - رضي الله عنه - أن رجلا قال: يا رسول الله، إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى، فقال النبي ﷺ: «أَرَى زُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَّأَتْ عَلَى ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الشَّهْرِ شَيْئاً فَلْيَقُمْ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ»^(٥).

وقيل: ليلة خمس وعشرين، لما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى»^(٦).

(٢) تقدم.

(١) تقدم في «سورة البقرة».

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٨٦)، والبيهقي (٣١٢/٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٩٣/٣)، وابن خزيمة (٣٣٠/٣)، رقم (٢١٨٩)، وابن حبان (٩٢٥ - موارد)، من حديث معاوية مرفوعاً.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٩٢/٢٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٠١/٤)، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: التماس ليلة القدر في السبع الأواخر رقم (٢٠١٥)، ومسلم (٨٢٢/٢)، كتاب: الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها... رقم (٢٠٥ - ١١٦٥).

(٦) تقدم.

[قال مالك رضي الله عنه: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وبالسابعة ليلة ثلاث وعشرين، وبالخامسة ليلة خمس وعشرين.
وقيل: سبع وعشرين وقد تقدم]^(١).

وقيل: ليلة تسع وعشرين، لقول النبي ﷺ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ، وَالسَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ»^(٢).

وقال الحسن - رضي الله عنه -: «ارتقت الشمس ليلة أربع وعشرين وعشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة»^(٣).

[وروي عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنها في ليالي الأفراد من النصف الأخير من شهر رمضان مستقلة في ليالي الجمع، ونظمه محمد ابن الأثير فقال: [الطويل]

٥٢٦٣أ - ثلاث شُرُوطُ هُنَّ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ كَذَا قَالَ شَيْخُ الْعَرَبِ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ
فَأَوَّلُهَا وَتَرَّ وَلَيْلَةٌ جُمُعَةٌ وَثَالِثُهَا النِّصْفُ الْأَخِيرُ مِنَ الشَّهْرِ
وقيل: هي تنتقل في جميع السنة]^(٤).

قالوا: والحكمة في إخفائها ليجتهد الناس في إحياء جميع الليالي، كما أخفى رمضان في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى ساعة الإجابة في الدعاء، ليبالغوا في كل الساعات، وأخفى الاسم الأعظم، ليعظموا كل الأسماء، وأخفى قبول التوبة، ليحافظوا على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت، ليخاف الموت المكلف، وكذلك أخفى هذه الليلة، ليعظموا جميع ليالي رمضان.

فصل في أحكام تتعلق بليلة القدر

نقل القرطبي^(٥) عن بعض العلماء: أن من علق طلاق امرأته، أو عتق عبده بليلة القدر لم يقع الطلاق والعتق إلى مضي سنة من يوم حلف، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت، فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا لمضي حول.

وفي هذا نظر؛ لأنه تقدم عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنها رفعت، فعلى هذا لا ينبغي أن يقع شيء أصلاً، لوجود الخلاف في بقائها.

وروى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْقَدْرِ، كَانَ كَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَأَخْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ»^(٦).

(١) تقدم.

(١) سقط من: ب.

(٤) سقط من: ب.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٩٣/٢٠).

(٦) تقدم تخريجه مراراً.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩١/٢٠.

سورة لم يكن

مكية في قول يحيى بن سلام، ومدنية في قول الجمهور، وهي ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة، وثلاثمائة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ① رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ ﴿

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾، هذه قراءة العامة، وخط المصحف.

وقرأ عبد الله بن مسعود^(١) - رضي الله عنه -: «لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْفَكِينَ» وهذه قراءة على التفسير.

قال ابن العربي: «وهي جائزة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة، فقد قرأ النبي ﷺ في رواية الصحيح «فَطَلَّقُوهُمْ لِقَبْلِ عَدَّتِهِمْ» وهو تفسير، فإن التلاوة هو ما كان في خط المصحف».

وقرىء: «وَالْمُشْرِكُونَ»^(٢) بالواو نسقاً على «الَّذِينَ كَفَرُوا».

قوله: ﴿مُنْفَكِينَ﴾ اسم فاعل من «انفك»، وهي هنا التامة، فلذلك لم تحتج إلى خبر.

وزعم بعضهم: أنها هنا ناقصة، وأن الخبر مقدر، تقديره: منفكين عارفين محمداً ﷺ. قال أبو حيان^(٣): وحذف خبر «كَانَ» لا يجوز اقتصاراً، ولا اختصاراً.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٠٧، والقرطبي ٢٠/٩٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٠٧، والبحر المحيط ٨/٤٩٤، والدر المصون ٦/٥٥١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٩٥.

وجعلوا قوله: [الكامل]

٥٢٦٣ ب - يَبْغِي جَوَارِكَ حَيْثُ لَيْسَ مُجِيرٌ^(١)

أي: في الدنيا، ضرورة، ووجه من منع من ذلك أنه قال: صار الخبر مطلوباً من جهتين: من جهة كونه مخبراً به، فهو أحد جزئي الإسناد، ومن حيث كونه منصوباً بالفعل، وهذا منتقض بمفعولي ظن، فإن كلا منهما فيه المعنيان المذكوران ومع ذلك يحذفان، أو أحدهما اختصاراً، وأما الاقتصار ففيه خلاف وتفصيل وتقدم ذكره.

وقوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمْ﴾ متعلق بـ «لَمْ يَكُنْ» أو بـ «مُنْفَكِينَ».

فصل

قال الواحدي: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، ولم يبين كيفية الإشكال قال ابن الخطيب^(٢): ووجه الإشكال أن تقدير الآية: لم يكن الذين كفروا إلى أن تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر الشيء المنفك عنه، والظاهر أن المراد لم ينفكوا عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، فانفكوا عنه لأن «حَتَّى» لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ، لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يقتضي زيادة كفرهم عند مجيء الرسول - عليه الصلاة والسلام - فحينئذ يحصل التناقض، والجواب من وجوه:

أحدها: وهو أحسنها، ما لخصه الزمخشري^(٣): أن الأول حكاية ما كانوا يقولونه من أنه ﷺ الموعود به لا نفك عما نحن عليه من ديننا.

والثاني: إخبار عن الواقع، يعني أنهم كانوا يعدون الاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول - عليه الصلاة والسلام -، والمعنى أن الذي وقع فيه كان خلافاً لما ادعوا.

وثالثها: المعنى: لم يكونوا منفكين عن كفرهم، وإن جاءتهم بينة، قاله القاضي. إلا أن جعل «حتى» بمعنى «أن» بعيد في اللغة.

ورابعها: المعنى لم يكونوا منفكين عن ذكر محمد ﷺ بالمناقب والفضائل، حتى أتتهم البينة، والمضارع هنا بمعنى الماضي كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ١٠١]، أي ما تلت أي: ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا، ونظيره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وخامسها: أنهم كانوا متفقين على الكفر قبل البينة، فلما جاءتهم البينة تفرقوا، وتكفي هذه المغايرة.

(٢) الفخر الرازي ٣٢/٣٧.

(١) تقدم.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/٧٨٢.

وسادسها: هي كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ [البقرة ٢١٣] الآية، أي: كان كل منهم جازماً بمذهبه ودينه، فلما بعث محمد ﷺ شكوا في أديانهم، لأن قوله تعالى ﴿مُنْفِكِينَ﴾ مشعر بهذا؛ لأن الانفكاك من الشيء هو الانفصال عنه، فمعناه: أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد، وما انفصلت عن الجزم بصحتها، ثم بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة.

فصل في المراد بأهل الكتاب هنا

قال ابن عباس: أهل الكتاب الذين كانوا بـ «يثرب»، وهم: قريظة، والنضير، وبنو قينقاع، والمشركون الذين كانوا بـ «مكة» وما حولها، و «المدينة»، وهم مشركو قريش، وقوله تعالى: ﴿مُنْفِكِينَ﴾ أي: منتهين من كفرهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني محمداً ﷺ (١).

وقيل: لانتهاه بلوغ الغاية أي لم يكونوا ليلبغوا نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيتهم البينة. وقيل: منفكين زائلين إن لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيتهم رسول الله ﷺ، والعرب تقول: ما انفكت أفعل كذا، أي ما زلت، وما انفك فلان قائماً، أي: ما زال قائماً.

وأصل الفك للفتح، ومنه: فك الكتاب، وفك الخلخال.

وقيل: «مُنْفِكِينَ»، بارحين، أي: لم يكونوا ليرحوا، ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيتهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ ويسمونهم الأمين في كتابهم حتى بعث فلما بعث ﷺ حسدوه، وجحدوه، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البينة: ٤]، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبعث إليهم ﷺ فحيثئذ عادوه.

وقال بعض اللغويين: «مُنْفِكِينَ»، أي: هالكين، من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتصق فتهلك، والمعنى: لم يكونوا معذبين، ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فصل في المراد بالمشركين

قال قوم: المراد بالمشركين من أهل الكتاب، فمن اليهود من قال: عزيز ابن الله ومن النصراني من قال: عيسى هو الله.

ومنهم من قال : هو ابنه .

ومنهم من قال : هو ثالث ثلاثة وكذبوا فيما قالوا عن الله تعالى ، وأن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ، ولا ولد له ، ولا مثل ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شبيه له ، ولا صاحبة له ، ولا زوجة له ، ولا وزير له ، ولا حاجب له ، ولا بواب له ، وهو سبحانه وتعالى كما قال في كتابه المنزل على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ يُلَدٌ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وقيل : المشركون وصف لأهل الكتاب أيضاً ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم ، وتركوا التوحيد ، فالنصارى مثلثة ، وعامة اليهود مشبهة ، والكل شرك ، وهو كقولك : جاءني العقلاء والظرفاء ، وأنت تريد أقواماً بعينهم تصفهم بالأمرين ، قال تعالى : ﴿ الرَّاكِبُونَ السَّاجِدُونَ لِلْأَمْرِ وَالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١٢] ، وهذا وصف للطائفة الواحدة ، فالمعنى على هنا من أهل الكتاب المشركين .

[وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ، ثم كفروا بعد أنبيائهم ، والمشركون ولدوا على الفطرة ، ثم كفروا حين بلغوا .

وقيل : الكفر هنا هو الكفر بمحمد ﷺ أي : لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ، وهم الذين ليس لهم كتاب منفيين .

قال القرطبي : وفيه بعد ، لأن الظاهر من قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أن هذا الرسول هو محمد ﷺ .

فبعد أن يقال لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ﷺ منفيين ، حتى يأتيهم محمد رسول الله ﷺ إلا أن يقال : أراد لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ﷺ وقد كانوا من قبل معظمين له منتهين عن هذا الكفر إلى أن يبعث الله تعالى لهم محمداً ﷺ ويبين لهم الآيات ، فحينئذ يؤمن قوم^(١) .

وقرأ الأعمش وإبراهيم^(٢) : «وَالْمُشْرِكُونَ» رفعاً عطفاً على «الَّذِينَ كَفَرُوا» .

قال القرطبي^(٣) : «والقراءة الأولى أبين ، لأن الرفع يصير فيه الصنفان ، كأنهم من غير أهل الكتاب» .

وفي حرف أبي^(٤) : «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفيين» .

قال ابن الخطيب : فإن قيل : لم قال الذين كفروا ، بلفظ الفعل ، وذكر المشركين

(٣) ينظر السابق .

(١) سقط من : ب .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٩٦/٢٠ .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٩٦/٢٠ .

باسم الفاعل؟ فالجواب: أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر؛ لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل، وبمبعث محمد ﷺ بخلاف المشركين، فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان، وذلك يدل على الثبات على الكفر.

قوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

قيل: البينة، محمد ﷺ لأنه في نفسه بينة وحجة ولذلك سمّاه الله - تعالى - سراجاً منيراً.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، وهو رفع على البذل من «البَيِّنَةُ»، ولأن اللام في «البَيِّنَةُ» للتعريف أي: هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى، وقد يكون التعريف للتفخيم؛ إذ هو البينة التي لا مزيد عليها والبينة كل البينة، وكذا التنكير، وقد جمعهما الله - تعالى - هاهنا - في حق الرسول، أي: هو رسول، وأي رسول ﷺ ونظيره: قوله تعالى حين أثنى على نفسه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] فنكر بعد التعريف.

وقال أبو مسلم^(١): المراد من البينة مطلق الرسل، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: تأتيتهم رسل من ملائكة الله تعالى، تتلو عليهم صحفاً مطهرة، نظيره: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ

أَمْرٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُوَفَّىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]. وقال قتادة وابن زيد: «البَيِّنَةُ» هي القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِيَهُم بَيِّنَةٌ مَّا فِي

الْصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾^(٢) [طه: ١٣٣].

قوله: «رَسُولٌ»، العامة: على رفعه بدلاً من «البينة»، إما بدل اشتمال، وإما بدل كل من كل على سبيل المبالغة، جعل الرسول ﷺ نفس البينة، أو على حذف مضاف، أي: بينة رسول.

وقال الفراء: رفع على خبر ابتداء مضمّر، أي: هي رسول، أو هو رسول من الله لأن البينة قد تذكّر، فيقال: بَيَّنَّتِي فلان.

وقرأ عبد الله وأبي^(٣): «رسولاً» على الحال من «البينة».

وقال القرطبي^(٤): «بالنصب على القطع».

(١) ينظر: الفخر الرازي ٤٠/٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥٦/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٢)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الكشف ٧٨٢/٤، والمحرق الوجيز ٥٠٧/٥، والبحر المحيط ٤٩٥/٨، والدر المصون ٥٥٢/٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩٦/٢٠.

قوله: «من الله» يجوز تعلُّقه بنفس «رسول» أو بمحذوف على أنه صفة لـ «رسول»، وجوز أبو البقاء ثالثاً، وهو أن يكون حالاً من «صحفاً»، والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله^(١) تعالى.

يعني كانت صفة في الأصل للثكرة، فلما تقدمت عليها نصبت حالاً.

قوله: «يتلو» يجوز أن يكون صفة لـ «رسول» وأن يكون حالاً من الضمير في الجار قبله، إذا جعله صفة لـ «رسول». و «يتلو»: أي: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة. و «صحفاً» جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب.

«مُطَهَّرَةٌ»، قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة^(٢)، وقال قتادة: من الباطل^(٣).

وقيل: من الكذب والشبهات، والمعنى واحد [أي: يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب بدليل أنه كان يتلو عن ظهر قلب لا عن كتاب، ولأنه كان أميناً لا يقرأ، ولا يكتب، ومطهرة من نعت الصحف كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْهُومَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ فالمطهرة: نعت للصحف في الظاهر، وهو نعت لما في الصحف من القرآن.

وقيل: مطهرة أي: لا يمسُّها إلا المطهرون كما تقدم في سورة «الواقعة».

وقيل: الصحف المطهرة هي التي عند الله - تعالى - في أم الكتاب الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء صلوات الله عليهم من الكتب لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾^(٤).

قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾. يجوز أن تكون جملة صفة لـ «صحفاً»، أو حالاً من ضمير «مُطَهَّرَةٌ» وأن يكون الوصف أو الحال الجار والمجرور فقط، و «كتب» فاعل به، وهو الأحسن، والمراد بالكتب: الآيات المكتوبة في الصحف، والقيمة: المستقيمة المحكمة، من قول العرب: قام يقوم إذا استوى وصح.

وقال صاحب «النظم»^(٥): الكتب بمعنى الحكم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُخْلِفُكُ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ومنه حديث العسيف: «لأقضيَنَّ بينَكُمَا بكتابِ اللَّهِ»^(٦)، ثم قضى بالرَّجْم، وليس ذكر الرجم مسطوراً في الكتاب.

(١) الإملاء ٢/ ٢٩١.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩٦/٢٠).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٤١/ ٣٢.

(٥) أخرجه البخاري (١٨٥/١٢)، كتاب: الحدود، باب: الإمام يأمر رجلاً فيضرب الحد غائباً حديث (٦٨٥٩، ٦٨٦٠)، ومسلم (١٣٢٤/٣)، كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا حديث (١٦٩٨، ١٦٩٧/٢٥)، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن، سمي كتاباً، لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۖ﴾ (٥)

قوله: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. أي: من اليهود والنصارى، خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم، فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب لهم أدخل في هذا الوصف.

قوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾. أي: أتتهم البينة الواضحة، والمعني به محمد ﷺ، أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر، بغياً وحسداً، ومنهم من آمن، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ بَيِّنَةً﴾ [الشورى: ١٤] وقيل: البينة البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل.

قال العلماء: من أول السورة، إلى قوله: «قَيِّمَةُ» حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحُجج.

قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾. يعني هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: يوحده، واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى «أن» كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أن يبين، و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨].

قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. العامة: على كسر اللام، اسم فاعل، وانتصب به الدين. والحسن^(١): بفتحها، على أنهم يخلصون هم أنفسهم في شأنهم.

وانتصب «الدِّينَ» على أحد وجهين: إما إسقاط الخافض، أي: «في الدين»، وإما على المصدر من معنى «ليعبدوا»، وكأنه قيل: ليدنوا الدين، أو ليعبدوا العبادة. [فالتجوز إما في الفعل، وإما في المصدر، وانتصاب مخلصين على الحال من فاعل «يعبدون»]^(٢).

قوله: «حنفاء» حال ثانية، أو حال من الحال قبلها، أي: من الضمير المستكن فيها.

قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: وما أمروا بما أمروا به إلا لكذا، وقرأ عبد الله^(٣): وما

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٠٨، والبحر المحيط ٨/٤٩٥، والدر المصون ٦/٥٥٢.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينتظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٧.

أَمَرُوا إِلَّا أَنْ يُعْبَدُوا، أَي بَأَنْ يُعْبَدُوا، وتقدم تحرير مثله عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَرْنَا لِسُلَيْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الأنعام [آية: ٧١] (١).

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: المعنى، وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ﴾، أي: ليوحدوه، واللام بمعنى «أن» كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّالِحِينَ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] أي: العبادة، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص عمل القلب، وهو أن يراد به وجه الله لا غيره، وقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾، أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السلام (٢).

وقيل: الحنيف: من اختن وحج، قاله سعيد بن جبير.

وقال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام، أي: مال إليه.

قوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي يصلُّوها في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾، أي: يعطوها عند محلها، وقوله: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة، أي: الدين المستقيم، وقال الزجاج أي: ذلك دين الملة المستقيمة، و«الْقِيَمَةُ» نعت لموصوف محذوف، وقيل: «ذلك» إشارة إلى الدين، أي ذلك الدين الذي أمروا به أي الدين المستقيم أي ذلك دين الأمة القيمة.

وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: الكتب القيمة، لأنها قد تقدمت في الذكر، قال تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ فلما أعادها مع «أل» العهدية، كقوله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٦]، وهو حسن.

وقرأ الحسن، وعبد الله (٣): «وذلك الدين القيمة»، والتأنيث حينئذٍ، إما على تأويل الدين بالملة، كقوله: [البسيط]

٥٢٦٤ - سَائِلُ بَنِي أُسَيْدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ (٤)

وقال الخليل: القيمة جمع القيم، والقيم والقيمة واحد بتأويل: الصيحة، وإما على أنها تاء المبالغة: ك«علامة».

وقال الفراء: أضاف الدين إلى «القيمة» وهو نعت، لاختلاف اللفظين، وعنه أيضاً: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح.

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر القرطبي (٩٦/٢٠).

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٩٥، والدر المصون ٦/٥٥٢.

(٤) تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٧) ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨)

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ كما مرَّ في أول السورة، وقوله تعالى: ﴿فِي نَارٍ﴾ هذا هو الخبر، و ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر. قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

وقرأ نافع وابن ذكوان^(١): «البريئة» بالهمز في الحرفين، والباقون: بياء مشددة.

واختلف في ذلك الهمز، فقليل: هو الأصل من برأ الله الخلق: ابتدأه واخترعه، قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، فهي فعيلة بمعنى مفعولة، وإنما خفت والتزم تخفيفها عند عامة العرب.

وقد تقدم أن العرب التزمت غالباً تخفيف ألفاظ منها: النبي، والجائية، والذرية. قال القرطبي^(٢): «وتشديد الباء عوض من الهمزة».

وقيل: «البريئة» دون همز مشتقة من «البرى» وهو التراب، فهي أصل بنفسها، والقراءتان مختلفتا الأصل متفقتا المعنى. إلا أن عطية ضعف هذا، فقال^(٣): «وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ، وهو اشتقاق غير مُرْضٍ انتهى».

يعني أنه إذا قيل: إنها مشتقة من «البرى» وهو التراب، فمن أين تجيء الهمزة في القراءة الأخرى.

قال شهاب الدين^(٤): «هذا غير لازم، لأنهما قراءتان مشتقتان، لكل منهما أصل مستقل، فتلك من «برأ»، أي: خلق، وهذه من «البرى» لأنهم خلقوا منه، والمعنى بالقراءتين شيء واحد وهو جميع الخلق، ولا يلتفت إلى من ضعف الهمز من النحاة لثبوته متواتراً».

قال القشيري: «ومن قال: البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة».

وقيل: البرية: من برئت القلم، أي قدرته، فتدخل فيه الملائكة، ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب فيه تخطئة من همز.

(١) ينظر: السبعة ٦٩٣، والحجة ٤٢٨/٦، وإعراب القراءات ٥١٣/٢، وحجة القراءات ٧٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩٨/٢٠. (٣) المحرر الوجيز ٥٠٨/٥.

(٤) الدر المصون ٥٥٣/٦.

وقوله: ﴿هُمُ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة، فقيل: يحتمل أن يكون على التعميم.
وقال قوم: أي هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]، أي: على عالمي زمانكم، ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شرّ منهم، مثل: فرعون، وعافر ناقة صالح، وكذا قوله: ﴿حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ إما على التعميم، أو خير برية عصرهم، وقد استدل بقراءة الهمزة من فضل بني آدم على الملائكة.

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: المؤمن أكرم على الله - عز وجل - من بعض الملائكة الذين عنده^(١).

وقرأ العامة: ﴿حَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ مقابلاً لـ «شر».

وقرأ عامر بن^(٢) عبد الواحد: «خيار البرية» وهو جمع «خير» نحو: جياد، وطياب، في جمع جيد وطيب؛ قاله الزمخشري^(٣). قال ابن الخطيب^(٤): «وقدم الوعيد على الوعد، لأنه كالداء، والوعد: كالغذاء والدواء، فإذا بقي البدن استعمل الغذاء، فينتفع به البدن، لأن الإنسان إذا وقع في شدة رجع إلى الله تعالى، فإذا نال الدنيا أعرض.
قوله: ﴿جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. أي: ثوابهم عند خالقهم ومالكهم ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾.

قال ابن الخطيب^(٥): قال بعض الفقهاء: من قال: لا شيء لي على فلان انتفى الدين، وله أن يدعي الوديعة، وإن قال: لا شيء لي عنده انصرف إلى الوديعة دون الدين، وإن قال: لا شيء لي قبله انصرف إليهما معاً، فقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يفيد أنها أعيان مودعة عنده، والعين أشرف من الدين، والضمان إنما يرغب فيه خوف الهلاك، وهو محال في حقه تعالى. وتقدم الكلام على نظيره.

قوله: ﴿يَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، الجنات: البساتين، والعدن: الإقامة، يقال: عدن بالاسكان يعدن عدناً وعدوناً، أي: أقام. ومعدن الشيء: مركزه ومستقره، وقيل: «عدن»: بطنان الجنة ووسطها.

قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، حال عامله محذوف، تقديره: ادخلوها خالدين، أو أعطوها، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير المجزور في «جَزَأُوهُمْ» لثلا يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي، على أن بعضهم: أجازاه من «هم» واعتذر هنا بأن المصدر غير مقدر بحرف مصدري.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٢)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٩٥، والدر المصون ٦/٥٥٣.

(٣) ينظر: الكشف ٤/٧٨٣. (٤) الفخر الرازي ٣٢/٤٨.

(٥) ينظر السابق ٣٢/٥١.

قال أبو البقاء^(١): وهو بعيد، وأما «عند ربهم» فيجوز أن يكون حالاً من «جزاؤهم»، وأن يكون ظرفاً له، و «أبدأ» ظرف مكان منصوب بـ «خالدین». أي لا يظعنون ولا يموتون.

قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، يجوز أن يكون دعاء مستأنفاً، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً ثانياً بإضمار «قد» عند من يلزم ذلك.

قال ابن عباس: «رضي الله عنهم ورضوا عنه» أي: رضوا بثواب الله تعالى^(٢).

قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: ذلك المذكور من استقرار الجنة مع الخلود.

أي: خاف ربه، فتنهاى عن المعاصي.

روى أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: وسماني لك؟ قال - عليه الصلاة والسلام - : «نعم»، فبكى. خرجه البخاري ومسلم^(٣).

قال القرطبي^(٤): «من الفقه قراءة العالم على المتعلم».

قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبي، ليعلم الناس التواضع لثلاثين ألفاً من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة.

وقيل: إن أياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله ﷺ ويعلم غيره، فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه ﷺ، وفيه فضيلة عظيمة لأبي رضي الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين إذ أمر ﷺ أن يقرأ عليه. والله أعلم.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (٩٩/٢٠).

(١) ينظر: الإملاء ٢/٢٩١.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧/٨)، كتاب: التفسير، باب: سورة لم يكن (٤٩٦٠)، ومسلم (١٩١٥/٤)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بن كعب رقم (٧٩٩/١٢٢)، من حديث أنس بن مالك.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٤.

سورة الزلزلة

مدنية^(١) في قول ابن عباس وقتادة، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر^(٢)، وهي ثمان آيات، وخمس وثلاثون كلمة، ومائة وتسع وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴿

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. «إِذَا» شرط، وجوابه «تُحَدِّثُ»، وهو النَّاصِب لها عند الجمهور.

وجوّز أبو البقاء^(٣) أن يكون العامل فيها مصدراً.

وغيره يجعل العامل فيها ما بعدها، وإن كان معمولاً لها بالإضافة تقديرًا، واختاره مكي، وجعل ذلك نظير «من وما»، يعني أنهما يعملان فيما بعدهما الجزم، وما بعدهما يعمل فيهما النصب، ولو مثل بـ «أي» لكان أوضح.

وقيل: العامل فيها مقدر، أي: يحشرون.

وقيل: اذكر، وحينئذ يخرج عن الظرفية والشرط.

فصل في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة

وجه المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة، أنه تعالى لما قال: ﴿جَزَاءُهُمْ عَدْرُ رَبِّهِمْ﴾ فكان المكلف قال: ومتى يكون ذلك؟.

ف قيل له: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ فالعاملون كلهم يكونون في الخوف، وأنت في ذلك الوقت تنال جزاءك، وتكون آمناً، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ فَرَجٍ يَّوْمَئِذٍ مَّامُتُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وقيل: لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في

(١) في أ: مكية. (٢) ينظر تفسير الماوردي (٦/٣١٨).

(٣) ينظر الإملاء ٢/٢٩٢.

وعيد الكافر، فقال: أجازيه، حتى يقول الكافر السابق ذكره: ما للأرض تزلزلت، نظيره ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فذكر سبحانه الطائفتين، وذكر ما لكل طائفة، ثم جمع بينهما في آخر السورة بذكر الذرة من الخير، فإن قيل: «إذا» للوقت، فكيف وجه البداية بها في السورة؟ الجواب: أنهم كانوا يسألونه عن الساعة، فقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ فإنه تعالى يقول: لا سبيل إلى تعيينها بحسب وقتها، ولكن أعينه بحسب علاماته، أو أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تتحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد، فكأنه لما قيل: متى يكون ذلك؟ قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾.

فصل في معنى الزلزلة

روى عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان يقول: النفخة الأولى تزلزلها^(١)، وهو قول مجاهد، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ثم تزلزل ثانية، فتخرج موتاها، وهي الأثقال، وذكر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض، كقولك: لأعطيئك عطيتك، أي: عطيتي لك، وحسن ذلك لموافقة رءوس الآي بعدها.

وهو مصدر مضاف لفاعله، والمعنى زلزالها الذي تستحق ويقتضيه عظمها.

قال الزمخشري^(٢): «ونحوه قولك: أكرم التقي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته».

قرأ الجمهور: «زلزالها» بكسر الزاي، والجحدري وعيسى^(٣): بفتحها.

قيل: هما مصدران بمعنى.

وقيل: المكسور مصدر، والمفتوح اسم، قاله الزمخشري^(٤). وليس في الأبنية

«فعال» يعني غالباً، وإلا فقد ورد: ناقة جزعال.

قال القرطبي^(٥): «والزَّلْزَال - بالفتح - مصدر، كالوسواس، والقلقال والجرجار».

قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان

فوقها، فهو ثقل عليها.

وقال ابن عباس ومجاهد: «أثْقَالَهَا» موتاها، تخرجهم في النفخة الثانية^(٦).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٠/٢٠). (٢) ينظر: الكشاف ٧٨٣/٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥١٠/٥، والبحر المحيط ٤٩٦/٨، والدر المصون ٥٥٤/٦.

(٤) ينظر الكشاف ٧٨٣/٤. (٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠٠/٢٠.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٥٩/١٢)، عن ابن عباس ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» =

ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان، وقيل: «أثقالها»: كنوزها، ومنه الحديث: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الإسطوان من الذهب والفضة»^(١).

قوله: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾، أي ابن آدم، الكافر.

وقال ابن عباس: هو الأسود بن عبد الأسد.

وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى من مؤمن وكافر، وقوله: ﴿مَا لَهَا﴾ ابتداء وخبر، وهذا يرد قول من قال: إن الحال في نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩] لازمة لثلاثا يصير الكلام غير مفيد، فإنه لا حال هنا، ومعنى: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لها زلزلت، وقيل: ما لها أخرجت أثقالها! وهي كلمة تعجب، أي: لأي شيء زلزلت؟! ويجوز أن يُحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض، فتخرج الموتى، وقد رأوا الزلزلة، وانشقاق الأرض عن الموتى فيقولون من الهول: ما لها، [كأنهم يخاطبون أنفسهم تعجباً]^(٢).

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إذا زلزلت، والعامل في «يَوْمَئِذٍ»: «تُحَدَّثُ» إن جعلت «إِذَا» منصوبة بما بعدها، [أو بمحذوف، وإن جعلت العامل فيها «تُحَدَّثُ» كان «يَوْمَئِذٍ» بدلاً منها فالعامل فيه]^(٣) العامل فيها، أو شيء آخر، لأنه على تكرير العامل، وهو خلاف مشهور.

فصل في معنى الآية

معنى «تحدث أخبارها»، أي: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير، أو شر يومئذ.

ثم قيل: هو من قول الله تعالى.

وقيل: من قول الإنسان، أي: يقول الإنسان «مَا لَهَا»، «تُحَدَّثُ أخبارها» متعجباً.

روى الترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أَتَذَرُونَ ما أَخْبَارُهَا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا تَقُولُ: عَمِلَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا، قال: «فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»^(٤).

= (٦/٦٤٥)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وذكره أيضاً عن مجاهد وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٠١)، كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة (٦٢/١٠١٣)، والترمذي (٤/٤٢٧)، كتاب: التفسير، باب: (٣٦)، رقم (٢٢٠٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/٤٢٥)، من حديث أبي هريرة.

(٢) سقط من: أ.

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٤١٦)، رقم (٣٣٥٣)، والحاكم (٢/٥٣٣)، وأحمد (٢/٣٧٤)، والنسائي في =

قال الماوردي: قوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن تحدث أخبارها بأعمال العباد على ظهرها، قاله أبو هريرة - رضي الله عنه - ورواه مرفوعاً^(١)، وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة.

الثاني: قال يحيى بن سلام: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بما أخرجت من أثقالها، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة.

الثالث: قال ابن مسعود: أنها تحدث بقيام الساعة، إذا قال الإنسان: ما لها؟ فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً، فتتكلم بذلك.

الثاني: أن الله يحدث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام.

قال الطبري^(٢): تبين أخبارها بالرجة^(٣)، والزلزلة، وإخراج الموتى.

قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ متعلق بـ «تُحَدِّثُ»، أي: تحدث الأرض بما أوحى إليها ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها.

وقيل: الباء زائدة و «أَنَّ» وما في حيزها بدل من أخبارها.

وقيل: الباء سببية، أي: بسبب إحياء الله إليها.

وقال الزمخشري: «فإن قلت^(٤): أين مفعولاً «تُحَدِّثُ»؟»

قلت: حذف أولهما، والثاني: أخبارها، أي: تحدث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً لليوم.

فإن قلت: بم تعلقت الباء، في قوله «بِأَنَّ رَبَّكَ»؟

قلت: بـ «تحدث» ومعناه: تحدث أخبارها بسبب إحياء ربك لها، وأمره إياها

= «الكبرى» (٥٢٠/٦)، والطبري في «تفسيره» (٦٦١/١٢) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٤٥/٦) وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الشعب».

(٢) جامع البيان ١٢/٦٦٠.

(١) هو الحديث السابق.

(٤) ينظر: الكشف ٤/٧٨٤.

(٣) في أ: بالرجفة.

بالتحديث، ويجوز أن يكون المعنى: يومئذٍ تحدثُ بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها، كما تقول: نصحتني كُلُّ نصيحة بأن نصحتني في الدين».

قال أبو حيان^(١): وهو كلام فيه عفش، ينزه القرآن عنه.

قال شهاب الدين^(٢): وأي عفش فيه، فصحته وفصاحته، ولكنه لما طال تقديره من جهة إفادة هذا المعنى الحسن جعله عفشاً وحاشاه.

ثم قال الزمخشري^(٣): «ويجوز أن يكون «بأن ربك» بدلاً من «أخبارها» كأنه قيل: يومئذٍ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها، لأنك تقول: حدثته كذا، وحدثته بكذا».

قال أبو حيان^(٤): «وإذا كان الفعل تارة يتعدى بحرف جر، وتارة يتعدى بنفسه، وحرف الجر ليس بزائد، فلا يجوز في تابعه إلا الموافقة في الإعراب، فلا يجوز: «استغفرتُ الذنب العظيم» بنصب «الذنب» وجر «العظيم» لجواز أنك تقول: «من الذنب»، ولا «اخترتُ زيداً الرجال الكرام» بنصب «الرجال» وخفض «الكرام»، وكذلك لا يجوز: «استغفرتُ من الذنب العظيم» بجر «الذنب» ونصب «العظيم»، وكذلك في «اخترتُ» فلو كان حرف الجر زائداً جاز الإتيان على موضع الاسم، بشروطه المحررة في علم النحو، تقول: ما رأيت من رجل عاقلاً، لأن «من» زائدة، ومن رجل عاقل على اللفظ، ولا يجوز نصب «رجل» وجر «عاقل» على مراعاة جواز دخول «من» وإن ورد شيء من ذلك، فبابه الشعر». انتهى.

قال شهاب الدين^(٥): ولا أدري كيف يلزم الزمخشري ما ألزمه به من جميع المسائل التي ذكرها، فإن الزمخشري يقول: إن هذا بدل مما قبله، ثم ذكر مسوغ دخول الباء في البديل، وهو أن المبدل منه يجوز دخول الباء عليه، فلو حل البديل محل المبدل منه ومعه الباء لكان جائزاً، لأن العامل يتعدى به، وذكر مسوغاً لخلو المبدل منه من الباء، فقال: «لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا»، وأما كونه يمتنع أن يقول: «استغفرتُ الذنب العظيم» بنصب «الذنب» وجر «العظيم» إلى آخره، فليس في كلام الزمخشري شيء منه ألبتة، ونظير ما قاله الزمخشري في باب «استغفر» أن تقول: استغفرتُ الله ذنباً من شمتي زيداً، فقولك «من شمتي» بدل من «الذنب»، وهذا جائز لا محالة.

قوله ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾. في هذه اللام أوجه:

(٢) الدر المصون ٦/ ٥٥٥.

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٩٧.

(٣) الكشف ٤/ ٧٨٤.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٥٥٥.

أحدها: أنها بمعنى «إلى»، وإنما أُوثرت على «إلى» لمراعاة الفواصل، والمعنى: أوحى لها تحدث أخبارها بوحى الله تعالى لها أي إليها، والعرب تضع لام الصفة موضع «إلى»، قال العجاج يصف الأرض: [الرجز]

٥٢٦٥ - أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ^(١) قاله أبو عبيدة.

الثاني: على أصلها، «أوحى» يتعدى باللام تارة، وبـ «إلى» أخرى، ومنه البيت.
الثالث: اللام على بابها من العلة، والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، تقديره: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض، أي: لأجل ما يفعلون فيها.
قال الثوري: تحدث أخبارها مما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما كان^(٢) على ظهرها من خير وشر.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إما بدل من «يَوْمَئِذٍ» قبله، وإما منصوب بـ «يَصْدُرُ»، وإما منصوب بـ «اذكر» مقدراً. وقوله تعالى: ﴿أَشْتَاتًا﴾: حال من الناس، وهو جمع «شت» أي: متفرقين في الأمن والخوف والبياض والسواد، والصدر ضد الورود عن موضع الحساب، فريق إلى جهة اليمين إلى الجنة، وفريق إلى جهة الشمال إلى النار، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَفْقَرُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: «أشتاتاً» متفرقين على قدر أعمالهم، أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة^(٣).

وقيل: هذا الصدر إنما هو عند النشور، يصدرون أشتاتاً، من القبور إلى موقف الحساب ليروا أعمالهم في كتبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم، فإنهم وردوا القبور فدفنوا فيها ثم صدروا عنها، وقوله تعالى: ﴿أَشْتَاتًا﴾، أي: يبعثون من أقطار الأرض، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿لِيُرَوْا﴾ متعلق بـ «يَصْدُرُ»، وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير أي: تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها، ليروا أعمالهم، واعترض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين عن موقف الحساب، وعلى هذا تتعلّق بـ «أوحى»، وقرأ العامة: ببنائه للمفعول، وهو من رؤية البصر، فتعدى بالهمزة إلى ثان، وهو أعمالهم، والتقدير: ليريهم الله أعمالهم.

(١) ينظر ديوان العجاج ص ٢٦٦، واللسان (وحى) والمحتسب ٣٣١/٢، والبحر ٨/٤٩٧، والدر المصون ٥٥٥/٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٢/٢٠).

(٣) في أ: عمل.

وقرأ^(١) الحسن والأعرج، وقتادة، وحمام بن سلمة، ونصر بن عاصم، وطلحة، ويروى عن نافع: بفتحها.

قال الزمخشري^(٢): وهي قراءة رسول الله ﷺ مبنياً للفاعل.

قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيراً يره في الدنيا، ولا يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة^(٣).

وفي بعض الحديث: «أن الذرة لا زنة لها»، وهذا مثل ضربه الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة، ولا كبيرة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقد تقدم أن الذر لا وزن له.

وذكر بعض أهل اللغة: أن الذر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذر، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض، ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة^(٤).

وقيل: الذر نملة صغيرة، وأصغر ما تكون إذا مضى عليها حول.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٢٦٦ - مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرَفِ لَوْ دَبَّ مُحَوِّلٌ مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِنْبِ مِنْهَا لَأَثَرًا^(٥)

قال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله ووطنه، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ونفسه وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شر^(٦)، ودليله ما رواه أنس - رضي الله عنه - أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ [وأبو بكر يأكل فأمسك، وقال: يا رسول الله^(٧)، وإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال النبي: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما

(١) ينظر: إعراب القراءات ٥١٦/٢، والمححر الوجيز ٥١١/٥، والبحر المحيط ٤٩٨/٨، والدر المصون ٥٥٥/٦.

(٢) الكشف ٧٨٤/٤. (٣) ينظر القرطبي (١٠٢/٢٠).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٣/٢٠). (٥) تقدم.

(٦) ينظر القرطبي (١٠٣/٢٠). (٧) سقط من أ.

تَكَرَّهُ فَهُوَ مَثَاقِيلُ ذُرِّ الشَّرِّ، ويدخر لكم مَثَاقِيلُ ذُرِّ الْخَيْرِ، حَتَّى تُعْطَوْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).
قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله: ﴿وَمَا أَصْنَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾
[الإنسان: ٨]، كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة،
وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النَّارَ
على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه، فإنه يوشك أن يكثر،
وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر، ولهذا قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ
بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

فصل في قراءة «يره»

قوله: ﴿يَرَهُ﴾، جواب الشرط في الموضعين.
وقرأ هشام: بسكون^(٢) هاء «يَرَهُ» وصلًا في الحرفين، وباقي السبعة: بضمها
موصولة بواو وصلًا، وساكنة وقفًا، كسائر «ها» الكناية.
ونقل أبو حيان^(٣) عن هشام وأبي بكر: سكونها.
وعن أبي عمرو: بضمها مشبعين، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية انتهى.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٢)، من حديث أنس وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٤٤ - ١٤٥)، وقال رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى بن سهل والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف. والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في «تاريخه» وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».
وله شاهد من حديث أبي أسماء الرحبي أخرجه الحاكم (٢/٥٣٢ - ٥٣٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: مرسل.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٦)، وزاد نسبه إلى إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه.

وللحديث شاهد آخر عن أبي أيوب ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٦)، وعزاه إلى ابن مردويه.
وللحديث شاهد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص ذكر الأكل أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٦)، وزاد نسبه إلى ابن أبي الدنيا في «كتاب البكاء» والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٤٤)، وقال رواه الطبراني وفيه حيي بن عبد الله المعافري وثقه ابن معين وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح. وحيي بن عبد الله ليس في إسناده الطبري.

(٢) ينظر: السبعة ٦٩٤، والحجة ٦/٤٢٩ - ٤٣٠، وإعراب القراءات ٢/٥١٦، وحجة القراءات ٧٦٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٤٩٨.

وكان ذلك لأجل الوقف على آخر السورة غالباً، أما لو وصلوا آخرها بأول «العَادِيَات» كان الحكم الإشباع، وهذا مقتضى أصولهم، وهو المنقول.
وقرأ العامة: «يَرَهُ» مبنياً للفاعل فيهما.

وقرأ ابن عَبَّاسٍ والحسن والحسين ابنا علي بن^(١) أبي طالب، وزيد بن علي وأبو حيوة وعاصم والكسائي في رواية الجحدريّ والسلمي وعيسى بن عمر: بضم الياء، أي: يريه الله إياه.

قال القرطبي^(٢): والأولى الاختيار، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقرأ عكرمة: «يَرَاهُ»^(٣) بالالف، إما على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة، وإما على توهم أن «من» موصولة. وتقدم هذا في أواخر «يوسف». ومعنى «يره» أي: يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعدم.
وحكى الزمخشري^(٤): أن أعرابياً آخر: «خَيْراً يره»، فقليل له: قدمت وأخرت؛ فقال: [الطويل]

٥٢٦٧ - خُذَا جَنْبَ هَرَشَى أَوْ قَفَاها فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرَشَى لَهُنَّ طَرِيقُ^(٥)
انتهى.

يريد: أن التقديم والتأخير سواء، وهذا لا يجوز - ألبتة - فإنه خطأ، فلا يعتد به قراءة. وفي نصب «خيراً، وشرأ»، وجهان:
أظهرهما: أنهما تمييز لأنه مقدار.
والثاني: أنهما بدلان من مثقال.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: هذه أحكم آية في القرآن وأصدق^(٦). وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية، القائلون بالعموم ومن لم يقل به.

(١) ينظر: السبعة ٦٩٤، والحجة ٤٢٩/٦، والمحزر الوجيز ٥/٥١٢، والبحر المحيط ٨/٤٩٨، والدر المصون ٥٥٦/٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٣.

(٣) ينظر المحزر الوجيز ٥/٥١٢، والبحر المحيط ٨/٤٩٨، والدر المصون ٥٥٦/٦.

(٤) الكشف ٤/٧٨٤.

(٥) قائله هو عقيل بن علفة ينظر سمط اللالي ١/٤٣٧، والكشاف ٤/٧٨٥، والخزانة ٢/٢٧٨، واللسان (هرش)، والدر المصون ٥٥٦/٦.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٠٤).

قال كعبُ الأحبار - رضي الله عنه -: لقد أنزل الله تعالى على محمد ﷺ آيتين، أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزيور والصحف: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١). [وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية الجامعة الفاذة]^(٢).

روى مالك في «الموطأ»: أن مسكيناً استطعم عائشة - رضي الله عنها - وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة وأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويتعجب، فقالت عائشة: أتعجب، كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة^(٣).

روى الترمذي عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ عَدَلَتْ لَهُ نِصْفَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ عَدَلَتْ لَهُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»^(٤).

وعن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ»^(٥). والله أعلم.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٤٩)، وعزاه إلى مالك وابن سعد وعبد بن حميد.

(٤) أخرجه الترمذي (٥/١٥٢)، كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت من طريق الحسن بن مسلم بن صالح العجلي ثنا ثابت عن أنس به. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن مسلم.

والحسن ذكره الحافظ في «التهذيب» (٢/٢٨٠)، وقال: وهو شيخ مجهول له حديث واحد في فضل إذا زلزلت رواه عن ثابت البناني وعنه محمد بن موسى الحرشي أخرجه الترمذي واستغربه وكذا فعل الحاكم أبو أحمد وقال العقيلي بصري مجهول في النقل وحديثه غير محفوظ وقال الآجري عن أبي داود خفي علينا أمره وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/٧٨٥)، وقال أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت ولكنه من رواية أبي القاسم الطائي وهو ساقط وشاهده عند ابن أبي شيبة والبخاري من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعاً بلفظ: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن».

سورة العاديات

مكية، في قول ابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومدنية في قول ابن عباس، وأنس بن مالك، وقتادة، وهي إحدى عشرة آية، وأربعون كلمة، ومائة وثلاثة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، جمع عادية، وهي الجارية بسرعة من العدو، وهو المشي بسرعة، والياء منقلبة عن واو لكسر ما قبلها، نحو: الغازيات، من الغزو، ويقال: عدا يَغْدُو غَدْوًا، فهو عادٍ، وهي عادية. وقد تقدم هذا في سورة «المؤمنين».

قال عامة المفسرين: يريد الأفراس تعدو في سبيل الله تعالى.

قوله: ﴿صُبْحًا﴾، فيه أوجه:

أحدها: أنه مصدر مؤكد لاسم الفاعل، فإن الضبح نوع من السير والعدو كالضبغ، يقال: ضبغ وضبغ: إذا عدا بشدة، أخذاً من الضبغ وهو الذراع، لأنه يمدده عند العدو، وكان الحاء بدل من العين، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة والمبرد.

قال عنترة: [مجزوء الكامل]

٥٢٦٨ - وَالْخَيْلُ تَغْلَمُ حِينَ تَضُ - بَحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحًا^(١)

الثاني: أنه مصدر في موضع الحال، أي: ضابحات وذوي ضبغ والضبغ: صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو، وليس بصهيل.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه حكاه، فقال: أحم أحم^(٢).

(١) ينظر الكشف ٧٨٦/٤، والقرطبي ١٥/٢٠، والبحر ٥٠٠/٨، والدر المصون ٥٥٧/٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

وقال قتادة: تضبّح إذا عدت، أي: تحمحم.

وقال الفراء: والضبّح: أصوات أنفاسها إذا عدون. وقيل: كانت تكمكم لثلاث، فيصل، فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة.

ونقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه لم يضبّح من الحيوان غير الخيل والكلب والثعلب^(١)، وهذا ينبغي أن يصح عنه؛ لأنه روي عنه أنه قال: سئلت عنها، ففسرتها بالخيّل؛ وكان علي - رضي الله عنه - تحت سقاية زمزم، فسأله، فذكر ما قلت؛ فدعاني، فلما وقفت على رأسه، قال: تفتي الناس بغير علم، والله إنها لأول غزوة في الإسلام، وهي بدر، ولم يكن معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير، فكيف تكون العاديات ضبّحاً؟ إنما العاديات الإبل من «عرفة» إلى «المزدلفة»، ومن «المزدلفة» إلى «منى» يعني إبل الحاج.

قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي - رضي الله عنه - وبه قال ابن مسعود، وعبيد بن عمير، ومحمد بن كعب، والسدي رضي الله عنهم.

ومنه قول صفية بنت عبد المطلب: [الوافر]

٥٢٦٩ - فَلَا وَالْعَادِيَّاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِأَيْدِيهَا إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ^(٢)

إلا أن الزمخشري، قال بعد ذلك^(٣): «فإن صحت الرواية، فقد استعير الضبّح للإبل، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفقان للمُهر».

ونقل غيره: أن الضبّح، يكون في الإبل، والأسود من الحيات، والبوم، والصدى، والأرنب، والثعلب، والفرس.

وأشدد أبو حنيفة رضي الله عنه: [الرجز]

٥٢٧٠ - حَنَانَةٌ مِنْ نَشْمٍ أَوْ تَأَلَبٍ تَضْبِحُ فِي الْكَفِّ ضُبَّاحِ الثَّغْلَبِ^(٤)

قال شهاب الدين^(٥): وهذا عندي من الاستعارة، ونقل أهل اللغة أن أصل الضبّح في الثعلب فاستعير للخيّل، وهو ضبّحته النار، إذا غيرت لونه ولم تبالغ، وانضبح لونه تغير لسواد قليل، والضبّح أيضاً الرماد.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٦)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر القرطبي ١٠٦/٢٠، والبحر ٨/٥٠٠، ومجمع البيان ١٠/٨٠٣، والدر المصون ٦/٥٥٨، وفتح القدير ٥/٤٨٢.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/٧٨٨.

(٤) ينظر اللسان (صبّح)، والبحر ٨/٤٩٩، والدر المصون ٦/٥٥٧.

(٥) الدر المصون ٦/٥٥٨.

الثالث من أوجه النصب: أن يكون منصوباً بفعل مقدر، أي: يضح ضبحاً، وهذا الفعل حال من «العَادِيَاتِ».

الرابع: أنه منصوب بـ «العَادِيَاتِ»، وإن كان المراد به الصوت.

قال الزمخشري^(١): «كأنه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو».

قال أبو حيَّان^(٢): «وإذا كان الضُّبْح مع العدو، فلا يكونُ معنى والعاديات معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به» انتهى.

قال شهاب الدين^(٣): لم يقل الزمخشري إنه بمعناه، إنما جعله منصوباً، لأنه لازم لا يفارقه، فكأنه ملفوظ به. وقوله: كأنه قيل؛ تفسير التلازم لا أنه هو هو.

فصل في هذا القسم

قال ابن العربي: أقسم الله تعالى بمحمد ﷺ فقال: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: ١، ٢]، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَالْعَدِيدَ صَبَحًا﴾.

وقال الشعبي: تمارى عليٌّ وابن عباس في «العَادِيَاتِ» فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج.

وقال ابن عباس: هي الخيل، ألا تراه يقول: «فَأَتْرُزَنَ بِهِ نَقْعًا» فهل تشير إلا بحوافرها، وهل تضبح الإبل؟.

فقال علي رضي الله عنه: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد^(٤).

وعلى هذا فالقول: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا﴾ أي: الحافر يرمي بالحجر من شدة العدو، فيضرب به حجارة أخرى فتوري النار، أو يكون المعنى: الذين يركبون الإبل، وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بـ «المزدلفة»، وقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَتِ صَبَحًا﴾، والإغارة: سرعة السير، وهم يدفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى «منى».

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني «مزدلفة»، لأنها تسمى بجمع، لاجتماع الحاج بها، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم بها ما تقدم ذكره من المنافع الكثيرة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٠٠.

(١) الكشف ٤/ ٧٨٦.

(٣) الدر المصون (٦/ ٥٥٨).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٢)، وعزاه إلى عبد بن حميد عن عامر الشعبي.

وأيضاً: الغرض بذكر إبل الحج: الترغيب في الحج، فإن الكنود: هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن قال: هي الخيل، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك وعطاء وأكثر المحققين، قال: إن النبي ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء، فقال المنافقون: إنهم قتلوا فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم، فالمراد: الخيل التي يغزو^(١) عليها المؤمنون.

وفي الخبر: «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حُرْمَةَ فَرَسِ الْغَازِي، فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النَّفَاقِ»، وعلى هذا القول، فالسورة مدنية، لأن الإذن في القتال إنما كان بـ «المدينة».

قوله: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾، قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين توري النار بحوافرها وهي سناكبها^(٢).

و «قَدْحًا» يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً؛ لأن الإبراء من القدح، يقال: قدح فأورى، وقدح فأصلد.

ويجوز أن يكون حالاً، فالمعنى: «قادحات»، أي: ضابحات بحوافرها ما توري النار، ويقال: قدحت الحجر بالحجر، أي: صككته به.

وقال الزمخشري^(٣): انتصب «قدحاً» بما انتصب به «ضباحاً» وكأنه جَوَزَ في نصبه ثلاثة أوجه: النصب بإضمار فعله، والنصب باسم الفاعل قبله لأنه ملازمه، والنصب على الحال، وتسمى تلك النار التي تخرج من الحوافر: نار الحباحب.

قال: [الطويل]

٥٢٧١ - تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِالْصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَابِ^(٤)

فصل في معنى الموريات

روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أوردت بحوافرها غباراً^(٥)، وهذا يخالف سائر

(١) في ب: يعدو.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٧ - ٦٦٨)، عن عكرمة وعطاء والضحاك وقتادة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٣)، عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ينظر: الكشف ٧٨٧/٤.

(٤) البيت للنابعة ينظر ديوانه (١١)، وابن الشجري ٥٨/٢، والإيضاح الشعري ص ٥٧٤، ومجمع البيان ١٠/

٨٠٢، والمعاني الكبير ص ١٠٨٠، واللسان (سلق)، (حجب). والدر المصون ٦/٥٥٨.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٠٧).

ما روي عنه في قدح النار، وإنما هذا في الإبل [وروى ابن نجيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ قال هي في القتال وهو في الحج، قاله ابن مسعود هي الإبل تطأ الحصى فيخرج منه النار^(١)].^(٢)

وأصل القدح: الاستخراج، ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد، واقتدحت بالزند، واقتدحت المرق: غرفته. ورَكِيَّ قدوح: يغرف باليد.

والقدح: ما يبقى في أسفل القدر، فيغرف بجهد، والمقدحة: ما تقدح به النار.

والقداحة والقداح: الحجر الذي يُوري النار.

يقال: وَرَى الزند - بالفتح - يري وزياً: إذا خرجت ناره، وفيه لغة أخرى: وري الزند - بالكسر - يرى فيهما، وقد مضى في سورة «الواقعة».

وقيل: هذه الآيات في الخيل، ولكن إراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها، وبين عدوهم. ويقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوطيس، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن عباس: المراد بـ ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ مكر الرجال في الحرب^(٣)، وقاله مجاهد وزيد بن أسلم: والعرب يقولون إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: والله لأمكرن بك، ثم لأورين لك.

وعن ابن عباس أيضاً: هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم^(٤).

وعنه أيضاً أنها نيران المجاهدين إذ كثرت نارها إرهاباً، ليظنها العدو كثيراً.

وقيل هي أفكار الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ويظهر بها من إقامة الحجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل.

قال القرطبي^(٥): هذه الأقوال مجاز، ومنه قولهم: فلان يُوري زناد الضلالة، والأول: الحقيقة، وأن الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها.

قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار أبي حُباحب، وكان أبو حباحب شيخاً من

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٦)، عن ابن مسعود.

(٢) سقط من: ب.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٢)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٦٨)، عن ابن عباس.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠٧/٢٠.

مضر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقد نُؤيرةً تقد مرة، وتخدم أخرى، فإن استيقظ لها أحد أطفالها، كراهية أن ينتفع بها أحد، فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا ينتفع بها.

وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فافتدحت ناراً فكذلك يسمونها.

قال النابغة: [الطويل]

٥٢٧٢ - وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقَ مَنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِالْصُّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ^(١)

قوله: ﴿فَالْغِيرَاتِ صُبَا﴾ ظرف؛ أي: التي تغير وقت الصبح، يقال: أغار يغير إغارة وغارة: إذا باغت عدواً نهباً وقتلاً وأسرأ؛ قال: [البسيط]

٥٢٧٣ - فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا شَأُوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكَبَانًا^(٢)
وأغار وغار أيضاً: نزل الغور، وهو المنهبط من الأرض.

قوله: ﴿فَأَثَرُنَ﴾. عطف الفعل على الاسم، لأن الاسم في تأويل الفعل لوقوعه صلة لـ «أل».

قال الزمخشري^(٣): «معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، يعني في الأصل؛ إذ الأصل: واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن».

قوله: ﴿يَهِي﴾. في الهاء أوجه:

أحدها: أنه ضمير الصبح، أي: فأثرن في وقت الصبح غباراً. وهذا حسن، لأنه مذكور بالتصريح.

الثاني: أنه عائد على المكان، وإن لم يجر له ذكر؛ لأن الإشارة لا بد لها من مكان، والسياق والعقل يدلان عليه، وإذا علم بالمعنى جاز أن يكون عما لم يجر له ذكر بالصريح كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]. وفي عبارة الزمخشري: «وقيل: الضمير لمكان الغارة»، وهذا على تلك اللغة وإلا فالفصح أن تقول: الإغارة.

الثالث: أنه ضمير العدو الذي دل عليه «والعاديات».

وقرأ العامة: بتخفيف التاء، أثار كذا إذا نشره وفرقه مع ارتفاع.

وقرأ أبو حيوة، وابن^(٤) أبي عبله: بتشديدها.

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) الكشف ٧٨٨/٤.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥١٤، والبحر المحيط ٨/٥٠١، والدر المصون ٦/٥٥٩.

وخرجه الزمخشري^(١) على وجهين:

الأول: بمعنى فأظهروا به غباراً؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار.

الثاني: قلب «ثورن» إلى «وثرن»، وقلب الواو همزة انتهى.

يعني: الأصل «ثورن» من ثور يثور - بالتشديد - عداه بالتضعيف كما يعدى بالهمزة في قولك: أثاره ثم قلب الكلمة بأن جعل العين وهي الواو موضع الفاء وهي الشاء، ووزنها حينئذ «عفلن» ثم قلب الواو همزة، فصار: «أثرن»، وهذا بعيد جداً، وعلى تقدير التسليم، فقلب الواو المفتوحة همزة لا ينقاس، إنما جاءت منه ألفاظ كـ «أحد وأناة» والنقع: الغبار.

وأنشد: [البسيط]

٥٢٧٤ - يَخْرُجْنَ مِنْ مُسْتَطَارِ النَّقْعِ دَائِمَةً كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ^(٢)

وقال ابن رواحة: [الوافر]

٥٢٧٥ - عَدِمْتُ بُنْيَتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُشِيرُ النَّقْعُ مِنْ كَنَفِي كَدَاءٍ^(٣)

وقال أبو عبيدة: النقع، رفع الصوت؛ قال لبيد: [الرملي]

٥٢٧٦ - فَمَتَى يَنْقَعُ صُرَاخٌ صَادِقٌ يُخْلِبُوهَا ذَاتَ جَرَسٍ وَرَجَلٍ^(٤)

يروى: «يجلبوها» أيضاً، يقول: متى سمعوا صراخاً أجلبوا الحرب، أي: جمعوا لها، وقوله: «ينقع صراخ» يعني رفع الصوت.

قال الزمخشري^(٥): ويجوز أن يراد بالنقع: الصياح، من قوله عليه الصلاة والسلام: «لَمْ يَكُنْ نَقْعٌ وَلَا لَقْلَقَةٌ»^(٦).

(١) ينظر: الكشف ٧٨٧/٤.

(٢) قائله هو عدي بن الرقاع العاملي ينظر سمط اللآلئ ٢/٢٧٦، والاقتضاب ص ٣٢٢، والأمالى ٢/٢٧٤، والبحر ٨/٤٩٩، والدر المصون ٦/٥٥٩.

(٣) ينظر القرطبي ١٠٨/٢، والبحر ٨/٤٩٩، والدر المصون ٦/٥٥٩، وفتح القدير ٥/٤٨٢.

(٤) ينظر ديوان لبيد ص ١٤٦، والكامل ١/٣٣١، والكشف ٤/٧٨٧، والاقتضاب ص ٤١٩، والأضداد للأصمعي ص ٥٤، والبحر ٨/٥٠٠، واللسان (نقع)، والدر المصون ٦/٥٥٩.

(٥) ينظر: الكشف ٧٨٧/٤.

(٦) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشف» (٧٨٧/٤)، وقال: لم أجده مرفوعاً، وإنما ذكره البخاري في الجنازات تعليقاً عن عمر قال: «دعهم يبيكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة»، قال: والنقع التراب على الرأس واللقلة الصوت. ووصله عبد الرزاق والحاكم وابن سعد وأبو عبيد الحاربي في الغريب كلهم من طريق الأعمش عن أبي وائل قال: «وقيل لعمر: إن نسوة من بني المغيرة قد اجتمعن في دار خالد بن الوليد يبيكين عليه وإنا نكره أن يؤذنين فلو نهيتهن فقال: ما=

وقول لبيد : [الرمل]

٥٢٧٧ - فَمَتَى يَنْفَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ^(١)

أي : فهيجن في المغار عليهم صياحاً وجلبة .

وقال أبو عبيد : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم ، انتهى . فعلى هذا تكون الباء بمعنى «في» ويعود الضمير على المكان الذي فيه الإغارة ، كما تقدم .

وقال الكسائي : قوله : «نَفْعٌ وَلَا لِقْلَقَةٌ» النقع : صنعة الطعام ، يعني في المأتم يقال منه : نقعت أنقع نقعاً . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النقيعة ، وإنما النقيعة عند غيره من العلماء : صنعة الطعام عند القدوم من سفر ، لا في المأتم .

وقال بعضهم : يريد عمرو بالنقع وضع التراب على الرأس فذهب إلى أن النقع هو التراب .

قال القرطبي^(٢) : ولا أحسب عمراً ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهم ، وكيف يبلغ خوفه ذا ، وهو يكره لهن القيام ، فقال : يسفكن من دموعهن وهن جلوس .

قال بعضهم : النَّقْعُ : شق الجيوب قال : وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأما اللَّقْلَقَةُ : فشدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافاً .

[قال محمد بن كعب القرظي : النقع بين «مزدلفة» إلى «منى»^(٣) .

وقيل : إنه طريق الوادي ، ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع .

وفي «الصحيح»^(٤) النقع الغبار ، والجمع : النقاغ والنقع محبس الماء ، وكذلك ما اجتمع في البئر منه .

وفي الحديث أنه نهى أن يمنع نقع^(٥) البئر .

= عليهن أن يهرقن من دموعهن على أبي سليمان سجلاً أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة» وفي رواية ابن سعد قال وكيع : النقع الشق ، واللقلقة الصوت . وقال بعضهم : رفع التراب على الرأس وشق الجيوب . وأما اللقلقة فهي شدة الصوت ولم أسمع فيه خلافاً وقال الحربي عن الأصمعي النقع الصباح . وعن أبي سلمة هو وضع التراب على الرأس .

(١) تقدم . (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/٢٠ .

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠٨/٢٠) ، عن محمد بن كعب القرظي .

(٤) ينظر الصحيح ١٢٩٢/٣ .

(٥) أخرجه ابن ماجه (٨٢٨/٢) ، كتاب : الرهون ، باب : النهي عن منع فضل الماء ليمنع به الكلال حديث (٢٤٧٩) ، من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : لا يمنع فضل الماء ولا يمنع نقع البئر .

والنقع: الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء، والجمع: نقاع وأنقع، مثل: بحار وبحر وأبحراً^(١).

قوله: ﴿فَوَسَطْنَ﴾. العامة على تخفيف السين.

وفي الهاء في «به» أوجه:

أحدها: أنها للصبح.

والثاني: أنها للنقع، أي: وسطن النقع الجمع، أي: جعلن الغبار وسط الجمع. والباء للتعدي، وعلى الأول هي ظرفية.

الثالث: الباء للحالية، أي فتوسطن ملتبساً بالنقع، أي: بالغبار، جمعاً من جموع الأعداء.

وقيل: الباء مزيدة نقله أبو^(٢) البقاء.

و «جَمَعاً» على هذه الأوجه: مفعول به.

الرابع: أن المراد بـ «جمع» «المزدلفة» وهي تسمى جمعاً، والمراد: أن الإبل تتوسط جمعاً الذي هو «المزدلفة»، كما مرَّ عن أمير المؤمنين فالمراد بالجمع مكان، لا جماعة الناس، كقول صفية: [الوافر]

٥٢٧٨ - فَلَا وَالْعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ^(٣)

وقول بشر بن أبي خازم: [الكامل]

٥٢٧٩ - فَوَسَطْنَ جَمْعَهُمْ وَأَفْلَتَ حَاجِبٌ تَخَتَّ الْعَجَاجَةُ فِي الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ^(٤)

و «جَمَعاً» على هذا منصوب على الظرف، وعلى هذا فيكون الضمير في «به» إما للوقت أي في وقت الصبح، وإما للنقع، وتكون الباء للحال، أي: ملتبسات بالنقع، إلا أنه يشكل نصب الظرف المختص إذ كان حقه أن يتعدى إليه بـ «في».

وقال أبو البقاء^(٥): إن «جمعاً» حال، وسبقه إليه مكى. وفيه بعد؛ إذ المعنى على أن الخيل توسطت جمع الناس.

وقرأ علي، وزيد^(٦) بن علي، وقتادة، وابن أبي ليلى: بتشديد السين، وهما لغتان بمعنى واحد.

(١) سقط من: ب. (٢) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٢.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر المفضليات ٦٨٢، والجمهرة (٤٠٢)، والبحر ٨/ ٥١، والدر المصون ٦/ ٥٦٠.

(٥) الإملاء ٢/ ٢٩٢.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥١٤، والدر المصون ٦/ ٥٦٠.

وقال الزمخشري^(١): «التشديد للتعدية، والباء مزيدة للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَّتَشَبِّهًا﴾ [البقرة: ٢٥] وهي مبالغة في وسطن» انتهى.

وقوله: «وهي مبالغة» تناقض قوله أولاً للتعدية، لأن التشديد للمبالغة لا يكسب الفعل مفعولاً آخر، تقول: «ذبحت الغنم» مخففاً، ثم تبالغ فتقول: «ذَبَّحْتُهَا» - مثقلاً - وهذا على رأيه قد جعله متعدياً بنفسه، بدليل جعله الباء مزيدة، فلا تكون للمبالغة.

فصل في معنى الآية

المعنى: فوسطن بركبانهن العدو، أي: الجمع الذين أغاروا عليهم.

وقال ابن مسعود: «فوسطن به جمعاً» يعني «مزدلفة»، وسميت جمعاً لاجتماع الناس فيها^(٢).

ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطاً وسطة، أي: صرت وسطهم، وقد أكثر الناس في وصف الخيل وهذا الذي ذكره الله أحسن.

وقال رسول الله ﷺ: «الْحَيْلُ مَغْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ»^(٣). وقال أيضاً: «ظهرها حرز وبطنها كنز».

ويروى أن بنت امرئ القيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، هل أنزل عليك ربك كلاماً في صفة الحَيْلِ كلاماً أفصح مما قاله جدي؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «وما قال جدك؟» قالت: [الطويل]

٥٢٨٠ - مَكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخِرَ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلٍّ^(٤)
فقال - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَالْمَدِينَتِ ضَبْعًا﴾ الآيات فأسلمت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. هذا هو المقسم عليه، و «لِرَبِّهِ» متعلق بالخبر، وقدم الفواصل، والكنود: الجحود.

(٢) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٣٢٥).

(١) الكشف ٧٨٧/٤.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر ديوان امرئ القيس ص ١٩، وإصلاح المنطق ص ٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٢٦، وخزانة الأدب ٣٩٧/٢، ٢٤٢/٣، ٣٤٣، والدرر ١١٥/٣، وشرح أبيات سيبويه ٣٣٩/٢، وشرح التصريح ٥٤/٢، وشرح شواهد المغني ٤٥١/١، والشعر والشعراء ١١٦/١، والكتاب ٢٢٨/٤، والمقاصد النحوية ٤٤٩/١، ورصف المباني ص ٣٢٨، وشرح الأشموني ٣٢٣/٢، وشرح شذور الذهب ص ١٤٠، ومغني اللبيب ١٥٤/١، والمقرب ٢١٥/١، وجمع الهوامع ٢١٠.

وقيل : الكفور لنعمه ؛ وأنشد : [الطويل]

٥٢٨١ - كَنُودٌ لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ كَنُوداً لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ يُبْعَدُ^(١)

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - هو بلسان «كندة» و «حضر موت» : العاصي ، وبلسان «ربيعة» و «مضر» : الكفور ، وبلسان «كنانة» : البخيل^(٢) .

وأنشد أبو زيد : [الخفيف]

٥٢٨٢ - إِنْ تَفْتَنِي فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً غَيْرَ أَنِّي أُمْسِي بِدَهْرٍ كَنُودٍ^(٣)

وقيل : لسان الجاحد للحق . وقيل : إنما سميت كندة لأنها جحدت أباه .

وقيل : الكنود : من كند إذا قطع ، كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر ، ويقال : كند الخيل : إذا قطع ؛ قال الأعشى : [المقارب]

٥٢٨٣ - يُعْطِي عَطَاءً بِصُلْبِ الْفُؤَادِ وَضُولِ حِبَالٍ وَكُنَادِهَا^(٤)

فهذا يدل على القطع ، ويقال : كند يكند كنوداً ، أي : كفر النعمة وجحدها ، فهو كنود ، وامرأة كنود أيضاً ، وكند مثله ؛ قال الأعشى : [الكامل]

٥٢٨٤ - أَخَذْتُ لَهَا تُحْدِثُ لَوْضِكَ إِنَّهَا كُنْتُ لَوْضِلِ الزَّائِرِ الْمُغْتَادِ^(٥)

أي : كفور للمواصلة ، وروى أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «الكنود : هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفته ، ويضرب عبده» خرجه الترمذي الحكيم في نواذر الأصول^(٦) . وقال الحسن : الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصيبات ، وينسى النعم

(١) ينظر القرطبي ١٦٠/٢٠ ، والبحر ٥٠٠/٨٠ ، والدر المصون ٥٦٠/٦ .

(٢) أخرج الشطر الأول منه الطبري في «تفسيره» (٦٧٢/١٢) ، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٣/٦) ، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .

(٣) ينظر البحر ٥٠٠/٨ ، والدر المصون ٥٦٠/٦ ، وفتح القدير ٤٨٣/٥ .

(٤) رواية الديوان :

أَمِيطِي تَمِيطِي بِصُلْبِ الْفُؤَادِ

ينظر ديوان الأعشى ص ٥٨ ، والقرطبي ١٠٩/٢٠ ، واللسان (كند) .

(٥) ينظر ديوان الأعشى ص ٥٠ ، ومجمع البيان ٩٢/١٠ ، والقرطبي ١٠٩/٢٠ .

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٧٢/١٢) ، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٤٥/٧) ، من حديث أبي أمامة مرفوعاً . وقال الهيثمي : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما جعفر بن الزبير وهو ضعيف وفي الآخر من لم أعرفه .

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٤/٦) ، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف . وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على أبي أمامة أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٧٣/١٢) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٤/٦) ، وعزه إلى البخاري في «الأدب» وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن مردويه عنه موقوفاً .

والراحات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾.

واعلم أن الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس، فلا بد من صرفه إلى كافر معين، وإن حملناه على الكل فالمعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه.

قال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر، يقول: إنه لكفور، ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً^(١). وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نعم الله في معاصي الله.

وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع. وقيل: هو الحسود الحقود.

قال القرطبي^(٢): «هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود».

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، لقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ولا يليق إلا بالكافر المنكر لذلك^(٣).

قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾. أي: وإن الله - تعالى - على ذلك من ابن آدم لشهيد، قاله ابن عباس ومجاهد وأكثر المفسرين^(٤).

وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: «وإنه» أي: وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(٥).

والأول أولى؛ لأنه كالوعيد والزجر له عن المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾. اللام متعلقة بـ «شديد» وفيه وجهان:

أحدهما: أنها المعدية، والمعنى: وإنه لقوي مطيق لحب الخير أي: المال، يقال: هو شديد لهذا الأمر، أي: مطيق له، ويقال: لشديد، أي: بخيل، ويقال للبخيل: شديد ومتشدد؛ قال طرفة: [الطويل]

٥٢٨٥ - أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ^(٦)

يقال: اعتامه واعتماه: أي: اختاره، والفاحش: البخيل أيضاً؛ قال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل.

(١) تقدم تخريجه عن ابن عباس. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١٠.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٦٤/ ٣٢)، عن ابن عباس.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٠/ ٣٠). (٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر ديوانه ص ٣٤، وابن الشجري ١/ ١١١، والكشاف ٤/ ٧٨٨، والكامل ١/ ٣٦٠، والطبري ٣/ ١٨٠، ومجمع البيان ١٠/ ٨٠٥، والبحر ٨/ ٥٠٢، والدر المصون ٦/ ٥٦١.

قال ابن زيد: سمي الله المال خيراً، وعسى أن يكون شراً وخيراً، ولكن الناس يعدونه خيراً، فسماه الله تعالى خيراً لذلك، قال تعالى: ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وسمى الجهاد سوءاً، فقال: ﴿فَأَنقَلِبُوا إِنِّعَمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسميه الناس^(١).

الثاني: أن «اللام» للعلة، أي: وإنه لأجل حب المال لبخيل.
وقيل: «اللام» بمعنى «على».

وقال الفراء: أصل نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحب للخير، فلما قدم الحب قال: «لشديد» وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، لرؤوس الآي، كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعصوف: للريح لا للأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم، طرح من آخره ذكر الريح، كأنه قال: في يوم عاصف الريح.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾. لما عد عليه قبائح أفعاله خوفه، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

العامل في «إذا» أوجه:

أحدها: «بُعْثِرَ» نقله مكِّي عن المبرد. وتقدم تحريره في السورة قبلها.

قال القرطبي^(٢): العامل في «إذا»: «بُعْثِرَ» ولا يعمل فيه «يعلم» إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت؛ إنما يراد في الدنيا، ولا يعمل فيه «خبير» لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها، والعامل في «يَوْمَئِذٍ»: «خَبِيرٌ» وإن فصل اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول «إن» على المبتدأ.

والثاني: ما دل عليه خبر «إن»، أي: إذا بعثر جوزوا.

والثالث: أنه «يَعْلَمُ»، وإليه ذهب الحوفي وأبو البقاء^(٣)، وردّه مكِّي، قال: «لأن الإنسان لا يراد منه العلم والاعتبار ذلك الوقت، وإنما يعتبر في الدنيا ويعلم».

قال أبو حيان^(٤): «وليس بمتضح، لأن المعنى: أفلا يعلم الآن».

وكان قال قبل ذلك: «ومفعول «يعلم» محذوف، وهو العامل في الظرف؛ أي: أفلا يعلم ما مآله إذا بُعْثِرَ» انتهى.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٠/٣٠). (٢) الجامع لأحكام القرآن ١١١/٢٠.

(٣) الإملاء ٢/٢٩٢. (٤) البحر المحيط ٨/٥٠٢.

فجعلها متعدية في ظاهر قوله إلى واحد، وعلى هذا فقد يقال: إنها عاملة في «إذا» على سبيل أن «إذا» مفعول به لا ظرف؛ إذ التقدير: أفلا يعرف وقت بعثرة القبور، يعني أن يقر بالبعث ووقته، و «إذا» قد تصرفت وخرجت عن الظرفية، ولذلك شواهد تقدم ذكرها.

الرابع: أن العامل فيها محذوف، وهو مفعول «يَعْلَمُ»، كما تقدم.
وقرأ العامة: «بُعْثِرَ» - بالعين - مبنياً للمفعول، والموصول قائم مقام الفاعل.
وابن مسعود^(١): بالحاء.

قال القرءاء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ «بحثر» بالحاء وحكاها الماوردي عن ابن مسعود.

وقرأ الأسود^(٢) بن زيد ومحمد بن معدان: «بحث» من البحث.
وقرأ نصر بن عاصم^(٣): «بُعْثَر» مبنياً للفاعل، وهو الله أو الملك.

فصل في معنى الآية

المعنى «أفلا يَعْلَمُ»، أي: ابن آدم «إذا بُعْثِرَ» أي: أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها.

قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع، جعلت أسفله أعلاه.

قال محمد بن كعب: ذلك حين يبعثون^(٤).

فإن قيل: لم قال: «بُعْثِرَ ما في القُبُور» ولم يقل: من في القبور؟ ثم إنه - تعالى - لما قال: «ما في القُبُور» فلم قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؟

فالجواب عن الأول: أن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء.

قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، قرأ العامة: «حَصَّل» مبنياً للفاعل وروي عن ابن عمر، وعبيد بن عمير، وسعيد بن جبير ونصر أيضاً «حصل»^(٥) خفيف الصاد مبنياً للفاعل بمعنى جميع ما في الصحف محصلاً، والتحصيل: جمع الشيء، والحصول: اجتماعه، والاسم: الحصيصة.

قال لبيد: [الطويل]

٥٢٨٩ - وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَفْيَهُ إِذَا حُصِّلَتْ عِنْدَ إِلَهِ الْخَوَاصِلِ^(٦)

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥١٥، والبحر المحيط ٨/٥٠٢، والدر المصون ٦/٥٦١.

(٢) ينظر السابق.

(٣) السابق.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ٣٠/١١١.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥١٥، والبحر المحيط ٨/٥٠٢، والدر المصون ٦/٥٦١.

(٦) ينظر ديوان لبيد ص ١٣٢، واللسان (حصل)، والفخر الرازي ٣٢/٦٨.

والتحصيل: التمييز، ومنه قيل للمنخل: محصل، وحصل الشيء - مخففاً - ظهر واستبان وعليه القراءة الأخيرة.

وقال المفسرون: «وَحْصَلُ ما في الصُّدُورِ» أي: ميز ما فيها من خير وشر، وقال ابن عباس: أبرز. قال ابن الخطيب^(١): وخص أعمال القلوب بالذكر دون أعمال الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب؛ لأنه لولا البواعث والإرادات، لما حصلت أعمال الجوارح.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ﴾. العامة: على كسر الهمزة لوجود اللام في خبرها، والظاهر أنها معلقة لـ «يَعْلَمُ» فهي في محل نصب، ولكن لا يعمل في «إذا» خبرها، لما تقدم، بل يقدر له عامل من معناه كما تقدم. ويدل على أنها معلقة للعلم، لا مستأنفة. وقراءة أبي السمال^(٢) وغيره: «أَنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يومئذٍ خبير»، بالفتح وإسقاط اللام، فإنها في هذه القراءة سادة مسد مفعولها.

ويحكى عن الحجاج - الخبيث الروح - أنه لما فتح همزة «أن» استدرك على نفسه، وتعتمد سقوط اللام، وهذا إن صح كفر، ولا يقال: إنها قراءة ثابتة، كما نقل عن أبي السمال فلا يكفر، لأنه لو قرأها كذلك ناقلاً لها لم يمنع منه، ولكنه أسقط اللام عمداً إصلاحاً للسانه، واجتمعت الأمة على أن من زاد حرفاً، أو نقص حرفاً في القرآن عمداً فهو كافر.

قال شهاب الدين^(٣): وإنما قلت ذلك لأنني رأيت أبا حيّان قال^(٤): وقرأ أبو السمال والحجاج، ولا يحفظ عن الحجاج إلا هذا الأثر السوء، والناس ينقلونه عنه كذلك، وهو أقل من أن ينقل عنه.

«ربهم»، ويومئذ متعلقان بالخبر، واللام غير مانعة من ذلك، وقدماً لأجل الفاصلة، ومعنى «خَبِيرٌ»، أي: عالم لا يخفى عليه منهم خافية، وهو عالم بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى: أنه يجازيهم في ذلك اليوم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ بَاتَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَشَهِدَ جَمْعاً»^(٥)، والله أعلم وهو حزبي.

(١) الفخر الرازي ٦٦/٣٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٧٨٩/٤، والبحر المحيط ٥٠٢/٨، والدر المصون ٥٦١/٦.

(٣) الدر المصون ٥٦١/٦ - ٥٦٢. (٤) ينظر: البحر المحيط ٥٠٢/٨.

(٥) رواه الثعلبي والواحدي في «الوسيط» وابن مردويه كما في تخريج الكشاف للزيلعي (٢٦٧/٤)، وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه مراراً.

سورة القارعة

مكية، وهي إحدى عشرة آية، وست وثلاثون كلمة، ومائة واثنان وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَبُ الْيَمِينَ مَا أَحْصَبُ الْيَمِينَ﴾ [الواقعة: ٢٧]، وقد تقدم ما نقله مكي من أنه يجوز رفع «القارعة» بفعل مضمر ناصب لـ «يوم».

وقيل: ستأتيكم القارعة.

وقيل: القارعة: مبتدأ وما بعده الخبر.

وقيل: معنى الكلام على التحذير.

قال الزجاج: والعرب تحذر، وتغري بالرفع كالنصب، وأنشد: [الخفيف]

٥٢٨٧ - لَجْدِيرُونَ بِالْوَفَاءِ إِذَا قَا لَ أَخُو التَّجْدَةِ: السَّلَاحُ السَّلَاحُ^(١)

وقد تقدم ذلك في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣]، فيمن رفعه، ويدل على ذلك قراءة عيسى^(٢): «القَارِعَةُ ما القارعة» بالنصب، بإضمار فعل، أي: احذروا القارعة و «ما» زائدة، و «القَارِعَةُ» تأكيد للأولى تأكيداً لفظياً.

والقرع: الضرب بشدة واعتماد. والمراد بالقارعة: القيامة، لأنها تفرع الخلائق بأهوالها، وأفزاعها.

وأهل اللغة يقولون: تقول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفارقة، إذا وقع بهم

(١) ينظر الخصائص ١٠٢/٣، والدرر ١١/٣، وشرح الأشموني ٤٨٣/٢، والمقاصد النحوية ٣٠٦/٤، والهمع ١٧٠/١، والبحر ٥٠٣/٨، والدر المصون ٥٦٣/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥١٦/٥، والبحر المحيط ٥٠٣/٨، والدر المصون ٥٦٣/٦.

أمر فظيع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْيِيهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ [الرعد: ٣١]، وهي الشديدة من شدائد الدهر.

قوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾، واختلفوا في سبب تسمية القيامة بالقارعة، فقيل: المراد بالقارعة: الصيحة التي يموت منها الخلائق؛ لأنها تفرع أسماعهم.

وقيل: إنَّ الأجرام العلوية والسفلية يصطكان، فيموت العالم بسبب تلك القرعة، فلذلك سميت بالقارعة، [وقيل: تفرع الناس بالأهوال كانشقاق السموات، وأقطارها وتكوير الشمس، وانتثار الكواكب، ودك الجبال ونسفها، وطبي الأرض. وقيل: لأنها تفرع أعداء الله بالعذاب]^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، أي: لا علم لك بكنهها؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد، وعلى هذا يكون آخر السورة مطابقاً لأولها.

فإن قيل: هاهنا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، ثم قال في آخر السورة: ﴿فَأَمَّهُمْ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾، ولم يقل: وما أدراك ما هاوية؟

فالجواب: الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس، وكونها هاوية ليس كذلك، فظهر الفرق.

قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ﴾. في ناصب «يَوْمَ» أوجه:

أحدها: مضمّر يدلّ عليه القارعة، أي: تفرعهم يوم يكون وقيل: تقديره: تأتي القارعة يوم.

الثاني: أنه اذكر مقدراً، فهو مفعول به لا ظرف.

الثالث: أنه «القَارِعَةُ» قاله ابن^(٢) عطية، وأبو البقاء^(٣)، ومكي.

قال أبو حيان^(٤): فإن كان عنى ابن عطية اللفظ الأول، فلا يجوز، للفصل بين العاملين وهو في صلة «أل» والمعمول بأجنبي، وهو الخبر، وإن جعل القارعة علماً للقيامة، فلا يعمل أيضاً، وإن عنى الثاني والثالث، فلا يلتئم معنى الظرفية معه.

الرابع: أنه فعل مقدر رافع للقارعة الأولى، كأنه قيل: تأتي القارعة يوم يكون. قاله مكي. وعلى هذا يكون ما بينهما اعتراضاً، وهو بعيد جداً منافر لنظم الكلام. وقرأ زيد^(٥) بن علي: «يَوْمَ» بالرفع، خبراً لمبتدأ محذوف، أي: وقتها يوم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٦٥.

(١) سقط من: ب.

(٤) البحر المحيط ٨/٥٠٤.

(٣) الإملاء ٢/٢٩٣.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/٥٠٤، والدر المصون ٦/٥٦٤.

قوله: «كالفراش». يجوز أن يكون خبراً للناقصة، وأن يكون حالاً من فاعل التامة، أي: يؤخذون ويحشرون شبه الفراش، وهو طائر معروف.

وقال قتادة: الفراش: الطير الذي يتساقط في النار والسراج، الواحدة: فراشة.

وقال الفراء: هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما، وبه يضرب المثل في

الطيش والهوج، يقال: أطيش من فراشة؛ وأنشد: [البسيط]

٥٢٨٨ - فَرَاشَةُ الْحِلْمِ فِرْعَوْنُ الْعَذَابِ وَإِنْ يَطْلُبُ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلْبٌ^(١)

وقال آخر: [الطويل]

٥٢٨٩ - وَقَدْ كَانَ أَقْوَامٌ رَدَدَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانُوا كَالْفَرَاشِ مِنَ الْجَهْلِ^(٢)

وقال آخر: [الرجز]

٥٢٩٠ - طُوِيَتْ مِنْ نَفْرِ أَطْيَاشٍ أَطْيَاشٌ مِنْ طَائِرَةِ الْفَرَاشِ^(٣)

والفراشة: الماء القليل في الإناء وفراشة القفل لشبهها بالفراشة، وروى «مسلم» عن

جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذْبُهِنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلُتُونَ مِنْ يَدِي»^(٤).

في تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى: منها الطيش الذي يلحقهم، وانتشارهم في الأرض، وركوب بعضهم بعضاً، والكثرة، والضعف، والذلة والمجيء من غير ذهاب، والقصد إلى الداعي من كل جهة، والتطير إلى النار؛ قال جرير: [الكامل]

٥٢٩١ - إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتَ وَقَوْمَهُ مِثْلُ الْفَرَاشِ غَشِيَنَ نَارَ الْمُضْطَلِّي^(٥)

والمبثوث: المتفرق، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

فأول حالهم كالفراش لا وجه له يتحير في كل وجه، ثم يكون كالجراد، لأن لها وجهاً تقصده والمبثوث: المتفرق المنتشر، وإنما ذكر على اللفظ كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥].

(١) نسب البيت إلى الضحاك بن سعد، ولسعيد بن العاصي. ينظر الحيوان ٢٥٧/١، وديوان المعاني ١٩٦/١، والدرر ٢٩٣/٥، وشرح الأشموني ٣٦٢/٢، وهمع الهوامع ١٠١/٢.

(٢) ينظر القرطبي ١١٢/٢٠، والدر المصون ٥٦٤/٦.

(٣) ينظر القرطبي ١١٢/٢٠.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٩٨/٤). وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٣١٦/١١)، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي حديث (٦٤٨٣)، ومسلم (١٧٨٩/٤)، كتاب الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته رقم (٢٢٨٤/١٨).

(٥) ينظر ديوانه (٣٣٧)، والكشاف ٧٨٩/٤، والبحر ٥٠٤/٨، والدر المصون ٦٥٤/٦.

قال ابن عباس: «كالفراش المبتوث» كخوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً، كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا^(١).

فإن قيل كيف يشبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً، لأنه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبتوث؟

فالجواب: أما التشبيه بالفرش، فبذهاب كل واحد إلى جهة الآخر، وأما التشبيه بالجراد، فبالكثرة والتتابع، ويكون كباراً، ثم يكون صغاراً.

قوله: ﴿وَتَكُونُ أَلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾. أي: الصوف الذي ينفش باليد، أي: تصير هباء وتزول، كقوله تعالى: ﴿هَبَاءٌ مُنَبِّئًا﴾ [الواقعة: ٦].

قال أهل اللغة: العهن: الصوف المصبوغ. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ سَوَفَ

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. في الموازين قولان:

أحدهما: أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى، وهذا قول الفراء، ونظيره قولك: له عندي درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك، ويقولون: داري بميزان دارك ووزن دارك، أي: حذاؤها.

والثاني: قال ابن عباس: جمع ميزان لها لسان وكفتان يوزن فيه الأعمال^(٢).

[وقد تقدم القول في الميزان في سورة «الأعراف» و «الكهف» و «الأنبياء»، وأنه له كفة ولسان يوزن فيها الصحف المكتوب فيها الحسنات، والسيئات.

ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل عليه السلام يزن به أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع.

وقيل: موازين لكل حادثة ميزان^(٣).

وقيل: الموازين: الحجج والدلائل، قاله عبد العزيز بن يحيى.

واستشهد بقول الشاعر: [الكامل]

٥٢٩٢ - قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُحَاصِمٍ مِيزَانُهُ^(٤)

ومعنى ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، أي: عيش مرضي، يرضاه صاحبه.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٣/٢٠)، عن ابن عباس.

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: القرطبي ١١٣/٢٠.

وقيل: ﴿عَيْشَةً رَاضِيَةً﴾، أي: فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة؛ لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد.

فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا كالفرس المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع، وكذلك فروع الشجرة تتدلى لارتفاعها للولي، فإذا تناول من ثمرها ترتفع، كقوله تعالى: ﴿فَطُوفُهَا دَائِمَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وحيثما مشى من مكان إلى مكان جرى معه نهر حيث شاء.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: رجحت سيئاته على حسناته، قال مقاتل وابن حيان: إنما رجحت الحسنات؛ لأن الحق ثقیل، والباطل خفيف.

قوله: ﴿فَأَنَّهُ هَاوِيَةٌ﴾، أي: هالكة، وهذا مثل يقولونه لمن هلك، تقول: هوت أمه لأنه إذا هلك سقطت أمه ثكلاً وحزناً، وعليه قوله فهي هاوية، أي: ثاكلة، قال: [الطويل]

٥٢٩٣ - هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيَا وَمَاذَا يُؤْدِي اللَّيْلُ حِينَ يَثُوبُ^(١)
فكانه قال تعالى: من خفت موازينه فقد هلك.

وقيل: الهاوية من أسماء النار، كأنها النار العميقة يهوي أهل النار فيها والمعنى: فمأواهم النار.

وقيل للمأوى: أم، على سبيل التشبيه بالأم، كما يأوي إلى أمه، قاله ابن زيد.
ومنه قول أمية بن أبي الصلت: [الكامل]

٥٢٩٤ - فَالْأَرْضُ مَغْقِلُنَا وَكَأَنَّا أُمَّا فِيهَا مَقَابِرُنَا وَفِيهَا نُؤَلَدُ^(٢)
ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من النار.
وقال عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه^(٣).

وذكر الأخفش والكلبي وقتادة: المهوى والمهواة ما بين الجبلين، ونحو ذلك، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في أثر بعض.

وقرأ طلحة^(٤): «فإمته» بكسر الهمزة، نقل ابن خالويه عن ابن دريد، أنها لغة

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي ينظر الأصمعيات ص ٩٥، والكشاف ٧٨٩/٤، واللسان (أمم، هوى)، والقرطبي ١١٤/٢٠، والبحر ٥٠٤/٨، والدر المصون ٥٦٤/٦.

(٢) ينظر القرطبي ١١٤/٢٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٧٧/١٢)، عن قتادة وأبي صالح وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦٥٥/٦)، عن عكرمة وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥١٧/٥، والبحر المحيط ٥٠٤/٨، والدر المصون ٥٦٤/٦.

النحويين لا يجيزون ذلك إلا إذا تقدمها كسرة أو ياء. وقد تقدم تحقيق ذلك في سورة «النساء».

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾، الأصل: «مَا هِيَ» فدخلت الهاء للسكت.

وقرأ حمزة، والكسائي^(١)، ويعقوب، وابن محيصن: «مَا هِيَ» بغير هاء في الوصل ووقفوا بها، وقد تقدم في سورة «الحاقة». و «مَا هِيَ» مبتدأ وخبر، سادان مسد المفعولين لـ «أَدْرَاكَ»، وهو من التعليق، وهي ضمير الهاوية، إن كانت الهاوية - كما قيل - اسماً لدركة من دركات النار، وإلا عادت إلى الداهية المفهومة من الهاوية.

قوله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾. «نَارُ» خبر مبتدأ مضمرة، أي: هي نار شديدة الحر.

روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءً مِنْ سَبْعِينَ جُزْءً مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»، قالوا: إنها لكافية يا رسول الله، قال - عليه الصلاة والسلام: «فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بَتْسَعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءً كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»^(٢).

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿القَارِعَةِ﴾ ثَقُلَ اللَّهُ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والله أعلم^(٣).

(١) ينظر: إعراب القراءات ٥٢٣/٢، وحجة القراءات ٧٧٠، والمحرم الوجيز ٥١٧/٥.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٩٤/٢)، كتاب جهنم، باب: ما جاء في صفة جهنم رقم (١)، والبخاري (٣٨١/٦)، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة رقم (٣٢٦٥)، ومسلم (٤/٢١٨٤)، كتاب الجنة، باب: في شدة حر نار جهنم رقم (٢٨٤٣/٣٠)، من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة التكاثر

مكية في قول الجميع، وروى البخاري أنها مدنية^(١)، وهي ثماني آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ^(١)﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ^(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ^(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ^(٧) ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^(٨) ﴿

قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ^(١)﴾، «الْهَأَكُم» : شغلکم؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

فَالْهَيْثُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُخُولٍ^(٢) ٥٢٩٥

أي: شغلکم المباهاة، بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى متم ودفنتم في المقابر.

قال ابن عباس والحسن: «الْهَأَكُم» : أنساكم، «التَّكَاثُرُ»، أي: من الأموال، والأولاد^(٣) قاله ابن عباس والحسن وقتادة أي: التَّفَاخُرُ بالقبائل والعشائر، وقال

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨/١١)، كتاب الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال... حديث (٦٤٤٠)،

من حديث أنس.

(٢) عجز بيت وصدره:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

ينظر: ديوانه (١٢)، والأزهية ص ٢٤٤، والجنى الداني ص ٧٥، وجواهر الأدب ص ٦٣، وخزانة الأدب ٣٣٤/١، والدرر ١٩٣/٤، وشرح أبيات سيبويه ٤٥٠/١، وشرح شذور الذهب ص ٤١٦، وشرح شواهد المغني ٤٠٢/١، ٤٦٣، والكتاب ١٦٣/٢، ولسان العرب ١٢٦/٨، ١٢٧ (وضع)، ٥١١/١١ (غيل)، والمقاصد النحويّة ٣٣٦/٣، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٧٣/٣، ورصف المباني ص ٣٨٧، وشرح الأشموني ٢٩٩/٢، وشرح ابن عقيل ص ٣٧٢، ومغني اللبيب ١٣٦/١، ١٦١، وهمع الهوامع ٣٦/٢، والقرطبي ١١٥/٣٠.

(٣) ذكره البخاري (٦٠٠/٨)، تعليقا عن ابن عباس وقال الحافظ في «الفتح» (٦٠٠/٨)، وصله ابن المنذر من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٥٩/٦)، وعزاه إلى ابن المنذر.

الضحاك: ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة، يقال: لهيت عن كذا - بالكسر - ألهى لهياً، ولهياناً: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه، وألهاه: أي: شغله، ولهاه به تلهية: أي: تملله والتكاثر: المكاثرة قال قتادة ومقاتل وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان وبني فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضللاً.

وقال ابن زيد: نزلت في فخذ من الأنصار.

وقال ابن عباس، ومقاتل، والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة، والأشراف في الإسلام، فقال كل حي منهم: نحن أكثر سيدياً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائداً، فكثر بنو عبد مناف سهماً، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم سهم، فنزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بأحيائكم فلم ترضوا «حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» مفتخرين بالأموات^(١).

وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار.

وعن شيبان عن قتادة، قال: نزلت في أهل الكتاب^(٢).

قال القرطبي^(٣): «والآية تعم جميع ما ذكر وغيره».

وروى ابن شهاب عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ لَابِنِ آدَمَ وادِيًا مِنْ ذَهَبٍ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ قَاهُ إِلَّا الثَّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»، رواه البخاري^(٤).

قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^(٥). رواه البخاري.

قال ابن العربي: وهذا نص صريح، غاب عن أهل التفسير [فجهلوا وجهلوا، والحمد لله على المعرفة]^(٦).

وقرأ^(٧) ابن عباس: «ألهاكم» على استفهام التقرير والإنكار ونقل في هذا المد مع

(١) ينظر تفسير القرطبي (١١٥/٢٠)، والرازي (٧٣/٣٢).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٥٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٥/٢٠.

(٤) تقدم تخريجه من حديث ابن عباس وأنس.

(٥) أخرجه البخاري (٨/٢٥٨)، كتاب الرقاق: باب ما يتقى من فتنة المال حديث (٦٤٤٠).

(٦) سقط من: أ.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥١٨/٥، والبحر المحيط ٥٠٦/٨، والدر المصون ٥٦٥/٦.

التسهيل، ونقل فيه بتحقيق الهمزتين من غير مد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، «حَتَّى» غاية لقوله: «أَلْهَاكُمْ»، وهو عطف عليه، والمعنى: أي أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زواراً، ترجعون فيها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار.

وقيل: ﴿أَلْهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ حتى عدتكم الأموات.

وقيل: هذا وعيد، أي: اشتغلتكم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله - عز وجل - و «المَقَابِر» جمع مَقْبَرَة، ومَقْبَرَة بفتح الباء وضمها والقبور: جمع قبر، وسمي سعيد المقبري؛ لأنه كان يسكن المقابر، وقبرت الميت أقبره وأقبره قبراً؛ أي: دفنته، وأقبرته، أي: أمرت بأن يقبر.

فصل في معنى ألهاكم

قال المفسرون: معنى الآية: ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت فأنتم على ذلك.

قال ابن الخطيب^(١): فإن قيل: شأن الزائر أن ينصرف قريباً، والأموات ملازمون القبور، فكيف يقال: إنه زار القبر؟.

وأيضاً: فقوله - جل ذكره - : ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إخبار عن الماضي، فكيف يحمل على المستقبل؟.

فالجواب عن الأول: أن سكان القبور، لا بد أن ينصرفوا منها.

وعن الثاني: أن المراد من كان مشرفاً على الموت لكبر أو لغيره كما يقال: إنه على شفير قبره وإما أن المراد من تقدمهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال أبو مسلم: إن الله يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعبيراً للكفار، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور.

فصل في ذكر المقابر

قال القرطبي^(٢): لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة.

وفيه نظر؛ لأنه تعالى قال في سورة أخرى: ﴿يَوْمَ أَمَّا لَهُ فَاقْرَءْ﴾ [عبس: ٢١].

واعلم أن زيارة القبور من أعظم الأدوية للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت، والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها.

(١) الفخر الرازي ٣٢/٧٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٦.

قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَرُزُّوْهَا، فَإِنَّهَا تُزْهِدُ فِي الدُّنْيَا، وَتَذَكِّرُ الْآخِرَةَ»^(١).

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور^(٢).

قال بعض أهل العلم: كان هذا قبل ترخيصه في زيارة القبور، فلما رخص دخل في الرخصة الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء، لقلّة صبرهن، وكثرة جزعهن.

وقال بعضهم: زيارة القبور للرجال متفق عليه، وأما النساء فمختلف فيه: أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجاز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال بغير خلاف لعدم خشية الفتنة.

فصل في آداب زيارة القبور

ينبغي لمن زار القُبُور أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظّه منها إلا التَّطَوُّاف فقط، فإن هذه حالة يشاركه فيها البهائم، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن، والدعاء، ويتجنب المشي على القبور، والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حياً، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، ويتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه أنه كيف انقطعت آماله، ولم تغن عنهم أموالهم ومحا التراب محاسن وجوههم، وتفرقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتيم أولادهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وأنّ حاله كحالهم، ومآله كمالهم.

[قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر. والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ جعله ابن مالك من التوكيد مع توسّط حرف العطف^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢/٦٧٢)، كتاب الجنائز، باب: استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه (١٠٦/٩٧٧)، من حديث بريدة بن الحصيب.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٣٧، ٣٥٦)، والطيالسي (١/١٧١)، رقم (٨١٧)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٣١٧٥)، والبيهقي (٤/٧٨)، وأبو يعلى (١٠/٣١٤)، رقم (٥٩٠٨)، من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سقط من: ب.

وقال الزمخشري: والتكرير تأكيد للردع، والرد عليهم، و «ثُمَّ» دالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول، وأشد كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: «لا تَفْعَلْ» انتهى.

ونقل عن علي - رضي الله عنه -: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» في الدنيا «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» في الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغيرات بينهما؛ لأجل تغير المتعلقين^(١)، و «ثُمَّ» على بابها من المهلة وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة، لأن الغرض الفعل لا متعلقه.

وقال الزمخشري^(٢): والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله، انتهى. فقدّر له مفعولاً واحداً كأنه جعله بمعنى «عَرَفَ».

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ما ينزل بكم من العذاب في القبور «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» في الآخرة إذا حل بكم العذاب، فالتكرار للحالين^(٣).

وروى زر بن حبیش عن علي - رضي الله عنه - قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة^(٤) فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور.

[وقيل: كلا سوف تعلمون إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسل ربكم تنزع أرواحكم، ثم كلا سوف تعلمون في القيامة أنكم معذبون، وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث، وحشر، وعرض، وسؤال، إلى غير ذلك من أهوال يوم القيامة]^(٥).

وقال الضحاك: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» أيها المؤمنون^(٦)، وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء، والثانية بالياء فالأول وعيد، والثاني وعد.

قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف، أي: لفعلتم ما لا يوصف.

وقيل: التقدير: لرجعتم عن كفركم.

قال ابن الخطيب^(٧): وجواب «لَوْ» محذوف، وليس «لتروا» جوابها، لأن هذا مثبت، وجواب «لو» يكون منفياً، ولأنه عطف عليه قوله: «ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ» وهو مستقبل، لا بد من وقوعه، وحذف جواب «لَوْ» كثير.

قال الأخفش: التقدير: لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١٨/٢٠). (٢) ينظر الكشف ٧٩٢/٤.

(٣) ينظر القرطبي في «تفسيره» (١١٨/٢٠). (٤) ينظر القرطبي (١١٨/٢٠).

(٥) سقط من: ب. (٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٧٩/١٢)، عن الضحاك.

(٧) ينظر: الفخر الرازي ٧٥/٣٢.

وقيل: لو تعلمون لماذا خلقتم لاشتغلتم وحذف الجواب أفخر، لأنه يذهب الوهم معه كل مذهب، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٧] وأعاد «كلاً»، وهو زجر وتنبيه؛ لأنه عقب كل واحد بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب.

و ﴿عَلَّمَ الْيَقِينَ﴾ مصدر.

قيل: وأصله العلم اليقين، فأضيف الموصوف إلى صفته.

وقيل: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن العلم يكون يقيناً وغير يقين، فأضيف إليه إضافة العام للخاص، وهذا يدل على أن اليقين أخص.

فصل في المراد باليقين

قال المفسرون: أضاف العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، قال قتادة: اليقين هنا: الموت^(١).

وعنه أيضاً: البعث^(٢)، لأنه إذا جاء زال الشك، أي: لو تعلمون علم البعث أو الموت، فعبّر عن الموت باليقين، كقولك: علم الطب، وعلم الحساب، والعلم من أشد البواعث على الفعل، فإذا كان بحيث يمكن العمل، كان تذكرة، وموعظة، وإن كان بعد فوات العمل كان حسرة، وندامة، وفيها تهديد عظيم للعلماء، الذين لا يعملون بعلمهم.

قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. جواب قسم مقدر، أي: لترون الجحيم في الآخرة.

والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار.

وقيل: عام [كقوله تعالى: ﴿وَلَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فهي للكفار دار، وللمؤمنين مَمَرٌ^(٣).

وقرأ^(٤) ابن عامر، والكسائي: «لَتَرُونَّ» مبنياً للمفعول، وهي مفعولة من «رأى» الثلاثي أي: أريته الشيء، فاكسب مفعولاً آخر، فقام الأول مقام الفاعل، وبقي الثاني منصوباً.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٨٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٦٠)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٨٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٦٠)، وعزاه إلى الفريابي وابن أبي شبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) سقط من: أ.

(٤) ينظر: السبعة ٦٩٥، والحجة ٦/٤٣٤، وإعراب القراءات ٢/٥٢٤، وحجة القراءات ٧٧١.

والباقون مبنياً للفاعل، جعلوه غير منقول، فتعدى لواحد فقط، فإن الرؤية بصرية.
وأمر المؤمنين، وعاصم، وابن كثير^(١) في رواية عنهم: بالفتح في الأول، والضم
في الثاني، يعني: لترونها.

ومجاهد، وابن أبي عبلة، وأشهب^(٢): بضمها فيهما.

والعامة على أن الواوين لا يهزمان؛ لأن حركتهما عارضة.

وقد نصّ مكي، وأبو البقاء على عدم جوازه، وعللا بعروض الحركة.

وقرأ الحسن وأبو عمرو^(٣) بخلاف عنهما: بهمز الواوين استقلاً لضمه الواو.

قال الزمخشري^(٤): «هي مُسْتَكْرَهَةٌ»، يعني لعروض الحركة عليها، إلا أنهم قد
همزوا ما هو أولى لعدم الهمز من هذه الواو، نحو: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ﴾ [البقرة: ١٦]
همزوا واو «اشترؤا» مع أنها حركة عارضة، وتزول في الوقف، وحركة هذه الواو، وإن
كانت عارضة، إلا أنها غير زائلة في الوقف، فهو أولى بهمزاها.

قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا مصدر مؤكد، كأنه قيل: رؤية اليقين نفيّاً
لتوهم المجاز في الرؤية الأولى.

وقال أبو البقاء^(٥): لأن «رأى»، و «عاين» بمعنى.

فصل في معنى الآية

معنى الكلام: «لَتَرَوْهُ الْجَحِيمَ» بأبصاركم على البعد «ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ» أي:
مشاهدة.

وقيل: «لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ»، معناه: «لَوْ تَعْلَمُونَ» اليوم في الدنيا «عِلْمَ الْيَقِينِ»
بما أمامكم مما وصفت «لَتَرَوْهُ الْجَحِيمَ» بعيون قلوبكم، فإن علم اليقين يريك الجحيم
بعين فؤادك، وهو أن يصور لك نار القيامة «ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ»، أي: عند المعاينة
بعين الرأس، فتراها يقيناً، لا تغيب عن عينك، «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» في موقف
السؤال والعرض.

قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، لأن أبا بكر - رضي الله عنه - لما
نزلت هذه الآية، قال: يا رسول الله ﷺ: أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥١٩، والبحر المحيط ٨/٥٠٦، والدر المصون ٦/٥٦٥.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٥٠٦، والدر المصون ٦/٥٦٥.

(٣) ينظر السابق. (٤) الكشف ٤/٧٩٢.

(٥) الإملاء ٢/٢٩٣.

التيهان من خبز شعير، ولحم، وبسر، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي يسأل عنه؟.

قال - عليه الصلاة والسلام - «إنما ذلِكَ لِلْكَفَّارِ»، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُّورُ﴾^(١) [سبأ: ١٧]؛ ولأن ظاهر الآية يدل على ذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا، والتفاخر ببلذاتها عن طاعة الله، والاشتغال بذكر الله تعالى، يسألهم عنها يوم القيامة، حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الأسباب لشقاوتهم. وقيل: السؤال عام في حق المؤمن، والكافر لقوله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ النَّعِيمِ، فَيَقَالُ لَهُ: أَلَمْ نُضِجْ جِسْمَكَ؟ أَلَمْ نَرَوْكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟». وقيل: الزائد عما لا بد منه.

وقيل غير ذلك.

قال ابن الخطيب^(٢): والأولى على جميع النعيم، لأن الألف واللام تفيد الاستغراق، وليس صرف اللفظ إلى بعض أولى من غيرها إلى الباقي، فيسأل عنها، هل شكرها أم كفرها؟ وإذا قيل: هذا السؤال للكفار. فقيل: السؤال في موقف الحساب.

وقيل: بعد دخول النار، يقال لهم: إنما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم في الدنيا بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكتتم اليوم من أهل النجاة. والله أعلم.

(١) ينظر تفسير الرازي (٣٢/٧٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/٧٨.

سورة العصر

مكية، وروى ابن عباس وقتادة: أنها مدنية^(١)، وهي ثلاث آيات. [وأربع عشرة كلمة وستون حرفاً]^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾. قرأ العامة: بسكون الصاد، وسلام: «والعَصِر» بكسرها، و «الصَّبِر» بكسر الباء.

قال ابن عطية^(٣): «وهذا لا يجوز، إلا في الوقف على نقل الحركة».

وروي^(٤) عن أبي عمرو: «بالصبر» بسكون الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يجوز إلا في الوقف انتهى.

ونقل هذه القراءة جماعة كالهذلي، وأبي الفضل الرازي، وابن خالويه.

قال الهذلي: «والعصر، والصبر، والفجر، والوتر، بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها: هارون، وابن موسى عن أبي عمرو، والباقون: بالإسكان، كالجماعة» انتهى.

فهذا إطلاق منه لهذه القراءة في حالتي الوقف والوصل.

قال ابن خالويه: «وتواصوا بالصبر» بنقل الحركة عن أبي عمرو.

قال ابن خالويه [وقال صاحب «اللوامح»: وعيسى البصرة: ^(٥) «بالصبر» بنقل حركة الراء إلى الباء، لثلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يسكن،

(١) ينظر تفسير الماوردي (٣٣٣/٦). (٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٥٠٧/٨، والدر المصون ٥٦٧/٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥٢٠/٥.

(٥) ينظر: الحجة ٤٣٨/٦، وإعراب القراءات ٥٢٦/٢، والمحرر الوجيز ٥٢٠/٥.

فيجمع بين ساكنين، وذلك لغة شائعة، وليست بشاذة بل مستفيضة، وذلك دلالة على الإعراب، وانفصال عن التقاء الساكنين، وتأدية حق الموقوف عليه من السكون انتهى، فهذا يؤذن بما ذكر ابن عطية، أنه كان ينبغي ذلك.

وأشدوا على ذلك: [الرجز]

٥٢٩٦ - **وَاعْتَقَالًا بِالرَّجْلِ^(١)**

يريد: بالرجل.

وقال آخر: [الرجز]

٥٢٩٧ - **أَنَا جَرِيرٌ كُنَيْتِي أَبُو عَمِرٍ أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَسَغْدُ بِالْقَصْرِ^(٢)**
والنقل جائز في الضم كقوله شعر:

إِذْ جَدَّ السُّقْرُ^(٣)

وله شروط: «والعقد» الليلة واليوم قال: [الطويل]

٥٢٩٨ - **وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَقْدَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُذْرِكَ مَا تَيْمَمَا^(٤)**

قال ابن عباس وغيره: «والعصر» أي: الدهر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٥٢٩٩ - **سَيْلُ الْهَوَىٰ وَغَرٌّ وَبَحْرُ الْهَوَىٰ عَمَرٌ وَيَوْمُ الْهَوَىٰ شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَىٰ دَهْرٌ^(٥)**

أقسم الله - تعالى - بالعصر لما فيه من الاعتبار للناظر بتصرف الأحوال وتبديلها وما فيها من الأدلة على الصانع، والعصران أيضاً الغداة والعشي قال: [الطويل]

٥٣٠٠ - **وَأَمْطَلُهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمْلَأَنِي وَيَرْضَىٰ بِنِصْفِ الدِّينِ وَالْأَتْفِ رَاغِمٌ^(٦)**

يقول: إذا جاءني أول النهار وعدته آخره.

(١) سقط من: أ.

(٢) تمام الرجز:

علمنا إخواننا بنوعجل شرب النبيذ واصطفافاً بالرجل

ينظر الأشباه والنظائر ٣/٧٣، والإنصاف ٢/٧٣٤، والخصائص ٢/٣٣٥، وشرح الأشموني ٣/٧٨٤، والخصائص ٢/٣٣٥، وشرح الأشموني ٣/٧٨٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٦١، واللسان (مسك)، و(عجل)، والمقاصد النحوية ٤/٥٦٧، ونوادر أبي زيد ص ٣٠.

(٣) ينظر الإنصاف ٢/٧٣٣، والبحر ٨/٥٠٧، والدر المصون ٦/٥٦٧.

(٤) البيت لحמיד بن ثور في ديوانه ص ٨، وإصلاح المنطق ص ٣٩٤، ولسان العرب ٤/٥٧٦ (عصر)، والقرطبي ٢٠/١٢٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٥٨١.

والشاهد فيه قوله: «ولن يلبث القصران يوم وليلة» حيث أبدل النكرة من المعرفة مع اختلاف اللفظين.

(٦) ينظر اللسان (عصر) والقرطبي ٢٠/١٢٢.

(٥) ينظر القرطبي ٢٠/١٢٢.

وقيل: إنه العشي، وهو ما بين الزوال والغروب. قاله الحسن وقتادة.

[وقال الشاعر]:

٥٣٠١ - تَرَوْحَ بَنَّا يَا عَمْرُو قَدْ قَصَرَ الْعَصْرُ وفي الرَّوْحَةِ الْأُولَى الْغَنِيمَةُ وَالْأَجْرُ^(١)

وعن قتادة: هو آخر ساعة من النهار، فأقسم سبحانه بأحد طرفي النهار كما أقسم بالضحى، وهو أحد طرفي النهار^(٢)، قاله أبو مسلم.

وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات، قاله مقاتل.

قال ﷺ: «الصَّلَاةُ الْوُسْطَى، صلاةُ الْعَصْرِ»^(٣).

وقيل: أقسم بعصر النبي ﷺ لفضله بتجديد النبوة فيه.

وقيل: معناه وربُّ العصر.

فصل

قال مالك - رضي الله عنه - من حلف ألا يكلم رجلاً عصرًا، لم يكلمه سنة. قال ابن العربي: [إنما حمل مالك يمين الحالف ألا يكلم امرأة عصرًا على السنة، لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ]^(٤) المعنى في الأيمان.

وقال الشافعي: يبر بساعة إلا أن تكون له نيّة، وبه أقول، إلا أن يكون الحالف عربياً، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسر به بما يحتمله قبل منه إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر.

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾، هذا جواب القسم، والمراد به العموم بدليل الاستثناء منه، وهو من جملة أدلة العموم.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: المراد به الكافر.

وقال في رواية الضحاك^(٥): يريد جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى والأسود بن عبد يغوث. وقوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: لفي غبن.

وقال الأخفش: لفي هلكة.

وقال الفراء: لفي عقوبة، ومنه قوله: ﴿وَكَانَ عَقِبُهُ آتِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩]، وقال الفراء: لفي شر.

(١) ينظر اللسان (عصر)، والقرطبي ١٢٢/٢٠.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٨٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٦٧)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) تقدم تخريجه في سورة البقرة. (٤) سقط من: ب.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٢٣).

وقيل: لفي نقص، والمعنى متقارب.

وقرأ العامة: «لفي خُسْرٍ» بسكون السين، وزيد بن علي، وابن هرمز، وعاصم في رواية أبي بكر، وزاد القرطبي: الأعرج، وطلحة، وعيسى الثقفي^(١): بضمها. وهي كالعسر واليسر، وقد تقدم في البقرة، والوجه فيها الإتياع، ويقال: خُسِرَ وخُسِرَ مثل عُسِرَ وعُسِرَ.

وقرأ علي بن أبي طالب^(٢): «والعصر»: ونوائب الدهر، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾؛ وإنه فيه إلى آخر الدهر.

قال إبراهيم: إن الإنسان إذا عُمِرَ في الدنيا وهرم لفي نقص، وضعف، وتراجع إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفِيلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]. قال: وقراءتنا: «والعصر إن الإنسان لفي خُسْرٍ فإنه في آخر الدهر». والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف.

[وقيل: المعنى أن الإنسان لا ينفك عن تضييع عمره؛ لأن كل ساعة تمر بالإنسان، فإن كان في المعصية، فالخسر ظاهر، وكذلك إن مرت في مباح، وإن مرت في طاعة فكان يمكن أن يأتي بها على وجه أكمل أي من الخشوع، والإخلاص، وترك الأعلى، والإتيان بالأدنى نوع خسران، والخسر والخسران مصدران، وتنكير الخسران إما للتعظيم، وإما للتحقير بالنسبة إلى خسر الشياطين، والأول أظهر، وأفرد الخسر مع كثرة أنواعه؛ لأن الخسر الحقيقي هو حرمان عن خدمة ربه سبحانه، وما عدا ذلك فالكعدم، وفيه مبالغات، ودخول «إن، واللام»، وإحاطة الخسر به، أي: هو في طريق خسر وسبب خسر^(٣)].

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. استثناء من الإنسان؛ إذ المراد به الجنس على الصحيح ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وهم أصحاب الرسول ﷺ قال أبي بن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ «والعصر» ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟.

قال: «والعصر»: أقسم ربكم بآخر النهار، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾؛ أبو جهل ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عمر، ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ﴾: عثمان، ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ﴾: علي^(٤) رضي الله عنهم أجمعين.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٢٠، والقرطبي ٢٠/١٢٣، والبحر المحيط ٨/٥٠٨، والدر المنصور ٦/٥٦٧.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٣.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٢٣).

وهكذا خطب ابن عباس على المنبر، موقوفاً عليه.

ومعنى تواصلوا أي تحاثوا أوصى بعضهم بعضاً وحث بعضهم بعضاً بالحق أي بالتوحيد وكذا روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة بالحق أي بالقرآن وقال السدي الحق هنا الله تعالى وتواصلوا بالصبر على طاعة الله والصبر عن المعاصي.

روى الثعلبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِالصَّبْرِ، وَكَانَ مَعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). والله أعلم.

سورة الهمزة

مكية، وهي تسع آيات، وثلاث وثلاثون كلمة، ومائة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، «الويل» لفظ الهمز والسخط، وهي كلمة كل مكروب، وقد تقدم الكلام في الويل، ومعناه: الخزي، والعذاب، والهلكة.
وقيل: وإد في جهنم.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، أي: كثير الهمز، وكذلك «اللُّمَزَةُ»، أي: الكثير اللُّمَز. وتقدم معنى الهمز في سورة «ن» واللمز في سورة «براءة».

والعامة: على فتح ميمها، على أن المراد الشخص الذي كثر منه ذلك الفعل.

قال زياد الأعجم: [البسيط]

٥٣٠٢ - تُذَلِّي بِؤْدِي إِذَا لَا قِيَتْنِي كَذِبًا وَإِنْ أَغْيَبَ فَانَّتِ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ^(١)

وقرأ أبو جعفر^(٢) والأعرج: بالسكون، وهو الذي يهمز ويلمز أي يأتي بما يلزم به واللمزة كالضحكة [لمن يكثر ضحكته، والضحكة: بما يأتي لمن يضحك منه وهو مطرد، يعني أن «فُعَلَّة» بفتح العين، لمن يكثر من الفعل، وبسكونها لمن الفعل بسببه].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وهم المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب^(٣)، فعلى هذا هما بمعنى، وقال ﷺ: «شِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى:

(١) ينظر الكشف ٧٩٥/٤، والقرطبي ١٢٤/٢٠، والبحر ٥١٠/٨، والدر المصون ٥٦٨/٦.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٢٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٨٦)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٦٩)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

المشَّاءُونَ بِالْثَمِيمَةِ الْمَفْسُودُونَ بَيْنَ الْأَحْبِيَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَاءِ الْعَيْبِ^(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أن الهمزة: القَتَات، واللُّمزة: المغتاب، والقَتَات: هو النمام^(٢)، يقال: قَتَ الحديث يَقْتَهُ: إذا زوره وهَيَّاهُ وسواه.

[وقيل: النَّمَامُ الذي يكون مع القوم يتحدثون لينمَّ عليهم، والقَتَات الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون، ثم ينم، والقَتَات الذي يسأل عن الأخبار، ثم ينميها نقله ابن الأثير.

وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح: الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللُّمزة: الذي يعيب به من خلفه، وهذا اختيار النحاس. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقال مقاتل هنا هذا القول: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللُّمزة الذي يغتاب في الوجه.

وقال قتادة، ومجاهد: الهمزة: الطَّعَّان في أنسابهم، وقال ابن زيد: الهامز: الذي يهزم الناس بيده ويضربهم، واللامز: الذي يلزمهم بلسانه ويلمز بعينه].

وقال ابن كيسان: الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللُّمزة: الذي يكسر عينه على جلسه، ويشير بعينه، ورأسه، وبحاجبيه.

وقرأ عبد الله بن مسعود، وأبو وائل، والنخعي، والأعمش^(٣): «وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللَّمَزَةِ».

وأصل الهمز: الكسر، والعض على الشيء بعنف، ومنه همز الحرف، ويقال: همزت رأسه، وهمزت الجوز بكفي: كسرتة.

وقيل: أصل الهمز، واللزم: الدفع والضرب لمزه يلزمه لمزاً، إذا ضربه، ودفعه، وكذلك همزه: أي: دفعه، وضربه؛ قال الرازي: [الرجز]

٥٣٠٣ - وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تَبَرَّكَمَا عَلَى اسْتِهِ زَوْبَعَةٌ أَوْ زَوْبَعًا^(٤)

(١) أخرجه أحمد (٤٥٩/٦)، من حديث أسماء بنت يزيد وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٦/٨)، وقال: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد وبقيّة رجال أحمد أسانيد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٨٧/١٢).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥٢١/٥، والقرطبي ١٢٥/٢٠.

(٤) ينظر ديوان رؤبة ص ٩٣، وسمط اللالكاء ٣٢١/١، والأمالى للقالى ١٣٧/١، واللسان (همز)، والقرطبي ١٢٥/٢٠.

البركة: القيام على أربع، وبركعه فتبركع، أي: صرعه، فوقع على استه، قاله في «الصحاح»^(١).

فصل فيمن نزلت فيه السورة

روى الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلمز الناس، ويعيبهم مقبلين، ومدبرين^(٢).

وقال ابن جريج: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه^(٣).

وقيل: إنها نزلت في أبي بن خلف.

وقيل: في جميل بن عامر الثقفي.

وقيل: إنها عامة من غير تخصيص، وهو قول الأكثرين.

قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته^(٤).

وقال الفراء: يجوز أن يذكر الشيء العام، ويقصد به الخاص، قصد الواحد إذا

قال: أزورك أبداً، فتقول: من لم يزرنى فلست بزائره، تعني ذلك القائل.

فصل في نظم الآية

قال ابن الخطيب^(٥): فإن قيل: لم قال: «ويلٌ منكراً، وفي موضع آخر: «ولكمُ الويلٌ» معرفاً؟

فالجواب: لأن ثمة قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]، فقال: «ولكمُ الويلٌ»، وهاهنا نكر، حتى لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

قيل في «ويلٌ» إنها كلمة تقييح، و «ويس» استصغار، «ويح» ترحم، فنبه بهذا على قبيح هذا الفعل.

قوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ﴾ قرأ ابن عامر^(٦) والأخوان: بتشديد الميم، على المبالغة، والتكثير.

والباقون: مخففاً، وهي محتملة للتكثير وعدمه.

(١) ينظر الصحاح ٣/١١٨٥. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٢٥).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٨٨)، عن مجاهد.

(٥) الفخر الرازي ٣٢/٨٦.

(٦) ينظر: السبعة ٦٩٧، والحجة ٦/٤٤١، وإعراب القراءات ٢/٥٢٩، وحجة القراءات ٧٧٢.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَدْتُ﴾، العامة: على تثقيل الدال الأولى، وهي أيضاً للمبالغة.

وقرأ الحسن والكلبي^(١): بتخفيفها، وفيه أوجه:

أحدها: أن المعنى جمع مالا، وعدد ذلك المال، أي: وجمع عدده، أي: أحصاه.

والثاني: أن المعنى وجمع عدد نفسه من عشيرته، وأقاربه وعدده، وعلى هذين التأويلين اسم معطوف على «مالاً»، أي: وجمع عدد المال، وعدد نفسه.

والثالث: أن عدده فعل ماض بمعنى عده، إلا أنه شذ في إظهاره كما شذ في قوله: [البسيط]

٥٢٩٣ - إني أجود لأقوام وإن ضننوا^(٢)

أي: ضنوا وبخلوا، فأظهر التضعيف.

و «الذي» بدل من كل أو نصب على الذم، وإنما وصفه تعالى بهذا الوصف، لأنه يجري مجرى المسبب والعلة في الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره.

فصل في معنى جمع المال

قال المفسرون: «جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ»، أي: أعدده لنوائب الدهر، مثل: كرم، وأكرم.

وقيل: أحصى عدده. قاله السدي^(٣).

وقال الضحاك: أي: أعد ماله^(٤) لمن يرثه من أولاده.

وقيل: تفاخر بعدده، وكثرته، والمقصود: الذم على إمساك المال على سبيل الطاعة، كقوله: ﴿مَتَاعٌ لِلْعَمَلِ﴾ [ق: ٢٥].

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٢١، والبحر المحيط ٨/٥١٠، والدر المصون ٦/٥٦٨.

(٢) عجز بيت لقعب ابن أم صاحب وصدده:

مهلاً أعاذل قد جربت من خلقي

ينظر الخصائص ١/١٦٠، ٢٥٧، وسمط اللآلئ ص ٥٧٦، وشرح أبيات سيويه ١/٣١٨، والكتاب ٢٩٨، ٣/٥٣٥، ولسان العرب (ظلل)، و(ضنن)، والمنصف ١/٣٣٩، ٢/٣٠٣، ونوادر أبي زيد ص ٤٤، وخزانة الأدب ١/١٥٠، ٢٤٥، وشرح شافية ابن الحاجب ٣/٢٤١، وشرح المفصل ٢/١٣، والمقتضب ١/١٤٢، ٢٥٣، ٣/٣٥٤.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/٦٧٠، عن السدي وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» ٦/٣٣٦، والقرطبي (٢٠/١٢٥).

قوله: ﴿يَحْسَبُ﴾، يجوز أن يكون مستأنفاً، وأن يكون حالاً من فاعل «جَمَعَ»، و «أخْلَدَهُ» بمعنى: «يُخْلِدُهُ» وأوقع الماضي موقع المضارع.

وقيل: هو على الأصل، أي: أطال عمره.

قال السدي: «يظن أن ماله أخلده، أي: يقيه حياً لا يموت»^(١).

وقال عكرمة: أي: يزيد في عمره^(٢) وقيل: أحياء فيما مضى.

وهو ماض بمعنى المستقبل، وقالوا: هلك والله فلان، ودخل النار. أي: يدخل النار.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ لَيْبِذَنَ فِي الْحَطْمَةِ﴾ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴿

قوله: ﴿كَأَنَّ﴾، رد لما توهمه الكفار، أي: لا يخلد ولا يبقى له مال.

وقيل: حقاً لينبذ.

قوله: ﴿لَيْبِذَنَ﴾، جواب قسم مقدر، وقرأ علي والحسن - رضي الله عنهما - بخلاف عنه، ومحمد بن كعب، ونصر بن عاصم، وحמיד، وابن محيصن، وأبو عمرو في رواية^(٣): «لَيْبِذَان» بألف التثنية، لينبذان أي: هو وماله.

وعن الحسن أيضاً^(٤): «لَيْبِذَنُ» بضم الذال، وهو مسند لضمير الجماعة، أي: ليطرحن الهمزة، وأنصاره واللمزة، والمال، وجامعه معاً.

وقرأ الحسن^(٥) أيضاً: «لَيْبِذْنُهُ» على معنى لينبذن ماله.

وعنه أيضاً: بالنون «لَتَنْبِذْنُهُ» على إخبار الله - تعالى - عن نفسه، وأنه ينبذ صاحب المال. ﴿فِي الْحَطْمَةِ﴾ وهي نار الله، سميت بذلك؛ لأنها تكسر كل ما يلقي فيها وتحطمه، وتهشمه، والحطمة: الكثير الحطم، يقال: رجل حطمة: أي أكل، وحطمته: كسرتة، قال: [الرجز]

(١) ذكره القرطبي (١٢٧/٢٠)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٠)، عنه بمعناه وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: إعراب القراءات ٢/٥٣٠، والمححر الوجيز ٥/٥٢٢، والبحر المحيط ٨/٥١٠، والدر المصون ٦/٥٦٩.

(٤) ينظر: المححر الوجيز ٥/٥٢٢، والبحر المحيط ٨/٥١٠، والدر المصون ٦/٥٦٩.

(٥) ينظر: السابق.

٥٣٠٤ - قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٌ^(١)

وقال آخر: [الرجز]

٥٣٠٥ - إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مُضْعَبًا يَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَفْضَبَا^(٢)

حكى الماوردي عن الكلبي: أن الحطمة، هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم، وحكى القشيري عنه: «الحطمة» الدرجة الثانية من درج النار^(٣).

وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع^(٤).

وقال ابن زيد: اسم من أسماء جهنم^(٥).

قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ﴾، على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها، ثم فسرهما ما هي فقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾، أي: هي نار الله التي أوقد عليها ألف عام، حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، وألف عام حتى ابيضت.

قوله: ﴿أَلَيْ تَطْلُعُ﴾ يجوز أن تكون تابعة لـ «نَارُ اللَّهِ»، وأن تكون مقطوعة.

قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم، وكذلك روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «إِنَّ النَّارَ تَأْكُلُ أَهْلَهَا، حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ انْتَهَتْ، ثُمَّ إِذَا صَدَرُوا تَعُودُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾»^(٦). وخص الأفئدة؛ لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، أي: أنه في حال من يموت، وهم لا يموتون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] فهم إذا أحياء، في معنى الأموات.

وقيل: معنى ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي: تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب، وكذلك بما استبقاه الله - تعالى - من الأمانة الدالة عليه، ويقال: أطلع فلان على كذا: أي: علمه، [وقد قال تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: ١٧].

(١) نسب البيت إلى رشيد بن رميض، وللأغلب العجلي، وللحطم القيسي، ولأبي زغبة الأنصاري، ولأبي زغبة الخزرجي.

ينظر الأغاني ١٥/١٩٩، ٢٠٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥٥، والحماسة الشجرية ١/١٤٤، وشرح المفصل ١/٩٢، والكتاب ٣/٢٢٣، وشرح أبيات سيبويه ٢/٢٨٦، واللسان (حطم)، و (خفق) وأساس البلاغة ص ٨٨ (حطم)، وجمهرة اللغة ص ٨٣، وسمط اللآلئ ص ٥٩، وشرح المفصل ٦/١١٢، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٣٩، والمقتضب ١/٥٥، ٣/٣٢٣.

(٢) ينظر القرطبي ٢/١٢٦، والبحر ٨/٥٠٩، والدر المصون ٦/٥٦٩. وفتح القدير ٥/٤٩٤.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣٣٦)، وينظر تفسير القرطبي (٢٠/١٢٦).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٢٦).

وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾^(١) [الفرقان: ١٢].
 قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾. أي: مطبقة عليهم، قاله الحسن والضحاك^(٢) وقد تقدم في سورة البلد.

وقيل: مغلقة بلغة قريش، يقولون: أصدت الباب: إذا أغلقته. قاله مجاهد^(٣).
 ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات: [الخفيف]

٥٣٠٦ - إِنْ فِي الْقَضْرِ لَوْ دَخَلْنَا غَزَالًا مُّضْفَقًا مُّوَصَّدًا عَلَيْهِ الْجَبَابُ^(٤)
 قوله: ﴿عَمَدٍ﴾. قرأ^(٥) الأخوان وأبو بكر: بضميتين، جمع عمود، نحو رسول ورسُل.

وقيل: جمع عماد، نحو: كتاب وكتب.

وروي عن أبي عمرو: الضم، والسكون، وهو تخفيف لهذه القراءة.

والباقون: «عَمَدٍ» بفتحيتين، فقليل: بل هو اسم جمع لـ «عمود».

وقيل: بل هو جمع له.

قال الفراء: كـ «أديم وأدم».

وقال أبو عبيدة: هو جمع عماد.

و «فِي عَمَدٍ» يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «عليهم»، أي: موثقين، وأن يكون خبراً لمبتدأ مضمّر، أي: هم في عمد، وأن يكون صفة لـ «مُؤَصَّدَةٌ»، قاله أبو البقاء^(٦). يعني: فتكون النار داخل العمدة.

وقال القرطبي^(٧): «الفاء بمعنى الباء، أي: موصدة بعمد ممددة». قاله ابن مسعود، وهي في قراءته: «بعمد ممددة».

قال الجوهري^(٨): العُمُود: عمود البيت، وجمع القلّة: أعمدة، وجمع الكثرة: عُمُد وعَمَد، وقرئ بهما في قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

(١) سقط من: أ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٨٩/١٢)، عن ابن عباس وعطية والحسن والضحاك. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٧٠/٦)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٨٩/١٢)، عن ابن زيد. وينظر تفسير القرطبي (١٣٧/٢٠).

(٤) ينظر ديوانه ٨٤، والقرطبي ١٢٧/٢٠.

(٥) ينظر: السبعة ٦٩٧، والحجة ٤٤٢/٦ - ٤٤٣، وإعراب القراءات ٥٣٠/٢، وحجة القراءات ٧٧٣.

(٦) ينظر الإملاء ٢٩٤/٢. (٧) الجامع لأحكام القرآن ١٢٧/٢٠.

(٨) الصحاح ٥١١/٢.

وقال أبو عبيدة: العمود: كل مستطيل من خشب، أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العماد. عمدت الشيء فانعمد أي: أقمته بعماد يعتمد عليه، وأعمدته أي جعلت تحته عماداً.

فصل في معنى الآية

قال رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْعَثُ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةً بِأَطْبَاقٍ مِنْ نَارٍ، وَمَسَامِيرَ مِنْ نَارٍ، وَعُمِدٍ مِنْ نَارٍ، فَتَطْبِقُ عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْأَطْبَاقِ، وَتُسَدُّ بِتِلْكَ الْمَسَامِيرِ، وَتُمَدُّ بِتِلْكَ الْعُمِدِّ، فَلَا يَبْقَى فِيهَا خَلَلٌ يَدْخُلُ مِنْهُ رَوْحٌ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ غَمٌّ، فَيَكُونُ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ﴾^(١).

وقال قتادة: عمد يعذبون بها^(٢)، واختاره الطبري^(٣).

وقال ابن عباس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم^(٤).

وقال أبو صالح: قيود في أرجلهم.

وقال القشيري: العمد: أوتاد الأطباق.

وقيل: المعنى، في دهور ممدودة، لا انقطاع لها.

روى الثعلبي عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَبَعْدَ مِنْ اسْتَهْزَأَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ»^(٥).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧١)، وعزاه إلى الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٩٠)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٠)، وزاد نسبه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر جامع البيان ١٢/٦٩٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٩٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/١٢٢)، من طريق محمد بن سيرين عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٤)، وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٦٩٣)، والبيهقي في «الدلائل» (١/١٢٣)، عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٥)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

سورة الفيل

مكية، وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، هذه قراءة الجمهور، أعني: فتح الراء وحذف الألف للجزم.

وقرأ السلمي^(١): «تَرَ» بسكون الراء، كأنه لم يعتمد بحذف الألف.

وقرأ أيضاً^(٢): «تَرَأَ» بسكون الراء وهمزة مفتوحة، وهو الأصل، و «كَيْفَ» معلقة للرؤية، وهي منصوبة بفعل بعدها، لأن «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ» من معنى الاستفهام.

فصل في معنى الآية

المعنى: ألم تخبر.

وقيل: ألم تعلم.

وقال ابن عباس: ألم تسمع^(٣)؟ واللفظ استفهام والمعنى تقرير، والخطاب للرسول ﷺ ولكنه عام، أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؟ أي: قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع متي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟.

فصل في لفظ «الفيل»

الفيل معروف، والجمع: أفيال، وفيول، وفيلة.

قال ابن السكيت: ولا يقال: «أفيلة» والأنثى فيلة، وصاحبه: فيال.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٢٣، والبحر المحيط ٨/٥١٢.

(٢) ينظر: السابق، والدر المصون ٦/٥٧١. (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٣٤).

قال سيبيويه: يجوز أن يكون أصل «فيل»: «فُعلا» فكسر من أجل الياء، كما قالوا: أبيض ويض.

وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع، ورجل فيل الرأي، أي: ضعيف الرأي والجمع: أفيال، ورجل فال: أي: ضعيف الرأي، مخطيء الفراسة، وقد فال الرأي، يفيل، فيولة، وفيل رأيه تفيلاً: أي: ضعفه، فهو فيل الرأي.

فصل في نزول السورة

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم - ملك «اليمن» - بنى كنيسة بـ «صنعاء» لم ير مثلاً، وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من بني كنانة مختفياً، وجعل يبول ويتغوط في تلك الكنيسة ليلاً، فأغضبه ذلك.

وقيل: أجم ناراً فحملتها ريح فأحرقتها، فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: رجل من أهل البيت الذي يحج العرب إليه، فحلف ليهدم الكعبة، فخرج بجيشه ومعه فيل اسمه محمود، وكان قوياً عظيماً وثمانية أخرى. وقيل: اثنا عشر. وقيل: ألف، وبعث رجلاً إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل، فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً، فسار ليهدم الكعبة، فلما بلغ قريباً من «مكة» خرج إليه عبد المطلب، وعرض عليه ثلث أموال «تهامة»، ليرجع فأبى، وقدم الفيل، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك، وإذا وجهوه إلى «اليمن»، أو إلى سائر الجهات هرول، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليهم بسببها، فلما رآه أبرهة عظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وقيل له: هذا أسد قریش، وصاحب غير «مكة»، فنزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على بساطه، ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك، فلما ذكر حاجته قال له: سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، لا تكلمني فيه، وألهاك عنه ذود لم أحسبها لك، فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه، ثم رجع وأتى البيت، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قریش يدعون الله تعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب: [مجزوء الكامل]

٥٣٠٧ - لَاهُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْ - نَعُ رَحْلُهُ فَاْمَنْعَ خَالَكَ
لَا يَنْغَلِبَنَّ صَالِبُهُمْ - وَمُحَالُهُمْ عَذُوا مُحَالَكَ
إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا - مَ فَاْمَرُّ مَا بَدَا لَكَ^(١)

وقال آخر: [الرجز]

٥٣٠٨ - يَا رَبِّ لَا أَزْجُو لَهُمْ سِوَاكَ - يَا رَبِّ فَاْمَنْعَ مِنْهُمْ حِمَاكَ

(١) ينظر الطبري ٣٠/١٩٥، والكشاف ٤/٧٩٨، ومجمع البيان ١٠/٨٢٢، والقرطبي ٢٠/١٣٠.

إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ عَادَاكَ إِنَّهُمْ لَنْ يَفْهَرُوا قُؤَاكَا^(١)

فالتفت، وهو يدعو، فإذا هو بطير من ناحية «اليمن»، فقال: واللّه إنها لطير غريبة، ما هي بنجدية ولا تهامية، وكان مع كل طائر حجر في منقاره، وحجران في رجله أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة.

قال الراوي: فأرسل عبد المطلب حلقة الكعبة ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعب الجبال، فتحرّروا فيها ينظرون ما يفعل أبرهة إذا دخل «مكة»، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر [أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار فكان الحجر يقع^(٢)] على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، فهلكوا في كل طريق، ومنهل.

روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه رأى من تلك الأحجار عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري^(٣).

قال الراوي: وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يتدرون إلى الطريق التي منها جاءوا.

وروي أن أبرهة تساقطت أنامله، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانقلب هو ووزيره أبو يكسوم، وطائر يحلق فوقه حتى قدموا «صنعاء» وهو مثل فرخ الطائر. وقيل: قدموا على النجاشي، فقَصَّ عليه القصة فلما تممها وقع عليه الحجر فخرّ ميتاً بين يديه.

فصل في ميلاد النبي ﷺ

حكى الماوردي أن النبي ﷺ قال: «وُلِدْتُ عَامَ الْفِيلِ»^(٤).

وقال في كتاب «أعلام النبوة»: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكان بعد الفيل بخمسين يوماً، ووافق من شهور الروم العشرين من أشباط، في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان.

قال: وحكى أبو جعفر الطبري: أن مولده ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان.

(١) الآيات لعبد المطلب بن هاشم قالها وهو واقف بباب الكعبة عندما أراد الأحباش هدمها.

ينظر الطبري ١٩٥/٣٠، والكشاف ٧٩٩/٤، ومجمع البيان ٨٢٣/١٠، والقرطبي ١٣٠/٢٠.

(٢) سقط من: ب.

(٣) ينظر تفسير الماوردي (٦/٣٣٩ - ٣٤٠)، والقرطبي (٢٠/١٢٩ - ١٣٤)، والدر المنثور (٦/٦٧٢ - ٦٧٣).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣٣٨).

وقيل: إنه - عليه السلام - حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم حكاة ابن شاهين أبو حفص في فضائل يوم عاشوراء، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فكانت مدة الحمل ثمانية أشهر كاملاً ويومين من التاسع.

وقال ابن العربي: قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل [قال] قيس بن مخزومة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل.

وقال عبد الملك بن مروان لعنّاب بن أسيد: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: النبي ﷺ أكبر مني وأنا أسنّ منه، ولد النبي ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس.

فصل في أن قصة الفيل من معجزات النبي ﷺ

قال بعض العلماء: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ وإن كانت قبله، وقبل التحدي، لأنها كانت تأكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الواقعة، ولهذا قال: «أَلَمْ تَرَ» ولم يكن بـ «مكة» أحد إلا وقد رأى قائد الفيل، وسائقه أعميين [يتكفان] (١) الناس.

قالت عائشة - رضي الله عنها - مع حادثة سنّها: «لَقَدْ رَأَيْتُ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِقَهُ أَغْمِيَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ النَّاسَ» (٢).

قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، أي: في إبطال، وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل، والسبي، والبيت بالخراب، والهدم.

قالت المعتزلة (٣): إضافة الكيد إليهم دليل على أنه - تعالى - لا يرضى بالقيح، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته.

قوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

قال النحاة: «أبابيل» نعت لـ «طير» لأنه اسم جمع.

وأبابيل: قيل: لا واحد له، كاساطير وعناديد.

وقيل: واحده: «إِبُول» كـ «عَجُول».

وقيل: «إِبَال»، وقيل: «إِبِيل» مثل سكين.

وحكى الرقاشي: «أبابيل» جمع «إِبَالَة» بالتشديد.

(١) في ب: يستطعمان.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣٣/٢٠)، وقد أخرجه البيهقي في «الدلائل» (١٢٥/١).

(٣) ينظر الرازي ٩٢/٣٢ - ٩٣.

وحكى الفراء: «إبالة» مخففة.

فصل في لفظ «أبابل»

الأبابل: الجماعات شيئاً بعد شيء؛ قال: [الطويل]

٥٣٠٩ - طَرِيقٌ وَجَبَّارٌ رِوَاءُ أَصُولُهُ عَلَيْهِ أَبَابِيلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ^(١)
وقال آخر: [البيسط]

٥٣١٠ - كَادَتْ تَهْدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُزْدِ الْأَبَابِيلِ^(٢)
قال أبو عبيدة: أبابيل: جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الطير أبابيل من هاهنا، وهاهنا.

قال سعيد بن جبیر: كانت طيراً من السماء لم ير مثلها^(٣).

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّهَا طَيْرٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تُعَشِّشُ وَتُفَرِّخُ»^(٤).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - كان لها خراطيم كخراطيم الفيلة، وأكف كأكف الكلاب^(٥).

وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها زُؤوس كزؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك، ولا بعده^(٦).

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: هي أشبه شيء بالخطاطيف^(٧).

[وقيل: إنها أشبه بالوطايط].

وقيل: إنها العنقاء التي يضرب بها الأمثال.

قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة المعنى، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان، أي: يعظم عليه ويكثر، وهو مشتق من الإبل.

قال ابن الخطيب^(٨): هذه الآية رد على الملحدين جداً، لأنهم ذكروا في الزلازل، والرياح والصواعق، والخسف، وسائر الأشياء التي عذب الله - تعالى - بها الأمم أعذاراً

(١) البيت للأعشى، ينظر ديوانه ١١، والقرطبي ١٣٤/٢٠، ومجمع البيان ٨٢٥/١٠، والبحر ٥١١/٨، والدر المصون ١٣٤/٦.

(٢) ينظر القرطبي ١٣٤/٢٠، والبحر ٥١١/٨، والدر المصون ٥٥٠/٦.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٤٢/٦)، والقرطبي (١٣٤/٢٠).

(٤) ينظر المصدر السابق وقد ذكره من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٥) ينظر المصدر السابق. (٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) سقط من: ب. (٨) الفخر الرازي ٩٢/٣٢ - ٩٣.

ضعيفة، أما هذه الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، وليس في شيء من الطَّبائع والحيل أن يعهد طير معها حجارة، فيقصد قوماً دون قوم فيقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول إلا نيفاً وأربعين سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، كان قد بقي جمع شاهدوا تلك الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، ولو كان النقل ضعيفاً لكذبوه، فعلمنا أنه لا سبيل للطعن فيها.

قوله: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾، «بِحِجَارَةٍ» صفة لـ «طير»، وقرأ العامة: «تَرْمِيهِمْ» بالتأنيث.

وأبو حنيفة، وابن يعمر^(١)، وعيسى، وطلحة: بالياء من أسفل، وهما واضحتان، لأن اسم الجمع يذكر ويؤنث.

ومن الثانية قوله: [البسيط]

٥٣١١ - كَالطَّيْرِ يَنْجُو مِنَ الشُّؤْبِ ذِي الْبَرْدِ^(٢)

وقيل: الضمير لرَبِّك، أي: يرميهم ربك بحجارة، و «مِنْ سَجِيلٍ» صفة لـ «حِجَارَةٍ» والسجيل، قال الجوهري^(٣): قالوا حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿لَنُرِيَنَّكَ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣].

وقال عبد الرحمن بن أبيزى: «مِنْ سَجِيلٍ» من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط.

وقيل: من الجحيم، وهي «سَجِين» ثم أبدلت اللام نوناً، كما قالوا في أصيلان: أصيلال، قال ابن مقبل: [البسيط]

٥٣١٢ - ضَرْباً تَوَاصَّتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِيئاً^(٤)

إنما هو «سجياً».

وقال الزجاج: «مِنْ سَجِيلٍ»، أي: مما كتب عليهم أن يعذبوا به، مشتق من السجل وقد تقدم القول في السجيل في سورة «هود».

(١) ينظر: البحر المحيط ٥١٢/٨، والدر المصون ٥٧٠/٦.

(٢) عجز بيت للنايعة وصدره:

والخيل تمزع رهواً في أعنتها

ينظر ديوانه (١٤)، والبحر ٥١٢/٨، والدر المصون ٥٥٠/٦.

(٣) ينظر: الصحاح ١٧٢٥/٥.

(٤) عجز بيت وصدره:

ورجلة يضربون البيض من عرض

ينظر مجاز القرآن ٣١٢/٢، ومعاني القرآن وإعراجه ٣٦٤/٥، واللسان (سجل)، (رجل) والقرطبي

١٣٥/٢٠، والكشاف ٩٠/٤.

قال عكرمة: [كانت ترميهم بحجارة معها]^(١)، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى لم ير قبل ذلك اليوم^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفض جلده، وكان ذلك أول الجدرى^(٣).

قال يونس وأبو عبيدة: والسجيل عند العرب: الشديد الصلب.

قال بعض المفسرين: إنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنهما: سجّ وجيل، فالسجّ: الحجر، والجيل: الطين، أي من هذين الجنسيتين: الحجر والطين.

قال أبو إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة أنه قال: أول ما دامت الحصبة بأرض العرب ذلك وإنه أول ما رأى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشار ذلك العام.

قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾. «كَعَصْفٍ» هو المفعول الثاني للجعل، بمعنى التصيير، وفيه مبالغة حسنة، وهو أنه لم يكفهم أن جعلهم أهون شيء من الزرع، وهو ما لا يجدي طائلاً، حتى جعلهم رجيعاً.

والمعنى: جعل الله تعالى أصحاب الفيل كورق الزروع إذا أكله الدواب، فرمت به من أسفل قاله ابن زيد وغيره، والعصف جمع واحد عصفة وعصافة، وأدخل الكاف في «كعصف» للتشبيه مع مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومعنى مأكول أن المراد به قشر البرّ يعني الغلاف الذي يكون فيه حبة القمح يروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة شبه تقطع أوصالهم بفترق أجزاءه، روي معناه عن ابن زيد^(٤)، وغيره.

قال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة عن «مكة»، عظمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم مئونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿الْفِيلِ﴾ عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَ حَيَاتِهِ مِنَ الْمُسْنَخِ، وَالْعَدُوِّ»^(٥). والله أعلم.

(١) سقط من: أ.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣٤/٢٠).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦٩٩/١٢).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة قريش

مكية في قول الجمهور، مدنية في قول الضحاك والكلبي^(١)، وهي أربع آيات، وسبع عشرة كلمة، وثلاث وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (١) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (٢) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (٣) قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (٤) أحدها: أنه ما في السورة قبلها من قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاهُمْ كَصَفِيٍّ﴾.

قال الزمخشري^(٢): هذا بمنزلة التضمين في الشعر، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به، وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل. وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى: «والتَّيْنِ»، انتهى. وإلى هذا ذهب الأخفش، إلا أن الحوفي قال: ورد هذا القول جماعة، بأنه لو كان كذا، لكان «لإيلاف» بعض سورة «ألم تر»، وفي إجماع الجميع على الفصل بينهما ما يدل على عدم ذلك.

الثاني: أنه مضمّر تقديره: فعلنا ذلك، أي: إهلاك أصحاب الفيل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (١) أي: لتأليف قريش، أو لتنفق قريش، أو لكي تأمن قريش، فتؤلف رحلتها. وقيل: تقديره: اعجبوا.

الثالث: أنه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ ذِكْرِ عِندَهُ عَالِمٌ ۚ﴾ (٢) أي: لتأليف قريش، أو لتنفق قريش، أو لكي تأمن قريش، فتؤلف رحلتها. وقاله الزمخشري: وهو قول الخليل من قبله. وقرأ ابن عامر^(٣): «لإلاف» دون ياء قبل اللام الثانية.

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/٣٤٥). (٢) الكشاف (٤/٨٠١).

(٣) ينظر: السبعة ٦٩٨، والحجة ٦/٤٤٤، وإعراب القراءات ٢/٥٣٣، والمحرر الوجيز ٥/٥٢٥.

والباقون: «إيلاف» بياء قبلها، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني، وهو «إيلافهم». ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين: أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على إثباتها خطأ، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها فيه خطأ، وهذا دليل على أن القراء يتبعون الأثر والرواية، لا مجرد الخط.

فأما قراءة ابن عامر ففيها وجهان:

أحدهما: أنه مصدر لـ «ألف» ثلاثياً، يقال: ألف الرجل، إلفاً، وإلفاً؛ نحو: كتبه كتاباً، ويقال: ألفته إلفاً وإلفاً.

وقد جمع الشاعر بينهما في قوله: [الوافر]

٥٣١٣ - رَعَمْتُمْ أَنْ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَّهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ^(١)

والثاني: أنه مصدر «ألف» رباعياً نحو قاتل قتلاً. وقال الزمخشري: لمؤالفة قريش. وأما قراءة الباقيين فمصدر ألف رباعياً بزنة «أكرم» يقال: ألفته، أولفه إيلافاً.

قال الشاعر: [الطويل]

٥٣١٤ - مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الرَّمْلِ أَدْمَاءٌ حُرَّةٌ شُعَاعُ الضُّحَى فِي مَثْنِهَا يَتَوَضَّعُ^(٢)

وقرأ عاصم^(٣) في رواية: «إثلافهم» بهمزيين، الأولى مكسورة، والثانية ساكنة، وهي شاذة؛ لأنه يجب في مثله إبدال الثانية حرفاً مجانساً كـ «إيمان». وروي عنه أيضاً: بهمزيين مكسورتين، بعدهما ياء ساكنة.

وخرجت على أنه أشيع كسر همزة الثانية، فتولد منها ياء، وهذه أشد من الأولى.

ونقل أبو البقاء أشد منها، فقال^(٤): «بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة، بعدها همزة مكسورة». وهو بعيد، ووجهه: أنه أشيع الكسرة، فنشأت الياء، وقصد بذلك الفصل بين الهمزيين كالألف في «أُنذَرْتَهُمْ».

وقرأ أبو جعفر: «لإلف قريش» بهمزة مكسورة، بزنة: «قِرْد»، وقد تقدم أنه مصدر لـ «ألف» كقوله: [الوافر]

٥٣١٥ - لَّهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ^(٥)

(١) البيت لمساور بن هند، ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ١٨٦/٢، والكشاف ٨٠١/٤، ومجمع البيان ٨٢٨/١٠، واللسان (ألف)، والقرطبي ١٣٨/٢٠، والبحر ٥١٥/٨، والدر المصون ٥٧١/٦.

(٢) البيت لذي الرمة ينظر ديوانه (١١١)، ومجمع البيان ٨٢٨/١٠، واللسان (ألف)، والبحر ٥١٤/٨، والدر المصون ٥٧٦/٦.

(٣) ينظر: هذه القراءات في المصادر السابقة. (٤) ينظر: الإملاء ٢٩٥/٢.

(٥) تقدم.

وعنه أيضاً، وعن ابن كثير: «إلفهم»، وهي ساكنة اللام بغير ياء، وهي قراءة مجاهد وحميد.

وروت أسماء - رضي الله عنها - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «إلفهم»، وهو مروي أيضاً عن ابن عباس وغيره.

وعنه أيضاً وعن ابن عامر: «إلافهم» مثل «كتابهم».

وعنه أيضاً: «ليلافهم» بياء ساكنة بعد اللام، وذلك أنه لما أبدل الثانية حذف الأولى على غير قياس.

وقرأ عكرمة^(١): «ليألف قريش» فعلاً مضارعاً.

وعنه أيضاً^(٢): «لتألف قريش» على الأمر واللام مكسورة، وعنه فتحها مع الأمر وهي لغة.

فصل في اتصال السورة بما قبلها

تقدم أن هذه السورة، متصلة بما قبلها في المعنى، أي: أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش، أي: لتأليف قريش، أو لتنفق قريش، أو لتأمن قريش فتؤلف رحلتها.

قال ابن الخطيب^(٣): فإن قيل: إنما كان الإهلاك لكفرهم.

قلنا: جزاء الكفور يكون يوم القيامة، يجزي كل نفس بما كسبت للأمرين معاً، ولكن لا تكون اللام لام العاقبة، أو يكون المعنى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ لإيلاف قريش»، أي: كل ما تضمنته السورة «لإيلافهم»، أو تكون اللام بمعنى «إلى»، أي: وجعلنا هذه النعم مضافاً إلى قريش.

وقال الكسائي والأخفش: اللام في ﴿لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ لام التعجب. أي اعجبوا لإيلاف قريش، نقله القرطبي^(٤).

قال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر أهل «مكة» عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، ثم قال - جلا وعلا -: ﴿لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ﴾. أي: فعلنا بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها في الجاهلية، يقولون: هم أهل بيت الله تعالى حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة فأهلكه الله تعالى، فذكرهم نعمته، أي: فجعل الله تعالى ذلك ﴿لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ أي:

(١) ينظر: الكشف ٨/٨٠٢، والبحر المحيط ٨/٥١٥، والدر المصون ٦/٥٧٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٥١٥. (٣) الفخر الرازي ٣٢/٩٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٨.

ليألفوا الخروج ولا يتجرأ عليهم، قاله مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير.

قال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لِيَأْلَفَ قُرَيْشٌ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، قال: كانوا يشتون بـ «مكة»، ويصيفون بـ «الطائف»^(١)، وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي، وإن لم يكن الكلام تاماً.

قال ابن الخطيب^(٢): والمشهور أنهما سورتان، ولا يلزم من التعلق بالاتحاد؛ لأن القرآن كسورة واحدة.

وقال الخليل: ليست متصلة، كأنه قال: ألف الله قريشاً إيلافاً، فليعبدوا ربّ هذا البيت [واللام متعلقة بقوله تعالى: فليعبد هؤلاء رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتياز، ويحمل ما بعد الألف ألفاً على ما قبلها؛ لأنها زائدة غير عاطفة كقولك: زيد فاضرب، وأما مصحف أبي فمعارض بإطباق الكل على الفصل بينهما، وأما قراءة عمر - رضي الله عنه - فالإمام قد يقرأ سورتين].

قال ابن العربي: وليست المواقف التي ينتزع بها القراء شرعاً عن النبي ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علموها وقفوا [حيث شاءوا، فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نفسك، هذا رأيي فيه]^(٣)، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكنني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قال القرطبي^(٤): «وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله: «كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ»، ليس بقبّيح، وكيف يقال بقبّحه، وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى، والتي بعدها في الركعة الثانية، ولا يمنع الوقف على أعجاز الآيات، سواء تمّ الكلام أم لا».

فصل في الكلام على قريش

قريش: اسم القبيلة.

قيل: هم ولد النضر بن كنانة، وكل من ولده النضر فهو قرشي، وهو الصحيح وقيل: هم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فمن لم يلد فهر فليس بقرشي، فوقع الوفاق على أن بني فهر قرشيون، وعلى أن كنانة ليسوا بقرشيين، ووقع الخلاف في النضر ومالك، ثم اختلف في اشتقاقه على أوجه:

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٠١)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٧٨)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة».

(٢) ينظر الفخر الرازي ٩٨/٣٢. (٣) سقط من: أ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤١/٢٠.

أحدها: أنه من القرش، وهو التجمع، سموا بذلك لاجتماعهم بعد تفرق، قال: [الطويل]

٥٣١٦ - أَبُوْنَا قُصَيٍّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهَ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ^(١)
والثاني: أنه من القرش: وهو الكسب، كانت قريش تجاراً، يقال: قرش يقرش: أي: اكتسب.

والثالث: أنه من التفتيش، يقال: قرش يقرش عني أي: فتش، وكانت قريش يفتشون على ذوي الخلأ، فيسدون خلثهم.
قال الشاعر: [الخفيف]

٥٣١٧ - أَيْهَا الشَّامِثُ الْمُقَرَّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو فَهَلْ لَهُ إِنْقَاءٌ^(٢)
والرابع: أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشاً؟.

فقال: لدابة في البحر يقال لها: القرش من أقوى دوابه، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تغلى^(٣).

وأنشد قول تبع: [الخفيف]

٥٣١٨ - وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْ رِبَهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا
تَأْكُلُ الرِّثَّ وَالسَّمِينَ وَلَا تَتَرُكُ فِيهَا لِذِي جَنَاحِينَ رِيثًا
هَكَذَا فِي الْبِلَادِ حَيُّ قُرَيْشٍ يَأْكُلُونَ الْبِلَادَ أَكْلًا كَمِيشًا
وَلَهُمْ آخِرَ الزَّمَانِ نَبِيٌّ يُكْثِرُ الْقَتْلَ فِيهِمْ وَالْخُمُوشَا^(٤)

ثم قريش: إما أن يكون مصغراً تصغير ترخيم، فقليل: الأصل مقرش، وقيل: قارش، وإما أن يكون مصغراً من ثلاثي، نحو: القرش، وأجمعوا على صرفه هنا مراداً به الحي، ولو أريد به القبيلة لامتنع من الصِّرف؛ كقوله: [الكامل]

٥٣١٩ - غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً وَكَفَى قُرَيْشَ الْمُعْضِلَاتِ وَسَادَهَا^(٥)
قال سيبويه في معدّ، وقريش، وثقيف، وكيونة: هذه للأحياء أكثر، وإن جعلتها أسماء للقبائل، فهو جائز حسن.

(١) البيت لمطروود الخزاعي ينظر اللسان (جمع)، والقرطبي ١٣٨/٢٠، والدر المصون ٥٧٢/٦.

(٢) البيت للحارث بن حلزة، ينظر القرطبي ١٣٩/٢٠، والبحر المحيط ٥١٣/٨، والدر المصون ٥٧٢/٦.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٣٩/٢٠).

(٤) ينظر الخزاعة ٩٨٠/١، والقرطبي ٣٩٠/٢٠، والبحر ٢٥١٣/٨، والدر المصون ٥٧٣/٦.

(٥) البيت لعدي بن الرقاع ينظر الكتاب ١٦/٢، والمقتضب ٣٦٢/٣، واللسان (قرش)، والإنصاف ٢/٥٠٦، والبحر ٥١٥/٨، والدر المصون ٥٧٣/٦.

قوله: ﴿إِلَافِهِمْ﴾ مؤكد للأول تأكيداً لفظياً، وأعربه أبو البقاء^(١): بدلاً.

قوله: «رحلة» مفعول به بالمصدر، والمصدر مضاف لفاعله، أي: لأن ألفوا رحلة، والأصل: رحلتي الشتاء والصيف، ولكنه أفرد لأمن اللبس؛ كقوله: [الوافر]

٥٣٢٠ - كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعِفُّوا^(٢)

قاله الزمخشري^(٣). وفيه نظر، لأن سيويه يجعل هذا ضرورة، كقوله: [الطويل]

٥٣٢١ - حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادَيْنِ تَرْنُمِي^(٤)

قال الليث: الرحلة اسم لارتحال القوم للمسير وقيل: رحلة اسم جنس، وكانت له أربع رحل، وجعله بعضهم غلطاً، وليس كذلك.

قال القرطبي^(٥): «رحلة» نصب بالمصدر أي: ارتحالهم رحلة، أو بوقوع «إيلافهم» عليه، أو على الظرف، ولو جعلتها في محل الرفع على معنى هما رحلتا الشتاء والصيف، لجاز.

وقرأ العامة: بكسر الراء، وهي مصدر.

وأبو السمال^(٦): بضمها، وهي الجهة التي يرحل إليها، والشتاء: واد، شذوا في النسب إليه، فقالوا: شتوي، والقياس: شتائي، وشتاوي كـ «كسائي، وكساوي».

فصل في معنى الآية

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، منة منه على قريش^(٧).

وقال الهروي وغيره: كان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل بنو عبد مناف، فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك «الشام»، أي: أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى «الشام»، وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى «الحبشة»، والمطلب إلى «اليمن»، ونوفل إلى «فارس»، ومعنى يؤلف: يجير، فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين، فكان تُجَارُ قريش يختلفون إلى الأمصار، بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم.

(١) ينظر الإملاء ٢/ ٢٩٥. (٢) تقدم.

(٣) ينظر الكشف ٤/ ٨٠٢. (٤) تقدم.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٤٠.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥١٥، والدر المصون ٦/ ٥٧٣.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٨)، وزاد نسبه إلى الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال الأزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة، يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة، والحمائل: جمع حمولة.

قال: والتأويل: أن قريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يمiron في الشتاء، والصيف آمينين، والناس يتخطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى «الشام»؛ لأنها بلاد باردة.

وعن ابن عباس، قال: يشتون بـ «مكة» لدفتها، ويصيفون بـ «الطائف» لهوائها، وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة^(١).

فصل في الشتاء والصيف

قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها.

وقال قوم آخرون: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف.

وقيل: شتاء، وصيف، وقيظ، وخريف.

قال القرطبي^(٢): والذي قال مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً.

قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، أمرهم تعالى بعبادته، وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين، وتقدم الكلام على الفاء، والبيت هو الكعبة، وفي تعريف نفسه بأنه تعالى رب هذا البيت وجهان:

أحدهما: أنها كانت لهم أوثان، فميز نفسه تعالى عنها.

الثاني: لأنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته. وقيل: المعنى: أن يعبدوا رب هذا البيت، أي ليألفوا عبادة رب هذا البيت كما كانوا يألفون الرحلتين.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾، أي: من أجل الجوع، و «آمنهم» من أجل الخوف، والتذكير للتعظيم أي: من جوع عظيم وخوف عظيم.

وقال أبو البقاء^(٣): ويجوز أن يكون في موضع الحال من مفعول «أطعمهم».

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤١.

(١) تقدم تخريجه عن ابن عباس.

(٣) الإملاء ٢/٢٩٥.

وأخفى نون «من» في الخاء: نافع في رواية، وكذلك مع العين، نحو: «من على»، وهي لغة حكاها سيبويه^(١).

فصل في مكانة قريش

قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم - عليه السلام - حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّرَاتِ﴾^(٢) [البقرة: ١٢٦].

وقال ابن زيد: كانت العرب يغيروا بعضها على بعض ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم^(٣).

وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله - تعالى - في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفر، فخافت قريش منهم وظنوا أنهم خرجوا لحربهم، فخرجوا إليهم متحززين، فإذا هم قد جلبوا لهم الطعام، وأعانوهم بالأقوات، فكان أهل مكة يخرجون إلى «جدة» بالإبل والحرر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين.

وقيل: إن قريشاً لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ» فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد، ادعُ الله لنا فإننا مؤمنون، فدعا لهم رسول الله ﷺ فأخصبت «تباله»، و«جرش» من بلاد «اليمن»، فحملوا الطعام إلى «مكة»، وأخصب أهلها.

وقال الضحاك وربيعة وشريك وسفيان: وآمنهم من خوف الحبشة مع الفيل.

وقال علي رضي الله عنه: وآمنهم من أن تكون الخلافة إلا فيهم.

وقيل: كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك^(٤).

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة

﴿إِلِيلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ طَافَ بِالْكَعْبَةِ، وَاعْتَكَفَ بِهَا»^(٥). والله أعلم.

(١) ينظر: الكتاب ٤١٣/٢.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٠٣/١٢)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/

٦٧٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٠٤/١٢)، عن ابن زيد.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٤٢/٢٠).

(٥) تقدم تخريجه.

سورة «الدين» وتسمى «الماعون»

مكية في قول عطاء، وجابر، وأحد قولي ابن عباس^(١)، ومدنية في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره، وهي سبع آيات، وخمس وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾، أي: بالجزاء، والحساب، وقرأ الكسائي^(٢): «أَرَيْتَ» بسقوط الهمزة. وتقدم تحقيقه في «الأنعام».

وقال الزمخشري^(٣): وليس بالاختيار، لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب: «رَيْتَ» ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام، ونحوه: [الخفيف]

٥٣٢٢ - صَاحٍ، هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاحٍ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الْحِلَابِ^(٤) وفي «أُرَيْتَ» وجهان:

أحدهما: أنها بصرية، فتتعدى لواحد، وهو الموصول كأنه قال: أبصرت المكذب. والثاني: أنها بمعنى «أخبرني» فتتعدى لاثنين، فقدرة الحوفي: أليس مستحقاً عذاب الله. وقدرة الزمخشري^(٥): من هو، ويدل على ذلك قراءة^(٦) عبد الله: «أُرَيْتَكَ» بكاف الخطاب، والكاف لا تلحق البصرية.

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣٥٠).

(٢) ينظر: إعراب القراءات ٢/٥٣٥، والدر المصون ٦/٥٧٤.

(٣) الكشف ٤/٨٠٣.

(٤) نسب البيت لإسماعيل بن يسار، ينظر الكشف ٤/٨٠٣، واللسان (علب). والدر المصون ٦/٥٧٤.

(٥) الكشف ٤/٨٠٤.

(٦) ينظر: السابق، والبحر المحيط ٨/٥١٧، والدر المصون ٦/٥٧٤.

قال القرطبي^(١): «وفي الكلام حذف والمعنى: أرايت الذي يكذب بالدين، أمصيب هو، أو مخطيء».

فصل فيمن نزلت فيه السورة

نقل أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وهو قول الكلبي ومقاتل^(٢).

وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجل من المنافقين^(٣).

وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة^(٤).

[وقيل في أبي جهل.

وقال الضحاك: في عمرو بن عائذ.

وقال ابن جريج: في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جزوراً، فطلب منه يتيم شيئاً فقرعه بعصاه، فأنزل الله هذه السورة^(٥).

قال ابن الخطيب^(٦): وقيل: إنه عام في كل مكذب بيوم الدين.

قوله: ﴿فَذَلِكْ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أن الفاء جواب شرط مقدر، أي: إن طلبت علمه فذلك.

والثاني: أنها عاطفة «فَذَلِكْ» على «الَّذِي يُكَذِّبُ» إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة، ويكون جواب «أَرَأَيْتَ» محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، كأنه قيل: أخبرني، وإما تقول فيمن يكذب بالجزاء، وفيمن يؤذي اليتيم، ولا يطعم المسكين أنعم ما يصنع؟.

فعلى الأول يكون اسم الإشارة في محل رفع بالابتداء، والخبر الموصول بعده، وإما على أنه خبر لمبتدأ مضمرة، أي: فهو ذلك، والموصول نعت.

وعلى الثاني: أن يكون منصوباً بالنسق، على ما هو منصوب، إلا أن أبا حيان رد الثاني فقال^(٧): جعل «فَذَلِكْ» في موضع نصب عطفاً على المفعول، وهو تركيب غريب كقولك: «أكرمت الذي يزورنا فذلك الذي يحسن إلينا» فالمتبادر إلى الذهن أن «فَذَلِكْ»

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤٣/٢٠.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٥٠/٦)، والقرطبي (١٤٣/٢٠).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) سقط من: ب.

(٦) الفخر الرازي ١٠٥/٣٢.

(٧) البحر المحيط ٥١٨/٨.

مرفوع بالابتداء، وعلى تقدير النصب يكون التقدير: أكرمت الذي يزورنا، فأكرمت ذلك الذي يحسن إلينا، فاسم الإشارة في هذا التقدير غير متمكن تمكن ما هو فصيح، إذ لا حاجة إلى أن يشار إلى «الذي يزورنا»، بل الفصيح: أكرمت الذي يزورنا، فالذي يحسن إلينا، أو «أكرمت الذي يزورنا، فيحسن إلينا»، وأما قوله: «إما عطف ذات على ذات»، فلا يصح؛ لأن «فذلك» إشارة إلى «الذي يُكذَّب» فليسا بذاتين؛ لأن المشار إليه بقوله: «فذلك»، هو واحد، وأما قوله: «ويكون جواب أُرأيت محذوفاً» فلا يسمّى جواباً، بل هو في موضع المفعول الثاني لـ «أُرأيت»، وأما تقديره «أنعم ما يصنع» فهمزة الاستفهام لا نعلم دخولها على «نعم»، ولا «بئس»، لأنهما إنشاء، والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر، انتهى.

[والجواب عن قوله: «فاسم الإشارة غير متمكن» إلى آخره، أن الفرق بينهما أن في الآية الكريمة استفهاماً وهو «أُرأيت» فحسن أن يفسر ذلك المستفهم منه بخلاف المثال الذي مثل به، فمن ثم حسن التركيب المذكور، وعن قوله: «لأن» فذلك إشارة إلى القائم لا إلى زيد، وإن كان يجوز أن يكون إشارة إليه، وعن قوله: «فلا يسمى جواباً» أن النحاة يقولون: جواب الاستفهام، وهذا قد تقدمه استفهام فحسن ذلك^(١)، وعن قوله: «والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر» بالمعارضة بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [محمد: ٢٢] فإن «عسى» إنشاء فما كان جواباً له، فهو جواب لنا.

فصل

قال ابن الخطيب^(٢): هذا اللفظ، وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك: أُرأيت فلاناً ماذا ارتكب.
ثم قيل: إنه خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام.
وقيل: خطاب لكل عاقل.

قوله: ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ قرأ العامة: بضم الدال، وتشديد العين من «دعّه» أي: دفعه، وأمير المؤمنين والحسن^(٣) وأبو رجاء: «يَدْعُ» بفتح الدال وتخفيف العين.

فصل

قال الضحاك عن ابن عباس: «فذلك الذي يدعُ اليتيم»، أي: يدفعه عن حقه^(٤)، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣].

(١) سقط من: أ. (٢) الفخر الرازي ٣٢/١٠٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٢٧، والبحر المحيط ٨/٥١٨، والدر المصون ٦/٥٧٥.

(٤) وروي من رواية العوفي عنه أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٠٤).

[قال قتادة: يقهره ويظلمه، وقد تقدم في سورة «النساء» أنهم كانوا لا يورثون النساء، ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام]^(١).
وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيماً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى يَسْتَغْنِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢).

قوله: ﴿وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾، أي: لا يأمر به من أجل بخله، وتكذيبه الجزاء، والحساب.

وقرأ زيد^(٣) بن علي: «ولا يحاض» من المحاضة. وقد تقدم في الفجر.
قال القرطبي^(٤): «وليس الذم عاماً حتى يتناول من تركه عجزاً، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] فنزلت هذه الآية فيهم، فيكون معنى الآية: لا يفعلونه إن قدروا، ولا يحثون عليه إن عسروا».

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ مبتدأ، ومعناه: عذابٌ لهم، وقوله: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ خبر، والفاء للسبب، أي: تسبب عن هذه الصفات الذميمة الدعاء عليهم بالويل.

قال الزمخشري بعد قوله^(٥): «كأنه قيل: أخبرني»: وما تقول فيمن يكذب بالدين أنعم ما يصنع، ثم قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ على معنى: فويل لهم، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم؛ لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرأين غير مزيكين أموالهم.

فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير «الذي يُكذَّبُ بالدين»، وهو واحد؟ قلت: معناه الجمع؛ لأن المراد الجنس. قال أبو حيان^(٦): وأما وضعه المصلين موضع الضمير، وأن «المُصَلِّينَ» جمع، لأن ضمير «الذي يُكذَّبُ» معناه الجمع، فتكلف واضح، ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلا ما عليه الظاهر، وعادة هذا الرجل يتكلف أشياء في فهم القرآن ليست بواضحة.

قال شهاب الدين^(٧): وعادة هذا الرجل التَّحَامِلُ على الزمخشري، حتى يجعل حسنة قبيحاً، وكيف يرد ما له، وفيه ارتباط الكلام بعضه ببعض، وجعله شيئاً واحداً، وما

(١) سقط من: ب.

(٢) تقدم تخريجه في سورة الضحى.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٥١٨/٨، والدر المصون ٥٧٥/٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤٤/٢٠. (٥) ينظر: الكشاف ٨٠٤/٤.

(٦) البحر المحيط ٥١٨/٨. (٧) الدر المصون ٥٧٥/٦.

تضمنه من المبالغة في الوعيد في إبراز وصفهم الشنيع، ولا شك أن الظاهر من الكلام أن السورة كلها في وصف قوم جمعوا بين هذه الأوصاف كلها من التكذيب بالدين، ودفع اليتيم، وعدم الحَضُّ على طعام المسكين، والسهر في الصلاة، والمراعاة، ومنع الخير.

قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾، يجوز أن يكون مرفوع المحل، وأن يكون منصوبه، وأن يكون مجروره، تابعاً أو بدلاً أو بياناً، وكذلك الموصول الثاني، إلا أنه يحتمل أن يكون تابعاً للمصلين، وأن يكون تابعاً للموصول الأول.

وقوله: ﴿يُرَاءُونَ﴾ أصله: يرائون كـ «يقاتلون»، ومعنى المراعاة: أي: أن المرائي يُري النَّاسَ عمله، وهم يرون الثَّناء عليه، فالمفاعلة فيها واضحة. وقد تقدم تحقيقه.

فصل في اتصال هذه الآية بما قبلها

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

الأول: أنه لما كان إيذاء اليتيم، والمنع من بذل طعام المسكين، دليلاً على النفاق، كانت هاتين الخصلتين معاملة مع المخلوق.

والثاني: أنه تعالى لما ذكر هاتين الخصلتين مع التكذيب بيوم الدين، قال: أليس الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ فقال: ويلٌ له من هذه الصلاة، كيف لا تنهاه عن هذه الأفعال المنكرة.

والثالث: كأنه يقول: إقدامه على إيذاء اليتيم، وتركه للحث على طعام المسكين تقصير في الشُّفقة على خلق الله تعالى، وسهوه في الصلاة تقصير في التعظيم لأمر الله تعالى، فلما وقع التقصير في الأمرين كملت شقاوته.

فصل في المراد بالمرائي في الصلاة

قال ابن عباس: هو المصلي، الذي إذا صلى لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً.

وعنه أيضاً: الذين يؤخرونها عن أوقاتها^(١).

قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: «الَّذِينَ يُؤْخِرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا تَهَاوُنًا بِهَا»^(٢).

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٠٦/١٢)، وذكره السيوطي «الدر المنثور» (٦٨٣/٦)، وعزاه إلى الطبري.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٠٦/١٢)، والبخاري (٣٩٢ - كشف)، والبيهقي (٢/٢١٤)، مرفوعاً. قال البيهقي: وهذا الحديث إنما يصح موقوفاً. والموقوف أخرجه الطبري (٦/١٢ - ٧)، والبيهقي =

وقيل : لا يَتَمُّون ركوعها، ولا سجودها.

وقال إبراهيم : هو الذي يلتفت في سجوده . وقال قطرب : هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله ، وفي قراءة عبد الله : «الذين هم عن صلاتهم لاهون»^(١).

[وعن ابن عباس أيضاً : هم المنافقون يتركون الصلاة سرّاً، ويصلونها علانية، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى الآية، وهذا يدل على أنها في المنافقين قوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، ورواه ابن وهب عن مالك رضي الله عنه]^(٢).

فصل

قال ابن عبّاس : ولو قال : «في صلاتهم ساهون» لكانت في المؤمنين^(٣)، وقال عطاء : الحمد لله الذي قال : ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل : في صلاتهم، فدل على أن الآية في المنافقين^(٤).

قال الزمخشري^(٥) : فإن قلت : أي فرق بين قوله تعالى : ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ وبين قوله : «في صلاتهم» ؟

قلت : معنى «عَنْ» أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفسقة الشطار من المسلمين، ومعنى «في» أن السَّهْو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه إنسان، وكان النبي ﷺ يقع له السَّهْو في صلاته فضلاً عن غيره.

قال ابن الخطيب^(٦) : قال كثير من العلماء : إنه ﷺ ما سها في صلاته لكن أذن الله له في ذلك الفعل بياناً للتشريع في فعل السَّاهي، ثم بتقدير وقوع السهو منه، فالسهو على أقسام :

= (٢/٢١٤)، وأبو يعلى (٢/٦٤)، عن سعد. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/٣٢٥)، وقال : رواه أبو يعلى وإسناده حسن. وذكره مرفوعاً (٧/١٤٣)، وقال : رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عكرمة بن إبراهيم وهو ضعيف جداً.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٨٣)، مرفوعاً وموقوفاً. وزاد نسبة المرفوع إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. أما الموقوف فزاد نسبته إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه.

(١) ينظر المحرر الوجيز ٥/٥٢٧. (٢) سقط من : ب.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٤٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٠٨)، عن عطاء بن يسار وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٨٣)، وعزاه إلى الطبري.

(٥) الكشف ٤/٨٠٥. (٦) الفخر الرازي ٣٢/١٠٧.

أحدها: سهو الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه، وذلك يجبر بالسنن تارة، وبالسنن والنوافل تارة.

والثاني: ما يكثر في الصلاة من الغفلة، وعدم استحضار النيّة، وهذا يقع كثيراً.
والثالث: ترك الصلّة، لا إلى قضاء الإخراج من الوقت، ومن ذلك صلاة المنافق؛ لأنه يستهزئ بالدين، والفرق بين المنافق والمُرّائي: أنّ المنافق يبطن الكفر، ويظهر الإيمان، والمُرّائي: إنما يظهر زيادة الخُشوع ليعتقد من يراه دينه، أو يقال: إن المنافق لا يصلي سراً، والمُرّائي تكون صلاته عند النَّاس.

قال ابن العربي: السّلامة عند السّهو محال.

قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾، أي: يُرى الناس أنه يصلي طاعة، وهو يصلي تقيّة كالفاقد، يرى أنه يصلي عبادة، وهو يصلي ليقال: إنه يصلي، وحقيقة الرّياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس، وهو من وجوه:

أولها: تحسين السّمت، يريد بذلك الجاه، والثناء.

وثانيها: الرّياء بالثياب القصار والخشنه ليتشبه بالزهاد.

وثالثها: إظهار السخّط على الدنيا، وإظهار الوعظ، والتأسّف على فوات الخير والطاعة.

ورابعها: إظهار الصلاة، والصدقة، وتحسين الصلاة، لأجل رؤية الناس، وغير ذلك مما يطول ذكره.

فصل في الرّياء

لا يكون الرجل مُرائياً بإظهار العمل المفروض، لأن حق الفرائض الإعلان وإشهارها لقوله ﷺ: «ولا غمّة في فرائض الله»، ولأنها أعلام الإسلام وشرائع الدين، ويستحق تاركها الذم، والمَقْت، فوجب إماطة التّهمة بإظهارها، وأما التطوع فحقه أن يخفى؛ لأنه مما لا يلام بتركه، ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء كان جميلاً، وإن قصد بإظهاره أن الأعين تنظر إليه، ويشنى عليه بالصّلاح فهو الرّياء.

قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾. في «الماعون» أوجه:

أحدها: «فاعول» من المعن، وهو الشيء القليل، يقال: ما له معنة، أي: قليل، قاله قطرب.

الثاني: أنه اسم مفعول من أعانه يعينه [والأصل: مَعُون، وكان من حقه على هذا أن يقال: معون كـ «مقول» و «مصون» اسم مفعول من: قال وصان، ولكن قلبت الكلمة بأن قدمت عينها قبل فائها، فصار موعون، ثم قلبت الواو الأولى ألفاً كقولهم تاب وصام في توبة وصومة، فوزنه الآن مفعول، وفيه شذوذ معان كقام، وأما مفعول فاسم مفعول الثلاثي.

الثاني: القلب وهو خلاف الأصل.

الثالث: قلب حرف العلة ألفاً وإن لم يتحرك، وقياسه على تابه وصامه بعيد لشذوذ المقيس عليه، وقد يجاب عن الثالث بأن الواو متحركة في الأصل قبل القلب، فإنه بزنة معوون الوجه^(١).

والثالث: أن أصله «معونة» والألف عوض عن الهاء.

ووزنه «مفعّل» كـ «ملوم»، ووزنه بعد الزيادة «مافعل».

فصل في تفسير الماعون

اختلف المفسرون في «الماعون»، وأحسنها: أنه كل ما يستعان به، وينتفع به كالفأس والدلو، والمقدحة.

قال الأعشى: [المتقارب]

٥٣٢٣ - بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ إِذَا مَا سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَنْمُ^(٢)
ولم يذكر المفعول الأول للمنع، إما للعلم به، أي: يمنعون الناس، أو الطالبين، وإما لأن الغرض ذكر ما يمنعونه، تنبيهاً لخساستهم، وضّتهم بالأشياء النافعة المستقبحة م بها عند كل أحد.

فإن قيل: هذه الآية تدلّ على التهديد العظيم بالسّهو عن الصّلاة، والرياء، ومنع الماعون، وذلك من باب الذنوب، ولا يصير المرء به منافقاً، فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على هذا الفعل؟ فالجواب من وجوه:

الأول: قال ابن الخطيب^(٣): المراد بالمصلين هنا المنافقون الذين يأتون بهذه الأفعال وعلى هذا التقدير: دلّت الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة على فعل محظورات الشرع، وتركه واجبات الشرع، وذلك يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام.

الثاني: قيل لعكرمة: من منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثتهن فله الويل، يعني: ترك الصّلاة، وفعل الرياء، وترك الماعون.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ إِنْ كَانَ مُؤَدِّياً لِلزَّكَاةِ»^(٤). والله تعالى أعلم.

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر ديوانه (٢١٧٠)، والقرطبي ١٤٥/٢٠، والبحر ٥١٥/٨، والدر المصون ٥٧٦/٦.

(٣) الفخر الرازي ١٠٧/٣٢.

(٤) تقدم تخريجه مراراً.

سورة الكوثر

مكية، في قول ابن عباس، والكلبي، ومقاتل، ومدنية في قول الحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة^(١)، وهي ثلاث آيات، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾، قرأ الحسن وابن محيصن، وطلحة، والزعفراني^(٢): «أَنْطَيْنَاكَ» بالنون. قال الرازي، والتبريزي: أبدل من العين نوناً.

فإن عنيما البدل الصناعي فليس بمسلم، لأن كل مادة مستقلة بنفسها، بدليل كمال تصريحها، وإن عنيما بالبدل: أن هذه وقعت موقع هذه لغة، فقريب، ولا شك أنها لغة ثابتة.

قال التبريزي: هي لغة العرب العاربة من أولى قریش.

وفي الحديث: «الْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْطِيَّةُ، وَالْيَدُ السُّفْلَى الْمُنْطَاةُ»^(٣).

وقال الشاعر وهو الأعشى: [المقارب]

٥٣٢٤ - جِيَاذُكَ خَيْرُ جِيَادِ الْمُلُوكِ تُصَانُ الْجَلَالُ وَتُنْطَى الْحُلُولَا^(٤)

قال القرطبي^(٥): «وروته أم سلمة عن النبي ﷺ قراءة، وهي لغة في العطاء أنطيته: أعطيته».

(١) ذكر السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٨٦)، عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها مكية وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٢٩، والبحر المحيط ٨/٥٢٠، والدر المصون ٦/٥٧٧.

(٣) ينظر جامع المسانيد (٢/٥٩٨).

(٤) ينظر الديوان ص ٨٨، واللسان (جلل)، والبحر ٨/٥٢٠، والدر المصون ٦/٥٧٧.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٤٧.

والكوثر: «فَوَعَلَ»، من الكثرة، وصف مبالغه في المفرط الكثرة، مثل النوفل من الثقل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثيراً في العدد، والقدر، والخطر: كوثرأ؛ قال: [الطويل]

٥٣٢٥ - وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنَ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا^(١)
 قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟
 قالت: آب بكوثر، أي: بمال كثير.

والكوثر من الغبار الكثير، وقد تكوثر إذا كثر؛ وقال الشاعر:
 ٥٣٢٦ - وَقَدْ نَارَ نَفْعِ الْمَوْتِ حَتَّى تَكُوْثَرًا^(٢)

فصل في المراد بالكوثر

اختلفوا في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ، فقيل: نهر في الجنة رواه البخاري وغيره^(٣).

وروى الترمذي عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْكُوْثَرُ: نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»^(٤).

وقال عطاء: هو حوض النبي ﷺ^(٥) في الموقف وفيه أحاديث كثيرة.

وقال عكرمة: الكوثر: النبوة، والكتاب^(٦).

وقال الحسن: هو القرآن^(٧). وقال ابن المغيرة: الإسلام.

وقال ابن كيسان: هو الإيثار.

(١) قائله هو الكميت، ينظر ديوانه ٢٧٩/١، والكشاف ٨٠٦/٤، واللسان (كثر)، والقرطبي ١٤٧/٢٠، والبحر ٥٢١/٨، والدر المصون ٥٧٧/٦.

(٢) عجز بيت وصدره:

أَبُو أَنْ يَبِيحُوا جَارَهُمْ لَمَدُوْهُمْ

ينظر ديوان الحماسة للتبريزي ١٢٥/١، والقرطبي ١٤٧/٢٠.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣/٨)، كتاب: التفسير، باب: إنا أعطيناك الكوثر حديث (٤٩٦٥)، من حديث عائشة.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن ماجه (٤٣٣٤)، وأحمد (١١٢/٢)، من حديث ابن عمر.

(٥) ينظر تفسير الماوردي (٣٥٤/٦)، والقرطبي (١٤٨/٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧١٨/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٨/٦)، وزاد نسبه إلى هناد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عكرمة.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٨/٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الحسن.

وقال الحسن بن الفضل: هو تيسير القرآن، وتخفيف الشرائع. وقال أبو بكر بن عياش ويمان بن رئاب هو كثرة الأصحاب والأتباع والأمة.

وحكى الماوردي: أنه رفعة الذكر.

وقيل: [الشفاعة]: وقال هلال بن يساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقيل: الصلوات الخمس.

وقيل الفقه في الدين.

وقيل غير ذلك^(١).

قال القرطبي^(٢): وأصح الأقوال: الأول، والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي ﷺ نصاً في

الكوثر.

فصل في الكلام على هذه السورة

قال ابن الخطيب^(٣): هذه السورة كالمقابلة للتي قبلها، فإنه ذكر في الأول البخل، وترك الصلاة، والرياء، ومنع الماعون، وذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ وفي مقابلة ترك الصلاة: قوله: «فَصَلِّ» أي: دُم على الصلاة، وفي مقابلة الرياء قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: لرضاه خالصاً، وفي مقابلة منع الماعون قوله: «وَانْحَرْ»، أي: تصدَّق بلحم الأضاحي، ثم ختم السورة سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي: أن المنافق الذي أتى بتلك الأفعال القبيحة سَيَمُوتُ ولا يبقى له أثر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل. قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: أقم الصلاة المفروضة عليك^(٤).

وقال قتادة، وعطاء، وعكرمة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر^(٥)، «وَانْحَرْ»

نسُكك.

وقال أنس: كان النبي ﷺ ينحر، ثم يصلي، فأمر أن يصلي ثم ينحر^(٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٨/٢٠.

(١) سقط من: ب.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ١١٠/٣٢.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٢٢/١٢)، عن مجاهد والضحاك وابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٨٩/٦)، عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٢٢/١٢)، عن عطاء وعكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦٩٠/٦)، عن عطاء وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

وينظر تفسير الماوردي (٣٥٥/٦)، والقرطبي (١٤٩/٢٠).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤٨/٢٠).

قال سعيد بن جبير: نزلت في «الحديبية» حين حصر النبي ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى، أن يصلي، وينحر البدن، وينصرف، ففعل ذلك^(١).

قال ابن العربي: «أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ الصلوات الخمس، فلأنها رُكُنُ العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين.

وأما من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة، فلأنها مقرونة بالنحر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر».

قال القرطبي: وأما من قال: إنها صلاة العيد، فذلك بغير «مكة»، إذ ليس بـ «مكة» صلاة عيد بإجماع، فيما حكاه أبو بكر رضي الله عنه.

فصل

الفاء في قوله: «فصل» للتعقيب والتسبب، أي: تسبب عن هذه المنة العظيمة وعقبها أمرك بالتخلي لعبادة المنعم عليك، وقصدك إليه بالنحر لا كما تفعل قريش من صلاتها، ونحرها لأضيافها، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْحَرْ﴾، قال علي - رضي الله عنه - ومحمد بن كعب القرظي: المعنى ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة.

وعن علي - رضي الله عنه - أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره، وهو مروي عن النبي ﷺ.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: استقبل القبلة مكة بنحرك^(٢)، وهو قول الفراء، والكلبي وأبي الأحوص.

قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر أي تتقابل نحر هذا بنحر هذا.

وقال ابن الأعرابي: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر، أي: تتقابل.

[وعن عطاء: أنه أمره أن يستوي بين السجدين جالساً حتى يبدو نحره.

وقال محمد بن كعب القرظي: يقول: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله - تعالى - فقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله تعالى.

والنحر في الإبل بمنزلة الذبج في البقر والغنم^(٣) [٤].

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٢٣/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٨٩)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٤٩/٢٠).

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. يجوز أن يكون «هُوَ» مبتدأ و «الأبتر» خبره، والجملة خبر «إن»، وأن يكون فصلاً.

وقال أبو البقاء^(١): «أو توكيد»، وهو غلط؛ لأن المظهر لا يؤكد بالمضمر.

والأبتر: الذي لا عقب له، وهو في الأصل: الشيء المقطوع، من بتره، أي: قطعه.

وحمار أبتر: لا ذنب له، ورجل أبتر - بضم الهمزة -: الذي يقطع رحمه.

قال: [الطويل]

٥٣٢٧ - لَيْمِمَ نَزَتْ فِي أَنْفِهِ خُنْزَوَانَةٌ عَلَى قَطْعِ ذِي الْقُرْبَىٰ أَخَذَ أَبَاتِرُ^(٢)
وبتر - بالكسر -: انقطع ذنبه.

قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: من لا ولد له ومن الدواب: الذي لا ذنب له.

[وكل من انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبتر: القطع بترت الشيء بترأ قطعته قبل الإتمام، والانبتر: الانقطاع، والباتر: السيف القاطع]^(٣).

وفي الحديث: «مَا هَذِهِ الْبُتَيْرَاءُ؟»^(٤) لمن أوتر بركة واحدة، فأنكر عليه ابن

مسعود.

وخطب زياد خطبة بترء، لم يذكر الله تعالى، ولا صلى على النبي ﷺ. وكان للنبي ﷺ درع يقال لها: «البترء» سميت بذلك لقصرها وقال ابن السكيت الأبتان: العيرُ والعبد، سيما بذلك لقلة خيرهما.

[والبتريّة فرقة من الزيدية نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر].

وقرأ العامة: «شَانِئَكَ» بالألف، اسم فاعل بمعنى الحال، أو الاستقبال أو الماضي.

وقرأ ابن عباس^(٥): «شنتك» بغير ألف.

ف قيل: يجوز أن تكون بناء مبالغة كـ «فعال» و «مفعال»، وقد أثبتته سيبويه؛ وأنشد:

[الكامل]

٥٣٢٨ - حَذِرْ أُمُوراً لَا تَضِيرُ، وَأَمِنْ مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ^(٦)

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٩٥.

(٢) البيت لأبي الرئيس المازني، واسمه عبادة بن طهفة.

ينظر اللسان (بتر)، والبحر ٨/ ٥٢٠، والدر المصون ٦/ ٥٧٨.

(٣) سقط من: ب.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٧٢/١)، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في الوتر بركة حديث (١١٧٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٢١، والدر المصون ٦/ ٥٧٨.

(٦) تقدم.

وقول زيد الخيل: [الوافر]

٥٣٢٩ - أَنَانِي أَنَّهُمْ مَرْقُونٌ عِرْضِي جَحَاشُ الْكِرْمَلِينَ لَهَا قَدِيدٌ^(١)

[فإن كان بمعنى الحال، والاستقبال، فإضافته لمفعوله من نصب، وإن كان بمعنى المضي فهي لا من نصب.

وقيل: يجوز أن يكون مقصوراً من فاعل كقولهم: بر وبار، وبرد وبارد].

فصل في أقوال العلماء في الآية

اختلف المفسرون [في المراد] بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فقيل: هو العاص بن وائل، وكانت العرب تسمي من له بنون، وبنات، ثم مات البنون، وبقي البنات: أبتَر.

فقيل: إن العاص وقف مع النبي ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتَر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ وكان من خديجة - رضي الله عنها - فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع ذكره من خير الدنيا، والآخرة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان أهل الجاهلية، إذا مات ابن الرجل قالوا: بُتِرَ فلان، فلما توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ خرج أبو جهل لأصحابه، فقال: بتر محمد، فأنزل الله تعالى إن شانتك هو الأبتَر يعني أبا جهل.

وقال شهر بن عطية: هو عقبة بن أبي معيط^(٢).

وقال السدي وابن زيد: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات له ذكور ولده: قد بتر فلان، فلما مات لرسول الله ﷺ القاسم بـ «مكة»، وإبراهيم بـ «المدينة»، قالوا: بتر محمد، أي: فليس من يقوم بأمره من بعده، فنزلت الآية^(٣).

وقيل: لما أوحى الله تعالى لرسوله ﷺ دعا قريشاً إلى الإيمان قالوا: انبتر منا محمد أي خالفنا وانقطع عنا، فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون قاله عكرمة وشهر بن حوشب.

فصل في المعاني التي احتوتها هذه السورة

قال أهل العلم: قد احتوت هذه السورة على كونها أقصر سورة في القرآن على

(١) تقدم.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر والزيبر بن بكار كما في «الدر المنثور» (٦/٦٩٠)، وينظر تفسير الماوردي (٦/٣٥٦).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩١)، وعزا إلى ابن أبي حاتم عن السدي.

معان بليغة، وأساليب بديعة، منها: دلالة استهلال السورة على أنه - تعالى - أعطاه كثيراً من كثير.

ومنها: إسناد الفعل للمتكلم المعظم نفسه، ومنها: إيراده بصيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه كـ «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ».

ومنها: تأكيد الجملة بـ «إِنَّ».

ومنها: بناء الفعل على الاسم ليفيد بالإسناد مرتين، ومنها: الإتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة، ومنها حذف الموصوف بالكوثر؛ لأن في حذفه من فرط الإبهام ما ليس في إثباته.

ومنها: تعريفه بـ «أَل» الجنسية الدالة على الاستغراق، ومنها: فاء التعقيب الدالة على التسبب كما تقدم في «الأنعام» سبب الشكر والعبادة.

ومنها: التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى.

ومنها: أن الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال الدينية التي هي الصلاة وأفضلها كالأمر بالنحر.

ومنها: حذف متعلق «انْحَرْ» إذ التقدير: فصلْ لربِّك وانحر له.

ومنها: مراعاة السجع، فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلف.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ في الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المرئى، والمصلح بنعمه، فلا يلتبس كل خير إلا منه.

ومنها: الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

ومنها: جعل الأمر بترك الاحتمال للاستئناف، وجعله خاتمة للإعراض عن الشانئ، ولم يسمه ليشمل كل من اتصف - والعياذ بالله - بهذه الصفة القبيحة، وإن كان المراد به شخصاً معيناً، لَعَيَّنَهُ اللهُ تعالى.

ومنها: التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة، على أنه لم يتصف إلا بمجرد قيام الصفة به، من غير أن يؤثر في من شأنه شيئاً - ألبتة - لأن من شأن شخصاً، قد يؤثر فيه شأنه.

ومنها تأكيد الجملة بـ «إِنَّ» المؤذنة بتأكيد الخبر، ولذلك يتلقى بها القسم، وتقدير القسم يصلح هاهنا.

ومنها: الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا «هُوَ» فصلاً، وإن جعلناه مبتداً فكذلك يفيد التأكيد إذ يصير الإسناد مرتين.

ومنها: تعريف الأبر بـ «أَل» المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة، كأنه قيل: الكامل في هذه الصفة.

ومنها: إقباله تعالى على رسوله بالخطاب، من أول السورة إلى آخرها.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ سَقَاهُ اللَّهُ - تعالى - من أنهار الجنة، وأعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كل قربانٍ قربته العباد في كل عيدٍ أو يُقربونه»^(١).

وعن مكحول - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ كَانَ لَهُ ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَبْعَرَةً، على كلِّ بعيرٍ كَرَارِسُ، كلُّ كَرَّاسٍ مثلُ الدُّنْيَا وما فيها، كتب بدقة الشعر ليس فيها إلا صفة قصوره، ومنازله في الجنة».

(١) تقدم تخريجه.

سورة الكافرون

مكية، في قول ابن مسعود، والحسن، وعكرمة، ومدينة في أحد قولي ابن عباس، وقتادة، والضحاك^(١). وهي ست آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

قال ابن الخطيب^(٢): «هذه السورة تسمى سورة البراءة»^(٣) وسورة الإخلاص، والمشفعة».

روى الترمذي من حديث أنس - رضي الله عنه -: «إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٤).

وروى ابن الأنباري عن أنس - رضي الله عنه -: قال: قال رسول الله ﷺ: «قل يا أيها الكافرون تعدل رُبْعَ الْقُرْآنِ»^(٥).

(١) ينظر تفسير الماوردي (٦/٣٥٧). (٢) ينظر: الفخر الرازي ١٢٧/٣٦.

(٣) الذي في الرازي: المناظرة.

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٨٩٥)، من حديث أنس وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وأخرجه أحمد (٣/١٤٦ - ١٤٧)، والخطيب (١١/٣٨٠).

(٥) له شواهد من حديث ابن عمر وابن عباس وأنس. حديث ابن عمر أخرجه الحاكم (١/٥٦٦)، من طريق غسان عن جعفر بن ميسرة عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورده الذهبي بقوله: قلت: بل جعفر بن ميسرة منكر الحديث جداً قاله أبو حاتم وغسان ضعفه الدارقطني.

حديث ابن عباس أخرجه الترمذي (٢٨٩٦)، والحاكم (١/٥٦٦). وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة. وقال الحاكم: صحيح الإسناد وتعبه الذهبي فقال: قلت: بل يمان ضعفه.

حديث أنس ينظر الحديث السابق.

وخرج الحافظ عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر - رضي الله عنهما - «صلى النبي ﷺ بأصحابه في صلاة الفجر في سفر، فقرأ: «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد» ثم قال ﷺ: «قرأت عليكم ثلث القرآن ورَبْعُهُ»^(١).

[وروى جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال: «أُحِبُّ يا جُبَيْر إذا خَرَجْتَ سَفَرًا أَنْ تَكُونَ مِنْ أَمْثَلِ أَصْحَابِكَ هَيْئَةً، وأكثرهم زَادًا؟» قلت: نَعَمْ، قال: فاقْرَأْ هذه السُّور الخَمْسَ من أول: «قل يا أيها الكافرون» إلى «قل أعوذ برب الناس»، وافتتحْ قِرَاءَتَكَ بِـ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

قال: [٢] فوالله، لقد كنت غير كثير المال، إذا سافرت أكون أبْدُهُم هَيْئَةً، وأقلهم مالاً، فمذ قرأتهم صرت من أحسنهم هَيْئَةً، وأكثرهم زَادًا، حتى أرجع من سفري ذلك^(٣).

قال ابن الخطيب^(٤): والوجه في أنها تعدل ربع القرآن، هو أن القرآن يشتمل على الأمر بالمأمورات، والنهي عن المحظورات، وكل واحد منها ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب، فيكون ربع القرآن.

وخرج ابن الأنباري عن نوفل بن فروة الأشجعي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، قال: «اقرأ عِنْدَ مَنْامِكَ: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرِكِ»^(٥).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس في القرآن أشدَّ غيظاً لإبليس - لعنه الله - من هذه السورة؛ لأنها توحيد، وبراءة من الشرك^(٦).

وقال الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: المقشقشتان، أي: أنهما تبرئان من النفاق.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٣)، وعزاه إلى ابن الضريس والحاكم في «الكنى» وابن مردويه عن ابن عمر.

(٢) سقط من: أ.

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٣/٤١٤)، رقم (٧٤١٩)، من حديث جبير بن مطعم وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٣٣ - ١٣٤)، وقال: رواه أبو يعلى وفيه من لم أعرفهم.

وذكره ابن حجر في «المطالب العلية» (٣/٣٩٨)، رقم (٣٨٠٩).

(٤) ينظر الفخر الرازي ١٢٧/٣٢.

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٩٠٣)، والدارمي (٢/٥٣٨)، وأحمد (٥/٤٥٦)، والحاكم (١/٥٦٥)، وابن حبان (٢٣٦٣ - موارد)، عن فروة بن نوفل عن أبيه، وصححه الحاكم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٤)، وزاد نسبته إلى ابن الأنباري في المصاحف وابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٥٣).

وقال أبو عبيدة - رضي الله عنه - : كما يقشّش الهناء الجرب فيبرئه^(١).

قال ابن السكيت: يقال للقرح والجدرى إذا يبس وتقرف، والجرب في الإبل إذا قفل: قد توسّف جلده، وتقرّش جلده، وتقشّش جلده.

قال ابن عباس - رضي الله عنه - : سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف، لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبد ما تعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كلّ، فإن كان ما جئت به خيراً مما بأيدينا، كنّا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه، فأنزل الله - عز وجل - ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾، ونزل قوله: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسلمين في الحرم، وفيه الملاء من قريش، فقام ﷺ فقرأها عليهم، حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك^(٢).

وروى أبو صالح عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك، فنزل جبريل - عليه السلام - بهذه السورة فيئسوا منه وآذوه، وآذوا أصحابه^(٣).

فإن قيل: لم وصفهم في هذه السورة بالكافرين وفي السورة الأخرى بالجاهلين كما تقدم؟

فالجواب: لأن هذه السورة بتمامها نزلت فيهم، فتكون المبالغة فيها أشد فبولغ فيها بالوصف الأشنع، وهو الكفر، لأنه مذموم مطلقاً، والجهل كالشجرة، والكفر كالثمرة فقد يذم عند التقيد، كقوله ﷺ: «عِلْمُ الْإِنْسَانِ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ، وَجَهْلٌ لَا يَضُرُّ». فإن قيل: قال في سورة التحريم: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية: ٧]، بغير «قُلْ»، وهنا - جلّ وعز - ذكر «قُلْ» وذكره باسم الفاعل.

فالجواب: أنه في سورة «التحريم» إنما يقال لهم يوم القيامة، وثمّ لا يكون رسولاً إليهم، فإذا زال الوساطة، ويكونون في ذلك الوقت مطيعين، لا كافرين، فلذلك ذكره بلفظ الماضي.

وأما هاهنا فكانوا موصوفين بالكفر، وكان رسول الله ﷺ رسولاً إليهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ﴾.

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٢٧ - ٧٢٨)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٢)، وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم والطبراني.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٥٤).

فإن قيل: هذا خطاب مع الكل، وكان فيهم من يعبد الله تعالى، كاليهود، والنصارى، فلا يجوز أن يقال لهم: «لا أعبدُ ما تَعْبُدُونَ»، ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله: «وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ ما أَعْبُدُ» خطاباً مع الكل؛ لأن في الكفار من آمن، فعبد الله. فالجواب: أن هذا الخطاب مشافهة مع أقوام مخصوصين، وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة وأيضاً لو حملنا الخطاب على العموم دخله التخصيص، وإذا حملناه على خطاب المشافهة لم يلزم ذلك.

فصل

قال القرطبي^(١): الألف واللام ترجع إلى معنى المعهود، وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لـ «أي»، لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم؛ ونحوه عن الماوردي: نزلت جواباً وعتاباً وعن الكافرين قوماً معينين، لا جميع الكافرين، لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات، أو قتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون.

فصل

قال ابن الأنباري: وقرأ من طعن في القرآن^(٢): «قل للذين كفروا، لا أعبد ما تعبدون» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذل نبيه للمشركين، بخطابه إياهم بهذا الخطاب المزري، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لبّ وحجر وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس في باطلهم، وتحريفهم، فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا، يا أيها الكافرون، دليل صحة هذا: أن العربي إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أقبل إلينا، فمعناه: قل لزيد يا زيد أقبل إلينا، فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ، وأبلغ معنى، إذ كان الرسول - عليه السلام - يعتمدهم في ناديهم فيقول لهم: «يا أيها الكافرون» وهو يعرف أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر، ويدخلوا في جملة أهله، إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذية، فمن لم يقرأ: «قُلْ يَكْفُرُونَ»، كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله ﷺ، وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التي منحه الله إياها، وشرفه بها.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٥٤.

(٢) وهذا فيه نظر، فقد نقل ابن عطية هذه القراءة عن صحابييين كبيرين، وهما أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٣١.

فصل في الكلام على «يا»

قال ابنُ الخطيب^(١): روي عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن «يا» نداء النفس، و «أي» نداء القلب و «ها» نداء الروح^(٢).

وقيل: «يا» نداء الغائب، و «أي» للحاضر، و «ها» للتنبيه، كأنه - عز وجل - يقول: أدعوك ثلاثاً، ولا تجبني مرة.

قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. في «ما» هذه في هذه السورة وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى «الذي».

والثانية: فالأمر فيها واضح؛ لأنها غير عقلاء. و «ما» أصلها أن تكون لغير العقلاء، وإذا أريد بها الباري - تعالى - كما في الثانية والرابعة، فاستدلّ به من جوز وقوعها على أولي العلم، ومن منع جعلها مصدرية، والتقدير: ولا أنتم عابدون عبادتي، أي: مثل عبادتي.

وقال أبو مسلم: «ما» في الأولين بمعنى «الذي» والمقصود: المعبود، و «ما» في الآخرين مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين، فيحصل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال: أنها كلّها بمعنى «الذي»، أو مصدرية، أو الأوليان بمعنى الذي، والثالثة والرابعة مصدرية، لكان حسناً، حتى لا يلزم وقوع «ما» على أولي العلم، وهو مقتضى من يمنع وقوعها على أولي العلم، كما تقدم.

فصل في التكرار في الآية

اختلفوا في التكرار - هاهنا - هل هو للتأكيد، أم لا؟ وإذا لم يكن للتأكيد فقولهم تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ تأكيد لقوله ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ثانياً تأكيد لقوله: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أولاً.

ومثله: ﴿وَيَأْتِيَ آلَافُ رِجَالٌ تَوَكَّدَ بَيْنَ﴾، و ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورتيهما، و ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، و ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وفي الحديث: «فَلَا آذُنُ ثُمَّ لَا آذُنُ، إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»^(٣)؛ وقال الشاعر: [مجزوء الكامل]

٥٣٣٠ - هَلَّا سَأَلْتُ جُمُوعَ كُنْ - دَعَا يَوْمَ وَلَوْ أَيْسَرُ أَيْسًا^(٤)

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٣٣/٣٢).

(١) الفخر الرازي ١٣٣/٣٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) البيت لعبيد بن الأبرص، ينظر ديوانه (١٣٦)، وشرح شواهد المغني (٩١)، والقرطبي ١٥٥/٢٠، والدر المصون ٥٨٠/٦.

وقوله: [الرجز]

٥٣٣١ - يَا عَلَقَمَةَ يَا عَلَقَمَةَ يَا عَلَقَمَةَ خَيْرَ تَمِيمٍ كُلُّهَا وَأَحْرَمَةَ^(١)

وقوله: [الرجز]

٥٣٣٢ - يَا أَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ إِنَّكَ إِنْ يُضْرَعُ أَخْوَكُ تُضْرَعُ^(٢)

وقوله: [الطويل]

٥٣٣٣ - أَلَا يَا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ثَلَاثَ تَحِيَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَكَلِّمْ^(٣)

وقوله: [الرجز]

٥٣٣٤ - يَا جَعْفَرُ يَا جَعْفَرُ يَا جَعْفَرُ إِنْ أَكْ دَخَدَاكَ فَانْتَ أَفْصَرُ^(٤)

وقوله: [المديد]

٥٣٣٥ - يَا لَبْكَرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلِّبَا يَا لَبْكَرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ^(٥)

قالوا: والقرآن جاء على أساليب كلام العرب، وفائدة التكرير هنا، قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافقتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبداً.

وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، [ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك]^(٦)، فنجري على هذا أبداً سنةً وسنةً، فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده، أي: أن هذا لا يكون أبداً.

وقال جماعة: ليس للتأكيد، فقال الأخفش: «لا أعبد» الساعة «مَا تَعْبُدُونَ»، ولا أَنْتُمْ عَابِدُونَ» السنة «ما أعبد» فلا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أَنْتُمْ عَابِدُونَ في المستقبل ما أعبد؛ فزال التوكيد إذ قد تقيد كل جملة بزمان مغاير؛ انتهى.

وفيه نظر، كيف يقيد رسول الله ﷺ نفي عبادته لما يعبدون بزمان؟ هذا مما لا يصح، وفي أسباب النزول أنهم سأله أن يعبد آلهتهم سنة، فنزلت، فكيف يستقيم هذا؟ وجعل أبو مسلم التغاير بما تقدم عنه، وهو كون «ما» في الأولين بمعنى «الذي»، وفي الآخرين: مصدرية، وفيه نظر من حيث إن التكرار إنما هو من حيث المعنى، وهذا موجود، كيف قدر «مَا».

(١) ينظر القرطبي ١٥٥/٢٠، والدر المصون ٥٨١/٦، وفتح القدير ٥٠٧/٥.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر المفصل ٩٣/٥.

(٥) هو للملهل بن ربيعة، ينظر خزائن الأدب ١٦٢/٢، وشرح أبيات سيبويه ٤٦٦/١، والكتاب ٢/٢١٥، واللامات ص ٨٧، واللسان (لوم)، والخصائص ٢٢٩/٣، والقرطبي ١٥٥/٢٠، والدر المصون ٥٨١/٦.

(٦) سقط من: أ.

وقال ابن عطية^(١): لما كان قوله: «لا أعبد» محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستقبل منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ» أبداً وما حييت، ثم جاء قوله: «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ» الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً كالذي كشف الغيب، كما قيل لنوح - عليه الصلاة والسلام -: «كُنْ يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ» [هود: ٣٦]، فهذا معنى التردد في هذه السورة، وهو بارع الفصاحة، وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته انتهى.

وقال الزمخشري^(٢): «لا أعبد» أريد به العبادة فيما يستقبل؛ لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن «أن» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى [أَنْ «لَنْ» تأكيد فيما تنفيه «لا»].

وقال الخليل في «لن»: [إن أصله: (٣) «لا أن» والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي] «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ» أي: ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؛ «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ» أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قلت: فهلاً قيل: ما عديت كما قيل: ما عبدتم؟

قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن ليعبد الله - تعالى - في ذلك الوقت.

فإن قلت: فلم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق.

وقيل: إن «ما» مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي انتهى.

[يعني أنه أريد به الصفة، وقد تقدم تحقيق ذلك في سورة «والشمس وضحاها»].

وناقشه أبو حيّان، فقال^(٤): أما حصره في قوله: لأن «لا» لا تدخل، وفي قوله: إنَّ «مَا» تدخل، فليس بصحيح، بل ذلك غالب فيهما، لا متحتم، وقد ذكر النحاة دخول «لا» على المضارع يراد به الحال، ودخول «ما» على المضارع يراد به الاستقبال، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو. ولذلك لم يذكر سيبويه ذلك بأداة الحصر، إنما قال^(٥): وتكون «لا» نفياً، لقوله: «نفعل» ولم يقع الفعل، قال: «وَأَمَّا «مَا» فهي نفي، لقوله: هو يفعل إذا كان في حال الفعل. فذكر الغالب فيهما.

(١) المحرر الوجيز ٥/٥٣١.

(٢) الكشف ٤/٨٠٨.

(٣) ينظر: الكتاب ٢/٣٠٥ - ٣٠٦.

(٤) سقط من: أ.

(٤) البحر المحيط ٨/٥٢٣.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، أي: وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، فلا يستقيم، لأن «عابد» اسم فاعل قد عمل فيما عبدتم، فلا يفسر بالماضي، إنما يعتبر بالحال، أو الاستقبال، وليس مذهبه في اسم الفاعل مذهب الكسائي، وهشام في جواز إعماله ماضياً.

وأما قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته فـ «عابدون» قد أعمله في: «مَا أَعْبُدُ»، فلا يفسر بالماضي.

وأما قوله: «وهو لم يكن»، إلى آخره، فسوء أدب على منصب النبوة، وغير صحيح؛ لأنه ﷺ لم يزل موحداً لله تعالى، مُنْزَهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله سبحانه مجتنباً لأصنامهم يقف على مشاعر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ويحج البيت، وهذه عبادة، وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ونبذ أصنامهم، ومعرفة الله - تعالى - أعظم العبادات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال المفسرون: أي ليعرفون، فسمى الله تعالى المعرفة به عبادة انتهى.

قال شهاب الدين^(١): ويجاب عن الأول: أنه بنى أمره على الغالب، فلذلك أتى بالحصص، وأما ما حكاه سيويه، فظاهر معه، حتى يقوم دليل على غيره، وعن إعماله اسم الفاعل مفسراً له بالماضي بأنه على حكاية الحال، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بِسِطْرِ ذَرَأِيهِ﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، وأما كونه ﷺ لم يزل منزهاً موحداً لله تعالى، فمسلم ذلك. وقوله: «وهذه أعظم العبادات» فمسلم أيضاً، ولكن المراد في الآية عبادة مخصوصة، وهي الصلاة المخصوصة؛ لأنها تقابل بها ما كان المشركون يفعلونه من سجودهم لأصنامهم، وصلاتهم لها، فقابل هذا ﷺ بصلاته لله تبارك وتعالى، ولكن بقي كلام الزمخشري يفهم أنه ﷺ لم يكن متعبداً قبل المبعث، وهو مذهب ساقط الاعتبار؛ لأن الأحاديث الصحيحة تردده، وهي: أنه كان يتحش، كان يتعبد، كان يصوم، كان يطوف، كان يقف، ولم يقل بخلاف ذلك إلا شذوذ من الناس.

وفي الجملة، فالمسألة خلافية، وإذا كان متعبداً فبأي شرع كان يتعبد به؟ فقيل: شريعة نوح عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إبراهيم عليه السلام.

وقيل: موسى.

وقيل: عيسى - صلوات الله عليهم أجمعين -، وذلك مذكور في الأصول.

ثم قال أبو حيان^(١): والذي أختاره في هذه الجمل أنه نفى عبادته في المستقبل؛ لأن الغالب في «لا» أن تنفي المستقبل، ثم عطف عليه ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفياً للمستقبل؛ لأن اسم الفاعل العامل، الحقيقة فيه: دلالة على الحال، ثم عطف عليه ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفياً للحال على سبيل المقابلة، فانتظم المعنى، أنه ﷺ لا يعبد ما يعبدون حالياً، ولا مستقبلاً، وهم كذلك، إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر، ولما قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فأطلق «ما» على الأصنام، قابل الكلام بـ «ما» في قوله: «ما أعبد» وإن كان المراد الله، لأن المقابلة تسوغ فيها ما لا يسوغ في الانفراد وهذا مذهب من يقول: إن «ما» لا تقع على آحاد أولي العلم، أما من جوز ذلك، وهو منسوب إلى سيبويه، فلا يحتاج إلى استعذار بالتقابل.

قال القرطبي^(٢): كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملؤا وثناً، وسموا العبادة له رفضوه، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها، ونصبوها آلهة يعبدونها، فأمر أن يقول: «لا أعبد ما تعبدون» اليوم من هذه الآلهة التي بين أيديكم، ثم قال ﷺ: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» إنما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن، «ولا أنتم عابدون ما أعبد»، فإني أعبد إلهي.

قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. أتى بهاتين الجملتين الإثباتيتين بعد جملة منفية لأنه لما ذكر أن الأهم انتفاؤه ﷺ من دينهم، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه، فلما تحقق النفي رجع ﷺ إلى خطابه بقوله: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» مهادنة لهم، ثم نسخ ذلك الأمر بالقتال.

وفتح الباء في «لِيَ»: نافع وهشام وحفص والبرزي بخلاف عنه، وأسكنها^(٣) الباقون.

وحذف «الياء» من «ديني» وقفاً ووصلاً: السبعة، وجمهور القراء، وأثبتها في الحاليين سلام ويعقوب، وقالوا: لأنها اسم مثل الكاف في «دينك» والثاني قد تقدم إيضاحه.

فصل

في الكلام معنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩]، أي: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا، ونسخ هذا الأمر بالقتال. [وقيل: السورة منسوخة.]

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢/١٥٥.

(١) البحر المحيط ٨/٥٢٣.

(٣) ينظر: السبعة ٦٩٩، والحجة ٦/٤٤٩ - ٤٥٠، وإعراب القراءات ٢/٥٣٩، والمحرم الوجيز ٥/٥٣١، والدر المصون ٦/٥٨٣.

وقيل: ما نسخ منها شيء؛ لأنها خبر، ومعنى لكم دينكم: أي جزاء دينكم، ولي دين: أي جزاء ديني، وسمى دينهم ديناً؛ لأنهم اعتقدوه^(١).

وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي، أي: لأن الدين الجزاء.

وقيل: الدين العقوبة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، والمعنى: لكم العقوبة من ربّي، ولي العقوبة من أصنامكم، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام؛ لأنها جمادات، وأما أنتم فيحق عليكم أن تخافوا عقوبة جبار السماوات والأرض.

وقيل: الدين الدعاء، لقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

وقيل: الدين العادة؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥٣٣٦ - تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي^(٢)
والمعنى: لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشيطان، ولي عادتي من ربي.

فصل

قال ابن الخطيب^(٣): «جرت العادة بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المناكرة، وذلك غير جائز؛ لأن القرآن أنزل ليتدبر فيه، ويعمل بموجبه، فلا يتمثل به». والله أعلم.

(١) سقط من: ب..

(٢) تقدم.

(٣) الفخر الرازي ١٣٧/٣٢.

سورة النصر

مدنية بالإجماع، وتسمى سورة «التوديع»، وهي ثلاث آيات، وست عشرة كلمة، وتسعة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ﴾: عليك وعلى أمتك، والمقصود: إذا جاء هذان الفعلان من غير نظر إلى متعلقهما، كقوله تعالى: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤].

«أل» في «الفتح» عوض من الإضافة: أي: وفتحته عند الكوفيين، والعائد محذوف عند البصريين، أي: والفتح منه للدلالة على ذلك، والعامل في «إذا»: «جاء» وهو قول مكِّي، وإليه ذهب أبو حيَّان^(١) وغيره في مواضع وقد تقدم ذلك.

وإما «فسبِّح»، وإليه نحا الزمخشري^(٢) والحوافي، والتقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء، ورد أبو حيَّان بأن ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها، وفيه بحث تقدم بعضه في سورة «الضحى».

فصل في الكلام على «نصر»

النصر: العون، مأخوذ من قولهم: قد نصر الغيث الأرض، إذا أعان على إنباتها. قال الشاعر: [الطويل]

٥٣٣٧ - إِذَا انْسَلَخَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ قَوْدَعِي بِلَادَ تَمِيمٍ وَانْصُرِي أَرْضَ عَامِرٍ^(٣)

ويروى: [الطويل]

(٢) الكشف ٨١٠/٤.

(١) ينظر: البحر المحيط ٥٢٤/٨.

(٣) البيت للراعي للنميري ينظر ديوانه ص ٢١١، والقرطبي ٢٣٠/٢٠، واللسان (نصر)،

٥٣٨ - إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَجَاوِزِي بِلَادَ تَمِيمٍ وَأَنْصُرِي أَرْضَ عَامِرٍ^(١)

يقال: نصره على عدوه ينصره نصرًا: أي: أعانه، والاسم: النُصرة، واستنصره على عدوه، أي: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصر بعضهم بعضًا.

وقيل: المراد بهذا النصر: نصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - على قريش قاله الطبري^(٢).

[وقيل نصره على من قاتله من الكفار وأن عاقبة النصر كانت له وأما الفتح فهو فتح مكة، قاله الحسن ومجاهد^(٣) وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير هو فتح المدائن والقصور^(٤) وقيل فتح سائر البلاد، وقيل ما فتحه عليه من العلوم، وقيل إذا بمعنى قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح، ويجوز أن يكون معناه إذا يجيئك^(٥)].

فصل في الفرق بين النصر والفتح

قال ابن الخطيب^(٦): الفرق بين النصر والفتح، الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقًا، والنصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر، وعطف الفتح عليه، ويقال: النصر كمال الدين والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة، كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].
والنُصْر: الظفر في الدنيا، والفتح: بالجنة.

فصل في المراد بهذا النصر

قال ابن الخطيب^(٧): إن رسول الله ﷺ كان مؤيداً منصوراً بالدلائل، والمعجزات، فما المعنى بتخصيص لفظ النصر بفتح «مكة»؟.

والجواب: أن المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع.

فإن قيل: النصر لا يكون إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] فما فائدة التقييد بقوله تعالى: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾؟.

فالجواب: معناه: لا يليق إلا بالله، كما يقال: هذه صنعة زيد، إذا كان مشهوراً، فالمراد هذا هو الذي سألتموه.

(١) ينظر القرطبي ١٥٧/٢٠. (٢) ينظر: جامع البيان (١٢/٧٢٩).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٢٩)، عن مجاهد وابن زيد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٦)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/٣٦٠)، والقرطبي (١٥٧/٢٠).

(٥) سقط من: ب. (٦) الفخر الرازي ٣٢/١٤٠.

(٧) الفخر الرازي ٣٢/١٤٠.

فإن قيل: لم وصف النصر بالمجيء، وحقيقته: إذا وقع نصر الله، فما الفائدة في ترك الحقيقة، وذكر المجاز؟

فالجواب: أن الأمور مرتبطة بأوقاتها، وأنه - تعالى - قد ربط بحدوث كلِّ محدث أسباباً معينة، وأوقاتها مقدرة يستحيل فيها التقدم، والتأخر، والتبدل، والتغير، فإذا حضر ذلك الوقت، وجاء ذلك الزمان حضر ذلك الأثر معه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا نُزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فإن قيل: الذين أعانوا رسول الله ﷺ على فتح مكة هم الصحابة - رضي الله عنهم - ثم إنه تعالى سمي نصرتهم لرسول الله ﷺ فما السبب في إضافة النصر إليه؟

فالجواب: أن النصر وإن كان على يد الصحابة لكن لا بدَّ لهم من داعٍ وباعثٍ، وهو من الله تعالى.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد متقدماً على فعل الله، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَصْرَكُمُ﴾ [محمد: ٧] فجعل نصر العبد مقدماً على نصره لنا.

فالجواب: أن لا امتناع في أن يكون فعل العبد سبباً لفعل آخر يصدر عن الله - تعالى - فإن أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن إدراكها العقول البشرية.

قوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾، «رأيت» يحتمل أن يكون معناه: أبصرت، وأن يكون معناه: علمت، فإن كان معناه «أبصرت» كان «يَدْخُلُونَ» في محل نصب على الحال، والتقدير: ورأيت الناس يدخلون حال دخولهم في دين الله أفواجاً، وإن كان معناه: «علمت» كان «يَدْخُلُونَ» مفعولاً ثانياً لـ «علمت» والتقدير: علمت الناس داخلين في دين الله أفواجاً.

وفي عبارة الزمخشري^(١): أنه كان بمعنى «أبصرت»، أو «عرفت».

وناقشه أبو حيان^(٢): بأن «رأيت» لا يُعرف كونها بمعنى «عرفت» قال: «فيحتاج في ذلك إلى استنبات».

وقرأ العامة: «يدخلون» مبنياً للفاعل.

وابن كثير^(٣) في رواية: مبنياً للمفعول و «في دين» ظرف مجازي، وهو مجاز فصيح بليغ هاهنا.

(١) ينظر: الكشف ٨/١١١. (٢) البحر المحيط ٨/٥٢٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٥٢٤، والدر المصون ٦/٥٨٤.

قوله: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل «يَدْخُلُونَ».

قال مكّي: «وقياسه: «أفوج» إلا أن الضمة تستثقل في الواو فشبها «فعلاً» - يعني بالسكون - بـ «فعل» - يعني بالفتح - فجمعوه جمعه» انتهى.

أي: أن «فَعْلًا» بالسكون، قياسه «أفْعُل» كـ «فُلُس» و «أفْلُس» إلا أنه استثقلت الضمة على الواو، فجمعوه جمع «فعل» بالتحريك نحو: جمل، وأجمال، لأن «فَعْلًا» بالسكون على «أفعال» ليس بقياس إذا كان فعلاً صحيحاً، نحو: فرخ وأفراخ وزند وأزناد، ووردت منه ألفاظ كثيرة، ومع ذلك فلم يقيسوه، وقد قال الحوفي شيئاً من هذا.

فصل في الكلام على لفظ الناس

ظاهر لفظ «النَّاس» للعموم، فيدخل كل النَّاس أفواجاً، أي: جماعات، فوجاً بعد فوج، وذلك لما فتحت «مكة» قالت العرب: أما إذ ظفر محمد ﷺ بأهل الحرم، وقد كان الله - تعالى - أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان؛ فكانوا يسلمون أفواجاً أفواجاً أمة بعد أمة.

قال الضحاك: والأمة: أربعون^(١) رجلاً.

وقال عكرمة، ومقاتل: أراد بالنَّاس أهل «اليمن»^(٢)، وذلك أنه ورد من «اليمن» سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرءون القرآن، وبعضهم يهللون، فسُرَّ النبي ﷺ، وبكى عمر وابن عباس. وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وجاء أهل اليمن، رقيقة أفئدتهم لينة طباعهم، سخية قلوبهم، عظيمة خشيتهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً^(٣).

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، وَهُمْ أَضْعَفُ قُلُوبًا، وَأَرْقُ أَفئِدَةً، الْفَقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(٤).

وقال ﷺ: «إِنِّي لأَجِدُ نَفْسَ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ»^(٥) وفيه تأويلان:

أحدهما: أنه الفرج، لتتابع إسلامهم أفواجاً.

والثاني: معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه ﷺ بأهل «اليمن» و [الأنصار]^(٦).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٧/٢٠). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٣٠/١٢).

(٤) أخرجه البخاري ٧٠١/٧، كتاب المغازي، باب: قدوم الأشعرين وأهل اليمن (٤٣٨٨ - ٤٣٩٠)، ومسلم ٧١/١ كتاب الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان (٢٤ - ٥٢)، والترمذي ٦٨٣/٥، كتاب المناقب، باب: فضل أهل اليمن (٣٩٣٥).

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٨١١/٤).

(٦) في أ: الأخبار.

وروى جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجاً»^(١) ذكره الماوردي.

قال ابن الخطيب^(٢): كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً، واثنين اثنين.

فصل في المراد بدين الله

ودينُ الله، هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وإضافة الدين إلى الاسم الدال على الإلهية، إشارة إلى أنه يجب أن يعبد لكونه إلهاً، وللدين أسماء أخرى، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ومنها: الصراط، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

ومنها: كلمة الله، ومنها النور: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨].

ومنها الهدى، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ومنها العروة الوثقى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْبَقْرَةِ: ٢٥٦﴾.

ومنها: الحبْلُ المتين: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومنها: حنيفية الله، وفطرة الله.

فصل في إيمان المقلد

قال جمهور الفقهاء والمتكلمين: إيمان المقلد صحيح، واحتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج، وجعله من أعظم المنن على نبيه محمد ﷺ ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً، لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدليل، وإثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية، والمكان والحيز، وإثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، ولا إثبات الصفات، والتنزيه بالدليل، والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح، لا يقال: إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه

(١) حديث جابر أخرجه أحمد ٣/٣٤٣، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٩)، وعزاه إلى ابن مردويه. وله شاهد من حديث أبي هريرة بلفظ: ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا. أخرجه الحاكم (٤/٤٩٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٢/١٤٥.

المسائل؛ لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل كانوا جاهلين بالتفاضل؛ لأننا نقول: إن الدليل لا يقبل الزيادة والتقصان، فإن الدليل إذا كان مركباً من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، وكان في المقدمة العاشرة مقلداً، كان في النتيجة مقلداً لا محالة.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، ﴿يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ حال، أي: ملتبساً بحمده.

قال ابن الخطيب^(١): إنه - تعالى - أمره ﷺ بالتسبيح، ثم بالحمد، ثم بالاستغفار، والفائدة فيه أن تأخير النصر سنين، مع أن محمداً ﷺ كان على الحق، مما يثقل على القلب، ويقع في القلب أي إذا كنت على الحق فلم لا ينصرنى، ولو سلطت على هؤلاء الكفار. فلاجل الاعتذار عن هذا الخاطر، أمر بالتسبيح أما على قولنا: فالمراد من هذا التنزيه، أنه تعالى منزّه عن أن يستحق عليه أحد شيئاً [بل كل ما يفعله فإنما يفعله بحكم المشيئة الإلهية، فله أن يفعل ما شاء كما يشاء، ففائدة التسبيح: تنزيه الله تعالى عن أن يستحق عليه أحد شيئاً]^(٢).

وأما على قول المعتزلة، ففائدة التنزيه: هو أن يعلم العبد أن تنزيه الله تعالى عما لا يليق ولا ينبغي بسبب المصلحة، لا بسبب ترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد من تنزيه الله، فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطاه من الإحسان، والبر، ثم حينئذ بالاستغفار لذنوب نفسه.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: إذا صليت، فأكثر من ذلك.

وقيل: معنى «سَبِّحْ»: صلّ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما^(٣).

أو قوله: ﴿يَحْمَدُ رَبِّكَ﴾ حامداً له على ما آتاك من الظفر، والفتح، واستغفره أي: سلوا الله الغفران.

وقيل: فسبح أي: المراد به التنزيه، أي: نزهه عما لا يجوز عليه، مع شكرك له، وبلاستغفار، ومداومة الذكر.

وروي في «الصحيحين» عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي^(٤).

وقالت أم سلمة - رضي الله عنها -: كان النبي ﷺ آخر أمره^(٥) لا يقوم، ولا يقعد،

(١) الفخر الرازي ١٤٦/٣٢. (٢) سقط من: أ.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٥٨/٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠/٨)، كتاب التفسير، باب: إذا جاء نصر الله والفتح حديث (٤٩٦٨).

(٥) في أ: عمره.

ولا يجيء، ولا يذهب إلا قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، قال: «فإني أمرتُ بها»، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١) إلى آخرها.

وقال عكرمة: لم يكن النبي ﷺ قط أشدَّ اجتهداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها.

وقال مقاتل: لما نزلت، فقرأها النبي ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد ابن أبي وقاص، وفرحوا، واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبي ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا عَمَّ».

قال: نُعِيتُ إِلَيْكَ نَفْسَكَ، قال: «إِنَّهُ لَكَمَا تَقُولُ»، فعاش بعدها ستين يوماً، ما رئي فيها إلا ضاحكاً مستبشراً^(٢).

وقيل: نزلت في «منى» بعد أيام التشريق، في حجة الوداع، فبكى عمر والعباس فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقال: لا بل فيه نعي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «صدقتما، نعيت إلي نفسي».

وروى البخاري، وغيره عن ابن عباس، قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم، قال: فوجد بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا، ومن أبنائنا من هو مثله، فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم، قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فقالوا: أمر الله - جلَّ وعزَّ - نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه، فقال: ما تقول يا ابن عباس؟.

قلت: ليس كذلك ولكن أخبر الله رسوله ﷺ بحضور أجله، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة موتك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر - رضي الله عنه - : تلوموني عليه؟ وفي رواية: قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول»^(٣).

فصل

فإن قيل: فماذا يغفر للنبي ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟.

فالجواب: كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإسرافي في أمري كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وعمدي، وجهلي وهزلي، وكل ذلك عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٧٣١)، عن أم سلمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦٩٩)، وزاد نسبه إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر تفسيره القرطبي (٢٠/١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٨/٦٠٦)، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ رقم (٤٩٧٠)، من حديث ابن عباس.

[وكان الرسول ﷺ يستغفر لنفسه لعظيم ما أنعم الله عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك.

وقيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقيل: يحتمل أن يكون المعنى كن متعلقاً به سائلاً راعباً متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق.

وقيل: الاستغفار نفسه يجب إتيانه لا للمغفرة بل تعبداً.

وقيل: واستغفر أي: استغفر لأمتك إنه كان تواباً على المسيحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم، وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار فماذا يظن بغيره^(١).

فصل في تفسير الآية

قد مرَّ تفسير الحمد، وأما تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ففيه وجوه:

الأول: قال الرمخشري^(٢): قل: سبحان الله، والحمد لله، تعجباً مما أراك الله من عجيب إنعامه، أي: اجمع بينهما، كقولك: الماء باللبن، أي: اجمع بينهما خلطاً، وشرباً.

الثاني: أنَّ التسبيح داخل في الحمد؛ لأنك إذا حمدت الله تعالى، فقد سبَّحته بواسطته، لأن الثناء عليه، والشكر له يتضمن تنزيهه عن النقائص، ولذلك جعل الحمد مفتاح القرآن، فمعنى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: سبِّحه بواسطته، أن تحمده، وأن تسبِّحه بهذا الطريق.

الثالث: أن يكون حالاً، أي: سبِّحه مقدراً أن تحمد بعد التسبيح، كأنك تقول: لا يتأتى لك الجمع بينهما لفظاً، فاجمعهما نية كما تنوي الصلاة يوم النحر مقدراً أنك تنحر بعدها، فيجتمع لك الثواب في تلك الحالة.

الرابع: أن هذه الباء كهي في قولك: فعلت هذه بفضل الله، أي: بحمده، أي: أنه الذي هداك لرشدك لا تجد غيره، كقوله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْحَمْدِ».

الخامس: قال السدي: «بحمد ربك» أي: بأمر ربك^(٣).

السادس: أن تكون الباء زائدة، والتقدير: سبِّح حمد ربك، أي: طهر محامد ربك عن الرياء، والسمعة، أو اختر له أظهر المحامد، وأذكاه وأحسنها أو أثبت بالتسبيح والتنزيه بدلاً عن الحمد.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ١٤٨/٣٢.

(٢) الكشف ٨١١/٤.

(١) سقط من: ب.

السابع: فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد لا يتأخر أحدهما عن الآخر، ولا يمكن أن يؤتى بهما معاً، ونظيره: من ثبت له حق الشفعة، وحق الرد بالعيب وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا هاهنا، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ليقع معاً، فيصير مسبوحاً حامداً في وقت واحد معاً.

[فإن قيل: التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح؛ لأن الحمد على النعم، والنعم سابقة أيضاً، والاستغفار سابق، ثم التسبيح؟ فالجواب لعله بدأ بالأشرف تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق، أو نبه بذلك على أن التسبيح والحمد الصادرين من العبد، إذا قابلا جلال الحق وعزته استوجبا الاستغفار، ولأن التسبيح والحمد إشارة إلى تعظيم أمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق الله، فالأول كالصلاة، والثاني كالزكاة فكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا هاهنا^(١).

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ بدل من الماضي، وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل وأيضاً: هلا قال سبحانه: ﴿غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، كما قال تعالى في سورة نوح عليه الصلاة والسلام.

وأيضاً قال تعالى: ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: بحمد الله.

فالجواب عن الأول: أن هذا أبلغ كأنه يقول: إني أثبتت على من هو أقبح فعلاً منهم كاليهود، فإنهم بعد ظهور المعجزات الظاهرة العظيمة، كفلق البحر، وتنق الجبل ونزول المن والسلوى عصوا ربهم، وأتوا بالقبائح، ولما تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنت قابلاً لتوبة أولئك، وهم دونكم، أفلا أقبل توبتكم، وأنتم خير أمة أخرجت للناس؟ أو لأنني شرعت في توبة العصاة، والشروع ملزم أو هو إشارة إلى تخفيف جنايتهم، أي: لستم أول من جنى، والمصيبة إذا عمت خفت؛ أو كما قيل: [المتقارب]

٥٣٣٩- كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ^(٢)

والجواب عن الثاني: لعله خص هذه الأمة بمزيد الشرف، لأنه لا يقال في صفات العبد: غفار أو يقال: تواباً، ويقال إذا كان آتياً بالتوبة، فكأنه تعالى يقول: كنت لي سمياً من أول الأمر، أنت مؤمن، وأنا مؤمن، وإن اختلف المعنى فتب حتى صرت سمياً في آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب، ثم التواب في حق الله تعالى أنه يقبل التوبة كثيراً، فيجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً.

(١) سقط من: ب.

(٢) ينظر الفخر الرازي ١٦٣/٣٢.

[وأنه إنما قال: توباً، لأن القائل قد يقول: أستغفر الله، وليس بتائب كقول المستغفر بلسانه المصر بقلبه، كالمستهزىء.]

فإن قيل قد يقول: أتوب، وليس بتائب.

قلنا: فإذاً يكون كاذباً، فإن التوبة اسم للرجوع، أو الندم بخلاف الاستغفار، فإنه لا يكون كاذباً فيه، فيكون تقدير الكلام: وأستغفر الله بالتوبة، وفيه تنبيه على خواتم الأعمال].

والجواب عن الثالث: أنه راعى العدل، فذكر اسم الذات مرتين، وذكر اسم الفعل مرتين؛ أحدهما: الرب والثاني: التواب، فلما كانت التربية تحصل أولاً، والتوبة آخرأ، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً، واسم التوبة آخرأ.

فصل في نزول السورة

قال ابن عمر - رضي الله عنهما - نزلت هذه السورة بـ «منى» في حجة الوداع ثم نزلت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فعاش ﷺ بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] فعاش بعدها ﷺ خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فعاش بعدها ﷺ أحداً وعشرين يوماً^(١).

وقال مقاتل: سبعة أيام^(٢).

وقيل غير ذلك.

فصل

قال ابن الخطيب^(٣): اتفق الصحابة - رضي الله عنهم - على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله ﷺ.

فإن قيل: كيف دلت السورة على هذا المعنى؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روي أنه ﷺ خطب عقيب السورة، وذكر التخيير.

وثانياً: أنه لما ذكر حصول النصر، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، دل ذلك على حصول التمام، والكمال، وذلك يستعقبه الزوال؛ كما قيل: [المتقارب]

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥٩/٢٠).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر: الرازي ٣٢/١٥١.

٥٣٤٠- إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَأَ نَقْصَهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا، إِذَا قِيلَ: تَمَّ^(١)

وثالثها: أنه جل ذكره أمر بالتسبيح، والحمد، والاستغفار مطلقاً، واشتغاله ﷺ بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الأمة، فكان هذا كالتنبيه على أن التبليغ قد تم وكمل، وذلك يوجب الموت، لأنه لو بقي ﷺ بعد ذلك، لكان كالمعزول عن الرسالة، وهذا غير جائز.

ورابعها: قوله: «وَأَسْتَغْفِرُهُ» تنبيه على قرب الأجل، كأنه يقول: قرب الأجل ودنا الرحيل فتأهب للأمر. ونبه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله يستكثر من التوبة.

وخامسها: كأنه قيل: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، وهو النصر والفتح، والله تعالى وعده بك قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا، فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادة العالية.

روى الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ: «النصر» فَكَأَنَّمَا شَهِدَ مَعَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَتَنَحَّ مَكَّةَ»^(٢).

(١) ينظر سمط اللآليء ١/١٠٥، ومجمع البيان ١٠/٨٤٤، والفخر الرازي ٣٢/١٦٤.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة تبت

مكية، وهي خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْلَمٍ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أي: خسرت. وتقدم تفسير هذه المادة في سورة غافر عند قوله: ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾^(١)، وأسند الفعل إلى اليدين مجازاً؛ لأن أكثر الأفعال تراول بهما، وإن كان المراد جملة المدعو عليه.

وقوله: ﴿تَبَّتْ﴾ دعاء، ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار، أي: قد وقع ما دعي به عليه؛ كقول الشاعر: [الطويل]

٥٣٤١ - جَزَانِي، جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءُ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ^(٢)

ويؤيده قراءة^(٣) عبد الله: «وَقَدْ تَبَّ»، والظاهر أن كليهما دعاء، ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص؛ لأن اليدين بعض، وإن كان حقيقة اليدين غير مراد.

وقيل: كلاهما إخبار، أراد بالأول: هلاك عمله، وبالثاني: هلاك نفسه، وإنما عبر باليدين؛ لأن الأعمال غالباً تُراول بهما.

وقيل: المراد باليدين نفسه وقد يعبر باليد عن النفس، كقوله تعالى: ﴿يَا قَدْ مَتَّ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، أي نفسك، وهذا شائع في كلام العرب يعبرون ببعض الشيء عن كله، يقولون: أصابه يد الدهر، ويد المنيا، والرزايا، أي: أصابه كل ذلك.

(٢) تقدم.

(١) آية ٣٧.

(٣) ينظر: الكشف ٨/٤٨١٤، والمححر الوجيز ٥/٥٣٤، والبحر المحيط ٨/٥٢٦، والدر المصون ٦/٨٥.

قال الشاعر: [مخلع البسيط]

٥٣٤٢ - لَمَّا أَكْبَتْ يَدُ الرَّزَايَا عَلَيْهِ نَادَى الْأُمَجِيرُ^(١)

وقال ابن الخطيب^(٢): وعبر باليدين، إما لأنه كان يرمي النبي ﷺ بالحجارة، وقيل: المراد دينه، وديناه وأولاده، وعقباه، أو المراد بأحدهما جر المنفعة، وبالأخرى: دفع المضرة، أو لأن اليمين سلاح، والأخرى جنة.

وقيل: بمعنى ماله، وبنيه، «وَتَبَّ» هو نفسه وقيل: «تَبَّ» يعني ولده وعقبه، وهو الذي دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ» لشدة عداوته، فافترسه الأسد.

وقرأ العامة: «لَهَب» بفتح الهاء، وابن كثير^(٣): بإسكانها.

فقيل: هما لغتان بمعنى نحو: النَّهْرُ والنَّهْرُ، والشَّعْرُ والشَّعْرُ، والبَعْرُ والبَعْرُ، والضَّجْرُ والضَّجْرُ.

وقال الزمخشري^(٤): «وهو من تغيير الأعلام، كقوله: شمس بن مالك، بالضم»، يعني أن الأصل: بفتح الشين فغيرت إلى الضم.

ويشير بذلك لقول الشاعر: [الطويل]

٥٣٤٣ - وَإِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَعَاهِدٌ بِهِ لَابْنِ عَمِّ الصَّدَقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكٍ^(٥)

وجوز أبو حيان^(٦) في «شمس» أن يكون منقولاً من «شمس» الجمع، كما جاء «أذئاب خيل شمس»، فلا يكون من التغيير في شيء.

وكني بذلك أبو لهب: إما لالتهاب وجنتيه، وكان مشرق الوجه، أحمره، وإما لما يثول إليه من لهب جهنم، كقولهم: أبو الخير، وأبو الشر، لصدورهما منه، وإما لأن الكنية أغلب من الاسم، أو لأنها أنقص منه، ولذلك ذكر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بأسمائهم دون كُنَاهُمْ، أو لُفِّحَ اسمه؛ لأن اسمه عبد العزى، فعدل عنه إلى الكنية؛ لأن الله لم يصف العبودية في كتابه إلى صنم.

وقيل: اسمه أبو لهب، كما سمي أبو سفيان، وأبو طالب.

(١) ينظر: القرطبي ١٦١/٢٠. (٢) ينظر: الفخر الرازي ١٥٣/٣٢.

(٣) ينظر: السبعة ٧٠٠، والحجة ٤٥١/٦، وإعراب القراءات ٥٤٢/٢، وحجة القراءات ٦٧٦.

(٤) ينظر: الكشف ٨١٤/٤.

(٥) البيت لتأبط شراً؛ ينظر ديوان الحماسة ٣١/١، والخزانة ٢٠٠/١، والبحر ٥٢٥/٨، والدر المصون ٥٨٥/٦.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٥٢٧/٨.

وقال الزمخشري^(١) : فإن قلت : لم أكناه ، والكنية تكرمة ؟ .

ثم ذكر ثلاثة أجوبة : إما لشهرته بكنيته ، وإما لقبه اسمه كما تقدم ، وإما لتجانس قوله : «ناراً ذات لهب» لأن مآله إلى لهب جهنم . انتهى .

وهذا يقتضي أن الكنية أشرف ، وأكمل لا أنقص ، وهو عكس القول الذي تقدم آنفاً .

وقرىء^(٢) : «يَدَا أَبُو لَهَبٍ» بالواو مكان الجر .

قال الزمخشري^(٣) : «كما قيل : علي بن أبو طالب ، ومعاوية بن أبو سفيان ، لثلاً يغير منه شيء ، فيشكل على السامع ، ولقبيته بن قاسم أمير «مكة» ابنان : أحدهما : «عبد الله» بالجر ، والآخر «عبد الله» بالنصب» .

ولم يختلف القراء في قوله : «ذَات لَهَبٍ» أنها بالفتح . والفرق أنها فاصلة ، فلو سكنت زال التشاكل .

[قال قتادة : تبّت خسرت^(٤) .

وقال ابن عباس : خابت^(٥) .

وقال عطاء : ضلت^(٦) .

وقال ابن جبير : هلك^(٧) . وقال يمان بن رثاب : صفرت من كل خير^(٨)

فصل في نزول الآية

حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ، أنه لما قتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - سمع الناس هاتفاً يقول : [مجزوء الوافر]

٥٣٤٤ - لَقَدْ خَلَّوْكَ وَانْصَرَفُوا فَمَّا آبَوْا وَلَا رَجَعُوا
وَلَمْ يُوفُوا بِنَذْرِهِمْ فَيَا تَبَّالِمَا صَنَعُوا^(٩)

فصل في نزول السورة

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ

(١) الكشف ٤/ ٨١٤ . (٢) ينظر : الدر المصون ٦/ ٥٨٥ .

(٣) ينظر : الكشف ٤/ ٨١٤ .

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٣٣) ، وذكره السيوطي في «الدر المثور» (٦/ ٧٠٢) ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر .

(٥) ذكره الماوردي (٦/ ٣٦٤) ، والقرطبي (١٦١) .

(٦) ينظر المصدر السابق . (٧) ينظر المصدر السابق .

(٨) سقط من : ب . (٩) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٩١ .

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفا، فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يَا بَنِي فَلَانٍ يَا بَنِي فَلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فاجتمعوا إليه، فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟».

قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فقال أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة^(١).

وفي رواية: لما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه؛ والله إِنِّي لشاعرة: [منهوك الرجز]

٥٣٢٥ - مُذَمِّمًا عَصِيْنَا وَأَنرَهُ أَبِيْنَا
وَدِيْنَا قَلِيْنَا^(٢)

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأئتكَ؟ قال: «مَا رَأَيْتَنِي، لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بَصْرَهَا عَنِّي».

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمماً، ثم يسبونه، وكان رسول الله ﷺ يقول: «أَلَا تَعْجَبُونَ لِمَا صَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي مِنْ أَذَى كِفَارِ قَرِيشَ يَسْبُونَ وَيَهْجُونَ مَذْمُومًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

وحكى أبو عبد الرحمن بن زيد: أن أبا لهب أتى النبي ﷺ فقال: ماذا أعطى إن أمنت بك يا محمد؟ قال: «كَمَا يُعْطَى الْمُسْلِمُونَ»، قال: ما لي سَليمَ فضل؟.

قال: وأَيُّ شَيْءٍ تَبْغِي؟ قال: تَبًّا لِهَذَا مِنْ دِينٍ، أَن أَكُونَ أَنَا وَهَؤُلَاءِ سِوَاءٍ. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٣).

وحكى عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد، انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلم به منا، فيقول لهم أبو لهب: إنه كذاب ساحر، فيرجعون عنه، ولا يلقونه فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩/٨)، كتاب: التفسير، باب: سورة تبت يدا أبي لهب وتب، رقم (٤٩٧١)، ومسلم (١٩٤/١)، والطبري (٧٣٤/١٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠١/٦)، وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: القرطبي ١٦٠/٢٠.

انصرف حتى نراه، ونسمع كلامه، فقال لهم أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه، فتبأ له وتعساً، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتاب لذلك، فأنزل الله: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ». وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرمي النبي ﷺ بالحجر، فمنعه الله تعالى من ذلك، فنزلت: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» للمنع الذي وقع به.

فصل في تفسير التَّبُّ

قال ابن الخطيب^(١): من فسر التَّبُّ بالهلاك، فلقوله تعالى: «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ» [غافر: ٣٧]، أي: في هلاك، ومن فسره بالخسران، فلقوله تعالى: «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» [هود: ١١١]، أي: تخسير، ومن فسره بالخيبة، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: لأنه كان يدفع القوم عنه ﷺ بأنه ساحر، فينصرفون عنه قبل لقائه؛ لأنه كان شيخ القبيلة - لعنه الله - فكان لا يأتيهم، فلما نزلت هذه السورة، وسمع بها غضب، وأظهر العداوة الشديدة، وصار متهماً، فلما قال في الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد ذلك، فكانه قد خاب لسعيه، ولعله إنما ذكر التَّبُّ؛ لأنه إنما كان يضرب بيده على يد الوافد عليه، فيقول: انصرف راشداً فإنه مجنون، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً يضع يده على كتفه، ويدفعه عن ذلك الموضع.

ومن فسر التَّبُّ بقوله: ضلت، فلأنه كان يعتقد أن يده العليا، وأنه يخرج من «مكة»، ويذله، ومن فسره: بـ «صَفَرَتْ» فلأن يده خلت من كل خير.

فصل في ترجمة أبي لهب

أبو لهب: اسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ؛ وامراته: العوراء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما كان شديد العداوة للنبي ﷺ.

قال طارق بن عبد الله المحاربي: إني بسوق ذي المجاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تُفْلِحُوا» وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب ساحر، فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟.

فقالوا: محمد، يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سحر كم محمد، إن أحدنا ليأكل الجذعة، ويشرب العُس من اللبن، فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فخذ شاة، وأرواكم من عُس لبن^(٢).

قوله: «مَا آعَنَى». يجوز في «مَا» التَّنْفِي، والاستفهام، فعلى الاستفهام يكون

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/١٦١).

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/١٥٣.

منصوب المحل بما بعدها، التقدير: أي شيء أغنى المال، وقدم لكونه له صدر الكلام.
 وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: يجوز في «مَا» هذه أن تكون بمعنى «الذي»، والعائد محذوف، وأن تكون مصدرية، أي: وكسبه، وأن تكون استفهامية: بمعنى وأي شيء كسب؛ أي: لم يكن يكسب شيئاً، قاله أبو حيان^(١)، فجعل الاستفهام بمعنى النفي، فعلى هذا يجوز أن تكون نافية، ويكون المعنى على ما ذكر، وهو غير ظاهر.
 وقرأ ابن مسعود^(٢) والأعمش: «وما اكتسب».

فصل في معنى الآية

المعنى: ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من الجاه. وقال مجاهد: وما كسب من مال، وولد الرجل من كسبه.

وقال أبو الطفيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس - رضي الله عنه - فاقْتتلوا، فقام يحجز بينهم، فدفعه بعضهم فوق على الفراش، فغضب ابن عباس، وقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث، يعني ولد أبي لهب^(٣).
 وقال ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ»^(٤).

وقال ابن عباس: لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإنني أفدي نفسي بمالي وولدي، فنزل: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(٥).

قال الضحاك: ما أغنى عنه ماله ما ينفعه ماله، وعمله الخبيث: يعني كيده، وعداوة رسول الله.

قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

قرأ العامة: «سَيَصْلَىٰ» بفتح الياء، وإسكان الصاد، وتخفيف اللام، أي: يصلى هو بنفسه.

وقرأ أبو حية^(٦)، وابن مقسم، وعياش في اختياره؛ قال القرطبي^(٧): والأشهب العقيلي، وأبو سمال العدوي، ومحمد بن السميع: «سَيَصْلَىٰ» بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام، ومعناه سيصليه الله.

(١) ينظر: البحر المحيط ٥٢٧/٨.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥٣٤/٥، والبحر المحيط ٥٢٧/٨، والدر المصون ٥٨٦/٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٣٥/١٢). (٤) تقدم.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٧٠/٣٢). (٦) ينظر البحر المحيط ٥٢٧/٨، والدر المصون ٥٨٦/٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٦٣/٢٠.

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق، وأبو رجاء، والأعمش، ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير عن أبي - رضي الله عنه -، وحسين عن أبي بكر عن عاصم^(١) : بضم الياء .

ومعنى ذات لهب أي ذات اشتعال وتلهب، وقد تقدم القول فيه في سورة المرسلات .

قوله : ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ .

قرأ العامة : بالرفع، على أنها جملة من مبتدأ وخبر، سقت للإخبار بذلك .

قيل : وامرأته : عطف على الضمير في «سبيل» سوغه الفصل بالمفعول، و «حَمَّالَةُ الْحَطَبِ» على هذا فيها أوجه : كونها نعتاً لـ «امرأته»، وجاز ذلك لأن إضافته حقيقية، إذ المراد المعنى، وكونها : بياناً أو بدلاً، لأنها أقرب من الجوامد لتمحض إضافتها، أو كونها خبراً لمبتدأ مضمّر أي : هي حمالة .

وقرأ ابن عباس^(٢) - رضي الله عنهما - : ومريثته حمالة الحطب .

وعنه أيضاً : «ومريثته» على التصغير، إلا أنه أقر الهمزة تارة، وأبدلها ياء، وأدغم فيها أخرى .

وقرأ العامة : «حَمَّالَةُ» بالرفع، وعاصم^(٣) : بالنصب على الشتم . وقد أتى بجميل من سب أم جميل .

قال الزمخشري^(٤) : وكانت تكنى أم جميل، لعنها الله .

وقيل : نصب على الحال من «امرأته» إذا جعلناها مرفوعة بالعطف على الضمير .

ويضعف جعلها حالاً عند الجمهور من الضمير في الجار بعدها إذا جعلناها لـ «امرأته» لتقدمها على العامل المعنوي، واستشكل بعضهم الحالية - لما تقدم - من أن المراد به المعنى، فتتعرف بالإضافة، فكيف يكون حالاً عند الجمهور؟ .

ثم أجاب بأن المراد الاستقبال؛ لأنه ورد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب النار، كما كانت تحمل الحطب في الدنيا .

وفي قوله تعالى : ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قولان :

أحدهما : هو حقيقة .

(١) ينظر : المحرر الوجيز ٥/٥٣٥، والبحر المحيط ٨/٥٢٧، والدر المصون ٦/٥٨٦، والقرطبي ٢٠/١٦٣ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٨/٥٢٧، والدر المصون ٦/٥٨٦ .

(٣) ينظر : السبعة ٧٠٠، والحجة ٦/٤٥١، وإعراب القراءات ٢/٥٤٢، وحجة القراءات ٧٧٦ .

(٤) الكشف ٤/٨١٥ .

قال قتادة: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها، فعيرت بالبخل^(١).

وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِصَا، والشَّوْك، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ وأصحابه، فكان ﷺ يطؤه كما يطأ الحرير^(٢).

وقال مرة الهمداني: كانت أم جميل - لعنها بالله - تأتي كل يوم بإبالة من الحسك فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعتت فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها.

القول الثاني: أنه مجاز عن المشي بالنميمة، ورمي الفتن بين الناس؛ قال: [الرجز]
٥٣٤٦ - إِنَّ بَنِي الْأَزْدِ حَمَلُوا الْحَطْبَ هُمُ الْوَشَاةُ فِي الرِّضَا وَفِي الْقَضْبِ
عَلَيْهِمُ اللَّغْنَةُ تَشْرَى وَالْحَرْبُ^(٣)

وقال آخر: [الطويل]

٥٣٤٧ - مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لَأْمَةٍ لَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطْبِ الرُّطْبِ^(٤)
وجعله رطباً تنبهاً على تدخينه، وهو غريب من ترشيح المجاز، يعني لم تمش بالنام.

وقال سعيد بن جبيرة: حمالة الخطايا، والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره^(٥).

قال تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقرأ أبو قلابة^(٦): «حاملة الحطب» على وزن «فاعلة»، وهي محتملة لقراءة العامة، وقرأ عياض^(٧): «حمالة للحطب» بالتنوين وجر المفعول بلام زائدة تقوية للعامل كقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وأبو عمرو في رواية: «وامراته» باختلاس الهاء دون إشباع

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦٣/٢٠)، وأخرجه الطبري (٧٣٦/١٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧٣٦/١٢)، عن الضحاك وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠٢/٦)، عن ابن زيد وزاد نسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ينظر القرطبي ١٦٣/٢٠، والبحر ٥٢٨/٨.

(٤) البيت ليعقوب ينظر الكشاف ٨١٥/٤، والقرطبي ١٦٣/٢٠، والبحر ٥٢٨/٨، والدر المصون ٦/٥٨٦.

(٥) ينظر تفسير الماوردي (٣٦٧/٦)، والقرطبي (١٦٤/٢٠).

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥٣٥/٥، والدر المصون ٥٨٦/٦.

(٧) ينظر: الدر المصون ٥٨٦/٦.

قوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ﴾ يجوز أن يكون «في جيدها» خبراً لـ «امرأته»، و «حبل» فاعلاً به وأن يكون حالاً من امرأته على كونها فاعلة، و «حَبْلٌ» مرفوع به أيضاً، وأن يكون خبراً مقدماً و «حَبْلٌ» مبتدأ مؤخر، والجملة حالية أو خبر ثان.

والجيد: العنق.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٥٣٤٨ - وَجِيدٌ كَجِيدِ الرُّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصْنَهُ وَلَا بِمُعْطَلٍ^(١)
و «مِنْ مسدٍ» صفة لـ «حبل»، والمسد: ليف المقل.

وقيل: الليف مطلقاً.

قال النابغة: [البسيط]

٥٣٤٩ - مَقْدُوفَةٌ بِذَخِيسِ النَّحْضِ بَارِزُهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفُ الْقَفْوِ بِالمَسَدِ^(٢)
وقد يكون من جلود الإبل وأوبارها؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٣٥٠ - وَمَسَدٍ أَمْرٌ مِنْ أَيْانِقٍ لَيْسَ بِأَنْيَابٍ وَلَا حَقَائِقٍ^(٣)
وجمع المسد: أمساد.

وقال أبو عبيدة: هو حبل يكون من صوف.

وقال الحسن: هي حبال من شجر ينبت بـ «اليمن» يسمى المسد وكانت تفتل.

فصل

قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا، وكانت تعيرُ النبي ﷺ بالفقر، وهي تحتطب في حبلٍ تجعله في عنقها من ليف، فخنقها الله - عز وجل - به فأهلكها، وهو في الآخرة حبل من نار^(٤) يلف على عنقها

وعن ابن عباس: حبل من مسد قال: سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً، وهو قول مجاهد وعروة بن الزبير، يدخل في فيها، ويخرج من أسفلها، ويلوى سائرها على عنقها، وقال قتادة: «حبل من مسد» حبل من ودع.

(١) تقدم.

(٢) ينظر ديوانه ص ١٦، وجمهرة اللغة ص ٥٧٨، ٧٤١، ٩٤٤، والدرر ٣/٧٦، وشرح أبيات سيبويه ٣١/١، وشرح الأشموني ٢/٥٧، والكتاب ١/٣٥٥، واللسان (صرف)، (قذف)، (بزل)، (قعا)، (دخس)، ومجالس ثعلب ص ٣٤٠، وجمع الهوامع ١/١٩٣.

(٣) البيتان لعمارة بن طارق، ونسبا إلى عقبة الهجيمي.

ينظر اللسان (مسد)، ومجاز القرآن ٢/٣١٥، والكشاف ٤/٨١٦، والقرطبي ٢٠/١٦٤، ومجمع البيان ١٠/٨٥١، والدر المصون ٦/٥٨٧.

(٤) ينظر تفسير الماوردي (٦/٣٦٧)، والقرطبي (٢٠/١٦٤).

وقال الحسن: إنما كان حرزاً في عنقها.

وقال سعيد بن المسيب: كانت قلادة واحدة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقها في عداوة محمد ﷺ، ويكون عذاباً في جديدها يوم القيامة.

وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخذلان يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء كالمربوط في جديدها بحبل من مسد.

والمسد: القتل، يقال: مسد حبله يمسده مسداً، أي: أجاد قتله.

قال: [الرجز]

٥٣٥١ - يَمْسُدُ أَعْلَى لَحْمِهِ وَيَأْرُمُهُ^(١)

يقول: إن البقل يقوي ظهر هذا الحمار.

وقال ابن الخطيب^(٢): وقيل: المسد يكون من الحديد، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد، أو من غيره، ورجل ممسود: أي: مجدول الخلق وجارية حسنة المسد، والعصب، والجدل، والأرم، وهي ممسودة، ومعصوبة، ومجدولة، ومأرومة؛ والمساد: على «فَعَال»: لغة في المساب، وهي نحي السمن، وسقاء العسل، قال كل ذلك الجوهري^(٣).

[فإن قيل: إن كان هذا الحبل يبقى أبداً في النار؟]

قلنا: كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً في النار].

فصل في الإخبار عن الغيب

تضمنت هذه الآيات الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه:

أولها: الإخبار عنه بالتباب، والخسار، وقد كان ذلك.

وثانيها: الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله ولده، وقد كان ذلك.

وثالثها: الإخبار بأنه من أهل النار، وقد كان ذلك، لأنه مات على الكفر، هو وامراته، ففي ذلك معجزة للنبي ﷺ فأمراته خنقها الله - تعالى - بحبلها، لعنها الله تعالى، وأبو لهب رماه الله بالعدسة، بعد وقعة بدر بسبع ليال، فمات، وأقام ثلاثة أيام، ولم يدفن حتى أتن، ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة، وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون، ثم احتملوه إلى أعلى «مكة»، وأسندوه إلى جدار، ثم صموا عليه الحجارة.

(١) ينظر اللسان (مسد) والقرطبي ١٦٥/٢٠.

(٢) ينظر الفخر الرازي ١٥٩/٣٢.

(٣) ينظر: الصحاح ٥٣٨/٢، ٥٣٩.

فصل في جواز تكليف ما لا يطاق

احتج أهل السنة على جواز تكليف ما لا يطاق بأنه تعالى كلف أبا لهب بالإيمان مع تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار، فقد صار مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال وذلك مذكور في أصول الفقه.

ذكر الثعلبي عن أبي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿تَبَّتْ﴾ رَجَوْتُ أَنْ لَا يَجْمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي لَهَبٍ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ»^(١).

سورة الإخلاص

مكية في قول ابن مسعود، والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك، والسدي، وهي أربع آيات^(١)، وخمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. في «هُوَ» وجهان:

أحدهما: أنه ضمير عائد على ما يفهم من السياق، فإنه يروى في سبب النزول أنهم قالوا: صف لنا ربك وانسبه.

وقيل: قالوا له: أثناس هو أم حديد؟ فنزلت.

وحينئذ يجوز أن يكون «الله» مبتدأ، و«أحد» خبره، والجملة خبر الأول، ويجوز أن يكون «الله» بدلاً، و«أحد» الخبر، ويجوز أن يكون «الله» خبراً أولاً، و«أحد» خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون «أحد» خبراً لمبتدأ محذوف، أي «هو أحد»، والثاني: ضمير الشأن؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعد خبره مفسرة.

وهمزة «أحد» بدل من واو؛ لأنه من الوحدة، وإبدال الهمزة من الواو المفتوحة قليل، منه: امرأة أناة من الونى، وهو الفُتُور، وتقدم الفرق بين «أحد» هذا، و«أحد» المراد به العموم، فإن همزة ذاك أصل بنفسها.

ونقل أبو البقاء^(٢): أن همزة «أحد» هذا غير مقلوبة، بل أصلها بنفسها، فالمراد به العموم. والأول هو المعروف.

وفرق ثعلب بين «أحد» و«واحد» بأن الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان

(١) ينظر تفسير الماوردي (٣٦٩/٦).

(٢) ينظر: الإملاء ٢/٢٩٧.

و «أحد» لا يدخله ذلك، ويقال: اللّهُ أحد، ولا يقال: زيد أحد؛ لأنّ الله تعالى هذه الخصوصية، وزيد له حالات شتى. ورد عليه أبو حيّان بأنه يقال^(١): أحد وعشرون، ونحوه، فقد دخله العدد انتهى.

وقال مكّي: إن أصله: «واحد» فأبدلت الواو همزة، فاجتمع ألفان؛ لأنّ الهمزة تشبه الألف، فحذفت إحداها تخفيفاً.

وقرأ عبد الله وأبي^(٢): ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دون «قُل».

وقرأ النبي^(٣): ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بغير «قُلْ هُوَ».

وقرأ الأعمش^(٤): «قل هو الله الواحد».

وقرأ العامة: بتنوين «أحد» وهو الأصل.

وزيد بن علي وأبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق^(٥) والحسن، وأبو السمال، وأبو عمرو في رواية، في عدد كثير: بحذف التنوين للخفة، ولالتقاء الساكنين، كقوله: [الكامل]

٥٣٥٢ - عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالٌ مَّكَّةَ مُسْنَتُونَ عِجَافٌ^(٦)
وقوله: [المتقارب]

٥٣٥٣ - وَلَا ذَاكَرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا^(٧)

فصل

والصمد: الذي يصمدُ إليه في الحاجات، ولا يقدر على قضائها إلا هو.

قال: [الطويل]

٥٣٥٤ - أَلَا بَكْرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ^(٨)
وقال آخر: [البسيط]

(١) ينظر: البحر المحيط ٥٢٩/٨.

(٢) ينظر: الكشف ٨١٧/٤، والدر المصون ٥٨٨/٦.

(٣) ينظر السابق.

(٤) ينظر: الدر المصون ٥٨٨/٦.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥٤٦/٥، والبحر المحيط ٥٢٩/٨، والدر المصون ٥٨٨/٦.

(٦) تقدم.

(٨) قائله هو سيرة بن عمرو الأسدي ينظر الاقتضاب ص ٢٨٩، وسمط اللآلئ ٣٩٢/٢، ومجاز القرآن ٣١٦/٢، وإصلاح المنطق ص ٥٨، ومعاني القرآن للفراء ٢٦٨/٣، والأمالئ ٣٢٠/٢، والطبري ٢٢٤/٣٠، ومجمع البيان ٧٥٧/١٠، والقرطبي ١٦٧/٢٠، واللسان (صمد)، والدر المصون ٦/٥٨٩.

٥٣٥٥ - عَلَوْتُهُ بِحُصَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا حَذِيفُ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمْدُ^(١)
وقيل: الصمد: المصمت الذي لا جوف له.

ومنه قوله: [الطويل]

٥٣٥٦ - شَهَابٌ حُرُوبٍ لَا تَزَالُ جِيَادُهُ عَوَائِسَ يَعْلُكُنَّ الشَّكِيمَ الْمُصَمِّدًا^(٢)
وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: تفسيره، من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٣)
وهذا يشبه ما قالوه من تفسير الهلوع، والأحسن في هذه الجملة أن تكون مستقلة بفائدة
هذا الخبر، ويجوز أن يكون «الصمد» صفة، والخبر في الجملة بعده، كذا قيل، وهو
ضعيف من حيث السياق، فإن السياق يقتضي الاستقلال بأخبار عن كل جملة^(٤).

قال القرطبي^(٥): «[لأنه ليس شيء إلا سيموت]^(٥)، وليس شيء يموت إلا يورث».

قيل: الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل، ولا يزال.

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد^(٦).

وقال السدي: إنه المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب^(٧).

[وقال الحسن بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مقاتل: إنه الكامل الذي لا عيب فيه]^(٨).

قال القرطبي^(٩): والصحيح من هذه الأقوال ما شهد له الاشتقاق، وهو القول
الأول، ذكره الخطابي.

فصل في لفظ أحد

قال ابن الخطيب^(١٠): ونكر لفظ أحد، لأن الذي يعرفه الخلق من الموجودات
محسوس، وكل محسوس منقسم، فأما ما لا ينقسم فلا يعرف، وعرف الصمد؛ لأنه
الذي يقصد إليه في الحوائج، وذلك معلوم عند الخلق، وقدم ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ وإن كان
العرف سبق؛ لأنه الأهم، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ كالحجة على أنه لم يلد، وجاء
هنا ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾، وفي سورة «الإسراء»: ﴿لَمْ يَنْخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، لأن من

(١) ينظر: القرطبي ١٦٧/٢٠.

(٢) ينظر القرطبي ١٦٨/٢٠، والبحر ٥٢٩/٨، والدر المصون ٥٨٩/٦.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٦٧/٢٠). (٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٨/٢٠.

(٥) في أ: كل شيء يولد يموت.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٧٢/٦)، والقرطبي (١٦٧/٢٠).

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) سقط من: ب.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٦٨/٢٠. (١٠) ينظر: الفخر الرازي ١٦٧/٣٢.

النصارى من يقول: عيسى ولدُ الله حقيقة، ومنهم من يقول: إن الله اتخذهُ ولدًا تشريفًا، فنفي الأمرين.

فصل في الرد على من أسقط «قل هو»

قال القرطبي^(١): وقد أسقط من هذه السورة من أبعد الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ: «الله الواحد الصمد» والناس يستمعون، فأسقط «قل هو» وزعم أنه ليس من القرآن، وغير لفظ «أحد»، وادّعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل، فأبطل معنى الآية، لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك، لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ أَمْ مِنْ [صَفَرٍ]^(٢)؟.

فقال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ففي «هُوَ» دلالة على موضع الرد، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله - عز وجل - والتكذيب لرسوله ﷺ.

وروى الترمذي عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: «انصب لنا ربك» فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَلَمْ يُؤْلَدْ﴾^(٣)، والصمد: الذي لم يلد، ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله تعالى لا يموت، ولا يورث.

وروى أبو العالية: أن النبي ﷺ ذكر آلهتهم، فقالوا: انصب لنا ربك، قال: فأتاه جبريل بهذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤).

قال الترمذي: وهذا أصح.

قال القرطبي^(٥): «ففي هذا الحديث إثبات لفظ، «قل هو الله أحد»، وعن عكرمة نحوه»^(٦).

وقال ابن عباس: «لَمْ يُلَدْ» كما ولدت مريم، و «لَمْ يُؤْلَدْ» كما ولد عيسى، وعزير، وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عزير ابن الله، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. فقدم خبر كان على اسمها، لينساق أواخر الآي على نظم واحد^(٧).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٨/٢٠. (٢) في أ: حديد.

(٣) أخرجه الترمذي (٤٢١/٥)، كتاب التفسير، باب: سورة الإخلاص حديث (٣٣٦٤)، من طريق أبي سعد عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب به.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٢١/٥)، رقم (٣٣٦٤)، من طريق عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية به، قال الترمذي وهذا أصح.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٨/٢٠. (٦) ينظر تفسير القرطبي (١٦٨/٢٠).

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٧٢/٦)، والقرطبي (١٦٧/٢٠).

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب^(١): دل العقل على استحالة كونه تعالى ولداً ووالداً، والأحديّة والصّمدية يوجبان نفي كونه تعالى والداً، أو مولوداً، وذكر بعدهما كما ذكر النتيجة بعد الدليل.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. في نصب «كُفُوًا» وجهان:

أحدهما: أنه خبر «يَكُونُ» و «أَحَدٌ» اسمها و «لَهُ» متعلق بالخبر، أي: ولم يكن كفواً له كما تقدم وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية من حيث إنه يزعم أنه إذا تقدم الظرف كان هو الخبر، وهنا لم يجعله خبراً مع تقدمه.

وقد رد على المبرد بوجهين:

أحدهما: أن سيبويه لم يحتم ذلك بل جوزه.

والثاني: أنا لا نسلم أن الظرف هنا ليس بخبر، بل هو خبر، ونصب «كُفُوًا» على الحال، على ما سيأتي بيانه.

وقال الزمخشري^(٢): الكلام العربي الفصيح، أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه في كتابه على ذلك، فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه؟

قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبّه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناؤه، وأحقه بالتقديم وأحواه.

والثاني: أن ينصب على الحال من «أَحَدٌ»؛ لأنه كان صفة، فلما تقدم عليه نصب حالاً و «له» هو الخبر. قاله مكّي، وأبو البقاء^(٣)، وغيرهما.

ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المستكن في الجار لوقوعه خبراً.

قال أبو حيان بعد أن حكى كلام الزمخشري ومكّي^(٤): وهذه الجملة ليست من هذا الباب، وذلك أن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تاماً، إنما هو ناقص، لا يصلح أن يكون خبراً لـ «كان» بل متعلق بـ «كُفُوًا»، وتقدم على «كُفُوًا» للاهتمام به، إذ فيه ضمير الباري تعالى، وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخير؛ لأن تأخير الاسم هو فاصلة، فحسن ذلك، وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكّي وغيره، أن «له» الخبر، و «كُفُوًا» حال من «أَحَدٌ» لأنه ظرف ناقص، ولا يصلح أن يكون خبراً، وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه، وسيبويه إنما تكلم في الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ويصلح أن يكون غير خبر.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/١٦٨ - ١٦٩. (٢) الكشف ٤/٨١٨.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/٥٣٠.

(٣) الإملاء ٢/٣٩٧.

قال سيبويه: وتقول: ما كان فيها أحد خير منك، وما كان أحد مثلك فيها، وليس أحد فيها خير منك، إذا جعلت «فيها» مستقراً، ولم تجعله على قولك: فيها زيد قائم، ثم أجريت الصفة على الاسم، فإن جعلته على قولك: فيها زيد قائم، نصبت، تقول: ما كان فيها أحد خيراً منك، وما كان أحد خيراً منك فيها، إلا أنك إذا أردت الإلغاء، فكلما أخرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً، تكتفي به، فكلما قدمته كان أحسن، والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وقال الشاعر: [الرجز]

٥٣٥٧ - مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيًّا^(١)

انتهى كلام سيبويه.

قال أبو حيّان^(٢): فأنت ترى كلامه، وتمثيله بالظرف الذي لا يصلح أن يكون خبراً، ومعنى قوله: «مستقراً» أي: خبراً للمبتدأ، ولـ «كان». فإن قلت: قد مثل بالآية الكريمة.

قلت: هذا الذي أوقع مكياً والزمخشري وغيرهما فيما وقعوا فيه، وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام، وهو في قوله: [الرجز]

٥٣٥٨ - مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيًّا^(٣)

أجري فضلة، لا خبراً، كما أن «لَهُ» في الآية أجري فضلة، فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً، ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد كلام من قوله: «ولم يكن له أحد» بل لو تأخر «كُفُوًا» وارتفع على الصفة وجعل «لَهُ» خبراً لم ينعقد منه كلام، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو «كُفُوًا» و «لَهُ» متعلق به، والمعنى: لم يكن له أحد مكافئه انتهى ما قاله أبو حيّان.

قال شهاب الدين^(٤): قوله: «ولا يشك» إلى آخره، تهويل على الناظر، وإلا

(١) البيت لابن ميادة وهو أحد ثلاثة أبيات هي:

لتقربن قريباً جليذاً ما دام فيهنّ فصيل حياً

فقد دجا الليل فهياها

ينظر ديوانه ص ٢٣٧، وخزانة الأدب ٥٩/٤، ٢٧٢/٩، ٢٧٣، ٢٧٤، وشرح أبيات سيبويه ١/٢٦٦، وشرح المفصل ٣٣/٤، واللسان (جلد)، وسمط اللآلئ ص ٥٠١، والكتاب ٥٦/١، والمقتضب ٩١/٤، والدر المصون ٥٩٠/٦.

(٢) ينظر البحر المحيط ٥٣١/٨. (٣) تقدم.

(٤) الدر المصون ٥٩٠/٦.

فقلوه: «هذا الظرف ناقص» ممنوع، لأن الظرف الناقص عبارة عما لم يكن في الإخبار به فائدة كالمقطوع عن الإضافة ونحوه، وقد نقل سيبويه الأمثلة المتقدمة، نحو: «ما كان فيها أحد خيراً منك» وما الفرق بين هذا، وبين الآية الكريمة، وكيف يقول هذا، وقد قال سيبويه في آخر كلامه: «والتقديم والتأخير، والإلغاء، والاستقرار عربي جيد كثير».

فصل

قرأ العامة: «كُفُواً» بضم الكاف والفاء، وقد سهل الهمزة الأعرج^(١) ونافع في رواية، وسكن الفاء حمزة وأبدل الهمزة واواً وفقاً خاصة، وأبدلها حفص واواً مطلقاً، والباقون بالهمزة مطلقاً.

قال القرطبي: وتقدم في البقرة أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان إلا قوله تعالى «اتَّخَذْنَا هِزْواً»^(٢).

وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس^(٣) رضي الله عنهم «كفاء» بالكسر والمد أي لا مثل له، وأنشد للناطقة: [البسيط]

٥٣٥٩ - لَا تَكْذِبْنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ^(٤)

وقرأ نافع في رواية: كِفاً بالكسر وفتح الفاء من غير مد كأنه نقل حركة الهمزة وحذفها.

والكفو النظير كقلوه: هذا كفؤ لك: أي نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

قال ابن الخطيب^(٥): والتحقيق أنه تعالى لما أثبت الأحديّة، والصمديّة، ونفى الوالدية، والمولودية ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يساويه في شيء من صفات الجلال، والعظمة لانفراده سبحانه، وتعالى بوجود الوجود لذاته.

فصل

روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٥٣٧، والبحر المحيط ٨/٥٣٠، والدر المصون ٦/٥٩٠.

(٢) الذي في القرطبي ٢٠/١٦٨: قوله تعالى: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جِزْءاً» [الزخرف: ١٥].

(٣) ينظر السابق.

(٤) صدر بيت وعجزه:

وإن تَأْتِيكَ الْأَغْدَاءُ بِالرُّنْدِ

ينظر الديوان ص ٢٦، والطبري ٣٠/٢٢٤، وإعراب القرآن ٥/٣١١، والبحر المحيط ٨/٥٣٠، وفتح القدير ٥/٥٧٧.

(٥) ينظر الفخر الرازي ٣٢/١٦٩.

ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس بأول الخلق وليس بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»^(١).

فصل في فضائل هذه السورة

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»^(٢) لأن القرآن أنزل ثلاثاً؛ ثلثاً: أحكام. وثلثاً: وعد ووعد. وثلثاً: أسماء وصفات، وجمعت هذه السورة أحد الأثلاث، وهو الأسماء والصفات.

وروى مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه: فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبها»^(٣).

وروى الترمذي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وَجِبَتْ»، قلت: وما وجبت؟ قال: «الجَنَّةُ»^(٤).

وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خَمْسِينَ مَرَّةً غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ»^(٥).

وروى سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَحَدَ عَشْرَةَ مَرَّةً بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا عِشْرِينَ مَرَّةً بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثِينَ مَرَّةً، بَنَى لَهُ بِهَا ثَلَاثَةَ قُصُورٍ فِي الْجَنَّةِ»، فقال عمر بن الخطاب: والله يا رسول الله إذا لُكُثِرَتْ قُصُورُنَا، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «اللَّهُ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ»^(٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري ٦٧٦/٨، في فضائل القرآن: باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٥٠١٣)، (٦٦٤٣)، (٧٣٧٤)، وأخرجه مسلم ٥٥٦/١، في صلاة المسافرين: باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٨١٢)، (٨١١/٢٥٩).

(٣) أخرجه البخاري ٦٧٨/٨، في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات (٥٠١٧).

(٤) أخرجه الترمذي (١٥٤/٥)، كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص رقم (٢٨٩٧)، من حديث أبي هريرة وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) أخرجه الدارمي (٤٦١/٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠٦/٦)، وعزاه إلى أبي يعلى ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٠٩/٦)، وعزاه إلى أبي الشيخ عن ابن عمر وله شاهد من =

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي مَرَضِهِ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ لَمْ يُفْتَنَ فِي قَبْرِهِ، وَأَمِنَ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ، وَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَكْفِهَا، حَتَّى يُجِيزَ الصَّرَاطَ إِلَى الْجَنَّةِ»^(١).

فصل في أسماء هذه السورة

في أسمائها: قال ابن الخطيب^(٢): سورة التفريد، وسورة التجريد، وسورة التوحيد، وسورة الإخلاص، وسورة النجاة، وسورة الولاية، وسورة النسبة، لقولهم: انسب لنا ربك، وسورة المعرفة، وسورة الجمال، وسورة البراءة؛ لأنها تبرئ من النفاق، وسورة الأساس، وسورة المحضر؛ لأن الملائكة تحضر لسماعها، وسورة المانعة، والمنفرة؛ لأنها تنفر الشيطان، وسورة النور، لأنها تنور القلب، والله نور السموات والأرض. والله أعلم.

= حديث معاذ بن أنس ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٨/٧)، وقال: رواه الطبراني وأحمد وفي إسنادهما رشدين بن سعد وزبان وكلاهما ضعيف وفيهما توثيق لين.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢١٣/٢)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع الزوائد» (١٤٨/٧) - (١٤٩). وقال الهيثمي: وفيه نصر بن حماد الوراق وهو متروك.

(٢) ينظر الفخر الرازي ١٦١/٣٢.

سورة الفلق

مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر^(١)، ومدنية في قول ابن عباس، وقتادة^(٢)، وهي خمس آيات، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴿

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. هذه السورة، وسورة «النَّاس»، و «الإخلاص» نزلت على رسول الله ﷺ حين سحرته اليهود، وزعم ابن مسعود أنهما دعاء، وليستا من القرآن، وخالف به الإجماع من الصحابة، وأهل البيت.

قال ابن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين بهما، فقدر أنهما بمنزلة: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ غَيِّ لَآمَةٍ».

قال ابن الأنباري: وهذا مردود على ابن قتيبة؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين؛ المعجز لجميع المخلوقين، و «أُعِيدُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ» من قول البشر، وكلام الخالق الذي هو آية، وحجة لمحمد ﷺ على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين على مثل عبد الله بن مسعود، الفصيح اللسان، العالم باللغة العارف بأجناس الكلام.

وقال بعض الناس: لم يكتب عبد الله المعوذتين؛ لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشك في إتقانه، وحفظه لهما، ورد هذا القول على قائله، واحتج عليه بأنه قد كتب: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ و ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهن يجري المعوذتين في أنهن غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، والنسيان مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣٧٣/٦). (٢) ينظر المصدر السابق.

الصلاة لا تتم إلا بقراءتها، وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور في هذا المعنى مجراها، ولا يسلك به طريقها.

فصل في تفسير السورة

تقدم الكلام على الاستعاذة، و «الفلق»: هو الصبح، وهو فعل بمعنى مفعول، أي: مفلوق، وفي الحديث: «الرؤيا مثل فلق الصُّبح».

قال الشاعر: [البسيط]

٥٣٦٠ - يَا لَيْلَةً لَمْ أَنْمَهَا بِتُ مُرْتَفَقاً أَزْعَى النُّجُومِ إِلَى أَنْ نَوَّرَ الْفَلَقُ^(١)

وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشي: [البسيط]

٥٣٦١ - حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَاقَ هَادِيهِ فِي أَخْرِيَاتِ اللَّيْلِ مُنْتَصِبُ^(٢)

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه.

وقيل: الفلق: الجبال، والصخور، تنفلق بالمياه، أي: تتشقق وقيل: هو التفلق

بين الجبال، لأنها تنشق من خوف الله تعالى.

قال زهير: [البسيط]

٥٣٦٢ - مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَطْتُ أَيْدِي الرُّكَّابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقًا^(٣)

والراكس: بطن الوادي.

وكذلك هو في قول النابغة: [الطويل]

٥٣٦٣ - أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ^(٤)

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البيدر تدور عليه الثيران في الدياسة.

وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان.

وقيل: إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان، والصبح، والحب، والنوى

وكل شيء من نبات وغيره. قاله الحسن وغيره.

(١) ينظر القرطبي ١٧٤/٢٠، والبحر ٨/٥٩١، والدر المصون ٦/٥٩١، وفتح القدير ٨/٥٣٢.

(٢) ينظر ديوان ذي الرمة ص ٩٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٤٠، واللسان (فرق)، والقرطبي ٢٠/١٧٤، والبحر ٨/٥٣٣، والدر المصون ٦/١٧٤.

(٣) ينظر ديوانه ص ٣٧، ومعجم ما استعجم ١/٤٧، والقرطبي ٢٠/١٧٤.

(٤) عجز بيت وصدره:

وَعَيْدُ أَبِي قَابُوسٍ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ

ينظر ديوان النابغة ص ٣٢، وسمط اللآلئ ١/٤٨٩، واللسان (ركس)، والقرطبي ٢٠/١٧٤.

قال الضحاك: الفلق: الخلق كله، قال: [الرجز]

٥٣٦٤ - وَسُوسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقِ سِرّاً وَقَدْ أُوْنَ تَسْأُوْنِ الْعَقَقِ^(١)

قال القرطبي^(٢): «وهذا القول يشهد له الاشتقاق، فإن الفلق: الشَّق، يقال: فلقت الشيء فلْقاً، أي: شققته، والتفليق مثله، يقال: فلقتَه فانفلق وتفلق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق: قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال - عز وجل -: ﴿فَالِقُ الْخَيْبِ وَالَّتَمِيمِ﴾ [الأنعام: ٩].

[والفلق مقطرة السَّمَان، فأما الْفَلَق بالكسر فهو الداهية، والأمر العجيب يقال منه:

أفلق الرجل وافلتق، وشاعر مفلق، وقد جاء بالفلق؛ قال الشاعر: [الرجز]

٥٣٦٥ - وَاَعْجَباً لِهَذِهِ الْفَلَيْقَةِ هَلْ يُذْهِبُنَّ الْقَوِيَاءَ الرِّيقَةَ

وَالْفَلَقُ أيضاً: الفضيب يشق باثنين، فيعمل منه قوسان، يقال لكل منهما: فُلُق، وقولهم: جاء بعلُق فلق وهي الداهية، يقال منه أعلقت وأفلقت. أي جئت بعلُق فلق، ومر يفتلق في عدوه أي بالعجب من شدته^(٣).

قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، متعلق بـ «أعوذ»، والعامية: على إضافة «شر» إلى «ما»، وقرأ^(٤) عمرو بن فايد: «مِنْ شَرِّ» بالتنوين.

وقال ابن عطية^(٥): وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة الذين يرون أن الله لم يخلق الشر: «مِنْ شَرِّ» بالتنوين، «مَا خَلَقَ» على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل انتهى.

ولا يتعين أن تكون «ما» نافية، بل يجوز أن تكون موصولة بدلاً من «شر» على حذف مضاف، أي: من شر شر ما خلق، عمم أولاً، ثم خصص ثانياً.

وقال أبو البقاء^(٦): و «ما» على هذا بدل من «شر»، أو زائدة، ولا يجوز أن تكون نافية؛ لأن النافية لا يتقدم عليها ما في حيزها، فلذلك لم يجز أن يكون التقدير: ما خلق من شر، ثم هو فاسد في المعنى. وهو رد حسن صناعي، ولا يقال: إن «مِنْ شَرِّ» متعلق بـ «أعوذ» وقد أنحى مكي على هذا القائل، ورده بما تقدم. و «ما» مصدرية، أو بمعنى «الذي».

فصل في المقصود بشر ما خلق

روى عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس خاصة؛ لأن الله تعالى لم يخلق أشراً منه،

(١) البيتان لرؤبة بن العجاج. ينظر اللسان (أون) والقرطبي ١٧٤/٢٠.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧٤/٢٠. (٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٥٣٣/٨، والدر المصون ٥٩١/٦.

(٥) المحرر الوجيز ٥٣٨/٥. (٦) الإملاء ٢٩٧/٢.

وَأَنَّ السُّورَةَ^(١) إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي الاستعاذة من السُّحَرِ، وذلك إِنَّمَا يَتَم بِإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ^(٢)، وَقِيلَ: جَهَنَّمَ وَمَا خَلَقَ فِيهَا.

وقيل: عام؛ أي من شر كل ما خلقه الله وقيل: ما خلق الله من الأمراض، والأسقام [والقحط]^(٣) وأنواع المَحَنِ.

قال الجبائي والقاضي^(٤): هذا التقييد باطل؛ لأن فعل الله - تعالى - لا يجوز أن يوصف بأنه شر؛ لأن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمر به، وذلك متناقض؛ لأن أفعاله - تعالى - كلها حكمة وصواب، فلا يجوز أن يقال: شر.

وأيضاً: فلأن فعل الله لو كان شراً؛ لوصف فاعله بأنه شر، وتعالى الله عن ذلك.

والجواب عن الأول: أنه لا امتناع في قوله: أعوذ بك منك، كما رد عن الثاني أن الإنسان لما تألم وصف بالألم كقوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَبَيْتُمْ مَوْتَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَسْئَلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وعن الثالث: أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، ومما يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠].

قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، «إذا» منصوب بـ «أعوذ» أي: أعوذ بالله من هذا في وقت كذا، وكذا.

والغسق: هو أول ظلمة الليل، يقال منه: غسق الليل يغسق، أي: يظلم.

قال ابن قيس الرقيات: [المديد]

٥٣٦٦ - إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وَاشْتَكَيْتَ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا^(٥)

وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم، ووقب على هذا: أظلم^(٦).

وقيل: نزل، قال: وقب العذاب على الكافرين: نزل.

قال: [الكامل]

٥٣٦٧ - وَقَبَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُمْ لِحَقَّتْهُمْ نَارُ السَّمُومِ فَأَخْصِنُوا^(٧)

(١) في أ: الآية. (٢) ينظر تفسير القرطبي (٢٠/ ١٧٥).

(٣) سقط من: ب. (٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٢/ ١٧٧.

(٥) ينظر ذيل ديوان ابن الرقيات ص ١٨٧، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٨، واللسان (غسق)، والقرطبي ٢٠/ ١٧٥.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٤٨ - ٧٤٩)، عن ابن عباس والحسن.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧١٨)، وزاد نسبه إلى ابن المنذر.

(٧) ينظر القرطبي ٢/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٥٣٢، والدر المصون ٦/ ٥٩١، وفتح القدير ٥/ ٥٢٠.

وقال الزجاج: قيل لليل غاسق، لأنه أبرد من النهار، والغاسق: البارد، والغسق: البرد، ولأن في الليل تخرج السُّباع من آجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث، والفساد، فاستعير من الليل.

قال الشاعر: [البسيط]

٥٣٦٨ - يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرْقًا إِذْ جِئْتَنَا طَارِقًا وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا^(١)

أي: أظلم واعتكر، وقيل: الغاسق: الثُّرَيَّا، لأنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ارتفع ذلك. قاله عبد الرحمن بن زيد.

وقال القتيبي: القمر إذا وقب إذا دخل في ساهوره كالغلاف إذا خسف وكل شيء أسود فهو غسق.

وقال قتادة: «إِذَا وَقَبَ»: إذا غاب^(٢).

قال القرطبي^(٣): وهو أصح، لما روى الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»^(٤)، قال: هذا حديث حسن صحيح.

[وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت، وكأن الغاسق نابها لأن السم يغسق منه أي: يسيل، يقال: غسقت العين تغسق غسقاً، إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقاً، لانصباب ظلامه على الأرض، ووقب نابها إذا قامت باللدغ]^(٥).

وقيل: الغاسق: كل هاجم يضر، كائناً ما كان، من قولهم: غسقت القرحة، إذا جرى صديدها.

قال ابن الخطيب^(٦): وعندي فيه وجه آخر، لو أنه صح، أن [القمر في جرمه غير مستنير، بل هو مظلم، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر الشهر والمنجمون يقولون: إنه في آخر الشهر منحوس، قليل القوة؛ لأنه لا يزال نوره بسبب ذلك تزداد نحوسته، فإن السحرة إنما يشتغلون في السحر الموروث، للتمريض في هذا الوقت، وهذا مناسب لسبب نزول السورة، فإنها نزلت؛ لأجل أنهم سحروا النبي ﷺ لأجل التمريض.

(١) ينظر القرطبي ١٧٥/٢٠، والبحر ٥٣٣/٨، والدر ٥٩٢/٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧٥/٢٠). (٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٢١/٥ - ٤٢٢)، كتاب: التفسير، باب: المعوذتين حديث (٣٣٦٦)، من حديث عائشة. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) سقط من: ب. (٦) الفخر الرازي ١٧٨/٣٢.

قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، النفَّاثات: جمع نفّاث، مثال مبالغة من نفث، أي: نفخ، واختلف فيه.

فقال أبو الفضل: شبه النفخ من الفم بالرقية، ولا شيء معه.

قال عنترة: [الوافر]

٥٣٦٩ - فَإِنْ يَبْرَأَ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدُ فَحَقُّ لَهُ الْفُقُودُ^(١)

وقال الزمخشري^(٢): «النفث مع ريق».

وقرأ الحسن^(٣): «النَّفَّاثَات» بضم النون، وهو اسم كالنفثاة. ويعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر وعبد الله بن القاسم: «النافثات»، وهي محتملة لقراءة العامة.

والحسن^(٤) وأبو الربيع: «النفثات» دون ألف كحاذر وحذر، ونكر غاسقاً وحاسداً؛ لأنه قد يتخلف الضرر فيهما؛ فإن التنكير للتبعيض، وعرف النفثات إما للعهد كما يروى في التفسير، وإما للمبالغة في الشر.

فصل في معنى النفَّاثات

قال المفسرون: يعني السَّاحرات اللاتني ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها.

قال أبو عبيدة: النفثات هي بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي ﷺ.

قال الشاعر: [المتقارب]

٥٣٧٠ - أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَا تِ فِي عِضِّهِ الْعَاضِهِ الْمُغْضِهِ^(٥)

وقال متمم بن نويرة: [السريع]

٥٣٧١ - نَفَثْتُ فِي الْخَيْطِ شَبِيهَ الرُّقَى مِنْ خَشْبَةِ الْجِنَّةِ وَالْحَاسِدِ^(٦)

فصل

روى النسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَر، وَمَنْ سَحَر فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وَكَلَّ إِلَيْهِ»^(٧).

(١) ينظر ديوان عنترة (٤٢)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ١٦٢، ومجاز القرآن والقرطبي ٢٠/

١٧٦، والبحر ٨/ ٥٣٢، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٢) الكشف ٤/ ٨٢١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٥٣٣، والدر المصون ٦/ ٥٩٢.

(٥) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٦. (٦) ينظر القرطبي ٢٠/ ١٧٦.

(٧) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢)، من حديث أبي هريرة.

واختلف في النّفث عند الرقي: فمنعه قوم، وأجازه آخرون.
قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث، ولا يمسح، ولا يعقد^(١).
قال إبراهيم: كانوا يكرهون النّفث من الراقي، والصحيح الجواز؛ لأن النبي ﷺ كان ينفث في الرقية.

وروي محمد بن حاطب أن يده احترقت، فأثبت النبي ﷺ، فجعل ينفث عليها، ويتكلم بكلام، وزعم أنه لم يحفظه.

وروي أن قوماً لدغ فيهم رجل، فأتوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا: هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: لا حتى تجعلوا لنا شيئاً، فجعلوا لهم قطعاً من الغنم، فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقي ويتفل حتى يرى، فأخذوها، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ ذكروا ذلك له، فقال: وما يدريكم أنها رقية؟ خذوا واضربوا لي معكم سهماً.

وأما ما روي عن عكرمة فكأنه ذهب فيه إلى أن النّفث في العقد مما يستعاذ به بخلاف النّفث بلا عقد.

قال ابن الخطيب^(٢): هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء، لأنهن يعقدن في الخيط، وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر، وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلّة عملهن، وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى.

قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، الحسد: هو تمنّي زوال نعمة المحسود، وإن لم يصّر للحاسد مثلها، والمنافسة: هي تمنّي مثلها وإن لم تزل من المحسود، وهي الغبطة، فالحسد: شر مذموم، والمنافسة مباحة.

قال ﷺ: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» وقال: «لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»^(٣). يريد الغبطة.

قال ابن عباس وعائشة - رضي الله عنهما -: لما كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ قربت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذوا مشاطة من أثر النبي ﷺ وعدة من أسنانه مشطه، فأعطاه اليهود؛ ليسحروه بها ﷺ وتولى ذلك ابن الأعصم، رجل من اليهود^(٤).

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٧٦/٢٠).

(٢) ينظر الفخر الرازي ١٧٩/٣٢. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الثعلبي من طريق أبي عصمة نوح بن أبي مريم عن زيد العمي عن أبي نضرة عن ابن عباس عن أبي بن كعب به كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٣٣٧/٤ - ٣٣٨).

وأخرجه أيضاً ابن مردويه والواحدي في الوسيط من طريق نوح ونوح بن أبي مريم وضاع مشهور.

فصل في أن الله خلق الخير والشر

هذه السورة دالة على أن الله خلق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور، فقال - عز وجل - : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وذلك خاتمة ذلك الحسد تنبيهاً على عظمته، وكثرة ضرره، والحاسد عدو نعمة الله تعالى .

قال بعض الحكماء : الحاسد بارز ربّه من خمسة أوجه :

أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

وثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت إلي هذه القسمة .

وثالثها : أنه ضاد الله ، أي : أن فضل الله يؤتبه من يشاء ، وهو يخل بفضله الله .

ورابعها : أنه خذل أولياء الله ، أو يريد خذلانهم ، وزوال النعمة عنهم .

وخامسها : أنه أعان عدوه إبليس .

وقيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً ، وغمّاً ، ولا ينال في الآخرة إلا حزنّاً ، واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً .

وروي أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومُكثِرُ الغيبة ، ومن كان في قلبه غلٌّ أو حسدٌ للمسلمين»^(١) .

روى [الشعلبي عن أبي] ^(٢) - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلها» . وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قلت : بلى يا رسول الله ، قال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٣) . والله أعلم .

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧٧/٢٠) .

(٢) في ب : عقبة بن عامر .

(٣) تقدم تخريجه .

سورة الناس

مكية، وهي ست آيات، وعشرون كلمة، وتسعة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦)

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. قرئ^(١): «قُلْ عُوذُ» بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام، ونظيره: ﴿فَخَذَ زُبْعَةً﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأجمع القراء على تلك الإمالة في «النَّاس» إذا كان في موضع الخفض. ومعنى «رَبِّ النَّاسِ» مالِكهم، ومصلح أمورهم، وإنما ذكر أنه «رَبِّ النَّاسِ»، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس معظومون، فأعلم بذكرهم أنه ربُّ لهم وإن عظموا. والثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرِّهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم، وإنما قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلههم، ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به، ويلجأ إليه دون الملوك، والعظماء.

قوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾. يجوز أن يكونا وصفين لـ «رَبِّ النَّاسِ» وأن يكونا بدلين، وأن يكونا عطف بيان.

قال الزمخشري^(٢): فإن قلت: «ملك الناس، إله الناس»؟ ما هما من «رَبِّ النَّاسِ»؟ قلت: هما عطف بيان، كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق، بين بـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثم زيد بياناً بـ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ لأنه قد يقال لغيره: «رَبِّ النَّاسِ»، كقوله: ﴿اتَّخَذُوا

(١) ينظر الكشاف ٨٢٣/٤، والفخر الرازي ١٨١/٣٢. (٢) الكشاف ٨٢٣/٤.

أَعْبَادَهُمْ وَهُمْ كَانَتْهُمْ أَزْكَاءَ بَيْنَ ذُوبِ اللَّهِ [التوبة: ٣١]، وقد يقال: «ملك الناس»، وأما «إله الناس» فخاص لا شركة فيه، فجعل غاية للبيان.

واعترض أبو حيَّان^(١): بأن البيان يكون بالجوامد، ويجاب عنه بأن هذا جار مجرى الجوامد وقد تقدم تقريره في «الرحمن الرحيم» أول الفاتحة.

وقال الزمخشري^(٢): فإن قلت: لم قيل: «برب الناس» مضافاً إليهم خاصة؟.

قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شر الوسواس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الوسواس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم.

قال الزمخشري: «فإن قلت: فهلاً اكتفي بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة؟ قلت: لأن عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار».

وكرر لفظ «الناس»؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار، ولأن التكرار يقتضي مزيد شرف الناس، وأنهم أشرف مخلوقاته.

قال ابن الخطيب^(٣): وإنما بدأ بذكر الرب تعالى، وهم اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل نعمه إلى أن رباه، وأعطاه العقل، فحينئذ عرف بالدليل أنه مملوك وأنه ملك، فثنى بذكر الملك، ثم لما علم أن العبادة لازمة له، وعرف أنه معبود مستحق للعبادة وعرفه أنه إله فلهذا ختم به.

قال ابن الخطيب^(٤): ولم يقرأ في المشهورة هنا «مالك» بالألف، كما قرئ به في الفاتحة، لأن معنى المالك هو الرب، فيلزم التكرار.

وقرئ به في الفاتحة، لاختلاف المضافين، فلا تكرار.

قوله: «مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ».

قال الزمخشري^(٥): «اسم بمعنى الوسوسة، كالزلال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر: فوسواس - بالكسر - «كزلال»، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه، لأنها صنعتها، وشغله الذي هو عاكف عليه، وأريد ذو الوسواس». انتهى، وقد مر الكلام معه أن المكسور مصدر، والمفتوح اسم في «الزلزلة»؛ فليراجع.

والوَسْوَسةُ: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وَسْوَسةً وَوَسْوَسةً - بكسر الواو - قاله القرطبي^(٦).

ويقال لهمس الصائد، والكلاب، وأصوات الحلي: وسواس.

(١) البحر المحيط ٥٣٥/٨.

(٤) السابق ١٨١/٣٢.

(٢) الكشف ٨٢٣/٤.

(٥) الكشف ٨٢٣/٤.

(٣) الفخر الرازي ١٨٠/٣٢.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/٢٠.

قال ذو الرمة: [البسيط]

٥٣٧٢ - قَبَاتٌ يُشِيرُهُ ثَاذٌ وَيُسْهَرُهُ تَذُوبُ الرِّيحِ وَالْوَسْوَاسُ وَالْهَضْبُ^(١)

وقال الأعشى: [البسيط]

٥٣٧٣ - تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاساً إِذَا انْصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عَشْرِقَ رَجُلٍ^(٢)

قوله: «الخنَّاس» أي: الرجَّاع؛ لأنه إذا ذكر الله - تعالى - خنس، وهو مثال مبالغة من الخنوس.

يقال: خنس أي تأخر، يقال: خنسته فخنس، أي أخرته فتأخر، وأخنسته أيضاً. وتقدم الكلام على هذه المادة في سورة: ﴿إِذَا الْتَمَسُ كُورَتْ﴾.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ﴾: يجوز جره نعتاً وبدلاً [وبياناً لجريانه مجرى] الجوامد، ونصبه ورفعاً على القطع.

قال القرطبي^(٣): «ووصف بالخناس؛ لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ بِالْخَنَاسِ﴾ [التكوير: ١٥] يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها».

فصل في الكلام على الشيطان

قال مقاتل: إن الشيطان في سورة خنزير، يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه، سلَّطه الله على ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٤)، وقال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»^(٥) رواه البخاري ومسلم.

قال القرطبي^(٦): «ووسوسته: هو الدعاء إلى طاعته، حتى يصل به إلى القلب، من غير صوت».

قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه بدل من «شر» بإعادة العامل، أي: من شر الجنة.

الثاني: أنه بدل من ذي الوسواس؛ لأن الموسوس من الجن والإنس.

الثالث: أنه حال من الضمير في «يوسوس» حال كونه من هذين الجنسيتين.

الرابع: أنه بدل من «النَّاس» وجعل «مِنْ» تبييناً، وأطلق على الجن اسم النَّاس؛

(١) ينظر ديوانه ١٤٤، واللسان (دسس)، والقرطبي ١٧٨/٢٠.

(٢) ينظر الديوان ص ١٤٤، واللسان (عشرق)، ومجمع البيان ٨٦٨/١٠، والقرطبي ١٧٩/٢٠.

(٣) القرطبي: ١٧٩/٢٠.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧٩/٢٠ - ١٨٠)، عن مقاتل.

(٥) تقدم تخريجه. (٦) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/٢٠).

لأنهم يتحركون في مراداتهم. قاله أبو البقاء^(١)، إلا أنَّ الزمخشري أبطله، فقال بعد أن حكاه^(٢): «واستدلوا بنفر ورجال في سورة «الجن»، وما أحقه لأن الجنَّ سموا جنًّا لاجتنانهم، والناس ناساً لظهورهم من الإناس، وهو الإبصار، كما سموا بشراً، ولو كان يقع الناس على القبيلين، وصح ذلك، وثبت لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن، وبعده عن التصنع، وأجود منه أن يراد بالنَّاس: الناسي، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، ثم يبين بالجنة والناس؛ لأن الثقلين هما النوعان الموصفان بنسيان حق الله عز وجل».

الخامس: أنه بيان لـ ﴿الَّذِي يُوسُّوسُ﴾ على أنَّ الشيطان ضربان: جنِّي، وإنسي، كما قال: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وعن أبي ذر، أنه قال لرجل: هلاً استعذت من شياطين الإنس.

السادس: أن يتعلق بـ «وسوس»، و «مِنْ» لابتداء الغاية، أي: يوسوس في صدورهم من جهة الإنس، ومن جهة الجن.

السابع: أن «الناس» عطف على «الوسواس»، أي: من شر الوسواس والناس، ولا يجوز عطفه على «الجنة»؛ لأنَّ النَّاس لا يوسوسون في صدور النَّاس، إنما يوسوس الجن، فلما استحال المعنى حمل على العطف على الوسواس، قاله مكي.

الثامن: أن «مِنْ الْجَنَّةِ»، حال من «النَّاس»، أي: كائنين من القبيلين، قاله أبو البقاء^(٣)، ولم يبين أي الناس المتقدم أنه صاحب الحال، وعلى كل تقدير فلا يصح معنى الحالية في شيء منها، لا الأول، ولا ما بعده، ثم قال: «وقيل: هو معطوف على الجنة»، يريد: «والنَّاس» الأخير معطوف على الجنة، وهذا الكلام يستدعي تقدير شيء قبله وهو أن يكون الناس عطفاً على غير الجنة؛ وفي الجملة فهو كلام يتسامح فيه.

فصل في شياطين الإنس والجن

قال الحسن: هما شيطانان لنا: أما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية^(٤).

وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإنَّ من الإنس شياطين فتعوذ بالله من شياطين الجن والإنس^(٥).

وعن أبي ذر: أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٨٢٤.

(١) الإملاء ٢/ ٢٩٨.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٠).

(٣) الإملاء: ٢/ ٢٩٨.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٧٢٢)، وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر.

قال : أو من الإنس شياطين؟ قال : نعم ، لقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(١) [الأنعام : ١١٢] .

وزهب قوم : أن المراد بالناس هنا الجن ، سموا بذلك ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن : ٦] ، وكما سموا نفراً في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

فعلى هذا يكون «الناس» عطفاً على «الجنة» ، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين .
وقيل : معنى : ﴿مِنَ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ ، أي : الوسوسة التي تكون من الجنة والناس ، وهو حديث النفس .

قال النبي ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - تَجَاوَزَ لَأَمْتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ بِهِ»^(٢) . والله أعلم .

[نَم]

(١) تقدم في سورة الأنعام .

(٢) تقدم تخريجه .

فهرس محتويات
الجزء العشرين
من
اللباب

فهرس المحتويات

سورة الإنسان

٣	 الآيات : ١ - ٣
٥	 فصل في المراد بالإنسان المذكور في الآية : «هل أتى على الإنسان...»
٦	 فصل في تفسير الآية : «لم يكن شيئاً مذكوراً»
٩	 فصل في تفسير قوله تعالى : «نبئنيه»
١٠	 فصل في أن العقل متأخر عن الحواس
١٢	 فصل في الكلام على الآية : «إما شاكراً وإما كفوراً»
١٣	 فصل في جمعه تعالى بين الشاكر والكفور
١٣	 الآيات : ٤ - ٢٢
١٥	 فصل في معنى قوله : «إنّا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً»
٧١	 فصل في السبب في ذكر الكافور في الآية : «كان مزاجها كافوراً»
١٩	 فصل في المراد بعباد الله ها هنا «يشرب بها عباد الله»
٢٠	 فصل في معنى الآية : «يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً»
٢١	 فصل في المراد بالإيفاء بالنذر
٢١	 فصل في زيادة «كان»
٢٣	 فصل في الكلام على الآية : «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً»
٢٤	 فصل في الإحسان إلى الغير
٢٥	 فصل في الشكور والكفور
٣١	 فصل في معنى الآية : «ودانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلاً»
٣٢	 فصل في تذليل قطوف الجنة
٣٥	 فصل في وصف تربة الجنة

٣٨	فصل في بيان الخطاب لمن؟!
٤٠	فصل في المراد بقوله: «يطوف عليهم مولدان مخلصون...»
٤١	فصل في أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة
٤١	فصل في المقصود بقوله: «وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً»
٤٤	فصل في الضمير في عاليهم
٤٦	فصل في المراد بالأساور
٤٨	فصل في الكلام على الآية: «إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً»
٤٩	الآيات: ٢٣ - ٢٦
٥٠	فصل في مناسبة اتصال الآية بما قبلها
٥١	فصل في معنى الآية: «فاصبر لحكم ربك...»
٥٣	الآيات: ٢٧ - ٣١
٥٤	فصل في معنى الأسر
٥٥	فصل في نظم الآية: «وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً»
٥٦	فصل في قول الجبرية

سورة المرسلات

٥٩	الآيات: ١ - ٧
٦٠	فصل في المراد بالمرسلات
٦٤	فصل في معنى الآية: «عذراً أو نذراً»
	فصل في المراد بهذه الكلمات الخمس: والمرسلات، فالعاصفات، والناشرات، فالفارقات، فالملقيات
٦٤	
٦٦	فصل في وجه دخول الفاء والواو في جواب القسم
٦٧	فصل في الموعود به
٦٧	الآيات: ٨ - ١٩
٦٩	فصل في المراد بالتأقيت
٦٩	فصل في قراءات الآية: «وإذا الرسل أقتت»
٧٠	فصل في المراد بيوم الفصل
٧١	فصل في تفسير الآية: «ويلّ يومئذ للمكذّبين»

٧٢	فصل في المراد بالآية
٧٣	الآيات : ٢٠ - ٢٤
	الآيات : ٢٥ - ٢٨
٧٧	الآيات : ٢٩ - ٣٤
٧٧	فصل في كيفية عذاب الكفار في الآخرة
٨١	فصل في المراد بالقصر
٨٢	الآيات : ٣٥ - ٣٧
٨٣	فصل في تخويف الكفار
٨٤	الآيات : ٣٨ - ٤٠
٨٥	الآيات : ٤١ - ٥٠
٨٦	فصل في الكلام على الآية : «كلوا واشربوا...»
٨٦	فصل فيمن قال : العمل يوجب الثواب
٨٧	فصل في وجوب الركوع
٨٨	فصل في المراد بالآية : «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون»
٨٨	فصل في أن الأمر للوجوب
٨٨	فصل في الكلام على الآية : «فبأي حديث بعده يؤمنون»

سورة النبأ

٩٠	الآيات : ١ - ٣
٩١	فصل في لفظ «عم»
٩١	فصل في أن السائل والمجيب هو الله تعالى
٩١	فصل في لفظ «ما»
٩٢	فصل في نزول الآية : «عم يتساءلون»
٩٣	فصل في المراد بهذا النبأ
٩٤	الآيات : ٤ - ١٦
٩٤	فصل في لفظ «كلا»
١٠٠	الآيات : ١٧ - ٢٠
١٠٠	فصل في النفخة الآخرة

الآيات : ٢١ - ٣٠	١٠٣
فصل في دلالة الآية على أن جهنم كانت مخلوقة	١٠٤
فصل في تحرير معنى الآية : «لابئين فيها أحقاباً»	١٠٥
فصل في معنى هذا البرد	١٠٦
فصل في المراد بالإحصاء	١١١
فصل في الالتفات في هذه الآية : «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً»	١١٢
الآيات : ٣١ - ٣٧	١١٢
فصل في أن الله عدل في عقابه	١١٧
الآيات : ٣٨ - ٤٠	١١٧
فصل في المراد بالروح	١١٧
فصل في المراد بـ «المرء»	١١٩
فصل في نزول هذه الآية : «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه»	٢١٠

سورة النازعات

الآيات : ١ - ٥	١٢١
فصل في المراد بالنازعات	١٢١
فصل في المراد بالناشطات	١٢٣
فصل في تدبير الملائكة	١٢٦
الآيات : ٦ - ١٤	١٢٧
فصل في تفسير الآية : «يوم ترجف الراجفة»	١٢٨
فصل في تفسير الآية : «فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة»	١٣١
الآيات : ١٥ - ٢٦	١٣٥
فصل في تفسير الآية : «هل لك إلى أن تزكى»	١٣٧
فصل في تمسك المعتزلة بهذه الآية	١٣٧
فصل في تفسير الآخرة والأولى	١٤٠
الآيات : ٢٧ - ٣٣	١٤١
فصل في الكلام على هذه الآية : «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها»	١٤٢
فصل فيمن استدل بالآية على أن السماء كرة	١٥٢

١٤٤	فصل في معنى الآية: «والأرض بعد ذلك دحاها»
١٤٦	الآيات: ٣٤ - ٤١
١٤٩	الآيات: ٤٢ - ٤٦
.....	فصل في معنى الآية: «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها»

سورة عبس

١٥٢	الآيات: ١ - ١٠
١٥٢	فصل في سبب نزول الآية: «عبسى وتولى»
١٥٣	فصل في معاتبة الله تعالى رسوله
١٥٥	فصل فيمن استدل بالآية على جواز صدور الذنوب من الأنبياء
١٥٥	فصل في تحرير الضمير في قوله: «لعله»
١٥٧	فصل في معنى الآية: «فأنت له تصدى»
١٥٨	الآيات: ١١ - ١٦
١٥٨	فصل في كيفية اتصال هذه الآية: «فمن شاء ذكره» بما قبلها
١٥٩	فصل في أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين
١٦٠	فصل في المراد بالسفرة
١٦٠	الآيات: ١٧ - ٢٣
١٦٢	فصل في تفسير الآية: «ثم أماته فأقبره»
١٦٤	الآيات: ٢٤ - ٣٢
١٦٦	فصل في المراد بصبّ الماء
١٦٩	الآيات: ٣٣ - ٤٢
١٧٠	فصل في تعلق الآية: «فإذا جاءت الصاخة» بما قبلها
١٧١	فصل في معنى الآية: «يوم يفرّ المرء من أخيه»

سورة التكوير

١٧٤	الآيات: ١ - ١٤
١٧٤	فصل في تفسير معنى التكوير
١٨٠	فصل في المراد بالآية: «وإذا النفوس زوجت»
١٨٢	فصل في وأد أهل الجاهلية لبناتهم

١٨٣	فصل في معنى الآية: «وإذا الموءودة سئلت»
١٨٥	الآيات: ١٥ - ٢٥
١٨٩	فصل فيمن استدل بالآية على تفضيل جبريل على سيدنا محمد
١٩١	فصل في الكلام على الآية: «وما هو بقول شيطان رجيم»
١٩١	الآيات: ٢٦ - ٢٩
١٩٢	فصل في تفسير الآية: «فأين تذهبون»
١٩٢	فصل في تفسير الآية: «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين»

سورة الانقطار

١٩٤	الآيات: ١ - ٥
١٩٥	فصل في المراد ببعثرة القبور
١٩٥	الآيات: ٦ - ٨
١٩٦	فصل في مناسبة الآية: «يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم» لما قبلها
١٩٦	فصل في نزول هذه الآية
١٩٧	فصل في غرور ابن آدم
٢٠٠	الآيات: ٩ - ١٢
٢٠١	فصل في الرد على من طعن في حضور الكرام الكاتبين
٢٠١	فصل في عموم الخطاب
٢٠٢	فصل في أن الكفار هل عليهم حفظة؟
٢٠٢	فصل في معرفة الملائكة هم الإنسان
٢٠٢	فصل في أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم
٢٠٢	الآيات: ١٣ - ١٩
٢٠٣	فصل في ذكر أحوال العالمين
٢٠٤	فصل فيمن استدل بالآية على نفي الشفاعة عن العصاة

سورة المطففين

٢٠٥	الآيات: ١ - ٦
٢٠٦	فصل في تعلق هذه السورة بما قبلها
٢٠٦	فصل في نزول الآية: «ويل للمطففين»

٢٠٩	فصل في تفسير الآية: «الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون»
٢١٠	فصل في المراد بقيام الناس لرب العالمين
٢١٠	فصل في الكلام على لفظ المطفف
٢١٠	الآيات: ٧ - ٩
٢١٢	فصل في تفسير معنى سجين
٢١٣	الآيات: ١٠ - ١٧
٢١٤	فصل في المراد بالمكذب في الآية
٢١٥	فصل في المراد بالزین والإقفال والطبع
٢١٦	فصل في حجب الكفار عن رؤية ربهم
٢١٧	الآيات: ١٨ - ٢٦
٢٢٢	فصل في المراد بالتسنيم
٢٢٢	فصل في معنى التسنيم

سورة الانشقاق

٢٢٦	الآيات: ١ - ٥
٢٢٨	فصل في المراد بانشقاق السماء
٢٣٠	الآيات: ٦ - ١٥
٢٣٠	فصل في المراد بالكدح
٢٣١	فصل في معنى الآية: «كادح إلى ربك»
٢٣٤	الآيات: ١٦ - ٢٥
٢٣٧	فصل في معنى الآية: «والليل وما وسق»
٢٤٠	فصل في حدوث العالم
٢٤١	فصل في الكلام على الآية: «فما لهم لا يؤمنون»

سورة البروج

٢٤٤	الآيات: ١ - ٩
٢٤٨	فصل في نزول هذه السورة
٢٥٠	فصل في المراد بأصحاب الأخدود
٢٥٠	فصل في المقصود من هذه الآية: «قتل أصحاب الأخدود»

٢٥٣	 الآيات: ١٠ - ١٦
٢٥٥	 فصل في أن الآية: «فعال لما يريد» دلت على خلق الأفعال
٢٥٥	 فصل في تفسير الآية: «فعال لما يريد»
٢٥٦	 الآيات: ١٧ - ٢٢

سورة الطارق

٢٥٩	 الآيات: ١ - ٤
٢٦١	 فصل في المراد بالحافظ
٢٦٢	 الآيات: ٥ - ١٠
٢٦٧	 الآيات: ١١ - ١٧

سورة الأعلى

٢٧٢	 الآيات: ١ - ٥
٢٧٣	 فصل فيمن استدل بالآية على أن الاسم نفس المسمى
٢٧٣	 فصل في تفسير الآية: «سَبَّح اسم ربك الأعلى»
٢٧٥	 فصل في معنى الآية: «والذي قَدَّرْ فهدى»
٢٧٨	 الآيات: ٦ - ٨
٢٨٠	 فصل في كيفية تعليم القرآن
٢٨٠	 فصل في الدلالة على المعجزة
٢٨٠	 فصل في المراد بالآية: «إلا ما شاء الله»
٢٨١	 فصل في الكلام على «ما»
٢٨٢	 الآيات: ٩ - ١٥
٢٨٢	 فصل في فائدة هذا الشرط
٢٨٦	 الآيات: ١٦ - ١٩

سورة الغاشية

٢٨٩	 الآيات: ١ - ٧
٢٩٠	 فصل في تفسير الآية: «وجوه يومئذ خاشعة»
٢٩٢	 فصل في معنى الآية: «تصلى ناراً حامية»

٢٩٦	فصل في المراد بالآية: «ليس لهم طعام إلا من ضريع»
٢٩٦	الآيات: ٨ - ١٦
٢٩٩	الآيات: ١٧ - ٢٠
٣٠١	فصل في الكلام على الإبل
٣٠٣	الآيات: ٢١ - ٢٤
٣٠٤	الآيتان: ٢٥، ٢٦

سورة الفجر

٣٠٧	الآيات: ١ - ٥
٣١٠	فصل في المراد بالعشر
٣١١	فصل في الشفع والوتر
٣١٥	الآيات: ٦ - ١٤
٣١٧	فصل في الكلام على إرم وعاد
٣١٩	فصل في الضمير في «مثلها»
٣٢٠	فصل في إجمال القول في الكفار
٣٢١	فصل في تفسير الآية: «وئمود الذين جابوا الصخر بالواد»
٣٢٤	فصل في معنى «المرصاد»
٣٢٤	الآيتان: ١٥، ١٦
٣٢٥	فصل في المراد بالإنسان
٣٢٦	فصل في الكلام على أكرمن وأهانن
٣٢٧	الآيات: ١٧ - ٢٠
٣٢٨	فصل فيمن نزلت هذه الآية: «ولا تحاضون على طعام المسكين»
٣٢٨	فصل في ترك إكرام اليتيم
٣٣٠	الآيات: ٢١ - ٢٦
٣٣١	فصل في معنى الآية: «وجيء يومئذ بجهنم...»
٣٣٢	فصل في شبهة للمعتزلة والرد عليها
٣٣٤	الآيات: ٢٧ - ٣٠
٣٣٥	فصل في الكلام على الآية: «يا أيها النفس المطمئنة»

٣٣٥	فصل في مجيء الأمر بمعنى الخبر
٣٣٦	فصل في فضل هذه الآية: «يا أيتها النفس المطمئنة»
٣٣٦	فصل في المراد بالجنة ها هنا

سورة البلد

٣٣٨	الآيات: ١ - ١٠
٣٣٩	فصل في المراد بهذا البلد
٣٤٠	فصل في تفسير «وأنت حلٌّ»
٣٤٠	فصل في الكلام على الآية: «لا أقسم بهذا البلد»
٣٤٢	فصل في المراد بـ «الإنسان»
٣٤٦	الآيات: ١١ - ٢٠
٣٤٧	فصل في معنى الآية: «فلا اقتحم العقبة»
٣٤٨	فصل في الاستفهام في الآية
٣٤٩	فصل في الفرق بين الفك والرق
٣٤٩	فصل في أن العتق أفضل من الصدقة
٣٥٠	فصل في معنى قوله: «أو إطعام في يومٍ ذي مسغبة»
٣٥٠	فصل في أن المسكين قد يملك شيئاً

سورة الشمس

٣٥٤	الآيات: ١ - ١٠
٣٥٥	فصل في تفسير الآية: «والشمس وضحاها»
٣٦٣	الآيات: ١١ - ١٥
٣٦٥	فصل في معنى الآية: «إذ انبعث أشقاها»

سورة الليل

٣٦٨	الآيات: ١ - ٤
٣٧٠	فصل في المراد بالذكر والأنثى
٣٧١	فصل في معنى الآية: «إن سعيكم لشتى»
٣٧١	الآيات: ٥ - ١١

٣٧٢	فصل في المراد بالإعطاء
٣٧٣	فصل في اليسرى والعسرى
٣٧٤	الآيات: ١٢ - ٢١
٣٧٤	فصل في معنى قوله: «إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى»
٣٧٥	فصل في معنى الآية: «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى»
٣٧٦	فصل في المراد بـ «الْأَشْقَى»
٣٧٨	فصل في سبب نزول الآية: «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى»

سورة الضحى

٣٨٠	الآيات: ١ - ٥
٣٨١	فصل في تقديم الضحى
٣٨٢	فصل في ذكر الضحى والليل
٣٨٣	فصل في «القللى»
٣٨٤	فصل في سبب نزول الآية: «والضحى والليل إذا سجى»
٣٨٦	فصل في معنى قوله: «وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى»
٣٨٧	فصل في الكلام على انقطاع الوحي
٣٨٧	الآيات: ٦ - ١١
٣٨٨	فصل في معنى الآية: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا»
٣٨٨	فصل في جواب سؤال
٣٩٣	فصل في دلالة الآية: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ» على اللطف باليتيم
	فصل: الحكمة في أن الله تعالى اختار لنبيه اليتيم، أنه عرف حرارة اليتيم،
٣٩٣	فيرفق باليتيم

سورة «ألم نشرح»

٣٩٦	الآيات: ١ - ٨
٣٩٩	فصل فيمن اعتبر «والضحى» و «ألم نشرح» سورة واحدة
٤٠٢	فصل في تعلق هذه الآية «فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» بما قبلها

سورة التين

٤٠٥	الآيات: ١ - ٨
-----	---------------------

- فصل في معنى الآية: «والتين والزيتون وطور سينين» ٤٠٨
- فصل في المراد بـ «أسفل سافلين» ٤٠٩

سورة العلق

- الآيات: ١ - ٥ ٤١٢
- فصل في أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن ٤١٣
- فصل في معنى هذه الآية: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» ٤١٤
- الآيات: ٦ - ١٩ ٤١٧
- فصل في نزول الآية: «أن رآه استغنى» ٤١٨
- فصل في تفسير الآية: «أرأيت الذي ينهى» ٤٢٠
- فصل في معنى الآية: «ناصية كاذبة خاطئة» ٤٢٢
- فصل في المراد بالزبانية ٤٢٤

سورة المقدر

- الآيات: ١ - ٥ ٤٢٦
- فصل في معنى الآية: «سلام هي حتى مطلع الفجر» ٤٢٩
- فصل في تعيين ليلة القدر ٤٣١
- فصل في أحكام تتعلق بليلة القدر ٤٣٢

سورة البينة

- الآيات: ٢ - ٣ ٤٣٤
- فصل في معنى الآية: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب» ٤٣٤
- فصل في المراد بأهل الكتاب ٤٣٥
- الآيتان: ٤، ٥ ٤٣٩
- فصل في معنى الآية: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله» ٤٤٠
- الآيات: ٦ - ٨ ٤٤١

سورة الزلزلة

- الآيات: ١ - ٥ ٤٤٤

٤٤٤	فصل في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة
٤٤٥	فصل في معنى الزلزلة
٤٤٦	فصل في معنى الآية : «يومئذ تحدث أخبارها»
٤٤٩	الآيات : ٦ - ٨
٤٥١	فصل في قراءة «يره»
	فصل في الكلام على هذه الآية : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل
٤٥٢	مثقال ذرة شراً يره»

سورة العاديات

٤٥٤	الآيات : ١ - ٥
٤٥٦	فصل في هذا القسم «فالعاديات ضبحاً»
٤٥٧	فصل في معنى الموريات
٤٦٣	فصل في معنى الآية : «فوسطن به جمعاً»
٤٦٣	الآيات : ٦ - ٨
٤٦٦	الآيات : ٩ - ١١
٤٦٧	فصل في معنى الآية : «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور»

سورة القارعة

٤٦٩	الآيات : ١ - ٥
-----	----------------------

سورة التكاثر

٤٧٥	الآيات : ١ - ٨
٤٧٧	فصل في معنى ألهاكم
٤٧٧	فصل في ذكر المقابر
٤٧٨	فصل في آداب زيارة القبور
٤٧٩	فصل في تفسير الآية : «كلا سوف تعلمون»
٤٨٠	فصل في المراد باليقين
٤٨١	فصل في معنى الآية : «لترون الجحيم»

سورة العصر

- الآيات: ١ - ٣ ٤٨٣
فصل في معنى الآية: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسِرٍ» ٤٨٥

سورة الهمزة

- الآيات: ١ - ٣ ٤٨٨
فصل فيمن نزلت فيه السورة ٤٩٠
فصل في نظم الآية: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هَمَزَةٍ لَمَزَةٍ» ٤٩٠
فصل في معنى جمع المال ٤٩١
الآيات: ٤ - ٩ ٤٩٢
فصل في معنى الآية: «إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ» ٤٩٥

سورة الفيل

- الآيات: ١ - ٥ ٤٩٦
فصل في معنى الآية: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» ٤٩٦
فصل في لفظ الفيل ٤٩٦
فصل في نزول السورة ٤٩٧
فصل في ميلاد النبي ﷺ ٤٩٨
فصل في أن قصة الفيل من معجزات النبي ﷺ ٤٩٩
فصل في لفظ «أبَابِيل» ٥٠٠

سورة قريش

- الآيات: ١ - ٤ ٥٠٣
فصل في اتصال السورة بما قبلها ٥٠٥
فصل في الكلام على قريش ٥٠٦
فصل في معنى الآية: «إِيْلَافَهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ» ٥٠٨
فصل في الشتاء والصيف ٥٠٩
فصل في مكانة قريش ٥١٠

سورة «الدين» وتسمى «الماعون»

٥١١	 الآيات : ١ - ٣
٥١٢	 فصل فيمن نزلت فيه السورة
٥١٣	 فصل في معنى الآية : «أرأيت الذي يكذب بالدين»
٥١٣	 فصل في معنى الآية : «فذلك الذي يدعُ اليتيم»
٥١٤	 الآيات : ٤ - ٧
٥١٥	 فصل في اتصال هذه الآية : «الذين هم يراءون» بما قبلها
٥١٥	 فصل في المراد بالمرائي في الصلاة
٥١٦	 فصل في معنى قوله : «عن صلاتهم ساهون»
٥١٧	 فصل في الرياء
٥١٨	 فصل في تفسير الماعون

سورة الكوثر

٥١٩	 الآيات : ١ - ٣
٥٢٠	 فصل في المراد بالكوثر
٥٢١	 فصل في الكلام على هذه السورة
٥٢٢	 فصل في معنى قوله : «فصلٌ لربك وانحر»
٥٢٤	 فصل في أقوال العلماء في الآية : «إنَّ شاتلك هو الأبتَر»
٥٢٤	 فصل في المعاني التي احتوتها هذه السورة

سورة الكافرون

٥٢٧	 الآيات : ١ - ٦
٥٣١	 فصل في الكلام على «يا»
٥٣١	 فصل في التكرار في الآية
٥٣٥٥	 فصل في معنى التهديد

سورة النصر

٥٣٧	 الآيات : ١ - ٣
٥٣٧	 فصل في الكلام على «نصر»

٥٣٨	فصل في الفرق بين النصر والفتح
٥٣٨	فصل في المراد بهذا النصر
٥٤٠	فصل في الكلام على لفظ الناس
٥٤١	فصل في المراد بدين الله
٥٤١	فصل في إيمان المقلد
٥٤٢	فصل في معنى الآية: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ»
٥٤٣	فصل: ماذا يغفر للنبي ﷺ حين يؤمر بالاستغفار؟
٥٤٤	فصل في تفسير الآية: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»
٥٤٦	فصل في نزول السورة
٥٤٦	فصل في دلالة هذه السورة على نعي رسول الله ﷺ

سورة تبت

٥٤٨	الآيات: ١ - ٥
٥٥٠	فصل في نزول الآية: «تبت يدا أبي لهب وتب»
٥٥٠	فصل في نزول السورة
٥٥٢	فصل في تفسير التَّب
٥٥٢	فصل في ترجمة أبي لهب
٥٥٣	فصل في معنى الآية: «ما أغنى عنه ماله وما كسب»
٥٥٧	فصل في الإخبار عن الغيب
٥٥٨	فصل في جواز تكليف ما لا يطاق

سورة الإخلاص

٥٥٩	الآيات: ١ - ٤
٥٦١	فصل في لفظ أحد
٥٦٢	فصل في الرد على من أسقط «قل هو»
٥٦٣	فصل في الكلام على الآية: «ولم يكن له كفواً أحد»
٥٦٥	فصل في قراءات «كفواً»
٥٦٦	فصل في فضائل هذه السورة
٥٦٧	فصل في أسماء هذه السورة

سورة الفلق

٥٦٨		الآيات : ١ - ٥
٥٦٩		فصل في تفسير السورة
٥٧٠		فصل في المقصود بشر ما خلق
٥٧٣		فصل في معنى النقّات
٥٧٥		فصل في أن الله خلق الخير والشر

سورة الناس

٥٧٦		الآيات : ١ - ٦
٥٧٨		فصل في الكلام على الشيطان
٥٧٩		فصل في شياطين الإنس والجن

